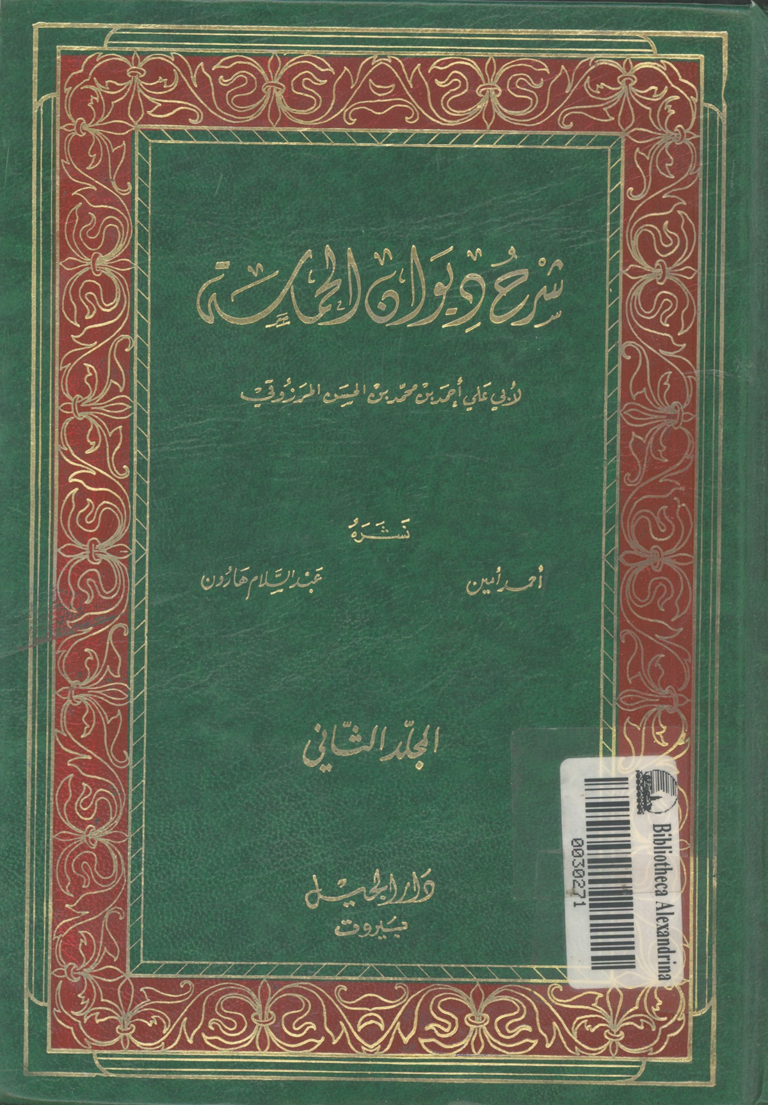

شرح ديوان الحماسة
لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
نشره
أحمد أمين
عبد السلام هارون
المجلد الثاني
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0030271



شرح ديوان الحماسة

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

ـــ - ٤٢١

نشره

أحمد أمين　　　عبد السلام هارون

القسم الثالث

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

الجزء الثانى

من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمام الطائى

المعروف بكتاب الحماسة

صنعة

الشيخ الإمام أبى على أحمد بن محمد بن الحسن

المرزوقى الإصفهانى

٠٠٠ – ٤٢١



٣٥٣

وقال حَرّان بن عَمْرو بن عَبْدِ مَنَاةَ[١] ،

يرثى زيد الفوارس[٢] وغيرَه من أبناء عُمومته :

١ — تَبْكِى على بَكْرٍ شربتُ بِهِ ... سَفَهًا تبَكِّيها عَلَى بَكْرِ

٢ — هَلَّا عَلَى زيدِ الفوارسِ زَيْـ ... ـدِ اللّاتِ أو هَلَّا على عَمْرِو

٣ — تَبْكِين لا رَقَأتْ دُمُوعُكِ أوْ ... هَلَّا على سَلَفَىْ بنى نَصْرِ

هذه امرأة ضايقت الشاعر — وهى من بطائنه[٣] — فى بَكرٍ باعَهُ واشترى بثَمَنه خَمْرًا ، فبكت ، فأخذ يذكُر حالها ويُنكر بكاءها ، فقال : تبكى هذه المرأةُ على بَكرٍ شربتُ به ، أى شربتُ خمرًا سبأتُ بثمنه . ويروى « شَرَيْتُ به » ، ويكون أظهر .

ثم قال ، بعد أن أخبَرَ عنها بما أخبر ، كالمتلفت إلى إنسانٍ بحضرته : سَفَهًا تبكِّيها على بَكر . فانتصب سفهًا على المصدر ، وهو المفعول له . وتبكّيها فى موضع رفع بالابتداء ، وعَلَى بكر فى موضع الخبر ، أى لسفهها فَعَلَتْ ذلك ، لأنّه لم يبلغ

(١) كذا ورد اسمه فى النسختين . وفى المبهج ٤٦ والتبريزى : « حزاز بن عمرو ، أخو بنى عبد مناة » . وقال ابن جنى : « حزاز : جمع حزازة ، وهى هبرية الرأس ، وهو ما ينتثر منه كالنخالة إذا سرحته » . ويبدو أنه شاعر جاهلى .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٠ ص ٥٥٧ .

(٣) جمع بطانة . وفى ل : « بطانته » .

من قدر بَكْرٍ ما تكلّفته . ولو روى : سَفَهٌ تبكّيها على بكر، فجُعِل التبكّى هو السّفه لم يمتنع ، وكان خبرًا مقدّمًا ، وعلى بكرٍ يكون لغوا .

وقوله « هَلّا على زيدِ الفوارس » إلى آخر البيت ، هَلاّ حرف تحضيض وهو يطلب الفعل ، وذلك الفعل هو تبكين . يخاطبها ، أى هَلّا تبكين على هؤلاء الجبال التى انهدّت ، والبُحورِ التى غاضت بزيد الفوارس أو عمرو . ثمّ دعا عليها فقال : لا أرقأ اللهُ دمعَك ، أمْ هلّا تبكين على سَلَفَىْ بنى نصر . وإنّما ثنّى السّلَف لأنّه أراد العمومة والخُؤولة .

٤ — خَلَّوْا عَلَىَّ الدّهْرَ بعدَهُمُ فبقِيتُ كالمنصوبِ للدّهْرِ

٥ — إنّ الرّزيئةَ ما أولاكِ إذا هَـزَّ المُخَالِعُ أقدُحَ اليَسْرِ[1]

٦ — أهْلُ الحُلومِ إذا الحلومُ هَفَتْ والعُرْفِ فى الأقوامِ والنُّكْرِ

يقول : مضوْا لسبيلهم ، وانتقلوا إلى جوارِ مَنْ هو أملكُ بهم ، وتركوا أعباء الدّهرِ على ظهرى ، فهى تثقُل علىّ وتعرّضنى لنوائبه وأحداثه ، فأنا كالغرض المنصوب له ، ليس لى من يتحمّل عنّى ، ولا من يؤازِرُنى أو يشدُّ أزرى . ومعنى « خَلَّوْا علىّ الدّهر » أى صرتُ فريسةً للدّهر ، فكأنّهم هم الذين أغروْه بى لمّا ذهبوا عنّى وأفردونى . وهذه اللّفظةُ تُستعمَل فى إغراء الجوارح على الصّيد .

وقوله « إنّ الرزيئة ما أولاكِ » إلى آخر البيت ، يريد : المصيبة كلُّ المصيبةِ هم أولاك إذا اشتدّ الزّمان وأسْنَتَ النّاس ، واحتِيج إلى مجامِع الأيسارِ ، لإصلاح أمر الفقراء والأيتام ، فلم يُوجَدْ من يُرجَع إليه أو يُعتَمَدُ على إفضالِه وتفقدِه . وقوله « ما أولاك » ما صِلةٌ . ومعنى هَزَّ أجالَ . والمخالِعُ : المقامر .

(١) التبريزى : « هر » بالراء المهملة . وقال : « ورواية من روى هر بالراء أجود من رواية من روى : هز ، لأنها أبلغ فى الملح » .

والخالمةُ : القِمار . وقيل إنّما سُمّىَ مخالِعاً لأنّه هو المولع باليَسْر ، فهو الذى يَخلع مالَ غيره وينخلع هو أيضاً من ماله ، مُنافسةً وحِرصا على الميسِر واكتساب الحمد فيه وله . وقوله « إذَا هزّ » هو ظرف لما دل عليه « ما أولاك » . يريد أنّ الرّزيئة افتقارُ النّاس إلى أولئك فى مثل هذا الوقت فلا يُنالون . وقوله « أهل الحلوم إذا الحلوم هَفَت » يصفُهم بالرّزانة فيقول : إذا دَهِمَ من الأمر ما تهفو فيه العُقول وتزِلُّ فيه الأقدام ، فهؤلاء لأصالة آرائهم يثبتون عند المزاولة ، ويُداوون الأمورَ بدوائها من غير طَيشٍ ولا سَفَهٍ ، ولا تجاوُزِ حَدٍّ وعَنَت . وقوله « والعُرْف فى الأقوام » أراد : وهم أهل العُرْف والنُّكر فى الأقوام . يعنى أنّهم يُنزِلون الأقوامَ منازِلَهم من المُوالاة والمُداجاة ، فمن دَاجَى كان له النُّكر منهم ، ومن وَالَى كان له العُرْف .

٣٥٤

وقال زُوَيفِر[١] بن الحارث بن ضِرَار :

١ — أَلَمْ تَرَ أنّى يومَ فارقتُ مُؤثِرًا أتانى صَرِيخُ الموت لو أنّهُ قَتَلْ[٢]

يروَى « صريخُ الموت » بالخاء المعجمة « لو أنه قَبِل » بالباء . ومعنى ألم تَرَ : اعلَمْ ذلك . ألا ترى قولَه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيل ﴾ . والنبى عليه السلام لم يَرَ ذلك . فيقول : اعلَمْ أنى يوم فارقتُ هذا الرجلَ وَرَدَ علىّ ما يجرى مجرى الموت الصريح الخالص لو أنّه قتلَنى وأتَى علىّ ، ولكنّ القدَرَ ثبّتَ قدمى فى الأحياء ، فلم يُخَلِّنى للموت . ومن رَوَى « صريخ » بالخاء و « قَبِل » بالباء فالمراد : أتانى داعى الموت . والصَّريخ يكون للستغيث

(١) التبريزى : « زويهر » .
(٢) صريح ، كتبت فى الأصل لتقرأ بالمهملة والمعجمة ، مقرونة بكلمة « معاً » .

والمُغيث جميعاً ، والمراد أتانى داعى الموت لو أنّه قَبِلنى لَكُنتُ لا أمتنع من إجابته لمّا استَدعَى ، وإغاثته لمّا استغاث ، لكنه لمّا بَقّانى ولم يأخذنى فكأنّه لم يقبلنى .

٢ — وكانت عَلَيْنا عِرْسُهُ مِثْلَ يَوْمِهِ غَدَاةَ غَدَتْ مِنّا يُقادُ بِها الجَمَلْ

تقدير البيت إذا أزيلَ ما فيه من هُجْنة التقديم والتأخير : وكانت علينا عِرْسُه غداةَ غَدَت منّا يُقادُ بها الجمل مثلَ يومِه . والمعنى : كانت مفارقةَ عِرْسُه لنا غداةَ انتقالِها عنّا ، وقد حُمِّلت الجِمالُ وقِيدَ بها ظعينتُها مثلَ يومِ فقده ، أى كان ذلك اليومُ مثل ذلك اليوم . كأنّهم كانوا ألِفوا من مُقامِها أيّامَ عِدّتها أُنْساً بها ، وببقاء دارها على ما كانت تُعْهَدُ من قبل ، فلمّا رأت من التنقّل ما رأت ، وخَلَت الديارُ منها ومن أسبابها وتغيّرت ، عادت المصيبةُ على أحيائها جَذَعاً ، والشَّرُّ مستفحِلاً .

٣ — وكانَ عَمِيدَنا وبَيْضَةَ بَيْتِنا فكلُّ الذى لاقيتُ من بَعْدِه جَلَلْ[1]

أى كان رئيسَنا والمصمودَ بالحاجات فينا ، وأصلَ بيتِنا وأساسَ فخرِنا . وقد تقدم القول فى بيضة البلد[2] ، وأنه يُستعمَل فى المدح والذم . فأمّا بيضة الخِدر وبيضة البيت فلا يستعملان إلاّ فى المدح . وقد صيغ من البيضة هذا فعلٌ ، حكى ابن الأعرابىّ قال : يقال اجتاحوهم وابتاضوهم ، إذا استأصلوهم . وقوله « فكل الذى لاقيت من بَعْدِه جَلَل » أى صغيرٌ هيِّنٌ فى جَنب ما لاقيناه فيه . والجلل يُستعمَل فى الصغير والكبير . وقال بعضهم : المراد ببيضة البلد أنّه المعروف الموضِع ، المرجوعُ[3] إليه فى كلِّ مُهِمّ ، كما يرجع صاحبُ الأُدحِىّ إلى

(١) فى الأصل : « الذى حلت » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٥٠٥ ، ٨٠٤ .

(٣) فى الأصل : « المرجوع » ، صوابه فى ل .

أُدحيِّه[١] كيف توجَّه في المرعى، وأنَّى انتجعَ ورَعَى. والأجود أن يكون المراد به وقد أُضيف إلى البيت، وهو بيت الفخر والعِز، أنه الأصلُ والجُرثومة، كما حكى عن أبي بكر رضي الله عنه أنَّه قال: «نحنُ عِترةُ رسول الله التي خَرَجَ منها، وبَيضتُه التي تفقَّأَتْ عنه».

٣٥٥

وقال ابن عَنَمة الضَّبِّيُّ[٢]

في مَقتلِ بِسطامَ بنِ قَيْس[٣]:

١ – لِأُمِّ الأرضِ وَيْلٌ ما أَجَنَّت ... بحيثُ أَضرَّ بالحَسَنِ السَّبيلُ

يعظِّم شأنَ الأرض كيف ترشَّحَت لستر[٤] بِسطامَ فيها، ومن أين صارت يتَّسع بطنُها له ميِّتاً وهي تضيق عن أفعاله وذِكْرِه حيًّا. وقال الأصمعي في تفسير وَيْلٍ إنه قُبُوحٌ[٥]. ولك أن تقول «لِإِمِّ» فتتبع حركةَ الهمزة حركةَ اللام. وارتفع وَيْلٌ بالابتداء وإن كان نكرة، لأنه عُلِم أنه دعاء، فحصل به مثلُ فائدة المعارف. ومعنى «لِأمِّ الأرض وَيلٌ» ثبتَ لأمِّ الأرض ويل، فهو في لفظ ما وقع. وقوله «ما أجَنَّت» ما استفهام، وموضعه مفعول أجَنَّت. يقول:

---

(١) هذا ما في ل وهو الأوفق، وفي الأصل: «أدحيته»، والأدحى والأدحية والأدحوة، كلها بمعنى، وهو مبيض النعام في الرمل.

(٢) سبقت ترجمته في الحماسية ١٨٩ ص ٥٨٢.

(٣) هو أبو الصهباء بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني. شروح سقط الزند ١٩٧٢. وقال ابن دريد في الاشتقاق ٢١٥: «وبسطام اسم فارسي، وبسطام أحد الفرسان الثلاثة المذكورين: عامر بن الطفيل، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وبسطام هذا». التبريزي: «قتله عاصم بن خليفة: وكان ابن عنمة مجاورا في بني شيبان، فخاف على نفسه لما قتل بسطام، فرثاه يستميل بذلك بني شيبان، وهو من بني السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة». وعاصم ابن خليفة ضبي.

(٤) في الأصل: «لسير»، صوابه في ل.

(٥) يقال قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحا، أي أقصاه وباعده.

سَتَرَتْ رجلاً وأىَّ رجل ، أى سترَتْ جليلاً من الأملاك رفيعَ بناءِ العِز ، واسعَ باعِ الفخر . وقوله « بحيثُ أضَرَّ » جعل حيثُ اسماً . ومعنى أضَرَّ : دنا . والحَسَن : جَبَلٌ[١] . والمعنى بمكانٍ أضرَّ السَّبيلُ بالحَسَن فيه ، أو أضرَّ السبيلُ بالحسَن ، حتى نكونَ مثلناه على المذهبين جميعاً .

٢ — نُقَسِّم مالَه فينا ونَدْعُو أبا الصَّهْبَاء إذ جَنَحَ الأَصيلُ

يقول : نقسِّم فواضلَ ما عندنا من غنائمِ غَزَواته وما بَقّاه ولم يَقسِم فينا لوقتٍ يختاره له ، فبقىَ بعده . وفى اقتسام تلك الأموال ما يهيِّج الحسَرات ، لأوقات الغارة فى البُكُرات . ثم قال « وندعو أبا الصَّهباء إذ جَنَح الأصيل » يُشير إلى وقت الأضياف ، وأن الحىَّ فى ذلك الوقت يصير ضجَّةً واحدة ، تلهُّفاً فى إثر الفائت ، وتذكراً له ، وتوجعاً لما فُقِدَ من المستأنَف من تلك الرُّسوم واستمرارها . ومعنى ندعوه نندُبه ونقول : وابِسطاماه ! وإنَّما قال « مالَه » لأنَّ ما اجتمع بسعيه وحَدِّه ، وبأسِه وسَطوته ، كان له . ومعنى جَنَح مال . والأصيل العشيَّة . وأبو الصَّهباء : كنية بِسطام .

٣ — أَجِدَّكَ لن تَراه ولَنْ تَرَاه تَخُبُّ به عُذافِرَةٌ ذَمُولُ[٢]

ألمَّ فى هذا بقول النابغة :

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نفوسُهُم[٣] *

كأنّه لشدة الأمر عليه يكذِّب المشاهدة ويدع التَّصديق بها فى الوقت

(١) ياقوت : « الحسنان .... : كثيبان معروفان فى بلاد بنى ضبة ، يقال لأحدهما الحسن ، وللآخر الحسين » .

(٢) التبريزى : « لا تراه ولن تراه » ، ثم ذكر رواية المرزوق .

(٣) يرثى حصن بن حذيفة بن بدر ، كما فى شروح سقط الزند ٨١٣ . وعجزه فى ٨١٣ ، ٢٦٢ :

* وكيف بحصن والجبال جنوح *

بعد الوقت ، إما استعظاماً للحال ، وإما لآفةٍ تلحق العقلَ ، وضعفٍ يتخلّل التحصيل ، فكأنه بعد ما اقتصَّ من الحال ما اقتصَّ ، وشَرَح من الفَجْع ماشَرَح عاودَتْه تلك الحالة وعادته ، فأقبَلَ على نفسه يستثبتها وقال : أعلى جِدٍّ منك ، وأتَجِدُّ جِدَّكَ ، أنك فى مستقبل الأوقات لا تَراه متمكّنا منه قريباً ، على عادتك فى حال الأمن معه ، ولا تراه أيضاً من بعيدٍ فى الغَزْو ونسير به الخَبَبَ راحلةٌ قوية خفيفة .

وقد ظهر بما ذكرتُه فائدةُ تكرار حرف النفى فى كلامه ، لأنَّ لن نَفْىُ قول القائل أسيفعل كذا زيد ؟ فيقول : لن يفعل . فقوله لن تراه نفى الرُّؤْية فى حال السِّلم ، ولن تراه نفىٌ لها فى حال الغَزْو . وتَخُبُّ به فى موضع الحال .

٤ — حَقِيبةُ رَحْلِهَا بَدَنٌ ومَرْجٌ تُعارِضُها مُرَبَّبَةٌ دَؤُولُ[١]

٥ — إلى مِيعادِ أرعَنَ مُكْفَهِرٍّ تُضَمَّنُ فى جوانبها الخُيولُ[٢]

يقول : تَخُبُّ به ناقة بهذه الصِّفة وقد شُدَّ فى الحقيبة التى ارتَدَفها درعٌ قَدْرُ ما يستر البدن ، ومَرْجٌ لِمَا جُنِب معه من فرسٍ تعارض هذه النَّاقةَ فى السَّير ؛ وهى لعزِّها وكرمها على رَبِّها[٣] ، رُبِّبَت فى البيوت ولم تُتْرَكْ هَمَلًا ، وسيرها الذميل . ويقال ربَبْتُهُ وربّبته بالتشديد بمعنى . والدَّأَلانُ : ضربٌ من السَّير . والاحتقاب : شَدُّ الحقيبة مِن خَلْف ، وكذلك الاستحقاب .

وقوله : « إلى مِيعادِ أرعَنَ » يعنى به جيشاً كأنه رَعْنُ جَبَلٍ . وقيل : جيشٌ

---

(١) فى النسختين : « دؤول » بنقطة فوق الدال ونقطة تحتها مقرونة بكلمة « معاً » . لتقرأ بالإعجام والإهمال ، واقتصر التبريزى على رواية الدال المهملة .

(٢) فى الأصل : « فى جوانبه » ، وهى مطابقة لرواية التبريزى فى الصلب ، لكن التفسير هنا يقتضى ترجيح ما أثبتنا من ل وتفسير التبريزى .

(٣) فى الأصل : « أنها » صوابه فى ل .

أرعن : له فُضُول . والرَّعْن : أنف يتقدَّم من الجبل ، والجميع الرِّعان والرُّعون . مكْفَهِرٌّ ، أى مرتفعٌ عالٍ . وقوله « تُضَمَّنُ فى جوانبها الخيول » أى تُقْرَن الخيلُ بالإبلِ فى جوانبها ، إذْ كان لِكلِّ رجلٍ راحلةٌ وفرَسٌ يقودُه معه . ومثل هذا قولُه :

* خَصَفْنَ بآثارِ المَطِىِّ الحوافرا[1] *

يقول : تسير به راحلةٌ معها جَنِيبَةٌ ، إلى ميعادِ أرعَنَ ، أى جيش كثيرٍ ضُمِّنَ جوانبُ رواحلها الخيول . ويروى : « تُضَمَّر فى جوانبها » بالراء ، والمعنى تُصْنَعُ الخيولُ وتُمدَى فى القَرَنَيْنِ[2] فى جوانبها . والمراد أنّ فُرسانَ هذه الكتيبة دأبُهم ذلك .

٦ – لَكَ المِرْبَاعُ منها والصَّفَايا وحُكْمُكَ والنَّشِيطَةُ والفُضولُ

أقبلَ يخاطِبُ المرثىَّ بعد الإخبار ، على عادتهم فى الكلام .

وقال أبو عبيدة : كان رئيسُ القَوم فى الجاهليَّة إذا غزا بهم فغَنِمَ أخَذَ من جماعةِ الغنيمة ومن الأسرَى والسَّبْىِ على أصحابه المِرباعَ ، وهو الرُّبع ، فلذلك قال « لكَ المِرباعُ منها » فصار هذا الرُّبع الذى كان فى الجاهليّة للرَّئيس فى الإسلام خُمْسًا . وكان له الصَّفِىُّ : واحد الصَّفايا مِن جماعةِ الغنائم والأسلاب والكُرَاع قبل القِسْمة ، وهو أن يصطفِىَ لنفسه شيئاً : جاريةً أو سيفاً أو فرَساً أو ما شاء ، وبقى الصفىُّ على حالِه فى الإسلام : اصطفى النبىُّ صلى الله عليه وسلم سيفَ مُنَبِّه ابن الحجَّاج ذا الفَقَار يومَ بدر ، واصطفى جُوَيرِيَةَ بنتَ الحارث من بنى المُصْطَلِق

(١) البيت لمقاس العائذى ، كما فى اللسان (خصف) . وهو أول المفضلية ٨٥ . وصدره :
* أولى فأولى يا امرأ القيس بعد ما *

(٢) القرنان : الغداة والعشى .

يومَ المُرَيْسِيع ، فجعَلَ صَدُقَتَها[1] عِتقَها وتزوَّجَ بها ، واصطفى صَفِيَّةَ بنت حُيَيٍّ ففعَل ذلك بها .

وقال أبو عُبَيدة : وكان له النَّقيمة أيضاً ، وهو بعير يَنحَره قبلَ القِسمة فيُطعِمُه الناسَ كذلك . قال :

إنَّا لنضرِبُ بالسُّيوف رءوسَهم ضَرْبَ القُدَارِ نقيعةَ القُدَّامِ[2]

قال : وسَقَط في الإسلام النَّقيمة .

قال : وله حُكْمُه ، وهو أن يبارِزَ الفارسُ فارساً قبلَ التقاء الجيشَين فيقتُله ويأخُذُ سَلَبَه . والحُكم فيه إلى الرئيس ، إن شاء نفَّله وإن شاء رَدَّه إلى جُملة المَغْنَم . وهذا باقٍ في الإسلام .

وله أيضاً « النَّشيطة » وهو ما انتُشِط من الغنائم ولم يُوجِفوا عليه بخيلٍ ولا رِكابٍ . فبقيت في الإسلام . وفَدَكُ[3] مِن ذلك ، لم يُوجِفوا عليه فكان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم خاصَّةً .

قال : وكان للرَّئيس البَسيطة[4] ، وبعضهم يُسمِّيها البِسْط[5] ، وهي الناقةُ

---

(١) كذا ضبطت في النسختين . والصدقة بالفتح ، والضم ، وبفتحتين ، وبضمتين ، وبفتح فضم ، كلها بمعنى واحد ، وهو المهر ، كالصداق بفتح الصاد وكسرها .

(٢) البيت لمهلهل ، كما في اللسان (قدر ، نقع ، قدم) .

(٣) كان ذلك في السنة السابعة ، لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما حل بأهل خيبر ، فبعثوا يصالحون على النصف من فدك ، فقبل منهم ذلك . السيرة ٧٧٦ – ٧٧٧ . وفدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٤) الذي في المعاجم المتداولة لفظ « البسوط » ، ولم ينص فيها كذلك على المعنى الذي ذكره أبو عبيدة فيها وفي البسط .

(٥) في الأصل : « وبعضهم قال البسيط » ، صوابه في ل ، وقد ضبطت فيه بكسر الباء ، وهي تقال بالكسر والضم وبضمتين .

أو الحِجْرُ معها ولدُها، فتُجعل هى وولدها فى رُبْع الرئيس ولا يُعتَدُّ عليه بالوَلَد .
وقال : وسَقَطَ البسيطةُ فى الإسلام .

وكان له « الفُضُول » وهو ما فَضَل بعد القِسمة ويَعجِز عن عَدَد الغُزاة ، أوْ لا يتناوله القَسْمُ ، وهذا سَقَطَ أيضاً فى الإسلام . قال أبو عبيدة : غيرَ أنى حُدِّثت عن مجاهد أنّه قال فى قوله تعالى : ﴿ يَسْألُونكَ عَنِ الأنفَالِ قُلِ الأنْفَالُ لِلّهِ والرَّسُولِ ﴾ ، قال : هو ما شَذَّ من الغنائم ، كالفضول . وقيل إنّها منسوخة .

٧ — أفاتَهُ بنو زيدِ بنِ عَمْرٍو ولا يُوفِى بِبِسْطامٍ قَتِيلُ

٨ — فخَرّ على الألاءَةِ لم يُوَسَّدْ كأنَّ جَبينَه سَيفٌ صَقِيلُ[1]

قوله « أفاتته » فات يتعدَّى إلى مفعول . تقول : فاتَنى الشىء ، فإذا أدخَلْتَ عليه حرفَ التّعدية تعدَّى إلى مفعولين . فإذا كان كذلك فأحدُ المفعولين محذوف ، كأنه قال : أفاتت الناسَ بنو زيدِ بن عمرٍو بِسطامًا ، أى الانتفاعَ ببِسطام . وقوله « ولا يُوفِى ببِسطامٍ قبيل » بالباء يروى ، والمعنى لا يُوفِى بدمه قَبيلٌ ، كأنَّ القبيلةَ بأَسرِها مطالَبون بدمه ووافُون به إذا أُتِىَ بهم كلِّهم . وهذه الرِّوايةُ أقرب إلى ما يدلُّ عليه صدرُ البيت وأشبه . ويروى « قتيلُ » بالتاء ، ويكون الكلامُ تحسُّرًا ، والمعنى لا يُوفِى بدَمِ بِسطامٍ دمُ قتيل . ويقال وَفَى وأوفَى بمعنًى واحد .

وقوله « خرَّ على الألاءة » ، [معناه[2]] سقط . والألاءة : شجرة . ولم يُوَسَّد ، يستعملونه كثيراً فى القتيل ، وليس ذلك لأنَّ القتلَى بعضُهم يوسَّدون . وقد يقال « وُسِّد فلانٌ يمينَه فى ضريحه » ، وهذا أيضاً مثَلٌ ؛ لأنَّ الميِّت

(١) التبريزى : « وخر » .
(٢) هذه من ل ، وقبلها فى ل كلمة مطموسة أيضاً .

لا يوسّد يمينَه ، وإنما يُرادُ : تجافِى المكانُ به فى حالتَىِ الدَّفن والقتل وقوله « كأنّ جبينَه سيفٌ صقيل » يريد وجهَه وإشراقَ لونِه .

٣٥٦

وقال الهُذْلولُ بن هُبَيْرَة[1] :

١ — أَلِـكْنِى وفِرْ لابنِ الفُرَيْرَةِ عِرْضَهُ ... إلى خالدٍ من آلِ سَلْمَى بنِ جَنْدَلِ

٢ — فما أبتَغِى فى مالكٍ بَعْدَ دارِمٍ ... ولا أبتَغِى فى دارِمٍ بَعْـدَ نَهْشَلِ

٣ — وما أبتَغِى فى نَهْشَلٍ بَعْدَ جَنْدَلٍ ... إذَا ما دَعا الدَّاعِى لأمرٍ مُجَلَّـلِ

٤ — وما أبتغى فى جَنْدَلٍ بَعْدَ خالدٍ ... لِطَارِقِ لَيْلٍ أوْ لِعَانٍ مُكَبَّلِ

قوله « أَلِـكْنِى » أى أعنّى على أداء أَلُوكَتِى ، وهى الرِّسالة . وقد تقدَّم القولُ فى هذه اللفظة ؛ وأن أصلها آلِـكْنى ، فقُلِبَ وقُدِّم اللام على الهمزة فصار أَلْئِكْنِى ، ثم حُذفت الهمزة استخفافاً وأُلقيت حركتها على اللام فصار أَلِـكْنِى .

وقولُه « وفِرْ لابن الفُرَيرة عِرضَه » معناه اترُكْ عِرضَه وافرًا . يقال وَفَرْتُهُ أَفِرُهُ وَفْرًا ، وهو موفور . والمراد : خُصَّ برسالتى خالداً واترُك ابن

---

[1] كذا ورد فى النسختين . وعند التبريزى : « المذيل بن هبيرة أحد بنى حرقة بن ثعلبة بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب » . قال ابن دريد فى الاشتقاق ٢٠٣ : « ومن رجالهم المذيل بن هبيرة ، قد رأسهم فى الجاهلية ، وكان جراراً للجيوش » . وكان من خبر الأبيات فيما روى التبريزى ، أن المذيل أغار على بنى كوز وهاجر من بنى ضبة ، فأصاب ثلاثين امرأة أطلق سراحهن ، إلا منصورة بنت شقيق أخت عامر بن شقيق ، واحتمل بها حتى أتى أرض قومه ، فخرج أخوها وزوجها لاستنقاذها ، فتمكنا من ذلك بعد لأى ، ثم إن المذيل تبعتها نفسه فأغار ثانية على بنى ضبة فاستصرخ بنو ضبة ببنى سعد بن زيد مناة فالتقوا وقتل من بنى تغلب ناس وهزموا أسوأ هزيمة ، ووقع ابن المذيل — واسمه مشول — أسيراً ، أسره عبد الله وعبد الحارث ابنا ناشرة . ثم أتاهم المذيل فى ابنه وطلب من ابن الفريرة — وهو أحد جندل بن نهشل — أن يفادى ابنه أو يمن عليه ، فوعده أن يفعل ، فلما طال عليه ذاك قال هذه الأبيات ، فأتى خالداً فأنشده ، فأعطى ابن ناشرة مائة من الإبل وأطلقه للهذيل .

الغريزة جانباً ، لا تذكر له قبيحاً ولا تُولِهِ مكروهاً . والرِّسالة ابتداؤها : « فما أبتغى فى مالك » . والشاعر رتّب أفخاذاً وبطوناً ، وذكر أنّ كل واحدٍ منها كان له رئيسٌ يدور أمرُه عليه ، ويعتصم بأمره فى الملمّات . وأنه بعد افتقادِ ذلك فيهم فلا طائلَ ولا خيرَ عند واحدٍ منهم . ألا تَراه قال : فما أبتغى فى بنى مالكٍ بعد خُروج بنى دارمٍ منهم ، وما أبتَغى فى بنى دارمٍ بعد خروج بنى نهشَلٍ منهم ، وما أبتغى فى بنى نهشَلٍ إذا صَرَخ الصارخُ لأمرٍ عظيمٍ بعد خروج جَندلٍ منهم ، وما أبتَغى فى بنى جندلٍ لِسَارٍ يسرى بليلٍ يطلُب الضِّيافة ، أو أسيرٍ مكبَّلٍ يطلُب مَن يفكُّ أسْرَهُ بعد افتقادِ خالد . كأنه [كان[1]] يأخذ بعضُهم بما يتماسك به البعضُ الآخر ، وذلك البعضُ يتماسَك بآخرَ إلى آخِرِ القصة . وهذا على ما رتَّبه فى نهاية الحُسن . وقوله « أمرٌ مُجَلَّلٌ » أى معظَّم . والكَبْلُ : القَيد ، ورجُلٌ مكبَّلٌ .

٣٥٧

وقال إياسُ بنُ الأَرَتِّ[2] :

١ — وَلَمَّا رَأَيْتُ الصُّبْحَ أَقبَلَ وَجْهُهُ ... دَعَوْتُ أَبا أَوْسٍ فَمَا إنْ تَكَلَّمَا

٢ — وَكَانَ فِرَاقٌ مِنْ أَخٍ لَكَ نَاصِحٍ ... وَكَانَ كَثِيرَ الشَّرِّ لِلخَيرِ تَوْءَمَا

---

(١) هذه من ل .

(٢) ذكره ابن دريد فى الاشتقاق ٢٣٥ فى رجال طيىء ، من بنى شمجى . وفى القاموس (رتب) : « وإياس بن الأرت كريم شاعر » . وأنشد له الجاحظ شعراً فى الحيوان (٤ : ٣٥٩) . ابن جنى فى المبهج : « هو مصدر أُسْته أؤوسه أوسا ، إذا أعطيته . وظنه السكرى مصدر أيست من كذا ، وليس كذلك ، ولا لأيست مصدر ، لأنه مقلوب من يئست ، ولو كان له مصدر لم يكن كذلك مقلوباً ، ولكان أيضاً تعتل فاؤه وعينه ، فيقال إست وآس . والأرت : الذى فى لسانه عجلة ، والأنثى رتاء » . ونظير إست آس : هبت أهاب . التبريزى : « وقال أبو العلاء : الأرت : الذى فى لسانه حبسة ، وهى الرتة . واسم الأرت خالد » .

لمّا عَلَمٌ للظّرف ، وهو لتوقُّع الشيء لوقوع غيره ، ولذلك احتاجَ إلى الجواب ، وجوابه هنا دَعَوْتُ . فيقولُ : لمّـا دنا الصُّبح وأقبَلَ وجهه يَنفلِقُ ويُقْبِل ، دعوتُ هذا الرّجلَ — يعنى المرثىّ — فما أجاب . وإنّما خصّ وقتَ تَنَسُّم[1] الصُّبح ، لأنّ المريض يخفّ فيه ، فكأنّه على عادته فى تمريضِهِ ، وتعرُّف خَبره ، وتحدُّثِه عليه فى العارض له ، دَعاه فوجده ثقيلاً ، لا يُجيب ولا ينطلق لسانُه ، فتيقَّنَ منه قُربَ المفارقةِ ، والبِعادَ بعدَ المقارَبة ، فلذلك قال : «وحانَ فراقٌ من أخٍ لك ناصح» . ومعنى حانَ : قَرُب . والنَّصاحة : صَفاء الوُدّ ، وخُلوصُ العقيدةِ من الغِلّ . وقوله « وكان كثيرَ الشَّرّ » يعنى مع منابذيه ومُشاقِّيه . ولن يكمل الفتى حتى يكون مُستصلَحًا للخير والشّرّ ، فيُحِلّ النّاسَ مَحالَّهم ، ويوفّيهم مُستَحَقَّاتِهم ، إنْ خيرا فخيرا ، وإنْ شرًّا فشرًّا .

وقد عَمِلَ لطيفةً فى الصفة الثانية فقال « للخير توءما » فجَعَلَ الخير وُلِد معه فنشأ[2] بنشئه . يقال : غلامٌ توءم ، للذى وُلِدَ معه غيره . وأتأمت المرأةُ فهى مُتئِمٌ . واشتقاقه من الوَأْم ، والتاء فيه بدلٌ من الواو ، كالتاء فى تُكَأةٍ وما أشبهها ، والجمع تُؤَامٌ ، وفُعَالٌ[3] فى الجمع قليل . كأنّ الولدَ وائمَ غيره فى الإتيان ، أى وافقَ وفى المثل : « لولا الوِئامُ هلَكَ اللِّئام[4] » . وقد استقصيتُ القولَ فيه فى شرح كتاب الفصيح .

٣ — تتابع قِرْوَشُ بن لَيلَى وعامِرٌ وكانَ السُّرورُ يومَ ذاك مُدَمْدَمَا[5]

---

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « تبسم » .   (٢) ل : « ينشأ » .

(٣) فى الأصل : « ويقال » ، صوابه فى ل . وقد اختلف اللغويون والنحاة القدماء فى صيغة فُعَال ، هل هى جمع أو اسم جمع . وقد صنع الأديب جبران النحاس بحثاً عنوانه « صيغة فعال ليست جمعاً » طبع فى الإسكندرية سنة ١٩٤٧ بمطبعة البصير . وانظر ليس فى كلام العرب لابن خالويه ص ٢٣ .

(٤) انظر تحقيقه مسهباً فى حواشى مقاييس اللغة (٦ : ٨٠) .

(٥) كذا فى ل . وفى الأصل : « وما خص للبعض » .

يريد : أنهم قد تداعَوْا فى الذّهاب ، وتقاطرُوا فى الموت ، فمات الواحدُ بعَقِبِ الواحد ، كأنّهم دُعُوا بلسانٍ واحد فأجابوا ، وكان السرور يوم ماتَ مُلْقًى مُهلَكا غير باقٍ ، لأنّ كلَّ مَن سمِع بموتِهِ أخذَ قسطًا من الجزع له فخفِيَ سرورُ النّاس وظهرَ جزعُهم . وقوله « يوم ماتَ » يعنى أبا أوس . هذا من باب ما خُصّ البعضُ بشىءٍ من دون الجملة ، فأُعيد ذكره . والدَّمدمة : الإهلاك والاستئصال . وفى القرآن : ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ . ويروى : « وكان السُّرُورُ يومَ ذاكَ مُذَمَّمًا[1] » :

٤ – هَمَمْتُ بأنْ لا أَطْعَمَ الدّهرَ بَعْدَهُمْ حَياةً فكانَ الصَّبْرُ أبقَى وَأَكْرَمَا

قوله : « بأن لا أطعمَ الدهرَ بعدهم » انتصب أطعم بأن ، ولو رُفع لجاز على أن يكون أنْ مخففة من الثّقيلة ، ويكون اسمه مضمراً ، والفعل مع ما بعده خبرٌ كأنّه قال : هممت بأنى لا أطعمُ حياةً بعدهم ، أى كنت وطّنتُ نفسى على الزُّهد فى الحياة ، وجعلتُ قَتْلَ نفسى من همِّى ، ثم نظرت فكان الائتساء بالناس فى مصائبهم ، والصّبْرُ على مقاساة البلاء مَعَهم ، أبقَى فى الذِّكر ، وأحسنَ فى الأُحدوثة ، وأكرمَ عند عدِّ الأفعال وعَرضها على العُقول . وروى : « أتقى » بالتاء المعجمة ، والمعنى أوْقَى ، لأن التاء مُبدلةٌ من الواو ، أى أصْون للدِّين والعِرض .

٣٥٨

وقال قبيصة بن النّصرانىّ الجرمىّ[2]

١ – ألا يا عينُ فاحتَفِلِى وبَكِّى على قَرْمٍ لِرَيبِ الدّهرِ كافِ

---

(١) كذا على الصواب فى ل . وفى الأصل : « مدمدما » . وروى التبريزى رواية ثالثة : « مدمما » بالدال المهملة ، وقال : « مدمم من دممت الشىء ، إذا طليته وغطيته » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٩٩ ص ٦١٠ .

١ – وما للعَينِ لا تَبْكِى لِحَوْطٍ وزيدٍ وابنِ عَمِّهما ذُفافِ

٣ – وعَبْدِ اللهِ يا لَهْفِى عليه وما يَخْفَى بزَيدٍ مَنَاةَ خافِ

٤ – وجدْنا أهْوَنَ الأموالِ هُلْكاً وجَدِّكَ ما نَصَبْتَ له الأثافِى

يقول : يا عينِ جاء وقتُ البكاء فتهيَّئِى له ، واجمَعى دموعَكِ ثم فرِّقيها ، ولا مَساغ لتقصير ، ولا مَجالَ لتعذير . والحافِلُ من الغنَم : التى جَمعت اللَّبنَ فى ضَرعها . ومعنى بَكِّى : أكثِرى البكاء أو كرِّريه[1] . والقَرْمُ : الكريم من الرجال ، وأصله فى الفحول ، وكذلك المُقرَم ، وقد تقدَّم ذكرُه[2] .

وقولُه « لِرَيْبِ الدَّهر كافٍ » قد حذف أحد مفعولى كَفَى ، كأنّه كافٍ الناسَ ريبَ الدَّهر ، أى ما رابَ من أحداثه .

ثم عَدَّدَ مَن فُجِع به من أعزّته فوجبَ البكاء له ، ليُعلِمَ عظيمُ شقائه وما أصيب به فى أودّائه .

وقوله « يا لَهفَى عليه » يجوز أن يكون المُنادَى محذوفاً كأنّه قال : وعبدِ الله لَهفَى عليه يا قوم . ويجوز أن يكونَ نادَى اللَّهفَ ليُرِى عظيمَ حسرته ، وكمالَ شِقوته فى فَجْعَتِه

وقولُه « وما يَخفَى بزيدِ مَنَاةَ خافِ » ، يجوز أن يكون موضعه رفعاً على أنّه يرتفع بيخفى ، فكأنّه قال : ما يخفى خافٍ بزيد ، أى زيدُ مناة لا يخفى ، لأن الخافى هو زيد ، وهذا كما تقول : لقيتُ بزيدٍ أسدًا . ويجوز أن يكون قوله « بزيد » هو الفاعل والباء فيه مثل الباء فى قول الله تعالى : ﴿ وكَفَى بالله

---

(١) ل : « وكرريه » .

(٢) انظر ما مضى فى ص ١٠٠٦ .

شَهِيدًا ﴾ . والمعنى ما يخفى زَيْدُ مَناةَ خفاء ، وخافٍ فى موضع خفاء ، لـكنّه لم ينصبه كما لم يُنْصَب قوله :

* كأنَّ أيدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[1] *

ومثله :

* كَفَى بالنَّأْيِ مِن أسماء كافِ[2] *

وقمتُ قائما ، وعُذْت بالله عائذا[3] . وقد مضى مثله .

وقولُه « وجَدْنا أهونَ الأموال هُلْـكًا » كأنَّه نبَّه[4] به على ما كانوا يُقيمونه من الضِّيافة ، ويُنفقونه من الأموال فى العُفاة وأبواب البِرِّ والإحسان ، وأنّ أهونَ الأموالِ هَلاكاً على نفوس الـكرام وأحقَّها فى الصُّدور والقلوبِ ما وُقِف على الأضياف ، وصُرِف إلى مآكلهم ، وكذلك مَن أشبه الأضياف . وانتَصَب « هُلْكا » على التمييز . ومعنى « وجَدِّك » وحقِّ جَدِّك .

وقولُه « ما نَصَبْتَ له الأثافى » فى موضع المفعول الثانى لوجدنا . والأثافِى ، واحدتها أُثْفِيَّـةٌ . ويقال : ثَفَّيت القِدر وأثْفيتها . فأُثْفِيَّةٌ أُفعولة . ومن قال أثّفْتُها فأُثْفِيَّـة عندى فُعْلِيّة ؛ لأن الهمزة أصليّة . من ذلك قول النابغة :

* وإنْ تأثَّفَكَ الأعداء بالرِّفَدِ[5] *

(١) سبق قريباً فى ص ٩١٠ كما مضى فى ص ٢٩٤ .

(٢) سبق مع قرينه فى ص ٩٧٠ كما مضى فى ص ٢٩٤ . وهو لبشر بن أبى خازم . وعجزه :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

والشاهد فيهما ترك إعراب المعتل المنصوب .

(٣) يعنى وضع اسم الفاعل موضع المصدر .

(٤) ل : « ينبه » .

(٥) صدره فى الديوان ٢٦ :

* لا تقذفنى بركن لا كفاء له *

٣٥٩

وقال أبو صَعْتَرَةَ البولانى[١] :

١ – زُكَيرَة وابنا أُمِّهِ الهَمُّ والُمنَى   وفى الصَّدْرِ منهم كُلَّما غِبْتُ هاجِسُ

٢ – أَوَدُّهُمْ وُدًّا إذا خامَرَ الحَشَا   أضاء على الأضلاع والليلُ دامِسُ

٣ – بنى رَجُلٍ لو كان حَيًّا أعانَنى   على ضَرِّ أعدائى الذينَ أُمارِسُ[٢]

يعنى بزُكَيرَةَ وأخويهِ أولاد أخيه ، وكان تُوُفِّىَ والدُهم فصارَ هو كافِلَهم . فيقول : هم الذين أهتمُّ لهم ، وأتمنَّى خيرَهم وبقاءهم ، وأقصُر همِّى على ماتستقيم به أحوالُهم ، وتستتِبُّ له أمورُهم ، ومَتَى[٣] غبتُ عنهم كان فى صدرى هاجسٌ من الفِكرِ فيهم ، وسانحٌ من التوفُّر عليهم ، يحُولانِ بينى وبين الذَّهاب عنهم؛ فجسمى غائبٌ عنهم ، وهوَاىَ حاضرُهم . فهذه التى أشار إليها نتائجُ العِناية بهم ، ومسبَّبات الرِّعاية فى النِّيابة عن أخيه فيهم . ثم أخَذَ يذكر ما غَرَسَه الحبُّ فى قلبه لهم ، ورعاه صدرُه من التحنُّن والشَّفَقة فى بابهم ، فقال : أَوَدُّهم وُدًّا إذا خالَطَ الحشا فى ظُلْمة الليل أضاء على الأضلاع . وإنما قال هذا لأنّ الشىء إذا أشرَقَ بالليل وعند التباس الظَّلام ، فهو بالنهار أَوْلى بالأشراق . فكأنَّ المعنى أنّ طلائعَ حبِّهم فى مكامِنِ صدره مضيئةُ الأرجاء، نيِّرة الأكنافِ ، فى كلِّ حالٍ ووقت .

وقولُه « بنى رجلٍ » يعنى أخاه ، كأنّه ذَكَر ما يقتضيه فى أمرهم بما يأتيه ،

---

(١) عبارة الإنشاد مطموسة فى نسخة الأصل . وفى ل : « أبو صميرة » ، صوابه فى التبريزى وشروح سقط الزند ١٢٤٣ حيث أنشد البيت الثانى ، والقاموس (صعتر) . وبولان ، بالفتح : حى من طيئ .

(٢) التبريزى : « بنو رجل » .

(٣) فى الأصل : « ومعنى » ، صوابه فى ل .

فأشارَ إلى الدَّواعى القائمةِ بينه وبين أولادِ الأخ ، فقال : أذكُرُ بنى رجلٍ لو كان فى جُملة الأحياء لأعانَنى على الأعداء ، وأنصفَنى من الزَّمان ، ودفع عنى مِن مضرّاتهم ومُناكَداتهم مايخفُّ معه ظَهرى ، ويقوَى فيه نُهوضى وجذابى .

٣٦٠

وقال الغَطَمَّش[١] :

من بنى شَقِرَةَ بن كعب بن ثَعلبة[٢] :

١ — ألاَ رُبَّ من يغتابُنى وَدَّ أنّنى   أبوهُ الذى يُدْعَى إليــه ويُنْسَبُ

٢ — على رِشْدَةٍ من أمِّهِ أو لِغَيَّةٍ   فيَغْلِبَها فَحْلٌ على النَّسْلِ مُنْجِبُ

قوله « مَن يغتابنى » مَن نكرة ويغتابنى فى موضع الصِّفة له ، و« وَدَّ أنّنى » جواب رُبَّ . فيقول : رُبَّ إنسانٍ يأ كلُ لحى بظهر الغَيب ويتنقَّصنى ، ومع ذلك يتمنَّى أن أكون أباه الذى يُسَمَّى به ويُنْسَبُ إليه ، وإنما يبعثُه على ذلك الحسدُ والبَغضاء .

وقوله « على رِشدةٍ من أمِّه أو لغَيّة » فإنّ على يتعلَّق بقوله أننى أبوه ، كأنّه يريد : وَدَّ أبُوَّتى سواء كان ولدَ حلالٍ أو حرام . والرِّشْدة : اسم الهيئة فى الرَّشاد . والغَيَّةُ : الفَعلة الواحدة من الغىّ . وهكذا يُختار أن يقال هو لرِشْدة بكسر الراء ، ولغَيَّةٍ بفتح الغين . وقوله « فيغلبَها » نصب جواب التمنى بالفاء ، والعامل فيه أنْ مضمرة . وهذا شرح الغَيَّة ، كأنّه قال: تمنَّى أن يكون ولدى على رِشدةٍ ، أوْ يغلبَها فحلٌ منجِب على النَّسل فتأتى به لغَيَّةٍ . وأراد بالفحل المنجِب نفسَه ،

(١) سبقت له الحماسية ٢٩٩ ص ٨٩٣ .

(٢) التبريزى : « بن ثعلبة بن سعد بن ضبة » . وقد كرر أبو تمام فى هذه الحماسية البيتين ٤ ، ٥ وهما بيتا الحماسية ٢٩٩ . وقد سبق نظير هذا التكرار فى الحماسية ٣٢ حيث كررت فى رقم ٢٠٩ .

ويعنى بيغلبُها على النَّسل غلبةَ الشَّبَه ليبزَّنَه من هُجْنتِها . وإذا قال القائل وددْت أنّى أجيئك فتكرمَنى ، فقوله فتكرمَنى انتصب ولم يعطف على أجيئك ، لمخالفة آخر الكلام أوّلَه ، وذلك أنَّ قوله أنى أجيئك متمنًّى غيرُ واجب ، وفتكرمَنى ليس من التمنِّى[1] بل هو واجبٌ ، فلمَّا خالفَه نوَى بالأوّل الاسمَ ، وأضمر بعد الفاء أنْ ، لتكون الفاء عاطفةً لاسمٍ على اسم ، فكأنّه قال : وددْتُ مجيئى إليك فإكرامَك لى . وكذلك إذا قال : ألاَ ماء فأشْرَبَه ، يراد : لو كان لى ماء لشربتُه ، تقديره : ألا ماءَ فشُربَه .

٣ ــ فبالخيرِ لا بالشَّرِّ فارْجُ مَوَدَّتى وأىُّ امرئٍ يُقْتالُ منه الترَهُّبُ

كأنه أقبَلَ على هذا المغتابِ له ، الناحتِ أثلتَه ، المداجى له بعداوةٍ كامنةٍ مستحكِمة فى الصدرِ فقال له : هذه المودّةُ التى تُظهرها من نفسك لى ، أرْجُ انتفاعَكَ بالخير لا بالشَّرِّ ، لأنك إن فعلتَ غير ذلك فإنما تحتاج إلى إصلاحِهِ من نفسك[2] ، فأما إذا كانت المودةُ صافيةً ، والعقيدةُ خالصة ، فإنّ صاحبَها لا يرجو بها إلاّ خيراً ، وكيف يرجو غيرَه من ثمارِه وهو يغرِس الخيرَ لا الشَّرَّ . وقولُه « أرْجُ مودَّتى » أى ارْجُ مودَّتَكَ لى ، والمصدر يضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل . وقولُه « وأىُّ امرئ يُقتالُ منه الترهُّب » فمعنى يُقتال يُحتكَم ، وهو يفتَعَلُ من القول ، يريد أىُّ رجلٍ يُحتكَم عليه ومنهُ الترهُّب ، التخوّف ، وتَرْكُ السُّكون والأمَنَةِ إليه . أى كيف يُطاب وُدُّه على الرَّهبةِ منه .

٤ ــ أقولُ وقد فاضَتْ بعينَىَّ عَبرةٌ أرَى الأرضَ تَبقَى والأخِلاّء تذهَبُ

(١) ل : « من المتمنى » .

(٢) كذا وردت العبارة فى النسختين .

٥ — أخِلاَّء لو غَيْرُ الحِمَامِ أصابَكُم عَتَبْتُ ولكنْ ما عَلَى الدَّهرِ مَعْتَبُ

قولُه « وقد فاضت بعينىَّ عبرة » اعتراض بين الفعل ومعموله . وقولُه « أرى الأرض تبقَى » متَّصل بقوله « وقد فاضت بعينىَّ عبرة » ، وهو من جملة الاعتراض . ومفعول أقولُ البيت الثانى . فيريدُ : أقول وقد اتَّصل البكاء منِّى ، وسالت العَبَرَاتُ من عينِى ، إذْ كنتُ أرى الأرضَ باقية ، والإخوان الخُلَّص ذاهبة ، وأنا لا أملِكُ شيئاً : أخِلاَّىَ إنى مَغيظٌ مغلوب ، مأخوذٌ عن عَزَائى لِمَا أتاه الدَّهر ، ولكنى إذا أفكَرتُ[1] وكان سببَ اخترامِكم الموتُ الذى تتساوى فيه الأقدامُ فلا يُبقِى على شريفٍ ولا وضيع ، ولا صغير ولا كبير ، صَدَّنى ذلك عن العَتْب ، لأنَّ الموتَ لا مَعْتَب عليه ؛ ولو كان الجانى فيكم ، والسالبُ لكم غير الموت لعَتَبْتُ على الدهر ، وقلتُ وأكثرتُ فى موضع القول ، وانتصَفْتُ وأسرفت فى موضع الفعل . ويقال عَتَبْتُه فأعْتَبَ ، أى لُمْته فأرضَى . ويروى » أخِلاَّىَ » بالقصر وإثبات ياء الإضافة ، و « أخِلاَّء » بالمدّ وحذف ياء الإضافة ، وهذا أجوَد .

٣٦١

وقالت امرأة[2] :

١ — ألاَ فاقصِرِى من دَمْعِ عَيْنَيْكِ لَنْ تَرَىْ أبًا مِثْلَه تَنْمِى إليه المَفاخِرُ

(١) ل : « فكرت » . والإفكار والتفكير بمعنى .

(٢) قال أبو رياش : « والذى عندى أن هذه الأبيات لمحمد بن بشير ، أحد بنى الخارجية ، يرثى بها أبا عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب » . وأبو عبيدة هذا والد هند أم محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن ، وجده زمعة كان أحد « أزواد الركب » . فذكر أبو رياش أن عبد الله بن حسن دعاه فقال : إن هذا قد جزعت على أبيها فقل أبياتاً تسليها بهن عنه . فقال : قد قلت ، فقال : قم فادخل . فدخل إليها وهو معه فقال : —

٢ – وقد عَلِمَ الأقوامُ أنّ بناتِه صَوَادِقُ إذ يَنْدُبْنَه وقَواصِرُ

تقول متسلِّيَةً ورافعةً الطَّمعَ من أن يكون الجزعُ يَرُدّ فائتاً ، فقالت كُفِّي من دمع عينيك ، ونَهْنِهِي عَبَراتِك ، فإنّكِ لن تَرَىْ مَن تعتاضينَه من أبيكِ الذى كان إليه ينتمى المَفاخر . ومعنى « تَنمى إليه المَفاخر » أنه غاية المَفاخر ، فهى إليه تنتمى . ويُرْوَى : « ينمو إليه المُفاخِرُ » بضم الميم ، والمعنى يَرتقى إليه المُفاخر إذا نافَرَ خَصمَه وجاذَبَه .

وقولها « وقد عَلِمَ الأقوامُ أنّ بناتِه صوادِقُ » استشهدَتْ بطوائفِ الأقوام على اختلافها ، وذكرت أنّهم قد عَلِموا أنّ بناتِ هذا المتوفَّى فيما يندُبْن به أباهنّ ويذكرنه من فضائله وإفضاله ، آتياتٌ بالصِّدقِ غيرِ الكذب ، وعاجزاتٌ عن بلوغ الغاية التى يستحقُّها أبوهنّ المرثىّ ، فإنّ القول لا يُحيط بحدِّه ، والوصف لا يَنظِم كُنهَ حقِّه .

٣٦٢

وقال آخر[١] :

١ – سَقَى جَدَثاً وارَى أرِيبَ بنَ عَشعَسٍ مِنَ العَيْنِ غَيْثٌ يَسْبِقُ الرَّعدَ وابلُه

= إذا ما ابن زاد الركب لم يمس بيننا قفا صفر لم يقرب الفرش وتر
فقومى اضربى يا هند عينيك لن ترى أبا مثله تنمى إليه المفاخر
وكنت إذا ما شئت سنيت واتداً يزين كما زان اليدين الأساور
وقد علم الأقوام أن بناته صوادق إذ يندبنه وقواصر

فقامت فصاحت هى وجواريها وجعل يصيح معهن ، فقال له عبد الله : يا عدو الله دعوتك تعزيها فهيجتها على البكاء . فقال : وبما كنت عسى أن أعزى بنت [ابن] زاد الركب ، من يعزينى أنا عنه ، لا والله لا أعزى عنه ولكنى آمر بالحزن عليه وأحض على ذلك .

(١) التبريزى : « وقال القلاخ . قال أبو هلال : فى الشعراء ثلاثة يقال لهم القلاخ . أحدهم القلاخ الراجز بن حزن بن جناب بن منقر ، القائل :

• أنا القلاخ بن جناب بن جلا • =

٢ — مُلِثٌّ إذا ألْقَى بأرْضٍ بَعَاعَهُ تَغَمَّدَ سَهْلَ الأرضِ منه مَسَايِلُهْ

دَعَا لقبر المرثيِّ بالسُّقيا ، وهو أريبُ بن عَمَس . ومعنى « من العين » من السَّحابات التي تنشأ من عين القبلة[1] وهى أغْزَر ، فلذلك خصَّها . وقوله « يسبق الرَّعدَ وابلُه » يطلُب به الكثرة . والوابل : المطر الضَّخم القَطْر ، وإذا سبَقَ المطرُ الرعدَ كان النَّوء أغزر .

وقوله « مُلِثٌّ » لم يرض بأن يكون سُقياه عارضاً ، ولكن جعل الغيث مُلِثًّا ، وهو [بمعنى[2]] مقيم . وقوله « إذا ألقى بأرضٍ بَعَاعَه » يريد إذا جاء مطرُه على أرضٍ فوضَع أثقالَه بها امتلأت الوِهاد ، وتغمَّدت المسايل بطونَ الأباطح السهلة . والبَعَاعُ : الثِّقْل ، والجَهَاز . يقال : بَعَّ السَّحابُ بَعًّا وبَعَاعًا ، إذا ألحَّ بمكانٍ فألقى بَعَاعَه فيه .

٣ — فما مِن فتًى كُنَّا من الناسِ واحدًا به نَبْتَغِى منهم عَمِيدًا نُبادِلُهْ

٤ — ليومِ حِفَاظٍ أو لدَفْعِ كَرِيهةٍ إذَا عَيَّ بالحَمْلِ المعضَّلِ حامِلُهْ

قولُه « فما من فتًى » بيتٌ فيه تقديم وتأخير ، وتلخيصُه مُبيِّناً مُماداً كلَّ شىء إلى موضعه : ما مِنْ فتًى من الناس كُنَّا نبتغى به واحداً منهم عميداً نبادله[3] . فعلى هذا قوله « من الناس » مِن صفة الفتى ، وبه يعود الضمير إلى الفتى . والمعنى : كُنَّا بسببه نبتغى واحداً منهم — أى من الناس — عميداً ، من صفة

= والآخر القلاخ بن زيد أحد بنى عمرو بن مالك ، وهو القائل :

ولا يستوى يا زيد درج ومجمر وصدر سنان فى الحروب مجرب

والقلاخ العنبرى ، ذكره دعبل فى شعراء البصرة . وهذا هو : قلاخ بن حزن » . وانظر المؤتلف ١٦٨ والاشتقاق ١٥٣ واللآلى ٦٤٧ والشعراء ٦٨٨ .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « من السحاب التى تنشأ عن القبلة » ، وفيه تحريف .

(٢) بمثلها يلتئم الكلام .

(٣) انظر معاهد التنصيص (١ : ١٦) . وهو فى تعقيده شبيه بقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

الواحد ، لأنّا جعلنا واحداً مفعولا لنبتغى . نُبادله ، أى نُبادِل به الناسَ ، فحذَف الجارَّ وقال نبادله . على هذا قول عارقٍ الطائىّ :

* وليس من الفَوتِ الذى هو سابقُه[١] *

أى سابقٌ به . وخبر ما محذوف ، كأنّه قال : ما فتًى ذا صفته بموجودٍ فى الدنيا ، وما أشبهه .

وقوله « ليوم حِفاظٍ » اللام تعلّق بقوله نبادله ، [أى نُبادِل[٢]] به لهذا الشأن ، وهو أن يحافظ على حسبِه محافظةَ الكرام ، أو يدافعَ الكرائهَ والشدائدَ لدى الجدَلِ والخصام ، فى وقتٍ من الزَّمان يعزُّ مِن العَشيرِ مَن يَكفيه المضيمة ، وتَرَى الناهضَ بالأثقال لتَضاعُفِ المُؤَن والبلايا يَعيا بما يحمله فيعدُّه داء عُضَالا . وأصل العضل : المَنع والتضييق . ويقال عَضَلت المرأةَ وعَضَّلْتُها ، إذا منَعتَها من التَّزويج . وعَضَّلَت ، إذا عَسُرَ وِلادُها[٣] .

٥ — وذِى تُدْرَإٍ مَا اللَّيثُ فى أصْلِ غابَةٍ   بأشْجَعَ مِنهُ عند قِرْنٍ يُنازِلُهْ[٤]

٦ — قَبَضْتَ عَلَيهِ الكَفَّ حَتَّى تُقِيدَهُ   وحَتَّى يَفِى للحقِّ أخْضَعَ كاهِلُهْ

قوله « وذى تُدْرَإٍ » الواو عاطفة ، وانجرّ ذى بإضمار رُبَّ . وتُدْرأ : تُفعَل من الدَّرْء ، وهو الدَّفعُ بشِدّة . فيقول : رُبَّ رجلٍ هكذا ما الأسدُ فى خِدره بأقوى قلباً منه نظيرٍ له فى بأسه وشِدّته بنازله . فقوله « ما الليث » إلى آخر البيت ، من صفة ذى تُدْرَإٍ . والغابة : الأجمة . وإنّما قال « فى أصل غابةٍ »

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « من الموت » من حاشية تأتى فى الرابع . وصدره :
* إلى المنذر الخير بن هند تزوده *

(٢) التكملة من ل .

(٣) الولاد : الولادة . وفى الأصل : « ولدها » ، صوابه فى ل .

(٤) التبريزى : « فى أصل غابه » .

إشارة إلى دخولِه وتمكُّنِه من غايَتِها. والمنازَلة إنما تكون عند تضايُقِ المجال وتَدانِي [أطراف[1]] موضع الالتقاء، عن الإقدام والإحجام.

وقولُهُ « قبضْتَ عليه الكفَّ » يقول: جَمعتَ عليه قبضَتَك فمنعتَه عن الانفصال عند الخروج من إسارِكَ، حتى أمكنَكَ من الاقتياد منه، وحتى عاد كاهلُه خاضعاً للحق راضياً به. والخطاب بجميع هذا للمرثيّ. وإنما يصفُه بحُسْن الثَّبات في معاركة الخصوم ومزاولتهم، وأنَّه باقى الصَّبرِ في استيفاء الحقوق عليهم. وقوله « كاهلُه » يجوز أن يرتفع بقوله يَنِى[2] ويجوز أن يرتفع على البَدَل من المضمر في يَنِى، وحينئذ يحتمل ضميراً لذى تُدرإ. وأخضعَ ينتصب على الحال في الوجهين جميعاً، ويجوز أن يرتفع أخضَعَ فيكون خبرًا مُقَدَّما، وكاهِلُه يكون مبتدأ. والأخْضَع: الذى في عنقُه انخفاضٌ وتطأطؤ.

٧ — فَتًى كان يَسْتَحْيِى ويَعْلَمُ أنه   سَيَلْحَقُ بالمَوْتَى ويُذْكَرُ نائلُهْ

[راجَعَ الإخبارَ عنه ثانياً[3]] فيقول: هو فَتًى كان الحياء يملكُه فلا يتعاطَى ما يقبُح في الأحدوثة، ولا يَسمعُ منكَراً إلَّا ألغاه، ولا رأى مستشنَعاً إلَّا رفضَه وأقصاه، ليطيبَ مَسْمَعُ ما يُرْوَى عنه، ومنظرُه فيما يُشاهَدُ منه. وقوله « ويعلم أنه سيلحق بالموتى » يقول: تيقَّن أن الخلودَ لا مطمعَ فيه، فإنَّ الذى له من المال ما يقدِّمه لمَثُوبة، وادِّخاراً لأُكرومة، إذا تُحُدِّث عنه بها كان ذِكرُه حَيًّا وإن كان الشَّخص فينا مغيَّبا.

---

(١) التكملة من ل.

(٢) ابن جنى: « أراد ينوء، أى يرجع، فحذف الهمزة البتة، كما حكى عنهم: جا يجى، وسا يسو ».

(٣) التكملة من ل.

٣٦٣

وقال الضَّبِّيُّ :

١ — أأُبَيُّ لا تَبْعَدْ وليس بخالدٍ حَيٌّ ومن تُصِبِ المَنُونُ بعيدُ

٢ — أأُبَيُّ إن تُصْبِحْ رَهِينَ قرارةٍ زَلَجِ الجوانبِ قَعْرُها مَلحودُ[1]

٣ — فلَرُبَّ مكروبٍ كَرَرْتَ وراءهُ فمَنَعْتَه وبنو أبيهِ شُهُودُ

٤ — أنفًا ونَحْمِيَةً وأنَّك ذائدٌ إذ لا يكادُ أخو الحِفاظِ يَذُودُ

٥ — ولَرُبَّ عانٍ قد فَكَكْتَ وسائلٍ أعطيْتَهُ فغدًا وأنتَ حميدُ

٦ — يُثْنِي عليكَ وأنتَ أهْلُ ثَنائِه ولَدَيْكَ إمَّا يَسْتزِدْكَ مَزِيدُ

البيت الأول يشتمل على أنواع ثلاثة من الكلام: فقوله « لا تَبْعَدْ » ما يُندب [به[2]] الموتَى على إظهار الفاقة إلى حياته ، وقد مرّ القول فيه[3] . وقوله « وليس بخالدٍ حَيٌّ » تَسَلٍّ[4] وإيمانٌ بمحتوم القدَر ، وأنَّ ذلك يوجب على المُصاب الصَّبرَ والائتساء بفِرَق الخلق . وقوله « ومَن تُصبِ المَنُونُ[5] بعيد »

---

(١) التبريزي : « زلغ » . والزلغ ، بالفتح : الدحض المزلة ، وهو وصف بالمصدر . ويقال مكان زلغ أيضاً بفتح فكسر . وكتبت في ل لتقرأ « زلج » و « زلغ » بنقطة في الأعلى وأخرى في وسط الجيم ، وهما بمعنى .

(٢) هذه من ل .

(٣) انظر ما مضى في ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

(٤) في الأصل : « تشك » ، صوابه في ل .

(٥) التبريزي : « قال أبو العلاء : قوله ومن تصب المنون جزم بمن ، ولم يأت الشرط بالجواب . وهذا على إرادة الفاء ، كأنه قال : ومن تصب المنون فهو بعيد . ومثله :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

أراد : فالله يشكرها . ومثله قول أبي ذؤيب :

فقلت تحمل فوق طوقك إنها مطبعة من يأتها لا يضيرها » .

تبرُّؤٌ من الجزع على عادة الناس فى المصائب واعتراف بأن الموت يبعد الالتقا بين الأحياء والأموات ، فلا تزاوُرَ ولا تراسُل ، ولا تخاطُب ولا تكاتُب فكلُّ هذا تحسُّرٌ وتوجُّعٌ .

وقوله « أأُبَىُّ إن تُصْبِحْ رهين قرارةٍ » جواب الشَّرط أوّل البيت الذى يليه ، وهو قوله « فلربَّ مكروبٍ » . والمعنى : إنْ خلَّيتَ مكانَك من الدُّنيا وصِرْتَ مرهونًا فى قرارة قبرٍ زَلِقِ الجوانب ، صريعُه لا يُنعَشُ ، ورهينُه لا يُفَكّ ، وأسيرُه لا يُتخلَّص بمنٍّ ولا فِداء ، ولَزِيمُه لا يَتَمَلَّسُ[1] لوقت وعِدَادٍ ، فلربما فعلْتَ كذا وكذا . وقوله « قعرُها ملحود » ، تصوير للقبر بلحده .

وقوله « فلرُبَّ مكروبٍ كررتَ وراءه » يريد : رُبَّ مُضَيَّقٍ عليه أسلَمَه بنو أبيه لمَّا امتُحن به حتى تمكَّن العدوُّ منه ، أنتَ تعطَّفتَ عليه ، وصرفتَ عنايتك إليه ، فخفَّفتَ ثِقْلَه ، وألقيت عنه وِزرَه ، ودفعتَ من فَوْرَتِهِ[2] دونَهُ ، ومواليه من بنى الأعمام وغيرِهم حضورٌ لا يَرْعَون له إلًّا ، ولا يحفظون له عهدًا .

وقوله « أنفًا ومَحْمِيَةً » انتصب على [أنه[3]] مفعول له ، وما بعده معطوفٌ عليه وفى معناه ، كأنه ذكر العِلّةَ الموجِبة لما أتاهُ فقال : فعلتَ ذلك حَمِيَّةً وأنفةً ، وأنَّ عادتَك المدافعةُ عن كلِّ مَن يتعلَّق بحبلك ، أو يتمسَّك بعُروةٍ من عُرَى عنايتك ، غريبًا كان أو نسيبًا ؛ وهذا تفعله فى وقتٍ يزهد

---

(١) التملص والتفلت . فى الأصل : « التمكس » ، صوابه فى ل .

(٢) المألوف فى التعبير « من فوره » أى قبل أن يسكن . لكنه أراد المرة من الفور .

(٣) التكملة من ل .

الناس في الإحسان، لشدَّة الزمان، ويرى المحافظ ممسكاً والمُراعِي مُهمِلا .

وقوله «ولَرُبَّ عانٍ قد فككتَ» فالعاني : الأسير، وأصله من عنا يعنو، إذا خضع . على ذلك قولُه تعالى : ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ القَيُّومِ﴾ . فيقول : رُبَّ مأسورٍ أخرجتَه من ضيق الإسارِ إلى سَعَة الأمانِ ، فأطلقتَ كَبْلَه ، ونزعتَ غُلَّه ؛ ورُبَّ سائلٍ اجتداك فأغنيتَه ، وعن التَّجوال أقعدتَه ، فانصرفَ عنكَ وهو يُثني عليك ويتشكَّر[1] نعمتك ؛ وقد استحققتَ عليه ذلك بما أسديتَه إليه ، ولو عادَ إليك لوجد مَعاداً لا ضَجَر منك يلحقُه ، ولا سآمةَ فيك تمجُّه ، وإن استزادَ زِدتَه ، لا يُمنَع من موجود ، ولا يُحالُ على مفقود .

٣٦٤

وقال عِكْرِشَةُ أبو الشَّغْب[2]

يَرْثِي ابنَه شَغْبًا :

١ – قد كان شَغْبٌ لوَ انَّ اللهَ عَمَّرَهُ عِزًّا تُزَادُ بهِ في عِزِّها مُضَرُ

٢ – فارقتُ شَغْبًا وقد قوِّستُ من كِبَرٍ لبِئْسَتِ الخَلَّتانِ : الثُّكْلُ والكِبَرُ

يعظِّمُ شأنَ ابنه ، وذلك أنه كان قد برع في فضله ، وورد أبوابَ الملوك فقبلته العيونُ والقلوبُ نَباهةً وحَلاوةً ، وتوجُّهاً وتقدُّمًا . فقال : لو أنَّ القضاء أمهَلَ ابني شَغْبًا ولم يُعاجِلْه[3] عن استكماله ، وعن الاستمتاع بما توحَّد به من فضائله ، لكان بقاؤه عزًّا مُستجَدًّا لقبائلِ مُضَرَ كلِّها ، تُضيفُهُ إلى عزِّها ، وتتبجَّح باستقرارها .

---

(١) هذا ما في ل . والتشكر : الشكر . وفي الأصل : «ويشكر» .

(٢) سبقت ترجمته في الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٧ .

(٣) في الأصل : «يعالجه» ، صوابه في ل .

وقوله « فارقْت شَغْبًا » عاد إلى ما يخصُّ نفسَه من الفَجْع بموته ، والجزع لفراقه ، فقال : فارقْته والـكِبَرُ قد صالحنى ، وحَنَى ظهرى ، وانتقصَ جَلَدِى ، وأوهَنَ قُوَاى ، ولا أملَ فى إدراكِ مِثلِه ، ولا استقلالَ بالنُّهوض بأعباءِ أهله . ثم قال متحسِّرًا : بئست الخَلَّتان المجتمعتان لى : ثُـكلُ مَن لا يُعتاض منه أبدَ الدَّهر ، والـكِبَرُ المقصِّر للأمل ، المقرِّب ليوم الأجَل .

٣٦٥

وقال آخر يرثى ابنَه :

١ — للهِ دَرُّ الدّافنيك عَشيَّةً أمَا راعَهُمْ فى القَبرِ مَثْواكَ أمرَدَا

٢ — مُجاوِرَ قومٍ لا تَزاوُرَ بَينَهُمْ ومَن زارَهم فى دارِهم زار هُمَّـدا

قوله « للهِ دَرُّ الدّافنيك » ، فدَرٌّ ، وإن كان فى الأصل مصدراً فقد لَزِمَ هذا الموضعَ وجرى الـكلمةُ به لـكثرةِ الاستعمال مَجرى : للهِ خَيرُك ، فلا يَعمل فى ظرفٍ ولا فى حالٍ ؛ ولا فى شيء مما يعمل فيه أمثالُه من المصادر . فيقول على وجه التعجُّب مِن الذين تولَّوْا دفْنَه فى عشيَّةِ يومِه : لله دَرُّهم ، أمَا أفزَعَهُم مُقامُك فى القبرِ على استقبال شَبابِكَ ، ونضارةِ غُصنِكَ وقُرْبِ ميلادِكَ ، حين لم تجتمع نفسُك ، ولا توَجَّه وَجْهُك . وفى طريقته قولُ الآخر[1] :

أيَا شَجَرَ الخـابورِ مالكَ مُورِقًا كأنك لم تَحزن على ابنِ طريفِ[2]

---

(١) هو الفارعة ، أو فاطمة ، أو ليلى بنت طريف ، أخت الوليد بن طريف . حماسة البحترى ٤٣٥ ووفيات الأعيان فى ترجمة الوليد بن طريف .

(٢) أنشد القالى أربعة أبيات من قصيدة البهت فى الأمالى (٢ : ٢٧٤) وفى العقـد (٣ : ٢٧٩) ستة أبيات منها ، على حين أنشد ابن خلكان القصيدة بأجمعها .

وأبلغ منهما قول الآخر[١] :

أَبَعْدَ قَتِيلٍ بالمدينة أَظلَمَتْ به الأرضُ تَهتَزُّ العِضَاهُ بأَسْوُقِ

وانتَصَبَ « أمرد » على الحال ، وأصل التمرُّد التملّس والانجراد . يقال : صَخرةٌ مَرداء ، إذا لم ينبُت عليها شيء .

وقوله « مُجاوِرَ قومٍ لا تَزاوُرَ بينهم » هذا حالُ الأموات فيما بينهم ، يتجاورون ولا يتزاوَرُون ، ومَن زارهم من الأحياء منّا انصَرَفَ عنهم بالخَيبة ، والزِّيادةِ فى الغُمّة والحَسرة . والهُمَّد : جمع هامد ، وهو الميِّت ؛ وأصله من هُمُود النار . ويقال للثَّوب إذا بَلِىَ : قد هَمَد .

٣٦٦

وقال لبيد[٢] :

١ — لَعمرِى لئن كان المُخَبِّرُ صادقًا لقد رُزِئَتْ فى حادثِ الدهرِ جَعفرُ[٣]

٢ — أخًا لِىَ أمّا كلَّ شىءٍ سألتُه فيُعطِى وأمّا كلَّ ذَنبٍ فيَغفِرُ

يرثى بهذا أربدَ أخاه . وقوله « إن كان المخبِّر صادقًا » فهو قد عَلِمَ صِدقَ الحديث ، لكنّه لاستعظامه للنَّبأ ، وفخامة أمر المتوفَّى فى النفوس وعِندَه ، يَرجع على المخبِّر بالتكذيب ، ويُدْخِل الشَّكَّ على المشهود والمسموع ، كما قال الآخر[٤] :

(١) هو الشماخ بن ضرار . وسيأتى فى الحماسية ٣٨٨ .

(٢) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامرى ، الشاعر المشهور ، وأحد مخضرمى الجاهلية والإسلام . ابن سلام ٤٨ والشعراء ٢٣١ — ٢٤٣ والأغانى (١٤ : ٩٠ — ٩٨) والخزانة (١ : ٣٣٤ — ٣٣٩) وطبقات ابن سعد (٦ : ٢٠) وأسد الغابة والإصابة والاستيعاب .

(٣) الأبيات فى ديوان لبيد ٣ طبع ١٨٨١ .

(٤) هو النابغة يرثى حصن بن حذيفة بن بدر ، كما فى شروح سقط الزند ٨١٣ .

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نُفوسُهم[1] *

واللام من « لَعَمْرِى » لام الابتداء ، ومن قوله « لئن » هى الموطِّئة للقسم ، ومن قوله « لقد » هى جواب القسم .

والمعنى : وبقائى لئن ورَدَ هذا الخبرُ من صادقٍ برىء من الحسد والتزيُّد مؤدٍّ لما تحققه سماعاً أو عِياناً . لقد أصيبت قبيلةُ جعفر بن كلابٍ فيما حدث من رَيْب الدهر بمَرْزِئةٍ عظيمة فظيعة .

وقوله « أخاً لى » انتصب عن « رُزِئَتْ جَعفر ، أى رُزِئَتْ شقيقاً لى هذا صفتُه ، وهو أنَّ سماحَتَهُ وتكرُّمَه كانا يبعثانِه على بذلِ كلِّ حَسنة تُقتَرَح عليه ، وأنّ سلامتَه وسُهولتَه تَدْعوانِه إلى التَّجافى عن كلِّ سيِّئة تَبدُرُ إليه .

٣٦٧

وقالت زينب بنت[2] الطَّثْرِيَّة[3] ترثى أخاها :

١ — أَرَى الأَثْلَ مِنْ بطنِ العقيقِ مجاوِرِى مُقيمًا وقد غالَتْ يَزيدَ غوائلُه[4]

الأَثْلُ : شجر . وإنما قالت ما قالت منكِرةً ومستوحِشة ، إذ كان الحكمُ

---

(١) عجزه : * فكيف بحصن والجبال جنوح *

(٢) كلمة « بنت » ساقطة من النسختين .

(٣) الطثرية أمها ، وهى من الطثر ، بالفتح : حى من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » . وضبطها صاحب القاموس بالتحريك . وهى ترثى بهذه الأبيات أخاها يزيد بن صنمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر ، وكان يزيد جميلا شريفاً متلافا ، توفى سنة ١٢٦ . وروى أبو الفرج فى الأغانى (٧ : ١١٦) أن الأبيات لأم يزيد ، وهى من الأزد . قال : ويقال إنها لوحشية الجرمية .

(٤) الأبيات فى حماسة البحترى ٤٣٣ والبيان للجاحظ (١ : ٢١٦) والأغانى وأمالى القالى (٢ : ٨٥) . والبيتان ٢ ، ٣ من هذه المقطوعة قد رويا فيما مضى فى الحماسية ٢١١ للعجير السلولى . قال القالى : « وفيها أبيات تروى للعجير السلولى ولها » .

عندها أن تتغيَّر الأمورُ عن مقارِّها لموت أخيها، فتتحوَّلَ الأحوالُ وتتبدَّلَ الأبدال، وتتخشَّع الجبالُ، وتتقلَّع الأشجار؛ فلمَّا جرَى الأمرُ بخلافه أخبرَتْ متوجِّعة ومتحسِّرَة، فقالت: إنَّ بطنَ العقيقِ ومنابتَ أثلِهِ بما تحويه أرى مقيما في جِوارى على ما كان عليه، وأخى يزيدُ قد دَعاهُ محتومُ القضاء فذهَبَ به غوائلهُ. ويقال: غالته الغوائل، أى أهلكَتْه المُهلكات، وهذا كما يقال: عَلِقَتْ به العَلُوقُ. وانتصب «مقيما» على أنَّه مفعول ثانٍ لأرى، ومُجاورِى في موضع الجرّ على أنَّه صفة لبطن العقيق.

٢ — فَتًى قُدَّ قَدَّ السيفِ لا متضائِلٌ وَلا رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وَأَباجِلُهْ[1]

وصَفه بأنَّه في خِلقة السيف تجرُّدًا واقتضاباً، وعلى خُلُقه مضاء ونفاذاً. وقوله «لامتضائِلٌ» يريد أنَّه شهمٌ حىُّ النَّفس والقلب، جرىءُ المُقدَم، لا يتخاشَعُ لشىء ولا يتماوَتُ على حَدَث. والضُّؤولة، أصلُه الدِّقَّة. والرَّهِل: المُسترخى. يصفُه بقِلَّة اللَّحم على الصَّدر والسَّاق. والأباجل: جمع أبْجَل، وهو عِرْقٌ[2]. وذكَرَ الأباجِل وهو يريد مواضعها. وجَمَعه كما يقال هو ضَخم العثانين، كأنَّه أراد ما حَولَه.

٣ — إذا نَزَلَ الأضيافُ كانَ عَذَوَّرًا عَلَى الحَىِّ حتَّى تستقلَّ مراجِلُهْ

العَذَوَّرُ: السَّيِّئُ الخُلُق، القليلُ الصَّبر فيما يطلبُه ويُهمُّ به. وإذا ظرفٌ لقوله «كان عَذَوَّرًا». وصفَه بأنَّه يجمع الحىَّ لأمره فيُطَاعُ، لسيادته وجَلَالة محلِّه، وأنَّه إذا نزلَ به الأضيافُ قام بنفسه في إقامة القِرَى لهم، غيرَ معتمدٍ على أحدٍ فيه، وأنَّه يعرِض له وفى خُلُقه عَجَلَةٌ يركبها، وتشدُّد في الأمر والنَّهى على جماعة الحىّ به يصرِّفُها، حتَّى تُنصَبُ المراجل، وتُهيَّأ المطاعم؛ فإذا ارتفع

(١) التبريزى: «وبآدله»، وهى رواية البحترى والقالى أيضاً.

(٢) هو عرق فى باطن الذراع. أو هو عرق غليظ فى الرجل.

ذاكَ على مُرَادِهِ عاد إلى خُلُقِهِ الأوّل . والمراجل : جمع مِرْجَل ، وهى القِدْر العظيمة النُّحاسية ، واستقلالُها : انتصابُها على الأثافىّ . وحتَّى تَسْتقلّ ، أراد لتستقل وكى تستقلّ . أى كان عَذَوَّرًا لذلك الشأن .

٤ — مَضَى ووَرِثْنَاهُ دَرِيسَ مُفَاضَةٍ وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا طَوِيلًا حَمَائِلُهْ

يقول : أجاب دَاعِيَهُ فمضى لوجهه ، وورِثْنَاهُ دَرِيس مُفَاضَــة . فانتصب دريسَ على أنّه مفعول ثانٍ . ويقال : ورِثْتُه كذا وورثتُ منه كذا . فعلى هذه اللُّغة كان أصله وَرِثنا منه ، فحذَفَ الجارّ ، ووصل الفعلَ فعمِل . والدَّريس : الخَلَق من الدِّرع وغيره ، لأنَّه كأنّه فعيلٌ بمعنى مفعول . والجمع الدِّرْسان . والمُفاضة : الدِّرْع الواسعة . وأبيض ، أى وسيفاً أبيضَ . وجعله طويلَ الحمائل لطول قَوَامِه . والمعنى أنّه أنفقَ مالَهُ فى ما ادَّخَر له أجْرًا ، ونَشَرَ لهُ حَمْدًا وشُكرا ، فلم يكن إرْثُهُ إلّا ما ذَكَر من السِّلاح .

٥ — وقد كان يُرْوِى المشرفىَّ بكفِّه ويَبلُغ أقصَى حَجْرَةِ الحىِّ نائلُهْ[1]

وصَفه بأنّه كان غزّاء شديدَ النكايةِ فى الأعداء ، فكان يُعطِى السيفَ حقَّه إذا أعمله ، ويُرويه من دِماء مُشاقِّيه ومُنابِذِيه إذا جرّده ، ويبلغُ أبعــد ناحيةِ الحىّ عطاياه . وإنما قالت « يُروِى المشرفىَّ بكفِّه » لأنها تريد أنَّ نهضتَه فى ذلك بنفسه خاصَّةً من غير اعتمادٍ على حميم أو غريب ؛ لأنه كان لا يجرُّ الجرائرَ على ذويه ثم يتركهم لها ، ولكن كلُّ ما أتاه أو تجشَّمه فبنفسه لا بغيره .

٦ — كريمٌ إذا لاقيتَهُ متبسِّمًا وإمّا تَوَلَّى أشْعَثُ الرَّأْسِ جافلُهْ

قولها « كريم » ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أرادت : هو كريم إذا لاقيتَه متبسِّما . فانتصب « متبسِّما » على الحال . وجواب إذا يدلّ عليه كريم .

---

(١) هذا البيت وتاليه وتفسيرهما ساقط من نسخة الأصل ، وإثباتهما مع تفسيرهما من ل .

فتقول : إذا لقيتَه راضياً ساكناً متبسِّما لاقيتَ منه طَلْعَةَ الكرام وأفعالَهم ، وإن أعرضَ عنك وولَّى وجدتَه أغبرَ الرأس كثير الشعر ، لا يهمُّه أمرُ نفسه فى اللِّباس والطَّعام ، وإنَّما به الغزْوُ والسَّعْى فى إصلاح أمر العشيرة ، وما يَكسِبُه الجمالَ والشَّرف .

وقولها « أشعث الرأس » أى اغبرَّ شعرُه وتلبَّد . والفعل منه شَعِثَ شَعَثاً وشُعوثةً ، وهو أشعثُ وشَعِثٌ . وقولها « جافله » من قولهم : أخذتُ جُفْلةً من الصوف ، أى جُزَّةً منه . وفى كلامٍ لهم عن الضائنة : « أُجَزُّ جُفَالًا[1] » . ويقال : جافل ، ومُجْفِل .

٧ — إذا القومُ أمُّوا بيتَه فهو عامِدٌ لِأَحْسَنِ ما ظَنُّــوا به فهو فاعِلُهْ

يجوز أن يريد بالقوم رجالَ الحىِّ خاصَّة ، ويجوز أن يريد به طوائفَ الرِّجال ، ويكونَ المرادُ به الكثرة . وإنما وصفَتْهُ بأنه مدبِّر العشيرة عند ما يَدهَمهم ، والمشيرُ عليهم فيما يَحزُبُهم ، فإذا قصَدوا حضرتَه قائلينَ ما نأمرُ وكيف نَصْنع ؟ أرشَدَهم وهَداهم ، وتحمَّل عنهم ما يَثقُل عليهم . ثمَّ بَعدَ ذلك تعَمَّدَ إلى أحسنِ ظنونهم به فيأتيه معهم لا متبرِّمًا ولا مُتكرِّهًا ، بل باسطاً من آمالهم ، وجامعاً الحسنَ[2] فى كل بابٍ لهم .

٨ — تَرَى جَازِرَيْهِ يُرْعَدَانِ ونارُهُ عَلَيْها عَدَامِيــلُ الهَشِيمِ وصامِلُهْ

٩ — يَجُرَّانِ ثِنْيًا خَيْرُها عَظْمُ جارَةٍ بصيراً بها لم تَعْــدُ عنها مشاغِلُهْ[3]

---

(١) هو مما وضعوه على لسانها . وفى اللسان : « أولد رخالا ، وأحلب كثباً ثقالا ، وأجز جفالا ، ولم تر مثل مالا » . قوله جفالا ، أى أجز بمرة واحدة ، وذلك أن الضائنة إذا جزت فليس يسقط من صوفها إلى الأرض شىء حتى يجز كله ويسقط أجمع .

(٢) ل : « الحسنى » .

(٣) التبريزى : « عظم جاره » .

جعلتْ له جازِرَيْنِ على عادتهم فى جعلهم أصحابَ المِهَنِ فيهم اثنين اثنين ، كالبائنِ والمُسْتَعْلِى فى الحَلَب ، والماتح والقابل فى الاستقاء . وجعلَهما يُرْعَدَانِ لشدّة البرد ، وإنما تعني وقتَ الجَدْبِ وعند إمحالِ الناس . والمداميل : العَتيق من الخشب الغليظ ، واحدها عُدْمُولٌ على القياس وعُدْمُلِيٌّ . والصاملُ : اليابس . والمعنى : إذا اشتدَّ الزَّمانُ وشَمِلَ القَحْطُ واشتدَّ البرد ، كان له جازِرَان ينحران ، ونارُه عظيمةٌ وَقودها من الحطب الغِلاظ العُتُق ؛ وترى العُفاةَ والمَضْرُورِين[1] بالفِناء نازلين ، وذَوِى الحاجة من جوانب الحىِّ يَعتَرُّون ، وهو يقتَسِم فيها ما يُرضيهم .

وقولُها « يَجُرَّان ثِنْيًا » يعنى الجازِرين . والثِّنْى : التى ولدت بطنَيْن ، وهى مما يُضَنُّ بها . وقولها « خَيرُها » تريدُ : خيرُ أبدانها ومفاصلِها البَدْءُ الذى يُجعل لجارةٍ له قد عَرَفها ، فهو بصيرٌ بها وبحالها . وليست تعنى جارةً بعينها ، إنما المراد الكثرة ، فالجاراتُ على ذلك لا تتخطَّاها أشغالُه المزدحمة ، ولا يغُضُّ العنايةَ بها الأسبابُ المتراكمة ، بل قد وصَّى بها وبأمثالها فيُتفقَّدْنَ بأوفر الأنصباء عند قسمة الجزور . وقالت « بصيراً بها » والفعل للمرئىِّ ، فجرى على غَير من هوله ، لأنه تبع الجارة ، وإذا كان كذلك فالواجب كان عليها أن تظهر ضميره فتقول بصيراً بها هو ، لأن اسم الفاعِل والصفة المشبّهة إذا جرَى واحدٌ منهما على ما قبلَه صفةً أو صِلةً أو حالا أو خبراً لم يَحتمل الضمير كما يحتمله الفعل ، لِضَعفه وانحطاطِ منزلته . وأكثرُ أصحابنا على أنه لا بدَّ من ذلك ، حتى أن أبا الحسنِ كان يلحِّن الكلامَ إذا لم يَجرِ على هذ السَّنَن . والكوفيُّون وبعض أصحابنا يُجوِّزون تركَ إظهاره . وهذه الشاعرةُ دعتْها الضرورةُ إلى وَضْع المتصل موضعَ المنفصِل ، فتَركت التفسير . وقولها « لم تَنْدُ

---

(١) المضرور : الذى أصابه الضر . فى الأصل . « المصرودين » صوابه فى ل .

عنها » أى لم تَصرِف . يقال : عَدَت بيننا عَوَادٍ ، أى صَرَفَتْ صوارف .

٣٦٨

وقال أبو حكيمٍ المُرِّىّ[١] :

١ ــ وكنتُ أُرَجِّى من حَكيمٍ قِيامَهُ ... علىّ إذا ما النَّعْشُ زَالَ ارتدانِيَا

٢ ــ فقُدِّمَ قَبْلِى نَعْشُه فارتَدَيْتُهُ ... فياويحَ نَفسِى من رِداءٍ عَلَانِيَا

النعش : شَبيهٌ بالمِحَفَّة ، كان يُحمَل عليه الملكُ إذا مرِض ؛ ثمّ كثُر حتّى سُمِّى النَّعشُ الذى فيه الميِّت نَعْشاً . يقول : كنتُ أؤمِّل فى حكيمٍ ابنى أن يُمْهَل ويُنفَّس مِن عمره ، فيقومَ علىّ إذا مُتُّ ، ويرتَدِىَ نَعشِى إذا حُمِلْتُ ، ثمّ بعد ذلك يَقضِى فيما أخلِّفه عليه ، وأعتمد على كفايته وخلافته ، فخابَ أملى وكَذَبنى ظنِّى ، وقُدِّمَ قبلى ، فارتديت أنا نعشَه ، فوا ابلاءَ نفسى مِن رداء علانى بنعشِه . وقوله « ارتدانيا » تفسيرٌ لقيامه عليه[٢] . وقد وَضَع الماضىَ موقع المستقبل ؛ أى يرتدينى فى ذلك الوقت . ولو ساقَ الكلامَ على تلاؤمٍ لقال : قيامَهُ علىّ وارتداءه إيّاىَ إذا ما النَّعش زال ارتدانيا ، أى يرتدينى ، فيكون إذا ما النَّعش زَال ظرفاً ، وارتدانى مفعول أُرَجِّى . أىْ أرجوه يرتدينى إذا ما النَّعش زال .

---

(١) قال التبريزى : وكان أبو حكيم قد قال :

يقر بعينى وهو ينقص مدتى ... مرور الليالى أن يشب حكيم

مخافة أن يغتالنى الموت دونه ... ويغشى بيوت الحى وهو يتيم

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « على » .

٣٦٩

وقال مُنْقذُ الهِلَالىُّ(١) :

١ — الدَّهْرُ لَاءَمَ بينَ أُلْفَتِنَا وكذاكَ فَرَّقَ بيننا الدَّهْرُ

٢ — وكذاكَ يَفْعَلُ فى تَصَرُّفِهِ والدَّهْرُ لَيْسَ يَنَالُهُ وِتْرُ

نَسَبَ ما اتَّفق عليه وعلى مُحِبِّيه إلى الدَّهر، فقال: الدَّهر جمَّع بيننا وسوَّى أُلفتَنا، فلمَّا أراد كُلٌّ منَّا أن يفرحَ بصاحبِهِ كما يَهواهُ، ويتمتَّعَ به ويتملاَّه فرَّق بيننا وشتَّت شملنا، فعاد ما كُنا نأمُلُه من التَّملِّى والاستمتاع تبايُنًا وتوجُّعًا(١).

ومعنى وكذاك فرَّق بيننا: ومثلُ ذلك. وأشار إلى ما دلَّ عليه لاءمَ من التَّأليف. يريد: وكتأليفه فرَّق أيضًا. وكرَّر لفظ الدَّهر تفخيما. وموضع كذاك نصبٌ على الحال من فرَّق بيننا. وقوله «وكذاك يفعل فى تصرُّفه» يريد أن الدهر فى مصارفه فعَّال لمثل ما فَعَلَ بنا، يهَبُ ويَرتجع، ويؤلِّف ويفرِّق، ولا يترك شيئا على حاله إلَّا رَيْثَ ما يُسَلِّطُ عليه التَّغيير. وقوله «والدهر ليس يناله وِتْرٌ» يريدُ أنَّهُ يَتِرُ غيرَه فلا يُوتَر، ويَنكِى فلا يُجازَى فليس معَه إلاّ الاستسلامُ لحكمه، والرِّضا بمحتومه. وهذا الذى جعلَه للدَّهر الفاعلُ له القادرُ على كلِّ شىء، تَعالى عن الأشباه.

٣ — كُنْتُ الضَّنِينَ بِمَنْ أُصِبْتُ بهِ فَسَلَوْتُ حينَ تقادَمَ الأَمْرُ

٤ — ولَخَيْرُ حظِّكَ فى المُصيبةِ أنْ يَلْقَاكَ عِنْدَ نُزُولِهَا الصَّبْرُ

---

(١) هو منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالى. قال المرزبانى فى المعجم ٤٠٤: «بصرى خليع ماجن، متهم فى دينه، يرمى بالزندقة، كان فى صدر الدولة العباسية». وأنشد له هذه الأبيات ما عدا الثانى منها. وكان من أصحاب والبة ومطيع وبشار وابن المقفع وأبان. الأغانى (١٦: ١٤٣).

قوله « كنتُ الضَّنينَ » تشكٍّ[١] من الفِراق الواقع بينه وبين مَن يرثيه ، وإظهارٌ لضنِّه كانَ به ، وتنافُسه فيه . فيقول : كنت لا أصْبِرُ عنه ، وأعُدُّ الأوقاتَ التى لا أراه فيها كَثُلْمَةٍ فى العَيش ، ونَقيصةٍ من زَاكى الحظِّ ، إذْ كنتُ لا أرى طِيبَ العيش إلاّ معه ، ولا أعرِف طعمَ الحياة إلا فى صُحبته فلما افترقْنا وتقادَمَ العهد بيننا سَلَوْتُ عنه ، حتَّى كأنِّى لم يَجمعْنى وإيَّاه حَالٌ . وهذا الكلامُ منه استقصارٌ لجزعه ، واعترافٌ بأنَّه لم يَفعَل كُنْهَ الواجبِ عليه عند الرَّزيئة .

وقوله : « والخيرُ حَظُّك » يريد : خير أنصبائك فيما تُصاب به وتَعنو له ، أن يتلقاك الصَّبرُ عندالصَّدمة الأولى لتصونَ به دينكَ ونفسك وعقلك ؛ لأنَّ المرجع إليه ، فألاّ يقسلى الإنسانُ تَسَلِّيَ البهائم أحسَنُ وفى هذه الطريقة قول الخُرَيمىّ :

وإنّى وإن أظهرتُ صَبْرًا وحِسْبَةً ... وصانَعْتُ أعدائى عليكَ لَمُوجَعُ
ولو شِئتُ أن أبْكى دَمًا لبَكَيْتُهُ ... عليك ولكن ساحةُ الصَّبرِ أوسَعُ

٣٧٠

وقالت ابنةُ ضِرَارٍ الضبيّة[٢]

تَرْثى أخاها قَبِيصَةَ بن ضِرَار[٣] :

١ — لا تَبْعَدَنَّ وكُلُّ شَىء ذاهِبٌ ... زَيْنَ المَجَالِسِ والنَّدِىِّ قَبِيصا

« لا تبعدن » لفظة قد مَرَّ القولُ فيها فيما تقدَّم[٤] . وقوله « وكلُّ شىء ذاهِبٌ »

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « تسل » .

(٢) التبريزى : « مية ابنة ضرار الضبية » .

(٣) كان قبيصة بن ضرار أحد فرسان ضبة . وكان قد شهد الكلاب الثانى حين اجتمعت مذحج لقتال تميم ، فهزمتهم تميم وقتلوا قائدهم عبد يغوث بن صلاءة . وكان هذا الكلاب قبل الإسلام بقليل . الأغانى (١٥ : ٧٠ — ٧٢)

(٤) انظر ص ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

تَسَلّ . كأنّها قالت متوجِّعةً : لا تَبْعَد ، ثم عَقَّبَتْه(١) بالتَّسلِّى فقالت : وكل حىّ منا ميِّتٌ ، وكلُّ أمرٍ فينا متغيِّر يا زينَ المجالس والنَّدِىّ يا قبيصة . وقولها «وكلُّ شىء ذاهب» اعتراض بين المنادى وبين الدُّعاء له . والجمل المعترضة بين أنواع الكَلِم تفيد فيها التَّأكيدَ وتحقيقَ معانيها . وقولها « زينَ المجالسِ والنَّدِىّ » ، إنَّما ذكرتْهما وهما واحد لأنّها أرادت بالمجالس مجالسَه خاصةً إذا قُصِدَ لإنزال الحاجاتِ به ، واستخراج المطالب منه ، وأرادت بالندِىّ ناديَ الحىّ . وانتَصَبَ قبيصةُ على أنّه عَطف البيان ليا زَيْن . ويجوز أن يكون على تكرير النِّداء وقد رَخَّمه ، فكأنّه قال : يا زينَ المجالس يا قبيصة .

٢– يَطْوِى إذا ما الشُّحُّ أَبْهَمَ قُفْلَهُ بَطْناً من الزّادِ الخَبيثِ خَميصَا

يصفُه بقِلّةِ الشَّرَه ، وأنّه لا يَرغَب من أعراض الدُّنيا إلا فيما يَزِين ولا يَشِينُ ، ويُستطاب ولا يُستخبَث . وقوله « إذا ما الشُّحُّ أَبْهَمَ قُفْلَهُ » ، يريدُ إذا اشتدّ الزمان فصار كلُّ مالكٍ لشىء يبخَل به حتّى لا يمكنَ انتزاعُه منه . وإذا رَوَيْتَ « أُبْهِمَ قُفْلُه » على ما لم يسمَّ فاعله ، فالمعنى أحكم أمرُه وجُعِل كالفَرض الذى لا يَحتمل التجوُّز . وإذا رويت « أَبْهَمَ قُفْلَه » جَعَل الفعل للشُّحّ ، كأنّ له قُفلا يُبهِمه . وإبهامُه : أن يَجعلَه على وجهٍ لا يُدرَى كيف يُفتَح . فيقول : هذا الرَّجُل يطوى بطناً له صغيراً مضطمِراً من الزّاد السَّيِّئ ، إذا تملّكَ البخلُ النّاسَ لشِدّة الزّمان ، فجعلهم كذلك .

(١) هذا ما فى ن . وفى الأصل : « علقته » .

٣٧١

وقال عِكْرِشةُ الضَّبِّيُّ[1] يَرْثى بَنِيه :

١ — سَقَى اللهُ أَجْدَاثًا ورائى تَرَكْتُها ... بحاضِرِ قِنَّسْرِينَ من سَبَلِ القَطْرِ[2]

٢ — مَضَوْا لا يريدون الرَّوَاحَ وغَالَهُم ... من الدَّهْرِ أسبابٌ جَرَيْنَ على قَدْرِ[3]

الأجداث : القبور ، وكذلك الأجداف بالفاء . ويَعنى بالأجداث قبورَ بنيه . ودَعَا لَهَا بالسُّقيا وجعل موضعَها بحاضر قِنَّسْرِين ، إجلالاً لها وتنبيهاً عليها . وقوله « من سَبَلِ القَطْر » مفعول ثان لسَقَى الله . والمعنى : سقى اللهُ هذه القبورَ التى وصفْتُها من ماء السَّحاب ما سالَ على عَجَلةٍ وبشِدَّة . وخَصَّ ذلك لأنَّها أعذبُ المياه عندهم . والقَصْد فى طَلَب السُّقيا لها أن تبقَى عهودُها غَضَّةً محميّةً من الدُّروس ، طريّةً لا يتسلَّط عليها ما يُزيل جِدَّتَها ونضارتَها . ألا تَرى أنَّه لمَّا أراد ضدَّ ذلك قال :

* فلا سَقَاهُنَّ إلَّا النَّار تضطرمُ[4] *

وقوله « مضوا لا يُريدون الرَّواح » يريدُ : ساروا لا يعرِّجون على شىء ، فلا يريدون لُبثاً ولا مُقاما ، بل استُعجلوا فتَعجَّلوا ، وأهلَكَهم مِن أحداث

---

(١) التبريزى : « عكرشة العبسى » ، وهو الصواب ، وهو أبو الشغب العبسى الذى ترجم فى ص ٩٢٧ .

(٢) البيت ١ ، ٢ ، ٥ فى مجالس ثعلب ٢٤٢ . والبيت ٥ وقبله بيت آخر لم يروه أبو تمام فى اللآلئ ٤٢٨ . وهذا البيت هو :

غطارفة زهر مضوا لسبيلهم ... ألهفى على تلك الغطارفة الزهر

ورواية ثعلب : « فتيانا ورائى تركتهم » .

(٣) ثعلب : « ثووا » .

(٤) صدره كما سبق فى ص ١٠١ :

* إذا سقى الله أرضاً صوب غادية *

الدَّهر أسبابٌ جاءت على قَدَرٍ ، فكأنَّهم كما دُعُوا أجابوا ، وكما تهيَّئُوا أُخِذوا ،
لا تَلوُّمَ ولا اختلاف ، ولا قُصور[1] ولا امتناع .

٣ — ولو يَستطيعونَ الرَّواحَ تَرَوَّحوا مَعِى وغَدَوا فى المُصْبِحِين على ظَهْرِ

يقول : ولو قَدَروا فيما هَمُّوا به من سَيرِهم على النُّزولِ رَوَاحًا لتروَّحوا معى
ولغَدَوا[2] فى صباح اليوم الثانى على ظهر الأرض ولم يَصِيروا مع الأموات فى
بطنها مأخوذِينَ عن حظوظهم ، لكنَّهم استمرُّوا فى المفارقة فِعْلَ مَن لا يَملِكُ
إلَّا ذاك ، ولا اختيارَ له فيما يركبه .

وهذا الكلامُ منه توجُّعٌ وتحسُّر ، حين أُتُوا من حيثُ لم يَشعُروا ، وطُولِبوا
بما لا رَجعةَ فيه ولا استبقاء وإن استُنظِروا .

٤ — لَعمرِى لقد وارَتْ وضَمَّتْ قُبُورُهم أَكُفًّا شِدَادَ القَبْضِ بالأَسَلِ السُّمْرِ
٥ — يُذَكِّرُنِيهِمْ كلُّ خَيْرٍ رأيتُه وشَرٍّ فما أنفَكُّ مِنْهم عَلَى ذُكْرِ

يقول : وبقائى ، لقد اشتملت قبورُهم على فُرسانٍ شُجْعانٍ[3] يمسكون
بالطَّعن أَكُفًّا شدادَ القَبْض على الرِّماح . وإنما قال « وارَتْ وضَمَّتْ » لأنَّ
المُوارِىَ هو السَّاتِر ، وساتِرُ الشىء يكون ضامنًا وغير ضامن[4] . وإنَّما أراد أن
يجعل القبور مُواريةً وضامنة ، فلذلك جمع بينَ اللَّفظين . ثم عقَّبَ هذا بأن
قال : يذكِّرُنيهم الأمورُ التى أنتهى إليها على اختلافها ، فإنَّها لا تخلو من
أن تكون نافعةً أو ضارة ؛ فإن كانت نافعةً كانت خيراً ، وكانت عَمَلَ

---

(١) فى الأصل : « تصور » ، صوابه فى ل .
(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وأخذوا » .
(٣) ضبطت فى الأصل بضم الشين، وفى ل بكسرها . وهذه اللغة الأخيرة حكاها اللحيانى
(٤) اتفقت النسختان فى التعبير عن الضام بالضامن ، ومعناهما متقارب .

دِيمَةً[1] مع مَن يتسبَّب إليه بحُرمة ، أو يُدِلّ بآصِرةٍ . وإن كانت ضارَّة كانت شَرًّا ، وهو الذى يَشْقَى به من يُشاقُّه ويعانِدُه ، حتَّى لا يُخْلِيه منه أو من تَرَقِّيهِ[2] ساعةً ، فلا أزال ذاكراً له بما أعتبِرُه من أمور الدُّنيا وأحوالها ، وأنتهِى إليه فأتأمَّلُه من مسبَّباته فى طوائف النَّاس بعده . ويقال : ما انفكَّ يفعل كذا ، بمعنى ما زال . والذُّكر ، بضم الذال ، يكون بالقلب ؛ والذِّكر بكسر الذال ، يكون باللِّسان .

٣٧٢

وقال رجلٌ من بنى أسدٍ[3] ،

يرثى أخاه وكان مَرِض فى غُربة ، فسأل الخروجَ به هرَباً من موضعه ، فماتَ فى الطريق :

١ – أبعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الفِرارَ فما　　جاوَزْتَ حَيْثُ انتَهَى بكَ القَدَرُ

٢ – لو كان يُنْجِى من الرَّدَى حَذَرٌ　　نَجَّاكَ مِمَّا أصابَكَ الحَذَرُ

يُروى : «أبعطتَ» ، والإبعاط والإبعاد متقاربان . فالإبعاط : الإسراع فى السَّير . ويقال : أبعطتُ من الأمر ، إذا أبيتَه وهَرَبْتَ منه . ويُروَى : «أسرعْتَ من يومك الفِرار» والأوّل أشهر وأجود ، لأن مِن يتعلّق فيها بأبعدتَ .

---

(١) أى دائما : وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : «كان عمله ديمة» ، شبهته بالديمة من المطر فى الدوام .

(٢) كذا فى النسختين . والترق : التدرج ، وليس من الحتمى أن تكون «ترقيه» .

(٣) التبريزى : «ويقال إنها لابن كناسة» . وقد نسبه كذلك ابن خلكان فى ترجمة حماد الراوية ، وذكر أن محمد بن كناسة يرثى حماداً الراوية بهذا الشعر . وسبقه بهذه النسبة ابن النديم فى الفهرست ١٣٥ . أما الجاحظ فى البيان (١ : ٢٥٧) فأتى بذلك مبهماً ، إذ قال : «وقال بعض الشعراء فى بعض العلماء» . والبيت الرابع من هذه المقطوعة ينطق بتصحيح هذه النسبة .

والمعنى : فَرَرتَ من أجلكَ فِرَاراً بعيداً . ومعنى « من يومك » من آخ أَمَدِكَ . وإذا رويت « أسرعت » احتجت إلى إضمار فعلٍ يتعلَّق به من ولا يجوز تعلُّقه بأسرعتَ ، ولا بالفرار لأنه يكون من صلته وقد قُدِّم عليه
وقوله « فما جاوزتَ حيث انتهى بك القَدَرُ » يريد أنَّ الحذر لا يُغنى من القَدَر ، وأنَّك وإن تحزّمتَ[1] فى تغيير الأماكن تَبَاعُدًا من المحذور وتنقَّلتَ فى المنازل هَرَبًا من القدر المحتوم ، فما وجدتَ فيه واقيةً لنفسك ولا جاوزتَ الوقت المُرْصَدَ لحينك . وجعل قوله « حيث انتهى » اسماً فهو فى موضع المفعولِ لجاوزت . ومثله فى القرآن : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ[2] ﴾ . ومن مَحْكِيِّ كلامهم وفصيحه : « هى أحسن الناس حيث نظر ناظرٌ » ، يعنى وجهها .

وقوله : « لو كان يُنجى » جواب لو قوله « نجاك » . والمعنى : إنك لم تُؤتَ من تضجيعٍ وقعَ منك ، أو إغفالٍ اعترض دون طالِبك ؛ فلو كان يخلِّص من الموتِ تَوَقٍّ لوقاك ما أخذت به نفسك من الحَذَر الشَّديد ، والهرب البعيد ؛ ولكن هو الموت الذى لا منجَى منه ولا مَهرَبَ عنه . وكلُّ هذ النوع توجُّعٌ وتحسُّر ، واعترافٌ بالقصور والعجز لدى مُبْرَم القضية .

٣ — يَرْحَمُكَ اللهُ من أخى ثقةٍ لم يَكُ فى صَفْوِ وُدِّهِ كَدَ
٤ — فهكذا يَذهَبُ الزَّمانُ ويَفْنَى العِلْمُ فيه ويَدْرُسُ الأَثَ

قوله « يرحمك الله » استِسلام . والرَّحمة من الله : الإحسانُ والعفو . ومعن

(١) التحزم : اتخاذ الحزم . وهذه رواية ل . وفى الأصل : « حرمت » وهذه محر من « حزمت » .
(٢) هذه هى قراءة جمهور السبعة ، وقرأ ابن كثير وحفص : « رسالته » بالتوحي انظر ما سبق فى حواشى ١٤١ ، وكذلك ص ٥٧٣ .

« من أخى ثقة » دخل مِنْ للتّبيين ، أى من أخٍ يُوثَق بودّه ، ويُؤْمَن غِلّه وو بَالَ حَسَدِه ، وإذا صَافِى الوِداد وافَقَ باطنُه ظاهرَه ، ولم يك ذا وجهين يُعطيك حَضْرَتُهُ خِلاف ما يُعطيك غَيبَتُه .

وقوله « فهكذا يَذهَبُ الزّمان » يريد أنّ ما رآه وأصابَه ليس بمستبدَع من حَدَثَان الدهر ونوائبه ، بل استمراره قديماً وحديثاً على وجهٍ واحد ينقرضُ أهلُه كما أتاه ، ويفنى فيه كلُّ معلومٍ حَوَاه ، ويدرُس كلُّ أثرٍ اقتناه ووَعَاه . وهذا الكلامُ إظهارُ اليأسِ من المفقود ، وتضعيفُ الطّمع فى بقاء الوجود .

٣٧٣

وقالت أمُّ قَيْسٍ الضَّبِّيَّة :

١ — مَنْ للخُصُومِ إذا جَدَّ الضَّجاجُ بهم بعد ابن سَعْدٍ ومن للضُّمَّرِ القُودِ

قوله « إذا جدّ الضجاج بهم » أى صار ضَجاجُهم جِدًّا . ويقال : ضَجَّ يضجُّ ضجيجاً ، والاسم الضَّجاج ، قال العجّاج يصف حرباً :

وأغشَتِ النّاسَ الضَّجاجَ الأضْجَجَا وصاح خَاشِى شرِّها وهَجهَجا[1]

وقوله «مَن للخصوم» لفظه استفهام ، والمعنى التوجع والاستفظاع . فيقول : مَن يَفصِل بين الخُصوم إذا اشتدّ بهم النِّزاع ، وطال الجِدالُ والدفاع ، فاحتِيجَ إلى من يردُّ الجامح ، ويُلين الكاشح ، حتّى إذا رجع كلٌّ منهم إلى ما يقرب مَسْمَعه ، ولا يبعد عن الفَحص مُستنزعه ، أنفذ قضيَّتَه فقطعها ، لا يلفِتهم عن القَبول مراجعةٌ ، ولا تَخلِجُهم عن الالتزام مماتَنةٌ ومدافَعة بعد ابن سعد . ومَن للضُّمَّر القود بعده ، أى مَن أصحابُ الخيلِ المضمَّرة . وتريد : من يدفَعُهم عن اشتطاطِهم إذا جاءوا

(١) سبق فى ص ٧٤٩ .

واترِينَ أو موتورين. ويجوز أن تريد أنّه كان غزا بها فمَنْ لها بعده . والضمّر: جمع ضامر . والقُودُ : الطّوال الأعناق .

٢ ــ ومَشْهَدٍ قد كَفَيْتَ الغائبين به   فى مَجْمَعٍ من نَواصِى الناس مَشْهُودِ

٣ ــ فَرَّجْتَهُ بلسانٍ غيرِ مُلتَبِسٍ   عِنْـــدَ الحِفاظِ وقَلبٍ غيرِ مَزْءودِ

يقول : ورُبَّ مشهدٍ عظيم الشأن يُسأَلُ عن حال حاضريه ، ويُستمع إلى ما يُنْشَر عنه من حِجاجِ منافريه ، تكلّمتَ فيه عن نفسِكَ ونُبْتَ عن الغائبينَ من مُغْتَلِقِى حَبْلِكَ ، واليومُ يومٌ مشهود ، ورؤساء الناسِ وأماثلُهم فيه شهود ؛ ثم كَشَفْتَ الغُمّة ، وأثبَتّ الْحُجّةَ بكلامٍ فصيحٍ لا يلتبس ، وجدالٍ راجحٍ لا يُخيل ولا يَغتمِض ، وقلبٍ ثابت لا يرتَدِع إذا استُنهِض ، ولا يَنتكِس إذا استُقدِم . وقوله « نواصى الناس » أى أشرافهم والمقدّمين منهم . وهذا كما وَصفُوا بالذّوائب ، يقال : فلانٌ ذُؤابةُ قومِه ، وناصيةُ عشيرتِه . وقوله « بلسانٍ غيرِ ملتبس » يريد بكلام . وفى القرآن : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رسولٍ إلا بلِسانِ قَوْمِهِ ﴾ ، وتُسمّى الرِّسالةُ لسانًا . وقال :

* إنّى أَتَتْنِى لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها[١] *

وقوله « غير مَزْءود » فالزُّؤْد[٢] : الذُّعْر ، والفِعل منه زُئِد فهو مزءود .

وقوله « عند الحفاظ » أى فعلت ذلك كلّه عند المحافظة على الشَّرَف ، والاحتماء من عار الهَضِيمة والعَنَتِ .

٤ ــ إذا قَناةُ امرئٍ أَزْرَى بها خَوَرٌ   هَزَّ ابنُ سَعْدٍ قَنَاةً صُلْبَــةَ العُودِ

(١) لأعشى باهلة ، يرثى المنتشر بن وهب الباهلى ، من قصيدة فى الخزانة (١ : ١٢ – ٩٧) ، وهذا البيت أولها . وعجزه :

* من علو لا عجب منها ولا سخر *

(٢) يقال بضمة وبضمتين ، ومثله الزأد ، بالفتح والتحريك .

ذِكر القناة مَثلٌ للإباء والامتناع ، وأنّ المُكرَه[1] لا يُخرِج منهم الخضوعَ والانقياد . ألاَ ترى قول سُحَيْم بن وَثيلٍ :

وإنّ قناتَنا مَشِظٌ شَظاها　　شَديدٌ مَدُّها عُنُقَ القَرينِ

ويقال : مَشِظَتْ يدُه تَمْشَظُ مَشَظاً . والشَّظِيَّة والشَّظا من العصا كاللِّيطَةِ منها ، تَدخُل فى اليد فتَمْشَظُ منها . ومثل هذا قولُ عمرو بن كُلثوم :

عَشَوْزَنَةً إذا غُمِزَتْ أرَنَّتْ　　تَشُجُّ قَفا المُثَقِّفِ والجَبينا

وقال أيضاً :

وإنّ قَناتَنا يا عَمْرُو أعْيَتْ　　على الأعداءِ قَبْلَكَ أن تَلينا

وزاد الآخَر عليهم فقال :

ولَنا قَناةٌ من رُدَيْنَةَ صَدْقَةٌ　　زَوْراءُ حامِلُها كذلك أزْوَرُ

٣٧٤

وقال الجَعْدِىُّ[2] :

١ – ألَمْ تَعلَمِى أنّى رُزِئْتُ مُحارِباً　　فَما لَكِ منهُ اليومَ شىءٌ ولا لِيا[3]

٢ – ومن قَبْلِهِ ماقَدْ رُزِئْتُ بِوَحْوَحٍ　　وكان ابنَ أُمّى والخليلَ المُصافِيا

يخاطب صاحبتَه أمَّ مُحارِبٍ ، ومحاربٌ ابنُه . وقوله « ألم تعلمى » ظاهره تقرير ، وإنما هو تحسُّرٌ وتوَجُّعٌ . لذلك قال : « فما لك منه اليومَ شىءٌ ولا ليا » أى قد فُجِعْنا به فأصبحنا خِلْوًا من الاستمتاع بحياته ، والانتفاع بمكانه . ثم

---

(١) ل : « الكره » .

(٢) هو النابغة الجعدى . سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٣٣ ص ٩٦٨ .

(٣) البيتان ٣ ، ٤ سبقا فى الحماسية ٣٣٤ ص ٩٦٩ ، فيكون مما كرره أبو تمام فى الاختيار . انظر مثيله فى الحماسية ٣٣ كررت فى ٢٠٩ ، و ٢٩٩ كررت فى ٣٦٠ .

ذكر أنه قد فُجِع قبله بأخيه أيضاً ، وكان نسيباً قريباً ، وصديقاً مُصافياً حبيباً .

٣ — فَتًى كَمَلَتْ خيراتُه غيرَ أنَّهُ جَوَادٌ فما يُبْقِى من المالِ باقِيَا

٤ — فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَهُ على أنَّ فيه ما يَسُوءُ الأعادِيا

قوله « فتًى كملت خيراته » يجوز أن يكون فتًى فى موضع النَّصب على المدح والاختصاص ، أى أذْكُرُ فتًى هذه صفتُه . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هو فتًى . وقوله « غير أنه جَوَادٌ » استثناءٌ منقطع ، وقد تقدم الكلام فى مثله ، وأن من كان عيبُه والمستثنَى مِن خصاله المحمودة ما يُذكَرُ بعد غير فناهيك به رَجُلاً كاملا . وقوله « فتًى تَمَّ فيه ما يسرُّ صديقه » مثله ، وقد تقدَّم فى مواضِعَ وشرَحْناه .

٣٧٥

وقال رَجُلٌ من بَنى هِلالٍ[1]

يَرْثِى ابنَ عَمٍّ لَهُ :

١ — أبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ من آلِ مَاعِزٍ يُرَجَّى بمَرَّانَ القِرَى ابنُ سَبِيلِ

٢ — لقد كان لِلسَّارِينَ أىَّ مُعَرَّسٍ وقد كان للغادِينَ أىَّ مَقِيلِ

٣ — بَنِى المُحْصَنَاتِ الغُرِّ من آلِ مَالِكٍ يُرَبِّينَ أولاداً لِخَيرِ خَلِيلِ

يقولُ على وجه الإنكار : أيُرَجَّى ابنُ السبيلِ القِرَى بمَرَّانَ بعدَ المدفون بالنَّعفِ من آل ماعِزٍ . أى لا يكون ذلك ، لأنَّ من كان يشمَلُ خيرُه[2] ويُرْتَجَى النزولُ به مُكْرِمًا ضيفَه قد مات . والنَّعْفُ : ما ناعَفَكَ من الجَبَل ،

(١) كذا عند التبريزى ، ول . وفى الأصل : « من بنى هذيل » .
(٢) كذا فى ل . وفى نسخة الأصل : « يشتمل » .

أى استقبلك ، وقيل : هو ما انحدَرَ عن السَّفح وغَلُظَ ، فكان فيه صَعودٌ وهَبوطٌ . ذكره الدريديُّ ، قال : وجمعُه نِعَافٌ .

وقولُه « لقد كانَ للسَّارِينَ » جوابُ قَسَمٍ محذوف . والتَّعريس : النُّزول عند الصُّبح . والمَقِيل : موضع القَيلولة ، فيقول : مَن أسرى ليلةً ثم طلب من ينزلُ به ، كانَ هذا الرَّجلُ مُعرَّساً له كريماً ، وأيَّ مُعرَّسٍ . وهذا الكلام فيه تعجُّبٌ وتفخيم . وكذلك مَن ارتحل غُدُوًّا ثمَّ أرادَ الرَّواحَ كان فِناؤه له مَقِيلاً طيِّباً وأيَّ مَقِيلٍ .

وقوله « بَنِي المُحْصَنَاتِ » جَمَع إلى ذِكْرِهِ ذِكرَ إخوته ، فقال : أذكُرُ قوماً كرامَ الأطراف ، أمَّهاتهن من الحَصَانةِ والطَّهارة فى أعلى مَحَلّ ، وأبعدِ رُتبة ، ويَرْبُبْنَ[1] أولادًا ابمولٍ لا يُوازَى بهم ، عُلوَّ مَنصِب ، وزَكاء مَنْسِبٍ ، وتقدُّماً فى الشَّرف والإفضال ، وبَراعةً فى جميع الأحوال .

٣٧٦

وقال كَبِدُ الحَصَاةِ العِجلى[2] :

١ — ألا هَلَكَ المُكَسَّرُ يالَ بَكْرٍ فأوْدَى البَاعُ والحَسَبُ التَّلِيدُ

٢ — ألا هَلَكَ المُكَسَّرُ فاستراحَتْ حَوافِي الخيلِ والحيُّ الحَرِيدُ

---

(١) ل : « ويربين » .

(٢) يرثى يزيد بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار ، ولقبه « المكسر » . وقد ضبط بكسر السين المشددة عند التبريزى ، وبفتحها فى الأصل ، ل . والمكسر هو الذى يقول يوم ذى قار :

أنا ابن سيار على شكيمه ... من فر منكم فر عن نديمه
وجاره وفر عن حريمه ... إن الشراك قد من أديمه

وكانت طائفة من طيىء أغارت على بكر بن وائل فأخذوا منهم أخائذ ، فأغار المكسر على طيىء فاكتسح أموالهم وأصاب منهم سبايا ، وأغار زيد الخيل على بنى تيم الله بن ثعلبة ، وقال :

إذا عركت عجل بنا ذنب غيرنا ... عركنا بتيم الله ذنب بنى عجل

افتتح كلامه بألاَ ، ثمَّ أخذ يُعَظِّم الخَطْبَ ويفظِّع الشَّأن ، فقال : مات هذا الرّجلُ فمات بموته الـكرَمُ العميم ، والشَّرف الصميم .

وقول « يالَ بَكرٍ » استغاثة ممَّا دهاه . وقد مرّ القولُ في هذه اللامِ والفَصلُ بينها وبين لام التعجُّب من قولك يالَبَـكْرٍ . ومعنى أَوْدَى : هَلَكَ . والباعُ هاهنا الـكَرَمُ . ويقال : باعَ الرَّجُل يَبُوعُ بَوْعاً ، إذا مَدَّ باعه ، وتَبوَّعَ . وكذلك تَبوَّعَ البعير ، إذا مَدَّ ضَبْعَهُ . والحَسَبُ : الشَّرَف ، وأصله من الحِساب ، لأنَّ الحسيبَ يَعُدُّ لنفسه مآثر فتلك المآثر حَسَبٌ . كما يقال نَقَضْتُ نقضًا ، ثم يسمَّى المنقوضُ نَقَضًا . والتَّليد والتَّالد : ضدُّ الطَّريف والطَّارف . والتِّلاد : ما وُلِدَ عندك من مالك . قالوا : وأصلُ هذه التَّاء الواو .

وقوله « ألاَ هَلَكَ المـكسّرُ » كرَّره لتفظيع الأمر . ومعنى « استراحت حَوَافى الخيل » وصفه بأنَّه يُبْعِد الغَزْو فلا يبقى على الخَيل وإن حَفِيت ، فلمَّا مَضَى نالت الرَّاحةَ وتودَّعَتْ . وقال « حَوَافِى الخيل » على أن يصفَها بما كان آل أمرُها إليه بعد الغزْو . وكذلك قوله « الحَيُّ الحريدُ » ، هو المنفرِد والمتباعد عن غيرِه . كأنَّه لا يَسْلَمُ عليه وإن حَذِر وتباعَد . ويقال : كوكبٌ حَرِيدٌ ، إذا طَلَعَ فى أفْق السَّماء متنحِّياً عن الـكواكب . ورجلٌ حَرِيدُ المَحلِّ ، إذا لم يُخَالِطِ النَّاس ولم ينزلْ معَهم . وقال :

* أمَّا بكلِّ كوكب حَرِيدِ[1] *

وقال آخر[2] :

* حَرِيدَ المحَلِّ غَوِيًّا غَيُورَا[3] *

---

(١) لذى الرمة . كما فى ديوانه ١٥٧ واللسان (حرد) .

(٢) هو الأعشى . ديوانه ٦٨ واللسان (حرد) .

(٣) صدره : * إذا نزل الحى حل الجحيش *

٣٧٧

وقال ابنُ أُهبانَ الفقعَسى (١)

يرثى أخاه :

١ ــ عَلَى مِثْلِ هَمَّامٍ تَشُقُّ جُيُوبَهَا ... وتُعْلِنُ بالنَّوحِ النِّسَاءُ الفَــواقِدُ

٢ ــ فَتَى الحَيِّ أَنْ تَلقاه فى الحىّ أو يُرَى ... سِوَى الحَىِّ أو ضَمَّ الرِّجالَ المَشَاهِدُ

يقول : عَظُم الرُّزءِ بموت همَّامٍ فلا مخبأَ للجزَع ولا مصطَبر ، ولا إسْرَارَ للالتياع ولا مُدَّخَر . وأَنَّى يكون للسَّامع به مَعْدِلٌ إلى التجمُّل والتجلُّدِ ، وقد فُقِدَ به مَن يُستباح فى نُدْبته كلُّ محظور ، ويُستَجاز فى الرثاء له كلُّ مَذكور ، فلا مَنْعَ مِن شق الجيوب ، وصَدْعِ الأكباد والقُلوب ، وإعلانِ النِّياحة ، وامتداد المآتم فى الإعوال إلى كل غاية . وقوله « على مِثل همَّامٍ » يذكر المِثْلَ والمقصودُ نفسه لا غَيْرُ صيانة له ونزاهة . على ذلك قولُ القائل : مثلُك لا يَحْسُن به كذا معناه : أنت لا يَحْسُن بِهِ ذلك ؛ ولكنَّ الغرض ما ذكرتُه ، وقوله « بالنَّوحِ » يراد به مصدر ناحَ . وقد يُراد بِهِ فى غير هذا المكان النِّساء النائحات .

وقوله « فَتَى الحىِّ أن تلقاه » جعلَ له الفتوَّة والرِّياسةَ مسلَّمةً له فى كلِّ حال ، وعلى كلِّ وجه . ألاَ تَرَى أنه قال : هو الفتى بينَ رجالِ الحىِّ وعند لقائك إيَّاه فيهم . فمعنى أنْ تلقاه ، هو الفتَى لأنْ تلقاه فى الحىِّ ، ووقتَ تلقاه فى الحىِّ . وقوله « أو يُرَى سِوَى الحىِّ » أى فى مكانٍ آخَر وفى قومٍ آخَرين .

(١) كلمة « الفقعسى » من ل والتبريزى .

بدلاً من الحيّ. لأنك إذا قلت : عندى رجل سِوَى زَيْدٍ ، معناه : عنــدى رجلٌ مكانَ زيد ، وبدلاً من زيد .

وقوله « أو ضَمَّ الرِّجالَ المَشاهِدُ » معناه وهو الفَتَى إذا حصَلَتْ وفودُ القبائلِ وألسنتُهم ورؤساؤهم فى مَجامع الملوك الأعاظم ، ومَشاهد السادة الأكابر .

وقوله « أو ضمَّ » محمولٌ على المعنى . يريد : وهو الفَتَى لأن ضَمَّ الرِّجال والقِسمةُ بما رتَّبه قد استوفت الأحوالَ كلَّها .

٣— إذا نازَعَ القومَ الأحاديثَ لم يكُنْ   عَيِيًّا ولا عِبْئاً على مَن يُقاعِدُ

٤— طويلُ نِجادِ السيفِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ   خَمِيصاً وجادِيهِ على الزّادِ حامِدُ

وصفَه بالبَراعة وتمامِ الآلة ، وأنه سَهلُ الخُلق ، سهل الجانب ، يباسِطُ مُنازِعَهُ فى الأحاديث ويطاوِلُه ، لا عِيٌّ يقصِّرُ حديثَه ، ولا كِبْرٌ يُنفِّرُ قَعِيدَه ، فهو طيِّب المجلِس ، خفيفُ الملتزَم ، وإذا تأمّلت خِلقتَه كان حسَنَ القَوام ، تامَّ الجسم ، طويلَ حمائل السيف . هذا فى الحيّ ما أقام ، وفى السَّفَر تراه يُؤْثِر غيرَه بالزاد ، فبَطنُه خميص ، ومُجتَدِيه والمعوِّلُ عليه حامدٌ له شكور . وأبلغُ مِن قوله « طويل نِجَاد السيف » قول مُسْلِمٍ :

يَطُولُ مع الرُّمحِ الرُّدَيْنِيِّ قامةً   ويَقْصُرُ عنه طولُ كلِّ نِجادِ

٣٧٨

وقال ابنُ عمّارٍ الأسَدِيُّ يرثى ابنَه :

١ — ظَلِلْتُ بجِسْرِ سابُورٍ مُقِيمًا   يُؤَرِّقنِي أنينُـك يا مَعِينُ[1]

(١) رواه التبريزى : « بخُسْرِ سابور » وقال : « خسر سابور : من بلاد العجم نسب إلى خسر وسابور ، وهما ملكان من الفرس . ويصحف هذا فيقال جسر سابور » . وفى معجم البلدان : « خسرو سابور . والعامة تقول خسابور : قرية معروفة قرب واسط بينهما فراسخ ، معروفة بجودة الرمان » .

٣ — وناموا عَنْكَ واستيقَظْتَ حتَّى دَعاكَ الموتُ وانقطعَ الأنينُ

أصل الظُّلول المُكْث فى النهار ، ولكنه يُتوسّع فيه فيُجعل للأوقات كلّها . على ذلك قولُه تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ وذلك لا يختصُّ بالنهار دونَ الليل . وهذا الكلامُ اقتصاصُ حالِهِ معه فى تمريضه ، وتوليّه منه ما تفرّد به ، وفيه التشكّى مما قاساه وتجرَّعَ الغُصَص عنه ، فيقول : بَقِيتُ مقيما بذلك المكانِ يُسهِرنى تألُّمك وأنينُك ، ونامَ كلُّ مَن صحِبتُه[1] فاستيقظتُ أنا متجرِّدًا فيك ، ومتحمِّلا ما أمكن تحمُّلُهُ عنك ، إلى أن أجَبْتَ داعيَك ، وأطلقْتَ من أسْر الانتظار ناعيَك ، فانقطعَ الأنين ، وجَدَّ منِّى لفقدك العَويل .

٣٧٩

وقال أبو وهبٍ العبسى[2] يرثى ابنَه :

١ — أرابِعَ مَهْلاً بَعضَ هذا وأَجْمِلِي ففى اليأسِ ناهٍ والعَزاه جَمِيــلُ

٢ — فإنَّ الذى تَبكِينَ قد حالَ دُونَه تُرابٌ وزَوراه المَقامِ دَحُولُ

سلك فيما قاله مسلكَ أوسِ بن حَجَرٍ ، حين قال :

أيَّتُها النَّفسُ أجمِلِى جزَعَا إنَّ الذى تحذَرِينَ قد وَقَعا

والمرأةُ المخاطَبة فيما نظن[3] أمُّ المَرْثِىّ . وقوله « مهلاً بعضَ هذا » انتصبَ بعضَ بإضمار فعل ، كأنه قال : رِفْقاً كُفِّى بعضَ ما تأتينه ، وأحسِنِى العَزاء ، ففى اليأس ممَّن قد مضَى ناهٍ لكِ عن الإسراف فى الجَزَع ، والإفراطِ فى الالتياع

(١) ل : « صحبنا » .

(٢) التبريزى : « وقال طريف بن أبى وهب العبسى » .

(٣) ل : « فيما أظن » .

والهَلَع ؛ والصبرُ جميلٌ كيفَ كان ، فإنّ مَن تَبكينَه حجَزَ بينه وبيننا تُرابٌ مَهِيلٌ ، ولَحْدٌ قَمِيرٌ ، وحفرةٌ معوجّة ، وهُوّةٌ مَهُولة ، فلا طَمَع فى الالتقاء ولا فى الرُّجوع والانكفاء .

وقوله « وزَوراء المَقَام » أى معوجّة الموضع الذى يُقام فيه منها . وقوله دَحُولُ ، يقال بئر دَحُولٌ ، أى ذاتُ تَلَجُّفٍ .

٣ — نَحَاهُ لِلَحْدٍ زِبرقَانٌ وحارِثٌ وفى الأرضِ للأقوامِ قَبْلكِ غُولُ

٤ — فأىُّ فَتًى وارَوْهُ ثُمّتَ أَقبَلَتْ أَكُفُّهُمُ تَحْثِى مَعًا وتَهِيلُ[1]

اللَّحد : ما حُفِر فى عُرْضِ القبر . ويقال لَحَدتُ القبرَ وأَلْحدتُه ، وقبر ملحود ومُلْحَدٌ ولاحِدٌ ، أى ذو لَحْدٍ . يقول : وَلَّاهُ لِلَحْدِ قبره هذان الرَّجُلان ، والعادةُ مستمرّةٌ فى فَنَاء الأمَم السالفة قبلَنا ؛ لأنّ الأرض لا تخلو ممّا يَغتالُ الأحياء ويُهلكُهم . والغُولُ : الهَلَكة ، ويقال : غالَهُ الموت . وقال الشاعر :

وما مِيتَةٌ إنْ مِتُّها غيرَ عاجِزٍ بعَارٍ إذا ما غالتِ النَّفسَ غُولُها

والكلام فيه تأسٍّ وتَعَزٍّ ، بعد أن اقتصّ دفنَه ومَن تولّى ذلك منه .

ثمّ قالَ على وجه التعجُّب : أىُّ فتًى غَيَّبُوهُ ودفنوه ؟! يعظِّم أمرَهُ ويُفخِّم شأنه . وقوله « ثمّتَ أقبلَت » التّاء من ثُمّتَ علامة التّأنيث ، وهو تأنيث الخصْلَة . وكما تتّصل هذه العلامةُ بالاسم نحو امرئٍ وامرأةٍ ، وبالصفة نحو قائم وقائمة ، تتّصل بالفعل ، والاسمُ والفعل هما موضعُها ، إلاّ أنّها فى الاسم يُبْدَل منها الهاء فى الوقف ، وينتقل الإعرابُ عن آخر الاسم إليها . وفى الفعل يُسَكَّن إلّا أن يُلَاقِيَهُ ساكنٌ آخر ، ويكون تاء فى الوصل والوقف جميعاً . وفى الحرف

(١) التبريزى : « وأى فتى واروه » .

يقلُّ دخولُه ، وإذا دَخَل حُرِّك بالفتح ، نحو رُبَّتَ وثُمَّتَ ، وتبقى تاء فى كلِّ حال .

وقوله « تَحْثِي مَعًا » انتصب معًا على الحال . والحَثْيُ : أن تَرفع يدَك بالتُّرابِ أو غيرِه فتفرِّقَه فى الجوّ . قال :

الحُصْـنُ أدْنَى لو تآيَيْتِـه مِنْ حَثْيِكِ التُّرْبَ على الرَّاكِبِ[1]

والحاثياء : تُراب يجمعُه اليربوع ، مِن هذا . والهَيْلُ : أن تَجْرُفَه من غير أن تَرفَع اليَدَ به . ويقال : هِلْتُ التُّرابَ وأهَلْتُه . وفى المَثَل « مُحْسِنَةٌ فَهِيلى[2] » ويقال : « جاء بالهَيْل والهَيْلُمَانِ[3] » أى بالشَّىء الكثير ، ويجوز أن يكون من هذا ، لأنَّ المعنى جاء بما اجتمع هَيْلاً لا كَيْلاً .

وفى الطريقة التى سَلَكها مِن اقتصاص الحال فى الدَّفن والحَثْى ، قد أحسَنَ مَن قال :

ألم تَرَنِي أبنِي على اللَّيث بيتَه وأحْثِي عليه التُّرْبَ لا أتَخَشَّعُ
كأنِّى أدَلِّى فى الحَفيرة باسِلاً عَقيراً يَنُوء للقيامِ ويُصْرَعُ
تَخالُ بقايَا الرُّوحِ فيه ، لقُرْبِهِ بعَهْدِ الحياةِ ، وهو مَيْتٌ مُقَنَّعُ

ألا تَراه كيف صَوَّرَ التَّهيُّبَ منه والإعظامَ له فى تلك الحالة .

٥ — وظَلَّتْ بِيَ الأرضُ الفضاءُ كأنَّما تَصَعَّدُ بِى أركانُهـا وتَجُولُ

(١) ل : « لو تأييته » . ويروى : « من حثوك الترب » . انظر المقاييس (٢ : ١٣٧) .

(٢) قال الميدانى : « أصله أن امرأة كانت تفرغ طعاما من وعاء رجل فى وعائها ، فجاء الرجل فدهشت ، فأقبلت تفرغ من وعائها فى وعائه ، فقال لها : ما تصنعين ؟ قالت : أهيل من هذا فى هذا ، فقال لها : محسنة — أى أنت محسنة — فهيلى . ويروى : محسنة ، بالنصب على الحال ، أى هيلى محسنة . ويجوز أن ينتصب على معنى أراك محسنة . يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً » .

(٣) « الهيلمان » بفتح اللام وضمها .

٦ ــ وشَدَّ إلىَّ الطَّرْفَ مَن كانَ طَرْفُهُ بعَهْدِ عُبيـــد الله وَهْوَ كَليِ

يقول : دِيرَ بى لَمَّا شاهدتُ من أمره ما أنكرت ، واسودَّت الأرضُ ا
عينى فصارت عَلَى سَعَتِها كأنَّما جُمِعت جوانبها ، فأُصَعِّدُ فيها وهى تَجُو
فلا تَهْدأ ، وتدور فلا تَقِرّ .

وقوله « وشَدَّ إلىَّ الطَّرفَ » أى نظرَ إلىَّ بشِدَّةٍ وتحديق . وفى الحديث
قيل لأبى مَحذورة[1] وشَدَّ أذانَهُ : « أمَا خَشِيتَ أن تنشقَّ مُرَيْطَاؤك[2] »
ويقال : شدَدْنا على يدِ فلان وشددنا يَدَهُ ، أى قوّيناه . والطَّرْفُ : تحريك
الجَفن فى النَّظر . يقول[3] : شَخَص بصرُه فما يَطْرِفُ . وقوله « من كا
طَرْفُه » كانَ هذه هى التَّامَّة . والمعنى مَن وقع طَرْفُه وحدَثَ طرفُه فى زم
عُبيد الله وبعهده وهو كليلٌ ، يريد : مَن كان لا يملأ عينَه منّى فى حياته تَهَيُّ
صارَ ينظرُ إلىَّ شَزْرًا ونظراً شديداً . وإنّما قوّاه تَجاسُرُه وما حَدَث له وا
تقديره ، من مُنَّةٍ استَجَدَّها[4] ، وقُوّةٍ عاوَدَتْهُ واستَظْهَرَ بها . وقولُه « وه
كليلُ » ، الواو واو الحال .

٧ ــ لَئِنْ كانَ عبدُ الله خَلَّى مَكانَهُ على حِينِ شَيْبِى بالشَّبابِ بَديلُ[5]

(١) هو أبو محذورة المؤذن ، واسمه أوس ــ أو سمرة ــ بن مِعيَر . علمه رسول ا
صلى الله عليه وسلم الأذان بالجعرانة . توفى سنة ٥٩ وقيل سنة ٧٩ ، الإصابة ١٠٠٨ ،
باب الكنى . والذى قال له هذا القول هو عمر بن الخطاب ، كما فى اللسان (مرط) .

(٢) المريطاء : ما بين السرة إلى العانة .

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « يقال » .

(٤) المنة ، بالضم : القوة .

(٥) التبريزى : « قوله على حين شيبى . قال أبو هلال : لا يجوز إلا الخفض فى حين
لأن الذى أضفت إليه حين معرب ، فإن أضفته إلى الفعل جاز الفتح والكسر . أما الكسر
فلأنه مجرور وهو اسم منصرف ، وأما الفتح فلإضافتك إياه إلى شىء غير معرب ، فبنيته ع
الفتح لأن المضاف والمضاف إليه شىء واحد فبنيته لذلك » . وهذا المذهب مذهب البصريين
وذلك أنهم يوجبون الإعراب فى الظروف المبهمة إذا أضيفت إلى جملة صدرها معرب . وأ
الكوفيون فيرون الإعراب فى ذلك راجحاً والبناء مرجوحاً . انظر همع الهوامع (١ : ٢١٨)

٨ — لقد بَقِيَتْ مِنّى قناةٌ صَلِيبَةٌ وإنْ مَسَّ جِلْدِى نَهْكَةٌ وذُبُولُ

٩ — وما حَالَةٌ إلا سَتُصْرَفُ حَالُها إلى حَالَةٍ أخرى وسوفَ تَزُولُ

اللام من « لَئِن » موطِّئة للقسَم المضمَر، وجوابُه « لقد بَقِيَت » . وخلّى مكانَه، أى تَرَكَ مكانَه من العيون والقلوب خاليا . ويجوز أن يريدَ تركَ مكانَه من دنياه لمَنْ شاء . على حين شَيْبِى ، أى فى وقتٍ استبدلتُ بالشّباب شَيباً ، وبالقوّة ضعفاً ، لقد بَقِىَ منّى إباءٌ شديد ، وتَأَبٍّ على مَنْ يقصِد اهتضامى بليغ ؛ فقَناتى صُلبَةٌ على غامِزِهَا ، ممتنِعةٌ على مُثَقِّفِها ، وإن كانت المصيبةُ نالت منّى فنَحَل جِسْمى ، وذَبُلَ جِلدى ، وحالَ لَوْنى ، وتَحَوَّلَ عمّا كان عليه أمرى وشأنى . وقد تقدَّم القولُ فى القَناة وطريقتِهم فى استعارتها وجَعْلِها مثلا .
وقوله « وما حالةٌ إلا سَتُصْرَفُ حَالُها » يُريدُ : وما خُطّةٌ إلا ستَتَحوَّلُ صورتُها إلى صورةٍ أخرى ما بقيت وأُمْهِلَتْ، ثمّ مِن بَعْدُ سوفَ تَزُول فلا تَبقَى ، وتحُولُ عن المعهود فتَفْنَى . والمعنى : إنّ شيئاً من أسباب الدُّنيا وأعراضها لا يدوم على حَدٍّ ، ولا يستمِرُّ على طريق ووجه ، لكن يتسلَّط عليه التغيّر والتبدُّل ، فيزداد عمّا يكون عليه ، أو يتراجع هذا إذا سَلِم ، ومِن بَعْدُ سوف يكون مُغَيِّرُه مُهلِكَهُ ، ومدَبِّرُهُ مُدَمِّرَهُ .

٣٨٠

وأنشد أيضاً[١] :

١ — وقاسَمَنِى دَهْرِى بَنِىَّ بِشَطْرِهِ فلمّا تَقَضَّى شَطْرُهُ عادَ فى شَطْرِى[٢]

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « وقال العتبى » . والعتبى هذا هو محمد ابن عبد الله ، من آل عتبة بن أبى سفيان . أديب أخبارى من أهل البصرة ، له شعر جيد وتصانيف حسان . قال ابن النديم : « كان العتبى وأبوه سيدين أديبين فصيحين » . توفى سنة ٢٢٨ . ابن النديم ١٧٦ .

(٢) التبريزى : « بنى مشاطراً » .

٢ — ألاَ لَيْتَ أُمّى لم تَلِدْنى و لَيْتَنِى سَبَقْتُكَ إذْ كُنّا إلى غايَةٍ نَجْرِى

كانت رواية الناس بُرهةً « وقاسَمَنى دهرى بَنِىَّ بشَطرِهِ » مضافا ، « فلما تقضَّى شَطْرُه » بالضاد ، وارتفاع الشَّطر به ، فجاء شيخٌ لنا فرواه :

« بِشِطْرَةٍ * فلما تقضَّى شَطْرَهُ »

وكان يقول : هذه ضالّةٌ أنا وجدتُها ، وهو مِمّا حكاه أبو زيد من قولهم : بنو فلانٍ شِطْرَةٌ ، إذا كان ذكورُهم بعدد إناثِهم . يريد : ناصَفَنى . ومعنى « تَقَضَّى شَطْرَهُ » بلغ أقصاه واستَوفاه . والذى أختارُه أن يُروَى « بشَطْرِهِ » على الإضافة . ومن الظاهر أن تَقدَّى أحسَنُ من تَقَضَّى فى اللَّفظ ، وأبلَغُ فى المعنى . ومعنى بشَطرِهِ كأنَّ الدَّهرَ ادَّعى أنّه قَسِيمُهُ فى بَنِيه وأنَّ له منهم الشَّطْر ، وهو النِّصف ، فقاسمه على ذلك ، فلمّا استوفى حَظَّه أقبَلَ يأخذ من نصيبه الذى كان أقرّ له به ، وساهَمَهُ عليه . وإنّما اخترتُ بشَطْرِهِ على « شِطْرَةٍ » ، لأنَّ شِطْرَةً لم يُستعمَل فى الأنصباء والسِّهَم ، والشَّطر فى النِّصف معروفٌ ومستعمَل ، ومنه شاة شَطُورٌ ، إذا يَبِسَ أحَدُ ضَرْعَيها . وكذلك قولهم : حَلَبَ الدَّهرَ أشْطُرَهُ ، إذا جَرَّبَ الأمور ، وأصله من الحَلَب ، أى حَلَبَ شَطْرًا من الخَير وشَطْرًا من الشَّرِّ ، حتَّى تبصَّر وعَرَفَ مواضعَ النَّجاة من مواضع العطب والهَلَكَةِ .

وقوله « ألاَ ليت أُمّى لم تَلِدْنى » تمنَّى السلامةَ بأن كان لا يُخلَقُ ولا يُختَرع فينجو من الابتلاء ، وملابَسة أنواع البلاء ، والتردُّدِ بين السعادة والشقاء ؛ وتمنَّى بعد أن أُوجِد وخُلِق ألاَّ يكون فاقِدَهُ والمُعَزَّى فيه ، بل كان السابِقَ له والمقدَّمَ عليه ، سيّما[1] وهما جاريانِ إلى غايةٍ من العطبِ لا مَحِيصَ عنها ، ولا مَفرَّ منها .

---

(١) كلمة « سيما » ساقطة من ل .

٣ — وكُنتُ به أُكْنَى فأصبحتُ كلَّما كُنِيتُ به فاضَتْ دُموعى على نَحْرِى

٤ — وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفْرٍ على العِدَى فأصبحتُ لا يَخْشَوْنَ نابى ولا ظُفْرى

جَرَى على افتنانهم فى تحويل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب، وصَرفِه عن العموم إلى تخصيص بعضهم بالذِّكر. ألا ترى أنه أخبَرَ فى قوله « وقاسمنى دَهْرِى بَنِىَّ » ثم قال « ليتنى سبقتُك » فرجع إلى خطابِ واحدٍ منهم، ثم قال « وكنتُ به أُكنَى » فأخبَرَ به عن أحدِ بنيه. والمعنى: كنت اكتنيتُ به حُبًّا لذِكره واسمِه، وتفاؤلاً ببقائه ودوامِه، فبقى الاسمُ والشخص مفقودٌ، فلا جَرَمَ أنِّى متى كُنيتُ به تَجَدَّد لى حُزنٌ أفاضَ عَبْرَتى، وأغاض ماء عِيشتى.

وقوله « وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفر على العِدَى » يُريد: إنِّى كنتُ تامَّ السِّلاح بهم، موفور العَدَد والعُدَدِ بمكانِهم، مَخشِىَّ الجانب، لا يُطْمَعُ فى استنزالى عن حُجَّةٍ أركبُها، أو شُبهةٍ أتعلَّقُ بها. وذِكْر النابِ والظُّفر مَثَلٌ ضرَبَه لسلاحه وآلاته التى كان يدفع الخصومَ بها، ويَقهر الأعداء باستعمالها.

وقوله « لا يَخشَوْن نابى ولا ظُفرى » يريد لا ناب لى بعدهم ولا ظُفر فيُخْشَى. فهو مِثل:

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[1] *

١٣٨

وأنشد لامرأة ترثى أباها:

١ — إذا ما دَعَا الداعى عليًّا وجدتُنِى أُرَاعُ كما رَاعَ العَجُولَ مُهِيبُ

٢ — وكم من سَمِىٍّ ليسَ مثلَ سميِّه وإنْ كانَ يُدْعَى باسمه فَيُجيبُ

(١) البيت لابن أحمر، كما سبق فى حواشى ١٢٠، ٢٤٠، ٥٩٩. وصدره:
* لا تفزع الأرنب أهوالها *

يقول : متى قَرَعَ أُذنى دعاء داعٍ باسمٍ ولَدَى أُذعَر وأقاق ، كما يَذعَر الثَّكلَى مُهِيبٌ ، وهو الداعى . والثَّكلَى تفزع لأدنَى صيحةٍ تَرْهَقها ، أو قَرْعةٍ تَصْدِمُ قلبَها . ويجوز أن يريدَ بالمَجُول ناقةً فقدَتْ ولدَها بنحرٍ أو موتٍ ، فهى فى حنينها تَنفِر مِن أخفَض إهابة ، وأدنى بَعْثٍ وإزعاجةٍ . ويقال لأمثالها من النُّوق : المَاجيلُ أيضاً . ووجدُهنَّ يَزيد على كلِّ وَجْدٍ . لذلك قال :

فما وَجْدُ أظْآرٍ ثلاثٍ رَوائمٍ رَأَيْنَ مَجَرًّا من حُوارٍ ومَصْرَعا[1]

يُذَكِّرْنَ ذا البَثِّ الحَزِينَ بِبَثِّهِ إذا حَنَّت الأُولَى سَجَعْنَ لها مَعا

بأَوْجَدَ مِنِّى . . . .[2]

وقوله « وكم من سمِىٍّ » يقول : ليس التوافق فى الأسماء مما يوجب التَّعادلَ والتَّشابُهَ فى المسمَّيات ، لأنَّ الأعلامَ لا تُفيدُ فى المسمَّيْن شيئاً ، لكنَّ التَّشابه إنما يكون بالأوصاف الحاصلة ، والمعانى المتماثلة . وإذا كان كذلك فالتشاركُ فى الأسماء وإن حصلَتْ به الإجابةُ عند الدُّعاء لا يوجِب تقارُبَ المسمَّيْنَ ولا تباعُدَهم .

٣٨٢

وقال رجلٌ من كَلْب[3] :

١ — حَيَّى اللهُ دَهْرًا شَرُّهُ قَبْلَ خَيْرِهِ وَوَجْدًا بعَتِيقٍ أَنَّى بَعْدَ مَعْبَدِ

---

(١) الأبيات لمتمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك ، من قصيدة فى المفضليات رقم ٦١ ، وأنشدها المبرد فى الكامل ٧٥٦ — ٧٥٧ ليبسك .

(٢) البيت بتمامه :

بأوجد منى يوم قام بمالك مناد بصير بالفراق فأسمعا

(٣) سبق البيت الثالث والرابع من هذه الحماسية فى الحماسية ٣٠١ ص ٨٩٥ — ٨٩٦ . وقد سبق التنبيه على مثل لهذا التكرار فى الحماسية ٣٦٦ .

٢ — بَقِيَّةُ إخوانى أتَى الدَّهْرُ دُونَهُمْ ... فما جَزَعى أمْ كيفَ عَنْهُمْ تجلُّدِى

٣ — فلو أنَّها إحــدَى يَدَىَّ رُزِيتُها ... ولــكنْ يَدِى بَانَتْ على إثْرِها يَدِى

٤ — فآليتُ أَسَى بَعْدَهُمْ إثْرَ هَالِكٍ ... قَدِى الآنَ من وَجْدٍ على هَالِكٍ قَدِى[١]

لَحَى اللهُ : دعاء على الدَّهر الذى وصفه ، وقد تقدَّمَ القولُ فى حقيقته . ومعنى « شَرُّه قَبلَ خَيْرِهِ » أى ما كان يُختَشَى من شرِّه فى الأحِبّة سبَقَ ما كان يُرتجَى مِن خيره بهم . ثمَّ دعا على وَجْدٍ تَعجَّلَ له بصيفىٍّ بعد وجدٍ تقدَّمَ فى مَعبد ، كأنه كان لا يأمَن مِن أحداث الدهر فيما حُبِيَ وأُنعِمَ عليه فى إخوةٍ كرامٍ تناسَقُوا فى الوِلاد والوِداد ، وتقابلوا فى جَوَازِ تعليق الرَّجاء بهمْ عند الحفاظ ، فيَخاف . وعلى ذلك كان يَغلبُ فى نفسه وعلى قلبه سلامتُهم وبقاؤهم ، حُسنَ ظنٍّ بالواهب ، وشِدَّةَ طمعٍ فى الموهوب ، فيسكن ولا يهاب . فلمَّا جرى الأمرُ على خلافِ ما ظَنَّ زَعمَ أنَّ شرَّ الدَّهرِ سبقَ خيرَه ، فدعا عليه . وقوله « ووَجدًا بصيفىٍّ » ، يقول : ولَحَى أيضاً جَزَعاً تجدَّدَ بصيفىٍّ بعد مَعْبَدٍ . وهذا تبرُّمٌ منه بمـا قاسَى من الدَّهر ، وكابَدَ من جَزَعٍ بعد جَزَعٍ . وفيه إشارة إلى معنى قولِ الآخَر[٢] :

* نُوَكَّلُ بالأدْنَى وإن جَلَّ ما يَمضِى[٣] *

وقوله « بقيَّةُ إخوانى » يجوز أن يكون المرادُ به خيارَ إخوانى ، كما يقال : فلانٌ من بقيّةِ الناس . ويجوز أن يريدَ به أنَّه كان فى إخوانه وُفورٌ ففَقَد منهم عِدَّةً ، وجعلَ يأنَس ببقيَّتهم ، فأتَى الدَّهرُ عليهم أيضاً . وقوله « فما جَزَعِى أم كيفَ عنهمْ تجلُّدِى » كأنَّه كان لا يَعتدُّ بالجزع الواقع لهم ومِن أجلهم ، لقصوره عن الواجب ، ووقوعِه دونَ اللازم ، ولا يَطمع مِن نفسه فى مُسْكَةِ

(١) فيما سبق : « وأقسمت لا آسى على إثر هالك »

(٢) هو أبو خراش الهذلى . انظر الحماسية ٢٦٢ ص ٨٧٦ .

(٣) صدره : « على أنها تعفو الكلوم وإنما »

يتَعَلَّقُها ، أو سَلوةٍ يتسكانُهَا ، إذ كان الخَطْبُ أعظَمَ ، والرُّزء أمْلَكَ .

وقوله « فلو أنَّها إحدى يدىَّ رُزِيتُها » جواب لو محذوف ، يريد : لو أُصِبْتُ ببعضهم لسَهُل ما تَعذَّر أو خَفَّ ما ثقُلَ ، ولـكنهم تجاوبوا للدَّعوة ، وتَتابعوا فى النُّقلة ، فَفَدحَتِ المُصيبة ، وجَلَّت الرَّزيئة[1] .

وقوله « فآليتُ آسى بعدَهم » يريدُ : حلفت لا آسَى بعدهم فى إثْرِ هالك ، فحذف لا ولم يَخَفِ التباسَــه بالواجب ، إذْ كان للواجب صِيغَةٌ مفردَة باللَّام وإحدى النُّونين الثَّقيلة أو الخفيفة ، وقد مرَّ مثله . والمعنى أنَّ خوفى كان فيهم ، وإذْ قد أُصِبْتُ بهم فإنِّى لا أجْزَعُ لفائتٍ ، فحسبى على المُلاَّكِ ما بى حَسْبِى . وقال « قَدِى » ولو قال : قَدْنى ، فأتَى بنون العماد ليَسْلَم سكونُ قَدْ ، لجاز . قال الشَّاعر[2] :

* قَدْنِيَ من نصر الخُبَيْبَيْنِ قَدِى *

فأتى بهما جميعاً .

وقوله « إثْرَ هالك » انتصَبَ على الظَّرف .

٣٨٣
وأنشَدنى لأعرابىّ[3] :

١ — لَحَى اللهُ دَهْرًا شَرُّه قَبْلَ خَيْرِهِ   تَقَاضَى فلم يُحْسِنْ إلينا التَّقاضيا

٢ — فَتًى كان لايَطْوِى على البُخْلِ نَفْسَهُ   إذا انْتَمَرَتْ نَفْسَاهُ فى السِّرِّ خاليا

قد مرَّ القولُ فى بيان الدُّعاء على الدَّهر وشرحِه ، وفى معنى « شرُّه قبل

(١) ما سبق من شرح البيت فى ص ٨٩٦ أقوى وأشمل مما هنا .

(٢) هو حميد الأرقط . الخزانة (١ : ٤٥٣) . وقد سبق فى ٨٩٦ .

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وأنشد لابن الأعرابى » ، وهو تحريف . وعند التبريزى : « وقال أعرابى » .

خيره[١] » فأمّا قوله « تقاضَى فلم يُحسِنْ إليْنا التّقاضيا » فالمعنى طالبَنا بردِّ ما منَحنا فلم يُحْسِنْ فى التقاضى ، لإسرافه فى الفعل ، واستعجالِه فى الرَّدّ ، واعتسافِه فى الأخذ ، ولأنَّ العَوارِىَّ قد تُرْتَجَعُ ، والمَنائحَ قد تُسْتَرَدّ ، على وجه لا يُخَلُّ فيه بالإجمال ، ولا يُفسَدُ بِه ما تقدَّم من الإفضال .

وقوله « فتًى كان لا يَطوِى على البُخل نفسَه » يريد أنّه إذا اجتداه المُجتَدِى لا يَرَى لنفسه أن تطوِىَ على البُخل والإمساك ، والضَّنِّ بما فى يده عليه ، إذا ائتمرت نفساه ، أى تشاوَرَتْ فيما بينه وبينهما ، فأقبلَتْ واحدةٌ تأمُرُ بالبَذْل ، والأخرى تُشير بالإمساكِ . ففى ذلك الوقتِ يصمِّم على ترك الائتمار للآمِرِ بالبُخل ويَخرُج من طاعته إلى العطاء والبذل . والائتمار : التّشاوُر هاهنا . فأمّا قوله :

* ويَعدُو على المرء ما يأتَمِرْ[٢] *

فالمراد به ما يجعله من أمره وهمه ، فيقول : إذا ائتمر للمرء لغيره ماليس برشاد فإنه يعدو عليه فيهلكه . وهذا كما قيل : من حفَر مَهْوَاةً وقع فيها .

٣٨٤

وقال الأُبَيْرِد اليَرْبُوعِىُّ[٣] :

١ — ولمّا نَعَى الناعِى يَزِيدَ تغوّلَتْ   بِىَ الأرضُ فَرْطَ الحزنِ وانقطع الظَّهرُ[٤]

---

(١) انظر الحماسية السابقة .

(٢) لامرئ القيس فى ديوانه ٣ . وصدره :

• أحار بن عمرو كأنى خمر •

(٣) هو الأبيرد بن المعذر بن عبد بن قيس بن عتاب بن هرمى بن رياح بن يربوع بن مالك ابن حنظلة التميمى . شاعر بدوى من شعراء صدر الإسلام وأول دولة بنى أمية . الأغانى (١٢ : ٩ – ١٥) .

(٤) يزيد ، كذا وردت فى النسختين . والصواب « بريدا » كما فى الأغانى ورواية التبريزى . وبريد هذا هو أخو الأبيرد ، كما فى شرح التبريزى والأغانى ، وأمالى القالى (٣ : ٢) وتنبيه البكرى ٦٦

يقول : لمّا خبّر المخبِّر بموت يزيدَ تلوّنت الأرضُ فى عينِى فابيضّت تارةً واسودّتْ أخرى ، لشِدّة حُزنى ، وانقطعَ ظهرى ، وتساقطت قُواىَ ، وقوله « تغوّلت » اشتقاقُه من الغُول . وهم يعتقدون فى هذا القبيل من الجنّ أنّهم يتَصوّرون بما شاءوا من الصُّوَر . ويقال : غَوّلَتْهُم الغُولُ وتغوّلتهم ، إذا توَهّتْهم . وانتَصب « فرطَ الحزن » على أنّه مفعول له . والكلام تَسَلٍّ مِن غِيَرِ الدّهر وتأثير المصيبة فيه ، حتّى انكسر قناةُ ظهرِه ، واختلّ ما كان قويّا من أمرِه .

٢ — عَسَاكِرُ تَغْشَى النَّفسَ حتَّى كأنّنى أَخُو سَكْرةٍ دارَتْ بهامَتِه الخَمرُ[1]

العساكر : جمع عَسْكَرَةٍ ، وهى الشِّدَّة . قال :

* ظَلّ فى عَسْكَرَةٍ من حُبِّها[2] *

فيقولُ : غَشِيَتْ نفسى أنواعُ البلاء ، فزالَ عقلى لها ، حتّى صرتُ كأنّى سكرانُ دبّت الخمرُ فى عَقْلِه ودِماغه ، حتى دارت هامتُه ، وزال تماسُكُه وقوّتُه. ولك أن تروى : « دارَتْ بهامَتِيَ الخمر » لأنّه لمّا كان أخو السَّكْرَة نَفْسَه جاز أنْ يُجْعَل الضّميرُ الراجع إليه ضميرَ نفسه . وهم يفعلون فى الصّفات والصِّلات هذا . على ذاك قولُه :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أمّى حَيْدَرَهْ[3] *

ولم يقل أمُّه ، وإن كان وجهَ الكلام. وإن رويتَ «دارت بهامته الخمرُ» فهو الصّواب المختار .

---

(١) فى الأمالى : « أخو نشوة » .

(٢) البيت لطرفة فى ديوانه ٦٥ واللسان (عسكر) . وعجزه :

* ونأت شحط مزار المدكر *

(٣) لعلى بن أبى طالب ، كما سبق فى حواشى ١١٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٢ .

٣ — فَتَى إنْ هُو استَغْنَى تَخَرَّقَ فى الغِنَى وإن قَلَّ مالٌ لم يَضَعْ مَتْنَه الفَقْرُ (١)

٤ — فَتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِى ذِمامَهُ إذا نَزَل الأضيافُ أو تُنْحَرَ الجُزْرُ

البيت الأول يشبهه قولُ الهذَلى(٢) :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فَقْرَهُ على نَفْسِهِ ومُشِيعٌ غِناهُ

وقوله « تَخَرَّق فى الغنى » أى تَكرّمَ فى غِناه وتوسَّع . وهو تَفَعّلَ من الخِرْق : الكَرِيم من الرِّجال ، الذى يتخرّق بالمعروف .

وقوله « وإن قَلَّ مالٌ » أراد مالُه . ومعنى « لم يَضَع مَتْنَه الفقر » أى لم يورِثْهُ إقلالُه تَخَضُّعاً وتَخَشُّعًا حتَّى تطأطأَ ظهرُه وانخفضَ شخصُه . وإن رويت « وإن قلّ مالاً » بالنَّصب جاز ، ويكون فاعِلُ قَلَّ ما استكنَّ فيه من ضمير الفَتَى ، وانتصب مالاً على التمييز ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ .

وقوله « فَتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِى ذِمَامَهُ » يريدُ إذا نزل الأضيافُ به لا يَعُدُّ اللّبَن قاضياً ذِمامَ قِرَاهم ، ولا كافياً فيما يجبُ عليه لهم ، حتى ينحَرَ جُزرَه ، ويوسِّع مطاعِمَهُ . وقوله « أو تُنْحَرَ » أو بَدَلٌ من إلاّ ، وانتصب الفعل بإضمار أنْ(٣) .

---

(١) الفالى : « وإن كان فقر لم يؤد متنه الفقر » . الأغانى : « فإن قلّ مالا لم يؤد متنه » . وبين هذا البيت وتاليه عند التبريزى :

وَسَامَى جَسِيماتِ الأمورِ فنالَها على العُسْرِ حَتَّى أدرَكَ العُسْرَ اليُسْرُ

(٢) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) . وقد سبق هذا البيت فى ٥٥٢ .

(٣) أنشد التبريزى بعده هذا البيت :

أحقًّا عِبَادَ اللهِ أنْ لستُ لاقِياً بُرَيداً طَوَالَ الدَّهرِ ما لألأَ العُفْرُ

وقال : العفر الظباء التى تعلو بياضها حمرة . ولألأ الظبى : حرك ذنبه . ومنه تلألأ البرق ، إذا تحرك . ولما استعملوا ذلك فى البرق وكان مع إضاءة اشتقوا منه اسم اللؤلؤ .

٣٨٥

وأنشد لِسَلَمَةَ الْجُعْفِيِّ يرثى أخاه لأمّه[1] :

١— أقولُ لنفسى فى الخلاءِ أَلُومُها لَكِ الوَيلُ ما هذا التَّجَلُّدُ والصبرُ

٢— ألم تَعلَمى أن لَستُ ما عِشْتُ لاقِيًا أخِى إذْ أتَى من دُونِ أوصالِهِ القَبْرُ

يقول : إنّى أتسخّط ما أقيمُه من الهَلَع فيمن أُصبْتُ به ، حتى أرجعَ إلى نفسى إذا خَلَوْتُ بها باللّوم والتّعنيف ، وأقولَ حَلْ[2] بكِ الويلُ ، ما الذى يَظهرُ منكِ من تكلُّف الجَلَد والصبر فيما بُليتُ به . أمَا علمتِ أنّى مدّةَ عيشى لا أُلاقِى أخى وقد حَجَزَ بينى وبينه الثّرَى ؟ !

وقوله « ألومُها » فى موضع الحال ، « ولكِ الويلُ » فى موضع المفعول لأقول ، و « ما هذا التجلُّد » استفهامٌ على طريق التقريع والتوبيخ . وارتَفَع التجلُّد على أنه عطف البيان . وقوله « ألم تعلمى » تقرير فيما هو واجب ، لأنّ حرف الاستفهام قد ضامّهُ حَرفُ النّفى ، والاستفهام غيرُ واجب فهو كالنّفى ، ونفى النّفى إيجاب .

وقوله « أن لَستُ » أنْ مخفَّفة من الثّقيلة ، واسمه يجوز أن يكون ضمير الرّجل، أراد أنّى لستُ ، ويجوز أن يكون ضمير الأمر والشأن . و« ما عشت » فى موضع الظّرف . و« لاقيا » خبر ليس . و« إذ أتى » ظرفٌ له . والأوصال :

---

(١) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة بن المجمع بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف بن حريم بن جعفىّ . وجعفى : حى من مذحج نزل الكوفة . وكان ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث عنه . الإصابة ٣٣٩٨ . وذكر ابن حجر أنه يرثى أخاه شقيقه قيس بن يزيد . وذكر القالى فى الأمالى (٢ : ٧٣) أنه أخوه لأمه كما قال أبو تمام ، واسمه عنده : « قيس بن سلمة » . وصحح البكرى فى التنبيه ٩٧ أن أخاه لأمه هو « سلمة بن مغراء » .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « جل » بالجيم المعجمة .

جمع وَصْلٍ، وهو اسمٌ للأعضاء المتّصلِ بعضُها ببعض. ويقال: وِصْلٌ ووَصل، بالفتح والكسر.

٣ـ وكنتُ أرى كالموتِ من بينِ ليلةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ
٤ـ وهَوَّنَ وَجْدِي أنّني سوفَ أغتَدِي على إثرِه يوماً وإن نُفِّسَ العُمْرُ

قوله «كالموت» جعل الكاف وحدَه اسماً. وكان أبو العبّاس يتبع أبا الحسنِ الأخفشَ في جواز وُقوعه اسماً في غير الضّرورة، وأنشدَ:

أتَنْتَهُونَ ولن يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَهلِكُ فيه الزّيتُ والفُتُلُ[1]

ويجعل الكاف في موضع فاعل يَنْهى. وسيبويه لا يَرى ذلك إلّا في الضرورة، كأنه قال: أرى مثل الموت. ولا يمتنع أن يكون «كالموت» صفةً لموصوف محذوف، كأنه قال: وكنتُ أرى شيئاً أو أمراً مثلَ الموت.

وقوله «مِن بين ليلةٍ» مِن دَخَل للتبيين[2]، والمعنى: كنتُ أُعُدُّ مفارقتى له في ليلةٍ كالموت، أو أقاسى مثلَ الموت مِن أجلِ مفارقةِ ليلةٍ منه، فكيف يكون حالى وقد فَرّق بينى وبينه بَيْنٌ موْعِدُ الالتقاء بعدَه يومُ القيامة. ومثل قوله «من بين ليلةٍ» قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. ولك أن تجعل مِن بين، في موضع المفعول لأرى، وتجعل مِن زائدةً على طريقة الأخفَش في جواز دخوله زيادةً في الواجب، فيكون التّقدير: كنتُ أرى بينَ ليلةٍ، أى فراقَ ليلةٍ، كالموْت. فيكون كالموت في موضع المفعول الثانى. وقوله «كان ميماده» وَضَع الماضى موضعَ المستقبل أى يكون ميماده، والهاء يرجع إلى البَين، كأنه وعَدَهُ الزّوالَ والالتقاءَ معه مِن بعده في يوم الحشر.

وقوله «وهَوَّن وَجدِى أنّى» موضع أنى رَفْعٌ، لأنه فاعل هَوَّن

(١) البيت للأعشى من لاميته المشهورة. ديوانه ص ٤٨.
(٢) في الأصل: «للتنوين». صوابه في ل.

والمعنى : خَفَّفَ وجْدِى وقَلَقِى أننى ذاهب فى إثْرِه ، ومُخْلٍ مكانى فى الدنيا بَعْدَه يوماً ، وإن أُطِيل عُمْرِى ، ونُفِّسَ فى أَجَلِى .

٥ — فتىً كان يُعْطِى السَّيفَ فى الرَّوْعِ حَقَّهُ إذا ثَوَّبَ الداعى وتَشْقَى به الجُزْرُ

٦ — فتىً كان يُدْنِيه الغِنَى مِن صَدِيقِهِ إذا ما هو استَغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ

يريد أنّ المرثىّ كان إذا حضر الوَغَى تصوَّر للسيف عليه حَقًّا ، فجاهَد نفسَه فى توفير ذلك الحقِّ عليه إذا أعاد الداعى وكرّر : يال فلانٍ !! مراراً . والتَّثويب فى الأَذَان معروف . وقوله « وتَشْقَى به الجُزْر » يريد وقتَ نُزول الأضياف ، وأنه كان لا يُرْضيه أقربُ المنازل فى نُزُل الضَّيف[1] ، بل كان يرتقى إلى أعلاها .

وهذا المعنى قد مضى قريباً ، وكذلك البيت الثانى قد مضى مثلُه[2] . ومعنى يُدْنيه الغِنَى من صديقه أنّه كان يَعُدُّ التفرُّد بالغِنَى لُؤْماً ، وكان يُشْرِك أصدقاءه فيه ، كما يَعُدُّ فى حال الإضافَة والفَقر ملابَسَةَ الأصدقاء كالتَّعرُّض لخيرهم ، فيَبْعُدُ عنهم .

٣٨٦

وقالت عَمْرَةُ الخَثْعَمِيَّة ، ترثى ابنَيْها :

١ — لَقَدْ زَعَمُوا أنِّى جَزِعْتُ عليهما وهَلْ جَزَعٌ أنْ قلتُ : وا بأْبَاهُما

الزَّعْم يُستعمَل كثيراً فيما لا حقيقةَ له ، لذلك قالت فيما حكَتْ عن القوم : زعموا . كأنَّها لما استَشْرف[3] النَّاسُ جَزَعَها وهَلَعَها ، فتذاكروا أمْرَها فيما بينهم أظهرَت الإنكارَ والتَّكذيب فيما توهّموه ، فقالت : وهل جزَعٌ أنْ قلت وا بأباهما ،

---

(١) النزل بضمة وبضمتين : ما يهيأ للضيف أن ينزل عليه .

(٢) انظر الحماسية السابقة .

(٣) فى النسختين : « استشرف » بالشين المعجمة بعد التاء ، والوجه ما أثبت .

تُرِى أنَّ ما تكلَّفتْه من التَّوجُّع لهما على قدر قول القائل : وا بأباهما . ولفظةُ « وا » تألُّم وتَشَكٍّ ، وهى حَرْفٌ للنُّدْبة . و « بأباهما » أرادت : بأبى هما ، ففرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبَتْ ألفاً . على ذلك قولهم : بادَاةٌ وناصَاةٌ ، فى باديةٍ وناصيةٍ . وقولها « وهل جَزَعٌ » ارتفع جزَعٌ على أنّه خبرٌ مُقدّم ، و « أنْ قلتُ » فى موضع المبتدأ ، تقديره هل جزَعٌ قولى وا بأباهما ، وارتفع هما من وا بأباهما على المبتدأ ، وبأبا خبره . هذا على طريقة سيبويه ، وعلى مذهب الأخفش يرتفع بالظَّرف . ورواه بعضهم : « بأنا هما » ، أى أفديهما بنَفْسى وأنا هو ضمير المرفوع ، وقد وقع موقعَ المجرور ، وكقولهم : هو كَأَنَا ، وأنا كَهُوَ .

٢ ـ هُما أخَوَا فى الحَرْبِ مَنْ لا أخَا لَهُ إذا خَافَ يَوْمًا نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا

ألمّتْ فى هذا بقوله[1] :

* إذا لم أجْنِ كنتُ مِجَنَّ جَانِ[2] *

تقول : كانا يَنْصُران مَن لا ناصر له من القوم إذا خَشِىَ نَبوة من نَبَوات الدهر يَوْماً فاستغاثَ بهما . وقولها « أخوَا فى الحرب مَن لا أخا لَهُ » فصَلَتْ فيه بين المضاف إليه والمضاف بالظرف ، فلذلك حذفتِ النون من أخوانِ ، فهو كقوله :

كأنَّ أصواتَ مِنْ إيغالِهِنَّ بنا أوَاخِرِ المَيْسِ أصواتُ الفراريجِ[3]

ففَصَل بقوله « من إيغالهن بنا » . وقولُها « مَن لا أخَا له » نَوَتِ الإضافة ثم أدخلت اللام تأكيداً الإضافة التى قصَدَتْها ، لذلك أثبتت الألفَ من

(١) هو سوار بن المضرب السعدى . الحماسية ١٨ ص ١٣٣ .

(٢) صدره : * وإنى لا أزال أخا حروب *

(٣) البيت لذى الرمة فى ديوانه ٧٦ واللسان (نقض) . ويروى : « إنقاض الفراريج ».

لا أخا ، لأنّ هذه الألفَ لا تثبُت إلاّ فى الإضافة إذ كان فى الإفراد يُقالُ أخٌ .
وخَبَر لا محذوف كأنها قالت : لا أخا موجودٌ أو فى الدنيا . ولو قالت : لا أخَ
له ، لكان له خَبراً للا ، على قولهم : لا أبَ لك ، ولا أبًا لك . وإنما قلت
أدخَلَتِ اللامَ لتوكيد الإضافة التى قصدَتْها ، لأن الإضافةَ غيرُ معتدٍّ بها هنا ، فلا
تُعرِّفُ الأخَ ، واللام تُبْطِلُ الإضافةَ فى الأصل . وهذه اللام لا تدخل إلاّ فى
بابَيْنِ : أحدهما باب النفى ، وهو ما نحن فيه ، والثانى باب النِّداء فى مثل قولهم :

* يا بُوسَ للحَرْبِ(1) *

لأنّ المراد : يا بُوسَ الحربِ .

٣ – هُمَا يَلبَسانِ المَجْدَ أحْسَنَ لِبْسَةٍ   شَحِيحانِ ما اسطَاعَا عليهِ كِلاهُمَا

وصفتهما بأنهما يكتسبان المجد ويستمتعان به أحسنَ استمتاعٍ وأجملَ
اكتساب ، وأنهما يَضِنّان به حيثُ ظهر وطلَع فلا يترُكانِه لأحدٍ ما داما
يستطيعان كَسبَه والفوزَ به . وانتصب « أحسنَ لِبْسة » على أنه مصدر . وارتفع
« شحيحان » على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ « كلاهما » ، و « ما اسطاعا » فى
موضع الظَّرف واسم الزّمان محذوف معه . واسطاعَ منقوص عن استطاع .
وتقدير الكلام : كلاهما شحيحان به ما اسطاعا عليه ، أى ما قدَرا عليه . ومعنى
« يلبسان المجد » ، أى يتملَّيانِه ويُمتَّعانِ به . قال :

لبِسْتُ أبى حتّى تمَلَّيتُ عيشَه   وبَلَّيْتُ أعمامى وبلَّيتُ خاليا

٤ – شِهابانِ مِنَّا أُوقِدَا ثُمّ أُخْمِدَا   وكانَ سَناً لِلْمُدْلِجِينَ سَنَاهُمَا

ارتفع « شهابان » على أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لكونه موصوفاً بمِنّا ،

(1) قطعة من بيت فى الحماسية ١٦٧ . وهو بتمامه :
يا بوس للحرب التى   وضعت أراهط فاستراحوا

وأُوقِدَا فى موضع الخبر . والمعنى : أنهما لم يُمْهَلَا للتّمام والكمال ، بل كانا كنارين أُوقِدَتا ثم أُنبعتا بالإخماد . والكلام توجُّعٌ وتلهُّف . وقولها « وكانَ سَنًا للمدلجين سَنَاهما » تريد نارهما الموقَدَةَ للضِّيفان وللطُّرّاق بالليل ، وأنهم كانوا يستضيئون بها فيرِدُون فناءه مستمسكِين أرماقَهم به ، ومتخلِّصين من سلطان البَرد والجوع وشُقة السَّفرِ إليه . ولا يمتنع أن يرتفع شِهابان على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هما شهابان .

٤ — إذا نزَلا الأرضَ المَخُوفَ بها الرَّدَى يُخَفِّضُ من جأشَيْهما مُنْصُلاهُمَا

تصفهما بالصبر فى دار الحِفاظ ، وأنَّهما إذا نزلا مكاناً مَخُوفاً لا يُؤْمن الردَى فيه يُسكِّن من قلقهما سيفاهما . وهذا فيه إعلامٌ بأَنَّهما كانا لا يعتمدان فى الشِّدة تنزل بساحتهما على غيرهما ، وأنَّهما كانا يتحمَّلان الأثقالَ بأنفسهما ، فلا صاحب لهما يُتَّكَل عليه ، ولا مُعين يُسْكَن إليه ، إلاَّ السيف . فهو كقول الآخر[1] :

* ولم يَرْضَ إلا قائمَ السيف صاحبًا[2] *

٥ — إذا استَغْنَيا حَبَّ الجَمِيعُ إليهما ولم يَنْأَ عن نَفْعِ الصَّديقِ غِناهُما

تقول : وإذا نالا الغِنَى وسَاعَدهما الحالُ حَبَّبَ جماعةَ الحىِّ والمتعلّقين[3] بحبلهما ، فازداد توفرًا عليهم ، وتفقدا لهم ، ولم يَبْعُد غناهما مِن انتفاع الغرباء والأجانب ، ومن يتسبَّب بودٍّ وصداقة إليهما . فقولها « حَبَّ الجميع إليهما » مقصورٌ على النَّسب ، وآخر البيت مصروف إلى الصَّديق الغريب . وسَاغَ أن يُرَاد بالجميع الحىُّ كلُّهم لاجتماعهم حولَه . والجمع والجمع : المجتمِعون . والجُمّاع : المتفرِّقون . قال :

(١) هو سعد بن ناشب . الحماسية ١٠ ص ٧٤ .

(٢) صدره : * ولم يستشر فى أمره غير نفسه *

(٣) ل : « والمتلقين » .

* من بين جَمْعٍ غيْرِ جُمَّاعِ[1] *

٨ — إذا افتقَرا لم يجثُما خَشْيَةَ الرَّدَى ولم يَخْشَ رُزْءا منهما مَوْلَيَاهُما

تريد أنَّهما إذا مسَّهما الفقر، وضاقَ بهما الأمر، لم يَلزما بيوتَهما تاركَين للغزوِ والتَّجوال فى طلب المال، خَوْفاً من الهَلاك، ومَيْلاً إلى الرَّاحة عن التَّسيار لكنَّهما يَنْميان للاكتساب، ويتحمَّلان من المشاقِّ ما ينالان به مُنَاهُمَا، أو يقيان به العُذْر [عند[2]] مَن رَاعَى أحوالَهما. وقولها «ولم يَخْشَ رُزْءا منهما مولياهما» تريد أنَّهما لا يستحملان مَوْلَيَيْهما عِبْئًا من فقرهما، ولم يَضَعا أنفسَهما فى موضع الارتزاء منهما، وجَبْرِ الحالِ بمالهما ويَسارِهما. وهذا كقول الآخر[3]:

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقــرَه على نفسه [ومشيعٌ غِناه[4]]

وقولها «لم يجثُما» مِن جَثْم الطائر. وهم يُسمُّون مَن رَضِيَ بفقره وصار لبيته كبعض أحلاسه: الضاجع والضُّجْعِيَّ[5]؛ لأنَّ الضَّجْعَةَ خَفْضُ العيش. وإلى هذا المعنى يشير القائلُ فى ذمِّه قوماً:

أولئكَ مَعْشَرٌ كبناتِ نَعْشٍ ضواجِعُ لا تَسِيرُ مع النُّجومِ[6]

يُرْوَى: «رَوَاكد». وانتَصَب خشيةَ الرَّدَى على أنَّه مفعول له. وقولها «مولياهما» ليس يراد به التَّثنية، بل المراد به الكثرة. وعلى ذلك قولهم: لبَّيْك وسَعْدَيك.

---

(١) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضلية ٧٥. وصدره:

* حتى تجلت ولنا غاية *

(٢) التكملة من ل.

(٣) هو المتنخل الهذلى. ديوان الهذليين (٢ : ٣٠).

(٤) التكملة من ل وديوان الهذليين.

(٥) بضم الضاد وكسرها.

(٦) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ٣٧٢. وفى اللسان (ضجع):

أولاك قبائل كبنات نعش ضواجع لا يغرن مع النجوم

٨ — لَقَدْ سَاءنى أنْ عَنَّسَتْ زَوجتاهما وأنْ عُرِّيَتْ بَعْدَ الوَجَى فَرَساهُما

٩ — ولَنْ يَلْبَثَ العَرْشانِ يُسْتَلُّ منهما خِيارُ الأواسى أن يَميلَ غَماهُما

يقال: عَنَّسَتِ المرأة وعنَّست بالتشديد، إذا قعدتْ بعد بلوغ النِّكاح أعواماً لا تُنْكِح. ويستعمل فى الرَّجُل أيضاً. قال:

* حتّى أنْتَ أشْمَطُ عانِسُ *

كأنّهما كانا تزوَّجا بامرأتين ولم يحوّلاها[1]، ولمّا اتّفق عليهما ما اتّفق بقيَتا على حالها زُهْداً فى النِّكاح بَعْدَهما، وعِلْماً بألاّ اعتياضَ منهما. فتقول: زاد ذلك فى مَسَاءتى، وزاد فيها أيضاً تَعرِيَةٌ من الإسراج والإلجام، بعد أن كانا يُستعمَلان على ما يَعترِضُ لهما من الحَقّ فى غَزْو الأعداء وغيره. وإنّما ساءها ما حَصَل من الأمَنَةِ فى الجوانب التى كانا يقصدان ويُوقعان بها بعد الرِّقبة الشّديدة، وما عُلِمَ[2] أنّهم وجَدُوه ولَزِموه من الشَّماتة وإظهار الفَرَح والمسرّة.

وقولُها: «لن يلبثَ العَرشانِ» جعلَتْ لكلِّ واحدٍ عَرْشاً به كان يثبت ويقوم، فيقول: العَرش إنما بقاؤه بعُمُده، فإذا انتُزِع خيارُها منه فلَنْ يلبثَ أن يميل سَقفُه فيسقُط. وهذا مَثَلٌ ضربَتْهُ لعزِّ ذويهما، وإذْ قد مَضَيا فيُوشِكُ أن يتثلَّمَ وينخفض. والأواسى: جمع آسِيَة، وهى الأساطين. والغِماء، بكسر الغين والمَدّ: سَقف البيت. والغَمَا بالفتح والقصر لغة.

---

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى النسختين وعند التبريزى، ولم يتضح لى ما المراد بالتحويل.

(٢) ل: «وما علمت».

٣٨٧

وقال الآخر :

١ — صَلَّى الإلٰهُ على صَفِيٍّ مُدرِكٍ   يومَ الحسابِ ومَجمعِ الأشهادِ

٢ — نِعمَ الفتَى زَعَمَ الرفيقُ وجارُهُ   وإذا تَصَبْصَبَ آخِرُ الأزوادِ

يُرْوَى : « ومَجْمَعِ الأشهاد » بجرُه وتعطفه على الحساب ، ويكون مَجْمَعٌ في معنى جَمْعٍ . ويُرْوى « ومجمعَ » بالنصب ، ويكون ظرفَ مكانٍ ومعطوفا على يومَ الحساب . والصَّلاة من الله تعالى : الرَّحمة . والمراد : رَحِمَ الله مُدْرِكاً صفيَّ فى الودّ ، رحمةً تأتِى مِن وَرَاءِ ذنوبه ، وتُغَطِّى على سَوَابِق فَرَطاتِه يومَ القيامة ، إذا حَضَر الشُّهودُ ووُضِعَ الحسابُ على تَحَاكُمِ الخصوم ، وقامَ الجزاء من الثَّواب والعِقاب على المطيعين والعُصَاة .

وقوله : « نعم الفتى » الممدوح محذوف ، كأنَّه قال نِعمَ الفتى مدرِكٌ . قال : وليست هذه الشَّهادة مِنِّى ومن جهتى ، ولا من جملةِ مَدْحِى ، على عادة الناس فى تأبين الهُلَّاك ، ولكنَّها مما أدَّاه وكثَّره رفقاؤه فى السَّفَر ، وجيرانُه فى الحَضَر ؛ فهى حكايةُ ألسنتهم ، ومُؤَدَّاة قضيَّتهم . وقولُه « وإذا تَصَبْصَبَ آخرُ الأزواد » معنى تصبصب قَرُبَ من النَّفاد . يريد : ونِعْمَ الفتى هو فى ذلك الوقت ، لأنَّه يؤثِر غيرَه بالطُّعْم على نفسه . وتلخيص الكلام : نِعم الفتى مُدْرِكٌ فى المُرَافَقة والمجاوَرَة ، وعند نفادِ الزَّاد . والأشهادُ : جمع الشُّهود . واكتفَى زَعَمَ بالفاعل فى اللَّفظ ، لأنَّ مفعوليه دَلَّ الكلام عليهما .

٣ — وإذا الرِّكابُ تَرَوَّحَتْ ثم اغْتَدَتْ   حتَّى المَقيلِ فلم تَمُجْ لِجِيَادِ

يريد : ونعم الفتى هو إذا وَصَلت الرِّكابُ السَّيرَ بالسُّرَى ، فلم تَعْطِفْ لانحرافٍ وازورار ، ولم تعرِّج لإصلاح شأن ، لـكنَّها استمرَّتْ وجَدَّتْ لِمَا أَزْعَجَهم وبَعَثَهم على استدامة التَّشمير ، وتعجيل الحركةِ وتَرْكِ التَّقصير ، وطىِّ المنازل ، واستقصار المَرَاحل . ومعنى تَرَوَّحَتْ راحت . والرَّوَاحُ : العَشِىُّ . وراحَتِ الإبلُ رَوَاحًا . والإراحة : رَدُّ الإبلِ عَشِيًّا من المَرْعَى . يقال : سَرَحْتُها بالغَداة[1] وأَرَحْتُها بالعشىّ . ومعنى اغتدَتْ حَتَّى المَقِيلِ : سارت غُدُوًّا إلى وقت القيلولة . أىْ كانَ فى هذه الحالةِ يأتى بما يستحقُّ به المَدْح من أصحابه ورُفَقائه ، لـكرمِ صَحَابتِه ، وحسن رِفَاقَته . ومعنى « لم تَعُجْ » لم تَعْطِف . يقال : عاجَ عَوْجًا وعِيَاجا . والحِيَاد : الإعراض عن السَّير للنُّزولِ . والفعل منه حَادَ . ويقال : مالكَ عن هذا مَحِيدٌ وحَيَدَانٌ وحِيَادٌ .

٤ — حَثُّوا الرِّكابَ تَؤُوبُها أنضاؤها   فَزَهَا الرِّكابَ مغنِّيانِ وحادِ[2]

٥ — لَمَّا رأَوْهُم لم يُحِسُّوا مُدْرِكاً   وَضَعُوا أناملَهم على الأكبادِ

وصَفَ وُرّادَ فِنائه بعد فَنائه ، وزُوّارَ قبرهِ طلباً لحِبائه ، فيقول : استَعجلوا رواحلَهم وحضُّوها على قَصْدِه والوصول إلى بابِه ، ومهازيلُها التى قد أثَّر بُعْدُ الشُّقَّة فيها فأنضاها ، تؤوبُ إليها إذا نزلت ، أى تسير النهار كلَّه حتى يتصل سيرُها بالليل ، طلباً للتَّلاحُقِ معها ، فاستخفَّها ونَشَّطَها مغنِّيانِ بالحُداء ، وسائقٌ يحدوها ، حتى وصلوا ، فلمّا رأوا أنفسَهم قد فَقَدَتْ مُدْرِكاً ، يعنى المرثىَّ ، أمسَكوا على أكبادهم خوفاً من تصدُّعها ، إذْ لو أدركوه حيًّا لم يكن بينهم وبين الغِنَى إلا ما لا يُعَدّ حاجزاً ولا مانِعاً .

(١) سرحت الماشية تسرح سرحا وسروحا ، وسرحتها أنا سرحا ، يتعدى ولا يتعدى .

(٢) التبريزى : « تؤمها أنضاؤها » . قال : « ويروى : تؤودها »

إن قيل: لِمَ جاز لمَّا رأوهم، والفاعلون هم المفعولون، وأنت لا تقول ضَرَبْتُنى ولا ضَرَبْتَك، بل تأتى بدل ضمير المنصوب بالنّفس، تقول: ضربتُ نفسى وضربتَ نفسَك؟ قلتَ: إنّ أفعالَ الشكِّ واليقينِ جُوِّز فيها ذلك. تقول: حسِبْتُنى ورأيتَكَ وعلمتُنى، لمخالفتها سائرَ الأفعال فى دخولها على المبتدأ والخبر.

وقوله «تَؤُوبها أنضاؤها» فى موضع الحال من الرِّكاب.

٣٨٨

وقال الشَّمَّاخ[١]

فى عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه[٢]:

١ — جَزَى اللهُ خيرًا من أميرٍ وَبارَكَتْ ... يَدُ الله فى ذاكَ الأديمِ المُمزَّقِ[٣]

٢ — فمَنْ يسْعَ أو يَرْكَبْ جَناحَىْ نَعامَةٍ ... لِيُدْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بالأمْسِ يُسْبَقِ

يقول: جزاه الله عن الرَّعيَّة خيراً من بين الأُمراء، وباركتْ نعمةُ الله — تعالى جَدُّهُ وإحسانُهُ — فى أديمِه المُمزَّق، يعنى جلدَ عُمَرَ رضى الله عنه، حينَ طعنه أبو لؤلؤة فَتَى المُغيرةِ بْنُ شُعْبَة. وأصل البَرَكة النَّماء والثَّبات. ومنه بَرَكَ البعيرُ بُرُوكاً. وبَرَاكاءُ القِتال: حيث يَبْترِكون، أى يَجثُون على رُكَبِهم.

(١) هو معقل بن ضرار بن سنان بن أمية بن عمرو بن جحش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة ابن سعد بن ذبيان. والشماخ لقب له. والشماخ مخضرم ممن أدرك الجاهلية والإسلام. وهو أحد من هجا عشيرته وأضيافه ومن عليهم بالقرى. الأغانى (٨: ٩٧ — ١٠٤) والمؤتلف ١٣٨ واللآلى ٥٨ — ٥٩ والخزانة (١: ٥٢٦) والشعراء ٢٧٤ والاشتقاق ١٧٤، وكتب الصحابة.

(٢) يزعمون أن الجن ناحت على عمر قبل أن يقتل بهذه الأبيات. الأغانى. وقال التبريزى: «وقال أبو رياش: الذى عندى أنه لمزرد أخيه. وقال أبو محمد الأعرابى: هو لجزء ابن ضرار أخيه». وقد نسبها الجاحظ فى البيان (٣: ٢٦٤) إلى مزرد بن ضرار.

(٣) البيان: «عليك السلام من إمام». الأغانى: «عليك سلام من أمير».

وقوله : « فمن يَسْعَ » يريد أنّ شأوَه فى الإيالة واستصلاح الرّعيّة وتفقُّد مصالحهم لا يُدرَك ، فمن أرادَ بلوغه والارتقاء إلى غايته بقِيَ حسيراً مسبوقاً ولو ركبَ جَنَاحَ النعامة . يريد : لو أسرع إسراعها . وقوله « بالأمس » ذكَرَه على طريق تقريبِ الأمَد . وقوله « يُسْبَق » هو جوابُ الجزاء .

٣ — قَضَيْتَ أموراً ثم غادَرْتَ بَعْدَها بوائجَ فى أكمامها لم تفتَّقِ[1]

يقول : أحكمتَ أموراً بصائب نظرك ، وجميلِ رأيك ، وحسن تألُّهِكَ[2] ثم أُعْجِلْتَ فتركتَ بعدها دواهِيَ وخُطوباً عظيمة ، هى فى أغطيتها لم تظهَر ولم يُكشَف عنها . والفَتْق : ضدُّ الرَّتْق ، وكلُّ متَّصلٍ مُسْتوٍ رَتْقٌ ، فإذا انفصَلَ وانكشف فهو فَتْقٌ . والبوائج : الدَّواهى العامّة . ويقال : بَاجَهُم الشَّرُّ ، أى عَمَّهم . قال الشاعر :

* فَبُجْته وأهْلَهُ بشَرٍّ *

والأكمام : الأغطية ، منه كِمُّ الثمرة . ويقال : لكلِّ شجرة مُثمِرةٍ كِمٌّ وهو بُرْعُومَتُها .

٤ — أبَعْدَ قَتيلٍ بالمدينةِ أظلَمَتْ له الأرضُ تَهتزُّ العِضَاهُ بأسْوُقِ

قوله « أبعد قتيلٍ » لفظه استفهام ، ومعناه التفظيع والإنكار . وحرف الاستفهام يطلُب الفعل ، فكأنّه قال : أتهتزُّ العِضَاهُ على أسْؤُقِها بعد قتيل بالمدينة أظلمتْ له الأرض . هذا عَجَبٌ .

وقوله « أظلمَتْ له الأرض من صفة قتيل . والمعنى أن حصولَ هذا الأمرِ

(١) البيان : « بوائق فى أكمامها » . والبائقة : الداهية .
(٢) التأله : التنسك والتعبد .

وجَرَيانَه على ما كان مُنكَرٌ فظيع ، بَعدَ ما اتّفق على قتيلٍ هذا صفتُه .
والعضاهُ : شجرٌ ، واحدتها عِضَةٌ . قال :

• ومن عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكيرُها[1] •

وقد مضى القول فى مثل هذا البيت . ويشبهه قول الآخر[2] :

أيا شَجَر الخابُورِ مالَكَ مُورِقًا كأنكَ لم تَحزَنْ على ابن طَرِيفِ

٥ــتَظَلُّ الحَصَانُ البِكْرُ يُلقِى جنينَها نَثَا خَبَرٍ فوْق المَطِىّ مُعَلَّقِ

٦ــوما كنتُ أخشَى أن تكونَ وفاتُهُ بكَفَّىْ سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطرِقِ

الحَصَان : العفيفة وقد أحصنَتْ وحَصُنَتْ . والبِكر : التى حَمَلَتْ أوّلَ حَمْلِها ، فهى بِكرٌ والولد بِكرٌ والأب بكرٌ . والنَّثا ، يستعمل فى الخير والشّر . يقال : نَثَوْتُ الكلامَ أنثُوهُ نَثْوًا ، إذا أظهرْتَهُ . فيقول : ترى الحامِلَ يُسْقِطُ حَمْلَها ما يُنْقَى من خَبَرٍ سار به الرُّكبان ، وتقاذفته الأقطار ، استفظاعاً لوقوعه ، واستشعاراً لكلٍّ بلاءٍ وخوفٍ منه .

وقوله «وما كنتُ أخشى» يقول : إنِّى وإنْ لم آمن الحَدَثانَ عليه ، وصرتُ أرقبُ جميعَ أسباب الرَّدَى فيه حتى ظننتُ ظُنُونَ المشفِقاتِ ، مستدفِعًا للآفات عنه ، فإنَّه لم يَخطُر ببالى أن يكون فى جلالتِه وارتفاع مَحلِّه يُرديه عَبْدٌ جَسُورٌ لئيمٌ جَرِىءٌ ، أزرق العين ، مسترخى الأجفان . وإنما حَلَّى قاتِلَهُ بهذه الحِلْيَة تنبيهاً على حقارته فى نفسه وجنسه ؛ وذمًّا لأصلِهِ وفرعه ، وإعلاماً بأنَّ الصَّغير من الرِّجال يجنى الكبيرَ من الأمور ، وأنَّ ما لا يَقَعَ فى الوهم استبعاداً لكونه ، يشاهده الإنسان أقربَ من كلِّ قريب ، ثم لا يملك إلا استغرابَه وقضاءَ العجَبِ

(١) انظر اللسان (شكر) وشروح سقط الزند ١٥١١ .

(٢) هو ليلى بنت طريف ، كما فى حماسة ابن الشجرى ٨٩ وحماسة البحترى ٤٣٥ . وقيل إن الشعر للفارعة بنت طريف . والمرثى بهذه القصيدة هو الوليد بن طريف الشارى . وقد روى ابن خلكان فى ترجمته القصيدة كاملة ، وهى نادرة .

منه والتزَامَ الجزعِ فيه . والسَّبَنْتَى والسَّبَنْدَى ، أصله فى النمِر ، ويُستعمَل فى الجرىء المُقْدِمِ . وقال الدُّريدى : المُطْرِقُ : الغليظ الجَفْنِ الثَّقيلُه .

٣٨٩

وقال صَخْرُ بن عَمْرٍو[1] أخو الخَنْسَاء :

١ — وقالوا ألا تَهْجُو فوارِسَ هَاشِمٍ ... ومَالِى وإهْــدَاءُ الخَنَا ثمّ مَالِيَا

٢ — أبَى الهُجْرَ أنّى قد أصابوا كريمتى ... وأنْ لَيْسَ إهداءُ الخنَا من شِمَالِيَا[2]

يريد : قال النّاسُ باعثِين لى على هِجاء مَن أصابنى فى أخى معاوية ونَحتِ أثْلَتِهم ، وذكر أعراضِهم : ألا تنتقمُ منهم بالقول إلى أن يتسهَّلَ الفِعل فتذكُرَ معايبهم ، وتكشِف عن مستور مَخَازيهم ، ومجهولِ مقابحهم ومساويهم؟ فأجبتهم وقلت : مالى وذكرَ القبيح وإهداءُ الفواحشِ ثمّ مالى ؟ أما تعلمون أنّ ما بينى وبينهم أقذَعُ من الهِجَاء ، وأنّ جزاء مَن أصاب كريمتى أفظَعُ من الإهجار ، وأنه ليس قولُ القبيح وتنقُّصُ النّاس من عادتى وطبيعتى ، إذ كنتُ أربَأ بقدرى عن الوقوف موقفَ المتنابِين والطّاعنينَ فى الأنساب والأعراض . وقوله « ومالى وإهداء الخنا » انتصَب إهداء بفعلٍ مُضمَرٍ ، وتكريره لِمَالِى دلالةٌ على استقباحه لما بُعِث عليه ، ودُعِى إليه . والخَنَا هو الفُحْشُ ، كأنه قال : مالِى ألابِسُ الخَنَا وأتكلّفُه . وقوله « أصابوا كريمتى » فالكريمة أخرِجَ إخراجَ

(١) هو صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد ، من أشراف بنى سليم ، أخو الخنساء الشاعرة الصحابية ، وقد مات قبلها فرثته رثاء صادقا ، وضرب بحزنها عليه المثل . ويبدو أنه مات قبل الإسلام . وفى ذلك تقول الخنساء : كنت أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار . انظر ترجمته مع الخنساء فى الأغانى (١٣ : ١٢٩ — ١٤٠) والخزانة (١ : ٢٠٧ — ٢١١) والشعراء ٣٠١ — ٣٠٦ .

(٢) التبريزى : « أبى الهجو » .

المصادر . وعلى ذلك ما رُوِىَ على النبىّ صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكُمْ كريمةُ قوم فأكرِمُوه[1] » .

ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة . وقوله « وأنْ ليسَ إهْدَاءُ الخنَا » أن مخفَّفة من الثقيلة ، واسمُه مضمَر ، والجملة التى بعدَه فى موضع الخبر ، وموضع أن رَفْعٌ بكونه معطوفاً على أنّى قد أصابوا ، وأنّى فاعلُ أبَى المُجْرَ .

٣ـ إذَا ماامْرُؤٌ أهْدَى لميْتٍ تَحِيَّةً فَحَيَّاكَ رَبُّ النّاسِ عَنِّى مُعَاوِيَا

٤ـ لَنِعْمَ الفَتَى أدَّى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ إذا رَاحَ فَحْلُ الشَّوْلِ أحْدَبَ عَارِيَا[2]

يقول : إذا رَجُلٌ حَيَّا مَيِّتاً فتولَّى الله تعالَى عنِّى تحيَّتَك يامعاوية .

والتَّحيَّة من الله تعالى : الإكرام والإحسان ، والتفضُّلُ عليه بما هو أهلُه .

وقوله « لنعم الفتى » المحمود بهذا الكلام محذوف ، كأنه قال : لنعم الفتى الذى ذا صفته . وقوله « أدَّى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ » أرَادَ سلاحَهُ وسَلَبَهُ . وقوله « إذا راح » ظرفٌ لما دلّ عليه نِعم الفَتَى . أى يُحمَدُ فى هذا الوقت إذا اشتدَّ الزَّمان وأجدَبَت الأرضُ ، وانصرَفَ فَحْلُ الشَّوْلِ من مَرْعاهُ عارياً من اللَّحم مهزولاً ، لكثرة أفضالِهِ ، وحُسْنِ تفقُّده واتِّصالِ بِرِّهِ بمن يجمَعُه إليه نَسبٌ أو سببٌ . والشَّوْل : النُّوق القليلة الألبان ، واحدتها شائلة . وابن صِرْمَةَ المذكورُ يجوز أن يكون القاتلَ لمعاوية أو المعينَ عليه .

٥ـ وطَيَّبَ نَفْسِى أنَّنى لم أقُلْ لَهُ كَذَبْتَ ولم أبْخَلْ عليه بماليا

٦ـ وذى إخْوَةٍ قَطَّعْتُ أقْرَانَ بَيْنِهِم كَمَا تَرَكُونى واحِداً لا أخَاليا

---

[1] هو حديث أنه أكرم جرير بن عبد الله لما ورد عليه ، فبسط له رداءه وعممه بيده وقال : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه » .

[2] بعده عند التبريزى :

إذا ذُكِرَ الإخوانُ رَقرقتُ عَبرةً وحيَّيتُ رَمْساً عند لِيَّةَ ثاويا

تَسَلَّى فيما أوجَعَه من الرُّزْءِ بأن لم يكن جَنَاهُ وهو حَيٌّ قولا ولا فِعْلاً ، ثم تسَلَّى أيضاً بأنَّه كما فُرِّق بينه وبين إخوته وتُرِكَ فريداً وحيدا ، قد تولَّى مِثْلَ ذلك من مُعَاديه ، فرُبَّ إخوَةٍ متناصِرِينَ صارت كلمتهم واحدةً ، وأهواؤُهم متَّفقة ، وهم فى تألُّفهم وتشابههم ، وتلاؤمهم وترافُدِهم ، كالحَلْقة المُفْرغة لا يُدْرَى أين رأسُها ، أنا قطعتُ علائق بينهم ، ووُصَلَ نظامهم ، فتفرَّقوا وتفاقَدُوا حتى صاروا فى التشتُّت مثلا ، كما كانوا فى التجمُّع مَثَلا . وهذا بإزاء ما فُعِلَ بى ، وفى مُقابَلَةِ ما نيلَ منّى . والدَّهرُ تاراتٌ ، و « مَنْ يرَ يَوْماً يُرَ به » . وقد مرَّ القول فى قوله « لا أخاليا » . وانتصب « واحداً » على الحال من تركونى ، ولا أخاليا صفة له ، كأنه قال : تركونى وحيداً فريداً . وقوله « أقرانَ بينهم » أى وُصَلَ بينهم . وأصل الأقران الحبالُ ، والواحد قَرَنٌ . يريدُ : إنِّى قطَعْتُ الأسبابَ الجامعة بينهم بقتلهم وتفريقِهم . و « بين » جعلَهُ اسماً . وفى القرآن : ﴿ لقَدْ تَقطَّعَ بَيْنُكُمْ ﴾ .

٣٩٠

وقالت أختُ المُقَصِّص[١] :

١ — يا طُولَ يَوْمِي بالقَلِيبِ فلم تَكَدْ شَمْسُ الظَّهيرة تُتَّقى بحجابِ

(١) اسمها « ميسون » كما ذكر التبريزى . وروى من خبر هذه الأبيات أن المقصص أخا بنى الصموت ، من بنى عبد الله بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، خرج فى أيام فتنة ابن الزبير يصدق من مر به من الناس ، حتى أتى بنى قنفذ من بنى سليم ، بناحية هضب القليب ، فصدقهم ، ثم بعث إلى هلال أخى بنى سمال بن عوف : أن ابعث إلى بابنتك . فقال هلال : إن كان تزويجا فليأتنا فإنه كفء . قال : إنما أردت أن تمشط رءوسنا وتتحدث معنا . فضرب هلال الرسول ، فركب المقصص فى فرسان ثلاثة حتى هجم على الحى ، فثاروا إليه ، وكان فى الذين ثاروا إليه مع هلال فتيان من بنى قنفذ ، يقال لأحدهما المستوضح وللآخر الحسن بن الأسود ، فناوشوه قليلا . ثم إن المقصص حمل على هلال فخاف هلال أن يطعنه وليس معه سلاح ، فوجد —

٢ — ومُرَجِّمٍ عَنكَ الظُّنونَ رأيتَهُ ورآكَ قبلَ تأمُّلِ المُرْتابِ

قوله « يا طُول يومى » لفظه نداء، ومعناه تعجُّبٌ واشتكاء، وإنَّما استطالَهُ لأنَّه كان يومَ نَحْسٍ ومكروه. فيقول: يومى بالقَلِيب امتدَّ وطال حتَّى كادت الشمس لا تحتجب عن الأبصار بحجابها المعلوم؛ فياله مِن يومٍ ما أطوَله. والقليب: موضع[1]. وأضاف الشَّمسَ إلى الظَّهيرة كأنَّه لما قامَ قائمُ الظَّهيرة وقفَتْ حيرَى فلم تكنْ تَجنحُ إلى المَغيب، ولا كانت تسير فتهوِى للغُروب.

وقوله « ومرجِّمٍ عنكَ الظُّنون » وصَفَه بأنَّ الآفاق على بُعدها كانت قريبةً عليه لِمَا أبْدَ [به] من العَزم وتَسَهَّلَ له وفى نفسه مِن وُعورة السَّير، فيقول: ربَّ مُكاشحٍ لك كان على تنائيه عنك، وتحزُّمه معك، واستظهاره بإبعاد الدَّارِ منك، يرجِّم الظَّنَّ فيك، ويُوَسْوِس إليه ما يَعرفه من إبعادك فى الغَزْو، وقلَّة احتفالك فيما تركبه بلَواحق التَّعَب، وعَوارضِ الخطَر — أنَّك تَقصِده وتُوقِع به آمَنَ ما كان منك، وهو فى وَسْواسِهِ لم يحدِّثْ نفسَه بتأمُّلِ ما وقَع فى خَلَده، ولا بالكشف عمَّا ارتاب له، إذْ أنتَ أتيتَه من حيثُ لا يحتسِبُه، واستَبحْتَ حريمَهُ، واستَغنمتَ مالَه. وقوله « قَبلَ تأمُّل المرتابِ » يجوز أن يريد به قبل تأمُّلِه، فيكون المرتاب هو المُرَجِّم المكاشِح. ويجوز أن يكونَ جعَلَه مثلًا.

— أثفية مرتزة فى الرماد فاقتلعها ورماه بها، فركب ردعه ومات، وانهزم أصحابه ومروا على جعدة بن عبد الله، أخى بنى غيظ بن مالك، فقتلوه فقال هلال:

أعددت للهيجا ويوم المشهد وللأحاديث التى بعد الغد

« مستوحماً والحسن بن الأسود »

فركب أولياء المقصص حين هدأت الفتنة إلى الحجاج فذكروا أمر صاحبهم وأمر الغيظى، فأهدر دم المقصص وأقادهم بالغيظى، فقالت أخت المقصص هذه الأبيات.

(١) فى معجم البلدان: « هضب القليب بنجد. والهضب: جبال صغار. والقليب فى وسط هذا الموضع يقال له: ذات الإصاد، وهو من أسمائها. وعنده جرى داحس والغبراء ».

وقد ألمّ بهذا المعنى أبو تمّام فى قوله :

أسْرَتْ لَكَ الآفاقَ عَزْمَةُ هِمَّةٍ جُبِلَتْ على أنَّ المَسِيرَ مُقَامُ

٣ ــ فَأفَأْتَ أُدْمًا كالهِضابِ وجامِلًا قَدْ عُدْنَ مِثْلَ علائِفِ المِقْصَابِ[1]

٤ ــ لَكُمُ المُقَصَّصُ لا لَنَا إن أنتُمُ لم تأْتِكُمْ خَيْلٌ ذوو أحْسَابِ

يقول : غزوتَهُم لجعلتَ مالَه فيئًا وغنيمةً : نوقًا كالجبال سِمانًا ، وذكورةً عِظامًا ضِخَامًا ، عُدْن كالّتى يسمّنها الجزّار للنّحر .

وقوله : « لكُم المقصّص لا لنا » يقول : إنْ لم تأتكم خيلٌ إذا طلبوا الثّأر طلبوه عن امتعاضٍ وشدةِ أنفَةٍ ، وجِدٍّ فى الأمر واجتهادٍ ، فِعْلَ الحسيبِ الكريم الذى لا يغمّض على قَذًى ، ولا يصبر فيما يُحَق له على أذًى ، فأنتم أولياء دَمِهِ مِن دوننا ، والمالكون له سِوانا . وقد تركناهُ لكم ، وفُزتم بما أصبتموه ، واستمرأتم ما طَعِمتموه . وقوله « أفأت » من الفىء : الغنيمةِ ، لا من الفىء الرُّجوع . والجامل موحَّدُ اللفظ مَصُوغٌ للجمع ، ويراد به الإبل ، لكنّه مشتقٌ من لفظ الجمل ، كالباقِرِ من البَقَر . والعلائف : جمع العَلوفة ، وهو ما يسمَّن فى البيوت . ويقال : شاةٌ مُعَلَّفَةٌ ، أى مسمَّنةٌ . والمِقصابُ ، بناهُ بناء ما يكون آلة ، فهو كالمفتاح ، لا بناء ما يكون للحِرْفة والمزاولة . والواجب أن يكون « القَصَّاب » ، وهو من القَضْب : القَطْع والفَصْل ، لأنّه يقصِّب الشّاةَ أى يقطِّعها .

---

(١) رواية التبريزى : « المقضاب » ، وقال فى تفسيره : « المقضاب : المزرعة التى تنبت القضب ، وهو القت . فأرادت أنهم امن لخصب فى روضة مستكة كاستكاك نبات القضب . وقيل : المقضاب شبه منجل . تريد كأنها علائف سمنت للنحر والمقضاب أيضاً : الرجل الكثير القطع . والقضاب : الذى صناعته ذلك . فإذا روى القضاب فمعناه مثل علائف الذى ينحرهن كثيراً . ومن روى المقصاب بالصاد نسبه إلى القصب . ويحتمل أن يكون المقصاب : الموضع الكثير القصب ، كما أن المعشاب الموضع الكثير العشب » .

٥ ــ وأبُو اليَتَامَى يَنْبُتُونَ ببابِهِ نَبْتَ الفِراخِ بِمُكْلِئٍ مِعْشَابِ[1]

٦ ــ فَكِهٌ إلى جَنْبِ الخِوانِ إذا غَدَتْ نَكْبَاءُ تَقْلَعُ ثابِتَ الأَطْنَابِ

قوله « وأبو اليتامى » أى كان يكفُلهم وَيمُولهم ، ويُشفِق عليهم ويتحدَّب ، حتَّى كأنَّه أبوهم . وارتفع « أبو » كأنَّه خبر ابتداء محذوف كأنَّها قالت : وهو لليتامى أبٌ . ومعنى « ينبتون ببابه » يُروى « فناءه » ، وانتصابُه على أنَّه أخرجَه إلى باب الظُّروف ، كما فُعِلَ ذلك بمَقْعَدَ القابلة ، ومَناطَ الثريَّا وما أشبههما . والمعنى أنَّهم يتربَّون فى فنائه ويتنمَّون ، تَرَبِّىَ فِراخِ الطَّير بمكانٍ كثير العُشْب والكلأ . ويقال : أكْلَأ الموضِعُ ، إذا صار ذا كَلإٍ وعُشْب . والمِعشاب : الكثير العُشْب .

وقوله « فَكِهٌ إلى جَنْب الخِوان » فالفَكِه : الكثير المِزاح واللَّعِب[2] ، تأنيساً للضَّيف وبَسْطاً منه ، كما قال الآخر[3] :

* أُحَدِّثُهُ إنَّ الحديثَ من القِرَى[4] *

وقوله « إذا غَدَتْ » ظَرْفٌ للفَكِه . يريد : يفاكه الضَّيف عند الأكل بمُلَح الكلام ، كى يستأنسَ ويتَّسِع الوقتُ له فيستوفىَ . وإلى من قوله « إلى جنب الخوان » تعلَّق بفعلٍ مضمَر دَلَّ عليه فَكِهٌ ، كأنَّه مع قرب الخوان يَفْكَهُ . و « إذا غَدَتْ نكباء » يريد وقت البَرْدِ وهبوبِ الرِّيح الباردةِ المزعزِعة للبُيوت ، القالعةِ لأوتادها وحبالِها . وأطناب البيوت : حبالها . ومنه إطنابَةُ الحزَم والقِسِىّ . والجميعُ الأطانيب . قال :

(١) روى التبريزى هذا البيت بعد تاليه .

(٢) اتفقت النسختان فى هذا الضبط .

(٣) هو عتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سيأتى فى القسم الرابع من الحماسة .

(٤) عجزه : * وتعلم نفسى أنه سوف يهجع *

* يَرْكُضْنَ قد قَلِقَتْ عَقْدُ الأطانيب[1] *

٣٩١

وقالت عَمْرَةُ بنتُ مِرداسٍ[2] تَرثى أخاها عبّاساً :

١ — أَعَيْنَيَّ لم أَخْتِلْكُمَا بخيانةٍ   أَبَى الدَّهْرُ والأيَّامُ أن تَتَصَبَّرا

٢ — وما كُنْتُ أَخْشَى أن أكونَ كأنَّني   بَعِيرٌ إذا يُنْعَى أَخِيَّ تَحَسَّرَا

٣ — تَرَى الخَصْمَ زُوراً عن أَخِيَّ مَهَابَةً   وليسَ الجليسُ عَنْ أَخِيَّ بأَزْوَرَا

تقول : يا عينيَّ لا أقول إنكما لم تَجْزَعا ولم تذرِفا ، ولم تَخلِطا بدمعٍ دماً ، فأكونَ قد خدعتُكما بخيانةٍ استعملتُها معكما. وكيف لا تكونان كذلك والأيامُ والليالي امتنعَتْ عليكما أن تتصبَّرا فيها ، إذْ كانت حمَّلتكما من أعباء الرزيّة ما استنفدَ وُسْعَكُمَا ، واستغرق طوقَكُما ، حتى نُزِفَتْ دموعُكما ، وتوقَّفت عن الإجابة شُؤُونكما ، فما بَقِيَ منكما إلاّ شفاً .

وقولها: « وما كنتُ أخشى » يقول : كنتُ قبل هذه الرَّزيئة واثقاً بقوَّتي وصبري ، ومُسكَتِي وعقلي ، حتى لا أخشى — إذا أخطرتُ ببالِي أحداثَ الدّهر وتأثيرَها في الأحبّة والأهل — سوء احتمالٍ فيها ، وضعف مُنّةٍ عنها ، إلى أن نُعِيَ أَخِيَّ فورَدَ له على نفسي ما أبداني بالتَّماسُك تهالُكا ، وبالتثبُّت تساقُطا ، حتى صرتُ كأني بعير أُلِحَّ عليه فتحسَّرَ ورَزَح ، وعُقِل في مَبْرَكِه بالعَجْز فما بَرِح .

---

(١) البيت لسلامة بن جندل ، ولم يرو في ديوانه ولا في المفضليات . لكن نسب في الأساس إلى النابغة ، ومع ذلك لم يرد في ديوان النابغة في قصيدته التي على هذا الروى . وصدره في اللسان :

* حتى استغثن بأهل الملح ضاحية *

(٢) سبقت ترجمة أخيها في الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٢ .

وقولها « ترى الخصمَ زُورًا » جعلت الخصمَ للجمع فلذلك قالت زُوراً . والمصدرُ إذا وُصِفَ به بُقِّيَ على حالِه فلم يُثَنَّ ولم يُجمَع . وقد قيل : خَصمان وخُصُوم ، لمَّا غلبت عليه الوصفيّة وكثُر في الاستعمال أُجرِيَ عليه حكمُ الصّفة . والمعنى : ترَى مُعانِدِي أُخَيَّ منحرِفين عنه وعن كلِّ متَّصلٍ به ، مسالِمين له ولمن أعلَقَ حبلَه بحبله ، إعظامًا له وتَهيُّباً ، وإكباراً وتَخوُّفاً . وترى جُلَساءه ونُدماءه مباسِطين له ومستأنِسين به ، لا يتداخَلُهم منه رُعْبٌ ، ولا يقبضهم عنه تجبُّرٌ وكِبر . والخَتْلُ : المَكْر . وقال الخليل : هو تَخادُعٌ عَن غَفلَةٍ . وإنما قال الدَّهر والأيّام ، لأنّه أرادَ بالأيّام الأحداثَ . وهذا كما قيل للوقعات : الأيّام . وإنما صَغَّرت الأخَ لتلطيف المحلّ . هذا على قولهم صُدَيِّقي . والتحسُّر : الضعف عن الإعياء . ويقال : الحَسْر والحُسُور أيضاً . وحَسَرَت النّاقةُ فهي حسيرٌ والجمع الحَسْرَى . ولك أن تروى : « أُخَيِّي » وهو الأصل ، و « أُخَيَّ » فتحذفَ ياءه استثقالاً لاجتماع الياءات ، وتبنيه على الفتح لأنّه أخفُّ الحركات . وانتصَب « مهابةً » لأنّه مفعول له .

٣٩٢

وقالت رَيطةُ بنتُ عاصمٍ :

١ – وقفْتُ فأبكَتْنِي بدارِ عَشِيرَتي ... على رُزْئِهِنَّ الباكياتُ الحَواسِرُ

٢ – غَدَوْا كسُيوفِ الهِندِ وُرَّادَ حَوْمَةٍ ... من الموتِ أعيَا وِردَهُنَّ المَصادِرُ

٣ – فوارسُ حامَوْا عن حريمٍ وحافَظُوا ... بدارِ المنايا والقَنَا مُتَشاجِرُ[1]

٤ – ولو أنَّ سَلْمَى نالَها مِثلُ رُزْئِنا ... لهُدَّتْ ولكن تَحمِلُ الرُّزْءَ عامِرُ

تقول : دعاني ما أُصِبْتُ به في عشيرتي إلى الوُقوف بدارهم ، فشجِيتُ

(١) التبريزي : « عن حريمي » .

بِشَجَى النِّساء النَّوادب الحواسر، حتَّى بكيتُ لبكائهنَّ على حادثِ الرُّزء، واقتفرت آثارَهن فى الهَلَع والحُزْن.

وقولها «غَدَوْا كسيوف الهند» أخذَتْ تصفُ حالَ عشيرتها فقالت: ابتكروا وهم فى خِلَقهم وتجرُّدهم، وصَفائهم ونفاذهم، كسُيوف الهند، فورَدُوا حَومةً من الموت أعجزَهم الصَّدَر عنها. والحومة: مُعظَم الحربِ وغيرِها. وحومة البحر: أكثَرُ موضعٍ منه ماء، وكذلك حَومة الحوض. ويقال: حامَ الطائرُ على الماء يَحُومُ حَوْمًا، إذا دارَ عليه فى الطَّيَران.

وقولها «فَوارِسُ حامَوا عن حريمٍ» وصَفَتْهم بأنَّهم حَفِظوا ما وجَبَ عليهم حِفظُه من حُرَمِهم. وفى المثل: «لا بُقْيَا للحَمِيَّة بعد الحَرَام» أى عند الحُرْمة، والحرمة: ما لا يَحِلُّ لك انتهاكه، وكذلك المَحَارم، واحدتها مَحْرَمَةٌ. قال:

* ومَحْرَماتٌ هَتْكُها بُجْرِىُّ[1] *

ومن ذلك قيل: حَرِيم الدَّار، لِمَا كان من حقِّها.

وقولها «وحافَظُوا بِدَارِ المَنَايا» أى ثبَتوا فى دار الحِفاظ، ودافَعُوا وصبروا، ولم ينتقلوا عنها طلباً للسَّلامة، وحِرصاً على نَيل الخِصب والأَمَنَة.

وفى هذه الطريقة قولُ الآخر[2]:

وتَحُلُّ فى دارِ الحِفاظِ بُيُوتُنا زمَناً ويَظْعَنُ غَيرُنا للأمْرَعِ

وقولها «والقَنا مُتَشاجِر» الواو منه واو الحال. وأشار بذلك إلى قيام الحرب

---

(١) البيت للعجاج فى ديوانه ٦٨. وقبله:

* وجارة البيت لها حجرى *

(٢) هو الحادرة الذبيانى. المفضلية ٨.

بينهم ، وانتصابِ الشَّرِّ فيهم ، وأنَّ للطَّعن تَلاحُقًا كما أنَّ للقنا فى الاختلاف تداخُلا .

وقولها « ولو أنَّ سَلمَى » فسَلمَى : أحدُ جبلَىْ طيِّئ . والمعنى : لو أنَّ ما نَزَل بنا من الرُّزء مثلُه نَزَلَ بهذا الجبلِ لانهدَّ ، ولكنَّ الإنسانَ صَبورٌ شديد ، يتحمل كلَّ ما حُمِّل ؛ وإنْ ضُوعِفَ على وُسْعِهِ وثقُل . وعامرُ : قبيلتُهم .

٣٩٣

وقالت عاتِكةُ بنت زيد بن نُفَيل[1] :

١ – آلَيْتُ لا تَنفَكُّ عينِى حَزِينَةً عَلَيْكَ ولا ينفكُّ جِلْدِىَ أَغْبَرَا

٢ – فَلِلّهِ عَيْنَا مَن رَأَى مِثْلَهُ فَتًى أَكَرَّ وأَحْمَى فى الِهياجِ وأَصْبَرَا

٣ – إذا أُشْرِعَتْ فيه الأَسِنَّةُ خاضَها إلى المَوت حَتَّى يَتْرُكَ الموتَ أَحْمَرَا

روى بعضُهم أنّ عليًّا عليه السلام استأذَنَ عمر رضى الله عنه فى مُكالمة عاتكةَ بنتِ زيدٍ ، وهى يومئذٍ زوجته ، فقال عمر رضى الله عنه : لا غَيْرَةَ منكَ يا أبا الحسن ! فقال علىٌّ عليه السلام مازحًا : آنتِ القائلة :

آليْتُ لا تنفكُّ عينِى قَرِيرةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدِى أصفرا[2]

---

(١) هى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية ، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة . وقد أسقط المرزوقى هنا اسم جدها « عمرو » . وهى صحابية كانت زوج عبد الله بن أبى بكر الصديق . ثم عزم عليه أبوه أن يطلقها لما شغلته عن مغازيه ، فطلقها ثم تبعتها نفسه ، فسمعه أبوه يوما يقول :

ولم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها من غير جرم تطلق

فرق له أبوه وأذن له فارتجعها ، ثم لما كان حصار الطائف أصابه سهم فكان فيه هلاكه . فمات بالمدينة فرثته بهذه الأبيات . ثم تزوجها زيد بن الخطاب فاستشهد باليمامة ، ثم تزوجها عمر ، فاستشهد فرثته بأبيات ستأتى فى الحماسية ٣٩٦ . انظر الإصابة ٦٩٢ من قسم النساء ، ونوادر المخطوطات ٦١ .

(٢) أصفر ، من استعمال الطيب والخلوق . وهو كناية عن السرور واطراح الحزن .

فقالت : لم أقُلْ كذا . وعاودتْ حُزنها وجَزَعها . ومعنى « لا تنفك » لا تزال .

وقولها « فَلِلّهِ عَيْنَا » تعجُّبٌ ، وهى فى تعظيم الشَّىء ينسُبونه إلى الله عزّ وجلّ ، وإن كانت الأشياء كُلُّها له تعالى وفى مَلَكته .

وقولها « أكَرّ » أى أكثر كَرًّا . و « أحْمَى » يجوز أن يكون من الحماية ويجوز أن يكون من الحَمِيَّة . والمعنى : لله عينا رجلٍ رأى فتًى مثلَه أكرَّ منه وأحْمَى . وقولها « من » نكرةٌ تريد رجلاً أو إنسانا . و « رأى مثله » صفة لمَنْ . وقولها « إذا أشرِعَتْ فيه الأسنّة » ، تريد : فى الهِياج . ويجوز أن تريد فى المرئىّ ، أى قِبَلَهُ . والهياج يجوز أن يكون مصدر هائج ، ويجوز أن يكون جمع هَيْجٍ ، والمراد به الحربُ وقد هاجت . فتُريد : إذا هُيِّئَت الرِّماحُ لطعنةٍ اقتحمَها وتلقَّاها ، لا يَحيد عنها حتَّى يَخُوضَ الموتَ بها ، فيتركَه أحمر ، أى شديداً .

ويقال : مِيتةٌ حمراء ، وسَنَةٌ حمراء ، وسِنُونَ حَمْراوات . ويقولون : « الحُسْنُ أحمر » ، أى طلَبُ الجمال تُتجشَّم فيه المشَقّ .

٣٩٤

وقالت امرأةٌ من طيّئٍ :

١ — تأوَّبَ عَيْنِى نَصْبُها واكتئابُها ورجَّيْتُ نَفْسًا رَثَّ عَنها إيابُها

٢ — أُعَلِّلُ نَفْسى بالمُرَجَّمِ غَيْبُهُ وكَذَّبْتُها حَتَّى أبانَ كِذابُها

أصل التأوُّب والتأويب : سَيْر النَّهار كلّه حتَّى يتّصلَ باللّيل . وقد فسّر ابن الأعرابىّ قولَ النابغة :

* وليس الذى يَتلو النُّجومَ بآيِبِ[1] *

(١) صدره : * تطاول حتى قلت ليس بمنقض *

على أنّه من هذا لا من الأَوبة الرُّجوع . والنُّصب ، من قولهم أنْصَبَه المرضُ والحُزْنُ ، إذا أثَّر فيه . قال :

* تَعَنَّاكَ نُصْبٌ من أمَيْمَةَ مُنْصِبُ *

وقال الدُّريدى : يقال نَصَبَهُ أيضاً . والاكتئاب : الحُزْن . والمعنى أنّه نابَ عينى ، وواظبَ عليها من السَّهرِ والكَآبة والهمِّ النَّاصبِ ، ما أثَّر فيها ، وعلَّقتُ رجائى بنفسٍ غائبةٍ عنّى قد استَعجمَتْ أخبارُها علىَّ ، فأبطأ رجوعها إلىّ .

وقولها « أعلِّل نفسى بالرجْم غَيْبُه » تريد : أُزَجِّى وقتى وأُرضى نفسى بظَنٍّ مَرْجُومٍ وأملٍ مرجُوّ ، وحديثٍ مؤلَّف ، وتمنٍّ مُزَخرَف فيما لا حقيقة يعتمد عليها ، ولا أمارة يتأكَّد الطَّمَع فيها . ويقال : رَجَمَ الرَّجُلُ بالغيب ، إذا تكلَّم بما لا يَعلم .

وقولها « وكاذَبتُها حتَّى أبانَ كِذابُها » أى استعملتُ ملفَّقَ الأحاديث ومُموَّهَ الأباطيلِ معها ، إلى أنْ بَرِح الخفاء ، وانكشَفَ عن جليّة الأمر الغطاء ، وتَملَّى رُغوة الكذب عن مصدوقة الخبَر . والمكاذَبة تكون من اثنين ، كأنّه كان يكذِّب نفسه فتقتربه[2] وتزيد عليه .

٣ — فَلَهْفَى عليكَ ابنَ الأشدِّ لِبُهْمَةٍ أفَزَّ الكُماةَ طَعْنُها وضِرابُها[1]

٤ — مَتَى يَدْعُهُ الدَّاعى إليــه فإنَّهُ سَمِيعٌ إذا الآذانُ صَمٌّ جَوَابُهَا

٥ — هو الأبيضُ الوَضَّاحُ لو رُمِيَتْ به ضَوَاحٍ من الرَّيَّان زَالَتْ هِضَابُهَا

تتلهَّفُ على ما فاتَ عشيرتَه منه مِن حسن الدِّفاع ، والثَّباتِ فى وجه الشُّجاع الذى لا يُدرَى كيف يُدْفَع ، وأنَّى يؤتَى ويُقدَعُ ، وقد طرَدَ الشُّجْعان وطرَّقهم

(١) التبريزى : « أفر الكماة » بالراء المهملة ، قال : « ويروى أفز الكماة بالزاى ثم قال : « وأفر الكماة — يعنى بالراء — طردهم » .

(٢) تقتريه : تتبعه . وفى النسختين : « فتقتر به » .

ذُعْرًا، شِدَّةُ مُطاعَنَتِه ، وقُوَّةُ مضارَبته . وقال الخليل: أفزَّهُ : أفزَعه . واستفزُّوه : أخرَجوه من دارِه وخَدعوه حتّى ألقَوْه فى الجهل . وفى القرآن : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخرِجُوكَ مِنْهَا﴾ . والبُهمة تقع على الواحد والجماعة ، وهاهنا هى للواحد ، بدلالة قولها « متى يَدْعُه الدّاعِى إليه » فلم تقل إليهم ، فأمّا قولها « طعنُها وضِرابُها » فالضّمير جاء فيه على لفظ البُهْمة .

ومعنى « متَى يَدْعُه الدّاعى إليه » ، أنّه إذا دَعا الدّاعى لمُبارَزَة هذه البُهمة ومنازَلتِه ، فإنّه كانَ يَسمع ويُجيب ، فى وقتٍ تستَكُّ فيه المسامع لشدّة الأمر ، وإلباس الخوف . وجعل الصَّمَم للجواب مجازاً ، وإنما تَصَمّ الآذانُ عن السّماع فينقطعُ الجواب .

وقولها « هو الأبيضُ الوَضّاح » تريد خُلوصَ النَّسَب وزَكاء المَنصِب ، واشتهار الذِّكر فى الأُفق .

وقولها « لو رُمِيَتْ به ضَوارِع » تريد نَفاذَه وحُسنَ خُروجِه ممّا يَدخُل فيه وشدّةَ صَدمَتِه[1] للأمور ، ولَجاجَه فى إبرامها . فيقول : لو رُمِيَتْ بَوارِزُ هذا الجبل به لزَعْزَعها ، وهَدَّ جوانبَها .

٣٩٥

وقالت العَوراء ابنةُ سُبَيْع :

١ — أَبكِى لعبدِ اللهِ إذْ حُشَّتْ قُبَيْلَ الصُّبحِ نارُه

٢ — طَيَّانَ طاوِى الكَشْحِ لا يُرْخِى لمَظْلَمَةٍ إزارُه

٣ — يَعْصِى البَخيلَ إذا أرا دَ المَجْدَ مَخْلُوعًا عِذارُه

(١) كذا على الصواب فى ل . وفى الأصل : « مذمته » .

تريد أنها إذا تذكَّرتْ حالَ المرثىّ فيما كان تَجرى أمورُه عليه، ويأخُذُ نفسَه به، عاوَدَها البكاء والنَّحيب. ومعنى «حُشَّتْ نارُه» ضُمَّ ما تفرَّقَ من الحطَب إليها وأوقِدت. وإنما تريدُ نارَ الضيافة.

ومعنى «طَيَّانَ» صغير البَطْن، مهضومُ الجنبَيْنِ، قليلُ الطُّعْم. وقولها «طاوِى الكَشْح» أى يَمضِى فى الأمور لوَجهِه لا يُعرِّج على شىء ولا يَنْثنِى. ويقال: انطوَى كَشحاً، فيصير من باب تصبَّبَ عرَقاً. قال:

* أخٌ قد طوَى كَشحاً وأبَّ لِيذْهَبا[1] *

وقولها «لا يُرخَى لمُظلمةٍ إزارُه» تريد أنه إذا نابَتْه النَّوائبُ تجرَّدَ لها وفيها وهو مشمَّرُ الإزار، مقلَّص الذَّيل، فدَاوَاها بدوائها، ونهض فيها نَهْضَ المقتدِر عليها، الفاصِلِ لها.

وقولُها «يَعصِى البخيل» تقول: وإذا أراد اكتسابَ المجد أهانَ مالَه للفُقراء والعُفاة، وفى إصلاحِ أمرِ العشيرة، وعَصَى المُشيرَ عليه بالإمساكِ والبُخل، فخلَعَ رِبقةَ طاعتِه، وعذارَ احتشامِه.

٣٩٦

وَقالت عاتكة بنت زيد[2]:

١ ــ مَنْ لِنَفْسٍ عادَها أحزانُها وَلِعَيْنٍ شَفَّها طُولُ السَّهَدْ[3]

(١) كلمة «أخ» ساقطة من ل. وكلمة «قد» ساقطة من الأصل. وإثباتهما من مجموع النصين ومن ديوان الأعشى ٨٩ ومقاييس اللغة واللسان والجمهرة. وصدره:

* صرمت ولم أصرمكم وكصارم *

(٢) سبقت ترجمتها فى الحماسية ٣٩٣ ص ١١٠٢.

(٣) ضبطت فى النسختين وكذا عند التبريزى «السهد» بضمتين، والأوفق لمراعاة الشعر أن تضبط بفتحتين، وهى لغة فى الأولى.

٢ — جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانِهِ رحمةُ اللهِ على ذاكَ الجَسَدْ

٣ — فِيهِ تفجيعٌ لِمَوْلًى غارمٍ لَمْ يَدَعْهُ اللهُ يَمْشِى بِسَبَدْ

قولها « مَن انفسٍ » توجُّعٌ وتَشَكٍّ واستغاثة . وعادَها ، أى اعتادَها . قال :

* عادَ قلبى من الطيفة عِيدُ *

والمعنى مَن يُؤْمِن نفساً مما اعتادَها من الأحزان ، واجتمع عليها فى رُزْئها من الأوصاب والآلام ، ومَنْ امين آذاها طولُ الأرَق ، ودَوامُ السَّهَر .

وقولها « جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانه » لُفِّفَ بما بعده صفة للجسد ، ورحمة الله بما بعده ، اعتراضٌ بين الأوصاف ، لأنّ قولها « فيه تفجيع » صفةٌ أيضا . والكلام تحسُّر وتلهُّف . فتقول : رحمَ اللهُ جَسَدًا جُهِّزَ بما يجهَّز به الموتى ، وفُجِع به مواليه الذين كانوا يعيشون فى فِنائه ، فإذا لَحِقَ أحدَهم غُرْمٌ وقد ضاقت حالُه عن احتماله وَسَّعَ له فى جَنابه ، وأعانَه على دهره وعيالِه . وقولها « لم يدعه الله يَمشِى بسَبَد » تريد أفقَرَه فلم يُبقِ له شيئاً . ويقال : « ما لَه سَبَدٌ ولا لَبَد » ، فالسَّبَد : الشَّعَر ، واللَّبَد : الصوف .

٣٩٧

وقالت امرأةٌ من بنى الحارث[1] :

١ — فارِسٌ ما غادَرُوه مُلْحَمًا غَيْرَ زُمَّيْلٍ ولا نِكسٍ وَكَلْ[2]

---

(١) من بنى الحارث بن كعب ، كما فى الخزانة (٥ : ٥٢٢) وأمالى ابن الشجرى (١ : ١٨٧ ، ٣٣٣) .

(٢) ويروى أيضا كما فى الخزانة : « فارساً » ، بالنصب : قال ابن الشجرى : « الرواية نصب فارس بمضمر يفسره الظاهر . وما صلة ، والمفسر من لفظ المفسر ، لأن المفسر متعد بنفسه إلى ضمير المنصوب ، ولكن لو تعدى بحرف جر أضمرت له من معناه دون لفظه ، كقولك : أزيداً مررت به ، التقدير : أجزت زيداً . لأنك إن أضمرت مررت أضمرت الجار ، وذلك مما لا يجوز . فالتقدير إذن : غادروا فارساً . ويجوز رفع فارس بالابتداء والجملة التى هى —

٢ — لو يَشَا طارَ به ذو مَيْعَـةٍ   لاحِقُ الآطالِ نَهْـدٌ ذو خُصَلْ[1]

٣ — غيرَ أنّ البَأْسَ منهُ شِيمَةٌ   وصُروفُ الدّهرِ تَجرى بالأَجَلْ

قولها «فارسٌ ماغادروه» ماصلة، والكلام فيه تفخيمٌ لأمر المرثيّ وتعظيمٌ لشأنه. تريد: تركوا فارساً رفيعَ المحل مُلْحَمًا، أى طُعمةً لِعَوافِى السِّباع والطير. قال:

* قد أُلْحِمْتِي المَنَايَا السَّبْعَ والرَّخَمَا *

وقولها «غيرَ زُمَّيل» فالزُّمَّيل والزِّمَّال والزُّمَّل: الضعيف، كأنه زُمِّل فى العجز كما يُزَمَّلُ الرَّجلُ فى الثّوب. وقولها «ولا نِكس وَكَلْ» فالنِّكس: المقصِّر عن غاية النَّجدة والكرامة، وأصله فى السِّهام، وهو الذى انكسرَ فجُعِل أسفلُه أعلاه، فلا يزال ضعيفاً. والوَكَل: الجَبَان الذى يتّكل على غيره فيضيِّع أمرَه.

وقولها «طارَ بِهِ ذو مَيعةٍ» حَكَى الحالَ، والمراد لو شاء أنجاهُ فرسٌ له ذو نشاط. وقال الخليل: مَيعة الحُضْر والنَّشاط: أوّلُهما وجِدَّتهما. وقولها «لاحِقُ الآطالِ» تريد: ضامرَ الجنبَين. نَهْدٌ، أى غليظٌ. ذو خُصَلٍ، أى من الشَّعَر.

وقولها «غيرَ أنّ البأسَ منه شِيمة»: تقول ثبَتَ ولم يَرَ لنفسه الانقباضَ والإحجام، لأنّ الصَّبرَ فى الشِّدّةِ والبأسِ عادةٌ منه وطبيعة، ولأن صُرُوف

— غادروه وصف له، وغير زميل خبره ولا موضع من الإعراب فى وجه النصب للجملة التى هى غادروه، لأنها مفسرة فحكمها حكم الجملة المفسرة. وحسن رفعه وإن كان نكرة لأنه تخصص بالصفة. وإذا نصبته نصبت غير زميل وصفاً له. ويجوز أن يكون وصفاً للحال التى هى ملحماً».

(١) لو يشأ، ضبطت فى ل بالجزم، وهى رواية وشاهد فى أن «لو» قد تجزم الفعل. انظر الخزانة وأمالى ابن الشجرى.

الدَّهرِ تجرى إلى النفوس بآجالها ، ولـكل حَىٍّ وقتٌ من يومٍ معـلوم ، فإذا انتهى العُمر به إلى ذلك الوقتِ انقطعَ .

٣٩٨

وقال جَرِيرٌ ، يرثى قيسَ بن ضِرَارٍ[1] :

١ — وبَاكِيَةٍ من نَأْيِ قَيْسٍ وقد نَأَتْ بقَيْسٍ نَوًى بينٍ طويلٍ بِعَادُها

٢ — أظنُّ انهمالَ الدَّمْعِ ليس بمُنْتَهٍ عن العينِ حتَّى يَضْمَحِلَّ سوادُها

٣ — وحُقَّ لقيْسٍ أن يُباحَ له الحِمَى وأن تُعقَرَ الوَجْناءُ إن خَفَّ زَادُها

قوله « وباكيةٍ من نأيِ قَيسٍ » ألَمَّ فيه بقول الآخر[2] :

وكنتُ أرَى كالموْتِ من بينِ ليلةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ

فيقول : رُبَّ امرأةٍ باكية لبُعدِ قيس عن مقرِّ عزِّه ، ومَسكَنِ فخرِه ، ونأىُ قيسٍ الساعةَ لمُنتوًى بُعدُه طويل . والنَّوَى : وِجهة القَوم التى ينوونها ، وهى مؤنَّثة . وأضاف النَّوَى إلى البَين — وهو الفِراق — لأنّ الغرضَ فى تلك النَّوَى كان مفارقةَ الأحياء ، والتنقُّلَ إلى دار القرار ، فالبَينُ سبَبُها ومقتضيها . وارتفع « بعادُها » بطويلٍ ، والضمير منها يعود إلى النوى . والواو من قوله « وقد نأت » واو الحال .

وقوله « أظنُّ انهمالَ الدَّمع » يريد أنّ أوقاتَ البكاء متّصلة ، وآمادَ سيلان الدُّموع غيرُ منقطِعة ، والعين وشُؤونَها لا تثبت لذلك ولا تقوَى به ، فلا شكَّ

---

(١) التبريزى : « قيس بن ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة » . وهذه المرثية آخر المراثى عند المرزوقى ، لكن التبريزى روى بعدها ثلاث مرات ، سنثبتها فى الحواشى فى نهاية هذا الباب .

(٢) هو سلمة الجعفى . وقد مضى فى الحماسية ٣٨٥ ص ١٠٨١ .

أنّ سوادَها يَبطُل . وذلك أنّ مسبّبات الأشياء إنما تقوى وتدومُ بقوّةِ أسبابها ومقتَضِياتها ، فما دامَ سببُ البكاء — وهو الحزنُ والهلَع — يملِك الباكيَ ويقودُ زِمامَه ، فالدَّمعسائل ذارف ، وسوادُ العين مُشْفٍ على البُطُول هالك[1] .

وقوله « وحُقَّ لقيسٍ أن يُباحَ له الحِمَى » الأصل فى الحمى الماء والكلأ ، ولمّا كان العزيزُ منهم يَستبيح الأحميةَ ويحفظُ حِمَى نفسه ويمنعُ منه كلَّ أحد ، ، وإذا قال أحمَيْتُ هذا المكانَ ، أى جعلته حِمًى ، كان يُتَجَنَّب ويُتَحامَى إجلالاً وخوفاً منه — استُعِير من بَعْدُ للقلب وما يمتلك منه الحبُّ أو الحزنُ أو غيرهما وما لا يُمتَلك منه ، فيصير كأنه حِمَى العقل . فيقول : حُقَّ لقيسٍ وللمصابِ به أن يُباحَ له من القلوب ما كان حِمًى ، فلا ينزلَ به غَمٌّ ، ولا يمتلكه سرور ، أى حُقَّ للجزَع به أن يَبلغ من القلب حَدًّا لم يبلغْ منه شىء . وقد أخرجوا هذا المعنى فى مَعارضَ لأنه معنًى صحيح حكيم شريف ، فقال كُثيِّر فى الحُبِّ يصف امرأة :

أباحَتْ حِمًى لم يَرْعه الناس قبلها   وحَلَّتْ تِلاعاً لم تكنْ قبلُ حُلَّتِ

يريد : بلغَتْ من القلب هذا المبلغ .

وأخذَه منه عبدُ الله بن الصِّمَّة القُشَيرىّ ، فقال :

فَحَلَّتْ مَحَلاً لم يكُنْ حُلَّ قَبْلَها   وهانَتْ مَرَاقِيها لِرَيّا وذَلَّتِ

وأخذه أبو نُواسٍ فقال :

مُباحةٌ ساحةُ القُلوبِ لهُ   يَرْتَعُ فيها أطايبَ الثَّمَرِ[2]

وأخرجه على وجهٍ آخر فقال ينفِى[3] :

---

(١) يقال : بطل يبطل بطلا ، بالضم ، وبطولا ، وبطلاناً : ذهب ضياعاً وخسراً .

(٢) ل : « يرتع منها » .

(٣) هذه الكلمة من ل .

بصَحْنِ خَدٍّ لم يَغِضْ ماؤهُ ولم تَخُضْهُ أعيُنُ الناسِ[1]

نَقَل إلى الخدّ وغَمَضَ كما ترى .

قال آخر يصف ناقة :

* حمراء منها ضَخمةُ المكانِ[2] *

يريد عظيمة المكانِ من القلب . ذكره الأصمعى . يريد أنها محببة . وقد بل فيه غير هذا .

وقولُه : « وأن تُعقَر الوجناء إن خَفَّ زادُها » كان الواحد منهم إذا مرَّ نبر رئيسٍ وهو فى صُحبةٍ أحبَّ أن ينوب عن المقبور فى الضيافة ، فإذا لم يساعدْه ن الطعام ما يَدْعو الناسَ إليه عقَرَ ناقتَه ؛ إكراماً له . لذلك قال « وأن تُعقَر لوجناء إنْ خَفَّ زادُها » . والوجْناء : الناقة الصُّلبة ، أُخِذ من الوجين ، وهو لأرض الصُّلبة . فمن روَى « أنْ خَفَّ زادُها » بفتح الهمزة ، فالمراد لِأنْ خَفَّ ادُها . ومن روَى « إنْ خَفَّ » بكسر الهمزة فهى للشرط . وقد اعتذر مضُهم[3] من ترك ذلك فقال :

لولا السِّفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لتَرَكتُها تَحْبُو على العُرقوبِ

ىنى ناقته .

وقد حكى ابنُ الأعرابى حكايةً مليحة ، قال : كان رجلٌ يُواصِلُ امرأة نرج فى سفرٍ له وعاد وقد استَبْدَلَتْ به ، فأتاها لِعادته[4] ، فقالت :

ألم تَرَ أنّ الماء بُدِّلَ حاضِرًا وأن شِعابَ القَلْبِ بَعْدَكَ حُلَّتِ

---

(١) تخضه ، بالياء فى الأصل ، وبالتاء فى ل .

(٢) الرجز لابن ميادة ، كما فى أمالى القالى (٣ : ٢٠٢) . وانظر مجالس ثعلب ٥٠٦.

(٣) هو حفص بن الأحنف الكنانى . سبق فى الحماسية ٣٠٦ ص ٩٠٦ .

(٤) لعادته ، باللام ، كما فى الأصل و ل والتبريزى .

فأجابها :

فإنْ تَكُ حُلَّتْ فالشِّعابُ كثيرةٌ وقد نَهِلَتْ منها قَلُوصى وعَلَّتِ

تم باب المراثى بحسنِ توفيقِ الله وجَميلِ صُنْعه ، وله على تواتُرِ نِعَمِهِ ، وتتابعِ أياديهِ ، أجزَلُ الحمد[1] .

---

(١) بعده فى ل : « وأكثر الشكر ، وعلى النبى المصطفى ، محمد المجتبى خير الورى ، أوفى صلواته ، وأنمى بركاته ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم » .

هذا . وقد روى التبريزى بعد هذه المقطوعة ثلاث مقطوعات أخرى آثرنا إثباتها هنا ، وهى :

وقال آخر :

إنَّ المَساءَةَ للمسرَّةِ موعدٌ أُخْتَانِ رَهْنٌ للعشيَّةِ أوْ غَدِ
فإذا سمعْتَ بهالكٍ فتيقَّـنَنْ أنَّ السَّبِيلَ سَبيلُه وتزَوَّدِ

وقال آخر يرثى أخاه :

أخٌ وَأبٌ بَرٌّ وَأمٌّ شَفِيقةٌ تفَرَّقَ فى الأبرارِ ما هُوَ جامعهُ
سَلوتُ به عن كلِّ من كان قبلَهُ وأذهلَنِى عن كلِّ ما هو تابعُه

وقال آخر يرثى ابنه :

ذهبتَ عَلَى حِينَ أعْجَبْتَنِى ووَلَّى الشَّبَابُ وجاء الـكِبَرْ
فإنْ أبكِ أبكِ على فاجعٍ وإنْ يكُ صَبْرٌ فمثلِى صَـــبَرْ

بَابُ الأَدَبِ

بابُ الأدَبْ

٣٩٩

قال مِسْكينٌ الدارِميّ[1] :

١ — وفتيانِ صِدْقٍ لَسْتُ مُطْلِعَ بَعْضِهم عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غيرَ أَنِّى جِمَاعُها

قوله : « وفتيانِ صِدْقٍ » أضافَ الفتيانَ إلى الصِّدق ، كما يقال فِتيانُ خير . المعنى أنَّهم يصدُقون فى الوَدّ ولا يخونون . وقال الخليل : يُقال رَجُلُ سَوء إذا عَرَفتَ قُلتَ الرَّجل السَّوء ، ولم تُضِفْ ، بل تجعلُه نَعْتاً . وتقول : عَمَل وء وعَمل السَّوء ، وقولُ صِدْقٍ وقول الصِّدق ، ورجل صِدقٍ ، ولا تَقُل الرَّجل صِّدْق ، لأنّ الرجل ليس من الصِّدْق.

فيقولُ : رُبَّ فِتيانٍ هكذا استنامُوا إلىّ واستَودَعونى أسرارَهم، فكنتُ ا نِظَامَها لا يفوتُنى من خَبيئاتِ صُدورهم شىء ، ثمَّ أفرَدْتُ كلاًّ منهم بالوفاء ، وكتمانِ ما أودَعَنى من سِرِّه ، ولا أُطْلِعُ بعضَهم على ما يَستكتِمنى البعضُ آخَر ، بل أصونُه من الإذاعة ، وأحفَظُهُ من النَّشر بالطَّىّ والصِّيانة . وذاك لأنّ فظَ السِّرّ يجرى مَجرَى أداءِ الأمانات ، فهو فى الدِّين والدُّنيا مأخوذٌ به ومبعوثٌ ليه . وقوله « جِمَاعُهَا » ، هو كما يقال نِظامٌ، لأنّ النِّظام اسمٌ لما يُنظَمُ به الشّىء وكالوِثاق والرِّباط . وكذلك الجِماعُ : اسمٌ لما يُجمَعُ به الشَّىء . والضمير من

---

(١) مسكين لقب له ، واسمه ربيعة بن أنيف الدارى ، شاعر إسلامى هاجى الفرزدق ثم افه ، وكان له أثر ظاهر فى ترشيح يزيد بن معاوية للخلافة . انظر ترجمته فى الأغانى (١٨ : ٦ — ٧٢) والخزانة (١ : ٤٦٥ — ٤٧٠) واللآلى ١٨٦ — ١٨٧ ومعجم الأدباء ٤ : ٢٠٤ — ٢٠٦) مرجليوث ، والشعر والشعراء ٥٢٩ — ٥٣٠ .

جِماعُها يرجع إلى الفِتْيان ، ويجوز أن يرجعَ إلى ما دلَّ عليه الكلام من ذِكر الأسرار . وانتصب « غَيْرَ » على أنّه استثناء منقطع .

٢— لِكُلِّ امرئٍ شِعْبٌ من القَلبِ فارغٌ وموضِعُ نَجْوَى لا يُرَامُ اطِّلاعُها

٣— يَظَلُّونَ شَتَّى فى البِلادِ وسِرُّهُمْ إلى صَخْرةٍ أَعْيَا الرِّجالَ انصداعُها

قوله « لكلِّ امرئٍ » يريد لكلِّ رجلٍ منهم جانبٌ من القلب ، وشِقٌّ قد فُرِّغَ له وخُصَّ بموضع سرِّه ونجواه ، لا يُطلَبُ الاطِّلاعُ عليه والكشفُ عنه ، لما عُرِف من محافظتى ووفائى . والنَّجْوَى يجرى على أحكام المصادر : الدَّعوى ، والعَدوَى ، وألِفُه للتأنيث ، ويوصفُ به الأمر المكتوم . ويقال : نَجَوتُه فهو نجىٌّ[1] . وقد وُصِفَ بالنَّجْوَى والنَّجِىّ الواحد والجمع . [وفى[2]] القرآن : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ، و ﴿ إذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ ، و﴿ ما يَكُون مِنْ نَجْوَى ثَلاثةٍ ﴾ . ويقال : تَنَاجَوْا وانتَجَوْا .

وقوله « يَظَلُّونَ شَتَّى فى البِلاد » يريد أنهم يُفارِقونَهُ فيتغيَّبون فى أقطار الأرض ، وسِرُّهُمْ مكتوم مُحصَّن ، كأنّه أودِع صَخْرَةً أعْجَزَ الرجالَ صَدْعُها . ويقال : شَتَّ الأمرُ شَتًّا وشَتاتاً ، وهو شَتِيتٌ وشَتٌّ ، وهم أشتاتٌ وشَتَّى . فأشتاتٌ جمع شَتٍّ ، وشَتَّى : جمع شَتِيتٍ . ويُروى « أعيا الجبالَ اتِّضاعُها » . والمعنى أنّ هذه الصَّخرةَ لإشرافِها وثُبوتها فى موضِعِها لو رام الجبالُ حَطَّها لأعجزها ذلك . وقوله « إلى صخرة » أى مضمومٌ إلى صخرة . فتعلّق إلى بفعل مضمَر دلَّ عليه الكلام .

(١) ل : « نجيى » .
(٢) التكلة من ل .

٤٠٠

وقال يحيى بن زياد[١] :

١– لَمَّا رَأَيْتُ الشَّيبَ لَاحَ بياضُهُ ... بمَفرِقِ رأسِي قلتُ للشَّيبِ مَرْحَبَا[٢]

٢– ولو خِفتُ أَنِّي إنْ كَففتُ تحيّتِي ... تَنَكَّبَ عَنِّي رُمْتُ أن يتنكَّبَا

٣– ولكن إذا ما حلَّ كُرْهٌ فسامَحَتْ ... به النَّفسُ يوماً كان للكُرهِ أَذْهَبَا

قوله « لمّا رأيتُ الشيب » لمّا عَلَمٌ للظّرف ، وهو لوقوع الشَّيء لوقوع غيره . وجوابه « قلتُ للشَّيب مَرْحَبا » . وكان الواجب أن يقول : قلتُ له مَرْحَباً لكنّهم يكرِّرون الأعلامَ وأسماءَ الأجناس كثيراً ، والقَصد بالتَّكرير التَّفخيم . والمعنى : لمّا وجَدت الشَّيبَ اشتَعَل رأسِي ببياضه ، طيَّبتُ نفسى بطُلوعه وقلتُ له : أتيتَ رُحباً وسَعَةً . وقولُه « مَرْحَباً » انتَصَب على المصدر . ويقال : رَحُبَتْ بلادُكَ رُحباً ورَحابَةً . وحُكى رَحِبَتْ بلادُكَ بكسر الحاء تَرْحَبُ رُحْباً . والرَّحْبَةُ والرَّحَبَة ، واحدٌ وهما ساحةُ المسجدِ .

وقوله « ولو خِفتُ » يريد بخِفْتُ رجَوت ، وهم يَضَعون كلَّ واحدٍ من الرّجاء والخَوفِ موضعَ الآخَر . ألَا ترى قوله تعالى : ﴿ إنَّهم كانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ ، أي لا يخافون . وقول الآخر ، وهو الهذَليّ : « يَرْجُونَ لَسْعَهُ[٣] » . فى النَّحل . فيقول : لو رجوتُ أنِّى إذا تكرَّهتُ الشَّيب وتسخَّطتُه ،

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٢٨١ ص ٨٦٠ .

(٢) كذا جاء البيت بالخرم فى النسختين ، وجاء تاما فى التبريزى : « ولما رأيت الشيب» .

(٣) كذا فى النسختين . والمعروف كما عند التبريزى : « لم يرج لسعها » . وهذا قطعة بيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١٤٣) ، وهو بتمامه :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها فى بيت نوب عوامل

وكفَفت عن إظهار الرِّضا به والسُّرورِ لطَلْعتِه فارقَنى وانحرَفَ عنِّى ، لَرُمْت ذلك ، ولـكنْ إذا حلَّ ما يكرهه فطاوعَتْ نفسُه به ، وتلقَّاه بالصَّبر عليه ، كانَ ذلك أعْوَنَ على زَوال الـكَراهة فيه ، وإلّا اجتمعَ وجهانِ مما يشُق نُزولُه به ، واغتمامُه له . وقوله « فساَمحَتْ به النَّفس » أى ساهَلَتْ . ومنه قيل : عُودٌ سَمْحٌ أى لا أُبَنَ فيه[1] . ومما يَجرِى مَجرَى المَثَل : « إذا لم تجد عِزًّا فسمِّحْ » أى لِنْ وهِنْ . وقولُه « كان للـكُره أذْهَبَا » كان الحُـكْمُ أن يقول أشـدّ إذهاباً ، لأنّ الفعل منه ليس بثلاثيّ . ولـكنْ على طريقة سيبويه يجىء أن يُبنَى فِعل التعجُّب مما كان على أفعَلَ أيضاً ، وإن كان البابُ على الثُّلاثىّ . وقد يمكن أن يقال : إنّما قال « أذْهَبَا » على حذف الزَّوائد . ألا ترى قولَه :

فإنّا وَجَدْنا العِرضَ أفقرَ ساعةً إلى الصَّوْنِ من بُرْدٍ يَمانٍ مُسَهَّمِ[2]

والفعل لم يجئْ إلّا افتقَرَ ، فكأنَّه نوَى حذفَ الزَّوائد وردّه إلى فقُرَ ، وعليه جاء « فقيرٌ » وإن لم يُستعمَل الفعل .

وقوله « ولـكن إذا » لـكنْ جاء فى هذا المـكان لتَرْك قِصَّةٍ إلى قصّةٍ ، وهى إذا جاءت عاطفةً كانت لاستدراكٍ بعد النَّفى . وجواب « لو » فى قوله : لو خِفْتُ « رُمْتُ أن يتفكّبا » ، وجواب إذا من قوله « إذا ما حَلّ كرهٌ » : « كان للـكُره أذهَبَا » . ويوماً انتصَبَ على الظَّرف ، والعامل فيه حَلّ ، واسم كانَ ما دلّ عليه قولُه سامحت ، كأنَّه قال : كانَ المسامحةُ أذهَبَ للـكره .

---

(١) الأبن : جمع أبنة ، بالضم ، وهى العقدة فى العود ، والعيب .

(٢) البيت لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٧ واللسان (سهم) ، والرواية فيهما : « أحوج ساعة » .

٤٠١

وقال المرّار بن سعيد(١) :

١– إذا شئتَ يَوْمًا أن تَسُودَ عَشِيرَةً فبالحِلْمِ سُدْ لا بالتَّسَرُّعِ والشَّتْمِ

٢– ولَلْحِلْمُ خَيْرٌ فاعْلَمَنَّ مَغَبَّةً مِنَ الجَهْلِ إلّا أن تَشَمَّسَ مِنْ ظُلْمِ

جواب وقوله « إذا شئت » قوله فبالحلم . والمعنى أنّ السِّيادة لها آلاتٌ ، وإليها مَرَاقٍ ودرجات ، فمَنْ أتاها من وَجهِها ومأتاها تَمّتْ له ؛ وذاك أنّ منها استعمالَ الحِلْم ، وتركَ التعجُّل ، وكَظْمَ الغيظِ ، وتسهيلَ الجانبِ ، والاحتمالَ فى النَّفس والمال والجاه ، إلى غير ذلك ممّا يَطولُ ذِكرُه . فمَنْ صبَرَ فى طلب الرِّياسة وحُصول سيادةِ العشيرة ، على هذه الخصال ، فهو حقيقٌ بإدراكها ، فإنْ أخَذَ يُخَشِّنُ جانبَه ويقطِّب وجهه ، ويغلِّظ كلامَه ، ويوسِّعُ غيظَه ويُغَظِّظ قلبَه ، ويعجِّل الطّاعةَ له ، نفرت العشيرةُ منه ، وبانوا عنه . لذلك قال مَنْ قال :

فإنْ كنتَ سيِّدَنا سُدتَنا وإن كنتَ للخالِ فاذْهبْ فَخَلْ(٢)

وقوله « ولَلحِلمُ خيرٌ فاعلَمَنَّ مغبّةً » انتصب مغبّةً على التمييز . وقوله « فاعلمنَّ » حَشْوٌ . فإن قيل : كيف اختِيرَ هذا البيتُ بهذا الحشْو ، والمتكلمُ إذا استَعملَ فى كلامِهِ مع المخاطب اعْلَمْ واسمَعْ وما يجرى مجراها ، عُدّ ذلك معه عِيًّا ؟ قلتَ : إنّ هذه اللّفظةَ فى هذا المكان مُحتاجٌ إليها فى عُمدة المعنى المقصود ،

(١) هو المرار بن سعيد بن حبيب الفقعسى الأسدى ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وقيل : إنه لم يدرك الدولة العباسية : الأغانى (٩ : ١٥١ – ١٥٤) والخزانة (٢ : ١٩٣ – ١٩٧) والمؤتلف ١٧٦ والمرزبانى ٤٠٨ – ١٠٩ والشعر والشعراء ٦٨٠ – ٦٨٣ .

(٢) البيت ٤ من الحماسية ٦٧ ص ٢٥٢ .

وإنّ ما أشرْتَ إليه إنّما يكون زوائدَ وفُضولًا لا يُحتاج إليه ، فإذا وَصَلَ المتكلم بها كلامَه مستعيناً بها عُدَّ منه خطَلًا وعيًّا ، وهو في هذا المكان وصّاه بالفِكْر فيما أوردَه والتبيُّنِ له ، وبمعرفةِ الحِلْم ووقتِه حتّى يَدْرِيَ كيف يأخذُ به . فقوله : فاعلمَنّ ، فاعرفَنّ ، ومفعوله محذوف ، والمراد فاعلمَنّ الحِلمَ ومغَبّتَه ، فأطلَقَ . رجع فيما أشار به مطلقاً ، واستثنى في كلامه فقال : إلّا أنْ تَنْفِرَ من ظُلْمٍ يَرْكَبُكَ ، وهضيمةٍ تَنالُكَ ؛ فإنّ الجهلَ في ذلك الوقتِ أرجحُ في الاختيار من الحِلْم ، إذ كان صَدْمُ الشَّرِّ بالشَّرِّ أقرب ، ودفعُ الجهلِ بالجهل أَحْلَمَ . ويقال : غَبّت الأمور ، إذا صارتْ إلى أواخرها . وإنّ لهذا الأمرِ لَمَغَبّةً محمودة ، أي عاقبة . وقوله « تَشَمَّسَ » ، يقال إنّه لَذُو شِماسٍ شديد ، إذا كان عَسِرًا . وشَمَس لي فلانٌ إذا تنكّرَ وهمّ بالشّرّ .

٤٠٢

وقال عِصامُ بنُ عُبيدِ الله[1] :

١ — أَبْلِغْ أبامِسْمَعٍ عَنِّي مُغَلْغَلَةً ... وفي العِتابِ حياةٌ بينَ أقوامِ

٢ — أَدْخَلْتَ قَبْلِي قَوْمًالم يَكُنْ لَهُمُ ... في الحقِّ أن يَدْخُلُوا الأبوابَ قُدّامِي[2]

قوله « مغلغلة » أي رسالةً يُغلغِلها إلى صاحبها . وهو من قولهم : تغلغل الماء ، إذا دخَلَ بين الأشجار ، وغلغلتُه أنا[3] . وقال الدُّريديُّ : الغَلغلة : دُخول الشيء في الشيء . وقال الخليل : الغَلغلة : سُرعة السّير . يقال تَغلغَلوا ومَضَوْا . ورسالةٌ مُغلغَلة : محمولة من بلدٍ إلى بلد . وقوله « وفي العِتاب حياةٌ

(١) التبريزي : « عصام بن عبيد الزماني » . على أن الأبيات رواها الجاحظ في البيان (٢ : ٣/٣١٦ : ٤/٣٠٢ : ٨٥) منسوبة إلى همام الرقاشي .

(٢) الجاحظ : « أن يلجوا الأبواب » .

(٣) في الأصل : « وغلغله إياه » ، صوابه في ل .

بين أقوام » اعتراضٌ ، وقد مرَّ القول فى فائدة الاعتراضات . والمعنى أنّهم ما داموا يتماتبون فإنّ نيّاتِهم تُعاوِد الصَّلاحَ وتُراجِعه ، وإذا ارتفع العتابُ من بينهم انطوتْ صدورُهم عن الإِحَن والضغائن ، وظهَرَ الشرُّ على صَفَحات أقوالهم وأفعالهم ، فاهتاجت الحميّات ، وأنتجت مِن سُوء عقائدهم البَلِيّات . وفى طريقته قال أبو تمّام :

* إن الدَّمَ المغْترَّ يحرسُهُ الدَّمُ[1] *

وقال غيره : « القَتْلُ أقلُّ للقَتْل »[2] . فأمّا قولُ الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حيَاةٌ ﴾ فإنّ بلاغةَ القرآنِ لا تُدانيها بلاغةٌ ، وكلّ كلامٍ وإن علا ينحطُّ دونه . والرِّسالة قولُه : أدْخلْتَ قبلِىَ قوماً . والمعنى أنّك قدّمْتَ علىَّ فى الإذن والدُّخول قوماً لم يكن من حقِّهم أنْ يتقدّموا علىَّ إذا وردْنا الأبواب ، ولا بلَغَتْ من محالِّهم ورُتَبهم أن تُرفَعَ على ما يُقْسم لى فى مجالس الكِبار . وقوله « أنْ يَدخُلوا الأبوابَ » حقُّه عند سيبويه أن يقال أنْ يَدْخُلوا فى الأبواب ، بجعله مما يتعدّى فى الأصل بحرف الجرّ ثم يُحذف الجارُّ من اللفظ تخفيفاً . ومسألة الكتاب[3] : دخلْتُ البيتَ . وغيرهُ يذهب إلى أنّه مما يتعدّى تارةً بنفسه وتارة بحرف الجرّ ، وفى أنّهم يقولون دخلت فى الأمر فيُعدّى بفى لا غير ، وأنّ ضدّه وهو خرجت يتعدّى بحرف الجر ، بيَانٌ لصحّةِ قولِ سيبويه .

---

(١) فى الأصل : « المغنى » ، صوابه فى ل . والمغتر ، بالغين المعجمة : الغافل . وفى ديوان أبى تمام ٢٧٤ : « المعتر » بالعين المهملة . وصدر البيت :

* وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم *

وقبل البيت بيت سائر ، وهو :

فقسا لتزدجروا ومن يك حازما   فليقس أحياناً على من يرحم

(٢) كذا فى النسختين . ويروى : « القتل أنفى للقتل » .

(٣) أى كتاب سيبويه .

٣— لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وَقَبْرٌ كنتُ أَكرمَهُمْ مَيْتًا وأَبعَدَهمْ مِن منزلِ الذّامِ[1]

٤— فقَدْ جَعَلتُ إذا ما حاجتى نَزَلَتْ بِبابِ دَارِكَ أَدْلُوها بأقوامِ[2]

[قوله[3]] : «لو عُدَّ قبرٌ وقبرٌ» المراد به والأصل فيه : لو عُدَّت القبورُ قبراً قبراً ، إلّا أنّه اختصر الكلامَ وحذَفَ القبورَ ورفَعَ قبراً على أن يقوم مقامَ الفاعل ، فلما رفعه وأزالَهُ عن سَنَنِ الحالِ فى نحو قولهم : بِعْتُ الشّاء شاةً شاةً ، وقَبَضْتُ المالَ دِرهماً درهما ، وصُمت رمضان يوماً يوما ، ردَّ حرفَ العطف ، وإنما قلتُ هذا لأنّه من مواضع العطف ، لكنّهم اتّسَعُوا فى الحال لعلم المخاطب . وقال سيبويه : إنّ الغالب على هذا البابِ كلّه أن يكون انتصابُه من إحدى الجهتين : الحالِ أو الظّرف ، لأنّ الاتّساع منهم على هذا الحدِّ والجواز لم يكنْ إلّا فيهما . والظّرفُ كقوله : لقيتهُ يومَ يومَ ، وصباحَ مساء ، وما جانسهما . قال : والإفراد فى هذا الباب لا يجوز حمايةً على المعنى الذى يتضمّنه التّكرار .

وإن قيل : هل يجوز على مابيّنتَ : لو عُدَّت القبورُ قبر وقبر ، على البدل ، وكذلك بُيِّن حسابُه باب وباب ؟ قلتَ : لا يجوز ذلك ، لأن القصدَ والغرضَ من الكلام ، وقد أُجرِىَ على ما تقدّم ، التفصيلُ والتتابع ، ومن الإبدال على ما ذكرتَ لا يتبيَّن ذلك . ومع ذِكر القبور يُحذَف الواو من الاسمين المترجِمين عن الحال بعدَه . لا يجوز بعتُ الشاء شاةً وشاةً ؛ فكذلك هذا ، على أن بابَىِ الحالِ والظّرف يَحتملان من التوسُّع ما يَضِيق عنه أكثرُ أبواب الإعراب

(١) البيان : «كنت أكرمهم قبراً» .

(٢) البيان : «إذا ما حاجة عرضت» .

(٣) التكلة من ل .

ويَعجِز ، وإذا كان كذلك لم يجزْ تجاوزُهما بالاتّساع فيهما إلى غيرهما . ألاَ ترى أنه لو قال : لو عُدَّ قبرانِ كنتُ أكرمَهما مَيْتاً ، لم يجُزْ ، ولم يتبيَّن منه ذلك المعنى ، وإن كان المعطوف والمعطوف عليه إذا قلت جاءنى رجلٌ ورجلٌ بمثابة جاءنى رجلان .

ومعنى البيت : لو عُدَّتِ القُبورُ مُنوَّعةً مفصَّلة — وإنما يعنى أسلافَ مَن قُدِّمَ عليه فى الإذن والدُّخول خؤولةً وعمومة — لكنتُ أكرمَهم أباً ، وأشرفَهم بيوتاً . فكَنَى عن البيت والمَنصِب بقوله « وأبعدَهم من منزل الذّامِ » أى من منزل العَيب ، لأنَّ الذّامَ والذّمَّ بمعنًى . يقال : ذامَه يَذيمُه ، كما يقال ذَمَّه يَذُمُّه ، وحيث يحصُل العيبُ يحصُل الذمُّ ، أُظهِر أو لم يُظهَرْ .

وقوله « فقد جَعَلْتُ إذا ما حاجَتِى نَزَلَتْ » يريد بجعَلْت طفِقْت وأقبلت . يقال : جعَلَ يفعل كذا . والمعنى : أنّى قَعدتُ عنك وتركتُ زيارتَك ، وإذا اتّفق ما لا بدَّ لى منك ومن مَعُونتك من حاجةٍ أو عارضِ سببٍ فإنّى معتمدٌ على غيرى فى التّنجُّز والاستسعاف . ومعنى « أدلوها » من قولك دلَوت الدَّلوَ ، إذا أخرجتَها من البئر ، أى أتسبَّب بغيرى ، وأصونُ من التبذُّل عِرضِى .

٤٠٣

وقال شَبِيبُ بن البَرْصاء[1] :

١ — وإنّى لَتَرّاكُ الضَّغِينةِ قَدْ بَدَا ثَرَاها مِنَ المَوْلَى فَمَا أستَثيرُها[2]

٢ — مَخافَةَ أنْ تَجْنِى عَلَىَّ وإنَّمَا يَهِيجُ كَبِيراتِ الأُمورِ صَغيرُها

(١) هو شبيب بن يزيد بن جمرة المرى . والبرصاء أمه . وشبيب شاعر إسلامى بدوى من شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى عقيل بن علفة . الأغانى (١١ : ٨٩ — ٩٤) .

(٢) التبريزى : « فلا أستثيرها » .

يقول : إنّى أصابرُ مُوَالِىّ وأحتملُ أذاهُم ، وأعنّى على فَرَطاتهم ما وجدتُ سبيلًا إلى الصّبر ، فأتركُ ضَغائنَهم تبدو أوائلُها ، وتَظهر مَخايلها ، ولا أكشفُ عنها ولا أطلب ثَوَرانَها ، مخافةَ أنْ يَستفحِلَ الشّرُّ ويرجعَ الصّغيرُ منه كبيراً ، وسهلُه عسيراً ؛ فإنّ أوائلَ الأمور كلِّها ضعيفةٌ ضيّقة ، فإذا اتّفقَ لها مَن يَهيجُها ويَزيد فى موادِّها قويَتْ واتّسعت . والتَّرّاك : بناء المبالغة ، وهو الكثير التَّرك للشّىء ، وليس هو باسم الفاعل من تَرَك . والضّغينة والضَّغَن والضِّغْن[1] واحد ، وهى الحقد والعَداوة . ويقال : ضَغِن علىّ واضطَغَن . وقال الخليل : الضِّغن فى الدّابّة : عَسَرُهُ والتواؤه . ودابّةٌ ضَغِنَةٌ ، إذا نَزَعتْ إلى وطنها . والثَّرَى : النَّدَى ، والفعل منه ثَرِى . والمراد به هاهنا ما يُستدَلُّ به على كامن الحقد . ويقال : ثار الأرنبُ من موضعها ، واستثَرتُها أنا .

وقوله «مخافةَ» انتصَبَ على أنّه مفعول له ، و «أن تَجْنِى» فى موضع المفعول منها ، وقد أضافها إليه . وقوله « صغيرها » يراد به الكثرة ، أى صغائرها .

٣ — لَعَمْرِى لَقَدْ أَشْرَفْتُ يَوْمَ عُنَيْزَةٍ　　على رَغْبةٍ لو شَدَّ نَفْسِى مَرِيرُها

٤ — تَبَيَّنُ أعقابُ الأُمورِ إذا مَضَتْ　　وتُقبِلُ أشباهًا عَليكَ صُدُورُها

قوله « على رغبة » أى على مرغوبٍ فيه ، كأنّه كان ظَهَرَ له من الفُرَص فى صاحبه ما لَو انتهَزها ولم يَغفُل عنها لكان فيها الاشتفاء منه ، ودَرَك المطلوب فى بابه ، فلمّا لمْ يفعلْ وأصرّ صاحبُه على مَسَاءته أخذ يتحسّر . وقوله « لو شَدّ نفسى مريرُها » يريد : لو قوّى نفسى عَزيمُها ، وحصيفُ رأيها . والمَرير : المُمَرّ المحكم . ووُصِفَ الحبل به لذلك . ويقال : استمَرّ مريرُ فلانٍ ، إذا استحكَمَ رأيُه واستحصَفَ . وعُنيزة : مَوضع[2] .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٢) موضع بين البصرة ومكة ، كما فى معجم البلدان .

وقوله « تَبَيَّنُ أعقابُ الأمور إذا مضت » مثلُه قول القطامىّ :

ولا يَعْلَمُ الغيب امرؤٌ قبل ما يَرَى ولا الأمْرَ حَتَّى تَستَبِين دوابِرُه

وأكشَفُ منه قول حُميدِ بن ثَور :

أشَبَّهُ غِبَّ الأمْرِ ما دَامَ مُقْبِلاً ولـكنَّما تِبيَانُهُ فى التَّدبُّرِ[1]

وأعقاب الأمور : أواخرها . ويروى : « تبيَّنُ أدبار الأمور إذا انقضَتْ » يُراد به تَتبيَّنُ . وانتصَب « أشباها » على الحال .

٥ – إذا افتخَرَتْ سَعْدُ بنُ ذُبيانَ لم تَجِدْ سِوَى ما ابتَنَيْنَا ما يَعُدُّ فَخُورُها

٦ – ألم تَرَ أنَّا نُورُ قَوٍ وإنَّما يُبيِّنُ فى الظَّلْماءِ للناسِ نورُها

يقول : مَفاخِرُ سعدٍ ومَبانى مكارمها على ما أسَّسه قديمًا ، وعمَّره حديثًا ، فمتى استُعرِضَتِ المساعِى فى منافرة الخصوم لم تجدْ بنو سعدٍ مايعتمده فَخُورُها ، ويُكاثِر به خَصِيمُها ، إلاّ ما شيَّدناه على مرِّ الأيام ، وتعاقُب الأحوال . فقوله « سوى ما ابتنينا » استثناء مقدَّم . و« ما » بعد فى موضع مفعول لم تجد .

وقوله « ألم تَرَ » تقرير لمن تصوَّره مخاطَباً فيقول : أمَا علمت أنَّا لأهلِ قَوٍ[2] بمنزلة النُّور للأبصار ، فهم بنا يهتدون ، وبعمالنا يقتدون ، ولمراسمنا يقتفرون[3] ، وبسنا رأْينا يستضيئون ، ولولا ذلك لكانوا يتوقَّفون[4] فى مَرَاشدهم فلا يَقضُون ، ويتحيَّرون فى آرائهم[5] فلا يَمضُون ، كما أن الناسَ لولا ما يُمِدُّ به النورُ أبصارَهم فى رَواكدِ الظُّلَمِ حتى يتبيَّنوا المرئيَّات ، ويتميَّزوا أشباحَ المدركات على حقائقها ، لوقَفوا حَيارَى لا يتقدَّمون ولا يتأخَّرون .

---

(١) البيت لم يرو فى ديوان حميد ، ولا فى ملحقات ديوانه .

(٢) قو : منزل للقاصد إلى المدينة من البصرة .

(٣) الاقتفار : التتبع ، وأصله فى تتبع الأثر .

(٤) ل : « يتوقعون » ، صوابه فى نسخة الأصل .

(٥) فى الأصل : « مراشدهم » ، صوابه فى ل .

ومفعول « يُبيِّن » محذوف ، والضمير من نورُها يعود إلى الظَّلماء لما كان يتعقَّبها . وهم يُضيفون الشيء إلى الشيء لأدنى تناسُب بينهما .

٤٠٤

وقال مَعْن بن أَوْس[1] :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَدرِى وإِنِّى لَأَوْجَلُ ... على أَيِّنا تَعـــدُو المنِيَّةُ أَوَّلُ

لعمرك مبتدأ ، وخبره مضمر ، وفيه معنى القسم ، وقد تُقُصِّىَ القولُ فيه . وقوله « إنِّى لأوجَلُ » مما جاء فيه أَفْعَلُ ولا فَعْلاء له ، كأنَّهم استغنَوا عن وَجْلاء بوَجلةٍ . ويقال : وَجِلتُ أَوْجَلُ وآجَلُ وَجَلًا ، وهو وَجِل وأَوْجَلُ . وقلبى من كذا أوجَلُ وأَوْجَر ، بمعنًى . ويروى : « تَعدُو المنيَّة » و « تغدو » ومعناها ظاهر . وأوَّلُ ، بُنِى على الضمّ ، كما فُعِــلَ ذلك بقَبْلُ وبَعْدُ ، وذاك أنَّه لمّا كان أصله أفعلَ الذى يتمُّ بمن ، وأُضيف مِن بعد ، وجُعل الإضافةُ فيه بدلا مِن من ، والمضاف إليه من تمامه ثم حَذف المضاف إليه لعِلم المخاطَب به ، وجُعل فى نفسه غايةً ، وكان معرفةً كما كان قبلُ وبعد كذلك وجَبَ أن يُبْنَى كما بُنيا . وموضعه نصبٌ على الظَّرْف . ومعنى البيت : وبقائك ما أعلم أيُّنا

(١) معن بن أوس : شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، له مدائح فى جماعة من الصحابة ، وعمر إلى زمان ابن الزبير ، وهو القائل له : « لعن الله ناقة حملتنى إليك » . الإصابة ٨٤٤٥ والأغانى (١٠ : ١٥٦) . وفى الأغانى (١٠ : ١٦٢ — ١٦٣) أن القائل هو عبد الله بن فضالة . وفى الخزانة (٢ : ١٠٠) أن قائلها عبد الله بن الزبير الأسدى ، وكذا فى زهر الآداب (٢ : ١٦٤ — ١٦٥) . وانظر العقد (٦ : ١٧٦) . وروى التبريزى من سبب الشــعر أن معن بن أوس كان له صديق وكان معن متزوجاً بأخته ، فتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبداً . فأنشأ معن يقول يستعطف قلبه عليه ، ويسترقه له . وفى الأبيات ما يدل على القصة ، وهو قوله :

فلا تغضبن أن تستعار ظعينة ... وترسل أخرى كل ذلك يفعل

يكون المقدَّمَ فى عَدْوِ الموت عليه ، وانتهاء الأجل إليه[1] ، وإنِّى لخائفٌ مترقِّب . فوضع « على أيِّنا » نصب لأنَّه مفعول ما أدرى ، والذى لا يدريه هو مقتضَى هذا السُّؤال . وقوله « إنِّى لأوجل » اعتراض .

٢ — وإنِّى أخوكَ الدَّائمُ العَهْدِ لم أَحُلْ ... إنْ أَبْزَاكَ خَصْمٌ أو نَبَا بِكَ مَنْزِلُ[2]

٣ — أُحارِبُ مَن حاربتَ مِن ذِى عداوةٍ ... وأَحْبِسُ مالى إن غَرِمتَ فَأَعْقِلُ

يقول : إنِّى وَدِيدُكَ الذى يدومُ عهدُه ، ويتَّصل على تقلُّب الأحوالِ وتبدُّلِ الأبدال ، ولا يَحُول [إن تَطاوَلَ[3]] عليك خصم ، أو بطَشَ بك عدوّ ، أو ضاق عنك منزل ، فاحتجتَ إلى التحوُّل عنه والاستبدال به . وقال الخليل : يقال أبْزَيْتُ بفـلانٍ ، إذا بَطَشتَ به وقَهرتَه . وحكى الدُّريديُّ : بَزَاه يبزوه بزواً ، إذا قهرَه . وأنشد :

جارِى ومولاىَ لا يُبزَى حريمُهما ... وصاحبى من دَواء السُّرِّ مُصْطَحَبُ[4]

ويُبزَى يكون مستقبَل بُزِىَ وأُبْزِى جميعاً . والله أعلم . ويجوز أن يكون أبزى منقولاً بالألف عن بَزِى يَبزَى بَزًى فهو أبْزَى ، وامرأة بَزْواء ؛ وهو دُخول الظهر وخُروج البطْن . ويكون المعنى : إن خَفَض منك خَصْمٌ ، أو طأطأ من إشرافك عَدُوٌّ ، وحمَّلك من الثِّقْل ما يَبزَى له ظهرُك ، فلا تُطيق الثَّباتَ تحته ، والنهوض به .

وقوله « أحاربُ من حاربْتَ » هو تفسيرُ دوامِ عهده وثباتِ ودِّه . والمعنى تجدُنى ذَابًّا عنك واقعاً معك ، أرصد الشَّرَّ لأعدائك ، وأدافعهم دونك ، وإن

(١) ل : « بِه » .

(٢) التبريزى : « لم أخن » ، ونبه فى شرحه على الرواية هنا .

(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .

(٤) مصطحب ، بالحاء المهملة المفتوحة . وفى اللسان (بزا) : « مُصْطَخِب » بالخاء المعجمة المكسورة .

أصابك غُرْمٌ حَبَسْتُ مالى عليك ، واحتملت فيه الثِّقل عنك . وكان الواجب أن يقول : فأعقِلُ عنك ، لأنه يقال عَقَلتُه إذا أعطيتَ دِيَتَه ، وعقلتُ عنه إذا غرِمت ما لَزِمه فى ديته . وقال الخليل : الغُرْم لزوم نائبةٍ فى مالٍ من غير جناية . والمالُ إذا أُطلق يراد به الإبل . ويجوز أن يكون معنى فأعقِلُ : أشدُّها بعُقُلِها بفنائك ، لنَدفعها فى غَرامتك .

٤ — كأنك تَشفِى منكَ داءً مَساءتِى وسُخْطِى وما فى رَيْثَتِى ما تَعجَّلُ[1]

قوله « مساءتى » يريد مساءتَك إلىَّ ، وكذلك « سُخْطى » يريد سُخطَك علىَّ ، فأضافهما إلى المفعول . ويُقال : مساءة ومسائِيَة . والسُّخط والسَّخَط لغتان ، ومثله السُّقْم والسَّقَم ، والعُدْم والعَدَم ، وهو نقيضُ الرِّضا . ويقال : سخِطْتُه وتسخَّطته ، إذا لم تَرْضَ به ، وإن كان فى التفعُّل فضلُ تكلُّف . ومعنى البيت أنك تستمرُّ فى إساءتك إلىَّ وسُخطِك علىَّ ، حتى كأنَّ بك داءً ذاكَ شفاؤه ، وما تطلبُه من عَجَلتى لا تجدُه فى بطئى ، أى ما تقدِّره يَتعجَّلُ لك من المكاشَفة بينى وبينك ، واستثارةِ الحقد الكامِن فيك ، لا يحصُل لك منِّى متباطئاً أيضاً . والمعنى أنِّى أصابِرُك وأتركُك على مداجاتك .

٥ — وإنْ سُؤْتَنى يومًا صَفَحْتُ إلى غَدٍ ليُعقِبَ يومًا منك آخَرُ مُقْبِلُ

٦ — ستَقْطَعُ فى الدُّنيا إذا ما قطعْتَنى يمينَك فانظرْ أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ

قوله « وإنْ سؤتَنى يومًا » يقال : سُؤت فلانًا ، وسؤت [له[2]] وجهَه

---

(١) ترتيب سائر القصيدة عند التبريزى يخالف ترتيب المرزوق . فالتبريزى يروى هذا البيت بعد البيت الخامس ، ويروى التبريزى بعد الخامس بيتاً لم يروه المرزوق . وهو :

وإنِّى على أشياء منك تريبنى قديماً لذو صفح على ذاك مُجمِلُ

ثم يروى بعده البيت السادس فالسابع إلى آخر المقطوعة .

(٢) هذه من ل .

مَساءةً ومسائيَةَ . والمعنى : أنّى لا أؤاخِذك بما يَظهر من مَساءتك ، بل أقابلُه بصفحٍ جميلٍ عنك ، انتظاراً لفيئةٍ تَظهرُ منك فى مُقتَبَل أمرِك ، ومراجعةٍ تعفى على قبيحك ، فإن لم يتّفقْ منك عُقبَى حسنةٌ تُنسِى زَلاّتك ، بل تُتابِع بين مسبَّبات القطيعةِ وموجِباتها بما تُظهرهُ من الجَفاء والعُقوق فيما يجمعنى وإياك ، فإنك تقطعُ أخاً هو فى مُظاهرتك ، والانطواء على مساعدتك ، والدُّخول تحت طاعتك فى كلّ ما يعِنّ ويعرض لك ، بمنزلةِ يَدِكَ اليمنى ، فانظرْ مِن بَعْدُ مَن تعتاضُ منه ، وعلى مَن تعوِّل إذا صارمته . وانتصب « أىَّ كفٍّ » بـ « تَبدَّل » . وقوله « ليعقِبَ يومًا منك آخر » يجوز أن يكون مِن قولهم أعقب هذا ذاك ، أى صار مكانَه ، ويكون المعنى : ليصيرَ مكانَ يومٍ من أيَّامك مذمومٍ يومٌ آخرُ منها مقبلٌ محمود . وهذا حسن . ويجوز أن يكون أعقبَ غيرَ متعدّ ، ويكون من أعقب الأمرُ عُقبانًا وعُقْبَى ، أى صار له عاقبة . ويرتفع « آخرُ » بيعْقب ، ويكون قوله يومًا منك ظرفًا . والمعنى : ليصير ما يُقبل من أمرِك يومًا ذا عاقبةٍ محمودة . ويجوز أن يكون من أُعقِبَ فلانٌ عزًّا ، أى أُبدِل ، ويكون المعنى : ليُعْقِبَنا يومًا منك محموداً أمرٌ آخرُ مؤتَنَفٌ . ورأيت من يرويه : « ليَعْقُبَ يومًا منك آخَرُ » بفتح الياء ، ويكون من قولهم عَقَبَ فلانٌ فلانًا إذا خلَفه ، وهما عَقيبان ، وقد اعتَقبا وتعاقَبا . ويكون المعنى : ليَخلُفَ يومًا منك يومٌ آخرُ مقبِل .

٧— وفى الناسِ إن رثَّتْ حبالُكَ واصِلٌ   وفى الأرضِ عَن دار القِلَى مُتَحَوَّلُ

٨— إذا أنتَ لم تُنْصِفْ أخاكَ وجدتَهُ   على طَرَفِ الهِجرانِ إن كان يَعقِلُ

٩— ويركَبُ حدَّ السيفِ مِن أن تَضيمَهُ   إذا لم يكُن عن شَفْرَةِ السَّيفِ مَزْحَلُ

قوله « وفى الناس إن رثَّتْ حبالُك واصل » إظهارٌ للزُّهد فى وِداده إذا

لم يستقمْ معه . ويقال : رثَّ الثَّوب يَرِثُّ رُثُوثًا ورَثاثةً . وقال أبو زيدٍ وأبو عبيدة : رَثَّ المتاعُ وأرَثَّ جميعاً . وأنشد لعَدِىٍّ[١] :

* أَرَثَّ جديدُ الوَصْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ[٢] *

وفى طريقة ما قاله قولُ لبيد :

واحْبُ المُجَامِلَ بالجَزيلِ وصُرْمُهُ   باقٍ إذَا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا[٣]

وقولُ أوس :

وإنْ قالَ لى ماذا ترى يستشيرنى   يَجِدْنى ابن عَمٍّ مِخْلَطَ الأمرِ مِزْيَلَا

فيقول : إذا رغبتَ عن مواصلتى ، وتقطَّعَت حبالُ الوُدِّ بينى وبينَك ففى الناس واصلٌ غيرُك ، وإذا نَبَا بى جِوارُك ، وضاقَ عنِّى أرضُك وديارُك ففى جوانب الأرض سَعة ومَزْحل عنك ، سيَّما والتحوُّل عن دار البُغْض والنُّبُوِّ لى عادةٌ أعتادُها ، وسُنَّةٌ أسيرُها ولا أعدِلُ عنها . واعلم أنَّك إذا لم تُعطِ أخاك النَّصَفة ولم توفِّرْ حقوقَه متوخِّياً المعدِلة ، ولم يوجِبْ له عليك مِثلَ ما تُوجبه لنفسك عليه ، ألفيتَه هاجراً لك ، مشارفاً قطيعتَك ، مُستبدلاً بك وبمؤاخاتك إن كانت به مُسْكَةٌ ، أو يمتلكه عقلٌ ومعرفة ، ثم لا يُبالى أن يركب من الأمور ما يقطِّعه تقطيعَ حدِّ السيف ويؤثِّر تأثيرَه فيه ، مخافة أن يَدخلَ عليه ضَيْمٌ ، أو يلحقَه عارٌ واهتضام ، متى لم يجد عن رُكوبه مَبْعَدًا ومَعْدِلاً . وكما قال هذا « دار القِلَى » قال غيره[٤] :

---

(١) كذا . والصواب أنه دريد الصمة ، كما فى اللسان (رثث) . وقصيدة دريد هـذه فى الأصمعيات ٢٣ ليبسك وجمهرة أشعار العرب ١١٧ .

(٢) عجزه كما فى المراجع السابقة ومقاييس اللغة (عقب) :

* بعاقبة وأخلفت كل موعد *

(٣) كذا جاءت الرواية فى النسختين ، وضلعت بمعنى مالت . والرواية المعروفة فى المعلقات « ظلعت » بالظاء .

(٤) هو عبد قيس بن خفاف البرجمى . البيت ٩ من المفضلية ١١٦ والأصمعية ٨٧ طبع المعارف ، وشواهد العينى (٢ : ٢٠٢ — ٢٠٣) وشواهد المغنى ٩٥ وحماسة البحترى ١٧٩ .

* دارُ الهَوانِ لمن رآها دارَه[1] *

وقوله « مِن أن تضيمه » معناه بدلاً مِن أن تضيمَه . ويجوز أن يريدَ بركوب السَّيف الصَّبرَ على الحربِ والموت . وشفرة السَّيف : حدُّه . والشُّفير : حرفُ كلِّ شيء ، منه .

١٠ـ وكنتُ إذا ما صاحِبٌ رَامَ ظِنَّتى وبَدَّل سُوءا بالذى كُنتُ أفعَلُ

١١ـ قَلَبْتُ لَهُ ظَهرَ المِجَنِّ فلم أدُمْ على ذاكَ إلاَّ رَيْثَ مَا أتحوَّلُ

١٢ـ إذا انصرَفَتْ نَفْسِى عن الشىء لم تَكَدْ إليه بوجْهٍ آخِرَ الدَّهرِ تُقْبِلُ

يقول : وإذا رأيتُ صاحبى يتجنَّى على ويتجرَّم ، ويتطلَّب علىَّ ما يُنْتج ظِنَّةً ويولِّدُ تُهْمة[2] ، وطفِقَ يقبِّح آثارِى ، ويبدِّل حسناتى ، اتَّخذتُه عدوًّا ، وقلبتُ له ظَهرَ التُّرس متَّقياً منه ، ومُدَافِعًا له ، ولم أدُمْ على تلك الحال المتقدِّمة معَهُ إلاَّ قدرَ ما أتحوَّل ، وبُطْء ما أتنقَّل . فقوله « رَامَ ظِنَّتى » أى رام ارتفاع التُّهْمة علىَّ . وقوله « بالذى كُنتُ أفعل » أى أفعلُه ، فحذف الضَّميرَ استطالةً لصِلة الذى .

وقوله « إذا انصرفَتْ نفسى » يريد أنِّى أمُدُّ نفَسَ التصبُّر ما أمكن ، فإذا أعجزَتْنى الحالُ العارضةُ عن الاحتمال انصرفتُ مالكاً عِنانى ، ثم لا يَثنينى على ما أعرضت [عنه][3] شىء أبدَ الدَّهر . « وقوله بوجهٍ » الباء تعلّق بقوله تُقبل أى لم تكدْ تُقْبِل إليه بوجهٍ من الوجوه ، وعلى لون من الألوان .

---

(١) عجزه : * أفراحل عنها كمن لم يرحل *

(٢) جاء فى اللسان (وهم) : « التهمة فعلة من الوهم ، والتاء بدل من الواو ، وقد تفتح الهاء » .

(٣) هذه من ل .

٤٠٥

وقال عَمْرو بن قَمِيَّة[١] :

١ — يا لَهفَ نَفْسِى على الشباب ولم ... أفقِد بهِ إذْ فَقَدْتُه أمَمَا

٢ — إذْ أسحَبُ الرَّيْطَ والمُروطَ إلى ... أدْنَى تِجارِى وأنفُضُ اللِّمَمَا

٣ — لا تَغْبِطِ المرءَ أنْ يقالَ له ... أضحَى فلانٌ لِعُمرِهِ حَكَمَا[٢]

٤ — إنْ سَرَّهُ طولُ عَيْشِهِ فلقد ... أضحَى على الوَجهِ طُولُ ما سَلِمَا

يتحسَّر على ما فاته من الشَّباب وحُسنِ أيَّامه ، ونَضارة العَيش به ، فقال : يا حسرةَ نفسِى على متقضِّى الشَّباب ومتولِّيه ، فإنَّ ما فاتنى منه لم أفارقْ به أمراً قريبا ، وشيئاً هيِّنا ، لكنِّى فقدت به صِحَّة بدنى ، ورَوعةَ وجهى ، وطيبَ عَيشى ، وقُوَّةَ رُوحى ، حين كنت أجُرُّ رَيطتى (وهو الإزار الذى ليس بملفَّق) ومُروطى (وهو جمع مِرْط ، وهو مِلحَفَة يُؤتَزَر بها) إلى أقرب الخمَّارين إلىَّ وأنفُضُ شعَرَ رأسى إعجاباً به ، واستحساناً له ، وطرباً يُداخِلُنى فى جميع أسبابِى معه . ثمّ قال مُزْرِيًا بالشَّيب وبما يكتسِبه المرء إذا علاه ، مِن إكبار النَّاس له ، وتقديمِهم فى المجالس إيَّاه ، ومن الرُّجوع إلى قولِهِ ، واستشارتِهم فيما يعِزُّ من الخطوبِ رأيَه ، فقال : لا تَغبطنَّ الرَّجلَ ولا تَرْمُقنَّ ولا تجعلَنَّ[٣] مُحسَّدًا إذا

---

(١) قميَّة : مسهل قميئة . وقميئة أمه ، وهو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل . وهو جاهلى أقدم من امرئ القيس ، ولقيه امرؤ القيس فى آخر عمره فأخرجه معه إلى قيصر لما توجه إليه ، فمات معه فى طريقه ، وسمته العرب عمراً الضائع ، لموته فى غربة وفى غير أرب ولا مطلب . الأغانى (١٦ : ١٥٨ — ٦٠) والخزانة (٢ : ٢٤٧ — ٢٥٠) والمعمرين ٨٩ والمؤتلف ١٦٨ والشعراء ٣٣٦ — ٣٣٨ .

(٢) ل : « لا يغبط المرء » بالبناء للمفعول . التبريزى : « أضحى فلان لسنه » .

(٣) ل : « لا يغبطن الرجل ولا يرمقن ولا يجعلن » بالياء والبناء للمفعول .

قِيلَ فيه : صار فلان حَــكَمًا فى عشيرتِهِ لــكثرة تجاربه ، وامتدادِ عُمره ، ودوام مُزاوَلته للأمور ، واتِّصال لقائه للنّاس وممارسته لهم وفيهم ، لأنَّهُ إن سَرَّه امتداد عُمْره ، وتنفُّسُ عَيشه فلقد ظَهَرَ فى نفسه من ضعفٍ وانحناء ، وعلى وجهه من ذُبولٍ ومُهوم إلى غيرِها مما يدلُّ على طولِ سَلامتِه التى هى الدّاء الذى لا دواء له . ومثل هذا قول الشاعر[1] :

* وَحَسْبُكَ دَاءً أن تَصِــحَّ وتَسْلَمَا[2] *

وقول الآخر[3] :

فَدَعوتُ رَبِّى بالسَّلامة جاهِداً ليُصِحَّنى فإذا السَّــلامةُ داء

وقوله « أن يقال له » أراد لا يُغبَط لأنْ يقال له ، ومن أجل أن يقال له . وقوله « أدنى تجارِى[4] » إظهارٌ لغلُوِّه فى سِباءِ الخمر ومَرفِه ، ثم تبجُّحٌ بإضافتهم إلى نفسه .

٤٠٦

وقال إياسُ بن القائف[5] :

١ ــ يُقيم الرِّجالُ الأغنياء بأرضِهِمْ وتَرْمِى النَّوَى بالمُقْتِرِين المَرَامِيا[6]

(١) هو حميد بن ثور الهلالى . ديوانه ٧ والبيان (١ : ١٥٣) والحيوان (٦ : ٥٠٣) .

(٢) صدره : * أرى بصرى قد رابنى بعد صحة *

(٣) من شعراء الجاهلية ، كما فى الكامل ١٢٥ ليبسك .

(٤) كذا ورد تفسير هذه الكلمة هنا مع أنها فى البيت السابق ، فيبدو أن المرزوقى أضافها مؤخراً .

(٥) التبريزى : « هو من قاف يقوف إذا اتبع ؛ مثل يقفو . قال الشاعر :

كذبت عليكم لا تزال تقوفنى كما قاف وآثار الوسيقة قائف

وجمعه قافة ، ومن ذلك قيل للقوم الذين ينظرون إلى الولد فيحكمون من أبوه : القافة ، لأنهم يتبعون الشبه فى الأعضاء » .

(٦) التبريزى : « تقيم الرجال » .

يفضِّل الغِنَى على الفقر ويبعثه على طلبه وارتياده . فقال : تَرى المُوسِرين يتودَّعون ، وتطول إقامتُهم فى دُورهم وأرَضِيهم يُمتَّعون ، والفقراء تَرامَى بهم البُلدانُ النَّائية ، وتقذِف النَّوَى بهم المَقاذِف البعيدة ، والمهالكَ المُستصعَبة ، فلا يهدؤون ولا يَقرّون . والنَّوى : وِجهةُ القوم التى يَنوُونَها . والمَرامى : جمع مَرمًى ، وهو المكانُ لا غَيرُ هُنا ، لأنَّه قابَلَ الأغنياء بالمُقترِين ، وأرضَ الأغنياء بمرامى الفُقَراء ، لأنَّهم لا تدنُو بهم دارٌ أبدا ، فجالُ تَسيارِهم لِكَسْبِهم وتصرُّفهم كدُور أولئك لهم . ومَفْعَلٌ يكون اسماً للحدَثِ ، وزَمانِه ، ومكانِه .

٢ — فأكرِمْ أخاكَ الدَّهْرَ ما دُمْتُما مَعاً ... كَفَى بالمَمَاتِ فُرْقَةً وتنائيا

٣ — إذا زُرْتُ أرْضاً بعدطُولِ اجتنابها ... فَقَدْتُ صديقى والبلادُ كما هِيَا

يقول : أحسِنْ صُحبَةَ أخيك وصاحبك . وتناوَلْه بالإكرام طُولَ الدَّهرِ ومُدَّةَ العمر ، فإن المنايا كفَتْك مفرِّقةً ومبعِّدةً . وقوله «الدَّهرَ» انتصب على الظرف ، وما دمتما انتصب على أنه بدل من الدَّهر . وانتصب « معاً » على أنَّه خبر مادمتما . ومعنى ما دُمْتُما مَعًا : مدَّةَ بقائِكما ودوامِكما مجتمِعَين . وقوله « كفَى بالمنايا » موضع بالمنايا رفعٌ على أنَّه فاعلُ كَفَى . وانتَصَبَ « فُرقَةً » على التمييز ، أو يكون فى موضع الحال ، كأنه قال : كفى بفُرقة المنايا فُرقةً . والتقدير : كفى فُرقَةً بالمنايا مِن فُرقةٍ ، أو كَفَى المنايا مفرِّقة ومتنائية .

وقوله « إذا زُرتُ أرضا بعد طُول اجتنابها » هذا الكلام توجُّعٌ وتشكٍّ من نوائب الدَّهر . يقول : أرى الإخوانَ تَختَرِمُهم المنايا فهم يتَفاقَدون ، وبلادُهم وأروضهم على ما كانت عليه ، فمتى زُرْتُ مكاناً بعد طول العهد به وجدتُ أصدقائى مفقودين ، وأما كنهم كما كانت . وقد تقدَّم القول فى إعراب « كما هِيَا[1] » . وقوله صديقى يرادُ به الكثرةُ لا الواحد .

---

(١) انظر الحماسية ٦٢ ص ٢٤٣ .

٤٠٧

وقال ربيعةُ بن مَقْروم[1] :

١ – وكَمْ مِن حامِلٍ لى ضَبَّ ضِغْنٍ بَعيدٍ قَلْبُهُ حلوِ اللِّسانِ

٢ – ولو أَنّى أشاء نَقَمْتُ منه بِشَغْبٍ أو لِسانٍ تَيِّحانِ

كَمْ لفظةٌ وُضِعَت للتَّكثير، كما أن رُبَّ وُضعَ للتَّقليل ، إلا أنّه اسم ورُبَّ حرف وله موضعان : الاستفهام ، والخبر ، وهو من باب الخبر هنا . والضَّبّ : الحِقد . قال :

فَما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْنِي وتُخْرِجُ مِنْ مَكامِنِها ضِبابى[2]

وأضافه إلى الضِّغْن لأنّ الضِّغن العَسِر ، فكأنّه حِقْدُ عَسِرٍ ولَجاجٍ . فيقول : كثيرٌ من الرِّجال يحملون لى الضَّغائن ، ويُسِرُّون لى البغضاء ، وقد حلا مَنطِقُهم لى جَرْياً على سُنَنهم فى المداجاة ، وبَعُدَ قلبهم منّى استمراراً فى طريق الشَّنآن لى والمعاداة ، ولو شِئت لانتقمتُ منه بالفعل أو بالقول ، فإن لسانى عِرِّيضٌ ويَدِى عالية ، يتأتّى له مكافأةُ كلِّ النّاس على مقدار فعلِهِ ، وبمثل ما ينطوى لى من خيرٍ أو شرّ . ويقال : نَقَمت عليه أى أنكرت عليه فِعْلَه ، ونَقَمت منه بمعنى انتقمت . ونَقَم ونَقِم لغتان . والتَّيِّحان لا يُكسر ياؤه ، وقد مضى القولُ فيه[3] .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٩ ص ٦١ ، وساق نسبه التبريزى : ربيعة بن مقروم ابن خالد بن عمرو بن غيظ بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة .

(٢) ويروى : « من مضابئها » . والبيت لكثير عزة ، كما فى الحيوان (٤ : ٢٥٠ ، ٦/٣٠٣ : ١٠١) والموشح ١٤٣ والصناعتين ٧٢ وزهر الآداب (٢ : ٦٣) وابن سلام ١٢٥ ليدن ١٨٥ مصر .

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ١٨ ص ١٣١ – ١٣٢ .

٣ – ولـكِنِّى وَصَلتُ الحبـلَ منِّى مُوَاصَلةً بِحَبـــلِ أبِى بَيانِ

٤ – وَضَمْرَةَ إنّ ضَمْرَةَ خَيْرُ جَارٍ عَلِقْتُ لَهُ بأسبابٍ مِتَانِ

٥ – هِجَانُ الحىِّ كالذَّهَبِ المُصَفَّى صَبِيحةَ دِيمَةٍ يَجْنِيــهِ جَانِ

قوله « ولـكنى وَصَلْتُ الحبل منِّى » يقول : أبقَيت على من يعادينى ولم أُعَجِّلْ مؤاخذتَه بإساءته وإصراره . وتمـاديه فيما أكرهه ولجاجه ، لأنِّى قد واصلتُ أبا بيانٍ وعَلَّقتُ حَبْلِى بحبـله ؛ وكذلك احتَشَمْتُ ضَمْرَةَ لأنه خيرُ جار ، ، وقد استحكمَتْ بينى وبينه أواصرُ حفظُها عن القطيعة واجبٌ ، ولأن العِصَم المَتينة التى تجمعُنا تُلزِمنى الوقوفَ فيما يكرهانه ، وتَركَ ما لا يؤمننى استيحاشَهما ، وهما مع ذلك كرامُ الحىّ لا غائلة لهما ، ولا شُـبهةَ فى مصافاتِهما وحُسنِ عقيدتِهما ، فما وُدُّهما إلّا كإبريز الذَّهَب المصفَّى ، وما يَظهر من مَعادن الذَّهب صبيحةَ مَطْرَةٍ تكشف عن عُروق الذَّهب ، فيجتنيه المُجتنون ، أى يلتقطه الملتقِطون . وهذا الذى وَصَفه يقال إنّها تكثُر فى نواحى اليَمَن واليمامة ، وتسمَّى تلك المعادن معادن اللَّقط ، فإذا مُطِرتْ وانكشَفت الهَبَوات والغُبار عن وُجوه حجارتها يظهَرُ من عروق الذهب فى صفائحها مثلُ ما وصفه أو أحسن .

وقوله « هِجان الحىّ » ارتفَعَ على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هم هِجان الحىّ . وهِجانٌ جَمعٌ ، وواحده هِجَانٌ أيضاً ، لأن فعيلا وفِعالًا يشتركان فى الجمع كثيراً ؛ فهِجَانٌ جاء من هِجَانٍ واحداً كظِراف من ظريف . وقوله « كالذهب » فى موضع الحال ، وكذلك قوله « يَجْنيهِ جان » حال من الذَّهب المصفى . وقوله « مواصلةً » يجوز أن يكون مصدراً فى موضع الحال ، أى مُواصلا ، ويجوز أن يكون موضوعاً موضعَ صِلةٍ فيكونَ مصدراً من غير لفظه ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ أنْبَتَــكُمْ مِنَ الأرضِ نَباتاً ﴾ : وقوله « يجنيه جان » وضَعَه موضع يَلقطه .

٤٠٨

وقال سَلْمُ بنُ ربيعة[١] :

١— إنّ شِـــواءً ونَشْوَةً وخَبَبَ البَـــازِلِ الأَمُونِ
٢— يُجَشِّمُها المرءُ فى الهَوَى مَسافَةَ الغـــائطِ البَطِينِ
٣— والبيضَ يَرْفُلْنَ كالدُّمَى فى الرَّيْطِ وَالْمُذهَبِ المَصُونِ
٤— والـكُثْرَ والخَفْضَ آمِناً وشِرَعَ المِزْهَـرِ الحَنُونِ
٥— مِن لَذَّةِ العَيْشِ والفتى للدَّهرِ والدَّهرُ ذُو فنونِ
٦— واليُسْرُ كالعُسْرِ والغِنَى كالعُـدْمِ والحَيُّ لِلمَنـونِ

هذه المقطوعة خارجةٌ عن البحور التى وضعها الخليل بن أحمد ، وأقرب ما يقال فيها أنها تجىء على السادس من البسيط[٢] ، وليس هذا موضعاً لبسط الكلام فيه .

والنَّشْوة : الخَمْر والسُّكر[٣] . والخَبَبُ والخبب : ضَرْبٌ من السَّير . والبازِلُ : التى قد استكمل لها تِسعُ سنين فتناهى قُوَّتُها . والأَمُون : الموثَّقَةُ الخَلْقِ . وخبر إنّ فى قوله « من لذّة العيش » .

وقوله «يُجَشِّمُها المرء» من صفة البازل ، والمعنى يكلِّفها صاحبُها قطعَ المسافةِ البعيدة فيما يهواه . والمَسَافة مأخوذةٌ من السَّوف ، وهو الشَّمّ . وكان الدَّليلُ إذا اشتَبَهَ عليه الطَّريق يفعلُ ذلك . والغائطُ : المطمئنُّ من الأرض . والبَطِين : الواسع الغامض .

(١) كذا فى النسختين ، وصوابه كما فى التبريزى : « سلمى بن ربيعة » . انظر ما سبق من التحقيق فى حواشى ص ٥٤٦ .
(٢) يعنى ما يسمى مخلع البسيط .
(٣) الخمر ، هنا : مصدر خمر الرجل خمراً ، فهو مخمور .

وقوله « والبيض يَرْفُلْنَ كالدُّمَى » يعنى به النِّساء . ويَرْفُلْن : يَتَبخْتَرن فى الرَّيْطِ ، وهى المُلاءة الواسعة[1] . والمُذهَبُ المَصُون ؛ يُرَاد به الثِّياب الفاخرة المطرَّزة بالذَّهب . وتَعَلَّق فى من قوله « فى الرَّيط » بيَرْفُلن ، وكالدُّمَى فى موضع الحال . والمعنى : والنِّساء البيضَ يتبختَرنَ فى المَصونات من الثِّياب الكريماتِ وهنَّ مُشبِهاتٌ للصُّوَر .

والكُثْر انعطَفَ على البيض ، كما أنّ البِيض انعطف على « وخَبَبَ البازِل الأَمُون » . والمراد بالكُثْر كثرةُ المالِ ومساعدةُ الحال ، وضِدُّه القُلُّ . وقال الخليل : كُثْر الشَّىء : أكثَرُه ، وكذلك قُلُّه أقلُّه . والخَفْضُ : التَّوَدُّع . وانتصب « آمِناً » على الحال ، وانعطف « وشِرَعَ » على الخفض . فيقول : إنَّ لذَّات الدُّنيا من مأ كولٍ ومشروب وملبوسٍ ، ومركوب وقد استعمَلَه صاحبُه فيما يهواه ، وكَلَّفَه قطْعَ المسافاتِ فيما تدعوه إليه نفسُه ، والنِّساء البيضَ بالصِّفة التى ذَكَرها ، والغِنى والرَّاحةَ فى الأمن والملاهى ، جميعَ ذلك مِن لذَّة العيش . وقوله « وشِرَعِ المِزهر » أى الأوتار ، واحِدُها شِرْعَةٌ . والمِزْهَر : العُود . والحُنون : يُريد به الصَّيِّتَ مِن الحنين ، فكأنّه أشار إلى المِزهَر منقوراً يَنْقُره المُلهِى[2] . فانظرْ فإنّه جَمع كلَّ ما يلتذ به النَّفس ، وجعلَها تامَّةً بما قَرَن به من حال الأمْن ، لأنّ جميعَ ذلك إذا عَرِى من الأَمن لم يُستطَب ولم يُستَمرأ .

ثم قال : « والفَتَى للدَّهرِ والدَّهرُ ذو فنونِ » الواو واو الحال ، وذو فنون أىْ ضروبٍ . يريد : أنّ كلَّ ذلك مما يلتذُّ العائش به ، لكنّ الفَتى مُهَدَّفٌ للدهر ، والدَّهر ذو تاراتٍ : كما يَهَبُ يرتجِع ، وكما يُسَلِّمُ يُبِلّ ، وكما يُوَدِّع يُتْعِب ، وكما يُصَفِّى يكدِّر . وبعد ذلك قال :

(١) كذا فى النسختين . والوجه « الملاء الواسعة » إذ أن « الريط » جمع لا مفرد .

(٢) الملهى : المشتغل بسماع الغناء .

واليُسْرُ كالعُسْرِ . والغِنى كالعُدْمِ والحىُّ للمَنُونِ

يريد أنّ شيئاً من هذه الأحوالِ لا يدومُ إلّا ريثَ ما يُسلَّط عليه القواطعُ والمغيِّرات ، فاليَسَار إذا حَصَل كالإعسار ، فى أنّ واحداً منهما لا يبقَى ، وغِنَى النفس كفقرها ، ثم انتهاء كلٍّ ذلك للحىّ معا إلى المَوتِ الذى لا غاية وراءه ، وليس يُتَخلَّص منه بحيلةٍ تَنفُذ ، أو رويّة تُعمَل .

٤٠٩

وقال آخر[1] :

١ — وأنت امرُؤٌ إمّا ائتمنْتُك خَالياً فَخُنْتَ وإمّا قُلْتَ قولاً بلا عِلْمِ

٢ — فأنتَ مِن الأمرِ الذى كان بيْنَنا بمنزلةٍ بينَ الخيانةِ والإثمِ[2]

يقول : أنت رجلٌ إمّا وثقْتُ بك فى شىء يُحتاج إلى أداء الأمانة فيه ، وقد خلَوت معك وأظهرت السُّكونَ إليك فخنتَنى ، وإمّا أستَنيمُ إلى ناحيتك فى الخير فكذَبتَ علىّ ، وخبّرت بما لا علمَ لك به ، فأنت ممّا بينى وبينك واقفٌ فى محلٍّ بَيْنَ الخيانة فيما ائتُمِنْتَ فيه . والإثمِ فيما رجَع إليك فى الكشف عنه . وقوله « ائتمنتك » هو افتعل من الأمانة ، ولك أن تخفف الهمزة وتُبدِلَ منها ياء ، ولك أن تعوِّض من الهمزة تاء فتُدغِمَه فى التاءِ التى بعدها فتقول : اتَّمَنْتُكَ .

(١) التبريزى : « هو عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة ، من قيس عيلان . وبنى مرة يعرفون ببنى سلول ، وسلول أمهم ، وهى بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وكان عبد الله مكيناً عند آل مروان ، وهو الذى بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية فى قوله :

تعزوا يا بنى حرب بصبر فمن هذا الذى يرجو الخلودا

خلافة ربكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا

تلقفها يزيد عن أبيه فخذها يا معاوى عن يزيدا »

وقد روى القالى فى الأمالى (٢ : ٤٦) هذين البيتين وقصتهما .

(٢) رواية الأمالى : « فأبت » بالباء . وذكر محققه أنها فى نسخة : « فأنت » . والمعنى على كل صحيح .

وخَالياً انتصَبَ على الحال ، وذو الحال يجوز أن يكون الشَّاعرَ . والمعنى : جعلتُك موضعاً للأمانةِ وقد خلوتُ بك لئلاّ يتجاوزَنا السِّرُّ الذى أودعتُك . ويجوز أن يكون حالاً للمخاطَب ، والمعنى منفردا .

وروى أنّ رجلًا أتى عُبيدَ الله بن زيادٍ فأخبرَه أنّ عبـدَ الله بن همّامٍ السَّلولىَّ سَبَّهُ وأسرف جِهاراً ، لا حِشمةَ تَردَعُه ، ولا رِقْبَةٌ تمنعُه . فأرسـل عُبيدُ الله إلى ابن همامٍ واستحضَرَه ليقابلَه بالرَّجُل ، ويَتَبيَّنَ مِن حضورهما صِحَّةَ الخبر ، فأتاه ابن همَّامٍ ، فلما استقرَّ به المجلسُ قال عُبيدُ الله : يا ابنَ همام ، إنّ هذا يَزعُم أنك قلتَ كذا وكذا . فأقبلَ ابنُ همام على الرجُل وخاطبَه بقوله :

« أنت امرؤٌ إمَّا ائتمنتُك خاليا » . . . البيتين .

فإن قيل : ما موضعُ « إمّا ائتمنتُك » من الإعراب ؟ قلت : هو فى موضع الرّفع على أن يكون صـفةً لامرئٍ . وإمَّا هذه هى التى تُعَدّ فى حروف العطف ، والـكلام خبرٌ . يريد : أنتَ رجلٌ لا تخلو مما تَصُكّ به وجهى من أحد الأمرين اللذين أذكرهما . فهو كما تقول : أنت رجلٌ إمّا صالحٌ وإما طالح . وقوله « فخُنْتَ » انعطف على ائتمنتك ، كأنه قال : أنت رجلٌ إما مؤتَمَن نخائنٌ ، وإما قائلٌ قولاً لا عِلمَ لك به . وقوله « وإمّا » الواو هى العاطفة . وإمّا كأوْ فى أنه لأحد الأمرين ، إلاّ أنّ « أوْ » يُبنَى الـكلامُ فيه على اليقين ، ثم يَعترِض ما يخرُج به عنه ؛ و « إمّا » يُبنَى الـكلام فيه على عين اليقين . ولهذا الذى قُلناه قال حُذّاقُ أصحابنا : إنه ليسَ من حروف العطف ، وكيف يكونُ منها وهو يجيء قبلَ ما يُعطَف عليه أو مع حَرف العطف . تقول : رأيتُ إمّا زيداً وإمّا عَمْراً . فإمّا الأولى سابقٌ المعطوفَ عليه وهو زيد ، وإمّا الثانية معها الواو العاطفة .

وقوله « فأنتَ من الأمر الذى كان بيننا » مبتدأ وخبره « بمنزلة » ، وبينَ الخيانة صفةُ المنزلة . والمعنى : أنت بِمَا[1] بيننا فى موقف يُشفِى بك إما على الخيانة فيما ائتُمِنْتَ فيه ، وإما على الإثم فيما تُستشهَدُ فيه ، فتقولُ بما لا عِلْمَ لك به .

٤١٠

وقال شَبِيبُ بنُ البَرصاء[2] :

١ — قنتُ لِعَلَّاقٍ بِعِرْنانَ ما تَرَى　　فما كاد لى عن ظَهْرِ واضحةٍ يُبْدِى

عِرْنانُ : اسم وادٍ[3] . وقوله « عنْ ظهر واضحة » يجوز أن يريد عن ظهر خَصلة بيِّنة والمراد : لمّا استشرتُه وقد حصَلْنا بعرنان ارتبكَ فلم يكَدْ يَكشِف لى عمّا يصح المرادُ به ، ويمكن الاعتمادُ عليه . ويجوز أن يريد بالواضحة السنّ . والمعنى : لم يكَدْ يتهلّلُ أو يكشِف عن أسنانه به ضاحكا أو كاشراً . ويكون استعمال الواضحة كما قال طرَفة :

كلُّ خليلٍ كنتُ عاهدتُه　　لا تَرَكَ اللهُ له واضحَهْ

وقوله « تبسّمَ كُرْهًا » يدلُّ على الوجه الثانى .

٢ — تبسّمَ كُرْهًا واستَبَنْتُ الذى به　　من الحَزَنِ البادِى ومن شِدّةِ الوَجْدِ

٣ — إذا المرء أعرَاهُ الصديقُ بَدَا لَهُ　　بأرضِ الأعادى بعضُ ألوانِها الرُّبْدِ

انتصب كُرْهًا على أنه مصدرٌ فى موضع الحال . يقول : بَسَمَ لى كارهًا فتبيّنْتُ الذى به من حُزْنٍ ظهَرَ عليه ، ومن وَجْدٍ استكنَّ فى قلبه . ويقال استبنْتُ وتبيّنْتُ بمعنًى واحد . وبَسَمَ وابتسم وتبسّم بمعنًى واحد ، إلاّ أنّ فى

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « فيما » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٠٣ ص ١١٢٣ .

(٣) وعن السكونى أنه جبل بين تيماء وجبلى طيئ . معجم البلدان .

تبسّم زيادةَ معنى التكلف ، كأنه تكلّف منه ما تكلّف على كراهيَة .

وقوله « إذَا المرء أعراه الصديق » يريد به : إذا الرجُل خذَلَه صديقُه وقَعَد عن نُصرته ، وترَكه بالعَراء ، فى أرضِ الأعداء ، بدا لَهُ من ألوانِ الأرض إذا اسودَّت بعضُها . وهذا التفصيل والتبعيض دلّ على أنّ اسودادَ الأرض يكون من وجوهٍ عِدّة ، وللحالة التى أشار إليها ما يختصُّ بها ، ويجب أن يكون أشدَّها . وهذا لأنّ ما يَرِد على النفس من المكاره مَراتبُ ، فاسوِداد الأرضِ عليه لها على حسَبِ مقاديرِها فى أنفُسها .

٤١١

وقال سالم بن وابِصَة[1] :

١ — أُحِبُّ الفتَى يَنفِى الفواحِشَ سَمْعُه ۞ كأنّ به عن كلِّ فاحشــةٍ وَقْرَا

٢ — سَليمُ دَوَاعِى الصَّدْرِ لاباسطٌ أذًى ۞ ولا مانعٌ خيْرًا ولا قائلٌ هُجْرَا[2]

يقول : أُحِبُّ من أخلاق الفتى أن يكون متكرِّمًا إذا طرقَ أذنَه ذِكرُ الفواحش ، فلا يَعِيها ولا يجعلها من نفسه ببالٍ ، حتى كأنّ به صَمَمًا عن أنواع الفواحِش كلها .

وقوله « سَليمُ دَواعِى الصدر » ، ارتفع سليمُ لأنه خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : هو سليم ، ويكون ما بعدَه صفاتٍ له . ويريد بالدواعى ما يتعلق بالأغيار منه لا ما يخصّه فى نفسه . ألا تَرَى أنه فسّره بقوله « لا باسطٌ أذًى ولا

(١) التبريزى : « سالم بن وابصة الأسدى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٤٤ ص ٧١٠ . والأبيات فى أمالى القالى (٢ : ٢٢٤) .

(٢) التبريزى : « لا باسطاً ... ولا مانعاً ... ولا قائلا » . ومثله القالى ، لكن روايته فى آخر البيت : « ولا ناطقا هجرا » .

مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هُجْرًا » وكلُّ ذلك للغَيْرِ لا للنفس . ويَكشِفُ هذا أنه إذا بَسَطَ أسبابَ الأذى عادَ الضَّرر منها على المتأذِّى لا عليه . وإذا مَنَع خيرَه كذلك عاد الضرر على المنتفِع به وعلى هذا إذا قال هُجْرًا . والهُجْر : الفُحْش . ويقال : أهْجَرَ الرجُل ، إذا أتى به . وقد كان من فلانٍ هاجِرةٌ . على ذلك قوله :

* إذا ما شِبتَ نالَكَ هاجِراتى[1] *

ولك أن تنصِبَ « سليمَ » بما بعده ، فيكون فى موضع الحال ، وما يتبعه صفات له ، وهو لا باسطاً أذًى ولا مانِعاً خَيْرًا ولا قائلا هُجْرا .

٣ — إذا ما أتَتْ من صاحبٍ لكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أنتَ مُحْتالاً لِزَلَّتِه عُذْرَا[2]

٤ — غِنَى النَّفْسِ ما يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ فإن زَادَ شيئاً عادَ ذَاكَ الغِنَى فقْرَا[3]

يقول واعظا ومُهذِّبًا : إذا اتَّفَقَتْ من صديقٍ لك زَلَّةٌ ، أو وُقوفٌ موقفَ تُهمة ، فحَسِّنْ أمره فى ذلك واحمله على ضُروبٍ ممَّا يَبْسُطُ عُذْرَهُ فيه ، بل كُنْ أنتَ المحتالَ لعُذْرِه ، فلا تُحْوِجْه إلى تكلُّف الاعتذار .

وقوله «غِنَى النَّفس ما يكفيك من سَدِّ حاجةٍ» يقول: خُذْ من دنياك ما تسدُّ به فقرَكَ ، فإنَّ غِنَى النفس ما يضمَن الكفاية ، فإن زاد قليلا عاد ذلك بزيادتك فيه الفقر ، وذاك أنَّ الدواعىَ إنما تكثُر وتتوسع بتوسُّع الأسبابِ وكثرتها ، وما يَفضُل عن الكفاية يمتُّ كلُّ جزء منه بماتَّةٍ صاحِبه فلا يكاد يَكتفى ببعضه

---

(١) عجزه فى اللسان (هجر) :

* ولم أعمل بهن إليك ساقى *

(٢) قبله عند التبريزى : ولم يروه القالى :

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرَّماً أديبًا ظريفاً عاقلا ماجداً حُرًّا

(٣) التبريزى : « ما يكفيك من سد خلة » . القالى : « ما يكفيه من سد خلة وإن زاد » .

إلا وما عَدَاهُ يَمُتُّ بمثل ماتّتِه . وإذا صار الأمر على ذلك فكلُّ منزلةٍ ينتهى إليها طلبُ الفَضل تدعوه إلى ما فوقَها ، فيبقَى أبداً مُتعَبًا فقيراً . وقوله « فإن زادَ ، شيئاً » انتصَبَ شيئاً على المصدر ، لأنَّه واقعٌ موقعَ زيادة . وزاد هاهنا بمعنى ازداد ، فلا يتعدّى . وانتصب فقراً على الحال .

٤١٢

وقال آخر[١] :

١ — وكَمْ مِنْ لئيمٍ وَدَّ أنى شَتَمْتُه ... وإنْ كانَ شَتْمِى فيه صَابٌ وَعَلْقَمُ

٢ — ولَلْـكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللئيم تكرُّمًا ... أضَرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُ

اللَّئيم : الذى اجتمَعَ فيه خصالٌ مذمومةٌ فى نفسه وأبويه . فيقول : كم من رجل دنِيّ النفسِ والأصلِ ، يتمنى أن أتَّخذه نظيراً لى أُكايله وزناً بوزن ، وأُكافيه لفظاً بلفظ ، وإن كان فى هَجْوى له وشتمى إيَّاه ما يَجرى مَجرَى الصَّاب والعَلقم فى المرارة . والصَّابُ : شجرةٌ لها لبنٌ فإذا أصاب العينَ حلَبَها . والعَلقم : الحنظَل . وقال الخليل : يقال : عَلْقَمَ الحنظلُ ، إذا اشتدَّت مرارته .

ثم قال : لَإمساكى عن مُشاتَمة اللِّئام آخِذاً بالكَرم ، أصْوَنُ لِعِرْضى ، وأعْوَدُ عليهم بالضررِ من كلِّ ذمٍّ وهَجْو . وانتصب « تكرُّما » على أنَّه

---

(١) التبريزى : « وقال المؤمَّل بن أُمَيل المحاربى » . والمؤمل ، كذا ضبط بالميم المشددة المفتوحة عند التبريزى . وهو المؤمل بن أميل بن أسيد المحاربى ، نسبة إلى محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر . شاعر كوفى من مخضرمى شعراء الدولتين ، وكانت شهرته فى العباسية أكثر ، لأنه كان من الجند المرتزقة معهم . وانقطع إلى المهدى فى حياة أبيه . وكان يهوى امرأة من أهل الحيرة يقال لها هند ، وفيها يقول قصيدته المشهورة :

شف المؤمل يوم الحيرة النظر ... ليت المؤمل لم يخلق له بصر

فيقال إنه رأى فى منامه رجلا أدخل إصبعه فى عينيه وقال : هذا ما تمنيت . فأصبح أعمى . الأغانى (١٩ : ١٤٧) ومعجم الأدباء (٧ : ١٩٥ مرجليوث) والخزانة (٣ : ٥٢٣) ونكت الهميان ٢٩٩ وسمط اللآلى ٥٢٤ .

مصدرٌ فى موضع الحال ، أى متكرما ، ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى للتكرُّم .

٤١٣

وقال عَقِيلُ بنُ عُلَّفَةَ[1] :

١– وَلِلدَّهْرِ أَثْوابٌ فَكُنْ فى ثِيابِهِ كَلِبْسَتِهِ يَوْمًا أَجَدَّ وَأَخْلَقَا

٢– وكُنْ أَكْيَسَ الكَيْسَى إذا كُنْتَ فِيهِمُ وإنْ كنتَ فى الحَمْقَى فكُنْ أنتَ أَحْمَقَا

ذِكر الأثواب مثَل ، وإنَّما يُريد تلوُّنَ الدهرِ بأهله ، وتصرُّفَه بأحداثه وتاراته وغِيَرِه . واللِّبْسَةُ : اسمُ حالة اللابس . أى البَسْ ثيابه لبستَه مُجِدًّا أوْ مُخْلِقًا ، وإنْ أَجَدَّ أوْ أَخْلَقَ ، لأنَّ الحالَ يتضمن معنى الجزاء . والقصدُ إلى توصيَة المخاطَب بأن يطلبَ موافقةَ النَّاسِ فى دهرهم ، ويتخلَّقَ بأخلاقهم . ومعنى أَجَدَّ : جعَلَ ثوبَه جديداً . وكذلك أخلَقَ الثَّوبُ نفسُه فهو مُخْلِق ؛ وهذا أشهَرُ من الأوّل . وقد قيل فى الدعاء لِلاَبِسِ الجديد : « أَبْلِ وَأَجْدِدْ » يراد به فِعْلُ مثلِه فى المستأنف ، واتِّصالُ عمره . وقد صرَّح عن المعنى فيما بَعْدَه ، لأنّه قال : وكنْ أكيسَ الكَيْسَى إذا كنتَ فيهم . والمعنى : تكيَّسْ مع الأكياس ، بل اجتهدْ أن تفوقَهم فى كَيْسِهم وإن ابتليت بحَمْقَى فتحامَقْ معهم . وقوله « كن أنتَ » أنتَ توكيدٌ للمضمر فى كنْ . و« أحمقا » يجوز ألاّ يريد به أَفْعَلَ الذى يتمُّ بمِنْ ويكون المعنى تحامَقْ . ويجوز أن يكون أفعَلَ الذى يتمُّ بمِنْ ، وقد حذف منه مِنْ لأنّه خَبَرٌ فجاز ذلك فيه . ويدُلّ على هذا أنه قال : كنْ أكيسَ الكَيْسَى . وقد قيل : ما أَحْمَقَهُ ، لأنه ليس من الخَلْقِ فى شىء . ألا ترَى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٦ ص ٤٠٠ . التبريزى : « وقال عقيل بن علفة المرى ، مرة بن عوف بن سعد بن بغيض . ويصحف بابن علقة . وعلقة تيمى لم يعرف اسمه ونسبه » .

أنّ صاحبه يُوَبَّخ على ما يأتيه منه . فأمّا قوله « الحَمْقَى » فَفَعْلَى جَمْعٌ فيما يكون بلاءٍ وزَمانةً . على ذلك الجرحى والمَرْضَى ، فشُبِّهت الحماقة به ، ثمّ حُمِلَ الكَيْسى عليه ، لأنّهم يحملون النَّقيض على النَّقيض كثيراً .

٤١٤

وقال بعضُ الفَزَارِيِّين :

١ — أُكْنِيهِ حِينَ أُنادِيهِ لِأُكْرِمَهُ ... ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْءَةَ اللَّقَبا[1]

٢ — كذاكَ أُدِّبْتُ حتَّى صارَ مِنْ خُلُقِي ... إنِّي وَجَدْتُ مِلاكَ الشِّيمةِ الأَدَبا

يصف حُسنَ عِشرته لصاحبه وجليسه ، ومؤاخذةَ نفسِه بصيانته وإكرامه فيقول : إذا خاطبتُه خاطبتُه بأحبِّ أسمائه إليه ، وهو الكُنْيَةُ ، وأعْدِلُ عن نَبَزِه ولَقَبِه[2] ؛ لأنى على هذا أُدِّبْتُ ، حتّى به تَطَبَّعْتُ ، فصار خُلُقاً ثانياً لى وإن كان أصله تخلُّقا ؛ إنى وجدت الأدب مِلاكَ الأخلاق . والمِلاك : اسمٌ لما يُمْلَكُ به الشيء ، فهو كالرِّباط والنِّظام وما أشبههما . وقوله «ولا أُلقِّبه والسَّوءة اللَّقبا » بنصب السوءة ، فتنصب اللَّقَب من أُلقِّبُ ، وينتصب السَّوءةَ على أنَّه مفعول معه ، فيكون من باب : جاء البَرْدُ والطَّيالِسةَ . والتَّقدير : لا أُلقِّبه اللَّقبَ مع السَّوءة . ويَجرى هذا المجرى قولُه تعالى : ﴿ فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ، لأنّ المعنى مع شركائكم . ويكون المراد : لا أجمعُ بين اللقب وما يسوءه من فُحش الكلام . فهذا وجهٌ للنصب . ويجوز أن يكون انتصاب السَّوءة على

---

(١) يروى : « والسوءة اللقب » على الابتداء والخبر ، كما يروى تاليه « ملاك الشيمة الأدب » ، على جعل الجملة مفعولا ثانياً لوجدت ، ومفعوله الأول ضمير الشأن المحذوف ، أو على أن « وجدت » معلق عن العمل فى اللفظ بلام الابتداء المقدرة ، والجملة بعدها من المبتدأ والخبر سدت مسدّ مفعولى وجد . انظر الخزانة (٤ : ٥ — ٧) .

(٢) النبز ، بالتحريك : اللقب ، وجمعه أنباز .

المعنى ، كأنَّه قال : ولا آتى السَّوءة ، فعمل فيه معنى لا ألقبه ، فيكون على هذا من باب :

يا ليتَ بعلَكِ قد غدا متقلِّدًا سيفاً ورُمحا[1]

و : * عَلَفْتُها تِبنًا وماءً بارداً[2] *

ويجوز أن يكون السَّوءة مفعولاً به ، وقد عمل ما قبل الواو فيه ، كما تقول : ما زلتُ وزيداً حتَّى فَعَل كذا ، أى ما زِلتُ بزيدٍ حتَّى فعل . وتقدير الباب فى هذه أَكْشَفُ من تقديرِ مَعَ وإنْ تقارَبَ معنياهُما ، كأنَّه قال : لا ألقبه اللقبَ بالسَّوءة . ويقال : سمَّيته كذا وبكذا ، ولقَّبته كذا وبكذا . قال الله تعالى : ﴿ ولا تَنَابَزُوا بالأَلقَابِ ﴾ . وإن رُفع فارتفاعه يجوز أن يكون بالابتداء ويكون الخبر مضمَرًا ، كأنَّه قال : والسَّوءةُ ذاك ، يعنى إنْ لقَّبته فالفحش فيه[3] . ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره اللَّقبا ، ويكون مَصدرًا كالجَمَزَى والوَكَرَى وما أشبهَهُما . والمراد : والفُحش استعمال اللَّقب معه ، ويكون تفظيعاً للأمر لو فَعل . ويجوز أن يكون خبرَ مبتدإ محذوف ، كأنَّه قال : لا أُلقبه اللقبَ ، وهو السَّوءة . وهذا أقربُ . والسَّوءة : الفَعْلَةُ القبيحة . قال الشَّاعر :

---

(١) ويروى : « يا ليت زوجك » . ويروى : « ياليت بعلك فى الوغى » . والبيت لعبد الله بن الزبعرى كما فى حواشى ابن القوطية على الكامل ١٨٩ . وانظر الكامل ٢٠٩ ، ٤٠٣ وأمالى المرتضى (٤ : ١٧٠) والإنصاف لابن الأنبارى ٣٥٧ ، وأمالى ابن الشجرى (٢ : ٣٢١) والخزانة (١ : ٣٣٠) والمخصص (١ : ١٣٦ / ١٤ : ٢٣٢) .

(٢) أى وسقيتها ماء بارداً . والبيت لم يعرف قائله . وهو عند العينى (٤ : ١٨١) والمرتضى (٤ : ١٧٠) وابن الشجرى (٢ : ٣٢١) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٣١٤ والخزانة (١ : ٣٣٠ ، ٤٩٩) . قال البغدادى : « وأورده العلامة الشيرازى ، والفاضل اليمنى ، صدراً وجعل المذكور عجزاً هكذا :

لما حططت الرحل عنها واردا علفتها تبناً وماء باردا

وجعله غيرهما صدراً وأورد عجزاً هكذا :

علفتها تبناً وماء بارداً حتى شتت همالة عيناها » .

(٣) كذا فى ل ، وفى الأصل : « به » .

(٤) هو أبو زبيد الطائى ، كما فى مقاييس اللغة واللسان (سوأ) .

* يا لَقَوْمِ للسَّوْءةِ السَّوْآءِ[1] *

ويسمَّى الفَرْج السَّوْءَةَ ، لقبحه . وفى القرآن : ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ . ويقال : سَوْءةٌ لِفلانٍ[2] ! دعاء عليه .

٤١٥

وقال رجلٌ من بنى قُرَيع[3] :

١ — مَتَى ما يَرَ النَّاسُ الغَنِىَّ وجارُه   فَقيرٌ يَقُولُوا عاجزٌ وجَلِيدُ

٢ — ولَيسَ الغِنَى والفَقْرُ مِنْ حِيلةِ الفَتَى   ولكن أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وجُدودُ

أخرج هذا الكلام مَخرج الإنكارِ لما تعوَّدَه النَّاس فى الحكم على الأغنياء والفُقراء . فيقول : ممَّا يَقضِى به النَّاسُ على الغنىِّ وإلى جنبه فقيرٌ ، أنْ يقولوا : هذا من عَجْزِه أُتِىَ ، وهذا لجلادَتِه أُغْنِىَ . وهذا خطأٌ ، لأنَّ الغنَى والفقرَ مما قَدَّر الله تعالى وأجْرَى به قَسْمَه فى خلقه ، وليس المعتَمَد فيه على احتيالهم ، وسَعيهم واجتهادهم ، لكنها جدود وحظوظ دُرِّجوا عليها ، وخُلِقوا لها ، على ما عَرَفَ الله تعالى من صالح خَلْقه .

وجوابُ « متى ما يَرَ » قوله « يقولوا » . وارتفع عاجزٌ على أنَّه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنَّه : هذانِ عاجزٌ وجليدٌ .

٣ — إذَا المَرءُ أعْيَتْهُ المُرُوءةُ ناشِئاً   فَمَطْلَبُها كَهْلاً عَلَيْـهِ شَدِيدُ[4]

(١) صدره : * لم يهب حرمة النديم وحقت *

(٢) فى الأصل : « سوءة فلان » ، صوابه فى ل ، واللسان (سوأ ٩١) .

(٣) هو المعلوط السعدى القريعى ، كما فى عيون الأخبار (٣ : ١٨٩) . وقريع ، من بنى كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . الاشتقاق ١٥٥ ، ١٥٠ . وقد صرح به ابن جنى فى التنبيه حيث قال : « قال المعلوط بن بدل القريعى : إذا المرء أعيته » ، وأنشد البيت الثالث .

(٤) ابن جنى : « أعيته السيادة » .

٤ — وكائِنْ رَأَيْنَا مِنْ غَنِيٍّ مُذَمَّمٍ وصُعْلوكِ قومٍ ماتَ وهو حَميدُ

قوله « إذا المرء أَعْيَتْهُ » بعثٌ وتحضيض على النُّهوض فى طلب المعالى فى ابتداء النّشء ، وحين كان فى القُوَّة فَضلَةٌ ، وفى العمر مُهلَةٌ ، حتى تتلاقَى أوائلُ عُمره وأواخرُه فى طلب الرِّياسة ، وإقامة المروءة ، وأنَّه إن دافعَ بما عليه فى ذلك وماطَلَ انتظاراً لأحوالٍ تجتمع [له[1]] ، فا كتهلَ ولمّا تساعدْه تلك الأحوال فإنَّه يتعذّر عليه طلبُها ، ويشتدُّ عليه إدرا كها . وانتصب « ناشئاً » على الحال ، والعامل فيه أَعْيَتْهُ . ويقال : فَتًى ناشئٌ ، أى شابٌّ . قال الخليل : ولا يوصف به الجارية . والنَّاشئة : أوّلُ الوقت[2] ، من هذا . وينتصب « كَهْلًا » على الحال أيضاً ، والعامل فيه مطالبُها ، لأنَّ المعنى مطلبُه لها وهو كهلٌ ، فالمصدر مضافٌ إلى المفعول ، أو مطلبه لها إذا كان كَهْلًا ، ومثله : هذا تَمْرًا أطيبُ منه بُسرًا .

وقوله « وكائنْ رأينا » كائنْ بمعنى كمْ . وكأنَّه أخذ يفضِّل الفقرَ إذا جرى صاحبهُ فى محمود الطَّرائق من التجمُّل ، والا كتفاء والتَّعَفُّف ، على الغِنَى وصاحبُه يَبْطَر ، ويطغَى ويأشَر ، ثم لا يؤدِّى حقَّ النِّعمة عليه ، فقال : كم من غَنِيٍّ ساعدَتْه الدُّنيا والأقدار ، ثم أصبح مذمَّمًا حينَ لم يلتزمْ شُروطَ محمودِ الغِنى ، وكم من فقيرِ قوم لما جَرى فى مَيدان العَفَاف والتجمُّل ، والرِّضا بحالِه والتشكُّر ، مات وهو حميدُ الطريقة ، رضىُّ السَّريرة . والصُّعلوك : الفقير . ويقال : صعلَكتُه ، أى ذهبتُ بمالِه كلِّه .

(١) التكملة من ل .

(٢) أى فى نحو قوله تعالى : « إن ناشئة الليل » .

٤١٦

وقال بعضهم(١) :

١ — وأَضْحَتْ أُمورُ الناسِ يَغْشَيْنَ عَالِمًا بِمَا يُتَّقَى منها وما يُتَعَمَّدُ

٢ — جديرٌ بأَلَّا أَسْتَكِينَ ولا أَرَى إِذَا الأَمرُ وَلَّى مُدْبِرًا أَتَبَلَّدُ

قوله « يغشَين عالماً » أى يغشين منّى عالماً ، لأن العالِم هو هو ، فحذف منّى . والمعنى : إنّى باشَرت الأمورَ العظيمة ، ولابَست الخطوبَ الجليلة ، فصرتُ بطُولِ تجربتى ، واتّصال ممارستى ، عالما من أمور الناس إذا وردتْ أخبارها(٢) علىّ بما يُتحامى منها ويُحذَر ، وما يُتمنَّى منها فيُطلب . فلا جَرَم أنّى خليقٌ بألا أَضرعَ عند نوائب الدّهر ولا أخضع ، ولا أرَى إذا فاتنى أمرٌ أتحسَّرُ فى إثره وقد وَلّى ، وأَضربُ بَلْدَةَ إحدى كفّىَّ بالأخرى(٣) ، توجُّعاً وتلهُّفا ، إذا كنتُ واثقاً بأنّ الأمور يملِكها التغيُّر ، وأن الفائت يُتلافَى ، فلا يدومُ شىء على حالٍ إلا ريثَ ما يتسلّط عليه انتقال .

وقال الدُّريدى : تبلّدَ الرّجلُ ، إذا تحيّر فى أمره فأقبل يضرب بَلْدَةَ نحره بيده . وبَلْدةُ النّحر : الثُّغرة وما حَوَاليها . وقال الخليل : التبلُّد : نقيض التجلُّد وهو استكانةٌ وخُضوع . وبَلُدَ الرجل ، إذا انكسَرَ(٤) فى العمل وضَعُفَ .

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) ل : « أخبارهم » .

(٣) البلدة ، بالفتح : راحة الكف .

(٤) كذا فى ل ، وفى الأصل : « إذا نكس » .

٤١٧

وقال آخر :

١ ـ وإنَّكَ لا تَدْرِى إذا جاء سائلٌ أأنتَ بما تُعطيهِ أم هُوَ أسْعَدُ

٢ ـ عَسى سائلٌ ذُو حاجةٍ إن منعتَهُ من اليوم سُولًا أن يكونَ له غَدُ

٣ ـ وفى كثرةِ الأيدِى لِذِى الجهْلِ زاجرٌ ولَلحِلْمُ أبقَى لِلرِّجالِ وأعْوَدُ

هذه الأبياتُ تشبه قولَ الآخر :

وأكرِمْ كريمًا إن أتاكَ لحاجةٍ لعاقبةٍ إن العِضَاهَ تَرَوَّحُ[١]

وقول الآخر[٢] :

لا تُهِينَ الفقيرَ علّكَ أنْ تَركَعَ يومًا والدَّهرُ قد رَفَعَهْ

وقوله « أأنت بما تعطيه أم هو أسعدُ » تقديره أأنت أسعد بما تُعطيه أم هُوَ . وأمْ هذه هى المتّصلة المعادِلة لألف الاستفهام ، فانعطَف هو به على أنت . وقد يجىء الخبرُ فى مثله مكرّرًا ، كقول الشاعر[٣] :

باتَ يقاسى أمْرَهُ أمُبرَمُه أعْصَمُهُ أم السَّحيلُ أعْصَمُهْ

فيكون التّكرار فيه على طريق التأكيد . ويجرى « بين » هذا المجرى فى نحو قولهم : بينَ زيد وبين عمْرٍو خلاف ، ولو لم يكرّرْ بينَ لكانَ الوجهَ . والشّاعر يقول : إذا زارَكَ سائلٌ فتوفّرْ عليه ، وليِّنْ قولَكَ وجانبك له ، فإنك لا تعلم أأنت أسعدُ بما يناله منك أم هو ، واعلمْ أنّ المحتاجَ إليك إن منعتَه سُؤْلَهُ وطَلِبتَه فهو حقيقٌ بأن ينال ما منعته فى غده . وقوله « أن يكون له غَدٌ » فى

(١) تروح النبت والشجر : طال . اللسان (٣ : ٢٩٤) .

(٢) هو الأضبط بن قريع السعدى . البيان (٣ : ٣٤١) والمعمرين ٨ ومجالس ثعلب ٤٨٠ والأمالى (١ : ١٠٧) والأغانى (١٦ : ١٥٤) وحماسة ابن الشجرى ١٣٧ والخزانة (٤ : ٥٨٩) والمثل السائر (١ : ٢٦٠) .

(٣) هو الراجز العجاج . ديوانه ٦٤ .

موضع خبر عَسى ، والضمير من له يعود إلى السّائل ، والمعنى : عساه إن منعتَه سؤلَه من يومٍ كان عليه ، أن يكون غدُ ذلك اليوم له ، ولهذا قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وتلكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ ﴾ ، فغَدٌ يرتفع بيكون ، وله فى موضع الخبر .

وقوله « وفى كثرة الأيدى لذِى الجهل زاجرٌ » يريد استَبْقِ إخوانَكَ وذَوِيك ، واعلم أنّ فى التكاثُر بهم مَزْجَرةً للجاهل ، ولتعاوُنِ أيديهم مدفَعَةً لأذَى المغلِّب الخامل . ومع ذلك فالحِلم أبقى شأنًا وأمرًا للرجال ، وأردُّ عليهم وأنفعُ لهم . وهذه الوَصاةُ اشتملَتْ على أمرين : أحدُهما اكتسابُ مودّات الإخوان لكى يكونوا إذا احتيجَ إليهم عَونًا . والثانى استعمالُ الحِلم مع الأعداء ، والجرىُ معهم على حدٍّ لا يُخرجهم إلى المكاشفة ، ولا يُحْوِجُهم إلى خرق الهَيْبة .

وقوله « من اليوم سُولا » ، يقال : أُعطِىَ فلانٌ سُولَه ، فيهمز ولا يهمز .

٤١٨

وقال آخر :

١ — إيّاكَ والأمرَ الذى إن توسَّعَتْ مَدَاخِلُه ضاقَتْ عليك المصادِرُ[١]

٢ — فما حَسَنٌ أن يَعذِرَ المرءُ نفسَه وليس له من سائرِ الناسِ عاذِرُ

انتصب « والأمرَ » بفعلٍ مضمر . وإيّاك نابَ عن أحذِّرك ، فكأنه قال : أحذِّرُكَ أن تُلابِسَ الأمرَ الذى إن توسَّعَتْ موالِجُه ضاقت عليك مخارِجُهُ . والمعنى : تأمَّلْ كلَّ ما تُلابسه ، واعرِفْ أواخرَه وإن اشتَبَهتْ ، كما تَعرفُ أوائلَهُ وإن تبيَّنَتْ ، لأنه يَقبُح بالمرء أن يكون فيما يقتحمُه عند نفسه معذوراً ، وعند الناسِ مَلومًا .

---

(١) التبريزى : « إن توسعت موارده ».

وقوله « فما حسنٌ أن يَعذِر المرء نفسه » فى إعراب « أن يَعذِرَ » وُجوهٌ : أحدهَا أن يرتفع بالابتداء وخبره متقدّم عليه، وهو حسنٌ، لأنّ ما النافية إذا قُدِّم خبرهُ على اسمه يبطُل عمله. ويجوز أن يكون موضعه رفعًا بفعله وفعله حسنٌ، ويرتفع حسنٌ بالابتداء، ويستغنى بفاعِلِه عن خبره، وجاز الابتداء بحَسَنٍ وإن كان نكرةً لاعتماده على حرف النفى. والمعنى : ما يحسُنُ عذرُ المرء نفسَه فيما يتولاّه وليس له من الناس عاذِرٌ. ويجوز أن يرتفع «أن يَعذِر» بأنّه خبر المبتدإ الذى هو حسَنٌ، وهذا أضعفُ الوجوه. ويُروَى: « إن توسَّعَتْ موارده ضاقت عليك المصادرُ ». وقوله « من سائرِ الناس » أى من باقى الناس، وهو من السُّؤْر. ومَن وضَعه موضع الجميع فقد أخطأ.

٤١٩

وقال العباس بن مِرداس[1] :

١ — تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتزْدَرِيهِ وفى أثوابِهِ أسدٌ مَزِيرُ[2]

٢ — ويُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ فيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ

ينبِّه بهذا الكلام على أنّ الرجال ليسوا بجُزُرٍ يُطلَب عِظَمُها وسِمَنُها، لأنّ المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه. فيقول: تَرَى الرَّجلَ النحيفَ المهزولَ الدَّقيق، فتستحقره لضؤولته، وإذا فتَّشت عنه واستشفَفْتَ ما وراء ظاهِره وجدتَه أسداً مزيراً. والمَزِيرُ هو الجَلْدُ الخفيف النافذ فى الأمور. ويُروَى: « يَزِيرُ » وليس بجيِّدٍ من طريق المعنى، فكأنّ أصله يَزْئِرُ فنُقلت الحركةُ إلى الزاء وأُبدِل من الهمزة ياء، كما يقال المَرَاةُ والكَمَاةُ، فى المرأة والكَمْأة. وإنّما ضَعُف من طريق

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣. قال التبريزى: « وقال أبورياش : هذا الشعر لمعاوية بن مالك معود الحكماء الكلابى ».

(٢) التبريزى : « ويروى : مريرٌ، أى قوى القلب شديده ».

المعنى لأنّ تشبيهه إيّاه بالأسد لا فائدةَ لذكر الزّئير معه ، إذ لا تدومُ حالُه على ذلك . ووجهُه على ضَعفِه أن يكون مَوْرِدُ « يَزْئِرُ » تأكيداً للتشبيه ، كما يُستعارُ صفةُ المشبَّهِ به للمشبَّه وإن كان حصولُه لو حصَلَ ذمًّا فيه ، تأكيداً للتشبيه. على ذلك قوله :

* أزَلُّ إنْ قِيدَ وإنْ قادَ نَصَبْ *

والزَّلَلُ من صِفة الذئب . ومثله قول الآخر[1] :

* صَكّاء ذِعْلِبَةٍ إذا استدبرتَها[2] *

والصَّكك من صِفة النّعام .

وقوله « فيُعجبك الطَّرير » فالطرير : الشابُّ الناعم ذو الكِدْنة . فيقول : ويتّفق في الرجال مَن يُعجبك خِلْقتُه ، فإذا بلوْتَهُ وامتحنتَ أخلاقَه وجدتَه لا يصدِّق ظنَّك فيه ، بل يُخلِف ويُخالِف في كل ماتعتمِد عليه ، أو تَكِله إليه .

٣ — فما عِظَمُ الرِّجال لهم بفَخْرٍ ولكن فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وخِيرُ

٤ — ضِعافُ الطَّيرِ أطوَلُها جُسُومًا ولم تَطُلِ البُزَاةُ ولا الصُّقورُ

٥ — بغَاثُ الطيرِ أكثرُها فِراخًا وَأمُّ الصَّقرِ مِقْلاَتٌ نَزُورُ[3]

صَرَّح عن الغرض المقصود فيما تقدَّم فقال : إنما يُحمَد من المرء كرمُه وفضلُه وكثرة محاسِنِه وخِيرُه ، وكلُّ ذلك يرجِعُ إلى الأخلاق لا إلى الخِلَق ، فلا اعتبار بالعِظَم ، ولا فَخْرَ في البَسْطَة إذا حَصَلَتْ في الجسم خاصّةً من دون العلم . ثم أخذ يمثّل فقال : تَرَى الطير ضعافُها كالكراكيّ وطيور الماء أطولُها جُسوماً ، وأمَدُّها أعناقاً وسُوقاً ، ثم كرائمُها كالبُزاة والصُّقور ، وهي تَصِيد

---

(١) هو المسيب بن علس . المفضلية ١١ .

(٢) عجزه : * حرج إذا استقبلتها هلواع *

(٣) نسب هذا البيت في اللسان (قلت) إلى كثير عزة . والبغاث بتثليث الباء .

ما وزنُه يتضاعَف على وزنها . وما طولُه وعَرضه يتزايَدُ على طولها وعرضِها ، ثم بغاثُها وهى صغارُها ومصطادها أكثَر فِراخاً وأوسع نَسْلًا ، وأمُّ الصقر قليلة الفراخ مِقلاتٌ لا يَبقَى لها أيضاً ما تُفرِّخه . وانتصب « جُسوماً » و« وفِراخاً » على التمييز . والمِقلاتُ : مِفعال من القَلَت ، وهو الهلاك . والنَّزُور : القليلة الأولاد ، من النَّزْر ، وهو القليل .

٦ — لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يَستَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

٧ — يُصَرِّفُه الصبيُّ لكلِّ وَجْهٍ ويَحْبِسُه على الخَسْف الجَرِيرُ[1]

٨ — وتَضْرِبه الوَليدةُ بالهَرَاوَى فلا غِيَرٌ لَدَيْه ولا نَكِيرُ

لمّا ضَرَبَ المَثَل بذوات الأجنحة والماشيةِ على رجلين ، عادَ يذكر من ذوات الأربع مثلَ ذلك فقال : ترى البعير مع عِظَمه وقُوّته ، وصبره على النُّهوض بالأعباء الثقيلة ، والأحمال العظيمة ، لمّا لمَ يَصْحَبْ عِظَمه اللُّبُّ ، وقُوَّتَه التمييز ، لم يستغْنِ بما أُعطى من ذلك ، بل تراه مسخَّراً لأنْ يُدِيرَه الصبيُّ على وجهٍ من وجوه التذليل ، ويَحبِسَه زِمامُه على كل خَسْف وهَضْمٍ ، حتى أن الوليدةَ تضربُه أوجَعَ الضرب ، فلا إنكارَ منه ولا ذَهابَ عنه ، ولا تغييرَ إليه ولا نكير لَدَيه .

وقوله « الهَرَاوَى » جمع هِرَاوَةٍ ، ووزنُه فعائل هَرَائى ، لأنَّ فَعِيلة وفِعَالة يشتركان فى هذا البناء من التكسير ، تقول : صحيفةٌ وصحائف ، ورسالة ورسائل ، إلا أنهم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فصار هَرَاءا ، فاجتمع همزةٌ وألفان فكأنه قد اجتمع ثلاثُ ألفات أو ثلاث همزات ، فأبدلوا من الهمزة واواً فصار هَرَاوَى . فإن قيل : هَلّا أبدلْتَ منه الياء ، كما فعلتَه فى مطايا وما أشبهَها ؟

(١) التبريزى : « بكل وجه » .

قلتَ : أرادوا أن يَظهَر فى الجمع الواوُ كما ظهر فى الواحد ليتميَّز بنات الياء عن بنات الواو .

٩ – فإنْ أكُ فى شِرَارِكُمُ قليلاً فإنِّى فى خِيارِكُمُ كَثِيرُ

يقول : إنْ كثَّرَنى شرارُكم وأراذلُكم ، لوفور عددِهم وكونى واحداً فيهم ، فإنى أكثُر خيارَكم وأغلبُهم لقلَّتهم وكثرتى ، وذلك أنى أنُوب عن جماعةٍ إذا عُدَّ الأخايرُ . ويجوز أن يريد أنه لا خيارَ لكم ، فأنا وإنْ كنتُ واحداً من حيثُ العدد ، كثيرٌ إذا طُلِبَ الخيار منكم ، إذْ لم يكن لكم خيار .

وقد مَضَى القول فى غير موضع فى حذف النون من لم أكُ وإن أكُ .

٤٢٠

وقال بعضهم :

١ – أعَاذِلَ ما عُمْرِى وهَل لِى وقد أتَتْ لِدَاتى على خَمْسٍ وستِّين من عُمْرِى

٢ – رأيتُ أخَا الدُّنيا وإن كان خافضاً أخَا سَفَرٍ يُسْرَى به وهو لا يدرى

٣ – مُقِيمينَ فى دَارٍ نَرُوحُ ونغتدى بلا أُهْبَةِ الثَّاوِى المقيمِ ولا السَّفْرِ

وقوله « ما عُمْرِى » استفهامٌ على طريق التَّحقير والاستقلال ، فكأنَّ العاذلةَ كانت عتبَتْ عليه فى تبذيرٍ وإنفاق ، وخوَّفَته العواقبَ وما تؤدِّى إليه باتِّفاق ، فأخذ يُجيبُها ويقول : يا عاذلةُ ، أىُّ شىْءٍ عُمْرِى ، وكيف يدوم بقائى حتَّى أخوَّفَ بالفقر ، وهل لى عُمْرٌ وأقرانى يَعُدُّون خمساً وستين سنة . ثم أخذ يَذُمُّ الحريصَ على الدنيا وأعراضها ، ويَقُصُّ ما تَستوى فيه أقدامُ الخلائق من إرصاد الفَناء لها فقال : رأيتُ صاحبَ الدنيا وإن كان متودِّعاً مقيما ، كالمسافرِ يُسار به وهو لا يعلم ؛ وذلك لأنَّ له أجَلاً يُسَاق إليه ، ومُنْتَهًى من العمر يُحال عليه ، فالأيام تأخذ

منه ، وتنقص من عمره ، فهو كالمسافر وقد انتوى نِيّةً فما يقطعه من المسافة يُقرِّبه من مَقْصَده ، ويُعجِّل وصولَه إلى أمده .

وقوله « مقيمين فى دارٍ » انتصب على الحال من قوله « أخا الدنيا » ، لأنّه أراد به الكثرة ، فهو كأسماء الأجناس . وقال : « نَروح ونَغتدى » لأنّه من إخوان الدُّنيا ، فأدخل نفسه فيهم . وقوله « بلا أُهبةِ الثّاوى المقيمِ ولا السَّفرِ » يريد : لا نأمُل البَقاء فى هذه الدنيا ، ولا نأمَن الفَناء ، فلسنا كالثّاوى فنتأهّبَ أهبتَه ، ولا كالمسافر فنُعِدَّ عُدَّتَه . وأراد بالثّاوى المقيم الكثرةَ لا الواحد . وقد تقدّم القَول فى حقيقة العُمْر[1] .

٤٢١

وقال بعضُهم[2] :

١ — لا تَعترِضْ فى الأمرِ تُكفَى شُؤونَه ... ولا تَنْصَحَنْ إلّا لِمَنْ هُوَ قابِلُهْ

٢ — ولا تَخْذُلِ المَوْلَى إذا ما مُلِمّةٌ ... ألمّتْ ونازِلْ فى الوَغَى مَنْ يُنازِلُهْ[3]

يوصِى مخاطَبَه بأن يُعرِضَ عن الأمر الذى لا يَعنيه ، ويترُكَ الاعتراضَ فيه ، وألاّ يتنصّحَ إلاّ لمن يرجو قبول[4] النُّصح منه ، وبألاّ يخذُلَ ابنَ عمِّه إذا

(١) كذا وردت هذه العبارة فى هذا الموضع ، وحقها أن تكون تعليقا على البيت الأول لا الأخير .

(٢) هو عبيد بن أيوب العنبرى ، كما فى مجموعة المعانى ١٤ . وعبيد بن أيوب : أحد بنى العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جنى جناية فطلبه السلطان وأباح دمه ، فهرب فى مجاهل الأرض وأبعد ، لشدة الخوف . وكان يخبر فى شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعى ، ويأكل مع الظباء والوحش . الشعر والشعراء ٧٥٨ واللآلئ ٣٨٣ .

(٣) بعده عند التبريزى ومجموعة المعانى :

ولا تَحرِم المولى الكريم فإنه ... أخوك ولا تدرى لعلك سائله

(٤) فى الأصل : « تبرك » ، صوابه فى م .

نزلت به نازلة ، بل يُنازِل مَن ينازله ، ويناوئُ مَن يناوئه . وهذا على طريقتهم في قولهم : « انصُر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً » . وأصل الوغَى هو الجلَبة والصَّوت . وقوله « في الأمر تُسكْفَى شؤونَه » يريد تُسكفى أسبابَه وجوانبه . والضمير من « قابِلَه » لما دلَّ عليه قوله لا تنصَحَنْ ، وهو النُّصْح .

٤٢٢

وقال مَنظور بن سُحَيم[1] :

١ — ولَسْتُ بِهاجٍ في القِرى أهلَ مَنْزِلٍ على زَادِهم أبْكي وأُبْكي البَوا كيا

٢ — فإمَّا كِرَامٌ مُوسِرُونَ أتيتُهمْ فحَسْبِيَ مِنْ ذِي عِندَهُمْ ما كفانيا[2]

٣ — وإمَّا كِرَامٌ مُعْسِرُونَ عَذَرْتُهمْ وإمَّا لِئامٌ فادَّكرتُ حَيائيا

يصف نفسَه بالتعفُّف عن المطامع الدنيَّة ، والمطاعم الذَّميمة ، فيقول : لا أهجو بسبَبِ القِرَى ، وهو ما يُقدَّم إلى الضَّيف ، ولا أشكو أهلَ دارٍ فأبكي على ما يفوتُني مِن زادهم وأُبكي غيري معي . وقوله « أبكي وأُبكي البوا كيا » لا بُكاءَ ثَمَّ ، وإنَّما أرادَ تفظيع التأسُّف . فيريد : لا آسَفُ لما أرى من الحِرمان أسفَ مَن يَبكي ويُبكي غيرَه تهالُكاً على مالِ غيره ، وتوجُّعاً لشدَّة نَهْمته .

وقوله « فإمَّا كِرامٌ » فصَلَ بين حرف الجزاء والفِعل بقوله كرام ، فارتفع بفعلٍ مضمر دَلَّ عليه الفعل الذي بعده ، كأنَّه قال : فإما يُقْصَدْ كِرَامٌ موسرون أتيتُهم . وقوله « فحسبي » في موضع الابتداء ، و « ما كفاني » في موضع الخبر ،

---

(١) منظور بن سحيم النقعسي الكوفي ، إسلامي ، ذكره المرزباني في معجمه ٣٧٤ — ٣٧٥ . وفي الإصابة ٨٤٦٣ : « منظور بن سحيم بن نوفل بن نضلة بن الأشتر ابن جحوان بن فقعس الأسدي الفقعسي ، ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، وقال إنه مخضرم » .

(٢) التبريزي والمرزباني : « من ذو عندهم » .

والفاء مع ما بعدَه جواب الشرط . وقوله « مِن ذِى عندَهم » أراد من عندهم . والعرب تقول : هذا ذو زَيْدٍ ، يريدون : هذا زَيْدٌ . وهذا من إضافة المُسمَّى إلى الاسم . قال الكُمَيت :

* إليكم ذَوِى آلِ النّبيِّ تَطَلَّعتْ[1] *

يريد يا أصحاب ذا الاسم . وقال الأعشى :

فكذَّبوها بما قالَتْ فصَبَّحَهُمْ ذو آلِ حَسّانَ يُزْجِي الموتَ والشَّرَعا

أى العسكر الذى يقال له آل حسّان .

ويروى : « مِن ذو عِندَهم » ويكون ذو بمعنى الذى ، وعندهم فى صلته ، وذو هذه طائيّة . والمعنى : لا يخلو مَن أقصِدُهُ وأنزِلُ بهِ من وجوه : إمّا أن يكونوا قوماً يرجعون إلى كَرَمٍ ويَسَار ، فيتوفَّرون عَلَيَّ حَسَبَ مايقتضيه كَرَمُهم وأكتفِى مِن الذى عندهم لى بما يَكفينى ، وإمّا أن يكونوا كِراماً مُضِيقِينَ[2] أثّر الدهر فيهم، فأعذِرَهم لإضاقتهم ، وعلى بحالهم . فقوله «وإمّا كرام معسرون» بيانُه : وإمّا قُصِدَ كرامٌ مُضِيقُون عذرتُهم فى تقصيرهم ، وإمّا أن يكونوا قوماً لئاماً فى أخلاقهم دناءةٌ ، وفى أعراقهم نَذَالة ، فتذكّرتُ حيائى وصيانَتى لنفسى ، فلم أبذلْ لهم وجهى ، ولم أبتذلْ بتقاضيهم ومُطالبَتهم جاهى .

٤ — وعِرْضِيَ أبْقَى ما ادَّخَرْتُ ذَخِيرَةً وبَطْنِيَ أطْوِيهِ كَطَيِّ رِدَائِيا

قوله « أبقَى ما ادّخرتُ » ما فى موضع الجرّ ، كأنّه قال : عِرْضِى أبقى شىء أدّخره ذخيرة ، أى اكتسبه ذخيرة . فعلى هذا ينتصب « ذخيرة » على الحال

(١) عجزه كما فى الهاشميات ٣٩ :

* نوازع من قلبى ظماء وألبب *

(٢) مضيقين ، بالقاف من الإضاقة ، وهى العسر . وفى الأصل : « مضيفين » بالفاء صوابه فى ل .

المؤكِّدة لما قبله . وادَّخَر : افتعَلَ من الذُّخر لكنه أُبدل من التاء دالاً فأدغم الذَّال فيه ، فلك أن تقول ادَّخر ولك أن تقول اذَّخَر .

وهذا الكلام بيانُ ما يأخذ به نفسَه من الصيانة والقَناعة ، وسُلوكِ طرائق الانقباض عمّا يَشِين ولا يَزِين من الانبساط إلى الاثام . فكأنه قال : أُبَقِّي على عِرضِي ، لأنَّه أعزُّ الذخائر لي ، وأطوِي بطني عن المآكل المُردِية كما أطوِي ردائي ، إذْ كان التزهُّد فيما يُخزِي أولَى عِندي .

٤٢٣

وقال سالم بنُ وابصة[1] :

١ — ونَيْرَبٍ مِن مَوالي السّوءِ ذي حَسَدٍ   يَقتاتُ لَحْمِي وما يَشْفِيهِ من قَرَمِ

٢ — داوَيتُ صَدْرًا طويلا غِمْرُه حَقِدًا   منهُ وقَلَّمْتُ أظفارًا بِلاَ جَلَمِ

النَّيرب : النميمة والعداوة وقوله « ونَيربٍ » أراد وذي نيرب ، والمصدر وما يجرى مَجراه إذا وُصِفَ به إمَّا أن يكون على حذف المضاف ، وإما أن يُجعَل الموصوفُ نفسَ الحدَثِ لكثرة وُقوعه منه . فيقول رُبَّ ذي نيربٍ حَسودٍ من موالي السّوء ، يَغتابُني بظهر الغَيب ، ويأكل لحمي ولا يَشفيه ذلك من قَرَمٍ . والقَرَم : شَهوة اللحم . والمعنى أنه لا يَكفيه ما يتناول منِّي وإن كان لا يألو جُهداً في ثَلْبِي . وجواب رُبَّ قوله « داويت » من البيت الثاني . ويقتات : يفتعل من القُوت ، وهو فِعل المطاوَعة . ويقال : قاتَه كذا فاقتاته .

ومعنى « داويتُ صدراً طويلا غِمْرُه » أي صابرتُه على مُداجاته وانطوائه على حقدي ، فدفعتُ شرَّه عن نفسي بطول مداواتي ، وفَلَلت حدَّه بترك

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٢٤٤ ص ٧١٠ .

مكاشَفتِه حتّى لم يجد إلى إثارة كامِن غِمْرِه طريقاً ، فاحتاج إلى الإمساك عن أذاتى ، لدوام تمسُّكى بمجاملته شاء أو أبى . وقوله حَقِداً هو اسم الفاعل من حَقِد ، وهو لغةٌ فى حَقَد . يقال حَقَد يَحقِد فهو حَقُود ، وحَقِد يَحقَدُ فهو حَقِدٌ .

٣ — بالحَزْمِ والخِيرِ أَسْدِيه وأُلحِمُه تَقْوَى الإلهِ وما لَمْ يَرْعَ من رَحِمِى[(١)]

٤ — فأصبحَتْ قوسُه دُونى مُوَتَّرَةً يَرْمِى عَدُوِّى جِهارًا غيْرَ مُكْتَتِمِ

الباء من قوله « بالحزم » تعلّق بقلَبْتُ أو داويتُ من البيت المتقدّم . والخِيرُ : الكَرَم ، وقيل : هو الهيئة والطبيعة ، يقال : هو كريم الخِيم والخِير جميعاً . وقوله « أُسْدِيه وأُلحِمه » خبرَانِ لُفَّ أحدُهما بالآخر . فقوله « تقوى الإله » يرجع إلى أُسديه ، و « ما لم يَرْعَ من رَحِمِى » رجع إلى أُلحِمُه . والمعنى : داويتُ صدرَه أى مكنونَ صدرِه ، وقلَبْتُ ظُفرَه باستعمال الحزم والخِير معه ، ثم جعلتُ تقوَى الله تعالى سَدَى ما بينى وبينه ، وأُلحِمتُه رعايةَ ما ضَيَّعه من الرَّحِم ، فلا جَرَمَ أنه كفَّ من شأْوِ شرِّه وغَرْب عداوته ، وأقبَلَ فى الظاهر يُعادى من يُعادينى ، فقوسُه الآن موتَّرَةٌ دونى يرمى منها أعدائى بأسهم النُّصرةِ ، مجاهَرةً لا مكاتَمةً .

٥ — إنّ من الحِلْمِ ذُلاًّ أنتَ عارِفُه والحِلْمُ عن قُدْرَةٍ فضلٌ من الكَرَمِ

نبَّهَ بهذا الكلام على أن تحلُّمَهُ عن أدانيه كان عن قُدْرةٍ لا عن عجز ونَقيصة ، ولو شاء لانتقَمَ منهم . وأنه لم يُكسِبْه إمساكه عن مجاذبتهم ذُلاًّ ، ولو كان يُفضِى به الحالُ إلى ذلك لما فَعَلَ ، فتحلُّمه كرَم ، وإبقاؤه على ما يَجمعه وإيّاهم من قُربَى وقرابةٍ تُقًى وتفضُّل . وقوله « فضلٌ من الكرم » يريد أنه نوعٌ من الفضل يُعَدّ فى خصال الكَرَم . ومثل هذا قول الآخر :

---

(١) التبريزى : « من رحم » .

جَهُولٌ إذا أزْرَى التَّحَلُّمَ بالفَتَى حَلِيمٌ إذا أزرى بذى الحسَبِ الجهلُ

٤٢٤

وقال بعضهم :

وأُعْرِضُ عن مَطاعِمَ قد أَرَاها فأتْرُكُها وفى بَطْنِى انْطِوَاءُ

فلا وأَبِيكَ ما فى العَيْشِ خَيْرٌ ولا الدُّنيا إذا ذَهَبَ الحَيَاءُ[١]

يماثل هذا قول الآخر :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه حتى أنال بِهِ كَرِيمَ المَطْعَمِ[٢]

قوله « وأظَلُّه » يريد أظلُّ عليه ، فحذف حرف الجر ، كما قال :

* لولا الأُسَى لَقَضانِى[٣] *

أى لقضى علىّ .

٤٢٥

وقال نافعُ بن سعدٍ الطائى :

١ – ألم تَعْلَمِى أنّى إذا النَّفْسُ أشْرَفَتْ على طَمَعٍ لَمْ أنْسَ أنْ أتَكَرَّما

٢ – ولَسْتُ بلوّامٍ على الأمرِ بَعْدَما يَفوتُ ولكنْ عَلَىَّ أن أتقدَّما

---

(١) بعده عند التبريزى :

يَعيشُ المرء ما استحيا بخَيرٍ ويبقَى العُودُ ما بَقِىَ اللِّحاءُ

(٢) المعروف فى الرواية : « وكريم المأكل » . وهذه الرواية المعروفة فى بيت عنترة ، فى اللسان (ظلل) وديوان عنترة ١١٩ . وانظر مقاييس اللغة (٣ : ٤٣٠) .

(٣) البيت لأعرابى من بنى كلاب ، كما فى الكامل ٢١ ليبسك واللسان (غرض ، قضى) . وصدره :

* تحن فتبدى ما بها من صبابة *

يقول : أمَا علمتِ من أخلاقى الكفَّ عن كثيرٍ من المَبَاغى الجالبةِ لقالَةِ الناس وتصرُّفهم فى الحكم عليه وله ، وأنّى إذا أمكننى الفوزُ بالمطامع القريبة والمآكلِ المنيئة ، فأشرفتُ منها على تحصيلها لم أنسَ أخذَ النَّفس بالنظر فيها ، واستعمالَ الكرَم فى تركِ ما يَجمع علىَّ عاراً منها . وقوله « على طَمَعٍ » أى على مطموع فيه ، ومنه قيل لأرزاق الجند : أطماعهم .

وقوله « ولَسْتُ بلوّامٍ » يقول : إذا فاتنى أمرٌ لا أرجِعُ على نَفْسى باللّوم الكثير تحسُّرًا فى إثرِه ، لكننى حقيقٌ أن أتقدّم فى تحصيله قبلَ فواته إن كان مما يُهِمّ . وقوله « ولكنْ عَلَّ » هو أصل لَعَلَّ ، وهو حرفٌ موضوعٌ للطمع والإشفاق ، واسمه مضمر كأنه قال ولكن لعلنى أن أتقدم . وهو يجىء بأنْ وبغير أن ، فإذا كان معه أن أفاد فائدة عَسَى ، وإذا جاء بغير أن كان الفعل أقرب وقوعاً ، لأنّ أنْ للاستقبال ، ولعلّ وإنْ كان حرفاً يُعدّ مع أفعال المقاربة وهى عسى وكاد . ولوّام بناء المبالغة ، وليس بمبنِىّ على لوّم لأن المبنى عليه هو مُلَوِّمٌ .

٤٢٦

وقال بعض بنى أسد[1] :

١ - إنِّى لأستغنِى فما أبطَرُ الغِنَى وأَعْرِضُ مَيْسورِى على مُبْتَغِى قَرضِى

٢ - وأَعْسِرُ أحياناً فتَشْتَدُّ عُسْرَتِى فأُدْرِكُ مَيْسورَ الغِنَى ومعى عِرضى

٣ - وما نالَها حتى تجلَّت وأسفَرتْ أخُو ثِقَةٍ منِّى بقَرْضٍ ولا فَرْضِ[2]

---

(١) هو الحكم بن عبدل الأسدى ، كما فى أمالى القالى (٢ : ٢٦٠) ، وقال : « اجتمع الشعراء بباب الحجاج وفيهم الحكم بن عبدل الأسدى ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، إنما شعر هذا فى الفأر وما أشبهه . قال : ما يقول هؤلاء يا ابن عبدل ؟ قال : اسمع أيها الأمير . قال : هات . فأنشده » . وروى هذه القصيدة .

(٢) روى بعده التبريزى :

وأَبْذُلُ مَعروفى وتصفو خليقتِى إذا كَدِرتْ أخلاقُ كلِّ فتًى محضِ

يعدّد فى هذه الأبيات عاداته فى حالتى الغِنى والفقر ، فقال : إنّى أنالُ الغِنى فلا يَكْسِبنى أشَرًا ولا بَطَرًا ، لكنى أشكر الواهبَ وأبقَى على حالتى الأولى ، بل[1] يقرّبنى ما أنالُه من المتّصلين بى ، والمنضمّين إلىّ بسبب من الأسباب ، فأعرِضُ ما يتيسر لى على طُلاّب قرضى ، وأُشرِكُ مَن يمتُّ إلىّ فى الخير المُتاح . وقد يتعقَّب الإيسارَ إعسارٌ فى الوقت بعد الوقت ، فأصبرُ وإن اشتدَّ عُسْرى ، وأُسْبِلُ على نفسى جَناحَ[2] تجمُّلى وتعفُّفى حتى أدركَ ميسورَ الغِنَى ونفسى معى ، لم أبتذِلْها ولم أدنِّسْها بتعريضٍ أو تصريحٍ لمُفْضِلٍ أطلُبُ بهما عنده مَطْمَعا ، وأجتلب مرغَبا .

وقوله : « وما نالها » يريد وما نال تلك العُسرة أخٌ لى يُوثَقُ بودّه لا بعاريةٍ ولا بعطيَّة ، إلى أن انكشفتْ وفارقت .

وقوله « أبْطَرُ الغِنى » معناه أبطَرُ فى الغنى حتّى أذهبَ عن سَنَنَ الشُّكر فأتجاوزَه وأخلِّفَه ورائى ، غَمْطًا للنِّعمة ، أوجهلا بحقِّ الصَّنيعة . وقال الله تعالى : ﴿ وكَمْ أهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعيشَتَها ﴾ . وقوله « أعرِضُ ميسورى » وضَعَه بلفظ المفعول للمصدر ، يريد اليُسر . ومثله ماله معقولٌ . وضدّه حُمِل عليه وهو العُسر ، فقيل معسور . وإنما قال « ومعى عِرضى » لأنّه إذا صانَه عن القبائح ولم يُسلِّطْ عليه من يتملّكه بهِبَة أو صلَة ، فكأنّه معه لم يفارقْه . ولو أجراه على غير هذا لكان مفارقًا له ، وداخلاً فى مَلَكة غيره .

٤ — ولكِنَّهُ سَيْبُ الإلٰه ورِحلَتِى وشَدِّى حَيازِيمَ المَطِيَّةِ بالغَرْضِ

الهاء من قوله « ولكنّه » يعود إلى ميسور الغنى . واستدرك النّفى من قوله « ما نالها حتّى تجلّت » بقوله لكنّ ، يريد : لكنّ الغنى المتجدِّد ، وهو عطيّة

---

(١) فى الأصل : « فلو » ، صوابه فى ل .

(٢) فى الأصل : « جزاء » ، صوابه فى ل .

الله تبارك وتعالى ، وتقلُّبي وارتحالى ، وشدى حيازيمَ المطايا بالغُروض . كأنَّه ذكَرَ الأسباب التى يسَّرت له الغِنى ، وأنّها لم تخرُجْ من تفضُّل الله تعالى واجتهاده . وقوله « المطيَّة » أراد بها الجنْس ، لذلك قال « حيازيم » وجمعها . والسَّيْب : العَطاء والمعروف ، وكثُر فى الاستعمال حتَّى سُمّى الكنوزُ سُيُوباً ، وقيل لما تخرجه المعادِن سُيوب . والغَرْضُ والغُرْضَة : البِطان ، وهو للبعير بمنزلة الحِزام للدَّابة . والمَغْرِض منه كالمَحْزِم .

٥ — وأَستَنْقِذُ المَوْلى من الأمْرِ بَعدما ... يَزِلُّ كما زَلَّ البَعِيرُ عن الدَّحْضِ

٦ — وأَمْنَحُه مالِى ووُدِّى ونُصْرتى ... وإن كانَ محىَّ الضُّلوع على بُغْضى[1]

يقول : إنِّى أتعطَّف على أبناء عمِّى ، فأُخلِّصهم من الشَّدائد ، وآخُذ بأضباعهم إذا زلّتْ أقدامُهم ، فأُقيمُهم بعد أن كانت زلَّتُهم كزَلّة البعير عن المَزْلقة . وإنَّما خَصَّ البعير لأنَّ سقطتَه أفظع وأسرَعُ فى الزَلَل . يقال : مكانٌ دَحْضٌ ومَدْحَضَةٌ . ودحَضَتْ رِجلُ البعير ، إذا زَلِقَتْ . قال :

* وحِدْتُ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ[2] *

---

(١) بعده عند التبريزى :

ويغمرُه حِلمى ولو شئت نالَه ... قوارعُ تَبرِى العظمَ عن كَلِمٍ مَضِّ

وأَقضِى على نفسى إذا الأمرُ نابنى ... وفى الناسِ من يُقضَى عليه ولا يَقضِى

ولستُ بذى وجهين فيمن عرفتُه ... ولا البخلُ فاعلم من سمائى ولا أرضى

وإنى لسهلٌ ما تغيِّرُ شيمتى ... صُروفُ ليالى الدهر بالفَتْل والنَّقْض

(٢) البيت لطرفة فى ديوانه ٤٨ واللسان (دحض) . وصدره فى الديوان :

* أبا منذر رمت الوفاء فهبته *

وفى اللسان :

* رديت ونجى اليشكرى حذاره *

ومنه : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ أى لا تثبت . ودَحضت الشَّمسُ عن كَبِد السماء : زالَتْ .

وقوله « وأمنحه مالى » يريد : أنّى بعد استنقاذى إيّاه أتوفَّر عليه ببذل المال ، وإخلاصِ الود ، وتقريب النُّصرة ، وإن كان منطوياً على العَداوة والبغضاء .

وقوله « محنىّ الضُّلوع » أى معطوفها . ويقال : حَنَيْتُ الشىء وحَنَوْتُه حَنْياً وحَنْوًا ، فهو مَحْنِىٌّ .

٤٢٧

وقال حاتِمٌ الطَّائى[١] :

١ — وما أنَا بِالسَّاعِى بِفَضْلِ زِمَامِها لِتَشْرَبَ مَاءَ الحَوْضِ قَبْلَ الرَّكائِبِ[٢]

٢ — وما أنَا بِالطَّاوِى حَقِيبةَ رَحْلِها لِأَبْعَثَها خِفًّا وأترُكَ صاحِبِى[٣]

يقول : لا أجتذب إلى نفسى الفضلَ مع خلطائى وشركائى فى الشُّرب وغيره فلا أتسرّع فى الوُرود مستعجِلاً براحلتى لتشرب ماء الحَوض قبل وُرود ركائبهم . ومعنى قوله « بالسَّاعِى بفضل زمامها » السَّابقُ بما أُعْطِى راحلتى مِن زمامِها .

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى . وكان من شعراء الجاهلية ، وبه كان يضرب المثل فى الجود ، وأخباره فى ذلك كثيرة مشهورة . انظر الأغانى (١٦ : ٩٢ — ١٠٥) وشرح شواهد المغنى ٧٥ والخزانة (١ : ٤٩٤ — ٤٩٥) والشعراء ١٩٣ — ٢٠٣ . والبيتان من أبيات فى ديوانه ١١٨ .

(٢) فى الديوان : « ما فى الحوض » .

(٣) فى الديوان : « لأركبها خفا » . وبعده عند التبريزى :

إذا كنتَ ربًّا للقلوص فلا تدَعْ رفيقَك يمشى خلفَها غير راكبِ

أنِخْها فأردفه فإنْ حَملتكُما فذاكَ وإن كان العقابُ فعاقبِ

العقاب : أن يتناوب المسافران الدابة يركب كل منهما عقبته . والعقبة ، بالضم : النوبة .

وهذا مثَل . والرَّكائب : جَمع رَكوبٍ ، وهو اسمٌ يجمَعُ ما يُرْكَب ، ويقال : رَكُوبة ، فهى كالحلوبة والحَمُولة ، وتقع للواحد والجمع .

وقوله « وما أنا بالطَّاوِى حقيبةَ رحلِها » ، يقول : وإذا كان لى رفيقٌ فى السَّفَر وسَئمت جَنَابى له ، ولا أُركِه يمشِى وقد خفَّفْت حقيبةَ رحلِ ناقتى طلباً للإبقاء عليها ، ولكنِّى أُردِفُه أو أُرْكِبُه . والحقيبة : ما يُشَدُّ خلفَ الرَّحْلِ . قال :

* والبِرُّ خَيْرُ حَقيبةِ الرَّحْلِ[1] *

والفعل منه احتقَبَ واستَحقَب . واستُعير فقيل : احتقَب إثْماً . قال :

فاليومَ فاشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحقِبٍ إثْمًا من الله ولا واغِــلِ[2]

٤٢٨

وقال آخر :

١ – وإنِّى لَأَنْسَى عِنْدَ كلِّ حَفِيظَةٍ إذَا قِيلَ مَوْلاَكَ ، احتمالَ الضغائنِ

٢ – وإنْ كانَ مَوْلًى ليسَ فيما يَنُوبُنِى مِن الأمرِ بالكافِى ولا بِالمُعَاوِنِ

يصف نفسَه بأنَّ الحقد ليس من طَبْعه ولا عادته ، فيقول : إنِّى أُشفِقُ على مَوَالِىَّ حتَّى إذا اتَّفق لواحدٍ ما يحتاج منى إلى مَعونةٍ نَسِيت سيِّئته ، ولم أحتمِلْ فى صدرى له ضِغْنهُ ، فأخَذْتُ بيده وأعنتُه على دهره ، وإنْ كانَ فيما ينوبُنى ليس بكافٍ لى ولا مُعين ، إذ كنتُ أُوجِبُ له بكونه مَوْلًى ما يُنْسِى تباغُضَه وجفاءه . والحَفيظة : الخَصْلة يُحفَظُ لها الإنسانُ ، أى يُغضَب . ويقال : « أهلُ

---

(١) البيت لامرئ القيس بن حجر ، كما فى الشعراء ٦١ .

(٢) وهذا أيضا لامرئ القيس فى ديوانه ١٥٠ . ويروى : « فاليوم أسق » . ويروى أيضاً : « فاليوم أشرب » ببناء الفعل على السكون ، أو بتقدير علامة الإعراب . انظر الخزانة (٣ : ٥٣٠ – ٥٣٢) .

الحفائظ أهل الحِفاظ » ، لأنّهم يُحامونَ من وراء إخوانهم . وانتصب « احتمالَ » بِأَنْسى . والضَّغائن : جمع الضَّغينة ، وقد مرَّ ذِكرُها .

٤٢٩

وقال آخر[1] :

وإنِّى لَعَفٌّ عن مَطَاعِمَ جَمَّةٍ إذا زَيَّنَ الفَحشاء للنَّاسِ جُوعُها

قد مضى له نظائر .

٤٣٠

وقال آخر :

١ — ومَوْلًى جَفَتْ عَنْهُ المَوالى كأنّهُ مِنَ البُوسِ مَطْلِىٌّ به القَارُ أَجْرَبُ

٢ — رَئِمْتُ إذا لم تَرأَمِ البازِلُ ابنَها ولم يَكُ فيها المُبِسِّينَ مَحْلَبُ

يقول : رُبَّ ابنِ عمٍّ زهِد أقاربُه فى الإحسان إليه فاطَّرحوه وانثَنَوْا عن الفِكر فيه والتوفُّر عليه ، نُبُوًّا عنه وعن اصطناعه ، فأثَّر فيه البؤس ، وأحاطَ بجوانبه الشَّقاء والضُّرّ ، حتى صار كالبعير الجرِب وقد طُلِىَ بالقار ، هيئةً ولوناً ، وضُؤولةً وانخزالا ، وتباعداً عن الناس وتجافياً ، أنا عَطَفْتُ عليه ، وأشركتُه فيما وهَبَ الله لى فى وقتٍ من الزَّمان لا يُؤْوِى[2] أحدٌ من أهله غيرَه ، لِشُمول القَحط ، وغَلَبة الضُّرّ والفقر ، حتى أنَّ النُّوقَ تؤْثِر التباعُدَ عن أهلها فلا تَرأَمُها ، وترَى الذين يُبِسّون بذوات الألبان عند الحَلَب ، لا يَجِدُون فى ضَرعها خيراً . ويقال : بَسَّ بالناقة وأبَسَّ ، إذا دَعاها للحَلَب . ومن أمثالهم : « لا أفعلُ

(١) هذه الحماسية ذات البيت الواحد لم يروها التبريزى .

(٢) فى الأصل : « يروى » ، صوابه فى ل .

كذا ما أبَسَّ عَبْدٌ بناقةٍ[١] » ، أى دعاها للحَلَب . ويقال : رَئِمَتِ الناقةُ رِئْمانًا ، إذا عطَفَتْ .

٤٣١

وقال عروة بن الورد[٢] :

١ – دَعِينى أُطَوِّفْ فى البِلادِ لَعَلَّنى أُفِيدُ غِنًى فيه لِذِى الحَقِّ مَحْمِلُ

٢ – أليسَ عظيمًا أنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وليسَ علينا فى الحقـوقِ مُعَوَّلُ

يُخاطب عاذلةً له فيما هَمَّ به من التَّرحال فى طلَب المال ، فقال : اتركينى وما أختارُه من التَّجوال ، والتنقُّل فى البُلدان ، طَمَعًا فى خيرٍ أستفيدُه ، وغِنًى أستجدُّه ، لكنْ إذا نابَنا ذو حَقٍّ وجَدَ على مالِنا مَحْمِلا ، وعلينا فى التزام واجِبِه مُتَّكَلاً ؛ لأنَّ مَن جالَ نال ، ومن قَرَع بابًا وجَدَ وُلُوجًا ، وأوَّلُ دَرَجِ الحِرمان الوقوفُ عند أدنى الهِمَّتين ، وآخرها الرِّضا بأوْدَع العَيشَين .

وقوله « أليس عظيما » يريد تقريرها على فَظاعةِ الفقر والفاقة ، وقَباحة إمساكِ الناس عن تعليق الرَّجاء بهم والطَّاعة ، فقال : ألا تستعظم[٣] أن تَنُوبَ الحىَّ نائبةٌ فلا يُعوِّلون علينا فى الاحتمال عنهم ، ولا يرتجون منّا تعطُّفًا عليهم ، لاتِّضاع حالِنا ، وتأكُّد اليأسِ من نَيلِنا . وقوله «أُفيد» بمعنى أستفيد . وأليس يقرَّر به فى الواجب الواقِع ، وأن تُلِمَّ فى موضع الرَّفع بليس .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « بناقه » .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسة ١٤٥ ص ١٢١ . والبيتان فى ديوانه ١٠٦ .
(٣) هذا على الالتفات . والوجه « ألا تستعظمين » .

٤٣٢

وقال آخر :

تَثَاقَلْتُ إلا عن يَدٍ أَستَفيدُها وخُلَّةِ ذى وُدٍّ أشُدُّ به أزرِى

هذا فى طريقةِ ما تقدَّم . والمعنى : أنِّى أتباطأ عن المطالب والمَباغى كلِّها إلا إذا اتفق مَصنعٌ عند حُرٍّ ، فإنى أتسرَّع إليه ، وأتخفَّف فى تحصيله ، مخافةَ أن يفوز به غيرى ، لأن اعتقاد المِنَن فى أعناق الرِّجال أعُدُّه غنيمةً تُغتَنَم ، وفائدةً تُدَّخَر ؛ وإلاَّ صَداقةَ أخٍ وَديدٍ أعتمدُها فى مدافعةِ شَرّ ، ولاشتدادِ أزْرٍ ، فإنى أجمعُ يَدِى عليها ، ولا أصبرُ على المزاحمة فيها . ويقال : شَدَّ فُلانٌ أزْرَه ، إذا شد مَعقِدَ إزارِه . ويقال : آزَرَه على أمرِه ، إذا ظاهرَهُ وعاونَه عليه .

٤٣٣

وقال عبدُ الله بن الزَّبِير[1] :

١ – لا أحسِبُ الشَّرَّ جاراً لا يُفارِقُنِى وَلاَ أحُزُّ على ما فاتَنِى الْوَدَجا

٢ – وما نَزَلْتُ مِن المكروهِ مَنْزِلَةً إلاّ وَثِقْتُ بأن أَلْقَى لها فَرَجا

يصف حُسنَ ثقتِه بربِّه ، وجميلَ ظنِّه بتفضُّله ، وأنه قد جَرَّب وتَبصَّر ، وعَرَف من أعقاب الأمور ما جعلَه لا يَذِلُّ لنائبة ، ولا يتخشَّع لنازلة ، فلا يظنُّ الشَّر إذا بُلِىَ به ضربةَ لازِمٍ[2] لا يُخالِف ، وجارَ سَوء لا يُفارِق . قال : وإذا فاتَنى أمرٌ وإن جَلَّ لا أُهلِكُ أسَىً فى إثْرِه ، ولا أقتلُ نفسى جَزَعًا

---

(١) التبريزى : « عبد الله بن الزبير الأسدى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٢٢ ص ٩٤١ .

(٢) ل : « ضربة لازب » ، وهما سيان .

لفَوته ، ولا أنزِلُ من مَظانٍّ للمكارِه منزلةً إلاّ وثقتى بتلَقّى الفرَج وتعجُّله على أقرب مسافةٍ منى . والوَدَجان : عِرْقانِ يقطعُهما الذابح . ويقال : وَدَجْتُ الدّابّةَ ، إذا أصبْتَ وَدَجَها .

٤٣٤

وقال مالكُ بن حَزيم[1] :

١ – أُنْبِئتُ والأيّامُ ذاتُ تجارِبٍ ... وتُبْدِى لكَ الأيّامُ ما لَسْتَ تَعْلَمُ

٢ – بأنَّ ثَرَاءَ المَالِ يَنْفَعُ رَبَّهُ ... ويُثْنِى عليه الحَمْدَ وهو مُذَمَّمُ

٣ – وأنَّ قَلِيلَ المالِ للمرءِ مُفْسِدٌ ... يَحُزُّ كما حَزَّ القطيعُ المُحَرَّمُ

٤ – يَرَى دَرَجاتِ المَجْدِ لا يَسْتَطِيعُها ... ويَقْعُدُ وَسْطَ القوم لا يتكلَّمُ

قوله « والأيّامُ ذاتُ تجارب » اعتراضٌ وقعَ بين أُنبِئت ومفعولَيه ، وهما فى قوله « بأنّ ثَراء المال ينفع ربه » لأنَّ أُنبِئت ونُبِّئت وأخواتِها كلٌّ واحدةٍ منها تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . وقوله « وتُبدِى لك الأيّامُ » اعتراضٌ ثانٍ وإن عُطِفَ على ما قبلَهُ . والمعنى أنَّ الأيّامَ واللَّيالِىَ تفيد أربابَها تجارِبَ بما يحدُث فيها من الحوادث ، ويتحوّل من الأحوال ، وتُعلِمهم بما ينكشف عنها ويشتمِل

(١) هذا ما فى الأصل . وفى ل : « خريم » . وفى شرح التبريزى والقاموس (حرم) ونوادر أبى زيد ٩٦ وأمالى القالى (٢ : ١٢٣) : « حريم » ، وهو مظهر من مظاهر اختلاف الرواة فى اسمه . وفى سمط اللآلى ٧٤٨ : « واختلف فى مالك بن حريم الهمدانى ... فقال ابن النحاس : قال لى نفطويه : هو مالك بن خزيم بالزاى . قال : وقرأت على أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فى بيت أنشده له : مالك بن خريم بالخاء المضمومة المعجمة والراء المهملة المفتوحة . . . . وكذلك كان محمد بن يزيد يقول مالك بن خريم . وقال الهمدانى : هو مالك حريم » . ومالك بن حزيم : شاعر جاهلى إسلامى : كما فى اللآلى . وهو مالك بن حزيم بن مالك بن حزيم بن دالان الهمدانى .

عليها من غوامض الأمور وخفيّاتها ، ما لا يخطُر لهم ببال ، ولا يؤدّيه إليهم رَسْمٌ ولا مِثالٌ . فيقول : أُخْبِرْتُ والأيّام هذه حالها أنّ كثرةَ المال ، والتوسُّع في الحال ، يَرجِحان بالنّفع على صاحبهما فيصوِّرانه بصورة المشكور والمحمود ، وإن كان عند التّحقيق والتحصيل مشكوًّا مذموما ؛ وأنّ في قِلّة المال مَفْسَدَةَ لحالِ المُقِلّ وجاهِهِ ونفسه ، حتّى يبريَه ويقطعه بَرْيَ السَّوط الجديد الذي لم يليَّن بَعْدُ ، المضروبَ به ، فتراه يَبخَعُ نفسَه ، ويتخشّع لِلاقِيهِ والنّاظرِ إليه ، ويَلزَم السُّكوتَ في نادي الحيِّ فلا يَنبِسُ تماوُتًا وتصاغرًا ، إذ كان قد عَلِمَ من نفسه أنّه لا يستطيع التّرقِّيَ في مدارج الفَضْل والإفضال ، وأنّه تَقْعُدُ الحالُ به عن النُّهوض بما ينهض به أماثِلُ الرِّجال ، فهو يُسلِّم الأمرَ لهم ، ويَبرأ من التّدبير إليهم .

وقوله « بأنَّ ثراء المال » تعلّق بأُنبيت بأنّ الأمر كذا وأنّ الأمر كذا . والقَطيع : السَّوْط . والمُحَرَّم : الذي لم يُمَرَّن بَعْدُ .

٤٣٥

وقال محمد بن بَشِير[1] :

١ — لَأَنْ أُزَجِّيَ عِنْدَ العُرْيِ بالخَلَقِ وأَجْتَزِي من كثيرِ الزّادِ بالعُلَقِ

٢ — خَيْرٌ وأَكْرَمُ لي من أن أرى مِنَنًا خَوالدًا لِلِئامِ النّاسِ في عُنُقي[2]

يصِفُ رضاهُ بيسيرِ الحظِّ من الدُّنيا ، وعَفافَهُ عن كثيرِ ما يَسْتَغْني عنه فيتوقّى ، فيقول : لَأَنْ أتبلّغ عند التّعرِّي باكتساء الخَلَق ، وأكتفي من الزّاد الكثير بما يمكن به سدُّ الفاقة — أصْوَنُ لي وأَرَدُّ عليّ مِن أن أرى مِنَنًا معقودة في عُنُقي ، مُثقِلةً لظَهري ، باقيةً على أعقاب الزمان لِلِئامِ الناسِ عندي . والعُلَق :

---

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ .

(٢) التبريزي : « مننا معقودة » .

جمع العُلْقة، وهى اليسير من الشىء يُتَبَلَّغُ به ويَتَعَلَّقُه المحتاجُ إليه. ويجوز أن يكون من عَلِق يَعْلَقُ، إذا رَعَى. ومنه الحديث: «إنَّ أرواحَ الشُّهداء لَتَعْلَقُ فى الجنة» وتكون العُلْقة كالغُرفة والطُّعمة وما أشبههما. وقوله «لأن أزجِّىَ» اللام لام الابتداء، وأن أزجِّى مبتدأ وخبره قوله «خَيْرٌ وأكرمُ بى».

٣ — إنِّى وإنْ قَصُرَتْ عن هِمَّتِى جِدَتى   وكانَ مَالِىَ لا يَقْوَى على خُلُقِى

٤ — لَتَارِكٌ كلَّ أمْرٍ كانَ يُلْزِمُنِى   عَارًا ويُشْرِعُنِى فى المَنْهلِ الرَّنِقِ

نَبَّهَ على تمام الظَّلَف والعفاف إذا أُخِذَ به الإنسان، فيقول: أنا وإنْ عَجَزَتْ غُنْيَتِى عمَّا توجبه همَّتى، وكان فى حالى قُصُورٌ عما يدعو إليه خلُقى، مُعْرِضٌ عن كلِّ أمْرٍ إذا نلتُه رجع منه عارٌ علىَّ أُذْكَرُ به، ويوردُنى مشارعَ الكدر، فإذا صدَرْتُ عنها لم أتهنَّأْ بشربى منها. ولك أنْ تروى: «فى مَنْهَل الرَّنَق» فيكون المنهل مُضافاً إلى المصدر، ولك أن تَرْوِى: «فى المَنْهل الرَّنِق» بكسر النون فيكون صفةً له. والمَنْهَل: موضع النَّهَل. والناهِلُ: العطشان، والرَّيَّان جميعاً. والوُجْدُ والجِدَةُ: مصدر وَجدتُ، فى المال. ويقال: شَرَعت فى الماء، إذا خُضْتَ. وأشْرَعَنِى فيه فلانٌ وشرَّعنى أيضاً. وفى المثل: «أهْوَنُ الوِرْدِ التَّشْرِيعُ».

٤٣٦

وقال أيضاً:

١ — ماذا يُكلِّفُكَ الرَّوْحَاتِ والدُّلَجَا   البَرَّ طَوْرًا وطَوْرًا تركبُ اللُّجَجَا

٢ — كَمْ من فتًى قَصُرَتْ فى الرِّزْقِ خُطْوَتُهُ   ألْفَيْتَهُ بِسِهامِ الرِّزْقِ قد فَلَجَا

قوله «ماذا» لفظةُ استفهام، والمعنى الإنكار، ويجوز أن يَكون «ما» مع

ذا بمنزلة اسمٍ واحد مبتدأ ، ويكلّفك خبره . ويجوز أن يكون وَحْدَهُ اسماً ، وذا في موضع الخبَر ، ويكلّفك من صلته ؛ كأنه قال في الأوّل : أيّ شيء يكلّفك ، وفي الثاني : ما الذي يكلفك السَّيرَ في اللّيل والنَّهار متّصلا ، لا تفتُر تركَب البرَّ تارةً ، والبحرَ أخرى . والرَّوْحات : جمع الرَّوْحة ، وهو يريد به السَّيرَ رَواحاً . والدَّلَجُ والدُّلجة : السَّير بالليل . وقوله « طَوْراً » انتصَبَ على الظَّرف ، والبَرّ انتصبَ بفعلٍ مضمَر دلَّ عليه الفعلُ الذى بعده . واشتقاق الطَّوْرِ من قولهم : لا أطور به ، ومن طَوَار الدَّار ، وهو ما كان ممتدًّا معها .

وقوله « كم من فتًى » أفادَ كَم التَّكثيرَ ، والكلام خبر ، والمراد : كثيرٌ من الفتيانِ تَودَّعوا في منازلهم ، وقَصُرَت خُطُواتهم للسَّعى في طلَب أرزاقهم ، أُلْفُوا قد نالُوا ما غَلَبوا به الجِدَّ في الطَّلَب ، المتعِبَ نفسه في التَّنَقُّل . ومعنى فَلَجَ : غَلَبَ . وسهام الرِّزْقِ ، يراد بها قِداح الرِّزق ، كأنَّه فاز لَمّا خرجَ له عند الإجالة بما غَلَب به مُقامِرَهُ ومُزَاحِمَهُ . ويجوز أن يريدَ بسهام الرِّزق ما حُظَّ له من الحظّ ، وأُسهِمَ له وقُسِمَ في الرِّزق .

٣ — إنَّ الأمورَ إذا انسدَّتْ مَسالِكُها ‏ ‏ فالصَّبْرُ يفتِقُ منها كلَّ ما ارتَتَجا

٤ — لا تيأسَنَّ وإن طالَتْ مُطَالَبَةٌ ‏ ‏ إذا استَعَنْتَ بصبرٍ أن ترَى فَرَجا

يقول : استَعِنْ بالصَّبرِ في كلِّ ما تزَاوله وتراوده[١] ، فإنَّ الأمورَ إذا انسدَّت طرقُها ، وأعيَت الحِيَلُ في تحصيلها ، فإنَّ الصَّبرَ يسهِّلُ مدارجَها ، ويوسِّع مَوالِجَها ، ويَفتَح ما انغلَقَ منها ، ويَفْتُق ما ارتَتَق من أسبابها ، ولا يتسلَّطنَّ عليك من اليأس ما يفتِّر عزمَك ، أو يقصِّرُ سَعيَك ، وإنْ دامَتْ مطالبتُك ، واتَّصلَتْ مواظبتك . واعتقدْ أنَّ الفرجَ يتلقَّاك ، والنُّجحَ بأقرب

---

(١) هذا الصواب من ل . وفي الأصل : « وترادفه » .

المنازلِ منك ؛ فإنّكَ إذا فعلتَ ذلك فُزْتَ بكلّ ما ترومُه ، وتعجّلَ لك كلُّ ما تهواه . وقوله « أن ترى » فى موضع المفعول من تيأسَنّ . وقوله « فالصبر يَفْتُق» جواب إذا ، وخبر إنّ الأمور فى الشرط والجواب . ويقال رتَجْتُ البابَ وأرْتَجْتُه ، إذا أغلقتَه ، وباب مُرْتَجٌ ومَرْتُوجٌ . والرِّتاجُ : البابُ نفسُه .

٥ — أَخْلِقْ بِذِى الصَّبْرِ أنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ ... ومُدْمِنِ القَرْعِ لِلأبوابِ أن يَلِجَا

٦ — أَبْصِرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَنْ عَلَا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلِجَا[1]

يقول : إنّ مُدْمِنَ الصَّبْرِ فى الأمور ، ومُلازِمَ التثبُّتِ والتلوُّم عند الخطوب[2] حقيقٌ بأن يظفَر بطَلِبَته ، وبنجاحِ السَّعى فى مَرَامِه وبِغْيَتِه[3] . كما أنّ من أدام قَرْعَ أبوابِ مَداخله ، وغَمْزَ مفاصلَ آرابِه ، حقيقٌ بوُلوجه ووصوله ، ومَعرفةِ مُتِيح ما يرجوه ومُرِيحه .

ثم قال : وإذا سعيتَ فى أمْرٍ فاعرفْ مواطئَ قَدَمِكَ قبل أن تتلوَها ، ومواقعَ خَطوِكَ قبل أن تَعدُوَها ، واقسِمْها بين نظَرِكَ واختبـارِك[4] ، وتحقيقِك وحَدْسِك ؛ فإنّ مَن ركِبَ مَزْلقةً عن غِرَّةٍ وغَفلة ، يُوشِكُ أن يسقُط ليديهِ وفمِه ، وتزلَّ به قدمُه إلى قَرار هَلَكته وحَينه . والزَّلَجُ : السُّرعة فى المشى والسُّقوطِ وغيرِه . وفرسٌ زَلُوجٌ : سريع السير . وكذلك يقال قِدْحٌ زَلُوجٌ . ومزلاج الباب : الخشبَةُ التى يُغلقُ بها .

---

(١) التبريزى : « قدر لرجلك » . وبعده عنده :

ولا يَغُرَّنْكَ صَفْوٌ أنتَ شاربُهُ ... فرُبّما كان بالتَّكدير ممتزجا

(٢) التلوم : الانتظار والتلبث .

(٣) البغية ، بضم الباء وكسرها . وضبطت فى النسختين بالكسر .

(٤) ل : « واختيارك » .

٤٣٧

وقال آخر(١):

١ ـ لجِجْنَا ولَجَّتْ هَذِهِ فى التَّغَضُّبِ وشَدُّ الحجابِ بَيْنَنَا والتنقُّبِ(٢)

٢ ـ تَلُومُ على مَالِ شَفَانِى مَكانُهُ إلَيْكِ فَلُومِى ما بَدَا لَكِ واغْضَبِى

كانَ هذا الشَّاعرَ اطَّلَع من أحوال أيتام أخيه على ما ساءه وأنِفَ منه ، ثمَّ دعاه التَّحنُّن والإشفاقُ ممَّا يتداولُه الناسُ فى مجالسهم من أحاديث البِرِّ والعُقوق ، وتصرُّفهم فى صَرْف المَقْتِ إلى مستحقِّه ، والحمدِ إلى مكتسِبه ، إلى أنْ أمرَ عَبدَيْهِ الرَّاعيينِ بإراحة ما رَدَّا إلى فنائه مِنْ مَسارح إبلِهِ عليهم(٣) ، فاغتاظَت امرأتُه من ذلكَ وأنكرَتْ فِعلَه ، وخوَّفَته فى أثناء ملامها بالفَقر وهجرَتْه ، فأخذ يقتصُّ ما كان منها ومنه فقال : تمادَت امرأتى فى الغَضَب والهجران ، واللَّوم والاحتجاب ، وكلُّ ذلك منها فى مَالٍ شفانى موضعُهُ الذى وضعتُه فيه ، ومَصْرِفُه الذى صرفْتُه إليه . ثُمَّ أقبل عليها مستهيناً بها وبفِعلها فقال : إليكِ فلومى ما بد لَكِ . والمعنى : اجمعِى أمرَكِ ، واستمرِّى فى عَتْبِكِ وغضَبِك ما بدَالك ، فانَّ الرَّشادَ فيما آثرتُه ، والصَّلاحَ فى قِرَانِ ما اخترتُه . و « إليك » : اسمٌ من أسماء الأفعال هنا ، كما يكونَ عليك ، وعندك . ولذلك عَطَفَ عليه قوله « فلومى » . و « ما بدالك » فى موضع الظَّرف . وقد تقدَّمَ القولُ فى أمثاله .

---

(١) هو حجية بن المضرب . وفى التبريزى : « وحدث ابن كناسة أن حجية ابن المضرب كان جالساً بفناء بيته ، فخرجت جارية بقعب فيه لبن ، فقال لها : أين تريدين بالقعب ؟ فقالت : بنى أخيك اليتامى فوجم وأراح راعياه إبله ، فقال : اصفقاها نحو بنى أخى ، ثم دخل منزله فعاتبته امرأته فقال . . . » .

(٢) التبريزى : « ولط الحجاب دوننا والتنقب »

(٣) كتب بجوارها فى ل بخط دقيق : « يعنى بنى أخيه » .

٣ ــ رأيْتُ اليَتامَى لا تَسُدُّ فُقُورَهُمْ   هَدَايَا لَهُمْ فى كل قَعْبٍ مُشَعَّبِ (١)
٤ ــ فَقُلْتُ لِعَبْدَيْنَا أرِيحَا عَلَيْهِمُ   سأجْعَلُ بَيْتِي مِثْلَ آخرَ مُعْزِبِ
٥ ــ عِيَالِي أحَقُّ أن يَنَالُوا خَصَاصَةً   وأن يَشْرَبُوا رَنْقاً إلى حين مَكْسَبِي (٢)

يعنى باليتامى أولاد أخيه المتوفَّى . يريد : رأيتهم لا تَسدّ مَفاقرَهم ولا تقيمُ مُخْتَلَّ أحوالهم ، تُحفٌ تُوجَّه إليهم ، وهدايا تُحْمَلُ نحوهم فى قِعابٍ مشعوبةٍ . يشير بذلك إلى ما كانت امرأتُه تتولاَّه وتأتيه من بِرِّهم وتفقُّدهم قبل ذلك . وفى قوله : « هدَايا لهم فى كلِّ قعبٍ مُشَعَّبِ » إزراء بصنيعها ، وبالألبان المنقولة إليهم وظُروفِها . وجَمع الفقُورَ لاختلاف وجوهها .

وقوله « فقلتُ لِعَبْدَينا » يعنى راعِيَيه اللّذين أمرَا بِسَوْقِ الإبل المردودة من المراعى إلى فِناء أولاد أخيه . وإنَّما ثنَّى على عادتِهم فى تثنية مزاوِلِى أعمالهم ، كالبائن والمستعلِى فى الحَلَب وما أشبههما . وقوله : « سأجعلُ بيتى مثلَ آخر » ، يريد مثل بيتٍ آخرَ وقد عَزَبتْ إبله وتباعدَتْ ، فإنّ عيالى ولهم كاسبٌ مثلِى أحقُّ بمزاوَلة الفقر ، ورثَاثة العيش ، والصَّبْرِ على المَشْرَب الرَّنق ، إلى أن أكْسِبَ ما تعودُ به حالهم إلى ما ألِفُوهُ من الخِصْبِ والسَّعة ، والخَفْض والدعَة . ويقال : أعْزَبَ الرَّجلُ ، إذا عَزَبَتْ عنه إبلُه فى المرعَى .

٦ ــ ذكرتُ بِهِمْ عِظامَ مَنْ لَوْ أتيتُه   حَرِيباً لآسانِي لدَى كلِّ مَركَبِ (٣)
٧ ــ أخُوكَ الَّذِي إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ   يُجِبْكَ وإن تَغْضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ (٤)

(١) ل : « لا يسد » . (٢) التبريزى :

بَنِيَّ أحَقُّ أن يَنالوا سَغَابةً   وَأن يشربوا رنقاً لدَى كلِّ مَشربِ

(٣) التبريزى : « ويروى : حوت بها قبر امرىء لو أتيته » .
(٤) التبريزى :

أخى والذى إن أدعُه لمُلمَّةٍ   يُجِبْنِي وإن أغضَبْ إلى السَّيف يَغضبِ

قال أبو رياش : وفيها :

فلا تحسَبِينِي بُلْدُماً إن نكَحتِهِ   ولكنَّنى حُجَيَّة بن المُضَرّب

يقول : تذكَّرتُ بهؤلاء الأولادِ أيام الذى لو أتيتُه محزوناً مسلوباً ، ومُتعَباً بأعباء الفقر مَبْهوراً ، لضمَّنى إلى صدره ، وشمِلَنى تضاعيفُ بِرِّه ، وجعلنى إسوةَ نفسِه فى كلِّ ما أركبُهُ ، والمُسْعَفَ بِطَلِبَته عند جميع ما أخطُبُه ، لأنَّ الأخ الكامِل الأخوَّة هو الذى يشدّ أزرَكَ ، ويحمِى ظهرَكَ ، وإن دعوتَه لنائبةٍ تنوبُ أجابَكَ سريعاً ، وإن أعمَلْتَ سيفَكَ أعمَلَ سيفَه معه حثيثاً .

٤٣٨

وقال المُقَنَّعُ الكِنْدِىُّ[١] :

١ — يُعاتِبُنى فى الدَّيْنِ قَوْمِى وَإِنَّمَا ... دُيُونِىَ فى أَشْيَاء تَكْسِبُهُمْ حَمْدَا

٢ — أَسُدُّ به ما قد أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا ... ثُغورَ حُقوقٍ ما أطاقُوا لها سَدَّا

٣ — وفى جَفْنَةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دُونَهَا ... مُكَلَّلَةٍ لَحْمًا مدفَّقَةٍ ثَرْدَا

٤ — وفى فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُه ... حِجابًا لِبَيْتِى ثم أَخْدَمْتُهُ عَبْدَا

كأنَّ قومَه ينعَون عليه[٢] سَرَفه فى الإنفاق ، وتخرُّقَهُ فى الإفضال ، وتجاوُزَه ما تُساعِدُه به حالُه وتتَّسعُ له ذاتُ يدِه إلى الاستقراض ، وبذلِ الوجه فى الادِّيَان[٣] ، فقال : كثُرتْ لائمتُهم فيما يركَبُنى من الدُّيون ، وإنما هى مصروفةٌ فى وجوهٍ مُؤَنُها علىَّ ، وجَمالُها لهم ، وقضاؤها فى أنفسِها يَلزَمُنى ،

(١) اسمه محمد بن ظفر بن عميرة . وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، وكان له محل كبير وشرف ومروءة وسؤدد فى عشيرته . ويزعم المؤرخون أن العلة فى لزومه القناع ما كان يخاف على نفسه من العين ، فقد كان أحسن الناس وجهاً ، وأمدهم قامة ، وأكملهم خلقاً ، فكان إذا سفر أصابته أعين الناس فيمرض ويلحقه عنت . الأغانى (١٥ : ١٥١) والشعراء ٧١٥ — ٧١٦ واللآلى ٦١٥ — ٦١٦ .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : «كان قوم يعيبون عليه» .

(٣) الاديان ، افتعال من الدين .

ومحامدُها موفَّرة عليهم . ثمَّ أخذَ يعدِّد فقال : من تلك الوجوهِ أنَّ ما يَنُوبُ من الحقوق فيُخِلّون بها ويضيِّعونها عجزاً عن الوفاء بواجبها ، أنا أَسُدُّ ثغورَها ، وأُقيم فروضَها .

ومنها : أنَّ لى دارَ ضيافة قُدورُها مُشْبَعة موفورة ، وجفانُها معَدَّة منصوبة ، لا يُمنَع منها طالبُها ولا يُحجب عنها رائدها ، فلُحانُها كالأكاليل على رءوسها ، وثرائدها قد نُمِّق تدقيقُها .

ومنها : أنَّ بفنائى فرساً مربوطاً قد أُعِدَّ للمهمَّات ، على عادةِ أمثالى من الأكابر والرُّؤساء . ولكَرمِه وما يتوفَّر عليه من إكرامى إيَّاه قد صار كالحِجاب لباب بيتى ، وقد شَغَلتُ بخدمته عَبْدًا يتفقَّده برأى منِّى ، لا أُهمِلُه ولا أُغفُل عنه .

قوله : « مدفَّقة » أى مملوءة . والأحسن أن يُروى معه : « ثُرْداً » بضم الثاء . ويروى « مدقَّقةً ثَرْدَا » بفتح الثاء . والمراد مثرَّدةٍ ثَرْداً دقيقاً . والنَّهْد : الجسيم المُشْرِفُ من الخيل .

٥ـ وَإنَ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَ بَنِى أَبِى ... وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمُختلِفٌ جِدًّا[(١)]

٦ـ فإنْ يأكلوا لَحمِى وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِى بنيتُ لهم مَجْدَا[(٢)]

٧ـ وَإنْ ضَيَّعُوا غَيْبِى حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّى هَوِيتُ لهمْ رشْدَا

٨ـ وَإن زجروا طَيرِى بنَحْسٍ تَمُرُّ بِى ... زَجَرْتُ لهمْ طَيْرًا تَمُرُّ بهم سَعْدَا[(٣)]

ذكر بعد ما عَدَّد معاذيره[(٤)] فيما أنكروه عليه ، أنَّ إخوتَه وأبناء عمِّه

---

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فإن » .
(٢) التبريزى : « فإن أكلوا » .
(٣) كذا فى ل والأصل . وعند التبريزى : « وإن زجروا طيراً » .
(٤) ل : « معاذره » . والثلب : العيب . والإذالة : الإهانة .

يحسدونه ويأتمرون العداوةَ والغَوايةَ له ، وهو يُصابِرُهم ويُجامِلُهُم ، ويتغابَى معهم ، فقال : إنَّ مابينى وبينهم فى طرَفَىْ نقيض ، وعلى لونٍ من الخِلاف عجيب ؛ فإنهم إن اغتابُونى وتطعَّموا لحمى أمسكْتُ عنهم ، وتركْتُ أعراضهم موفورة ، لم يتخوَّنْها منِّى إذالةٌ ولا ثَلْب[1] ، وأعراضهم محفوظة لم يتحيَّفْها تحامُلٌ ولا غَضٌّ . وإن سَعَوْا فى نَقْضِ ما أبرمْتُه من مَسْماةٍ كريمة ، وهدْمِ ما أسَّسْتُه من خُطَّةِ مَجْدٍ عليَّة ، جازيتُهم بابتناء شَرَفٍ لهم مستحدَث ، وإعلاءِ شأنٍ لهم مستأنَف . وإن أهملوا غَيبى فلم يُراعُوهُ بحُسنِ الدِّفاع عنه ، وإسباغِ ثَوب الحماة عليه حَفِظت أنا غيبَهم ، وأرصَدْت الغوائل لمن اغتالهم . وإن أحبُّوا لىَ الغوايَةَ ، والتَّسكُّعَ فى الضَّلالة والبَطالة ، اخترتُ لهم المَراشِد ، وهويت فى مَباغيهم المَناجح . وإن تمنَّوْا لىَ المَنْحَسَة ، وزَجروا من بَوارح الطَّير وسوانحها فى المشأمة ، جعلْت عِيافتى لهم فيما يمُرُّ بى منها المَسْعَدة والطِّيَرَةَ الحميدة . وقوله : « سَعْدًا » صفة لطيْرًا .

٩ ــ وَلا أَحمِلُ الحِقْدَ القَديمَ عَلَيهِمُ وَلَيْسَ رَئيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

١٠ ــ لهمْ جُلُّ مَالِى إن تَتَابَعَ لِى غِنًى وَإن قَلَّ مَالِى لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

١١ ــ وَإنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ مادامَ نازِلًا وَما شِيمةٌ لِى غَيْرَها تُشْبِهُ العَبْدَا

أثبت لنفسه الرِّياسةَ عليهم فى هذا البيت . والمعنى أنه متى استعطفوه عطَفَ عليهم ، وإن استقالوه[2] أقالَهم وأسرَع الفَيئةَ لهم ، غيرَ حاملٍ الضِّغْنَ واللَّجاجَ معهم ، ولا معتقِدًا انتهازَ الفُرَص فيهم، لِما اكْتَمَن من عَوادِى الحقد عليهم .

وقوله : « وليس رئيس القَوم من يحمل الحقدا » يجرى مجرى الالتفات ، كأنه أقبلَ على مخاطَبٍ فقال : إنِّى لا أتجمَّل[3] بترك مؤاخذتهم ، واطِّراح الحقد

(١) التخون : التنقص .
(٢) ل : « وإذا استقالوه » .
(٣) ل : « لا أتحمد » .

فى مساوَقتهم ، فإنّ الرّئيسَ يُحِبُّ لتَبَعِهِ ذلك عليه فى شروط الرِّياسة . وقوله :
« لهم جلُّ مالى » يريد إنْ تَوَاصَلَ الغِنَى لى أشركتُهُمْ فى مُعظَمه ، من غير
امتنانٍ ولا تكدير ، وإن تحيَّفَ مالى حادثٌ يُلِمُّ ، أو عارضٌ يحدُثُ ، لم أنتظِرْ
من جهتهم مَعونة ، ولا كلّفتُهم فيما يخفّ أو يثقُل مؤونة .

وقوله « وإنّى لعَبْد الضَّيف » أراد أن يبيِّن ما عنده للغريب الطارق[1] ،
والضَّيف النازل ، بعد أن شَرَح حالَه مع مواليه ، وخِصالَه فى مُرافَقةِ ذويه ،
فقال : وأبْلُغُ فى خِدمة الضُّيوف مَبالغَ العبيد فيها . ثمَّ أكّد ما حكاه بقوله
« وما شِيمةٌ لى غَيْرَها تُشبِه العبدا » ، فانتصبَ « غَير » على أنّه مستثنى مقدَّم ؛
وذاك لأنّه لما حالَ بين الموصوف والصِّفة ، وهما شيمةٌ وتُشْبِه ، وتقدَّمَ على
الوصف صار كأنّه تقدَّمَ على الموصوف ، لأنّ الصِّفة والموصوفَ بمنزلةِ شىء
واحد . وقوله « تشبه العبدا » يريد : تُشْبِه شِيَمَ العبد[2] ، فحذفَ المضافَ وأقام
المضاف إليه مقامه .

فليَتأمَّل النَّاظرُ فى هذا الباب وفى مثلِ هذه الأبيات ، وتصرُّفِ قائلِها
فيها بلا اعتساف ولا تكلُّف ، وسلامَة ألفاظها ، وصِحَّة معانيها ، فهو عَفْوُ
الطَّبع ، وصَفْو القَرْض .

٤٣٩

وقال رجلٌ من الفَزَاريِّين :

١ — إلَّا يَكُنْ عَظْمِى طَوِيلًا فإنَّنِى ‎ ‎ ‎ لَهُ بالخِصَالِ الصَّالحاتِ وَصُولُ
٢ — وَلَا خَيْرَ فى حُسْنِ الجُسُومِ وَنُبْلِهَا ‎ ‎ ‎ إذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجُسوم عُقُولُ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الطائف » .
(٢) ل : « العبيد » .

٣— إذا كنتُ فى القَومِ الطِّوالِ أَصَبْتُهُم بعارفةٍ حتَّى يُقالَ طَويلُ[1]

يقول : إن لم يكنْ فى طولى امتداد ، ولا فى خلْقى بَسْطة وكمال ، فإنّى لا أزالُ أَصِلُ نَقْصَ جسمى ، وأَمُدُّ قِصَر قامتى بما أنولّاه من الأفعال الكريمة ، وأختاره من الخصال الحميدة ، حتّى أمحُوَ سِمَةَ الإزراء عن نفسى . ومَنْ أُوتِىَ الفضلَ فى خُلُقه ونَفْسه ، وعاداته وشِيَمه ، خيرٌ ممّن أُوتِىَ العِظَم فى خَلْقه ، والبَراعةَ فى جسمه ، فلا فضيلةَ لمن حسُنَ وجهُهُ ونبُل منظرُه ، إذا لم يزيِّنْه عقلٌ وافر ، ومَخبرٌ رائق . ومتى حَصَلْتُ بين أقوامٍ طِوال القامات ، قابلْتُ طُولَهم بطَوْلِ يدى فِيهم ، وأنلْتهم معروفى حتّى عظُمْتُ فى أعينهم ، وامتلأتْ من حبِّهم لى ومَيلهم إلىّ قلوبُهم ، فأنساهُم طولُ باعى بالعطيّة قِصَر قامتى بين قاماتهم . وقوله « حتّى يُقالَ طَويل » ارتفع طويل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هو طويل . أى يُسلِّمون له فضيلةَ الطُّول عندهم .

٤— وكم قَدْ رأَينا مِنْ فُروعٍ كثيرةٍ تَموتُ إذا لم تُحْيِهِنَّ أُصُولُ

٥— ولم أرَ كالمعروفِ أمّا مَذَاقُه فَحُلْوٌ وأما وَجْهُهُ فجَميلُ

هذا مثلٌ ضرَبَه للخصال المجتمِعة فى الإنسان ، لا تُعَدُّ فضائلَ إلّا إذا اقترنَتْ بخصالٍ أُخَر ، وهى كالأصول لها . ومثالُ ذلك ما قدَّمَه من ذِكر عَبَالة الخَلْق[2] إذا عَرِيَتْ من نبَاهة الخُلُق ، وما شاكَلَها من صباحة الوَجْه إذا خَلَتْ من صحابة العَقْل . ثم قال : ولم أر شيئاً كإسداء المعروف وبثِّ العطاء والإحسان ، فإنَّ مَن ذاقَه استحْلاه ، ومن رآه استحسنَه وارتضاه . وهذا تأكيدُ ما ذكر من قوله : « أصبتهم بعارفة حتّى يقال طويل » .

---

(١) التبريزى : « علوتهم بعارفة » .

(٢) العبالة ، بتثقيل اللام ، وتخفيفها لغة من اللحيانى ، وهى الثقل .

٤٤٠

وقال عبدُ الله بن معاوية[١] :

١ – أرَى نَفْسِي تَتُوقُ إلى أمورٍ   ويَقْصُرُ دُون مَبْلَغِهِنّ مَالِي

٢ – فنَفْسى لا تُطاوِعُنى ببُخْلٍ   ومالِي لا يبلِّغُنى فَعَالِي

قد مضى له أمثال[٢] ، ومعناه ظاهر ، ويروى : « لا يَقومُ له فَعالى » .

٤٤١

وقال مُضَرِّس بن رِبْعِيّ[٣] :

١ – إنَّا لَنَصفحُ عَنْ مُجاهِلِ قومِنَا   ونُقِيمُ سَالِفَةَ العَدُوِّ الأصْيَدِ

٢ – ومَتَى نَخَفْ يَوْمًا فَسَادَ عشيرةٍ   نُصْلِحْ وإنْ نَرَ صَالِحًا لا نُفْسِدِ

يصفُ صفاء نيّتهم لقومهم ، وأنهم يسلكون معهم طرائقَ ما يعود على المَسُودِ بالصَّلاح ، وعلى السَّائد باستكمال الرِّياسةِ والارتفاع ، فقال : إذا جَهلوا علينا صَفَحْنا عنهم ، وأبقَيْنا على الحال بيننا وبينهم ، واستَفْأنا إقامتهم ورَجعتَهم . كلُّ ذلك لئلا ينفِرُوا فيزدادَ ما بيننا وبينهم تَفاقُمًا . فأمَّا الأَعداء فإنَّا نَكسِرهم ونستلُّ عنهم كِبرَهم وخُنزُوانَتَهم ، ونُلَيِّن أعناقَهم حتَّى ينقادوا على

(١) التبريزى : « عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر » . وهو عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان من فتيان بنى هاشم وأجوادهم وشعرائهم . وكان يرمى بالزندقة ، وخرج بالكوفة فى آخر أيام مروان بن محمد ، ثم انتقل عنها إلى الجبل ثم خراسان ، فأخذه أبو مسلم فقتله . الأغانى (١١ : ٦٣ – ٧٤) .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « مضى أمثالها » .

(٣) هو مضرس بن ربعى بن لقيط بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس ابن طريف بن عمرو بن قعين الأسدى . شاعر محسن متمكن ، كان معاصرا للفرزدق . المؤتلف ١٩١ ومعجم المرزبانى ٣٩٠ .

ضِغْنٍ منهم. والسَّالفة: صفحة العنُق. والصَّيَد: مَيَلٌ فى العُنق من الكِبْر كما يكون الصَّعَر فى الخَدّ، وكما أنّ الصَّادَ يستعمل فى النَّاظر.

وقوله: «ومتى نَخَفْ يوماً فسادَ عشيرة» يريد: إنَّا نَسعَى فى إصلاح ذاتِ بينهم، ولا ندَعُهم يتدابرون ويتضاغَنُون؛ لأنّ عِزّ الرَّجل بعشيرته. ثم إن رأيناهم على حَدٍّ من الصَّلاح زِدْنا فى قُوَّة نِيَّاتهم، وحملناهم على ما يزدادونَ به استقامةً واستمراراً.

٣ – وإذا نمَوْا صُعُدًا فَلَيْسَ عَلَيْهِمُ مِنَّا الخَبالُ ولا نُفُوسُ الحُسَّدِ

٤ – ونُعِينُ فاعِلَنا على ما نَابَهُ حَتَّى نُيَسِّرَه لِفعلِ السَّيِّدِ

يقول: وإذا ارتقَوا فى درجات العِزّ وتبوَّءوا منازلَ الفضْل، لم نحسُدْهم، ولم نضيِّقْ عليهم طرائقَ مقاصدهم، فيورثَهم ذلك خبلاً[١] وفتوراً. والسَّاعِى منهم إذا جدَّ فى إقامةِ ما يَنوبهُ من الحقوق أعنَّاهُ على إتمام ما يشيِّدُه، والزِّيادةِ فيما يؤيِّده، حتَّى نَبلُغ به فِعَل السَّيِّد، علماً بأنّ رفعتهم لنا، وجمالَهم جمالُنا.

٥ – ونُجيبُ دَاعِيَةَ الصَّبَاحِ بِثائبٍ عَجِلِ الرُّكوبِ لِدَعْوَةِ المُسْتَنْجِدِ

٦ – فَنَفُلُّ شوكَتَها ونَفْثأُ حَمْيَها حَتَّى تَبُوخَ وحَمْيُنَا لم يَبْرُدِ

٧ – ونُحلُّ فى دار الحِفاظِ بُيُوتَنَا رَتْعَ الجَمائلِ فى الدَّرِينِ الأسوَدِ[٢]

قوله «ونُجيب داعيةَ الصَّبَاح»، يريد: وإن استعانَ بنا من أُغِيرَ عليه صَبَاحًا من ذى مَحْرَمٍ أو جارٍ، أو متسبِّبٍ بِإلٍّ وقرابة، أجَبْناه سريعاً بجيش سريعِ الرُّكوب لدعوة المُستصرِخ، فنكسرُ شَوكةَ المُغيرين، ونُخمِد نائرَتهم ونسكِّن حُمَّاهم حتَّى تبرُدَ، وحُمَّانا لم تَسكُنْ ولم تَبرُد[٣]. وجَعَل الشَّوكَةَ كنايةً عن

---

(١) ل: «خبالا».

(٢) ل، التبريزى: «وتحلُّ فى دار الحفاظ بيوتُنا».

(٣) فى النسختين: «يبرد» و«يسكن».

السِّلاح والقُوَّة جميعاً . وقوله « نفثأ » هو من فَثَأْتُ القِدرَ ، إذا سكَّنتَ غليانَها . وقوله « حتى تبُوخَ » يقال : باخَتِ النَّارُ إذا طَفِئت .

ومعنى « ونُحِلُّ[1] فى دار الحفاظ بيوتَنا » نَصْبِرُ فى دار المحافَظة على الشَّرف إذا اشتدَّ الزَّمان ، وإذا قَصَدَ غيرُنا الخِصْب أو طلَب الانتجاع أقمنا مُرْتعِين فى الدَّرِينِ مالَنا ، ولا نمكِّن أعداءنا من أرضنا وحِمانا . والدَّرِين : اليابس من الكلأ القديمُ العَهد . وجعله أسودَ لفسادِهِ وطولِ قِدَمه . ويروى « وتَحُلُّ[2] فى دار الحفاظ بيوتُنا » . وانتصَب « رتْعَ الجامِلِ » على أنه مصدر فى موضع الحال . ومثله قول الآخر[3] :

ونُحِلُّ فى دارِ الحِفاظِ بُيُوتَنَا ... زَمَنًا ويَظْعَنُ غَيْرُنَا للأَمْرَعِ[4]

٤٤٢

وقال المتوكِّلُ اللَّيْثِيّ[5] :

١ – إنِّى إذا ما الخَليلُ أَحْدَثَ لِى ... صَرْمًا ومَلَّ الصَّفاءَ أو قَطَعَا

٢ – لا أَحْتَسِى مَاءَهُ على رَنَقٍ ... ولا يَرَانِى لبَيْنِــهِ جَزِعَا

يقولُ : إذا اعوجَّ صديقٌ لى والْتَوَى ، وطلبَ الخِلافَ علىَّ فأحدث لى نُبُوًّا وجَفاء ، وتبرَّمَ من مُصافاتى وأقبَلَ يتجنَّى علىَّ ، فإنِّى لا أرومُ منه العَودَ ، ولا أَعرِضُ عليه الرُّجوعَ ، بل أصارِحُه ولا أتجرَّع ماء الوُدِّ بينى وبينَه على

(١) ل : « وتحل » .

(٢) ل : « ونحل » بالنون .

(٣) هو الحادرة الذبيانى . المفضلية ٨ .

(٤) ل : « وتحل » . المفضليات : « ونقيم فى دار الحفاظ » .

(٥) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل بن وهب بن عمرو بن لقيط الكنانى ، وكان يكنى أبا جهمة . وكان على عهد معاوية وابنه يزيد ، ومدحهما . الأغانى (١١ : ٣٧ – ٤١) والمؤتلف ١٧٩ ومعجم المرزبانى ٤١٠ .

كدَر فأحتملُ مكروهه، ولا أظهرُ جَزَعًا لاستحداثِ فِراقٍ منه، أو تفكُّرٍ ينطوى عليه فأُخبِتُ له[1]، لأنِّى وَصَّالٌ صَروم، أصافِى مَن يُصافِينى، وأجامِل من يُجاملنى، وأداجِى من يداجينى.

٣ — أهْجُرُهُ ثم تَنْقَضِى غُبَّرُ الـ ... ـهِجْرانِ عـنِّى ولم أقُلْ قَذَعا[2]

٤ — احْذَرْ وِصالَ اللَّئيمِ إنَّ لَهُ ... عَضْهًا إذا حَبْلُ وَصْـلِهِ انقطَعَا

الغُبَّر[3]: البقايا، واحدتها غُبْرَة. ويقال: تغبَّرَت الناقةَ، إذا احتلبت غُبْرَتها. وغُبَّرُ الليل: مآخيره. قال:

فيا صُبْحُ كَمِّشْ غُبَّرَ الليل مُصْعِدًا ... بِبَمٍّ ونَبِّــهْ ذا العِفاء المُوَشَّجِ[4]

والقَذَع والقَذِيعة: الفُحْشُ. يقال: قَذَعْتُه، إذا رميتَه بالقَذَع. وأقذَعَ الرَّجل: أتى بالفُحش. وكلامٌ قَذِع. ويتوسَّع فيه فيقال للقَذَرِ: القَذَع، حتى يقال: قَذِع ثوبَه بالبول وغيره. يقول: أقطعُ العلائقَ بينى وبينه فأنصرف عنه هاجراً، وتنقضى[5] مُدَّة الهجران عنَّا ولم أعتِبْه ولا قلتُ فيه فُحْشاً، ولا ذكَرْتُه بزَلَّةٍ كانت منه.

ثم قال: احْذَرْ مُواصلة اللئيم ومؤاخاتَه، لأنّه إذا انقطع حَبْلُ وَصْله، وانصَرَم ما يَجْمعك وإيّاه من ودٍّ يتكذَّبُ عليك، ويَخْلُق من الإفك فيك ما لم تكتسبْه لا بيدك ولا لسانك، وهذا كأنَّه لمَّا نفى عن نفسه فى البيت الأوّل ما نفى بيَّنَ فى البيت الثّانى أنَّه لا يفعل ذلك، لكونه من فِعل اللئام. والعَضْه: ذِكر القبيح كَذِباً وزوراً. ويقال: عَضَهْتُه، إذا رميتَه بالزُّور. وأعْضَهَ الرَّجُل

(١) أخبت، الإخبات: التواضع والاطمئنان.
(٢) التبريزى: «ثم ينقضى غبر الهجران».
(٣) كذا وردت مضبوطة فى النسختين فى متن البيت وشرحه.
(٤) البيت للطرماح فى ديوانه ٦٩ والحيوان (٢: ٢٥٤، ٣٤٦ / ٧: ٥٩) واللسان (وشح).
(٥) ل: «وتنقضى».

أنَى بالعضيهة ، وهى الإفك . ومن كلامهم : يا للَعَضِيهة ! ويا للأَفِيكَة !

٤٤٣

وقال بعضُهم [١] :

١ — خَلِيلَىَّ بَيْنَ السَّلْسَلَيْنِ لَوَ انَّنِى   بِنَعْفِ اللِّوَى أنكرتُ ما قُلْتُما لِيَا [٢]

٢ — ولـكِنَّنِى لَمْ أنْسَ ما قالَ صاحِبى   نَصِيبَكَ مِن ذُلٍّ إذا كنتَ خالِيَا [٣]

النَّعْف : ما ناعَفَك ، أى عارضك من الجبل أو المكانِ المرتفع . واللِّوَى : مُسترَقُّ الرمل . وجواب لو « أنكرْتُ » ، وكأنَّ نعفَ اللِّوَى كانَ أرضَه ودِيارَه ، فيقول : لو كنتُ فى أرضى ومعى عشيرتى وأهلى ، ثم سُمْتُمانى ما سُمْتُمانى لأنكرتُهُ ولم أقبَلْه ، ولـكنّنى لم أذهبْ عما وصَّانى به صاحبى من قوله : الزمْ نصيبَك من الذُّلّ إذا كنتَ فى دار غُربة ، ومتباعدا عن نُصَّارك والمشفِقِين عليك . وانتصَب « نصيبَك » بإضمار فعل .

٤٤٤

وقال قيس بن الخطيم [٤] :

١ — وما بَعْضُ الإقامةِ فى دِيارٍ   يُهانُ بها الفَــتَى إلّا بَلَاءُ

٢ — وَبَعْضُ خلائقِ الأقوامِ داءٌ   كداءِ البَطْنِ لَيْسَ له دَوَاءُ

---

(١) هو قتادة بن خرجة الثعلبى ، من بنى عجب بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان . انظر البيان (٣ : ٢٤٩) . والبيتان وردا فى معجم البلدان فى رسم (السلسلين) بدون نسبة أيضاً .

(٢) فى البيان : « بهبر اللوى » .

(٣) وكذا روايته فى المعجم . وفى البيان : « إذا كنت نائيا » .

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٦ ص ١٨٣ .

٣ — يُرِيدُ المرءُ أَنْ يُعطَى مُنَاهُ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا ما يشـــاءُ

٤ — وكلُّ شَدِيدةٍ نزلَتْ بحَيٍّ سَيَأْتِى بَعْدَ شِـــدَّتِها رَخاءُ

قوله « وما بعضُ الإقامة » إنّما بعّضها لأنّه أشار إلى الإقامةِ التى أوائلها تَنزَاحُ معها المِلَل، ويَسهُل فى اختيارها الانفصال والترحُّل، وأواخرُها تتغيَّر بما يَعرِض فيها حتّى يشقَّ لها التلوُّمُ والتَّلبُّث. وارتفع « بَلَاء » لأنّه خبر المبتدإ، وهو بعضُ الإقامة، و « يُهانُ بها الفتى » فى موضع الصِّفة لقوله فى ديارٍ. فيقولُ : إذا أمكَنَ الارتحالُ عن دار الهوان، ولا دافِعَ ولا مانعَ يُوجبان الصَّبر فالإقامة بها بلاءٌ، ويجبُ على الحرِّ طلبُ الانفكاك منه، ورَوْمُ الخَلَاص من أذاه.

وقوله « وبعضُ خلائق الأقوامِ » يريد أنّ بعضَ ما يتخلَّق به النَّاسُ يتعذَّر مفارَقتُه ومُداواةُ إزالته، فهو كالدَّاء الذى يكون بالإنسان وقد استصحبَه من بَطْنِ أمّه. يريد أنّ ما اعتادَه الإنسانُ من الأخلاقِ يَصيرُ إذا أتت الأيَّامُ عليه، وقوِىَ الإلفُ له، كالخِلْقة أو ما يجرى مَجراها.

وقوله « يريد المرء أن يُعطَى مناه »، معناه أنّ الإنسانَ يتمنَّى أن يحصُلَ له[1] ما يتعلَّقُ به شهوتُه، ويرتادُه هواه وإرادتُه، ويَمنعُ الله تباركَ وتعالى إلّا ما يكون بمشيئته، ويعرفُه مِن مَصالحِ خليقته.

وقوله « وكلُّ شديدة » يريد أنّ الشَّىء لا يدوم على حال، فالشَّدائد إذا نزلَتْ يتعقَّبها الخيرُ ورَخاء العيش وسَعَته، لأنَّ لكلِّ أمرٍ أمدًا يُمَدُّ له الوقت، فإذا تناهَى انقطَع.

٥ — ولا يُعْطَى الحَريصُ غِنًى لِحرصٍ وقد يَنْمِى إلى الجود الثَّراءُ[2]

(١) هذا ما فى ل. وفى الأصل : « يجعل له ».

(٢) ل : « فلا يعطى ». التبريزى : « على الجود ».

٦ – غَنِيُّ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ غَنِيٌّ وَفَقْرُ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ شَقاءُ

٧ – وَلَيسَ بنافِعٍ ذا البُخْلِ مالٌ وَلا مُزْرٍ بصاحِبِه السَّخاءُ

٨ – وَبَعْضُ الداءِ مُلْتَمَسٌ شِفاهُ وداءُ النُّوكِ لَيسَ له شِفاءُ

قوله « ولا[1] يُعطَى الحريص » يريد أنّ حِرصَ الإنسان فى طلب الغِنى لا يُجدى عليه نفعا ، ولا يقرِّب منه بعيدًا ، لأنّ ميسِّر اليُسر والغِنى هو مَن له الخَلْق والأمر ، وإليه الإبرامُ والنَّقض .

وقوله « وقد ينمِى إلى الجود » يريد أنّ الثَّرْوَة والكُثْرَ هما ينمِيان مع الجود . وإنّما يقدح بهذا الكلامِ فى البُخل والإمساك ، وأنّ زيادةَ المال وبقاءه لا يحصُلان لهما وبهما . وقوله « إلى الجود » إلى بمعنى مع . تقول : هذا إلى ذاك .

وقوله « غنيُّ النَّفْس ما عمرت غنىٌّ » ، يريد أنّ غِنَى النفس خيرٌ من كَثرة المال ؛ لأنّ مَن كان راضياً بماله ، غنيًّا عن غيره بما يحصُل فى يده ، تراه باكتفائه أغنَى الموسِرين ، وفقيرُ النفس وإن ساعدَه المالُ ، وأطاعه القَدَر يزدادُ على مَرِّ الأيام وزيادةِ الحال ، حِرصاً ونَهْمَةً وشَقاء .

وقوله « وليس بنافع ذا البخل مال » ، يريد أنّ البخيل لا يَنتفع بماله ، لأنه يَجْمَعُهُ ويتركُه لغيره ، والسَّخاء لا يُقصِّر بصاحبه ، بل يَرفَع منه ، ويَكسِبه الحمدَ والأحدوثة الجميلة .

وقوله « وبعضُ الدّاء ملتمَسٌ شِفاه » ، جعلَ الدّاء للجنس فناب عن الجمع فقال : بعضها يُعرف شفاؤه فيُطلَب إزالته ، وداء الحُمْق لا شفاء له ، ولا محيد

(١) ل : « فلا » .

لصاحبه عنه . وقوله « شِفاه » قَصرُ الممدود ، وهذا لا خلافَ في جوازِه على المذهبَين .

٤٤٥

وقال يزيد بن الحَكَم[1] :

١ — يا بَدْرُ والأمثالُ يَضْـ ـرِبُها لِذِى اللُّبِّ الحَكِيمُ

٢ — دُمْ لِلْخَلِيـلِ بِوُدِّهِ ما خَيْرُ وُدٍّ لا يَدومُ

قوله « والأمثالُ يَضرِبُها » اعتراض دخَلَ بين قوله « يابدر » ، وبين دُمْ للخليل من البيت الثانى ، ونبَّهَ بهذا الاعتراض على أنّ وصيَّته وصيّةُ حكيم ، وأنّ اللّبيبَ العاقلَ يأخُذُ بها ويتأدّب .

ومعنى قوله « دُمْ للخَليل بوُدِّه » أى بودِّك له ، فأضافه إلى المفعول ، والمصدر كما يضاف إلى الفاعل يُضاف إلى المفعول . وقوله « ما خير وُدٍّ » استفهامٌ على طريق الاستثباتِ والقَصدِ إلى النَّفْى والمعنى : أنّ الوِداد إذا لم يَصْفُ ولم يَدُمْ فلا خيرَ فيه . وقوله « لا يدوم » صفة لوُدٍّ . تلخيصه : أىُّ شىء خيرُ وُدٍّ غيرِ دائم .

(١) التبريزى « ... يعظ ابنه بدرا » . وهو يزيد بن الحكم بن أبى العاص صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . مر الفرزدق يوماً به وهو ينشد فى المجلس شعراً فقال : من هذا الذى ينشد شعراً كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم . فقال : نعم أشهد بالله أن عمّى ولدته . ودعاه الحجاج يوماً فولاه كورة فارس ودفع إليه عهده بها ، ثم أنشده بعض شعره فألفاه يفخر بأبيه ، فنفس عليه ذلك واسترد العهد منه ، فخرج يزيد مغاضباً ولحق بسليمان ابن عبد الملك فمدحه ، فأعجبه ذلك وقال له سليمان : كم كان أجرى لك لعمالة فارس ؟ قال : عشرين ألفاً . قال : فهى لك على ما دمت حياً . الأغانى (١١ : ٩٦ — ١٠١) والخزانة (١ : ١١١) .

٣ – واعرِفْ لجارِكَ حَقَّـهُ والحَقُّ يَعرِفُه الكَريمُ

٤ – واعلَمْ بأنَّ الضَّيْفَ يَوْ مًا سَوْفَ يَحْمَدُ أو يَلومُ

٥ – والنّاسُ مُبْتَنِيانِ مَحْ مُودُ البُنايةِ أو ذَميمُ[1]

يقول: اعرِفْ حقَّ الجوارِ لمجاوِرك، فإنَّ الكريم هو الذى يعرِفُ حقَّ مثله. وقوله « والحق يعرفُه » الواو واو الحال، وهو واو الابتداء. ولو رويته بالهاء كان أجودَ، والمعنى اعرفْ حقَّ الجار لأنَّ حقَّه تعرِفُه الكَرام. فإذا رويتَه بالواو يكون حالاً لقوله حقّه، كأنَّه قال: اعرِفْ حقَّه معروفاً للكرام، وهو معروفٌ للكرام.

وقوله « واعلَمْ بأنَّ الضّيف » يقال علِمت كذا، وبكذا. وهذه الوَصَاةُ بالضَّيف قد علَّلها بقوله «سوف يَحمَد أو يلوم». والمعنى: أحسِنْ إليه وتفقَّدهُ، عالماً بأنَّ نزولَه بك يَجلِبُ حمداً إنْ أحسنتَ إليه، أو لوماً إنْ أسأتَ إليه أو قصَّرتَ فى حقه.

وقوله « محمود البناية » أتى بالبِناية غير مبنيّ على مذكَّر حصَلَ من قبل، ثم أدخلَ تاء التأنيث عليه، فهو كالثِّناية اسم الحَبْل، والشَّقاوة والرِّعاية والغَباوة. ولو كان مبنيًّا على مذكَّر لكان « البناءة » لأنَّ الواو والياء إذا كانا حرفَىْ إعرابٍ بعد ألفٍ زائدة تُبدَل منهما الهمزة. على ذلك: الرِّعاء والكِساء والرِّداء والبابُ كلُّه.

ومعنى البيت: أنَّ أفعالَ عقلاء النّاس لا تَخلُو من أن تكونَ ممّا يُستَحَقُّ به حمدٌ أو ذمٌّ، فهم يَبنُون مبانِيَهم، ويؤسِّسون مكاسبَهم على أحد هذين الرُّكنين، وذلك لأنَّ الأفعالَ تابعةٌ للأغراض، وغَرضُ العاقل إليهما ينقسم،

(١) فى ل ضبطت « البناية » بكسر الباء وضمها مقرونة بكلمة « معا »، تحقيقاً للضبطين.

فانظُرْ ماذا تَجلِبُ على نفسك بما تبتنيه من فِعلك ، وتدّخره من كَسْبك .

وارتفع « محمود » على أنه بدل من « مبتنيان » ، أو خبر مبتدأ محذوف ، كأنّه قال : هما محمود البِنْية أو ذميم .

٦ — واعــــلَمْ بُنَيَّ فإنه بالعِلْمِ يَنْتَفِـعُ العليمُ

٧ — أَنّ الأُمورَ دَقِيقُهـا مِمّا يَهِـيجُ له العَظِيمُ[1]

٨ — والتَّبْل مِثْلُ الدَّيْنِ تُقْـ ضَاهُ وقد يلوَى الغَرِيمُ[2]

٩ — والبَغْيُ يَصْرَعُ أَهْلَه وَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وَخِـيمُ

قوله « بنيّ » إن ضممتَه فهو منادًى مفرد ، وإن كسرتَه فهو منادًى مضاف وقد حذف ياء الإضافة[3] . وإذا كان ياء الإضافة فى المنادى يُحذَف فى نحو يا غلامِ لأنّ الكسرة تدلّ عليه ، وهو واقعٌ موقعَ ما يُحذَف فى هذا الباب وهو التّنوين وبابُ النداء بابُ حذفٍ ، لكثرة الاستعمال ، فهو فى بنيَّ أولَى بالحذف ، لاجتماع الياءات والكَسَرات . فى آخرها وقوله « فإنّه بالعلم ينتفع العليم » الهاء ضمير الأمر والشّأن ، والجملة اعتراضٌ بين اعلَمْ ومفعولَيه . والمراد باستعمال العلم ، وذاك أنّ مَن عَلِمَ طرقَ الرّشادِ ثم لم يسلكها كان معرفته بها وبالاً عليه .

وقوله « إنّ الأمور » مفعول واعلم ، ودقيقها مبتدأ وما بعده خبره ، والجملة خبر إنّ . ولك أن تكسره فتقول « إنّ » على الاستئناف ، ويكون واعلمْ معلّقا

---

(١) كتبت « أن » بكسرة وفتحة لتقرأ بالروايتين .

(٢) تقضاه ، كتبت فى ل بالتاء والياء معا ، لتقرأ بالروايتين .

(٣) بنى ، كذا ضبطت فى النسختين والتبريزى . وهما الوجهان الكثيران فى العربية . لكن الأكثر فى الاستعمال المعاصر « بنيّ » بفتح الياء ، وهو استعمال صحيح وردت به قراءة عاصم فى قوله تعالى : « يا بنى اركب معنا » ، وقرأ باقى السبعة بالكسرة اجتزاء بها عن الياء . أما قراءة عاصم فهى اجتزاء بالفتحة عن الألف ، وأصلها « يا بنيا » كما فى قولهم « يا حسرتا » و« يا فلانا » . التصريح (٢ : ١٧٧) وتفسير أبى حيان (٥ : ٢٢٦) .

والمعنى : أنّ الشرّ يبدؤه أصغرُه ، كما أنّ السَّيلَ أولُه مطرٌ ضعيف . وهذا الـكلامُ يَبعثُ على النَّظَر فى ابتداءات الأمور وتصوُّرِ عواقِبها .

وقوله « والتَّبْل مثلُ الدَّين » ، التَّبل : الذَّحْل ، ومعنى يَلْوِى يَمْطُل ، ومصدرُه اللَّىُّ واللَّيَّانُ . وفى الحديث : « لَىُّ الواجِدِ يُحِلّ عقوبته » . وقد روى « يُلْوِى » و « يُلْوَى » فإذا رويت يُلوِى بالـكسر ، فمعناه يذهب بالحقّ ، يقال : ألوَى بالشَّىء إذا ذهبَ به ، و « يُلوَى » هو بناء ما لم يُسَمّ فاعله ، لَوَى إذا مَطَل . والغَريم : اسمٌ لمن لَهُ الدَّين ، ولِلَّذى عليه الدَّين . وأصل الغرامة اللُّزوم ، ولِـكون كلٍّ واحد منهما ملازماً لصاحبِه إلى أن ينقضىَ ما بينهما أُجرِى الاسمُ عليهما . والمعنى أنّ الوِتْر والذَّحل كالدَّين على الواتر ، فهو بِعَرَضٍ للطالبةِ به كالغريم ثَمّ ، قد يَقضِى وقد يمطُل ، فلا تـكتسبْه ، لأنّ المداواتِ وخيمةُ الأواخر ، سيِّئة المبادئ .

وقوله « والبَغْىُ يَصْرَعُ أهلَه » يقول : وإذا كان لك خَصْمٌ فى شىء فلا تستهِنْ به ، ولا تستعمل البغىَ معه ، فإنّ من بُغِىَ عليه بعَرَض النُّصْرَة ، والباغى بِعرض التَّلَف والهَلَـكة ، ولا تَظلِمْ فإنّ الظُّلمَ ذميمُ المرتع وبِيلُه ، وفَظيع المَسمَع قبيحُه . ويقال : ظَلَمْتُه ظَلْماً بفتح الظاء وهو المصدر ، وظُلما بضم الظاء وهو الاسم .

١٠ – ولقد يَكُـونُ لكَ الغَرِيـ ـبُ أخًا ويَقْطَعُك الحَميمُ

١١ – والمرءُ يُـكْرَمُ للغِنَى ويُهَانُ للعُـدْمِ العَدِيمُ

١٢ – قد يُقـتِرُ الحَوِلُ التَّقِـىُّ ويُـكثِرُ الحَمِقُ الأثيمُ

١٣ – يُمْـلَى لِذَاكَ ويُبْتَـلَى هٰـذا فأيُّهمَا المَضِيمُ

قوله « ولقد يكون » معناه أن الوفاء قد يكون فى الغريب إذا آخيتَه ، والخيانةَ تتفق من القريب إذا صافَيْتَه ، فانظرْ لنفسك إذا اخترتَ ، ولا تَعتمد القُربَى والقَرابة ، فإنّ للمواخاةَ مبنيّةٌ على الأصول الزكيّة ، والنفوس الوفيّة ، لا على الأنساب والأسباب .

وقوله « والمرء يُكرَمُ » يقول : ادَّخِرِ المالَ واسْعَ فى جمعه ، وإيّاك واستعمالَ التّبذير فيه ، فإنّ اليسيرَ منه مع حُسْنِ التّدبير يتّصل بقاؤُه ، وكرامةُ المرء متسبِّبة عن غِناه ، كما أنّ هوانَه فى قِرانِ فقره . وقوله « والمرء » ارتفع بالابتداء ، وخبره يُكرَم ، وقد عُطِف على هذه الجملة جملةٌ مخالفةٌ لها من التقارُب لما صَلَح ذلك . ومثله قول الآخر[1] :

* أمُوفٍ بأدرَاعِ ابنِ ظَبْيَةَ أمْ تُذَمّ[2] *

على العكس من هذا قولُ الله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ ، لأنّ هذا عُطف فيه المبتدأ والخبر على الفعل والفاعل .

وقوله « قد يُفتِرُ الحَوِلُ » ، فالحَوِلُ : الكثير الحيلة . وصُحِّحَ بناؤُه ولم يُعَلّ إخراجاً له على أصله ، وتنبيهاً أنّ ما عُلِّلَ من نظائره كان حكمُهُ أن يجىء على هذا . ومما جاء على القياس من نظائره : رَجُلٌ مَالٌ وصاتٌ وما أشبهَهما . وكذلك هذا كانَ يجبُ أن يقال حالٌ . والمعنى أنّ الكثيرَ الحِيَل ، الخَرّاجَ الولّاجَ ، وهو سَدِيدٌ فى طرائقه ، قد يَفتقِرُ فيكون مُقِلًّا ، وأن المائق النّاقصَ فى عقله ، المكتَسِبَ بجهله ، المرتَكِبَ للأوزارِ بحرصِه ، قد يستغنى هو فيكون

(١) هو راشد بن شهاب اليشكرى . انظر البيت ١١ من المفضلية ٨٦ .

(٢) ظبية ، كذا وردت فى النسختين . وفى المفضليات : « طيبة » . وصدره :

* أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد *

مُكْثِرًا ، إذ كانت القِسَمُ والحُظوظُ لاتقِفُ على كَيْسِ المرء وخُرْقِه ، ولا على تُقَاهُ وفِسْقِه .

وقوله « يُمْلَى لذاك » أشار بذاك إلى الحَمِق الأثيم ، وبهذا إلى الحَوِل التَّقِىّ . وقد طابق بذاك وهذا[1] فيقول : أُمْلِىَ لِذَاكَ الجاهلِ وأُرخِىَ له الحبلُ فنال ما نال ، وابتُلِىَ هذا الحَوِل التَّقِىّ حتّى شَقِىَ وحُرِم ، فأيُّهما المظلوم . والمعنى أنَّ ذلك مِن قِسْمَةِ مَن عرف مَصالحَ خَلقه ، وعَلِمَ ما يتأدَّى إليه حالُ كلِّ واحدٍ منهم ، فاختار الأحكمَ فى التَّدبير ، والأصلحَ للصَّغير والكبير .

١٤ — وَالمَرْءُ يَبْخَلُ فى الحُقُو قِ وَلِلْكَلالَةِ ما يُسِيمُ

١٥ — ما بُخْلُ مَنْ هُوَ لِلْمَنُو نِ وَرَيْبِها غَرَضٌ رَجِيمُ

١٦ — وَيَرَى القُرونَ أَمامَهُ هَمَدُوا كما هَمَدَ الهَشِيمُ

يقول : ترَى الرجل يُسَوِّف بما يلزمُه من أداء الحقوق ، فيبخلُ بإخراجه وأدائه ، فيموت عمّا يجمعه ويبخَل به ، ويتركُه للكلالة . والكَلالة هُم الوُرّاث وقد خَلَوْا من الوالد والولد . وأصله من تَكَلَّلَهُ النَّسَبُ ، إذا أحاط به . وقيل هو من الكَلالِ : الإعياء ؛ كأنّ بُعْدَ النَّسَبِ أَكَلَّه . وقوله « ما يُسِيمُ » يجوز أن يكون مصدرًا ، كأنّه قال : فإسامته لماله للغيرِ لا لنَفْسِه . ويجوز أن يكون ما بمعنى الذى ، وقد حذف الضَّميرَ العائد إليه من يُسِيم ، كأنّه قال : وللوَرَثة مالُه الذى يُسيمه . والإسامة : إخراج المال إلى المَرْعَى . ويقال : أَسَمْتُ البعيرَ فَسَام . ومنه السَّائمة للمالِ : الرَّاعية .

وقوله « ما بُخْلُ من هو » استفهامٌ على طريق الإنكار . فيقول : ما يُغْنِى بُخْلُ مَن هو للحوادث كالغَرَض المنصوب للرَّمْى ، فإذا عَلِمَ من نفسه أنّه غيرُ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وطابق هذا وذاك » .

مُخَلد ، بل هو منقولٌ من دار الفناء إلى دار البَقاء ، فلماذا يُمسِك ولا يُنْفِق ، ويَجمع ولا يفرِّق . هذا وقد رأى الأمم الخاليةَ قبلَه ماتوا وفَنُوا فعادوا رمياً ، كما يَهْمُدُ النباتُ فيصيرُ بعد نَضارته دَرِيئًا هَشِيماً ، وهو اليابس المتهشِّم الأسود لطول القِدَم . والمَنُون يكون اسماً للدهر فيذكَّر ، ويُرادُ به المنيَّةُ فيؤنَّث . وهو من المَنّ : القطع . فلك أن تروى : « ورَيْبه » « ورَيبها » جميعاً . ومعنى « وريبها » نزولها ، قال أبو عبيدة : رابَ عليه الدَّهرُ ، أى نَزَل . وقد يُرادُ برَيْبِ الزَّمانِ أحداثُه وصُروفُه الرَّائبة .

١٧ — وتُخَرَّبُ الدُّنْيا فَلَا بُوسٌ يَدُومُ وَلا نعيمُ[1]

١٨ — كلُّ امرِئٍ سَتَئِيمُ مِنْـ ـهُ العِرْسُ أَوْ مِنْها يَئِيمُ

١٩ — ماعِلْمُ ذِى وَلَدٍ أَيَثْـ كَلُهُ أَمِ الوَلَدُ اليَتِيمُ

يقول : وإذا كانت الدُّنيا مبنيَّةً للفناء لا للبقاء ، والخراب لا للعمارة ، وكذلك أعراضُها مخلوقة للزَّوال لا للدَّوام ، وقُرب الأمَد فى الاستمتاع بالمُعار لا الإملاء ، فلماذا يَفرَحُ الإنسان بما ينال ، ويَجزَع لما يفوت ، وكلٌّ بائدٌ غير ثابت ، ومُستَلَب غير موفَّر .

وقوله « كلُّ امرئ » ، يقول : إنَّ الأليفَين فيها لا بدَّ من فِقدان أحدهما للآخر ، والبعلُ يموتُ فتَبقى العِرْس منه أيِّمًا ، لتقدُّم موته ، والعِرْسُ تموتُ فيبقى هو منها أيِّمًا لتقدُّمها . ويقال : رجلٌ أيِّمٌ وامرأة أيِّمٌ . وقد آمت تَئيم أَيْمَةً . وكذلك ذو الولدِ لا يدرى أيموتُ فيَيْتَم الولد ، أم يهلِكُ الولَد فيثكل الوالد ، فإنَّ سُكّانَ الدُّنيا موعودون لآجالٍ منتَظِرة ، مدعوُّونَ لأحوالٍ مؤخَّرة .

---

(١) « تخرب » ضبطت فى ل لتقرأ بالتاء والياء . تخرب مخفف تتخرب ، وتخرب هو المبنى للمفعول من مضارع « خرب تخريبا » .

وقوله « ماعِلْمُ ذى ولدٍ » استفهامٌ معناه النَّفْى ، والمراد : لا يَعلَمُ الوالدُ مايكون منه ومن ولدِه فى الإمهال والاستعجال ، أى لا يَدرِى أىُّ الأمرَينِ يقَع . وقد عطف قوله « أمِ الولدُ اليتيمُ » وهو جملةٌ من ابتداء وخبر على « أيَشكُلُه » وهو فعل وفاعل . وجازَ ذلك لمَا قدَّمته[1] .

٢٠ – وَالحربُ صاحِبُها الصَّلِيـ ـبُ عَلَى تَلاتِلِها العَزُومُ

٢١ – مَنْ لا يَمَلُّ ضِرَاسَها وَلَدَى الحقيقـــةِ لا يَخِيمُ

٢٢ – وَاعْلَمْ بأَنَّ الحربَ لا يَسْطِيعُها المَرِحُ السَّؤُومُ

٢٣ – وَالخَيْلُ أَجْوَدُها المُنَا هِبُ عِنْـــدَ كَبَّتِها الأَزُومُ

الصَّلِيب : الصُّلب ذو الصَّلابة . والتَّلاتل : الشَّدائد ، ويقال : تَلْتَلَهُ ، إذا حرَّكه . يقول : وصاحبُ الحربِ هو الصَّبورُ على شدائدها ، القوىُّ العزم فى مَصارِفها ، الحامى الشَّكَّة[2] على نوائبها ، فلا يَمَلُّ عِضاضَها ، ولا يَخِيمُ عند حقائقها . ومعنى يَخِيمُ : يَجْبُن .

وقوله « مَن لا يَمَلُّ ضِرَاسَها » فى موضع الرَّفع على أن يكون بدلًا من قوله الصَّليب . والضَّرْس : العضُّ ، وأصله إصابةُ الشىء بِضرْسِه .

ثم قال : واعلم أنّ الحرب لا يُطيقُها المَلُول النَزِق ، العَجُول الطَّرِف[3] ، لأنَّ مبانيَها على الصَّبر والثَّبات ، والتَّدبير السَّديد ، والحذَر الشديد ، واستعمالِ الإقدامِ فى وَقته ، والإحجام لدى مُوجِبه . وقوله « لا يَسطِيعها » يريد لا يستطيعها . والماضى منه اسِطاع يَسطيع بكسر الهمزة ، وأصله استطاع ، فحذف التاء .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١١٩٤ .

(٢) الشكة : السلاح . وفى ل : « السكة » .

(٣) الطرف : الذى لا يثبت على حال . وفى الأصل : « الطرق » ، صوابه فى ل .

وقوله « والخيل أجوَدُها » يريد : خير الخيل ما يَنتهب الأرضَ انتهاباً فى جريه . وقال الخليل : المُناهَبة : المُباراة فى الجَرْى والحُضْر . ومعنى « عند كَبَّتها » أى حَمْلتها . وسُئل رجلٌ[1] : كيف طعنتَ قتيلك ؟ قال : « طعنتُه فى الكَبَّة طعنةً فى السَّبَّة[2] فأنفذتُها من اللبَّة » . وكل ما جمعتَه فقد كببتَه ومنه كُبَّة الغَزْل . والأزُوم : العَضوض . والأَزْم : العَضّ ، وكُنِيَ به عن الاحتماء فقيل : « نِعْمَ الدَّواء الأزْم » ، فكأنَّه أراد بالأزْم هنا الصَّبر والثَّبات .

٤٤٦

وقال مُنْقِذٌ الهِلالِىّ[3] :

١ — أىُّ عَيْشٍ عَيشِى إذا كنتُ منهُ بَيْنَ حَلٍّ وبين وَشْكِ رَحِيلِ

٢ — كلُّ فَجٍّ مِنَ البِلادِ كأنِّى طالبٌ بَعْضَ أهلِهِ بذُحُولِ

٣ — مَا أرَى الفَضْلَ والتَّكَرُّمَ إلّا كَفَّكَ النَّفْسَ عن طِلَابِ الفُضولِ

٤ — وَبَلاءُ حَمْلُ الأيادى وأنْ تَسْـ مَعَ مَنًّا تُؤْتَى به من مُنِيلِ

قوله « أىُّ عيشٍ » استفهام مبتدأ . والمعنى الإزراء به والذَّمُّ له . « وإذا » تعلَّقَ بما دلَّ عليه عَيشى . والمراد : إذا كنتُ من عَيْشى بين سفرٍ مُتواصل ، ونزولٍ وارتحال متتابِع ، ولا أنالُ دعةً ، ولا أحصِّل خَفْضاً وراحة ، فكأنه لا عيشَ لى . وقوله :

كلُّ فجٍّ من البلادِ كأنِّى طالبٌ بعضَ أهلِهِ بذُحولِ

---

(١) السائل هو النعمان بن المنذر . انظر اللسان (سبب ٤٤٠) والأغانى (١٤ : ٨٧) .

(٢) السبة : الاست . وقيل لأبى حاتم : كيف طعنه فى السبة وهو فارس ؟ فضحك وقال : انهزم فاتبعه ، فلما رهقه أكب ليأخذ بمعرفة فرسه فطعنه فى سبته .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٦٩ ص ١٠٥٢ .

قد سَلَكَ مثلَ هذا المسلكِ أبو تمّام فى قوله :

كأنّ به ضِغْناً على كلِّ جانبٍ   من الأرضِ أو شوقاً إلى كلِّ جانبِ

والمعنى : أنّى لا أقتصِرُ على قَصدٍ مُنتَوًى ، ورَمْى نفسى فى جانبٍ من الأرض مُرتَمًى ، ولكنّى أتنقّل فى أطراف الأرض وآفاقها ، وأضرِبُ فى أعراض البَسيطة وأعماقها ، كأنّى أطلب بعضَ أهلها بتِرَةٍ ، فهو فى الهربِ وأنا فى الطّلَب .

وقوله « ما أرى الفضْل » ينبّه به على أنّ سعيَه فى إصلاح عيشِه ، وتَركِ ما لا يَعنيه من شأنه ، فقال : ليس الفضلُ والعَفاف ، وحَبْسُ النفس فيما بينك وبين الناس على التكرّم والكَفاف ، إلّا إذا زمَمْتَ نفسَك عمّا يتجاوز رمّ الحال[١] ، ووقفتَ عند ما يُمكن الاكتفاء به من المَعاش . فمِنَ البلاء العظيم تحمُّلُ النِّعم عن المُفضِلين ، وتجرّعُ امتنانَ المُنيِلين . وهذا دأْبى فيما ألتزِمُه من التّعَب ، وأحمِلُ عليه نفسى من التَّجوال فى البلاد والتّقلب . وارتفَعَ « بَلاء » على أنّه خبر مقدم ، والمبتدأ حَمْل الأيادى . وقوله « تُؤتَى به » من صفة المنّ .

٤٤٧

وقال محمد بن أبى شحاذ[٢] :

١ — إذا أنت أعطيتَ الغِنى ثم لم تَجُدْ   بفَضْل الغِنَى أُلفيتَ مالكَ حامدُ

٢ — إذا أنتَ لم تعرُكْ بجَنْبِكَ بعضَ ما   يَريبُ من الأَدْنَى رَمَاكَ الأباعِدُ

(١) رم الحال : إصلاحها . وفى الأصل : « مر الحال » ، وأثبت ما فى ل .

(٢) التبريزى : « محمد بن أبى شحاذ الضبى » . أبو الفتح : شحاذ علم غير منقول . قال : وأجيز مع هذا أن يكون فى الأصل مصدر شاحذنى يشاحذنى شحاذا ، إذا راسلك وضاهاك فى شحذ السيف ونحوه . وفى القاموس : « ومحمد بن أبى شحاذ ككتاب شاعر ضبى » .

قوله «إذا أنت» جوابه أُلفِيت ، وهو الفعل الواقع فيه ، لأنّ إذا بتضمُّنه للجزاءِ يطلبُ جواباً ويكون ظرفاً له ، فيقول : إذا نِلتَ اليسار والغِنَى، ومُكِّنْتَ من أطماع الدُّنيا فملكتَها ، ثم لم تتسَخَّ بما يفضُل من وُجْدِك ، وُجِدْتَ لا يُثْنِي عليك حامد ، ولا يَحفظ غيبَك ذائد ، وفى الثّناء الباقى على الدّهر خَلَفٌ من نَفَاد العُمر ، فإنْ لم تكتَسِبْه بما تناله لحِقَك الذّمُّ ممّن ألحاظهم سِهام ، وألفاظهم سِمام .

وقوله « إذا أنت لم تَعرُكْ » جوابه رماك الأباعد . وكما بعث فى البيت الأول على الإفضال وذمِّ الإمساك مع القدرة ، بعَثَ فى هذا البيتِ على مُصابَرة العشيرة واستبقائهم ، وتَركِ مؤاخَذَتهم بما يتّفق من هَفَواتهم ، وتدقيقِ محاسبَتِهم على بَدَوَاتهمْ وزَلّاتهم . فقال : لا يُؤْمِنْكَ إقبالُ الدُّنيا عليك إدْبارَها عنك ، ولا دَولةٌ لك من إدالةٍ منك . واعلَمْ أنّك إذا لم تَعفُ عما يَرِيبك من أدانيك ، ولم تَحتمِلْه فى عفوك وحلمك ، اجترأ عليك الأباعدُ فرمَوْك بما لا صَبْرَ لك عليه مِن أذاهم ومكروههم . ويقال : عرَكتُ كذا بجَنْبِي، أى احتملته وحملتُه منّى بظَهر . والعَرك والدَّلك بمعنًى واحد . وقال : « بعض ما يَريب من الأدنى » ، إشارةً إلى ما يكون فيه على الحلم تَحمِل . لأنّه ليس كلُّ ما يَرِيب يُعَدُّ التجافِى عنه حَسَنًا .

٣-إذا الحِلْمُ لم يَغلِبْ لكَ الجَهْلَ لم تَزَلْ عليكَ بُرُوقٌ جَمّةٌ وَرَوَاعِدُ

٤-إذا العَزْمُ لم يَفْرُجْ لكَ الشّكَّ لم تَزَلْ جَنِيبًا كما اسْتَتْلَى الجَنِيبةَ قائدُ

قوله « إذا الحلم » جوابه لم تزل ، فيقول : تَحَلَّمْ فى كثيرٍ ممّا يعروك ويطرُقك ، وانظُرْ أن تكونَ لك الغَلَبَةُ على جهلك ، والتّملّك لاحتدادك وصَوْلِك ، فإنّكَ إن لم تستعمل الأناةَ فى مقارضاتك ، وتَسرّعْتَ إلى المكافأة على ما يظهر لك ، ولم تضنَّ بمن بلوتَه فعرفتَ مذاهبَه ، وخَبَرْتَ خلائقَه ، وصار

مستَمَدٌ رأيِكَ ومُشتَكَى حُزْنِكَ لم تنتفعْ بغيره ، واجتمعَتْ عليك البُرُوقُ والرواعدُ ممَّن تعده لك وعليك . وهذا مثلٌ لأنواع الأذَى والمكروه ، والتوعُّد بضروبِ القولِ ، وفنون الفعل .

وقوله « إذا العزْمُ لم يَفرُج » جوابه لم تزلْ جنيباً . والمعنى : انظُرْ لنفسك فيما تُشْرِف عليه طالباً للحزْم ثم اعزِمْ ، ودعِ التَّشكُّكَ والتلوُّم فيما يُرِيكَ رَأْيُكَ وإلاَّ بقيتَ تابعاً لغيرك ، متوقِّفاً فيما يمسُّك ، كما يَستَتْبِع قائدُ الخيل مجنوباً له . وهذا بَعْثٌ على اقتحام الأمور ، واستعمال الاستبداد فيها بَعْدَ النظَر والتحزُّم فى الظّاهر ، وتَرْكِ التعرّج[1] على قولِ مانعٍ ، أو دَفْعِ مزَاحِمٍ ، أو مذكِّرٍ بعاقبة . كما وصَّى فى البيت الذى قبلَه بالرفق فى الأمور التى تَكسِب العداوات ، واستعمال الصَّبر فيما يَجلِب الضَّغائن ويُهيِجُ التِّرات .

٥ — وقَلَّ غَناءً عَنْكَ مَالٌ جَمَعْتَه إذا كانَ مِيراثًا وواراكَ لاحِدُ[2]

٦ — تَجَلَّتَ عَارًا لاَ يَزَالُ يَشُبُّهُ سِبَابُ الرِّجَالِ نَثْرُهُمْ والقصائدُ[3]

المراد بذكر القِلَّة هاهنا النفىُ ، لا إثباتُ شىء قليل . وانتصب «غَنَاء» على الحال ، أى مُغْنِيًا عنك . فيقول : لا يُغْنِى عنك مالٌ تجمعُه إذا ذهبتَ عنه وتركته لورثَتِكَ ، فإنّ ما تملكُهُ هو ما تُنْفِقُهُ أيامَ حياتِكَ ، وتَصْرِفُهُ فيما يدَّخِرُ لك أجراً ، أو يَكسِبَ لك حَمْدا ، وأمّا إذا سَتَرَكَ من يُلحِدُ قبرَك ، فما تتركه لغيرك لا حظَّ لك فيه ولا نصيب ، بل تَكْتَسِى عاراً منه لا يزال يُوقِدُ نارَه ، [ويَرْفَعُ فى المحفل ذِكْرَه سِبَابُ الرِّجال ، من النَّثر تارةً[4]] ، ومن النظم

---

(١) ل : « التعريج » .

(٢) التبريزى : « إذا صار ميراثاً » .

(٣) انظر الكلام على هذا البيت فى اللآلى ٤٢٩ .

(٤) هذه التكلة من ل .

أخرى ، لأنّ الباخلَ مذمومٌ بكلِّ لسانٍ حيًّا وميِّتاً ، وفى كل زَمان موجوداً ومفقوداً ، ثم تراه كالجانى على كلّ مَنْ يعرفه ، فهم يذُمُّونه بظَهْرِ الغَيب ، ويَقْذَعُونه فى الحضور ، فلا يزال مسبوباً ، مأكولَ اللّحم مدحورا .

٤٤٨

وقال[١] :

١ — وَيْلُمِّ لِذّاتِ الشَّبابِ مَعيشَةً ... مَعَ الكُثْرِ يُعْطاهُ الفَتَى المُتلِفُ النَّدِى

٢ — وقد يَعْقِلُ القُلُّ الفَتَى دُونَ هَمِّهِ ... وقد كانَ لولا القُلُّ طَلّاعَ أَنْجُدِ

لفظةُ « وَيل » إذا أضيفت بغير اللام فالوجه فيها النَّصب ، تقول : ويلَ زيد ، والمعنى ألزَمَ اللهُ زيداً وَيْلاً ، فإذا أُضِيفت باللام فقيل : ويلٌ لزيد ، فحكمه أن يُرْفعَ فيصير مع ما بعده جملةً ، ابتُدِئَ بها وهى نكرةٌ لأنّ معنى الدُّعاء منه مفهوم . والمعنى : الويل ثابتٌ لزيد . كأنّه عدّه مُحصَّلًا له ، كما يقال : رَحِمَ الله زيداً ! فيُجعلُ اللفظُ خبرًا . وإذا كان حُكم وَيْلٍ هذا وقد ارتفَع فى قوله « وَيْلُمِّ لَذّاتِ الشَّباب » فمن الظاهر أنّ أصلَه وَيْلٌ لأمِّ لَذّات الشَّباب ، فحذف من أمِّ الهمزة ، واللام من ويلٍ ، وقد أُتِىَ حركةَ الهمزة على اللام الجارّة ، فصار وَيْلُمِّ . وقيل : وَيْلِمِّ ، كما قيل : ﴿ الحمدُ لُلهِ ﴾ و﴿ الحمدِ لِلهِ ﴾ إتباعًا لإحدى الحركتين الأخرى ، وقصدُه إلى مَدْح الشَّباب وحَمْدِ لذّاته بينَ لذّات المَعاش

---

(١) يفهم منه أن البيتين لمحمد بن أبى شحاذ . لكن قال التبريزى : « وقال آخر » . وفى الخزانة (١ : ٥٦٣) : « ونسبهما الأعلم الشنتمرى فى حماسته لحميد بن سجار الضبى » . ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن أبى شحاذ يقال له « حميد » أيضا . وكلمة « سجار » محرفة من شحاذ . انظر حواشى اللآلى ٤٢٩ . ونسبهما البغدادى أيضا إلى علقمة الفحل . وهما فى ديوانه ١٣٥ . ونسبا فى اللسان (قلل) إلى خالد بن علقمة الدارمى ؛ وفى (نجد) إلى حميد بن أبى شحاذ الضبى .

وقد طاع لصاحبه الكُثْرُ، وهو كثرةُ المال، فاجتمع الغِنَى والشَّبابُ له وهو سَخِيٌّ مبذِّرٌ فيما يكسبُه ذِكْرًا جميلا، وصِيتًا عاليًا. ثم قال: وقد يَحْبِسُ قِلَّةُ المال صاحِبَهُ دونَ ما يهِمُّ له أو يُهَمُّ به. وقد كان لولا إضاقَتُه وقِلَّةُ ذاتِ يدِه طلّابًا للتَّرَقّى فى درجات الفَضْل والإفضال، طَلّاعًا على عَوالى الرُّتَب فى النِّهايات. وانتصب «معيشة» على التمييز.

٤٤٩

وقالت حُرْقةُ بنت النُّعمان[1]:

١ — بَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحنُ مِنْهمْ سُوقةٌ نَتَنَصَّفُ[2]

٢ — فأُفٍّ لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعِيمُها تَقَلَّبُ تاراتٍ بِنا وتَصَرَّفُ

بينا: كلمةٌ تُسْتَعمَل فى المفاجآت، وهى من ظروف الزَّمان. وقد يقال بينما؛ كأنَّهمْ أرادوا أن يَصلوه بدلًا ممَّا كان يُضاف إليه من قبلُ بما أو بالألف. والمراد: بينَ الأزمنة التى تجرى علينا ونحن نَسُوسُ النَّاسَ ونُدبِّر أمرَهم بما نُريدُ، وطاعتُنا واجبةٌ، وأحكامُنا نافذة، إذا الأمرُ انقلَبَ فاتَّضعت الأحوال، وتسلَّطت الأبدال. وصرنا سُوقةً نخدُم النّاس. والنّاصف فى اللغة: الخادِم. والسُّوقة: مَنْ دونَ المَلِك. ومعنى «والأمر أمرُنا»، أى لا يدَ فوق أيدينا.

---

(١) هى حرقة بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن نمارة بن لخم. المؤتلف ١٠٣. التبريزى: «وحرقة هذه وأخوها حرق ابنا النعمان، وفيهما يقول الشاعر:

نقسم بالله نسلم الحلقه ولا حريقا وأخته حرقه»

ومثله فى اللسان لكن جعل اسم أخيها «حريق» كما فى نص الشعر. ونبه التبريزى على أن الشاعر فتح لام «الحلقة» لضرورة الشعر.

(٢) كذا فى النسختين. وفى التبريزى والمؤتلف واللسان (نصف): «إذا نحن فيهم».

والعامل فى بينا ما دلَّ عليه قولها « إذا نحنُ منهم سُوقة » . وإذا هذه ظرفُ مكان ، وهى المفاجأة ، وقد تقدَّم القولُ فيه .

وقوله « فأفٍّ » فيه لغات عدّة ، يفتح ويكسر ويضم ، وينوّن فى كلّ ذلك ويُترَك التنوينُ فيه . وهو اسمٌ من أسماء الفعل ، وأسماء الفعل أكثرُ ما تقع فى الأمر والنّهى ، وفى باب الخبر تقع قليلا ، فمنها أفٍّ هذه ، ووَاهًا ، وهَيْهات وأحرفٌ أُخَر . ومعنى أفٍّ التَّحقير . كأنَّه قال : حَقارةً لِدُنيا نعيمُها يزول ، وحالها لا يدوم ، بل تَقَلَّبُ بأهلها وتتحوَّل ، وتتصرَّفُ بطُلّابها وتتبدَّل . فمن فتح أفَّ فلخفَّة الفتحة ، ومن كسر فلالتقاء السّاكنَين ؛ لأنَّ الكسر فيه أولَى ، ومن ضمَّ فلإتباع الضَّمة الضمَّة . والتَّنوين فيه أمارة التَّنكير ، وتركُ التنوين أمارةٌ للتعريف .

وقال الحكَم بن عَبْدَل[1] :

١ــ أطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الكريمُ مِن الـ   ـرِّزقِ بنفسى وأُجْمِلُ الطَّلَبَا

٢ــ وأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفِىَّ ولا   أَجْهَدُ أخلافَ غيرِهَا حَلَبَا[2]

---

(١) هو الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدى ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، وكان هجاء خبيث اللسان من شعراء الدولة الأموية ، ومنزله ومنشؤه الكوفة . وكان أعرج لا تفارقه العصا ، فترك الوقوف بأبواب الملوك ، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسله فلا يحبس له رسول ، ولا تؤخر له حاجة ، وفى ذلك يقول يحيى بن نوفل :

عصا حكم فى الدار أول داخل   ونحن على الأبواب نقصى ونحجب
وكانت عصا موسى لفرعون آية   وهذى لعمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها   ويرغب فى المرضاة منها ويرهب

الأغانى (٢ : ١٤٤ – ١٥٣) والمؤتلف ١٦١ .

(٢) التبريزى : « أخلاف غيرها » ، ثم قال : « ويروى : الصفوف .... والصفوف : التى يصف لها إناءان فتملؤهما . ومن روى الصفى فمعناه الغزيرة . وبعض الناس ينشد : ــ

يقول : مَطالبى من الدُّنيا ومَرَاغِبى على حدٍّ من استعمال الكرَم والتعفُّف ، لا يزرى بى نظرُ النَّاظرِ إلىَّ ، لأنى إذا طَلبتُ أجملت ، وإذا سُدَّت مَفاقِرى اكتَفيت[1] ، ثمَّ لا أعوِّل فيما أزاولُه إلا على نفسى ، مُتَّهِمًا سَعْىَ غيرى ، وكلُّ ذلك أبقَى على مراعاة العَفاف والكَفاف .

وقوله : « وأحلب الثَّرَّةَ الصَّفِىّ » يقول : أعلِّق طَمَعى بمَنْ إذَا استُدِرَّ حَلَبُه كان غزيرا ، لأنى لا أسِفُ للمطامع الدَّنيَّةِ ، ولا أضَعُ نفسى فى المواضع الخسيسة . والثَّرَّة : الغزيرة . ويقال : عينٌ ثرثارٌ[2] ، إذا كانت كثيرة الماء . والصَّفِىّ : الجامع بين مَحلَبَين فى حَلْبة . وقوله « ولا أجْهَدُ أخلافَ غُبْرِها حلبا » انتصب الحَلَبُ على أنَّه مصدرٌ فى موضع الحال . والمعنى : أنِّى لا أطلُبُ الزَّهيد الحقير القَدْر ، ولا أستدرُّ البَكِى القليلَ الدَّرِّ . والحَلَب قد يراد به المصدر ، وقد يراد به المحلوب .

٣ — إنى رَأَيتُ الفَتَى الكريمَ إذا رَغَّبْتَه فى صَنِيعـــةٍ رغِبَا

٤ — والعَبْدُ لا يطْلُبُ العَلَاء ولا يُعطيـــكَ شيئًا إلَّا إذا رَهِبَا

٥ — مثلُ الحِمارِ المُوَقَّعِ السَّوْء لا يُحْسِنُ مَشْيًا إلَّا إذا ضُرِبَا

قوله « إنى رأيتُ الفتى الكريم » يقول : إنَّ من تكرُمُ عروقُه وتَزْكو أصولُه ، إذا دعوتَه إلى اصطناع صَنيعة ، وهززتَه لابتناء مكرُمة ، أجابَكَ

— أخلاف غبرها ، يذهب إلى الغُبر الذى هو بقية اللبن . وقد يجوز مثل ذلك إلا أن الكلام يكون كالمقلوب ، لأنه أراد : ولا أجهد غبر أخلافها . ومن روى : أخلاف غيرها فروايته أحسن . يريد أنه لا يحلب إلا ثرة ، كأنه يصف نفسه بطلب الرزق فى مظانه ، ورغبته إلى الكرام ، وإعراضه عن اللئام » .

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، لا واحد لها . وقد يجوز أن يكون جمع مفقر . وأنشد :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

(٢) كذا وقعت فى النسختين بدون التاء . وفى اللسان والقاموس : « ثرثارة » و « ثرارة » .

حريصاً على استغنامه . وتَرَى الدَّنِيَّ الخسيسَ الهِمَّة والنفس لا يطلبُ ارتفاعًا ولا يَكسِب ادِّخارًا ، ولا يُسمِح بشىء إلَّا عن رهبةٍ ، فِعْلَ مَن لا يبتغى فى مَصارِفه حمدًا ، ولا يَقْتَنِي ليومِه وغَدِه خِلًّا ، فهو كالحمار السَّوء ، الذى بظهره آثارُ دَبَرٍ وقد ذُلِّل فى العَمل ، لا يُجيب إلَّا إذا استُحِثَّ حتَّى يُضْرَبَ ، بلادةً منه وكَسَلا . وقوله « لا يُحْسِن » موضعه من الإعراب نصب على الحال . وارتفع « مثل » على أنه خبر مبتدأ مضمر .

وقوله « مثل الحمار الموقَّع » يجوز أن يُرادَ معه الذى فى ظهره أثر الإكاف أو الدَّبَر ، ويجوز أن يُرادَ به المذلَّل ، كما يقال : طريقٌ موقَّع . ويجوز أن يكون من وَقَمْتُ الحديدةَ ، إذا ضَرَبتها بالمِيقَعة ، كأنه لبلادته يُضرَب كثيراً .

٦ ــ ولَمْ أجِدْ عُرْوَةَ الخلائق إلاَّ الدِّينَ لمَّا اعتبَرتُ والحَسَبا

٧ ــ قد يُرْزَقُ الخافِض المقيمُ وما شَــدَّ بعَنْسٍ رَحْـــلاً ولاَ قَتَبا

٨ ــ ويُحْرَمُ المالَ ذُو المَطِيَّةِ والرَّحْـــلِ وَمَنْ لاَ يَزَالُ مُغْـــتَرِبا

قوله « لم أجد » يريد أنَّ مِسَاكَ الخلائقِ الشريفة ، ووثائق عُرَاها ، إنما هى إذا اعتبرَه المعتبِرُ فى الدِّين وعِمارته ، وفى الشَّرف وتحصيله . كأنه جعَلَ طلبَ الحسَب للدُّنيا وأسبابِها والاعتلاء فيها ، وجعَلَ الدِّين للآخرةِ وتقديمِ ما يفوز به مِن رضا الله عزَّ وجلَّ ، والثوابِ الجسيم .

وقوله « قد يُرزَق الخافضُ المقيم » سلك فيه مسلك الآخر[١] فى قوله :

ماذا يُكلِّفك الرَّوْحاتِ والدُّلجا البَرَّ طَوْرًا وطوْرًا تركَبُ اللُّجَجا

البيتين ، وقد تقدَّما .

والخــافض : الوادع الذى لم يُحدِّث نفسَه بتَجْوالٍ وارتحال . فيقولُ : قد

(١) هو محمد بن بشير . الحماسية ٤٣٦ ص ١١٧٣ .

يقالُ الرِّزقَ الواسعَ مَن لا يُؤْثِر على الإقامة فى وطنه شيئاً ، وقد ترَى قاطع الشُّقَّة البعيدة ، وصاحبَ الرَّحْل والمطيَّة ، الصابرَ على الغُربة ، محرومًا مضيَّقَ العَيش، مكدود العُمر . والرَّحْل : مَرْكَب البعير؛ والرِّحالةُ نحوُه؛ وهو السَّرج أيضاً . والقَتَب : إكافُ الجَمَل ، كذا ذكره الخليــل . وقوله « ذو المطيَّة والرَّحْل » ، الرَّحل : مصدر رَحَلْتُ البعيرَ ، إذا شدَدتَ عليه الرَّحْلَ .

٤٥١

وقال آخر :

١ — يأيُّها العـامُ الذى قد رابَنِى أنتَ الفِــداه لذِكْرِ عامٍ أوَّلا
٢ — أنتَ الفِداه لذكْرِ عامٍ لم يَكُنْ نَحْسًا ولاَ بَيْنَ الأَحِبَّــةِ زَيَّلا

يفضِّل أيَّامَه الماضية على أيَّامه الحاضرة ، فقال كالمخاطِب لها : أيُّها العام الذى قد أتى بما يَرِيبنى، جَعلَكَ اللهُ فداءً لعامٍ أوّلَ مِن عامِى ، تقضَّى بما سرَّنى .

وقوله « عامٍ أوَّلَا » ممـا أُلِفَ فيه كثرة الاستعمال ، فوُصِف بصفةٍ لم توصف به نظائرُه ، اعتماداً على التّمارف . والمراد بهذا أنه لم يقل شهرٌ أوّل ولا حَوْلٌ أوّل ، ولا سنةٌ أولى ، وإنما خُصَّ هو بذلك لـكثرة الاستعمال ، ولأنّ دَلالة الحال وتعارُف المتكلّمين به سوّغ الحذف والإجراء على ما أُلِف فيه .

وقوله « أنتَ الفداء » يريد تكرير الدُّعاء على التضجُّر بحاضرِ وقتِه وعامِه ، والتنبيه على ما رابَه منه . فيقول : جعلَكَ اللهُ فداءً لذكرِ عامٍ لم يَعُدْ بمَنْحَسةٍ ، ولا حَــكَمَ بين الأحبَّة بفُرقة . وإنما قال « لذكرِ عامٍ » لأنّ العام وقد تقضَّى لا يصحُّ فيه التَّفْدية . والنَّحس : ضِدُّ السَّعد ، وقد وُصِفَ به الغُبْرَةُ والأمرُ المظلِم . وفى القرآن : ﴿ فى أيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ . ويقال : رجل مُنَحَّسٌ أى محزون .

٤٥٢

وقال الفَرَزْدَق[1] :

١ ـ إذا ما الدَّهرُ جَرَّ على أُناسٍ ... حَوادِثَهُ أَناخَ بآخَرِينا

٢ ـ فقُلْ للشَّامِتِينَ بِنا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كما لَقِينا

يقول : إذَا صُروف الدَّهرِ أناخَتْ على قومٍ بإزالة نِعَمهم ، وتكديرِ عَيشهم ، فجرَت عليهم أذيالَ الشَّرِّ والتَّغيير ، ودَرَسَتْ آثارَهم ومَحت دِوَلَهم[2] ، تراها تنتقل إلى آخَرين ، لأنها كما تَهَبُ ترتجع ، وكما تُولِي تَستلِب .

ثم قال : قل لمن شَمِت بنا فيما رأى من أثَرِ الزَّمان فينا : انتبهوا من رَقدتكم واصْحُوا من شَماتتكم ، فستَلقَوْن كما لقينا ، وتُمتَحنون كما امتُحِنَّا ؛ لأنَّ حَياتَنا وجميع ما في أيدينا عَوَارٍ ، والعَوارِي تُستَرَدُّ وإنْ طالت المُهلة .

---

(١) انظر ما سبق في الحماسية ٢٢٦ ص ٦٧٦ .

(٢) الدول ، كذا وردت في النسختين بكسر ففتح ، وهي و « الدول » بضم ففتح : جمع الدولة .

٤٥٣

وقال الصَّلَتَانُ العَبدىُّ[1] :

١ ـ أَشَابَ الصغيرَ وأفنَى الـكبيرَ كَرُّ اللَّيالِى ومَرُّ العَشِى[2]

٢ ـ إذا ليلةٌ هَرَّمَتْ يَوْمَهَا أتَى بعد ذلك يَوْمٌ فتِى

٣ ـ نَرُوحُ ونَغْدُو لحاجاتِنا وحاجةُ من عَاشَ لا تَنْقَضِى

ذكر فى هذه الأبيات ما تَدور عليه دوائرُ الأيَّام ، وصروفُ الأزمان ، وأنَّها لا تقف عند غايةٍ ، ولا تَعرف فيما تجرِى فيه مَقَرًّا نهاية ، وأنَّ مِن عادتها تغيير الأمور ، وفى تقضِّيها وقضاياها تحويلَ الأحوال ، فقال : إنَّ كُرور الأيَّام ، ومُرورَ اللَّيالى والأوقات ، تراها تجعل الصَّغير كبيراً ، والـكبير حقيرا ، وتجعل الطِّفلَ شابًّا ، والشَّيخ فانياً ، فـكلَّما خَلُقت جِدَّةُ يومٍ جاء بعدَها يومٌ آخر فَتِىٌّ جديد ، ونحن فيها نَدأب فى حاجاتنا ، فلا نحن نَمَلُّ ، ولا حاجاتنا تَفنَى أو تقِلُّ ، ولا الوقتُ بنا يقف ، ولا واحدٌ منا يَنتَظِرُ أو يَتوقَّف ، إذ كان ذُو العيش مآربُه متَّصلة ، كما أنَّ أوقاتَه دائرةٌ متتابعة .

---

(١) كذا ورد فى نسخ الحماسة . وفى الحيوان (٣ : ٤٧٧) : « وقال الصلتان السعدى ، وهو غير الصلتان العبدى » ، ثم أنشد الأبيات . لكن ذكر المرزبانى فى معجمه ٢٢٩ « الصلتان العبدى » ، ثم قال : « وله القصيدة التى يوصى فيها ابنه ، وهى طويلة حسنة كثيرة الأمثال » . وأنشد الأبيات . والصلتان لقب لعدة شعراء أحدهم الصلتان الفهمى . قال الآمدى فى المؤتلف ١٤٥ : « لست أعرفه فى شعرائهم ، وأظنه متأخراً » . وثانيهم الصلتان العبدى أحد بنى محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ، وهو الذى قضى بين جرير والفرزدق فى قصة مشهورة ، واسمه قثم بن خبية . قال الآمدى : « شاعر مشهور خبيث » . والثالث الصلتان الضبى ، قال الآمدى : « ولست أعرفه فى شعراء بنى ضبة ، وأظنه متأخراً » . والرابع « الصلتان السعدى » الذى ذكره الجاحظ فى الحيوان . انظر أيضاً الخزانة (١ : ٣٠٨) والشعراء ٤٧٥ — ٤٧٩ واللآلى ٧٦٦ .

(٢) وكذا وردت الرواية فى الشعراء . وفى سائر المراجع والتبريزى : « كر الغداة » .

معنى هرِمت يومَها : ضَعّفته مُسْلِمًا للزّوَال . ويقال : هو ابن هَرْمَةِ أبيه ، كما يقال : هو ابن عِجْزة أبيه ، لآخِرِ الأولاد ، كأنّه من الهَرَم . والهَرْمَى من الخَشَب : مالا دُخانَ له ، لِعِتْقِه وذهاب قُوّته . والفَتِيُّ مصدره الفَتاء ، وضدّه الذّكِيّ . ويقال : فَتاء فُلانٍ كَذَكاء فُلانٍ وكتذكِيَة فلان .

٤ — تَموتُ مع المرء حاجاتُه ويبقَى له حاجَةٌ ما بَقِي[1]

٥ — إذا قُلتَ يَوْمًا لمن قد تَرى أرُونِي السَّرِيَّ أرَوْكَ الغَنِي[2]

يقول : تموت مع المرء حاجاتُه . يريد أنّ المرء ما دام حيًّا فمآربُه وشهواتُه تتجدّد تَجَدُّدَ[3] الأوقات ، وأمانيه تتّصل ما اتّصَلَ عمره ، فإذا جاء أجله وتناهى أمَدُه ، انتهت مآربُه ، ووقفَتْ مطالبه .

وقوله « إذا قلت يوماً لمن قد ترى » يريد : وإن سألتَ كلَّ مَن تقعُ عينُك عليه من المَيزِّين ، عن سَراة الرِّجال وكِرامهم ، أحالُوا على المُثْرِين وإن ضعُفَت رغباتُهم فى اكتساب الخير ، واستجلاب الحمد . والسَّرْوُ : سخاء فى مُرُوّةٍ . ويقال : سَرُوَ الرجل يَسْرُو ، وهو سَرِيٌّ من قوم سَرَاةٍ . وكأنّ هذا سلَكَ مسلك الآخر[4] حين قال :

وأنّ ثَرَاء المالِ يَنفَعُ رَبَّهُ ويُثْنِي عليه الحَمْدَ وهو مُذَمَّمُ

٦ — ألم تَرَ لُقمانَ أوصَى بنيهِ وأوصيْتُ عَمْراً وَنِعْمَ الوَصِي[5]

٧ — بُنَيَّ بدا خِبُّ نَجْوَى الرِّجالِ فكُنْ عِنْدَ سِرِّكَ خَبَّ النَّجِي[6]

(١) فى التبريزى وسائر المراجع : « وتبقى له » بالتاء .
(٢) وكذا فى التبريزى والشعراء والخزانة . وفى الحيوان : « يوما لدى معشر » .
(٣) ل : « بتجدد » .
(٤) هو مالك بن حزيم الهمدانى . الحماسية ٤٣٤ ص ١١٧١ .
(٥) التبريزى : « فنعم الوصى » . المرزبانى : « أوصى ابنه » .
(٦) انظر ما سبق فى الحماسية ٤٤٥ ص ١١٩٢ .

٨ — وسِرُّكَ ما كانَ عندَ امْرِئٍ ‌‌ وسِرُّ الثَّـلاثَةِ غيرُ الخَـفِى[١]

معنى « ألم تر » : اعلم . ويريد التنبيهَ على أنّ له فى وَصاته ابنَه اقتداء بالحكماء قبلَه ، فكما ساغ لُقمانُ أن يوصِى ابنَه ساغ للصَّلَتَانِ أن يُوصِى عَمْرًا ولده . والمحمود فى قوله « نعم الوصى » محذوف ، كأنه قال : ونعم الوصىّ هو . وهذا ترغيبٌ منه لعمروٍ فى الاحتذاء بما يَرْسُمُ له . وقوله « بنىّ بدا خِبُّ نَجْوَى الرِّجال » ، فالخِبُّ : المكر بكسر الخاء ، والخَبُّ بفتحها : المكّار . ومثله رجلٌ صَبٌّ . والنجوى : مصدر ، وهو يستعمل فيما يَتحدَّث فيه اثنانِ على طريق السَّتر[٢] والكتمان . فيقول : إذا ناجيتَ صاحباً لك فكن خَبًّا فيما تُودِعه من سِرِّك ، فإن نَجْوَى الرِّجال إذا بدا خِبُّها ، ومكرَ أربابها فيها ، عادت وبالاً وفضيحة . والنَّجِىُّ يقع على الواحد والجمع ، وكذلك النَّجْوَى . وفى القرآن ﴿ إذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ .

وقوله « وسِرُّك ما كان عند امرئٍ » ذهب فيه مذهبَ مَن قال :

إذا جاوز الاثنَـيْنِ سِرٌّ فإنَّهُ ‌‌ بِبَثٍّ وتـكثير الوُشاةِ قَمِينُ[٣]

وقد قيل فى « الاثنين » من هذا البيت أراد به الشَّفتَين . وكأنّ من فسَّر هذا التفسير يريد : لا تُفشِ سِرّك إلى أحد .

آخر باب الأدب ، والحمدُ لله وحده ، والصلاة على نبيه محمد وآله بعْدَه .

---

(١) بعده عند التبريزى :

كما الصَّمْتُ أَدْنَى لِبَعْضِ الرَّشَادِ ‌‌ فبَعْضُ التَّكَلُّمِ أَدْنَى لِغِى

(٢) ل : « السر » .

(٣) ل : « ببث » بالنون . والبيت لقيس بن الخطيم فى ديوانه ١٨ . وفى الديوان : « بنشر » .

بَابُ النَّسِيبِ

بابُ النَّسِيبِ [1]

٤٥٤

وقال الصِّمَّةُ بنُ عَبدِ اللهِ القُشَيرِى [2] :

١ — حَنَنْتَ إلى رَيَّا ونَفسُكَ باعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وشَعْبا كُما مَعَا

٢ — فما حَسَنٌ أن تأتِيَ الأمرَ طائِعًا وتَجْزَعَ أن دَاعِى الصَّبابةِ أَسْمَعا

الحنين : تألُّم من الشَّوق وتشكٍّ . وريَّا ؛ اسمُ امرأة [3] . فإن قيل : هَلَّا قيل رَوَّى ، لأنَّ فَعْلَى إذا جاء اسماً من بنات الياء يقلب ياؤه واوًا ، على هذا الفَتوَى والشَّروَى والتَّقوى والبَقوى ؟ قلت : إنه سمِّى به منقولاً عن الصِّفة ، وفَعْلَى صفةً يصحّ فيه الياء ، على هذا قولهم : خَزْيَا وصَدْيَا ورَيَّا كأنه تأنيث رَيَّان فى الأصل ، كما يقال عطشان وعطشى ، ثم نُقل من باب الصِّفات إلى باب

---

(١) التبريزى : « النسيب : ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاستهتار بمودات النساء والصبوة إليهن . والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » .

(٢) هو الصمة بن عبد الله بن الطفيل بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سامة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، شاعر إسلامى بدوى مقل ، من شعراء الدولة الأموية ، ولجده قرة بن هبيرة صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ووفادة . وكان من خبر الشعر ما روى التبريزى وأبو الفرج فى الأغانى (٥ : ١٢٧) وياقوت فى (البشر) والسيوطى فى شرح الشواهد ٧٩ : أن الصمة خطب ابنة عمه إلى أبيها ، فقال : لا أزوجكها إلا على كذا وكذا من الإبل (فى رواية التبريزى أنها خمسون) . فذهب إلى أبيه فأعلمه بذلك ، وشكا إليه ما يجد بها ، فساق الإبل عنه إلى أخيه ، فلما جاء بها عدها عمه فوجدها تنقص بعيراً ، فقال : لا آخذها إلا كاملة ، فغضب أبوه وحلف لايزيده على ما جاء به شيئاً ، ورجع إلى الصمة فقال له : ما وراءك ؟ فأخبره ، فقال : تالله ما رأيت قط ألأم منكما جميعاً . وإنى لألأم إن أقمت بينكما . ثم ركب ناقته ورحل إلى ثغر من ثغور الشام فلقى الخليفة فكلمه ، فأعجب به وفرض له فرضاً ، وألحقه بالفرسان ، فأقام به حتى مات . وفى ذلك يقول هذا الشعر . والأبيات عند القالى (١ : ١٩١ - ١٩٢) .

(٣) هى ابنة عمه التى أراد الزواج بها .

النَّسِية بها فتركَ على بنائه . وقوله « ونفسُكَ باعَدَتْ » الواو واو الحال ، وهى للابتداء ، ومعنى باعَدَت بَعُدَتْ ، وهو كما يقال ضَاعَفَتْ وضَعَّفَتْ . وفى القرآن : ﴿ باعِدْ بَيْنَ أسفارنا ﴾ .

والمَزَار : اسمُ مكان الزِّيارة . والشعب . شَعْب الحىّ ، يقال : التأمَ شَعْبُهم ، أى اجتمعوا بعد تفرُّق ، وشَتَّ شَعْبُهم ، إذا افترقوا بعد تجمُّع . وقوله « وشُعبا كما معا » الواو واو الحال أيضاً ، والعامل فى « ونفسُكَ باعَدَتْ » حَنَنْتَ ، وفى قوله : « وشعبا كما » باعدت . ومعنى قوله : « معا » مجتمعان ومصطحبان ، وموضعه خبر المبتدأ .

وقوله « فما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعاً » فى حَسَنٍ وجوهٌ : يجوز أن يكون مبتدأً ، وجاز الابتداء به وهو نكرةٌ لاعتماده على حرف النفى ، و « أنْ تأتىَ » فى موضع الفاعل لحَسَنٌ ، واستَغْنَى بفاعله عن خَبَرِه ، والتقدير : ما يَحْسُن إتيانك الأمرَ طائعا . وانتصب طائعا على الحال من أن تأتى . ويجوز أن يرتفع حسنٌ على أنه خبر مقدَّم ، وأن تأتى فى موضع المبتدإ . ويجوز أن يرتفع حسنٌ بالابتداء وأن تأتى فى موضع الخبر ، وهذا أضعف الوجوه لكون المبتدإ نكرةً والخبر معرفة .

وقوله « وتجزع أن دَاعِى الصَّبابة » أنْ مخففة من أنَّ الثقيلة ، والمراد : وتجزع مِنْ أنَّ داعىَ الصَّبابة أسمَعَكَ صوته ودعاك .

ومعنى البيتين : شكوتَ شَوْقَكَ إلى هذه المرأة ، وأنت آثرْتَ البُعدَ عنها بعد أن كان حَيَّا كُما مجتمعين ، وليس بجميلٍ اختيارُكَ الأمرَ طائعاً غيرَ مُكْرَه . وجزعك بعده ، لأنَّ داعىَ الشَّوق والعائد منه إليك أسمَعَكَ وحَرَّكَ منك .

٣ ـــ قِفَا وَدِّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنا أنْ يُوَدَّعَا

٤ ـــ وليسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَـكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

يخاطب صاحبينَ له يستوقفُهما ويكلِّفهما توديعَ نجدٍ معه والنَّازلِ بالحمى معه . ثمَّ استأنفَ فقال ملتفتاً : ويقِلُّ لنجدٍ وساكنه التَّوديعُ منَّا ، لأن حقَّهما أعظم

من ذلك ، ولكنّا لا نَقْدِر على غيره . والحِمَى : موضعٌ فيه ماءٌ وكلأٌ يُمنع منه الناس . ويقال : أحمَيْتُ المكانَ ، إذا جعلتَه حِمًى . وحكى ابنُ الأعرابيّ أنهم يقولون للمكان وقد أُبطِلَ وأُبيحَ ولم يُحْمَ : بَهْرَجٌ . وأنشد :

فَخَـيَّرْتَ بَيْنَ حِمًى وبَهْرَجٍ ما بينَ أجْرَاذٍ إلى وادِى الشَّجِى[1]

وقوله « أن يُوَدِّعا » فى موضع الفاعل لقلّ .

ومعنى قوله « وليسَتْ عشيّاتُ الحِمَى برواجِع » أنك وإن أفرطتَ فى الجزَع ، فإنّ أوقاتَ المواصَلة بالحِمَى مع أحبابك لا تكاد تعُود ، ولكنْ أدِمِ البكاء لها ، مع التوجُّع فى إثرِها ، تجِدْ فيه راحةً . وفى هذا إلمام بقولِ الآخر :

فقُلْتُ له إنّ البُكاء لَراحةٌ به يَشتفِى مَن ظَنَّ ألاّ تَلاقيا

وقوله « تدمعا » جواب الأمر . ولو قال تدمعان ، لكان حالاً للعينَين .

٥ — ولمّا رأيتُ البِشْرَ أعرضَ دُونَنَا وحالَتْ بَنَاتُ الشَّوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعَا[2]

٦ — بَكَتْ عَيْنِىَ اليُمْنَى فلما زَجَرْتُها عن الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أسْبَلَتَا مَعَا[3]

البِشْر : جبل[4] . وأعرض دُونَنا : أبدى عُرْضَه . وحالت : تحرّكَتْ . يقال : استَحَلْتُ الشّخصَ ، إذا نظرتَ هل يتحرّك . ومنه لا حَوْلَ ولا قوّةَ إلاّ بالله ! والمعنى : لمّا تباعَدْنا عن نَجْدٍ ؛ وحجَزَ بيننا وبينه البِشْر ، تحركَتْ بناتُ الشوق نوازعَ كثيرةَ الحنين ، مظهِرةً ضَعف الصّبر . وجواب لما قوله « بكَتْ عَيْنِىَ اليُمْنَى » . وأراد ببناتِ الشّوق مسبِّباته . وهذا كما قال الآخر[5] :

يَضُمُّ إلىّ اللّيلُ أطفالَ حُبِّها كما ضَمّ أزرَارَ القميصِ البنائقُ

(١) أجراذ : موضع بنجد .
(٢) الأمالى والأغانى : « وجالت » بالجيم .
(٣) التبريزى والأمالى : « بكت عينى اليسرى » .
(٤) جبل فى أطراف نجد من جهة الشام .
(٥) هو المجنون ، كما فى اللسان (بنق) .

فأطفالُ الحبِّ كبنات الشوق . والنُّزَّع ، الأشهر فيه أن يكون جمعَ نازع بمعنى كافٍّ ، فوضَعَها موضعَ نوازِع، واللفظتان المتواخِيَتان لكونهما من أصلٍ واحد يُستعار ما لإحداهما للأخرى . وإنما قال « بكَتْ عينىَ اليُمنى » لأنه كان أعور ممتَّعا بعينه اليُسرَى[1] . والعَين العَوراء لا تَدْمَع . فيقول : بكَتْ عينىَ الصحيحة ؛ فاجتهَدْتُ فى زَجْرِها عن تَعاطِى الجهل بعد أنْ كنتُ تحلمتُ وتركْتُ الصِّبَى، فلما تكلفتُ ذاك لها أقبلَتِ العوراء تَدْمعُ معها وتبكى . ونبَّه بهذا على عِصْيان النفس والقَلب ، وقِلَّة ائتمارهما له ، وأنهما إذا زُجِرا ورُدَّا عن مَواردهما زادا على المُنكَر منهما .

٧— تَلَفَّتُّ نحوَ الحىِّ حتى وجَدْتُنى وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخْدَعا

٨— وأذكُرُ أيّامَ الحِمَى ثم أنثَنِى على كَبِدِى مِن خَشْيَةٍ أن تَصَدَّعا

يقول : أخَذْتُ فى مَسيرى لمَّا أبصَرْتُ حالَ نفسى فى تأثير الصَّبابة فيها ، ملتَفِتاً إلى ماخلَّفْتُه من الحىِّ وأرضِ نجدٍ ، حتى وجدتُنى وجِعَ اللِّيتِ — وهو عِرْقٌ فيها — لطُولِ إصغائى ، ودوام التفاتى ؛ كلُّ ذلك تحسُّرًا فى إثْر الفائت من أحبابى وديارِها ، وتذكُّراً لطِيب أوقاتى مَعَهم فيها . وقد قيل فيه : إنَّ مِن رُموزهم أنَّ مَن خَرَج من بلدٍ فالتفتَ وراءه رجَعَ إلى ذلك البلد . وأنشد فيه أبياتٌ منها قولُه :

عِيلَ صَبْرِى بالثَّعْلَبِيَّةِ لمّا طال ليلى ومَلَّنى قُرَنائى[2]

كلّما سارت المطايا بنا مِيلاً تنفَّسْتُ والتفَتُّ ورائى

(١) كناية عن أن عينه اليسرى هى العوراء . جاء فى الكنايات للثعالبى ص ٣٦ س ٥ : « ويكنى عن الأعور بالممتع » .

(٢) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « بالتغلبية » تحريف . والثعلبية : منزل من منازل طريق مكة من الكوفة ، قالوا : نسبت إلى ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء .

قالوا : التفتَ لكى يُقضَى له الرُّجوع ، لكونه عاشقاً .

وانتَصَب « لِيتاً » لأنه تميز ، وهذا من باب ما نُقِل الفعلُ عنه ، كأنَّ الأصل : وَجِعَ ليتى وأخْدَعِى ، فلما شُغِل الفعلُ عنهما بضميره أشْبَها المفعولَ فنصبَهما . ومثله : تصبَّبْتُ عرَقًا ، وقررْتُ به عَيْناً .

وقوله « وأذكرُ أيّامَ الحِمَى ثم أنثنى » يقول : وأتذكّرُ أوقاتى بالحِمَى لَمّا كانَ من أسباب الوصال تَساعُد ، وبينَ دُورِنا ودُور الأحبة تقارُبٌ ، وللتَّراسُل إمكان ، ومع الحبيبِ فى الوقتِ بعدَ الوقتِ تلاقٍ واجتماع ، ثم أنعطِفُ على كبدى وأقبِضُ عليها مخافةَ تشقُّقِها ، وخُروجِها من مواضعها ، شوقاً إلى أمثالها ، وحسرة فى إثرِ منقَطَعها .

وقد ذكر هذه الأبياتَ أبو عبدِ الله المفجّعُ رحمه الله ، فى حدِّ الغَزَل من كتابه المعروف بالتَّرجُمان ، فذكر بيتين منها فى (باب الصَّبابة) ، وهما :

* حننتَ إلى رَيَّا ونفسُك باعدَتْ *

و : * فما حسنٌ أن تأتى الأمرَ طائعاً *

وقال فى تفسيرها[1] : « يقول : الحربُ بينَك وبين قومِك تَمنعُك مِن قُربها ولقائها » . وذكَرَ مع البيتين قولَ عنترة :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتُلُ قومَها زَعْمًا لعَمْرُ أبيك ليس بمَزْعَمِ

ثم جاء إلى (باب الحنين) ، فذكر ما فى الأبيات ،

* وأذكرُ أيّامَ الحمى *

و : * وليسَتْ عَشيّاتُ الحمَى برواجعٍ *

و : * بكَتْ عَيْنِيَ اليُمنَى *

---

(١) نقل هذا النص موجزا التبريزى فى شرحه للحماسة . وما هنا أوفى وأتم .

الأبيات ، وقال فى تفسيرها : هذا كانَ مجاوراً لأحبابه وهم منتجِعُون بجُنُوب الحِمَى[1] فنشأتْ عينٌ — والعينُ : سحابةٌ تجىء من ناحية القبلة — فنشأَتْ مِنْ عَنْ يسارِ القبلة ، فارتاعَ لذلك ، وخَشِىَ الفرْقَةَ إذا اتّصل الغيث ، فذلك معنى قوله : بكَتْ عَيْنِى اليُسْرَى[2] ، كناية عن السحاب . وجَهلُهَا : كثرةُ مَطرها . وجعَلَ ارتياعَه منها زجراً لها . ثم نشأتْ أُخرى مِنْ عَن يمينِ القِبْلة ، فأيقَنَ حينئذٍ بالفراق . فذلك معنى قوله : أسْبَلتَا معا . ثم قال معترِفاً بالبَيْن : خلِّ عينَيك تدمَعا ، يعنى السّحابتَين . وقال جرير :

إنَّ السَّوَارِىَ والغَوادِىَ غَادرَتْ ... لِلرِّيحِ مُنْخَرَقاً بها ومَجَالا » .

هذا كلامُه فى كتابه ، وقد حكَيْنَاه على ما أورده لا زيادةَ فيه ولا نُقصان . وأظنُّ أنه تذكَّرَ أبياتاً غيرَ هذه ، ثمَّ تصرَّف فى تفسيرها وذكَرَ هذه الأبيات فى أثناءِ تفسيرِ ما ذكَرَه ، ولم يأْتِ بها . وقد أحسَنْتُ الظَّنَّ مُستطرِفاً فِعلَه . والله أعلم .

٤٥٥

وقال آخر[3] :

١ — ونُبِّئْتُ لَيْلَى أرْسَلَتْ بشَفاعةٍ ... إلىَّ فهلَّا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا

٢ — أأَكْرَمُ مِنْ لَيْلَى علَىَّ فتَبْتَغِى ... به الجاهَ أَمْ كنتُ امرَأً لا أُطيعُها

نُبِّئَ يحتاج إلى ثلاثةِ مفاعيل ، وقد حصَلَتْ إلى قوله «أرسَلَتْ بشفاعةٍ إلىَّ» .

---

(١) جنوب ، ضبطت بضم الجيم فى النسختين . والجنوب : جمع جنب ، بمعنى الناحية.

(٢) يفهم من هذا أن رواية المفجع : « بكت عينى اليسرى » ، كما روى التبريزى والقالى . انظر ما سبق فى ص ١٢١٧ .

(٣) هو الصمة بن عبد الله القشيرى صاحب المقطوعة السابقة . أو هو عبد الله بن الدمينة صاحب المقطوعة اللاحقة ، وقيل : هو المجنون . انظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ٧٩ .

وقوله « هَلَّا نَفْسَ ليلى » هلَّا : حرفُ تحضيض ، وهو يطلُب الفعل ، وقد وَقَع فى البيت بعده جملةٌ من مبتدإ وخَبَر . وفارق « هَلَّا » هذه أختَها « لولا » فى قوله :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أفضَلَ مَجدِكم   بَنِى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىَّ المقنعا[1]

وذاك لأنّ تأثيرَ الفعلِ بالنصب بعد لولا من البيت دلَّ عليه ، فأمْرُه فى إضمار الفِعْل بعده قوىّ . وهذا لم يَصْلُحْ له أن يَنصِب النفْسَ بعد هَلَّا ، فكانَ يجئُ التقديرُ : فهَلَّا أرسلَتْ نفْسَها شَفيعَها ؛ لأنّ القوافىَ مرفوعةٌ ، فجَعَلَ ما بعده مبتدأً لمّا لم يتأتَّ له ما تأتّى لذاك[2] . وقد يفعلون هذا فى الحروف المختصّة بالأفعال إذا كان فى الكلام دَلالةٌ على المضمر من الفِعل . ألا ترَى أنْ لوْ يَطلُب الفعل . ثمّ جاء قولُه تعالى : ﴿ قُلْ لو أنتُم تَمْلِكُونَ خزائنَ رَحْمَةِ رَبّى إذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفَاق ﴾ . وعلى ذلك جاء إنْ الجازمةُ الدَّالّة على الشرط فى وُقوع الاسمِ بعدَه ، وإنْ كان يطلُب الفعلَ عاملاً فيه بالجَزم ، وذلك نحو : إنْ زيدٌ أتانى أكرمْتُه . وقول الشاعر[3] :

* إنْ ذو لُوثةٍ لانا[4] *

وما أشبَهَهُ . فإن قيل : هَلَّا جعلتَ المضمرَ بعد هَلَّا فعلا رافعاً فيرتفعُ النفسُ به لا بالابتداء ، كما يُفعَل ذلك فى : إن زيدٌ أتانِى أكرمته ، فيصير هلّا

---

(١) هو جرير ، من قصيدة يهجو بها الفرزدق . الخزانة (١ : ٤٦١ – ٤٦٢) .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لما يتأت لذلك » ، تحريف ونقص .

(٣) هو قريط بن أنيف . انظر ص ٢٢ ، ٢٥ .

(٤) البيت بتمامه :

إذاً لقام بنصرى معشر خشن   عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

فى ذلك أجْرَى فى بابه من أن يكون ارتفاعُه بالابتداء ؟ قلتَ : إنَّ قولَكَ إنْ زيدٌ أتانِى أكرمتُه ، ارتفع زيدٌ بفعلٍ هذا الظاهرُ تفسيرُه ، وأكرمتُه جوابُ إنْ ، فساغَ فيه ما لم يَسُغْ هاهنا ، لأنه ليس هاهنا شىء يكون تفسيراً لذلك الفعل . وإنَّما جاء بدَلَ الفِعل المفسَّر شفيعُها ، ويكون خبراً لا غير ، وإذا كان كذلك لم يُمْكِنْ حَملُ هذا عليه .

ومعنى البيت : خُبِّرتُ أنَّ ليلَى أرسلَتْ إلىَّ ذا الشَّفاعةِ[1] فى بابها ، تَطلُب به جاهاً عندى ، مستكفية[2] عن ذِكرِها فى الشِّعْر وعن إتيانها وما يَجرى مَجراه . ثم قال : هَلَّا جعلَتْ نفْسَها شفيعاً . فقوله « بشَفاعةٍ » حذف المضاف وأقام المضافَ إليه مَقامه ، الفعلُ الذى يقتضيه هَلَّا دلَّ عليه شفيعُها ، لو قال : هَلَّا نَفْسُها شفيعُها — لكان أقربَ فى الاستعمال ، إلاَّ أنه قَصَدَ إلى التَّفخيم بتكرير اسمها .

ثم قال : « أأكرمُ مِنْ ليلَى علىَّ » ، فأتَى بلفظ الاستفهام ، والمراد التَّقريع والإنكار ، كأنَّه أنكَرَ منها استعانتَها بالغير عليه ، وطلَبَ الشَّفيع فيما أرادت لَديه . وقوله « فتبتغِى » فى موضع النصب على أن يكون جوابَ الاستفهام بالفاء . وقوله « أم كنت » هى أم المتَّصله ، كأنَّه قال : أىَّ هذين توهمْتِ : طلبُ إنسانٍ أكرَمَ علىَّ منها ، أم اتِّهامُها لطاعتى لها . وخبر أكرم علىَّ محذوفٌ ، كأنَّه قال : أأكرمُ منها موجود ، [أو[3]] فى الدُّنيا .

(١) ل : « ذا شفاعة » .

(٢) ل : « مستكفة » .

(٣) التكملة من ل .

٤٥٦

وقال آخر[١] :

١ — أَمَا يَستفيقُ القلبُ إلاَّ انبرَى لَهُ ... توهُّمُ صَيفٍ من سُعادَ ومَرْبعِ

٢ — أُخادِعُ عَن أطلالِها العينَ إنَّهُ ... مَتى تَعْرِفِ الأطلالَ عينُكَ تَدْمَعِ

٣ — عَهِدتُ بها وَحْشًا عليها براقِعٌ ... وهذِى وُحُوشٌ أصبحَتْ لم تَبرقَعِ

استفاق وأفاق بمعنى صحا . وانبرَى : تعرَّض . وأراد بالصَّيف المَصِيف . وقوله « من سعاد » أراد من دار سُعادَ وأرَضِيها[٢] . و « أمَا » هى ما النافية أُدخِل عليها ألفُ الاستفهام تقريرًا أو إنكارا . والمراد : لا يحدُث القلبُ بالسُّلوّ والإفاقة ممَّا تداخَلَه من علائق حبِّ هذه المرأة ، وتشبَّثَ به فألْهاهُ عن كلِّ شىء ، إلاَّ اعترضَ له تذكُّرُ مَصيفٍ ومَرْبعٍ من أرَضِيها[٢] بعد التوهُّم . كأنه كان يَقِفُ على منازلها فيتوهَّمُها بآياتها وعلاماتها ، ثم يَعرِفُها . وأكثَرُ ما يذكرون التَّوهُّمَ فى الدِّيار يعقِّبونه بالعِرفان دونَ العلم . وهذا أحدُ ما نَفْصِل به بين العِلم والمعرفة ، ولهذا وأشباهِه نمتنع من أن نصِفَ اللهَ تعالى بأنَّه عارفٌ . لذلك ، قال زهير :

---

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « وقال ابن الدمينة » . والأبيات فى ديوان ابن الدمينة ٢٥ . والدمينة أمه ، وهى الدمينة بنت حذيفة السلولية ، وهو عبد الله بن عبيد ، أحد بنى عامر بن تيم الله بن مبشر بن أكلب بن ربيعة بن عفرس بن خلف بن أفتل ، وهو خثعم بن أنمار . وابن الدمينة : شاعر إسلامى رقيق النسيب ، اختار له أبو تمام فى هذه الحماسة ست مقطوعات ، وكفى ذلك شاهداً على منزلته . انظر الأغانى (١٥ : ١٤٤ — ١٥٠) واللآلى ١٣٦ والشعراء ٧٠٩ . وقد طبع ديوانه فى مصر سنة ١٣٣٧ بتحقيق محمد الهاشمى البغدادى .

(٢) كذا فى ل بالجمع . وفى الأصل : « بأرضها » بالإفراد .

(٣) صدره : « وقفت بها من بعد عشرين حجة »

* فَلَأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بعد تَوَهُّمِ[1] *

وأشباهُه كثير .

وقوله « توهُّمُ صيفٍ » حقيقته أنَّه حذف المضافَ وأقام المضافَ إليه مقامه ، كأنَّه قال : توهُّمُ موضعِ صيفناً ، فيكون الصَّيف مصدر صِفْنَا بالمكان نَصِيفُ به صَيْفًا . وقوله « مربع » يجوز أن يَكونَ اسمَ المكان .

وقوله « أُخَادِعُ عن أطلالها العيْنَ » يريد أنِّى إذا وقفتُ على آثارِ دارِها[2] وجوانبِ مَحالِّها رُمْتُ خَدْعَ النَّفسِ والعَينِ عن تأمُّلها ، تفادياً مما يتسلَّط من الوَجد بها ، ويتجدَّدُ لى من الصَّبابة نحوَها . ولئلَّا أتذكَّرَ بما أتفرَّسُ فيها أحوالى قبلَها ، لأنَّ العينَ إذا عرفَتْها وَكَفَتْ بالدَّمع ، والنَّفسَ إذا تبيَّنتْها أُشْقِيت بالوجد .

وقوله « عهِدتُ بها وحْشًا » هذا تحسُّرٌ فيما رأى الدَّارَ عليه من الاستبدال وُحوشًا ، فقال : عهِدتُ بها نساء مبرقَعة — يشير بذلك إلى عَفافها وقلَّةِ تبرُّجها — كالوحشِ كالاً وحُسنًا ، ونفُورًا عن الرِّيَب ، وأرى الآنَ وُحوشاً تختلِفُ فيها غير مبرقعة . وفى هذه الطَّريقة قول الآخَر :

يَعِزُّ علىَّ أن يُرَى عِوَضَ الدُّمَى ... بحافاته هَامٌ وبُومٌ وهِجرِسُ[2]

وقوله « عليها براقع » صفةٌ للوحش ، وكذلك « أصبحت لم تبرقع » .

٤٥٧

وقال آخر :

١ — فيارَبِّ إن أَهْلِكْ ولم تُرْوِ هامتِى ... بلَيلَى أَمُتْ لا قبرَ أعطشُ من قبرِى

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ديارها » .

(٢) الهجرس : ولد الثعلب.

٢ ــ وإن أكُ عن ليلَى سَلَوتُ فإنّما تَسلّيْتُ عن يَأسٍ ولم أسْلُ من صَبْرِ[1]

٣ ــ وإن يَكُ عنْ ليلَى غِنَى وتجلُّدٌ فرُبَّ غِنَى نَفْسٍ قريبٍ من الفقْرِ

حذف الياء من « يا رب » لوقوعها موقعَ ما يحدث فى باب النِّداء ، البتّة ، وهو التنوين ، ولأنَّ الكسرة تدلُّ عليه ، ولإنَّ بابَ النداء بابُ حذْفٍ وإيجاز ، لكثرةِ تردُّدِه فى الكلام ، وقوله « أمُتْ » جوابُ الشَّرط . وقوله « لا قَبْرَ أعطَشُ مِن قبرى » الجملةُ فى موضع الحال . وقد رُوِى : « تَرْوَ » بفتح التاء ويكون الفعل للهامة ، « وتُرْوِ » بضم التّاء والفعل لله عزّ وجلّ . فيقول متألّما من بَرْحِ الصَّبابة ، وعَطَش الاشتياق ، ومتشكِّيا إلى الله تعالى : يا ربِّ إن مُتُّ ولم أنَلْ شِفاء من دائى ، ورِيًّا من عطَشِى إلى هذه المرأة مُتُّ ولا قبرَ لعاشقٍ أشدُّ عطشاً من قبرى . وإنما قال : لم ترو هامتى ، لأنّهم كانوا يزعمون أنّ عظامَ الموتى تصير هاماً فتطير . والأصلح فى هذا المكان أن يكون جَعَلَ نفسَه مُقتَتَلاً لحبِّها . ومعنى « ترو هامَتِى » لم تَطلُبْ دمى من قاتلى ، تبقَ هامتى أعطش من كل هَامٍ . وكانوا يقولون : إنّه يَخرُج من رأس المقتولِ هامةٌ فتصيح وتقول : اسقونى اسقونى ! إلى أن يُدرَكَ ثأره .

وإنما آثرْتُ هذا لتوحيده هامة . والرِّوايتان فى تُرْوِ وتَرْوِ معنياهما ظاهران .

وقوله « وإن أكُ عن ليلى سَلَوْتُ » قد تقدَّم القول فى حذف النون من أكن . وجواب الشّرط قوله « فإنّما » بما بعده والمعنى : إنْ أكُ فى الظّاهر حَصَلَ لى سُلُوٌّ عنها لمن يتأمّلُ حالى ، فإنّما تكلّفتُ ما ظنّ منّى سلوًّا لغَلَبةِ اليأس منها علىّ ، فأمّا نَفْسى فهى كما كانت ، ذَهاباً فيها ووُلوعاً بها . وقوله

(١) التبريزى : « عن صبر » .

« سلوت » معناه طِبْت نفساً . وتسلَّيت معناه تكلّفت ذلك ، والتّفعُّل لا يكون إلا عن تكلُّفٍ فى أكثرِ الأحوال ، وكذلك التّفاعُل ، فأتى بسلَوْت بناء على ظنِّهم واعتقادِم ، وتسلَّيت بناء على حاله .

وقوله « وإن يَكُ عَنْ ليلى غِنًى » يريد : وإنْ كان ظاهرُ أمرى أنّى استغنيت عنها بخلوِّ قلبى من حبِّها ، أو أنّى أتجلَّد للوهْن العارض فى الاشتياق إليها ، فرُبَّ غِنَى نفسٍ يَقرب من الفقر . والمعنى أنّ باطن أمرِى بخلاف ظاهرِه . وإنما يُتصوَّر منّى غِنًى يقرُب من الفقر إذا حَصَل وتُؤُمِّل . ومن روى « أمرٌ من الفقر » فالمعنى ظاهر والفاء من فربَّ بما بعده جواب للشّرط . وفائدة ربَّ التقليل ، كأنه استقلَّ الحالاتِ التى تشبه حالَه ، فلذلك أتى برُبَّ .

٤٥٨

وقال آخر :

١ — يومَ ارْتَحلْتُ برَحْلِى قَبلَ بَرْذَعَتِى   والعَقْلُ مُتَّلِهٌ والقلبُ مشغولُ

٢ — ثم انصرَفْتُ إلى نِضوى لأبْعَثَهُ   إثرَ الحُدُوجِ الغَوادِى وهو معقولُ

انتصب « يومَ » بإضمار فعل ، كأنّه أراد : أذكرُ يومَ هذا الأمر والشّأن . وأضاف اليومَ إلى الفعل تشهيراً له وتعظيماً لما اتّفق فيه . وذلك أنّه باغَتَه حديثُ الفراق وما هَمَّ به الُمجتمِعون معه فى النُّجعة من الارتحال ، فلمّا ورَدَ عليه ما لم يحسَبْه ولم يحدِّثْ نفسَه به تَوَلَّهَ وخُولط ، حتّى صارَ لا يدرِى ماذا يأتى عند ما هَمَّ به من تشييعهم ، والتهيُّؤ للكَونِ معهم ، فقال : أذكرُ يومَ أقبلْتُ أضعُ الرَّحلَ على الناقة قَبل البَرْذَعة ، وعقلى فاسدٌ وقلبى مشغولٌ بما دَهَمه من الحال . وقوله « مُتَّلِه » هو مُفتعِل من الوله ، وأصله مُوْتَلِهٌ ، فأبدل من الواو تاء كما تقول

فى اتَّقى واتَّجه وما أشبههما ، ثم أدغَم إحدى التاءين فى الأخرى . ويروى : « مختَبَلُ » والخَبْل : الفساد .

وقوله « ثم انصرفت إلى نِضوى » تتميم لبيان حالِهِ فيما انعكس عليه من قَصْدِه ، وفَسَد من همِّهِ ، فقال : ثُمَّ رجعتُ إلى بَعيرى لأُقيمَه فى إثْر الظُّعائن الباكرة ، وهو مشدودٌ بعِقاله لم أحُلَّه . وهذا غايةُ ما يقالُ فى انحلال العُقدة ، واسترخاء المُسْكة ، وسُوء الضَّبط وانقلاب القَلْب . ومعنى أبعثه أهيِّجه . والنِّضْو : البعير المهزول . والحُدوج : مراكب النِّساء الظاعنة . وانتصب إثْر على الظَّرف .

وقد سلكَ أبو تمَّامٍ هذا المسلكَ فقال :

أصَمَّنِى سِرُّهُمْ أيَّامَ فُرقتهم ... هل كنتَ تَعرفُ سِرًّا يُورِثُ الصَّمَما

نأَوْا فظلَّتْ لوَشْكِ البَين مُقلتُه ... تَندَى نَجِيعاً ويَندَى جسمُه سَقَما[1]

أظَلَّه البَينُ حتَّى إنَّهُ رجلٌ ... لو ماتَ من شُغْلِهِ بالبَين ما عَلِما

٤٥٩

وقال جِرانُ العَودِ[2] :

١ — أيا كَبِدًا كادَتْ عَشِيَّةَ غُرَّبٍ ... من الشَّوقِ إثْرَ الظَّاعِنينَ تَصدَّعُ

٢ — عَشِيَّةَ ما فِيمَنْ أقامَ بِغُرَّبٍ ... مُقامٌ ولا فِيمَن مَضَى مُتسرَّعُ

(١) فى الأصل : « ويبلى جسمه » ، صوابه فى ل وديوان أبى تمام ٣٠٢ .

(٢) التبريزى : « العود : المسن . والجران : باطن عنق البعير والدابة . ويقال : إن الشاعر سمى بذلك لقوله :

خذا حذرا يا جارتى فإننى ... رأيت جران العود قد كاد يصلح

واسمه عامر بن الحارث . وقال أبو رياش : هى لذى الرمة » . وفى القاموس (جرن) : « وجران العود شاعر نميرى واسمه عامر بن الحارث ، لا المستورد ، وغلط الجوهرى » .

يروى « يا كبِدَا » والمرادُ يا كبدِى على الإضافة ، ففرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فانقلبت ألفا . ويروى « يا كبدًا » والمراد به كبده وإنْ نكَّرها ، بدلالة أنَّه وصَفها بقوله « كادت عشِيَّةَ غُرَّبٍ من الشوق » ... البيت . وهذه الصفة لم تحصلْ إلاَّ لها . والمراد أنَّه تألَّمَ ممَّا دهَمَه من أمر الفراق بعد الاجتماع الحاصلِ فى مواضع الانتجاع ، وكأنَّ المجتمِعين تحزَّبُوا حِزبَين ، ارتحل أحدُهما وصاحبَتُه معهم ، وأقام أحدُهما بالتهيُّؤ والاستعداد وهو فيهم ، فالمتقدِّمون ليس فيهم متسرِّع ، لانتظارِهم المتخلِّفين ، والمتخلِّفون لا مُقامَ لهم لاستعجالهم اللَّحاقَ بهم . فشَكَا الحالةَ الواقعة فى أثناء ذلك ، وهو مع ذلك يحِنُّ ويشتاق . وغُرَّبٌ : موضع[1] . وأضاف العشيَّة إليه تخصيصاً . وفصل بين كاد وبين الفعل الذى تناوله بالظَّرْف على ما اتَّصل به . و « إثرَ » انتصبَ على الظَّرف من الشَّوق ، و « عشيَّةَ » من البيت الثانى بدلٌ من العشِيَّة الأولى . وكما أضافَ الاولَى إلى غُرَّب تبيينًا أضافَ الثانية إلى قوله « ما فيمن أقام بِغُرَّب » تبيينا ، وهما عشيَّةٌ واحدةٌ وإن اختلف مبيِّنُهما .

٤٦٠

وقال الحُسَين بن مُطَيْر[2] :

١ — لقد كُنتُ جَلْدًا قَبلَ أن تُوقِدَ النَّوَى   على كَبِدى نارًا بطيئًا خُمُودُها[3]

---

(١) فى معجم البلدان : « ماء بنجد ثم بالشريف من مياه بنى نمير » . ثم أنشد هذين البيتين .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ . وفى الأغانى (١٤ . ١١٣) عن التوزى قال : قلت لأبى عبيدة : ما تقول فى شعر الحسين بن مطير ؟ فقال : والله لوددت أن الشعراء قاربته فى قوله : مخصرة الأوساط » وأنشد هذا البيت والذى بعده . وقد ساق أبو على القالى أبيات الحسين بن مطير هذه فى الأمالى (١ : ١٦٥) كاملة .

(٣) بين هذا البيت وتاليه عند القالى :

ولو تركت نار الهوى لتضرمت   ولكن شوقا كل يوم يزيدها

٢ـوقد كُنتُ أرجُو أنْ تموتَ صَبابتِى إذا قَدُمَتْ أيَّامُها وعُهـودُها

يقول : كنتُ قوىَّ النَّفس ، ثابتَ القَلْب ، راجحَ العَقْل ، صبوراً فى الشَّدائد ، قبلَ أن أُبليتُ بفِراق الأحبَّة ، فلمَّا أوقدَتْ نِيَّتُهم التى انتوَوْها نارَ الصَّبابةِ على كَبِدى فأبطأَ سكونُها ضَعُفت عن الثَّبات لها ، وظهَرَ عجزى عن تحمُّلِ أعبائها ، وقد كنتُ أؤمِّلُ إذا أتتَ الأيَّامُ على ما أُقاسيه ، واستمرَّت النَّفسُ فى التَّألُّم تارةً وفى التصبُّر أخرى ، أن يَنتقِص ذلك صبابتى ، وأنَّ قِدَمَ الأيَّام وامحاء العهود يؤثِّر فى تسكين نائرتها ، ويُبطِل ما تسلَّطَ علىَّ من أذاها ومكروهِها . وقوله « إذا قَدُمت » ظرفٌ لتموت صابتى .

٣—فقَدْ جَعَلَتْ فى حَبَّةِ القلبِ والحشا عِهَادَ الهوَى تُولَى بشَوْقٍ يُعِيدُها[1]

يريد أنَّ ما كانَ يرجُوه من سُكونِ صبابته قد ازدادَ ، لأنَّها صَيَّرَت فى حبَّة القلب وأحشائِه أمطار الهوى ، تُجَدِّدُ وتُتْبَعُ بوَلىَ من الشوق يرُدُّها كما كانت ، وانتصب « عِهَادَ » على أنَّه مفعول أوَّلُ لجعلَتْ . وتُولَى بشوق فى موضع المفعول الثانى ، ويُعيدها فى موضع الصفة للشَّوْق . ومعنى « تُولى » تُمطَر الوَلىَّ . والوَلىُّ المَطْرة الثانية لأن الأولى منها تسمَّى الوَسْمىّ . والعِهاد : جمع العَهْد ، وهو المطَر الذى يجىءُ ولِمَا تَقَدَّمَه عهدٌ باقٍ لم يَذهب . وحَبَّة القلب هى العَلَقة السوداء فى جوفه . ويروى « عهادُ الهوَى — بالرَّفع — يُولَى — بالياء — بشوق يَعيدُها ، بالياء[2] » ، فيكون معنى جَعَلَتْ طَفِقَتْ وَأقبلت ، ويكون غيرَ متعدٍّ ، ويرتفع عهاد بجعلت ، وبعيدَها يقوم مقام فاعل يُولَى . فيكون المعنى : فقد طفقت أوائلُ هواها يُمطَرُ أبْعَدُها بشوقٍ يجدِّدها .

---

(١) بعده فى الأمالى :

لمرتجة الأطراف هيف خصورها عذاب ثناياها عجاف قيودها

(٢) التبريزى : « وثعلب يروى : يعيدها » .

٤ ـ بِسُودٍ نَوَاصِيها وحُمْرٍ أكُفُّها وصُفْرٍ تَرَاقِيها وبِيضٍ خُدودُها

٥ ـ مُخَصَّرَةِ الأوساطِ زانَتْ عُقُودَهَا بأحسَنَ مِمَّا زَيَّنَتَها عُقُودُها

٦ ـ يُمَنِّينَنَا حتَّى تَرِفَّ قلوبُنا رَفِيفَ الخُزَامَى بات طَلٌّ يَجُودُها[1]

الباء من قوله « بسودٍ نَواصيها » يجوز أن يتعلَّق بقوله تموت صَبابتى ، ويجوز أن يتعلق بجعلَتْ إذا ارتفع عِهَادُ الهَوى به يريد : جعلَتِ العهادُ تفعل هذا بسببِ نِساء هكذا . وإنَّما جاز أن يجمع سُودٌ وحمرٌ وغيرها وإن ارتفع ما بعدها بها ، لأنَّ هذه الجموعَ لها نظائرُ فى هذه الأسماء المفردة[2] ، ولو كانت جموعَ سلامة أو ما لا نظيرَ له فى الواحد لما جازَ جمعُه . تقول : مررت برجالٍ ظِرافٍ آباؤهم . ولو قلت : ظَرِيفِين آباؤهم ، لم يجز .

وقوله « مُخَصَّرة الأوساط » يريد أنَّها دقيقةُ الخصور ، غيرُ واسعة الجنوب وأن قلائدها وحليَّها تكتسب من التزيُّن بها إذا عُلِّقت عليها ، أكثرَ مما تكتَسِبه منها إذا تحلَّت بها .

وقوله « يمنِّينَنا » يصف لَطافتهنَّ فى مواعيدهن ، وتقريبَهنَّ أمرَ الوِصال بينه وبينهنَّ ، وأنَّها لا تزالُ تُمَنِّى وتَضمن من حُسْنِ الإجابة ما يَصير للقلوب به بريقٌ ونضارةٌ ، كبريقِ الخُزَامى إذا بقى لَيلتَه يُطَلُّ بالجَوْدِ ، والرَّفيف كثرةُ الماء فى النَّبات ونَضارتُها . ومعنى « حتَّى تَرِفّ » إلى أن ترِفّ .

---

(١) بعده فى الأمالى :

وفيهن مِقلاق الوشاح كأنها مهاة بترْبان طويل عقودها

قال أبو على : « يريد موضع العقود ، وهو العنق » .

(٢) ل : « فى الأسماء المفردة » .

٤٦١

وقال أبو صَخْرٍ الهُذَلىّ[١] :

١ـأمَا والّذِى أبْكَى وأضْحَكَ والّذِى أمَاتَ وَأَحْيَا والّذِى أمْرُهُ الأمْرُ

٢ـلَقَدْ تركَتْنِي أحْسُدُ الوَحْشَ أنْ أرَى أليفَينِ منها لا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ[٢]

تكريره للذى ليس بتكثير للأقسام ، لأن اليمينَ يمينٌ واحدةٌ بدلالةِ أن لها جوابا واحداً ، ولو كانت أيمانًا مختلفة لوجَبَ أن يكون لها أجوبةٌ مختلفة ، وفائدة التّكرير التّفخيمُ والتّهويل . وعلى هذا إذا قال القائل : والله واللهِ لقد كان كذا ، فاليمين واحدة . وما فى القرآن من قوله : ﴿ واللّيلِ إذَا يَغْشَى . والنَّهارِ إذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ مِثلُه . على أن ما فى البيتِ من اختلاف الأفعالِ الدَّاخلة فى الصِّلات جَعَلَ الكلامَ أحسنَ ، والتَّفخيم أبلغ . وجواب القسم « لقَدْ تركَتْنِي » ، وفاعل تركتنى ضميرُ المرأة المستكنُّ فيه . والمعنى : أنى إذا تأملتُ الوحوشَ وهى تأتلف فى مراعيها ومُتصرَّفاتها اثنين اثنين ، لا يُفزِّعها رقيبٌ ، ولا يَدْخُل فيما بينها تَنفير ، حَسَدْتُها وتمنَّيْتُ أن تكون حالتى مع صاحبتى كحالها فى الآفها .

وقوله « أحسدُ الوَحش » فى موضع الحال ، وأنْ أرى ، فى موضع البَدَل من الوحش . وقوله « لا يَروعُهما » فى موضع الصِّفة لأليفين ، لأن أرَى من رؤية العين ، ويكتفى بمفعولٍ واحد ، وهو أليفَين .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠٩ ص ٣٢٧ . وقصيدة أبى صخر رواها القالى فى أماليه (١ : ١٤٨ – ١٥٠) .

(٢) القالى : « وقد تركتْنِى أغبط الوحش » .

٣ — فياحُبَّها زِدْنى جَوًى كلَّ ليلةٍ ويا سَلْوَةَ العُشّاقِ مَوعدُكِ الحشْرُ[1]

٤ — عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنى وبَيْنَها فلمّا انقضَى ما بيننا سَكَنَ الدَّهْرُ

تَجَلَّدَ فى الهوى وادَّعَى اللَّذاذةَ به ، حتَّى استزادَ من أجزاء الجوَى الحاصلِ له ، وهو داء الجوْف ، ما يَتضاعَفُ بتجدُّد الأوقات ، واستَبْعَد التَّسلِّىَ منها حتَّى جَعَل الموعدَ بينهما يومَ النَّشْر . وهذا غايةُ التَّفتِّى فى الهوى ، والتَّصبُّرِ على الرَّدَى .

وقوله « عجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهر » يجوز أن يريد به سُرعةَ تقضِّى الأوقات مُدَّةَ الوصال بينهما ، وأنَّه لمَّا انقضَى الوَصلُ عادَ الدَّهرُ إلى حالته فى السُّكون. وهذا على عادتهم فى استقصار أيامِ السرور واللَّهو ، واستطالةِ أيَّامِ الفراق والهَجْر . ويجوز أن يريدَ بسَعْى الدهر سِعايةَ أهل الدَّهر وإيقادَهم نارَ الشَّرِّ بينهما بالنمائم والوِشايات ، وأنّه لمّا فَتَرتْ أسواقُهم بالتّهاجُر الواقع مِنهُما ، وارتفع مُرادُهم فيما طلبوه من الفَساد بينهما ، سكنوا . وكما أرادَ بسَعْى الدّهر سَعْىَ أهلِ الدَّهر ، كذلك أراد بسُكون الدَّهر سُكونَ أهل الدَّهر .

٤٦٢

وقال[2] :

١ — بِيَدِ الّذِى شَعَفَ الفُؤادَ بكم تَفرِيجُ ما أَلْقَى من الهَمِّ[3]

٢ — ويُقِرُّ عَيْنِى وهى نازِحَةٌ ما لا يُقِرُّ بِعَيْنِ ذِى الحِلْمِ

---

(١) كتب فى الأصل تحت كلمة « العشاق » : « الأيام » . ورواية التبريزى والقالى : « ويا سلوة الأيام » .

(٢) أى أبو صخر الهذلى والأبيات بهذه النسبة فى الأغانى (٢٠ : ١٤٧ — ١٤٨)

(٣) الأغانى . « فرج الذى ألقى » . كما أن الرواية فيها « شغف » بالغين المعجمة .

الذى شَعَفَ القلب به من زعمه هو الله تعالى . ومعنى شعف الفؤاد : أصاب شَعَفَتَهُ . وشَعَفَةُ كلِّ شيء أعلاه . وقوله « بكم » أراد بحبِّكم ، ويقال : فلانٌ مشعوف بكذا ، إذا شُغِلَ قلبُه به وأُصيبَ . وارتفع « تفريج » بالابتداء ، وخبَره بيد الذى ، على طريقة سيبَوَيْه ، وعلى مذهبِ أبى الحسن الأخفَش ارتفع تفريج بالظَّرف ، والمعنى : بيدِ الله الذى ابتلانى بكم ، وشَغَلَ قلبى بحبِّكم ، كَشْفُ ما أُقاسيه من الهمِّ . وهذا الشاعر فى الهَوَى على الضِّدِّ ممن تقدَّمَ ذِكرُه ، لأنَّ شكواه فى نهاية القوَّة والعُلُوِّ ، كما أنَّ التِذاذَ ذاكَ فى نهاية الجِدَّةِ والغُلُوِّ .

وقوله « ويُقِرُّ عينى وهى نازحةٌ » يريدُ أنَّه يسرّه فيها على بُعدها منه مالا يَسُرُّ به عاقل . وإنَّما نَبَّهَ بهذا على شِدَّة تعَشُّقها ، وعلى قُوَّة يأسِه منها ، حتَّى أنَّه مع البِعاد إذا أخطر بباله شيئاً من أحوالها التى يُشاركه فيها ، عَدَّهُ مَرزِئَةً منها[1] ، واستمتاعاً بها . وقد شرَحَ ذلك فيما بعده . وقد روى بعضهم : « بعَين ذى الحُلْم » بضم الحاء ، وليس بشىء .

٣ – إنِّى أرَى وأظُنُّ أن سَتَرَى وَضَحَ النَّهارِ وعالِىَ النَّجْمِ

لك أن تروى « أنِّى » وتجعله فى موضع الرفع بدلاً من « مالا يُقِرُّ » ؛ ولك أن تكسر إنّ ، كأنَّك تستأنف شَرْحَ ماقَدَّم ، وتفصِّلُ ماأُجمِل . ويكون المعنى : يُقِرُّ عَينى أنِّى أرى بياضَ النَّهار وعالىَ الكواكب باللَّيل ، وهو أضوَؤُها وأعلَنُها[2] ، وأظنُّ أنَّها تُشارِكُنى فى رؤيتها ، فأفرحُ بذلك ، وهذا ممَّا لا يَفرح به عاقل ، ولا يَعتَدُّهُ لذَّةً . ويُروى والمعنى ما بيَّنتُه ، على غير هذا ، وهو :

إنَّ الذى سأظُنُّ أنْ سَتَرَى وَضَحُ النهار وعالِىُ النَّجْمِ

فيرتفع وضَحُ على أن يكون خبر إنّ ، وأتى بعالىُ النَّجم على أصلِهِ فضم

(١) رزأه مرزئة : أصاب منه خيرا .
(٢) ل : « وأعلبها » .

الياء منها . والمعنى ذلك المعنى ، إلاّ أنّه زاد الظّنّ تراخياً بإدخال السّين عليه .
ويُرْوَى :

إنّى أرَى وأظُنُّ أن سَتَرَى وضَحَ النّهار عَوَالِيَ النّجم[1]

فينتَصِب وضحَ على الظّرف ، وعَوالىَ على أنّه مفعول أرى . والمعنى : أرى الكواكبَ ظُهراً ، فيما أُقاسيهِ من بَرْحِ الهوى ، وأظنُّ أنها ستُمتحن فى حُبِّها لى بمثل ما امتُحِنتُ فى حبِّى لها ، وأنّ أسبابَ الهوى تُفارقنى وتعود إليها ، فترَى مثلَ ما أرى ، فأفرحُ بذلك وتَطيبُ له نَفْسى ، وهذا مما لا يَفرحُ به عاقل .

٥ — ولَلَيْلَةٌ مِنْها تعودُ لنا فى غَيْرِ ما رَفَثٍ ولا إثْمِ

٦ — أَشْهَى إلى نَفْسِى ولو نَزَحَتْ مما مَلَكْتُ ومن بنى سَهْمِ

نبّهَ بهذا الكلام على تهالكه فى هواها ، وتَناهِى صبابته بها ، وأنّ اليَسيرَ إذا عاد عليه منها عَدّه كثيراً . وقد أظهَرَ العَفَافَ فى بَلواه ، وأنّه يتمنّى ما يتمنّى فيها حلالاً لا حراما ، فيقول : ولَلَيلةٌ من أوقاتها تحصُلُ لنا فى غير فُحْشٍ تُذْكَرُ به ، أو إثمٍ تكتسبُه ، ألذُّ إلى نَفْسِى وأَطْيَبُ فى قلبِى من مِلْكِى كلّه ، ومن عشيرتى بأسْرهم .

وقوله « أشهى إلى نفسى » فى موضع المبتدأ ، وهو ولليلةٌ منها . وقوله ولو نَزحتْ شرطٌ فيما تمنّى حصوله ، وقد فصل بها بين أشهى إلى نفسى وبين ماملكتُ أى وإن بَعُدت تلك الليلة فعادت إلى أولَى أحوالها فى التّمنّع علىّ والتفصّى منى .

٧ — قد كان صُرْمٌ فى المَمات لنا فعَجِلْتِ قَبْلَ المَوْتِ بالصُّرْمِ

٨ — ولَمَا بَقِيت لَيَبْقَيَنَّ جَوًى بَيْنَ الجوانحِ مُضْرِعٌ جِسْمِى

(١) هى رواية التبريزى ، لكن آخر البيت عنده : « وعالى النجم » .

٩ — فَتَعَلَّمِى أنْ قد كَـلِفتُ بكم ثُمَّ افعلِى ما شِئتِ عن عِلْمِ

عاد إلى مخاطبتها، بعد أن تألم بما تألم، فقال يعتب عليها:

قد كان لنا فى الموت قطيعةٌ وافتراق، لكنَّكِ لم تصبرى إلى حين وُقوعه، ولم تنتظرى نُزولَه، فتعجَّلتِ الصَّرْمَ قبل الموت، فلا جَرَمَ أنَّ بينَ جوانحى داء يبقى مُدَّةَ بقائى فيها، ويُذِيبُ جِسمى، ويَكسِفُ بالى.

وقوله «ولَمَا بقيتُ» أدخَلَ اللام الموطِّئة للقسم على ما بقيتُ، وهو مصدرٌ فى موضع الظَّرف، لِمَا يتضمَّن من معنى الشَّرط. وقوله «لَيبقَيَنَّ جوًى» جوابُ القسم المضمر، والكلام كأنَّه: لئنْ بقيتُ ليبقَين جَوًى؛ لأنَّ المعنى: ولَمُدَّةَ بقائى ليبقَين جَوًى. فحصول الكلام يعود إلى ذلك.

وقوله «فتَعَلَّمِى أنْ قد كَلِفت بكم» يضعون تَعَلَّمْ موضعَ اعلمْ، إلاَّ أنَّ المخاطبَ ليس له فى الجواب أن يقول تعلمتُ، لكن يقول: علمتُ. والمعنى: اعلَمِى كَلَفِى بكم، وانحطاطى فى هواكم، وكُنْهَ ما أقاسيه فى حُبِّكم، ثمَّ آثِرِى فى بابى ما أردتِ بعد عِلمك بالحال، لأنَّ الذى أطلبُه رضاكِ، ثمَّ لا أبالِى بما يَلحقُنى من بقاء أو فناء، أو سَرَّاء أوْ ضَرَّاء.

٤٦٣

وقال آخر[1]:

١ — إنَّ التى زَعَمتْ فؤادَكَ مَلَّها خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقتَ هَوًى لها

٢ — بَيضاء باكَرَهَا النَّعيمُ فصاغَها بَلَباقَةٍ فأدقَّهـــا وأجَلَّها

يقول: إن المرأةَ التى ادَّعتْ عليكَ مَلاَلَ قلبك منها، وإعراضَكَ عنها،

(١) وكذا وردت الأبيات بدون نسبة فى أمالى القالى (١: ١٥٦). وعند التبريزى: «وقال آخر. قال أبو رياش: هى لابن أذينة، وابن أذينة هذا هو عروة بن أذينة.

وبِنِيَّتك فى استبدالك بها ، خُلِقَتْ هَوًى لك كما خُلِقْتَ أنتَ هوًى لها .
والمعنى أنّ دَعواها تَجَنٍّ منها ، وتسخُّطٌ لما يظهر من شَغَفك بها ، وهى لك
لا انفكاكَ لقلبك مِن عشقها ، كما تدّعى أنّها لك بهذه المنزلةِ ، فأنتَ تهواها
كما أنّ تلك تهواك ، لا مِرْيةَ فى ذلك ولا شَكّ .

وقوله « بيضاء باكَرَها النعيم » يريدُ أنّها نشأت فى النَّعمة والنِّعمة ، وأنّ
خَفْضَ العيش ربّاها وحَسّن خَلْقَها بِحِذْقٍ ولباقة ، فجَعَلَ محاسنَها مرتّبةً بين
ما يُسْتَحَبُّ دِقّتُها ، وبين ما يُسْتَحَبُّ فخامتُها . ومعنى « باكرها » سَبَق إليها
فى أوّل أحوالها ؛ لأنّ البكور : اسمٌ لابتداء الشىء ؛ على ذلك باكورةُ الربيع .
واللباقة : الحِذْق ؛ يقال : هو لَبِقٌ ولَبيقٌ ، أى حاذق . ومعنى أدقّها وأجلّها :
أتى بها دقيقةً جليلة ، فمَا يُسْتَحَبُّ دِقّتها منها مثلُ الأنف والعين والثّغر
والخَصر جعلها دقيقةً ، وما يُسْتَحَبُّ جَلالتُها منها مثل الساق والفَخِذ والعَجُز
والصَّدْر جعَلَها جليلة . وهذا كما قال الآخر[1] :

فدَقَّتْ وجَلَّتْ واسبَكَرّتْ وأُكْمِلَتْ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جُنَّتِ

وكما قال :

يَمَانيةٌ تُلِمُّ بنا فتُبْدِى دَقيقَ محاسِنٍ وتُكِنُّ غَيْلَا[2]

٣ — حَجَبَتْ تَحيّتَها فقلتُ لِصاحِبِى ما كانَ أكثرَها لَنا وأقلَّها

٤ — وإذا وَجَدْتُ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ شَفَعَ الضَّميرُ لها إلىّ فَسَلَّها[3]

كأنّها لمّا لامَتْه فى مَلالِه وظُهور التسلّى منه ، هجرَتْه وأقبلتْ لا تَقبلُ
تحيّةً[4] ولا تردّ جوابَها . فيقول : لمّا أعرضَتْ وتحجّبَتْ عن رسُلى ، وأظهرت

(١) هو الشنفرى . البيت ١٢ من المفضلية ٢٠ .
(٢) البيت لوضاح اليمن . سبق فى ص ٦٤٣ .
(٣) التبريزى : « شفع الضمير إلى الفؤاد » .
(٤) كذا فى ل . وفى الأصل : « تحية » .

اطِّرَاحَ وُدِّى ، قلتُ متأسِّفًا ومتعجبًا : ما كان أكثرها لنا حينَ كانت متوفِّرة علينا وما أقلَّها لنا السَّاعةَ وقد زَهِدَتْ فينا هذا الزُّهدَ المُسْرِف ، وضَجِرَتْ بنا الضجَرَ المُفْرِط . والذى استكثَره واستقلّه هو نَيلها ومَيْلها . هذا إذا جعلتَ الضمير من « أكثرها » و « أقلها » راجعاً إلى المرأة ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى التحيَّة ، والمراد : ما كان أكثرها لنا لو حَصَلَتْ ، إذ كان فيه مِسَاكُ أرْمَاقِنا ، وحياةُ قلوبنا . وما كان أقَلَّها فى نفسها . وهذا كما قال الآخر :

إنّ ما قَلَّ مِنكِ يَكثُرُ عندى وكثيرٌ ممّن يُحَبُّ القليـــلُ

وقوله « وإذا وجدتُ لها وساوس سلوة » يبيِّن به استحكامَ حُبِّها فى قلبه ، وأنه كلّما تداخَلَهُ ضَجَرٌ بِدَلَالِها وتأبِّيها ، فحدَّثَ نفسَه بالتَّسلِّى عنها والتَّصبُّر دونَها ، أقبلَتْ دَواعِى للَّيل إليها ، والأسبابُ المتسلِّطة على قلبه والمشتملةُ على لُبِّه ، ولها تَشَفُّعٌ وتَعَصُّب ، فنزعتْ ما خَطَر ، بالبال من ذلك ، وصارت شوافعُ الضَّمير أغلب على تدبيره ، وأملَكَ لمتصرَّفاتِه ، حتّى يصير الحكمُ لها ، والغَلَبُ لقضاياها . وفى طريقته قول كثيِّر :

أُريدُ لأنْسَى ذِكْرَها فكأنَّمَا تَمَثَّلُ لِى لَيْلَى بكُلِّ سبيلِ

٤٦٤

وقال آخر :

١ — أَمَا والّذِى حَجَّتْ له العِيسُ وَارْتَمَى لِمَرْضاتِه شُعْثٌ طوِيلٌ ذَمِيلُهَا

٢ — لَئِنْ نائباتُ الدَّهرِ يوْمًا أدَلْنَ لِى على أمِّ عَمْرٍو دَولةً لا أُقِيلُهَا

افتتح كلامه بأمَا ، ثمّ أقسمَ بالله ، لأنّ الذى قصدَتِ العِيسُ بيتَه ، وطلبتِ الحُجّاج الغُبْرُ الوجوهِ الطُّوالُ الذميل مَرْضاتَه ، هو الله تبارك وتعالى .

واللام من « لئن » هي الموطِّئة للقَسَم ، وجواب القَسَم « لا أُقيلها » . والمعنى : والله لَئِن جَعَلَتْ نوائبُ الدَّهر لي دَولةً على أمِّ عَمْرٍو لمَدَدْتُ ذلك ذنباً لا أقيلُها منه . فالضمير من لا أقيلها يرجع إلى النائبات ، كأنَّ لذَّته كانَ في الهوى ، وأن يكون لتلك عليه البَسطةُ في الأمر ، والتمكُّن[(١)] من التصريف فيما يَسُوءهُ أو يسرُّه ، فإذا تغيَّر الأمرُ عن ذلك عَدَّهُ شَقاءً وَضرراً فادحاً . وهذا الوجه حسن . ويجوز أن يكون الضّمير يعود إلى المرأة ، فيكون المعنى : إنِّي إنْ صارت لي اليَدُ عليها ، وجَعلتُ أَملكُ من أمرها مثلَ ما تملكُ من أمرى جازيتُها حينئذٍ بما تعاملُني به كَيْلَ الصّاع بالصّاع ، وتركتُها لا أنعشُها من صَرعتها ، ولا أُقيلها عَثْرَتها . وهذا المعنى إذا قايستَه إلى ما تَقدَّم ذِكرُه كان منحطًّا عنه ، وواقعاً دونه ، وفيه إظهارُ العجزِ عن مكابَدة الصَّبابة ، والتَّصريحُ بسوء المَلَكَة . ومثل هذه الطريقةِ لا يرتضيها أربابُ الهوى ، والحُكّام على مُدَّعِي العشقِ ولهم . ومعنى « أدلْنني » جعلْنَ لي دولةً . ويُرْوَى : أَدَرْنَ لي » فينتصب دولة على أنّه مفعول به . والدّائرات كالدائلات لا فَصْل . ومَنْ روى « أَدَلْنَ لي » انتصب دولةً على أنّه مصدر ، فيكون موضوعاً موضعَ الإدالة . ويقال : أدالك اللهُ من عَدُوِّك ، أي جَعَل لك عليه دَولةً .

٤٦٥

وقال آخر :

١ ـ وكُنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائدًا لقلبِك يَوْماً أَتعَبَتْكَ المناظِرُ

٢ ـ رأيتَ الذى لا كُلُّهُ أنتَ قادِرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ[(٢)]

---

(١) ل : « والتمكين » .

(٢) ل : « الذى ما كله » .

الرَّائد : الذى يتقدَّم القومَ فيطلبُ لهم الماء والكلأ ، ولذلك قيل فى المثل : « لا يَكذِبُ الرَّائدُ أهلَه » لأنَّه إن كذَبَهُمْ هَلَكَ معهم . فيقول : إنك إذا جعلتَ عينَك رائدًا لقلبكَ تطلُب له مَصبٌّ هواه ، ومقرَّ لهوه وصِباه ، أتعبَتْكَ مناظرُها فى مَطالبِك ، وأوقعتْك مواردُها فى أشقِّ مكارِهك ؛ وذلك أنها تهجم بالقلب فى ارتياده لها على ما لا يصبِر فى بعضه على فراقه مع مهيِّجات اشتياقِه ، ولا يقدرُ على السُّلُوِّ عن جميعِه مع تذكر غرائب الحسن منه ، فهو الدَّهرَ ممتحَنٌ ببلوَى ما لا يَقدِر على كلِّه ، ولا يصبرُ عن بعضه . والجنايَة فيهما للعين ، لكونها قائداً للفؤاد إلى الرَّدَى وسائقاً ، وهادياً لدواعى الحبِّ إليه وحاديا .

وقد ألمَّ بهذا المعنى أبو تمَّام حيث يقول :

لم تَطْلُعِ الشمسُ المضيئةُ مُذْ رَأَتْ عَيْنِى خِلَالَ الخِدْرِ شَمْسًا تَغْرُبُ
لَأُعَذِّبَنَّ جُفُونَ عَيْنِى إنَّما بجفونِ عينى حلَّ ما أتعذَّبُ[1]

وأبين من هذا قول الآخر :

أَلَا إنما العينانِ للقلبِ رائدٌ فما تَأْلَفُ العَيْنانِ فالقلب يَأْلَفُ

وقوله « رائداً » انتصَب على الحال ، وجواب إذا أرسلت « أتعَبَتْكَ المناظر » . وقد حصَل خبر كنت فيه ومعه . وقوله « رأيت الذى » تفصيلٌ لما أجمَلَهُ قوله « أتعبتْك المناظر » .

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « حال ما أتعذب » .

٤٦٦

وقال الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشَيرِيّ[١] :

١ — أقولُ لصاحِبِي والعيسُ تَهوِى بنا بَيْنَ المُنيفَةِ فالضِّمارِ[٢]

٢ — تَمَتَّعْ من شَمِيمِ عَرارِ نَجدٍ فما بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرارِ

العَيَسُ : بياضٌ فى ظُلْمة خفيّة . والعرب تجعله فى الإبل العِراب خاصَّة . والمُنِيفَةُ : موضعٌ ، أو هَضْبَة مرتفعة[٣] . ومنه : أنافَ على كذا ، أى أشْرَفَ ، وقولهم : مائةٌ ونَيِّفٌ . والضِّمارُ : مكانٌ أو وَادٍ منخفضٌ يُضمِرُ السَّائرَ فيه ، لذلك قال الأعشى :

نُرانَا إذا أضمرَتْكَ البِلَا دَ نُجْفَى وَتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ

ومنه قيل للعِدَة المُسَوَّفَةِ: الضِّمار ، وقيل لما لا يُرْجَى رُجُوعُهُ من المال : الضِّمار . قال :

* وعَينُه كالـكالِئ الضِّمارِ[٤] *

يذمُّه بأنّ حاضرَه كغائبه . يقول : إنِّى أُجارِى رفيقى وأُبائهُ قِصّتنا ، والرَّوَاحِلُ تُسرِعُ بين هذين الموضعين ، وأقولُ فى أثناء ذلك متلهِّفاً : استمتِـعْ بشمِّ عَرار نجد ، فإنّا نعدَمُهُ إذا أَمْسَيْنا بخروجنا من أرْضِ نجدٍ ومغابتِه .

---

(١) التبريزى : « وقال آخر » . « الصمة هذا غير والد دريد . وقد سبقت ترجمة الصمة ابن عبد الله فى المقطوعة ٤٥٤ ص ١٢١٥ .

(٢) اللآلى ١٤٠ : « تخدى » . والأبيات فى زهر الآداب (٣ : ١٠٣) ومعجم البلدان (الضمار ، المنيفة) بدون نسبة . ونسبت فى معاهد التنصيص (٢ : ٨٥) للصمة ، ثم قال : وقيل : الأبيات لجعدة بن معاوية بن حزم العقيلى » . وفى الوساطة ص ٣٤ ستة أبيات منها بلا عزو .

(٣) فى معجم البلدان أنه ماء لتميم على فلج ، بين نجد واليمامة .

(٤) انظر مقاييس اللغة (٥ : ١٣٢) .

والشَّميمُ : مصدر ، وأكثر ما يجىء فعيلٌ مصدرًا فى الأصوات ، كالصَّهيل والشَّحِيجِ ؛ ومثله الهَدِيرُ والنَّكِيرُ . ويقال : تَمَتَّعْتُ بكذا ومن كذا .
والعَرَار : بقلةٌ صفراء ناعمةٌ طيِّبة الرِّيح ، والواحدة عَرَارَةٌ . قال الخليل : العَرَارَةُ البهَارَةُ البرِّيَّة ، وقيل هو شجر . وقد شُبِّه لونُ المرأة بها . قال الأعشى :

بَيْضَاء ضَحْوَتَهَا وصفـ ـراء العشيَّةَ كالعَرارَهْ

وقوله « مِن عِرارِ » مِن لاستغراق الجِنس ، وموضع « من عرار » رفع على أن يكون اسمَ ما . والواو من قوله « والعيس تهوى بنا » واو الحال ، وموضع « تمتَّعْ من شَمِيمِ » نصبٌ لأنه مفعول أقولُ . وقوله « بين المُنيفة فالضِّمار » أجود الروايتين « بين المُنيفة والضِّمار » ، لأنّ بينَ يدخُل لشيئين يتباين أحدُهما عن الآخَرِ فصاعداً ، وإذا كان كذلك لا يكتفى بقوله المُنيفة فيُرتِّب عليه الضمار بالفاء العاطفة ، اللهمّ إلا أن تجعلَ بين الأجزاء « المنيفة » فتصير المنيفة كاسم الجمع ، نحو القوم والعَشِيرة وما أشبههما . وعلى هذا حُمِل قولُ امرئ القيس :

* بين الدَّخُول فحَوْمَلِ[1] *

وكان الأصمعى يردُّه ويرويه بالواو .

٣ — أَلَا يا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ وريَّا رَوْضِـــهِ غِبَّ القِطَارِ[2]
٤ — وَأَهْلُكَ إذْ يَحُلُّ الحَىُّ نَجدًا وأنتَ على زمانك غَـيْرُ زَارِ
٥ — شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وما شَعَرْنا بأنصافٍ لهنّ ولا سَرَارِ[3]

(١) البيت أول معلقة امرئ القيس . وهو بتمامه :
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
(٢) ل والتبريزى : « بعد القطار » .
(٣) ضبطت السين بالفتح والكسر فى الأصل والتبريزى . وسيأتى فى التفسير أن الأفصح الفتح .

ألَا : حرفٌ لافتتاح الـكلام ، والمنادَى فى يا حبَّذا محذوف كأنه قال يا قومِ أو يا ناس ، حَبَّذا نفحات نجد . وارتفع نفحاتُ بالابتداء ، وخبرُه حبَّذا ، كأنه قال : محبوبٌ فى الأشياء نَفَحَاتُ نَجْدٍ ، وهو تَضَوُّعُ الرِّياح بالنَّسِيم الطيب . ويقال : له نفحةٌ طيِّبة وخبيثة . وقوله « رَيًّا روضِهِ » يراد بها الرَّائحة هنا . وارتفع قوله « وأهلُك » عَطْفًا على ورَيًّا ، وهما جميعاً معطوفان على « نفحاتُ » وكأنَّه قال : وحبَّذا أزمانُ أهلِكَ حينَ كانوا نازلين بنجدٍ وأنت راضٍ مِن الزَّمان ، لمساعدته إيّاك بمـا تهواه وتريده ، فلا تَعيبُهُ ولا تَشكوه . ويقال : زَرَيْتُ عليه ، إذا عِبْتَ عليه ؛ وَأَزْرَيْتُ به ، إذا قَصَّرْتَ به . وقوله « وأنت » الواو واو الحال ، وارتفع « شهورٌ » على أنّه مبتدأ ، وهو تفسير الزَّمان الذى حَمِدَهُ وتلهَّفَ على انقضائه . وقوله « ينقضين » خبره . ويجوز أن يرتفع شهور على أنّه خبر مبتدإٍ محذوف ، وما ينقضين حينئذ يكون صفةً له . وقوله « وما شَعَرْنَا » أى ما عَلِمْنَا . يقال : شِعْرَةً وشِعْرًا . ومنه الشِّعْر . يقال : شَعَرَ الرَّجُلُ ، إذا قال الشِّعر ، فَشَعِرَ بكسر العين أى صار شاعِراً . وسَرَارُ الشَّهر : آخِرُه ؛ لأن القمرَ يَسْتَتِرُ فيه . وقد حُـكِىَ كسر السين فيه ، وليس بكثير . والمعنى : يا قومِ ، محبوبٌ فيما تَقَضَّى نسيمُ أرواحِ نجدٍ وروائح رياضِه عقِبَ إتيان المطَرِ عليه ، وهزِّ الريح لنباتها . ومحبوبٌ أيضاً زمان أهلِكَ وإقامَتُهم بنجدٍ ، حينَ كنتَ تشكُر وقتَك وترتضيه ، إذْ كانت شهورُه وأيَّامُه تنقضى وأنتَ لا تشعُر بأنصافها ، ولا بأوائلها وأواخِرها ، لاشتِغالِك بلهوك ، وذَهابك فى غَفلتك . وهم يَستقصِرُون أيَّامَ السَّلامة والسَّعادة ومواصلةِ الأحبَّة ، وعندَ طاعةِ الدَّهرِ والأقدارِ لهم ، كما يستطيلون ما كان على خِلافه من الشُّهور والأعوام .

٤٦٧

وقال آخر :

١ ــ وممّا شَجَانى أنّها يومَ أعْرَضَتْ تولّتْ وماء العينِ فى الجفن حائرُ
٢ ــ فلمّا أعادَتْ مِن بعيد بنظرةٍ إلىّ التفاتًا أسْلَمَتْه المحاجِرُ

يقول مُلِمًّا بالمعنى الذى شرحه أبو تمّام حين قال :

لأودِّعَنْكَ ثُمّ تَدْمَعُ مُقْلَتِى إنّ الدُّمُوعَ هى الوَداعُ الثانى

يقول: وممّا حزننى وصار نَصْبَ عَيْنِى وحِلْفَ قلبى[1] تُذَكِّرُنيهِ الأحوالُ فلا أنساه ، وتمثّله لناظرى الأوقات فلا أتغاباه ، أنّ صاحبتى يومَ الفِراق عند الوَداع أعرضَتْ لى ودَمْعُها يترقرق فى جَفْنِ عينها ويتحيّر ، لامتلائها به ، إلّا أنّها كانت تَحبِسه فلا تُسيله ، فلمّا أعادت التفاتَها إلىّ بعد إعراضها عنّى ، بنظرة جَدَّدَتْها ، أسلمتْ محاجرُ عينِها ما اجتمع فيها من الدَّمع ، فتحدّرَ فى مدامعها؛ لأنّ ذلك كوداعٍ ثانٍ منها ، وكَمْتَمَّةٍ مُتَمِّمَتْنى بها وزيادةٍ زادٍ فى الحب زوّدتْنيها .
وقوله « أنّها » مبتدأ و « مما شجانى » خبره . ويقال : شجاه يشجوه شَجْوًا فَشَجِىَ يَشْجَى ؛ فهو شَجٍ . وحار الماء والدَّمع ، إذا تحيّرَ فى موضعه وقد ملأه فلا موضعَ له . وقوله « أَعْرَضَتْ » : أبدَتْ عُرْضها . وخبر أنّ تولّتْ .

وقوله «فلما أعادت» يجوز أن يكون التفاتًا مفعولَ أعادَت ، وموضع بنظرةٍ حالاً ، كأنّه قال : لما أعادت التفاتَها ناظرةً من بعيدٍ إلىّ أسلمَتْه . وجواب لمّا « أسلمَتْه » ، وإلىّ تعلق بنظرةٍ . ولا يجوز أن يتعلق بالتفاتا ، لأنّه إذا جُعِل

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « خلف قلبى » .

كذلك يكون صلةَ المصدرِ وقد قُدِّمت على الموصول . ويجوز أن يكون بنظارةٍ في موضع المفعول لأعادت ، والباء إن شئتَ جعلتَها زائدة ، وإن شئتَ جعلتَها مؤكِّدة ، كما جاء في قول الآخر[1] :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقرَأْنَ بالسُّوَرِ[2] *

ويصير « التفاتاً » مصدراً في موضع الحال ، والتقدير : لما أعادت نَظرتَها من بعيدٍ إليَّ ملتفِتةً أسلَتَه . والهاء من أسلَتَهُ للدَّمع كما قدمْتُه والمَحاجر : جَمع المَحْجِر ، وهو ما يبدو من نِقاب المرأة إذا تنقَّبت . والكَيَّةُ حَولَ العينَين[3] يقال لها : التَّحجير . ويقال : حَجَّرَ القمرُ ، إذا استدار حوله خط رقيق .

٤٦٨

وقال آخر :

١ — ولمّا رأيتُ الكاشِحِين تَتَبَّعوا هَوَانا وأبدَوْا دُونَنا نظَرًا شَزْرًا
٢ — جَعلتُ ومابي من جَفاءٍ ولا قِلًى أزورُكُمُ يَومًا وأهجُرُكُمْ شَهرًا

الكَشحُ : مابين الخاصرة إلى الضِّلع ، والكاشح : العدوّ الباطن العداوة . ويقال : هو بيِّن الكَشاحة والمكاشحة : ويقال : طَوَى فلانٌ كَشْحَهُ على كذا ، إذا استمرّ عليه . وهذا كلامُ مُبْقٍ على المحبوب ، كارهٍ لانتشار القالَةِ فيهما ، مختارٍ لاستتار الهوى بينهما . فيقول : لما رأيتُ الوشاةَ يتتبَّعون أحوالَنا بالنَّميمة وإفشاء أسرارنا ، وأخذوا ينظُرُون إلينا نظَرَ الأعداء بتحديقٍ شديد ،

(١) هو الراعي النميري ، أو القتال الكلابي . انظر ما سبق في حواشي ٣٨٣ ، ٥٠٠ ، ٦٠٦ .

(٢) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٣) ل : « العين » .

واستكشافٍ لما خَفِيَ من أمرنا بليغ ، أقبلْتُ أحترزُ وأقصِّر أشواطَهم فيما يَنْتَحونه من مَساءتنا ، والقعودِ والقيامِ بذكرنا ، فأتأخَّرُ عن زيارتكم شهراً وأوافيكم يَوْمًا ؛ هذا ولا أقصِدُ جفاءً ولا أُضمِر بغضاً ، وإنَّما بي مُضيُّ أيَّامنا بالسَّلامة منهم ، وردُّ كيدِهم في نحورهم ، ولئلا يجدوا مَقالا فيركبون عليه قصصاً وأنباء .

وقوله « نظراً شزْراً » يقال : هو يَشْزِرُ الطَّرفَ إليَّ ، إذا نظَرَ نظراً مفكَّرًا يتبين فيه العَداوة . قال أوس[1] :

إذْ يَشْزِرُونَ إليَّ الطرفَ عن عُرُضٍ كأنَّ أعينَهُمْ من بِغْضَتِي عُورُ

وقوله « جعلتُ » لا يحتاج إلى مفعول لأنَّه في معنى طفِقْتُ وأقبلتُ .

وانتَصب يوماً وشهراً على الظَّرف ، و « تتبَّعوا هواناً » في موضع المفعول الثاني لرأيت .

٤٦٩

وقال بعض القرشيِّين[2] :

١— بَيْنَمَا نحنُ بالبَلاكِثِ فالقا عِ سِراعاً والعِيسُ تَهْوِي هُوِيَّا[3]

٢— خطَرَتْ خطْرَةٌ على القلبِ مِن ذِكْ راكِ وَهْناً فما استطعتُ مُضِيَّا

٣— قلتُ لبَّيكِ إذْ دعاني لك الشَّو قُ وللحادِيَيْنِ كُرَّا المَطِيَّا[4]

---

(١) أوس بن حجر . ديوانه ص ٩ .

(٢) التبريزي : « وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، خرج إلى الشام ، فلما كان ببعض الطريق ذكر امرأته صالحة بنت أبي عبيدة بن المنذر بن الزبير ، وكان شديد الحب لها ، فضرب وجوه رواحله إلى المدينة وقال : بينما نحن بالبلاكث . فلما رأت رجوعه من أجلها وسمعت الشعر قالت لا جرم والله لا أستأثر عليك بشيء ! فشاطرته مالها ، وكانت تضن عليه بمالها » . وأنشد ياقوت في (البلاكث) بيتاً لكثير ، ثم قال : « وقال أيضاً » ، وأنشد الأبيات ، فهي عنده منسوبة لكثير .

(٣) ابن جني في التنبيه : « في بلاكث بالقاع » .

(٤) التبريزي وياقوت : « حثا المطيا » .

قد تقدَّم القول فى « بينا » و « بينما » جميعاً[1] ، وأنَّهما يستعملان فى المفاجأة . وانتصب « سراعا » على الحال ، لأنَّه جعل بالبلاكث مستقرًّا .
والواو من قوله « والعِيسُ » واو الابتداء وهو للحال أيضاً .

وقوله « خطرَتْ خطرةٌ »[2] هى الحالة التى فاجأتْهم . وانتصب «وَهْنًا» على الظرف ، ومعناه بعد ساعةٍ من الليل . وقوله « خطرت خطرة » ، يقال : خَطَرَ ببالى خُطُوراً ، وخَطَر البعيرُ بذنبه خَطَرَانًا . ويقال : سَنَح لى سانح ، وهجس هاجِسٌ ، وخَطَرَ خاطِرٌ . وكأنه أجرى خطرَتْ خَطَرةٌ مجرى قوله : دعَتْ دَعْوَةٌ من ذكراك ، لقوله : « قلت لبيكِ إذْ دَعانى لكِ الشَّوْقُ » .
والشاعر وَصَفَ ما هو عليه من طاعة الهوى ، وأنَّه فى مَلَكته ، إذا دعاه أجابَ حتَّى لا يقدرُ إلَّا على ذلك . فيريد : بينما نحنُ بهذين الموضعين نسيرُ مُسرِعين ، والرَّواحلُ تَهْوِى بنا فى أثنائهما ومعاطفهما ، وتقطع المسافة بينهما ، خطرَتْ ذِكرةٌ ببالى ، وقد مضى من اللَّيل ساعةٌ ، فتحيَّرتُ حتَّى لم أقدِرْ على التوجُّه فِى المقصِد الذى كنتُ أؤُمُّه ، وحتَّى لم أملك إلَّا إجابةَ داعِى الشَّوق إليك بالتَّلبيةِ والوقوفِ له ، وبعدَ ذلك قلتُ للحادَيين : انْصَرِفَا واعطِفا برؤوس مَطيِّكما ، فقد مَنَع ما طاعَتُهُ أوجبُ ، ودفعَ فى صدورنا مَنْ أمْرُه أنفَذُ .
وقد تقدَّم الفرق بين الهَوِىّ والهُوِىّ[3] .

وقوله « بالبلاكث فالقاع » رَتَّبَ القاعَ على البلاكث بالفاء العاطفة ، كأنه ارتقَى منها إليها ، ويجوز أن البلاكث اسم لبقاعٍ مختلفة ؛ لأن بناءه بناء الجمع .
وقوله « لبَّيْك » هو من ألَبّ بالمكان ، إذا أقامَ ؛ إلاَّ أنَّه لا ينصرِف كما أنَّ سبحان الله لا ينصرف . والكلمة مُثنَّاة عند سيبويه ، والمراد عنده إقامةٌ

(١) انظر ما مضى فى الحماسة ٤٤٩ ص ١٢٠٣ .
(٢) الكلام بعده إلى « خطرت خطرة » التالية : ساقط من ل .
(٣) انظر ما سبق فى ص ٩١ .

للدّاعى تتبعها إقامة ودوامٌ على طاعتِه ومتابعته . ويُقرَن بها سَعْدَيْك ، المعنى : مساعدةٌ بعد مساعدة واستمرارٌ على مشايعته . وحصلَ التَّكثير والاتِّصال فيه بالتثنية ، كما حصل بالتَّكرير فى قولك : ادخُلوا الأوّلَ فالأوّل . قال سيبوَيه : أخبرنا أبو الخطَّاب أنَّه يُقال للمُداوِم على الشَّىء لا يُقلِع عنه ولا يفارقُه : قد ألبَّ عليه . أنشد للتثنية فيه قولَ الشَّاعر :

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِى مِسْوَرًا فَلَبَّى فَلَبَّىْ يَدَىْ مِسْوَرِ[1]

هكذا روايتُه وإنشاده عن العرب بهذا اللَّفظ . وحُكى أيضًا عن بعضهم : لَبِّ بالكسر ، يجعله صوتًا مثل غاقِ . وعند يُونُس أنَّه موحّد لَبَّى ، وانقلبَ ألفُه ياءً كما انقلب فى عَلَى وَلدَى عند الإضافة إلى مضمر . وعلى مذهبه يجب أن يكون « فَلَبَّى يدَى » كما أنّ عَلَى وإلى وَلدَى إذا أضيفت إلى الظَّاهر لا يتغيَّر ألفها . تقول : على زيدٍ وإلى عَمرٍو .

٤٧٠

وقال آخر[2] :

١ – اسْتَبْقِ دَمْعَكَ لا يُودِ البكاءُ بِهِ واكْفُفْ مدامعَ من عينيكَ تَسْتَبِقُ

(١) البيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . سيبويه (١ : ١٧٦) ، والخزانة (١ : ٢٦٨) .

(٢) التبريزى : « وقال ابن هرمة » . وهو إبراهيم بن على بن سلمة بن هرمة الفهرى ، كان من الشعراء المعاصرين لجرير . وكان الأصمعى يقول : ختم الشعر بابن هرمة ، وحكم الخضرى ، وابن ميادة ، وطفيل الكنانى ، ودكين العذرى . وفى الأغانى (٤ : ١١٣) : « ولد ابن هرمة سنة تسعين وأنشد أبا جعفر المنصور قصيدته التى يقول فيها :

إن الغوانى قد أعرضن مقلية لما رمى هدف الخمسين ميلادى

ثم عمر بعدها مدة طويلة » . وقد ذكر ابن جنى فى المبهج ٥٥ أن مأخذ هرمة من الهرم ، بالفتح ، وهو ضرب من النبت . وانظر الخزانة (١ : ٢٠٢ – ٢٠٤) واللآلى ٣٩٨ والشعراء ٢٧٩ – ٣١٧ .

٢ ـ لَيس الشؤُون وإن جادَتْ بباقيةٍ ولا الجفُونُ على هـذَا ولا الحدَقُ

قوله « لا يُودِ البكاء به » يجوز أن يكون جوابَ الأمر ، ويجوز أن يكون نَهْياً وهو أحسَنُ وإنْ لم يكن معه حرفُ العطف ، وذلك لأنَّه قد ذكر بعده « واكفُفْ مدامعَ من عينيك » ولم يأت له بجواب ، كأنَّه أمرَه باستبقاء الدَّمع ، ونهاه عن التَّهالُك في البُكاء فيفسِدَ عليه آلتَه . ثمَّ أمرَه بكفِّ المدامع وهي تستبق . وإذا كان الكلام نَهْياً بعد أمرٍ وأمراً بعد نَهْيٍ ، كان أبلغ . ومعنى أوْدَى بكذا أهلكه . والاستباق في المدامع مجازٌ ؛ لأنَّ الذي استَبَق في التحدُّر هو الدَّمع . والمَدْمَعُ : مَجْرى الدَّمْع ، ولا يمتنع أن يكون المدمع اسماً للحدثِ الذي هو السَّيَلانُ ، كأنَّه موضوعٌ موضعَ الدَّمع ، وهو مصدر دمعَتْ ، ويكون المراد به أيضاً العينَ الذي هو الجاري ؛ لأنَّ الاستباق لا يصحُّ إلا فيه .

وقوله « ليس الشُّؤون وإن جادتْ بباقيةٍ » يريد : أنَّك إنْ أدمْتَ البُكاء استهلكْتَ منابِعَ الدَّمع ومجاريَها ، وأطباقَ العين وحماليقَها ؛ لأنَّ شيئاً من هذه الآلات وإن سمَحتْ بالإجابة مدَّةً لا يدوم على فِعْلِك ، ولا يقوم لتكاليفك . وقوله « على هذا » أشار بهذا إلى فعلِه ، وعلى تعلُّق بباقيةٍ ، وهو مضمَرٌ دلَّ عليه الباقية المذكورة ، كأنَّه قال : ولا الجُفُونُ باقيةٌ على هذا ، وجعل « لا » من قوله والجفونُ بدلاً من ليس ، والجَفْن في اللغة : المَنعُ والحَبْس ؛ لذلك سُمِّي غلاف السَّيف الجَفْنَ .

٤٧١

وقال آخر :

١ ـ قد كنتُ أعلو الحبَّ حيناً فلم يَزَلْ بِيَ النَّقْضُ والإبرامُ حتَّى عَـلَانيا

يقول : بقيتُ أزاوِلُ الحبَّ وأجاذبُه ، وهو معي متردِّدٌ بين أن أعلوَه تارةً

فأدفعه عن نفسى بجهدى ، وبين أن يعلوَنى فيغلبَنى على مُرادى ، ويأخذَ مَقرَّه من فؤادى ، فلم نزَلْ بين النَّقض والإمرار ، أنقض عليه وهو يُمِرُّ ، وينقُضُ علىّ وأنا أُمِرّ ، إلى أن صار الغَلَبُ له .

وهذا الذى أشار إليه حالةُ الحبّ إذا لم يكن عن اعتراضٍ . لذلك قال أبو تمام :

هَوَى كان خَلْسًا إنّ من أبْرَحِ الهوَى هَوَى جُلْتَ فى أفيائه وهو خاتلُ[1]

كأنّه يُريد المحبوبَ فيفكّر فى محاسنه حالًا بعد حالٍ ، ووقتًا بعد وقت ، ويستجلِبُها[2] شيئًا بعد شىء ، إلى أن يصيرَ لها فى قلبه قادحٌ ونازعٌ ، فيدفعُه عن نفسه بأن يزيّف تلك المحاسنَ ، ويتناسى وَيَدْرَأ فى صدر ذلك القادحِ من الهوى ويتأنّى[3] ، فكلّما قَدَّرَ أنّه قد تخلّى عاوَدَه الوسواس جَذَعًا ؛ فلا يزالُ بين القَبول والامتناع ، والتّماسُك والانهيار ، ومدافَعةِ الدّاء بالدّواء ، إلى أن يصيرَ القَلب للهوى .

والمعترِضُ من الهوى هو الذى يقعُ عن أوّل وَهْله ، فيَسبِى القلبَ فى دَفعةٍ واحدة ، إلّا أنّ تركَه أسرع ، كما أنّ أخذَه أسرع . على ذلك قول الأعشى :

* عُلِّقْتُها عَرَضًا[4] *

وما يَجرى مجراه . وهم يشبّهُون مثل هذا الهوى بنارٍ تُوقَد بضِرامٍ أو بعَرْفَجٍ وما يجرى مَجراه ، فترتفعُ سريعًا وتَرجِعُ سريعًا . وأنشد ابنُ الأعرابىّ بيتًا

(١) فى الديوان ٢٥٦ :
هوى كان خلساً إن من أحسن الهوى هوى جلت فى أفيائه وهو خامل

(٢) ل : «ويستحليها» .

(٣) ل : «ويتأبى» .

(٤) البيت بتمامه :
علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

فى قسمة [الهوى][1] زعم أنه لا ثانىَ له ، وأنّ قائلَه لا يُعرف وهو :

ثلاثةُ أحبـــابٍ فَحُبٌّ عَلَاقَةٌ وحُبٌّ تِمِلّاقٌ وحبٌّ هو القَتْلُ[2]

يعنى ما يكون من تمثُّل وطول تأمّل .

٢ ــ ولم أَرَ مِثْلَيْنَا خَلِيلَىْ جِنَابَةٍ أَشَدَّ على رَغْمِ العَدُوِّ تَصَافِيَا

نبّه بهذا الكلام على أنها مع المجانَبة واستعمال الحذَر ، واستدفاعِ شرِّ الرُّقباء والحافظين بترك الوُرود والصَّدَر ، وإكسادِ سُوق الوُشاة والنَّمّامين بإخماد نائرة الخَبَر ، يُصافِى كلُّ واحدٍ منهما صاحِبَه ، حتّى لا خلَلَ فى الهوى ولا فساد ، ولا استزادةَ فى الحبِّ ولا عِتاب ، ولا تَسَلُّطَ تُهْمَةٍ[3] لعارضِ تسَلٍّ[4] وحُؤُولٍ عن عَهد .

وإنّمَا قال « على رَغْم العدوّ » استهانةً بهم . وهو من الرَّغام : التّراب . وإذا قيل : أرغم الله أنفَه فالمعنى أذلّه اللهُ وأسخَطَه . وانتصب « تصافيا » على التمييز . وقوله « خليلَىْ جِنابَة » انتصب على أنه بدل من مثلَيْنا ، وأشدَّ مفعولٌ ثان لأَرَى .

٣ ــ خَلِيلَيْنِ لا يَرْجُو لقاءً ولا تَرَى خليلين إلَّا يَرْجُوانِ التَّلَاقِيا

ذكَرَ أنّ اليأسَ قد استقرّ فى قلبِ كلٍّ واحدٍ منهما من مُلاقاةِ صاحبه والتّصافى بينهما هو أنَّ ذلك من كمال البلاء ، إذ لا يُوجَد خليلانِ غيرُهما إلا وهُما على شفَا الرَّجاء فى الاجتماع ، وقوّةٍ من الطمع فى الالتقاء والاستمتاع ، واليأسُ لذى

(١) التكملة من ل .

(٢) كذا ضبط البيت فى النسختين ، ويصح أن يقرأ بالإضافة ، بجر « علاقة » و « تملاق » . وانظر مجالس ٢٩ . وفى إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه ص ٨١ ، قال ثعلب : ومثله :

ثلاثة أبيات فبيت أحبه وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى

(٣) ل : « بهمة » .

(٤) فى الأصل : « تشك » صوابه فى ل .

أشار إليه كأنَّه لارتفاع منزلةِ المحبوب عن منزلته : أوْ لكثرة أوليائه وقوَّة عشيرته أو لعفافِه وتألُّمِه ، وما يجرى مجراها .

٤٧٢

وقال آخر (١) :

١ – وكلُّ مُصيباتِ الزَّمانِ رأيتُها   سِوَى فُرقة الأحبابِ هيِّنةُ الخَطْبِ (٢)

موضع « سِوى فُرقةِ الأحباب » نصب على أنه مستثنى مقدم ، لأنَّ تقدُّمه على صفة المستثنى منه كتقدُّمه عليه نفسه . ومعنى البيت ظاهر .

٤٧٣

وقال الحُسَيْن بن مُطَيْر (٣) :

١ – فَيَا عَجَبًا لِلنَّاس يَستشرِفُونَنِى   كأنْ لم يرَوْا بَعْدِى مُحِبًّا وَلا قَبْلِى

قوله « يستشرفوننى » أى ينظرون إلىَّ ، وتطمحُ أبصارُهم نحوِى . ويودُّون أنِّى على شَرَف من الأرض ، لأكون معرَّضًا لهم .

والشَّاعر أخذ يتعجّب من أحوال الناس فيما رأوهُ عليه ، واستطرافِهِمْ لحالته فى حُبِّه ، واستشرافِهِم لما يشاهدونه عليه ، حتى كأنَّهُ بِدْعٌ من الحوادث لم يُشاهَد مثله ، ولم يقع فى تقدير أحدٍ جوازُ صورته ، فقال : يا عجبا للنَّاس فى حال استشرافهم لى ، واستطلاعهم من جهتى ما أنا عليه ، وإفراطِهم فى التعجُّب ممَّا يجدوننى مبتلًى به ، ومرهوناً له كأنهم لم يُشاهِدوا قبلَ مشاهدتهم لى ، ولا بعد

(١) هو قيس بن ذريح ، صاحب لبنى . انظر مجالس ثعلب ٢٨٥ – ٢٨٧ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٨٣ والأغانى (٨ : ١١٢) .

(٢) رواية ثعلب والسيوطى عنه :

وكل ملمات الدهور وجدتها   سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وفى الأغانى : « وكل ملمات الزمان وجدتها » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ .

مشاهدتهم لى محبًّا ، وكأنّ الحبَّ شىء أنا ابتدعتُه[1] ، وكأنّ مسبّباته لم تُوجَد قطُّ إلا فىّ . وليس الأمر كذلك ، لأنّ الدُّنيا وأهلَها إذا تُؤُمِّلت أحوالُهم فيها لم يُعْوِز تقديرًا أو تحصيلا مَنْ حاله حال مِثْلِى فيه زائدًا على ما أنا عليه ، أو قاصراً عنه . هذا إذا جعلت « لم يَرَوْا » بمعنى لم يشاهدوا . فإن جعلته بمعنى لم يعلموا كان المعنى أكشَفَ وأبْين ، إلّا أنّه يكون بمعنى يعرف ، ويكتفى بمفعول واحد . وقوله « بعدى » أى بعد رؤيتهم لى ، فحذَف المضاف ، وكذلك قوله « ولا قبلى » يريد ولا قبل رؤيتهم لى . وقوله « يا عجبًا » يجوز أن يكون منادى مضافا ، ويجوز أن يكون مفرداً ، وقد تقدّم القول فيه وفى أشباهه .

٢— يقولونَ لى اصْرِمْ يرجعِ العقلُ كُلُّه ‏ وصُرْمُ حَبِيبِ النَّفْسِ أذهبُ للعَقْلِ

يقول : يُشيرُ الناس علىّ بالتسلّى عنها ، والأخْذِ فى مصارمتها ، وأخْذ النَّفس على الانفكاك منها ، فإنّ فى ذلك بزُعْمهم إذا تدرَّجتُ فيه مراجعةَ العقل كاملا ، وانتزاعَ رِبقة الذُّلِّ عاجِلًا . وإذا تأمّلْتُ حالى فى قَبول ما يشيرون به ، ورُكوبِ الجِدِّ فى قطيعتها ، والحيلولة بين النفس ومُرادها فيها ، وجدتُ ذلك أدعَى إلى زوال العقل كلِّه ، وإن كان الباقى منه شُفافةً ، وأجْلبَ لهلاك النَّفس ، وحرج الصدر ، وإن كنتُ عائشاً بصُبابَةٍ . وقوله « أذهبُ للعَقْل » قد تقدّم القول فى أن سيبويه يجوِّز بناء فعل التعجُّب بعد الثُّلاثىّ ممّا كان على أفعَلَ خاصة ، فإذا جاز ذلك فبناء التَّفضيل يتبعه .

٣— ويا عَجَبًا مِنْ حُبِّ مَنْ هو قاتِلِى ‏ كأنِّىَ أجزِيهِ المودّةَ مِنْ قَتْلِى

تَعجَّبَ من حالِ نفسِه فى مقاساةِ[2] ما يقاسى منها ، وبقائه[3] على حُبِّها

(١) ل : « وأبدعته » .
(٢) ل : « مقاساته » .
(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ويمانيه » .

فيقول : إنّى أُداوم اعتقادَ الجميلِ لها ، وقيامَ القلبِ بعمارة الهوى فيها ، حتّى كأنّى أجازيها على قتلها إيّاىَ بأن أزيدَ فى وُدِّها وإخلاص العقيدة لها . وقوله « من قتلى » أراد من قتلها لى . والمصدر يُضاف إلى المفعول كما يُضاف إلى الفاعل ، وكذلك قوله « مِن حبّ من هو قاتلى » أى من حبِّى من هو قاتلى ، لأنَّ مَنْ فى موضع المفعول . وقوله « يا عجبا » يجوز أن يكون الألف بدلاً من ياء الإضافة ويجوز أن يكون ألفَ النُّدبة وزيدت ليمتدّ الصّوت به ، ويكون يا عجب منادًى مفردا ، وامتداد الصوت يدلُّ على عِظَم البَليَّة ، وتفخيم أمر العجيبة .

٤ — ومِنْ بَيِّنَاتِ الحُبِّ أنْ كَانَ أهْلُها أحَبَّ إلى قلبِى وعَيْنَىَّ مِن أهْلِى

يقول : ومِن آيات حبِّى البيِّنة ، وشواهدِهِ الصّادقة ، على تكامله لها ، وتناهيهِ فى استحكامها ، أنّى أُوثِر أهلهاَ على أهلى ، وأنَّ رتبتَهم فى العَينِ والقَلب أعلَى من رُتبة عشيرتى عندى . وقد خلَّصَ هذا المعنى عَنترةُ حيث قال :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتُلُ قَومَها زَعَماً لعمرُ أبيكَ ليسَ بمَزْعَمِ[1]

لأنَّ فى قضيَّة الهوَى والعقل أنَّ حبَّها مع عداوةِ أهلها ليس بمتّسِقٍ ولا متسبِّبٍ ، بل يُنافِى كلُّ واحدٍ صاحبه[2] ، وأنَّ الواجبَ أنَّها إذا كَرُمت عليه فكلُّ متسبِّبٍ إليها بسبب ، ومنتسبٍ [بنسبٍ[3]] ، يجب أن يكون مؤثَرا عنده ، مبجَّلا فى حكمه .

وأبينُ من ذلك كلِّه قولُ الآخر :

وأُقسِمُ لو أنّى أرَى نسباً لها ذِئابَ الفَلَا حُبَّتْ إلىَّ ذئابها[4]

(١) الزعم ، بالتحريك وبالفتح : الطمع . وهذا البيت شاهده .
(٢) ل : « بل ينافى صاحبه » . (٣) التكلة من ل .
(٤) سيأتى هذا البيت فى الحماسة ٥٣١ .

وقوله « أن كان أهلُها » أن مخفَّفة من الثَّقيلة ، أراد أنّه كان أهلُها ، والهاء من أنّه ضمير الأمر والشأن ، وقد تقدَّم مثلُه . وموضع أنْ بما بعده رفعٌ بالابتداء وخبره قوله ومن بيِّنات الحبّ .

٤٧٤

وقال عمر بن أبي ربيعة[١] :

١ – ولمّا تفاوَضْنا الحديثَ وأسفَرَتْ وُجُوهٌ زَهَاهَا الحُسْنُ أن تتَقَنَّعا[٢]

٢ – فقُلْتُ لمُطْرِيهِنَّ وَيْحَكَ إنّمَا ضَرَرْتَ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعاً فَتَنْفَعا[٣]

قوله « لمّا » يحتاج إلى جوابٍ ، لأنّه لوُقوع الشيء لوقوع غيره ، إذا كان عَلَماً للظرف ، فيقول : لمّا تنازعْنا الحديثَ ، واندفعنا فيه ، وأشرقَتْ وجوهٌ تلألأُ نوراً ، استخفَّ أربابَها الحُسْنُ الجائل في جوانبها ، ومَنَعها من أن يستُرَها بقِناعٍ تُعجُباً بها ، والتذاذاً بخَوضِ عيونِ الناسِ في محاسنها ، قلتُ للمُثْني عليهنّ : إنَّ ثناءكَ يَضُرُّنا ، لتنبيهك على كثيرٍ ممّا لعلّه يخفَى عليهنّ من دقائق الجمال .

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، أحد شعراء الغزل في صدر الإسلام والدولة الأموية ، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ ونفاه عمر بن عبد العزيز إلى « دهلك » لما شاع غزله وتعرضه للنساء ومنهن سكينة ، وابنة لعبد الملك ابن مروان ، ثم غزا في البحر ، فأحرقت السفينة التي كان فيها فاحترق ، وذلك في سنة ٩٣ . الأغاني (١ : ٢٨ – ٩٤) والخزانة (١ : ٢٣٨ – ٢٤٠) ، ووفيات الأعيان والشعر والشعراء ٥٣٥ – ٥٤٠ .

(٢) بعده عند التبريزي :

تبالَهْنَ بالعِرفان لمّا عرفنني وقُلْنَ امرؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا

وقرَّبن أسبابَ الهوَى لمتيَّمٍ يقيس ذراعاً كلّما قِسْنَ إصبَعا

(٣) في الديوان ٣٣ وأمالي القالي (٢ : ٤٩) : « لمطهرين بالحسن » . وفي الأصل : « ويلك إنما » ، والتفسير يقتضي ما أثبت من ل والتبريزي .

ولطائف الـكمال . إذ كان ذلك يزيد فى الإعجاب بأنفسهن ، ويُكسِب[1] الـكِبرَ فى أخلاقهن ، فهل تقدرُ بدَلَ ذلك على ما ينفعُنا معهن . وجواب لمّا إنْ شئتَ جملتَه « فقلتُ » على أن يكون الفاء زائدة ، وإن شئتَ جملته محذوفا ، كأنّه قال : لمّـا فعلنا ذلك كلَّه توانَسْنَا ، أو ما يجرى مجراه . وقد تقدّم القول فى أنّ لو ولمّا وحتّى يُحْذَف أجوبتُها ، ويكون إبْهامُها لِحَذْفها أبلغَ فى المعنى . ويقال : أطرَى فلانٌ فلانًا ، إذا مدحَه بأحسنِ ما قدَرَ عليه . وقوله « تسطيع » منقوص عن تستطيع . ووَيحٌ ، قال الأصمعى : هو ترحُّمٌ ، فإذا أضيف بغير اللام يُنْصَبُ ، ويكون العامل فيه فِعْلاً مضمرا ، كأنه قال : ألزَمَه الله وَيْحًا ، وانتَصَبَ فتنفَعَا بأنْ مضمرة ، وهو جوابُ الاستفهام . ومعنى « زَهَاهَا الحسنُ » استخفَّها ويقال : زَهَتِ الأمواجُ السَّفينةَ والرِّياحُ النَّباتَ . وقوله « أن تتقنَّما » أراد من أن تتقنما ، وهم يحذفون الجارَّ مع أنْ كثيرا .

٤٧٥

وقال أبو الرُّبَيس التَّغْلِبىّ[2] :

١ — هل تُبلِغَنِّى أمَّ حَرْبٍ وتَقْذِفَنْ على طرَبٍ بيُوتَ هَمٍّ أقاتلُهْ

٢ — مُبِينَةُ عِتقٍ حُسْنَ خدٍّ ومِرْفَقًا به جَنَفٌ أنْ يَفرُكَ الدَّفَّ شاغلُهْ

قولُهُ « على طرَبٍ » يجوز أن يتعلَّقَ بتبلغنِّى ، ويجوز أن يتعلَّق بتقذِفَنْ ،

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ويكتسب » .

(٢) كذا فى النسختين واللسان (ربس) ونص على أنه « من شعراء تغلب » . وصوابه « الثعلبى » كما عند التبريزى ، وقال : « من ثعلبة بن سعد بن ذبيان » ، وهو يطابق ما فى التكملة للصغانى . وفى القاموس : « وأبو الربيس عباد بن طهمة الثعلبى » ، وفى تاج العروس أنه يقال أيضاً « طهفة » ، وهو شاعر إسلامى ، كما ذكر البغدادى فى الخزانة (٢ : ٥٣٤) نقلا عن ابن ماكولا . وذكر البغدادى فى رواية أخرى أنه أبو الربيس عباد بن عباس بن عوف ابن عبد الله بن أسد بن ناشب بن سيد بن رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان .

والفعلان جميعاً على قوله «مُبينةٌ عِتقٍ» وهي ناقَةٌ. والاختيارُ عند أصحابنا البصريِّين أنْ يرتفع بالأقرب، وهو تَقذِفَنْ، ويجوز أن يرتفع بتُبلغنى، وعلى هذا: جاءنى وأكرمنى زيدٌ. والطَّرَب: خِفّةٌ تلحَقُ لنشاطٍ وجَذَلٍ، واهتمامٍ وجزع. وبيُوت همٍّ، فَعُول من قولك: بات يبيت. كأنّه همٌّ جاءه ليلاً فلازَمَه. وعلى هذا قيل فى الصَّقيع: البيُّوت. وانتصب «حُسْنَ خدٍّ» على التمييز. والجنَف: المَيَل. ورجُلٌ أجنفُ: فى خَلْقه مَيَلٌ، وقيل: هو الطَّويل المنحنِى. والعَرْك: الدَّلْك والغَمْز. وقوله «به جَنَفٌ» فى موضع النَّصب، لأنّه صفة لمرفَق. و «شاغله» صفةٌ لجَنَفٍ. وإضافتُه على طريق التَّخفيف، فهو نكرة والتنوين مَنويٌّ، كأنّه شاغلٌ له. ويريد بقوله «به جَنَفٌ» أنَّ المِرفَق متباعدٌ عن الزَّوْر، لأنَّ الناقة فَتلاء؛ ولولا بُعدُه [عنه[1]] لكان يكون ناكتاً أو حازًّا أو ضاغطاً، أو ناقراً[2] وذلك عيبٌ يمنع من إدامة السَّير. فيقول على وجه التَّمنِّى: هل أرانى راكبَ ناقةٍ توصِّلنى إلى هذه المرأة، نشيطةٍ طَرِبَة، وتَطْرَحُ عنِّى ثِقل همٍّ أزاولُه وأدافعُه، وهى تُلازمنى باللَّيل ولا تُفارقنى. وهذه النّاقة لها شواهدُ تُوجِبُ عِتقَها وكَرَمها، من حُسْن الخدِّ والمِرفَق المتجانِفِ عن الزَّوْر.

٣— مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرَّجْلَ رَبُّها ... بِسُلْمٍ غَرْزٍ فى مُناخٍ تُعاجِلُهْ

هذا يرجعُ إلى صفة النّاقة، والمراد أنّها ذكيّة الفُؤاد، شَهْمَة النفس، فكأن بها لنَشاطها وذَكائها جُنوناً أطارَ قلبَها، وأزال مُسْكَتَها. وقوله «إنْ ثَنَى الرَّجلَ ربُّها» جوابُ الشَّرْط فيه قوله «تُعاجله» وأصله تُعاجِلْهُ، اللام

(١) الكلمة من ل.

(٢) الناكت: أن ينحرف المرفق حتى يقع فى الجنب فيؤثر، فإذا حز فيه قيل له حاز، فإذا خرقه فذلك الضاغط.

ساكنة للجَزْم ، ولكنّه نُقِلَ إليها حركة الهاء ، وهو ضمير يرجع إلى «ربُّها» .
ومثله قولُ طَرَفة :

* لو أُطيعُ النَّفْسَ لم أرِمُهْ[1] *

يريد : لم أرِمْهُ ، فنَقَل . والمعنى أنّها لخفّتها وحِدّتها ، متَى همّ صاحبُها برُكوبها فثَنَى رجلَها ، أى غطف بغَرْزِها الذى هو كالسَّلْم ، وهو الرِّكاب ، عاجلَتْه فنهضتْ به قبل تمكُّنِه مِن رُكوبها ، واستقراره على ظَهْرها .

وقد سلك هذا المسلكَ ذُو الرُّمَّة فى البائية التى أوّلُها :

* ما بال عينك منها الماء يَنسكِبُ[2] *

حُدِّثتُ عن الكِسْرَوى علىّ بن مَهدىّ الإصفهانىّ[3] عن شيوخه ، أنّ ذا الرُّمَّة أنشد هذه القصيدةَ كُثيِّرَ عزّةَ ، فلما انتهى إلى قوله :

* حتَّى إذا ما استوَى فى غَرْزِها تَثِبُ .[4] *

قال له : أهلكتَ والله راكبَها ، هلَّا قلتَ كما قال الرّاعى :

تَرَاها إذا قُمتَ فى غَرْزِها   كمِثلِ السَّفينةِ أو أوْقَرُ

فهذا ما رُوِىَ لنا . وقد ذكر الرّاعى فى موضع آخر فقال :

وكأنّ رَيِّضَها إذا يا سَرْتَها   كانتْ مُعاوِدَةَ الرَّحيل ذَلُولَا

وحُكِى لى أنّ سعيدَ بن سَلْمٍ الباهلىّ ، قال : قرأنا هذه القصيدة على الأصمعى من شعر الراعى ، فلما انتهينا إلى البيتِ رواه :

* وكأنّ ريِّضَها إذا باشرْتَها *

---

(١) صدره فى ديوان طرفة ١٦ :

* حابسى رسم وقفت به *

(٢) عجزه : * كأنه من كلى مفرية سرب *

(٣) ل : « الأصبهانى » ، وإصبهان تقال بالباء وبالفاء ، وبفتح الهمزة وكسرها .

(٤) صدره : * تصغى إذا شدها بالكور جانحة *

فقلت : ما معنى « باشرتَها » ؟ قال : ركبْتَها ، من المباشَرة . فسألنا ذلك أبا عبيدةَ عنه ، فقال : صحَّف واللهِ ، إنَّما هو « إذا ياسرتَها » أى لم أُعازَّها ولم أقتسِرْها . ومثله قوله .

إذا يُوسِرَتْ كانت وقُورًا أديبَةً ... وتَحْسِبُها إنَ عُوسِرَت لم تُؤدَّبِ

٤ — يُبارِى بها القُودَ النَّوافِخَ فى البُرَى ... قليلُ النُّزولِ أَغْيَدُ الخَلْقِ عاطِلُهْ

٥ — مُرَاجِعُ نَجْدٍ بعد فِرْكٍ وبِغضَةٍ ... مُطَلِّقُ بُصْرَى أَصْمَعُ القَلْبِ جافِلُهْ

يقول : يعارِض بهذه الرَّاحلةِ التى وصفتُها رواحلَ طِوالَ الأعناق ، تنفُخُ فى بُرَاها لنشاطها ، رجلٌ قليلُ النُّزول عنها ، ناعمُ الخَلْقِ عاطله ، يعنى نفسه ، أى أنَّهُ يَجِدُّ فى السير ويُدِيمُهُ . وقوله : « مُرَاجِعُ نَجْدٍ » أى أنه بعد أن فارَقَ نَجْدًا وأبغضه لخلوِّه من حبيبه يريدُ أن يراجعهَ وينتقل عن بُصْرَى — وهى قرية بالشَّأم تُطْبَعُ فيها السُّيوف البُصرية — ويخلِّيها . ومعنى أَصْمَعُ القَلْب : حَديدُه . جافِلُهُ ، أى مُسرعُهُ . ويقال : أجفلَ الظليمُ وجَفَلَ ، إذا نشرَ جناحيه ومرَّ يعدُو ، وكلُّ هاربٍ من شىء فقد أجفل عنه . والظليم مُجْفِلٌ وجافلٌ جميعًا . وذكر المراجعة والتطليق ، واستعارةٌ للانتقال والتخلية .

وقد فَعَلَ أبو تمام مثل هذا فقال :

* فِيها وطَلَّقْتُ السُّرور ثلاثا[1] *

إلا أنَّ ما قاله هذا الشَّاعرُ أحسَن ، حينَ زاوَجَ التَّطليق بالمراجعة . وقوله « نوافخُ فى البُرَى » النوافخ : المتنفسات نفخًا لنَشاطها . والبُرَى : الحَلَقُ التى فى أنوفها . وقوله » أَغْيَدُ الخَلْقِ » أى منثنيه ، وعاطلُه أى يعطِّله من التَّرفه ، ويَفطِمه عن النّعمة . وكل مُهَمَل متروك فهو معطَّل وعاطل .

(١) صدره فى ديوانه ٦٦ :

* أرض خلعت اللهو خلعى خاتمى *

٤٧٦

وقال عبدُ الله بن عَجْلانَ النَّهدىّ(١) :

١ — وحُقَّةِ مِسْكٍ مِنْ نِساء لَبِسْتُها   شَــبابى وكأسٍ باكَرَتْنى شَمُولُها

٢ — جديدةُ سِربالِ الشبابِ كأنَّها   سَقِيَّةُ بَرْدِيٍّ نَمَتْها غُيُولُها

قوله « وحُقَّةِ مِسْكٍ » كنايةٌ عن امرأةٍ جعلَها لِطيبِ رَيَّاها كظرفِ مِسْكٍ. ومعنى « لبستها » تمتَّعت بها. وقال ابنُ أحمر :

لبِسْتُ أبى حتى تملَّيتُ عَيْشَهُ   وبَلَّيْتُ أعمـامى وبَلَّيْتُ خاليا

وموضع قوله « شبابى » نصب على الظَّرف. والمعنى زَمنَ شَبابى، ومُدَّةَ شبابى. والمصادر تُحذَف منها أسماء الزمان كثيراً. وقوله « وكأسٍ » انعطف على قوله « وحُقَّةِ مِسْكٍ » والعامل فيها رُبَّ، والواو واو العطف، وليست بنائبة عن رُبَّ، بدَلالة أنه لو كان كذلك لوجَبَ أن يُدخَلَ الحرفُ العاطف عليه، فيقال ووحُقَّةِ مِسْكٍ. والشَّمُول: الخمرة التى لها عَصْفةٌ كعَصْفةِ الشَّمال. وقد قيل: هى التى تشتمل على العقل فتَمِلكه وتَذهَبُ به.

وقوله « جديدة سربال الشباب » أدخل الهاء على جديدة، والأكثر أنْ يقال: مِلحفةٌ جديدةٌ. وطريقة سيبويه فيه أنه صفة مذكَّرة تبعت مؤنثاً، ويُنوَى فى ذلك المؤنَّثِ ما يكون لفظُه مذكَّراً، كأنه يَنوِى بالملحفة إزاراً، وما يجرى هذا المجرى. وبعضُهم يذهبُ إلى أنه فعيلٌ فى معنى فاعل، فلحِقَه الهاء

(١) هو عبد الله بن العجلان بن عبد الأحب بن عامر بن كعب بن صباح بن نهد بن زيد ابن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة، شاعر جاهلى، أحد المتيمين من الشعراء ومن قتله الحب منهم، وكان له زوجة يقال لها هند فطلقها ثم ندم على ذلك، فتزوجت زوجا غيره فمات أسفاً عليها. الأغانى (١٩ : ١٠٢ — ١٠٥) والشعراء ٦٩٦ وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى ٧٦ — ٧٨ .

قياساً ، فهو كظريفٍ وظريفة . لأن الفعلَ منه جَدَّ الثَّوبُ يجدُّ جِدَّةً . وبعضهم ذَهَبَ إلى أنّه فعيل فى معنى مفعول ، كأنّ ناسجها جَدَّها قريباً ، أى قطعها ، فلهذا يُستنكَر إلحاقُ الهاء به . ومعنى « جديدة سربال الشباب » أنها فى عُنفُوان شبابها ، وأنّ عليها غَضارةَ الحدوث ، ونَضارة النَّشء ، فكأنّها سَقِيَّةُ بَرْدِيّ . والسَّقِيَّةُ فى معنى مَسْقِيَّة ، جعلها اسماً ، فهى كالبَنِيَّة واللقيطة . وشبّهها بها لزيادة خِلْقتها وحُسن بِنْيتها . ألا تَرى أنه قال : « غذتها غُيُولُها » . والغُيُول : جمع الغَيْل ، وهو الماء الذى يجرى بين الأشجار . وقال الدُّريدىّ : الغَيْل : الماء الذى بين الحجارة فى بطن وادٍ . والغِيلُ ، بكسر الغين : الماء يجرى بين الأشجار ، وربما سمَّوا الشجرَ الملتفَّ غِيلاً . ويُشبه هذا قول الآخر(١) :

بَرْدِيَّةٌ سَبَقَ النعيمُ بها   أقرانَها وغَلاَ بِها عَظْمُ

وفى طريقته قولُ الآخر(٢) :

لم تَلْتَفِتْ لِلِداتها   ومَضَتْ على غُلَوائها

وإنما يكون ذلك من نتائج الترفهِ ، ولوائح النِّعمة . وقد ظهر معنى البيتين بما ذكرتُه ، لأنه تبجَّحَ بتعاطيه الصِّبَا واللَّهو ، وشُربِ الخمر مدّةَ الصِّبا [وأيّامَ الشباب(٣)] .

٣ — ومُخْمَلةٍ باللَّحم مِن دُونِ ثَوْبِها   تَطُولُ القِصَارُ والطِّوالُ تَطُولُها(٤)

٤ — كأنّ دِمَقْسًا أو فُرُوعَ غَمامَةٍ   على مَتْنِها حيثُ استقَرَّ جَدِيلُها(٥)

---

(١) هو المخبل السعدى . المفضلية ٢١ .

(٢) هو ابن قيس الرقيات . اللسان (غلا) .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى : « ويروى : فروع عمامة ، بعين غير معجمة ، وهو أشبه بالدمقس » .

(٥) بعده عند التبريزى :

قوله « ومُخَمَّلة » من جملة صفاتها وإن عطفتَها بالواو ، فعلى هذا لك أن تقول : مررتُ برجلٍ فاضلٍ عاقلٍ أديب ، وأن تقول : برجُلٍ فاضلٍ وعاقلٍ وأديب . ومعنى « ومُخَمَّلة » أنّ أعضاءها تساوَتْ فى رُكوب اللّحم إيّاها ، وظهورِ السِّمَن والبُدْنِ عليها ، فكأن اللّحم جُعِل خَمْلاً لها . وفائدة « من دونِ ثَوْبها » أنها مِلْء دِرعِها ، فهى سمينةُ المُعَرّى . وإلى هذا أشار الأعشى فى قوله :

* صِفْرُ الوشاح ومِلْء الدِّرع بَهْكَنَةٌ[1] *

وقوله « تَطُولُ القِصارَ » يريد أنها رَبْعةٌ ، فإذا حَصَلت فى القِصار طالتْهُنّ ، وإذا حصلت فى الطِّوال طُلْنَها يُشير إلى التَّوسُّط الذى هو المختار فى كل عَقْل ، ولذلك قيل : « خَير الأمور أوساطها » ولأنّ الغُلُوّ والإفراط مذمومان ، كما أن القُصُور والتفريط مذمومان . و « تطول » فى البيت مُعَدًّى ، لأنه بمعنى تَغلِبُ فى الطول ، فهو من طاولْتُه فطُلْتُه .

وقوله « كأنّ دِمَقْسًا أو فروع غَمامةٍ » الدِّمَقْس[2] : الحرير الأبيض . وفروع الغَمامة ، أشارَ إلى أطرافها وجوانبها والشمس تحتها ، لأن تلك الأطرافَ بشُعاع الشمس تُشْرِق أبداً . والمعنَى أنها ليِّنة المَجَسِّ برِاقة اللون ، كأنَّ الحريرَ وأطراف غمامةٍ استكنَّت الشمسُ تحتَها على مَتْنِها . وقوله « حيثُ استقرَّ جديلُها » تخصيصٌ لما عمَّهُ قولُه « على مَتْنِها » . والجديل ، هو الوِشاح ، وما تشدُّه المرأة فى حَقْوها من الأَدَم المضفور . وليس هذا من عادات العرب . وإذا

= وأبيضَ منقوفٍ وزقٍّ وقينةٍ وصهباء فى بيضاء بادٍ حجولُها
إذا صُبَّ فى الرَّاوُوق منها تضوَّعَتْ كميتٌ يَلَذُّ الشاربين قليلُها

(١) عجزه : * إذا تأتّى يكاد الخصر ينخزل *

(٢) هو معرب « دمسه » الفارسية . استينجاس ٥٣٥ والألفاظ الفارسية ٦٦ . وانظر حواشى تهذيب الصحاح للزنجانى (دمقس) .

كان من لونَيْنِ فهو البَرِيمُ . وهذا يُشَدّ فى أحْقِى الصِّبيان يُدفَعُ به العين .

٤٧٧

وقال عبد الله بن الدُّمَيْنَة الخَثْعَمِى[١] :

١ — ولمّا لَحِقْنا بالحُمُولِ ودُونَها خَمِيصُ الحَشَا تُوهِى القميصَ عَوَاتِقُهْ
٢ — قليلُ قَذَى العينين نَعْلَمُ أنه هو الموتُ إن لم تُلوَ عَنّا بَوَائقُهْ[٢]

قوله «ولمّا لحقنا» جوابه مادلّ عليه البيت الثالث ، وهو «عَرَضْنا» . وأراد بالحمول الظّعائنَ وأثقالها . وقوله « ودونها خميص الحشا » يريد قَيِّمَهنّ . فيقول : لمّا دعانا الشوقُ إلى اللّحوق بالظّعائن بعد تشييعنا لها ، وإلى تجديد العهد بها ، فأدر كناها ودونها رجُلٌ قليلُ اللحم على بَدَنه ، لطيفُ طيِّ البطن ، مديدُ القامة ، حتى إنّ عواتقَه ، وهى النَّواحي من عاتِقِ الإنسان ، تكاد أن تُوهِيَ قميصه . وهذا مما تتمدّح به العرب ، لأنّ السُّمْنَة[٤] عندهم مذمومة .

وقد كشَفَ عن هذا المعنى قولُ الآخر :

فَتًى لا يُرَى قَدُّ القميصِ بخَصره ولـكنّما تَفرِى الفَرِىَّ مناكِبُهْ

وقوله «قليل قَذَى العينَين» يصف امتعاضَه وقلّةَ صبرِه على دَرَن العار[٥] .

---

(١) التبريزى : « هذا البيت قد تكلم عليه النمرى ، لأن فيه خلافا لما قبله ، إذ كان البيت المتقدم فى صفة امرأة ، وهذا البيت يجب أن يكون فى صفة ناقة ، ولا شك أنه قد سقط منه شىء يصله بما قبله . ولم يذكر ذلك أحد منهم ، وإنما يريد أنها ترفع ذنبها إلى متنها » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٣) التبريزى : « يُعلم أنه هو الموت إن لم تصر عنا » . وهى رواية الديوان ٤٣ . يقال : صريت الشىء ، إذا قطعته ومنعته .

(٤) كأنه جعل « السمنة » اسما للسمن ، والمعروف فى المعاجم ، أن السمنة بالضم : دواء يتخذ للسمن .

(٥) هذا ما رآه المرزوقى ، وأجود منه قول التبريزى : « يصفه بحدة النظر ، وأنه ليس بعينه غمص ، فهو أحد لنظره » .

ويقال : فلانٌ لا يُغضِى على قَذًى ، إذا لم يحتملْ ضَيْماً . وقوله « نَعلم أنَّه هو الموت » يصفه بشِدَّة الحَمِيَّة عند غضبه . وأنَّ نارَه لا يُصطَلَى [بها[1]] إذا غار على حُرَمِهِ . والمعنى أنَّا مع تعرُّضِنا له نَحذَره مخافةَ أن يَحْمَى ، لتحقُّقنا أن شرَّه لا يُقامُ له إذا سطا . والبوائق : جمع بائقة ، وهى الخصْلة المنكَرة فى شُمولِها ، فيقال : باقَتْهُم بائقةٌ . والبُوقة . الدُّفْعَةُ الشَّديدة من المَطَر ، منه . قال رؤبة .

* من بَاكِرِ الوَسْمِىِّ نَضَّاحِ البُوَقْ[2] *

وقو « تُلْوَ عنَّا » أى تُصْرَف . ويرى « تُلْقَ عنَّا » من الإلقاء .

٣ — عَرَضْنَا فسلَمْنا فسَلَّمَ كارِهاً عليها وتَبريحٌ من الغيظِ خانِقُهْ[3]

٤ — فسايَرْتُه مِقْدارَ مِيلٍ ولَيتَنى بكُرْهِى له ما دام حيًّا أُرافِقُهْ[4]

يقول : لمَّا لحِقْنا بالظَّعائن عَرَضْنا لهُنَّ ، وسَلَّمْنا على قَيِّمهن والحامى دونهنّ ، فأجابنا جوابَ الكاره لنا ، والمنكِرِ لتسليمنا ، قد خَنَقَهُ غَيْظٌ مُبَرِّحٌ . ويقال : لَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به . وانتصَب « كارِهاً » على الحال . والتَّبريح : التَّشديد . ويقال : بَرَّح بى كذا وكذا ، ومنه قول الأعشى :

* أَبْرَحْتَ رَبًّا وأَبْرَحْتَ جارَا[5] *

---

(١) التكلة من ل .

(٢) نضاح ، بالحاء المهملة فى الأصل واللسان . وفى ل والديوان ١٠٥ : « نضاخ » بالخاء المعجمة ، وهما سيان .

(٣) الديوان : « وقفنا فسلمنا » . التبريزى : « الرواية التى عليها الناس : من الغيظ . وفى شعر ابن الدمينة : الغنظ ، الذى يراد به أشد الكرب . يقال غنظه غنظاً . قال الشاعر :

إذا غنظونا ظالمين أعانهم على غنظهم مَنٌّ من الله واسع » .

ابن جنى فى التنبيه : « هذا من نحو تسمية الثواب باسم العمل ، نحو قول الله سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ... فكذلك قوله فسلمنا فسلم ، أى فرد السلام . والأول فى العرف والاستعمال مسلم ، والثانى راد » .

(٤) الديوان :

فسايرته ميلين يا ليت أننى على سخطه حتى الممات أرافقه

(٥) صدره : * تقول ابنتى حين جد الرحيل *

ويقال : هو فى بَرْحٍ من الشَّوق بَارِحٍ . وقوله « خانِقَه » يريدُ أنَّه امتلأْ صدرُه من الغَيظ فارتقَى إلى ما هو فوقَه حتَّى خنقه .

وقوله « فسايرتُه مقدارَ ميلٍ » انتصب مقدارَ على الظَّرف . ومعنى سايرْتُه صاحَبْتُه فى السَّير ، ثم قال : وليتنى أرافقه ما دامَ حَيًّا ، على كُرْهٍ منِّى ، لأنه استطاب صحبتَه لما له من اللذاذة[1] فى النظَر إليهن ، واستكرهَ الكونَ معه لما يخاف على نَفْسه منه ، إلا أنَّه غلَّبَ الالتذاذَ . و « وما دام حَيًّا » انتصب على الظرف ، و « أرافقه » فى موضع خبر ليت . وقوله « بكُرهى له » نصب على الحال ، والعامل فيه أرافقه .

٥ – فلمَّا رأتْ أنْ لا وِصَالَ وأنهُ مَدَى الصُّرْمِ مَضروبٌ علينا سُرَادِقُهْ[2]

٦ – رَمَتْنِي بِطَرْفٍ لَوْ كَمِيًّا رَمَتْ به لَبُلَّ نَجِيعًا نَحْرُهُ وَبَنائقُهْ

٧ – وَلَمْحٍ بِعَينَيها كأنَّ وَمِيضَهُ وميضُ الحَيَا تُهْدَى لِنَجْدٍ شَقائقُهْ

قوله « أنْ لا وصال » أنْ فيه مخففَة من أنَّ الثقيلة ، يريد أنه لا وصال . ألا تَرَى أنه عَطَفَ عليه « وأنه مَدَى الصُّرْم » . ووصال انتَصب بِلَا ، وخبره محذوف ، كأنه قال : لا وِصَالَ بيننا . والجملة فى موضع خبر أن ، والضمير فى أنه الأُولى والثانية ضمير الأمر والشَّأن . وقوله « مَدَى الصُّرم » فى موضع الابتداء ، و « مضروب علينا » خَبَرُه . وسرادِقُه ارتفع بمضروبٍ ، لأنه قام مقام الفاعل .

وقوله « رَمَتْنِي بطَرْفٍ » جوابُ لمّا . كأنه لمَّا تأمَّلَتْ حالَهُ فى مُسايرته ، وضيقَ الوقت عن مجاذَبته ، لِمَا كان يَحُول بينهما من مراقبته ، ثمَّ رأتْ تغيُّظَ

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « اللذه » .

(٢) الديوان : « فلما رأت ألا جواب وإنما » .

الرقيب وكراهيته[1] ، مع معرفتها بنتائج ضَجرِه ، نظرتْ إلى الشاعر نظرَ إنكارٍ استدلّ منه على ضلالِه فيما يأتيه ، وسوءِ توفيقه فيما يُلحّ فيه ، فكأنّه رمته بسَهْمٍ لو لم يكن نظَرًا ، بل كان سَهْمًا رُمِىَ به شُجاعٌ فى معركةٍ ، لأصيبَ مقتَلُه ، فكان يبتلُّ نحرُه وبنائق قميصِه نجيعا . والنجيع : دمُ الجوف . ويقال تَنَجَّع به ، أى تلطَّخَ .

وقوله « وبالمحِ بعينيها » انعطَفَ على قوله بطرْفِ . واللَّمح : النظَر ، ويستعمل فى البَرق والبصَر . وكذلك الطرفُ هو النَّظر [هنا[2]] ، كأن الرَّمىَ بالطرْفِ كان إنكارًا منها . واللمح بالعينين مُواعَدةٌ وتوحِيَةٌ بجميلٍ بعد تعذُّر المطلوب : والوَمْض والوميض : اللَّمع . وأومضَتْ له فلانةُ بعينها ، إذا بَرَقتْ . لذلك شبَّهَ وميضَ لَمْحِها بوميض الحَيَا ، وهو الغيث المُحْيِى للأرضِ وأهلها وقد هُدِيَتْ أى أُرشِدَتْ شقائقه ، وهى قِطَعُ سحابِه ، لنجد . كأنَّه جعَلَها قاتِلةً فى رميها ، مُحْيِيةً بلمْحها . والشَّقيقة : البَرْقةُ إذا استطارت فى عُرْض السحاب وتكشَّفت أيضًا .

(١) ل : « وكراهته » .

(٢) التكملة من ل .

٤٧٨

وقال أبو الطَّمَحان القَينىّ[1] :

١ — أَلَا عَلِّلَانِى قَبْلَ صَدْحِ النَّوَائِحِ وقبلَ ارتقاءِ النَّفْسِ فَوقَ الجوانِحِ[2]

٢ — وقَبلَ غَدٍ يا لَهْفَ نَفْسِى على غَدٍ إذا رَاحَ أصحابِى ولستُ برائِحِ

يُرْوَى « يا لَهْفَ نفسِىَ من غَدٍ » . والصَّدْحُ : شِدَّةُ صوتِ الدِّيكِ والغرابِ وغيرِهما . والصَّيْدَحِىُّ : الشَّديد الصَّوت . والجوانح : ضُلوعُ الصَّدر . وارتقاء النَّفسِ فوقَها ، كما يقال : بلغتْ نفسُه التراقى . فيقول : عَلِّلانى بالمقتَرَح عليكما قبل أن أموتَ فتقومَ النَّوائحُ علىَّ يندُبْنَنى ، وقبل ميقاتِ أَجَلِى . وأوانِ تخلُّفى عن أصحابى وقد راحُوا عنِّى ، لنُزول القَدَرِ المقدور بى .

فإن قيل : كيف قدَّم ذكر صَدْحِ النَّوائح على ذكر الموت ، وإنَّما يكون بعده ؟ قلت : إن العطفَ بالواو لا يوجب ترتيباً . ألا تَرَى أن الله تعالى قال : ﴿ واسْجُدِى وارْكَعِى ﴾ ، والرُّكوع قبلَ السُّجود فى ترتيب أفعال الصلاة .

وقوله « إذا راح أصحابى » يجوز أن يكون إذا فى موضع الخبر بدلًا من غدٍ ،

---

(١) الطمحان ، بالتحريك : فعلان من طمح بأنفه ، إذا تكبر . وأبو الطمحان هو حنظلة بن الشرق ، أو ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر بن شيع الله بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، أدرك الإسلام فأسلم ، ولم ير النبى صلى الله عليه وسلم . وكان معروفا بالفسق ، قيل له : ما أدنى ذنوبك ؟ قال : ليلة الدير . قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بديرانية فأكلت عندها طفهشلا بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها وسرقت كساءها ومضيت . ويذكرون أنه عمر مائتى سنة . وفى الشعراء أيضاً أبو الطمحان الأسدى كان فى زمن يوسف ابن عمر ، وأبو الطمحان النهشلى ، وأبو الطمحان الطائى . الخزانة (٣ : ٤٢٦) وشرح التبريزى للحماسة ، والإصابة ٢٠٠٧ والمعمرين ٥٧ والمؤتلف ١٤٩ والاشتقاق ٣١٧ واللآلى ٣٣٢ والأغانى (١١ : ١٢٥ — ١٢٨) والشعراء ٣٤٨ .

(٢) التبريزى : « قبل نوح النوائح » ، ثم قال : « ويروى : قبل صدح الصوادح » .

والبدل إذا جاء مؤكِّدًا للمُبدَل منه ومفصِّلًا لُجمَلِه قد لا يستغنى عن المُبدَل منه ، وإذا كان كذلك فليس لأحدٍ أن يقول : من شرط البدل أن يُلغَى المبدلُ منه ويُجعلَ هو مكانه . وإذا كان كذلك لم يَجُزْ أن يَلِيَ إذا العاملَ فى غَدٍ ، وهو « على » أو « من » فى الرِّوايتين جميعاً . على أنّ أبا العباس قد جوّز وقوعَ إذا فى موضع المجرور والمرفوع . ويجوز أن يكون نصباً بَدَلًا من موضع « من غَدٍ » أو « على غَدٍ » العامل والمعمول فيه جميعا ، لأنّ موضعهما نصبٌ على المفعول بمـا دلّ عليه قولُه يا لهف نفسى ، وهو : أتلهف من غَدٍ .

وإنّما جاز أن يُودعَ البيتين باب النسيب لرقّتهما ولأنّ المتعلَّل به كان لذّةً من اللَّذّات . وهذا عادته فى أبواب اختياره[1] .

٤٧٩

آخر :

١ ــ هَلِ الوجْدُ إلَّا أنَّ قَلْبِيَ لَوْدَنَا مِنَ الجَمْرِ قِيدَ الرُّمْحِ لاحْتَرَقَ الجَمْرُ

٢ ــ أفِى الحقِ أنِّى مُغْـرمٌ بكِ هائمٌ وأنَّكِ لا خَلٌّ هَـــوَاكِ ولا خَمْرُ

٣ ــ فإنْ كنتُ مطبوباً فلازِلتُ هكذا وإن كنتُ مَسْحُوراً فلا بَرَأ السِّحْرُ

قوله : هل الوجد » استفهامٌ لفظه ومعناه النّفى ، بدلالة وقوع إلاّ بعده ، كأنّه قال : ما الوجد ، أو ليس الوجد إلاّ هذا الذى بى ، وهو أنّ قلبى لو قَرُب من الجَمر حتّى لا يكونَ بينهما إلاّ قدرُ رمح لغَلَبَ نارُه نارَ الجمر ، وكان الجمرُ يحترق . وقوله « الوجد » مبتدأ وخبره إلاّ مع ما بعده . وانتصب « قِيدَ الرُّمح » على الظّرف . ويقال : بينى وبينَه قابُ قوسٍ ، وقِيدُ رُمْحٍ ، وغَلْوَةُ سَهْمٍ . وحَـكَى

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « وهو عادته فى باب اختياره » .

بعضُ أهل التّفسير فى قوله تعالى : ﴿ فكانَ قابَ قوسَين ﴾ أنّ لكلّ قوس قابَيْن ، وهو ما بين المَقبِض والسِّيَة . وأهلُ اللّغة على ما قدَّمتُه .

وقوله « أفى الحقّ أنّى مُغرَمٌ بكِ هائمٌ » فالمغرم : الذى قد لزِمَه الحُبّ يُقال : حُبُّه غَرَامٌ ، أى لا تفَصِّىَ منه . ومنه عذابٌ غَرامٌ . والهائم : المتحيِّر . والهُيَام كالجنون من العِشق ، ومنه المُهَيَّم : الذى يَهذِى بالشىء ويُكثِرُ ذِكرَه . والمعنى أنه لا يدخُل فى الحقّ ووُجوهِه ، وأنواع قِسَمِه . أن يكون حُبّى لكِ غَراما ، وحُبُّكِ لا يرجع إلى معلوم ، ولا يَحصُل على حَدٍّ محصور . ويقال : ما هو بخَلٍّ ولا خَمْرٍ ، والمعنى أنه ليس بشىء يَخْلُصُ ويَتبيَّن .

وقوله « فإن كنتُ مَطْبوباً » فالطِّبُّ : السِّحر والعلم جميعاً . وهو طَبٌّ ، أى عليم . وفى الحديث : « حِينَ طُبَّ » أى سُحِر . وهو مطبوبٌ ، أى مسحور . ومعنى البيت : إن كان الذى بى وأقاسِيه داءً معلوماً يُعرفُ دواؤه ، فلا فارقَنى فأنّى ألتذُّ به ـــ وهذا هو الفِتْيانيَّةُ فى الهوى ، والتجلُّد على البلاء ـــ وإن كنتُ مسحورا ، يريد وإن كان الذى بى لا يُعلَمُ ما هو ، وأعْيا الوقوفُ عليه الأطبّاء ، والعلماء بالأدواء ، حتى يُسَلِّمَ للسِّحْرِ فلا فارقَنى أيضاً . وإنما قال هذا من عادة العامّة ، لأنهم كذا يعتقدون فى الأوصاب والعِلل . ولا يجوز أن يكون معنى مطبوباً مسحوراً ، لأنه يصير الصدرُ والعَجُز لمعنًى واحد .

٤٨٠

آخر :

١ ـــ تَشَكَّى المُحِبُّونَ الصَّبابَةَ ليتَنى تحمَّلْتُ ما يَلْقَوْنَ من بينهِم وَحْدِى

٢ ـــ وكانت لنفسِى لذَّةُ الحُبِّ كلُّها فلم يَلْقَها قَبْلى مُحِبٌّ ولا بَعْدى[1]

---

(١) التبريزى : « فكانت » .

هذا كلامُ مَن تجلَّدَ فى الهوى وادَّعى التلذُّذ به وإن برَّحَ به وأثَّر فيه ، فيقول[١] : شكا المحبُّون جنايةَ الصَّبابة عليهم ، وجريرةَ العشق لديهم ، وبودِّى أنِّى[٢] تحمَّلتُ أعباءها كلَّها وحدى ، وخَلَص للصَّبر فيها ولها عفوى وجهدى ، وكانت نفسى تنالُ لذَّةَ مجموعها ومفرَّقها ، وتنفردُ بمكابَدَة مجهولها ومعرَّفها[٣] ، فأفوزَ بادِّعائها ، وتسقطَ المشاركةُ بينى وبين أربابها ممَّن سبَقنى لتقدُّم زمانه ، أو تأخَّرَ عنِّى لتأخُّرِ ميلاده .

٤٨١

وقال شُبرُمةُ بن الطُّفَيل[٤] :

١ — ويَومٍ شديدِ الحَرِّ قَصَّرَ طُولَهُ دَمُ الزِّقِّ عنَّا واصطِكاكُ المَزَاهِرِ[٥]

٢ — لَدُنْ غُدْوَةً حتَّى أَرُوحَ، وصُحْبَتِى عُصَاةٌ على النَّاهِينَ شُمُّ المَنَاخِرِ

٣ — كأنَّ أباريقَ الشُّمُولِ عَشِيَّةً إوَزٌّ بأعلَى الطَّفِّ عُوجُ الحَنَاجِرِ

قوله « ويومٍ » انجرَّ بإضمار رُبَّ ، وجوابُه قَصَّر طُولَه . يقولُ : رُبَّ يومٍ من أيام الصَّيف شديد الحرِّ ، جعل طولَه قصيرًا ، ما اشتغَلْنا به فيه من الشُّرب والقَصْفِ . وأرادَ بدم الزِّقِّ الخمر . واصطكاكُ المزاهر: مُدافَعة أوتار البَرْبَط بعضها لبَعْض بالضَّرب . ويقال : ازدَهر الرَّجُل ، إذا فَرِح . فيجوز أن يكون العود سُمِّى مِزهرًا منه .

---

(١) فى الأصل : « فيكون » ، صوابه فى ل .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أن » .
(٣) هذا ما فى ل ، وهو الموافق لموسيقى الفاصلة ، وفى الأصل : « وممروقها » .
(٤) الشبرمة : واحدة الشبرم ، وهو نبت حار يحدر الطبيعة . ولم أعثر لشبرمة على ترجمة . على أن الأبيات نسبت فى الحيوان (٦ : ١٧٩) وثمار القلوب ٥٠٢ إلى ابن الطثرية .
(٥) التبريزى والجاحظ والثعالبى واللآلئ ٩٣٨ : « واصطفاق المزاهر » . وقد أشار التبريزى إلى رواية « واصطكاك » .

وقوله « لَدُنْ غُدْوَةً » انتصب غُدوةً عن النون من لَدُن[1] ، ولا ينتصب به غيره ، فهو شاذٌّ . والمعنى : باكَرْنا الشُّرب ، فلمَّا رُحْنا كان أصحابى قد سَكِروا واكتَسَبوا كِبْرًا ونُبْلًا ، وذَهَابًا عمَّا يُشيرُ به النَّاهِى والمسدِّد[2] .

وقوله « كأنَّ أباريق الشَّمُول عشيَّةً » شبَّهَ أوانىَ الخمْر وقد فُرِّغَتْ وأميلت بطيورِ ماء اجتمعت عشيَّةً بأعلى السَّاحل[3] ، معوجَّة الحناجر والحلوق .

وأدخَل هذه القطعةَ فى باب النَّسيب لرقَّتها ودَلالتها على اللَّهو والخَسارة .

٤٨٢

وقال جابرُ بنُ ثَعلبٍ الجَرْمىّ[4] :

١ — ومُسْتَخبِرٍ عن سِرِّ رَيَّا رَدَدْتُهُ   بِعَمْيَاء من رَيَّا بِغَيرِ يَقِينِ

٢ — فقالَ انتصِحْنِى إنَّنِى لَكَ ناصِحٌ   وما أَنَا إنْ خَبَّرْتُهُ بأمِينِ

يروى : « انتصحْنى إنِّى ذوأمانة » ، وهذا فى كتمانِ سرِّ المحبوب ، والمحافظةِ على الذِّمام والحُرَم . يقول : رُبَّ مُسْتَدرِجٍ لى فيما بين رَيَّا وبينى ، طالبٍ للوقوفِ على المكتوم من أمرها وأمرى[5] ، رددتُه عن نفسى بقصَّةٍ عمياء لايُهتَدى فيها لمطلوب ، ولا يُرجَع فيها إلى يقين ، فلمَّا لم يُمْكنه إنزالى همَّا حاولَه قال انتصِحْنى ، أى أدْخِلْنِى فى أمْرِكَ ، وأجْرِنى مَجْرَى نُصَحائك ، إنِّى أمينٌ لا دَغَل فى همَّتى ، ولا خيانةَ فى شأنى ، ولو خبَّرتُه بما التمَسَ ، وأطْلعتُه على

---

(١) الأوضح منه ما ذكر التبريزى : « بنصب غدوة مع لدن ، تشبه النون منها بنون عشرين » ، يريد أن غدوة تنصب على شبه التمييز .

(٢) المسدد : الذى يوجه نحو السداد والصواب . وفى الأصل : « والمشدد » صوابه فى ل .

(٣) أى ساحل الفرات . وفى معجم البلدان : « والطف طف الفرات ، أى الشاطئ » .

(٤) كذا فى النسختين ، وهو المطابق لما مضى فى ص ٣٠٤ . وعند التبريزى : « جابر بن الثعلب الجرمى ، من طيئ » . ويقال أيضاً « ابن ثعلبة » . انظر حواشى ٢١٥ .

(٥) كذا فى ل . وفى الأصل : « فيما بينى وبين ريا ، طلب الوقف من أمرها وأمرى » .

ما استشرح ، كنتُ أنا غيرَ أمينٍ ، فكيف أصير معه مؤتمنًا ، وذاك أنى إنْ بُحتُ بسرِّها فقد ضيَّعتُ أمانتها ، والسرُّ إذا جاوزَ اثنينِ خرجَ من أن يكون سِرًّا . ومثل هذا قولُ جرير :

ولقد تَسَقَّطَنِي الوُشاةُ فصادَفُوا حَصِرًا بسرِّكِ يا أُمَيْمَ ضَنِينَا

٤٨٣

وقال نَفْر بن قَيْسٍ[١] ، وبنو نَفْرٍ رَهطُ الطِّرِمَّاح :

١ — ألا قالت بُهَيْشَةُ ما لِنَفْرٍ أراه غَيَّرَتْ مِنْـهُ الدُّهورُ[٢]

٢ — وأنتِ كذاكِ قد غُيِّرْتِ بَعْدِي وكُنتِ كأنَّكِ الشِّعرَى العَبُورُ

كأنَّ المرأةَ ازدرتْه وأنكرتْ شُحوبَه وهُزالَه ، وتغيُّرَه عما عهدَتْه ، فصرفَتْ ذلك إلى أنَّه من مقتضَيات الكِبَرِ ، ومسبِّبات القَشَفِ[٣] ، وقالت مستفهمةً : ما لِنَفْرٍ ، أرَى الأيام أثَّرتْ فيه ، والأحداثَ أضْنَتْه وهَزَلته ، فأجابها مِن طريق إنكارها وقال : إنْ كان ذلك من عُقَبِ الأيام فإنها لم تَغفُل عنكِ ولم تُهمِلْ تغييرَكِ أيضًا ، فما أنكرْتِهِ منِّي موجودٌ فيكِ وظاهرٌ على سَحْنَتِكِ[٤] ولونكِ ، فقد كنتِ كالشِّعرَى العبور إشراقا وتلألؤا ، وقد حلتِ وتغيَّرتِ .

و « العَبُور » قيل فيه : هو من عَبَرْتُ النَّهرَ ، إذا جُزتَه . وقيل : بل هو من عَبَّرْتُ به ، إذا شَقَقتَ عليه[٥] ، كأنَّها إذا طلعَتْ تُعَبِّرُ للمال الرَّاعيةَ بحَرِّها ،

---

(١) هو الجد الثانى للطرماح ، إذ هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد رضا بن مالك بن أبان بن عمرو بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ . وكان الطرماح نفسه يلقب « أبا نفر » . انظر ما مضى من ترجمته فى ص ٢٢٧ .

(٢) التبريزى : « بهيسة » بالسين المهملة ، وهما روايتان صحيحتان . انظر اللسان : (بهس ، بهش) حيث ذكر هاتين الروايتين .

(٣) القشف : يبس العيش وضيقه وسوء الحال .

(٤) فى الأصل : « سجيتك » ، صوابه فى ل .

(٥) فى القاموس : « وعبر به الأمر تعبيرا : اشتد عليه . وعبرت به : أهلكته » .

وإذا سَقَطَت فبرَدها. وقوله : وأنتِ كذاك » ، الكاف الأولى للتّشبيه ، و « ذا » أشار به إلى ما أنكرَتْ منه ، والكاف الأخيرة للخطاب ولا موضعَ له من الإعراب ، فهو حرف .

٤٨٤

وَقَالَ بُرجُ بن مُسْهِر [١] :

١ — وَنَدْمَانٍ يَزِيد الكَأسَ طِيباً سَقَيتُ إذا تعرَّضَتِ النُّجومُ [٢]

٢ — رَفَعتُ برأسِهِ وكشَفْتُ عَنهُ بمُعْرَقَةٍ مَلامةَ مَن يَلُومُ [٣]

النَّدمَان والنَّديم : مَن يُنادِمُك على الشَّراب ، ومثله فى البناء سَلْمَانُ وسَلِيمٌ ، وحَمْدَانُ وحَمِيدٌ ، ورحْمن ورحيمٌ . ومعنى « يزيد الكأس طِيباً » أى بحُسْن عِشرته ، وأدبِ مجالسته يزداد شُرب المدام وإدارةُ الكأس معه لذّة . والمعنى : رُبَّ نَديمٍ على ما وصفْتُه سقَيْتُه إذا تعرَّضت النُّجوم ، أى أبدت عُرْضَها للغيوب . ويقال : تعرَّضْتُ الجبَلَ ، أى أخذتُ يميناً وشِمالاً فيه ، ولم أستقمْ فى الصُّعود . قال :

تعرَّضِى مَدَارِجًا وسُومِى تعرُّضَ الجوزاءِ للنُّجومِ [٤]

ومعنى قوله « رفعتُ برأسه » أنبهتُه من مَنامه ، وأزلتُ عنه ما كان يُداخِلُه

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ ص ٣٥٩ .

(٢) التبريزى واللسان (عرق) : « إذا تنورت » ، ثم قال التبريزى فى التفسير : « إذا تعرضت النجوم ، أى أبدت عرضها للمغيب » . ورواية المؤتلف ٦٢ تطابق رواية المرزوقى .

(٣) أنشده فى اللسان والمقاييس (عرق) . ورواية المقاييس : « أخذت برأسه » .

(٤) الرجز لعبد الله ذى البجادين المزنى دليل رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر اللسان (درج) . وأنشده فى المقاييس (درج) بدون نسبة . وبعده :

« هذا أبو القاسم فاستقيمى »

من الغَمِّ بلوم اللائمين إيّاهُ على معاطاة الشُّرْبِ وإدمانِه اللهو ، بأن سقيتهُ مُعْرَقةً — وهى الصِّرْف من الخمر ، وقيل هى القليلة المِزاج . ويقال : تعرَّقتُ الخمرةَ ، إذا مزَجْتَها . وأعرقَه الساقى ، إذا سقاه مُعْرَقاً . وقوله « إذا تعرَّضت النجوم » يشير به إلى الاصطباح .

٣ — فلمّا أنْ تَنَشَّى قامَ خِرْقٌ   من الفِتْيانِ مُخْتَلَقٌ هَضُـومُ[1]

٤ — إلى وَجْناء ناوِيَةٍ فـكاسَتْ   وَهَى العُرْقوبُ منها والصَّمِيمُ

انتَشَى ونَشَى وتَنَشَّى بمعنى سَكِر . والنَّشوة : السُّكر . وأراد بالخِرْق نفسَه ، وهو الكريم المتخرِّق بالمعروف . والمُخْتلَق : التامّ الخَلق . والهضُوم ، قال الأصمعى : هو المِنفاق فى الشتاء . وقال غيره : هو الكريم المِفضال ، كأنه يَهضِم مالَه بأن يُخرِجَ منه أكثرَ من الواجبِ فيه . والوجناء ، هى الناقة الغليظة الوَجنتَين . وقيل بل هى الصُّلبة ، مأخوذٌ من الوَجين ، وهى الأرض الغليظة . قال الخليل : وقَلَّ ما يقال للجمَل أوْجَنُ . والنّاوية : السمينة .

وقوله « فكاسَتْ » اختَصَر الكلام ، والمراد فعرقَبها فكاست . والكَوْس : المشى على ثلاثِ قوائم . وأراد بالصميم العُضوَ الذى به القِوَام ؛ يقال : هذا صَميمُ الوظيف ، وصميم الرَّأس . والعُرْقوب : عَقَبٌ[2] موتَّرٌ خلفَ الكعبين فُوَيْقَ العَقِبِ من الإنسان وبين مَفصِل الوظيف والساق من ذوات الأربع . وعرْقبتُه : قطعت عُرقوبَه . وقوله « وهَى العُرقوب » إظهارٌ للعلة فى كَوْسِها . والوَهْى : الشَّقُّ والخَرْقُ . وفى المثل : « غادرَ وَهْيَةً لا تُرْقَع » ، أى فَتْقةً

---

(١) روى التبريزى أيضا : « مختلق » بكسر اللام ، وفسره بأنه الكريم الأخلاق .

(٢) الذى فى اللسان : « عصب » . والعقب ، بالقاف وبوزن العصب أيضاً ، هو عصب المتنين والساقين والوظيفين ، يختلط باللحم ، يمشق منه مشقا ويهذب وينقى من اللحم ويسوى منه الوتر .

لا يُطاق إصلاحُها ورَتقُها . والمعنى : لمّا أُقيم رسم الاصطباح ، وانتشى النَّدمانُ ، قام هو إلى ناقةٍ بهذه الصفة فعرقَبَها .

٥ – كَهاةٍ شارِفٍ كانت لِشَيْخٍ   لَهُ خُلُقٌ يُحاذِرُهُ الغَرِيمُ[1]

٦ – فأَشْبَعَ شَرْبَهُ وجَرَى عليهم   بإبريقَيْنِ كأسُهُما رَذُومُ[2]

٧ – تَرَاها في الإناءِ لها حُمَيَّا   كُمَيْتًا مثلَ ما فَقَعَ الأَدِيمُ[3]

٨ – تُرَنِّحُ شَرْبَها حتى تَرَاهُمْ   كأنَّ القومَ تَنزِفُهُمْ كُلُومُ

الكَهاةُ : الناقة الضخمة كادت تدخل في السنّ ، وكذلك الكَنْهاة . والشارفُ : المسنّة . وقوله « كانت لِشَيْخٍ » كان الكريمُ منهم المِحْسانُ إلى عشيرته ، المِفضالُ على رفقائه ونُدَمائه ، يتعمَّد إذا نحَر لهم في الشُّرب وعند السكر ، أن يفعلَ ذلك في غير مِلْكه ، يَسْتامُ[4] مالِكَ الجزُور بها أغلَى الأثمان فيغرمُه ، ويَعُدُّ ذلك الغُرْم غُنْمًا ، والصبرَ على سوء خُلُقِه وإنكارِه التبسط في مِلْكه بغير إذنه كَرَمًا . لذلك قال : « لهُ خُلُقٌ يُحاذِرُه الغريم » ، يريد البُخْل منه والاستقصاء .

وقد سلك هذا المسلكَ طَرَفَةُ فقال وَوَفَّى المعنَى حَقَّهُ ، وكأنه صَبَّ في قالَب هذا الشاعر :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارت مَخَافَتِي   نَوَادِيَها أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ[5]

(١) لم يرو الآمدي هذا البيت .

(٢) التبريزي : « وسعى عليهم » ، ثم أشار إلى الرواية الأخرى .

(٣) الآمدي : « ويروى : نقع الأديم ، أي روى . ويقال : أرجوان ناقع ، وهو الذي قد روى من الصبغ . فأما فقع فمعناه أحمر ، ولذلك قيل : أحمر فقاعي » .

(٤) ل : « ليستام » .

(٥) البرك : الإبل الكثيرة الباركة . النوادي : القواصي منها . العضب : السيف القاطع .

فرّتْ كُماةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ   عَقيلةُ شَيْخٍ كالوَبيلِ أَلَنْدَدِ[١]

يقول وقد تَرَّ الوظيفُ وساقُها   أَلسْتَ تَرَى أن قد أتيْتَ بمُؤْيِدِ[٢]

وقال ألاَ ماذا تَرَوْنَ بشارِبٍ   شَـــديدٍ علينـا بَغْيُهُ مُتعمِّدِ

فقال ذَرُوهُ إنَّما نَفعُـــها لَهُ   وإلاَّ تَــكُفُّوا قاصِيَ البَركِ يَزْدَدِ

فظَلَّ الإماءُ يمتلِنَ حُـــوَارَها   ويُسْعَى علينا بالسَّديفِ المُسَرْهَدِ[٣]

قوله « فأشبع شَرْبه » يعنى من الناقة المعقورة . وجعل الجاريَ عليهم بأبريقَين والـكأس مَلأى تقطُر ؛ لأنّ شُرْبَهم كان بِداراً . ثم وَصَف الخمرة فقال : لها سَوْرَةٌ شـديدةٌ ، ولونها حُمْرة متناهية . ومعنى فَقَع : حَسُنَ وصَفَا ويقال : أحمرُ فاقعٌ . ويُروى : « مثل ما نَصَع » والمراد خَلَصَ . والحُمَيَّا مصغَّرٌ لا مكبَّرَ له ، وقد تقدَّمَ القولُ فى بنائه . وكُمَيْت : مصغَّر مرخَّم ، والمراد به تكبيره ، وهو أكْمَتُ ، لذلك جُمع على كُمْتٍ . ومثله فَرَسٌ وَرْدٌ ، ثم قيل خَيْلٌ وُرْدٌ ، لأنه أُريد به أفعَلُ . ومما جاء مصغَّراً قولهم كُمَيْتٌ ، وهو طائرٌ ، وجُمَيل[٤] ، والثُّرَيَّا ، والغُبَيراء ، والمُرَيطاء ، واللُّجَيْن ، وهُنَيْدَةُ .

وقوله « تُرَنِّحُ شَرْبهم » أى لشدَّتها تُزيلُ قُواهم ، فكأنهم أُسارَى نُزِفَتْ دماؤهم . ويقال : ضربته حتى رَنَّحْتُه ، أى غُشِيَ عليه .

٩ــ فقُمْنَا والرِّكَابُ مُخَيَّسَاتٌ   إلى قُتْلِ المَرَافِقِ وَهْيَ كُومُ[٥]

---

(١) الخيف ، بالفتح : جلد ضرع الناقة . العقيلة : كريمة المال . الوبيل : العصا الضخمة . والألندد والينندد : الشديد الخصومة .

(٢) تر : سقط . المؤيد : الداهية العظيمة الشديدة .

(٣) يمتلن ، الامتلال : جعل الشىء فى الملة ، وهى الجمر والرماد الحار . وفى النسختين : « يمتلكن » ، تحريف . والحوار : ولد الناقة . السديف : قطع السنام . المسرهد : السمين ، أو المقطع قطعاً .   (٤) فى اللسان : « سيبويه : الجميل البلبل ، لا يتكلم به إلا مصغرا » .

(٥) هذا البيت وتاليه لم يروهما الآمدى .

١٠ – كأنّاً والرِّحالَ على صِوارٍ برَمْلِ خُزَاقَ أسلَمَهُ الصَّرِيمُ

يُرْوَى « محبّسات » أى معقولاتٌ مُناخَةٌ بالفِناء ، وهو الوجه . ورَوَى بعضهم : « مخيَّسات » أى مذلَّلاتٌ ، لكى إذا رُكِبَتْ للَّهو[1] ، وفى حالة الشكر كما فعلهُ هؤلاء ، لم تَعْسِفْ برُكبانها ، ولم تَأْتِ العِرِضْنة فى سيرها . والفُتْل : جمع أَفْتَلَ وفَتلاء ، وهى البعيدة المِرفَق عن الزَّوْر . والكُومُ : العظام الأسنِمة . وقال الخليل . الكَوَمُ ، العِظَم فى كلِّ شىء . وقوله « كأنّاً والرِّحالَ » شبَّهَ ركائبهم بقطيعٍ من البَقَر بالرَّمْل المذكور ، أسلَمَهَ الصَّرِيمُ إلى الصَّيَّادين والكلاب ، فخفَّتْ وَعَدَت . والصَّرِيمُ استُعمِل فى الصبح والليل جميعاً ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينصرمُ عن صاحبِهِ وقتَ السَّحَر . وإنما ركبوا بعدَ الاصطباح للتنزُّه أو فى بَطَالةِ حضَرَتْهُم[2] .

١١ – فَبِتْنَا بين ذاكَ وبين مِسْكٍ فَيَا عَجَبَا لعَيْشٍ لو يَدُومُ

١٢ – وفِينا مُسْمِعَاتٌ عند شَرْبٍ وغِزْلانٌ يُمَدُّ لها الحَمِيمُ[3]

تبَجَّحَ بأنهم نالوا أكثرَ أنواعِ اللَّذَات ، من شُرْبٍ وقَصْفٍ ، [وتنزُّه[4]] ولَهْوٍ ، ومعاشرةٍ وطَرَبٍ ، وتَسَخٍّ وإفضال ، وتَنَدٍّ على الندماء وإكرامٍ ، وتَتَرُّفٍ وتَعطُّر ، وتمتُّع بالنساء وتغزُّل . وقوله « فيا عجبا » إنّما تعجَّبَ من استمرار الوقت بمثلِ العيش الذى وَصَف ، وكيف سَمَح الزمانُ به ثم غَفَل عنه حتَّى اتَّصَل . والمُسْمِعات : المغنِّيات . والسَّماعُ : الغِناء . وذَكَرَ الحَمِيمَ لتنعُّمهنّ ، ولأنَّ بلادهن كانت صُروداً[5] . وعلى هذا قال عمرو بن كلثوم :

---

(١) سبق نحو هذا التعبير فى ص ١١٦٩ س ٩ « لكى إذا نابنا ذو حق » .
(٢) البطالة : اتباع اللهو والجهالة .
(٣) هذا البيت لم يروه الآمدى .
(٤) هذه من ل .
(٥) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع من الجبال ، وهو أبردها .

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماءُ خالَطَها سَخِينا

قال ابن الأعرابيّ : سخيناً حال بمعنى مُسَخَّنٍ ، لأنَّ البَرْدَ اقتضاهم بذلك الماء .

وقوله « فبِتْنَا بين ذاك » يريد أنَّ حاضر وقتهم كانَ على ذلك ثم تغيَّرَ .

١٣ — نُطَوِّفُ ما نُطَوِّف ثم يَأوِي ذَوُو الأموالِ مِنَّا والعَدِيمُ

١٤ — إلى حُفَرٍ أَسافِلُهُنَّ جُوفٌ وأعلاهُنَّ صُفَّاحٌ مُقِيمُ

يقول : يُكثِرُ الواحدُ منا التَّطوافَ على اللَّذّات ، والتَّجوالَ فى الأطراف لطلب البَطَالة ، وليس مآل الجميع مُقْتِرنا وغنيِّنا إلاَّ إلى حُفَرٍ ، يعنى بها القُبورَ . ثمَّ وَصَفَها بأنها جُوفُ الأسافلِ لِلُحُودِها ، وأنَّ أعاليَها نُصِبَتْ عليها حجارةٌ عِراضٌ كالسُّقوف لها ، وهى دائمة على هذه أبدًا .

وقوله « نُطوِّف ما نُطوِّف » أى مدَّةَ تَطوافنا . ويقال : أَوَى إلى كذا أُوِيًّا .

٤٨٥

وقال إياسُ بن الأرَتِّ[١] :

١ — هَلُمَّ خَلِيلِى والنَوَايَةُ قد تُصْبِى هَلُمَّ نُحَيِّ المُنْتَشِينَ من الشَّرْبِ

٢ — نُسَلِّ مَلامَاتِ الرِّجالِ بِرَيَّةٍ ونَفْرِ شُرُورَ اليَوْمِ باللَّهْوِ واللِّعْبِ

قوله « والنواية قد تُصْبِى » اعتراض ، وكرَّر هلمَّ على طريق التأكيد . والفائدةُ فى هذا الاعتراض تحقيقُ القِصَّة للدعوِّ إليها .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ٢٠٢٨ . التبريزى : « إياس بن الأرت الطائى » .

وللعرب فى « هلمّ » طريقتان: منهم من يُجْرِيه مجرى أسماء الأفعال، وحينئذ يقع للواحد والجمع والمؤنّث والمذكّر على حالةٍ واحدة، والقرآنُ نزَلَ به، لأنّه قال تَعالَى ذكره: ﴿يَقُولُونَ لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا﴾. ومنهم مَنْ يجعل أصلها ها التّنبيه ضُمّ إليه لُمّ، وهو فِعْلٌ، جعلَا مَعاً كالشّىء الواحد، فيثنّيه ويجمعه ويؤنّثه. وكان الفَرّاء يقول: هو هَلْ أُمّ رُكّبا مَعاً. وليس لِهَلْ فى الكلام إلّا موضعان: أحدهما — وهو الأكثر — أن يكون لِلاستفهام؛ ولا معنى للاستفهام ها هنا. والثّانى: أن يكون بمعنى قَدْ، على ذلك فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ﴾، وليس لمعنى قَدْ فى هذا مَدْخَلٌ. وإذا كان كذلك فما قاله فاسدٌ.

وقوله «والغوايةُ قد تُصْبِى» يريدُ أنّ الغَىَّ يدعو صاحبَه إلى أمورٍ كثيرةٍ مختلفة، وقد يحمله على الصِّبَا واللَّهو فى الوقتِ بعدَ الوقت. وطلَبَ من صاحبه مساعدتَه على تحيّتِه للشّرْب[1]، والدُّخول فى جُملتهم، وتسليَةَ النُّفوس عن مَلاماتِ مَن يدعُو إلى الرّشاد، ويَحمِلُ على سُلوكِ طُرق الصّلاح والسّداد[2]، بشُرْبِ رَبّةٍ، وهى الكأس الممتلئة خمرًا، وقَطْعِ وقتِ الشّرِّ والغَمِّ باللّهو واللعب.

وقوله «نُسَلِّ» فى موضع الجزم، لأنّه جوابُ الأمر. و «نَفْرِ»، معطوف عليه. ويقال: فَرَيْتُ الأديمَ، إذا قطعتَهُ على جهة الصّلاح، وأفْرَيْتُه إذا قطعتَه للفَساد.

٣ — إذا ما تَرَاخَتْ ساعَةٌ فاجعَلَنَّها   لِخَيْرٍ فإنَّ الدَّهْرَ أعْصَلُ ذُو شَغْبِ

٤ — فإنْ يَكُ خَيْرٌ أو يكُنْ بَعْضُ رَاحَةٍ   فإنَّكَ لاقٍ مِن غُمُومٍ ومن كَرْبِ

قوله: «إذا ما تراخت ساعة فاجعلنّها» فى طريقته ما أنشده ابنُ الأعرابىّ:

إذا كانَ يَوْمٌ صالِحٌ فاقبلَنَّهُ   فأنتَ على يَوْمِ الشَّقَاوَةِ قادِرُ

(١) ل: «تحية الشرب».

(٢) ل: «الرشاد والسداد».

وقوله « فإنّ الدّهرَ أعْصَلُ » ، العَصَلُ : اعوجاج الأنياب. قال الخليل : ولا يقال أعصلُ إلّا لكل معوجٍ فيه صلابةٌ وكَزازة . والمعنى : أنّ ما يَعَضُّ عليه الدّهرُ لا يمكن انتزاعُه منه ، كما لا يمكنُ انتزاع الشّىء من الناب التى فيها عَصَلٌ . والشَّغْبُ : تهييج الشّرّ . ويقالُ : رَجُلٌ مُشْغَبٌ .

وقوله « فإنْ يكُ خيرٌ أو يكنْ بعضُ راحةٍ » ، يريد أنّ الدهر لا تصفو أحوالُه من الكَدَر ، ولا عطاياه من التّعَبِ والأذى ، فلا تُمِنْه على نَفْسِك ، واجتهدْ فى إصلاح ما يُفسِده ، وإلقاء ما يَشُقُّ منه . وقوله « فإنّك لاقٍ من غُمومٍ » من زائدة على مذهب الأخفش ، كأنّه قال : إنّك لاقٍ غُموماً . وسيبويه لا يَرَى زيادةَ « مِنْ » فى الواجب ، فطريقته فى مِثله أنّه صفةٌ لمحذوف ، كأنّه قال : إنك لاقٍ ما شئت من غُمومٍ .

٤٨٦

وقال آخر :

١ — أُحِبُّ الأرضَ تسكُنُها سُلَيْمَى ... وإنْ كانَتْ تَوَارَثُها الجُدُوبُ

٢ — وما دَهْرِى بحُبِّ تُرابِ أرضٍ ... ولكنْ مَنْ يَحُلُّ بها حَبيبُ

يذكر حنينَه إلى محلِّ سُلَيمى ومكانِها ، ومَيلَه وإن كانَ قفرًا[1] متردِّدًا فى الجدوبة متناهيًا أقطارُه فى اليُبوسة ، وأنّ ذلك عَزّ عليه لكونها به ، فأمّا حُبُّ الأرَضِينَ مجرَّدةً فليس من دأبه وعادتِه .

وقوله « وما دَهرِى بحبِّ تُراب أرضٍ » جعلَ الحُبَّ للدَّهر على طريقتهم فى قولهم : نهارُه صائم ، وليلُه قائم . والمعنى : ليس حُبُّ الأرَضِين مِنّى بعادةٍ فى

(١) فى الأصل : « فقيراً » ، صوابه فى ل .

دهرى ، وقوله « ولكنْ مَن يحلُّ بها حبيب » يشبه قولَ الآخر :

ألا يا بَيْتُ بالعليـــاء بَيْتُ ولَوْلَا حُبُّ أهلِكَ ما أتَيْتُ[1]

يريد أنّ البيوت فى الموضع الذى جئت منه قد كَثُرَتْ ، ولكنّى قصدْتُكَ لحبِّ أهلك . وقوله « توارَثُها » أى تتوارثُهَا . فحذف إحدى التاءين استثقالا . وقد مضَى مثلُه .

٣ ـ أعَاذِلَ لو شَربْتِ الخمْرَ حَتَّى يَـكُونَ لِكُلِّ أنْمُلَةٍ دبِيبُ

٤ ـ إذَنْ لَعَذَرْتِنِى وعَلِمْتِ أنِّى بِمَا أتْلَفْتُ مَنْ مالى مُصيبُ[2]

كأن عاذلةً أفرطَتْ فى لومِهِ على ما يُدمِنُهُ من الشُّرب ، ويَذهَب فيه من طُرُق اللّهو ، فقال لها : لو شربتِ الخمرَ فأخذَتْ منكِ ، ودبَّت فى عُروقكِ ومَفاصِلِك ، وجَمعت السارَّ لكِ ، وكشفَت أنواعَ الغَمِّ عنكِ ، لعَرَفتِ مِن لَذَّاتها ومَنافعها ، وحُدوث الطَّرَب والجذَل فى النُّفوس لها ، واستمتاع الرُّوح بنَشوتها وقُوَاها ، ما يَمنعُكِ على بَسْط عُذرِى فى الوَلُوع بها ، والثَّبات على هواها ، ولعلِمتِ أنِّي راكب نَهجَ الصَّواب ، وغيرُ عادلٍ عن الواجب فى إنفاق المال . معنى « لِمَا أتلفتُ » أى من أجل إتلافى . ويُرْوَى : « بما أتلفتُ » والمعنى أنِّي مصيبٌ بسببِه ومِن أجْله .

---

(١) أنشده فى اللسان (بيت) شاهداً على أن البيت فيه بمعنى المرأة .

(٢) ل : « لما أتلفت » ، وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة « بما أتلفت » .

٤٨٧

وقال أبو صَعْتَرة البَوْلانىّ[1] :

١ ـ فَمَا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تقاذَفَتْ ... به حِسَنُ الجودِىِّ واللَّيلُ دَامِسُ[2]

٢ ـ فلمَّا أقَرَّتْهُ اللِّصاب تنفَّسَتْ ... شَمالٌ لأعْلَى مائِهِ فهو قارسُ[3]

٤ ـ بأطْيَبَ مِنْ فِيها وما ذُقْتُ طَعْمَهُ ... ولكِنَّنِى فيما تَرَى العَيْنُ فارِسُ

قوله « حِسَنُ الجُودىّ » رواه البَرْقىّ : « به حُزَنُ الجُودىّ » ، وكثيرٌ من الناس يرويه : « به جَنْبتاَ الجُودىِّ » . وقيل فى « حِسَن الجُودىّ » : إنّه قطعةٌ متَّصلة بالجُودى ، والجُودىّ : جبل . وقال صاحب العين : حِسَنُ : اسم رملٍ لبنى سعد[4] . وذكر البَرْقىّ أن الحَزْنَةَ والحَزْنَ من الأرض والدَّوابّ : ما فيه خُشونه ، والفعل منه حَزُنَ حُزونةً ، ورجل حَزْنٌ : شَرِسٌ ، وقومٌ حُزُنٌ . ومن روى : « به جَنْبتاَ الوادى » فالمراد به الكَنَفُ والنَّاحية . وبعضُهم استدلَّ على أنّ قولَ النَّاس : فُلانٌ فى جَنَبَةِ فُلانٍ ليس بشىء ، وإنما الصواب فى جَنْبةِ فُلاَنٍ ، بسكون النون ، استدلالاً بهذا البيت .

وقد روى الأصمعىّ :

* والنَّاسُ فى جَنْبٍ وكُنَّا جَنْباَ *

فيقول : ما ماءٌ اجتمع من حَبِّ مُزْنٍ ـ وهو البَرَدُ ، لأنّ المُزْن اسمٌ يجمع

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٩ ص ١٠٣٣ . وهذه المقطوعة من بحر المقطوعة ورويها ، فلعلهما من قصيدة واحدة .

(٢) هذا ما فى ل وياقوت (٢ : ٢٧٩) ، وفى الأصل : « جنبتا الجودى » .

(٣) ل : « لأعلى متنه » .

(٤) ياقوت : « حسن ها هنا : جمع حسنة ، وهى مجارى الماء » . وضبطت الحسن فيه بكسر ففتح كما فى النسختين هنا ، وضبط فى اللسان بفتحتين فى الجمع والمفرد .

(٥) فى اللسان : « الأصمعى : الحزن : الجبال الغلاظ ، الواحدة حزنة ـ أى بالضم ـ مثل صبرة وصبر » .

أنواعَ السحاب ، فهو كالغَيْم — ترامَتْ به جوانبُ هذا الجبلِ والليلُ مظلمٌ إلى أنْ زالَ رَنَقُه ، وانقطع كَدَرُه . وخبر « ما » قوله « بأطيب » . ثمّ وصفَ الماءَ بأنه لمّا حصَل فى القرارات بعد تقطُّعِه بنَضَد الحجارة ، وجَوانب المَذَانبِ والأدوية ، فزال عنه أكثرُ شَوْبِه ، هَبَّتْ عليه شَمالٌ لَيِّنةٌ فصفَّتْهُ وبرَّدَتْه . يريدُ : ما ماء ساريةٍ بهذه الصِّفة بأعذبَ مِن رُضاب فَمِ هذه المرأةِ ، ولا أقولُ هذا عن ذَوَاقٍ واختبار ، ولكن عن صِدقِ فِراسةٍ ، واعتبارِ مُشاهَدة .

وفى طريقته قول الآخر[1] :

يا أطيَبَ النّاسِ رِيقاً غيْرَ مُختَبَرٍ إلّا شهادَةَ أطرافِ المَساويكِ

واللِّصاب : جمع لِصْب ، وهو شقوقٌ فى الجبل . والقارس : البارد . وقوله « فارس » أراد به المتفرِّس . ويقال : هو فارس على الخَيل بَيِّن الفُروسَة[2] ، وإذا كان يَتفرَّس فى الأشياء ويُحْسِن النَّظرَ فيها قلتَ : هو فارسٌ بيِّن الفِراسة . والدَّامِس : المُظلم ، ويقال : دَمَس ، أى أظلَمَ ؛ وأتيتُه دَمَسَ الظَّلام .

٤٨٨

وقال الحارث بن خالدٍ المخزومىّ[3] :

١ — إنِّى وَمَا نَحَرُوا غَداةَ مِنًى عِنْدَ الجِمَارِ تَؤُودُها العُقُلُ

٢ — لو بُدِّلَتْ أعلى مساكِنِها سِفْلاً وَأَصْبَحَ سِفْلُها يَعْلُو

(١) هو بشار بن برد . أمالى القالى (١ : ٢٢٨) والأغانى (١٨ : ١٩٢) .

(٢) ل . « الفروسية » ، وهما سيان .

(٣) هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن كعب بن لؤى بن غالب : وهو أحد شعراء قريش المعدودين الغزالين ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة لا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب وولاه عبد الملك بن مروان مكة . الأغانى (١٨ : ٩٧ — ١١١) .

٣ — لعَرَفْتُ مَغْنَاها لِمَا ضَمِنَتْ مِنِّى الضُّلوعُ لأهلها قَبْلُ

أقسَمَ بالقرابين التى ينحرها الحجيج عند المُحَصَّب غداةَ مِنًى وهى معقولةٌ أنَّه لو غُيِّرت ديارُ هذه المرأةِ عن خِططها المعهودة ، ورسومها المشهورة ، حتى جُعِلَت أعاليها أسافلَها ، وأسافلُها أعاليَها لعَرفَ مغناها المختصَّ بها ، ومَثْواها الجامعَ لأسبابها لما انطوَتْ عليه مَحانى ضُلوعِهِ من وُدِّ أهلِها أيامَ مواصلتِها[1] ، حتى كان لا يلتبس عليه شىء منها . ومعنى « تَؤُودُها » تثقلها . وجواب اليمين « لعرفت » . والمغْـنَى : المنزل . ويقال : غنينا بمكان كذا نغنَى به غِنًى . وجواب « لو بُدِّلَتْ » ماهو جوابُ القَسَم ، وهو لعَرفْتُ .

٤٨٩

آخر[2] :

١ — مَرِيضَاتُ أوْباتِ التَّهادِى كأنَّها تَخَافُ على أحشائها أن تَقَطَّما[3]

٢ — تَسِيبُ انسِيابَ الأَيْمِ أخْصَرَهُ النَّدَى فَرَفَّعَ من أعطافه ما تَرَفَّعَا[4]

التَّهادِى : المَشْى بينَ اثنين ؛ يقال : رأيتُه يُهادَى بين اثنين ويَتَهادَى . يصفها بالنِّعمة والرِّقَّة وضعف الحركة ، لثِقَل رِدْفها ، ودِقَّة خَصرِها ، وتَرُفّتِها المتملِّكةَ لأعضائها وحواملها ، فيقول : إذا تهادَتْ بين اثنين فَعطَفات حركاتها مريضة ، ونَهَضات اندفاعها بطيئة ، فكأنَّها تجذِب أعاليَها أسافِلُها ، تخاف على

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ود أهلها لها ومواصلتها » .

(٢) هو رجل من بنى سعد ، كما فى محاضرات الراغب (٢ : ١٣٩) . والبيتان رويا أيضاً فى الحيوان (٤ : ٢٥٩) ومجموعة المعانى ٢٥٩ .

(٣) الحيوان : « مريضة أثناء التهادى كأنما » .

(٤) فى الأصل : « من أعطانها » ، صوابه فى ل والتبريزى وسائر المراجع ، لكن فى الحيوان : « يرفع من أعطافه » .

خصرها التقطُّعَ إن تبسَّطَتْ فى المشى، أو تسرَّعَتْ فى القصد.

وقوله « تسيب انسيابَ الأينِ » فالأينُ: الجانُّ من الحيّات. ويروَى « الأيم » أيضاً، وهى الحيَّة. والحيَّةُ لا تصبر على البرد، لأنه إذا أثر فيها يبِسَ جِرمُها فتكسَّرَت. فيقول: هى تنسابُ أى تتدافَعُ فى مشيها تدَافعَ الحية وقد أثَّر فيها النَّدَى فخَصِرَت وأخذَتْ من جرمها وأعطافِها ما أطاعها وأمكنها. كأنّ الحية وقد خَصِرَت شَقَّ عليها ما ينالُها من خَصَر النَّدَى وبَردِه، فهى فى انسيابِها تجَافَى[1] عن الأرض جُهدَها. ويقال: ساب وانساب بمعنًى واحد. وفى القرآن: ﴿وَلاَ سَائبَةٍ﴾. قال الدُّرَيدىّ: ساب الماء، إذا جرَى.

٤٩٠

آخر:

١ــ أبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِىُّ لِقُمْصِها ... مَسَّ البُطُونِ وأن تَمَسَّ ظُهورَا[2]

٢ــ وإذا الرِّياحُ مع العَشِىِّ تناوَحَت ... نَبَّهْنَ حاسدةً وهِجْنَ غَيُورَا

لفَّ فى البيت الأول الخبرَين لفًّا، ثم رمَى بتفسيرها جملةً، ثقةً بأنّ السامع لكلامه يرُدُّ إلى كلٍّ مالَهُ، وذلك لأنه قال « أبتِ الرّوادف والثُّدِىّ لقمصها »، فجمع بين ما يكون خلفًا وقُدّامًا من الرِّدْف والثّدى. وهو يريد أن يصفَها بأنها ناهدةُ الثّديين، دقيقةُ الخصر، لطيفةُ البطْن، وأنها عظيمةُ الكَفَل والرِّدْف، فالثُّدىُّ تمنع القُمصَ أن تلتصِق ببطنها، والرِّدْف يمنعُها أن تلتصق بظهرها، فبيَّنَ فى التفسير فى عجز البيت ما لفَّه فى صَدره كما ترى.

وقوله « وإذا الرِّياحُ مع المشىّ تناوحت »، يريد: وإذا دَنت الأُصُلُ

(١) ل: « تتجافى ».

(٢) البيتان فى أمالى القالى (١: ٢٣).

وهَبَّت رياحُ الصيف ، فتقابلت رِيحانِ كالشمال والجَنُوب ، أو الصَّبا والدَّبور ، وابتردت هذه ، التصَقَ مِن درعها ببطنها وظهرِها ما كان يمنعُه ثديُها وردفُها قبل هُبوبها ، وظَهَر من مَحاسنها ما ينبِّه الحاسدَ ويهيِّج الغيور ، لأنّ ما خَفِيَ منها ظهَر للعيون والمَناظر ، فالغيور يَكرَه ، والحاسد يتنبَّه . وقوله « وأن تَمَسَّ » جاز انعطافُه على « مَسَّ البطون » لكونِ العامل والمعمول فيه في موضعه ومعناه . والبطونُ في موضع المفعول ، لأن المصدر يُضاف إلى المفعول كما يُضاف إلى الفاعل . والبطون مع لفظ مسّ ، كظهورًا مع أن تَمسّ .

٤٩١

وقال بكرُ بن النَّطّاح (١) :

١ — بيضَاء تسحَبُ من قيامٍ فَرْعَها وتَغيب فيهِ وهو وَحْفٌ أَسحَمُ
٢ — فكأنَّها فيه نَهارٌ ساطِعٌ وكأنّه ليلٌ عليها مُظْلِم

وصف شعرها بالطول ، وكثرة الأصول ، فإذا قامت سحبَته ، وإذا أرسلته

---

(١) شاعر حنفي من بني حنيفة بن لجيم ، أو عجلي من عجل بن لجيم وهما أخوان . وكان بكر بن النطاح صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر عن ذلك ، فجعله أبو دلف من الجند وجعل له رزقا سلطانيا ، وكان شجاعاً بطلا فارساً ، شاعراً حسن الشعر والتصرف فيه ، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام ، وكان الرشيد قد غضب عليه فاختفى ، ولم يظهر حتى مات الرشيد ، فلما مات ظهر . وهو القائل :

أكذب طرفي عنك في كل ما أرى وأسمع أذني منك ما ليس تسمع
فلا كبدي تسلى ولا بك رحمة ولا عنك إقصار ولا فيك مطمع

وهو مما غني به قديماً وحديثاً . غنته في عصرنا « أم كلثوم » . والقائل في غلام نصراني كان يجن به :

يا من إذا درس الإنجيل ظل له قلب التقي عن القرآن منصرفا
إني رأيتك في نومي تعانقني كما تعانق لام الكاتب الألفا

الأغاني (١٧ : ١٥٣ – ١٦١) .

سَتَرَها فتغيب فيه ، وهو مع ذلك شديد السَّواد ، مسترسِلٌ فى جُعُودةٍ واردٌ فى جُثْولة ، فكأنها لشدّة بياضها إذا تغشّاها ، نهارٌ يَسْطع من خَلَل الظّلام ، وكأنّ شَعَرها لشدّة سوادِه عليها ، ليلٌ مظلم تغشّى بياضَ نهاره[1] .

٤٩٢

آخر :

١ — تأمّلتُها مُغْتَرَّةً فكأنّما رأيتُ بها من سُنَّةِ البَدرِ مَطْلَعا

٢ — إذا ما مَلأتُ العينَ منها مَلأتُها من الدّمعِ حتى أنزِفَ الدّمعَ أجْمَعا

يقول : نظرتُ إليها على غِرّةٍ منها اختلستُها ، وغَفلةٍ ترصّدتُها ، فكأنني رأيتُ بها بدرًا طالعا . وسُنَّة البدر ، أراد وجهَه . ويقال : اغترَّ فلانٌ ، إذا فوجئَ عن غِرّة .

وقوله « إذا ما ملأت العين منها ملأتُها من الدمع » يقول : إذا تزوَّدَتْ عيني من حُسْنِها فنظرَتْ فى أعطافها ، امتلأتْ متحيِّرةً من جمالها ، كما يتحيَّر طرفُ الماء إذا امتلأ منه . وإنما قال « ملأتُها من الدمع » لأنه كان ينقطع[2] وُصَلُ تحمُّله ، وتنحلّ[3] عُقَد تجلُّده ، وجْدًا بها ، وتحسُّرًا فيها . والذى يدلّ على أنّ نظرَه لم يكن عن اتّفاق أنه قال : تأمّلتُها مُغتَرَّةً ، ومعنى « أنزف الدمع » أُفنيه كلّه . يقال : نَزَفتُ الماء وأنزفته بمعنًى واحد .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل « يغشى » .

(٢) ل : « ينقطع » .

(٣) ل : « يتحلل » .

٤٩٣

وقال كثيِّر[١] :

١ — وددتُ وما تُغنى الوَدَادةُ أنّنى بمـا فى ضميرِ الحاجبيَّـــةِ عالِمْ

٢ — فإنْ كانَ خيْرًا سَرَّنِى وعَلِمتُه وإنْ كانَ شرًّا لم تَلُمْنى اللَّوائمُ

يقول : تمنَّيتُ أننّى عالمٌ بمـا ينطوى عليه قلبُ هذه المرأة لى ، وما ينفع التمنى إذا لم يُساعِد القَدَر . وقوله « وما يغنى الوَدَادة » اعتراضٌ بين وددت ومفعوله ، وهو أنّى . ويقال : وددتُ وَدادَةً ووِدادة ، بفتح الواو وكسرها . وقوله « فإن كان خيراً » يريد : فإن كان ما تضمره لى ودًّا صافياً ، وميلاً ناصعاً[٢] سرَّنى ذلك وسكنتُ إليه ، فلا يذهبُ ما أتكلَّفه فى هواها باطلاً ، وإن كانَ ما تُضمره وتنطوى عليه اعتراضاً خالصاً ، وجفاءً مُرًّا ، قَتَلتُ نفسى وأرحتُها من لَوم اللائمات . وقوله « وعلمته » اكتفى بمفعول واحدٍ لأنّه بمعنى عرفته .

٣ — وما ذَكَرَتْكِ النّفسُ إلّا تفرّقَتْ فريقَين منها عاذِرٌ لى ولائمُ[٣]

يقول : ما أخطَرتُها ببالى على مَا أُقاسى فيها ، ويُوافينى من اطِّراحها وزُهدها

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الخزاعى ، صاحب عزة ، وأحد فحول شعراء الإسلام . وكان غالياً فى التشيع معروفاً بالحمق ، وكان من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه . وكان المسور بنُ عبد الملك يقول فيه : « ما ضر من يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان » . توفى كثير سنة ١٠٥ . الأغانى (٨ : ٢٥ — ٤٢) والشعراء ٤٨٠ — ٤٩٩ وابن سلام ١٢١ — ١٢٥ والاشتقاق ٢٨٠ والمؤتلف ١٦٩ والمرزبانى ٣٥٠ ، والخزانة (٢ : ٣٧٦ — ٣٨٣) وابن خلكان ، ومعاهد التنصيص .

(٢) هذا فى ل . وفى الأصل : « ناقماً » .

(٣) بعده عند التبريزى :

فريقٌ أبَى أنْ يقبلَ الضَّيْمَ عَنوةً وآخرُ منها قابلُ الضَّيم راغِمُ

إلاَّ تفرَّقَتْ نفسى فريقين : ففريق يَعذِرُنى ويقول : إنَّ مثلها فى كمالها وظَرفها وحَسَبها ومَنصبها ، وشرفها وسَرْوِها ، يَصْبِرُ على كل أذًى يَعرِض فى اكتسابها ويُغتَلق على جميع عِلاَّتها ، احتفالاً باسمها فى العُشّاق ، وتكثُّرًا بمكانها بين ذوى الأهواء . وفريقٌ يلومنى ويقول : إنك جاهلٌ بمالَكَ وعليكَ ، مبتذِلُ الرُّوح فى هوًى من لا يُشفِقُ عليك ولا يرفق بك ، ولا يرجع إلى شىء مما تؤْثِره ، وإن امتدَّ مَدَى ذهابها عنك . وهذا قالَه على عادةِ النَّاس فيما يَهُمُّون ، وتَردُّدِهم بين ما يقوِّى العزمَ عليه وبين ما يضعِفه ، فجَعَلَ كلَّ واحدٍ منهما كأنَّه نَفْسٌ على حِيالها .

٤٩٤

وقال أيضاً :

١ — وأنتِ التى حَبَّبْتِ شَغْبًا إلى بَدًا ... إلىَّ وأوطانى بلادٌ سِوَاهما[1]

٢ — وحَلَّتْ بهذا حَلَّةً ثم أصبحَتْ ... بهذا فطابَ الواديانِ كلاهُما

خاطبَها فى البيت الأوَّل مُعتَدًّا عليها بأنَّه كما آثرَها على أهلِه وعشيرتِه ، آثرَ بلادَها على بلاده ، فذكر [طرفَىْ مَحالِّها فقال : أحبُّ لك وفيك شَغْباً إلى بَدًا ، وبلادِى[2]] بلادٌ غيرها . ثمَّ أخبر عنها فى البيت الثانى فقال : ونزلَتْ بهذا — يشير إلى شَغْبٍ — نَزْلَةً ، ثم أصبحَتْ ببَدًا ، ففاح الواديانِ وتضوَّعا َرِيَّاها . ومثله قولُ الآخر :

---

(١) بعده عند التبريزى :

إذا ذَرَفَتْ عيناىَ أعتلُّ بالقَذى ... وعَزَّةُ لو يدرى الطَّبيبُ قَذَاهُما

(٢) الكلمة من ل .

اسْتَوْدَعَتْ نَشْرَهَا الرِّيَاضَ فما تَزْدادُ إلاَّ طِيبًا على القِدَمِ

ومثله أيضاً :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمانَ أن مَشَتْ به زَيْنَبٌ في نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ[1]

٤٩٥

وقال نُصَيْب[2] :

١— لقد هَتَفَتْ في جِنْحِ لَيلٍ حَمَامَةٌ على فَنَنٍ وَهْنًا وإنِّي لنائِمُ[3]

٢— كذبْتُ وبيتِ اللهِ لو كنتُ عاشقاً لَمَا سبقَتْنى بالبُكاء الحمائِمُ

هتفَت : صاحَت . في جِنْحِ الليل[4] ، أي فيما مالَ من الليل . والفَنَن : الغُصْن . وَهْنًا : بعد ساعةٍ من الليل . يقول : جَدَّدَتْ لى حمامةٌ بتغريدِها وَجدًا

---

(١) البيت لعبد الله بن نمير الثقفى ، كما فى اللسان (ضوع) وإصلاح المنطق ٢٨٧ . ويروى : « عطرات » .

(٢) هو نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، كان شاعراً فحلا مقدما فى النسيب والمديح ، ونصيب هذا هو نصيب الأكبر ، القائل فى عبد العزيز :

لعبـد العزيز على قومه وغيرهم نعـم غامره

وأما نصيب الأصغر فهو شاعر عباسى مولى المهدى ، اشتراه فى حياة المنصور ، فلما سمع شعره قال : والله ما هو بدون نصيب مولى بنى مروان . فأعتقه وزوجه أمة له يقال لها جعفرة ، وكناه أبا الحجناء ، وأقطعه ضيعة بالسواد ، وعمر بعده الأغانى (١ : ١٢٥ — ١٤٥ و ٢٠ : ٢٥ — ٣٤) وابن سلام ١٤١ وياقوت (٧ : ٢١٢ — ٢١٦) والعينى (١ : ٥٣٧ — ٥٣٨) والشعراء ٣٧١ — ٣٧٤ .

(٣) بين هذا البيت وتاليه فى ديوان الحماسة بشرح الشيخ الدلجموني :

فقلت اعتذاراً عِندَ ذاكَ وإنَّني لنفسيَ ممـا قد رأيتُه للائمُ

أأزعُم أنِّي هائم ذو صـبابةٍ بِسُعْدَى ولا أبكي وتبكي الحمائمُ

وهذان البيتان لم يروهما التبريزى ولا المرزوقى ، فهما ليسا من صلب الحماسة ، على أن بيتى الحماسة هذين نسبا فى الأغانى (٢ : ٨) إلى المجنون ، ورواية أولهما :

لقد غردت فى جنح ليل حمامة على إلفها تبـكى وإنى لنائم

(٤) الجنح بالضم والكسر ، وقد ضبط فى النسختين والتبريزى بالكسر فقط .

وصبابةً . وهى على غُصْنٍ فيما مالَ من الليل ، وإنى لساكنٌ نائمٌ ، ولو كنتُ عاشقاً وحقِّ بيتِ اللهِ لَمَا سبقَتْنى الحمائم بالبُكاء ، لكنى كاذبٌ فى دعوایَ متزيِّدٌ . وهذا كلامٌ مستقصِرٍ فيما هو عليه ، مستزيدٍ لنفسه فيما يُجرِى إليه ، يصوِّرها بصورةِ المتشبِّع بما ليس فيه . وهذه الطريقة زائدةٌ على طريقة الملتذِّ بالهوى . وقوله « لَمَا سبقَتْنى » ، على عادتهم فيما يعتقدون من شَجْوِ الحمام . لذلك قال أبو تمام :

لا تَشْجَيَنَّ لها فإنَّ بكاءها ... ضَحِكٌ وإنَّ بُكاءكَ استغرامُ

وسلَكَ مسلكَ نُصَيْبٍ عدیُّ بنُ الرِّقاع فيما أظنُّ فقال :

فلَوْ قبلَ مَبْكاها بكيتُ صبابةً ... بِلُبْنَى شَفَيتُ النفس قبل التندُّمِ[1]

ولكنْ بكتْ قبلى فهاجَ لِيَ البُكا ... بُكاها فقلتُ الفضلُ للمتقدِّمِ

وقوله « لَمَا سبقَتْنى بالبكاء الحمائم » اشتمَلَ على جواب اليمين ، وعلى جواب لو .

٤٩٦

وقال الشَّماطِيطُ الغَطَفانى[2] :

١ — أَرَارَ اللهُ مُخَّكِ فى السُّلاَمَى ... إِلَى مَنْ بالحَنِينِ تشوِّقينا[3]

---

(١) فى الكامل ٥٠٤ ليبسك : « بسعدى شفيت » .

(٢) ذكر فى الأغانى (٢ : ٨٦) أن « شماطيط » كان معاصراً لابن ميادة . وأنشد له فى الأغانى واللسان (شمط) :

أنا شماطيط الذى حدثت به ... متى أنبه للغداء أنتبه

حتى يقال شره ولست به

وهذه الحماسية جاءت عند التبريزى غير منسوبة ، ونص إنشاده : « وقال آخر » .

(٣) التبريزى :

أرار الله نقيك فى السلامى ... على من بالحنين تعولينا

٢ – فإنِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولكنِّى أُسِرُّ وتُعْلِنينا

٣ – وبى مِثْلُ الذى بك غير أنِّى أُجَــــلُّ عن العِقالِ وتُعْقَلينا

قوله: « أرارَ اللهُ » يخاطب ناقته ووجَدَها نحزٌ فقال داعياً عليها: جعَلَ اللهُ مُخَّكِ رِيراً. والرِّير: الرَّقيق من المخّ. والقَصْدُ فى الدُّعاء إلى أن يجعلَها الله نِضواً مهزولا، وخَصَّ السُّلامَى لأنَّها والعينَ آخرُ ما يبقَى فيه المخُّ عند الهُزال. ولذلك قال الشَّاعر [١]:

لا يَشتكين ألماً ما أنْقَيْنْ ما دامَ مُخٌّ فى السُّلامَى أو عَيْنْ

وقوله: « إلى مَن بالحَنينِ تشوِّقينا »، يجوز أن يكون إنكارًا منه على النَّاقة فى حنينها، ويجوز أن يريدَ تفخيمَ شأنِ المشتاق إليه، كأنَّه قال: تشوِّقيننى بحنينك إلى إنسانٍ وأىِّ إنسان، ويكون « مَنْ » اسماً نكرةً، ويكون الكلام خبَرًا، وفى الأوَّل يكون استفهاماً. وإنَّما أنكرَ ضَجَراً بها، لأنَّه لم يدْرِ أحنينها إلى ولدٍ أو وطن أو صاحب.

وقوله: « فإنِّى مثلُ ما تجدِينَ » يجوز أن يكون « وجدى » فى موضع النَّصب، على أن يكون بدلاً من المضمر فى إنِّى، ويكون مثلُ فى موضع خبر إنَّ، فكأنَّه قال: إنَّ وَجدِى مثلُ ما تجدين، ويجوز أن يكون وجدى فى موضع الرَّفع على الابتداء، ومِثْلُ خَبَرٌ له مقدَّم، والجملة فى موضع خبر إنّ، كأنَّه قال: إنِّى وجدى مثلُ ما تجدين.

وقوله: « ولكنِّى أُسِرُّ وتُعلنينا » يريد إنَّ عقلى يُمسِكنى، وإن كان وَجدى مثل وَجْدِكِ وبَرْحِى مثل بَرْحِك، عَن إظهار التألُّم، وفى القلب ما فيه، وأنت تُعلِنينُ وتَصيحين.

وقوله: « وبى مثلُ الذى بك » يقول: إنَّ نِزاعى مثلُ نِزاعك، ولكنى

---

(١) هو الراجز أبو ميمون النضر بن سلمة، كما فى اللسان (نق). والرجز فى صفة خيل.

يُؤْمَنُ منّى أن أهيمَ على وجهى ، إذْ كنتُ أضبطُ نفسى بما أُعطيتُ من تمييزى وإبقائى ، وأنت تُقلقلينَ مخافةَ أن تَندّى على وجهكِ ، إذ لا مُسكةَ بكِ ، ولا رِقبةَ لكِ ، ولا حياء يردَعُكِ ، ولا رِعةَ تُمْسِكُكِ .

٤٩٧

وقال[1] :

١ — ولمَّا أبَى إلَّا جِمَاحاً فؤادُه ... ولم يَسْلُ عن لَيلَى بمالٍ ولا أهْلِ

٢ — تَسَلَّى بأُخرَى غيرِها فإذا الَّتِى ... تَسَلَّى بهــا تُغرِى بلَيلَى ولا تُسْلِى

يقول : لمَّا عَصَى قلبه وتأبَّى إلَّا جِماحاً فى لَجاجته ، وخُروجا عن طاعته ، ولم تنصرفْ نفسُه عن ليلَى شُغلاً بتثمير مال ، وترقيح عيش ، ولا بإرضاء أهلٍ واستصلاح عشيرة ، أخذَ يطلبُ السُّلُوَّ عنها فى مُواصلةِ غيرِها من النِّساء وشَغْلِ القلبِ بحبِّها دونها ، فإذا الَّتى طلبَ التَّسلِّىَ بها تبعثُ على الرُّجوع إلى لَيلى ، وتحضُّ على تَركِ الإيثار عليها ، لأنَّه يَظهرُ من زيادات محاسنها ، وأنواع ما تَوحَّدت به من فضائلها ، ما يدعُو إلى التشبُّث بها ، وعِمارةِ هواها . وجواب لمَّا أبى « تَسَلَّى » . والجِماح من قولهم : جَمَحَ الفَرَسُ ، إذا جرى جَرْياً غالِباً لراكبه . وقوله « فإذا التى تَسلَّى بها » إذا هى هذه التى للمفاجأة ، ومن الظروف المكانية لا الزَّمانية ، وما بعده مبتدأ وخبر ، فإنَّه لم يُجْعَل مستقرًّا .

٤٩٨

آخر[2] :

١ — عَجِبْتُ لِبُرْئِى منكِ يا عَزَّ بعدَمَا ... عَمِرْتُ زمانًا منكِ غيرَ صحيـحِ

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) التبريزى : « وقال آخر ، وهو كثير » .

٢—فإنْ كانَ بَرْدُ النَّفْسِ لى منكِ راحةً فقد بَرِئَتْ إنْ كان ذاكَ مُرِيحِى
٣—تَجَلَّى غِطاءُ الرَّأْسِ عَنِّى ولم يَكَدْ غِطاءُ فؤادِى يَنْجَلِى لِسَرِيحِ

يقول : قضيتُ العجبَ من انصراف قلبى عنكِ ، وبُرْئى من الدَّاء فيك ، بعد ما بقيت زماناً مبتَلَى النَّفس فى هواكِ ، عليلَ القَلْبِ بوجدك ، مُبَرَّحاً بى حبُّكِ ؛ فإنْ كان بردُ النَّفس يُعْقِبُ لى راحةً منكِ وفى هواك فقد بَرِئَتْ. والرَّاحة منتظَرَةٌ ، إن كانتْ من نتائجِهِ ومسبَّباته . ثم قال « تجلَّى غطاء الرَّأس» يريد شَيْبُ واستَبْدَلَتُ بلون رأسِى وسوادِ شعرى لوناً آخَرَ حديثاً ، فكأنَّ المتقدِّم كان كالغطاء على رأسى ، تكشَّف بالتَّأنِّى[1] ، ولم يكَدْ ما تغَشَّى قلبى من حُبِّكِ ينكشف بالهُوَيْنَى .

فإنْ قيل : فى ظاهر هذا الكلامِ تناقضٌ ، لأنَّ القائلَ إذا قال كِدْتُ أفعلُ كذا معناه شافَهْتُ فِعْلَهُ وشارفْتُه ، ولا يكون قد فَعَلَهُ ؛ وإذا قال : لم يكد فُلانٌ يفعلُ كذا ، معناه يَقْرُب وقوعُ ذلك منه . فإذا كان كذلك فقد نَفَى عن نفسه ما أثبتَه بقوله « تَجَلَّى غطاء الرَّأس » ، لقوله : ولم يكَدْ غطاء فؤادى ينجلى لسريح ؟ قلتَ : لو أمسكَ عندَ قوله « ولم يكدْ غطاء فؤادى ينجلِى » لكان الأمرُ على ماقلتَ ، لكنَّه لما قال « لسَرِيح » بَيَّن أنَّه لم يَكُنْ عن سهولة وبعجلةٍ ، وقِلَّة تَعَبٍ ومشقَّةٍ ، فنَفْيُه فى الحقيقة لقِلَّة التَّعب والسُّهولة لا للانجلاء ، وإذ كان كذلك يكونُ الغطاء قد انجَلَى عن القلب ، لكنَّه انجلَى بعد طُولِ مزاولةِ نَصَبٍ ، ومقاساةِ كَمَدٍ ، وعن شدَّةِ تَفَاقُمٍ ، وبَلاءٍ مُلَازمٍ . ويقال فى الدُّعاء للمرأةِ إذا طُلِقَت عند الولادة : اللَّهمَّ اجعله سَهلاً سَرْحاً . فالسَّراح والتَّسريح والسَّريح كلُّها فى طريقٍ واحد ، وهو السُّهولة والعجَلة . ويقال : سَرَّحَه اللهُ

(١) ل : « بالثانى » .

تعَالَى للخَير ، أى وفَّقَهُ له وعَجَّله . وفى المثل : « السَّرَاحُ من النَّجَاح » .

٤٩٩

وقال عُرْوَةُ بنُ أُذَيْنَةَ[١] :

١ — إلفَانِ يَعنِيهما للبَيْنِ فُرْقَتُه ... ولا يَملاَّنِ طُولَ الدَّهرِ ما اجتَمَعَا[٢]

٢ — مُستقبِلانِ نَشَاصًا من شَبابِهم ... إذا دَعَا دَعْوَةً داعِي الهَوَى سَمِعا

٣ — لا يُعْجَبانِ بقولِ الناسِ عن عُرُضٍ ... ويُعْجَبَانِ بما قالا وما صَنَعَا

البين يقع على وجوهٍ : أحدها أن يكون مصدرَ بان يَبين بَينًا وبينونة . والثانى أن يكون ظرفًا ، تقول : بين القوم كذا ، وهو لشيئين يتبايَنُ أحدُهما عن الآخَر فصاعدا . والثالث أنْ يفيد معنى الوَصْلِ ، على ذلك قولُه تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُم ﴾ . ألا تَرَى أنَّ معناه تَقَطَّعَ وصلُكم ، ولا يصحُّ أن يكون المراد تقطَّع افتراقُكم ، لفساد المعنى . وعلى هذا قولهم : سَعَى فلانٌ لإصلاح ذاتِ البين من عشيرته ، لأنَّ المراد إصلاحُ الوصل لا الافتراق . والذى فى البيت هو الثالث ، لأنَّ المعنى : هما متحابّان قد أَلِفَ كلٌّ منهما صاحبَه ، والذى يُهِمُّهما ويَعنيهما للوَصل ما يُخشَى تعقُّبه له من الفُرقة ، لخوفهما منها وفكرِهما فيها ، ولا يكتسبان

---

(١) هو عروة بن أذينة — وأذينة لقب لأبيه واسمه يحيى — بن مالك بن الحارث بن عمرو بن عبد الله الليثى الكنانى ، فقيه محدث ، وشاعر غزل مقدم من شعراء أهل المدينة ، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوى ، وكان محمد وفد على هشام بن عبد الملك ، ووقفت عليه سكينة بنت الحسين ومعها جوار لها فقالت له : أنت القائل كذا وكذا ، وأنشدت أبياتا من النسيب فقال لها : نعم . فالتفتت إلى جواريها وقالت : هن حرائر إن كان خرج هذا من قلب سالم قط . الأغانى (٢١ : ١٠٥ — ١١١) ، وابن خلكان فى ترجمة سكينة بنت الحسين ، والمؤتلف ٥٤ والشعراء ٥٦٠ — ٥٦٦ .

(٢) التبريزى : « تعنيهما » .

مَلَالاً من اتّصال الاجتماع طُول الدهر . [فقوله «طولَ الدهر» يجوز أن يكون مفعول يملّان ، أى لا يملّان تطاوُلَ الوقت إذا اجتمعا ، ومدّةَ اجتماعهما . ويجوز أن يكون طول الدهر ظرفاً ، وما اجتمعا مفعول يملّان ، أى لا يملّان الاجتماع طول الدهر(١)]. وقوله «مستقبلان نَشَاصاً» فالنَّشاص أصله السَّحاب إذا ارتفعَ من قِبَل العين حِينَ(٢) ينشأ ويعلو ، فاستُعير هنا لما يُقتَبَلُ من الشَّباب وأيّام الصِّبا واللَّهو . كأنّه يمطرُهُما النَّشاطَ والسُّرور كما يمطرُ السَّحابُ الغيثَ . وجعَلَ ذلك فيهما بحيثُ يسمعان قريبا دُعاء مُنَادِى اللّهو ومحيِّيانه ؛ لأنّ الوقت وقتُ التَّصابى والبَطَالة . وإلى هذا أشارَ أبو نُواسٍ فى قوله :

قَدْ عَذَّبَ الُحبُّ هذا القلبَ ما صَلَحَا فَلاَ تَعُدَّنَّ ذَنْباً أن يُقالَ صَحَا

وقولُه «لا يُعْجَبَان بقَول النَّاس عن عُرُضٍ» هو من قولهم : نَظَرْتُ إليه عن عُرُضٍ ، أى عن ناحية . والمعنى أنّه لا يُعجِبها من مَقال الناس وفعالهم شىء ، ولا يأخذ قلبَهُما وعينَيهما(٣) حديثٌ ولا إبلاغٌ ممَّن كان عن ناحيةٍ وشِقٍ ، لـكنَّ الُحسنَ عندهما فيما يتفاوضانِه أو يتقارضانه ، والإعجاب يتعلَّق بما يصنعانِهِ ويؤثِرانه(٤) ؛ إذْ كان كلُّ واحدٍ منهما قد صار فى مَلَـكةِ هَوَى صاحبِه ، وفى رِفاقِ قَبِيلِهِ(٥) ، فلا يُبصِرُ إلاَّ بعَينه ، ولا يَسْمَعُ إلاَّ بأذُنه .

(١) التكلة من ل .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « حتى » .
(٣) ل : « وعينهما » .
(٤) كذا فى ل . وفى الأصل : « ويورثانه » .
(٥) ل : « ميله » . والرفاق : مصدر رافق مرافقة ، وهو أيضا حبل للدابة يشد من الوظيف إلى العضد .

٥٠٠

وقال[1] :

١ — ولمَّا بَدَا لى منكِ مَيْلٌ مع العِدَى سِوَاىَ ولم يَحْدُثْ سِوَاكِ بَدِيلُ
٢ — صَدَدتُ كما صَدَّ الرَّمِىُّ تطاولَتْ به مُدَّةُ الأيَّامِ وهْوَ قَتِيــلُ

قال سيبويه : معنى سِوَى بَدَلَ ومكانَ تقول . عندى رَجُلٌ سِوَى زَيْدٍ ، معناه وكانَ زيد وبَدل زيد ، وعلى ما فَسَّرَهُ يكون معنى البيت : ولمَّا بدا لى مَيلُكِ مع الأعداء بَدَلَ مَيْلِكِ إلىَّ ومكانَ مَيلكِ ، ولم يَحْدُثْ لى بَدِيلٌ مكانَكِ وعِوَضاً منك أعرضْتُ عنك إعراضَ الرمىِّ من الصَّيد المصابِ بسهم الصَّيَّاد ، وهو قتيلُه ، لأنَّ الإصابةَ عَمِلتْ عَمَلَها ، لكنَّ المُدَّةَ تطاولَتْ به ، فهو رهينٌ بإصابته . يريد: صددتُ عنكِ صدودَ يأسٍ لا صدودَ مَقْلِيةٍ ، وأنا أعلم أنَّ هواكِ قاتِلى كهذا الرمىِّ الذى لا يُشَكُّ فى كونه قتيلاً وإن طال نَفَسُ مُهْلَتِه ، ومُدَّ من أَمَد منيَّتِه .

٥٠١

وقال آخر :

١ — أحُبًّا على حُبٍّ وأنتِ بَخِيلَةٌ وقد زَعَمُـوا أن لا يُحَبُّ بَخِيلُ
٢ — بَلَى والذى حَجَّ المُلَبُّونَ بَيْتَهُ ويَشْفِى الهَوَى بالنَّيْلِ وهو قَليلُ
٣ — وإنَّ بِنا لو تَعلمِين لغُـــلَّةً إليك كما بالحائمات غَلِيــلُ

الألف من قوله « أحُبًّا » لفظُه الاستفهام ومعناه التَّوبيخ . وانتصَبَ حُبًّا

---

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) ضبطت « يحب » فى ل بالنصب والرفع مشفوعة بكلمة « معا » نصا على الروايتين .

بإضمار فِعْلٍ ، كأنه قال : أتجمعين عَلَيَّ حُبًّا على حُبٍّ ، أو أتزيدينني حبًّا بعد حُبٍّ ، مع بُخلِك وإيثارِ زهدِك ، وعند النَّاس وفى أحكامِهم واعتقادِهم أنَّ البخيلَ لا يكون محبوباً . كأنَّه عاتَبَها وقرَّعها من أمر الذى بينهما ، وأنَّهما من أجلِه فى طرَفَىْ نقيض ، وفى لونٍ من العِشْق طريف[1] ، وذلك أنَّ معاملتَها له معاملةُ من لا يتندَّى عليه ولا يرحَمُه ، ولا يتسخَّى بشىء له ، وأنَّ جَذْبَهَا إيَّاهُ فى الهوَى جَذْبُ مَن لا يكتفى معه بعفوه حتَّى يجهدَهُ ويزيدَه وجداً على وَجْدٍ ، وألمًا بعد ألمٍ . قال : هذا حَالِى معك ، وفى زَعَماتِ النَّاس أنَّ القُلوبَ جُبِلَتْ على حُبِّ المحسنين الباذلين ، لا المسيئين الباخِلين ، ثمَّ استدرك فقال : بلى واللهِ المحجوجِ بيتُه ، المعظَّمِ حَرمُه ، المُداوِى من داء الهوى باليسير الخفيف من النَّيل ، إنَّ البَخيل ليُحَبّ . ودَلَّ على المُقسَمِ له بقوله « وإنَّ بنا لو تعلمين لغُلَّةً » وهى حرارةُ العطَش ، كما يكون غُلَّةُ الحائمات ، وهى الطُّيور التى تحوم على الماء وتدور من شِدَّة العطَش ثمَّ تقعُ عليه ، وقد تكون العِطاشَ أنفسَها .
وقوله « وأنت بخيلَةٌ » الواو واو الحال . وقوله « ألاَّ يُحَبّ » إن شئتَ جعلت أن النَّاصبة للفعل فنَصَبْتَ يُحَبَّ به ، وإن شئتَ جعلتَه المخفَّفةَ من الثَّقيلة فيرتفع يُحَبُّ ، يريد أنَّه لا يُحَبُّ . ثم قال : بَلَى ، وهو جوابُ استفهامٍ مقرونٍ بنَفْى . على ذلك قولُ الله عزّ وجل : ﴿ ألستُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ . كأنَّه قيل له مُستفهَماً معه : أيحَبُّ البَخيلُ المُمْسِكُ ؟ فقال : بَلَى وأقسِمُ أيضاً ، تأكيدا .
والحَجُّ : القَصد . والنَّيلُ : مصدر نِلْتُه أنالُه . وقوله « لو تعلمين » كالعُذْر لها ، وقد أقامه مستعطِفاً ، يُصَوِّرُها بأنَّها لو عَلِمَتْ ما به كانت لا تستجيزُ ما يَجرِى عليه .

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ظريف » .

٥٠٢

وقال آخر :

١ ــ إذا كُنتَ لا يُسْلِيكَ عَنْ مَن تَوَدُّهُ تَنَاءٍ ولا يَشفيكَ طُولُ تلاقِ

٢ ــ فهل أنتَ إلاَّ مُستعيرٌ حُشَاشَةً لِمُهْجَةِ نَفْسٍ آذَنَتْ بِفِرَاقِ

يخاطبُ نفسَه متوجِّعًا لها ، ومستوحِشاً من الحالة التى مُنِيَ بها ، فيقول : إذا لم تستوفِقْ مع من تحبُّه التباعُدَ عنه ، وأخْذَ النَّفس بالتفصِّى منه ، لِيُورِثَك سُلُوًّا دونه ، ولم يقرِّب شفاءَك من الدَّاء فيه طولُ الاجتماع معه ، واتِّصالُ التردُّد منه ، والمريض فى العُرْف والعادة إذا اشتكى من دواء عُولِجَ به نُقِلَ إلى ما يُضَادُّهُ ، فإنْ لم يُغْنِ سُلِّمَ لعلّته ، فكذلك أنتَ إذا لم ينفعْك فيما تقاسيه لا التَّنَائى ولا التَّدانِى ، فما ذاك إلاَّ غَرَامٌ ، وما أنتَ فيه إلّا مستعيرُ حشَاشَةٍ ، وهى رُوح القَلْبِ ، ورمَقٌ من حياة النَّفس وقد آذنَتْ بالمفارقة . والمُهجة : خالِصَةُ النَّفس ؛ ومنه لَبَنٌ أُمْهُجَانٌ .

٥٠٣

وقال عبدُ الله بن الدُّمَيْنَة[1] :

١ ــ ألاَ يَاصَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ من نَجْدِ فقد زادنى مَسْرَاكِ وَجْدًا على وجدِ[2]

٢ ــ أأَنْ هتفَتْ وَرْقَاءُ فى رَوْنَقِ الضُّحَى على فَنَنٍ غَضِّ النَّبات من الرَّنْدِ

٣ ــ بَكَيْتَ كما يَبْكى الوَليدُ ولم تَزَلْ جَليدًا وأبديْتَ الذى لم تكنْ تُبْدِي

الصَّبا : القَبول . يقال : صَبَتِ الرِّيح تَصْبُوا صُبُوًّا . ومتى هِجْتِ ، أى متى

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٢) التبريزى : « لقد زادنى » .

ثُرْتِ واهتَجْتِ . يقال : هاجَ الفَحْلُ والرِّيحُ هِيَاجًا . وهم يخاطبون الرِّيحَ والبَرْقَ إذا كانا من نحوِ أرضِ المحبوب . فيقول : متى اهتَجْتِ من أرضِ نَجْدٍ[1] فقد زادنى سَيْرُكِ شوقًا ، وجَدَّدَ لى هُبُوبُكِ على ما كنتُ أكابدُه من الوَجْدِ وَجْدًا .

وقوله « أَأَنْ هتَفَتْ » يخاطبُ نفسَه مبكِّتًا فيقول . أَلأَنْ صاحت حمامةٌ ورقاء فى أوّل الضحى واقِعةٌ على غُصنٍ غَضٍّ من شجر الرَّنْد بكَيْتَ بكاء الصَّبِيِّ إذا أعياه مطلوبُه ، وأظهرتَ العجزَ عمَّا حُمِّلتَه ، وعَهْدُ الناسِ بك فيما مضى من أيامك ولم تَزَلْ ثابتَ القَدَمِ فيما ينوبُك ، دائمَ الصبرِ على بلواكَ ، إنَّ هذا منكَر .

٤ — وقد زَعموا أنَّ المُحِبَّ إذا دَنَا يَمَلُّ وأنَّ النَّأْىَ يَشْفِى من الوَجْدِ

٥ — بكُلٍّ تَدَاوَيْنا فلم يَشْفِ ما بِنَا على ذاكَ قُرْبُ الدَّارِ خيرٌ من البُعْدِ

٦ — على أنَّ قُرْبَ الدارِ ليس بنافعٍ إذا كان مَن تهواهُ ليس بذى وُدِّ[2]

يقول : زعم الناسُ أنَّ الاستكثارَ من المحبوب والتَّدانِىَ منه يُكسِب المحبَّ مَلالاً ، وأن الاستقلال من زيارته والتَّنائِىَ عن محلّه وداره يُنتج له سُلُوًّا ، فداويتُ بكلٍّ واحدٍ من ذلك فلم يَنجَع ؛ إلاَّ أنه على الأحوال كلِّها وجدتُ قُرْبَ الدار منه خيراً من بعدها عنه ، لِمَا تُوَسوِس به النفسُ فى الوقتِ بعد الوقت من طَمَعٍ فيه ، ولتَطَلّع المجاورين له ، وتجدُّدِ الحديث عنه ، إلى كثير مما يُفقَدَ فى البِعاد . ثمَّ رَجَع فيما أعطَى فقال : على أنَّ تقارُبَ الدِّيار لا يكاد

(١) هذا ما فى ل ، على الجمع ، وفى الأصل : « أرض نجد » .

(٢) هذا ما فى ل ، وهو ما يتساوق مع الشرح ، وفى الأصل والتبريزى : « ليس بذى عهد » .

ينفع إذا كان المحبوب لا وُدَّ له ، ولا مَيْلَ له . ويُرْوَى : « ليس بذى عهد » ، أى لا يبقَى على ما عُهِد عليه .

٥٠٤

آخر :

١ ـ إذا ما شئتَ أن تَسْلَى خليلاً فأكثِرْ دونَهُ عَـدَدَ الليالى

٢ ـ فما سُلِّى خليلَكَ مِثْلُ نَأْيٍ ولا بَلِّى جَـدِيدَكَ كابتذالِ

معناها ظاهرٌ بما تقدَّم ، ويقال : سَلِيتُ ، بمعنى سلوت . قال :

* لو أشربُ السُّلوانَ ما سَلِيتُ[1] *

٥٠٥

وقال آخر :

١ ـ ألاَ طَرَقَتنا آخِرَ الليلِ زينبُ عليكِ سَـلامٌ هَلْ لِمَا فاتَ مَطْلَبُ

٢ ـ وقالت تَجَنَّبنا ولا تَقْرَبَنَّنا فـكيفَ وأنتم حاجَتى أتجنَّبُ

يقول : أتتْنا هذه المرأةُ سَحَرًا فقلتُ مسلِّمًا عليها : عليكِ سلامُ الله هل لما فاتَ من أيَّام الوصال والإقبال على الإحسان مَطلبٌ لى فأسأله[2] . فقالت لى مجيبةً : جانِبْنا ولا تَدْنُوَنَّ منَّا . فقلتُ : أنَّى يكونُ منى مجانبةٌ وأنتم فى الدنيا حاجتى ومُنَاىَ ، ولا اختيارَ مع الضرورة ، كما أنه لا غنَى عن الفاقة . هذا هو ظاهرُ الكلام . وقد رأيتُ من يفسِّره على أن المراد بآخر الليل آخرُ أيَّامِ

(١) لرؤبة فى ديوانه ٢٥ واللسان (سلا) .

(٢) كلمة « الإحسان » ليست فى ل .

الشباب . وكان يَروِى : « عليكَ سلامٌ » بفتح الكاف ، ويجعل الخطاب والتسليم من المرأة للرَّجل ، ويقول : إنما حيَّتْهُ بتحيَّة الموتى لتولِّى أيّامه ، وتناهِى عُمْرِه ، وقولُها « هل لِمَا فات مَطْلب » من كلامها معاتبةٌ ، كأنها أنكرَت التعرُّضَ لها وقد فاتَه دالَّةُ الشَّباب ، وشَفاعةُ النَّضارة والاقتبال . والأَوْلَى ما قدَّمْتُه .

٣ ـ يقولون هَلْ بعد الثَّلاثين مَلْعَبٌ فقلتُ وَهَلْ قَبلَ الثَّلاثين مَلْعَب(١)

٤ ـ لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيبِ إِنْ كنتُ كُلَّمَا بَدَتْ شَيْبَةٌ يَعْرَى من اللَّهْوِ مَرْكَبُ

المضمَر فى « يقولون » المتعصِّبون للمرأة والنَّاس . يريد : عيَّرونى بتعاطِى الصِّبا واللَّهوِ واللعب ، بعد تَقَضِّى الثلاثين من أيَّام عمرى فقالوا : هل بعد الثَّلاثين ملعب ، أى لا ينبغى اللَّهوُ لمثلك . فقلت لهم : وهل قبلَ الثَّلاثين ذلك . والمعنى أنَّ مَن عَدَّ ما دون الثلاثين فهو فى عداد الصِّبيان ، لا يعرف اللّذات ، ولا يصلُح للبَطالات . ويجوز أن يكون المراد : وهل تَسهَّلَ لى قبل الثَّلاثين شىءٌ مِنْ مَبَاغِى اللَّهو واللَّعب فيُذكَرَ منِّى طلبى إيّاه بعده .

وقوله : « لقد جَلَّ خَطبُ الشَّيب » لقد جوابُ يمين مضمَرة ، ولك أن تروى « أنْ كنتُ كلَّما » والمعنى لأن كنتُ كلَّما . ولك أن تكسِر الهمزة فتكون إنْ المفيدة للشَّرط ، والمراد : إن كنتُ كلّما بَدَت فى رأسى لُمْعَةٌ من الشَّيب يلزم منها أن أعرِّىَ مَرْكَبًا من مراكب اللّهو ، فلقد عظُمَ خَطْبُ الشَّيبِ ، ويكون جوابُ إنْ فى قوله « لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيب » ، وكلَّما فى موضع الظَّرف .

(١) البيت وتاليه فى عيون الأخبار (٤ : ٥٣) .

٥٠٦

وقال كُثَيِّر [1] :

١ — وَأَدْنَيتِنِي حَتَّى إذا ما فَتَنْتِنِي ... بِقولٍ يحِلُّ العُصْمَ سَهلَ الأباطِحِ [2]

٢ — تَنَاهَيْتِ عَنِّي حينَ لَا لِيَ حِيلَةٌ ... وغادَرْتِ ما غادَرْتِ بينَ الجوانِحِ [3]

يقولُ : توفَّرتِ عَلَيَّ ولَطَفْتِ لِيَ المقالَ والفعال ، على تَطَلُّقٍ من وجهكِ ، وهَشاشةٍ ظاهرةٍ منكِ ، حتى أوقَعْتِني في حِبالتك ، وخبَّبْتِ [4] قلبي بكلامٍ يقرِّب البعيد ، ويسهِّل العسير ، ويُؤْنس النافر ، ويُطْمِع اليائس ، فلمَّا استَكمَلَ مرادُكِ فيَّ ضممتِ أطرافَكِ إليك ، وقَبضتِ ما انبَسَط من أمَلى فيك . والعُصْم : جمع أعْصَمَ وعَصماء ، وهى الوُعول الجبليَّة التى فى قوائمها بياض . وجواب « إذا » تناهيتِ عَنِّي . والمعنى : بعد ما كَسَبْتِني خَبالاً ، وجَلَبْتِ على عَقلِي وقلبي فساداً ، كَفَفتِ عنِّي ، وتباعدتِ منِّي وقتَ أعيَتْني الحِيلُ فى الانفكاك ، وتأبَّى تمازُجُ الهوَى وتلاصُقُه من الانسلاخ ، وتركْتِ بين جوانحى ما تركتِ من وجدٍ متصل ، وحزن دائم .

فإن قيل : إنَّ كثيرا عَلَمٌ فى النَّسيب ، فلِمَ لم يرضَ بإظهار التَّوجُّع من المعامَلة ، والتَّألُّم من التهاجر والقطيعة ، حتَّى اعتدَّ على صاحبته ذَنباً . ونَسَبَ إليها

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٤٩٣ ص ١٢٨٧ . والبيتان نسبا فى الأغانى (٢ : ١٤) إلى المجنون .

(٢) التبريزى : « إذا ما ملكتنى » . وفى الأمالى (٢ : ٢٢٨) : « إذا ما استبيتنى » والأغانى (٢ : ١٤) : « إذا ما سبيتنى » .

(٣) القالى : « توليت عنى حين لا لى مذهب » . الأغانى : « تناءيت عنى » « وخلفت ما خلفت » .

(٤) خببت ، من التخبيب ، وهو الخدع . وفى الأصل : « خيبت » صوابه فى ل .

خِيانة ووِزْرًا ؛ لأنَّ الذى وَصَفَ من افتتانها فى افتتَان الرِّجال ليس من شأن العفائف ؟ قلتَ : إنَّ كثيِّرًا لم يصِفْ صاحبتَه إلاّ بصفة العفائف . ألم تسمع قول الآخر :

بَرَزْنَ عفافًا واحتَجَبْنَ تَستُّرًا ... وشِبنَ بقولِ الحقِّ منهنّ باطِلُ

فذُو الحِلْمِ مُرتابٌ وذو الجهلِ طامِعٌ ... وهُنّ عن الفحشاء حِيدٌ نَوَاكِلُ

كَوَاسٍ عَوَارٍ ، صامتاتٌ نواطِقٌ ... بِعَفِّ الكلام ، باذلاتٌ بواخِلُ

فتأمَّلْ ما قالَه فإنَّه غايةٌ فى استقامة الطَّريقة ، وإن هَلَكَتْ نفوسٌ ، وخُبِّلَت عقول .

وحُدِّثت عن أبى حاتمٍ عن الأصمعىّ عن أبى عَمرو بن العلاء ، عن راويةِ كثيِّرٍ[1] قال : كنتُ مع جرير وهو يريد الشّام ، فَطَرِب فقال : أنشِدْنى لأخى بنى مُلَيْحٍ[2] ، يعنى كثيِّرا ، فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله : وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتِنى ، الأبيات ، قال جرير : لولا أنه لا يَحسنُ بشيخ مثلى النخير لنخرت حتى يسمع هشام على سريره .

٥٠٧

وقال آخر :

١ — تعرَّضْنَ مَرْمَى الصَّيْدِ ثم رَمَيْنَنا ... مِنَ النَّبْلِ لا بالطَّائشاتِ الخواطِفِ

٢ — ضعائفُ يَقتُلْنَ الرِّجالَ بلا دَمٍ ... فيا عَجَبًا للقاتلاتِ الضَّعائفِ

٣ — ولِلعَيْنِ مَلْهًى فى التِّلادِ ولم يَقُدْ ... هَوَى النَّفْسِ شىءٌ كاقتيادِ الطَّرائفِ[3]

قوله « مَرْمَى الصيد » ، موضعه نصبٌ على الظرف ، أى تعرَّضن لنا وبيننا

---

(١) وكذا فى أمالى القالى (٢ : ٢٢٨) بدون تعيين له .

(٢) مليح ، كزبير : حى من خزاعة . القاموس (ملح) ، ونهاية الأرب (٢ : ٣١٨) .

(٣) البيت فى الحيوان (١ : ١٧٠) .

وبينهنَّ غَلْوَةُ سَهْمٍ ، فعلَ المتعرِّض للصَّيد إذا أراد رَمْيَهُ . ويُراد بالصَّيد المَصيد ، كما يُرادُ بالخلْق المَخْلُوقُ . وقوله « ثُمَّ رمينَنا من النبل » ، يريد : ثمَّ نَظَرْنَ إلينا وعَرَضْنَ محاسنَهنَّ علينا ، وتلك نبالُهنَّ التى لا تخِفُ فتَعْدِلَ ، ولا تَخْطَف فتَقْصُرَ . والخاطِفُ من السِّهام : الذى يقَعُ على الأرض ثم يحبو إلى الهَدَف كأنَّه يخطَف من الأرض شيئاً . والطَّائش : الخفيف الذى لا يستقيم ؛ ومنه الطَّيْش والطَّيَّاش ، كأنه يُرَى لخفته عادلا عن سواء السبيل . ومفعول رميننا الثانى محذوف كأنَّه قال : رميننا لا بالطَّائشات ، ولكن بالصَّائبات النَّاقرات . والنَّاقر : الذى يَنقُر الهَدَف .

وقوله «ضعائف يَقتُلن الرِّجال بلا دَمٍ» يريد بلا ترَةٍ وذَحْلٍ . والضَّعف الذى أشار إليه يريد فى الخِلقة والخُلُق ، أى يقتُلْن الرِّجال وإن ضَعُفْن عن جِذابهم كَيْدًا وفِعْلا . ثم قال : يا عَجَبًا لمن يقتل القوىَّ على ضعفه . ويا عجبا يجوز أن يكون على طريق النُّدبة ، ويكون منادًى مفرَداً أُلحق به الألف ليمتدَّ به الصَّوت ، ويدلَّ على فرط الشَّكو . ويجوز أن يكون مُنادًى مُضافاً ففرَّ من الكسرة وبعدها ياء فانقلبت ألفا . واللام من قوله « للقاتلات » هى التى تفسَّر بأنَّها لام العِلَّة ، كأنَّه علَّلَ تعجُّبَه بقوله للقاتلات ، فارتفع ضعائف على أنَّه خبر مبتدإ محذوف .

وقوله « وللعَيْنِ مَلْهًى فى التِّلاد » ، يُريد أن للعين لهوًا وراحةً إذا نظرَتْ فى التِّلاد الرَّائق المعجِب — والتِّلاد : ما قَدُم مِلْكُهُ — ولم يَجْذِب هَوَى النَّفس شيءٌ كما يجذِبُهُ الطَّرائف ، وهى المستحدثات ، وهذا كما يقال : « لكلِّ جديدٍ لذةٌ » وما أشبَهه . وقاد واقتادَ بمعنًى واحد ، والمَلْهَى كما يجوز أن يراد به الحدَث ، وهو اللَّهو ، يجوز أن يراد به موضع الحدَث ووقتُه .

٥٠٨

وقال آخر :[١]

١ — لَئِن كان يُهْدَى بَرْدُ أنيابها العُلَى لِأَفْقَرَ مِنِّى إنّنى لفقيرُ

قوله «يُهْدَى» يجوز أن يكون من الإهداء الإتحاف، ويجوز أن يكون من الهِدَاء الزِّفاف. وقوله «أنيابِها العُلَى» يرادُ به الشَّريفةُ العالية الشّأن. ويجوز أن يُراد بالعُلَى الأعالِي من الأسنان، لأنها موضع القُبل. ويعنى ببَرْد الأسنان عُذوبةَ الرُّضاب عند المذاق. وقوله «إنى لفقيرٌ» فعيل بناء المبالغة، ولا سيّما إذا أُطْلِق إطلاقاً، فلا يقال فقيرٌ إلى كذا وكذا فيُخصَّص. والمعنى: إن كان يتربَّص بمنَسِق مَضْحَكِها، وواضح مُقَبَّلِها، وطيِّب رُضابها، وبَرْدِ أسنانها، لمن هو أفقرُ منِّى إليها، فإنى الفقيرُ مطلقاً. والمعنى: لاغايةَ وراء فقرى. ومما يَجرى مجرى فقيرٍ إذا أُطلِق، قولُهم سقيم. ألا ترى قول الآخر[٢]:

لئن لَبَنُ المِعْزَى بماءِ مُوَيْسِلٍ بَغَانِيَ داءٌ إننى لَسَقِيمُ[٣]

يريد المتناهى فى السَّقَمِ حتى لا غايةَ وراءه. وأفقرُ، كأنه بُنِي على فقُرَ المرفوضِ فى الاستعمال. وإنما قلت هذا لأنّ فقيراً كان حُكْمُه أن يكون فعله على فَقُرَ، ولم يجئْ منه إلاّ افتقر. وشرْط فعل التعجُّب وما يتبعُه من بناء التفضيل أن لا يجيءَ إلاّ من الثُّلاثيِّ فى الأكثر، وما كان على أفعل خاصّةً، وإذا كان كذلك فأفقرُ لا يصحُّ أن يكون مبنيًّا على افتقر ولكن على فَقُرَ؛

(١) هو عبد الله بن الدمينة. ديوانه ٢٥ — ٢٦.

(٢) هو واقد بن الغطريف الطائى، أو زيادة بن بحدل الطريفى الطائى، كما فى معجم البلدان (٨ : ٢٠٣).

(٣) قبله: يقولون لاتشرب نسيئاً فإنه إذا كنت محموما عليك وخيم

فهذا طريق . ولك أن تقول : بُنِيَ منه على حذف الزَّوائد ، كما جاء : ريحٌ لاقِحٌ والمرادُ مُلقِحٌ ، وما أشبهه .

٢ — فما أكثَرَ الأخبارَ أن قد تَزَوَّجَتْ   فَهَلْ يَأْتِيَنِّي بالطَّلاقِ بَشِيرُ

قوله « أن قد تزوّجت » ، أراد : بأن قد تزوّجت . وحذْفُ الجارِّ مع أنْ كثير ، وموضعه من الإعراب مفعول من قوله الأخبار . والأخبار : جمع خَبَر ، ووضَع خَبَرًا موضع الإخبار ، كما يوضع الطاعة موضع الإطاعة ، ثم عدّاه وهو مجموع ، ومثله :

* مَواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاهُ بيَثْرِبِ[1] *

ألا تراه أنه انتصَب أخاه عن جَمع وهو مواعيد . ومعنى البيت : كثُرَ في أفواه الناس الإخبارُ بتزوُّجها ، واشتغالِها ببعلها عن غيره ، فهل يأتيَنِّي مبشِّرٌ بتطليقها . وهذا ليس باستفهام وإنما هو تمنٍّ .

٥٠٩

وقال آخر[2] :

١ — يُقِرُّ بعيني أن أرى رَمْلَةَ الغَضَى   إذا ما بَدَت يومًا لعَيْنِي قِلالُها[3]

---

(١) البيت للأشجعي ، كما في أمثال الميداني (مواعيد عرقوب) . وصدره :

• وعدت وكان الخلف منك سجية •

وأنشد في الأغاني (١٥ : ١٤٤) للشماخ :

وواعدني ما لا أحاول نفعه   مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وعرقوب هذا رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله ، فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة فقال : دعها حتى تصير بلحاً . فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً . فلما زهت قال : دعها حتى تصير رطباً . فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً . فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها ولم يعط أخاه شيئاً . أمثال الميداني .

(٢) هو أحد الأعراب ، كما في معجم البلدان (٦ : ٢٩٥) .

(٣) في معجم البلدان : « إذا ظهرت يوماً » .

٢ — ولستُ وإن أحببتُ مَن يسكنُ الغَضَى ... بأوّلِ رَاجٍ حاجـةً لاَ ينالُها

أضاف الرَّملةَ إلى الغضى تشهيراً لها . وقوله « يُقِرّ بعينى » ، هـذه الباء تزاد كثيراً مع أقرّ ، والأصل يُقِرّ عَينى ، وزيدت الباء تأكيداً . تقول قرّت عينى وأقرَّها الله . وقوله « أن أرى » فى موضع الفاعل ليُقِر ، والمراد : إذا بدَت يوماً لعينى قِلالُ الغضى — وهو جمع القُلّة وهى أعلَى الجبل — فقرّةُ عينى فى أن أرى رمالَها أيضاً وبطْحاواتها . ثم قال على طريق اليأس من ذلك : ولستُ بأوّلِ مَن رجا مؤمِّلا . وانتمر مُقدِّرا ، ثم لم يحصُل منهما على طائل . يريد : ولا غَرْو إن كنتُ أحببتُ سُكّانَ الغضى أن يكون هذا حالى معهم . كأنه كان بين أهل الغضى وبين قومِه عداوةٌ ، أو حالةٌ مانعة من المزاوَرةِ والمواصـلة ، فلذلك قال ما قال .

٥١٠

وقال آخر[١] :

١ — سَلِي البانةَ الغَنّاء بالأجرعِ الذى ... به البانُ هل حَيَّيْتُ أطلالَ دَارِكِ[٢]

٢ — وهل قمتُ فى أظلالهنّ عَشِيّةً ... مقامَ أخِي البأساءِ واخترتُ ذلِكِ[٣]

---

(١) هو عبد الله بن الدمينة . والأبيات من قصيدة فى ديوانه ١٥ — ١٦ مطلعها :

قفى يا أميم القلب نقض لبانة ... ونشك الهوى ثم افعلى ما بدا لك

(٢) التبريزى : « البانة الفيناء » ثم ذكر الرواية الأخرى .

(٣) بين هذا البيت وتاليه أربعة أبيات عند التبريزى ، وهى :

وهل هَمَلَت عيناىَ فى الدار غُدوَةً ... بدمعٍ كنَظم اللُّؤلؤ المُتهالِكِ

أرَى الناسَ يَرجُون الرَّبيعَ وإنَّما ... ربيعى الذى أرجُو نوالُ وصالِكِ

أرى الناسَ يخشَوْنَ السِّنينَ وإنما ... سِنِىَّ التى أخشَى صُروفُ احتمالِكِ

لئن ساءنى أنْ نلتِنِى بمساءةٍ ... لقد سرَّنى أنى خَطَرْتُ ببالِكِ

٣ — ليَهْنِكِ إمساكى بكَفّى على الحَشا وَرَقْرَاقُ عينى رَهْبَةً من زِيالِكِ

سَلِي ، أصلُه اسأَلى فحذِف الهمزةُ تخفيفاً وأُبقيَت حركتُها على السِّين فصار اِسَلِي ، ثم استُغنى عن همزة الوصل لتحرُّك ما بعدها فحُذفت فصارت سَـلِي . وهذا كما تقول فى الأحمر إذا خفَّفته : لَحْمَر . ومن قال اَلَحْمَر يقول : اِسَلِي فيبْقِى ألفَ الوصل . ويروَى : « البانة الغيناء » والغَنَّاء : الملتفّة الـكثيرة الورق والأغصان ، فإذا ضربتْها الريح غَنَّت[1] . وهذا كما قال الآخر :

لِلثَّرَى تحتَها سُبَاتٌ وللمـا ء خريرٌ وللغُصون غِناء

والأجرع من الأماكن : السَّهل المختلِط بالرمل . والغَيناء ، هى العظيمة الواسعة ، من قولهم غان عليه كذا إذا ستَر ، وبه سُمِّيَ السَّحابُ الغَيْن . وإنما قال « الذى به البانُ » لأنه كان منبِتَه . واستشهَدَ بالبان على أنه هل قَضَى حَقّ منزلِ الأحبَّةِ لمَّا وقف عليه ، وهل حَيَّا أطلالَه تحيَّةَ المتقرِّب إليها ، والقاضى لوازمَها ، وهل قامَ فى أظلال البانِ بها مَقامَ الضَّرير البائس ، والـكسير الرَّازِح ، تذلُّلاً لها ، وتلوُّماً بها ؛ وهل ذلك كلُّه عن اختيارٍ وقصدٍ أو كما اتَّفق .

ثم قال « ليَهْنِك إمساكى » كأنَّه لمَّا وقفَ على الدار وتذكَّرَ العُهودَ فتصوَّر له ما كان دَرَسَ من آياتِ هواه ، وتَجدَّدَ ما أخاقَ منها ، خشِىَ على كَبِدِه التصدُّعَ فأمسَكَ بكفِّهِ على حَشَاهُ ، تثبيتاً لها وتقويةً ، وبَكى فترقرَقَ الدمعُ فى عينِه ثم سـالَ . فقال هَنَّاكَ الله ذلك كلَّه منى . وانتصَب رَهْبَةً لأنه

---

(١) فى هامشة ل : « حاشية قال السيد الإمام أبو الرضا رحمه الله : رحم الله أبا على ، غلط غلطة ، وكيف يكون الغناء من الغناء فى شىء ، وهذا من غ ن ن ، وذاك من غ ن ى . إنما هو من قولهم شجرة غناء كثيرة الأوراق ، ووادٍ أغنّ أى كثير العشب تألفه الـ[ذبان] وفى أصواته غنة . فأما الغناء فبعيد منه » .

مفعول له . وهذا من باب التجلُّد فى الهوَى . والزَّيَال : مصدر زايَلَ . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر :

يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إلى رَبِّهِ يَدْعُو وفَوْقَ الكَبِدِ اليُسْرَى

٥١١

وقال آخر :

١ ــ تَمَتَّعْ بها ما ساعَفَتْكَ ولا تَكن عَلَيكَ شَجًى فى الصَّدرِ حِينَ تَبِينُ[١]

٢ ــ وإنْ هِيَ أعْطَتْكَ اللَّيانَ فإنَّها لِغيرِكَ من خُلَّانِها سَتَلِينُ[٢]

٣ ــ وإنْ حَلَفَتْ لا يَنقُضُ النَّأْيُ عَهْدَها فَليسَ لمخضوبِ البَنَانِ يَمِينُ

يصف النِّساء وأخلاقهنَّ فى الانقياد والتأبِّى إذا رُووِدْنَ ، واستعمالهنَّ الوفاء من بَعْدِ غَدْرِهِنَّ[٣] ، ويُوصِى باستبقاء المقارَبة معهنَّ ، وتَرْكِ تدقيق محاسَبتهنَّ ، والرِّضا بالميسور من مصافاتهنَّ ، فيقول : عليك فى الاستمتاع بهنَّ مدَّةَ انقيادهنَّ لك ، وإسعافهنَّ بالمراد من جهتهنَّ ، لا يَشْجُوَنَّك تنكُّرُهنَّ لك ، وبينونتهنَّ إذا عَدَلْنَ عنك ، واعلمْ أنَّ الواحدةَ منهنَّ إذا لانَتْ لك فهى بعرَضٍ أن تلينَ لغيرك ، فلا تعتمدْ عليهنَّ وإن حَلَفَتْ لك أنَّها تَفِى وتَبْقَى على عهدها معك ، واعلَمْ أنَّه لا يمينَ لمثلها يُستَوثَق بها ، أو يُستَنَامُ إليها ، وفى طريقته قولُ بَشَّار :

لا يُؤْنِسَنَّكَ مِنْ مُخَبَّأَةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحا

عُسْرُ النِّساءِ إلى مُيَاسَرةٍ والصَّعْبُ يُمكِنُ بعدَما جَمَحا

---

(١) التبريزى : « فى الحلق » .

(٢) ل : « فإن هى » .

(٣) فى النسختين : « من بعد وغدرهن » ، والوجه ما أثبتنا .

٥١٢

وقال العباس بن مرداس[1] :

١ــ قَليلةُ لَحْمِ النَّـاظِرَيْنَ يَزِينُها شبابٌ ومخفوضٌ من العيش بارِدُ

٢ــ أرادَتْ لِتَنْتاشَ الرِّواقَ فلم تَقُمْ إليـهِ ولـكن طَأْطَأَتْهُ الوَلَائِدُ

٣ــ تنَاهَى إلى لَهْوِ الحديثِ كأنّها أخُو سَقْطَةٍ قد أسْلَمَتْهُ العَوائدُ

الناظِران : عِرْقان فى مَدمَع العينين : يصفها بأنّها ليست بجَهمةِ الوجه ، لـكنّها أَسِيلةُ الخدَّين ، ويزينُها شبابٌ مُقْتَبَلٌ ، ورفاهَةٌ من العيش ودَعَةٌ ، ويقال : عيش خَفْضٌ ، وخَفَضْتُ عيشَه فهو مخفوض . والبارد : الثّابت . ويقال : بَرَدَ لى على فُلانٍ حَقٌّ ، أى ثَبَتَ .

وقوله « أرادَتْ لتنتاشَ الرِّواق » فالانتياش : التّناوُل . يصفُها بأنّها مخدَّمة لا تَبتذِلُ نفسَها فى مِهْنَةٍ ، ولا فى عَارِضِ خِدْمَةٍ ، حتّى أنّها إذا أرادت تَناوُلَ رِواق البيت ــ والرِّواق : ما مُدَّ مع البيت من سِتارَةٍ ــ لم تُترَكْ والقيامَ إليه ، ولـكن قدّمته الولائد[2] ، وأمْلَتْهُ لها حتّى نظرت إلى ما وراءه ، فإذا كانَتْ فى مثل هذا تُوَدَّعُ وتُـكْفَى ، فما هو أثقَلُ منه أبْعدُ من استعمالها فيه . والطّأطأة : خَفْض الرّأسِ وغيرِه عن الاشتراف . ويقال للفارس إذا ضَبطَ فرسَه بفخذَيه ثم حرّكه للحُضْر : طأطأ فرسه .

وقوله « تنَاهَى إلى لهْو الحديث » أراد أنّها تنصبُّ من كلّ أحوالها إلى اللّهو ، وتنتهى إليه ، إذْ كان ما عدا اللّهو قد كُفِيَتْ ، فهى مُنَعَّمَةٌ لا تتملّل

---

(١) عبارة الإنشاد هذه ساقطة من ل . وعند التبريزى : « وقال آخر ، وقيل هو عتيبة ابن مرداس » ، وقد سبقت ترجمة العباس فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣ .

(٢) ل : « وقربته الولائد » .

إلاَّ باللَّعب والهَزْل ، فكأنَّها عليلٌ يُترَفْرف عليه ويُشْفَق ، حتَّى يُترَكَ لا يُهِمُّه شيء ، ولا يَشغله شأن ، يعنى أنَّها فى توفُّرها على الحديث والملاهى على نَعْمتها وكَسَلها ، كذلك العليلِ فى توفُّرِه على مقاساته ما به .

٥١٣

آخر[1] :

١ — ولو أنّ ليلَى الأَخْيَلِيَّةَ سلَّمَتْ   عَلَىَّ ودونِى تُرْبَةٌ وصفائحُ[2]

٢ — لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشة أوزَقَا   إليها صَدًى من داخل القبر صائحُ[3]

٣ — وأُغْبَطُ مِنْ لَيْلَى بما لا أنالُهُ   ألاَ كُلُّ ما قرّت به العَينُ صالِحُ

يقول : لو أنّ هذه المرأة سلَّمَتْ علىّ وقدْ مُتُّ لحال بينى وبينها صفائح القبر ، وثَرَى اللَّحد ، لتسرَّعْتُ إلى جوابها ، وقابلْتُ سلامَها بِبشَاشةٍ منّى لها وطلاقةِ وجه ، لتلقِّيها وإجابتها . فإنْ حصل مَنْعٌ دون المراد صاح إليها صَدًى لى من داخل قبرى بَدَل جوابٍ منِّى . وهذا على اعتقادهم كانَ ، أنَّ عِظام الموتى تصير هَاماً وأصْداء .

وقوله « وأُغبَط من ليلَى » يقول : إنِّى مَرْزوق ومحسود منذُ عُرِفْتُ بلَيلَى وإنْ لم أنَلْ منها مطلوبا ، ولا حَصَّلْتُ من الشَّقاء بها طائلاً . ثم قال : « ألاَ كلُّ

---

(١) هو توبة بن الحمير ، كما صرح التبريزى . والأبيات بهذه النسبة فى الحيوان (٢ : ٢٩٩) وأمالى القالى (١ : ١٩٧) والأغانى (١٠ : ٧٧) . وهو توبة بن الحمير بن حزم ابن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ، من شعراء الدولة الأموية ، وأحد عشاق العرب . الأغانى (١٠ : ٦٣ — ٧٩) والاشتقاق ١٨٢ والمؤتلف ٦٨ ، ٩٣ والخزانة (٣ : ٣١ — ٣٤) والعينى (١ : ٥٦٩ — ٥٧١) واللآلئ ١١٩ — ١٢٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ والأمالى (١ : ٨٦ — ٨٩) وفوات الوفيات والشعراء ٤١٢ — ٤١٥ .

(٢) الحيوان : « جندل وصفائح » .

(٣) التبريزى ، والجاحظ ، والقالى والأصبهانى : « من جانب القبر » .

ما قَرَّت به العَينُ صالح » يريد أنى قريرُ العينِ بأنْ أُذكَرَ بها وتُعرَفَ بى دون طُلَّابِها ، وهذا القَدْرُ نافعٌ وإنْ تجرَّدَ مِمَّا سِواه .

٥١٤

وقال آخر :

١ ــ فإنْ تَمنَعُوا لَيلَى وحُسْنَ حَدِيثها فَلَنْ تَمنَعُوا منِّى البُكَا والقَوافيَا

٢ ــ فهلَّا مَنَعتُمْ إذ مَنَعتُمْ حَدِيثَها خَيَالاً يُوافِينى على النَّـأْىِ هَادِيَا

يقول : إن حُلْتُم بينى وبين ليلى ومنازعتِها الـكلام ، والتأنُّسِ بحديثها ، وحَبْسِ النَّفْس على التزوُّد منها ومن مغازَلتها ، فإنَّـكم لا تقدرون على ما أنا بصددِه من البكاء لما وَجْدًا فيها ، ومن قَرْض الشِّعر فى النَّسيب بها ؛ وإذْ قد مَنعتم حديثَها والدُّنوَّ منها ، فهلَّا حبَستمْ عنِّى خيالاً عارفًا بالطَّريق على البُعد بينى وبينها ، حسَنَ الاهتداء إلى حيثُ ذهَبْتُ عنها ، يزورنى فى المنام فيُطرِّى من الشَّوق ما أخْلَقَ ، ويُعيدُ من الهَوَى ما دَرَس . وهذا الـكلامُ تحسيرٌ لهم ، وتشهيرٌ بمكايدتهم[1] ، وتذكيرٌ بما يسوؤهم ، وإعلامٌ أنَّ العهدَ بينهما مَرْعِىٌّ ، والهوَى مِمَّا يَقْدَح فيه من الجانبَين محفوظ ، بدَلالة أنَّه لو استجفاها لامتنع خيالُها ، لزوالِ نَومه ، وذَهاب هُدوِّه . ألا ترى الآخر يقول :

وكان يَزُورنى منهُ خيالٌ فلمَّا أنْ جَفَا مَنعَ الخَيَالا

(١) ل : « لمكايدتهم » .

٥١٥

وقال نُصَيْب[١] :

١ — كأنَّ القلبَ ليلةَ قِيلَ يُغدَى بلَيْلَى العامريَّةِ أو يُرَاحُ

٢ — قَطَاةٌ عزَّهَا شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذِبُه وقد عَلِقَ الجَنَاحُ[٢]

يقول : لمّا أحسستُ باللّيلة التى رُسِمَتْ بوقوع الفِراق فى صبيحتها ، أو فى وقت الرَّواح من غَدِها ، وتصوَّرْتُ أنَّ المتواعَدَ به حَقٌّ ، والمتحَدَّث به واقع ، صار قلبِى فى الخفقان والاضطراب كقطاةٍ وقعَتْ فى شركٍ يحبِسُها ، فبقيتْ ليلتَها تجاذبُهُ والجناح عَلِقٌ لا مُتَخَلَّصَ له ، نَشِبٌ لا مُتَنَزَّع منه[٣] ، وكِمثْل ذلك قلبِى قَلِقٌ فى حَشَاهُ ، غَلِقٌ عند بَلْواه .

وارتفع قطاةٌ على أنَّه خبر كأنَّ ، وعَزَّها[٤] فى موضع الصِّفة لقطاة ، يريد غَلَبَها . وانتَصَبَ « ليلةَ » على الظَّرف ممّا دلَّ عليه « كأنَّ القلبَ » من التَّشبيه ، ولا يجوز أن يكونَ ظرفاً بقيلَ ، لأنّه بما بعده مضافٌ إليه ، والمضاف إليه لا يَعمل

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٥ ص ١٢٨٩ . على أن الشعر نسب إلى المجنون فى الأغانى (٢ : ٣ ، ١٤) والأمالى (٢ : ٦١) والموشح ٢٥٠ . وهذه النسبة أقرب إلى الصواب . ونسب فى ديوان المعانى (١ : ٢٧٠) إلى قيس بن ذريح .

(٢) بعده عند التبريزى :

لها فرخانِ قد تُرِكا بوكرٍ فعُشُّهما تصفِّقُه الرِّياحُ

إذا سمِعا هُبوبَ الرِّيح نَصَّا وقد أُودَى به القدَرُ المتاحُ

فلا فى اللّيل نالتْ ما تُرَجِّى ولا فى الصُّبح كان لها براحُ

نصا ، أى نصبا أعناقهما .

(٣) ل : « لا منتزع منه » .

(٤) فى الحيوان (٥ : ٥٧٧) : « غرها » بمعنى خدعها .

فى المضاف . وقوله « تُجاذِبه » والمفاعلة تكون فى الأكثر من اثنين ، فلأنّه جَعَلَ مَنْع الشَّرَك للقطاةِ من التخلُّص جذباً منه .

٥١٦

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىّ[1] :

١ — رَمَتْنِى وسِتْرُ اللهِ بَيْنِى وَبَيْنَها وَنحنُ بأكنافِ الحِجازِ رميمُ[2]

٢ — فلو أنّها لمّا رَمَتْنِى رَمَيْتُها ولكِنَّ عَهْدِى بالنِّضالِ[3] قديمُ

رَميمُ : اسم المرأة ، وارتفع لأنّها فاعلةٌ ، وقد بُنى على رَمَتْنِى . وأراد بِسِتْر اللهِ الإسلامَ . فيقول : نظرتْ إلىَّ رميمُ ، فكأنّها رمَتْنى بسهمٍ ، ونحن مقيمون بأكناف الحِجاز ، والإسلامُ حاجزٌ بينى وبينها ، يمنع من مُغازلتها ومراودَتها . ومثل هذا قول الهُذَلِىّ[4] .

فليسَ كعَهدِ الدّارِ يا أمَّ مَالِكٍ ولكنْ أحاطَتْ بالرِّقاب السَّلاسلُ

وعادَ الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ سِوَى الحقِّ شيئاً واستَراحَ العواذِلُ[5]

كَنَى عن الإسلام فى مَنْعِهِ عن القبائح وأنواع الفُحْش والظُّلم بالسَّلاسل فى الأغلال المحيطةِ بالأيدى والأعناق .

---

(١) هو الهيثم بن الربيع بن زرارة بن كثير بن جناب بن كعب بن مالك بن عامر بن نمير ابن عامر بن صعصعة ، شاعر راجز من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ومدح الخلفاء فيهما جميعا ، وكان يسكن البصرة ، وكان أهوج جبانا بخيلا كذابا معروفا بذلك أجمع . قال ذات يوم : عنّ لى ظبى فرميته فراغ عن سهمى ، فعارضه والله ذلك السهم ، ثم راغ فراوغه السهم حتى صرعه ببعض الخبارات . الأغانى (١٥ : ٦١ — ٦٢) والخزانة (٤ : ٢٨٣ — ٢٨٥) والمؤتنف ١٠٣ واللآلى ٢٤٤ والشعراء ٧٤٩ — ٧٥٠ .

(٢) الأبيات بهذه النسبة فى الكامل ١٩ ليبسك وبدون نسبة فى الحيوان (٣ : ٤٩) والبيان (١ : ٦٨ / ٣ : ٣٢٤) . ويروى : « عشية آرام الكناس » .

(٣) يروى بينه وبين سابقه :

رميمُ التى قالت لجارات بيتها ضمنتُ لكم ألا يزالُ يهيمُ

(٤) هو أبو خراش الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٥٠) والأغانى (٢١ : ٤١) .

(٥) فى الديوان : « سوى العدل شيئا فاستراح » .

وقوله « فلو أنّها لمّـا رمَتنى رميتُها » جواب لو محذوف ، والمراد لو تعرّضتُ لها وقابلتُها فى عَرْض محاسِنِها بمثل ما يكون للشُّبّان بمنزلة الشُّفعاء عند النّساء ، لحَقّ الأمر وكانَ القدْرُ يجرى إلى القَدْر[1] ، ولكنّى قد شِخْت وكبرت ، فعهدى بمفاضلة النساء قديم .

٥١٧

وقال آخر[2] :

١ — أَسِجْنًا وقَيْدًا واشتياقًا وعَبْرَةً ونأىَ حَبيبٍ إنّ ذا لعظيمُ[3]

٢ — وإنّ امرأً دامَتْ مَوَاثِيقُ عَهدِه على كلِّ ما قاسَيْتَه لكريمُ[4]

انتصَبَ « سِجنًا » بإضمار فعل ، كأنّه قال : أتجمَعُ علىَّ حَبْسًا وتقييدا ، واشتياقًا إلى حبيب وبكاءً ، مع بُعْدٍ بينى وبينه ، إنّ ذلك أمرٌ منكر فظيع ، يتضايق نِطاقُ الصَّبر عن احتماله والبقاءِ معه ، وأشار بذا إلى اجتماع هذه الأشياء عليه ، ونبّهَ على عجزه فى احتمالِها لولا كرمُ عِرْقه ، واستحكام عقْدِه . ألا ترَى أنّه تَحَمَّدَ بحاله ، واعتدّ على حبيبه بقاءه على العهد له . ودوامَ وُدِّه على اجتماع هذه الأحوال عليه ، فقال : إنّ امرأً دامت مواثيقُ عهده ، يريد : إنّ رجلا ثبتَ على أوَّلِيَّةِ شأنه ، ومبادىْ مَواثيقه ، مع ما يقاسيه من تزاحُمِ هذه البلايا على قلبه ، لَكريمُ العَهدِ ، نبيهُ الشأن ، وثيق العقيدة .

---

(١) كذا ضبط فى النسختين . والقدر ، بسكون الدال لغة فى القدر بفتحها . وأنشد :

كل شىء حتى أخيك متاع وبقدر تفرق واجتماع

(٢) هو أحد الأعراب كما هو فى البيان (٤ : ٦٢) . ونسب فى الحيوان (٧ : ١٥٩) إلى بعض اللصوص .

(٣) الحيوان : « أقيد وحبس واغتراب وفرقة وهجر حبيب » . البيان : « أقيدا وسجنا واغترابا وفرقة وذكر حبيب » .

(٤) التبريزى : « على مثل ما قاسيته » . البيان : « على كل ما لاقيته » . الحيوان : « على عسر ما بى إنه » .

ويُروى : « أَسِجْنٌ وقيدٌ » بالرفع ، والمراد : أتجتمع هذه الأشياء عَلَى طريق التَّفظيع والتَّهويل .

٥١٨

وقال آخر[1] :

١ ــ رَعاكِ ضَمانُ اللهِ يا أمَّ مالكٍ ... ولَلّهُ أن يَشفيكِ أغنَى وأوسعُ[2]

٢ ــ يُذَكِّرُنيكِ الخيرُ والشرُّ والذى ... أخافُ وأرجُو والذى أتوَقَّعُ

أشار بقوله « ضمانُ الله » إلى ما فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، فقال : أنا أدعو بأن يَشفيَكِ اللهُ عزّ وجلّ[3] يا أمَّ مالك ، وقد ضَمِنَ الإجابةَ للداعى فرَعاكِ ضَمانُه . ثم قال : وَللهُ بأنْ يَشفيَك ، فحذف حرف الجرّ ، والجارُّ يُحذف مع أنْ كثيراً ، لأنّ حَذْفَه أظهرُ غَناءً وأوسع قدرةً . ونبَّهَ بهذا الكلام أنّه فى تَكِلَتِه الأمرَ إلى الله تعالى الغنىِّ القادر اعتَمَد على ما لا بُدَّ من وقوعه .

وقوله « يذكِّرنيك الخير والشر » يريد أنه لا ينساها فى شىء من الأحوال والأوقات ، فما يتقلَّبُ فيه من خيرٍ باكرٍ ، أو شرٍّ طارق ، فهو يذكِّره ، وكذلك ما يخاف وقوعَه أو يرجوه ، ولم يَصِرْ منهما على يقين يذكِّرُه أيضاً ، وكذلك ما صار منه على يقين ، فهو يتوقّعُه ، يذكِّرُ أيضاً . وإذا تأمَّلتَ حوادثَ الدهرِ وجدتَها لا تنقسم إلا إلى قسمته ، لأنها لا تخلو من أن تكون محبوبةً أو مكروهة ، أو واقعة أو منتظَرَة ، أو مَخُوفةً أو مرجُوَّةً .

---

(١) هو أعرابى من هذيل كما فى الحيوان (٧ : ١٤٨) . وفى البيان (٣ : ٣٣٠) : « وقال أعرابى » .

(٢) فى نسخة فيض الله من البيان : « أرعى وأوسع » .

(٣) ل : « جل جلاله » .

٥١٩

وقال الحكم الخُضْرِىّ [(١)]:

١ ـ تساهَمَ ثَوْباها ففى الدِّرْعِ رادَةٌ ... وفى المِرْطِ لَفّاوَانِ رِدْفُهما عَبْلُ

٢ ـ فواللهِ ما أدرى أزِيدَتْ مَلاحَةً ... وحُسْناً على النِّسوانِ أم ليس لى عَقْلُ

معنى تَساهَمَ تقاسَم ، ولذلك قيل : سُهْمَـةُ فُلانٍ من هذا كذا ، أى قسمته ونصيبه . ويجوز أن يكون أصله من السِّهام : القِداح التى تُجَالُ بين الخصوم إذا تقارَعوا ليستبدَّ كلٌّ بما يخرُج له لِقسمته وبدِّنِه . وفى القرآن : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ ، فكأنه استعار ـ وإن كان أصلُه ما ذكرت ـ للتقاسُم ، إذ كان يُفعَل للقَسْم وما يشبهه لا غير ، فيقول : انقسَمَ جِسمُ هذه المرأةِ بين دِرْعِها وإزارِها ، ففى دِرعها بَدَنٌ ناعمٌ وخَصْرٌ دَقيقٌ ، وفى مِرْطِها فَخِذانِ غليظتان عليهما رِدْفٌ ضخم .

وقوله « فوالله ما أدرى » يريد أنَّ الحَيْرَةَ قد مَلَـكَتْه فى أمرها ، لِما يَرَى من مَيْل قلبه إليها ، وشدَّة افتتانه بها ، فهو لا يَدرِى أزِيدتْ حُسْناً وملاحةً على نساء الدُّنيا كلِّها ، أم هو فائلُ الرَّأى فى الاختيار ، مخبُول العَقل فى الاعتبار ، ضَعيف التبصُّر ، فى الارتياد والتخيُّر . والرادَةُ والرُّؤْدة : الناعمة . واللَّفَّاء : الـكثيرة اللحم . والعَبْلُ : الضخم ، ومصدره العَبالَة .

---

(١) هو الحكم بن معمر بن قنبر بن جحاش بن سلمة بن ثعلبة بن مالك بن طريف بن محارب . وكان مالك بن طريف شديد الأدمة ، وكذلك خرج ولده ، فسموا الخضر ، وهم خضر محارب . وهو شاعر إسلامى ، كان معاصراً لابن ميادة ، وكان بينهما مهاجاة . الأغانى (٢ : ٩٤) واللآلى ١٦ ومعجم الأدباء (١٠ : ٢٤٠ ـ ٢٤٥) .

٥٢٠

آخر :

١ — أَرُوحُ ولم أُحْدِثْ لِلَيْلَى زِيارةً لَبِئْسَ إذاً راعِى المَوَدَّةِ والوَصْلِ

٢ — تُرَابٌ لِأَهْلِى لا ولا نِعْمَةٌ لهم لَشَدَّ إذاً ما قد تَعَبَّدَنى أَهْلِى

كأنَّ مَن صَحِبَهُ مِن أهلِه استعجلوه عن زيارة ليلى ، فيقول مُنْكِرًا ومفظِّما : أأروحُ من غير أن أقضِىَ حَقَّها ، أو أجدِّد الإلمامَ بها ، لبئس رَاعِى المَوَدَّةِ والمواصلة أنَا . حذف المذمومَ ببئس لأنَّ المراد مفهوم ، ومثلُه فى القرآن : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، والمعنى : نِعْمَ العبد أيُّوب ، فحذفَ الممدوح بنِعْمَ ، لكون المراد مفهوما . وإذاً جوابٌ وجزاء ، وكأنَّه حَشاَ بِهِ الكلام ليُعْلَمَ أنَّ مايقولُه جوابٌ لما سِيمَ . واللامُ من « لَبِئْس » لام الابتداء ، وارتفع راعِى المودة به .

وقوله « تُرَابٌ لأهلى » دعاء عليهم ، وتحقيرٌ لهم ، واستخفافٌ بهم . وجاز الابتداء بقوله « تُرابٌ » وهو نَكِرة ، لأنَّ معنى الدعاء منه مفهوم . ومثله قوله :

* فَتُرْبٌ لأفواهِ الوُشاةِ وَجَنْدَلُ *

والمراد فى الدُّعاءِ طلبُ الذلّ لهم .

وقوله « لا ولا نعمةٌ لهم » يجوز أن يكون المنفى بلا الأولى حُذِف لما دلَّ عليه الكلام ، فكأنَّه قال : لأهله التُّراب لاعِزٌّ لهم ولا نِعمة . ويجوز أن يكون « لا » رَدًّا لِمَا عرضوا عليه . وهذا كما يقال للإنسان . افعلْ لفلانٍ كذا وكذا ، فيقول : لا ولا كرامَةَ ، أى لا أفعلُ ذلك ولا أُكْرِمُ من يَسُومُنِيه . وقوله « لَشَدَّ إذاً ما قد تَعَبَّدَنى أهلى » تَعَبَّدَهُ واستعبدَه بمعنًى واحد ، أى استذلّه . و« لَشَدَّ ما » هو كما يقال : لَعَزَّما . والمعنى الإنكارُ فيما عُرِضَ عليه ودُعِىَ إليه ، وأنهم تجاوَزُوا كلَّ حَدٍّ فى امتهانِه حين عَرَضوا عليه مثلَ ذلك . وهذا الكلامُ

مُشْتَمِلٌ على الخلاف وقلّة الاحتفال . ويجوز أن يُجرَى شَدَّ ما ، مَجْرَى نِعْمَ وبِئْسَ .

٥٢١

وقال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِيُّ [1] :

١ – أأَتْرُكُ لَيْلَى لَيْسَ بينى وبينَها ... سِوَى ليلةٍ إنّى إذًا لَصَبُورُ

قوله « أأتْرُكُ » لفظه لفظُ الاستفهام والمعنى معنى الإنكار ، كأنّه أنكرَ مِن نفسه أن يَترك التَّعريج على ليلى وبينهما مسيرةُ ليلةٍ ، فقال : أأُخِلُّ بزيارتها وأداءِ واجبها مع قُربِ المسافة بينى وبينها ؟ إنّى إذاً لَمُتَناهٍ فى الصّبر عن الأحباب ، كَسُولٌ عن البِرّ بذوى الأذِمّة والأسباب [2] . وإنما قال هذا باعثًا لِصَحْبه على مُسَاعَدَته ، وطالبا منهم تمكينَه من مراده . لذلك قال :

٢ – هَبُونى امرأً مِنكُمْ أضَلَّ بعيرَهُ ... لَهُ ذِمّةٌ إنَّ الذِّمامَ كبيرُ

٣ – ولَلصَّاحِبُ المتروكُ أعظَمُ حُرْمَةً ... على صَاحِبٍ مِنْ أنْ يَضِلَّ بَعِيرُ

٤ – عَفَا اللهُ عن ليلَى الغَداةَ فإنّها ... إذَا وَلِيَتْ حكمًا علَيَّ تَجُورُ

قوله « هَبُونى » معناه احسبونى واجعلونى ، وهو يتعدّى إلى مفعولين . وحكى ابنُ الأعرابىّ : وَهَبنى الله فداءَكَ بمعنى جعلنى فداءك . وقوله « أضَلَّ بعيرَهُ » يقال فى الشىء الزّائلِ عن مكانه إذا فُقِدَ : أضْلَلْتُهُ ، فإن ثَبَتَ فى مكانه

---

(١) هو وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيحة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، كان رجلا جميلا شاعراً ، وكانت له جمة يرسلها فتضرب منكبيه ، وكان عفيفاً ، وقال الشعر فى آخر خلافة على بن أبى طالب ، ومدح معاوية وعبد الله ابن الزبير ، وكان ابن الزبير قد ولاه بعض أعمال اليمن . الأغانى (٦ : ١٤٩ – ١٦٥) والاشتقاق ٨١ والمؤتلف ١١٧ والشعراء ٥٩٦ – ٥٩٩ .

(٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحرمة والحق والعهد .

ولم يُهْتَدَ إليه قيل : ضَلِلْتُهُ . وقوله « إن الذِّمَامَ كبير » كالالتفات ، وقوله « أضل بعيرَهُ » فى موضع الصِّفة لامرأ ، وكذلك « له ذِمَّةٌ » صفةٌ أخرى . ومعنى منكم مِن خاصَّتكم وبطانتكم ، وهو يُفيد معنى الوصف أيضاً والمعنى : أجْرُونى مُجرى رَجُلٍ منكم نَدَّ لَهُ بعير ، وله ذِمام الصُّحبةِ والنَّسَب والقرابة ، فإنَّ للذِّمام حقَّه ، وحُرمةُ المرَافقةِ كبيرة ، ودَعونى أقضِ من حَقِّ ليلى واجبَه ، ولا تستعجلونى فى ذلك ولا تمنعونِى عنه ، ثم قال : فإنكم إذا تركتمونى ولم توفِّرونى على ما أهُمُّ به فيما يختصُّ بى لها ، كنتم تركتم رفيقاً لكم وضيَّعتموه أشدَّ ما كان حاجةً إليكم ، والرَّفيقُ أعظم حُرمة فى صاحبه المتروكِ من ضَلَالِ بعيرٍ . يُريدُ : وإذا عُدَّ تَرْكُ الاستيناء[1] بمن أراد نِشْدَانَ ضَالّته ، تجوُّزا فى المحافَظة ، وتعدِّيا فى حُكم المرافقة كان مثلُ ذلك إذا فُعِلَ مع مَن يَرُوم تجديدَ العهد برُوحه ، والاستبقاء على لُبه ، أعظمَ فى الجِناية ، وأقبحَ فى الأحدوثة .

وقوله «عفَا الله عن ليلى الغَدَاة » تَشَكٍّ وتألُّمٌ من سوء معاملتها وأنها متى حُكِّمَتْ فيه وفيما يتعلق به جارَتْ ولم تُنصِف . وهذا الكلام منه إيذانٌ بأنها تستعظم الصَّغير إذا وَقَع منه ، بل تَعُدُّه كبيرةً وتُغلِّظ العقوبةَ عليها ، والمؤاخذةَ بها .

٥٢٢

وقال آخر :

١ ـ أآخِرُ شىء أنتِ فى كلِّ هَجْعةٍ وأوَّل شَىء أنتِ عِند هُبُوبِى

٢ ـ مَزِيدُكِ عِندى أنْ أُقِيكِ مِن الرَّدَى وَوُدٌّ كماء المُزْنِ غَيْرُ مَشُوبِ

قوله « فى كل هجعة » العامل فيه أآخر ، وكذلك « عند هبوبى » العامل فيه أوّل شىء . يقول : لا أخلو مِن ذِكركِ ساعةً ؛ لأنى إنْ نِمتُ كان خيالُك

---

(١) هو مصدر استأنى ، أى تأنى ، ولم يعجل .

سميرى مدَّةَ هجوعى، وإنْ أُوقِظْتُ كنتُ لزيمَ ذكراكِ مُدَّةَ يَقَظتى ، فأنتِ فى النَّوم آخرُ شىء لى ، ولا فاصلَ بينَ الحالَين . ثم قال : والذى يَزيدكِ من عندى ألَّا أشهِّرَ بك ، ولا أبوحَ بسرِّكِ ، ولا أعلنَ النَّسيبَ باسمكِ ، إذْ كان فى جميعه تنفيرُكِ ، وتعريضُكِ للرَّدى : فضيحتِكِ ، فأنا أقيكِ من ذلك ، وأنا أُصْفى لكِ الوُدَّ حتى لا يشركك فى قلبى أحد ، فيصير ثاوى الود مشوبا ، وصافِىَ الهوى مكدَّرا ويجوز أن يكون المرادُ : مَزيدُكِ عندى أنْ أدعوَ اللهَ تعالى بالصِّيانةِ لك ، وتوفيرِ الحياطةِ عليك من كلِّ ما تكرهينه ، أو يؤدِّى إلى شَيْنِك فيما ترومينه .

والذى يشهدلقوله «من الرَّدَى» وأنَّ المرادَ به الفضيحة قولُ امرئ القيس :

صرفتُ الهوَى عنهنّ مِن خَشْيةِ الرَّدَى ولستُ بمَقلِىِّ الخِلالِ ولا قالِ

ألَا ترى أنَّه كان ملكاً لا يَخاف معارِضاً له فيما يَتعاطى من اللَّهو ، ويختارُه من الصِّبا والبَطالة مع مَن كان وفيمن اتفق ، فكيف ما يتعدَّاه مِن طلب الغوائل له ، لكنَّه عَدَّ انتشارَ الحديث فيه ، وقيامَ النَّاس وقعودَهم بذكرِه هلاكا وعَطَبا .

وقوله «أن أقيك» فى موضع خبر المبتدإ وهو مزيدك ، وانعطف عليه قوله « وودٌّ كماء المُزْن » .

٥٢٣

وقال آخر :

١ ــ ما أنصفَتْ ذَلْفاءُ أمّا دُنُوُّها فهجْرٌ وأمّا نأيُها فيَشُوقُ

٢ ــ تَباعَدُ ممّنْ واصلَتْ فكأنَّها لآخَرَ ممَّنْ لا تَوَدُّ صَدِيقُ[1]

(١) التبريزى : « وكأنها » .

يقول : جارَتْ هذه المرأةُ علىَّ فى حُكم الهوَى ولم تُنصِفْ ، لأنى إنْ طلبتُ التَّدانىَ منها هجرَتْنى واطَّرَحَتنى ، وإن رُمتُ التَّنائى منها شوَّقَتنى وهاجتنى ، وإذا كانت مِن مُواصِلِها مُتباعِدة ، ولمُوادِّها مُهاجِرة ، فكأنَّها تصادِقُ مُعادِيَها ، وتُخالص مُنابِذَها من دون مُواصِلِها ومقارِبها ، وهذا عَجَبٌ من مثلها .

وقوله « أمَّا دنوُّها فهجْرٌ » المعنى أمَّا فى دنوِّها فتَهْجُر . ألاَ ترى أنَّه قال « وأمَّا نَأْيُها فَيَشُوق » كأنَّه : وأمَّا فى نأيها فتشوق . إلاَّ أنَّه جُعلَ فعلُها منسوباً إلى دُنُوِّها و نَأْيِها .

٥٢٤

وقال عبدُ الرحمن الزُّهرىّ[1] :

١ — وَلَمَّا نَزَلْنا منزِلًا طَلَّهُ النَّدَى ... أنيقًا وبُستانًا من النَّوْرِ حاليا[2]

٢ — أَجَدَّ لنا طِيبُ المكانِ وحُسْنُهُ ... مُنًى فتمَنَّينا فكنتِ الأمانيا

جواب « لمّا » قوله أجدَّ لنا . فيقول : لمَّا خرجنا إلى ظاهر محالِّنا متنزِّهين ، ونزَلْنا موضِعاً رياضُه رَكِبها الطَّلُّ بالَّليل ، فتناثَرَ عنها القَطرُ بالغُدُوات ، ونَباتُه شَرِقَتْ بالرِّىِّ بعد الشمس ، وضاحكت الشَّمسَ بعد الشُّروق ؛ وبساتينَ تحلَّت بالأزاهير ، وتحفَّتْ مِن بركَة الله بآثار الصُّنع ، دَعَتْنَا نفوسُنا إلى أن نتذكَّر لطيب المكان ، ومُساعَدة الوقتِ والزَّمان ، ما يَكمُل به السُّرور ،

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الزبيرى » . وعند التبريزى : « أبو بكر بن عبد الرحمن الزهرى » . وقد سبق لأبى بكر الحماسية ٤٦٩ ص ١٢٤٥ . وأبوه عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن زهرة بن كلاب . وكان جده المسور ممن أدرك الإسلام صغيراً وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . الإصابة ٧٩٨٧ .

(٢) روى التبريزى قبل هذه المقطوعة مقطوعة أخرى لحفص العليمى ، وستأتى مقطوعة حفص العليمى هذا بعد المقطوعة رقم ٥٣٦ .

ونتمنّى ما إليه تتناهى فى الاقتراح العُيونُ والقُلوب ، فوجدْنا الأمانىَ كلَّها لاتتعلق إلاّ بك ، ولا تحومُ فيما تُجال فيه وتُراوَد عنه إلاّ عليك ، ذهاباً فيك وشَعَفاً بك .

ويقال : طُلَّتِ الأرضُ فهى مطلولةٌ . والأنيق : المُعجِب . ويقال : حَلِيَ بكذا ، وتحلى بكذا .

٥٢٥

وقال مَعْدَانُ بن مُضَرِّبٍ [1] :

١ — إنْ كان ما بُلِّغْتِ عنّى فَلاَمَنِي صَدِيقى وشَلَّتْ مِن يَدَىَّ الأناملُ

٢ — وكُفِّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا فى ردائِه وصادَفَ حَوْطًا من أعادِىَّ قاتِلُ

قد مضى تفسيره فى باب الحماسة .

٥٢٦

وقال آخر :

١ — صَفَا وُدُّ ليلَى ما صفا لم نُطِعْ به عدوًّا ولم نَسمع به قِيلَ صاحِبِ

٢ — فلمّا تولَّى وُدُّ ليلَى لجانِبٍ وقومٍ تولَّيْنا لقـــومٍ وجانِبِ

٣ — وكلُّ خَليلٍ بَعْدَ ليلَى يَخَافُنى على الغَدْرِ أو يَرْضَى بوُدٍّ مُقارِبِ

---

(١) الذى فى معجم المرزبانى ٤٠٧ : « معدان بن جواس الكندى السكونى » . قال : له حلف فى ربيعة ، مخضرم نزل الكوفة ، وكان نصرانياً فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير بن العوام رضى الله عنه بأمره فمدحه . وهو القائل :

ورثت أبا حوط حجية شعره وأورثنى شعر السكون المضرب

أبو حوط هو حجية بن المضرب ، فخر بهما . ثم أنشد له المرزبانى بيتى الحماسة هذين . وقد نسبه أبو تمام هنا إلى أحد أجداده ، ونسبته فى الإصابة ٨٤٣٥ : معدان بن جواس بن فروة بن سلمة بن المنذر بن المضرب بن معاوية .

سلك فى هذا مسلكَ ذى الرُّمَّة حين قال :

فَيَا مَىَّ هل يُجزَى بُكاىَ بمثْلِهِ ... مِراراً وأنفاسى إليكِ الزوافِرُ

وقد زَيَّفَ النُّقَّاد هذا وقالوا : ذُو الهوى لا يستدعِى ممَّن يهواه المكافأة على ما يتحمله فيه ، وقد عاب ابنُ أبى عَتيقٍ على كثيّر قوله :

ولستُ براضٍ مِن خليلِى بنائلٍ ... قليلٍ ولا راضٍ له بقليلِ

وقال : هذا كلام مُكافٍ لا كلامُ مُحِب . فقوله « وُدُّ ليلَى » يجوز أن يكون الودُّ مضافاً إلى المفعول، والمراد ودُّنا لليلى ، فينتصب موضع قوله « ما صفا » لكونه ظرفاً ، والمعنى : صفا ودُّنا لليلى مدَّةَ بقائه خالصا ممايَشُوبُه ويُفسِده من طاعة عدوّ لها ، وإصغاء إلى قِيلِ ناصحٍ يتنصَّحُ فيها . ويجوز أن يكون المراد : صفا وُدُّنا لليلى مدة صفاءِ وُدِّها لنا ، لحميناه من قَدْح الأعداء فيه ، والإصغاء إلى قِيل اللائمين وعَتْبِهم له . ويدل على هذا التفسير قوله مِن بَعْدُ :

فلما تولى وُدُّ ليـــلَى لجانبٍ ... وقومٍ تولَّينا لقومٍ وجانبِ

فإن قيل : كيف زعمتَ أنَّ المعنى ما صفا وُدُّها لنا ، وقد ذكرت أنَّ الوُدَّ مضاف إلى المفعول ؟ قلت : إنَّ المضمر فى الثانى هو ودّ ليلى ، والمصدر كما يضاف إلى المفعول يضاف إلى الفاعل أيضاً ، واللفظ لفظ واحد . وإذا كان كذلك صلَح أن ينُوَى فى قوله « ما صفا » عوْدُ الضمير إلى ودّ ليلَى ، ويكون ليلى فاعلة لأنّ اللفظ ذلك اللفظ ، فيكون التقدير : صفا ودّ ليلَى ما صفا ودُّ ليلى . والمعنى : صفا وُدُّنا لليلى ما صفا وُدُّها لنا ، أى صافيناها ما دامت تُصافِينا . ويجوز أن يكون ودّ ليلى أضاف الودّ إلى ليلى ، وهى الفاعلة ، لكنّه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، والمراد : صفا جَزاءُ ودِّ ليلى منّا ما صفا هو فى نفسه لنا . وقد رُوِى : لم نُطِع بها عدوًّا » فيعود الضمير إليها ، وكذلك « ولم

نَسمع بها » . وإذا رويت « به » يعودُ الضمير إلى الوُدّ .

وقوله « فلمَّا تولَّى ودّ ليلى » يريد : وُدّ ليلى لنا . والمعنى : لمَّا مالت إلى جَنَبَةٍ غير جَنَبَتِي ، وقومٍ غير قومى ، نفَضْتُ يدى من الاعتماد عليها ، وأخليتُ قلبي من هواها ، وصرَفتُ نفسى إلى جَنَبَةٍ أخرى غيرِ جَنَبَتِها ، وطائفةٍ أخرى غير طائفتها ، لأنى كما أصل أقطع ، وكما أخالِطُ أزايل ، ولستُ ممَّن يقتل نفسَه فى إثْر مَن لا يُريدنى إذا تولَّى عنى . وقوله « تولى » يجوز أن يكون من التولِّى الإعراض والذَّهاب ، ويجوز أن يكون من الولاء والطاعة .

وقوله « وكلُّ خَليلٍ بعدَ ليلَى يخافنى » يريد أنّ الناسَ لمَّا رأوْا وَلُوعى بليلى ، وصفاء عقيدتى فى المَيل إليها والبَقاء على العهد معها ، ثم رأوْا بَعده انصرافى عنها فى أقرب المُدَد ، ولأدنى السبب ، صار كلُّ خليلٍ فيما بينى وبينَه يخافُنى على الغَدر ، ويتَّهمنى فى الوُدّ ، فلا يطلبُ منِّى التَّناهىَ فيما يجمعنى وإيَّاه ، خوفاً من الإعراض عنه ، أو يرضَى منى ومِن جهتى بودٍّ قريب لا سَرَف فيه ولا اشتِطاط .

٥٢٧

وقال آخر :

١ — ألاَ ليتَ شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلةً   وذِكْرُكِ لا يَسْرِى إلىَّ كما يَسْرِى

٢ — وهل يَدَعُ الواشونَ إفسادَ بينِنا   وحَفْرًا لنا المأثورَ من حيثُ لا نَدْرِى

هذا كلامُ مُتبرِّمٍ بالهوَى ، مستقيلٍ من الوشاة وإفسادِهم ، متفادٍ من ريشهم وألبهم ، متمنٍّ أن تنقطع أسبابُ الهوى ، وتنقلع أغراسُ الوُدّ .

وقوله « ليت شعرى » موضع شعرى نَصْبٌ لأنه اسم ليت . وقوله « هل

أبيتنَّ ليلةً » سَدَّ مَسدَّ مفعولَىْ شِعرى ، لأنّ معناه عِلْمى ، وبتَعدَّى تعدِّيَه ، وخبر ليت مضمَر لا يظهر . والتقدير : ليت علمى واقعٌ ، وما يجرى مَجراه والمعنى : أتمنَّى أن أعلمَ هل أبقى أنا ليلةً من ليالِى الدهر وخَيالُكِ لا يسرِى إلىَّ كما يَسرِى الساعةَ ، وهل أرى نفسى سليمةً من رَمْى الوشاةِ وطَلَبهم إفسادَ ما بينى وبينَكِ ، وحَفْرِ المُغَوَّاةِ لنا[1] إذا غِبْنا عنهم من حيث لا نَشعر ولا ندرى فنَتَّقِيَه ونَحْذَرَه .

فإن قيل : كيف جاز أن يُكْنَى عن الخيال بالذِّكْر حتى قال : « وذِكْرُكِ لا يَسْرِى إلىَّ »؟ قلت : إنّ الخيالَ فى المنام لا يكونُ إلا عن التذكُّر فى اليقظة ، يَشْهَدُ لذلك قولُ أبى تمّامٍ الطائىّ .

نَمْ فما زارَكَ الخيالُ ولكنّـــك بالفكرِ زُرْتَ طَيْفَ الخَيالِ

وهذا ظاهرٌ وعليه مَبانى وصف الخيال .

والعاثور : مَصيدةٌ للبهائم ، ويُجعل اسماً للمتالف ، وهو فاعُولٌ من العِثار والعُثور ، وكذلك[2] استُعير للنّقص فى الحسَب ، لأن صاحبَه يَعثُرُ به عن غاية السابق . وانتصَب قوله « العاثور » من المصدر المنوّن وهو حَفْرًا ، وأقوى ما يكونُ المصدر فى العمل إذا كان منوّناً ، إذ كان شَبَه الفعلِ فيه أقوى .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : إنما يتمنَّى أن يملكها على حَدٍّ يُسْقِط تَسَوُّقَ المفسدين فيه[3] ، ويأمَنَ التَّبِعةَ معه ، ويرتفع العشق والهوى من بينهما .

---

(١) المغواة : حفرة كالزبية تحتفر للأسد .

(٢) ل : « ولذلك » .

(٣) التسوق ، بالسين المهملة فى النسختين ، وأصله من تسوق القوم ، إذا باعوا واشتروا .

٥٢٨

آخر

١ ـ إنْ كان هذا منكِ حقًّا فإنَّنى مُداوِى الذى بَينى وبينكِ بالهَجْرِ
٢ ـ ومُنْصرِفٌ عَنكِ انصرافَ ابنِ حُرَّةٍ طَوَى وُدَّه والطَّىُّ أبقَى من النَّشْرِ

يقول : إن كان هذا الذى يظهرُ منك موافقاً لما يَبْطُن، وهذا الإعراضُ عن جَفاه وقِلًى لا دلالٍ وهوًى ، فإنى سأداوى ما بينى وبينكِ بالتهاجر ، وقاعدٌ عنك قعودَ حُرّ لا يَصْبِرُ على الجَفاء والتدابُر ، ولا يَرضَى مِن وَدِيدِه بالمَذَقة دون الصَّفاء ، فأطوِى وُدِّى معه وأصونُه عن النَّشر ، لأنَّ الطَّىَّ أوقى فيه ، وصِيانتَه عن الابتذال أوعَى له[1] .

وإنما قال : « ابن حُرَّةٍ » والقَصد إلى الكريم من الرِّجال ، الذى يَصُون نفسَه ونفسَ صاحبه فلا يُوحِش مع التهاجُر ، ولا يُفحِش على التَّنكُّر والتباغض ، لكنَّه يَلزم المجاملةَ والمُساتَرةَ فى كلِّ حال ، لأنّ الأمَّ إذا كانت متملَّكةً تبعها الولد فى الرِّقّ ، فيحصُل الرِّقّ والهُجْنةُ معاً ، ومتى كانت الأمُّ حُرَّةً لم يَتْبِع الولدُ أباه فى الرِّقّ وإن كان عبداً مملوكا ، ولكنه يكون هجيناً غيرَ عرقٍ خالِص .

٥٢٩

آخر[2] :

١ ـ وفى الجِيرَةِ الغادِينَ مِن بطْنِ وَجْرَةٍ غزالٌ كَحِيلُ المُقْلَتَيْنِ رَبِيبُ[3]

(١) ل : « أرعى له » .
(٢) هو بعض الأعراب ، كما فى معجم البلدان (٨ : ٤٠١) .
(٣) ياقوت : « أحم المقلتين » . وبطن وجرة : منزل لأهل البصرة إلى مكة ، بينه وبين مكة مرحلتان .

٢ — فلا تَحْسِبِي أنَّ الغريبَ الذى نَأَى ولكنَّ مَن تَنْأَيْنَ عنهُ غريبُ

كان شَغْبًا الشاعر وصديقته مجتمِعَين ببطن وَجْرةَ زمانًا ، فوقعت الأُلفة بينهما ثم افترقوا ، فقال متأسِّفًا فى إثرِها ، ومتلهِّفًا لما فاته من الاجتماع بينهما : وفى الخلطاء الباكرين من هذا المكان امرأةٌ كأنها غزالٌ مكحَّل العينين مُرَبَّبٌ فى البيوت ، منعمٌ بالاقتناء ، ملَكَ قلبى . ثم قال مخاطبًا لها : لا تظُنِّى أنّ الغريبَ مَن بَعُد عن سَكَنه ، ونأى عن إلفه ووطنِه ، ولكنّ الغريبَ هو من تبعُدين عنه وفى يدِكِ قيادُه ، فملّى البُعْد تَجْذِبينه ، ومِن مرادِه تمنعينه ، وقد ضاق عنه مكانُه حتى صار فيه كمن نأى عن أهله ، وحصل فى غير أرضِه[١] ومنزله .

٥٣٠

وقال آخر :

١ — بنفسِى وأهلِى مَنْ إذا عَرَّضوا له ببَعْضِ الأذَى لم يَدْرِ كيفَ يُجيبُ[٢]

٢ — ولم يَعتذِرْ عُذْرَ البَرِىءِ ولم تَزَلْ به سَكْتَةٌ حَتَّى يقالَ مُرِيبُ

تعلَّقَ الباء من قوله « بنفسى » بفعلٍ مضمَر ، كأنَّه قال : أفْدِى بنفسى وعشيرتى إنسانًا — ويعنى به محبوبَه — إذا اجتمَعَ عليه اللُّوَّام ، وتصرَّفوا فى فُنون الغضِّ منه والعَتْبِ عليه ، فآذَوْا قلبَه وضيَّقوا صدرَه ، ارتبَكَ فى الجواب وحار ، ولم يدر لغَرَارته بماذا يُجيب ، ولسوء اهتدائه بوجوه الحِيَل كيف يتخلَّص، فلا عُذْرُه عُذْرُ مَن لا جنايةَ له ، ولا سكوتُه سكوتُ مَن لا احتفالَ بهم

(١) هذا ما فى ل ، وفى الأصل : « أهله » .

(٢) عرضوا ، بالتشديد ، هو ضبط الأصل والتبريزى . وفى ل : « عرضوا » بتخفيف الراء .

معه، فهو فى إطراقه وخُفُوته[1] إذا قضيّتهم نفذت فيه بأنّه مُرِيب، مرتكِب، ولما رُمِىَ به مُكتسِب، استدلالاً بسكوته على الذّنب، وبإمساكه عن إقامة المعاذير على صحّة القرْف.

٥٣١

وقال آخر :

١ — أرَى كُلَّ أرضٍ دَمّنَتْها، وإن مَضَتْ لها حِجَجٌ، يَزْدادُ طِيباً تُرابُها

٢ — ألَمْ تَعْلَمَنْ يارَبِّ أنْ رُبَّ دَعْوَةٍ دَعَوْتُكَ فيها مُخْلِصاً لو أجابُها

يقول: أرَى كلَّ مكانٍ أقامَتْ فيه هذه المرأةُ زَمَناً فأثّرتْ فيه أثراً يزداد على استمرار السِّنين والأحقابِ تُرابُهُ طِيباً، وإن لم يكنْ لإقامتها أوانٌ ممتدٌّ وزمانٌ متّصل، فقولُه «يزدادُ» فى موضع المفعول الثّانى لأرى. ودمّنَتْها: فعلٌ مبنىٌّ من الدِّمْنة: أثر الدّار وما سُوِّد بالرَّماد وغيره، فكأنَّ معنى دَمّنَتْها أثّرَت فيها بالإقامة. وانتَصَب «طيباً» على التّمييز، وقد نُقِل الفعل عنهُ لأنَّ الأصل يزداد طيبُ ترابها، فجُعِل الفعلُ للتُّراب فأشبه «طيباً» المفعول. وعلى هذا: قَرِرْت به عَيْناً.

فإن قيل: هل فى هذا دَلالةٌ على صحّةِ قولِ المُخالِفِ لسيبويهِ فى جواز تقديم التّمييز إذا كان العامل فيه فِعْلاً، وهل يُفصَل بين هذا البيتِ وبين ما استدلُّوا به من قول الآخَر[2]:

* وما كان نَفْساً بالفِراق تَطِيبُ[3] *

---

(١) هذا ما فى ل. والخفوت: سكون الصوت. وفى الأصل: «وحتوقه» تحريف.

(٢) هو المخبل السعدى، أو أعشى همدان. شواهد العينى (٣ : ٢٣٥).

(٣) صدره: * أتهجر ليلى للفراق حبيبها *

قلتَ : لا دَلالة في هذا الذى نحنُ فيه وإن كان البيتُ الذى أوردتَه أمكَنَ التَّعلُّق به ، حتّى ذكَر أصحابُ سيبويه أنّ الرِّواية على غيره ، وهو :

* وما كان نفسِى بالفِراق تَطِيبُ *

وذلك أن « طِيباً » لم يُقَدَّم على العامل وهو الفعل ، وإنَّما قُدِّم على ماصار فاعلا ، وإذا كان كذلك لم يصحَّ الاحتجاج به له ، لأنَّ الوضعَ المختلَفَ فيه هو جوازُ تقدُّمِه على العامل فيه وامتناعُه منه لا غير ، فأمَّا مادام واقعاً بعد الفعل فلا مُستدَلّ به على موضع الخلاف .

وقوله « ألم تعلمَنْ يا رَبِّ أن رُبَّ دَعْوَةٍ » ، أنْ مخفّفة من أنَّ الثَّقيلة ، والتقدير: أنّه ربَّ دعوةٍ. وفى رُبَّ لغات : إحداها التَّخفيف[1]. وكأنه يتضرَّع فى هذا الكلام إلى خالقِه ومَن يستغيث به فيما يُقاسيه ، ويقرِّر فى الدُّعاء عليه أنّه قد ضمِنَ الاستجابة فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فقال : إنّك تعلم يارب أنّى قد أخلصت دُعاءك فى أوقاتٍ كثيرة لطَلِبَتِى لو اقترنَ بالدُّعاء إجابةٌ وإسعاف ، وضَمانُك الأصحُّ الأوفَى ، فاستَجِبْ . وفيه أيضاً ما يَجرِى مَجرى الاستزادة إذا توجَّه إلى غيره تعالى . وانتصب « مخلصاً » على الحال . وقوله « لو أُجابُها » يريدُ به لو أُجابُ فيها .

٣ — وأُقسِمُ لوْ أنِّى أرَى نَسَباً لَهَا ذِئابَ الفَلاَ حُبَّتْ إلىَّ ذئابُها

٤ — لَعَمْرُ أبى لَيلَى لَئِنْ هى أصبحَتْ بِوَادِى القُرَى ماضَرَّ غَيرى اغترابُها

قوله « أقسم » جملةٌ تنوب عن اليمين ، والجواب « حُبَّت إلىَّ ذئابها » متعلِّقا بالشَّرط المذكور ، وهو أن تكون مناسبة . وجواب لو هو ماصار جواباً

(١) فى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف ، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها ، فهذه اثنتا عشرة ، والضم والفتح مع إسكان البــاء ، وضم الحرفين مع التشديد ، ومع التخفيف ، فهذه أربعة أخرى ، تكون كلها ست عشرة لغة .

اليمين ، وكذا يقع الشَّرط والجزاء بعدها . تقول: والله لئن جئتَنى لأكرمنَّك
ويُروَى : « حَبُتْ » بفتح الحاء والأصل حَبُبَت ، وفَعُل فى المضعَّف قليل .
ويروى « حُبَّت » بضم الحاء ، وهو بناء لما لم يُسَمَّ فاعله . ويقال : حَبَبْتُه فهو
محبوب ، لغة فى أحبَبْتُه .

وقوله « لَعَمْرُ أبى ليلَى » إقسامه بأبيها تعظيمٌ لها ، وتنبيهٌ على محلِّه من
قلبه ، وأنَّه منصبٌ إلى مَن يجمعه وإيّاها عُلْقَةٌ وإن ضَعُفت ، فكيف أبوها
والمختصُّ بها . وفى هذا زيادةٌ على ما قاله الآخَر [1] ، وهو :

ومِن بيِّناتِ الحبِّ أنْ كان أهلُها أحبَّ إلى قلبِى وعينِى مِن أهلِى [2]

واللام من « لئن » موطِّئة للقَسَم ، وجواب القَسَم ما ضَرَّ ، والمعنى :
إنْ عادتْ هذه المرأةُ إلى موضِعِها من وادى القُرَى لم يضُرَّ غيرى البُعدُ منها ،
والاغترابُ عنها . وقوله « اغترابها » يريد اغترابى عنها ، ويجوز أن يُرِيدَ تباعُدَها

٥٣٢

وقال آخر :

١ — لَعَمْرُكَ ما مِيعادُ عينَيْكَ والبُكَا بِدَارَاءَ إلا أنْ تَهُبَّ جَنُوبُ [3]

٢ — أُعاشِرُ فى دَارَاءَ مَنْ لا أُحِبُّه وبِالرَّمْلِ مَهْجُورٌ إلَىَّ حبيبُ [4]

---

(١) هو الحسين بن مطير . الحماسية ٤٧٣ ص ١٢٥٣ .

(٢) ضبطت نون « عينى » فى ل بالفتح والكسر لتقرأ بالتثنية والإفراد ، مشفوعة بكلمة « معا » تحقيقا للضبطين .

(٣) أنشد ياقوت فى معجم البلدان هذه الأبيات فى رسم (داراء) بعد أن ذكر أن « داراء » من نواحى البحرين . ثم قال : « وهذا موضع استصعب علينا معرفته ، وكثر تفتيشنا إياه ، وظنه شارحو الحماسة دارا التى ببلاد الجزيرة ، فغلطوا ، حتى وجده الوزير الصاحب الأكرم جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى ، أطال الله بقاءه ، بخط أبى عبد الله المرزبانى فيما كتبه عن الحسن بن عليل العنزى ، فأفادناه » .

(٤) ياقوت : « من لا أوده » . وستأتى هذه الرواية فى الشرح .

٣– إذا هَبَّ عُلْوِىُّ الرِّياحِ وَجَدْتُنِي كأنِّى لِعُلْوِىِّ الرِّياحِ نَسِيبُ

يقول : وبَقاؤكَ ما الموعدُ بين البُكاء وأنت بداراء إلاّ عندَ هُبوب الجنوب ، وإنّما قال هذا لأنَّ الجنوبَ كان مهبُّها مِن أرضِ صاحبته ، فعلى هذا التَّأويل يكون « والبكا » فى موضع الجرِّ عطفاً على عينَيك. ولا يمتنعُ أن يكونَ المرادُ . ما ميعاد عينَيك مع البكا بهذا المكانِ إلاّ إذا هبَّت الجنوب ؛ فيكون مفعولاً معه . وإنّما قال ذلك لأنَّها تُهْدِى إليه أرِيجَتَها[1] ، أو يعتقد أنَّها رسولُها ، فتُجدِّد ذكرها ، وتطرِّى الوجدَ بها ، فيَبكِى شوقاً إليها . وقال الخليل : الميعاد لا يكون إلا وقتاً أو موضعا . وإذا كان كذلك فالميعاد مبتدأ وخبره أن تَهُبَّ ، والمراد وقت هبوبها ، حتَّى يكون الآخِر هو الأوّل ، إلاّ أنه حذَفَ المضاف .

وقوله « أعاشِرُ فى دَاراء مَن لا أودُّه » شَكْوٌ من الدَّهر حين جَمَع بينه فى داراء وبينَ من لا هَوَى له معه ، وفرَّقَ بينه وبين محبوبه بِحمله بالرَّمل .

وقوله « إذا هَبَّ عُلوِىُّ الرِّياح » يريدُ : إذا هبَّت الرِّيح من نحو عاليةِ نَجْد ، فكأنِّى[2] يجمعنى وإيَّاها نسبٌ ، لاهتزازِى لها ، وارتياحِى لهُبوبها ، فأنا أنتظرُها ترقُّبَ المسافرِ وقد دنا موافاتُه .

٥٣٣

آخر[3] :

١ – هَلِ الحبُّ إلاّ زَفْرَةٌ بعد زَفْرَةٍ وَحَرٌّ على الأحشاء ليسَ له بَرْدُ

(١) كذا فى النسختين والتبريزى . والأريجة مثل الأريج : الريح الطيبة ، والجمع الأرائج .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل « وكان » .

(٣) هو عبد الله بن الدمينة . ديوانه ٢٦ .

٣— وفيضُ دُمُوعِ العَينِ يا مَىّ كُلَّمَا بَدَا عَلَمٌ من أرضكمْ لم يكُنْ يَبْدُو[1]

الاستفهام هنا فى معنى النَّفى ، كأنّه حَاجَّتْه صاحبتُه أو إنسانٌ لائمٌ أو غيرُهما ، فيما يدَّعيه من الُحبّ ، فقال رادًّا عليه حِينَ كَذَّبه فى دعواه : ما الحبُّ إلاّ تتَابُعُ الزَّفَرَاتِ تحسُّرا ، والتهابُ تَوَجُّدٍ[2] فى الحشا لا يتعقَّبه ابتراد ، وسيلانُ دَمْعٍ من العَين لا يُرْقِئُه انقطاعٌ ، فى كلِّ وقتٍ ظَهَرَ فى مَرْأى العينِ له جبَلٌ من أعلامِ أرضكمْ لم يكن يَبدو من قَبلُ ، وجميعُ ذلك أعتادُهُ من نفسى ، ويُدرِكُه من يتأمَّلُ حالى ، وتصدِّقه للشاهدةُ منِّى .

٥٣٤

وقال ابنُ مَيَّادَةَ[3] :

١— كأنّ فُؤادِى فى يَدٍ ضَبَثَتْ بهِ مُحَاذَرَةَ أن يَقْضِبَ الحَبْلَ قَاضِبُهْ

٢— وأُشْفِقُ مِن وَشْكِ الفِراقِ وإنَّنى أَظُنُّ لَمَحْمُولٌ عليه فرَاكِبُه

الضَّبْثُ : القَبْضُ على الشَّىء ؛ ومنه ناقَةٌ ضَبُوثٌ ، أى لا يُشَكّ فى سِمَنها إذا ضُبِثَ على سَنامِها . وانتصَب « مُحَاذَرَةَ » لأنّه مفعول له ، وموضع « أن يقضب » نصبٌ من محاذرةً . فيقول : كأنّ قلبى يُعصَر بقبْضِ قابضٍ عليه ، لخوفى من أنْ يَقطع الوصلَ قاطعُه من البَيْن ، ومع ذلك أخافُ من وقوعِه سريعاً لقوّة الأمارات ، وتتابُع المحذِّرات المنذِرات . وإنما قال « أظنُّ لَمحمولٌ

---

(١) فى الديوان : « غروب العين بالدمع كلما » .

(٢) ل : « بوجد » .

(٣) هو الرماح بن أبرد . وميادة أمه وكانت أم ولد ، وهو من بنى مرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان ، وهو شاعر مخضرم من شعراء الدولتين ، وكان ممن مدح المنصور ، ومات فى صدر خلافته . الأغانى (٢ : ٨٥ — ١١٦) والخزانة (١ : ٧٦ — ٧٧) والمؤتلف ١٧٤ والاشتقاق ١٧٥ .

عليه ، والظنُّ بمعنى اليقين ، فهو مِثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ . وقوله «لمحمول عليه» إيذانٌ بأنه ليسَ يقعُ عن اتّفاق معه أو مشاركة في تدبيره . وأظنُّ مفعولُه الأوّل ، والثانى مستدَلٌّ عليه ، لأنَّ المراد ذلك فى ظَنّى أو علِى ، فهو مُلغًى . والقَضْبُ : القَطْع ، ومنه سيفٌ مِقْضَبٌ وقَضَّابٌ . ووشْكُ الفِراق : سُرعة القطيعة . ويقال أوشك هذا أن يكون ، أى أسْرَعَ .

٣ — فو اللهِ ما أدرِى أيَغلِبُنِى الهوَى إذا جَدَّ جِدُّ البَيْنِ أم أنا غالِبُهْ

٤ — فإنْ أستَطِعْ أغلِبْ وإن يَغلِبِ الهوى فمثلُ الذى لاقيتُ يُغلَب صاحِبُهْ

يقول : شارفتُ فِرَاقَ الأحبّة بالدلائل اللائحة ، وأحلف بالله ما أعلمُ من حالى إذا وَقَع ، أأجْزع أم أصبر .

وقوله « إذا جَدَّ جِدُّ البَين» يجوز أن يكون المراد : إذا ازدادَ جِدُّه جِدًّا ، كأنه يَظْهر من جَليَّةِ أمرِه ما يَزُولُ اللَّبْسُ والشُّبهة معه . ويجوز أن يريد : إذا صار هَزْله جِدًّا ، فسمّاه بما يؤول إليه ، كما يقال : خرجَت خوارجُه ، وربعَ رَوْعُه . والمراد أنه التبس عليه إذا باغَتَهُ الفراقُ حالُه معــه ، فلا يَدرِى أىُّ الأمرينِ يَقَع : أيَغلِبُه الهوى فَيسلُبَهُ التجمُّلَ ، ويُلبِسَهُ التهتُّك ، أم يَغلِبُ بدوام مُسْكَتِه وكمال تثبُّتِه الهوَى فيستمرّ حالُ السلامة به . ثم قال كالمتسلّى والمنقاد لخاتمةِ الكائنة : فإن أُطِقْتُ وكان فى مقدورى — إذا اجتهدتُ — غَلَبُ الهوى فهو المراد ؛ وإن جرَى القَدَر بخلافهِ فمثلُ ما أقاسيه يَغلِبُ مُعانيَه ، ويجتذبه إلى ما يكرهه ، وعُذْرُه لائحٌ .

٥٣٥

وقال آخر :

١ ـ فيا أهلَ ليلَى أكثَرَ اللهُ فيكُمُ مِنَ أمثالِها حتّى تَجودُوا بها لِيا[1]

٢ ـ فمَا مَسَّ جَنْبِي الأرضَ إلاَّ ذَكَرْتُها وإلاَّ وَجدتُ رِيحَها فى ثِيابِيا

بنَى الكلامَ على أنَّ عشيرَتَها والمالِكِين أمرَها إنما ضَنُّوا[2] بها لأنها معدومةُ النظير فيهم ، وأقبَلَ يَستعطِفُهم ويدعو لهم بأن يُكثِر اللهُ أمثالَها وأشباهَها فيهم ، حتّى يتركوا المنافسةَ ، وتحتمل قلوبُهم الجُودَ له بها .

وقوله « فما مَسَّ جنبى الأرضَ إلاَّ ذكرتها » يريد : ما اضطجعتُ للمَنامِ خالياً بنفسى إلاَّ امتنَعَ النَّومُ فقام ذِكرُها مَقامَ خيالِها ، ثمَّ صِرتُ من الشَّوقِ والتَّحقِّى أتصوَّرُها معى ، وأجِدُ رائحتَها فى ثيابى . وهذا المعنى هو مخالفٌ لمعنى الأُنْس بالخيال .

٥٣٦

وقال آخر :

١ ـ تقولُ العِدَى لابَارَكَ اللهُ فى العِدَى قَدَ اُقْصرَ عَنْ لَيْلَى ورَثَّتْ وسائلُهْ[3]

٢ ـ ولو أصْبَحَتْ لَيْلَى تَدِبُّ على العَصَا لكانَ هَوَى لَيلَى حديثاً أوائلُهْ

يُروى : « ورائث وسائله » . المراد بالعِدَى الوُشاةُ المُفسدون . وأصل

---

(١) أشير فى حاشية ل إلى رواية أخرى فى نسخة ، وهى « كثر الله فيكم شبهها بلطفه كى تجودوا » .

(٢) فى الأصل : « منوا بها » ، صوابه فى ل .

(٣) التبريزى : « يقول » .

البَرَكة الثَّباتُ مقترنًا بالنَّماء ومنه مَبْرَك الإبل، وبَرَاكاء القتال. ويقال: أَقصرَ عن الشَّيء، إذا كفَّ عنه وهو يقدر عليه؛ وقَصَرَ عَنْه، إذا عَجز؛ وقصَّر، إذا فرَّط. يقول: ادَّعَى الوُشاةُ أَنِّى قد كَفَفت عن ليلى وزَال وَلوعى بها، وأنَّ وسائلى لدَيها قد أَخلقتْ وتقطَّعتْ، فلا بارَكَ اللهُ فيهم فإنَّهم ادَّعَوا باطلا، واختلقوا إفكاً، ومُرادُهم إفسادُ قلبِها علىّ، وصرفُها عن الانطواء على الجميل لى وفىّ. ثمَّ ذكَرَ ما دَلَّ به على بقائه على العَهد، واستمراره فى عِمارة الوُدّ، وعلى بُطلانِ قولِهم فيما صَنَعوه، وبَهْتِهِم وتَمويههم فيما نَسَبوه إليه ووضَعوه، فقال: لو شاختْ ليلى حَتَّى يصير مَشْيُها دبيباً وهى متوكئة على عُكّاز، لكان هواها فى قلبى جديداً أوائلُه، شديداً أركانه وقواعده.

٥٣٧

وقال حَفصُ بنُ عُلَيم [١]:

١ ـ أَقُولُ لحِلْمِى لاتَزَعْنِى عن الصِّبَا ... ولِلشَّيبِ لا تَذْعَرْ عَلَىَّ الغوانيا [٢]

٢ ـ طَلَبْتُ الهَوَى الغَوْرِىَّ حَتَّى بَلَغْتُه ... وسَيَّرْتُ فى نَجْدِيِّهِ ما كَفَانيا

يصف انهماكَه فى البَطالة، وتَماديَه فى الغَواية، والتذاذَه الصِّبا واللَّهوَ والخَسارة فقال: أقولُ لِحلمِى: تباطَأْ عنّى، ولا تعاجلْنى فتكفَّنى عما أهواهُ وقَصَرْتُ شغلى عليه؛ وللشيب: تَراخَ ولا تُبادِر فتَرُوعَ النِّساء وتنفِّر. وهذا الكلامُ وإن كان ظاهرُه تلطُّفا وسؤالًا فإنَّه يَجرى مَجرى التَّمنِّى فى استدامة ما كانَ يشتهيه، ويُوزَعُ به.

وقوله «طلبْتُ الهوى الغَوْرِىَّ» يريد: تفنَّنتُ فى الهوى فأنجدَ بى طَوْراً،

---

(١) التبريزى: «حفص العليمى، من جناب من كلب، ويقال هم قريش كلاب».

(٢) سبق التنبيه على ترتيب هذه الحماسية عند التبريزى فى ص ١٣٢٢.

وغار بى طَوراً ، إلى أن تناهيتُ ، وبلغتُ أقصى الغايات فوقفْت . وموضع «ما» من قوله « ما كفانيا » نصبٌ على المصدر من سَيَّرت ، يريد : سيَّرت فى نجديَّة سيراً كفانيا . ومعنى سَيَّرْتُ أكثرتُ السَّيرَ وكرّرته . والغَواني من النِّساء : اللاتى تَستغنِى بجمالها عن التحلِّى . وقيل : الغانية : التى تستغنى بزَوْجِها عن الرِّجال .

٣ — فيا ربِّ إن لم تَقْضِها لِى فلا تَدَعْ قَذُورَ لهم واقْبِض قَذُورَ كما هيا[1]

٤ — ويا ليتَ أنَّ اللهَ إنْ لم أُلاقِها قَضَى بين كلِّ اثنينِ ألاّ تَلاقَيا

البيت الأول دلَّ به على ضِيقِ صدرِه بحاله ، وشِدّةِ ضَنّه بصاحبته ، فدعا ربَّه أن يَقبِض قذورَ إليه إن لم يقدِّر بينهما مُوافاةً والتحاماً ، ويتوفَّاها بالموت ليأمَنَ أن يملك أمْرَها غيرَه . وهذا يدلُّ على شِدّةِ غَيرةٍ فيه ، ومُضايَقةٍ للنَّاس كافّةً فى شىءٍ يتمنّاه ثم يَقْصُر عنه . فأمَّا قوله « كما هيا » فموضعه من الإعراب نصبٌ على الحال ، وما من قوله « كما » يجوز أن يكون بمعنى الذى ويكون هى خَبَراً لمبتدإ محذوف ، كأنَّه قال : كالذى هُوَ هِيَ . ويجوز أن يكون ما كافَّةً الكاف عن عمل الجرّ ويكون هى فى موضع المبتدإ والخبر محذوف ، والمعنى : اقْبِضها كما هى عليه .

والبيت الثانى وهو « يا ليتَ أنَّ اللهَ إنْ لم أُلاقِها » دلَّ به على حسدٍ شديد منه ، وقِلّة رضاً بمساعَدة القدَر فى شىءٍ يَحرُم المشاركةُ فيه . وقوله « يا ليت » يريد : يا قومِ ليت ، والمنادى محذوف ، والكلام بعده تمَنٍّ فى ألا يَحصُلَ الاجتماعُ بين متحابَّين إن لم يُرْزَقْ مثلَه فى صديقِه . وقوله « ألاّ تلاقيا » أن فيه مخففة من الثّقيلة ، والمعنى أنّه لا نلاقِيَ لنا ، فخبر لا محذوف ، والجملة فى موضع خبر

(١) قذور : اسم صاحبته . والقذور من النساء : التى تتنزه عن الأقذار . وهى أيضاً المتنحية عن الرجال .

أنّ ، والضمير المقدَّر ضمير الأمر والشّأن ، وخبر أنّ الله « قَضَى » وقد حصل في الجملة جوابُ الشرط ، وهو إن لم ألاقها ، وخبرُ ليتَ .

٥٣٨

وقال آخر :

١ـ وقفتُ لِلَيلَى بالملَا بعدَ حِقْبَةٍ بِمَنْزِلةٍ فانهلّتِ العَينُ تَدْمَعُ[1]
٢ـ وأتبَعُ لَيلَى حيثُ سارَتْ وَوَدَّعَتْ وما النَّاسُ إلا آلِفٌ ومُوَدِّعُ
٣ـ كأنَّ زِماماً في الفؤادِ مُعَلَّقاً تَقُودُ بِهِ حَيثُ استمرَّتْ فأتبَعُ

يقول : وقفتُ مِن أجلِ ليلَى ومن أجل مَنازِلها بالمَلا ، بعد زمانٍ مُمتدّ ، ودهرٍ متّصل ، فتجدّد لي من الوَجد ما هيَّج لي بكاء ، وطَرّى لي عُهوداً[2] فإني أَسِيرُ هواها ، وتَبِيعُ البَلْوَى فيها ، فقلبِي معها حيث ظَعَنَت وأقامت . وقوله « وَدَّعَتْ » معناه تَوَدَّعَتْ . ثم قال : « وما النَّاس إلا آلِفٌ ومودِّع » يريد أنّ النّاسَ من بينِ آلِفٍ لها لكونه مسافراً معها ومُرافِقاً لها في طريقها ، أو منصرِفٍ عنها بعد توديعها وتشييعها ، وأنا على خلافِهم كلِّهم ، لأني ملازِمُها في كلّ حالٍ .

وقد كشف عن هذا الغَرَضِ بما بيَّنه في قوله :

كأنّ زِماماً في الفُؤاد مُعَلَّقاً تَقُودُ به حيث استمرّتْ فأتبَعُ

يريد طاعة قلبِه وانقيادَه لها . ومِثْلُ « وَدَّعَتْ » و « مُوَدِّع » يُسَمَّى التَّجنيس الناقص .

(١) الملا : موضع بعينه ، كما ذكر ياقوت .
(٢) في الأصل : « بجهودا » ، صوابه في ل .

٥٣٩

وقال وَرْدٌ الجَعْدِيُّ[١] :

١ — خليلىَّ عُوجَا بارَكَ اللهُ فيكُما   وإن لم تكُنْ هِنْدٌ لأرْضِكُما قَصْدَا

٢ — وقُولا لها ليسَ الضَّلَالُ أجارَنا   ولكنَّنا جُرْنا لِنَلقاكُمُ عَمْدا[٢]

يخاطب خليلَين له متلطِّفاً لهما ، وسائلاً تعويجَهما على ديار هند وإن لم تكن مُسامِتةً لقصدهما ، وأن يبلِّغاها إذا التقَيا معها أنّا تعمَّدْنا زيارتَكِ طلباً لقضاء ذِمامك ، وتجديداً للعهد بك ، ولم يكن العدولُ إليكِ عن ضَلالٍ مَلَكَ قيادَنا ، وصَرَفنا عن وجهِ رشادِنا ، ليقع الاعتدادُ منها بتحرِّينا وفعلنا .

٥٤٠

وقال[٣] :

١ — وما فى الخَلقِ أشقَى مِن مُحِبٍّ   وإنْ وَجَدَ الهوَى حُلْوَ المَذاقِ

٢ — تَرَاه باكياً فى كلِّ حِينٍ   مَخافَةَ فُرْقَةٍ أوْ لاشتياقِ

٣ — فيبكى إن نَأَوْا شَوْقاً إليهم   ويَبْكِى إن دَنَوْا خَوْفَ الفِرَاقِ

٤ — فتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِندَ التَّنائِى   وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِندَ التَّلاقِى

وَفَّى هذه الأبياتَ حقَّ القِسمة ، وأقامَ شَرْطَ المقسُومِ على حَدِّه المألوف من التَّجرِبة . فيقول : ليس فيمن خَلَقَه الله من البَشَر أوفَى شقاء ، وأعظمُ بلاء من

(١) هو ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة : شاعر جاهلى ، وهو الذى قتل شراحيل ابن الأصهب الجعفى ، فى حديث طويل رواه أبو الفرج فى الأغانى (٤ : ١٣٣ — ١٣٤) . وذكر فى الأغانى (١٠ : ١٢٢) أن الأبيات للمرقش الأكبر .

(٢) الأغانى « أجازنا . . . . جزنا » ، بالزاى فيهما .

(٣) التبريزى : « وقال آخر ، قال أبو رياش : هى مولدة » .

الحِبِّ ، وإن استحْلَى ذَواقَ الحبِّ واستلانَ جَسَّه ، إذ كنتَ تجدُه كلَّ وقتٍ متألِّماً من حاله ، ضَجِرًا بعَيْشه ؛ وذلك أنه لا يخلو من إحدى حالتين : إما أن يكون مجتمِعاً مع محبوبه فيخافَ الافتراق ، أو يكونَ بعيداً منه فيكدَّه الاشتياق ، ولا حالةَ ثالثةَ للاجتماع والافتراق ، وهو سَخِينُ العينِ في كلٍّ منهما ، قليلُ التودُّع في عَقِبهما .

وقوله « وإن وجَدَ الهوَى » جواب الشَّرْط منه في قوله « ما في الخَلْقِ أشقَى من مُحب » . وقوله « شوقاً إليهم » انتصَب على أنه مفعول له وكذلك قوله « خوفَ الفِراق » و « مخافةَ فُرقةٍ » . ألاَ تَرَى أنه عطَف عليه « أو لاشتياق » فجعل حرف الجرّ فيه اللام .

٥٤١

وقال ابنُ الطَّثْرِيَّة[1] :

١ — عُقَيْلِيَّةٌ أمَّا مَلاَثُ إزارِهَا ... فدِعْصٌ وَأمَّا خَصْرُها فبَتِيلُ

٢ — تَقَيَّظُ أكنافَ الحِمَى ويُظِلُّها ... بنَعْمانَ من وادِي الأَرَاكِ مَقِيلُ

المَلاَث : الموضع الذي يُدَارُ به الشيء . ويقال : لُثْتُ على رأسي العمامةَ لوثاً . ومنه قوله :

* كانوا مَلاَوِيثَ فاحتاجَ الصَّدِيقُ لهم[2] *

---

(١) هو يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر . والطثرية أمه ، وهي من الطثر ، بالفتح : حي من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » ، وضبطها صاحب القاموس بالتحريك . وكان يزيد جميلا وسيما شريفا متلافا ، توفي سنة ١٢٦ . وكان من شعراء بني أمية مقدما عندهم . الأغاني (٧ : ١٠٤ — ١١٧) وابن سلام ١٥٠ — ١٥٢ وابن خلكان (٢ : ٢٩٥ — ٢٩٩) . ومعجم الأدباء (٧ : ٢٩٩ — ٣٠٠) والشعراء ٣٩٢ — ٣٩٣ وحواشي الحيوان (٦ : ١٣٧) .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في ديوانه ٤٤ واللسان (لوث) . وعجزه :

* فقد البلاد ، إذا ما تمحل ، المطرا *

أى كانوا الذين يُدارُ بهم ، ويُطاف عليهم ، ويُرْجَى خيرُهم . والمراد بالمَلَاث هاهنا العَجُز . وشبَّهها بالدِّعص ، وهو الرَّمل المجتمِع ، لكثرة اللَّحم عليها واكتنازه . والبتيل : الهَضِيم الدَّقيق ، وأصل البَتْل القَطْع ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وتَبَتَّلْ إليهِ تَبْتِيلاً ﴾ . وصَفَ المرأة بالنَّعْمَةِ والنِّعْمَة ، ومطاوَعة الخيرِ لها والسَّعَة ، تقول : هى دقيقة الخَصْر ، قليلة العَجُز ، وهى فى فصول سَنَتِها تنتقِل فى المواضع الطيِّبة المُخْصِبَة ، لا تُكابد ضِيقاً ولا تُعانى جَهْداً . وتَقَيَّظُ بالمكان : أقامَ قيظَه فيه[1] . ونَعمان : وادى الأراك . وأصل تَقَيَّظُ تَتَقَيَّظُ ، لحذف إحدى التاءين .

٣— أليسَ قليلاً نظرَةٌ إن نَظَرتُها ... إليكِ ، وكَلاّ ، ليس مِنْكِ قَليلُ

٤— فياخُلَّةَ النفسِ التى ليسَ دُونَها ... لنا مِنْ أخِلاّءِ الصَّفاءِ خَليلُ

٥— ويا مَن كَتَمْنا حُبَّهُ لم يُطَعْ به ... عَدُوٌّ ولم يُؤْمَنْ عَلَيْه دَخِيلُ

٦— أمَا مِن مكانٍ أشتكى غَرْبَةَ النَّوى ... وخَوفَ العِدَى فيه إليكِ سَبيلُ

قوله « أليس » يقرَّر به فى الواجب الثابت ، وكذلك ألَمْ وألاَ ؛ وذلك أنّ حرف الاستفهام يُضارِع حرف النَّفْى ، ونفى النَّفى إيجاب ، فإذا قال القائل : ألم أحسِنْ إليك ؟ يجب أن يكون قد أحسَنَ ، فتقريرُه به فيما قد وقع وثَبَت . وفى القرآن : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ . فكأنه قال مُدِلاً بما يُقاسيه فيها ، ويتحمَّله مِن أجلها : أليس قليلاً نظرةٌ مِنْكِ إذا حَصَلَتْ لى . ثم استدرَكَ على نفسه راجعاً فيما أطلقه ، وناقضاً لما اعتقدَه ، فقال : « كلاّ » — وهو حرفُ رَدْع ونَفْى — لا قليلَ منكِ . ومثلى هذا قول الآخر :

هَلْ إلى نظرةٍ إليكِ سبيلُ ... فيُرَوَّى الظَّما ويُشْفَى الغَليلُ

إنَّ ما قَلَّ منكِ يكثُر عندى ... وكثيرٌ ممن يُحَبُّ القليلُ

(١) فى النسختين : « فيه » .

فقوله « القليل » مبتدأ ، و « كثير ممن يحب » خَبَرُه .

وقوله « فياخُلّةَ النفس » في هذا الكلام اعتدادٌ في المناداة بما يتوخّاه معها ، فيقول : يا صديقةَ النفس التي تفرّدَت بِمِلْكها واجتذبَتْها من أيدى خُطّابها ففازت بها ، فليس لنا خليلٌ ممن يُصافِي المودّة من دُونها[١] ، ويا مَن سَتَرْنا حُبَّه عن الناس كافّةً ، صيانةً له عن الانتشار والابتذال ، فلم نُطِعْ فيه واشياً فيَفْسُد ذاتُ بيننا ولا مُضَرِّبًا[٢] ، ولم نأمن عليه دخيلَه يُزاحِمُه في حِمَاه فيصير موضعُه مشتَرَكاً ، أمَا عندكِ مَقامٌ لى فيه إليك سبيل أشتكى غُرْبَةَ النَّوَى ، وخَوفَ العِدى . فالمنادى له قوله « أمَا مِن مقامٍ أشتكى » .

٧ — فَدَيْتُكِ أعدائى كثيرٌ وشُقَّتِي بَعِيدٌ وأشْيَاعِى لديكِ قَليلُ

٨ — وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بِعِلَّةٍ فَأَفنيتُ عِلاَّتِي فكيفَ أقُولُ

٩ — فما كلَّ يومٍ لى بأرضِكِ حاجةٌ ولاَ كلَّ يوْمٍ لى إلَيكِ رَسُولُ[٣]

الشُّقَّةُ : بُعْدُ مسيرِ أرضٍ إلى أرض بعيدة ، وإنّما لم يقل بعيدة ، لأنّ فعيلاً كثيراً ما يقع للمؤنّث والمذكّر على حالةٍ واحدة ، حَمْلاً على النَّسب أو على فَعُولٍ . يقول : تفديك نفسى ، في أعدائى بحضرتك وفي الطريق إليك كثرةٌ ، وفي المسير بيني وبينَك بُعْدٌ ومشقة ، وفي النُّصّار لى بحضرتِك قِلّةٌ ، وكنتُ متى جِئْتُك من قَبل ، ولم تبلغ الحالُ منّا هذا المبلغَ ، أُقيم مَعذِرةً وأنصِب لِفعلى عِلّةً . وقد كَثُر ذلك مِنِّى حتّى فَنِيَت المعاذِرُ والعِلَل ، فلا أدرى ماذا أقول ، ومن أين

(١) في الأصل : « من ذونها » ، صوابه في ل .

(٢) التضريب : الإغراء بين القوم .

(٣) بعده عند التبريزى :

صحائفُ عِندِى للعتابِ طَوَيتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ طويلُ

فلا تحمِلِي ذنبى وأنتِ ضعيفةٌ فحملُ دمِى يوم الحسابِ ثقيلُ

أتوصَّل ، بأىّ شىء أتبلَّغ ، وعلى ماذا أعوِّل ، ومع ذلك فالحاجاتُ بأرْضِك لا تكادُ تَعْرِض كلّ يوم فتُذْكَر ، والرُّسل لا توجد فتتقاطر ، فإذا تُؤُمِّلَ حالى فإنّى حبيسٌ على المكاره ، أسيرٌ فى أيدى النّوائب ، ضيِّق المجال والشَّأْوِ فى الزِّيادة ، موفورُ الحظّ من الأسباب الصادّة ، عظيمُ المِحنة فيما اجتمعَ علىَّ من أنواع البَلاء ، وموانِع القَضاء . وقوله « فكيف أقولُ » ، يريد : كيف أقول ما أقوله ، فحذَف المفعول ، ويجوز أن يكون المراد بأقول أتكلَّم ، فيستغنى عن المفعول ، كقول الآخر[1] :

بحاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ فى جَوَابِها فَتُبْلِغَ عُذْرًا والمَقَالَةُ تُعْذِرُ

أى لم تتكلَّمْ فى جوابها .

٥٤٢

وقال آخر :

١ — أبَعْدَ الّذِى قد لَجَّ تَتَّخِذِينَنِى عَدُوًّا وقد جَرَّعْتِنِى السُّمَّ مُنْقَعا

٢ — وشَفَّفْتِ مَن يَبْغِى عَلَىَّ ولم أكُنْ لِأَرْجِعَ مَنْ يَبْغِى عَلَيْكِ مُشَفَّعا

ألف الاستفهام تَطالب الفعل ، وإن كان المراد به هنا التَّقريع[2] والمعنى : أتتّخذينّنى عدوًّا بعد ما لَجَّ من الحُبّ فيكِ والهَوَى ، وغَلَبَ من عِصْيان القلب والأَسَى ، وبعد أن سقيتِنى جُرَع السّمّ المُنقَع ، وأذقتنى مرارة النّقع الجامد ، فوجدتِنى صابراً على الأذَى ، مُنصَبًّا إليك بنوازِع الصِّبا ، لا يُخَلى وِرْدَه وإن حُلِّئَ ، ولا يكدِّر صفاء وُدِّه وإن دُوفِع . والمُنْقَع : المُثبت ، يقال : « أنقعَ له الشّرَّ حتّى يسأم » .

(١) هو عمر بن أبى ربيعة . ديوانه ٢ .
(٢) فى الأصل : « هذا التعريج » ، صوابه فى ل .

وقوله « وشفعت مَن يبغى علىّ » أى رددتِ الباغى علىّ مُشَفَّعا بما جاء له فى معناى وطلبه ، وبقيتُ أنا لا أقبل نُصْحَ النُّصّاحِ ، ولا أصدِّق قولَ الوُشاة ، ولا أُوَجِّى الشَّفيع عنّى مُنجِحًا ، ولا أصْرِف الباغىَ عليكِ مظفّرا .

٣ – فقالت وما هَمّتْ برَجْعِ جوابِنَا   بَلَ أنتَ أبيْتَ الدّهرَ إلا تضرُّعه

٤ – فقلتُ لها ما كُنتُ أوّلَ ذِى هَوًى   تحمّلَ حِمْلاً فادِحًا فتوَجَّعا

يقول : أجابتنى بعد أن كانت فى صورةِ مَن لا يَعبأ بما يُبدأ به فلا يُجيب ، ولا يرِقُّ لمن يشكو إليه فيستجيب : بل أنتَ تأبى إلاَّ ضَراعَةً وتوَجُّعاً ، وانخزالا وتألماً . هذا عادتك والمألوفُ من طرائقك ، فإلى متى هذه الشّكوى ، وأنَّى يكون منّى فى مقابلة عَتْبِكَ المُعْتِبَ؟ فقلتُ فى جوابها : ما أنا بِبِدْعٍ فى الهوَى ، ولست بأوّل مَن حُمِّلَ ما لا يطيقه ، أو ثَقُلَ عليه ما كُلِّفَهُ فتشكّى . والفادِح : المُثقِل . يقال : دينٌ فادِحٌ ، وقد فَدَحَهُ الدَّين . والتضرُّع : التَّصاغُر والتذلُّل . يقال : رجلٌ ضَرَعٌ وضارِعٌ وقومٌ ضَرَع . ويقال : خَدُّه ضارعُ ، وجَنْبُه ضارِعٌ .

٥٤٣

وقال آخر[١] :

١ – أبَى القلبُ إلاّ أمَّ عَمرٍو وحُبَّهَا   عَجُوزاً ومن يُحْبِبْ عَجُوزًا يُفنَّدِ

٢ – كَسَحْقِ اليمانى قد تقادَمَ عَهْدُه   ورُقْعَتُه ما شئتَ فى العينِ واليَدِ[٢]

---

(١) التبريزى : « وهو أبو الأسود الدؤلى » . وهو أبو الأسود ظالم بن عمرو ، الذى ينسب إليه وضع النحو ، شهد مع على بن أبى طالب صفين ، وولى البصرة لابن عباس ، ومات بها وقد أسنّ ، سنة ٩٩ فى الطاعون الجارف . وهو يعد فى الشعراء ، والتابعين ، والمحدثين ، والبخلاء ، والمفاليج ، والنحويين . انظر مصادر ترجمته مسهبة فى الجزء الأول من إنباه الرواة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٣ .

(٢) التبريزى : « وكثوب اليمانى » : وأشار إلى الرواية الأخرى .

انتَصَب « عَجُوزًا » على الحال. والتَّفنيد : التَّوبيخ. والسَّحْقُ : الخَلَقَ من الثِّياب الذي قد انسحق وانجرد، وأضافه إلى اليمانى إضافةَ البعضِ إلى الكلّ. هذا إذا جَعَلْتَ اليمانى البُرْدَ. ولك أن تجعلَه التَّاجرَ صاحب البُرْد، فيكون الإضافةُ إليه. والمعنى : أبَى قلبى إلاَّ هذه المرأةَ وحُبَّه لها فى حالِ تعجيزها، ومَن صَرَفَ وُدَّه إلى العجائز وُبِخ، لـكنَّها فى النِّساء كخَلَق البُرد اليمانى فى الثياب، وقد قَدُمَ عهده، أى معهودُه[1]، وإذا مَسِسْتَه أو نظرتَ إليه وجدتَ رقعته زائدةً على كلِّ رقعة دِقَّةً ومتانَةً، ومنظرَه راجحًا على كلِّ منظرٍ حُسْنًا وجَوْدَةً، وكذلك منظرُ أمِّ عَمْرٍو ومُخْتَبَرُها. وقوله « وحُبَّها » أضاف المصدر إلى المفعول. وقوله « ما شئت » يريد ما شئته، فحذَفَ المفعول من الصِّلة تخفيفًا. وقوله « فى العين » يريدُ فى النَّظر. و « فى اليد » يريد عند اللَّمْس.

٥٤٤

وقال آخر[2] :

١ — هَجَرْتُكِ أيَّامًا بذى الغَمْرِ إنَّنِى ... على هَجْرِ أيامٍ بذى الغَمْرِ نادِمُ[3]

٢ — وإنِّى وذَاكِ الهَجْرَ لو تَعْلَمِينَه ... كعازِبَةٍ عَنْ طِفْلِهَا وهى رَائِمُ

الكلام اعتذارٌ من إخلاله بزيارتها، وهِجرانه لها لعارضٍ عَرَضَ بذى الغَمْر، ثم أظهرَ تندُّمَه على ذلك، وأنَّه مُدَّةَ هَجْرِهِ فى وَجْدِه بها وشفقتِه عليها وتشوُّقه لها، كأمٍّ حِيل بينها وبين طِفْلٍ لها، وهى بعيدةٌ عنه بنفسها، ورِئْمانها — أى عَطْفُها — متوفِّرٌ عليه. قال : وكذلك كنتُ فى انقطاعى بالنَّفس،

(١) ويصح أن يراد بالعهد الزمان.
(٢) هو عبدالله بن الدمينة، المترجم فى ١٢٢٣. وانظر ديوانه ص ١٩.
(٣) فى الديوان : « أيامى ».

وتَوَفُّرِى بالقلب . شَبَّهَ نَفْسَهُ بالعازِبة ، وللهجورةَ بالطِّفل .

فإنْ قيل : إنّما قال : وإنِّى وذاكِ الهجرَ ، فيقتضى كلامُه أن يكون التَّشبيه متناوِلاً لَهُ ولهجره ؟ قلتَ : يجوز أن يريد إنِّى معَ ذاكِ الهجر ، وهذا كما يقال : إن الرِّجال وأعضادَها ، أى مقرونان ؛ وإنَّ النِّساء وأعجازها ، أى مقرونان ، لأنَّ المراد مع أعضادها ومع أعجازها .

ويجوز أن يكون أراد بالهجر المهجور ، لأن المصدر يوصَفُ به ؛ ويجوز أن يكون ذكر الهَجْرَ لَمَّا كان من سَبَبها ، والمراد تلك . وقوله « لو تعلمينه » الضمير منه يعود إلى الهَجْر ، والمراد ما ذكرتُه . والعازبة : البعيدة . ويقال : عزب عنه عَقْلُه . والعازِبُ أيضاً ، الكلأ البعيدُ المطلب .

٥٤٥

وقال آخر :

١ ــ ما أحْدَثَ النَّأْىُ المُفَرِّقُ بيننا ... سُلُوًّا ولا طُولُ اجتماعٍ تقَالِيا

٢ ــ خَلِيلَيَّ إلاَّ تَبْكِيَا لِىَ أسْتَعِنْ ... خَلِيلاً إذا أنفيْتُ دَمْعِى بَكَى لِيا

٣ ــ كأنْ لم يَكُنْ بَيْنٌ إذا كان بَعْدَهُ ... تَلاَقٍ ولكنْ لا إخالُ تَلاَقِيا

قوله «ما أحدَثَ النَّأْىُ» يصف أن الوجد الذى به قد صار غَرامًا ، فلا البُعد منها يُحْدِثُ سُلُوًّا عنها ، ولا الاجتماعُ معها يُوجِبُ مَلاَلاً منها ، لكنه فى الحالتين جميعاً على حَدٍّ واحد من تَبَارِيحِ الهَوَى . ثم أقبل على صاحبين له يُخَالُّهُمَا فطالب منهما إسعادَه فى البكاء ، وأنَّهما متى لم يُسْعِفَا لَهُ بمطلوبِهِ استعان بغيرهما ، حتَّى إذا نَزَف دمعه بَكى له نائبا عنه .

وقوله «كأن لم يكن بَيْنٌ» شَبَّهَ البَيْنَ إذا تعقَّبه المواصلةُ أو الاجتماع

بما لم يكن ، لكنّه زعَمَ أنّه يائسٌ لا يَظُنُّ تَسَهُّلَ التّلاقى بينه وبين محبوبه واقعاً . وقوله « ولا طول اجتماع » ارتفع بفعلٍ مُضْمَر ، كأنه قال : أحدثَ طولُ اجتماع .

وقوله « خليليَّ إلاّ تبكيا لِيَ » تألُّم وتَشَكٍّ من زمانه ، حين لم يكن له مَن يساعده فى شدّةٍ أو رخاء ، ويتحمل عنه ثِقْلاً فى مَسَرّةٍ أو مَضَرّة .

وقوله « كأن لم يَكُنْ » كان هذه هى التّامّة ، والمراد : كأن لم يقَعْ بَيْنٌ . وكأَنْ مخفَّفة من الثّقيلة ، وَقَع على محذوفٍ ، كأنّه قال : كأنّ الأمرَ والشّأن لم يكن بَيْنٌ إذا حصل بعده التقاء . وقوله « لا إخالُ تلاقيا » المفعول الثانى محذوف كأنه قال : لا أحسب تلاقيا بعده . وساغَ ذلك لتقدُّم ذكره ، فهو فى حُكْم الملفوظ به .

٥٤٦

وقال جَمِيل[1]

وقد حارَبَ الفخِذ الّذِين منهم بُثَينة :

١ — تَفَرَّقَ أهلانَا بثَيْنَ فمنهمُ ⠀⠀ فريقٌ أقامَ واستقَلَّ فريقُ

٢ — فلو كنتُ خَوّارًا لقد باحَ مِيسَمِى ⠀⠀ ولكنّنى صُلْبُ القَناةِ عَتِيقُ

٣ — كأنْ لم نحارِبْ يا بُثَيْنَ لَوَ انّها ⠀⠀ تَكَشَّفُ غُمّاها وأنتِ صديقُ

قوله « أهلانا » أراد شعبيهما . وقال الخليل : أهل الرّجل : أخصُّ النّاس به . وأهل البيت : سُكانه . وأهل الإسلام : مَن يدين به . وبُثَيْنَ : نِداء

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ . وانظر قصة الخلاف بين جميل وقوم بثينة فى الأغانى (٧ : ٨٨) .

مفردٌ مرخَّمٌ . وقوله فمنهم فريق أقام ، تفصيل لما أجمله فى تفرّق . وإنما افترقوا حتَّى ارتَحَلَ قومٌ وأقام قومٌ للخلاف الواقع كان بينهما .

وقوله « فلو كنتُ خَوّارًا » تنبيه على كراهته لما حَدَث ، وإظهارٌ أنَّ ميله مع أهل بُثَينة ، فقال : لو كنتُ ضعيف المُسْكَةِ مُنْحَلَّ العُقدة ، لكان مِيسَمى وقد بَخَ ، أى زالت حرارته ، وسكَنَتْ حَمْيَتُه ، بما أقاسيه وأشاهدُهُ حالاً بعد حال ، مِن عوارض الدَّهرِ ونوائبِ الزمانِ ، ولكنَّنى عتيق النَّبْع ، صليب القناة . وهذا مثلٌ ضربَه لإبائه ، وبقائه على طريقةٍ واحدة فى العهد والوفاء . ثمَّ اعتذر بعد ذلك فقال : « كأن لم نُحارب يا بُثَيْن » يريدُ أنَّ جميعَ ما يجرى عليه يخفُّ ويَهونُ إذا بقيَتْ له على مافارقها عليه ، وتعاقَدا له ، حتَّى كأنَّه لم يقع تجاذُبٌ[1] بين الحَيَّيْن ، ولا تحارُبٌ بين الأَهْلَيْن ، إذا انكشفت[2] الغيابَةُ الحاصلة ، وارتفعت الغَمَاية الرَّاكدة ، وتلك باقيةٌ على المصافاة . ويقال : باخت النَّار بَوْخا وبُؤُوخاً ، إذا خَمَدَت . والغُمَّى ، هى الخصْلة المُظلِمة . ولك أن تروى « تكشَّفُ » بالرفع ، يريد تتكشَّفُ ، فحُذفت إحدى التاءين استثقالا لاجتماعهما . وإنَّما عَدَل عن الإدغام إلى الحذف؛ لأنَّه كان يحتاج عند الإدغام لسُكون أوَّلِ الحرفين ، إلى جلب ألفِ الوصل ، وألفُ الوصل لا تدخل على الفعل المضارع . ولك أن تروى « تَكشَّفَ » على أن يكون التاء للماضى . وجواب لو فى قوله كأن لم نحارب ، والواو من « وأنت » واو الحال . وذكَّر « صديق » لأنَّ المراد ذات صداقة ، ولو قال صديقة لجاز . قال :

إذِ النَّاسُ ناسٌ والزمانُ بغِرَّةٍ   وإذْ أمُّ عَمَّارٍ صَدِيقٌ مُسَاعِفُ[3]

(١) فى الأصل : «تجارب» ، صوابه فى ل .

(٢) ل : « تكشفت » .

(٣) يفهم من صنيع اللسان (سعف) أن البيت لأوس بن حجر ، وليس فى ديوانه فى القصيدة التى على هذا الروى ، وانظر نوادر المخطوطات ١ : ١٥٩ .

٥٤٧

وقال آخر :

١ ــ شَيَّبَ أيَّامُ الفِراقِ مَفَارِقي وأَنْشَزْنَ نفسي فوقَ حيثُ تَكُونُ

يقول : أثَّرَتْ أيامُ الفِراقِ فيَّ فأبْدَلتْني بالشَّباب مَشِيباً ، وبالجِدَّةِ والقُوَّةِ خُلُوقَةً ووَهْناً شديداً ، وأزعجَتْ نفسِي من مَقرِّها فارتفعت من مركزها إلى ما فوقها ، فالشَّيب وإن جاء قبلَ حِينِه يُؤذِنُني باقتراب المَهَل ، ونُشوزُ النفس يَبْشُرني[١] بدنُوِّ الأجَل . هذا إلى ما أُعانيه من حوادث الفِراق ، ولَوَاذع الاشتياق . وقوله « فوقَ حيثُ تكون » جعل حيث اسماً وأضاف فوق إليه . وحيثُ في الأمكنة[٢] بمنزلة حين في الأزمنة . ولذلك احتاجَ إلى جملتين . « وتكون » : مستقبَلُ كان التَّامَّة ، ومعناه يَقَعُ ويَحْصُلُ . ويقال للرَّجُل إذا تزحَّف عن مجلسه فارتفع فُوَيقَ[٣] ذلك : نَشَزَ نُشُوزًا ، وأنشزته إنشازا . وقوله « أيَّامُ الفراق مَفَارِقِي » يسمَّى التَّجنيس الناقص . وفَرْقُ الرأس ومَفْرِقُه واحد .

٢ ــ وقد لانَ أيَّامُ اللِّوَى ثُمَّ لم يَكَدْ مِنَ العَيْشِ شيءٌ بعدَهُنَّ يَلِينُ

٣ ــ يَقُولُونَ ما أبلاكَ والمالُ غامِرٌ عليكَ وضَاحِي الجِلد منكَ كَنِينُ[٤]

٤ ــ فقلتُ لهم لا تَعْذُلُونِيَ وانظُرُوا إلى النَّازِعِ المَقْصُورِ كيفَ يكونُ

حمِدَ أيامَهُ باللِّوَى إذْ كانَ فيه اجتماعٌ مع الأحبة ، ومُسَاعَفَةٌ من الأقدار والأقضية . ثم تعقَّب بزَعْمِهِ ما صَعُبَ منها وخَشُنَ ، لما حَدَثَ من البِعادِ فيه

(١) يبشرني ، من البشر ، بمعنى التبشير ، وهذا على التهكم ، كما في قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » . وفي الأصل : « ينشرني » ، وصوابه في ل بهذا الضبط .

(٢) هذا ما في ل . وفي الأصل : « الأماكن » .

(٣) هذا ما في ل . وفي الأصل : « فوق » .

(٤) التبريزي : « غامر لديك » .

فاستنكَرَ ، فلم يَستوفِقْ بعدها شيئاً من الأوقات ، ولا ارتضَى حالاً من الأحوال ، لتعثُّرِ العَيش ، ونَــكَد الفِراق .

وقوله : «يقولون ما أبلاك والمال غامِرٌ» يريد أنَّ النَّاسَ مُتعجِّبون من شأنى وأمرى ، مستنكِرون ما يشاهدون من حُؤُولى وضُمْرى ، فيرجعون بالسُّؤال علىَّ ، ويقولون : ما الذى بَلَّاكَ ، وهَزَلَكَ وأنضاكَ ، وفى مالِكَ وُفُورٌ ، والضَّاحِى من جِلدِك بالكُسوة مَسْتُورٌ ، فلا تَبَذُّلَ للحَرُور اعتراكَ ، ولا إضاقة فى المعاش تَغَشَّاكَ . قال : فأجبتهم بأنِ اصرِفُوا عنّى الشَّغْبَ والمَلَام ، واعتَبِرُوا حالى بالنَّظر إلى البعير الحانِّ إلى وَطَنٍ ، مع أنَّه أغلَظُ ما خَلَقَهُ الله كَبِدًا ، وأثبَتُ على الشدائد نَفْسا وجَلَدا ، كيف يضجّ ، ولو خُلِّىَ كيف يهيم على وجهه وَيندّ . واعلموا أنَّ ما يبلغ به تلك الحالةَ من النِّزاع على ما به من العُجمة والغَباوة ، حقيقٌ بأن يُكَيِّدَ مثلى ما تُوُحِّدْتُ به من التَّمييز والتَّحصيل[١] ، والفرق بين أحْنَاء الأمور وأنحائها .

وقد أخذ أبو تَمَّام هذا المعنى فنقَلَه إلى الدَّار وقد خَلَتْ من السُّكَّان فقال :

إن شئتَ ألا تَرَى صَبْرًا لمُصْطَبِرٍ ... فانظرْ عَلَى أىّ حالٍ أصْبحَ الطَّلَلُ[٢]

٥٤٨

وقال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِىّ[٣] :

١ — أقولُ والرَّكْبُ قَدْ مالَتْ عَمائمُهُمْ ... وقَدْ سَقَى القَومَ كأسَ النَّعْسَةِ السَّهَرُ

---

(١) يقال : توحّده الله بعصمته ، أى عصمه ولم يكله إلى غيره . اللسان (وحد ٤٦٦) .

(٢) ديوان أبى تمام ٢٢٦ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٢١ ص ١٣١٩ التبريزى : «وقال أبو محمد الأعرابى : ليس قوله ياليت أنى بأثوابى لأبى دهبل ، إنما وقع فى ديوانه مع ثلاثة أبيات أخر ، والصحيح أنها لمحمد بن بشير الخارجى ؛ وهذا البيت لايكاد يعرف معناه البتة إلا بالأبيات التى تتقدمه ، وهى :
=

٢ – يا لَيْتَ أنِّي بِأثوابي ورَاحِلَتِي عَبْدٌ لأَهْلِكِ هذا الشَّهْرَ مُؤْتَجَرُ

أول البيت الثاني ، وهو « يا ليتَ أنِّي بأثوابي » في موضع المفعول لأقول . والواو من قوله « والرَّكْبُ » واو الابتداء ، وهو الحال . وقوله « وقد مَالَتْ عمائمهم » يريدُ لغَلَبةِ النوم عليهم ، ومجاهدة السَّير والسرَى فيهم ، ومزاوَلتهم السَّهرَ ، حتّى كأنَّهم سَقَاهُم كؤوس النُّعاس فسَكِروا ، والمعنى أنِّي أقول ، على معاناةِ هذه الأحوال : بِوَدِّى أنى مُسْتَعْبَدٌ لأهلِك طُول الشَّهرِ الذى نحن فيه ، مؤتَجَرٌ بكِسوتى وزادى وراحلتى ، لا أكلِّفهم مَؤونة ، ولا أُحمِّلهم مَرزئة ، كلُّ ذلك رغبةً فى التَّقرُّب إليكِ ، والاستسعاد بخدمةِ أهلك ، والفَوز بالتَّعريج على مَحَلِّكِ ومرتَحَلَكِ . وقوله « ياليت » ، المنادَى محذوف ، كأنَّه قال : يا قوم ، يا ليت أنِّى .

٣ – إن كان ذا قدراً يُعطيكِ نافلةً مِنَّا ويَحْرِمُنا ، ما أنْصَفَ القَدَرُ

٤ – جِنِّيَّةٌ أوْ لَهَا جِنٌّ يُعَلِّمُهَا رَمْىَ القُلوبِ بِسَهْمٍ ما لَهُ وَتَرُ[1]

جواب الشَّرط فى قوله « ما أنصف القَدَر » على إرادة الفاء . وقوله « يعطيكِ نافلةً » فى موضع الصِّفة لقَدَرًا . وأشار بـ « ذا » إلى ما بينه وبين محبوبه . والمعنى : إنْ كان ما يُرَى بيننا ويُشاهَدُ قَدَرًا قدَّره الله تعالى ، يُعطيكِ منا ما تَستغنِمينَه وتستفضلينه ، ثمَّ يمنعُنا مثلَ ذلكَ منكِ فلا يُوجِبُه لنا ، فما أعطانا النَّصَفَةَ فى القضيَّة ، ولا سار بالسِّيرة المحمودة[2] فى الحكومة .

= يا أحسن الناس إلا أن نائلها قدما لمن يرتجى معروفها عسر
وإنما دلها سحر تصيد به وإنما قلبها للمشتكى حجر
هل تذكرين ولما أنس عهدكم وقد يدوم لعهد الخلة الذكر
قولى وركبك قد مالت عمائمهم وقد سقاهم بكأس النومة السفر

(١) التبريزى : « بقوس ما لها وتر » ، وهذه الرواية أجود.

(٢) ل : « بالسير المحمودة » .

وقوله « جِنّيَةٌ » يريدُ أنَّ فِعلَها مُبَايِنٌ لفعلِ الإنس، وكذلك شكلُها وحُسنها، فإمّا أنْ تكون من الجنِّ، أولها من الجنِّ من يُعلِّمها افتتانَ العقول، واختبالَ الأفئدةِ في الصُّدور. وقوله « بسهمٍ ماله وَتَرٌ »، يريد سهماً لا يُنْزِعُه الوَتَرُ على القِسِيِّ، بل تهيئته مُقَلُ العُيون، ونَواظر الفُتون، لإصابة حبّات القلوب، وانتظام غِرّات النُّفوس.

٥٤٩

وقال تَوْبَةُ بن المُضَرِّس[١]

١ ــ يقول أُناسٌ لا يَضِيرُكَ نَأْيُها   بَلَى كُلُّ ما شَفَّ النُّفُوسَ يَضِيرُها

٢ ــ أليسَ يَضِيرُ العينَ أن تَرِدَ البُكا   ويُمْنَعَ منها نَوْمُهَا وسُرُورُها[٢]

يقال: ضارَهُ يَضِيرُهُ، في معنى ضرّه يضُرّه. وشَفَّ النفوسَ، أي آذاها وأذابَها. والمعنى: أنَّ النَّاسَ يطلّبون قلبي ويرُومون بمحاجّتهم لي تسليتي، ويقولون إنَّ بُعدَها لا يُورِثك خَبالا، ولا يَكسِبك ضرراً ووبالا، بل يُعقِبك سلوةً، ويُبدِّلك من التأنُّس بالاجتماع معها نَفْرَةً، فأثبتُّ ما نَفَوْه، وأبطلتُ ما أَلْقَوه[٣]، وقلت: بَلَى كلُّ ما يُذيب النَّفسَ ويَهزِلُها، ويسلبُها القرارَ ويُقلقُها، فهو عائدٌ بأكلِ الضَّررِ عليها، ثمَّ رَددتُهم إلى الشَّاهد مستدلاً بها،

(١) عند التبريزى: « توبة بن الحمير »، وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٥١٣ ص ١٣١١. وأما توبة بن المضرس فهو توبة بن المضرس بن عبد الله بن عباد بن محرث بن سعد بن حزام بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم، شاعر محسن، قتل أخواه فجزع عليهما جزعاً شديداً، وكان لايزال يبكيهما، فطلب إليه الأحنف بن قيس أن يكف، فأبى؛ فسماه « الخنّوت »، وهو الذى يمنعه الغيظ أو البكاء من الكلام. المؤتلف ٦٨ ــ ٦٩.

(٢) « ترد » هى رواية الأصل. وفى ل والتبريزى: « أن تكثر »، وأشير فى هامشة ل إلى أنها فى نسخة « ترد ».

(٣) هذا ما فى ل؛ وفى الأصل: « ألفوه »، وقد أشير إلى هذه الرواية الأخيرة فى هامشة ل.

فقلتُ: أليس العين إذا أُديم البكاء بها، ومُنِـعَ النومُ وما يُلتَذُّ به من مَسارح اللّهو والسُّرور منها، يضرُّها ذلك؟ كذلك النَّفسُ إذا جُمِـع عليها ما لا تهواه، وفُرِّق بينها وبين ما تلتذُّه وترضاه.

٥٥٠

وقال ابن أبي دُباكِلٍ الخزَاعِيُّ[1]:

١ – يطولُ اليومُ لا أَلْقاكِ فيهِ ... وحَوْلٌ نَلتقِي فيه قَصِيرُ[2]

٢ – وقالوا لا يَضِيرُكَ نَأْىُ شَهْرٍ ... فقلتُ لصاحِبِي فتى يَضِيرُ[3]

يقول: إنّ السَّنة الكاملةَ إذا اتَّصل الالتقاء بيننا فيها، أستقصِرُها وأحرِصُ على الاستزادةِ منها، التذاذاً بها وبُعْدًا من المَلاَل لها، وإنّ اليوم الواحِد إذا حيل بيني وبينك فيه أستطِيلُه تقالياً له، وتفادياً منه، وكراهيةً لامتداده والنَّاسُ يقولون لى: إنَّ الشهرَ لا يَجْلُبُ عليك ضَرَرًا، فقلت لصاحبي: فتى يضير إذاً؟ استبعاداً للأجل المضروب. ويروى: «لصاحبىَ فمن يضير».

والمعنى: إذا لم يَضُرَّنى القَطْعِ عمّا لم أرتوِ منه فمن المضرور إذاً.

---

(١) التبريزى: «دباكل علم مرتجل، وليس منقولا من جنس». وفى القاموس: «وابن أبي دباكل، بالضم: شاعر خزاعى». واسمه سليمان بن أبي دباكل، كما فى الأغانى (٧: ١٩٥ ؛ ١٨/٢٩) شاعر أموى، كان معاصراً للأحوص، وقد صنع قصيدته التى يقول فى أولها:

يا بيت خنساء الذى أتجنب ... ذهب الشباب وحبها لا يذهب

فقال الأحوص فى عروضها:

يا بيت عاتـكة الذى أتعزل ... حذر العدى وبه الفؤاد موكل

(٢) ل: «وشهر نلتقى». التبريزى: «ويوم نلتقى». وقد روى التبريزى هذا البيت بعد تاليه هنا.

(٣) ل والتبريزى: «فمن يضير»، وهما روايتان نص عليها فى الشرح.

٥٥١

وقال عُبَيْد الله بن عَبد الله بن عُتْبَة[١] :

١ ــ شَقَقْتِ القَلْبَ ثم ذَرَرْتِ فيه هَــــوَاكِ فَلِيمَ فالْتَامَ الفُطُورُ[٢]
٢ــ تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سُرُورُ

يصف استحكامَ أمْرِ الهوى وشدَّةَ تسلُّطِه على قلبه وتمكُّنِه من عَقله ، فيقول : شَقَقْتِ قلبي ، وجعلتِ هَوَاكِ ذَرُوراً فيه ، فرسَخ في جوانبه بعد أن دَبَّ في مسامِّه ومَوالِجِه ، ثم جَمَعتِ فُتُوقَه حتى الْتَأَمَتْ شقوقُه ، فتوصَّلَ الهوى معه إلى حيث أعجزَ كلَّ سرورٍ وحزن . والمعنى أنَّ الهوى مَلَكَ مجامع قلبي فاحْتَمَى منه ما كان مُحَرَّماً على غيره . وقوله « لِيمَ » أصله الهمز فأُبْدِلَ من همزته ياء وانكسَرَ اللام لها . والتَّغَلْغُل : التَّوصُّل على مقاساةِ تَعَبٍ وشِدَّةٍ . ولا يُقال لمن تَوَصَّلَ والمذهب سَهلٌ : تَغَلْغَلَ . ويُقالُ : ذَرَّ الشَّيء ، إذا فَرَّقَهُ ؛ وذَرَّ الحبَّ في الأرض . وقوله « التام الفطور » ، أراد الفطور منه ، فحذَف تخفيفاً ، لأنَّ المرادَ معلوم . والفَطْر : الشَّقُّ ، ومنه تفطُّرَ الورق .

---

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي التابعي ، وعم أبيه هو عبد الله ابن مسعود . كان عالما ثقة فقيها ، كبير الحديث والعلم ، شاعراً . قال ابن عبد البر : كان أحد الفقهاء العشرة ثم السبعة الذين يدور عليهم الفتوى ، وكان عالما فاضلا مقدماً في الفقه ، تقياً شاعراً محسناً ، لم يكن بعد الصحابة إلى يومنا فيما علمت فقيه أشعر منه ، ولا شاعر أفقه منه ؛ وكان له زوجة يقال لها « عثمة » فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ، منها هذا الشعر ؛ وأوله عند ثعلب في مجالسه ٢٨٤ :

تغلغــل حب عثمة في فؤادى فباديه مع الخــافى يسير

وانظر الأغانى (٨ : ٩٢) ومجموعة المعانى ١٦٢ . وتوفى عبيد الله سنة ٩٨ . تهذيب التهذيب .

(٢) أنشد التبريزى بين هذا البيت وتاليه البيت الذى ذكر فى الحاشية السابقة ، فهى عنده ثلاثة أبيات .

٥٥٢

وقال ابن مَيَّادَةَ[١] :

١ — وما أنسَ مِلْ أشياءِ لا أنسَ قولَها ... وأدْمُعُها يُذرِينَ حَشْوَ المَكاحِلِ

٢ — تَمَتَّعْ بِذَا اليَوْمِ القَصِيرِ فإنَّهُ ... رَهِينٌ بأيَّامِ الشُّهُورِ الأطَاوِلِ

انجزم « أنسَ » بما ، وما موضعه نصب على المفعول من أنسَ . والمعنى : إن أنسَ شيئاً من الأشياء لا أنسَ قولها . فلا أنسَ انجزَمَ على أنّه جَوابُ الشَّرط وقوله « مِلْ أشْيَاءِ » أصله من الأشياء ، وجعل الحذْف بَدَلاً من الإدغام لَمَّا تعذَّر إتيانه فى المتقاربين ، وقد مرّ مثلُه[٢] مستقصى . وقوله « يُذرِين » يريد يُسْقِطن حَشْوَ المكاحِلِ . أراد أنها كَحْلَاء ، فكأن الدَّمعَ حين ذَرَفَ صَحِبه الكحل .

وقوله « تمتَّعْ بذا اليومِ القصير » موضعُه من الإعراب نصبٌ على أنَّه مفعولٌ من قولها ، أى لا أنسَ قولها ، وقد شافَهَتْهُ الفِراق من يوم التوديع والتَّشييع وهى تبكى : تمتَّع بيومِكَ القصير[٣] لكونه يومَ اجتماع ، فإنَّه مرتَهَنٌ[٤] من الشُّهور الطَّويلة ، لكونها أيامَ التَّباين ؛ أى مثل هذا اليوم لا يُفَكُّ من الارتهان ، ولا يَحصُل إلاَّ بعد تَقَضِّى تلك الأيام المستطالة .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٣٤ ص ١٣٣٢ .

(٢) ل : « ذكره » .

(٣) ل : « بذا اليوم القصير » ، وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة : « بيومك القصير » .

(٤) ل : « رهين » ، وأشير فى هامشها إلى الرواية الأخرى .

٥٥٣

وقال محمد بن بَشِير[1] :

١ — بَيْضَاء آنِسَةُ الحديثِ كأنّها قَمَرٌ تَوَسَّطَ جِنْحَ لَيْلٍ مُبْرِدِ
٢ — مَوْسُومَةٌ بالحُسْنِ ذاتُ حَوَاسِدٍ إنّ الحِسَانَ مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ
٣ — وتَرَى مَدَامِعَها تُرَقْرِقُ مُقْلَةً سوداء تَرْغَبُ عن سَواد الإثْمِدِ

وصفَ المرأةَ بإشراق اللّون . ومعنى « آنِسة » ذاتُ أُنْس، لأنّ الحديثَ يُؤنِسُ ولا يَأنَسُ ، كقولهم : همٌّ نَاصِبٌ ، والمراد مُنْصِبٌ . ثمّ شبّهها بقمرٍ توسّط السّماء فيما جَنَح مِن ليلٍ كان فيه غَيْمٌ وبرد . والقمَرُ إذا خَرَجَ من خَلَلِ الغَمام فى ليلةٍ مَطيرة كانَ أضوأَ وأحسَن . ويجوز أن يكون قوله « لَيْل مُبْرِد » يُرَادُ به ليلٌ ذو بَرْدٍ أو بَرَدٍ ، ويكون من باب أشْمَلْنا ، أى دخلنا فى الشّمال ، وأشْتَيْنا ، أى دخلنا فى الشّتاء . ويُقال : بُرِدَت الأرضُ ، إذا مُطِرت البَرَدَ ، فهى مبرودةٌ . وأبْرَدْنا ، أى دخلنا فى البَرَدِ أو البَرْد ، وكذلك قوله شُمِلْنَا : أصابتنا ريح الشّمال ، وأشْمَلْنا : دخلنا فى الشّمال . وقال الخليل : يقال أبْرَدَ القومُ ، إذا صارُوا فى وقت القُرِّ فى آخر النهار . والأبْرَدان : طرَفَا النّهار . وقال الشّاعر[2] :

إذا الأَرْطَى تَوَسَّدَ أبْرَدَيْهِ خُدُودُ جَوَازِئٍ بالرَّمْلِ عِينِ

يصف بقرةً وحشيّةً بأنّها تتوسّدُ غصُون الأرْطَى التى تَلِى الغَرْبَ بالغَداة .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٢٦٩ ص ٨٠٨ . وعند التبريزى : « وقال آخر » . وقد نسب الشعر إلى محمد بن بشير أيضاً فى الأغانى (١٤ : ١٤٧ – ١٤٨) ، ونسبه فى الأغانى (٢ : ١١) إلى مجنون ليلى .

(٢) هو الشماخ بن ضرار . ديوانه ٩٤ واللسان (جزأ) .

فإذا دارت الشمس دارت معها إلى ناحية الشَّرق، فتوسَّدت الغصونَ التى مالت الشَّمسُ عنها.

وقوله «موسومةٌ بالحسن» يريد أنه جُعِلَ سِيماها الحسنَ، فهى ممسوحةٌ به موسومةٌ. وأصل السِّمَة العلامة، ومنه السِّيَما. ومعنى «ذات حواسِدِ» أى مَن يراها مِن النَّاس يحسُدها، لأنّ الحِسَان مَعْلَمٌ للحُسَّدِ. وهكذا كما يُقال: إنّ الحسد يتبع النِّعَم.

وقوله «وترى مدامعَها ترقرقُ مُقْلَةً» فالمدامع مَسَايل الدَّمع من القبائل فى الرَّأس. ومعنى «ترقرقُ مقلةً» أى ترقرقُ الدَّمعَ فى مقلةٍ. والرَّقراق: الدَّمع الذى يترقرق فى العين ولا يسيل. قال:

* أو الدُّرِّ رَقْرَاقُهُ الْمُنْحَدِرْ[1] *

والمعنى أنّها كَحْلاء، وأنّ الدَّمع يتجمّع فى مُقْلَةٍ لها مُستغنِيَةٍ عن سَوادِ الكحل، لكَحَلِها.

٥٥٤

وقال آخر[2]:

١ـ صَفْرَاءُ من بَقَرِ الْجِوَاءِ كأنّما ... تَرَكَ الحَيَاءُ بها رُدَاعَ سَقِيمِ

٢ـ مِنْ مُخْذِيَاتِ أخِي الهَوَى جُرَعَ الأسَى ... بدَلالِ غانِيَةٍ ومُقْلَةِ رِيمِ

٣ـ وقَصِيرَةِ الأيّامِ وَدَّ جَلِيسُها ... لَوْ دَامَ مَجْلِسُها بفَقْدِ حَمِيمِ

وصَفها بأنّها دُرِّيَّة اللّون، وأنّ فيها مَشَابِهَ من بَقَر الجِواء، وأنّها حَيِيَّةٌ

(١) لامرىء القيس فى ديوانه ٧. وصدره:

* فأسبل دمعى كفض الجمان *

(٢) هو مجنون ليلى قيس بن معاذ. اللسان (ردع).

قليلة الحركات لنَعمتها ، قليلةُ الكلام لفَرط حيائها ، فكأنّ بها نُكْسَ سَقَمٍ لما أَلِفَتْهُ من الكَسَل . وقال الخليل : الرَّدْع والرُّدَاع : النُّكْس ؛ ورجُلٌ مَردوع . وقيل : الرُّداع : الوجع فى الجسَد . فأما قول الأعشَى :

بيضاء ضَحْوَتَها وصَفرا ء العَشيَّةِ كالعَرَارَهْ

فجعل لها لونَين : بياضاً فى أوّل النهار ، وصُفرةً فى آخره حتى لونها لَوْنُ العَرَار . وإنّما يُريدُ أنّها تَقِيلُ فيمتدُّ النَّومُ بها إلى آخرِ النّهار ، والقائم من نَومِه أبداً يكون متغيِّر اللون . ومثل قوله « تركَ الحياء بها رُدَاعَ سقيمِ » قولُ الآخر[١] :

كأنّ لَهَا فى الأرْضِ نِسْياً تَقُصُّهُ على أمِّهَا وإن تُكَلِّمْك تبلَتِ

وقوله « مِن مُحْذِياتِ أخِي الهوى » يريدُ أنها من النساء اللاتى تَسقِى الشُّبّانَ وأربابَ الهوى جُرَعَ الأسى ، يريد أنها تَفتِنهم بمحاسنها ، ثم لا تُنيلهم شيئا ، وهى الحُذْيَا والحِذْوَةَ . والأسى : الحُزْن .

وقوله « بدَلالِ غانيةٍ » تعلق الباء منه بمُحْذِياتٍ . والغانية : التى تَستغنى بجَمالها عن الحُلِيّ . والرِيمُ : الظبيُ الخالص البَياض . والمدى أنها تفتنه بعينِها وكلامِها وغُنْجِها .

وقوله « وقَصيرةِ الأيام » يريد أنها لا تُمَلّ ، فالأيامِ فى مُلازَمتها قصيرة ، حتى أنّ مُجالِسَها يودُّ أن يدوم مجلسها له وإنْ فقَدَ أقاربه . والقَصدُ إلى أنها طيِّبة الحديث ، مُؤانِسة المجلس ، مُصَرِّفة المُلازم فى أصنافِ اللَّلاذِّ حتى يَنسَى كلَّ شيء غيرَها ، ويَتشَمّ جميعَ المَناظر سِواها .

وقوله « بفَقْدِ حميمٍ » الباء فيه يُفيد معنى العِوَض ، فهو كما يقال : هذا لك بكذا ، أى عِوَضاً منه .

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات ١٠٩ .

٥٥٥

وقال آخر :

١ ـ ونارٍ كسَحْرِ العَوْدِ يرْفَعُ ضَوْءَها   مَعَ اللَّيلِ هَبَّاتُ الرِّياحِ الصَّوَارِدُ[١]

٢ ـ أصُدُّ بأيدِى العِيسِ عن قَصْدِ أهلِها   وقَلبى إليها بالمَوَدَّةِ قاصِدُ

شبَّه النارَ فى حُمْرتها وتَصاعُدِها بسَحْرِ العَود . والسَّحْر : الرِّئَةُ وما تعلَّق بالحُلقوم . ويقال لمن نزَتْ به البِطْنة : انتفخ سَحْرُه ؛ كما يقال : عدا طَوْرَه . وأكثرُ ما يقال ذلك لمن جَبُن عن شىء . والعَوْد : الجمَل المُسِنّ ؛ وقد عوَّدَ ، أى تَيَّبَ ، والجميع العِوَدَةُ ، وفى لغةٍ : العِيَدَةُ . ويستعمل العَوْد فى السُّؤْدَدُ القديم ، والطريق العادىّ .

وقوله « يرفع ضوءها » يريد أنَّ هَبَّاتِ الرياح الباردة تُهيِّجها ، فكأنها ترفَع من ضوئها فى ظَلام الليل ومعَه . والصَّوارد : البوارد ، وهى من صفة الهبّات .

وقوله « أصُدُّ بأيدى العِيس » جواب رُبَّ .

ويشبه البيتَ الثانىَ قولُ الآخَرِ[٢] :

يا بيتَ عاتِكةَ الذى أتعزَّلُ   حَذَرَ العِدَى وبهِ الفؤادُ مُوَكَّلُ

ومثل البيت الأوّل قولُه :

تَنوَّرْتُها مِن أذرِعاتٍ وأهلُها   بيَثْرِبَ أدنَى دارِها نَظَرٌ عالِ[٣]

---

(١) التبريزى : « ترفع ضوءها » . وانظر الحيوان (٥ : ٦٣) وكتاب الزهرة للأصفهانى ٢٣٥ .

(٢) هو الأحوص بن محمد الأنصارى . الأغانى (١٨ : ١٧٥ ، ١٩٦) ، وذكر أبو الفرج أنه عارض بقصيدته قصيدة سليمان بن أبى دباكل وسطا عليها ، ومطلع قصيدة سليمان :

يا بيت خنساء الذى أتجنب   ذهب الشباب وحبها لا يذهب

(٣) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ٥٦ .

وهذا منهم على التشوُّق والتحنِّي. ألاَ إنهم كانوا يتعلَّلون بما كان مِن نحوِ أرضِ الحبيب .

٥٥٦

وقال الحُسَين بن مُطَيْر[1] :

١ ــ وكنتُ أذودُ العَينَ أن تَرِدَ البُكا   فقد وَرَدَتْ ما كنتُ عنهُ أذودُها

٢ ــ خَليليَّ ما بالعَيْشِ عَتْبٌ لوَ انَّنا   وَجَدْنا لِأيَّامِ الحَِمى مَن يُعيدُها

يقول : كنتُ أُصبِّر النفسَ فيما رَكِبَها وثَقُل عليها من الوَجْد ، وأحبِسُ العينَ مما ترومُه من البُكاء ، فقد عِيلَ الصبر ، وتسلَّط الحزن ، وغَلَب البكاء ، فقد وردَت عيني الموردَ الذي كنتُ أحلئُها منه ، وأدفعها عنه .

وقوله « خليـليَّ ما بالعيش عَتْبٌ » رواه بعضهم : « ما بالعيش عَيْبٌ » ، وذِكر العَتْب أحسن هاهنا . والمراد أنَّه لا معتَبَةَ على العَيش ، لأنَّ صفاءه بأن تتَّصل له أيَّامٌ كأيَّام الحَِمى ، فلو وجَدْنا مَن يعيدُ أمثالها فساعد فيها قُرْبُ المَزار ، وإمكانُ الوِصال ، لطاب وصَفَا كما كان من قبل فلا ذَنْبَ للعَيْش ، إنما الذنب لما يكدِّره ويَشْحَنُه بالمكاره .

٥٥٧

وقال آخر[2] :

١ ــ ولِي نظرةٌ بَعْدَ الصُّدُودِ مِن الجَوَى   كنَظْرَةِ ثَكْلَى قد أُصيبَ وليدُها

٢ ــ هَلِ اللهُ عافٍ عن ذنوبٍ تَسَلَّفَتْ   أوِ اللهُ إن لم يَعْفُ عنها مُعِيدُها[3]

(١) سبقت ترجمته في الحماسة ٣١٩ ص ٩٣٤ .

(٢) كذا في النسختين . أما التبريزي فقد جعل المقطوعتين مقطوعة واحدة .

(٣) التبريزي : « أم الله إن لم يعف عنها يعيدها » .

يقول : قَذِيَتْ عينى بما حصَلَ من صُدود الحبيب ، فلى نظرةٌ بعدَه لِجَوَى القلبِ والجَوْف ، كنظرةِ أمٍّ أُصيبَتْ بوليدِها فثَكِلَته . ثم قال متمنِّيًا : هل يعفو اللهُ عمَّا سلفَ لنا من ذنوبٍ ، أو يعيدُ لنا تسهيلَ أمثالِها والتمكينَ من اقترافِ مُشابِهها إن ضاقَ عفوُه عنها . وهذا كلامُ من حَرِجَ صدرُه بمستقبَلِ أمره ، وامتلأَ قلبُه من التأسُّف فى إثْر مُستدبَرِه .

٥٥٨

وقال سَوَّار بن الْمُضَرِّب [1] :

١ — يا أيُّها القَلْبُ هل تَنهاكَ موعِظةٌ أو يُحْدِثَنْ لكَ طُولُ الدَّهرِ نِسْيانا [2]

٢ — إنى سأَسْتُرُ ما ذو العَقْلِ سائِرُهُ مِن حاجةٍ وأُمِيتُ السِّرَّ كِتْمانا

عتَب على قَلْبه فى عصيانه له ، واطِّراحه مواعظَه ، ووَلُوعِه المستمرِّ على تطاوُل الدَّهر ، وتقادُم الأمر ، وقال : هل ليَّنَ الوعظُ منك أو أحدَثَ مواصلةُ الأيام واستمرارُها نسياناً لك ، فتكفَّ عما يُكرَه منك ، أو تقبَل بعض ما تُدْعَى إليه من رُشْدِكَ .

وقوله « أو يُحْدِثَنْ » زاد النونَ الخفيفة فى المعطوف من غير أن حصَلَ فى المعطوف عليه ، وهو « يَنهاك » مثلُه ؛ وساغ ذلك لأنهم أَلِفوا زيادةَ إحدى النُّونين فيما ليس بواجبٍ من الأفعال . فكأنه قَدَّرَ أن الأوّلَ حصل فيه النونُ فزاد فى الثانية ، لتوهُّم مثلِه فى الأولى ، واستمرار العادةِ بزيادته . وهذا كما عُطِف فى بيت امرىءِ القيس :

---

(١) التبريزى : « المضرب » بالراء المشددة المفتوحة ، وقد مضت ترجمته فى الحماسية ١٨ ص ١٣٠ .

(٢) فى نسخة الأصل : « طول الليل » ، صوابه من ل والتبريزى .

فظَلّ طُهاةُ اللَّحمِ مِن بينِ مُنْضِجٍ صَفيفَ شِوَاءٍ أو قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

قوله أو قديرٍ معجَّلٍ ، وهو مجرور ، على صفيف شِواء وهو منصوب ، لنِيَّتِه حذفَ التنوين ، وجعَلَ الإضافة بدلاً منه فى مُنْضِج .

وقوله « إنى سأستُرُ ما ذو العقل ساترُه » ، وصَفَ نفسَه بحُسْنِ التماسُك فيما يأتيه ، واستعمالِ العقل فى سَتْر ما يجب إخفاؤه من حاجاته ، وضَبْطِه للسِّرِّ ، وقوّة كتمانِه ، حتى يصير السِّرُّ كالميِّت الذى لا أثَرَ له . ويُشِير بذلك كلِّه إلى دَوام وفائه ، واتصال عَهْده ، وكَتْمِ ما يَجرى بينه وبين محبوبه . وانتصَب « كتماناً » لأنه مفعول له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، كأنه قال : كاتماً له .

٣ — وحاجةٍ دُونَ أخرَى قد سَنَحْتُ لها جعَلْتُها لِلَّتى أخفيتُ عُنْوَانَا[1]

٤ — إنِّى كأنِّى أرَى مَن لا حَيَاءَ لَهُ ولاَ أمانَةَ بين الناسِ عُرْيانَا[2]

يريد : رُبَّ حاجةٍ عَرَضْتُ لها وأظهرتُها وفى النفس خِلافُها ، لأنى جعلتُ المُظهَرَ فى التوصُّل به إلى المضمَر كعُنوان الكتاب الذى يَظهَرُ وما ينطوى عليه الكتابُ مستور . يصف نفسَه بالذَّكاء وجَودة الفطنة ، وحُسن التأنِّى ، والاهتداء فيما يرومُه للحِيَل اللطيفة . وكلُّ ذلك لئلاَّ يَقِفُ موقفاً يوجِّه إليه الظنونَ السَّيِّئة ، ويَجلب عليه القالةَ المُنكَرة .

والعُنوان يجوز أن يكون فُعْوَالاً مِن عَنَّ لِىَ الشىء ، إذا اعترَضَ ؛ ويجوز أن يكون فُعْلاَناً من عَنَاه كذا . وفيه لغاتٌ وكلامٌ طويلٌ أتيتُ عليه فى (شَرْح الفصيح) .

(١) التبريزى : « قد سنحت بها » .
(٢) التبريزى : « وسط القوم عريانا » .

وقوله « إنى كأنى أرى مَن لا حياء له » يريدُ : مَن خَلَعَ رِبقَةَ الحياء ، واطَّرَح حِشمةَ الناس ، وعرَّضَ الأمانةَ للضَّياع ، والمُروءة للزَّوال ، فحُكمُهُ حُكمُ مَنْ أظهر عَوْرَته ، وهتك لعائبيه سِتره ، ورَضِىَ بما نِيلَ منه ، وتُحُيِّفَ من عِرْضه ودِينه .

٥٥٩

وقال آخر[1] :

١ – أهَابُكِ إجلالاً وما بِكِ قُدْرَةٌ عَلَىَّ ولكنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبيبُها

٢ – وما هَجَرَتْكِ النَّفسُ أنَّكِ عِندَهَا قَليلٌ ولكنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُها

انتَصَبَ « إجلالا » لأنَّه مفعول له ، جعَله علَّة فى تهيُّبه لها . ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، فيقول : أحتَشِمُك بظَهر العيب ، وأخافُكِ ليس لاقتدارِ سلطانِكِ منك علىّ ، وامتلاكِ لضَرِّى ونفعى فى يديك ، ولكن رَفعاً منك ، وإكباراً لقَدْرِك ، ولأنَّ العَين تمتلىءُ ممَّن تحبُّه استكباراً . واستعظاما ، لأنَّه يَحمَدها . والضمير من « حبيبُها » للعين » ، وإن جَعَلْتَها للمرأة ، أى ما تحبُّه وترضاه يملأ العين ، جاز . والمِلْءُ : القدر الذى يمتلىءُ منه الشَّىء ؛ والمَلْءُ ، بفتح الميم : مصدر مَلأتُ .

وقوله « وما هَجَرَتْكِ النَّفسُ » يريد أنَّ الإخلال بالزِّيارة ؛ والتَّأخُّر عن إقامة العادة ليس لزُهدٍ ولا لاستقلال للحال ، وإزراء بالحق ، ولكنْ قَلَّ حَظِّى منكِ ، ودام إعراضُكِ عنِّى ، فرُمْتُ رِضَاكِ فى البُعد عنك ، وتَرْكَ التَّثاقُل عليك وقوله « مِلْءُ عَيْنٍ » جاز الابتداء به وإن كان نَكِرَةً لحصول الفائدة فى تعليق الخبَر .

(١) هو نصيب : كما فى سمط اللآلئ ٤٠١ .

٥٦٠

وقال ابنُ الدُّمَيْنَة[1] :

١ - ألا لا أرَى وادِى المياهِ يُثِيبُ ... ولا النَّفْسَ عَنْ وَادِى المياه تَطِيبُ[2]

٢ - أُحِبُّ هُبُوطَ الوَادِيَيْنِ وإنَّنِى ... لَمُشْتَهَرٌ بالوادِيَيْنِ غَرِيبُ

قوله « يُثِيبُ » أى يجعَلُ لى ثَوابًا ، ويَقسِم لى لتوفُّرى عليه رِدْءًا ونَفْعا . ويجوز أن يكون من قولهم : بِئْرٌ لها ثائب ، إذا كان ماؤُها ينقطع أحيانًا ثم يعود ؛ فيكون أثابَ بمعنى صار لها ثائبٌ ، كأنَّ الوادىَ كانَ اتَّفقَ فيه مواصَلَةٌ بينَه وبين محبوبِه ثمَّ انقطَع ، فكانَ لا يثُوبُ خَيْرُه . وهذا الذى قُلْناه فى أثابَ ذَكَرَهُ أبو زيد . ويجوز أن يكون ذِكْرُ الوادِى كالكناية عنها ، فيقول : ليست تَسلُو نَفْسى عن وادى المياه وما يتَّصل به وعن أحبَّتِى فيهما ، وأراه لا يُوجِبُ لى مثلَ ما أُوجِبُه ، ولا يَرْضَخُ لى جَزَاءً على ما أتحمّله ، وأنا أُحِبُّ النُّزول بالواديَين والانتعاشَ بزيارتهما ، لكنِّى مُشْتَهَرٌ بهما غريبٌ لا ناصِرَ لى فيهما ، فأحتاجُ أن أُحاذِرَ الرُّقَباء خَوفًا على نفسى ، وتفادِيًا ممَّا يلحَقُ صاحِبى من المكروه والإعنات بِسببى .

٣ - أحقًّا عِبادَ اللهِ أنْ لَسْتُ وارِداً ... ولا صادراً إلاَّ علىَّ رَقِيبُ

٤ - ولا زائراً فَرْداً ولا فى جماعَةٍ ... من الناس إلا قِيلَ أنتَ مُرِيبُ

هذا شَرْحٌ للاشتهار الذى أجملَهُ ، والاغتراب الذى اشتكى منه . وقوله « أحقًّا » فى موضع الظَّرف ، كأنه قال : أفى حَقٍّ . « وأنْ لَسْتُ » أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، وموضعُه بما بعده موضعُ الابتداء ، وأحقًّا فى موضع الخبر . وقوله

---

(١) عبد الله بن الدمينة ، سبقت ترجمته فى الحماسة ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٢) ديوان ابن الدمينة ٧ - ١٤ .

«فَرْداً» انتصَب على الحال، والعامل ما دلَّ عليه «ولا زائراً» من الفعل، فيقول: أى حَقَّ يا عبادَ الله أنِّى لا أرِدُ الوادِيَين، يعنى وادىَ المِياه، وما ذَكَرَه فيما بعد من ذكر الكثيب الفرد، ولا أصدُرُ عنهما إلا وعلىَّ رقيبٌ محافظٌ، يَعُدُّ لحظاتى وأنفاسى، ويتأمل قُصُودى وإراداتى، ولا أزورهما منفرداً ولا فى صحابة إلا وسُلِّطَت علىَّ التُّهم، ونُسِبْتُ فيما أتعاطاه إلىَّ الرِّيَب، حتى ضاق علىَّ المجال، وأظلَمَ لى المَسْرَحُ والمَطَاف.

وقوله «إلاَّ قيل» فى موضع الحال، أى لا أزورهما إلاَّ مَقُولاً فيه ذلك.

وموضع «أنت مريبُ» الجملة رفعٌ على أنه قام مقام فاعل قيل.

٥ — وهل رِيبةٌ فى أن تَحِنَّ نَجِيبةٌ إلَى إلْفِها أو أن يَحِنَّ نَجِيبُ

٦ — وإنَّ الكَثِيبَ الفَرْدَ مِن جانِبِ الحِمَى إلىَّ وإن لم آتِهِ لحبيبُ

قوله «هل رِيبةٌ» لفظه استفهام ومعناه النفى، فيقول: لا رِيبةَ فى حنينِ أحد المتآلفَين الكريمَى العَهد إلى الآخر، ولا استنكارَ فيما تنطوى عليه النفس من الهوى والوُدِّ، ولا محاسبةَ فيما يوجب المتحابّان ويؤثرانه من المُصافاةِ على البعد، وإنَّ موضعَ الحبيب من جانب الحِمَى قلبى مُوَكَّلٌ به وإن لم أزُرْهُ، إذ كان مجانبتى إياه، وتأخُّرى عنه، لإبقائى على الحال بينى وبين مَن أحتشمُه، ولإيثارى صيانتَه من تحدُّث الوُشاة فيه، لا لغيره.

٧ — لَكِ اللهُ إنِّى واصِلٌ ما وَصَلْتِنى ومُثْنٍ بما أولَيتِنِى ومُثِيبُ[1]

٨ — فلا تَتْرُكِى نفسى شَعاعاً فإنَّها مِن الوجدِ قد كادَتْ عليكِ تذوبُ

٩ — وإنِّى لأستحيِيكِ حَتَّى كأنَّما عَلَىَّ بِظَهْرِ الغَيبِ مِنكِ رَقِيبُ

(١) بين هذا البيت وتاليه عند التبريزى:

وآخِذُ ما أعطيتِ عَفواً وإننى لأزْوَرُ عَمَّا تكرهينَ هَيُوبُ

قوله « لكِ اللهُ » يجوز أن يكون دعاء لها، والمعنى: إحسان الله لكِ، وحفظه مشتمِلٌ عليك. ويجوز أن يكون قَسَما، كما يقال أُعطيكَ اللهَ، وجوابه إنى واصلٌ. وكأنه أقسَمَ لها أو دَعا لها بأنه يَبقَى على العهد لها مُدّةَ دوامِ مواصلتها وبقائها على المصافاة والإيثار له، وأنه يوجِبُ مِن إعظامها والثناء عليها، ومكافأتها بالحسنى فيما تُسدى إليه وتُوليه ما ينتفى عنه سِمَةُ التقصير والإقصار. وَوَجهُ الدُّعاء لها استعطافُها وترقيقُ قلبها، ويكونُ كالتشبيب من السائل.

وقوله « فلا تتركى نفسى شَعاعا » فالشَّعاع: المنتشر، وكذلك الشعُّ والفعل منه شَعَّ. ويقال: تطايَرَ القومُ شَعاعًا، أى متفرِّقين. فيقول: احفظِى نفسى عن الانتشار والزَّوال، فإنها شارفَت الذَّوبَ والسَّيَلانَ وَجْدًا بك، وشافهَتِ التَّلَفَ والبَوار شَوْقًا إليكِ. ثم قال: وإنى مستحيٍ منك على البُعد، إعظاماً لكِ، وتهيُّباً منكِ، حتى كأنَّ لكِ رقيباً معى فى كلِّ حال، فأتعفَّف عن المنكَرات، وأتنزَّه عن ذميم المقالات، فكونى لى على ما توجِبُه صورتى، وتقتضيه قصَّتى. ومثل هذا قولُ الآخر[1]:

وإنى لأستحيِى فُطَيْمَةَ طاوِياً ... خَمِيصاً وأستحيِى فُطَيمة طاعِما

وإنى لأستحييكِ والخَرْقُ بيننا ... مخافَةَ أن تَلْقَىْ أخًا لِيَ لائما[2]

٥٦١

وقال آخر:

١ — تَحَمَّلَ أصحابى ولم يَجِدُوا وَجْدِى ... وللناسِ أشجانٌ وَلِى شَجَنٌ وَحْدِى

٢ — أُحِبُّكُمُ ما دُمْتُ حَيًّا فإن أَمُتْ ... فوا كَبِدَا ممن يحِبُّكُمُ بَعْدِى

(١) هو المرقش الأصغر. المفضليات ٢٤٦ طبعة المعارف الثانية.

(٢) فى المفضليات: « صارما ».

الشَّجَن : الحاجة ، والجميع الأشجان والشجون . قال :

* والنَّفسُ شَتَّى شُجُونُها[1] *

وموضع « وَحْدى » نصبٌ على المصدر ، وهو موضوعٌ موضع الإيحاد[2] .
يقول : ارتحلَ أصحابى ولم ينلهم من الوجْد ما نالنى ، وفى نفوس الناس حاجاتٌ وقد أوحَدَتْ نفسى بحاجةٍ إيحاداً . ثم أقبلَ على المحبوب مفسِّرًا لشجَنِه الذى تفرَّد به ، فقال : أحبُّكم مدةَ حياتى ، وإذا مِتُّ فوا كبدَا ممن يلى حبَّكم بَعدى . وهذا تحسُّر فى إثر ما يفوته من الهوَى إذا فارق الدنيا . ويُرْوَى : « مَن ذا يحبُّكم بَعدى » .

وقد عيب الشاعر بهذا فقيل : لم يَرْضَ بأن جعَلَ لها مُحِبًّا حتى صار يتحزَّن له . وقال بعضُ أصحاب المعانى : فى هذا ظُلْمٌ للشاعر ، وذلك أنَّ غرضَه فى التماسه مُحِبًّا لها إشادةُ ذكرها ، وإعلاء قدرِها ، وتشهيرُها عند الناسِ حتى يصيرَ لها الجاهُ عند السلاطين . قال : وكثيرٌ من نِساء العرب طَلَبْنَ التشبيب من الشعراء مع العِفَّة ، كعَزَّةَ ، وليلى ، ومَيَّةَ . والخلفاء بنى أُمَيَّةَ وأقرانِها من الأمَراء معهنَّ محاورات .

ويُرْوَى عن بعض السَّلَف الصالحين[3] أنه حجَّ ، فلما قَضَى نُسُكَه قال لصاحبٍ له : هلمَّ نتمّم حَجَّنا ! ألم تَسْمَع قول ذى الرُّمّة :

تَمامُ الحجِّ أن تقِفَ المَطَايا   على خَرْقاء واضِعَةَ اللِّثامِ

---

(١) وكذا استشهد بهذه القطعة ابن فارس فى المقاييس (شجن) . والبيت بتمامه كما فى اللسان :

ذكرتك حيث استأمن الوحش والتقت   رفاق به والنفس شتى شجونها

(٢) انظر الكلام على « وحده » و « وحدى » بتفصيل فى شرح الأشمونى وحاشية الصبان (باب الحال) .

(٣) هو الضبى ، أو محمد بن الحجاج الأسدى ، أو الحجاج الأسدى . الأغانى (١٦ : ١١٩ ، ٢٠/١٢٠ : ١٤٠ – ١٤١) .

والطريقة فى نُصْرَتِه وتحسينِ قولِهِ ما قدَّمْتُه .

وأشنع من هذا قول الآخر[١] :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإن أَمُتْ أُوَكِّلْ بِدَعْدٍ مَن يَهِيمُ بها بَعْدِى

وقد قيل فى هذا أيضاً : إنه لو قال :

* فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِى خُلَّةٍ بَعْدِى *

لكان صواباً ، سالما مما يهجّنه .

٥٦٢

أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىّ[٢] :

١ ــ رَمَتْهُ أَناةٌ مِنْ رَبِيعةِ عَامِرٍ رَقُودُ الضُّحَى فى مَأْتَمٍ أَىِّ مَأْتَمِ[٣]

٢ ــ فَجَاءَ كَخُوطِ البَانِ لا متتابِعٌ ولكنْ بِسِيمَا ذِى وَقَارٍ ومِيسَمِ

أَناةٌ أصله وَنَاةٌ ، لأنّه من الوَنَى : الفتور والكسل .

والواو المفتوحة لم تُبْدَل منها الهمزة إلاّ فى أحرف قليلة ، وهى «أَناة» فى صفة المرأة الثَّقيلة الناعمة ؛ و «أَحَدٌ» صفةً واسماً للعدد ؛ وماجاء فى الحديث من قولهم[٤] : «أىُّ مَالٍ أُدِّيَتْ زكاتُه فقد ذهبت أَبَلَتُه» ، يُرادُ وبالُه . وقال أبو زيد : الأَبَلَةَ فى الطعام أصله الوَبَلَة . ويقال : «أَجِمْتُ أُجُوماً» فى وجِمْتُ . فهذه الأحرفُ جاءت على ما ترى .

---

(١) هو النمر بن تولب ، كما فى الأغانى (١٩ : ١٥٩ ، ١٦٠) ، قال أبو الفرج : « والناس يروون هذا البيت لنصيب ، وهو خطأ » . انظر أيضاً الأغانى (١١ : ١٨) .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤١٦ ص ١٣١٤ .

(٣) التبريزى : « نؤوم الضحى » .

(٤) هو حديث يحيى بن يعمر ، كما فى اللسان (أبل) .

وقوله « رقود الضُّحى » وصَفها بالتُّرْفة ، وأنّها مَكْفِيَّةُ الخِدْمة ، فهى تَنام القَيلولة . وهذا كما قال امرُؤ القيس :

* نَؤُومُ الضُّحَى لم تَنتطِقْ عن تَفَضُّلِ[1] *

والمأتم : النِّساء يجتمِعْن فى الخَير والشر . يقول : نظرَتْ إلى هذا الرجل امرأةٌ طلعتْ عليه فى جُملةِ نساء ، مُتْرَفَةٌ منعَّمةٌ سميتةٌ ، تنام عن شؤونها أوقاتَ الضُّحى ، لأنَّ لها مَن يكفيها كلَّ ما تهتمُّ له ففتنَتْه ، ثم اقتصَّ كيف نَصبت الحِبالةَ له ، ومن أين وقع فيها حتَّى اصطادته ، فقال : جاء الرَّجُلُ وكأنَّه غُصن بانٍ لحسن شَطاطِه وطَرَاءةِ شابِه ، لا مُتَهافتٌ فى مشيه وتصرُّفه ، ولا خفيفٌ طائشٌ فى ورُوده وصدَره ، ولـكن بعلامةِ ذى سكونٍ ، وميسمٍ ذى صلاح وهُدُوٍ . والتَّتابُع يُوصَف به الحيرانُ والسَّكرانُ إذا رمَى بنفْسه . وتتابعَ البعيرُ فى مِشيته ، إذا حرَّك ألواحَه حتَّى كأنَّه يتفكَّك . والمأتَم أصله من الأَتْم ، وهو أن تلتقى الخُرْزتان فتصيرا واحدة . وموضع « كَخُوطٍ » نَصبٌ على الحال من جاء . والخُوط : الغُصن الناعم لِسَنَةٍ . وقوله «لا متتابع» ارتفعَ لأنَّه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنه قال : لا هو متتابع . وقوله «ولـكن» استدراكٌ بعد نفى ، أى جاء غير متتابع ولـكن بهذه السِّيما .

٣ ــ فَقُلْنَ لَهَا سِرًّا فَدَيْنَاكِ لا يَرُحْ صَحِيحًا وإنْ لم تَقْتُليه فألمِمِى

٤ ــ فألقَتْ قِناعًا دُونَه الشَّمسُ واتَّقَتْ بأحْسنِ مَوصُولَينِ : كَفٍّ ومِعْصَمِ

٥ ــ وقالتْ فلمَّا أفرَغَتْ فى فؤادِهِ وعينَيه مِنْها السِّحْرَ قُلْنَ له قُمِ

قوله « سِرًّا » يجوز أن يكون مصدراً فى موضع الأمر ، كأنه قال سَارِّيه . مُسَارَّةً ، فوضَع السِّرَّ موضع المُسارَّة ، ويكون على هذا قوله « لا يرحْ » جوابَ

(١) صدره : * وتضحى فتيت المسك فوق فراشها *

الأمر الذى دلّ عليه سِرًّا . ويجوز أن يكون سرًّا مصدراً فى موضع الحال ، ويكون لا يَرُح مجزوماً بلا النَّهى . وجَعلَ النَّهىَ فى اللّفظ للرَّجل والمرأةَ هى للنهيَّةُ ، كما يقال : لا أرَينَّكَ هنا . والمعنى : لا تكن هناك فأراك ، والمراد : لا تدَعِيه يروحُ صحيحاً . يقول : قالت النِّساء المحتَفَّةُ بالأناة المذكورة لها : أشيرى إليه فى السِّرِّ إشارةً تَفتِنه ، واعرِضى عليه محاسنك ما يُخبِّل قلبَه بعدَ تعرُّضه لنا فى سَمْته ووَقاره حتَّى لا يروحَ عنَّا صحيحاً ، وإن لم تُبالِغى فى استغوائه وفَتْلِه عن رشادِه ، وإهلاكِه ، فكونى منه على أوفَى محلّ . فائتمرَتْ لهنّ وألقَتْ قِناعًا وراءه الشَّمس ، أى وجْهٌ إشراقه كإشراق الشمس ، فعرضَت وجهَها ثمّ سترتْه فأبدتْ كَفَّها ومِعصَمَها — وهو موضع السوار من يدها — أيضاً ، وتكلَّمَتْ بكلامٍ كالمنكرةِ من نفْسها ما اتَّفقَ عليها ، والمستحيِيَة المتذمِّمة مِن حالِها ، فلمَّا عَلِم النِّساء أنَّها أفرغَتْ فى فؤادِه بالكلام ، وفى عينَيه بالكفِّ والوجهِ السِّحر أى صبّت — قلنَ للشَّابِّ المتعرِّض : قمْ عنَّا فابْك لِماَ نابَكَ[1] وأنت لا تعلم . والسِّحر : إخراجُ الشَّىء فى أحسن مَعارِضه حَتَّى يَفتِن ، لذلك قيل للرَّائق المُعجِب : هو السِّحر الحلال . يقال : سَحَرْتُ الفِضّة ، إذا طلَّيْتَها بالذَّهب .

إن قيل : أين مفعولُ قالت ؟ قلتَ : إنّه هنا فى معنى تكلَّمَتْ ، فاستغنَى عن المفعول ، ومثله قولُ عمرَ بنِ أبى ربيعة :

* لحاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ فى جوابِها[2] *

أى لم تتكلَّمْ .

---

(١) فى النسختين : « فإنك لما بك » . التبريزى : « ويروى : قلن له انعم ، على القلب أى احزن وتوجد من العشق » .

(٢) عجزه : * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر *

٦ — فَوَدَّ بِجَدْعِ الأَنْفِ لوأَنَّ صَحْبَهُ تَنَادَوْا وقَالُوا فى المُنَاخِ لَهُ نَمِ

يقول : انصرَفَ عنهنّ وهو يتمنّى أن جُدِعَ أنفُه فى وقتٍ ما هَمَّ بالخُروج إليهنّ ، ويمنعُه أصحابُه من التعرُّضِ لهنّ ، وقالوا له : نَمْ فى المُنَاخ ولا تبرحْ ، ويجوز أن يكون معناه : وَدَّ أن يتركَه صحبُه ويقولوا له : نَمْ فى المُناخ ولا تَتْبَعْنَا ، وأنَّ أنفَهُ قطِع . والباء من قوله « بجَدْع » هو الذى يُفيد معنى العِوَض . تقول : هذا بذاك ، أى عِوَضٌ من ذاك .

وقوله « تنادَوْا » يجوز أن يكون معناه تجمَّعوا ، من النَّدِىّ وهو المجلس ؛ ويجوز أن يكون من النِّداء ، أى تَدَاعَوْا وقالوا له ذلك .

٥٦٣

وقال آخر [(١)] :

١ — نَظَرْتُ كأنِّى مِن وَرَاءِ زُجاجةٍ إلى الدَّارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبابةِ أَنْظرُ

٢ — فعيناىَ طَوْرًا تَغْرَقانِ مِنَ البُكَا فأَعْشَى وحِينًا تَحْسِرَانِ فأُبْصِرُ

يقول : وقفتُ بدارِ الأحبّةِ فتوهمتُ آياتها ، ثم عرفتُها فتمثّل لى مَن كان بها ، وتَطَرَّى ما كان دار بينى وبينَها ، فاغرَوْرَقَتْ عيناىَ من الدَّمع تحسُّرًا وتوجُّعًا ، وبقيتُ إذا نظرتُ إلى الدّار كأنى أنظرُ مِن وراء زُجاجةٍ فلا أتبيّنُ الآثارَ ، وإذا انهملَتَا بما فيهما عُدْتُ فى صِحّة الإدراك بهما إلى ما كنتُ عليه من قبل . وقد مرَّ القول فى حقيقة النَّظر .

فأمّا « تحسِران » فيجوز أن يكون من قولهم : حَسَرَ البحرُ ، إذا نَضَبَ

(١) ابن جنى فى التنبيه : « وهو أبو حية » . وهـذه النسبة أيضا فى اللآلئ ٢٦٥ وأمالى المرتضى (٢ : ١٠٣) . ونسبت فى زهر الآداب (٤ : ٨٢) إلى المجنون . والبيت الأول قصة فى الأغانى (٢١ : ١٠٣) .

الماء عن ساحله ؛ ويجوز أن يكون من حَسَرْتُ القِناع ، ويكون على هذا مفعولُه محذوفاً . والأوّل أحسن . ومن الثانى قولهم : امرأةٌ حسنةُ المَحاسِر ، كما يقال حسنة المَعارى . وتلخيص البيت الأوّل : كأنّى من فَرط الصَّبابة أنظرُ إلى الدّار من وراء زُجاجة . والطَّوْر : التّارة . ويقال : الناسُ أطوارٌ ، أى على أحوالٍ شتّى .

٥٦٤

وقال آخر[1] :

١ — فَما شَنَّتَا خَرْقَاءَ وَاهِيَةِ الـكُلَى ... سَـقَى بِهِما سَاقٍ فَلَمْ يَتَبَلَّلَا[2]

٢ — بِأَضْيَعَ مِنْ عَيْنَيْكَ لِلدَّمْعِ كُلَّمَا ... تَوَهَّمْتَ رَبْعًا أَوْ تَذَكَّرْتَ مَنْزِلَا

الخرقاء : التى لا رِفقَ لها فى الأعمال ولا بَصيرة . والشَّنّةُ ، أراد بها هنا الدَّلوَ الخَلَق ، وهى السِّقَاء البالى فى الأصل . ويقال : لِقَطَرَانِ الماء من الشَّنّةِ شيئاً بعد شىء : الشَّنِينُ ، ثم يُستعمَل فى الدَّمع . قال :

* يا مَنْ لدمعٍ دائمِ الشَّنِينِ[3] *

ولم يرضَ بأنْ جَعَل الدَّلوَ خَلَقًا حتّى جعلَها لامرأةٍ لا تُحسن عملًا من خَرزٍ وغيره ، فكانت تُصلحها ، ثمّ جعلَ سَقْىَ الإبلِ بها قبل تَهلُّلها وانسداد خُرَزِها وثُقَبها . فيقول : ما دَلْوَانِ هذه صفتُهما بأشدَّ إضاعةً للماء من عينيكَ للدَّمع كلما توهّمتَ دارَ الحبيبِ وهى مأهولة ، أو تذكّرتَ منزلًا من منازلِ سفرِها وهى منتجَعة .

---

(١) هو غيلان ذو الرمة كما فى أمالى القالى (١ : ٢٠٨) وزهر الآداب (٤ : ٨٢) واللسان (١٩ : ١١٦) وملحقات ديوان ذى الرمة ٦٧١ . وانظر مجالس ثعلب ٤١٣ .

(٢) التبريزى : « وما شنتا خرقاء واهيتا الكلى » . ويروى : « ولما تبللا » .

(٣) أنشده فى المقاييس (٣ : ١٧٦) واللسان (شنن) .

وقوله « بأضيعَ مِنْ عَيْنَيْكَ » كان الواجبُ أن يقول : بأشدَّ إضاعةً للدَّمع ، فجاء به على حَذْفِ الزَّوائد ، أو على طريقةِ سيبويهِ في جواز بناء التعجُّب مما كان على أفعل ممَّا زاد على الثُّلاثيّ خاصَّة .

٥٦٥

وقال أبو الشِّيص[1] :

١ــ وقفَ الهوَى بى حَيْثُ أنتِ فليسَ لِى مُتأخَّرٌ عنـــه ولا مُتقدَّمُ

٢ــ أجِدُ المَلامَةَ في هوَاكِ لذيذةً حُبًّا لذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

يقول : حَبَسنى الهوى في الموضعِ الذى تستقرِّين فيه فألزَمُه ولا أفارقه ، فأنا مَعَكِ مقيمةً وظاعنةً ، لا أعدِلُ عنكِ ولا أميل إلى سواكِ ، ومَن لامَنى فيك أستلِذ لَومَه محبَّةً لذكرك ، ووَجداً باسمك ، فليستمرَّ اللائمون في أقوالهم ، ولتَدُم عِظاتُهم علىَّ وإنكارُهم ، فإنَّهم لا يجدون منِّى اتِّباعًا ولا رُجوعا ، ولا مَلالاً فيَّ ولا قُصورا . وقوله « حُبًّا لذكرك » انتصَب لأنَّه مفعول له ، وبيانٌ لعلَّة لذَّته ، بما يجلب على غيره ضَجراً ، وهو اللَّوم .

ومثل هذا قولُ الآخر[2] :

* وأسألُ عنها الرَّكبَ عهدُهُمُ عَهْدِى[3] *

يريد ، أنه يستلِذُّ ذِكرَها .

وقوله « حيث أنت » خبر المبتدإ وهو أنتِ محذوف ، كأنَّه قال : حيثُ

(١) اسمه محمد بن عبدالله بن رزين . وأصل معنى الشيص : الردى من التمر . وهو ابن عم دعبل الشاعر ، كان فى زمن الرشيد معاصراً لأبى نواس ، وعمى فى آخر عمره . وله مراث فى عينيه قبل ذهابهما وبعده . توفى سنة ١٩٦ . الأغانى (١٥ : ١٠٤ – ١٠٨) ونكت الهميان ٢٥٧ – ٢٥٨ والشعراء ٨٢٠ – ٨٢٥ ومعاهد التنصيص (٢ : ١٤٢) .

(٢) هو ابن هرم الكلابى ، كما سيأتى فى المقطوعة ٥٨٨ .

(٣) صدره : * وأستخبر الأخبار من نحو أرضها *

أنتِ واقفةٌ ، لأنّ « حيثُ » في الأمكنةِ بمنزلة حينَ في الأزمنة ، في حاجَتِه إلى جملتين ، والمتأخَّر والمقدَّم بمنزلة التَّأخُّر والتقدُّم ، فهما مصدران .

٣ ـ أشْبَهْتِ أعْدائى فَصِرْتُ أُحِبُّهُمْ   إذْ صارَ حَظِّىَ مِنْكِ حَظِّى مِنْهُمُ[1]

٤ ـ وأهَنْتِنِى فأهَنْتُ نَفْسِىَ صاغِرًا   مامن يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ أُكْرِمُ[2]

يقول : وافقتِ في مواصلتى أعدائى أخذًا فيما أكرهه وأتسخَّطه ، وذهابًا عما أحبُّه وأرضاه ، ولأنّ حظِّى منكِ فيما أرومُهُ يماثل حظِّى من أعدائى فيما أسومُهم فأُشْرِبَ قلبى حُبَّهم ، وانصَبَّ إلى جانبهم الميلُ معهم لمشابهتِكِ لهم ، ومماثلةِ فَعَالِكِ لفَعَالهم ، وأذللتِنى فأذللتُ نفسى على صُغْرٍ منِّى ، اقتداءً بكِ ، ومجانَبَةً للخلاف عليك ، ولأنى لا أرى كرامةَ من تَرَيْنَ هوانَه ، ولا إرضاء مَن ترين إسْخَاطَه . وانتصب « صاغِرًا » على الحال من أهَنْتُ . وقوله « ممَّن أُكْرِمُ » العائد إلى الموصول محذوف ، كأنّه قال : ممن أُكرِمُهم . وقوله « حَظِّىَ منهم » يريد به التَّشبيه ، كأنّه قال : كحظّى منهم ، ومنك في موضع الحال ، وكذلك منهم .

٥٦٦

وقال آخر :

١ ـ ولا غَزْوَ إلاّ ما يُخَبِّرُ سالِمٌ   بأنّ بَنِى أَسْتاهِها نَذَرُوا دَمِى[3]

٢ ـ ومالِىَ مِن ذَنْبٍ إليهمْ عَلِمْتُهُ   سِوَى أننى قد قلتُ يا سَرْحةُ اسْلَمِى

٣ ـ نَعَمْ فاسْلَمِى ثمّ اسْلَمِى ثُمَّتَ اسْلَمِى   ثلاثَ تحيّاتٍ وإن لم تَكَلَّمِى

(١) ل والتبريزى : « إذ كان حظى » .

(٢) فى الأصل : « يا من يهون عليك » ، صوابه من ل والتبريزى . و « ما » فى قوله « ما من » هى النافية .

(٣) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « لا غرو » بالحرم

معنى « لاغَرْوَ » لاعَجَب ، وخبر لا محذوف ، كأنه قال : لاغَرْوَ فى الدنيا ، أو موجود . وموضع « ما يخبِّر » رفعٌ على أنه بدل من موضع لا غروَ. وإنما قال « بنى أستاهِها » لأنه يريد أنهم مخروُّونَ لا مولودون . فيقولُ متهانفاً[1] : لا عَجَب إلا ما يُخَبِّرُ به سالمٌ ، بأنَّ سُقَّاطها والدين لا عُقولَ لهم فيها ، قالوا : للهِ علينا سَمْكُ دَمِه . ثم قال : هذا اعتقادُهم وأقوالُهم ؛ ولا جنايةَ لى عليهم ، ولا ذَنْبَ منّى أهتدى إليه فيهم سِوَى قولى : يا سَرْحةُ أدامَ اللهُ لكِ السلامة — وكان جَعَل «سرحة» ، [وهى شجرةٌ[2]] ، كنايةً عن امرأةٍ فيهم — نعمْ قد قلتُ وأقولُه مكرَّرًا : أَسلمى أَسلمى . يُغايِظُهم ويُناكِدهم بهذا المقال .

وقوله « سوى أنّى » موضعه من الإعراب استثناء خارج . و« ياسرحةُ » إذا ضممتَهُ فالضَّمّة الأصل فى استعمال المنادَى المفرد المعرفة ، وإذا فتحتَه فلاعتيادهم الترخيم فى مناداة ما فى آخره هاء التأنيث ، أتمُّوه ونوَوا الترخيم فجعلوا حركتَه حركةَ المُرَخَّم منه . وهى الفتحة .

وقوله « نعم » وإن كان فى الأصل حرفاً يُوجَبُ به ويُجابُ فى الاستفهام المحض فقد يُتَوصَّلُ به إلى بَسْط الكلام وصِلَتِه . وقوله « ثلاث تحياتٍ » انتصب على المصدر من فعلٍ دلَّ عليه قوله اسلَمِى ، كأنه قال : أحيِّى ثلاث تحيّاتٍ ، وإن لم تَرْجِعِى الجوابَ إلىّ . والسَّرْحُ من العِضاه ، ويكون دَوْحه مِحْلالاً يَحُلُّ الناس تحتَها فى الصَّيف . وقال الفرّاء : كلُّ شجرةٍ لا شوكَ فيها فهى سَرْحةٌ ، ذَهَبَ إلى السَّرح ، وهو السَّهل .

وقال ابن هَرْمَةَ وكنى بها عن امرأةٍ :

سَقَى السَّرْحَةَ المِحْلالَ دُونَ سُوَيْقَةٍ نِجَاءُ الثريا مرتَمِنًّا هُطُولُها

(١) التهانف : التضاحك ، والضحك بالسخرية . وفى الأصل : « متهاتفا » تحريف .

(٢) التكلة من ل .

وقد تسمى المرأة « سَرْحَةً » .

٥٦٧

وقال خُلَيْدٌ مَوْلى العَبَّاسِ بن محمد[1] :

١ — أمَا والرّاقِصَاتُ بذاتِ عِرْقٍ ... وَمَنْ صَلَّى بِنَعْمَانَ الأَرَاكِ

٢ — لَقَدْ أضْمَرْتُ حُبَّكِ فِي فُؤَادِي ... وَما أضْمَرْتُ حُبًّا مِنْ سِوَاكِ

٣ — أَرَيْتِ الآمِرِيكِ بِصُرْمِ حَبْلِي ... مُرِيهِمْ فى أحِبَّتِهِمْ بذاكِ[2]

٤ — فإنْ هُمْ طَاوَعُوكِ فَطَاوِعِيهِمْ ... وإنْ عاصَوْكِ فاعْصِي مَنْ عَصَاكِ

أقسمَ بالحجيج وبرواحلهم التى ترقُص بهم فى السير متوجِّهين بوادى عرفة وذاتِ عِرْقٍ إلى بيتِ الله عزّ وجلّ . وأضافَ نَعمانَ إلى الأراك لكثرتها بها . وجواب اليمين قوله « لقد أضمرتُ حُبَّكِ » . والمعنى أنّه أقسمَ أنّ وُدَّهُ لها مكتومٌ انطوَى عليه قلبُه ، وخالصٌ فيها قد أكنَّهُ ضميرُه لا يُشاركها فيه عَديل ، ولا يُجاذِبُها بسببه قَسِيمٌ ، وإنّما يتحمَّدُ عليها بحِفْظ السِّرَار ، وتخليص العقيدة ، وشَغْل القلبِ والعقلِ بعِمارة الهوَى لها . ثم أقبل عليها فقال يخاطبها : أعلمتِ الذين يُشيرون عليك بقَطيعتى والتنكُّر لى ، وجَدِّ الأسباب والمواثيق بينى وبينَكِ ؟ كُرِّى عليهم مستدرجةً لهم ، وعاجمةً تنصُّحَهم ، وأْمُرِيهم فى أحبَّتهم بمثل ما أمروكِ فىّ ، فإن وجدْتِهم سامعين لكِ ، وصائرين إلى القَبول منك ، فَخُذى أنتِ أيضاً مأخَذَهم ، والتزمى طاعَتَهم . وإن وجدتِهم متأبِّين عليكِ مخالفين لك ، فاعصِى مَن عصاك ، ودَعِى الاستنامةَ إلى رأى مَن لا يَرَى لك

---

(١) التبريزى : « مولى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » .

(٢) ل والتبريزى : « أطعت الآمريك » .

مثلَ ما يراه لنفسه . وكان الواجبُ فى قضيّةِ سِياق الكلام أن يقول : وإن عاصَوْكِ فعاصيهم ؛ فعَدَل عن الإتيان بالضمير إلى ذِكر الظاهر ، ليبيِّن فيه ما يُشنِّع به عليهم ، وليُظهِر السَّببَ المُوجِبَ للإغراء بهم ، والانصرافِ عن رأيهم . ولو قال : فاعصيهم لم يَبِنْ ذلك فيه .

وقوله « أرَيتِ » أصله أرأيتِ ، حذفَ الهمزةَ منه حذفاً كما حُذِفَ فى يرَى ، وترَى ، ونرَى .

٥٦٨

وقال أبو القَمْقام الأسدىّ :

١— إقرَأْ عَلَى الوَشَلِ السَّلامَ وقُلْ لهُ كلُّ المَشَارِبِ مُذْ هُجِرْتَ ذَمِيمُ(١)

٢— سَقْياً لِظِلِّكَ بالعَشِىِّ وبالضُّحَى وَلِبَرْدِ مائكَ والمِيَاهُ حَمِيمُ

٣— لو كنتُ أَمْلِكُ مَنْعَ مائكَ لم يَذُقْ ما فى قِلاَتِكَ ما حَيِيتُ لَئِيمُ

الوَشَلُ هاهنا : ماء معروف فى أرضِ محبوبِه . وقال الدُّرَيدىّ : الوَشَلُ : موضعٌ معروف بعينِه . والوَشَل : الماء القليلُ يترقرقُ على وجه الأرض . وقال صاحبُ العين : الوشَلُ مُحرَّكٌ : الماء القليل يتحلَّب من صَخرةٍ أو جبلٍ ، يقطُر منه قليلاً قليلا . والواشِل : القاطر ، يقال : جَبَلٌ وَاشِلٌ : يقطُر منه الماء .
والشاعر أهدَى إليه التحيةَ ، وراسَلَهُ أنَّ المَشارِبَ كلَّها مذمومةٌ عنده منذُ تحوَّلَ عنه وتَرَكَ وُرُودَه . ثم دَعا لِظلِّه بالسُّقيا فقال : سَقْيًا لِظِلِّكَ بالعشىّ وبالضُّحى .
والظلُّ يكون للشجرةِ وغيرِها بالغداة ، والفَىْء بالعشىّ ، فكان فى الواجب أن

(١) ياقوت : « الجوهرى : وشل اسم جبل عظيم بناحية تهامة » . وأنشد ياقوت بين هذا البيت وتاليه :

جبل يزيد على الجبال إذا بدا بين الربائع والجثوم مقيم
تسرى الصبا فتبيت فى أكنافه ويبيت فيه من الجنوب نسيم

يقول : سَقْيًا لظلِّك بالغَداة ، ولفَيْئِكِ بالعشىّ . ألا تَرَى قولَ الآخر[١] :

فلاَ الظلُّ من بَرْدِ الضُّحى نستطيعه ولا الفَىْءَ من بَرْدِ العشىِّ نَذُوقُ[٢]

إلاّ أنه سَمَّى الفَىْءَ ظِلاًّ لتشابُهِهما فى مَنظَرِ العَين والغَناء[٣] . فلما تساوَيَا وأجرَى عليهما معاً لفظةَ الظلِّ ، وكان الواوُ يفيد الجمعَ من دون التَّرتيب — لم يُبَالِ أن يقولَ بالعشىّ وبالضُّحى ، فيقدِّم بالعشىّ ، وإنْ كان الظلُّ ألْيَقَ بأن يليق بالضُّحَى لو جُرِّد . ولم يُشْبِهْ هذا قولَ القائل : فُلاَنٌ أشْعَرُ الجنّ والإنس ، لترْكِه فيما تقَدَّمَه من المعطوف والمعطوف عليه طلبَ المطابقة والموافَقة . ألا تَرَى أنّ الوجه فى هذا أن يقال : فلانٌ أشعر الإنس والجنّ ليصحَّ لفظ الأوّل ، ويُضاف أشعرُ إلى ما هو بعضُه ثمّ يجىء الثانى ؛ وأنّ قولَك : سَقْياً لِظلِّكَ وقد نويْتَ إجراءَ الظِّلّ للفىء أيضاً صار حكمُه حكمَ اللّفظة الموضوعة لشيئين ، فإذا كانَ كذلك فأيُّهما أوْلَيْتَهُ من العشىّ والضُّحى فقد وَقَعَ إلى جَنْب ما يطابقُه ويوافقه .

فإن قيل : لو سُلِّمَ لك ماتقوله وتدّعيه من الاستعارة لَمَا سَلِمَ الكلامُ المتنازَعُ من أنّه جاء على غير حَدِّه ؛ وذاك أنّ الظِّلّ يكون فى الضُّحى حقيقة وفى العشىّ مجازاً ، وإجراء الكلام على حَدِّه أن يُقدِّم ما يكون حقيقةً على المجاز . قلتَ : إنّ الظلّ فيما حكاه الخليل ضدُّ الضِّحّ ، ويقال : أفاء الظِلُّ وتفَيَّأ . وفى القرآن : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُه عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائل[٤] ﴾ ، فهو ظلٌّ قبلَ التفيُّؤ وبعدَه ،

---

(١) هو حميد بن ثور . ديوانه ٤٠ .

(٢) يروى : « تستطيعه » و « تذوق » بالتاء فيهما ، على التجريد . وقبله :

حمى ظلها شكس الخليقة خائف عليها عُرام الطائفين شفوق

(٣) الأصل : « الفناء » ، صوابه فى ل . والغناء ، بالفتح : الفائدة والنفع والكفاية .

(٤) قرأ أبو عمرو ويعقوب واليزيدى : « تتفيأ ظلاله » ، وباقى القراء : « يتفيأ » ، بالتذكير ، لأن تأنيثه مجازى . إتحاف فضلاء البشر . ٢٧٨ فى سورة النحل .

وإنّما نَسْخُه للشّمس هو الذى صار به قَيْنًا ، وإذا كان كذلك لم يكُنْ من باب ما يكون حقيقةً فى شىء ، ومجازاً فى آخر . وهذا بيِّنٌ .

وقوله « والمياه حمِيم » فالواو فيه للابتداء ، وهو واو الحال .

وقوله « لو كنت أملِكُ مَنْعَ مائِك » جوابُ لو » هو قوله « لم يَذُق » . وهذا الكلامُ فيه إظهارُ الضَّغانة بالماء المذكور ، واستمرارُه فى الحسَد إلى كلِّ حَدٍّ معلوم بسببِه ، حتّى كان بزَعْمِه يمنع عنه اللِّئامَ مدّةَ حياته ، ويعنى به أربابَهُ فيما أظنّه ، لأنّهم أعداؤُه . والقِلاتُ : جَمْع القَلْت ، وهى حُفرةٌ فى الجبل يَستنقِعُ فيها ماء المطر .

٥٦٩

وقال ابن الدُّمَيْنَة[1]

وقد كتب بها إلى أمامة[2] :

١ — وأنتِ التى كَلَّفْتِنِى دَلَجَ السُّرَى ۝ وَجُونُ القَطَا بالجَلْهَتَيْنِ جُثُـومُ

٢ — وأنتِ التى قَطّعْتِ قَلْبِى حَزَازَةً ۝ وقَرّفْتِ قَرْحَ القلبِ وَهْوَ كَلِيمُ[3]

٣ — وأنتِ التى أحفَظْتِ قَومِى فكُلُّهُمْ ۝ بَعِيدُ الرِّضا دانِى الصُّدودِ كَظِيمُ[4]

قوله « دَلَجَ السُّرَى » ، فالسُّرَى : سير اللّيل ، والدَّلَج : السَّير فى بعض اللّيل . ويقال : سار دُلجَةً ، أى ساعةً من أوّل الليل ، فلذلك أضافَ الدَّلَج إلى السُّرَى ، فجَرى مجرَى إضافة البعضِ إلى الكُلّ . والشّاعر يعدِّد عليها ما ناله

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ . والشعر فى ديوانه ٣٦ — ٣٧ والحيوان (٣ : ٥٥) والأغانى (١٥ : ١٤٨) ومعاهد التنصيص (١ : ٥٨) .

(٢) هذه العبارة لم يذكرها التبريزى .

(٣) يروى : « وقرحت » . و « فهو كليم » .

(٤) الحيوان : « أسخطت قومى » .

حالًا بعد حالٍ من ضُروب المشقّات والمتالف فيها ، فيقول : تحمّلْتُ فيكِ كلّ عظيمةٍ وبليّة ، فأنتِ التى كلّفتِنى السُّرَى والسَّير ، وركوبَ الخطَر بالليل والطُّيورُ ساكنةٌ فى عِشَشَتِها[1] لم تبرح ، وأنتِ التى قطّعْتِ جوانحى ، وصَدّعْتِ جوانب كِبدى حَزازةً بدوام تعتُّبك وتشدُّدِك ، واتّصال جفائك واطّراحِك — والحزازة : وجعٌ فى القلب — فنكأْتِ الكَلْمَ مِن قلبى قبل اندماله ، وقَشَرتِ جُلبتَه عند صلاحه والتئامه ، فأراه أبداً دامىَ الظّاهر فاسدَ الباطن ؛ وأنتِ التى أغضبْتِ علَىّ مَعْشَرِى ، وأفسدت علىّ رَهطِى وأعِزّتى ، فكلُّ واحدٍ منهم إذا خُبِر واستُكشِف بعيدُ الرِّضا عنِّى ، قريبُ الهِجران لى ، ممتلىء الصَّدر من بُغضى ، يكظِم غيظَه تجمُّلا ، ويُسِرُّ نُكْرَهُ تصبُّرا .

وقوله « جُون القطَا » ، جمع جُونيَّة . قال :

* جُونيَّةٌ كحصاةِ القَسْمِ *

وهذا كما يقال عَرَبىٌّ وعَرَبٌ ، وهذا الجمع كالجمع الذى ليس بينه وبين واحده فى اللفظ إلّا طرح الهاء نحو تمرَةٍ وتمر وما أشبهه . وجُثُومٌ : جمع جاثم . وجَثَم الطائرُ ، إذا ألصَق صدرَه بالأرض ، ويستعمل فى السَّبُع وغيره ، ومنه الجُثْمان لجسم الإنسان . وقال الأصمعىُّ : الجُثْمان الشّخص ، والجُسْمان الجِسم . والجَلْهَةُ : ما استقبلك من الوادى . ومعنى قَرَفْتِ : قَشَرْتِ ولم يكنْ بَرَأ . ويقال : كَظَمَ غيظَه ، إذا جرِعَه . وكَظَمَ البعيرُ جِرَّتَهُ ، إذا ابتلعها . والكَظَم[2] : مخرَج النَّفَس . ويقال للمحزون : إنّه لمكظومٌ وكظيم .

---

(١) جمع عش ، ومثله عشوش وأعشاش . وفى الأصل : « عششها » .

(٢) بالتحريك ، وجمعه أكظام ، ومنه حديث النخعى : « له التوبة ما لم يؤخذ بكظمه » أى عند خروج نفسه ، وانقطاع نفسه .

٥٧٠

فأجابته أُمامةُ[١] :

١ — وأنتَ الذي أخلفتَنِي مَا وَعدْتَنِي وأشْمَتَّ بِي مَن كانَ فيكَ يَلُومُ

٢ — وأبرزتَنِي للناسِ ثمّ تركْتَنِي لهمْ غَرَضاً أُرْمَى وأنتَ سَلِيمُ

٣ — فلوأنَّ قولاً يَكْلِمُ الجِسْمَ قد بَدَا بجِسْمِيَ مِن قَوْلِ الوُشاةِ كُلُومُ

أخذَت تقابلُه بمثل الذى ابتدأها ، وتعدِّد من جناياته عليها كِفاءَ ما عدَّده وعَصَب به رأسها ، فقالت : إن ما ارتكبتَه منِّى أشنعُ ، وما حمَلتُه وقتاً بعد وقت أفظعُ ، لأنك الذى نكَثْتَ عهودى ، ونقَضْتَ مواعيدى ، وأشمتَّ بى كلَّ ناصحٍ فيك ، وصدَّقْتَ مقالَ كلِّ لائمٍ بسببك ، فظنُّونى بك مكذَّبة ، وظُنون النُّصَّاح واللُّوَّام مصدَّقَة ؛ ثم جعلْتَنِي مُضغةً فى أفواه الناس ، وأُكْلَةً لجامعهم ، يتملَّون بحديثى ، ويتبلَّغون عند أعدائى بقِصَّتى ، فقد صِرْتُ كالغرَض المنصوب لكلِّ قِدحٍ مَبْرِيّ ، والعَلَمِ المقصود لكلِّ مَشَّاء بنميمٍ ، يُغْرَى بى من كان لى سَلْماً ، ويَرِقُّ لى مَن آلَ لى حَرْباً ، وأنت سالمٌ من المكاره ، بعيدٌ عن المتاعب ، تعرُك بجنبك ما يمسُّنى ، وتتَّقى بمقلَةِ الاكتراث ما يُنْضِجُنى ؛ لأنّ نارَ الوشاية اعتيادُها بالإحراق فى النساء أبلغُ منه فى الرِّجال ، وعارُ الشَّناعة ألصَقُ بجوانبهنّ منه بجوانب أمثالكَ ، فلو أن كلامًا كَلَمَ جِسْماً لبدَتْ بجسمى نُدُوبٌ ومَنافِذُ وجُروح بأنياب المُغتابين ، ونبال الرُّماة المُراصدين .

وقد عُدِل فى هذه الأبيات وفيما تقدَّمها فى صِلاتِ الذى والتى عن الإخبار

(١) التبريزى : « على وزنها ورويها » . وفى الأغانى « أميمة » ، وأنها التى قالت هذا الشعر فى بادئ الأمر ثم أجابها هو بمقطوعة السابقة ، ثم تزوجها بعد ذلك وقتل وهى عنده . والشعر فى المراجع المتقدمة والبيان (٣ : ٢٧٠) .

إلى الخطاب ، وقد مضى القولُ فى جوازه مشروحاً[1] ، وبيّنّا كيف ساغ تَعَرِّى الصِّلة من الضمير العائد إلى الموصول .

٥٧١

وقال المَلْوط الأَسَدىّ[2] :

١ — إنّ الظَّعائنَ يومَ حَزْمِ سُوَيْقَةٍ أَبْكَيْنَ عنـد فِراقِهنّ عُيُونا[3]

٢ — غَيَّضْنَ مِن عَبَراتِهِنَّ وَقُلْنَ لى ماذَا لَقِيتَ من الهَوَى ولَقِينا[4]

٣ — بل لو يُساعِدُنا الغَيُورُ بدارِهِ يومًا لقد ماتَ الهَوَى وحَيِينا[5]

الظَّعينة : المرأة ، لأنها تظعَن إذا ظَعَن زوجُها ، أى تَشخَص . وقيل : الظعينة : الجمل لذى تركَبُه ، سُمِّيَتْ به كما قيل للمَزَادةِ راوية . والحَزْم : ما غَلُظ من الأرض . وإنما وصفَ حالَهنَّ عند التوديع ووقتَ الفِراق ، فيقول : إنّهنّ بَكَين وأَبْكَيْنَ ، وبِجُهْدٍ منهن كفَفْن الدموع ، وخفَّضْن ما علا من الشَّجِ ، ثم قُلن متحسِّرات : أىَّ شىء لقيتَ أنت وقاسيتَ من أحداث الهوَى وأسبابه ، وقاسينا نحن ، ولو ساعَدَنا الغَيُورُ وَدانانا بدارِه يوماً لقضينا من أوطارنا ما تحيا به نفوسُنا وقلوبُنا ، ويموت له كَلَفُنا وهوانا .

---

(١) انظر ما مضى فى ص ١١٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٢ .

(٢) التبريزى : « الملوط بن بدل السعدى » ، وهو الصواب . والملوط بن بدل القريعى ثم السعدى شاعر إسلامى ، كما فى اللآلىء ٤٣٤ . ويروى أبو الفرج فى الأغانى (١٥ : ٦٥) ، وابن قتيبة فى الشعراء ١٢ أن جريراً سطا على بيتى الملوط وأدخلهما فى شعره . ورويا الأول :

إن الذى غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا

(٣) التبريزى : « يوم جو سويقة » .

(٤) فى الأغانى عن عبد المطلب بن عبد العزيز قال : أنشدت أبا السائب قول جرير هذا ، فقال : يا ابن أخى ، أتدرى ما التغييض ؟ قلت : لا . قال : هكذا . وأشار بإصبعه إلى جفنه كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه .

(٥) التبريزى : « بل يساعفنا » ، و « بدارة » .

وذِكْرُ موتِ الهوى كما قال الآخر :

فلما اُلتَقَى الحَيَّانِ أُلقِيَت العصا وماتَ الهوَى لمّا أُصيبت مقاتِلُهْ

وقوله « غَيَّضْنَ » أى قلَّلن . ويقال : هذا من ذاك غَيْضٌ من فَيْضٍ ، أى قليلٌ من كثيرٍ . والمعنى مَسَحْنَهُ بأصابعهن تَسَتُّرًا .

وأخذ ذو الرُّمَّة هذا فقال :

ولمّا تلاقَيْنَا جَرَتْ من عُيُونِنَا دُموعٌ وَزَعْنَا غَرْبَها بالأصابِعِ

ونلنا سِقَاطًا[1] من حديثٍ كأنَّهُ جَنَى النَّحْلِ ممزوجًا بماءِ الوقائعِ

ومعنى « يساعِفنا الغَيُورُ بدارِه » يقاربنا بمحلِّهِ . والإسعافُ : قضاء الحاجة وإدناؤها . ولك أن تجعلَ « ماذا » بمنزلة اسمٍ واحد ، فينتصب بلقِيتَ : ولك أن تجعل ذا بمعنى الذى ، ويكون ضميره العائد من الصلة محذوفًا ، كأنه قال : لقيته ولقيناه .

٥٧٢

وقال جميل[2] :

١ — وماذا عَسَى الواشُونَ أن يتحدَّثوا سِوَى أن يقولوا إنَّنى لكِ وامِقُ[3]

٢ — نَعَمْ صَدَقَ الوَاشُونَ أنتِ كريمةٌ علينا وإن لم تَصْفُ مِنْكِ الخلائقُ[4]

ماذا فى موضع المبتدإ ، كأنه قال : أىُّ حديثٍ عسى الواشون يتحدَّثونه سوى قولهم : إننى لكِ مُحِبٌّ . فهو كقولك : أىُّ ضَرْبٍ عسى زيدٌ أن يضربَه »

(١) فى الأصل : « وبتنا سقاطا » ، صوابه فى ل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ .

(٣) التبريزى : « عاشق » .

(٤) التبريزى : « أنت حبيبة إلى » .

وسبيلُه سبيل المصدر والمضافِ إلى المصدر إذا ابتُدئَ بهما . ولا يجوز أن ينتصب بيتحدّثوا ، لأنه في صلة أنْ ، فلا يعمل فيما قبل الموصوف ، ولا يجوز أن يكون ذا معه بمنزلة الذى ، لأنَّ عسى لا يصلح لكونه غيرَ واجب أن يقع صلة له ، و كذلك أخواتُ عسَى . ألاَ تَرَى أنْ الاستفهامَ والنَّفىَ وأخواتِهما لا يَقَعْن صِلاتٍ ، إذ كانت الصِّلاتُ إنما تكون من الجُمَل الخبريّة الواجبة والمعنى أنهم لا يَقدِرون فى وِشايتهم على أكثَرَ مِن قَطْع القول بأنى لكِ محبٌّ وعاشق . ثم أوجبَ بنعَمْ فقال : قد صَدَقوا فيما ادَّعوا ولفَّقوا ، أنتِ تَكْرُمين علينا وإن لم يَعُدْ علينا منكِ خير ، ولا صادَفْنا من إحسانِك صَفاء ولِينٌ . كأنّه يُبرِّئ ساحتَها ، ويُرِى أنَّ ميلَه وهواه لا يَشِينُها مع سلامة طريقتها ، واستحكام عَفافِها .

٥٧٣

وقال آخر :(١)

١ – وإذَا عَتَبْتِ عَلَىَّ بِتُّ كأنَّنى ... باللَّيْلِ مُخْتَلَسُ الرُّقَادِ سَلِيمُ

٢ – ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقَنى ... عَلَقٌ بقَلْبى مِنْ هَوَاكِ قَدِيمُ

٣ – يَبْقَى على حَدَثِ الزَّمانِ ورَيْبِهِ ... وعلى جَفَائكِ إنَّهُ لَكَرِيمُ

يقول : اليسيرُ من إنكارِكِ ولَوْمِكِ يَعْظُم عندى ويَصْعُب علىَّ ، حتى أبقَى له ليلتى ساهِرًا مؤرَّقًا ، وسادِمًا قَلِقًا ، كأنى لَدِيغُ حَيَّةٍ ، أو مُسْلَمٌ لِعارِضِ علَّة . ولقد رُمْتُ التَّسلِّىَ عنك ، والتصبُّر منك ، فدفَعنى عن المراد ما عَلِقَ بقلبى من هواكِ قديمًا وملَكَ قِيادِى لكِ ، حتى لا أجدُ دونكِ منصرَفًا ومَحِيدًا . ثم وَصَف العَلَق اللازم له ، والحُبَّ الغالب عليه فقال : إنه يبقى على تغيُّر الزَّمان ،

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هى لابن الدمينة » .

وتلوّن الحدَثان ، فلا يَعرِضُ له فتُورٌ ولا نكوص ؛ وعلى ما يتجدَّد عليه فى كل حالٍ من جفاء فيكِ شديد ، وإعراضٍ أليم ، فلا يُبدِّله قصورٌ ولا نُبُوٌّ ؛ إنّ هذا العَلَقَ لكريمٌ المَحْتِد ، مُحْكَمُ العَقْدِ ، ثابت الأَساس والبِناء ، مقدَّم الذِّكر فى صُحُف الوِداد والصفا .

وهذا الكلام ، أعنى قوله « إنه لكريمُ » يسمَّى الالتفات .

٥٧٤

وقال آخر[١] :

١ — أَلِمْ على دِمَنٍ تقادَمَ عَهدُها بالجِزْع واستَلَبَ الزَّمانُ جَمالَها

٢ — رَسْمٌ لِقَاتِلَةِ الغَرانِقِ ما بِهِ إلاَّ الوُحوشُ خَلَتْ له وخَلاَ لَها

٣ — ظَلَّتْ تُسائلُ بالمتَيَّمِ أهلَهُ وَهِيَ الَّتِي فَعَلَتْ بِهِ أفعالَها

الإلمام : الزِّيارة الخفيفة . يُخاطِب صاحبًا له ويسأله مساعَدَتَه فى زيارة دار أحبَّتِه ، فقال : زرْ آثار دارٍ متقادمةِ العَهد بسُكَّانها ، مسلوبةِ الجَمال لتأثير نوائب الزَّمان فيها ، بالجِزْعِ — وهو منعطَف الوادى . وروى بعضهم : « جَلاَ لها » ، ويُكره هذا لما حكاه الأصمعى من أنه لا يقال الجَلاَل إلا فى الله تعالى ، ولأنه وإنْ جاء فى غيره عزَّ وجلَّ فهو قليلٌ فى العرف والاستعمال .

وقوله « رسمٌ لقاتلة الغَرانق » ابتداء كلام ، أى هو رسمُ دارٍ لامرأةٍ كانت تَصيد الغَرانِق وتفتِنُهُم بالحُبّ . والغُرانِق : الشابُّ الناعم الحَسَن ، بضم

---

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هى لعمرو بن الأيهم ، وقيل الأصم » . وعمرو بن الأيهم بن أفلت التغلبى شاعر نصرانى إسلامى ، ويقال إن اسمه « عمير » . وقيل للأخطل وهو يموت : هل من تخلف قومك ؟ قال هل العميرين . يريد القطامى عمير بن شييم ، وعمير بن الأيهم . اللآلئ ١٨٤ .

الفين ، وجمعه الغَرانِق بفتحها ومثلها الغُراعِر والغَراعِر[1]، والجُوالِق والجَوالِق وقد استبدلَتْ بأهلها وُحُوشاً فهى خاليةٌ لها ، وهى راتعةٌ فيها ، لا تَعْدِلُ عنها

وقوله « ظَلَّتْ تُسائل » أى تبقى نهارَها تسأل عشـيرةَ العاشق عنه وعن استهتاره وعلّته ، وهى أعرف الناس بأخباره ، إذ كانت المتولّية لفتنته وخَباله . والمتيّم : المعبَّد[2] ؛ يقال : تيّمه الحب ، أى عَبَّدَه واستعبده . وقوله « خَلَتْ له » فى موضع الصِّفة للرسم .

٥٧٥

وقال آخر :

١ — وما بَرِحَ الواشُونَ حتَّى أرَتْمَوْا بنا   وحتَّى قُلوبٌ عن قُلوبٍ صوادِفُ

٢ — وحتَّى رأَيْنا أحسَنَ الوَصْلِ بيننا   مُسَاكَتَةً لا يَقْرِفُ الشَّرَّ قارِفُ

قد تقـدم القول فى « ما برح » وأنه فى معنى ما زال . فيقول : لم ينفكَّ السُّعاة عن الوِشـاية والتقاط الأحاديث للنميمة ، واستدراج المختلطين بنا ، واستشفاف المتبلِّغين بأخبارنا وأخبارِ غيرنا ، حتى فرَّقوا بيننا ، فأقبلوا يَرْمِي بعضُها[3] بعضاً بمَصايِر أمورنا ، وحتى صَدَفَتِ القلوب ، فمالَ كلٌّ من عشيرتنا إلى الاستبدال بعوضه ، والانتقالِ عن جوار صاحِبه ، وإلى أن رأَيْنا أحسنَ المواصلةِ بيننا ملازمةَ السكوت ، واطّراحَ الإيماء والرُّموز ، توقِّيًا من فُرقةٍ تتوجَّه ، وتَفادِيًا من تُهمة تَتسلَّط . هذا إذا رَوَيْتَ « لا يقرفُ » بضم الفاء . ويروى « لا يَقْرِفِ » بكسر الفاء ، ويكون فى موضع الجزم جواباً للأمر الذى يدلُّ عليه قوله مُسَاكتةً ، لأنه فى هذا الوجه مصدرٌ فى معنى الأمر . والجملةُ فى موضع

---

(١) الغراعر : بضم العين الأولى : السيد ، والجمع غراعر ، بالفتح .

(٢) ل : « المتعبد » .

(٣) هذا ما فى ل : وفى الأصل : « بعضنا » تحريف .

النَّصب على أن يكون مفعولاً ثانياً لقوله رأينا . والمساكتةُ لا تكون مواصَلَة تُجْعَل بدلاً منها . ويكون هذا مثل قول الآخر[١] :

* تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٢] *

ويكون المعنى : رأينا أحسنَ المواصَلة بيننا تَواصِيَنا بأن ساكِتُوا الأحبَّةَ ومن يختلف بيننا وبينهم ، لا يقرفِ الشَّرَّ قارفُه . وفى الوجه الأوَّل يكون مساكَتَةً مفعولا ثانياً . والمعنى سُكوتاً من الجانبين ، أى كِفافاً لا يتولَّد منه قَرْفٌ ولا تُهمة ، ويكون قوله « لا يقرِفُ الشرَّ » تفسيراً للمساكتة ، وبياناً لاختيارهم لها . ويروى « صوارِفُ » بالراء ، والمعنى قُلوبٌ تصرف الودَّ بما تأتيه وتستعمله عن القلوب الأُخَر .

٥٧٦

وقال آخر :

١ ــ فإن تَرْجِعِ الأيَّامُ بَيْنِى وَبَيْنَها بِذِى الأَثْلِ صَيْفاً مِثلَ صيفى ومَرْبَعى

٢ ــ أَشُدَّ بأعناقِ النَّوَى بَعْدَ هٰذِهِ مَرَائِرَ إنْ جاذبْتَها لَمْ تَقَطَّعِ

« رَجَعَ » هذا مُعَدًّى ، لأنه بمعنى رَدَّ . يقال : رجَعْتُه رَجْعًا فرَجَعَ رُجوعاً . و « صيفًا » انتصب على المفعول من قوله « ترجِعُ » . وكان الواجبُ أن يقول : صيفاً ومَرْبَعًا مثل صَيْفى ومَرْبَعى ، أو يقول : بذى الأثلِ صيفى ومَرْبَعى ، أى أيَّامًا كأيَّامِها ، فلمَّا لم يلتبس المرادُ قال : صيفاً مثل صيفى ومَرْبَعى .

---

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

وقوله «أَشُدَّ بأعناق النَّوَى» أشد فى موضع الجزم ، لأنه جواب الشرط . ولك أن تضمّ الدالَ منه إتباعاً للضمّةِ الضمةَ ، وأن تكسرها لالتقاء الساكنين وأن تفتحها ، لأنّ الفتحةَ أخفُّ الحركات . والمعنى إن ردّت الأيامُ الدائرة بينى وبينها ربيعًا مثل مربعى ، وصيفاً مثل مصيفى معها ، استظهرتُ على النَّوَى بأن أوثِّق أواخيَّها ، وأُمِرَّ حبالَها التى أربطها بها ، حتى إن جاذبتْها قاوَمَتْكَ فلم تتقطَّع . وهذا مثَل . والمراد أنّى أُحكِمُ أسبابَ التألُّف والتجمُّع بما يؤمَنُ معه تعقُّبُ الآراء بالمزايلة والافتراق .

٥٧٧

وقال كُلثوم بن صَعْب[١] :

١ – دَعَا داعِيَا بَيْنٍ فَمَنْ كانَ باكيًا مَعِى مِن فراقِ الحىِّ فليأْتِنى غَـدَا

٢ – فليتَ غَدًا يومٌ سِواهُ وما بَقِى مِن الدَّهرِ ليلٌ يحْبِسُ النَّاسَ سَرْمَدَا[٢]

٣ – لِتَبْكِ غَرَانيقُ الشَّبابِ فإنّنى إخالُ غَدًا من فُرْقَةِ الحىِّ مَوْعِدَا

كان شَعْباهما متجاورَين فى النُّجْعَة ، فلما تقضَّى أيّامُها وهمُّوا بالانصراف إلى المَزَالف[٣] وجوانب القرى ، دعا داعِى الفراق فى كل شَعب منهما ، وبَعثُوا على التهيُّؤ ، لذلك ثنَّى فقال : داعِيَا بَيْنٍ » . وقوله « فمن كان باكيًا » يريد : فمن آلمَهُ ما أحسَّ به من النوى ، وأزعجَه ما عُزِم عليه من شَقِّ عصا

---

(١) قال المرزبانى فى معجمه ٣٥١ : « ذكره أبو تمام فى حماسته ولم ينسبه » . ثم أنشد هذه الأبيات بهذه الرواية . وضبط « بقى » بفتح القاف يشير إلى أنه طائى . ولأبى تمام ولوع بالاختيار للطائيين .

(٢) ضبطت « بقى » فى ل بفتح القاف وكسرها ، مقرونة بكلمة « معاً » ، إشارة إلى الروايتين .

(٣) المزالف : البلاد التى بين البر والريف .

الهوى ، وأراد إسعادى على البُكا، فليَحضُرنى غدًا ، فإنه اليومُ الموعود ، والمشهَد المشهود .

وقوله « فليتَ غدًا يومٌ سِواهُ وما بَقَى » ، يقول : يوَدُّ أن يكونَ بَدَل يوم غدٍ يومٌ آخر غيره ، تفاديًا مما يَجرِى ويَحدُث ، وليتَ بدلَ اللَّيلة الحائلة بيننا وبين غدٍ ما بَقِىَ من الدهر كله ، لحبسَ الناسَ عن التزايُل والافتراق دائمًا . « وما بَقَى » لغةُ طيِّئٍ ، كأنهم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت الياء ألفًا .

وقوله « لتَبْكِ غَرانيق الشباب » فالغرانيق جمع ، واحدها غُرانِق . وقال الخليل : يقال : شَبابٌ غُرانِق . وأنشد :

ألا إنَّ تَطْلابَ الصِّبا منكِ زَلَّةٌ وقد فاتَ رَيْعانُ الشبابِ الغُرانِقُ[1]

وقال أيضًا : الغُرنُوق : الشابُّ الأبيض الجميل ، والجمع غَرانيق . ومراد الشاعر : لتَبْكِ من استَصْلحَ الصِّبا من الشُّبّان وأرباب الهوَى ، [فإنَّ غدا فيما أظنُّ أو أتيقَّن يومُ مواعَدة الحىِّ بالزِّيال][2] . وانتصب سرمداً على الظروف ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، كأنه قال : حَبْسًا سَرْمَدًا .

٥٧٨

وقال زياد بن حَمَل[4] ، وقيل زياد بن منقذ :

١ – حَبَّذَا أنْتِ يا صَنْعَاء مِنْ بَلَدٍ ولا شَعُوبُ هوًى مِنِّى ولا نُقُمُ

(١) رواه الأزهرى : « ألا إن تطلابى لمثلك زلة » . اللسان (غرنق) .

(٢) ل : « لتبك كل مستصلح الصبا » ، وتبك بالتاء فيهما .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى . « زياد بن حمل بن سعد بن عميرة بن حريث » ، وفى اللآلئ ٧٠ : « أحد بنى العدوية ، وهم من بنى تميم » . وقد اضطرب الرواة فى نسبة هذه الأبيات وفى نسبة من تنسب إليه الأبيات أيضاً . انظر حواشى سمط اللآلئ والأغانى (٩ : ١٥٤) وزهر الآداب (٤ : ١٩٥) ومعجم البلدان (أثى ، الأميلح ، صنعاء) .

٢ — ولَنْ أُحِبَّ بِلادًا قَدْ رأيتُ بها عَنْسًا ولا بَلَدًا حَلَّتْ به قَدُمُ

صنعاء : مدينةُ اليَمَن . وشَعوب ونُقُم : موضعان باليمن . وعَنسٌ وقُدُم : حَيَّان من اليمن . وقوله « لا حبَّذَا أنتِ » ذا أُشيرَ به إلى لفظة الشيء ، والتقدير : لا محبوبَ فى الأشياء أنتِ يا صنعاء من بينِ البلاد ، وكما أنتِ لستِ بمحبوبٍ إلىّ ، فكذلك شَعوب ونُقُم ليسا بهوًى منّى ، أى لا أهواهما ولا أَحِنُّ إليهما .

وقوله « ولن أُحِبَّ بلادًا » يريدُ : ولن أحبَّ أيضًا منازلَ هذين الحيَّيْن . كأنّه كرِه المواضعَ بأهلها فاجتواها وذمَّها . وقوله « بلادًا قد رأيتُ بها عَنسًا » ضَمّ إلى لفظةِ بلادٍ من الصِّفة ما يخصِّصها .

وقوله « حَبَّذا » حَبَّ فِعلٌ ، والأصل فيه حَبُبَ ، وذا أُشيرَ به إلى الشَّىء ، ولذلك وقع للمذكّر والمؤنّث على حالةٍ واحدة فقلتَ : حبَّذا زيدٌ ، وحبَّذا هندٌ ؛ لأنَّ لفظة الشىء يشمَل المذكَّرَ والمؤنّث ، والواحدَ والجمع . فهو كـ « ما » ، وُضِع للجنس .

٣ — إذَا سَقَى اللهُ أرضًا صَوْبَ غَادِيَةٍ فلا سَقَاهُنَّ إلا النَّارَ تَضْطَرِمُ

لمَّا كان القصدُ فى الدُّعاء بالسُّقيا بقاء المدعوّ له على نضارته ، والزِّيادةَ فى طَرَاوته ، واستمرارَ الأيّام به سالمًا ، ممّا يؤثر فى عُنفوان حُسْنه ، أو يغيِّر رونَقَ مائه ، جَعَل عند الدُّعاء على المذموم عنده السُّقيا بالنّار ، لكون النّار ضدًّا للماء ومميتًا لما يُحييه . فيقول : إذا أطالَ اللهُ تعالى جَدُّه تنعيمَ أرضٍ بما يُبقِي من خِصْبها ، ويُديمُ من رَفاغَتِها ورفاهَتِها ، بتأتِّى الأمطارِ عليها ، وتبكير الغوادى نحوَها ، فلا سَقَى هذه الدِّيارَ إلاّ نارًا يهيِّجُ ضِرامُها ، ويؤجِّج لهبُها وسُعارُها ، لتُبيدَ خَيرَها ، وتُفيتَ حُسْنَها وزَهْرَتَها . وقوله « تضطرم » فى موضع الحال للنّار .

٤ — وحَبَّذَا حِينَ تُمسِي الرِّيحُ بَارِدَةً وادِى أُشَيَّ وفِتيَانٌ بِهِ هُضُمُ

٥ — الوَاسِعُونَ إذا ما جَرَّ غيرُهُمُ على العَشِيرةِ والكَافُونَ ما جَرَمُوا

٦ — والمُطْعِمُونَ إذا هَبَّتْ شَـآمِيَةً   وبَاكَرَ الحيَّ مِنْ صُرَّادِها صِرَمُ

قوله « وحبّذا حين تمسي الرِّيحُ باردةً » ، جعلَ ما نفاه من الحبّ والحمد عمّا قدّم ذكرَه من البُلدان ثابتاً لوادى أُشَيّ وأهلِه ، ونبّه على أنّهم فى أوان الجدْبِ والقحْطِ يُشْرِكون غيرَهم من العشيرة فى خيرهم ، ويستنفِدُون الأموالَ التى يُتنافَسُ فيها فيما يَجْلِبُ الحمدَ ، وبيُبْسِ النَّشْر ، إذا هبَّت الريحُ باردةً ، واقشعرت البلاد هامدة ، حتّى يصيرَ وُسْعُهُم مبذولاً لم يتوسّمون فيه إذا جرَّ غيرُهم الجرائرَ على عشيرته ، وذَوِى لُحمته ، ثمَّ مَن اكتسب جريرةً منهم تكفّلوا باستنقاذِه منها ، وأفاءوا ظلَّ الحماية والصِّيانة عليه فيها .

وقوله « والمطعمون » حذف مفعولَه ، وإنّما يصفُهم بأنّهم يقيمون القِرَى للأضياف إذا هبَّت الريح شَمالاً ، وغادَى الحيَّ السحائبُ الباردة طوائفَ وفرقا . وقوله « هُضُم » جمع هَضُوم ، وهو المِنفاق فى الشِّتاء . وقوله « هبّتْ شآميةً » انتصب على الحال . وقوله « الواسعون » مأخوذ من الوُسْع وهو الطَّاقة ، ويقال : لا يَسَعُك كذا ، أى لستَ منه فى سَعَةٍ . والصِّرَمُ ، أصله فى أقطاع الإبل ، فاستعاره .

٧ — وشَتْوَةٍ فَلُّوا أنيابَ لَزْبَتِهَا   عَنْهُمْ إذا كَلَحَتْ أنيابُهَا الأُزُمُ

٨ — حَتَّى انجَلَى حَدُّها عَنْهُمْ وجارُهُمُ   بنَجْوَةٍ من حِـذَارِ الشَّرِّ مُعْتَصِمُ

فلُّوا : كسروا . واللَّزْبة : السَّنة المُجْدِبة ، وجعل الأنيابَ مثلاً لشدائدها . والكُلُوح : بُدُوّ الأسنان عند العُبوس . والأُزُم : جمع أَزُوم ، وهى العَوَاضُّ ، وقوله « وجارُهُمُ بنجوةٍ » أى عِزٍّ ومَنَعَةٍ . والنَّجوةُ : المرتفعة من الأرض لا يبلُغها السَّيل ، فضرَبه مثلاً للمَلاذِ الذى أووا إليه فى فِنائهم حِذَارًا من الشّرّ ، فيقول : رُبَّ شَتْوَةٍ دفعوا أذاها ومعرّتها عن العشيرة أشدَّ ما كانت ، بما قاموا به من

إصلاح أمورهم ، وإزالة ضررها عنهم ، إلى أن انكشفَ حَدُّها عنهم ، وجارهم معتَصِمٌ فيهم بأحمى مكانٍ ، وأمنع عِزٍ ومَلاذ .

٩ — هُمُ البُحورُ عَطاءً حِينَ تسألُهُم وفى اللِّقــاءِ إذا تَلْقَى بِهِمْ بُهَمُ

١٠ — وهُمْ إذَ الخَيْلُ حالُوا فى كَوَاثِبِها فَوَارِسُ الخيلِ لا مِيلٌ ولا قَزَمُ

انتَصب « عطاء » على التمييز ، ويجوز أن يكون مفعولاً له . وارتَفَع « بُهَم » بالابتداء ، وخبَرُه فى اللِّقاء ، ومفعول تَلْقَى محذوف ، كأنَّه قال : إذا تَلْقَى بهم الأعداء . والبُهَم : جمعُ بُهْمَةٍ ، وهو الشُّجاع الذى لا يُدرَى كيف يُؤْتَى له ، لاستبهام شأنِه وتناهى شجاعته . والمعنى : هم البُحُور إذا اجتداهم المُجتَدِى ، لكثرة عطائهم ، أى لا يَنفَد عطاؤُهم على كثرة الاجتداء ، كما لا يَنفَد ماء البحر على كثرة الوُرَّاد ، وهم بُهَمٌ فى اللِّقاء إذا لقيتَ بهم الأعداء ، وإذا ركبَ الفُرسانُ الخيلَ وثَبَتُوا فى كواثبها — والكاثِبة : قُدَّامُ المَنسِج منها — ففُرسانها لا لئامٌ ضعافٌ صغارُ الأجسام ، ولامائلون عن وجوه الأعداء . والمِيلُ : جمع أمْيَل ، وهو الذى يُعْرِض عن وجه الكتيبة عند الطِّعان ، وقيل : هو الذى لا يَثبُت على ظهر الدّابّة . ويقال : حَالَ فى ظَهْرِ دابّته ، إذا ركبها . وارتفع مِيلٌ على أن يكون معطوفاً على فوارس الخيل . ويجوز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوف ، كأنَّه قال : لاهُمْ مِيلٌ ولا قَزَمٌ . وقد مضى القول فى فوارسَ وشذوذِهِ[1] .

١١ — لم ألْقَ بَعْدَهُمُ حَيًّا فأَخْبُرَهُمْ إلَّا يَزِيدُهُم حُبًّــا إلىَّ هُمُ

١٢ — كم فِيهِمِ مِنْ فَتًى حُلوٍ شمائلُهُ جَمِّ الرَّمادِ إذا ما أَخْمَدَ البَرَمُ[1]

يقول : لم أخالِطْ بعد فراقى لهم حَيًّا من الأحياء فخبَرتُهم إلاَّ وازدادوا فى عينى ورَجَحوا ، إذا قِسْتُهم بمَن سواهم فى قياسى ونظرى ، كمالَ آلةٍ وتناهِيَ رياسةٍ

(١) انظر ص ٣٩ — ٤٠ .

وتوفَّراً على من يغتابهم من مُتَحَرِّمٍ بذِمَّة[1]، أو مُدلٍ بقَرابة. وارتفع «هم» الأخير بيزيد، وقد وضع الضَّميرَ المنفصلَ موضع المتّصل لأنَّه كان الوجهُ أن يقول: إلاَّ يزيدونَهُمْ حُبًّا إليَّ. وهذا كما يُوضع الظَّاهر موضعَ المضمر والمضمر موضع الظاهر إذا أُمِنَ الالتباس. وانتَصَبَ «فأخْبِرَهم» لأنَّه جواب النَّفى بالفاء، والعامل أنْ مضمَرةً بين الفاء والفعل.

وقوله «كم فيهمُ من فَتًى حُلْوٍ شمائلُهُ» فكم للتكثير، وموضعه رفع بالابتداء وخبره من فَتًى. ومعنى «جَمّ الرَّمادِ» أى كثير الأضياف، لأنَّ الرماد إنَّما يكثُر بحسَب اتِّساع ضِيافته، وكثرة غاشيته. والبَرَم: الذى لا يدخُل مع القوم فى الميسر، ومفعول أخذَ محذوف، والمراد ما أخَذَ البَرَمُ النَّارَ لبُخله ولشدَّة الزمان ونَكَده. فجعل الفتى حلوَ الشَّمائل، وهى الطبائع؛ لأنَّ الضِّيافة إنما تَكرُمُ وتَشرُفُ بحُسن خُلُق المُضِيفِ وخِفَّتِه فى الخدمة، وملاطفته لضيوفه، وتحفِّيه وبِرِّه بهم.

١٣ — تُحِبُّ زَوْجَاتُ أقْوَامٍ حَلائلَهُ إذا الأنُوفُ امْتَرَى مكنونَها الشَّبِمُ

وَصَفَ النساء منهم بحُسن التوفُّر على أشباههنّ، وكمال التفقّد بما يُهدين إليهنّ إذا قلّت الهدايا واشتدَّ الزَّمان، وبلغ البردُ حدًّا يستخرج مكنونَ الأنوف من الرُّعام[2] فيقول: زوجات الأبرام ومن يشبههم من ذوى الحاجة، أو الممتنعين من المَيسر، يُحْبِبْنَ أزواجَ هؤلاء الفتيان إذا أمْحَلَ الزمانُ واشتدَّ القَحط والجَدْب، لحسن تعطفهنَّ عليهنَّ، وصَرْفِ العناية وجميل التفقُّد إليهنّ. وامترَى: استخرجَ. والشَّبِم: البرد. وأراد بالمكنون المُخاط. والحلائل: النِّساء المتزوجات

---

(١) فى النسختين: «بخدمه»، وليس بشىء.

(٢) الرعام، بالضم: المخاط. وفى النسختين: «الرعال»، تحريف.

سُمِّين بذلك لأنَّها تُحَالُ أزواجها ، أى تنزل معها ؛ والواحدة حايلة وفعيلة بمعنى مُفاعلة ، كقَعِيدةٍ ، وجَلِيسة .

١٤ — تَرَى الأَرَامِلَ والهُلَّاكَ تَتْبَعُهُ يَسْتَنُّ مِنْــهُ عَلَيهِمْ وابِلُ رَذِمُ

١٥ — كَأَنَّ أصحابَهُ بالقَفْرِ يَمْطُرُهُمْ مِنْ مُسْتَحِيرٍ غَزِيرٍ صَوْبُهُ دِيَمُ

الأرامل : جمع الأرمَلِ والأرمَلة ، لأنه يقع الذكر والأنثى ، وهم الذين قد انقطع زادُهم وضاقت الأحوال بهم . والهُلَّاك . هم الفقراء الذين أشرَفُوا على الهلاك ، وإنما قال « تتبعه » لأنهم كانوا يتفيَّئُون بظلِّه ، ويعيشون فى أفنيته من خَيْرِه . وقوله « يَسْتَنُّ منه عليهم وابلٌ » مَثَلٌ لما كان يَنْصَبُّ عليهم ويجرى ويدومُ ، من إحسانِه لهم ، لأنَّ الحيا يُحْيِى الأرض ، كما أنَّ معروفَ هؤلاء كان يحييهم . والرَّذِم : السَّائل . ومعنى : يستنُّ ينصبُّ . سَنَنْتُ الماء وأسننته بمعنًى . والوابل : المطر الضخم القطر .

وقوله « كأنَّ أصحابَه بالقَطْرِ يَمطُرهم » يريد أنهم فى دُورهم ومَحالّهم ذلكَ فِعلُهم مع عشيرتهم ، ومع زُوَّادِهم ومؤمِّليهم ، فإذا سافَرُوا ترى الصَّحابة فى المكان الخالى يمطرهم من نوالِهِ ما يجرى مجرى الصَّوْبِ من سحابٍ متحيِّرٍ ممتلئٍ ماء ، غزيرِ النَّوء ، دائم السَّيل . والدِّيَم : جمع دِيمَة ، وهى المطر يدومُ بسكون ، والمُسْتَحِير والمتحيِّر . بمعنًى واحد . وهذا التَّحيُّر إنَّما هو كنايةٌ عن الامتلاء . ويقال : استحار شبابُه .

١٦ — غَمْرُ النَّدَى لا يَبِيتُ الحَقُّ يَثْمُدُهُ إلَّا غَدَا وهو سَامِي الطَّرْفِ يَبْتَسِمُ

١٧ — إلى المَكارِمِ يَبْنِيها ويَعْمُرُها حتَّى يَنالَ أُمورًا دُونَها قُحَمُ

الغَمر : الواسع العطاء . ومعنى يَثْمُدُهُ يكثر عليه حتَّى يُفْنِيَ ما عنده . والماء المثمود : المزدحَم عليه حتَّى يَنْزُرَ نَزَفًا . وقوله « وهو سامى الطَّرفِ » ،

أى لا يَكسبه امتدادُ العَطاء منه ، ودوامُ الإحسان ، غضاضةَ طَرْفٍ وانكسار نشاطٍ ، بل يُرَى بعَقِبه ضَحُوكا عالىَ النظر . وقوله : « لا يبيتُ الحقُّ يثمُده. إلا غدَا » ، يشتملُ على معنى الشرط والجزاء ، أى كلَّما باتَ الحقُّ يثمد ما عنده غدا سامِىَ الطَّرْف مبتسِما .

وقوله « يَبْنيها ويَعمرها » فى موضع الحال ، أى بانياً عامرًا . وقوله « إلى المكارم » اتّصل « إلى » بقوله « إلاَّ غدَا » . والقُحَم : الشدائد ، واحدتها قُحْمَة ، والمعنى أنّه بذّالٌ سَخِىٌّ جمُّ المعروف ، لا يبيت تورِّدُ الحقوقِ نحوَه يستغرق ما لَه إلّا ابتكرَ وهو ضحّاكٌ عالِى النظر إلى ابتناء المكارم ، جريًا على العادة وإلْفًا لها ، وهو يعمرُها ويصلُ جوانبها بأمثالها حتَّى يُصيبَ أموراً تَحُولُ بينها وبين من يريدُ[1] نَيلَهَا والوصولَ إليها شدائدُ وتكاليف . وقُحَمُ الطَّريق : ما صَعُبَ منها ، وفى الحديث : « إنَّ للخصومة قُحَمًا » ، أى يتقحَّم على المهالك .

١٨ — تَشْقَى بِهِ كُلُّ مِرْبَاعٍ مُوَدَّعَةٍ عَرْفَاءَ يَشْتُو عليها تَامِكٌ سَنِمُ

١٩ — تَرَى الجِفانَ من الشِّيزَى مُكَلَّلَةً قُدَّامَهُ زَانَهَا التَّشْرِيفُ وَالْكَرَمُ

٢٠ — يَنُوبُها النَّاسُ أَفْوَاجًا إذا نَهِلُوا عَلُّوا كما عَلَّ بعدَ النَّهْلَةِ النَّعَمُ

المِرْباع : النَّاقة التى من شأنها أن تضعَ ولدها فى الرَّبيع ، وهى المحمود من النِّتاج ، ولذلك قال :

* أفلَحَ من كان له رِبْعِيُّونْ[2] *

ومِرْباع : بناء المبالغة . والمودَّعَةُ : المكرَّمَةُ الموفَّرَةُ على التَّناسل لا تُعمل

(١) فى الأصل : « يريك » ، صوابه فى ل .

(٢) لأكثم بن صيفى ، أو سعد بن مالك بن ضبيعة . اللسان (صيف) .

ولا تُحَمَّل. والعَوفاء: التى لِسِمَنها صار لها كالعُرْف . والتَّامك : السَّنام المشْرِف . والسَّنِمُ : العالى ، ويقال : بعيرٌ سَنِمٌ ، أى مشرف السَّنام ، والمعنى : تَبقَى شَتْوَتَها سمينةً لا يغيِّرها الجَدْبُ والقَحْط ، وإنما قال « تشقَى به » ، وهو يريد الفتَى لأنَّ المراد لا يَنحَرُ من الجُزُر إلاَّ ما يُتنافَسُ فيه مثل ناقةٍ هذه صفتُها .

وقوله « تَرَى الجِفان من الشِّيزَى مكَلَّلةً » ، يريد أن الجفانَ المعدَّة للأضياف عليها كالأكاليل من فِدَر اللَّحم[1] ، وقد زيَّنها كَرَمٌ بارع ، وتشريف فاخر ، وهذا بما يَستعمِله من اللُّطف والتأنيس مع الأضياف ، ومن توفُّرِ خِدمة الخدم عليهم ، ولكمال بهاء المجلس وكونه مشحوناً بما يَرُوقُ ويُعجِب .

وقوله « يَنُوبُها » أى ينتابُونَها طائفةً بعد طائفةٍ ، وفَوْجاً بعد فَوْجٍ ، فإذا تناوَلوا النَّهل رجَعوا فأعقبوه العَلَلَ ، كما يَفعل ذلك النَّعَمُ عند وروده الماء . وانتَصب « أفواجا » على الحال . والنَّعَم يقع على الأزواج الثمانية ، والغالب عليها الإبل .

٢١ — زارَتْ رُوَيْقَةُ شُعْثاً بَعدما هجَعُوا لَدَى نَوَاحِلَ فى أرساغِها الخَدَمُ

٢٢ — وقمتُ للزَّوْرِ مُرْتاعاً وأرَّقَنِى فقلتُ أهْىَ سَرَتْ أم عادَنى حُلُمُ[2]

٢٣ — وكان عَهدى بها والمَشْىُ يَبْهَظُها مِن القَريبِ ومنها النَّوْمُ والسَّأَمُ

يصف الخيال فيقول : زارت خيالُ هذه المرأةِ قومًا غُبْرًا ، أنضاء مُرْهًا[3] ، بعد ما ناموا عند إبلٍ ضوامرَ مهازيل ، شُدَّت فى أرساغها سُيورُ القِدّ ، لشدَّة سيرها وتأثير الكَلال فيها ، فقمت من مَضجَعى للطَّيفِ الزائر خائفاً ، وطار النومُ عنِّى ، وأخذنى القَلَقُ ، ووساوِس النفس والزَّمَعُ ، فميَّلتُ الفكرَ بين شيئين

---

(١) الفدر ، بالفاء : جمع فدرة ، بالكسر ، وهى القطعة المجتمعة من اللحم . وفى النسختين : « قدر اللحم » ، تحريف .

(٢) التبريزى : « فأرقنى » .

(٣) جمع أمره ومرهاء ، وهو من فسدت عينه لترك الكحل .

أحدُهما زيارتُها بنفسها ، والثانى حُلم نائمٍ اعتادَنى فأرانيها ، وصِرْتُ أُراجِـعُ نفسى وأقول : كيف يجوز مجيئُها ، وكنتُ أعهدها وقطعُ المسافةِ القريبة كانت تتكلَّفه بِشِقِّ النَّفس ، وتحمُّل الثِّقل والكَدِّ . هـذا والغالب عليها المَلالُ مما يُتعِبُ وإن خَفَّ ، وطَلَبُ الراحةِ بالنوم ليسيرِ الخطبِ منها ببالٍ ولو قَلَّ . وانتَصَبَ « مرتاعاً » على الحال .

وقوله « أم عادَنى حُلُمُ » أم هذه هى المعادِلة ، والمعنى أىُّ هٰذين الأمرينِ كان . وقوله « أَهْىَ سَرَتْ » أسكن الهاء من هى مع ألف الاستفهام ، لأنَّهُ أجراها مَجرى واوِ العطف وفائه ، فكما يسكُن معها لأنها لا تقوم بنفسها ولا تستقلُّ كذلك أُسْكِن مع الألف . ومعنى يَبْهَظُها : يَثْقُلُ عليها ويشقّ .

وقوله : والمشى يَبْهَظُها » خبر كان فيه . وقوله : « وكان عهدى بها » الواو واو الحال من قوله أَهْىَ سَرَتْ .

٢٤ – وبالتَّكاليفِ تَأْتِى بَيْتَ جارتِها   تَمْشِى الهُوَيْنَا وما تَبدُو لَهَا قَدَمُ

٢٥ – سُودٌ ذوائِبُها بِيضٌ ترائِبُها   دُرْمٌ مَرَافِقُها فى خَلْقِها عَمَمُ

يقول : ومِمَّا عهِدتُها عليه أنَّها كانت تأتى بيتَ جارتها قضاءً لذِمامٍ ، أو أداءً لواجبِ حَقّ ، بَعد الجَهْد والشدّة ، ومداوَرة النَّفس على أدنَى الكُلْفة والمشقّة ، ومِشْيَتُها الهُوَيْنَا ، أى على رِفْقٍ لا استعجالَ فيها ولا تهافتَ ، ولا تَقاذف فى أعضائها ولا تتابُع ، ولذَيلها على الأرض سحبٌ وجَرٌّ ، فقدَمُها لا تبدو ، ووقارُها المتسبِّب من كِبرها وتَجبها لا يهفو . والهُوَيْنا : تصغير الهُونَى والهُونَى : تأنيث الأهوَن ، وموضعها من الإعراب نصبٌ على المصدر . وقوله « تمشى الهُوَيْنا » فى ضمنه ما يُوصَفُ به مثلها من التُّرْفة وفَرْط الحياء ، كما قال :

كأنَّ لها فى الأرضِ نِسْيًا تَقُصُّه   على أمِّها وإن تُكَلِّمْك تَبْلَتِ[1]

---

(١) البيت للشنفرى الأزدى فى المفضليات ١٠٩ .

وقوله « سُودٌ ذوائبها » يصفُها بأنَّها فى عنفوان شبابها ، ففرعُها أسود ، وصدرُها بما حواليه أبيض ، ومرافقُها لا حجمَ لها لكثرة لحمها ، وخَلقها تامٌّ لاستكمالها .

٣٦ – رُوَيْقَ إنِّى وما حَجَّ الْحَجيجُ له   وما أَهَلَّ بجَنْبَىْ نَخْلَةَ الحُـــرُمُ

قوله « وما حَجَّ الحجيج له » يجوز أن يكون ما بمعنى الذى ، كأنه أقسمَ بالبيت الذى حجَّ إليه الحجّاج ، وبإهلال الحُرُم ، وهو رَفعُ الصوت بالتلبية ، بجَنْبَىْ نخلة ، وهو مكانٌ بقُرب مدينة الرسول عليه السلام يقال له بطْنُ نَخْلَةَ . ويجوز أن يكون ما موضوعاً موضع مِن ، على ما حكى أبو زيد من قولهم : « سبحان ما سَبَّح الرعد بحمده » ، ويكون الله تعالى المُقْسَمَ به .

وقوله « ما أَهَلَّ » يراد به وما أهلَّ له ، فحذف له لتقدم ذِكره وطُول الكلام به . ويجوز أن يكون « ما حجَّ » فى موضع المصدر ، كأنه أقسمَ بحَجّهم وإهلالهم ، ويكون الضمير من له يعود إلى الله تعالى وإن لم يَجْرِ ذِكره ، لأن المراد مفهوم ، أى حَجُّوا له إقامةً لطاعته ، وابتغاء لمرضاته . وجواب القَسم فى قوله « لم ينسنى » . ويقال : أحْرم الرجلُ بالحج فهو مُحْرِمٌ ، وقومٌ حرام وحُرُمٌ ومُحْرِمون .

٢٧ – لم يُنسِنِى ذِكرَكُم مُذْ لم أُلاقِكُمُ   عَيْشٌ سَلَوْتُ به عنكم ولا قِدَمُ

٢٨ – ولم تُشارِكْكِ عِندى بَعْدُ غانيةٌ   لا والذى أصبحَتْ عِندى له نِعَمُ[1]

حلَفَ بما حلف أنه لم يَشغله عن ذِكرهم مذ حصل الفِراق بينهم ، لا عيشٌ استطابَه لمساعَدة الزمان له بما سَرّه فتسلّى عنهم ، ولا بِلَى ما كان يستجدُّه كلَّ وقتٍ من الوجدِ بهم وتَذكار عهودهم تقادُمُ أيّامِ فتناسِاهم ، ولا شاركها فى

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « ولم يشاركك » .

مُستوطَن هواها ومقرٌّ حبِّه لها امرأةٌ غانية ، فتضايق عنها حِماها . ثم ثَنَّى اليمينَ توكيداً فقال : لا والله الذى أصبحَتْ له عنـدى نِعَمٌ مقابلتُها بالشكر واجبةٌ للأمر كما قلت ، فحذف لأن المراد مفهوم .

وقوله « لم يُنسنى ذِكرَكم » يُجاب اليمين من حروف النَّفى بما ، ولـكنه اضطُرَّ فوضع لم يُنسِى موضع ما أنسانى . ولا يمتنع أن ينفرِد القَسَم الأول به جواباً ، ويكون جواب القَسَم الثانى : ولم تشاركك[1] عنـدى ، لأنه خبرٌ ثانٍ ، فقدَّم المُقسَم له على المُقسم به ، كما تقول : ما فعلته والله .

٢٩– مَتَى أمُرُّ على الشَّقْراء مُعتَسِفاً   خَـلَّ النَّقا بمَرُوحٍ لَحْمُها زِيَمُ

٣٠– والوشْمَ قدخَرَجَتْ منهاوقابَلَها   من الثَّنايا التى لم أقلِها بَرَمُ[2]

قوله « متى أمُرُّ » استبعاد واستعجال بما يتمنَّاه من العَوْدِ إلى هذه الأماكن التى ذكرها . ورواه بعضهم « حتى أمُرَّ » ، ويتعلق حتى بقوله « لا والذى أصبحتْ عندى له نِعَم » أى حصَلت له نِعَمٌ عندى كى أمُرَّ ، لأن لِحَتَّى موضعين ، والفعل بعدها منصوب : أحدهما أن يكون بمعنى لأنْ وكَىْ ، والثانى أن يكون بمعنى إلى أن ، تقول : جئتُك حتى تُكرِمَنى ، والمعنى لأن تُكرمَنى ، وكى تكرمنى . وتقول : انتظرْ حتى تخرج ، والمعنى إلى أن تخرج . والشَّقراء ، قال الأصمعى : يعنى فرسَـهُ ، وعلى هذا يكون الشقراء والمَرُوح فرساً واحداً . والباء من « بمَرُوح » يتعلق بقوله معتسِفاً ، وعلى الشقراء بأمُرُّ ، ويكون فى موضع الحال ، أى راكباً الشقراء . وانتصب معتسِفاً على الحال . والاعتساف : الأخذ

(١) فى نسخة الأصل : « ولم يشاركك » .

(٢) التبريزى : « خرجت منه » . والوشم ضبطت فى نسخة الأصل بفتح الميم وكسرها مصحوبة بكلمة « معاً » .

على غيرِ هدايةٍ ولا دِراية . ويقال : فلان يتعسّف الناس ، أى يأخُذهم بغير الحقّ . والخَلّ : الطَّريق فى الرَّمل . والنَّقا : الرمل . والرَّوح : النَّشيط . ومعنى زِيَمٌ : متفرِّق . ووَشْم وبَرَمٌ : موضعان . والثَّنايا : العِقاب . ويروى : « من العِقاب التى لم أقْلِها تُرَمُ » ، وهى جمع تُرْمَةٍ ، وهى صدعٌ يكون فى الثَّنيَّة . ومنه قولهم : فلانٌ أثْرَمُ ، إذا سقط بعضُ ثناياه فصارت بينهما فُرْجَةٌ . ولم أقْلِها : لم أبغضْها . وقد قيل فى الشقراء : إنه موضع أو هضبة . وانعطف « الوَشْمِ » عليه ، وبِرَوح حينئذ يتعلق الباء منه بحتّى أمرّ . وعلى الوجه الأوّل تنصب الوَشْمَ وتَعطِف على خَلّ النَّقا .

٣١– ياليتَ شِعْرِىَ عن جَنْبَىْ مُكَشَّحَةٍ وحيثُ يُبْنَى من الحِنَّاءةِ الأُطُمُ[1]

٣٢– عَن الأشاءةِ هل زالَتْ مَخارِمُها وهَلْ تَغَيَّرَ مِنْ آرَامِها إرَمُ

٣٣– وجَنَّةٍ ما يَذُمُّ الدَّهرَ حاضِرُها جَبّارُها بالنَّدَى والحَمْلِ مُحْتَزِمُ

قوله « يا ليت شعرى » يا حرف النداء ، والمنادى محذوف . وهذا الكلام تحسُّر فى إثرِ ما فاته من أمر الأرَضِينَ المذكورة . وشِعرى اسم ليت ، وخبره محذوف لا يظهر البتّة ، ومفعولا شعرى قوله « هل زالت مخارمها » .

وقوله « عن جنْبَىْ مكَشَّحةٍ » بيان ما تمنّى عِلمَه ، وفى أىِّ جانبٍ هو . ويُروى : « عن جِزْعَىْ مكشَّحةٍ وحَوْثُ » . والجِزْع : جانب الوادى . ومكشَّحة : أرض . وحَوْثُ لغة فى حيث ، لأن فيه أربع لغات : حَيْثُ ، وحَيْثَ ، وحَوْثُ ، وحَوْثَ . فالضمُّ تشبيها له بالغايات قبلُ وبَعد ، والفتحة لخفّته . والحِنَّاءة : أرض . والأُطُم : الحِصْن وكلُّ بناء مرتفع ، والجمع آطام .

وقوله « عن الأشاءة » ، فإن كان الأشاءةُ موضعاً وبعضَ ما يقع عليه

(١) التبريزى : « تبنى » .

مكشّحةٌ فإنه بدلٌ مِن عن جنبَىْ مكشّحة ، وقد أُعيد حرفُ الجرّ معه . وإن كان النَّخلةَ فإنه يجوز أن يريد بَقمَتها ، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامَه . ولا يمتنع أن يكون أراد : وعن الأشاءة ، فحذَف العاطف كما تقول : رأيت زيداً ، عَمرًا ، خالداً . وأنشدنا أبو عليّ الفارسىُّ :

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ ممَّا يزرعُ الحُبَّ فى فؤادِ الكريمِ[(١)]

فيقول : ليت على كان واقعاً بأحوال هذه المواضع ، وهل هى باقيةٌ على ما عهِدتها من قبل ، أو هل تغيَّرتْ أعلامُها وزالت مَخارِمُها . وإنما يدُلُّ على حَنينه إليها ، وتأسُّفه على البُعد عنها .

وقوله « وجَنَّةٍ » يريد وعن جنّةٍ حاضِرُها يَرضَى عن الدَّهر ويَحمَدُه ، فلا يتسخَّط أيَّامَه ، ولا يذمُّ عوارضَه . والجبّار من النَّخل : ما فاتَ اليدَ طُولا .

وقوله « بالنَّدَى والحَمل محتزِم » تنبيهٌ على الخِصب فيها ، وعلى غَضارةِ عيشِ سكَّانها . والاحتزام كالالتفاف[(٢)] ، ويُروى « جَبّارُها بالندى والخَيْر » .

٣٤— فيها عَقائلُ أمثالُ الدُّمَى خُرُدٌ لم يَغْذُهُنَّ شَقا عَيشٍ ولا يُتُمُ[(٣)]

٣٥— ينتابُهُنَّ كِرَامٌ ما يذُمُّهُمُ جارٌ غريبٌ ولا يُؤذَى لهم حَشَمُ

٣٦— مُخدَّمونَ ثِقالٌ فى مَجالِسِهم وفى الرِّحالِ إذا صاحَبتَهم خَدَمُ[(٤)]

قوله « فيها » أى فى الجنَّة . عقائل ، أى نساء كريمات ، كأنهنَّ الصُّوَر المنقوشة حُسْناً ، منعَّماتٌ لم تمسَّهن فاقةٌ وفقر ، ولا جُهِدْنَ بأيّامٍ أدبرتْ عنهن ،

---

(١) فى باب العطف من شرح الأشمونى الألفية : « مما يغرس الود » .

(٢) فى النسختين : « كالالتفات » ، تحريف . وعند التبريزى : « والاحتزام : الالتفاف » .

(٣) ضبطت فى التبريزى « يتم » بالتحريك ، وهى لغات ، يقال يتم بضم الياء وفتحها وبالتحريك . القاموس ، واللسان . وتحريك التاء بالضم هنا للشعر .

(٤) يقتضى شرح التبريزى أن يضبط « خدم » بضمتين . إذ قال : « خدم ، وهو جمع خدوم ، ليقابل مخدمون فى المعنى ، لأن كل واحد منهما يدل على المبالغة » .

ولا شَقِين بعنا كَدة عيشهنّ ، ولا أُصِبْنَ بموتِ كافِلِهنّ أو قيِّمهنّ ، عفيفات ، حييّات ، لا يَعرِفن منكَر الأخلاق ، ولا ما يَشِينُ من الأفعال ، فهنّ ربائب النِّعَم ، وغرائر الزَّمن ، ومُدَلَّلاتُ العشائر والسَّكَن[1] .

وقوله : « ينتابهنّ كِرَامٌ » مَدَح الرِّجال عَطْفاً على مدحهنّ فقال : يدبّر هؤلاء النِّسوةَ رجالٌ كرامٌ أعِزَّاء ، يحمَدُهم الجار الغريب ، لوفائهم له بالعَقْد ، وحُسْن تعطُّفهم عليه عند البلاء والجَهْد ، ويَرْضَى عنهم الخليط النَّسيب لجمال عِشرتهم ، وكَرَم أخلاقهم ، لا كِبْر فيهم ، ولا ترفُّعَ معهم ، ثمَّ ترى حَشَمَهُم يسالمُهم[2] الدَّانى والقاصى ، لعِزّهم وحَمِيَّتهم ونُصرتهم ، وذَهاب صِيتهم ، وهم فى مجالسهم فى الحضَر رِزَانٌ سادةٌ يخدُمهم مَن يغشاهم ، وفى السَّفر خِفاف لِطاف يُكرمون الصَّحابة والمُرافقة ، ويخدُمون الغاشيةَ والمجاورة ، ويتحمَّلون فى أحوالهم المُؤَن المجحفة ، وفى أموالهم النُّوَب المثقِلة . والحَشَم : خَدَم الرَّجل ومن يَحْشَمُ له ، أى يَغضَب عند النَّازلة ، ويدافع دونه لطُروق الكائنة . وقوله « ينتابُهنّ » ، يُروى : « يأتابُهنَّ » يفتعِل من الإياب .

٣٧ـ بل لَيتَ شِعْرِى مَتى أغدُو تُعارِضُنِى جَرْدَاءُ سابِحَةٌ أو سَابِحٌ قُدُمُ

٣٨ـ نَحْوَ الأُمَيلِحِ مِنْ سَمْنَانَ مُبْتَكِرًا بِفِتْيَةٍ فِيهِمُ المَرَّارُ والحَكَمُ[3]

٣٩ـ لَيستَ عَليهمْ إذا يَغدُونَ أرْدِيَةٌ إلاَّ جِيَادُ قِسِىِّ النَّبْعِ واللُّجُمُ

بل : حرفٌ يدخُل للإضراب عن الأوّل والإثباتِ للثانى ، كأنّه لما صَرَف الكلام عما كان فيه وشغَله بغيره أتى بِبَلْ ، إيذاناً بذلك . فيقول : ليت عِلْمِى واقعٌ بما يقتضى هذا السُّؤالُ ، وهو متى ابتكر من سَمْنَان نحو الأُمَيلِح — وهما

(١) السكن : كل ما سكنت إليه واطمأنت من أهل وغيره .

(٢) فى الأصل : « يسائلهم » ، صوابه فى ل .

(٣) التبريزى وياقوت فى معجم البلدان : « أو سمنان » .

موضمان — وتُمارضنى فى السير حِجْرٌ قصيرة الشَّعر ، تَسبَح فى عَدْوها ، أو ذَكَرٌ سابِقٌ يسبِق أصحابه[1] ويتقدَّمُها من حيث جرَى ، ومعى فِتْيانٌ فيهم هذان المذكوران ، ثمَّ وصفَ الفِتيانَ بأنَّهم لا يُهِمُّهم إلاَّ الفُروسيَّةُ وركوبُ الخيل ، وإعدادُ آلاتِ الحرب ، والصَّيدِ والطَّرد . وقوله « إلاَّ جِيَادُ » رفَعَهُ والوجه الجيد النَّصب ، لأنَّه منقطِعٌ ممَّا قبله ، لكنَّ بنى تميمٍ يرفعون مثلَ هذا على البدل . وهذا يُشبِه بَدلَ الغَلط ، لهذا ضَعُف فى الإعراب .

والبيت يشبه قولَ لبيد :

* فُرُطٌ وِشَاحِى إذْ غدَوتُ لِجَامُها[2] *

وانتصب « مبتَكِرًا » على الحال . وقِسِيٌّ مقلوب ، وأصله قُوُوسٌ ، ويروَى : قِياسِ النَّبع[3] » . والمَرَّار قيل هو أخوه[4] . والحكَم : ابنُ عمِّه ، كذا ذكره الأصمعىّ .

٤٠ – مِن غَيرِ عُدْمٍ ولٰكِنْ مِنْ تَبَذُّلِهِمْ لِلصَّيْدِ حِينَ يُصِيحُ القانِصُ اللَّحِمُ

٤١ – فَيَفْزَعونَ إلى جُرْدٍ مُسَحَّجَةٍ أَفْنَى دَوابِرَهُنَّ الرَّكْضُ والأَكَمُ[5]

قوله « من غير عُدْمٍ ولكن » ، تعلَّق مِن بقوله « ليست عليهم إذا يغدون أرديَةٌ » . والمعنى أنّ إخلالهم بلُبس الأردية واستسرانها والتَّأنّق فيها ، لا لفقرٍ وفاقةٍ ، لكن لوَلوعهم بالصَّيد ، وتبذُّلهم له فى الوقت الذى يستمع الصَّائد القَرِمُ

(١) فى الأصل : « صاحبه » ، والصواب من ل .

(٢) صدره : * ولقد حميت الحى تحمل شكتى *

(٣) والقياس : أحد جموع القوس ، ويقال قوس وقسى وقِسى — بضم القاف وكسرها وأقواس ، وقياس .

(٤) المرار العدوى شاعر إسلامى مشهور ، كان معاصرا لجرير ، وقد هاج الهجاء بينهما . وهو المرار بن منقذ بن عبد بن عمرو بن صدى بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم الحنظلى العدوى . انظر المفضليات ٧٢ .

(٥) التبريزى : « إلى جرد مسومة » .

إلى اللَّحم إلى أصحابه ، فى اختيار مواضع الصَّيد ، وافتقاره لقلَّته . ويُروَى « حين يُنادِى السَّائفُ اللَّحِمُ » . قال الأصمعىّ : يريد يرتَدُون بِقِسيِّهم ولُجُم خيلِهم إذا ابتكروا ، لا همَّ لهم غيرُه . والسَّائف : الذى يَحُوش الصَّيدَ على أصحابه[1] ، أى ينادى أصحابَه باعِثاً على الأَخْذ ، ومحذِّرًا من الفَوْتِ .

وقوله « فيَفزعون إلى جُرْدٍ مسحَّجة » أى يلتجئون إلى خيل قصيرة الشعر نشيطةٍ ، قد سحَّجَ بعضُها بعضاً بالعضّ والاستنان . ويجوز أن يريدَ أنَّ العملَ والكدَّ سحجَها ، ألا ترى أنَّه قال : أفنى مآخيرَ حوافرِهنَّ ركضُ الفُرسانِ لها ، واستحثاثُهم إيَّاها ، وتأثيرُ الإكام فى حوافِرها ، لأن جَرْيَهاَ كان عليها . ويقال : أَكَمَةٌ وأَكَمٌ ، وإِكامٌ وأُكُمٌ .

٤٢ — يَضْرَحْنَ صُمَّ الصَّفَا فى كلِّ هَاجِرَةٍ كَمَا تَطَايَحَ عَن مِرْضَاحِهِ العَجَمُ[2]

٤٣ — يَغْدُو أمامَهُمُ فى كُلِّ مَرْبَأَةٍ طَلَّاعُ أَنجِدَةٍ فى كَشْحِهِ هَضَمُ[3]

أصل الضَّرْح الرَّمى . وإنَّما وَصَفَ الخيلَ بصلابة الحوافر ، وأنَّها تكسِر ما تَطَؤُه من صِلاب الصَّفَا إذا سارتْ فى الهاجرة . ثمَّ شبَّهَ مايتطاير من حوافرها من الحصَى بما يتطاير من النَّوَى عن مِرضاحِه . والمِرضاحُ : الحجر الذى يُكسَر عليه النَّوَى أو به . ومعنى تَطَايَحَ : تطايَرَ .

وقوله « يَغدو أمامهم » يعنى فى التصيُّد . والمَرْبَأَةُ : المَحْرَسَةُ . وقوله « طَلَّاعُ أَنجِدَةٍ » جمع نَجْدٍ كَفَرْخٍ وأَفرِخَةٍ ، ولا يمتنع أن يكون أنجدةٌ جمعَ نَجَاد ، ونِجَاد جمع نَجْدٍ ، فيكون أنجِدةٌ جمع الجمع . ويقال : طَلَع الجبَل ، إذا عَلَاهُ . والهَضَم : انضمام الضُّلوع . يصفُ خفَّتَه وشهامته ، وابتذالَه نفسَه فى الصَّيد والفروسيَّة .

---

(١) لم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فى المعاجم المتداولة .

(٢) التبريزى : « يرضخن » ، و « مرضاحه » .

(٣) يغدو ، بالغين المعجمة ، كما فى النسختين والتبريزى .

٥٧٩

وقال عَمْرو بن ضُبَيْعَةَ الرَّقَاشِيُّ[١] :

١– تَضِيقُ جُفُونُ العَيْنِ عن عَبَرَاتِها   فَتَسْفَحُها بعد التَّجَلُّدِ والصَّبْرِ

٢– وغُصَّةِ صَدْرٍ أظْهَرَتْها فرَفَّهَتْ   حَزَازَةَ حَرٍّ فى الجَوَانِحِ والصَّدْرِ

العَبْرَةُ : الدَّمعة ، وقد استعبر ، أى جرى عَبْرَتُه ، ويقال : لأمِّه العُبْر ، وأراه عُبْر عَيْنِه ، أى سُخْنَةَ عَيْنِهِ وما أبكاه . فيقول : تمتلئُ العين دَمْعاً حتَّى تتضايقُ جفونُها عن احتباسه ، فتصُبُّها بعد تَجَلُّدٍ منها فى الإخفاء ، وتَصَبُّرٍ على مدافعة البكاء .

وقوله « وغُصَّةِ صَدْرٍ » يريدُ غُمَّةً اغتَصَّ بها الصَّدر فأظهرتْها ، بعد أن كانت لا تَسُوغ بتنفُّس الصُّعَداء ، فسكَّنت تفظيع لَوْعَةٍ تمكَّنتْ بين الجوانح والصَّدر . والحَزَازةُ : وَجَعٌ فى القلب مِن أذى يُصِيبُه . والجوانح : الأضلاع القصيرة ، الواحدة جانحةٌ . وقوله : « رَفَّهَتْ » : وسَّعَتْ ؛ وعَيْشٌ رَافِهٌ .

٣– ألاَ لِيَقُلْ مَنْ شاء مَا شاء إنَّما   يُلاَمُ الفَتَى فيما استَطاعَ من الأمْرِ

٤– قَضَى اللهُ حُبَّ المالِكيَّةِ فاصطَبِرْ   عَلَيْهِ فقَدْ تَجْرِى الأمورُ على قَدْرِ

ألاَ : افتتاحُ كلام . واللام من « ليقل » لام الغائب ، وقد يدخل فى فعل الحاضر ، على ذلك ما رُوِىَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنّه قرأ : ﴿ فبذلك فَلْيَفْرَحُوا[٢] ﴾ . وقوله « ماشاء » أراد ماشاء أن يقوله ، فحذفَ المفعول ، وكذلك قوله « من شاء » محذوفُ المفعول ، أى من شاء القول ؛ فإنَّ الملامَ يستحقه الفتى

(١) ذكره المرزبانى فى معجمه ٢٢٥ – ٢٢٦ وساق له هذه الأبيات .

(٢) هى قراءة أبى وابن القعقاع وابن عامر والحسن . تفسير أبى حيان (٥ : ١٧٢) وجمهور القراء بالتاء على الخطاب .

فيما يُطِيقه ويَدخُل تحت مقدوره ثُمّ لا يفعلُه ، فأمّا ما لا يطيقه فقد سقط اللّومُ فيه عنه .

وقوله « قضَى اللهُ حُبَّ المالكية » ، يريد حَتَمه اللهُ عليك وأوجبه ، فتكلفِ الصَّبرَ فيه ، فقد تجرى الأمورُ على قَدَرٍ ، أى على تقديرٍ ، تَضيق السُّبلُ عن الانفكاك معه ، فلا حيلةَ فيه إلاّ التزامُها . وهذا تسليةٌ منه لنفسه وبَعْثٌ لها على الرِّضا بما قُسِم له ، وقُضِىَ عليه .

٥٨٠

وقالت وَجِيهَةُ بنت أَوْسٍ الضَّبِّيَّةُ :

١ ــ وعاذِلةٍ تَغْدُو علىَّ تَلُومُنِي ... على الشَّوْقِ لم تَمْحُ الصَّبابةَ مِن قَلْبِي [(١)]

٢ ــ فما لِيَ إنْ أَحْبَبْتُ أرضَ عَشِيرَتِى ... وأَبغَضْتُ طَرْفاءَ القُصَيْبَةِ مِن ذَنْبِ [(٢)]

تقول : رُبَّ لائمةٍ همُّها مقصورٌ على لومى وعَتْبِى ، فيما أهواه وأميلُ إليه ، وأعِد نفسى به فتتشوّقُه [(٣)] ، فلا يؤدِّى عَتْبُها إلى طائلٍ لها ، لأنّ تَنَصُّحَها مردود ، ووعظَها مدفوع ؛ ولا إلى طائل لى ، إذ كان لا تَزداد الصَّبابةُ فى قلبى إلا تمكّنًا وثباتًا ، ولا الاشتياق اللازم لى إلاّ ازدياداً ودواماً ؛ وأنا إذا أحببتُ أرضَ عشيرتى ورهطى ، ووطنَ أحِبّتى وأهلى ، ومَسْقَط رأسى ، وحيثُ حلَّ الشَّبابُ تميمتى ، وأبغضتُ القُصيبة مَنبِتَ الطَّرْفاء ، أرضاً لم أقضِ مأْرُبَةً فيها ، ولا أوجَبتُ مذَمّةً لها ، فلا ذنبَ لى ألامُ فيه ، ولا جريرةَ مكتَسَبَةً فأُعْتَبَ عليها .

وقوله « من ذَنْبٍ » فى موضع الرّفع ، لأنّه اسمُ مالى ، وجواب الجزاء من قوله

(١) أنشد ياقوت هذه الأبيات فى (القصيبة) ، والبيت الأول برواية : « وعاذلة هبت بليل تلومنى » .

(٢) القصيبة : موضع بين المدينة وخيبر .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فتشوقه » . يقال : تشوف إلى الشىء ، أى تطلع ، وتشوق إلى الشىء : اشتاق .

« إن أحبِبْتُ أرضَ عشيرتى » فى قوله « مالى من ذنب » ، وجواب رُبَّ فى قوله « لم تَمْحُ الصبابةَ » .

٣ — فَلَوْ أنَّ رِيحاً أبلغَتْ وَحْىَ مُرْسِلٍ حَفِيٍّ ، لَنَاجَيْتُ الجَنُوبَ على النَّقْبِ

٤ — فَقُلْتُ لَهَا أَدِّى إليهِمْ تَحِيَّتِى ولا تَخْلِطِيها ، طَالَ سَعْدُكِ ، بالتُّرْبِ

٥ — فإنِّى إذَا هَبَّتْ شَمَالاً سَأَلْتُها هَلِ ازْدادَ صَدَّاحُ النُّمَيْرَةِ مِنْ قُرْبِ

الوَحْى : مصدر وَحَيْتُ لك بخبر ، أى أخبرت ؛ ويستعمل أَوْحَى ووَحَى فى معنى البَعث والإلهام . والإيحاء : الإيماء والإشارة . فيقول : لو أنّ ريحاً أدّت خَبَرَ مُرْسِلٍ ، أو بَعْثَ مُلِحّ مُنْفِذ لسارَرْتُ ريحَ الجَنوب على الطَّريق — والحفِيُّ يكون المُلِحّ ، ويكون اللَّطيفَ ، ومصدره الحِفَاية . والنَّقْب: الطَّريق فى الجَبَل — ولَقُلْتُ : يا ريحُ بلِّغيهم تحيَّتى ، وصُونيها عن الإذالة ، وخلطها بالتراب ، أطالَ الله سعادتك . وقوله «طال سَعدُكِ» دعاء لها ، وهو من الاعتراضات المستحسَنة ، ومثله قولُ الآخر :

فَمَا مَسَكُنُنا دامَ الجَيلُ عليكما بِثَهْلانَ إلاَّ أن تُزَمَّ الأباعِرُ[1]

وقول الآخر[2] :

إنَّ الثَّمانينَ وبُلِّغْتَهـــا قد أحوجَتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمَانْ

وقوله : فإنِّى إذا هَبَّتِ الرِّيح شَمَالاً ، انتصابه على الحال . وسَاغَ ذلك فيه لكونه صفةً لا اسماً . وعلى هذا الجَنُوب والقَبُول والدَّبور ، يجوز فى جميعها أنْ تقع أحوالاً لكونها صفاتٍ . وكأنَّ الجَنُوب كانت تَهُبُّ من نحو أرضه مستقبِلةً لديار أحبَّته ، فلذلك جعلها رسولَه . وكانت الشَّمالُ تهبُّ من ناحيةِ أرض حبيبه

(١) ل : « فما مكثنا » . وعلماء البديع يروونه : « دام الجمال عليكما » ويجعلون فى البيت جناسا معنوياً بين الجمال بفتح الجيم وبين « الأباعر » لأن الأباعر جمال بكسر الجيم . فعدل قائل البيت ، وهو امرأة من بنى عقيل ، عن الجناس اللفظى إلى الجناس المعنوى .

(٢) هو عوف بن محلم الخزاعى . من قصيدة فى أمالى القالى (١ : ٥٠ — ٥١) .

مستقبلةً بلادَه ، فلذلك زعمَ أنَّه يسائلها عما استعجَمَ عليه من أخبارهم .

وقال ابن الأعرابىّ : مَهَبُّ الجَنوب يمَانٍ من قِبَل اليمن ، وقلّما تَسْرِى بالّليل ، وهى مباركةٌ . والشَّمالُ شآميَةٌ ، فهى أكثر الرِّياح هبوبا ، وهى صاحبة الشِّتاء .

و «صَدّاحُ النُّمَيْرَة» الصَّدْح: الصَّوت[1] ، يقال : صَدَحَ الدِّيكُ والغُرابُ ، إذا صَوتا . ويَعْنِى جلَبةَ الصَّوتِ ونِداء داعِيهم . والمُنادِى بالرَّحيل فيهم كأنّه ينتظرُهم لحضورِ وقت انتجاعهم ونَهضَاتِهم ، وكان يتعرّف ذلك ليستبْشِر[2] به .

٥٨١

وقال مِرْداس بن هَمّاسٍ الطائى[3]

١— هَوِيتُكِ حَتَّى كادَ يَقتُلُنِى الهَوَى ... وزُرْتُكِ حَتَّى لَامَنِى كُلُّ صاحب

٢— وحَتَّى رأى مِنِّى أُدَانيكِ رِقَّةً ... عَلَيْكِ وَلَوْلَا أنتِ ما لَانَ جَانِبى[4]

٣— ألَا حَبَّذَا لَوْمَا الحياء ورُبَّمَا ... مَنَحْتُ الهوَى مَا ليسَ بالمُتَقَارِب[5]

٤— بأهْلِى ظِبَاءٌ مِنْ رَبيعةِ عامِرٍ ... عِذَابُ الثَّنَايَا مُشْرِقاتُ الحَقائبِ

يقول : بلغتُ الغاية القصوى فى كلّ ما كان فيكِ ولك ، فحمّلتُ نفسى من

(١) التبريزى : «وقيل المراد بصداح النميرة الديك ، وقيل : أهلها ، وقيل : حادى إبلها ، وقيل : صداح النميرة موضع» .

(٢) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : «وكانت تتعرف ذلك لتستبشر به» . وفى الأصل : «ليستشير به» تحريف .

(٣) وكذا فى ل . وعند التبريزى : «مرداس بن همام الطائى» ، وفى معجم المرزبانى ٤٧٤ : «مرار بن مياس الطائى» ، وأنشد الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ . وروى التبريزى عن أبى العلاء أن الأبيات نسبت إلى «مرار بن هماس» .

(٤) التبريزى والمرزبانى : «رقة عليهم» ، وأشير فى هامش ل إلى رواية التبريزى فى إحدى النسخ .

(٥) التبريزى : «ويروى : من ليس بالمتقارب» .

أعباء الهوَى وطلب التّناهى فيه ما كاد يأتى علىّ ، أعُدُّ ذلك واجباً لكِ أؤدّيه ، وفَرْضاً من حقوقكِ أقيمه وآتيه ، ثم أدْمَنْتُ الزّيارة خادماً ، وترددت فى التعرّف والاستعطاف متقرِّباً ، حتّى توجّهَ إلىّ اللّومُ من أصحابى ، واستسرفنى فى البِرّ جيرتى وأودّائى ، وإلى أنْ ظَهر لأقاربِك شفقتى عليكِ ورقّتى ، ووضح ما اشتهر به أسرى عندهم وعُرِف . ولولا أنتِ ابقيتُ على ما وُجدت عليه قديماً مِن صِيانة النّفس وإكرامها وتبعيدها[1] عن المراكب الشّائنة المؤدية إلى ابتذالها ، فلم يَلِنْ جانبى ، ولم يَزُلْ جِماحِى وصعوبتى .

وقوله « ألَا حَبّذَا » المحبوبُ محذوفٌ ، كما حُذِف المحمود فى قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوّابٌ ﴾ ، والمراد حَبيبٌ إلىّ التّهتُّكُ فى الهوى ، وتجاوُز المألوف فيه إلى المستشنَع القبيح ، لولا الحَياء ، على أنّى ربّما مَنَحْتُ هوايَ ما لا مَطْمَعَ فى بلوغه ودنُوّه . وهذا كما قال أبو تمّام :

غَالِى الهوَى ، مِمّا يُرَقّصُ هَامَتِى أُرْوِيّةُ الشّعَفِ التى لم تُسْهِلِ[2]

وقوله « بأهلى ظِباء » رجوعٌ منه إلى استلذاذ الهوَى وإظهار التجلّدِ فيه ، فيقول : أفدى بأهلى نساء من ربيعةِ عامرٍ ، عذابَ المَباسِم ، حِسَانَ الثغور والمَضاحك ، عظاماتِ الأكفال ، مُشْرِفَاتِ الأرداف .

والحقائب : جمع الحقيبة ، وهى عجُز الرّجل والمرأة جميعا . ويقال : امرأةٌ فُعُجُ الحَقِيبة . والقَصْدُ بالتّفدية فى قوله « بأهلى ظِباء » إلى صاحبته ، وإنْ كان لفظه عامًّا لها ولغيرها .

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وتبعدها » .

(٢) برواية الديوان ٢٢٣ : « عالى الهوى مما تعذب مهجتى » ، أى من أجل تعذيب أروية الشعف لمهجتى . والشعف : جمع شعفة ، وهى رءوس الجبال . لم تسهل : لم تصر إلى السهل .

٥٨٢

وقال بعضُ بنِى أَسَدٍ[1] :

١ـ تَبِعْتُ الهَوَى يا طَيْبُ حَتَّى كأنَّنِى   مِنَ أجلِكِ مَضْرُوسُ الجَرِيرِ قَؤُودُ
٢ـ تَمَجْرَفَ دَهْرًا ثُمَّ طاوَعَ أهلَهُ   فَصَرَّفَهُ الرُّوَّاضُ حَيثُ تُرِيدُ
٣ـ وإنَّ ذِيادَ الحُبِّ عَنكِ وقد بَدَتْ   لِعَيْنِى آياتُ الهَوَى لَشَـــدِيدُ

يقول : أعطيتُ الهوى مَقَادَتِى فيك ، فتبِعْتُه حيث جرَّنى ، لا أتمنَّعُ عليه ، ولا أطلُب معدولاً إليه ، حتَّى صرتُ كأنِّى بعيرٌ قد عضَّهُ الجرِيرُ فَلاَنَ وانقادَ . والجرِيرُ : حَبْل مضفور من أدَم . والضَّرْسُ : العَضُّ . والقَؤود : فعول فى معنى مفعول ، فهو كالقَتُوبِ والرَّكوب ، والهمزة فيه بَدَلٌ من العين .

وقوله « تَمَجْرَفَ » ، أى أخذ غيرَ القَصْد زماناً ، لأنَّه كان صَعْباً ثم تَذَلَّلَ ودخل فى طاعة مداوِرِه ، وهذا مثلٌ ضَرَبَهُ للنَّفس فى ابتداء هواه ، وأنَّه تأبَّى عليه مُدَّة ، فتردَّدَ بين جِـدِّه وهَزْلِه ، واقتسارِه ولَيانه ، حتَّى رَكِبَ منه كلَّ مَرْكَبٍ ، واستوطأ ظَهْرَهُ كلُّ استيطاء . فهذا معنى « وصَرَّفَه الرُّوَّاضُ حيث تُرِيدُ » .

وقوله « وإنَّ ذِيَادَ الحُبِّ عنك » ، يريد أنَّ دِفاع حُبِّه عنها وصَرْفَه عَسِرٌ صَعْبٌ وقد بَدَتْ آيات الهوى . والمعنى أنَّ للهَوَى عَلاَمَاتٍ حيثُ مالت بالإنسان ذهَبَ معها ، فيَعُدُّ الغَىَّ رُشْدًا ، ويَرَى التَّهالُكَ فيه حياةً ، ولو رام دَفْعَ حُبِّه عنه ، ولَىَّ نفسِهِ دونَه ، لتعذَّرَ وامتنع .

٤ـ وما كُلُّ ما فِى النَّفْسِ لِلنَّاسِ مُظْهَرٌ   ولا كُلُّ ما لاَ تَستَطِيعُ تَذُودُ[2]

---

(١) الأبيات رويت فى معجم البلدان (غضور) ، وهى بلدة فيما بين المدينة إلى بلاد خزاعة .
(٢) التبريزى : « وما كل ما فى النفس لى منك مظهر » ، وأشار إلى الرواية الأخرى . وروى التبريزى أيضاً : « ما لا تستطيع تذود » .

٥— وإنّى لأرْجُو الوَصْلَ مِنكِ كَمَا رَجَا صَدِى الجوْفِ مُرْتَاداً كُدَاهُ صَلُودُ

يقول : ليس جميعُ ما يشتمل عليه صدرى ، ويشقَى فى الهوَى بتحمُّله جوانحى ، ممكناً إظهارُه ؛ ولا كلُّ ما تطيقُه النَّفس ، أو لا تنهض به ، يسهُل دَفعه ؛ فأنا أسيرُ الهوَى وتَبيمُه ، متردِّدٌ فى بَلواه ، لا أجِدُ منه مَخلَصا ، ولا أستطيع عنه ملجأً ومَنَاصًا .

وقوله « وإنّى لأرجُو الوصْلَ منكِ » يقول : وعَلَى ما أصفُه من حالى فيكِ أرجو وِصالَكِ رجاءَ إنسانٍ شديد العطَش ، يطلبُ الماء من موضِعٍ حَفَرَهُ فأكْدَى ، أى بلغ كُدْيَتَهُ ، وهى حَجَرٌ يَعرِض فى البئر عند الاحتفار فيمتنع قطعُه بالمعاوِل ، وجمعُها كُدًى . وهذا مَثَلٌ ، والمعنى أنّ رجائى فى خَيْرِكِ مَعَ حاجتى رجاءُ رَجُلٍ عطشانَ يطلُب الماء ويرجوه من بئرٍ هكذا . والصَّلُود : اليابس ، ويقال للبخيل : أصْلَدَ وصَلَدَ وصَلُود ، تشبيهاً به ، وكذلك زَنْدٌ صَلُودٌ إذا لم يُورِ . والمرتاد : الطَّالب ، ومفعوله محذوف ، ويجوز أن يُعنَى بالمرتاد المطلوب ، ويراد به الماء ، وقد أقام الصفة مقامَ الموصوف ، وعلى الوجه الأوّل يَنتصب على الحال .

٦— وكيفَ طِلاَبِى وَصْلَ مَنْ لَوْ سأَلْتُه قَذَى العَينِ لم يُطلِبْ وذَاكَ زَهِيدُ
٧— ومَنْ لَوْ رَأَى نَفسِى تَسِيلُ لَقالَ لِى أَرَاكَ صَحِيحاً والفُؤادُ جَلِيــدُ

يصف بُخلَها وتَمنُّعَها فيقول : كيف أستجيزُ طلبَ وصالِ إنسانٍ لو سألته إزالة قَذَى العينِ لم يُجْبنى إليه ، وذاك قليل فيما يُسأل ويُلتمس . فحذَفَ المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، كما قال الآخر (١) :

يا صَخْرُ وَرَّادَ ماءٍ قد تناذَرَهُ أهلُ الموارِدِ ما فى وِرْدِهِ عَارُ

(١) هى الخنساء من قصيدة فى ديوانها . وانظر الكامل ٧٣٧ ليبسك .

يريدُ : ما فى تركِ وُرودِه عارٌ ، فحذَفَ المضاف . ويجوز أن يريد لو سألتُه ألاَّ يُقذِىَ عينى ، كما تقول : سألت فلاناً ضربَ فلان ، أى استوهبته ضربَه لم يُطلِبْنى . ويجوز أن يريد من لو سألته تافِهاً لا خَطَرَ له ولا اعتدادَ به ، فضَرَبَ المثلَ بالقذَى ، والمعنى : لو سألته ما يُقذِى العين .

وقوله « مَنْ لو رأى نفسى » عَطَفَهُ على مَن لو سألتُه ، يريد : ولو رأى دَمِى يَسيلُ لقال لِقسوة قلبه علىّ : أراكَ صحيحا لا داءَ بكَ ولا آفة ، وقلبُه جليدُ ، أى يرقُّ لى ولا يرحمنى ، والمراد على هذا بالقلب قلبُ المرأة ، ويكون الواو فى « والفؤاد » واو الحال ، ويجوز أن يكون من تمام الحكاية ومن كلام المرأة ، والمعنى أنَّها تقول مع ما تَرَى من سَيَلان دمى : أرى نفسَك صحيحة ، وقلبَك ثابتاً ماضيا ، لا آفة بك ولا غائلة .

٨ ــ فيَاأَيُّها الرِّيمُ المُحَلَّى لَبانُهُ بكَرْمَيْنِ كَرْمَىْ فِضَّةٍ وفَرِيدُ
٩ ــ أَجِدَّىَ لاأَمْشِى بِرَمَّانَ خالِيًا وغَضْوَرَ إِلَّا قِيلَ أَينَ تُرِيدُ[1]

كأنَّه استعطفَها وذَكَرها اشتهارَه بها ، وتوجُّهَ التُّهَم إليه بسببها ، حتَّى ضاقَ بهذين الموضعين مَجالُه ، وتعسَّر عليه وإن تفرَّد فيها إمساؤه .

والرِّئْمُ : الظَّبى الخالصُ البياض . والمُحَلَّى لَبَانُه ، أى ترائبُه . بكَرْمَيْنِ ، أى بقِلادتين . والفَرِيد : الدُّرّ . واللَّبَانُ : الصَّدْرُ . وقوله « وفريدُ » إن جعلتَه معطوفاً على فضَّةٍ يكون إقواء ، ولكَ أن ترفعَه بالابتداء والخبرُ محذوف ، كأنَّه قال : وفريدٌ فيهما . ويُروَى : « كَرْمَا فضَّةٍ وفريدُ » ، فينعطِف الفريد على « كَرْمَا » ويكون الكلام على الاستئناف لا الإبدال ، كأنَّه قال : هما كَرْمَا فضَّةٍ وفريدٌ . وهذا أصحُّ وأجود .

(١) التبريزى : « لا أمشى » ، ثم قال : « ويروى : لا أمسى » .

وقوله « أجِدَّىَ » يريد: أعلى جِدٍّ منّى هذا الأمر ، وهو أنّى لا أمْسِى منفرداً بنفسى بَرمَّانَ وغَضْوَرَ إلاّ قيلَ: أينَ مُرادُك . و « أجِدَّىَ » فى موضع المصدر ، والفعل العامل فيه محذوف ، وذكَر الإمساء والمراد الإمساء والإصباحُ جميعاً ، لكنّه اكتفى بذِكر أحدِهما لعلْم النّاسِ بأنّ حالَهُ فيما ذكره يستوى فيه اللّيل والنّهار .

٥٨٣

وقال رجلٌ من بنى الحارث :

١- مُنًى إنْ تَكُنْ حقًّا تَكُنْ أحسنَ المُنَى وإلّا فقَدْ عِشْنَا بها زَمَنًا رَغْدَا

٢- أمَانِىَّ من سُعْدَى حِسَانًا كأنَّمَا سَقَتْكَ بها سُعْدَى على ظَمَإٍ بَرْدَا[1]

المُنَى : جمع مُنْيَةٍ ، وموضعها من الإعراب رَفْعٌ على أنّه خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : هى مُنًى . فيقول : هذه الخصال التى نَعِدُ بها أنفُسَنا فى هذه المرأة وتَعِدُنا بها ، لا تخلو من أن تكون صادقةً أو كاذبةً ؛ فإنْ جاءت صادقةً مُحَقَّقَةً فهى أحسنُ الأمانى وأوفقُها للنّاس ، وإنْ كانَت كاذبةً فإنّا نعيش بذِكرِها منتظرين لها زمناً ممتدًّا ، وعيشاً واسعاً رافها .

وقوله « أمَانِىَّ من سُعْدَى » نَصْبٌ بإضمار فعل ، كأنّه قال : أذكُرُ أمانِىَّ من سُعْدَى . وكَرَّرَ لفظ سُعْدَى تلذُّذًا لاسمِها ، وقد تقدَّم القولُ فى أنّ الأعلامَ وأسماء الأجناس يُفعَل بها ذلك . والمعنى: أذكرُ أمانِىَّ من هذه المرأة جميلةً تُزَجّى أوقاتَنا ، وكأنّ موقعها من قلوبنا موقعُ الماء البارد من ذِى الغُلّة الصّادِى . وقوله « زَمَنًا رَغْدَا » الرَّغْدُ: السَّعَة فى العيش . ويقال: عيش راغِدٌ ورغِيدٌ . وانتصاب رغْداً على أنّه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنّه قال : عِشْنَا عَيْشًا رَغْدًا بها زمناً .

(١) التبريزى : « من سعدى رواء » ، مع رفع « أمانى » و « رواء » .

ولا يمتنع أن يكون صفةً لقولِهِ زَمَنًا ، كأنّه قال عَيْشًا واسِعًا . وقوله « على ظَمإٍ بَرْدًا » يريد ماءً ذا بَرد .

٥٨٤

آخر (١) :

١— وخُبِّرتُ سَوداءَ القلوبِ مَرِيضةً ... فأقبلْتُ مِنْ أهلي بِمِصْرَ أعودُها

٢— فواللهِ ما أدرِى إذا أنا جِئتُها ... أأُبْرِئُها مِنْ دائِهَا أم أزِيدُهَا

قوله « خُبِّرْتُ » تتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل ، ومريضةً للمفعول الثالث . وقوله « أعودُها » في موضع الحال من أقبَلْتُ . ويجوز أن يريد بقوله « سوداء القُلوب » أنَّها تَحُلُّ من القُلوب محلَّ السُّويداء منه ، كأنَّ القلوبَ على اختلافها

---

(١) هو العوام بن عقبة بن كعب بن زهير . وكان من سبب الشعر ما روى التبريزى عن أبي محمد الأعرابي أن صواب رواية البيت الأول : « سوداء الغميم » ، وأن سوداء الغميم امرأة من بنى عبد الله بن غطفان ، اسمها ليلى ولقبها سوداء ، وكانت تنزل الغميم من بلاد غطفان وكان عقبة بن كعب بن زهير ينسب بها ، ثم علقها بعده ابنه العوام بن عقبة وكلف بها ، وكانت تجد به كذلك ، فخرج إلى مصر فى ميرة فبلغه أنها مريضة ، فترك ميرته وكرنحوها وأنشأ يقول :

نبيت سوداء الغميم مريضة ... فأقبلت من مصر إليها أعودها

فياليت شعرى هل تغير بعدنا ... ملاحة عينى أم يحيى وجيدها

وهل أخلقت أثوابها بعد جدة ... ألا حبذا أخلاقها وجديدها

ولم يبق يا سوداء شيء أحبه ... وإن بقيت أعلام أرض وبيدها

فوالله ما أدرى إذا أنا جئتها ... أأبرئها من دائها أم أزيدها

نظرت إليها نظرة ما تسرنى ... بها حمر أنعام البلاد وسودها

ولو أن ما أبقيت منى معلق ... بعود ثمام ما تأود عودها

فلم يزل يلطف حتى رأته ورآها ، فأومأت إليه أن ما جاء بك ؟ فقال : جئت عائداً حين علمت علتك . فأشارت إليه أن ارجع فإنى فى عافية . فرجع لميرته واستعز بها المرض ، فجعلت تتوله إليه حتى ماتت . فبلغه الخبر فقال :

سقى جدثا بين الغميم وزلفة ... أحم الذرى واهى العزالى مطيرها

وفيها يقول :

وإن تك سوداء العشية فارقت ... فقد مات ملح الغانيات ونورها

تميل إليها وتنطوى على حبّها . ويجوز أن يكون كان اسمها سوداء وأضافها إلى القُلوب ، كما قال ابن الدُّمَيْنَة :

قِفِى يا أُمَيْمَ القَلْبِ نَقْضِ تحِيَّـةً ونشكُو الهوى ثمَّ افْعَلِى ما بَدَالَكِ

ويجوز أن يكون أراد أنَّها قاسية القلب سوداؤه ، فجمعَ القلبَ بما حوله فقال القلوب ، أو لأنَّها كأنَّ لها مع كلِّ مُتيَّم بها قَلْبًا ، فقال القُلوب على ذلك . فيقول : نُبِّيت أنَّها تألَّمتْ لعارض عِلةٍ ، فأقبلتُ مِن أهلى بمصرَ عائدًا لها ، وواللهِ أحلِفُ ما أدرى إذا حَصَلْتُ عِندَها أأصبر شِفاء مما بها ، أو أزيدُ فى شكواها لتبرُّمِها بى ؛ كأنَّه ظن بها تنكُّرًا وحُؤُولًا عن العهد . وقوله « أم أزيدها » يريد : أم أزيدها داء ، فحذف لأنَّ المرادَ مفهوم .

٥٨٥

وقال آخر :

١— إنِّى وإيَّاكِ كالصَّادِى رَأَى نَهَلاً ودُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بهـا التَّلَفا

٢— رأى بِعَيْنَيْهِ ماءً عَزَّ مَوْرِدُهُ وليسَ يَمْلِكُ دُونَ المَـاءِ مُنْصَرَفا

يقول : مَثَلى ومَثَلُك فى مِسَاسِ حاجتى إليكِ ، وتناهِى رغبتى فى وَصْلِكِ والنَّيل منك ، وفى احتجازِك عنِّى وامتناعِك منِّى ، مَثَلُ رَجُلٍ عطشانَ شاهد ماءً ، وقد حال بينه وبين وروده وَهْدَةٌ عميقَةٌ يَخْشَى من اقتحامِها الهلاكَ ، فالماء بمرأى معه ، وقد غَلَبَه المانع عنه ، ليس يقدرُ على انصرافه من دونِه ، لغلبةِ العطَش عليه ، وشِدَّة الفاقة إليه ، فكذلك أنا وأنتِ . وقوله « رَأَى نَهَلاً » فى موضع الحال ، وقد مقدَّرةٌ فى الـكلام ، لأنَّ رأى بناء للماضى . والنَّهَلُ والمَنْهَل : للماء ، وموضع الماء . وقوله « ودونَه هُوَّةٌ » فى موضع الصِّفة للنَّهَل ، كما أنَّ عزَّ مورِدُه فى موضع الصِّفة للماء . وإنَّما قال « رأى بعينيه » فذكرَ

العينَ تأكيداً للرُّؤية . ومثله قوله تعالى : ﴿ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحَيه﴾ وما أشبهَه .

٥٨٦

وقال آخر :

١ — أَلَا بأَبِينـــا جَعْفَرٌ وبأُمِّنَا نَقُولُ إِذَا الهَيْجَاءُ سَارَ لِوَاؤُها

٢ — ولاَعَيْبَ فيه غيرَ ماخَوْفِ قَومِهِ على نَفْسِه أَلَّا يَطولَ بقـــاؤُها

قوله « ألاَ بأبينا » ، الجملة في موضع المفعول لقوله نَقول . والباء من « بأبينا » تعلَّقَ بفعل مضمَر ، والمراد : نفدِي بأبينا وأمَّهاتنا جعفراً إذا سار الجيشُ وحَمَل لواءَ الجيش قاصِدًا إلى الهَيجاء . وأضافَ اللِّواء إلى ضمير الهيجاء لحاجتها إليه .

وقوله « ولا عَيْبَ فيه » يريدُ أنَّ جعفراً برىءٌ من العُيوب إلا من مخافةِ قومِهِ على نفسه ألَّا تطول مُدَّتُها ، ولا يتنفَّس مَهَلُها . وليس ذلك بعيب ، وإنَّما يُشفِقون ممَّا ذَكرَ تنافساً في حياتِه ، ورغبةً في الانتفاع به وبمكانه ، لكنَّه أراد أنَّ مَنْ ذلك مَعِيبُه ، فكيف يكون مَرضيُّه .

فإنْ قيل : لِمَ أدخَلَ هذا في جملة النَّسيب وليس هو منه ؟ قلتَ : لطافةُ لفظِه وحلاوةُ معناه ، ومناسبتُه بذلك للنَّسيب ، أدخلَتْهُ في هذا الباب . وقد فَعَل ذلك في هذه العلّة مثلَ هذا فيما تقدَّم ، ونبَّهنا عليه[1] .

٥٨٧

وقال آخر :

١ — وإِنِّي عَلَى هِجْرَانِ بَيْتِكِ كالَّذِي رَأَى نَهَلًا رِيًّا ولَيْسَ بِنَاهِلِ

٢ — يَرَى بَرْدَ ماءٍ ذِيدَ عَنْهُ ورَوضَةً بَرُودَ الضُّحَى فَيْنانَةً بالأَصائِلِ

يقول : إنِّي على ما أجرِي عليه من تَعزُّلي لبيتك ، ومهاجرَتي لفِنائك ، ولما

(١) انظر ما سبق في ص ١٢٦٧ .

أنقى به من مكاشَفة الرُّقباء على ترصُّدهم بالمكروه لى ولك ، واختلافهم فى التقاط حديثى وحديثك ، لكالعطشان وقد رأى ماء مُرْوِياً كثيراً ، بارداً شَهِيًّا ، فمُنِع منه ، وشافه[1] روضةً باردةَ الظِّلِّ عندالضَّحاء ، كثيرةَ الأفنان والغُصون ، إذا هَبَّت رِياح العِشاء خِيل بينه وبينها . والنَّهَلُ : الماء . والنَّاهِل : الرَّيَّان هاهنا ، ويكون العطشانَ أيضاً فى غير هذا . وذِيدَ عنه ، أى مُنِع منه . والفينانة : الكثيرة الأفنان ؛ وهو فَيْعَالٌ . والفَنَن : الغُصن . والأصائل : العشيَّات .

وقوله « يرى بَرْدَ ماء » ، يقول : يرى ماء باردا ، لأنَّ البَرد لا يُدرَك بالعين . وإن شئتَ قلتَ : جعلَه للمبالغة فى الوصف كالمحسوس .

٥٨٨

وقال آخر :

١ — فَمُرَّا على أهْلِ الغَضَى إنَّ بالغَضَى رَقارِقَ لا زُرْقَ العُيونِ ولا رُمْدا[2]

٢ — أكادُ غَداةَ الجزْعِ أُبْدِى صَبابَةً وقَدْ كُنْتُ غَلَّابَ الهوَى ماضياً جَلْدا

يخاطب صاحبَين له يسألهما أن يَجُوزا بأهل الغضَى ، لأنَّ فيها نساء يترقرقُ ماء الشَّباب فيهن ، لا زَرَقَ فى عيونهنَّ ولا رَمَد . ويقال : فَتًى رَقْرَاقٌ ، وفتاةٌ رقراقةٌ ، والمراد به ابتداء الشَّباب . وذكَر بعضُهم أنَّ المراد بالرَّقارق مياهٌ رقيقة ، وأنَّ الزُّرْقَ الصَّافية ، والرُّمْد المتغيِّرة الألوان ، والأوَّل أقرب ، لأنَّ الرَّمَد لا يُستعمل إلَّا فى الحاسَّة ، ولأنَّ الفائدة فى كون مياهٍ بالغضَى على هذه الصِّفة قليلةٌ . وقَصْدُ الشَّاعر فيما كلَّفَ صاحِبَيْهِ أن يجدِّدَا عَهْدًا بأهل الغضَى ، ويتعرَّفا من أخبار محبوبته ، ما تسكُن نفسه إليه . وفى قوله « إنَّ بالغضَى رقارق » ، إذا جعلتَ الرَّقارق نساء ، نَسِيبٌ بها وبصواحبها : وقوله « لا زُرقَ العُيون » ،

(١) كذا فى النسختين ، ويعنى بها المقاربة . (٢) ل والتبريزى : « مرا » ، بالخرم .

ثَبَّتَ لهُنَّ كَحَلَ العيون وسلامتَها من الآفات ، بنفي الأضداد عنها ، وهذا كتحديد الشَّيء بالسَّلْب .

وقولُهُ « أكاد غَدَاةَ الجزْع » يَصِف ما نالَه غداةَ يومِ البَين ، وأنّه مع ثباته في الشّدائد ، وصَبره على النّوائب ، وحُسن تماسُكه عن جوالِب الهَوَى ، يفتضحُ ويظهرُ عليه من الاكتئاب والوَجد ما يُستَدَلّ به على مستكِنّات صبابَتِه ، وخفيَّات أحوالِه .

٣ ــ فَلِلهِ دَرِّى أىَّ نظرَةِ ذِى هَوًى   نَظَرْتُ وأيدِى العِيسِ قد نَكَبتْ رَقْدَا[1]

٤ ــ يُقَرِّبْنَ ما قُدَّامَنَا مِنْ تَنُوفَةٍ   ويَزْدَدْنَ مِمَّنْ خَلْفَهُنّ بِنَا بُعْدَا

قوله « لله دَرّى » يجرى مجرى: لله خيرى . ومن عادتهم أن ينسُبوا ما يُعجبهم إلى الله تعالى ذكره ، وإنْ كانت الأشياء كلُّها في الحقيقة له . وقد فارَقَ دَرّى بالاستعمال على هذا الوجه المصادرَ ، فلا يَتعلّق به شىء من متعلّقاتها . وقوله « أىَّ نَظْرَةِ ذِى هَوًى » تعجُّب ، وانتصَب أىَّ بنظرتُ . وكأنّه لمّا صبَرَ عند ما رأى من آيات الفِراق ولواذع البَين ، وصار بمرأى منه ومَسمَع ، من التَّهيُّؤ للارتحال ، ومن تدبير عوارض السَّفَر ، عَدَّ ذلك من نظَرِه وجلَدِه شيئاً عجيبا . ومعنى « نَكَبَتْ رَقْدًا » وهو موضع كان يجمعُهم . ويجوز أن يريدَ بذلك نظَرَهُ في إثرِ الظَّعائن تحسُّراً وصاحبتُه معهنّ ، كما قال الآخر[2] :

بعينَىَّ ظُعْنُ الحَىِّ لما تَحَمَّلُوا   لَدَى جانبِ الأفلاجِ مِن جَنْبِ تَيمَرا

وقوله[3] :

ولما بَدَا حَوْرَانُ في الآلِ دُونَها   نَظَرتَ فلم تَنظُرْ بعينيكَ مَنظرا[4]

(١) التبريزى : « أى نظرة ناظر » ، وأشار إلى الرواية الأخرى .

(٢) هو امرؤ القيس . ديوانه ٩٠ .

(٣) هو امرؤ القيس . ديوانه ٩٥ .

(٤) يروى أيضاً : « والآن دونه » .

ويكون على هذا قوله « نَكَّبتْ رَقْدًا » معناه انحرفن عنه وتَرَكْنَه ، لكونه مَفرِّق الطُّرق .

وقوله « يقرِّبنْ ما قُدَّامَنا من تنوفةٍ » وصفَ العِيسَ بالسُّرعة . والتَّنُوفة : المَفازة . والمراد أنَّ ما يقطعُه غيرُها فى يومين تقطعُها هذه فى يومٍ . والكلامُ تحسُّرٌ وتوجُّع ، لتباعُدِه عن هواهُ معهم . ومثله قول الآخر :

إذا نحنُ قلنا وردهُنَّ ضُحَى غَدٍ تَمَطَّيْنَ حتَّى وِرْدُهُنَّ طُرُوقُ

وتعلُّق الباء من قوله « بنا » بقوله يَزْدَدن . وبعدًا ، انتصبَ على التَّمييز .

٥٨٩

وقال ابنُ هَرِمٍ الطَّائى[1] :

١ ـــ إنِّى على طُولِ التَّجنُّبِ والنَّوَى وَوَاشٍ أتاهَا بى وواشٍ بها عِنْدِى[2]

٢ ـــ لَأُحْسِنُ رَمَّ الوَصْلِ مِنْ أمِّ جَعفرٍ بِحُذِّ القَوافِى والمُنَوَّقَةِ الجُرْدِ

يصفُ حُسنَ تأتِّيه فى عِمارة الهوى والحبِّ ، وبليغَ لُطفهِ فى تَلافِى ما يخاف انقطاعَه من علائق الوصل ، وانتكاثَه من وثائق العهد ، لوِشاية واشٍ ، أو تضريب مُفْسِدٍ ، أو قَدْح ساعٍ بالنَّمائم متزيِّدٍ . فيقول : إنِّى على مُطاوَلة البِعاد ، ومعاوَنةِ الوُشاة بالتَّحريش والإفساد ، لأُحسِنُ عِمارةَ الحال بينى وبينها ، ورمَّ ما يَسْتَرِمُّ من جوانب وِصالها ، بما أنظِمُهُ من الشِّعر ، وأُحكِمُهُ من عُقَد السِّحر فى رَسائلى ، وأردُّدُهُ من الرُّسُل المتوجِّهين إليها على رواحِلى . وقيل فى الحُذِّ : إنَّها الأبيات النافذة ، وقيل : هى الخفيفة الوزن ، اللَّطيفة السَّبْك . وقيل : إنَّها المستقلَّة بأنفُسِها ، ويقال : بيتٌ أحَذُّ ، إذا لم يكن مُضَمَّنًا . والمُنَوَّقَةَ : المَرُوضة

(١) التبريزى : « الكلاب » .

(٢) التبريزى : « التجنب والهوى » و « لها عندى » .

المُذَلَّلة من النُّوق . كذا قال الخليل . والجُرْد : السِّرَاع . ويقال : نجَا أجْرَدُ . قال الشّاعر :

* جَذْبَ القَرِينَةِ للنَّجَاء الأجْرَدِ[1] *

وخبر إنّ فى قوله « لأَحْسِنُ رَمَّ الوَصلِ » .

٣ـ وأَسْتَخبِرُ الأَخْبَارَ مِنْ نَحْوِ أرْضِها وأسْأَلُ عَنْهَا الرَّكْبَ عَهْدُهُمُ عَهْدِى

٤ـ فإنْ ذُكِرَتْ فَاضَتْ مِنَ العَيْنِ عَبْرَةٌ عَلَى لِحْيَتِى نَثْرَ الجُمان من العِقْدِ

قوله « وأستخبِرُ الأخبارَ » ، يجوز أن يكون على حذف المُضاف وإقامة المضاف إليه مَقامه . والمراد : وأستخبر ذَوِى الأخبار من نحو أرضها . ويجوز أن يريد أرجِـعُ فيما أعرف من أخبارها فيما بينى وبينَ نفسها حالاً بعد حال ، طالباً لاستخراج زيادةٍ فيها ، ومستمتعاً بما يكون حاصلاً فيها ، فكأنّى أستخبرُ نفس الخبر . وقوله « وأسأل عنها الرَّكبَ عَهْدُهم عَهْدِى » مثله قول الآخر .

* وذِكرُكِ من بينِ الحديثِ أُريدُ *

استحلاء لاسمها ، وتلذُّذًا بذكرها .

وقوله « فإن ذُكِرَتْ » يقول : وإذا قَرَعَ سمعى ذِكرُها بكيتُ شوقًا إليها ووجداً بها ، فسال الدَّمعُ من عينى ، وانتثر ما غَشِىَ لحيتى منه نَثْرَ الجُمَانِ من قلادةٍ لم يُتفقَّد نظامُها ، وخانَ سِلْكُها ، وتناثرَ حبّاتُها . وانتصب « نَثْر » على المصدر من غير لفظه ، فهو كقولك : تبسَّمَتْ وميضَ البَرْقِ . وقوله « عهدُهم عهدى » ، الجملة فى موضع الحال من أسأل .

(١) النجاء : السرعة . والقرينة : الناقة تشد إلى أخرى .

٥٩٠

وقال عمرو بن حكيم[1] :

١ — خَلِيلَيَّ أَمْسَى حُبُّ خَرْقَاءَ عَامِدِى ... فَفِي القَلْبِ مِنْهُ وَقْرَةٌ وصُدُوعُ

٢ — ولو جَاوَرَتْنَا العَامَ خَرْقَاءُ لم نُبَلْ ... على جَدْبِنَا أَلاَّ يَصُوبَ رَبِيعُ

جعلَ « أمسَى » لاتصال الوقت . وخَرْقَاء : اسم امرأة . وقوله عامِدِى : مُمرِضى ، يقال : أىُّ شىء يَعْمِدُك ، أى يُوجِعك . والوَقْرَةُ : الهَزْمَةُ والأَثَرُ . يقال : وُقِرَ الشىء ، إذا جُعِلَ فيه وَقَرَاتٌ . قال الهذلىُّ[2] :

* فَوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالِكَ ضَائعُ[3] *

يَعنى بالبَزّ سَيفا .

يقول : يا خليلَيَّ ، إنَّ حبَّ خرقاءَ أمسى يَقْدَحُ فى قلبى ، فقد صار فيه من أجله صُدُوعٌ ، وآثارٌ وشقوق ، ولو اتَّفقَ فى هذا العام معها اجتماعٌ لم نُبالِ وإن أجْدَبْنَا ألاَّ يَقعَ مطر ؛ إذ كان التبرُّك بها ، والاستسعاد الشَّامِلُ بمكانها ، يقوم مقامَ كلِّ خِصْبٍ . وقوله « لم نُبَلْ » جزمَه مرَّتين لأنَّه كان نُبالِى ، فدخل الجازمُ عليه فحذَفَ له الياء فصار لم نبالِ ، ثم أسكن اللام بعد أن طلبَ تخفيفَه لكثرته فى الكلام ، فالتقى ساكنان : الألف واللام ، فحُذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار لم نُبَلْ ، ومثل هذا لا ينقاس . وقوله « على جَدْبِنَا » فى موضع الحال ، تقديرُه مُجْدِبين . ويقال : صاب المَطَرُ يَصُوب ، إذا وقع . والرَّبيع :

---

(١) التبريزى : « عمر بن حكيم » . وفى معجم المرزبانى ٢٤١ : « عمرو بن حكيم ابن معية التيمى ، من ربيعة الجوع ، إسلامى » . وأنشد له البيتين .

(٢) هو قيس بن عيزارة الهذلى . ديوان الهذليين (٣ : ٨٧) . وانظر ما سبق فى ١٤١ ، ٣٩٠ .

(٣) صدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

المَطَر . ويقال : ما باليتُ بكذا وكذا بالةً وباليةً . أى لم نُبالِ بأن تنقطع الأمطارُ على ما بنا من جَدْب .

٥٩١

وقال آخر[1] :

١ — ألِمَّا عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَوْ وَجَدْتُها بِهَا أَهْلَهَا ما كانَ وَحْشًا مَقِيلُها

٢ — وإِنْ لم يَكُنْ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعةٍ قلِيلاً فإِنِّي نافِعٌ لِي قليلُها

يأمُرُ صاحبَيه بزيارة دار حبيبه ، ولو كان ساعةً . وخصَّص الدار بقوله « التى لو وجدتُها بها أهلها » ، والمعنى التى لو وجدتُها مأهولةً ما كان موضعُها وَحْشًا ، أى خاليا مُوحِشًا ، لكثرة أهلها وكثرة غواشى النَّعَمِ فيها . وفى الحديث . « أنَّ قريشاً قالوا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّا لأكرمُ مُقاماً وأحسنُ مَقِيلاً » ، أى موضعا ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿أصحابُ الجنَّةِ﴾ — يعنى النَّبيَّ عليه السلام وأصحابَه — ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ . ويقال : باتَ فلان وَحْشاً ، أى خالى البَطْن ؛ وتوحَّشَ للدَّواء[2] .

وقوله « وإنْ لم يكنْ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعةٍ »[3] ، يريدُ إلاَّ تعريجَ ساعة ، وعَطْفَ ساعةٍ . ولم يرضَ بأن أضافَ المُعَرَّج إلى السَّاعة حتَّى وصفَه بقوله قليلًا ، وهذا على هذا التقدير يكون من الصفات المؤكِّدة ، لا المُفِيدة[4] ، كما يجيء الحالُ كذلك . ولا يمتنع أن يريد تعريجا [قليلا[5]] فى ساعةٍ ، فيكونُ الصِّفةُ مفيدة .

(١) قال أبو رياش : « البيت الثانى لذى الرمة فى قصيدته التى أولها :

« أخرقاء للبين استقلت حمولها »

والبيت الثانى بنسبته إلى ذى الرمة فى ديوانه ٥٥ وأمالى القالى (٢ : ٢١٦) والتنبيه لابن جنى .

(٢) يراد بالدواء المسهل . وتوحش للدواء ، إذا أخلى معدته ليكون أسهل لخروج الفضول .

(٣) فى الديوان : « فإن لم يكن إلا تعلل ساعة » .

(٤) المفيدة ، بالفاء فى النسختين والتبريزى .

(٥) التكلة من ل .

وقوله « فإنِّى نافِـعٌ لى قليلُها » يجوز أن يرتفع قليلُها بنافِـع ، ونافِـعٌ خبر إنّ ، كأنه قال : فإنِّى ينفعنى قليلُها . ويجوز أن يكون قليلُها مبتدأ ونافِـعٌ خَبَرٌ له مقدَّم عليه ، والجملة فى موضع خبر إنّ ، والتقدير إنى قليلها نافِـعٌ لى ، وانتَصَبَ مُعَرَّج على أنَّه خَبَرُ لم يكن ، أراد : وإن لم يكن الإلمامُ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعَة .

٥٩٢

وقال آخر :

١ — ماذَا عَلَيْكِ إذا خُبِّرْتِنِي دَنِفًا رَهْنَ المنِيَّةِ يَوْمًا أنْ تَعُودِينا(١)

٢ — أو تَجْعَلِي نُطْفَةً فى القَعْبِ بارِدَةً وتَغْمِسِى فَاكِ فيها ثُمَّ تَسْقِينا

قوله « دَنِفًا » أى مُشرِفًا على الهلاك ، وانتصابه على أنَّه مفعول ثالث لخُبِّرَ . وقوله « ماذا عليكِ » لفظُه استفهام ومعناه تقريع وبَعْث . وانتَصَبَ « رهنَ المنيّة » لأنه صفة لدنفا ، ومعناه فى ضمن المنية ومَلَكَتِها ، وكالرَّهْنِ عندها ، إنْ شاءت أغلقَتْه ، وإن شاءت فَكَّتْهُ . والمراد : أىُّ شىءٍ عليكِ من أن تعودينا ، إذا أُخبِرْتِنى عليلًا . فقوله « عليك » يقتضى فعلا ، وذلك الفعل يَعمَل فى أن تَعُودِينا ، وقد حُذِفَ حرفُ الجرّ منه ، أى لا عارَ عليك ولا ضررَ من عِيادتنا ، ولا من مُداواتِنا بماء هذه صفته ، فهلَّا فعلْتِ . وقوله « يَوْمًا » ظَرْفٌ لخُبِّرْتِنِي . وقد تقدم القول فى « ماذا » فى مواضِع(٢) .

---

(١) دنفا ، بفتح النون وكسرها ، كما ضبطت فى النسختين مقرونة بكلمة « معا » فيهما .

(٢) انظر ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

٥٩٣

وقال جَميلٌ[1] :

١— بُثَيْنَةُ ما فيها إذا ما تُبُصِّرَتْ مَعَابٌ ولا فيها إذا نُسِبَتْ أَشْبُ

٢— لَهَا النَّظْرَةُ الأُولَى عَلَيْهِمْ وبَسْطَةٌ وإن كُرِّتِ الأبصارُ كان لها العَقْبُ[2]

٣— إذا ابتَذَلَتْ لم يُزْرِها تَرْكُ زِينَةٍ وفيها إذا ازْدَانَتْ لِذِي نِيقَةٍ حَسْبُ

تُبُصِّرَتْ ، أى استُقْصِيَ النَّظَرُ إليها ، والكَشْفُ عن حالها . والمَعَابُ : العَيب . والأَشْبُ : الخَلْطُ : يقول : إنَّها عند السَّبْرِ والنَّظَر ، والكَشْف والتأمُّل ، نَقيَّةٌ من العَيب ، بَرِيئةٌ من الشَّوْب ، فلها عند المبالغة فى البحث النَّظرة الأولى ، ولها البسطة وهى النَّظْرة الثانية ، ويعنى بها أن يَنْبَسِطَ التَّميزُ على ما يتجلَّى من أمْرِها ، ويُسَلَّط التنقير على كثيرٍ ممَّا يخفى من أحوالها . قال : ولها العَقْبُ أيضاً ، وهو النَّظَر بعد النَّظَر ، وفى موضعٍ آخر الجَرْى بعدَ الجَرْى . والعَرَبُ تقول : « النَّظرة الأولى حمقاء » فلهذا قال : لهذه المرأةِ النَّظرة الأولى ، ولها الكَشْفَةُ الثَّانية وهى البَسْطَةُ ، ولها البَحْثَةُ الثالثة ، وهى تَعَقُّب التَّجربتين بتجربةٍ ثالثة .

وقوله « إذا ابتَذَلَتْ » يقول : إذا تَرَكَتِ التزيُّن واكتَسَت المَبَاذِلَ لم يَقْصُرْ بها ذلك ، وإن تَزَيَّنَتْ كان فيها للمتأنِّق الكفايةُ من جميع ما يُطلَبُ فيها نَفْسًا وخَلْقًا ، ومُتَنَسَّبًا وخُلُقًا . وقوله « لم يُزْرِها » أى لم يُزْرِ بها ، يقال : زَرَيْتُ عليه وأزريتُ به ، لكنَّه حذف الجارّ . وقوله « حَسْبُ » أى كافٍ ،

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ .

(٢) التبريزى : « ويروى : لها النظرة الأولى عليهن بسطه » .

فهو مبتدأ. على هذا تقول: حَسْبِيَ اللهُ وحدَه[1]، ومثل هذا قول جرير:

إذا جُنِيَتْ فالحَلْىُ منها بمَعْقِدٍ مَليحٍ وإلاَّ لم يَشِنْها عَواطِلُه

٥٩٤

وقال الحارثىّ[2]:

١ — سَلَبْتِ عِظامِى لَحْمَهَا فتَرَكْتِها مُجَرَّدَةً تَضْحَى إليكِ وتَخْصَرُ[3]

٢ — وأَخْلَيْتِها مِن مُخِّها فكأَنَّها قَوارِيرُ فى أجوافها الرِّيحُ تَصْفِرُ[4]

يقول: أَذَبْتِنى بهواكِ، وانحسَر اللحمُ من عظامى وتعرَّت، فهى بارزةٌ فى النَّهار للشمس، وعند الليل للبَرد، إذا أَوَّبْتُ إليك وأسْأَدْتُ. و «إليكِ» موضعه بالفعل الذى يقتضيه نصبٌ على الحال، وإنّما قال هذا لأن للمهزولَ الحَرُّ والبردُ إليه أسرع وأشدُّ تأثيراً فيه. ويقال: ضَحِيَ يَضْحَى ضَحًى، أصابَه حرُّ الشمس، ولغةٌ: ضَحَا يَضحُو ضَحْوًا وضُحُوًّا.

وقوله «وأخليتِها من مُخِّها»، يريد أنها أذهبت النِّقْيَ من العظامِ أيضاً ورقَّقَتْها، فخلَت من مخها واستَشَفَّت، فهى كالقوارير الخالية لو هبَّت الريح لصفَرَت بما يتخلَّلها من الريح صفيرَها.

وقوله «فى أجوافها الرِّيح تصفِرُ» الجملة فى موضع الصِّفة للقوارير، وموضع تَصْفِرُ نصبٌ على الحال إن جعلتَ الرِّيحَ ترتفع بالظَّرف، وكذلك مجرَّدة فى موضع الحال. ويروى: «فكأنها أنابيبُ فى أجوافها الريح»، والأول أحسَنُ

---

(١) ابن جنى فى التنبيه: «ليس حسب هذه هى التى فى قولك فى الأمر: حسبك ينم الناس. تلك اسم للفعل، أى اكتف، ولذلك جزم ينم كما يجزم جواب الأمر. لكن حسب هنا هى التى فى قول الله تعالى: فإن حسبك الله، أى كافيك. وأصلها جميعاً من قول الله سبحانه: عطاء حسابا، أى كافيا».

(٢) كذا فى النسختين والتبريزى. والأبيات منسوبة إلى المجنون فى أمالى القالى (١: ١٦٢).

(٣) الأمالى: «معرقة تضحى لديك».

(٤) وكذا فى الأمالى. وعند التبريزى: «فتركتها أنابيب»

٣ — إذا سَمِعَت باسْمِ الفِراقِ تَقَعْقَعَت مَفاصِلُها مِن هَوْلِ ما تَتَنَظَّرُ[١]

٤ — خُذِى بِيَدِى ثم انْهَضِى بى تَبَيَّنِى بِىَ الضُّرَّ إلاّ أنَّنِى أتَسَتَّرُ[٢]

جعل الإخبار عن العِظام، وإن كان ما وصَفه حالاً للجملة لا لها وحدها، لقوله: سلبتِ عظامى لحمها. والمعنى إنّ ذكرَ الفِراق يبلُغ منها هذا المبلغَ العظيم. وهى أنها لارتعادها تَتَداخل مفاصلُها ويحتكُّ بعضُها ببعض حتى تَسْمَعَ لها قعقعة، وذلك لهَوْلِ ما ينتظرُه من وقوعه فى نفسِه، واستعظامِه للخطْب وفيه وله.

وقوله «خُذِى بيدى» أراد أن يُرِيَها ما تستبعدُه من وصفِ حاله بالخَبَر مشاهَدَةً، فقال: خُذِى بيدى مستنهِضةً لى يَبِنْ لكِ أمرى، ويظهرِ المكنونُ فيك من ضرِّى، والمجلوبُ علىَّ من هُزَالِى، والمستورُ عنكِ من سوء حالى، وقوله «إلاّ أنَّى أتستّرُ» استثناء منقطع من الأول، كأنّه أراد: لكنّى أتَستَّرُ بتجلُّدٍ أُظهِرُهُ، وبصبرٍ أتّقى الناس بِهِ. وفى البيتِ طِباق بقوله تَبَيَّنِى وأتَسَتَّرُ. وأصل تبيَّنِى تَتَبَيَّنِى، فحذف إحدى التاءين.

تم باب النسيب، والحمد لله على تظاهر آلائه، وتوالى نعمائه،
والصّلاة على سيدنا محمد وآله[٣].

---

(١) القالى:

إذا سمعت ذكر الفِراق تقطعت علائقها مما تخاف وتحذَرُ

(٢) التبريزى: «ثم ارفعى الثوب فانظرى». وأنشد بعده هذين البيتين ولم يروهما القالى:

فما حياتى إنْ لم تكُنْ لكِ رحمةٌ علىَّ ولا لى عَنْكِ صبرٌ فأصبرُ

فوالله ما قصَّرتُ فيما أظنُّهُ رضاكِ، ولكنّى مُحِبٌّ مكفَّرُ

(٤) الكلام من أول «تم» إلى هنا لم يرد فى ل.

بَابُ الْهِجَاءِ

بابُ الهجاءِ[1]

٥٩٥

قال موسى بن جابر[2] :

١ — كانَتْ حَنيفةُ لا أبالَكَ مَرَّةً عِنْدَ اللِّقاء أسِنَّةً لا تَنْكُل

٢ — فرأتْ حَنيفةُ ما رأتْ أشياعُها والرِّيحُ أحيانًا كذاكَ تَحَوَّلُ

هذا الكلام تهكُّم وسخريةٌ . ولا أبالك : بعثٌ وتحضيض ، وليس بنفي للأبوّة ، وخبر لا محذوف ، لأنَّ النيّة في لا أبالكَ الإضافة ، ولذلك أثبتَ الألفَ في أبا ؛ فكأنَّه قال لا أباكَ موجودٌ أو في الدُّنيا . وقد مضى القولُ فيه مشروحاً[3] . فيقول : كانت هذه القبيلة فيما مضى من الأيَّام ، وتَقَضَّى من المِرار ، عند لقاء الأعداء وفيما تباشره من الأمور والأحوال ، أسِنَّةً لا تكبو ولا تضعُفُ نَفاذًا في العَزائم ومَضاء ، ولا تَنْبُو ولا تقف ، نُكولاً في العَزائم ونُكولاً ، فقد عادت الآن مقتدية بأشياعها ، وآخِذَةً إخْذَهم في الارتداد والنُّكوص والإحجام والنبوّ ؛ والرِّيح تتحوَّل أحياناً [كذلك ، مرّةً تكون شمالا ومرّةً

---

(١) التبريزي : « الهجاء هو الوقيعة في الأنساب وغيرها ، ورمى الإنسان بالمعايب وأصله التسكين ، من قولهم : هجا غرثه وجوعه وأهجى ، إذا سكن . فكأنه إذا رمى الإنسان بالعيوب سكن من إشرافه . وقيل : بل معناه التفصيل ، ومنه حروف الهجاء ، وهجا فلان الكلمة ، إذا فصل حروفها . فكأن الشاعر إذا هجا غيره مزقه وفصله » .

(٢) سبقت ترجمته في الحماسية ١٢٣ ص ٣٦٣ . قال التبريزي رواية عن يعرف العبرية « إنما سمى موسى لأنه لما رفع من بين الماء والشجر قالوا : موشى ، كأن معناه منشول ، أى خشلوه كما ينشل اللحم من القدر » . وهذا يطابق ما ورد في سفر الخروج ٢ : ١٠ .

(٣) انظر ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

جنوبا . وقوله « كذا » موضعه من الإعراب نصبٌ على المصدر من تحوّل .
أراد : والرِّيح تتحوّل أحيانا[1]] تحوُّلا كذلك . أى كما عرفتَ .

٥٩٦

[وقال قراد بنُ حَنَشٍ الصَّارِدىّ[2]] :

١ — لقومِىَ أرْعَى للعُلَى مِنْ عِصَابَةٍ   من الناسِ يا حارِ بْنَ عَمْرٍو تَسُودُها
٢ — وأنتم سَماءٌ يُعجِبُ الناسَ رِزُّها   بآبِدَةٍ تُنْحِى شَـدِيدٍ وئيدُها
٣ — تُقَطِّعُ أطنابَ البُيوتِ بحاصِبٍ   وأكذَبُ شىءٍ بَرْقُها ورُعُودُها
٤ — فوَيْلُمِّهَا خَيْلاً بَهَاءً وشارَةً   إذا لاقَتِ الأعداءَ لولا صُـدودُها

يقول : لقومى أحسنُ رعايةً وتفقُّدًا ، وأوفرُ عنايةً وتكسُّبًا لأسباب العُلَى وحِفظ أواخِيِّها ومواخِّها ، من طائفةٍ من الناس أنتَ تسُـوسُها وتُدبِّرُها ، وما أشبَهُـكم فى كثرة دعاويكم وقِلّة فَعالِـكم إلاّ بسحابةٍ تكثُرُ بُرُوقُها ورعودُها ، ويُعجِب متأمِّلَها ومستمعَها رَبابُها وهديرها ، بريحٍ تُعَدُّ آبدةً — أى أعجوبةً أو داهيةً تبقى على الأبد — شديدةِ الخفيف ، قَطَّاعةٍ لحبال البيوت بما يجىء منها بالحصْبَاء ، ثم تراها مُخلِفةً[3] فيما وعَدَت من المطر ، فأكذَبُ شىءٍ بَرْقُها

(١) التكملة من ل .
(٢) التكملة من التبريزى وابن جنى فى التنبيه . وقال المرزبانى فى معجمه ٣٢٧ : « قراد ابن حنش بن عبد الله بن عبد العزى بن صبيح بن سلامة بن الصارد بن مرة ، جاهلى من شعراء غطفان المشهورين . وهو قليل الشعر جيده . قال أبو عبيدة : كانت غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ، ادعى الأبيات التى أولها :

إن الرزية لا رزية مثلها   ما تبتغى غطفان يوم أضلت

وهم بنو الصارد بن مرة بن عوف بن غطفان . الاشتقاق ١٧٦ قال التبريزى : الصارد : النافذ : صرد السهم يصرد صردا .
(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « مخالفة » .

اللَّمّاع ، ورغدُها النَّبّاح . والباء من قوله « بآبدة » تعلقت بقوله « يُعجِب الناس » أى يعجب رزّها بآبدةٍ ، أى ومعها آبدةٌ .

وقوله « فَويْلُمِّها خيلاً » انتصب خيلاً على التمييز ، وحذفت الهمزة من أمّ فى قوله « ويلمِّها » لكثرة الاستعمال ، وليس الحذف هذا بقياس . واللفظة تفيد التعجُّب . و « بهاء » انتصب على أنه مفعول له ، فيقول ساخرًا : ويلمِّها من خيل ، لكمال بهائها ، وحسن شارتها ، عند لقاء الأعادى ، لولا انهزامُها وإعراضُها .

ورُوِى : « لقَوْمِىَ أدْعَى للعُلَى » بالدال[1] ، والأوّل أحسن وأصوَب .

والعِصابة : الجماعة . وقوله « يا حارِ بنَ عمرو » الترخيم فى قول من يقول فى النداء يا حارث بن عمرو ، فيضُم وينوِّن فى غير النداء ، فيقول : هذا زيدٌ بنُ عمرو[2] . وأحسن منه فى قول من يقول : يا حارثَ بنَ عمرو ، فيفتح ويجعل الأول والثانى بمنزلة شىء واحد ، وذلك أنه يُخرج آخر الاسم إذا جُعِل مع الصِّفة شيئاً من أن يكون آخرًا ، والترخيم يدخل الأواخرَ لا الأوساط .

وقوله « وأنتم سماء » يُسَمُّونَ السحابَ سماءً ، وكذلك المطر . ألاَ ترى قوله :

---

(١) التبريزى : « المراد أكثر دعاء إلى العلى » .

(٢) هذا نص نحوى نادر . وقال ابن جنى فى التنبيه : « كان القياس ألا يجوز ترخيم الاسم الموصوف بابن ، من قبل أن العلم إذا وصف بابن فلان فقد جعلا معا كالاسم الواحد ، ولذلك قالوا يا زيد بن عمرو ، ففتحوا الأول لفتحة الثانى ، وإذا كانا كالاسم المفرد فقد حصل جزء الاسم الأول حشوا إذن لا طرفا ، وإذا كان حشوا لم يتطرق عليه حذف الترخيم . فهذا وجه قياس امتناعه ، غير أنه جاز فيه الترخيم من حيث كان الموضع موضع إيجاز واختصار ، ولذلك حذف التنوين من الأول ، فلما جاز حذف تنوينه بغير إضافة جاز أيضاً حذف آخره للترخيم » .

إذا سَقط السّماء بأرضِ قومٍ رَعَيْناهُ وإن كانوا غِضَابا[1]

والرِّزّ والوئيد جميعاً : الصّوت. ومعنى تُنْجِى تُقْبِل. وقوله « لولا صدودُها» جواب لولا فى صدر البيت ، وقد تقدّم القول فى المبتدإ بعده ومجيئه بِلا خبر[2] .

٥٩٧

وقال عُمارة بن عَقِيل[3] :

١ – مَن مُبلِغٌ عنِّى عَقيلاً رِسالةً فإنك من حَـرْبٍ علىّ كريمُ

٢ – ألم تَعْلَمِ الأيّامَ إذْ أنتَ واحِدٌ وإذْ كلُّ ذى قُرْبَى إليكَ مُلِيمُ[4]

٣ – وإذْ لا يَقِيكَ النّاسُ شيئاً تَخافُه بِأنفُسِهم إلاّ ألّذِينَ تَضِـيمُ

تمنَّى أن يتّفق من يبلِّغ عَقيلا عنه رسالتَه ، فأتى بلفظ الاستفهام ، والرسالة « إنك من حَرْبٍ علىّ كريم » وما بعده. وبنَى كلامه على الاستعطاف ، ثم أخذ فى التَّقريع. ومعنى قوله : « إنك من حربٍ علىّ كريم » إنك تكرُم علىّ من جملة من ينتسب إلى بنى حَرب[5] .

---

(١) لعود الحكماء معاوية بن مالك ، كما فى اللسان (سما) .

(٢) انظر ص ٢٨٣ .

(٣) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى : « عملس بن عقيل بن علفة » . وقد سبقت ترجمة عقيل بن علفة فى ص ٤٠٠ . وفى الأغانى (١١ : ٨٤) نسبة الأبيات إلى علفة بن عقيل بن علفة ، وعلفة بن عقيل أخو عملس بن عقيل . وأما عمارة فهو عمارة بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى ، وكان شاعراً مقدما فصيحا ، يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء فى الدولة العباسية فيجزلون صلته ، ويمدح قوادهم فيحظى بكل فائدة . وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة . الأغانى (١٠ : ١٨٣) . ونسبة الشعر إلى عمارة نسبة خاطئة . وللأبيات قصة فى ترجمة عقيل بن علفة من الأغانى (١١ : ٨٤) .

(٤) التبريزى : « ألا تعلم الأيام » . الأغانى : « أما تذكر الأيام » و « ذميم » .

(٥) وقد تابعه التبريزى فى هذا الفهم ، وليس لعقيل بن علفة علاقة ببنى حرب . وإنما الحرب هنا العداوة والمشاكسة التى كانت مستمرة بين عقيل بن علفة وبنيه ، يعنى أنه مع ذلك يكن له إكراماً واحتراما .

وقوله « ألم تعلم الأيامُ » تذكيرٌ له بخِذْلان عشيرته إياه ، وتفرُّدِه بما كان يقاسيه ، فيقول : أتذكر حينَ كنتَ فرداً وحيداً لا ناصر لك ، وإذْ كان كلُّ قريبٍ ونسيب لك مُلِيماً عندك — والُمليمُ : الذى يأتى بما يُلامُ عليه — وحين لا وَاقِيَ لك من شىء تخافه إلا الذين أنت تظلمهم الساعةَ . فقوله « إلاَّ الذين » استثناء بدل ، ويجوز أن يكون فى موضـع النَّصب على الاستثناء المطلق ، والضمير العائد إلى الذين من الصِّلة محذوف ، استطالةً للاسم ، والتقدير : تَضِيمُهُم ، أى تظلمهم .

وقولُه : « ألم تعلم الأيام » ، ألم : يقرَّرُ به فيما ثبت ووقع . ويروَى « الأيامُ » بالرفع ، و « الأيامَ » بالنصب . فإذا رويتَ الأيامَ بالنَّصب يكون الخطاب لعَقِيل ، ويكون تَعْلَمُ بمعنى تعرف . والمعنى : أما عَرَفْتَ الأيامَ التى كان حالُكَ فيها ما ذكرت ، وأَتَنَسَّى تلك الأيام . والمراد بالأيام حوادثُ الدهر . وقوله « إذ أنت » ظرفٌ لما ، وإذا رفعتَ الأيامَ يكون المعنى : ألم تعرف الأيامُ حالَتَك وقصَّتَك — والمعنى أهلُ الأيامِ وأصحابُ الأيام — حين كنتَ كذا وكذا . فيكون الكلام على حذف المضاف .

٤ — أتَرْقَعُ وَهْىَ الأَبْعَدِينَ ولم يَقُمْ لِوَهْيِكَ بينَ الأقْرَبِينَ أديمُ[1]

٥ — فأمَّا إذا عَضَّت بكَ الحربُ عَضَّةً فإنَّكَ مَعْطوفٌ عليـكَ رَحِيمُ

٦ — وأمَّا إذا آنَسْتَ أمْناً ورخْوَةً فإنَّكَ لِلقُرْبَى ألَدُّ خَصُـومُ[2]

وقوله[3] : أترقع لفظه استفهام ، ومعناه التقريع ، فيقول : إنك تَسعَى فى

---

(١) رواية الأغانى :

تناول شأو الأبعدين ولم يقم لشأوك بين الأقربين أديم

(٢) التبريزى : « خصيم » لكن شرحه يدل على أن الكلمة محرفة ، فهو يقول نقلا عن المرزوقى ، وإن لم يصرح كعادته : « والخصوم بناء المبالغة ، وهو أبلغ من خصيم لأنه أشد تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين » . وانظر ما سيأتى فى الحواشى من كلام ابن جنى .

(٣) هذا ما فى ل ، وفى الأصل : « يقول » .

استعطاف الأباعد وإدنائهم ، وإصلاح الفاسد من أحوالهم ، رجاء التئام أمرك بهم ، وقد أفتَّ نفسَك حظَّكَ من أقاربك ، ومِن تَحدُّبِهِمْ عليك ، لسَعيك فى إفساد أحوالهم ، ونَحت أثلَتِهِم ، وتضييع غيبتهم . وهذا رأىٌ فائلٌ ، وتوفيق سيِّئٌ .

وقوله «لم يقم لوهْيك» ، يريد بالوهْى الذى يحصلُ بك وبثلبك واغتيابك . وذِكر الأديم مَثَلٌ ، أى لا يَبقَى أصلُه لتمزيقك ، ولا يثبت صِحّتُه لتخريقك . ويقال : فلانٌ صحيحُ الأديم ، وفلانٌ نَغِلُ الأديم . وفى المَثَل : « أوسَعْتَ وهْيًا فارْقَعْهُ » .

وقوله « فأمّا إذا عَضت بكَ الحربُ عَضَّةً » يريدُ : أنك إذا نابتْك نائبة ، وأصابتك من أزَمات الزَّمان وعضَّاته أزْمة ، وألجأتك من مَصارفِ الحرب ضَغطةٌ فإنك تستعطف عليك ذَويكَ وعشيرتَك ، وتعتمد رحمتَهم لك ، وتطلب شفقتَهم والأخْذَ بالفضل فيك . وقوله « رَحِيمُ » هو فعيلٌ فى معنى مفعول ، أى إنك معطوفٌ عليك مرحوم .

وقوله « وأمّا إذا آنستَ » ، يقول : أمّا إذا أمِنتَ ووجدتَ من مَضايقك رخاء ، ومن شَدائدك لِيناً ، على حسَب عادةِ الدَّهر فى تلوُّنه ، فإنّك تَخرُج خصماً ألدَّ لهم ، تَطلب إعلاقَ الحجج عليهم ، وتَسدُّ أبوابَ الخير دونهم ، وتَصرِف مَفاتحَ الرُّشْد عن وجوههم وطرُقهم ، وهذا غايةُ اللُّؤم وسوء الاختيار . والألدُّ : الشَّديد الخُصومة ، العَسِر الانقياد . وهو اليَلَنْدَد والألندد . والخَصُوم : بناء المبالغة ، وهو أبلغ من خَصِيم ، لأنّه أشدُّ تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين[1] .

---

(١) ابن جنى : « خصوم أشد مبالغة من خصيم ، لأنها أقرب إلى الأصل الذى هو فعول ، أعنى المصدر . فإن قلت : فإذا كانت فعول أشد مبالغة من فعيل فهلا جاءت الآية بسم الله الرحمن الرحوم ؟ قيل : قد حصلت المبالغة بالرحمن ، لأن فعلان من أبنيتها . وقد قال ابن عباس : إنهما اسمان رقيقان من الرحمة أحدهما أرق من الآخر ، يعنى الرحيم ، فلما كانت الرحمة فى الأصل من بنى آدم رقة ولينا وكانت هنا رأفة وتعطفا ، كان فعيل أليق لها لفظا من فعول » .

٥٩٨

وقال أرطاةُ بن سُهَيَّةَ المُرِّى[1] :

١ ــ تَمَنَّتْ وَذاكُمْ مِن سَفاهةِ رأيِها لِأَهْجُوَها لَمَّا هَجَتْنِي مُحارِبُ

٢ ــ مَعَاذَ الإلهِ ، إنَّنِي بقبيلتِي وَنفْسِيَ عنْ ذاكَ المَقامِ لَراغِبُ

ارتفع قوله « محارب » بفعلها وهو تمنّت . فيقول : تمنَّتْ هذه القبيلةُ لما تحكَّكت بى وهجتنى، وتشهَّت مقابلتى إيّاها بمثلِ مافَعَلَتْ ، وذلك لِخفَّةِ رأيِها، وتناهِى جهلها . فقوله «وذاكم» الواو واو الابتداء ، وهى للحال ، وذاكم ابتداء ، ومن سفاهة خَبَرُه . وتلخيص البيت : تمنَّت مُحارِبُ لما هجَتنى لأنْ أهجوها ، وذاكم مِن سفاهة رأيها . والمراد : حَدَّثَتْ مُنْيَتُها لهجوى لها . ومثله :

* أريدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا[2] *

وفى القرآن : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم[3] ﴾ .

وقوله معاذ الإله انتصب على المصدر ، أى أعوذ بالله معاذًا من أن آتىَ ذلك ، لأنّى أرغبُ بنفسى وأربأُ بأصْلى عن الوقوف فى ذلك المقام ، وأصُون شَرَفى وأرفع عقلى عن مُساوَقتهم لفظًا بلفظ ؛ وفعلاً بفِعل .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ .

(٢) قطعة من بيت لكثير فى أمالى القالى (٣ : ١١٩) . وهو بتمامه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

(٣) التبريزى : « فإذا جعل تمنت من الأمانى المعروفة فالمعنى ودت أنى أهجوها لتفخر بذلك ، ويكون الفعل واقعا على مضمر محذوف ، كأنه قال : تمنت أموزا لأهجوها ، وأكثر الكلام تمنيت أن يكون كذا ، فيصل الفعل إلى أن وصلتها من غير حرف متوسط ... وإذا جعل قوله تمنت فى معنى كذبت فالمراد أنهم تكذبوا على فى الهجو لأغضب فأهجوهم » .

٥٩٩

وقال زُمَيْل[1] :

١ — إنّى امرؤٌ أطوِى لمولاىَ شِرّتِى ... إذا أنْرَت فى أخْدَعَيْك الأنامِلُ

٢ — خُلِقتُ عَلَى خَلْقِ الرِّجال بأعظُمٍ ... خِفَافٍ تَطَوَّى بينَهنّ الأنامِلُ

٣ — وقَلْبٍ جَلَتْ عنه الشُّؤُونُ وإنْ تشأْ ... يُخَبِّرْكَ ظَهْرَ الغَيبِ ما أنتَ فاعِلُ

يصف نفسَه فى البيت الأوّل بأنّه يكفّ أذاه عن مولاه ، وأنّه إذا أجمعَ أهلُ الرّأى على نسبة مُخاطَبه إلى الغَدر ، والخيانة والشّرّ ، فأشاروا بأصابعهم إذا وَلّى إلى قفاه ، فقالوا : هذا قفَا غادِر ، فإنّه ينطوى شِرّتَهُ فى ذلك الوقت عن مولاهُ ومكروهَهُ ، فلا يُعْنِتُ نسيبا ، ولا يؤْذِى جاراً قريبا ولا غريباً .

وقوله « خُلِقتُ على خَلْق الرِّجال » تبجّح فى هذا البيت بأنه شَخْتٌ من الرِّجال قليلُ اللحم ، مَديدُ القامة ، فَخَلْقُه خَلْقُ الرجال لا خلق النِّساء ، فلا يشينُه سُمْنَةٌ[2] ولا فَشَلٌ ، ولا يقعد به آفةٌ ولا كسل ، فأعظُمُه خِفاف ، ومفاصله بينها مطوّيةٌ مُمَحَّصةٌ لطاف .

وقوله « وقَلبٍ » عطَفَه على بأعظُمٍ ، يريد : وبقَلْبٍ هَذَّبَهُ الأمور ، وكشفَ عنه الطّبع والرّين مزاولةُ الشُّؤُون ، فهو بتجاربه يتصوّر ما لم يكنْ بصورةِ ما قد كان ، ومتى شئتَ أخْبَرَكَ بخُبْرِهِ ومعرفته ، وفَرْط شهامته وتمييزه ،

---

(١) التبريزى وابن جنى : « وقال زميل بن أبير » ، وزميل وأبير بهيئة التصغير ، ويقال فى اسم أبيه أيضا « وبير » و « دبير » . وهو من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، أحد بنى عبد الله بن عبد مناف وهو قاتل ابن دارة فى خلافة عثمان ، ويقال فيه أيضا « زميل بن أم دينار » منسوبا إلى أمه . المؤتلف والمختلف ١٢٩ والإصابة ٢٩٧٣ والخزانة (١ : ٢٩٣ — ٢٩٤) ، وكان بينه وبين أرطاة بن سهية مهاجاة .

(٢) المعروف فى السمنة أنها دواء السمن .

وحِدَّةِ نَظَره وبصيرتِهِ بما أنتَ فاعلُه بعد الغيب . وانتصب « ظَهرَ الغيب » على الظَّرف ، و « ما أنت » ما فيه بمعنى الذى ، وأنت فاعل من صلته ، وقد حذف حرف الجرّ معه ، كأنَّه قال : يُخَبِّرُك بما أنت فاعله . ويقال : خَبَّرْتُه كذا وخبّرته بكذا ، وحدَّثته كذا وحدَّثته بكذا .

٤ — ولَسْتُ بِرَبْلٍ مِثْلِكَ احْتَلَمَت به عَوانٌ نَأَتْ عَن فَحْلِها وهى حَافِلُ[(١)]

٥ — فَجِئتَ ابنَ أحلامِ النِّيام ولم تَجِدْ لِصِهْرِكَ إلاَّ نَفْسَها مَنْ تُبَاعِلُ[(٢)]

كان رواية الناس قبلنا « احتملتْ به » والصواب « احتلمت به » ، بدَلالة قوله « فجئتَ ابنَ أحلام النِّيام » . والرَّبل : السَّمين الرَّطب ، وقد تقدم ذكرُه وتصاريفه[(٣)] . والعَوان : النَّصَف من النِّساء ، والفعل منه عَوَّنَتْ ، ويقال : عانَتِ البقرةُ عَوْناً ، صارت عَوَاناً . وحَرْبٌ عَوَانٌ : قُوتِلَ فيها مرَّةً بعد أخرى فيقول : لستُ بِرَطْبٍ مُسْتَرْخٍ مثلِكَ ، احتلمت به امرأةٌ عوان بَعُدَ عهدُها بفحلها ، وهى ممتلئة شَبَقًا ، فحملت فجاءت من احتلامها بك . والمعنى : أنَّه لا والدَ لك إلاَّ ما رَأَتْ أمُّكَ عند شِدَّةِ غلمتها من احتلامها ، فأنت شرٌّ ممن يَجِيء لِزِنْيَةٍ . ومعنى « ولم تَجِدْ لِصِهرِكَ » أى لم تصاهِرْه فيك ، أى تخالطه . وقال الخليل : الصِّهر حُرْمَة الخَتَن . وخَتَنُ القومِ : صِهرهم . وحُكِىَ عن أبى الدُّقَيْشِ[(٤)] : أَصْهَرَ بهم الخَتَن ، أى صار فيهم صِهرًا . فيقول : لم تجدْ خَتَناً

---

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « ليس لزميل ، بل هو لأرطاة بن سهية يهجو زميلا . ونظام البيت أيضا مختل ، والصواب :

ولست بربل مثلك احتلمت به عوان نأت عن بعلها وهى حائل
فجئت ابن أحلام النيام ولم يكن لبضعك إلا طهرها من تباعل »

(٢) التبريزى : « لطهرك » وقال : « أى للطهر الذى حلتك فيه . ومن روى : لظهرك ، فالمعنى للظهر الذى خرجت منه » .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٧٨٨ .

(٤) أبو الدقيش القنانى الغنوى ، أحد الأعراب الفصحاء الذين أخذت عنهم اللغة =

إلاَّ نفسَها ، إذا كان ذلك الاحتلامُ لم يتجاوزْها ، وإذْ كان مباءَلةُ النَّفس على ما وصفَه إنَّما حصلَتْ عن شبَقٍ ولزومِ ذِكرِ الجِماع في اليقظة ، وإلاَّ نفسَها : مستثنًى مقدم . وقوله « ابنَ أحلام النيام » نَصْبٌ على الحال ، لأنَّ أحلامَ النِّيام لا يتخصَّص ، فلا يصير المضافُ إليه معرفة[1] .

٦٠٠

وقال خارجةُ بنُ ضِرارٍ المُرِّيّ[2] :

١ — أحارِجَ هَلَّا إذْ سَفِهتَ عشيرةً ... كَفَفْتَ لِسانَ السُّوءِ أن يَتدَعَّرا[3]

٢ — وهَلْ كُنْتَ إلاَّ حَوْتكيًّا ألاقَهُ ... بَنُو عَمِّـــه حتَّى بَغَى وتَجَبَّرا

٣ — فإنَّكَ واستِبضاعَكَ الشِّعرَ نَحوَنا ... كمُستَبْضِعٍ تَمْرًا إلى أهلِ خَيْبَرا[4]

قوله « سَفِهت عشيرةً » ، قال يونس : سَفِهَ امةً في سَفَهَ ، وعلى هذا تنصب عشيرةً على المفعول به ، ويجوز أن يكون مما نُقِلَ عنه الفعل ، كأنَّه قال : سَفِهتْ عشيرتُك فنَقَل السَّفَهَ إلى نفسه فقال : سَفِهْتَ ، فأشبه عشيرةً المفعول ، فنُصِب نَصْبَ التَّمييز . وقوله « يتدعَّرُ » أى يَخْبُثُ ويَفْجُر . يقال : رجلٌ داعِرٌ بيِّن

= فهرست ابن النديم ٧٠ . وقال التبريزى فى شرح الحماسية ٦٠٠ : « قال الليث : قلت لأبى الدقيش : ما الدقش ؟ فقال : لا أدرى . فقلت : فما الدقيش ؟ قال : لا ، ولا هذا أدرى . قلت : فاكتنيت بما لا تدرى ما هو ؟ فقال : إنما الأسماء والكنى علامات » .

(١) أوضح منه قول ابن جنى فى التنبيه ، « فإن قلت : فإنه معرفة . قيل : لما كان مثلا لا حقيقة تحته عد به المعنى إلى التنكير » .

(٢) التبريزى : « وفى بعض النسخ : وقال زميل لخارجة بن ضرار » . وأنشد صاحب اللسان هذه الأبيات منسوبة إلى خارجة بن ضرار المرى ، ونقل عن ابن برى أنها تروى لزميل ابن أبير يهجو خارجة . والشعر على رواية المرزوقى ينطق بأن قائله غير خارجة . ويفهم من هذا أيضاً أن « خارجة » كان معاصراً لزميل بن أبير المترجم آنفا .

(٣) التبريزى : « أخالد » وبهذا تقرب نسبة الشعر إلى خارجة . وروى فى اللسان مرة : « أخالد » ومرة : « أخارج » .

(٤) التبريزى : « أرض خيبرا » .

الدَّعارة . وحُكِي : في خَلْقِه دَعَارَّة ، في معنَى زَعَارَّةٍ ، وعلى زنته . ومنه عُود دَعِرٌ ، أي كثير الدُّخان . والحَوْتَكِيّ : الضَّاوِي الضَّعيف . وقال الخليل : الحَوْتَكُ والحوتكيُّ : القصير الصَّغير . ومعنى ألاقَهُ : ألصَقَهُ وضَمَّه أبناء عَمِّه إلى أنفُسهم ، فبغَى لمَّا رأى ذلك . واستِبضاع السِّلعة : أنْ تحمَاها بنفسك ؛ وإبضاعُها : بَعثُها ، وكما قيل في المَثَل : « كمستبضع تَمراً إلى أهل خيبر » لكثرة نخلها ، قيل أيضاً « كمستبضع التَّمْر إلى أهل هَجَر » ، وهذا كما قيل « كمستبضع المِلْح إلى بارق » .

ومعنى الأبيات : هلا إذْ كنتَ سفيهَ العشيرةَ لئيمَ الفصيلة ، أمسكتَ عن الخنا والفُحْش ، وصُنتَ نفسَك ولم تعرِّضْها للهجاء المُمِضّ : هذا وما كنتَ إلاَّ حقيراً قليلا ؛ قِنًّا صغيرا ، رَقَّ له أقاربُه بعد ما كانُوا ينفُونه ويتبرءون منه ، فألصقوه بأنفُسهم ، فطغَى مِن ذلك واستعلَى . وأمَا علِمتَ أنّك وحَمْلكَ الهجاء إلينا في النَّدَم والخُسران ، وسُوءِ العاقبة ، كمَن حَمَلَ التَّمرَ إلى خَيبر يتَّجِرُ فيه ، فرجع نادما ، وحَصَل خاسِرا .

٦٠١

عُمارَة بن عَقِيل[1] :

١ — بَنِي مُنْقِذٍ لا آمَنَ اللهُ خَوفَكُم ... وزَادَكُمُ ذُلاًّ ورِقَّــةَ جانِبِ

٢ — فمَنْ يرْتَجِيكُمْ بَعْدَ نائِلَةَ الَّتِي ... دَعَتْ وَيْلَهَا لمَّا رَأَتْ ثأرَ غالبِ

٣ — دَعَتْهُ وفِي أثوابِهِ مِنْ دِمَائِها ... خَلِيطًا دَمٍ مِنْ ثَوْبِهِ غَيْرِ ذاهِبِ

نائلةُ : امرأةٌ زُوِّجتْ قاتلَ أبيها أو أخيها ، فجعَل عُمارة يعيِّرهم ذلك .

---

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٥٩٦ ص ١٤٣٢ .

والعربُ تقول : دمُ فلانٍ فى ثوبِ فلان ، إذا كان قاتلَه .

قال أوس بن حَجَر :

نُبئتُ أنَّ دمًا حَرَامًا نِلْتَهُ فَهُرِيقَ فى ثَوْبٍ عليكَ مُحَبَّرِ

وقال الفرزدق :

تَمَشَّى حَرَامٌ بالبَقيعِ كأنَّها نَشَاوَى وفى أثوابها دَمُ سَالِمِ[1]

فيقول : أبدَلَكُم اللهُ يا بَنِى مُنقِذ بالأمن خَوْفًا لا يفارقكم ، وزادكُم على مرِّ الأيَّام ذُلاًّ وخضوعا ، ولِينَ مَجَسٍّ وسُقوطا ، فإنَّه لا يُمَلِّقُ الرَّجاءُ بكم ، ولا يَستنيمُ أحدٌ إليكم ؛ بعد نائلةَ التى دَعَت بالويلاتِ لمّا رأت ثأر غالبٍ أخيها أو أبيها ، وقد ملَّكتموه أمرَها ، وجعلتموه بالتزويج قَيِّمها ، ثم قال : دَعَت نائلةُ الوَيْلَ وفى أثواب زوجِها لها خليطا دَمٍ هما دمُ أبيها أو أخيها ، بقتْلِه له ؛ والثانى دم عُذْرَتِها ، لتزوُّجه بها ، فهما لا زِمانِ لثوبه لا يفارقانه . ويروى « شَرِيجَا دَمٍ » . وكلُّ لونينِ اجتمعا فهما شَرِيجان . وقوله « غير ذاهب » ، غيرُ صفةٌ لِدَمٍ ، ويروَى : « مُهَرَاقُهُ غيرُ ذاهب » ، ويكون الجملةُ صفةً لدمٍ أيضًا . وقوله « مَن يرتجيكم » استفهامٌ على طريق التَّقريع ، وفيه معنى النَّفى ، أى لا يرجوكم أحد . ومعنى « دعت ويلَها » صاحت بالويلِ لى . وفى القرآن : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين ﴾ .

---

(١) حرام : قبيلة ، وهم بنو حرام بن سمال بن سليم بن منصور . الاشتقاق ١٨٧ والمعارف ٣٨ . والبيت من أبيات فى هجاء عبد الله بن خازم السلمى ثم الحرامى ، وكان قتل مولى لبنى يربوع بخراسان يقال له سالم . ورواية الديوان ٧٧٦ : « كأنها حبالى » .

٦٠٢

وقال طَرَفَةُ بنُ العَبْد[1] :

١ — وفَرَّقَ عن بَيْتَيْكَ سَعْدَ بنَ مالِكٍ وعَمْرًا وعَوْفًا ما تَشِى وتَقُولُ

٢ — وأنتَ عَلَى الأَدْنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ شَآمِيَةٌ تَزْوِى الوُجوهَ بَلِيلُ

٣ — وأنتَ على الأقْصَى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ تَذَاءبَ منها مُرْزِغٌ ومُسِيلُ

٤ — وأَعْـلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بالظَّنِّ أنه إذا ذَلَّ مَوْلَى المرءِ فهو ذَلِيـلُ[2]

قوله « ما تشى » فى موضع الفاعل لفرَّقَ . و« ما » إن شئتَ جعلتَه بمعنى الذى ، وصِلَتُه تَشِى ، والضمير العائد من الصِّلة إليه محذوف كأنه قال : ما تَشِيهِ وتقولُه . وإن شئتَ جعلت ما حرفًا ويكون مع الفعل فى تقدير مصدر ، ولا يحتاج إلى ضميرٍ من الصِّلة يعود إليه ، لـكونه حرفًا ، ويكون التقدير وِشايتُك وقولُك . ويَعنى ببَيْتَيْك : أخوالَه وأعمامَه . فيقول : فرَّقَ عن بيتَىْ أهلِكَ وذويكَ من قِبَل أبيك وأمِّك ما تأتيه من إبلاغاتٍ تتقوَّلُها ، ونمائم تختلقها وتصنِّفُها : سعدَ بن مالك وعمرًا وعَوْفًا ؛ وإنما يَعنِي بهم أفخاذًا وبطونًا كان

---

(١) طرفة بن العبد : أحد شعراء الجاهلية الذين تنسب إليهم المعلقات، وطرفة لقب له ، واسمه عمرو . والطرفة بالتحريك : واحدة الطرفاء ، وهو الأثل . ونال طرفة الشعر صغيرًا ، يروون أنه قتل وهو ابن عشرين فيقال له : ابن العشرين . وقيل : وهو ابن ست وعشرين ، وفى ذلك تقول أخته فى رثائه :

عددنا له ستًا وعشرين حجة فلما توفاها استوى سيدا ضخما

وخاله المتلمس الضبعى صاحب الصحيفة . انظر الخزانة (١ : ٤١٢ — ٤١٧) والشعراء ١٣٧ — ١٤٩ والأغانى (٢١ : ١٢١ — ١٣٢) .

(٢) الأبيات من قصيدة فى ديوانه ٥٠ — ٥٣ يهجو بها عبد عمرو بن بشر بن عمرو ابن مرثد . وأنشد بعده التبريزى :

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم تكُنْ له حَصَاةٌ على عوراتِهِ لدَلِيـلُ

ضَلْعُهم معهم[١] ، فلم يزَلْ يَسعَى بالتحريش ، ويَمشى بالنَّميم ، حتى فرَّق جمعَهُم ، بما أوقَعَ من الشرِّ فيهم .

وقوله «وأنت على الأدنى شَمالٌ عَرِيَّةٌ» فالعريَّة : الباردة ، ومنه قولهم : عُرَواء الحُمَّى . فيقول : أنتَ على أقاربكَ فى سوء اعتقادك لهم ، وسَوْقِك الشرَّ إليهم ، وجَرِّكَ الجرائر عليهم ، بمنزلة الريح الشَّمال الباردة ، المحرِقةِ للوجوه ، إذا هَبَّت فى الشِّتاء ، ويُصْحِبُها بَلَلٌ من المطر ، ونَدًى يُقبِّضُ الجلدَ ، ويُجفِّفُ المَفصل والوجه . وإنما قال شآمية ، وإن كان الشَّمال لا تهبّ إلاَّ من ناحية الشأم تأكيداً . والصِّفات كما تجىء مفيدةً مميِّزةً[٢] تجىء أيضاً مؤكِّدة لا تُفيد فى الموصوف أكثرَ مما عُرِفَ فيه . وعلى هذا قد تجىء الأحوالُ أيضاً ، لكونها صفاتٍ فى الأصل .

وقوله « وأنت على الأقصَى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ » يريد أنه على الأجانب فى تعطُّفه عليهم ، والانطواء على الجميل لهم ، بمنزلة ريحِ الصَّبا تَهُبُّ ولا بَرْدَ معها . وقد تذاءبَ منها ، أى تَسَهَّل واضطرَبَ من أجلها . والذِّئب فيمن هَمَزَه منه اشتُقَّ ، لأنه كلما طُرِدَ من جانبٍ يتسهَّلُ ويحصُل من جانبٍ آخر ، لوقاحته . والمُرْزِغُ : الذى يأتى بالرَّزَغة ، وهى الوَحَل . والمُسيل : المُذيبُ للجامد . والمعنى : أنت للأجانب بمنزلة القَبُول التى تُرْزِغُ الأرضَ فى مَهابِّها ، وتُسيلُ التِّلاعَ ، وتَبُثُّ الخيرَ ، وتُوَسِّعُ الخِصْبَ .

وقوله « وأعلمُ علماً ليس بالظَّنِّ » لمّا كان لفظةُ العِلْم قد يُطلَقُ على الظنِّ الغالب ، لقيامه مقام ما هو عِلْمٌ فى الحقيقة ، أكَّدَ قوله وأعلَمُ بقوله ليس بالظن ، وبَيَّن بهذا الكلام الخطأ فيما يأتيه المخاطَب ، وأنه إذا أفاتَ نفسَه حظَّه من

(١) الضلع ، بالفتح : الميل والهوى .

(٢) فى الأصل : « لا مميزة » صوابه فى ل .

أقاربه وعشائره بسوء معاملته، فإنه لا يستفيد من الأجانب ما عند الحاجة يُغْنِي، وإذا ذَلَّ أتباعُه ولم يستبقِهم لنفسه فالذلّ لاحقٌ له، ومُحتفٌّ به. وبهذا الخطاب نَعَى عليه فِعلَهُ، وبَيَّن له سوء التقدير فيما اختارَهُ، وفِعلَ الغَوَايةِ فيما اعتقَدَه واعتادَه. والضمير من قوله «إنه» للأمر والشأن، كأنه قال: وإنَّ الأمرَ الحقَّ إذا ذَلَّ ابنُ عمِّ المرء فهو ذَليل.

٦٠٣

بُشَير بن أبي جَذِيمة(١):

١– أتَخطِرُ للأشراف يا قِرْدَ جِذْيَمٍ وهل يَستَعِدُّ القردُ للخَطَرَانِ(٢)

٢– أبَى قِصَرُ الأذنابِ أن يَخطِرُوا بها ولُؤمُ بني قِرْدٍ بكلِّ مكانِ(٣)

٣– لقد سَمِنَتْ قِرْدانُكم آلَ جِذْيَمٍ وأحسابُكم في الحيِّ غيرُ سِمانِ(٤)

قوله «أتخطر» لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى التبكيت. ولمَّا كان المخاطَب من بني قِرْدٍ(٥) جعله قرداً في الحقيقة. والخَطْر: أصله إشالة الذَّنَب من الفحل عند هِياجه ومصاوَلته لفحلٍ آخر، فاستعاره لفعلِ هؤلاء المخاطَبين لمَّا حدَّثوا أنفسَهم بمباراةِ الأشرافِ ومساجلتهم. فيقول: أتحدِّث نفسَك على باءِلك

(١) التبريزي: «بشير بن أبي بن جذيمة بن الحكم بن مروان بن زنباع بن جذيمة». وهو بشير، بهيئة التصغير، ابن أبي جذيمة بن الحكم بن مروان بن زنباع بن جذيمة العبسي. ذكره الآمدي في المؤتلف والمختلف ٦١.

(٢) أنشد الجاحظ هذه الأبيات في الحيوان (٤: ٦٧). ورواية هذا البيت عنده: «أتخطر للأشراف جذيم كبرة». والكبرة بالكسر: التجبر والكبر.

(٣) التبريزي: «أن تخطروا بها». الجاحظ: «ولؤم قرود وسط كل مكان».

(٤) الجاحظ: «لقد سمنت قردانكم». والقردان، بالكسر: جمع قراد بالضم، وهي دويبة تلزم الإبل ومعاطنها. وسئل أبو الندى عن معنى هذا البيت فقال: «كنى بالقردان هاهنا عن القمل، أي سمنت أجسامكم ودقت أحسابكم ولؤمت. ويقال في المثل للإنسان إذا سمن: دب قمله».

(٥) التبريزي: «قيل: بنو قرد تيز نبزوا به».

الضيِّق ، وذَنَبكَ القصير ، بمجاذبة الأشراف ومخاطرتهم ، حتى تفعلَ ما يفعله الفحل فى صِيالِه ؟ أنّى لك ذلك ، والقِردُ لا ذَنَب له يُشاوِلُ به ويَخطِر ؟ وهذا مَثَلٌ ، وفيه مع الإزراء تهكُّم .

وقوله « أبَى قِصَرُ الأذناب أن يَخطِروا بها » رجع الضمير إلى القبيلة بأسرها . وقوله « ولؤم بنى قِرد » الواو للابتداء ومفيدةٌ للحال . والمعنى اشتهارهم باللؤم حتى لا يخفَى أمرُهم فى جوانب أرضهم ، وعند أعلام معارفهم .

وقوله « أبَى قِصَرُ الأذناب » تفسيرٌ لما أنكره بقوله : « وهل يستعدُّ القرد للخَطَران » ، وتفصيلٌ لما أبهمَه .

وقوله « لقد سَمِنَت قِعدانُكم » فالقِعدان : جمع القَعود ، وهى الناقة تُقتعَد ، أى تُركَب[1] .

وقوله « آلَ حِذْيَم » إضافته لآل[2] إلى حِذيم إضافةُ البعض إلى الكل . وكذلك فى قوله « يا قِرد حِذيم » ، يكشف لك أنه قال : ولؤم بنى قِرد بكلِّ مكان . وإنما ينسُبُهم إلى حُسن تفقُّدهم لأموالهم ، وسوء إهمالهم لحسَبهم ، فقد سَمِنَت إبلُهم بحُسن رِعْيتهم لها ، وتوفُّرهم على إصلاحها ، وترفيهم ميشتهم بتثميرها وتكثير نسلها ، وأنَّ أحسابَهم مضيَّعةٌ مهمَلة ، متروكة من التفقّد بائرة ، لا تُرَمُّ فروعُها ، ولا تُضبط أصولُها ، ولا يُحفَظ بحُسْن المراعاة من السقوط والرُّزُوح هزبالُها .

(١) التبريزى : « ويقال : القعود : الذكر ، والقلوص : الأنثى من شواب الإبل . وإنما جعل قعدانهم سمينة لأنهم يؤثرونها باللبن على الضيف والجار ، فأحسابهم غير سمان لأنهم يضيعون الحقوق فلا حسب لهم يمدحون به » . وانظر ما سبق من الكلام على رواية هذا البيت وتوجيهه فى الحواشى السابقة .

(٢) ل : « للآل » .

٦٠٤

وقال أبو مُنازِلٍ[1] فى ابنه :

١ – جَزَتْ رَحِمٌ بينى وبين مُنازِلٍ　　جَزَاءً كما يَستنزِلُ الدَّيْنَ طالِبُه[2]

٢ – تَرَبَّيْتُه حتّى إذا آضَ شَيْظَمًا　　يَكادُ يُساوِى غاربَ الفَحْلِ غارِبُه[3]

٣ – تغمَّدَ حَقِّى ظالمًا ولَوَى يَدِى　　لَوَى يدَهُ اللهُ الذى هو غالِبُه[4]

قوله « جزَتْ رَحِمٌ » دعاء على ابنهِ مُنازل . وجعل فعل الجزاء للرَّحِمِ . والجازى هو الله تعالى ، لأنه السببُ فى الجزاء ، ولتكونَ الشكوَى أبلغ ، فيقول : جزَى الله مُنازِلاً على الرَّحم التى بينى وبينه وقد قطَعها ولم يقم بحقها ، جزاءً يَستوفِى له وعليه ما يَحِقّ ، كما يَستنزِل طالبُ الدَّينِ ممن عليه الدَّينُ حقَّه .

---

(١) التبريزى : « وقال فرعان بن الأعرف فى ابنه منازل » . وهو أحد بنى مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن مقاعس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر لص مخضرم ، وله مع عمر بن الخطاب حديث فى عقوق ابنه منازل . المؤتلف ٥١ والمرزبانى ٣١٦ والإصابة ٧٠٠٩ . والفرعان أخ يسمى « منازل » أيضاً ، ومن عجب أن يروى له الآمدى فى المؤتلف ٥١ شعراً يذكر فيه عقوق ابنه له . لكن هذا الشعر رواه أبو رياش منسوباً إلى منازل بن فرعان بن الأعرف يشكو فيه عقوق ابنه المسمى « خليج » . فكأن هذه الأسرة ء يقة فى أن يعق الولد منهم أباه .

(٢) الأبيات فى معجم المرزبانى والإصابة . وفى معجم المرزبانى : « سواء كما يستنجز » .

(٣) المرزبانى وابن حجر : « وأطعمته حتى إذا صار » .

(٤) المرزبانى وابن حجر : « تخون مالى ظالما ولوى يدى » . وأنشد بعده التبريزى :

وكان له عِندى إذا جاعَ أو بكَى　　من الزّاد أحلى زادِنا وأطايبُه

وربَّيتُه حتى إذا ما تركتُه　　أخا القومِ واستَغنَى عن المسح شاربُه

وجَمَّتُها دُهمًا جِلادًا كأنّها　　أشاء نَخيلٍ لم تُقَطَّعْ جوانِبُه

فأخرجَنى منها سَليبًا كأنّنى　　حُسامٌ يَمانٍ فارقَتْهُ مَضاربُه

أأَنْ أُرعِشَت كفَّا أبيكَ وأصبحَت　　يَداكَ يدَىْ ليثٍ فإنّكَ ضاربُه

ثم أخذ يقتصُّ ما دار بينهما ، وما أوجب عليه الفَرض الذى ضيَّعه فقال : تربَّيتُه طِفلاً وناشئاً، حتى إذا صارَ شابًّا طويلَ القامة يكاد غاربُه يساوِى غارب الفحل، أى بلغ قامتُه قامةَ الفَحْل . والغارب : مُقدَّم السَّنام . والشَّيظم : الطويل الغليظ . ويروى : « لربَّيتُه » ، ويكون اللام جوابَ قَسَمٍ انطوَى عليه الكلام . ويقال : ربَّيتُه وربَّبتُه وتربَّيتُه بمعنًى واحدٍ . حتى إذا آضَ ، أى إلى أن صار . وإذا جوابُه قولُه « تغمَّد حَقِّى » يريد : لمّا بلَغ هذا المبلغَ سَتَر حَقِّى ولم يَفِ به ، متعدِّيًا طَوْرَه ، وباخِسًا ما استوجَبْتُه عليه بالولادة والتربية ، فلمّا جاذَبْتُه بلسانى مَدَّ يدَه فلوَى يدى ، أى فتَلَها وأزالَها عن حالها وهيئتها ثمَّ قال داعيًا عليه : لَوَى يدَه اللهُ ، أى أشَلَّها وأبطَلَها ، وهو القادرُ على ذلك معه ، والغالب له وعليه[1] .

٦٠٥

وقال عارقٌ الطائىّ[2] :

١ — واللهِ لو كانَ ابنُ جَفْنَةَ جارَكم ‏ لَكَسا الوُجوهَ غَضاضةً وهَوَانا

٢ — وسَلاسِلاً يُثنَيْنَ فى أعناقِكم ‏ وإذًا لَقَطَّعَ منكم الأقرَانا

٣ — ولَكانَ عادَتُه على جارَاتِه ‏ مِسْكا ورَيْطًا رادِعًا وجِفَانا

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « له عليه » .

(٢) هو قيس بن جروة بن سيف بن وائلة بن عمرو بن مالك بن أمان بن ربيعة بن جرول ابن ثعل الطائى الأجئى ، نسبة إلى أجأ، أحد جبلى طيئ ، وهما أجأ وسلمى . وهو شاعر جاهلى . وعارق لقب له ، قالوا : سمى به لقوله :

لئن لم تغير بعض ما قد صنعتم ‏ لأنتحين للعظم ذو أنا عارقه

انظر الخزانة (٣ : ٣٢٠ — ٣٢١) والأغانى (١٩ : ١٢٧) والمزهر (٢ : ٤٣٨) وقال أبو رياش : ليس هذا الشعر لعارق ، إنما هو لثرملة بن شماث الأجئى ، قاله على لسان عارق . وذكر التبريزى سبب هذه الأبيات مقاربا لما رواه المرزوقى ، ولكنه نسب هذه الأبيات النونية إلى ثرملة ، وذكر أنه قالها على لسان عارق لينجى عارقا من كيد عمرو بن المنذر .

لهذه الأبيات قصّة طريفة ، وأنا أذكرها بما عَرَض من السّهو فيها .

ذكر هشامٌ الكلبي أنّ عمرو بنَ المنذر بن ماء السّماء — وأمه هندٌ بنت الحارث المَلِك — كان عاقَد طيِّئًا ألاّ يُغزَوْا ولا يُفاخَرُوا ، فاتّفق أنْ غزا عمرٌو اليمامةَ فرجع مُنْفِضًا[1] ، فمرّ بطيِّئ ، فقال زُرارة بن عُدُس : أبيتَ اللعنَ ، أصِبْ من هذا الحيِّ شيئًا . فقال : ويلك ، إنّ لهم عَقْدًا ! قال : وإن كان ، فإنّك لم تكتُب العَقد لهم كلِّهم . فلم يزلْ به حتّى أصاب نسوةً وأذوادًا ، فقال فى ذلك قيسُ ابن جِرْوَة الأجئىّ :

ألاَ حَىِّ قَبْلَ البَيْنِ مَن أنتَ عاشِقُهْ ومَن أنتَ مُشتاقٌ إليه وشائقُهْ

— وستجىء الأبياتُ فى هذا الباب من الاختيار من بَعْدُ ، لكن فى آخرها قولُه :

لئنْ لَمْ تُغَيِّرْ بعضَ ما قد صَنعتمُ لَأَنْتَحِيَنْ لِلعَظْمِ ذُو أنا عارِقُه

فلقِّب يومئذ بعارِق — فلمّا بلغَ عمرَو بن هندٍ هذا الشعرُ قال له زُرارة : أبيتَ اللعنَ ، إنّه لَيتوعَّدُك على انتقامه بزَعْمِه . فقال عمرٌو لتُرْمُلَة بن شُعاثٍ الأجئىّ : أيهجُونى ابنُ عمِّكَ ويتوعَّدُنى ؟ فقال : واللهِ ما هَجَاك ، ولكنه قال :

واللهِ لو كانَ ابنُ جَفْنَةَ جارَكُم ما إنْ كسا كُم غَضّةً وَهَوَانا

وسلاسِلاً يَبْرُقْنَ فى أعناقكم وإذًا لقطَّعَ مِنكمُ الأقرانا

ولكانَ عادَتُه على جِيرانِهِ ذَهَبًا وَرَيْطًا رادِعًا وجِفَانا[2]

يعنى بابن جَفنة عمرَو بن الحارث ، وإنّما أراد تُرْمُلَةُ أن يُقَبِّح عليه[3]

(١) أنفض القوم : نفد طعامهم وزادهم . والإنفاض : المجاعة والحاجة وهلاك المال .

(٢) وكذا عند التبريزى . وفى ل : « مسكا وريطا » .

(٣) ل : « إليه » .

فَعْلَتَه ، ومع ذلك يُذهِبُ سخيمتَه على ابن عَمِّه ، فقال عمرو : والله لأقتلنّه !
فبلغَ ذلك عارِقًا فقال :

من مُبْلِغٌ عمرَو بنَ هِنْـدٍ رِسالَةً إذا اسْتَحْقَبَتْها العِيسُ تُنْضَى من البُعْدِ

وستجيء من بعدُ أيضًا إن شاء الله .

قال الشيخ الإمام أبو عليّ رحمه الله :

وإذا تأمَّلتَ ما اقتصصتُ ، بانَ لك أنَّ هذه الأبياتَ التى أوّلها : « والله لو كان ابنُ جَفْنَة » ، ليس بهجو لابن جفنة وإنّما هو مَدْحٌ له ، وقد عُيِّرَ بذكره عمرَو بن هند ، وأنّه لو تولّى من طيّئٍ ما تولّاه عمرو بن هند كان معامَلَتُه إيَّاهم بخلافِ ما عامَلَهُم به هو ، فتَصَوّرَ[1] أنّها هَجْوٌ لابن جَفْنَةَ ، وجعل بدل « ما إن كَسا كُم » : لَـكَسَا الوجوه ، وبَدَل قوله « إذًا لقطَّع تلـكم الأقرانا » : منكم الأقرانا ، وبدل قوله « ولـكان عادتُه على جيرانه » : على جاراته ، ومع هذه التّغييرات ليس يَخْلُصُ هَجْوًا .

قال أبو عليّ : وأنا أعودُ إلى عادتى من تفسيرها وشرح معانيها :

قوله « غَضَّةً » فَعْلَةٌ من غَضَّ ، والغضاضة والغَضُّ : الفُتور فى الطَّرْفِ .
ونَصَب قوله « وسَلاسِلاً » على المعنى ، فهو من باب قول الآخر[2] :

يا ليتَ بَعْلَكِ قد غَدَا متقلِّدًا سَيْفًا ورُمْحَا

لأنَّ السّلاسل ليس من كُسوة الوجوه ، فـكأنّه قال : ما إن كسا كُمْ غَضَّةً ولا قلّدكم إذا غلَّكم سلاسِلَ تبرُق فى أعناقِكم . وقوله « يُثْنَيْنَ » معناه يُعطَفْنَ ويُلْوَيْنَ . و « إذًا لقطَّع تلـكُمُ الأقرانا » فالأقرانُ الحبال ، والواحِدُ

(١) الضمير فى هذا لأبى تمام مختار الحماسة ، والتغييرات التى نص عليها المرزوقى هى تغييرات أبى تمام ، كما هى عادته ، انظر ما سبق فى مقدمة المرزوقى ص ١٤ .

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى . الكامل ١٨٩ ليبسك . وانظر ما سبق فى حواشى ١١٤٧

قَرَنْ. وإذا رَوَيْتَ « يَبْرُقْنَ » فالمعنى ظاهر. ويشيرُ إلى ما لحقهم من جهة عَمْرو بن هِنْد. وقوله «إذًا» أجابَ لَوْ بإذًا كما أجابه باللام من قوله «لكسا» وبما على الأصل الأوّل[1]. ومعنى « لقطّع تلكم الأقرانا » أى لو كنتم مأسورين لكان يفكّكم، ويقطع تلك الحبالَ التى صارت إسارًا لكم. وإذا رُوِى « وإذًا لقطّعَ منكم الأقرانا » كان معنى البيت: يشدُّكم فى السّلاسل ويبدّدُ جمعَكم. وقوله « ولكان عادتَه على جيرانه »، يريد أنّه يفعل خلافَ ما فعله عمرُو بن هند، لأنّ عادتَه فى الجيران أن يموّلهم ويصلهم، ويبرّهم ويخلع عليهم، ويَقْرِيَهم ويَمُونَهم. وعلى الرواية الثانية يرميه ويقذفه بالجارات، ومعنى ذلك ظاهر. والرّادِع: المتغيّر اللّون بالطّيب والخَلُوق. ويقال: تَرَدَّعَ بالخَلُوق، إذا تَلَطَّخ.

٦٠٦

وقال آخر[2]:

١— زعمتُمْ أنّ إخوتَكم قُرَيْشٌ لَهمْ إلْفٌ وليسَ لكم إلَافُ

٢— أولئِكَ أُومِنُوا جُوعًا وخَوْفًا وقد جاعتْ بنو أَسَدٍ وخافُوا

يخاطب بنى أسد ويكذّب دعواهم فى انتمائهم إلى قريش، وتنسُّبهم بالقُربى والقرابة منهم، فقال: ادّعيتم أنّ قريشًا إخوتُكم، وسِيماء الكَذِبِ ظاهرةٌ على هذه الدّعوى، لأنّ لقريشٍ إيلافًا فى الرّحلتين المعروفتين للتّجارة، وليس لكم ذا؛ وقد آمنهم اللهُ تعالَى من الجُوع والخوف، وأنتم خائفون جائعون.

---

[1] أى على رواية: « ما إن كساكم غضبة ».

[2] هو مساور بن هند بن قيس بن زهير، يهجو بنى أسد، كما قال التبريزى، وكما فى اللسان (ألف). وقد سبقت ترجمة « مساور » فى الحماسية ١٤٨ ص ٤٣٠ .

وإنما يُشير إلى السُّورة المُنزَلة : ﴿ لإيلاَفِ قُرَيْشٍ إيلافِهِمْ . رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ ﴾ ... إلى آخرها . ويقال : أَلِفَ يَأْلَفُ إلْفًا وإلاَفًا ، وآلَفَ يُولِفُ إيلافًا .

٦٠٧

وقال آخر[1] :

١– إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طارُوا بها فَرَحًا مِنِّى وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

٢– صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ به وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عندهم أَذِنُوا

٣– جَهْلاً عَلَىَّ وَجُبْنًا عن عَدُوِّهِمُ لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجَهْلُ والجُبُنُ

انتصب «فرحًا» على أنّه مفعول له ، وكان الواجب أن يقول : يطيروا بها فرحا ، لأنّه لا يجوز أن يُعملَ حرفُ الشَّرط فى الشَّرط بالجزم ويُجعَل الجوابُ فعلاً ماضياً فى الكلام ، وإن كان يجوز فى الشِّعر . ومعنى البيت الأوّل أنّهم إذا رأَوْا حسنةً كتموها ، وإذا رأوا سيِّئة أظهروها . وقوله « مِنِّى » أراد من جهتى . ومعنى « طاروا بها » أى كثّروها فى النّاس وأذاعُوها ، ووَصَلوا القيامَ بالقعود فى نشرِها . وهذا ضدُّ ما ذكَره من الدَّفْن فى قوله « وما سمعوا من صالحٍ دَفَنوا » فى المعنى .

وقوله « صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا » ارتفع صُمٌّ على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، كأنّه قال : هم صُمٌّ ، أى يتصامّون عمّا أُنْسَبُ إليه من الخصال الصّالحة . ويقال للمُعرِضِ عن الشّىء : هو أَصَمُّ عنه . على ذلك قوله :

* أَصَمُّ عمّا ساءَهُ سَميعُ *

---

(١) هو قعنب بن أم صاحب ، وهى أمه ، واسم أبيه ضمرة ، أحد بنى عبد الله بن غطفان . وكان فى أيام الوليد بن عبد الملك . والقَعْنَب : الصلب الشديد من كل شىء . من شرح التبريزى ، والتنبيه لابن جنى .

قال : ومتى ذُكِرتُ بشَرٍّ أدركوه وعلِموه . ويقال : أذِن يأذَن أذَنًا . قال :

* بِسَماعٍ يأذَنُ الشيخُ لَهُ[1] *

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأذن الحاسة . وانتصَب « جهلا » لأنه مصدر لعِلّة . ينسُبُهم إلى أنهم مع الأقارب يستعملون الجهل والحسد عليهم ومعهم ، وأنهم جبناء عن الأعداء ضعفاء عَجَزة إذا طُلِب كفايَتُهم ، لا يصلحون لدفع مكروه ، ولا لجلب محبوب . ثم سوأ عليهم فعلَهم فقال بئستِ الخَصْلَتَان جهلُهم على أقاربهم ، وجُبْنُهم عن أعاديهم . وهذا تأكيد فى التعبير ، ومبالغة فى التقريع .

٦٠٨

وقال منصور بن مِسْجَاحٍ[2] :

١ــ ثَأَرتُ رِكَابَ العَيرِ مِنْهُمْ بِهَجْمَةٍ صَفَايا ولا يُبْنَيا لمن هو ثائرُ[3]

٢ــ من الصُّهْبِ أثناءَ وجُذْعًا كأنَّها عَذارَى عليها شـــارةٌ ومَعاصِرُ

قوله « ركابَ العَيرِ » يُرْوَى « ركاب القَوْمِ » . وأراد بالعَيْرِ السَّيِّد ، وكان استِيقَ لرئيسهم إبلٌ فارتجَعَ بدلاً منها على ما وصَفه . ومعنى « ثأرتُ ركاب العَيْر » أى أدركت الثَّار فيها منهم بأنْ أخذتُ هَجْمَةً من الإبل ــ وهى المائة وما داناها ــ غِزَارًا سمينات ، والثَّائر ليس من حقِّه أن يُبْقَى ، والأصل فى الثائر القاتِل ، فوضعَه موضعَ الواتر للنتقِم . يقال : ثأرتُ فلانًا وثأرتُ بفُلانٍ ، إذا قتلت قاتِـلَه .

(١) لعدى بن زيد العبادى ، كما فى اللسان (أذن) . وعجزه :

* وحديث مثل ماذى مشار *

(٢) هو منصور بن مسجاح ــ ويقال مسحاج بتقديم الحاء على الجيم ــ بن سباع الضبى : شاعر جاهلى . معجم المرزبانى ٣٧٣ .

(٣) كذا فى ل والتبريزى والمرزبانى . وفى الأصل : « منهم بهجمة » .

وقوله « من الصُّهب أثناء وجُذْعًا » ، هذا تفسير الهَجْمَة ، وتفصيل الجملة ، يريد : من الإبل الصُّهب . والصُّهْبة : حمرةٌ يعلوها بياض . وتعلّق من بقوله هَجْمَة . وأثناء : جمع ثَنِيّ . والجُذْع : جمع جَذَع ، وهو كخُشُب وخَشَب . والحجة فى أنّ العَيْرَ السيِّدُ قولُه :

زَعَمُوا أنَّ كلَّ مَن ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مَوَالٍ لنـــا وأنَّا الوَلاءُ[1]

وهذا أحد الوجوه التى قيل فيه . وقوله « كأنّها عَذارَى » يعنى حُسنَها . والمَعاصِر : جمع المُعْصِر ، وهى من النِّساء التى شارفَت الإدراك والبُلوغ . قال :

* قد أعْصَرَت أو قد دَنَا إعْصَارُها[2] *

والشَّارة : الهيئة . ويقال : رَجُلٌ شَيِّرٌ صَيِّرٌ ، من الصُّورة والشَّارة .

٣ — فإنْ نَلْقَ من سَعْدٍ هَنَاتٍ فإنَّنا نُكاثِرُ أقوامًا بهمْ ونُفَاخِرُ[3]

٤ — لقد كانَ فيكُمْ لو وَفَيْتُمْ لجارِكُمْ لِحًى ورِقَابٌ عَرْدَةٌ ومَنَــاخِرُ[4]

بيَّنَ أنَّ الذين أدرَكَ منهم ما أدرَكَ هم بنو سعد . وهذا الكلام تهكُّم وسُخرِيّة . كأنّه يريد : إن اتَّفَقَ من سعدٍ الزَّلَّةُ بعد الزَّلّة ، والسَّقطة المتكَرِّرة بعد السَّقطة ، فإنّا على ذلك نُكاثِر بهم الأعداء . ونُفاخِر بمكانِهم . ثم أقبلَ عليهم وقد نقل الكلامَ عن الإخبار إلى الخطاب ، فقال : لو رُمْتُمُ الوفاء لجارِكم ، ولم تَطمَعوا فى ماله لقَرُبَ ذاك عليكم ، فإنَّ آلاتِ الوفاء مُعَدَّةٌ فيكم : لِحًى موفورةٌ ، ورِقابٌ غليظة ، ومَناخِر واسعة منتفخة .

---

(١) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته .

(٢) الرجز لمنظور بن مرثد الأسدى ، فى اللسان (عصر) . وقبله :

جارية بسفوان دارها تمشى الهوينى ساقطا خمارها

(٣) المرزباقى : « بها ونفاخر » .

(٤) بعده عند التبريزى :

فبهــرًا لمن غرَّت كَفالةُ معشرٍ وإنْ كان عقــدٌ بينَهمْ متظاهِرُ

٦٠٩

وقال جَوَّاسُ الضَّبِّيُّ لامرأة[1] :

١ – واللهِ ما أخْشَى حَكِيماً وَرَهْطَه ولكنَّما يخشى أباكِ حَكِيمُ[2]

٢ – وَجَدْتِ أباكِ تابِعًا فتَبِعْتِهِ وأنتِ لِعُهَّارِ الرِّجالِ لَزُومْ

رَمَى المرأةَ المُخاطَبَةَ وقَذَفها بحكيم ، فقال لها مُعَيِّرًا ومُشَهِّرًا بها : إنِّى لا أخافُ صاحِبَكِ حكيماً ولا عشيرتَه ، ولا أحتشمهم فيكِ ، ولكنْ حكيمٌ يخشى أباكِ لاجتماعه معك على الفاحشة . ثم قال : تَماطِيكِ الفُجُورَ وِراثةٌ ، لأنَّكِ وجدتِ أباكِ فى الأُبْنَةِ تابعا لِسَلَفه فيها ، فاقتديتِ به ، فهو يَطلب مَنْ يشفيه مِن دائه ، وأنتِ أيضاً شديدةُ اللِّزام للزُّناةِ والفُسَّاق ، والولَد يتَقَيَّل أباه[3] .

٣ – على كلِّ وَجْهٍ عائِذِيٍّ دَمَامَةٌ يُوافِى بها الأحياءَ حِينَ تَقُومُ[4]

---

(١) هو جواس بن نعيم ، أحد بنى حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر ابن سعد بن ضبة . المؤتلف ٧٥ وشرح التبريزى . وهذه الأبيات يقولها ردا على أبيات قالتها امرأة من عائذة بن مالك ، وأنشدها التبريزى . وهى :

متى تلقَ جوّاسًا وإنْ كان مُحرِما يَقُلْ لكَ هل تَخشَى علىَّ حكيما

وما لىَ لا أخشَى عليكَ محرَّبًا أخا ثقة ينعَى قتيلاً كريما

متَى تلقَه يَعدُو به الوَردُ جائلا بِشِكّته تلقَ الألدَّ الغَشُوما

(٢) التبريزى : « قيل إن الصحيح من الروايات : ولكنما يهوك أنت حكيم . وعلى هذا يجعل حكيماً عاهراً ورماها به . وإذا قلت : ولكنما يخشى أباك حكيم ، فمعناه لأنه منك بسبيل » .

(٣) يتقيل أباه : ينزع إليه فى الشبه .

(٤) التبريزى : « حين يقوم » ، أى حين يقوم فى مجالس الملوك .

٤ – وَأَوْرَثَهَا شَرَّ التُّرَاثِ أَبُوهُمُ قَمَاءَةَ جِسْمٍ والرُّدَاءُ ذَمِيمُ[1]

تعدّاها إلى فَصيلتِهما بل قبيلتهما فقال : على وجه كلِّ رجلٍ من بنى عائذةَ قُبحٌ وخِزْى ، إذا قامت أحياء العرب فى أسواقهم ومجامعهم يوافيهم به . والمعنى أنهم مشهورون باللُّؤم ودناءةِ النُّفوس ، فوجوههم مسودّة بالعار ، مشوَّهة بسوء الفَعال عند القبائل ، فمتى وافَوْا يوماً مجموعاً فيه الناسُ وُجِدَ آثارُ الخِزىِ ، وغَضاضَةُ الطَّرْف المخَزاية ، تلُوحُ على صفَحات وُجوههم . ودمامَةُ الوجوه ضربَها مثلاً لذلك .

وقوله : « وأورثها » ، يريد أنَّ اللُّؤمَ فيهم وِراثة ، وقد عَرَفوا ذلك من أنفسهم واعترَفوا به ، فترى أجسامَهم فى المحافل والمَشاهِد قَميئَةً تصاغُراً وتذلُّلاً ، وتقاصُرًا وتخشُّعاً . وقد ردّاهم اللهُ برداءِ أعمالهم من الغَدْر والخيانة ، والغُلول والسَّفاهة ؛ فرداؤهم مذمومٌ فى الألسِنة عند الخاصّة والعامّة . ويجوز أن يكون المراد أنّ سيماهم كالرِّداء عليهم ، فهم مذمومون لها وعليها ، ويُروَى : « والرُّوَاءُ دَميم[2] » ، يعنى قُبح الطّلعة . ودميمٌ : اسم الفاعل من دَمُمْتَ دَمامةً . وفعُلت فى المضاعف قليل . والرُّوَاء يجوز أن يكون فَعالاً من الرُّؤْيَة ، ويجوز أن يكون من الرِّىّ .

٥ – كَأَنَّ خُروءَ الطَّيْرِ فَوْقَ رُءوسِهِمْ إذا اجتمعتْ قَيْسٌ مَعًا وَتَمِيمُ

٦ – مَتَى تَسْأَلِ الضَبّيَّ عَنْ شَرِّ قَوْمِهِ يَقُلْ لَكَ إنَّ العائِذِىَّ لَئِيمُ

لمّا كان يوصَف الوَقُور المتثبِّت فى الأمور إذا حصَل مع أشباهه من أهل

---

(١) ل : « أورثهم » ورسم فوقها « نغ ثها » أى أنها فى نسخة « أورثها » . وفى التنبيه لابن جنى : « قال أبو على – يعنى الفارسى – كتبنا منذ أربعين سنة : يحتمل الرواء أمرين : أحدهما أن يكون فعالا من رأيت لأنه يدركه الناظر ، غير أنه اجتمع على تخفيفه . والآخر أن يكون فعالا من الرى . قال : وذلك لأن للريان نضارة وحسنا . فقوله اجتمع على تخفيفه يدلك على أنه غير مهموز العين . ومنهم من يهمزه » .

(٢) هى رواية التبريزى .

الأَناة والرِّفق والرَّزانة وسكونِ الجأش فى منتدًى لهم ، وتناجَوْا وتشاوَروا ، أو حضروا فى مجلسٍ مُحْتَشَمٍ فتجاذَبوا وتناظروا، بقولهم: كأنّ على رُءوسهم الطَّير ، وهذا التشبيه إنَّما حَصَل على أنَّهم من السُّكون ومفارَقة التَّعجُّل بمنزلةِ مَنْ على رأسه طَيْرٌ فيخافُ فى تحرُّكه ذَهابَها وطيرانَها ؛ ولمَّا كان هذا الشَّاعرُ يهجو بنى عائذةَ ويَهزَأ بهم، جعلَ بدل ذلك القول « كأنَّ خُرُوءَ الطَّير فوقَ رءوسهم».

وقوله « إذا اجتمعَتْ قيسٌ مَعًا وتميم » بيانٌ لاختلاطهم بأهل الحَلِّ والعَقْدِ مِن وُجوه القبائل ، ورُؤساء المحافل . وكان الحُكْمُ أن يقول : إذا اجتمعت قَيْسٌ وتَميمٌ مَعًا ، فقدَّم « مَعًا » لأنَّ العاطف يُنْبِئُ على موضع المعطوف .

وقوله « متى تسأل الضبىَّ عن شرِّ قومه » ، يروى : « عن سِرِّ قومه » ، وهو حَسَنٌ ، والمعنى أنَّهم لئامٌ باعترافٍ مِن قومهم به ، واتِّفاقٍ منهم عليه ، لكنَّهم يُسِرُّون أمْرَهُمْ ويُخْفُونه .

٦١٠

وقال مُحْرِزُ بنُ المكَعْبِرِ الضَّبِّىُّ[١] :

١ – أبلِغْ عَدِيًّا حَيْثُ صارَبها النَّوَى   وليسَ لِدَهْرِ الطَّالبِينَ فَنَاءُ

٢ – كُسَالَى إذا لاقَيْتَهمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ   يُلَهَّى به المَتْبُولُ وَهْوَ عَنَاءُ[٢]

٣ – أُخَبِّرُ مَنْ لاقَيْتُ أنْ قَدْ وَفَيْتُمُ   ولو شِئْتُ قال المُنَبِّئُونَ أسَاءُوا

(١) يقولها لبنى عدى بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، كما ذكر التبريزى . وقد مضت ترجمة « محرز » فى الحماسية ١٨٥ ص ٥٧٢ . قال التبريزى : « كان محرز بن المكعبر جارا لبنى عدى بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فأغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها ، فطلب إليهم أن يسعوا له ، فوعدوه أن يفعلوا ، فلما طال ذلك عليه ورآهم لا يصنعون شيئا أتى المخارق والمساحق ابنى شهاب المازنيين ، وهما من بنى خزاعة ، فسعيا له بإبله فرداها عليه » .

(٢) كسالى فى النسختين بفتح الكاف ، وفى التبريزى بضمها . وهما جمعان صحيحان لكسلان .

يقولُ : أدِّ إلى بنى عَدِىٍّ رسالتى حيثُ استقرَّت بها النَّوَى[1] بأنَّ زمنَ طُلَّابِ الأوتار فيما عليهم مِن إدراكِ الثَّأر قد اتَّصَلَ وامتدَّ ، فليس ينقطعُ لكسلهم عن السَّعى فى رِدْءِ الْمُفَارِ عليه[2] ، واستيطائِهم مراكبَ العَجْز عن نُصْرَتِهِ ، غير مواعيدَ خاليةٍ من الفِعل يقرِّبونها ، وأقوالٍ مُزَخرَفة عند الالتقاء يبذُلونها ، إذا اعتمَدها الموتور انصرفَ بها مغرورا ، فكانت عند السَّامعين لها ضَلالاً وبُورًا ، وعَنَاءً للقُلُوب والجوارح ، لا يُخْلَى منه بطائل ، ولا يَرْجِعُ على أحَدٍ بعائدٍ . هذا وأنا أُحَسِّنُ أمْرَكُم ، وأقول لمن يسأل عن أخبارنا وأخبارِكم : إنَّهم قد وفَوْا بالعهد ، وأدَّوْا ما لزمهم من النُّصْرَةِ بحقِّ الجوار والعَقْد ، لكنْ للأمور أوقاتٌ ، وللأقضية آجالٌ وآمادٌ ، فينثني الذَّمُّ عنكم ، وينحطّ العارُ دونَ فِنائكم ، ولو شئت لقال السَّائل والسَّامع : أساءوا حين بدَّلوا الخُفَارة بالإخْفَارِ ، وضَيَّعُوا الحُقوقَ بالتَّقصير والإقصار : وقوله « أن قد وَفَيْتُمْ » أنْ فيه مخفَّفة من الثَّقيلة ، واسمه مضمَرٌ ، وهو ضمير الأمر ، والجملة فى موضع الخبر . وقوله «غَيْرَ مَنطِقٍ» انتصَب على أنَّه استثناء خارج . و « يُلهَّى به » من لَهَوْتُ عن كذا ولَهِيتُ ، أَلْهُو لَهْوًا ، وأَلْهَى لُهِيًّا ، إذا انصَرَفْتَ عنه . والمَتْبُول : المُصاب بِذَحْلٍ وتَبْلٍ .

٤ — لَهُمْ رَثْيةٌ تَعْلُو صَرِيمَةَ أَمْرِهِم ... وللأَمْرِ يَوْمًا راحَةٌ فَقَضَاءُ[3]

٥ — وإنِّى لَرَاجِيكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكُم ... كَمَا فِى بُطُونِ الحامِلاتِ رَجَاءُ

الرَّثْية : الضَّعف . والصَّرِيمة : ما يُقطَع من العزيمة ويُجزَم إمضاؤه بعد العقيدة ، فيقول مصوِّرًا حالَهم فى التَّفريط والإهمال : متى هَمُّوا بإنفاذ عزائمهم ، وتشديد شكائمهم ، وإنجاز ما يُقْتَجَزُ عليهم من مواعدِهم ، أو يهتمّون لرَحْضِ

---

(١) ل : « بهم النوى » .

(٢) الردء : العون .

(٣) التبريزى : « ريثة » ، بتقديم الياء . وقال فى شرحه : « ريثة : إبطاء ، ورثية ضعف » .

حَزَنِ العارِ عن شِيَمِهم وأخلاقهم ، ولِسدِّ طريق العار[1] والتعيير عن مذاهبهم وأفعالهم ، علا همَّهم وهمّتهم وَهْنٌ وفَشَل ، ومَلَكَ قِيادَهم ومِقْوَدَهم ضعفٌ وكسل . ثمّ أخذ يتهكّم ويهزأ فقال : والمرء فى أمرِه يَمضى يوما ويكفُّ يَوْمًا ، فما يَجْبُر كَسْرَ التّعَب إلاَّ ما يتعقَّبه من الرّاحة .

وقوله « فإنِّى لَراجيكم على بُطْء سعيكم » ، يريد أنَّهم على تباطئهم وتأخُّر فعالهم عن مقالهم مرجوّون ، كما أن الحاملات على تأخر وضعهنَّ مرجُوّات ، فأنا ناظرٌ فى أعقاب الأمَل متى يتحقَّق .

وقوله « فقضاء » أى فقضاء يوماً آخر . وقوله « كما فى بُطون الحاملاتِ رَجاء » أى أرجوكم مثلَ ذلك الرّجاء .

٦ — فَهلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْىَ عُصْبَةِ مَازِنٍ وهَلْ كُفَلائِى فى الوَفَاءِ سَواءُ

٧ — لَهُمْ أَذْرُعٌ بادٍ نَواشِرُ لَحْمِها وبَعضُ الرِّجالِ فى الحُروبِ غُثَاءُ

٨ — كأنَّ دنانيرًا على قَسَماتِهم وإنْ كانَ قد شَفَّ الوُجُوهَ لِقَاءُ

هذا الكلام بعثٌ وتحضيض . وهلاّ : حرف إغراء وتحضيض . وذكر بنى مازنٍ تحريكاً منهم ، وليوجِعَهم بتفضيل غيرِهم عليهم . وقوله « وهل كُفَلائى » ، فالكفيل : الضّامن للشىء : وهذا المصراعُ التفاتٌ ، كأنَّه لما هَجَّن فِعلَهم وقرّعهم ، وأطرى غيرَهم مؤثِراً عليهم . التفَتَ إلى مَن حوله فقال : وهل ضُمَنائِى مُستوُون فى الوَفاء فأُجرِيَهم مُجرًى واحدا . وهذا أبلغُ من كلِّ نكير ، ومن كلِّ هجوٍ فظيع . و « سَوَاء » وإن كانَ فى الأصل مصدرًا ؛ فقد صار هنا كأسماء الفاعِلين لنيابته عنها ، لذلك صَحَّ أن يَعمل فى الظَّرفِ قبله وهو قوله « فى الوفاء » ، لأنَّ المصادرَ لا تعمل فيما قبلَها إلا إذا أُمِرَ بها ، كقولك : ضَرْبًا زَيْدًا ، أو إذا أُجرِىَ هذا المُجرَى[2] .

---

(١) هذا ما فى ل ، وهو الموافق لما بعده . وفى الأصل : « العاب » بمعنى العيب .

(٢) ابن جنى : « الظرف متعلق بسواء لا بكفلائى . ألا ترى أن معناه : وهل من يكفلنى متساوون فى الوفاء » .

وقوله «لم أذرُعْ» صفةٌ للعصبة المازنيّة. وهم يتمدّحون بالهُزال. والنّواشر: عُروقُ ظاهرِ الذّراع. وقوله «وبعضُ الرِّجال في الحروب غُثاء»، تعريضٌ بالآخَرين، وهم بنو عديّ. والغُثَاء: ما يعلو السّيل من الغُثر والزّبَد. والمعنى: بعضُهم لا غَناء عنده ولا كِفاية، فتَراه كيَبيس النَّباتِ وقد احتمله الماء.

وقوله «كأنّ دنانيرًا على قِسماتهم»، القِسمات: الوُجوه، وقيل هي مجارى الدُّموع. ويقال: وَجْهٌ مُقَسَّمٌ، أى حسن، والقَسَامة: الحُسْن. ومرجعه إلى القِسْمة، كأنّه مُسِحَ كلُّ جزء من الوَجه بقِسمٍ من الجمال، فتعادلت الأجزاء وحَسُنَت. وقوله «وإنْ كان قد شَفَّ الوُجوهَ لِقاء» تعريضٌ أيضًا، والمعنى أنّ وجوهَهم تُشْرِقُ فى الحرب وتُضىء، إذا صارتْ وجوهُ غيرِهم مشفوفةً متغيِّرة. ويقال: شَفَّهُ المَرَضُ، إذا أذابَه وهزَلَه. وذِكْرُ الدّنانير فى إثباتِ ماءِ الوجه ونَضارة الحُسْن قد جاء فى النَّسيب، ألا تَرى قوله:

النَّشْرُ مِسْـــكٌ والوجوهُ دنا نيرٌ وأطرافُ الأكُفِّ عَنَم[1]

٦١١

وقال شَمْعَلَةُ بن الأخْضَرِ[2]

١ — وَضَعْنا على الميزانِ كُوزًا وهاجَرًا فـالَتْ بَنُو كُوزٍ بأبناءِ هاجَرِ

٢ — ولو مَلأتْ أعفاجَها مِن رثيئةٍ بنو هاجِرٍ مالَتْ بهَضْبِ الأكادِرِ[3]

٣ — ولـكنَّما اغتَرُّوا وقد كانَ عندَهُم قَطِيبانِ شَتَّى مِنْ حَلِيبٍ وحازِرِ

هذا الكلامُ هُزْءٌ وسُخْرِيَةٌ. فيقول: نظَرْنا ما بين كُوزٍ وهاجرٍ بالقياس

(١) البيت للمرقش الأكبر. وهو البيت ٦ من المفضلية ٥٤.

(٢) التبريزى: «وقيل: منذر بن الرقاد بن ضرار بن عمرو الضبى». وقد سبقت ترجمة «شمعلة» فى الحماسية ١٨٣ ص ٥٦٥. وأما منذر بن الرقاد فلم نعثر له على ترجمة.

(٣) ل والتبريزى: «ولو ملأت».

القائم ، والميزان الحاكم ، فوجدنا كِفَّةَ بنى كُوزٍ أرجحَ وأوزَن ، ولو عَلِمَتْ بنا وبفعلنا لملأَتْ بُطُونَها من الرَّثيئة ، فزادت زِنَتُها على هِضاب الأكادر . لكنَّها أُصيبت غَفْلَتَها ، وفُوجِئوا بالوَزْنِ قبل الشُّرب والامتلاء ، والتجرُّد للأمر والاستعداد ، وكانت الحالُ مُساعِدَةً ، وأنواعُ الحليبِ ممكِنةً ، وذاك أجْلَبُ لحسْرَتِهم ، وأدعى إلى نَدامتهم .

والأعفاج : الأمعاء ، والواحد عَفْجٌ[1] . ويقال : اغْتَرَّ فلانٌ ، أى أخذَ على غِرَّة . والقَطيب : الممزوج . والحازِرُ : الحامض . والرَّثيئة : المجموع من الحازِر والحليب . وقد رماهم بأنَّ طعامَهم ذلك لا غير .

٦١٢

وقال قِرْوَاشُ بن حَوْطٍ الضَّبِّىُّ[2] :

١ – نُبِّئْتُ أنَّ عِقالاً ابْنَ خُوَيْلِدٍ ... بِنِعَافِ ذِى غُذُمٍ وَأنَّ الأَعْلَما[3]

٢ – يَنْمِى وَعِيدُهُما إلَىَّ وَبَيْنَنَا ... شُمٌّ فَوَارِعُ مِنْ هِضابِ يَرَمْرَما

الأجود فى العَلَم وقد وُصِف بالابن أو الابنة ، إذا كانا مضافين إلى عَلَمٍ ، أو ما يجرى مجراه ، تَرْكُ التنوين فيه . وقد نوَّن هذا الشَّاعرُ عِقَالاً ، وإذ قد فعلَ ذلك فالأجود فى ابن خويلد أن يجعل بدلاً ، ويجوز أن يُجعَل صفةً على اللغة الثانية[4] .

---

(١) العفج ، بالفتح ، وبالكسر ، وبالتحريك : وككتف .

(٢) ذكره المرزبانى فى المعجم ٣٣٩ وقال : « قرواش بن حوط بن أنس بن صرمة بن زيد بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ثعلبة بن ضبة . جاهلى » .

(٣) الأبيات ١ ، ٢ ، ٥ فى معجم البلدان (غذم) و ١ ، ٤ ، ٥ ، ٣ فى الحيوان (٦ : ٣٨٣) و ٣ ، ٤ ، ٥ فى معجم المرزبانى . التبريزى : « علم » بالعين المهملة ، تحريف . وذو غذم : موضع من نواحى المدينة .

(٤) أضف إلى هذا ما ورد فى الحماسية ٥٩٠ ص ١٤٣١ ، وهو نص نادر .

والنِّعاف : جمع نَعْفٍ ، وهو المكان المرتفع فى اعتراضٍ ، وأعلى كل شيء ؛ ومنه مَناعِفُ الجبل . والأعلم : اسم رَجُل ، وأعادَ «أنَّ» معه توكيدًا . والخبر قوله « ينمى » ، والعامل فيه أنّ الأولى ، لأنّ الثّانيةَ لا يُعتَدُّ بها عاملا وإن كانَ مؤكِّدا . ومثل هذا قولُ الحُطَيْئة :

* إنّ العَزَاءَ وإنّ الصبرَ قد غُلِبَا[1] *

ويكون على هذا الألف فى «غُلِبَا» ضمير المثنّى . والشُّمُّ : الجبال المرتفعة . والفوارع : العوالى . ويَلَمْلَمَ : عَلَمُ جبل[2] ، ويروَى : « يَرَمْرَمُ » .

٣ – غُضَّا الوَعِيدَ فما أكونُ لِمُوعِدِى قَنَصًـــا ولا أُكلاً له مُتَخَضَّما[3]

٤ – ضَبُعًا مُجَاهَرَةٍ ولَيْثَا هُدْنَةٍ وثُعَيْلبَا خَمَـــرٍ إذا ما أظْلَمَا

٥ – لا تَسْأَما لِي من دَسِيسِ عَدَاوةٍ أبدًا فليس بمُنْـــسِئِى أن تَسْأَمَا

يقول : أقصِرَا إليكما من تهدُّدِكما ، فإنِّى لا أحتفل بكما ولا بوعيدكما ، ولا أصطاد بإرعادِكما وإبرافكما ، ولا أصير مَأْكَلَةً لأحدٍ فيأكلنى بفمه كُلِّهِ خَضْما كما يُؤكل الرَّطْب اللَّيِّن ، لا قَضْماً . ثم أخذ يُعدِّد مخازيَهُما فقال : عند المكاشفة والملاقاة تَخْبُثَان وتحمُقان ، خُبْثَ الضَّبُع وحَماقَتَهُ ، وعند الاصطلاح والهُدُوِّ تَشْجُعان وتُقْدِمان إقدامَ الأسَد وشجاعتَه ، وفى ظلام الليل تسرقان وتحتالان على الناس ، وتُراوِغان مُراوَغةَ الثَّعلب وسَرِقَتَه . والخَمَرَ : ما وارَاكَ من شجر

---

(١) صدره فى ديوان الحطيئة ص ٥ :

* قالت أمامة لا تجزع فقلت لها *

(٢) على ليلتين من مكة .

(٣) روى بعده الجاحظ فى الحيوان .

فمتى أُلاقِكُما البِرازَ تُلاقيا عَرِكًا يفُلُّ الحدَّ شاكًا مُعْلِما

وغيره . و « إذا ما أظلَمَا » أى دَخَلَا فى الظلام . والعاملُ فى إذا ما دَلَّ على جوابه وقد تقدَّمه .

وقوله « لا تسأما » يقول : لا تَمَلاَّ مُدَاجاتى وطَلَبِ الغوائل لى فى السِّرِّ وبظهر الغَيب ، فإنِّى لسكما على مِثل حالتكما لى ، ولا تفتُرا عنه فإنِّى لا أفتُر ولا أمَلّ وإن مَلِلْتما أيضاً ، فإنّ مَلاَلَكما لا يُكسِبُنِى فتُورًا ولا إمساكا . والدَّسُّ : إدخالُك شيئاً تحت شىء ، وهو الإخفاء[1] . وفى القرآن : ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ﴾ والدَّاسوس والجاسوس يتقاربان . ويُروى : « مِن رَسِيسِ عداوةٍ » ، ويكون مثلَ رَسِيس الحُمَّى والهَوَى ورَسِّهما ، لما يبدأ منهما . وموضع « أن تَسْأَما » من الإعراب رفعٌ على أن يكون اسمَ ليسَ ، كأنّه قال : ليس بِعِيِّى سآمَتُكما فهو كقولك : ليس بمنطَلِقٍ عَمْرٌو .

٦١٣

وقال سُوَيْدُ بن مَشْنُوء[2] :

١ — ذَرِى عَنْكِ مَسْمُودًا فلا تَذْكُرِنَّه   إلىّ بسوء واعْرِضِى لِسبيلِ

٢ — نَهَيْتُكِ عنه فى الزمان الذى مَضَى   ولا يَنْتَهِى الغاوِى لأوّلِ قِيلِ

قوله « ذَرِى » ؛ أى دَعِى . والأمر يُبْنَى على المستقبل ، وهو يَذَر ، وقد استُعمل . فأما وَذَرَ فمِن المرفوض استعماله استغناءً عنه بتَرَكَ . وقوله : « لا تذكرِنَّه إلىّ » كسَرَ الراء معه لأنه مخاطبةُ مؤنّث ، والأصل تذكُرِينَنَّ ، فحذَف النون الأولى للجزم ، ثم حذف الياء لالتقاء الساكنين ، فصار تَذْكُرِنَّ .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وهو فى خفاء » .

(٢) ذكره أبو الفرج فى الأغانى (١٦ : ٣٨) فى خبر مع الخطيئة ، وقال : هو حليف بنى عدى بن جناب الكلبيين .

والمعنى : لا ينتهينّ ذِكرُه إلىّ ، ولا يتجاوزنّ ذكرُه إلىّ بسوء . فعدّى تَذْكُرِنّ تعديةَ تتجاوَزِنَّ إلىّ ، حَملاً على المعنى . ومما جاء على هذا قوله :

إذا تَغَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِى ولو تَعَزَّيْتُ عنها ، أُمَّ عَمَّارِ[1]

عَدَّى هَيَّجَنى تعديةَ ذكَّرَنى ، لأنه فى معناه . وهذا كما يحملون فى التَّعدية النَّقيضَ على النَّقيض ، كقوله :

إذا رَضِيَتْ عَلَىَّ بنو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعجبَنى رِضاها[2]

عَدَّى رَضِيَتْ تعديةَ غَضِبَتْ لأنه نقيضُه ، كما عَدَّى هَيَّجنى تعديةَ ذكَّرَنى لأنه نظيره . وكما حُكِى :

* قد قَتَل اللهُ زياداً عنّى[3] *

عَدَّى قَتَل تعديةَ صرَف .

وقوله « نَهَيْتُك عنه » ، يقول : كنتُ أحذِّرُكَ عنه فيما سلَفَ من الزَّمان وتقضَّى ، لكنَّ الجاهلَ لا يرتدع للزَّجْرَةِ الأولى حتَّى يُرْدَع مرةً بعد أخرى . وهذا مَثَلٌ ، أعنى قولَهُ :

* ولا ينتهى الغاوِى لأوَّلِ قيلِ *

وقوله « واعْرِضى لسبيل » أى اعرِضى إلى طريقٍ غيره ، واذكريه بسُوء . ويقال : لا تعْرِضْ عِرْضَهُ ، أى لا تذكره بسوء .

---

(١) للنابغة الذبيانى فى جمهرة أشعار العرب ص ٥٣ وكتاب سيبويه (١ : ١٤٤) . وقد سبق فى ٣١٥ .

(٢) لقحيف العقيلى فى الكامل ٣٤٢ ، ٤٨٨ .

(٣) للفرزدق فى ديوانه ١٨١ ، واللسان (قتل) ، قاله حين خرج من المدينة بعد موت زياد ، وكان زياد قد نفاه وآذاه ونذر قتله . وقد سبق فى ٣١٥ .

٦١٤

وقال مَعْدَانُ بن عُبَيْد[١] :

١— عَجِبْتُ لِعُبْدَانٍ هَجَوْنِي سَفَاهَةً أَنِ اصْطَبَحُوا مِنْ شَاتِهِم وتَقَيَّلُوا[٢]

٢— بِجَادٌ ورَيْسَانٌ وفِهْرٌ وغَالِبٌ وعَوْنٌ وهِدْمٌ وابنُ صِفْوَةَ أَخْيَلُ

٣— فأمّا الذى يُحْصِيهِم فمُكَثِّرٌ وأما الذى يُطْرِيهِمُ فمُقَلِّلُ

يقال : عَبْدٌ وأعْبُدٌ وعِبَادٌ وعبيدٌ وعِبِدَّى وعِبْدَانٌ ومَعْبُوداء ومَعْبَدَةٌ وعُبُدٌ . فبعضُ هذه الأسماء ممّا صِيغَ للجمع ، وبعضها جمعٌ فى الحقيقة . وانتصب « سَفَاهَةً » لأنه مفعولٌ له . وهم يَكْنُون عن اللئام بالعَبِيد والعِبْدَان ، وبالقَزَم والقُزْمَان[٣] . و « أن اصْطَبَحُوا » يريد لأن اصطبحوا ، أى شَرِبوا الصَّبُوحَ ، وهو ما يُشرب صباحا . والقَيْل ، وهو شرب نِصف النّهار . وكما قال تقيّلوا ، يقال تصبَّحوا أيضاً . والمعنى عَدَوْا طَورَهم فهجَوْنى ، لأنهم رأوا بأنفسهم ما لم يعهدوه . فطغَوْا عِند الغِنَى ، وأصابوا مِن شاتِهم الصَّبُوح والقَيْل ، بعد أن كانوا كَلًّا على غيرهم . ثم ذكرهم بأسمائهم تخضيعاً[٤] وتشنيعا . ويرتفع بجادٌ إن شئتَ على الاستئناف ، يريد : هم بِجادٌ ورَيْسانٌ ؛ وإن شئت على البَدَل من المضمرين فى قوله اصطبَحوا .

وقال مِن بَعْدُ : مَنْ يَعُدُّهم يُكثِّر لوفور عددهم ، ومن يُثنى عليهم يقلِّلُ لقلة من يستحق الثناء فيهم ومنهم . ويجوز أن يكون أن من قوله أن اصطبحوا أن المفسِّرة ، كأنه فسَّر لِمَ طغَوْا فهجَوْا .

---

(١) هو معدان بن عبيد بن عدى بن عبد الله بن خيبرى بن أفلت الطائى ثم المعنى . شرح التبريزى ومعجم المرزبانى ٤٠٧ .

(٢) ضبطت « عبدان » فى النسختين والتبريزى بكسر العين ، ويقال فيها أيضا « عبدان » بضم العين .

(٣) لم تذكر المعاجم المتداولة هذا الجمع . والمعروف أقزام : وقزامى ، وقزم بضمتين .

(٤) ل : « تخصصا » :

٦١٥

وقال يزيد بن قُنافة[١] :

١— لَعَمْرِى وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ لَبِئْسَ الفَتَى الْمَدْعُوُّ بالَّليلِ حاتِمُ[٢]

٢— غَدَاةَ أَتَى كالثَّورِ أُخْرِجَ فاتَّقَى بِجَبْهَتِـــهِ أَقتالَهُ وهو قائمُ

٣— كأنَّ بِصَحْرَاءِ الْمُرَيْطِ نَعَامَةً تُبَادِرُها جِنْحَ الظَّـــلامِ نَعَائمُ

٤— أَعَارَتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِى لُبِّهَا وقد جُرِّدَتْ بِيضُ الْمُتُونِ صَوَارِمُ

قد مَضَى الكلام فى قوله لَعَمْرِى . وقوله « وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ » تحقيق اليمين ، وأنَّ عُمرَه ليس يَهُون عليه فيحلفَ به كاذبا . وفى الكلام إزراء بالمُخبَرِ عنه . وقوله « المدعوُّ بالليل » كثير من النحويين يذهبون فى مثلِه إلى

---

(١) التبريزى : « وقال يزيد بن قنافة بن عبد شمس العدوى ، من بنى عدى بن أخزم ابن أبى أخزم ، من ثعل بن عمرو بن الغوث ، رهط حاتم بن عبد الله » . وقال ابن جنى : « القنف صغر الأذنين وغلظهما ، رجل أقنف وامرأة قنفاء ، وبه سمى الرجل قنافة ، إذا كان ضخم الأذن ، ويقال : هو الطويل الجسم . فقد يجوز أن تكون الهاء فى قنافة لحقت للمبالغة ، ويجوز أن يكون أيضا لحاقها ضربا من ضروب تغيير الأعلام ، كما أن الهاء فى رواحة قد يجوز أن تكون كذلك . وقد يجوز أن يكون قنافة علما مرتجلا من غير طريق الصنعة التى ذكرت » .

(٢) قال أبو رياش : كان من خبر هذه الأبيات أنه عمد رجل من بنى السيد بن مالك ابن بكر بن سعد بن ضبة ، يقال له زيد بن ثابت ، فجاور فى طيئ وكانت له نعمة فيهم ، وكان جيرانه منهم بنو معن ، فقتلوه وأخذوا ماله : فبلغ ذلك بنى السيد فركبوا فيمن تبعهم من بنى ضبة حتى لقوا رجلا من طيئ فقالوا له : من أنت ؟ فكتمهم فعرفوا لغته ، فقالوا له : أنت آمن إن دللتنا على أقرب أبيات بنى معن منك . فدلهم على بنى ثور بن ود من بنى معن ، وذلك من العشى ، فقتلوهم إلا قليلا ، وانفلت منهم رجل حتى أتى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ، وهو حاتم طى ، وهو فى قبة له أدم فى دار ليس معه فيها أحد غير أهل بيت أو بيتين من بنى عدى ، فيهم يزيد بن قنافة ، وهو بمكان يقال له صحراء المريط . فأخبره الخبر فأمر أمته أن توقد فى قبته واحتمل تحت الليل فنجا ، وبقى يزيد بن قنافة لم يعلم الخبر حتى صبحته الخيل غدوة ، وكانت امرأته لا تكلمه فدعته باسمه فأخبرته الخبر ، فثار إلى قوسه فمنع بناته وابنيه وامرأته وذهب بماله . وإنما كان القوم أرادوا حاتما فأفلت » . وفى ذلك يقول يزيد بن قنافة هذا الشعر هاجيا .

أنه بدل لا صفة ، لأنَّ نِعْمَ وبئس يرفعان من المَعارف ما فيه الألف واللام ودَلَّ على الجنس ؛ وما يدلُّ على الجنس [لا[1]] يتأتَّى فيه الوصفيّة . والصواب عندى تجويز كونه وصفاً ، بدلالة أنه يثنَّى ويُجمع ، فيقال : نعم الرجلان الزَّيْدَانِ ، ونعمَ الرِّجالُ الزَّيْدُون ، والتثنية والجمعُ أبعد الأشياء من أسماء الأجناس ، إلا إذا اختلفت ، فكما يجوز تثنيةُ هذا وجمعُه لدخول الاختلاف فيه ، كذلك يجب أن يجوز وَصفُه لمثل هذه العِلَّة ، ولا فَصْل . وإذا كان كذلك كان قولُه المدعُوُّ بالليل صفةً للفتَى ، كأنه قال : مذمومٌ فى الفِتيان المدعوِّين بالليل حاتم . وهذا ظاهرٌ .

وذَكَر اللَّيلَ لشدَّة الهَوْل فيه .

وقوله « غداةَ أَتَى كالثَّور » يعنى حاتما ، وإنَّما يَهزأ به . ومعنى أُحرِج : ضُيِّق عليه وأُخْرِج مِن عادته فأُحوِج إلى أن يَعِيثَ . والأَقْتالُ : الأقرانُ والأعداء ، والواحد قِتْل . فيقول متهكِّما : جاء كالثَّور الهائج غَضَباً وحَمِيَّةً ، وقد بَانَ له من طُلاَّبِه تَرْكُ الإبقاء عليه ، فجعل بينه وبين أقرانه قَرْنَيه يتَّقيهم بهما ، ويَمِـدُهم الشَّرَّ بإعمالهما ، فهو ثابتُ القدَم متهيِّئٌ للقتال . هذا كان حالَه فى المجىء ، فلمَّا جاء وقتُ الدِّفاع والمصادَمة ، والقِراع والمكافَحة ، انهزمَ فكأنَّ نعامَةً سابَقَها حينَ جَنَح الظَّلامُ نَعَائمُ إلى أَداحيِّها ، أعارَتْ حاتِماً رِجلَيها وطائرَ قلبِها ، وهو يَعْدُو مذعوراً ، ويطلب النَّجاء مفلولا ، وقد جُرِّدت السُّيوفُ من أغمادِها ، وصار الأمر فى الطَّلب والهَرَب جِدًّا . وإنما قال « أعارَتْك رجلها » لأنَّه نَقَل الكلامَ عن الإخبار إلى الخطاب .

---

(١) التكلة من ل والتبريزى .

٦١٦

وقال عَارِقٌ ، وهو قَيْسُ بن جِرْوَةَ الطائىّ[١] :

١ ـ من مُبْلِغٌ عَمْرَو بنَ هِنْدٍ رِسالَةً ... إذا استحقبَتْها العِيسُ تُنْضَى من البُعْدِ

٢ ـ أَيُوعِدُنِى والرَّمْلُ بَيْنِى وبَيْنَهُ ... تَبَيَّنْ رُوَيْدًا ما أُمَامَةُ مِنْ هِنْدِ

٣ ـ ومن أجَإٍ حَوْلِى رِعَانٌ كأنَّها ... قَنَابِلُ خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومن وَرْدِ

كان عمرُو بنُ هند غزَا اليمامة على ما حَكيتُ من قصته فيا تقدَّم[٢] ، فأخفَقَ ورجع مُنْفِضًا . فمرَّ بطيِّئ ، وكانوا فى ذمته بكتاب عَقْدٍ اكتتبه لهم ، وعَهْدٍ أحكمه معهم ، فقال زُرارة بن عُدُس له : أَبَيْتَ اللَّعنَ ، أصِبْ من هذا الحىِّ شيئًا . قال : ويلكَ إنَّ لهم عَقْدا لا يجوزُ لنا تخطِّيه . فأخذ زُرارةُ يهوِّن أمر العهد عليه ، ويحسِّن الإيقاعَ بهم ؛ فلم يزلْ يَفْتِل فى الذِّرْوَةِ والغارِب معه لشىء كان فى نفسه على طيِّئٍ حتَّى أصابَ أذوادًا ونساء ، فهجا عارقٌ عَمْرو ابنَ هندٍ بأبياتٍ يَعصِبُ رأسَه فيها بالغدر الذى كان منه ، فوقعت الأبياتُ إلى عمرِو بن هند ، فتوعَّدَ عارقا وحلفَ أنَّه يقتلُه ، فاتَّصلتْ مقالتُه بعارِقٍ فقال هذه الأبيات . ومعنى « استَحقبَتْها » حمَلَتْها فى الحقائبِ . وجعلَ الفِعل للعيس اتِّساعًا . ومعنى تُنْضَى : تُهْزَل ، لبُعْدِ المسافة .

وقوله « أيُوعِدُنى » استفهام على طريق التَّقريع لعمرو ، واستعظامٌ منه للأمر . والمعنى أنَّه لا يَنالُنى مع حَصانة جَبَلِى ودارى ، ولا يتمكَّن منِّى على بُعد طُرُق وأرضى ، فلينظرْ برفقٍ ، وليُميِّزْ بينَ أمِّه وأمّى ، وليكن التعلى والتوعُّدُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٠٤ ص ١٤٤٦ .

(٢) فى الحماسية ٦٠٣ ص ١١٤٧ .

بمقدار فَضْله وقُدرته . وذِكر الأمّ إظهارٌ لقلَّة المبالاة ، وأنَّه يَجْسُر على تَناوُل الحُرَم منه باللِّسان .

وقوله « ومن أجأ حَوْلِى رِعَان » أجأٌ : أحد جبلَيْهم[١] . والرِّعَانُ : جمع رِعْنٍ ، وهو أنفٌ يتقدَّم من الجبل . والمرادُ بيانُ حالِ جبلَىْ طيِّئٍ فى وَثاقتهما وحَصانتهما ، وأمْنِ مَن يَنزل بهما ، وأنَّ رِعَانَهُ كأنَّها جماعاتُ خَيْلٍ أحاطت بالجبَل وأحدَقَتْ ، فهى تَذُبُّ عنها[٢] كُمْتاً ووُرْداً[٣] . وذِكْرَ القنابلَ فى التَّشبيه ، والعِزُّ بأربابها يَحصُل .

٤ – غَدَرْتَ بأمْرٍ كُنتَ أنتَ اجتذبْتَنَا إليه وبئسَ الشِّيمَةُ الغَـدْرُ بالعَهْدِ

٥ – وقد يَترُكُ الغَدْرَ الفَتى وطعامُه إذا هو أمْسَى جُلُّهُ من دَمِ الفَصْدَ

يُرْوَى : « أنت احتَدَيْتَنا » ، وهو افتعَل من الحَدوِ : السَّوْق . واجتذبتنا ، من الجَذْب . ويُروَى : « أنتَ دعَوْتَنا » .

والشَّاعر يشير إلى ما كان فى يد طيِّئٍ من عقد الجِوار وكِتاب العَهْد ، فيقول : كنتَ أنتَ البانىَ لذلك ، والمؤسِّسَ لِمثاره ، فأبيتَ إلاَّ أن تنقُضَه ، وبئس العادةُ الغَدرُ مع العُقود ، ونَكْثُ عُرَى العُهود . والفَتَى قد يؤْثِر الإقامةَ على الوفاء مع الإضافة ، وشدَّة الفاقة ، ويَطلُب اكتسابَ المحمدةِ ، وإن كان مسكيناً ذا مَتْرَبةٍ ، حتَّى إذا أمسى يكون جُلُّ طعامه فَصِيدَ الدّم . ويُروَى : « إذا هو أمسَى حَلْبَةٌ من دَمِ الفصْدِ » ؛ والأول أحسن . ويرتفع « جُلّه » على

---

(١) والآخر « سلمى » .

(٢) أى عن طيئ القبيلة .

(٣) التبريزى : « وجعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .

أنه مبتدأ ثان ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، وهو طعامه . وينتصب إذا من قوله « جُلهُ من دَمِ الفَصْدِ » ، لأنَّه الدالُّ على جوابه[1] .

٦١٧

وقال آخر :

١ — لَعَمْرِى وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ لقد ساءنِى طَوْرَيْنِ فى الشِّعرِ حَاتِمُ

٢ — أَيَقْظَانُ فى بَغْضَائِنَا وهِجائِنَا وأنتَ عن المعروفِ والبِرِّ نَائِمُ

٣ — بِحَسْبِكَ أنْ قد سُدْتَ أَخْزَمَ كُلَّهَا لكلِّ أُنَاسٍ سَادَةٌ ودَعَائِمُ

٤ — فهذا أوانُ الشعر سُلَّتْ سِهامُهُ مَعَابِلُها والمُرْهَفَاتُ السَّلاجِمُ

أقسم بحياة نفسه ، وخبر المبتدإ محذوف ، والمراد : لَعَمْرِى ما أُقْسِمُ به ؛ لأنَّ اللامَ منه لامُ الابتداء ، وجواب القَسَم لقد ساءنى . وقوله « ما عَمْرِى » اعتراض ، وقد مرَّ القول فى فائدته[2] . والطَّوْرُ : التَّارَةُ . أى تَعَرَّضَ لى مرَّتين بما سَاءَنِى . ثم أقبل عليه فقال : أيَقْظانُ ؟ والمعنى : أأنت يقظانُ ، أى مُنْتَبِهٌ فى هَجْوِنا وبُغضنا وعداوتِنا ، ونائم عن الخيرِ والإحسان ، وإسداء المعروف والبرِّ والإفضال؟! ثمَّ أخذَ يهزأُ به فقال : بِحَسْبِكَ . والمراد حَسْبُكَ ، لكنَّهم يَزيدون الباء فى المبتدإ ، نحو قولك : بِحَسْبِكَ أن تفعل كذا ، وفى الخبَر أيضاً يَزيدون ، نحو قوله :

* ومَنْعُكَهَا بشىءٍ يُستطاعُ[3] *

---

(١) ابن جنى : « يصح أن ينصب إذا شىء مما قبلها ، طعامه ولا غيره ، من حيث كان الشرط لا ينصبه ما قبله ، لكن العامل ما دلت عليه حلبة . أى إذا هو أمسى يحلب له من دم الفصد . ولا يجوز أن يتعلق بحلبة ، من حيث كان مصدرا فلا تتقدم صلته عليه . يعنى أن المصدر لا يعمل فيما قبله — وإن قلت : فإن الحلبة هنا بمعنى المحلوبة واسم المفعول يتقدم عليه ما عمل فيه ، فذلك وجه مستقيم ، يجوز انتصاب إذا عليه بنفس الحلبة » .

(٢) انظر البيت الأول من الحماسية ٦١٤ص ١٤٦٤ .

(٣) لعبيدة بن ربيعة بن قحفان ، كما سبق فى حواشى الحماسية ٤٨ ص ٢٠٩ . وصدره :

• فلا تطمع أبيت اللعن فيها •

وانظر الخزانة (٢ : ٤١٣) .

أى شىء يُستطاع . وهذا أحدُ ما قِيل فيه ، وقال آخر[١] :

بِحَسْبِكَ فى القَوْمِ أن يعلموا بأنَّك فيهم غَنِىٌّ مُضِرْ[٢]

والمعنى : كافِيكَ أن تَرأَّستَ على أَخْزَمَ ، وأَخْزمُ : رَهْطُ حاتم . ثم أزرَى برياسته وبهم ، فقال : ولكلِّ طائفةٍ من طوائف النَّاس رؤساء وعَمَدٌ ، وهذا يَجرِى مَجرى الالتفات . كأنَّه بَعْدَ ما قال ذلك التَفَتَ إلى مَن حوله يؤنِسهم ويقول : ليس ذا بمُنكَرٍ ، فلكلِّ قومٍ مَن يَسُوسُهُم ويدعَمُهُم .

وقوله « فهذا أوانُ الشعر سُلَّت سِهامُهُ » ، يعنى شعره . فيقول : لكلِّ زمانٍ شَىْءٌ يظهر فيه ويَغلِب ، وزمانُنا هذا مع قَرْضِكَ للشِّعر زمانُ الشعر ، وقد انتُزِعت سهامُه من كَنائنها بعد أن نُثِرَتْ ، فجُرِّدَتْ للرَّمى بها معابِلُها ، وهى العِرَاض ، وسَلاَجِمُها وهى الطِّوال . والمُرهَفات : المُرَقَّقَات الحدِّ . والمراد بهذا التَّنويع فنونُ الشِّعر وأساليبُه . أى أنتَ فيه ذو فنون ، والمُعبِّل[٣] : الذى مَعَه مَعَابِلُ[٤] . وعَبَلْتُهُ : أصَبْتُهُ بِمِعْبَلَة .

٦١٨

وقال رَجُلٌ من طَيِّئ :

١ — إنَّ امرأً يُعْطِى الأَسِنَّةَ نَحْرَهُ وَرَاءَ قُرَيْشٍ لا أَعُدُّ له عَقْلا

٢ — يَذُمُّونَ لِى الدُّنْيَا وقد ذَهَبُوا بها فما تَرَكُوا فيها لمُلْتَمِسٍ ثُعْلا[٥]

---

(١) هو الأشعر الرقبان الأسدى . اللسان (ضرر) .

(٢) المضر : الذى له قطعة من الإبل أو الغنم .

(٣) وردت فى القاموس ، ولم ترد فى اللسان .

(٤) فى الأصل : « فيه معابل » ، صوابه فى ش .

(٥) مثل هذا المعنى لعبد الله بن همام السلولى ، قال يهجو العلماء فى شعر يخاطب به النعمان ابن بشير الصحابى :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

اللسان (٩ : ٤٨٤ / ١٣ : ٨٨) والأغانى (١٤ : ١١٦) . وانظر مجالس ثعلب ٥١٥ ومقاييس اللغة (٢ : ٤٠١) .

وَصَفَ الأمراءَ الذين أشار إليهم بسُوء المحافَظة، وذَهابهم عن مَعرِفة الحقوق ومراعاتها، وإنزال الموَالِينَ منازلَهم فيها فقال: إن مَن يغترّ بكم بعد هذا الوقتِ واعتَمَدكُم، فبذَلَ نَفْسَهُ وراءكم للمَتالف، ورَكِب فى هواكم المعاطب، لا عَقْلَ له ولا رأى.

ثمَّ بَيَّنَ ما أشكاهُ مِنهم، وسوءَ معاملَتهم فقال: يذُمُّون الدُّنيا لى، ويزهِّدونني فيها وفى الأخذِ منها، وقد فازُوا بها حتَّى لم يُبقُوا فيها فُضالةً لأحَد، أى تَغَبَّرُوا كلَّ محلوب فيها، ولم يُبقُّوا فى ضروعها شيئاً حتَّى لم يترُكوا ثُعْلاً فيها. وهذا مَثَل، والثعْل هو الطُّبْيُ الزائد، والسنُّ الزائدة. ويقال: ثَعِلَت سِنُّه. وشاةٌ ثَعُولٌ: لها ثُعْلٌ[1]. وذكر بعضُ أهل اللُّغة أنَّ الثُّعْلُول من الشَّاء: التى يُمكن أن يُحلَبَ من ثُعْلِهَا أيضاً.

وقوله «وراء قُرَيش» يكون وراء بمعنى خلفَ وقُدّامَ، والأولى به هنا أن يكونَ بمعنى قُدّامَ. ومثلُه فى القرآن: ﴿وكان وراءهُم مَلِكٌ﴾.

٦١٩

وقال رُوَيْشِدٌ[2]:

١ — ومُوقِعُ تَنْطِقُ غيْرَ السَّدَادِ فَلاَ جِيدَ جِزْعُكِ يا مُوقِعُ

٢ — فما فَوقَ ذِلَّتِكُمْ ذِلَّةٌ ولا تَحتَ مَوضِعِكم مَوْضِعُ

مُوقِع[3]: قبيلة. يريد أنَّهم يتكلَّمون بالفُحشِ وغيرِ الصَّواب، لسفهها

(١) يقال ثعل، بالضم، وبالفتح، وبالتحريك.

(٢) هو رويشد بن كثير الطائى، الذى سبقت له الحماسية ٣٢ ص ١٦٦.

(٣) موقع، بضم الميم. كما فى الأصل والتبريزى. وفى القاموس: «وموقع بالضم: قبيلة» لكن ضبطت فى ل بفتح الميم والقاف.

وسُوءِ تمييزها ، ثمّ دَعَا عليها ، فقال : لا مُطِرَ جانِبُكِ وفِناءُ واديك بالجَوْدِ ، ولا أصابكم خِصْبٌ .

وقوله « فما فوق ذِلّتكم » طَابَقَ بتحتَ وفوقَ فيه ، وهو غريبٌ حَسَنٌ . يريد : لا مَرْتبةَ فى الذُّلّ أعلى من مرتبتكم ، فإنّها الغايةُ القصوى ؛ ولا موضِعَ أشدُّ تأخُّراً وانحطاطًا فى العزّ من موضِعكم ، فإنّه المنزلُ الأخسُّ الأدنى . وقوله « غيرَ السَّدادِ » ، يريدُ به تَنْطِقُ النُّطقَ غيرَ السَّداد . ويقال : جِيدَ جَوْدًا ، فى المطر ، وتُوُسِّعَ فيه فقيل :

* ومَجُودٍ مِن صُبَاباتِ الكَرَى[1] *

ويقال جِيدَ جُوَادًا[2] ، إذا عَطِش .

٦٢٠

وقال جابر[3] :

١ — أجِدُّوا النِّعَالَ بأقدامِكمْ أجِدُّوا فَوَيْهاً لَكُمْ جَرْوَلُ

٢ — وأبْلِغْ سَلاَمَانَ إن جِئْتَهَا فَلا يَكُ شِبْهًا لَهَا المِغْزَلُ

٣ — يُكَسِّى الأنامَ ويُعْرِى اسْتَهُ وَيَنْسُلُ من خَلْفِهِ الأَسْفَلُ

يقول : استجِدُّوا النِّعال لأقدامِكم ، أو فى أقدامكم استجدُّوها يا جَرْوَلُ ، وَيْهًا لكم . وإنّما كرّر الأمرَ تأكيداً للقول عليهم . ويُقالُ فى الدُّعاء : أَبْلِ وأَجْدِدْ . وَوَيْهًا : اسْمٌ من أسماء الأفعال يُغرَى به ، ولا يجيء إلاّ مُنَوَّنًا ،

(١) البيت للبيد فى اللسان (جود) . وعجزه :

* عاطف النمرق صدق المبتذل *

(٢) وجودة أيضا بفتح الجيم ، وفيه قول ذى الرمة :

تعاطيه أحيانًا إذا جيد جودة رضابا كطعم الزنجبيل المعسل

(٣) كذا ورد اسمه بدون نسبة .

وذاكَ علامةٌ لتنكيره . وإنَّما قلنا هذا لأنَّ في أسماء الأفعال ما يُنَكَّر ويعرَّف . ومنه ما لا يجيء إلاَّ منكورا . ومثل وَيْهًا إيهًا ، ويُستعمَل في الكفّ ، ووَاهًا وهو للتعجُّب ، وكل ذلك يجيء منوَّنةً منكَّرةً . وجَرْوَلُ : اسم رَجُل . وجعلَ أوَّلَ الكلام خِطابًا لجماعتهم ، ثم خَصَّ بالنِّداء واحداً منهم وجعله المأمور بما أراد . ألاَ ترى أنَّه قال : « وأبْلِغْ سَلامَانَ إن جئتها » . وسَلامانُ : قبيلةٌ . ومثل هذا التخصيص قول الهذلي[1] :

* أحْيَا أبا كُنَّ يا لَيْلَى الأمَادِيحُ[2] *

فقال : أبا كنّ ، ثم قال : يا ليلى ، وهذا التَّخصيص مثل التَّخصيص الذي في قوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطَى ﴾ ، وما أشبهه . وقوله « فلا يَكُ شِبْهًا لَهَا المِغْزَلُ » ، لو قال لكم لساغ ، لأنهم يفتنّون في مثل هذا الموضع بين الخطاب والإخبار ؛ على هذا قولُ الله تَعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثَاقَ بَنِي إسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ ﴾ ، قُرِئ : ﴿ لا يَعْبُدُون ﴾ بالياء والتاء[3] فالتَّاء للخطاب ، والياء للإخبار . والرِّسالة التي يريد إبلاغَها قولُه :

* فلا يكُ شِبْهًا لها المِغْزَلُ *

والمعنى لا يكونَنَّ سبيلُكم سبيلَ مَن ينْفع الغَير ويضرُّ نفسه ، كالمِغزل الذي يُكسِّي الخَلْقَ ويجعل استَه عُرْيان . وهذا مثَل . وكما ضُرِب المَثَلُ بالمِغزل ضُرِبَ أيضاً له بالسِّراج فقيل :

ولا تَكُونَنْ ذُبَالَةً نُصِبَتْ   تُضِيء للنَّاسِ وهْيَ تَحترِقُ

فأمَّا قوله « وينسلّ من خلفه الأسفل » ، فإنَّه كان يُرْوَى : « مِن خلفِه »

---

(١) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ١١٣) . وقد سبق في ٢٤٨ .

(٢) صدره : * لو كان مدحة حي أنشرت أحداً *

(٣) قرأ بالياء التحتية ابن كثير وحمزة والكسائي . وقرأ أبي وابن مسعود : « لا يعبدوا » ، على النهي . تفسير أبي حيان (١ : ٢٨٢) .

وليس يصحّ له معنًى . والمستقيمُ كما روينا : « مِن خَلفِه الأسفل » . وذاك أنَّ المِغزلَ ينسلُّ أسفلُه بأن يُختَلع كُبَّتُهُ ، وهذا ظاهر . وكأنّ سَلاَمَان كانت تقتحم أموالاً غنمُها يصيرُ لغيرها ، وغُرْمُها يكونُ لها ، فلذلك جَعل المِغْزل مثلاً له .

٤ — فإنّ بُجَيْرًا وأشياعَهُ كما تَبْحَثُ الشّاةُ إذْ تَدْأَلُ[1]

٥ — أثارَت عن الحَتْفِ فاغْتَالَها فَمرَّ على حَلْقِها المِغْوَلُ

٦ — وآخِرُ عَهْدِ لها مُونِقٌ غَدِيرٌ وجِزْعٌ لها مُبْقِلُ

قوله « كما تَبحث الشاة » محمولٌ على المعنى ، لأنَّ المعنى أنَّ بَحْثَ بُجَيْرٍ وأشياعِه كبَحث الشّاةِ فى دَأَلاَنِها ، وهو جِنسٌ من عَدْوِها ، وذاك لأنَّه يُشَبِّهُ الحدَثُ بالحدَثِ ، والذّاتُ بالذّات ، وإذا كان كذلك فقوله إنّ بُجَيْرًا حَذفَ المضافَ منه ، لأنّ القَصْدَ تشبيهُ البحث بالبحث . وفى المَثَل : « حَتْفَها تَحمِلُ ضانٌ بأظلافها » ، و « كما تَبحث الشّاةُ عن مُدْيَتِها » و « لا تكنْ كالباحثِ عن الشّفرة » ، وإنّما ينهى بهذا مَن يَجْنِي على نفسه فيما يأتيه ، ويَسعَى فى إهلاكه برجله ، فيقول : لا يكونَنّ سبيلُه سبيلَ الشّاة التى كشفت عن المُدية ، وقد استَتَرت عن الذّابح ، بظلفها ، حتّى ذُبحت بها . ومعنى أثارت عن الحَتْفِ ، أثارَتْ عن المُدْيَة ، ثمّ كان الحَتْفُ فيها . ففيه توسّع . وهم يُقيمون السَّببَ مَقامَ المسبَّب كثيراً . واغتال : افتَعَلَ من الغَوْلِ ، وهو الهَلاكُ . والمِغوَل : السِّكِّين ، وقد اشتهرت بها إذا جُعِلت فى وسَط السَّوْط فصار كالغلاف لها .

وقوله « وآخرُ عَهْدِها مُونِقٌ غديرٌ[2] » ، يعنى الشّاةَ بعد إثارتها السِّكِّين .

---

(١) فى النسختين : « وأشياعها » ، صوابه عند التبريزى . قال : « بجير : اسم رجل » .

(٢) ابن جنى : « أراد أن يقول غدير مونق ، إلا أنه قدم وصف النكرة عليها فأعربها إعرابها وأبدلها منها ، كقولك : مررت بظريف رجل . ولو نصبه لأنه نكرة قدم عليها فنصب حالا منها لجاز على قولك : فيها قائماً رجل . غير أن سيبويه قال : هذا كلام أكثر ما يجىء فى الشعر وقلما يجىء فى الكلام » .

وهو إظهارُها إيَّاها . فيقول : كان آخرُ عهدها المُعْجِبُ لها روضةً قد أبقلَتْ ، وغديرًا امتلأ ماء وكان شِبَعه ورِيه منهما ، فبَطِرت وأثارت عن حَتْفِها حتَّى هلَكت . ولك أن تروى « مُونِقٌ » بالرفع ، فيكون صفة لآخِرُ عَهْدٍ ، و « مُونِقٍ » بالجرِّ فيكون للعهد . وجعل الإيناق للعَهْد لأنَّ المرادَ بالعهد المعهود ، وهو المَرْعَى المُعْجِبُ . ويجوز أن يجعل المُونقُ من صفة الغدير وقد قُدِّم عليه ، وجُعِل هو بَدَلاً منه ، ويكون التَّقدير : وآخرُ عهدٍ لها غديرٌ مونِقٌ وجِزْعٌ مُبْقِل . ويقال : أبقَلَ المكانُ فهو باقِلٌ ومُبْقِلٌ . وأَفْعَلَ فهو فاعِلٌ شاذ ليسَ بكثير .

٦٢١

وقال إياس بن الأرَتّ[1] :

١ — كأنَّ مَرْعَى أمِّكُمْ إذْ بَدَتْ عقْرَبَةٌ يَكُومها عُقْرُبانْ

٢ — إكْلِيلُها زَوْلٌ وفى شَوْلِها وَخْزٌ أَلِيمٌ مِثْلُ وَخْزِ السِّنان

٣ — كلُّ عُدوٍّ يُتَّقَى مُقْبِلاً وأُمُّكُمْ سَوْرَتُها بالعِجَانْ

قوله « كأنَّ مَرْعَى أمِّكم » ، يجوز أن يكون « مَرْعَى » اسماً لها ، وأمِّكم بدَلاً منه ، ويجوز أن يكون لقَّبها الشاعر به . وسُئل الأحنف عن شيء من أمور النساء ، فقال : « الرِّجالُ حِمًى والنِّساء مَرْعًى » ، فعُدَّت من سَقَطاته . ومثل قوله « عَقْرَبة يكومُها عُقْرُبانْ » قولُ الآخر :

كالجُمَلَيْنِ رَكِبَا دُخْرُوجا دَمامَةً ومنظرًا سَمِيجا

والعُقْرُبان : ذكَر العقارب . والكَوْم : السِّفادُ. وقوله « إكليلُها زَوْلٌ »

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ١٠٢٨ .

(٢) انظر الحيوان (٢ : ٢٨٦/٤ : ٢٥٩ — ٢٦٠) .

كنى عن قَرْنَى العقربة بالإكليل . والزَّوْل : الخفيف الظَّريف . وقوله « وفى شولها وَخزٌ » أى فيما تَشُولُ العقربةُ من ذنَبها . وزاد الهاء فى عقربَةٍ توكيدًا للتَّأنيث . وهذا كما قالوا : جَمَل وناقة ، وكبش ونعجة ، ووَعِلٌ وأُرْوِيَّةٌ ألحقوا الهاء توكيدًا وتحقيقًا للتَّأنيث ؛ ولو لم تُلْحَق لم تحتَج إليها . وحُـكِىَ : عَجُوزةٌ . والوَخزُ : الطَّعن الشَّديد المُوجِـع . وإنما يعنى شوكَتَها إذا ضَرَبَ بها ، فشبَّهَ تأثيرَها بتأثير السِّنان .

وقوله « كلُّ عدُوٍ يُتَّقَى مُقْبِلاً » ، أراد أن يذكر السَّوْءَةَ فيها استهزاء واستهانةً بذكرها ، فقال : كلُّ عدُوٍ يُتَّقَى شَرُّهُ إذا أَقبلَ ، وأُمُّكُمْ يُتَّقَى شرُّها إذا أَدْبَرَتْ . والمِجَان يريدُ الدُّبُرَ به[1] . وهو فى الأصل ما بين الخُصْيَةِ إلى سَمِّ الدُّبُر . والسَّوْرَةُ : الوثْبة .

٦٢٢

وقال أدهَمُ بنُ أبى الزَّعراء[2] :

١ــ بَنِى خَيْبَرِىٍّ نَهْنِهُوا من قَنَاذِعٍ أَتَتْ مِنْ لَدُنْكُم وانظُروا ماشُؤُونُها[3]

٢ــ فكائِنْ بها مِنْ ناشِصٍ قد عَلِمْتُمُ إذا نَفَرَتْ كانَتْ بَطِيئًا سُكُونُها

هذا الكلام منه توعُّدٌ واستهزاء . فيقول : يا بنى خَيبرىٍّ ، كُفُّوا عن أبيات هِجاء وفَخرٍ جاءتنا مِن عندِكم ، وانظُروا كيف تُرْسِلُونَها وماذا شؤونُها حتَّى اهتاجت وجاءت . والقَنَاذِعُ ، أصلُه الفُحْش . ويقال للدَّيُّوثِ : القُنْذُع .

---

(١) ل : « يزيد به الدبر » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠٠ ص ٦١٣ .

(٣) التبريزى : « عن قناذع » .

وقوله « فكائنْ » بناء كائنْ لغةٌ فى كمْ . و « بنا » أى عندَنا .
« ناشِصٌ » أصلُه فى المرأة ، يقال : نَشَصَتِ المرأةُ على زَوجها ونَشَزت ، إذا تمنّعت . فاستعارَه للشّعر والهجو . يريد : كم من قافيةٍ إذا نفرَتْ كانت بطيئاً سكونَها . وهذا توعُّد ، والمراد : إنّما نُمسِكُ عن القول ما أمكنَ ، فإذا تكلّمْنا استمرَّ القولُ بنا فيبطؤُ سكونُنا ؛ لأنّ للاحتمال غايةً وللسُّكون نهاية ، إذا بلغناهما فقد أقمْنا العُذْرَ ، وما وراء ذلك نبلغُ فيه الأقصَى ، ولا نرضَى بالمنزلِ الأدنَى . والكِناية عن القصائد والقوافى بالهَدِىّ والعَرُوس مشهورة . وقد قيل : المراد بالنّاشِص الحرب ، وقيل : أراد به امرأةً سيِّئة الخُلُق والعِشرة ، لعُجْبها بنفسها . كأنّه لمّا جاءهم خاطبًا زهّدَهم فى نسائهم ترفُّعاً عنهم . والصّواب فيما بدأتُ به .

٣ — وبالحَجَلِ المَقْصُورِ حَوْلَ بيُوتِنَا ... نَوَاشِئُ كالغِزْلانِ نُجْلٌ عُيونُها[1]

٤ — وإنّا لمَحْقُوقُونَ حِينَ غَضِبْتُمُ ... بأَيْمَةِ عَبْدِ اللهِ أَنْ سَنُهِينُها[2]

٥ — فلَسْتُ لِمَنْ أُدْعَى له إن تفقَّأَتْ ... عليْهَا دَمامِيلُ اسْتِهِ وحُبُونُها

الحَجَل : جمع حَجَلَةٍ . والمقصور : المُرسَل عليه السُّتور . والنَّواشئُ : النِّساء الشَّوابّ . وقَصْدُ الشّاعِر إلى أن يحقِّرَهم ويقصِّرَ بشأنهم ويُهينَهُمْ حينَ عدَوْا طَوْرَهُم ، فخطَبُوا غيرَ كُفْوِهم ، فقال : إنّ عندنا نساءً كالغِزلان فى جِيدِها ، وبقر الوَحش فى عَيَنِها[3] ، مخدَّراتٌ فى الحِجال ، مُمَنّعاتٌ حوالَىْ بيوتنا ، تَرباً بأقدارِها عن مُواصَلتِكم بهنّ ، فتحسَّرُوا وارجِعوا عنا مقنوعين مذلّين ؛ فإنّا

(١) التبريزى : « خلف ظهورنا » .

(٢) التبريزى : « ويروى : حين غضبتم بلحية عبد الله » .

(٣) الجيد ، وبالتحريك : طول العنق وحسنه . والعين ، وبالتحريك أيضا : سعة العين وحسنها .

أحِقًّاء حينَ غضِبتم بسبب أيِّمِ عبدِ الله، وترفُّعِنا عن مناكحته، بأنّا لا نَستعظمها بل نهوّنها[1]، ونُقِلُّ فِكرَنا فيها. وقوله «أنْ سنُهينُها» أن مخفّفة من الثّقيلة. والمعنى: إنّا لحقوقون بأنّا سنُهينُها لا مَحالة. ومثل هذا قولُ الآخر[2]:

فما أكْبَرُ الأشياءِ عندِى حزَازَةً بأنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليكَ وزَارِيا

وقوله «فلست لمن أُدْعَى له» يجرى مجرى اليمين، أى للوالد الذى أُنسَبُ إليه، أن أُنكِحَ عبدُ الله فيقا، وتشقَّقتْ خُرَاجاتُ استِهِ عليها. وهذا الكلامُ إزراءٌ به، واحتقارٌ له، بذكر السَّوْأة منه. وذِكرُ الدَّماميل تشنيعٌ للحال، وأنَّ العُزْبَةَ[3] بلغَتْ به هذا المبلغَ لزُهد النّاس فى مُناكحتهم. وقال «دماميل» لأنّه أشبع كسرة الميم فأحدث عنها ياء. ومثله:

* نَفْيَ الدَّراهيمَ تنقادِ الصَّياريفِ[4] *

والأصل الدّراهم والصَّيارف.

٦٢٣

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّابٍ[5]:

١ — بَنِى ثُعَلٍ أهْلَ الخَنَا ما حديثُكُمْ لَكُمْ مَنطِقٌ غَاوٍ وللنَّاسِ مَنْطِقُ

---

(١) ل: «بل نهينها».

(٢) هو جزء بن كليب الفقعسى. والبيت فى الحماسة ٦٢ ص ٢٤٢.

(٣) العزبة بالضم: العزوبة.

(٤) للفرزدق، فى خزانة الأدب (٢: ٢٥٥) وكتاب سيبويه (١: ١٠). والبيت جاء شاهداً على الفصل بين المتضايفين بالمفعول، فإن أصله «نفى تنقاد الصياريف الدراهيم»، وروى أيضا بجر الدراهيم على الإضافة ورفع تنقاد، فيكون من إضافة المصدر إلى مفعوله. وروى أيضا برفع الدراهيم ونصب تنقاد على القلب.

(٥) سبقت ترجمته فى الحماسة ٦٩ ص ٢٥٥. وفى النسختين: «عتاب»، صوابه فى التبريزى.

٢ — كأنَّهُمُ مِعزَّى قَوَاصِعُ جِرَّةٍ ... من العِيِّ أو طيرٌ بخفَّانَ تَنْغِقُ[1]

٣ — دِيَافيَّةٌ غُلْفٌ كأنَّ خَطِيبَهُم ... سَرَاةَ الضُّحَى فى سَلْحِهِ يَتَمَطَّقُ[2]

قوله « بنى ثُعَل أهلَ الخنا » يجوز أن يكون أهل الخنا انتصابُهُ على الذّم والاختصاص ، كأنه قال : يا بنى ثُعَلٍ ، أَذْكُرُ أهلَ الخنا . وقوله « ما حديثكم » يريد : ما لغتكم . ويفسِّره قوله بعده « لكم منطقٌ غاوٍ وللنَّاسِ مَنطق » ، ينسُبُهم إلى أنَّهم نَبَطٌ ، وأنّ لغتهم ذاتُ غَوَايةٍ وزَيْغٍ . ويعنى بقوله « وللناس منطقُ » العربَ . ويجوز أن يكون معنى ما حديثكم : ما شأنكُمُ المستحدَثُ وما أمرُكم ؟ ينسبُهُم إلى أنَّهم لا قديمَ لهم ولا حديث .

وقوله « كأنَّهم مِعزَّى قواصِعُ جِرَّةٍ » ، يقول : إنَّهُم لِعِيِّهم إذا تكلَّموا كأنهم مِعزَّى تجترُّ ، أو طيرٌ بخفَّان[3] تنغق . يعنى بالطَّير الغُرابَ ، ليكونَ أشأم ، والقلوب مِن ذكرها أنفَر . ويقال : قَصَع البعيرُ بجرّته ، إذا دَفعها من جَوفه .

وقوله « ديافيّة » ، دِيافٌ : أرضٌ بالشّام . وقصده إلى أن يُخرجهم من أن يكونوا عَرَبًا ، وجعلَهم غُلْفًا إلحاقًا لهم بالعَجَم والغُلْفَةُ والغُرْلَةُ والقُلْفَةُ تتقارب . ورجلٌ أغرَل وأغلف وأقلَفُ . وقوله « كأنّ خطيبَهم » أى الفصيحَ منهم ، والمُعَدَّ يومَ فِخَارِهم ، والنِّيابةِ عنهم فى نِفارِهم ، كأنَّه يتمطَّق فى سَلْحِهِ . والتمطُّق : تذَوُّقُ الشَّىء بضمٍّ إحدى الشّفتين على الأخرى مع صوتٍ بينهما . وجعَلَهم كذلك فى سَرَاة الضُّحى ، أى إنَّهم يتباطؤون فى كلِّ حالٍ ، حتَّى لا يقوموا من فُرُشهم إلاَّ فى ذلك الوقت .

(١) التبريزى : « كأنكم » . و « معزى » يجوز أن ينون وألا ينون ، بجعل ألفه للإلحاق أو للتأنيث .

(٢) التبريزى : « قلف » ، بدل « غلف » .

(٣) خفان : أجمة قريبة من مسجد سعد بن أبى وقاص بالكوفة .

٦٢٤

وقال شُعَيْثٌ، من كِنانة[١] :

١ـ أترجو حُيَيٌّ أن تجيء صِغارُها   بخيرٍ وقد أعيا عليك كِبارُها[٢]

٢ـ إذا النجمُ وافَى مَغربَ الشَّمسِ أجحرَتْ   مَقاري حُيَيٍّ واشتكَى القُذْرَ جارُها

أجود الروايتين « أترجو حُيَيًّا » ، كأنه يخاطِب إنساناً ويلومه فى تعليقه الرَّجاء برشادِ صِغار حُيَيٍّ ، وقد أعياه كِبارُها . والمعنى أنَّهم لا يُفلِحون أبداً ، وإذا كان رؤساؤهم وأهلُ الحلِّ والعقد منهم معجزين فى دُعائك إيَّاهم إلى الخير والصَّلاح فرُذالُهم أَوْلى بذلك . وإذا رويت « أترجو حُيَيٌّ » كأنَّه جعل الفعلَ للقبيلة بأسرها ، أى إنَّهم وحالُهم ذلك فى ضَلالٍ إذا رجَوْا من صغارِهم فَلاحًا وحالُهم مع كبارهم ذلك .

وقوله « إذا النَّجمُ وافَى » أشار بالنَّجم إلى الثُّرَيَّا . وهم يقولون :

طَلَعَ النَّجمُ غُدَيَّهْ   وابتغَى الرَّاعِى شُكَيَّهْ

فهذا يكونُ فى الصَّيف وعند اشتداد الحر .

و :   طلع النَّجم عِشَاءْ   وابتغَى الرَّاعِى كِسَاءْ

---

(١) التبريزى : « وقال شعيث بن عبد الله ، وهو من كنانة بلقين ، يهجو رجلا من بلقين يقال له عقال بن هاشم . وعقال يقول فيهم :

فما كنانة فى خير بخائرة   ولا كنانة فى شر بأشرار

وشعيث : تحقير شعث ، وإن شئت كان تحقير أشعث على الترخيم » .

(٢) التبريزى : « وروى أبو هلال : أترجو حى ، قال : حى : قبيلة : وروى غير أبى تمام هذه الأبيات لحريث بن عناب ، أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث من طيئ . وأخذ الفرزدق منه فقال :

أترجو ربيع أن تجىء صغارها   بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وأخذه أيضا البعيث فقال :

أترجو كليب أن يجىء حديثها   بخير وقد أعيا كليباً قديمها

فقال الفرزدق :

إذا ما قلت قافية شروداً   تنحلها ابن حمراء العجان » .

وهذا يقالُ فى شِدّة البرد . فيقول : إذا طَلَع النَّجم عند غُروب الشَّمس ، — يشير إلى تَجَرُّد للَحْل ، وتكشُّف الجَدْب — أُجْحِرَتْ مَقَارِى هذه القبيلة وسُتِرتْ ، تفادياً من الضِّيافة ، وهرباً من الضِّيفان . والمَقَارِى : جمع مِقْرَاةٍ ، وهى ما يُطْعَمُ فيه الضَّيفُ من الجفان . والمراد أنَّه لا مِقْرَاةَ ثَمَّ ؛ لأنَّهم فى الشِّتاء يُضِيفون ويستضيفون ، فإذا عُطِّلت جِفانُهم فى ذلك الوقتِ فلأنَّه لا قِرَى عندهم ولا مَقارى . وقوله « واشتكى القَدْرَ جارُها » ينسُبهم إلى أن إساءتهم مقصورة على الجار ، وطمعَهم فيهِ وفيمن جَرَى مَجراه ؛ فعند الحاجة لا يَشْقَى بهم إلاَّ جارُهم . وجواب إذا النَّجم « أُجْحِرَتْ » . و « مَغْرِبَ الشَّمس » يجوز أن يكون مفعولاً ، وأن يكون اسماً لموضِع الغروب ، ويكون وَافَى من الموافاة . ويجوز أن يكون ظرفا[1] ، ويكون معنى وافَى طَلَع .

٦٢٥

وقال آخر[2] :

فما كِنانَةُ فى خَيْرٍ بخائرَةٍ ... وما كِنانَةُ فى شَرٍّ بأَشْرَارِ

يقال : خايرْتُه فخِرته خَيْرًا . وأنا خائرُهُ ، إذا كنتَ خيْرًا منه . واستَخَرْتُ الله فخَارَ لِى . وهذه خِيرَتى[3] ، أى التى أختارُه . والمعنى لا يَرجِعون إلى حالٍ يُمْتَدَّ بهم لها ، ويُعْتَمَد بمكانهم عليها ، فلا عِندَ الخير وتَعدادِ أهله يفوزون بسُهْمَةٍ ، ولا فى الشَّرِّ وتَعداد أهلِه يَحصُلون على خُطّة .

---

(١) ويجوز أن يكون ظرفا ، ساقط من ل .

(٢) هو عقال بن هاشم ، كما سبق فى حواشى الحماسية السابقة . وهذا البيت لم يعده التبريزى فى عداد الحماسات ، بل ذكره استطرادا كما سبق فى النقل عنه .

(٣) تقال بكسر ففتح ، وبكسر فسكون . والأولى أفصح .

٦٢٦

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّابٍ[١] :

١ — قُولاَ لصَخْرَةَ إذْ جَدَّ الهجاءُ بها عُوجِي علينا يُحَيِّيكِ ابْنُ عَنَّابِ

٢ — هَلاَّ نَهَيْتُمْ عُوَيْجًا من مقاذَعَتِى عَبْدَ اللَّقَذِ دَعِيًّا غيرَ صُيَّابِ

٣ — مُسْتَحْقِبِينَ سُلَيْمَى أُمَّ مُنْتَشِرٍ وابْنَ المُكَفَّفِ رِدْفًا وابْنَ خَبَّابِ

قوله « يحيِّيكِ » ، يجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى عُوجِي محيِّيًا لك هذا ، ومثله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ أى وارثًا . ويجوز أن يكون فى موضع الجزم جوابًا لقوله عُوجِي ، وأجرى المُعْتَلَّ مُجْرَى الصحيح .

ومثله :

أَلَمْ يأتيكَ والأنباء تَنْمِي بما لاَقَتْ لَبُونُ بنى زِيَادِ[٢]

وهذا الكلام تهكُّمٌ وسخريّة . وإنما يخاطب صاحبَين له يبعثُهما[٣] على أن يبلِّغا بنى صَخْرَةَ ويبعثاها وقتَ تهيُّجها بالهجاء وكونِ تصرُّفِهم فيه جِدًّا منهم وهَمًّا لهم على أن يَعطِفوا عليهم ، ليُسَلِّمَ عليهم ابنُ عَنَّابٍ ، يعنى نفسَهُ . وذِكْرُ التحية ها هنا هُزْءٌ منه . وهذا كما قال الآخر[٤] :

* تحيَّةُ بينِهم ضَرْبٌ وَجِيعُ[٥] *

إلاَّ أنَّ هذا فى الأفعال ، وابنُ عنّاب جعلها فى الأقوال .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٦٩ ص ٢٥٥ .

(٢) لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، فى الخزانة (٣ : ٥٣٦) وكتاب سيبويه (١ : ١٠٥ — ٢ : ٥٩) .

(٣) ل : « فيبعثهما » .

(٤) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٥) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

وقوله « هَلاَّ نَهيتُمُ » تقريعٌ ولَوْمٌ وتذكيرٌ بسُوء تأتّيهم ، وقُبْح فِعلهم . فيقول : هلاَّ كففتم عن مفاحشتي عُوَيْجًا — وهو رجل منهم — وجعله عبدَ القَذَّ ، أى لئيمًا ودَعِيًّا فيهم غيرَ خالص النَّسب . المقاذَعة : المفاحَشة . ويقال : أقذَعَ الرَّجلُ ، إذا أتى بفُحش . وانتصاب « عبدَ القَذّ » يجوز أن يكون على البَدَل ، ويجوز أن يكون على الذّم ، ويجوز أن يكون على الحال . والقذّ : مَنبِت الشَّعَر من مقدَّم الرأس ومؤخَّره . ويقال : فلانٌ عبدُ القفا ، وعبدُ القَذّ ، ويراد بالقَذّ القفا . وهذا كما يقال فى ضدّه : هو حرُّ الوجه ، وكريم المُحيَّا . والصُّيَّاب : الخالصُ ، كأنَّه يهجّنه . وقال الخليل : الصُّيَّاب والصُّيَّابة : أصلُ كلِّ قوم . وقال أيضاً : الصُّيَّاب : الخِيار من كلِّ شىء[1] . وأنشد :

* يختَلُّ من كِندَةَ فى الصُّيَّاب *

وقوله « مستحقِبين سُليمَى » ، أفحَشَ فيه ؛ أى جئتم لمهاجاتى وقد استحقبتم هذه المرأةَ وابنَ المكفَّفِ مَعَها رِدفًا وابنَ خَبّاب . كأنه يَرمِى سُليمَى بهما أو بَعُدّهم جميعاً من مخازيه . فهذا هُزْء أيضاً . أى جازيتمونى بمن هو شَيْنُكم ، وجعلتم عيوبَكم بمرأى ومَسْمَع إذا كان غيرُكم يُخفِى أمرَه ويستُرُه . يريد : استهدفتم لى بهؤلاء . وسُليمَى كانت لها قصة . والاستحقاب : شدُّ الحقيبة من خَلف ، وكذلك الاحتقاب : وكَنَى عن العَجُز بالحقيبة لذلك .

٤ — يا شَرَّ قومٍ بنى حِصْنٍ مُهاجِرَةً ... ومَن تَعَرَّبَ منهم شَرُّ أعرَابِ

٥ — لا يَرْتجِى الجارُ خَيْرًا فى بيوتِهِمِ ... ولا مَحالَةَ مِن شَتْمٍ وألقابِ

ينسُبهم إلى أنهم شرُّ قومٍ هاجَروا إلى الأمصار أو بقوا فى البَدْو . و « بني

---

(١) ابن جنى : « وذلك أنها فعال من صاب يصوب ، أى اطمأن واستقر . يقولون : فلان من صيابة قومه ، أى ثابت راسى القدم فيهم . وقياسه صوابة ، غير أنهم آثروا الياء استحساناً لا وجوباً » .

حصن » يجوز أن يكون انتصَب على النِّدَاء ، كأنه قال : يا شَرَّ قومٍ يا بَنِى حِصْنٍ . وانتَصَبَ « مُهاجِرَةً » على الحال ، ناداهم فى هذه الحالة . أى أنتم شرُّ قوم فى مهاجَرتكم . ومثله :

* يا بُوسَ للجَهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ[1] *

ويُؤَنِّسُ بوقوع الحال بعد النِّدَاء قولهم : يا زَيْدُ دعاءً حقًّا . فإذا ساغَ أن يقع المصدرُ بعدَه تأكيداً ، فكذلك الحال . قوله « ومن تَعَرَّبَ » فيه معنى التكلف ، لأنّ تفعَّلَ يجىء لذلك كثيراً . وصرَفَ الكلامَ عن السَّنَن الأول وجعله استئناف خبرٍ . ويجوز أن يكون انتصَب بنى حصنٍ على الذمّ والاختصاص .

وقوله « لا يَرتَجِى الجارُ » يريد أنَّ جارَهم مبتَذَلٌ فيهم ، يائسٌ من خيرهم ما دام معهم ، وملَقًّى مِنْ جهتهم بالاستخفاف والتلقيب[2] ، والشَّتم القبيح . وأجرى قوله « لا مَحالَةَ » مَجرى قولِهم لا بُدّ ، كأنّه أراد : الجارُ لا يرجو خيراً فيهم ، ولا بُدَّ له من شَتْمٍ يُقصَدُ به ، ولَقَبٍ يُعَرَّفُ بذكره . وقال الخليل : « يقولون فى موضع لا بُدَّ : لا محالة » . ويقال : حَالَ حَوْلاً وحِيلةً ، أى احتال .

٦٢٧

وقال آخر :

١ — بَنِى أَسَدٍ إلاَّ تَنَحَّوْا تَطَأْكُمُ مَنَاسِمُ حَتَّى تُحْطَمُوا وحَوَافِرُ

٢ — ومِيعادُ قومٍ إنْ أرادُوا لِقَاءَنا مِيَــاهٌ تَحَامَتْهَا تَمِيمٌ وعامِرُ

---

(١) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٧١ واللسان (خلا) والشعراء ٤٢ ، ١٢٥ والخزانة (١ : ٢٨٥) . وصدره :

* قالت بنو عامر خالوا بنى أسد *

(٢) أى الرمى بالألقاب . وهذا ما فى ل . وفى الأصل : « والتقليب » ، تحريف .

٣ — وما نَامَ مَيَّاحُ البِطَاحِ ومَنْمِجٍ ولا الرَّسِّ إلاَّ وهو عَجْلاَنُ سَاهِرُ

يقول : يا بنى أَسَدٍ ، خَلُّوا الطَّريقَ وتباعَدوا عنها ، فإنَّكم إنْ لم تفعلوا ذلك وطِئَتْكم الإبلُ والخيل فحطَمَتْكم . ينسُبهم إلى القِلَّة والضَّعف ، ويتهكَّم مع ذلك بهم .

وقوله : « وميعادُ قَومٍ » يعنى بنى أسدٍ وأنصارَهم ، والميعاد والوَعد واحد ، وإذا كان كذلك كانَ المعنى : ومَوضعُ الوعدِ لمن أراد الالتقاءَ معنا مياهٌ تتحاماها بنو تميم وبنو عامرٍ — يعنى أحيَّتَهم — فلا تَجْسُرُ على وُرودِها وإن كثُروا . فحَذَفَ المضافَ ، وهو الموضع .

وقوله « وما نام مَيَّاحُ البِطاح ومنمجٍ » ، فالمَيّاح : الذى يَميح ماءَ الركيَّة . وأراد بالبِطاح ومَنمِج والرَّسّ مواردَ الماء . والرَّسّ : البئر القديمة . جعَلَ المستقِيَ من هذه الآبار يَميحُ . وأراد بمَيَّاحِ الكثرةَ ؛ لأنَّ لكلِّ موضعٍ من المواضع المذكورة ماحةً . والمَيح : الدُّخول إلى أسفَلِ البئر ليغرِفَ الماء فى الدِّلاء ، إذا قَلَّ الماء . والمَيح : الاستِقاء ، يريد : مَتَحُوا أوّلاً ثمَّ ماحوا ، لكثرة الوارِدة . وإنَّما وصَفَ سُكّانَ هذه المواضع — وهم جيشُهم — بوُفور العدد ، وأنَّ سُقَاتَهم بهذه الصِّفة من العَجَلة والسَّهر . وقوله : وما نام إلاَّ وهو عجلان ساهر ، يريدُ : نَومُهم تَرْكُ النَّوم ، والاستعجالُ فى السَّقى . وهذا كما قال الآخر[١] :

* فإنَّ المُندَّى رِحْلةٌ فرُكوبُ[٢] *

وكقول أبى تمام :

* تعليقها الإسراجُ والإلجامُ[٣] *

(١) لعلقمة الفحل فى المفضلية ١١٩ واللسان (ندى) .

(٢) صدره : * ترادى على دمن الحياض فإن تعف *

(٣) صدره فى ديوانه ٢٨١ :

* بسواهم لحق الأياطل شزب *

٤ـ تضاءلتُمُ مِنَّا كما ضَمَّ شَخْصَهُ أمامَ البُيوتِ الخارئُ المُتَقاصِرُ
٥ـ تَرَى الجَوْنَ ذَا الشِّمْرَاخِ والوَرْدَ يُبْتَغَى لَيالِيَ عَشْرًا وَسْطَنا وهو عائِرُ[1]

قوله « تضاءلتم » أن تصاغرتم منا وانزويتم ، لقلتكم وذهاب مُنَّتكم ، كما يفعله المتغوِّط أمامَ البُيوت إذا استولَى عليه الخَجَل لما يريده من قضاء الحاجة ، فهو يتقاصَرُ ويُخْفِي شخصَه لئلاّ يُرَى . وهذا التشبيه فى المُنْخزِل وقد مَسَّه الحياء والخجَل غايةٌ .

وقوله « ترى الجَونَ ذا الشِّمراخ » يريد به ذا الغُرَّة السائلةِ على الأنْف . والشِّمراخ من الجَبَل : المُستَدِقُّ الطَّويل ، على التشبيه . والعائرُ : المختاف ، والسَّهم العائرُ من هذا . يقول : إنَّا لكَثْرتنا واتِّساع مَنادِحنا وأقطارنا ، لو أفلَتَ فينا فَرسٌ أدْهَمُ ذو غُرَّةٍ سائلة — وجعلَه كذلك ليكونَ أشهرَ أمْرًا وأقلَّ خفاءً — وفَرَسٌ وَرْدٌ أغرُّ أيضًا ، ثم طُلِبَ عَشْرَ ليالٍ فيما بيننا لما ظُفِرَ به .

٦ — ولمَّا رأيناكم لِئامًا أدِقَّةً وليسَ لكم مولًى من النَّاسِ ناصِرُ
٧ — ضَمِمناكُمُ مِنْ غَيرِ فَقْرٍ إليكُمُ كما ضَمَّتْ السَّاقَ الكَسيرَ الجبائرُ

وصف حالَهم القديمة معهم ، وكيفيَّةَ اتِّصالهم بهم وانعطافِهم عليهم حتَّى أبطرهم ذلك ، فاستَنقَصوا عليهم ، وَوَسْوَسَتْ نفوسُهم إليهم بالاستغناء عنهم ، والاكتفاء من دونهم . فيقول: لمّا رأيناكم أدنياءَ فى أنفُسكم ، أدِقَّاءَ فى أحوالكم لا ناصرَ لكم ، ولا مُدافعَ دونكم ، تعطَّفنا عليكم انرفع خسيستكم ؛ رحمةً لكم ، وضممناكم إلى أنفُسنا من غير حاجةٍ إليكم ولا تكَثُّرٍ بكم ، لنَجبُرَ كسرَكم ، ونوفِّر نقصَكم كما تَضمُّ العصائبُ التى يُعْصَبُ بها الكسرُ ، والجبائرُ التى يُسَوَّى بها العظمُ الكسيرَ المجبور . وهذا من التشبيه الصَّائب ، والكلام المتخيَّر . والأدِقَّةُ : جمع الدَّقيق ، وهو الرَّجل القليل الخير . والفعل دَقَّ دِقَّةً . وقال : الكسير ،

(١) التبريزى : « عشرا بيننا » .

والسَّاقُ مؤنّثة لأنَّه فَعِيلٌ فى معنى مفعولة . وعند أصحابنا البَصريّين هذا لا ينقاس ، بل يُتَّبَع فيه المحكىُّ عنهم .

٦٢٨

وقال أبو صَعْتَرة[1] :

١ — أَتَهْجُونَا وكُنَّا أَهْلَ صِدْقٍ وتَنْسَى ما حَبَاكَ بَنُو بَرَاءِ

٢ — هُمُ نَتَجُوكَ تَحْتَ اللَّيلِ سَقْبًا خَبِيثَ الرِّيحِ مِن خَمْرٍ وماءِ

٣ — وهُمْ جَهِلُوا عليكَ بغيرِ جُرْمٍ وبَلُّوا مَنْكِبَيْكَ مِنَ الدِّماءِ

يخاطب رجلاً من عشيرته ، ويقرِّعُه على ما كان منه من ثَلْبِه وهَجْوِه ، فيقولُ : أتذُمُّنا مع إحساننا إليك ، وكَوْننا أهلَ صدقٍ لك ، ورهطَ صفاء ووِدادٍ معك ، وتَنْسى ما كان منك حتى تعرَّضْتَ لبنى بَرَاء بمثلِ تعرُّضِك لنا ، وما قابَلُوكَ به من عطِيَّةٍ وحِباء ، وحُسن مكافأةٍ وجزاء على فعلك ، وقد كان فى الحكم أن يؤدِّبك ذلك ويَرْدعك ، وينبِّهَك على رَشادِك وصَلاحك ، ويمنَعَك من مُعاوَدة شِبْهِه ويقمعك . ثم أخذ يصف الحِبَاءَ الواصِلَ إليه من جهتِهِم ، والجزاءَ المُعَدَّ له ، فقال : هم نَتَجُوكَ تحتَ الليل سَقْبًا ، أى ولَّدوك ليلاً سَقْبًا خبيثاً . وهو فى الأصل الذكَر من أولاد الإبل . ويقال : أسْقَبتِ الناقةُ وهى مِسْقابٌ . والمعنى : ضربوكَ حتى سلحْتَ شيئا منكَرًا . والذَّكَر أرْذَلُ النِّتاجَيْنِ ، فلذلك خصَّه . وقال « تحتَ اللَّيل » لأنَّ الليل أخْفَى للوَيْل .

وقوله « وهم جَهِلوا عليك [بغير جُرم[2]] » ، يعنى أنهم فعلوا ذلك بك ، ومن قبلِ ذلك كانوا أسلفوك ، بلا جِنايةٍ كانت منك عندهم ، ولا جريرةٍ سبقت عنك إليهم ، أنْ جرَحُوكَ حتى بلُّوا مَنْكِبَيْك من الدِّماء السائلة عليك .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٩ ص ١٠٢٣ .

(٢) التكملة من ل .

٦٢٩

وقال الطِّرِمَّاح[1] :

١ — إنَّ بمَعْنٍ إنْ فَخَرْتَ لَمَفْخَرًا ... وفى غيرِها تُبْنَى بُيُوتُ المكارِمِ[2]

٢ — مَتَى قُدْتَ يا بْنَ الحَنْظَلِيَّةِ عُصْبَةً ... مِنَ النَّاسِ تَهْدِيها فِجَاجَ المَخَارِمِ[3]

هذا الكلام هُزْءٌ وسخرِيَّة ، يقول : لك أن تفتخرَ بينى مَعْنٍ ، فإنهم فى موضع ذاك ، لكونهم مَجْمَع الفضائل ، لكن مبانى الكَرَم تؤسَّس فى غيرهم . ثم أقبلَ عليه فقال : أخبِرنى متى حدَّثتَ نفسَك بأن تكون قائدَ طائفةٍ من الناس فتقدُمَهم[4] وتَهديَهم الطُّرُق ، وهم يطؤون عقِبَكَ ، ويدورون على مُرادِك ؛ لقد رأيتَ ما لم تؤمِّله ، ونِلْتَ ما لم تَرْتقِ إليه همَّتُك .

والفِجاجُ : الطُّرُق . والمخارِم : جمع مَخْرِم ، وهو مُنقطَع أنفِ الجبَل . وهذا مثلٌ ، أى تُصرِّفهم حيثُ أردت ، وتوجِّههم كيفَ شئت .

٣ — إذا ما ابنُ جَدٍّ كانَ ناهِزَ طَيِّئٍ ... فإنَّ الذُّرَى قد صِرْنَ تحتَ المَنَاسِمِ

٤ — فَقُدْ بزِمامٍ بَظْرَ أُمِّكَ واحْتَفِرْ ... بِأَيْرِ أبيكَ الفَسْلِ كُرَّاثَ عاسِمِ[5]

« ابنُ جَدٍّ » يريدُ به صاحبَ جَدٍّ وحظٍّ فى الدنيا . فيقول : إذا اتَّفق

---

(١) التبريزى : « وقال الطرماح بن جهم السنبسى ، لنافذ بن سعد المعنى » . وهو أحد بنى سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء ، كما فى المؤتلف ١٤٨ . وهو غير الطرماح الشاعر المشهور ، فذاك الطرماح بن حكيم بن نفر ، الذى سبقت ترجمته فى الحماسة ٥٦ ص ٢٢٧ .

(٢) أنشد ياقوت هذه الأبيات فى معجمه فى رسم (عاسم) ، وهو رمل لبنى سعد .

(٣) ياقوت : « يا ابن العنبرية » .

(٤) ل : « تتقدمهم » .

(٥) قال ياقوت : « وقيل : كان أحد جديه جمالا والآخر حراثا ، فلذلك قال : فقد بزمام بظر أمك واحتفر بأير أبيك الفسل كراث عاسم » .

لمتقدِّم بنفسه مجدودٍ، لا أوَّليةَ له، خارجيّ، أن يكون ناهِزَ طيِّئ، أى مِدْرَهَهُم وكبيرَهم والذى يَنْهَزُ الدَّلْو من البئر، أى ينزَعها، كأنَّهُ أراد: الذى يَقومُ بأمرهم عند السُّلطان، ويتنجَّزُ عليه حاجاتِهم ومُهِمَّاتهم، فقد انقلبَ الدهرُ، وانحطَّ الأعالى، وصارت الأشراف أذِلاَّءَ، لأنه لا يتقدَّم الوضيعُ إلاَّ بتأخر الرَّفيع. وحكى غيرُ واحدٍ من أهل اللغة أنَّه يقال: هو ناهِزُ القوم، أى كاسِبُهم والساعى لهم.

وقوله «فَقُد بزمامٍ» استهزاء وإزراء بهم، وقلَّة احتفال، بتناوُلِ القبيح مِن ذكرهم. لذلك سمَّى السَّوءةَ من طرفيه[1]. والفَسْلُ: الرَّذْلُ. والفَشْلُ: الضعيف، وهما روايتان. وعاسم: موضِعٌ.

٦٣٠

وقال الكَرَوَّسُ بن زَيْدٍ[2]:

١ — ألاَ لَيْتَ حَظِّى مِنْ عطائِكَ أنَّنى   عَلِمْتُ وَراءِ الرَّمْلِ ما أنتَ صانِعُ

٢ — فقَدْ كانَ لى عمَّا أرَى مُتزَحْزَحٌ   ومُتَّسَعٌ مِنْ جانبِ الأرضِ واسِعُ

٣ — وهَمٌّ إذا ما الجِبْسُ قَصَّرَ همَّهُ   طَلُوعٌ إذا أعيا الرِّجالَ المَطالِعُ[3]

يقول: تمنَّيتُ أنْ يكون الذى حَظِيتُ به من عطائِكَ لى أنِّى عَلِمْتُ وأنا وراءَ الرَّملِ ما أنت صانعُه وقد قَدِمْتُ عَلَيْك. فقوله «وراءَ الرَّملِ» ظرف لعلِمْتُ، وأنِّى علمتُ خبر ليت، كأنَّه وَدَّ أن يكونَ بَدَلَ حَظِّه من العطاء علمَه بما يفعلُه، فكان اختيارُه بحسبه. ولا يجوز أن يكون وراءَ الرَّمل يتعلَّق بصانع،

(١) أى صرح بذكر سوءة طرفيه: أبيه وأمه.

(٢) التبريزى: «وقال الكروس بن زيد بن حصن بن مصاد بن مالك بن معقل ابن مالك». وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢١٠ ص ٦٢٩.

(٣) التبريزى: «قصر نفسه».

لأنّك إن جعلتَ ما موصولا فالصِّلة لا تتقدَّم هى على الموصول، ولا شىءٌ ممّا يتعلّق بها[1] . وإن جعلت ما موصوفا فالصِّفة لا تتقدَّم على الموصوف ولا ما يتعلّق بها ، وإن جعلت ما استفهاماً فما بعدَ الاستفهام لا يعملُ فيما قبلَه . وإذا كان كذلك ظهرَ فسادُ تعلُّقِه به على الوجوه كلِّها ، من طريق الإعراب ومن طريق المعنى[2] ، فالصَّحيح ما قدَّمتُه . ألاَ ترى أنّه قال : فقد كان لى عمّا أرى مُتزحزَحٌ ومتسَع . والمتزَحْزَح : المَبْعَد . أى كانَ لى جانبٌ من الأرض واسع أتزحزحُ فيه عمّا أراه وأرِدُ عليه ، وكان لى همٌّ طويلٌ ممتدُّ الشأوِ يذهب صُعُدًا ، إذا كان همُّ الجِبْس قصيراً . طَلوعٌ إلى أعالى العِزِّ وذُراهُ إذا أعجزَ الرِّجالَ مَطالِعُ العِزّ . والجِبْس هو الثَّقيل الجافى . أى يقصِّرهمُّ نفسِه فيرضَى بالحاصِل له . وقوله « إذا ما الجِبْسَ » ظرفٌ لما دلَّ عليه همٌّ ، و « إذا أعيا » ظرفٌ لطَلوع . ولا يمتنع أن يكون إذا ما الجِبسُ ظرفاً لطَلوع ، ويجعل إذا أعيا بدلاً منه ؛ لأنّ المعنيين يتقاربان . والأوَّل أقربُ وأجوَد .

---

(١) أى ولا شىء مما يتعلق بالصلة يتقدم على الموصول . وفى النسختين : « ولا على شىء مما يتعلق بها » وليس بصواب . وعبارة ابن جنى فى التنبيه : « لاستحالة جواز تقديم الصلة أو شىء منها على الموصول » .

(٢) أما ابن جنى فيرى أن التعليق صحيح من جهة المعنى ويقول : التقدير ما أنت صانع وراء الرمل » . وأما التعلق من جهة الإعراب فيراه غير جائز فى الأوجه الثلاثة المتقدمة . ثم يقول : « فإذا كان المعنى عليه — أى على التعليق — وسبيل الإعراب ضيقه عنه — أى لا تحتمله فى الصناعة — أضمر له ما يتناوله مما يدل الظاهر عليه » ، فيرى أن الظاهر تفسير لعامل مقدر يشبهه . ثم قال بعد أن ذكر هذا الوجه : « ويجوز أن يكون وراء الرمل متعلقاً بنفس ، أى علمت علمت فى هذا الموضع كذا وكذا ، على صغر معناه ويجوز وجه ثالث غير هذين ، وهو أن ينصب وراء نصب المفعول به بعلمت ، أى لأنى عرفت هذا الموضع ، وتبدل منه ما أنت صانع ، أى الذى أنت صانع فيه ، كقولك : عرفت هذا الذى تجدد من أمرها . ويجوز إذا أبدلت ما أنت صانع أن تجعل ما استفهاما ، كقولك : قد عرفت زيدا أبو من هو ، فتبدل أبو من هو ، من زيد ، فتصير إلى أنك كأنك قلت ، قد عرفت أبو من زيد . ويجوز أيضاً إذا جعلت وراء مفعولا به أن تجعل علمت المتعدية إلى مفعولين وتجعل ما بعدها من الاستفهام فى موضع المفعول الثانى ، كقولك علمت زيدا كم ماله » .

٦٣١

وقال وضّاح بن إسماعيل[١] :

١ — مَنْ مُبْلِغُ الحجّاجِ عَنِّي رِسالةً فإنْ شِئْتَ فاقْطَعْنِي كما قُطِعَ السَّلا[٢]

٢ — وإنْ شِئْتَ أقْبَلْنَا بِمُوسَى رَمِيضَةٍ جَمِيعًا فَقَطَّعْنَا بِهَا عُقَدَ العُرَى[٣]

٣ — وإنْ قلتَ لا إلاّ التَّفرُّقَ والنَّوَى فَبُعْدًا أدامَ اللهُ تَفرِقَةَ النَّوَى[٤]

٤ — فإنِّي أرَى في عَيْنِكَ الجِذْعَ مُعْرِضًا وتَعْجَبُ أنْ أبْصَرْتَ في عَيْنِيَ القَذَى[٥]

هذه أبياتٌ ذهبَ النّاسُ مِن طريق الرِّواية والمعنى فيها مذاهبَ طريفة ، والصّحيح ما أورِدُهُ . وذاك أنّه رتّب ما بينَه وبين الحجّاج مراتبَ ثلاثًا ، خبَّره فيها بالشُّروط المبيّنة :

---

(١) التبريزى : « وضاح بن إسماعيل بن عبد كلال بن داود بن أبى أحمد » . والصواب « بن داذ بن أبى جمد » . كما أسلفنا فى ترجمته فى الحماسية ٢١٢ ص ٦٤٣ . يؤيد ذلك مارواه أبو الفرج فى الأغانى (٦ : ٣١) من قوله فى بنات عمه :

من بنات الـكريم داذ وفى كنـ ـدة ينسبن من أباة اللعن

وقوله يفتخر بجده أبى جمد :

بنى لى إسماعيل مجدا مؤثلا وعبد كلال بعده وأبو جمد

(٢) فى الأغانى (٦ : ٤٢) أن هذه الأبيات يقولها وضاح فى أخيه « سماعة » وقد عتب عليه فى بعض الأمور . وقد روى البيت الأول هكذا :

فمن مبلغ عنى سماعة ناهيا فإن شئت فاقطعنا كما يقطع السلى

(٣) التبريزى وابن جنى : « فاقتلنا بموسى » و « فقطعنا » بصيغة الأمر . وقال التبريزى فى تفسيره : « ونصب عقد العرى على المصدر ، أى فقطعنا تقطيع عقد العرى ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه » . نحو هذا الكلام لابن جنى .

(٤) الأغانى :

وإن شئت صرما للتفرق والنوى فبعدا أدام الله تفرقة النوى

(٥) مقتبس من قول عيسى عليه السلام : « لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها » . إنجيل متى ٧ : ٣ ولو ٦ : ٤١ . وفى عيون الأخبار (٢ : ٢٧١) : « كيف تبصر القذاة فى عين أخيك ولا تبصر السارية فى عينك » .

فالشَّرْط الأول قوله « إن شئت فاقطَعْنى كما قُطِعَ السَّلا » وهذا يحتمل معنيين : أحدهما أن يريد إن شئتَ خُصَّنِى بقطيعةٍ لا وِصَالَ يتعقَّبُها ، كما أنَّ السَّلاَ ، وهو الجِلدة التى يلتفُّ فيها الولد عندَ خروجِه من بَطنِ أمِّه ، إذا قُطِعَ عنه لم يَعُد إليه . ويجوز أن يكون المعنى : اقطَعْنِى قطيعةً لا يُرْجَى معها وَصْلٌ ؛ لأن السَّلاَ إذا انقطعَ فى بَطن الحامل لم يمكن استخراجُه ، ولا يُرجى الخَلاصُ معه . ولهذا ضُرِبَ المثَلُ به فى الشَّدائد فقيل : « انقَطَع السَّلا فى البطن » . والمراد فى هذه القطيعةِ المذكورة أنْ تبقَى العلائقُ التى بينهما على ما حَصَلَتْ وثبتَت لا يُغيَّر منها شىء .

والشَّرْط الثانى : « وإنْ شئتَ أقبَلْنا بمَوسَى رَمِيضَةٍ » ، يقول : وإن شئتَ أخذَ كلٌّ منَّا مُوسَى محدَّدة ، فقَطَّعنا بها الأواصرَ التى بيننا . وهذا مَثل ، والمعنى أنَّ لنا الأسبابَ التى تَوَاصَلْنَا بها فصارت مِثلَ الأنساب ، وحَلَلْنَا عُقَدَ العُرَى الوثيقةِ فيما تواشَجْنَا فيه حتى نَصيرَ كالأجانبِ لا وُصَلَ تجمعُنا ، ولا أواخِىَّ تَنظِمنا ، إلاَّ ما طَوَى البعادُ بينَنا من قُرْب الجِوار والدَّار .

والشرط الثالث : وإنْ قلتَ لا إلاَّ التفرُّقَ بالأبدان معها ، فيكونُ النَّوَى مُبَدِّدةً شملَنا ، فلا نلتقى فى شَعْبٍ ومَسْلَكٍ ، ولا نتحاذَى فى منزلٍ ومَجمع ، ولا نتجاورُ فى مَحَلٍّ ومَقَرٍّ[1] ، فإنَّا نَبعُدُ بُعدًا كما نختار ؛ وأدامَ اللهُ تفرقةَ النَّوى بيننا ولا جَمع ما تشتَّت منها .

ويقال : سِكِّينٌ رَمِيضٌ : حادٌّ . وكل حادٍّ رَمِيضٌ ، ومنه ارتَمَض مِن كذا ، إذا اشتدَّ عليه وأغضبَه .

وقوله « فإنِّى أرى فى عينك الجِذع » ، يقول : إن العداوة بيننا رسخَتْ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وسفر » .

وثبتَتْ واستحكمتْ من جهتِك ، فلا استبقاء معك ، ولا صبرَ على أذَى مضضٍ منك ، حتَّى تعجبَ لأدنى شيء يَحُول ، وتَستعظِم أصغرَ ما يحدُث ويدور ، وأنا أرَى الجِذع يعترض فى عينكِ فلا أنكر ، ولا أحاسِبُ عليه ولا أضايق . وهذا كما يُقال فى المثل : « تُبصِرُ القَذَاةَ فى عين أخيك ، وتَدَعُ الجِذْعَ المعترضَ فى حلقِك »[1] .

٦٣٢

وقال جَوّاسٌ الكَلْبيّ من بنى عَدِيٍّ بن جَنَابٍ[2] :

١ — ضَرَبْنَا لَكم عن مِنْبَرِ المُلْكِ أهْلَهُ　　بِجَيْرُونَ إذْ لا تَستَطِيعُون مِنْبَرَا

٢ — وأيَّامَ صِدْقٍ كُلُّها قد عَلِمتُمُ　　نَصَرْنا وَيَوْمَ المرجِ نَصْرًا مُؤَزَّرَا[3]

٣ — فلا تَكْفُروا حُسْنَى مَضَتْ مِنْ بلائِنا　　ولا تَمْنَحُونَا بَعْدَ لِينٍ تَجَبُّرَا

يخاطب بهذا الشِّعرِ بنى مروانَ ممتنًّا عليهم ، وذاك أنَّ معاويةَ بنَ أبى سفيانَ لمّا هَلك استعمل ابنَه يزيد ، فتابعَهُ النَّاسُ ما خلا بنى قيس فإنَّهم قالوا : لا نبايع ابنَ الكلبيّة ، فوقعت الحربُ بين أميَّةَ وقيس . وجَيْرون : بابٌ من أبواب دِمَشْق ، وأولئك كان مستقرُّهم بالشَّأم . ويعنى بقوله «أهلَهُ» بنى هاشم ، وبالمُلْك الخلافة .

وقوله « إذْ لا تستطيعون مِنبرا » ، أى ارتقاء مِنبرٍ وصعودَه ، فحذفَ المضافَ . والمراد : إنَّا نصرناكم فى طلَبِ أمرٍ كان لغيركم لا لكم بجَيْرُون ،

(١) أصله من كلام عيسى عليه السلام . إنجيل متى ٧ : ٣ — ٤ ولوقا ٦ : ٤١ ، ٤٢ . وانظر ١٤٩٠ .

(٢) التبريزى : « وقال عمرو بن مخلاة الحمار الكلبى » . وقد سبقت ترجمة عمرو بن مخلاة الحمار فى الحماسية ٢١٤ ص ٦٤٧ . وأما جواس ، فهو جواس بن القعطل بن سويد بن الحارث بن حصن بن عدى بن جناب الكلبى . وهو شاعر إسلامى كان معاصرا لزفر بن الحارث الكلابى . المؤتلف ٧٤ .

(٣) التبريزى : « وقد عرفتم » .

حين لا تَقدِرون على صُعود مِنبر ، ولا تستقيم لكم قَناةُ مُلْكٍ ونصَرْنا أيضاً[1] يوم مَرْجِ راهِطٍ ، وأياماً أُخَرَ قبلَه وبعده ، صادَقْناكم فيها ونَصرناكم نصراً قويّاً ، فلا تجحَدُوا نِعَمنا فيها ، فكُفران النِّعَم ذميم ، ولا تتكبَّرُوا علينا بعد ملا يَنتكم لنا ، فإنّ التكبُّر منكم عظيم. وقوله « حُسْنَى مضت » مصدر فى معنى الإحسان ، وليست بتأنيث الأحسَن ، لأنّ تلك تلزمُه الألِف واللام .

٤— فكمْ مِن أميرٍ قَبلَ مَرْوَانَ وَابْنِهِ ... كشَفْنا غِطاءَ الغَمِّ عنهُ فأَبْصَرَا

٥— ومُسْتَسْلِمٍ نَفَّسْنَ عنه وقد بَدَتْ ... نَوَاجِــذُهُ حَتَّى أَهَلَّ وكَبَّرَا

٦— إذا افتَخَرَ القَيسِيُّ فاذْكُرْ بَلاءَهُ ... بِزَرّاعَةِ الضَّحَّاكِ شَرْقِيَّ جَوْبَرَا

٧— فما كانَ فى قيسٍ مِنِ ابنِ حَفِيظَةٍ ... يُعَدُّ ولكنْ كُلُّهُمْ نَهْبُ أشقَرَا

قوله « كم مِن أمير » أراد به معاويةَ وأشياعه . أى ذبَبْنا دونَه وأزلْنا ما كان تراكم عليه من رواكِد الظُّلَم حتى أبصَرَ رُشْدَهُ ، وعادت إليه بصيرتُه ، بعد أن كان تحيَّرَ فى أمره ، والتبسَ عليه ما يتنقَّل فيه ، فلا يعرف ما عليه ممّا له .

وقوله « ومستسلِمٍ » عطفه على « مِن أميرٍ » ، والضمير فى « نَفَّسْنَ » للخيل ولم يَجْرِ لها ذِكر ، ولكن عُرِف منه المراد . يريد : وكم من مُنقادٍ لما دَهِمَهُ ، مُستسلِمٍ للشَّرِّ المفاجِىء له والمحيطِ به ، نفَّسَت خيلُنا عنه بعد أن يَبِسَ ريقُه ، وتقلَّصَت شفتاه فظهرَت نواجذُه ، لما مُنِيَ به من شدّة البلاء ، وجَهْدِ البأساء ، حتى أهلَّ ، أى رفَعَ بالحمدُ لله صوتَه ، وأظهر شكرَه ، وعظَّمَه وكبّره لما أُعقِبَ من الأمن عقِيبَ الخوف ، والسلامةَ بعد الهُلْك . ويروى : « كشَفْنا غطاءَ الموت » . ويروى : « ومُستَلحَمٍ نَفَّسْتُ عنه وقد بَدَت مَقاتِلُه » والمعنى فيهما ظاهر .

---

(١) هذا ما فى ل ، وهو الأوفق . وفى نسخة الأصل : « ونصرنا نصراً » .

وقوله « إذا افتخر القيسىُّ فاذكرْ بلاءه » ، يعيِّرهم ما كان منهم من التقصير والقُصورِ فى ذلك الموضع . وأخرج الكلامَ مَخْرجَ الهُزْء ، لأنهم قصَّرُوا ولم يُبْلُوا ؛ لذلك قال : اذكُر بلاءه . والزَّرَّاعات : مواضع الزرع ، كالملاّحات . والزَّرِّيع : العَثَرِىُّ الذى يُسقَى من السماء ، فكلُّ ناعم زِرِّيعٌ تشبيهاً به . وجَوْبَرُ : نَهر . وانتصَب « شرقىَّ » على الظَّرف ، يعنى ما وَلِىَ المشرقَ منه . والضَّحاك[١] كان على شُرطة معاوية ، ثم صار مع ابن الزُّبير بعد موت يزيد[٢] .

وفى جملة هذه الأبيات :

فلو كنتُ من قَيْسِ بن عَيْلَانَ لم أجِد   فَخاراً ولم أعدِلْ بأن أتقصَّرا

يقبِّح صورتهم كما ترى .

وقوله : « فما كان فى قَيْسٍ من ابنِ كريهة يُعَدُّ » ويروى : « فما كان فى قيسِ بن عيلان سَيِّدٌ يُعَدُّ » ، ويَعنِى بنَهْب أشقرَ فرسَ طُفَيْل بن مالك ، وكان فرّاراً[٣] . يقول : كأنَّما انتهبهم طفيلٌ فى ذلك اليوم . وكان اسمُ فرسِ طُفيلٍ قُرْزُلاً ، لذلك قال الآخر[٤] يصف قوماً منهزمين :

يَعْدُو بهم قُرْزُلٌ ويستمعُ النَّا   سُ إليهمْ وتَخْفِقُ اللِّمَمُ

جعل فرس كلٍّ منهم كقُرزُلٍ لمَّا هربوا .

---

(١) هو الضحاك بن قيس الفهرى ، ولد فى زمان الرسول بعد الهجرة ، وولاه معاوية الكوفة ثم عزله ، ثم ولاه دمشق ، ولما مات معاوية بن يزيد بن معاوية دعا إلى نفسه فقاتله مروان بن الحكم ، فقتل بمرج راهط سنة ٦٤ . الإصابة ٤١٦٤ ؛ والطبرى (٧ : ٣٧ – ٤١) .

(٢) الحق أنه كان يتظاهر بالدعوة لابن الزبير ، واستغل هذا فى استمداد أنصار ابن الزبير ليقوى بهم على محاربة مروان .

(٣) وقال ابن الكلبى : أشقر : رجل من كلب ، أصاب صندوقا فى إغارة الكلب على إياد ، فظن أن فيه خيراً كثيراً ، فإذا فيه عظام ، فضربته العرب مثلا لما لا خير فيه . وقيل : إنه أراد بالأشقر العبد . والعرب تسمى العجم الحمراء لأن الغالب على ألوان الفرس الصهبة . وعلى هذا معناه : كلهم نهب من لا قدرة له ولا هيبة . من شرح التبريزى .

(٤) هو المسيح الأسدى . المفضليات ٤٩ الطبعة الثانية بالمعارف .

٦٣٣

وقال جوّاسٌ الكلبيُّ أيضا :

١ – أعَبْدَ المَلِيكِ ماشَكَرْتَ بلاءنا فكُلْ فِي رَخاءِ الأمْنِ ما أنْتَ آكِلُ
٢ – بجَابِيَةِ الجَوْلاَنِ لولا ابنُ بَحْدَلٍ هَلَكْتَ ولم يَنْطِقْ لِقَوْمِكَ قائِلُ

يعاتبُ عبدَ الملكِ بنَ مروان، وذلك أنّه لما قُتِل ابنُ الزُّبير وسكنت الحربُ وصفا له الأمر: أقبَلَ يتألّف قيساً وهم أعداؤه، ويُوحِشُ بنى كَلْبٍ وهم أنصارُه، حتّى انتهى الحالُ به إلى أن عَزَل كثيراً ممّن استعمله من كَلْبٍ على أعماله، وجعل أبدالَهم من قيس، فقال جَوّاسٌ: يا عبدَ الملك، ما حَمِدتَ بلاءنا فى نُصرتِك، ولا قابَلْتَ انقطاعَنا إليك وسعيَنا لك ببعضِ ما وجب لنا عليك، فكُلْ من دُنْيَاكَ فى سَعَةِ الأَمْنِ وظلِّ الهدُوِّ ما أنتَ آكلُه، لا مُدافِعَ لك ولا معترِضَ عليك، فلولا ابنُ بَحْدَل وقيامُه بأمرِك بجابية الجَوْلان لهلَكْتَ ولم يَنْطِقْ لقومك قائل، أى لم يكن فيهم خليفةٌ يخطُب على منبرٍ فيدعو ويُدْعَى له. وتعلّق قوله « بجابية الجَوْلان » بقوله ما شَكَرْتَ بلاءنا. وهلَكْتَ جواب لولا، وخبر المبتدأ محذوف، وقد مرّ أمثالُه.

٣ – فلمّا عَلَوْتَ الشّأمَ فى رأسِ باذِخٍ مِن العِزِّ لاَ يَسْطِيعُهُ المتناوِلُ
٤ – نَفَحْتَ لنا سَجْلَ العَداوةِ مُعْرِضاً كأنك مما يُحْدِثُ الدَّهْرُ جاهِلُ

يقول: فلما مَلَكْتَ المطلوبَ وأدركتَ المأمول، واستويْتَ على الشّأم فى عزٍّ باذِخٍ وجَدٍّ صاعدٍ، لا يَقدِر على تناوُلِ مثلِه أحدٌ بأمَلٍ أو همّة، اطّرحْتَنا وأعرضتَ عنّا، معطِياً سَجْلَ العداوة لنا، كأنك جاهلٌ بالدّهر وفَعَلاتِه، وحوادِثِه ومُلِمّاته. ومن رَوَى: « كأنكَ مما يُحْدِثُ الدهرُ »، يريد كأنكَ مما أحدثَهُ الدهرُ لك من الرِّياسة جاهل. أى اغتررتَ فكأنك استحدثْتَ جهالة.

ويُرْوَى : « كأنَّكَ عمَّا يُحْدِثُ الدهر [غافل[1]] » فجاهلٌ يجرى مجرى غافلٍ . وهذا يجرى مَجَرى الوَعيد . أى لا تأمَنْ غيرَ الأيَّام ومعاودتَك ما يَختِمُ عليك بالفقر إلينا ثانياً .

وفى هذه الطريقة ما أُنْشِدْتُه لمحمَّد بن غالب :

فتى مِشْمَعٍ أنتَ من مِشْمَعٍ ... بحيثُ السُّوَيداء والناظرانِ
مَلَكْتَ فأسْجِحْ وزُعْ بالزِّمامِ ... وخَفْ ما يَدُور به الدائرانِ

٥– وكنتَ إذا أشرفْتَ فى رأسِ رَامَةٍ ... تضاءلْتَ إنَّ الخائفَ المتضائلُ[2]
٦– فلو طاوَعُونى يوم بُطْنانَ أَسْلَمَتْ ... لِقَيْسٍ فُرُوجٌ منكُم ومَقَاتِلُ[3]

رامةُ : هضبة . يذكِّره ضِيقَ أقطارِ الأرض عليه ، فيقول : إنك حينئذٍ متَى أشرفتَ فى رأسِ هذه الهضْبةِ تخاشَعْتَ وتذلَّلت ، لاستشعارك الخوفَ الشديد ، واستظهارك بالاتِّقاء من أعدائك البليغ . والخائف هذا دأبُه وعادتُه . على أنهم — يعنى أصحابه — لو طاوَعونى فى هذا اليوم وقَبِلوا نُصْحى ، وعَمِلوا برأيى ، لأَسلمَتْ لقيسٍ فُرُوجَكم ، وهى مواضع المَخَافةِ ، ومَقاتلَكم . والمعنى : كنَّا نَخذُلكم ونُسلِمُكم حتى يتمكن القَتْلُ منكم ، وتعلوَ سِمةُ الذُّلِّ على أحوالكم .
وإنما قال هذا لأن القيسيَّة كانت تدعو إلى ابن الزُّبير ، وكلبٌ تدعو إلى المَرْوَانيَّة ، وكان الناسُ يومئذٍ إنَّما يُعرَفون بالبَحْدَليَّة أصحاب مروان ، والزبيريَّة ، وهم أنصار ابنِ الزُّبَير . لذلك قال عبدالرحمن بنُ الحكم أخو مروان :

وما الناسُ إلا بَحْدَليٌّ على الهُدَى ... وإلاَّ زُبَيْرِىٌّ عَمَى فتزَبَّرا

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وبدلها فى ل : « جاهل » ، والوجه ما أثبتنا ، لما يقتضيه سياق الكلام .
(٢) التبريزى : « من رأس هضبة » .
(٣) التبريزى : « ويروى : أسلمت فروج نساء منكم » .
(٤) سبق البيت محرفا بدون نسبة فى ص ٦٥٠ .

٦٣٤

وقال جَوَّاسٌ أيضاً :

١ – صَبَغَتْ أُمَيَّـةُ بالدِّماءِ رِماحَنَا ... وطَوَتْ أُمَيَّـةُ دُونَنَـا دُنياها

٢ – أأُمَىَّ رُبَّ كَتيبةٍ مَجهُـولةٍ ... صِيدِ الكُماةِ عَلَيْكُمُ دَعْواها

٣ – كُنّا وُلاةَ طِعانِها وضِرَابِها ... حتَّى تَجَلَّتْ عنكُمُ غُمّـاها

يقول : استنصرَنَا أُميَّةُ ودافعَ الأعداء بنا ، وعرَّضَنا للقَتْل والقِتال ، والضِّراب والطِّعان ، حتى رَوِيَت قناتُنا من دِماء مُجاذِبيهم ، والمتكرِّهين لأيّامهم ودِوَلِهم[1] ، فلما وضَعت الحربُ أوزارَها ، وارتفع الهَيْجُ والفِتَنُ من أنحائها ومَقاصِدِها ، استبدُّوا بِطِيِّ الدنيا وزِيِّها[2] ، والفَوز بها وبأعراضها مِن دُوننا . ثم أخذ يخاطبها فقال : يا أُمَيَّة[3] ، رُبَّ كتيبةٍ مجهولةِ الشان ، لم نَدْرِ كيف يُدفع فى وجهها . ولا من أين يُصرَف شرُّها ، متكبِّرى الأبطال ، بُهَم الشُّجعان ، دعواها عليكم لا لكم ، ودفاعُها فيكم لا عنكم ، تولَّيْنا مطاعنتَها ومُكافحتَها ، وافترضْنا على أنفسِنا دَفْعها. ويجوز أن يكون المرادُ بقوله «مجهولةٍ» أنّا لا نَعرِفُها ، ولا مُجاذبةَ بيننا وبينهم ولا مُعامَلة ، فهى مجهولةٌ لنا ، اتخذنا كالأعداءِ لنا فى هَوا كُم ونُصرتِكم .

فأمّا قوله «صِيدِ الكُماة» فإنما جمع فقال صِيداً ، حَملاً على معنى الكتيبة ، ولو حَمل على اللفظ لقال : رُبَّ كتيبةٍ صَيْداء الكُماة .

والصَّيَد يُستعمَل على وجهين : يقال : ملكٌ أصْيَدُ ، أى متكبِّرٌ لا يلتفت

---

(١) كذا ضبطت فى النسختين بكسر ففتح . ويقال أيضا « دول » بضم ففتح ، كلاهما جمع دولة .

(٢) الطى ، بالكسر : واحد الأطواء ، وهى من الثوب والشحم طرائقه ومكاسر طيه .

(٣) ل : « ألى » .

إلى الناس يميناً ولا شِمالاً . وحَكَى الخليل أن الصَّيَد ذُبابٌ يدخُل فى أذُن البعير فيَقلَقُ له ، فيظلُّ رافعاً رأسَه . فشبَّه الملِكُ ذُو الزَّهْو به . فهذا وجهٌ . والوجه الآخر : أن يُرادَ بالأصيَدِ الذى لا يستطيع الالتفاتَ من دائه .

وقوله : « حتى تَجلَّتْ عنكم غُمَّاها » ، يقال : هم مِن أمرِهم فى غُمَّاءُ ، أى فى شِدَّةٍ والتباسٍ شديدٍ عليهم . ومعنى حتى : إلى أنْ . والوُلاة : جمع الوالِى ، وهو المتولِّى للشَّىْءِ والفاعلُ له . ولا يَمتنِع أن يريدَ به المُلاَّك ، كأنهم مَلَكوا تدبيرَ الحَىّ فصاروا كالوُلاة لها وفيها .

٤ — واللهُ يَجزِى لا أُمَيَّةُ سَعْيَنا   وعُلَى شَدَدْنَا بالرِّماح عُرَاها[1]

٥ — جِئتُمْ من الْحَجَر البَعيدِ نِياطُه   والشَّأْمُ تُنكِر كَهلَها وفَتاها

٦ — إذْ أقبلَتْ قَيسٌ كأنَّ عُيونَها   حَدَقُ الكِلاَبِ وأظهرَت سِيماها

يقول : الآنَ وقد جَحدَت أمَيَّةُ نِعمتَنا عندَها ، وبَعُدَت عن الصَّلاح بكُفرانها ، فإنَّ الاعتماد على الله تعالى جَدُّه فى أن يتولَّى جزاءَ سَعْيِنا ، ويَعرِفَ لنا ما أنكرَتْه أمَيَّةُ من بَلائنا ، وعُلَى مَعالٍ أحكمْنا وثائقَها ، وشَدَدنا عَقْدَها وعلائقَها ، فتُوجِبَ لنا من إثابة الله عزَّ وجلَّ ما يكون فيه عِوَضٌ من كلِّ فائت .

وقوله « جئتم من الْحَجَر » أراد بالحجَر الجنس . والمراد : جئتم من المكانِ الكثير الحجَر ، ومن بلاد الحجَر ، يعنى الحجاز . ومعنى « البعيدِ نياطُه » البعيد مُعلَّقُه . ويقال : نُطْتُ الشىءَ أنُوطه نِياطًا ونَوْطًا ، إذا علَّقتَه . ورَوَى بعضُهم :

(١) التبريزى : « فالله » .

« من الحجَز » ، بالزاء ، وقال : يريد الحِجاز . فهذا كما قيل فى تِهامة : التَّهَم . قال :

* نظرتُ والعَيْنُ مُبِينَةُ التَّهَمْ[١] *

والحاجز والحِجاز والحَجَز ، واحد . قال : وسُمِّى الحجازُ حجازاً ، لأنه يَفصِل بين الغَور والشام وبين البادية . وقوله « والشأمُ تنكِر كهلَها وفتاها » ، أى لم يكونوا من أهلِها فاستغربَتْهم . وهذا كما قال فى المقطوعة الأولى[٢] : « رُبَّ كتيبةٍ مجهولةٍ » .

وقوله « إذ أقبلَتْ قيسٌ » ، إذ ظرفٌ لقوله جئتم من الحجَر ، أى جئتم وقتَ إقبال قيس . ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله « تُنكِر كهلَها » أى تنكر فى ذلك الوقت . ويُروَى : « وتزبَّرَت قَيْسٌ كأنَّ عُيونها » ، أى صار هواها زُبَيريًّا .

وقوله « كأنَّ عيونَها حَدَقُ الكلابِ وأظهرَت سِياها » قَصْدُه إلى الذَّمّ وإلى أنّ نظرَهم نظرُ الكلاب ، لكنّه جرَّد التَّشبيهَ أوّلا ، ثم قال : « وأظهرَت سِياها » أى أظهرَت سِيما الكلاب فى إقبالها ، فترَكَ لفظَ التشبيه ، وصار كأنه يُخبِر عن حقيقة .

٦٣٥

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ الحكَم[١] :

١ — لَحَا اللهُ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلاَنَ إنَّها ... أضاعَتْ ثُغُورَ المُسلِمِينَ وَوَلَّتِ

---

(١) بعده فى اللسان (تهم) :

إلى سنا نار وقودها الرتم ... شبت بأعلى عاندين من إضم

(٢) كذا . وإنما يعنى ما ورد فى البيت الثانى من نفس هذه المقطوعة .

(٣) هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، شاعر إسلامى ، وهو القائل لمعاوية حين استلحق زيادا :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة من الرجل الهجان

أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زان

٢– فشَاوِلْ بِقَيْسٍ فى الرَّخاء ولا تَكُنْ   أخاها إذا ما المَشْرَفِيَّةُ سُلَّتِ[1]

قوله « لَحَا اللهُ » ، يجوز أن يكون بمعنى قشر الله ، ويجوز أن يكون بمعنى سَبَّ الله . وقوله « أَنَّها أضاعت ثُغُورَ » ، يروَى بفتح الهمزة ، والمعنى لأَنَّها ، ويروى بالكسر على الاستئناف . ومعنى وَلَّت انهزَمَتْ وأعرَضَتْ .

وقوله «فشاوِلْ بقَيس» ، أى خاطِرْ غيرَك وراهِنهم بهم فى الرَّخاء والسَّعة ، والأمن والدَّعَة ، وإياكَ والاعتمادَ عليهم ومؤاخاتَهم فى الحرب وعندَ استلال السُّيوف ؛ فإنَّهم يُسلِمُونك وينهزمون ، ويَخذُلونك ولا يَنصُرون . ويقال : شَاوَلَ الفَحْلَ وخاطَرَه ، إذا هايَجَه .

٦٣٦

وقال أبو الأسد[2] فى الحسن بن رجاء[3] :

١ – فلأَنظُرَنَّ إلى الجبالِ وأهلِها   وإلى مَنابِرِها بِطَرْفٍ أخْزَرِ[4]

٢ – ما زِلتَ تَركَبُ كلَّ شىء قائمٍ   حتَّى اجترأْتَ على رُكوبِ المِنبَرِ

= الأغانى (١٢ : ٦٩ ضـ ١٣/٧٣ : ١٤٤ – ١٤٨) . وفى تاريخ الطبرى (٧ : ٤٢) أن هذه الأبيات يجيب بها زفر بن الحارث فى قوله :

أفى الله أما بحدل وابن بحدل   فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل

كذبتم وبيت الله لا تقتلونه   ولما يكن يوم أغر محجل

وهى الحماسية ٢١٥ . انظر ص ٦٤٩ .

(١) التبريزى : « بقيس فى الطعان » . الطبرى : « فباه بقيس فى الرخاء » .

(٢) هو أبو الأسد نباتة بن عبد الله الحمانى ، شاعر من شعراء الدولة العباسية من أهل الدينور ، وكان ظريفا مليح النوادر مداحا خبيث الهجاء . الأغانى (١٢ : ١٦٧) .

(٣) التبريزى : « الحسن بن رجاء ابن أبى الضحاك » . وهو أحد ولاة الدولة العباسية كان واليا على الجبال ، وكان هذا علماً لما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك . وهو ممن مدحهم أبو تمام ومحمد بن وهيب . الأغانى (١٧ : ١٤٢) .

(٤) البيتان مع ثالث برواية أخرى فى البيان (١ : ٢٩٦) بدون نسبة .

قوله « بطرفٍ أخزر » تعلّق الباء منه بقوله فلأنظرن ، والمراد بنظرٍ يميلُ إلى ناحيةٍ ، أى نَظَارِ بُغْضٍ وشَنَآنٍ ، لكونه متوانياً لها والمعنى : هانت فى عَينى وصَغُر قدرُها عِندى ، فصرتُ أتكرّهها ، وأبغض أهلَها وكُوَرَها ، ومَواضعَ الدَّعوة منها ، مَذْ صِرْتَ أميرَها ومُدَبِّرَها .

وقوله « ما زلتَ تَركب » معناه ظاهر .

٦٣٧

وقال آخر[١] :

١– عَجِبتُ مِنَ السَّارِينَ والرِّيحُ قَرَّةٌ ... إلى ضَوْءِ نَارٍ بَيْنَ فَرْدَةَ والرَّحَى[٢]

٢– إلى ضَوْءِ نَارٍ يَشْتَوِى القِدَّ أهلُها ... وقد يُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشتَوَى

٣– فلمَّا أتَوْنَا فاشتَكَيْنَا إليهِمُ ... بَكَوْا وكِلاَ الحَيَّيْنِ مما بِهِ بَكَى

٤– بَكَى مُعْوِزٌ مِنْ أنْ يُلاَمَ وطَارِقٌ ... يَشُدُّ من الجوعِ الإزارَ عَلَى الحَشَا

يقول : تعجَّبتُ مِن العُصبة التى سَرَتْ ليلاً إلى ضوءِ نارٍ أُوقِدَتْ فى مكانٍ يتوسَّط فَردة والرَّحَى؛ وهما موضعان . والرِّواية المستقيمة على كلِّ وجهٍ : « بين فِردَة فالرَّحَى » وهذا هو ما كان الأصمعىُّ يُنكِره فى بيت امرئ القيس ، وهو

* بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فحَوملِ[٣] *

وقد مرَّ القولُ فيه وفى أشباهه[٤] ، وفى حكم بَينَ ومقتضاه أنَّ الاسمَ الذى

---

(١) هو الراعى ، كما ذكر التبريزى . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ . قال التبريزى : « ونزل بالراعى النميرى رجل من بنى كلاب فى ركب معه ليلا فى سنة مجدبة وقد عزبت عن الراعى إبله ، فنحر لهم ناقة من رواحلهم ، وصبحت الراعى إبله فأعطى رب الناب نابا مثلها وزادها ناقة ثنية ، فقال ... » .

(٢) التبريزى : « فالرحى » .

(٣) صدره مشهور ، حتى قيل : « أشهر من قفا نبك » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٧٩٨ ، ١٢٤١ .

بليه يجب أن يكون كاسم الجمع فى تناوُله أكثرَ من واحد، حتَّى يصحّ ترتيبُ الفاء عليه فى العطف .

وقوله «والريح قَرَّة» أى تهبُّ شَمالاً ببردٍ شديد. والواو منه واو الحال .

وقوله « إلى ضوءِ نار يَشتوِى القِدَّ أهلُها» ، أبدلَ إلى ضوء نار ممَّا فى البيت الأوّلِ بإعادة حرف الجرّ معه . ويعنى ناراً لقومٍ مضرورين مجهودين لا خيرَ عندهم، ولا طعامَ بفِنائهم، مضطرِّين إلى شىِّ القِدّ، لأنَّهم أعوزَهم ماهو خيرٌ منه . فتعجَّبَ وقد استضافَهم هؤلاء السَّارُون ، ثمّ قال : وقد يُكرَم الأضيافُ مع مجاهَدة الفقر ، ومزاوَلة الضُّرّ ، إذا كان المُضيفُ لطيفَ الحِيلة ، رفيعَ الهمة .

ويقال : شويتُ اللَّحمَ واشتويتُه ، فانشوَى هو . وحكى سِيبويهِ فى بناء المطاوعة اشتوَى أيضاً . ومثله نَظَمتُ الشىء وانتظمتُه فانتظمَ هو .

وقوله « فلمّا أتونا » يقول : فلمَّا حصَلُوا عِندنا تباثَثْنا وتباكَينا ، وكلُّ واحدٍ من الحَيَّيْنِ شكا إلى الآخَر دهرَه وأنهَى إليه فى إضاقته أمرَه .

وقوله « بكى مُعْوِزٌ » ، هذا بيانُ وجهِ العِلَّة فى البُكاء . يقول : بكَى فقيرٌ مخافةَ أن يُتَّهَم ولا يُصَدَّقَ ظاهرُ حالِه فيما يَنطِق به من ضُرِّه ، وأن تَلحقَ به اللَّائمةُ إذا ذُكِر واجباتُ ضَيفِه ؛ والضَّيفُ الطَّارقُ بكَى لِما مَسَّه من نائباتِ دهرِه ، ولِمَا يَظهر من مِسَاس حاجته ، ويُقيم به العُذرَ فى إلمامه ، حتَّى شَدَّ حَشَاهُ الخلاءُ جوفَه

٥ — فألطَفتُ عَيْنِى هَلْ أَرَى مِنْ سَمِينةٍ ووطَّنتُ نَفسِى للغَرامةِ والقِرَى

٦ — فأبصَرْتُها كَوْماءَ ذاتَ عَرِيكةٍ هِجَاناً مِنَ اللَّائِى تَمتَّعْنَ بالصُّوَى

٧ — فأوْمَأتُ إيماءً خَفِيًّا لحَبْتَرٍ وللهِ عَيْنَا حَبْتَرٍ أيَّما فَتَى

٨ — وقلتُ لهُ ألصِق بأيْبَسِ ساقِها فإنْ يُجْبَرِ العُرْقوبُ لا يَرْقَأِ النَّسا

قوله « ألطفتُ عَينِى » أى نظرتُ بعينى نظراً لطيفا ، هلْ أرى فى إبلِ المُستضيفِين ورواحِلِهم ناقةً سمينةً أنحرُها لهم ، وإذا رُدَّت إبلى إلى مَباءَتِها أعوِّض صاحبَها خيراً منها ، وأُغْرَمُ من بعد ذلك له ما ارضيه به . ويقال : ألطَفْتُ أخِى بكذا ، إذا أتحفتَه بما يُعرف به بِرُّك ولُطْفُك . وألطفت الأمُّ بالولَد ، وأمٌّ لطيفةٌ ، أى أكرمَتْهُ وبَرَّتْه .

وقوله « أبصَرْتُها كوماء » ، الكوماء : الطَّويلة السَّنام الغَايظة ، وقيل : الكَوَم : العِظَم من كلِّ شيء : والعَريكة : السَّنامُ إذا عركه الحِمْل . وناقةٌ عَرُوكٌ : لم يكن فى سَنامِها إلاَّ اليَسيرُ من الشَّحم . والهِجان : الكريمة . ويقال : ناقةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِجان . وقد مرَّ القولُ فى وقوعِه للواحِد والجمع على صُورَةٍ[1] .
وقوله « تَمَتَّعْنَ بالصُّوَى » فالصُّوَى : الأعلام والحجارة . أى رعت الحَزْن والسَّهل . ومعنى تمتَّعْن ، أى أقمْنَ بها وبَقِين حتَّى استمتعْنَ . ويقال : مَتَّعَ الماءُ الشَّجرةَ ، إذا أنشأها . ونخلةٌ ماتعة ، أى طويلة .

ويروى :

. . . . مِن سمينــةٍ تدارَكَ فِيها نَىٌّ عامَيْنِ والصَّرَى

والنَّىُّ[2] : الشَّحم . والصَّرَى : حَبسُ الإبلِ فى الرِّعْى[3] ، ومنه سمِّى الماء الذى قد طال إنقاعُه فى موضع : الصَّرَى . ويُروى : « والصَّوَى » ، وهو الإحسان إليها والإبقاء عليها .

وقوله « فأومأتُ إيماء خَفِيًّا لحبترٍ » لحبترٌ : اسم ابنِه ، وإنَّما رسم له

(١) انظر ما سبق فى ص ٩٤ .
(٢) النى ، بفتح النون وكسرها ، وضبط فى النسختين بالفتح ، وهما لغتان فيه .
(٣) الرعى ، بالكسر : الكلأ والمرعى . وفى ل : « المرعى » .

عَرْقبتَها فى السِّرِّ بعد أن اختارَها مخافةَ أن يمتنع صاحبُها مما همَّ به فيها . وقوله « عينا حَبْتَرٍ » اعتراض . وانتصَب « أيّما فَتًى » على الحال ، كأنّه أحْمَدَه حين حَسُنَتْ فطنتُه وتسرَّع إلى مُراده . ويقال : مررتُ برجلٍ أيِّ رجلٍ ، فتجعله صفةً للنّكرة ؛ وبزيدٍ أيَّ رجل ، فيصير حالًا للمعرفة . وعَلَّقَ المدحَ بعينيه ، لأنّه بهما أدركَ إيماءه . وإذا عظّموا الشّيء نسبوا مِلْكَه إلى الله عزّ وجلّ .

وقوله « ألصِقْ بأيْبَسِ سَاقِها » الأيبَسُ : ما قلَّ عليه اللّحْمُ من الساقِ وغيرِها . والسّيفُ أعمَلُ فيه . وقوله « فإنْ يُجبَرِ العُرْقُوب » العُرقوب : عَقَبٌ مُوَتَّرٌ خلفَ الكعبين فُوَيقَ العَقِبِ من الإنسان ، وهو مَوصِلُ الوظيفِ والسّاقِ من ذوات الأربع . والمعنى : أصِبْ ساقَها فإنّ العُرْقُوبَ إن أمكن التّلافى منه بالجبْرِ والعِلاج والشّدّ ، فإنْ نَساه لا ينقطعُ الدّم منه ، فصاحبُها يَيْئَسُ منها عند ذلك . والمعنى : اضرِبْها ضربةً ليس فى البُرء منها مَطمع ، ليَرْضَى صاحبُها بالتّعويض منها ، ويستقيمَ أمرُ الضّيف والضيافة ، وإنْ لَحِقَنا غُرمٌ فيها .

٩ — فَأَعْجَبَنِى مِنْ حَبْتَرٍ إنَّ حَبْتَرًا مَضَى غَيْرَ مَنْكُوبٍ ومُنْصُلَهُ انْتَضَى

١٠ — كأنِّى وقد أشْبَعْتُهُمْ مِنْ سَنَامِها جَلَوْتُ غِطاءً عنْ فُؤادِىَ فانْجَلَى

١١ — فبِتْنَا وباتَتْ قِدْرُنا ذاتَ هِزَّةٍ لَنا قَبْلَ ما فيها شِوَاءٌ ومُصْطَلَى

قوله « غير منكوب » أى غير مدفوع فى صدره . ويقال : حافرٌ منكوب ونَكيب ، إذا أثّر فيه ما يطؤه من حَصًى أو حجر . وقوله « وَمُنْصُلَهُ انتضَى » أى جَرَّدَ سيفه . وانتصب مُنصُلَه لأنه مفعول مقدّم . وقوله « جلوتُ غطاءً » ، يقول : كنتُ مهتمًّا قلقًا ، فلما شبِعُوا ممّا أعددتُ لهم وتحمّلت من أجلهم سكنت فكأنه كان على قلبى غطاءٌ من الغم رانَ عليه ، فانجلى وذهب .

وقوله « فبِتْنَا وباتت قِدْرنا » خبر بِتْنا قوله « لنا قبلَ ما فيها شِواءٌ » .

وشِوَاءٌ ارتفع بالابتداء . يريد : بِتْنَا لنا قَبْلَ ما أُودع القِدرَ شِوَاءٌ واصطلاء بالنَّار ، كأنه طال عليهم انتظار القِدْرِ ، فعُمِدَ إلى أطايب الجَزور وشُوِىَ . وقوله « ذاتَ هِزَّةٍ » خبر بانت قدرنا ، أى لها هزيزٌ بالغَلَيان . ويجوز أن يريد : لِقدر اللّحم فيها اهتزازٌ واضطراب ، كما قال :

* قُرَشيَّةٌ يهتزُّ موكبها *

وهذا الذى اقتصَّه من حاله وحالهم ، بيانُ اهتمامه بأمر الضيف وحسن التأنِّى فى تفقده .

١٢ — وأَصْبَحَ رَاعِينا بُرَيْمَةُ عِنْدنَا   بِسِتِّينَ أَنْقَتْها الأَخِــلَّةُ والخَلَا

١٣ — فَقُلْتُ لِربِّ النَّابِ خُذْهَا ثَنِيَّةً   ونابٌ عَلَيْنَا مثلُ نابِكَ فى الحَيا

يقول : أصبَحْنا وراعينا بُرَيمةُ رَدَّ إبلَنا مِن مَرعاها ، وهى ستُّونَ قد أنقَتْها — أى جعل لها نِقْيًا — الأخِلّةُ ، وهى جمع خِلال ، وهو ما اختُلَّ واجتُزّ من العُشْب وهو أخضر . والخَلَا : الرُّطب . وقال بعضُ أصحابِ المعانى : لا يقال أنقَتِ النّاقةُ ، إذ سمِنَت ؛ ولكنْ لمّا سَمِنَّ من الحشيش ، وكان الحشيشُ والخلا سببَ سِمَنِها جَعَلَ الفعلَ لها على سعة الكلام ، والأصل أنقَتْ هى . قال :

لا يَشتَكِيَنْ ألمًا ما أنْقَيْنْ   ما دام مُخٌّ فى سُلامَى أو عَيْنْ[1]

وقال غيرُه : يجوز أن يكون أنقى ها هنا مُعدًّى ، ويكون على غير ما فسَّرتموه ، وهو أنه يقال : أنقيته فأنقَى ، كما يقال : أمْأَيْتُ الدَّراهم فأمْأَت هى[2] . والمعنى سَمَّنَتْه وجعلتْ له نِقْيًا فسَمِنَ واحتمل .

قال البَرْقِىُّ : الرِّواية الصحيحة عندى : « أبقَتْها الأخِلَّةُ » ، أى أبقتها على البَرْد والجَدْب ، لأنّا كَنَنَّاها وخلَيْنا لها . ورواه بعضُهم : « الأجِلّة » بالجيم .

---

(١) الرجز لأبى ميمون النضر بن سلمة ، كما فى اللسان (نقى) . وانظر مقاييس اللغة (١ : ٢٠٦) .

(٢) أى صارت مائة .

قال : ويقال : جُلٌّ وجِلاَل وأجِلَّة ، أى لم تَدَعْها ولم نُهمِلْها ، بل ألْبَسْناها وتفقّدناها .

وقوله « وقلتُ لربِّ الناب خُذْها ثَنِيَّةً » ، أى حَكَمْتُ صاحبَ الذيب التي عَقرْتَها فى أن يختار من إبلِي ثَنِيَّةً على ما يشتهيه ، وتصطفيه عينُه وتنتقيه ، وقلتُ مُضِيفاً إلى العِوَض الواجِبِ له : لك علينا نابٌ مثل نابِك فى السِّمَن . والحيا من باب ما سُمِّيَ باسمِ غيرِه إذ كان معه بسبب . فالحيا : للمطر ، لأنه يُحْيِي العِباد والبلاد ، ثم يسمَّى النَبْتُ حَيًا لأنه بالمطر يكون ، ويُسمَّى الشَّحمُ حَيًا لأنه عن النَّبت يكون . وهذا البابُ كثيرٌ واسع[1] .

٦٣٨

فقال فى [ذلك[2]] خَنْزَرُ بن أقرَمَ[3] :

١ — بَنِي قَطَنٍ ما بالُ ناقةِ ضَيفِكُم نَعَشَّونَ منها وهْيَ مُلْقًى قُتُودُها

٢ — غَدَا ضيفُكُم يَمشِي وناقةُ رَحْلِه على طُنُبِ الفَقْمَاء مُلْقًى قَدِيدُها

٣ — وباتَ الكِلابِيُّ الذى يَبْتَغِي القِرَى بلَيْلةِ نَحْسٍ غابَ عنها سُعُودُها

أخذ يُسائلهم عمّا غيّرهم به تهكّمًا [وسُخرِيَة[4]] . ومعنى الكلام الإنكارُ . يقول : لِمَ تتعشَّوْنَ من ناقةِ ضيفِكم ؟ وكيف استجَزتم ذلك حتى صارت قد

(١) التكملة من ل والتبريزى ، وهذا نص على علاقة هذه الأبيات بسابقتها .

(٢) قال التبريزى فى آخر شرحه لهذه القصيدة : « وليس هذا من الهجو فى شىء ، وإنما أورده أبو تمام لما يتبعه من قصيدة خنزر بن أرقم » .

(٣) كذا فى نسخة الأصل . وفى ل والتبريزى « أرقم » وأشير فى ل إلى أنه فى نسخة « أقرم » . وخنزر ، قال التبريزى : « واسمه الحلال ، وهو أحد بنى بدر بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير . والراعى من بنى قطن بن ربيعة » ، فهما بنو عمومة . وقد سبقت ترجمة الراعى فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ .

(٤) التكملة من ل .

أُلْقِيَ قُتُودُها وهى مطبوخةٌ مأكولة ؟ والقُتُود لا واحدَ لها عند أصحابنا البَصريِّين . ثم قال مقبِّحاً الصورة : ابتَكَر ضيفُكم يمشى وراحلتُه قد نُحِرَت وقُدِّدت لحومُها ، وشُمِّست على طُنُبِ الفَقْماء . وهذا تفظيعٌ للشأن . والطُّنُب : حبلٌ من حبال الخيمة . والفَقْماء يَعنى بها امرأةَ الراعى ، لقَّبها بذلك .

وقوله « وناقةُ رَحْلِه » ، رواها المفضَّل : « وناقةُ رِجْلِه » كأنه لمَّا قال غدًا ضيفُكم يمشى ، قال : وناقة رجلِه ، يريد الناقة التى كانت تحملت رِجلَه . ومن روى : « وناقةُ رَحلِه » له أن يقول : كما قال[1] : وهى مُلْقَى قُتُودُها ، قال : وناقة رَحْلِه ، أى الرَّحل المُلْقَى .

وقوله : « وباتَ الكِلابِىُّ » يعنى به باتَ المستضيفُ الطالبُ للقِرَى عندكم بليلةِ شؤمٍ قد فارَقَها السُّعود ، لأنكم غصبتم ناقته ، ولم يَنَل القِرَى عندكم .

٤ – أَمَن ينقُصُ الأضيافَ أكرمُ عادةً إذا نَزَلَ الأضيافُ أم مَن يَزيدُها

٥ – كأنَّكمُ إذْ قُمتمُ تَنحَرُونَها بَرَاذِينُ مشدودٌ عليها لُبُودُها

٦ – فما فَتَحَ الأقوامُ مِن بابِ سَوْءةٍ بَنِى قَطَنٍ إلاَّ وأنتم شُهودُها

يقرِّرهم على تقبيح ما كان منهم ، فيقول : خبِّرونى أىُّ العادتين أقربُ إلى الكرم ، وأحرَى[2] فى وَفاء الشِّيَم : أعادةُ مَن يَستنزِل الأضيافَ عن أموالهم وينقُصُ ما توفَّرَ لهم ، أم عادةُ مَن يزيدُهم ويُثمِّر حظوظَهم .

وقوله « عادةً » انتصَبَ على التمييز . وإذا نزلَ ظرفٌ لقوله « أمَن ينقُصُ الأضيافَ » . وكرَّر لفظَ الأضياف ولم يأتِ بالضمير على عادتِهم فى تكرير الأعلام والأجناس ، وقد مضَى مِثلُه .

وقوله « كأنكم إذْ قمتمُ تَنحرونها بَرَاذينُ » شبَّهم فى العَجْز والثِّقل وقِلَّة

(١) ل : « لما قال » .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أجرى » بالجيم .

الفَناء ، والتباطؤ والبلادة ، بالبراذين ، وهم يضربونها مثلاً للمذموم . وجعَلها شُدَّت اللُّبودُ عليها تقبيحاً لصُوَرها .

وقوله : « فما فَتَح الأقوام من باب سَوءة » ، يريد : لا يسبقُ طوائفُ الناس وفِرَقُهم إلى خَصلةٍ مذمومة أو سَوْءة مشوَّهة منكَرة إلاّ وبنو قَطَنٍ حضُورُها ؛ أى لا يمكن الإغراب فى المخازى عليهم ، لأنهم السابقون فى البِدَار إلى كلّ عار ، والأوَّلون عند الولوج فى كل باب ، والحاضرون لكلّ نُكرٍ وعاب .

٦٣٩

فأجابه الرّاعى(١) :

١ — ماذا ذكَرْتم مِن قَلوصٍ عَقَرتُها بِسَيْفِى وضِيفانُ الشِّتاءِ شُهودُها(٢)

٢ — فقد عَلِمُوا أنّى وفَيْتُ لِرَبِّها فَرَاحَ على عَنْسٍ بأُخرَى يقودُها

٣ — قَرَبْتُ الكِلابىَّ الذى يَبتغِى القِرَى وأمَّكَ إذ تَخدِى إلينا قَعُودُها(٣)

الرواية الجيدة : « ماذا نكِرتم » . ويقال : نَكِرْتُ الشىء وأنكرتُه واستنكرته بمعنًى . فأمّا « ذكرتم » فمراده ماذا عيَّرتم فذكَرتم من ناقةٍ لغيرِى عقرتُها حين عَزَبَتْ إبلِى لضيفانِ الشِّتاء بحَضْرتهم ، وبمرأى منهم . وقد جرى رسمُ الكِرام بمثلِ ذلك إذا دَعَت الحالُ إليه ، موطِّنين أنفسَهم للغرامة ، وردِّ الاثنينِ بدلَ الواحد على الخصم فيه .

وقوله « فقد علموا » يستشهد بالضِّيفان فيقول : حضَروا وتيقَّنوا أنّى وفَيْتُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ .

(٢) التبريزى : « ويروى : من كزوم عقرتها » . والكزوم : الناقة المسنة التى مشفرها الأعلى أطول من الأسفل » .

(٣) التبريزى : « يحدى إلينا » .

لربِّها بمثلِها وزدتُه أخرى، فراح راكباً إحداها وقائداً الأخرى معها. ثم اقتصّ ما دعاه إليه فقال: قَرَيْتُ الكِلاَبيَّ المبتَغِيَ القِرَى وقَرَيْتُ أُمَّكَ، يعنى أمَّ خَنزَر بن أفرَم[1] للعيْرِ المنكِر. والخَدْى: ضَرْبٌ من السَّير. والقَعُود: البَكْر إذا بلغ الإثناء؛ والذى يَقتعِده الرّاعى فيركبُه ويَحمِل زادَه عليه قَعودٌ أيضاً. وفى ذكر الأمّ وأنه أضافَها مع الكلابىِّ بعضُ الغَضّ والإبهام.

٤ — رَفَعْنا لَهَا نارًا تُثَقَّبُ لِلقِرَى ولِقحةَ أضيافٍ طَوِيلاً رُكُودُها

٥ — إذا أُخْلِيَتْ عُودَ الهَشِيمةِ أرزَمَتْ جَوَانِبُها حتّى نَبِيتَ نَذُودُها

٦ — إذا نُصِبَتْ لِلطّارِقِينَ حَسِبْتَها نَعامَةَ حِزْباء تَقاصَرَ جِيدُها

ويروى: «رفعنا لها مشبوبةً يُهتدَى بها». ومعنى «تثقَّبُ» تُذْكَى وتضاء. وقيل: الكوكب الثاقبُ والحسَب الثاقب، الضَّوء والتلألؤ. ومعنى «القِرَى» لإقامة القِرى، و«اللقحة» يراد به القِدر هاهنا، وأصله فى النَّاقة الحَلُوب. وجعلَ ركودَها طويلاً لثِقَلِها وكِبَرِها، ولأنَّها لا تُنزَلُ[2] إلا للغَسْل ثم تُعاد. والجَفْنةُ الرَّكود: الثَّقيلة الممتلئة.

وقوله «إذا أُخْلِيَتْ» أى جُعِل الحطَبُ لها بمنزلة الولَد، فهو لها كالولد، وهى له كالنَّاقة الخلِيَّة[3]، وهى التى تَعطِف على ولدِها وتَرْأَمُه. والهَشِيمَةُ: اليابس من الشَّجرِ وغيره. وأرْزَمَتْ: صاحت بغَلَيانها، لكِبَرِها، حتَّى نَبِيتَ نُسَكِّن منها. وإذا نُصِبَتْ على الأثافى لزُوَّار اللَّيل — يعنى الأضياف — حسِبْتَها لإشرافها نعامةَ حِزْباء. والحِزْباء[4]: الأرض الصُّلبة المرتفعة. شَبَّهَ القِدر

(١) ل: «أرقم»، وقد سبق التنبيه.

(٢) فى الأصل: «تترك»، صوابه فى ل.

(٣) التبريزى: «إذا أخليت، أى جعل الحطب لها بمنزلة الخلا للناقة فأوقد تحتها. ويروى: إذا خليت، أى جعل الحطب لها بمنزلة الولد، فهو لها كالولد وهى له كالناقة الخلية».

(٤) هى جمع حزباءة.

بالنَّعامة ، لأنَّها تُكثِر رفعَ رأسِها ووضعَه ، لجُبْنها ونُفورِها ، فكذلك القِدر ترفَعُ المَحَال وتخفضها ، لشِدَّة غليانها . وقال « تقاصَرَ جيدُها » ليقبيّنَ وجهُ التَّشبيه منه ويصحّ . ومثله قولُ الآخر[(١)] :

* غضوبٌ كحيزوم النَّعامةِ أُحمِشَتْ[(٢)] *

٧ — تبيتُ المَحَالُ الغُرُّ فى حَجَرَاتِها شَكَارَى مَرَاهَا ماؤُها وحَدِيدُها

٨ — بَعَثْنَا إليها المُنْزِلَيْنِ فحَاوَلاَ لكىْ يُنزِلاهَا وَهْىَ حامٍ حُيُودُها

٩ — فبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجمَ فى مُسْتَحِيرةٍ سَريعٍ بأيدى الآكِلينَ جُمُودُها[(٣)]

المَحَال : فِقَرُ الظَّهر ، والواحدة مَحَالَة . وجعلها غرًّا لسِمَنِها . والحَجَرات : النَّواحى ، وجعلها شَكَارَى لامتلائها وَدَكاً . ويقال : شاةٌ شَكِرَةٌ ، إذا كانت غزيرةَ اللَّحم ، وضَرَّةٌ شَكْرَى ، أى ممتلئة . وشُكْرُ النِّعَم من ذلك ، لأنَّه به تُستدام وتُمْتَرَى الزِّيادة[(٤)] . ويُروى : «سَكَارَى» بالسِّين غير معجمة ، والمراد مثلُ ذلك لأنَّ السُّكر من الامتلاء يكون . ومعنى مَرَاها استخرج دَسَمَها . ماؤُها ، أى مرقَتُها . وحديدُها أى مِغرَفَتُها .

وقوله «بعثنا إليها المُنْزِلَيْن» إنَّما ثَنَّى ليُرِيَ أنَّ الواحدَ لا يُطيقُها ولا يَنهضُ بتحريكها لِثقَلها . واللام من قوله « لكى يُنزلاها » يجوز أن يتعلَّق بقوله بَعَثْنَا ،

(١) هو الفرزدق ، كما فى الحيوان (٤ : ٣٣٢) وما سيأتى فى الحماسية ٧٥٣ .

(٢) عجزه : * بأجذال خشب زال عنها هشيمها *

(٣) بعده عند التبريزى :

فلمَّا سقَيْنا العَكِيسَ تَملَّأَتْ مَذاخِرُها وارفضَّ رشحًا وريدُها

ولمَّا قضَتْ من ذى الإناء لُبانةً أرادت إلينا حاجةً لا نريدُها

والبيت الأول منهما منسوب فى اللسان (عكس) إلى أبى منظور الأسدى . والعكيس : الحليب تصب عليه الإهالة والمرق ثم يشرب .

(٤) ابن جنى فى التنبيه : « والشكر موضع زيادة اللفظ الإطناب فى حسن القول .. ومنه الشكير لصغار الورق والريش ، وذلك أنه زيادة على الجسم » .

كأنّه قال : بَعَثْنَا المُنزِلَين إليها لكى يُنزِلاها فحاولاه ، وحذَف مفعول حاول. وكَىْ هذه هى النَّاصبة للفعل ، لذلك دخلها اللامُ الجارّة . والمحاولة : مطالَبة الأمر بالحِيَل ، ويجوز أن يتعلّق بحاولا . والحُيُود : الجوانب ، أى إذا أراد إنزالَها وفى جوانبها بَعْدُ حَمْىٌ ، استعجالاً .

وقوله : «فباتت تَعُدّ النَّجْمَ» إخبار عن أم خنزر بن أقرَم[1] . والمستحيرة : المتحيِّرة لامتلائها . أى فى مرَقَة أو قِدرٍ قد تحيَّرت ، فهى مِنْ صَفائها وكثرة دَسَمِها ترَى فيها نُجومَ السَّماء . وقيل : شبّه الرّاعى النُّفّاخات التى كانت على رأسها مِن كثرة الدَّسَم بالنُّجوم ، ويجوز أن يكون أراد أنّ هذه القِدرَ مرتفعةُ الشّأن ، عاليةُ الأمْر ، فأمّه كانت تَعُدُّ النُّجومَ فيها لما أُطعِمَتْ منها كأنّها بلغت النُّجومَ فى علوِّها ، لأنّها لم ترَ مثلها قطّ[2] . وهذا هو الوجهُ عِندى ، ليكونَ قد غَضّ مِن أُمِّه جزاءً على ما قاله وأنكره . وقوله « حُيُودُها » ارتفع بحاَمٍ ، وكذلك « جُمُودُها » ارتفع بسريع . ويجوز أن يروى : « سريعٌ » بالرفع على أن يكون خبراً للمبتدإ وقد قُدِّم عليه ، والمبتدأ جُمودُها .

٦٤٠

وقال رجلٌ من بنى أسَد :

١ — دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ والسّاعونَ قد بَلَغُوا ... جَهْدَ النفُوسِ وألْقَوْا دونَهُ الأُزُرَا

٢ — فكَابَرُوا المَجْدَ حتّى مَلَّ أكثَرُهُمْ ... وعَانَقَ المجدَ مَنْ أوفَى ومَنْ صَبَرَا

---

(١) فى هذه اتفقت النسختان . وانظر الحاشية الأولى لهذه الحماسية .

(٢) قال أبو محمد الأعرابى : « لايجوز أن يكون النجم هنا إلا الثريا، وذلك أن فى البيت خبيئة لم يخرجها أبو عبد الله — يعنى النمرى — وذلك أن الثريا لا تكاد ترى فى قعر الجفنة وغيرها من الأوانى إلا أن يكون قم الرأس ، ولا يكون قم الرأس إلا فى صميم الشتاء ، ويقال حينئذ : أقمر النجم ... وقوله تعد النجم . أى لصفاء الودك فى الجفنة تعرف عدد الثريا فيها . وهذا معنى مليح ؛ وذلك أن نجوم الثريا لا تكاد يعدها إلا ذو بصر حديد ، ولذلك يقول القائل :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... يراها حديد العين سبعة أنجم » .

٣ — لاَ تَحْسَبِ المَجْدَ تَمرًا أنتَ آكِلُهُ   لَنْ تَبلُغَ المَجْدَ حَتّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

يقول : تباطأ سَعْيُك للمَجْدِ ، ولمّا سعيتَ كان سعيُك دبيباً وطُلّاب المجد قد جَهَدوا أنفسَهم، وألقوا الأُزُرَ دونَه ، تخفيفاً عن أنفسهم ، وتشميراً فى طلبهم وهذا مثل . والمراد أنَّ ما يفعله الساعى فى سَعيِه إذا طلبَ شيئاً من التجرُّد والتخفُّف ليُدْرِكَ مطلوبَهُ [قد فعلوه[1]] . ثم أخذ يفصِّل مجهودَهم من بَعْدُ ، فقال : كابَرُوا المجد ، أى جاهدوه ليَبلُغوه قَسْرًا لا خَتْلاً ، فمَنْ صَبَرَ وأوفَى نالَه واحتواه ظافراً به ، معانِقاً له ، ومن مَلَّ وقَصَّرَ — وهم الأكثر — خاب وأخفق ورجع نادماً لاهياً عنه .

وقوله « لا تَحسَبِ المجدَ » تقريع ، والمراد : لا تظنَنَّ المجدَ يُدرَكُ بالسَّعى القصير ، واستعمالِ التَّعذير ، وعلى ملازَمة الراحة دونَ توطينِ النَّفس على الكَدِّ الشديد والمجاهدة ؛ فإنّه لن يُنالَ إلاّ بتجرُّع المراراتِ دونه ، واقتحام المعاطب بسببه . ويقال : لعِقْتُ الصَّبِرَ لَعْقاً . واسمُ ما يُلعَق هو اللَّعُوق .

٦٤١

وقال آخر :

١ — ومُستَعْجِلٍ بالحَربِ والسِّلْمُ حَظُّهُ   فلمَّا استُثِيرَتْ كَلَّ عنها مَحافِرُهْ

٢ — وحارَبَ فِيها بامرئٍ حِينَ شَمَّرَتْ   مِنَ القوم مِعْجَازٍ لَئيمٍ مَكاسِرُهْ

٣ — فأعطَى الّذِى يُعطِى الذَّليلُ ولَمْ يَكن   له سَعْىُ صِدْقٍ قَدَّمَتْهُ أكابِرُهْ

يقال : استعجل بالشَّىء ، إذا طَلَبَ عجلتَه ولم يَصبِر إلى وقته وإناه . فيقول : ربَّ امرئٍ يُعْجِلُكَ فى هَيْجِ الحَرْبِ له ، ونَصْبِ الشرِّ بينَك وبينه ، فتراه يرتقِى فى الإيذاء والمكاشَفة إلى أعلى درجات القصد ، وحَظُّه فى أن يُسالِمَ ،

---

(١) التكلة من ل .

لكنّه بسُوء تأتّيه ونقصِ اختياره، أبَى لنفسِه إلاّ تعريضَها لما يَستوخِم عاقبتَه، ويَتعجّل شرّه، فلما هُيِّجت الحربُ له وأُجيب فى إثارتها، وإيقاد نائرتها، إلى مراده منها، عَجَز فيها عن الإيفاء والاستيفاء، وكلّ عن مُباشَرة الوِرْد والصَّدر، واستعان فيها برجلٍ رَكّابٍ لرواحل العَجْز، لئيم المَكسِر والمختبَر، ضيِّقِ العَطَن والمَبْرَك، ويعنى به نفسه، وهذا كما يقال: لقيتَنى لقيتَ بى قِرناً باسلا. ويعنى بالقِرْن نفسَه. وقوله «حين شمّرتْ» يريد حين كشَفَت الحربُ عن ساقِها، وأبدتْ أعجازَها وهواديَها، ففَعَل فِعلَ الذّليل، وأعطى من الانقياد ما يُعطيه الضَّعيفُ الفريد، ولم يكن سَعْيُه سعياً مصدوقاً فيه، ولا وقوفُه وإمساكُه إمساكاً يُعذَرُ له، فتراه عند الأماثِل من جملة الأراذل، وعندَ طُلاّب الخير مقتحِما فى الشّرّ. ومعنى «قَدَّمَتْهُ أكابرُه» أسلافُه وأماثلُ قومِه.

٦٤٢

وقال إسماعيل بن عَمّار[1]:

١ – بَكَتْ دَارُ بِشْرٍ شَجْوَها إذ تَبَدَّلَتْ هلالَ بنَ مرزوقٍ بِبِشْر بن غَالبِ

٢ – وهَلْ هِيَ إلاَّ مِثْلُ عِرْسٍ تَحَوَّلَتْ على رَغْمِها، مِنْ هاشمٍ فى مُحارِبِ[2]

«شَجْوَها» انتَصَب على أنه مفعول له، والشاعر يفضّل بشرًا على هلال، ويقول: إن الدار التى كان يستوطنها بشرٌ لمّا ارتحل عنها وصار فيها بدلاً منه هلالٌ بكتْ وتحسَّرَتْ، وحُقَّ لها ذلك، فما هى فى استبدالها إلا كعروسٍ زُوِّجت

(١) التبريزى: «إسماعيل بن عمار الأسدى» ثم قال: «قال دعبل بن على: هى للوليد بن كعب قالها لما مات بشر بن غالب واشترى داره هلال بن مرزوق».

وإسماعيل بن عمار الأسدى: شاعر مقل مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية. وأخباره فى الأغانى (١٠: ١٢٨ – ١٣٥).

(٢) التبريزى: «مثل عرس تبدلت».

فى هاشم ، ثم انتقلت إلى محارِب . ومُحارِبٌ قبيلة فيها ضَعَةٌ وخمول ، حتى قال بعض الشُّعَراء وهو يَحْلف :

* فَصَيَّرنى ربِّى إذًا من مُحارِبِ *

٦٤٣

وقالت امرأةٌ قُتِلَ زوجُها[1] :

١ — مَتَى تَرِدُوا عُـكَاظَ تُوافِقُوها بأَسْمَاعٍ مَجَادِعُهَا قِصَـــارُ
٢ — أَجِيرانَ ابنِ مَيَّـةَ خَبِّرُونِى أَعَيْنٌ لابنِ مَيَّـــةَ أم ضِمَارُ
٣ — تَجَلَّلَ خِزْيَهاعَوفُ بنُ كَعْبٍ فليسَ لخَلْفِها مِنـــهُ اعتِذارُ
٤ — فإنَّـــكُمْ وما تُخْفونَ مِنْها كذاتِ الشَّيبِ ليسَ لها خِمارُ

عُكاظ : وادٍ للعرَب فيه سوقٌ لم يجتمع فيها طوائفُ الناس من [جميع[2]] الأحياء ، فيتمارفون فيها ويتعلَّقون بالأخبار بعد التذاكر بها والتنسُّم لها ، وبينهم المواعَدات والمقايَضات ، والإحَنُ والتراتُ ، والمنافَراتُ والمناقَضات ، فكلُّ فِرقةٍ تتجمَّل لِلأُخرى[3] وتودّ أن تسمع فيها ما ليس عندَها من حَسَنٍ وقبيحٍ ، ومحمود

(١) التبريزى : « قتل زوجها فى جوار الزبرقان فلم يطالب بثأره ... وخبر هذه الأبيات أن رجلا من عبد القيس كان يقال له ابن مية ، وكان جاراً للزبرقان بن بدر ، فقتله رجل من بنى عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة فى جوار الزبرقان ، وكان الذى قتله يقال له هزال ، قتله بموضع يقال له ذو شبرمان ، فحلف الزبرقان ليقتلن هزالا . وقالت امرأته هذه الأبيات . ثم سعت بنو سعد فى القصة حتى أصلحوها وفدى ابن مية ، ثم مكثوا هنية من الزمان وخطب هزال إلى الزبرقان أخته خليدة فزوجه إياها ، فلما هاجاه المخبل نعى ذلك عليه فقال :

وأنكحت هزالا خليدة بعدما زعمت برأس العين أنك قاتله
وأنكحته رهوى كأن هجانها مشق إهاب أوسع السلخ ناجله
يضمها تحت الفراش وجاركم بذى شبرمان لم تزيل مفاصله » .

(٢) التكملة من ل . (٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « تتحمل الأخرى » .

ومذموم، إلى غير ذلك من الأنباء السائرة، والأوابد العائرة[1]، التي يُتهادى بها، ويُستطرَف وُقوعُها، ويُتبلَّغُ باستماعها وأدائها. فيقول: متى وردتم عُكاظ وافَيتموها أذلاّء قد اكتسيتم عاراً يُخزيكم ويُلازمكم، فتصير كالمُثْلةِ عليكم، فكأنّ آذانكم قد استُوعِبَ صَلْمُها، عقوبةً لكم بما عاملتم به جارَكم من إحفار وإسلام، حين[2] قُتل في جواركم، واستُبيح مَحْرُماتُه في ذِمَمِكم. ثم قال مستهزئاً ومعيِّرًا: يا جيرانَ ابنِ مَيَّةَ، أنبئوني أنُصْرَتُكم له عَيْنٌ أم ضِمَارٌ، ووفاؤكم بما عقدتم له حَقٌّ أمْ كِذَاب. والعَينُ: ما يَحضُر ويُشاهَد، ولذلك قيل في المثل: «يَدَعُ العينَ ويتبَعُ الأَثَر». والضِّمار: الغائب الذي لستَ منه على ثقة. قال الأعشى:

تُرانا إذا أضمَرَتْكَ البلادُ نُجْفَى وتُقطَعُ منا الرحِمْ

وقوله «تجلّل خِزْيَها عوفُ بن كعب»، يريد: لَبِسَ خِزْيَ هذه الغَدْرَةِ وتغطّى بذمِّها قبائلُ عوفِ بن كعب كلُّها لا أنتم فحسْب، فليس لأعقابها بعدها عُذْرٌ يُقبل، ولا تَنصُّلٌ يُسمَع.

وقوله «وإنكم وما تُخْفون منها»، يريد مَثَلُكم في سَتركم أمرَها، وتقديركم إخفاءها، على انتشارها وذَهابها في الناس، وعلى تَغَشّيكم بدَرَنِها، واستقذار الناس لكم لوسخها، مَثَلُ امرأة شابَ رأسُها ولا خِمَار لها فتختمر، مع مَيلها إلى أن لا يُرَى شيبُها. والمعنى: الأمرُ أظهر مِن أن يُكتَم أو يُدفَن.

(١) المأثرة: السائرة.
(٢) ل: «حتى».

٦٤٤

وقال آخر :

٥— تَوَلَّتْ قُرَيْشٌ لَذَّةَ الْعَيْشِ وَاتَّقَتْ ... بِنَا كُلَّ فَجٍّ مِنْ خُرَاسَانَ أَغْبَرَا

٦— فَلَيْتَ قُرَيْشًا أَصْبَحَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ ... تَعُومُ بِهَا مَوْجًا مِنَ الْبَحْرِ أَكْدَرَا

هذا كلامُ رَجُلٍ قد جَمَّرَهُ الوالِي[1] ، وتبرّمَ بغُربته ، وشَقِيَ بالتّباعُدِ عن أهله ووطنه ، فيقول : تفرَّدَ قريشٌ بالتنعُّم والتلذُّذ ، واستأثرَ بالعيش الطيِّب والنِّعمَةِ الهنيئة[2] ، ورمَتْ بنا مرَامِيَ مُنْكَرَةً لا راحةَ معها ، ولا طائلَ فيها ، وسَدَّتْ طُرُقَ المَفَاوز الغبْر التي لا تُسْلَكُ ولا تُعْبَرُ ، بينها وبين أهلِ المشرق ، وبِوَدِّى[3] أن تبيت قريشٌ على ليلةٍ تُفضِى بها صبيحتُها إلى أنْ تُسْلِمَها إلى مَوْجٍ أكْدَرَ ، يجرُفُها إلى البحر ويغرّقها . وهذا مثل ، والمعنى : أتمنَّى أن تشملها بليَّةٌ تُفنيها وتُرِيحُ العِباد والبلادَ منها . والكَدَر : نقيض الصَّفاء . ويقال : عيشٌ أكْدَرُ ، وقد كَدِرَ . وجعل الموجَ كذلك تهويلا ، وتكثيراً لماء بحره . وقوله « ذاتَ ليلةٍ » يريد السَّاعةَ التي يكون فيها الليلةُ المطلوبة . وعلى هذا قولك : فعلْتُ كذا ذات العشاء ، يريد الساعةَ التي فيها العِشاء . والمعنى : أصبحَتْ منّا على هذه الحالة قُرَيْشٌ ، أي حصلَتْ من ليلتها على صَبَاحٍ هكذا .

---

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم فى أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر .

(٢) ل : « والنعمة الهنيئة » .

(٣) كذا ضبطت بالفتح فى النسختين . والود والوداد مثلثتان ، كما فى القاموس .

٦٤٥

وقالت امرأةٌ[١] :

١ــ حَلَفْتُ ولَمْ أَكْذِبْ وإلاّ فكلُّ ما مَلَكْتُ لِبيتِ اللهِ أُهدِيه حافِيَهْ

٢ــ لَوَ انَّ المَنايا أعْرَضَتْ لاقتَحَمْتُها مَخافةَ فيه إنّ فَاهُ لداهيَهْ[٢]

٣ــ فَمَا جِيفَةُ الخِنزيرِ عِنْدَ ابنِ مُغْرِبٍ قَتَادَةَ إلا ريحُ مِسْكٍ وغَالِيَهْ

٤ــ فكَيفَ اصطباري يا قَتَادَةُ بعدما شَمِمْتُ الذي مِنْ فِيكَ أَنْأَى صِمَاخِيَهْ

قولها « ولم أكذب » في موضع الحال أي حلفتُ صادقةً في خبَري ، وإلاّ فما أملكه لبيتِ الله ــ تعني لمن حول بيت الله ، فحذَف المضافَ ــ أُهديه إليه بنفسي حافيةً لاحِذَاءَ لي . فقولها «أُهْدِيه» ، يجوز أن يكون في موضع خبر المبتدأ ، كأنّها قالت : وإلاّ فما أملكه أهديهِ لبيت الله حافية ، أي في هذه الحال . ويقال : أهديْتَ إلى البيتُ وللبيت هَدْياً ، إذا تقرَّبتَ فيه بقُربان . واللام من «لبيت الله» على هذا يتعلّق بأهْديه . ويجوز أن يكون لبيت الله خبر المبتدأ . وأهديه إن شئتَ كان مستأنفاً ، وإن شئت كان خبراً ثانياً ، وإن شئت كان بَدَلا .

وقولها « لو أنَّ المنايا أعرَضَت » أي مكّنت من النَّظر إلى عُرضِها ، أي إلى الجانب الذي تجيء منه «لاقتحمتُها» ، أي لوَقَعتُ فيها وصرت في قُحمَتِها .

وانتصب « مَخافَةَ فيه » على أنّه مفعول له .

وقولها « فما جِيفة الخِنزير » تُريد : ما رائحة جِيفة الخنزير إلاّ ريحُ مِسكٍ لأنّ الحدَث يشبَّه بالحدَث ، والعينَ بالعين .

---

(١) التبريزي : « وقالت امرأة تهجو قتادة بن مغرب اليشكري ، وهو زوجها » . وقتادة بن مغرب : شاعر من شعراء الدولة الأموية كان معاصرا لزياد الأعجم ، وكانت بينهما مهاجاة . انظر الأغاني (١٠ : ١١٢ / ١٤ : ١٠٠ ، ١٠٣) والشعراء ٣٩٦ . ومغرب بضم الميم وسكون الغين ، ويقال بفتح الغين وكسر الراء المشددة ، كما ذكر ابن قتيبة في الشعراء .

(٢) التبريزي : « إن فيه » ، فإن صحت كان معناها إن في فيه .

وقولها « فكيف اصطبارى يا قتادةُ » ، يريد : كيف أتكلّف صَبْرًا على مجاورتك والسكونِ معك . بعد ما بُليتُ به من بَخَرِكَ ونَتْنِ فَمك، الذى أفسد علىَّ آلةَ الشَّمِّ والسّمع . ومعنى أنأى صِمَاخيه ، أى أفسدَه . والصِّماخُ : ثَقْب الأذن الذى يُفضِى إلى الرأس . وآلة الشَّمِّ الأنفُ دونَ الأذن ، ولكن تريد أنه فَسَدَ بمجاورته .

٦٤٦

وقال عبد الله بن أوْفَى الخُزاعِى[(١)] :

١ — نَكَحْتُ ابنةَ المُنتَفَى نَكْحَةً ... على الكُرْهِ ضَرَّتْ ولم تَنفَعِ[(٢)]

٢ — ولم تُغْنِ مِن فاقةٍ مُعْدِمًا ... ولم تُجْدِ خيرًا ولم تَجْمَعِ[(٣)]

٣ — مُنَجَّذَةٌ مِثلَ كلْبِ الهِرَاشِ ... إذا هَجَعَ النَّاسُ لم تَهْجَعِ

٤ — مُفرِّقةٌ بينَ جِيرانِها ... وما تَستَطِعْ بينهم تَقطَعِ

٥ — بقولِ رأيتُ لِمَا لا تَرَى ... وقِيلِ سَمِعتُ ولم تَسْمَعِ

قوله « على الكُره » فى موضع الحال من نَكحْتُ . وقوله « ضَرَّتْ » من صفة نَكْحَةً ، وكذلك ما فى البيت الثانى من الجُمَل كلٌّ فى موضع الصِّفة

(١) التبريزى : « فى امرأته » . ثم قال فى نهاية تفسير الأبيات : «ويقع فى بعض النسخ هذه الأبيات منسوبة إلى أبى الهندى ، قالها فى امرأته . وأول البيت :

* نكحتُ بِشَهْبَنْذَقٍ نكحةً *

وشهبنذق ، ذكرت فى القاموس ، ولم تذكر فى اللسان ولا فى معجمى البلدان ، قال فى القاموس : « شهبنذق : بلد » . وعبد الله بن أوفى الخزاعى لم نعثر له على ترجمة . والأبيات ٣ ، ٧ ، ٩ فى اللسان (قعد) منسوبة إلى عبد الله .

(٢) التبريزى : « المنتصى » بالصاد المهملة . و « ولم تنفع » هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تنفع » .

(٣) ولم تغن ، كذا فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تغن » .

لها . فيقول : نكَحْتُ هذه المرأةَ مُكْرَهًا نكحةً ضارَّةً غير نافعةٍ فى شىء من الوجوه ، فما أغنَتْ من عُدْمٍ عديمًا ، ولا أنالت خيراً ، ولا جمَعَت شملاً . وحذَف مفعول « ولم تجمع » ، لأنّ المراد مفهوم .

وقوله « منجِّذَة » من الناجذ ، وهو ضِرْس الحِلْم . والنواجذ : أربعةُ أضراس ، وقال بعضهم : هى الضَّواحك ، محتجًّا بحديث النبىّ صلى الله عليه وسلم « أنه ضحك حتى بدَت نواجذُه » . ويقال : نَجَّذَ فلانًا الخطوبُ ، إذا أحكمَته . وقال :

* ونَجَّذَنى مداوَرةُ الشُّؤونِ[1] *

فيقول : إنها قد جرَّبَتْ ومُلَّ منها ومَلَّتْ . وقوله « مثل كلب الهِرَاش » يعنى فى خَلْقها وخُلُقها . ومعنى « إذا هجع الناس لم تهجع » ، يصفُها بأنها تمشى بالنَّمائم . ولذلك قال الآخر[2] :

قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهمُ حَدَجوا قَنافذَ بالنميمةِ تَمزَعُ

لأنّ القُنفُذَ لا ينام بالليل . فيقول : هى بوشايتها تفرِّق بين الخُلَطاء ، وتُقطِّع الوُصَل والأواصرَ بينهم .

ولك أن تنصِبَ « منجذة » و « مفرقة » على الحال ، ولك أن ترفعهما على الاستئناف . وقوله « وما تستطع » شرطٌ وجزاء ، والمفعول محذوف ، فهو كقولك : ما تُطِقْ تَفعل .

فأمّا قوله : بقولِ رأيتُ وقِيلِ سمعتُ ، فالباء تتعلق بقوله تَقَطّع . والمعنى أنها تُباهِتُ وتُكابِر ، وتتزَيّد فى القول وتُجاهر ، فتدَّعِى مشاهدةَ ما لا تشاهدُه ،

---

(١) لسحيم بن وثيل الرياحى فى الأصمعيات ٦ طبع المعارف .
(٢) صدره : * أخو خمسين مجتمعاً أشدى *
(٣) هو عبدة بن الطبيب ، فى المفضلية ١٤٧ .

وسَمَاعَ ما لا تدركُه. وهذا زائدٌ على ما قاله الآخر حين نَفَى هذه الطريقةَ، وهو:

وليست مِن اللائى يكون حديثُها أمامَ بُيوتِ الحىِّ إنَّ وإنَّما[1]

ورواه بعضهم:

تقول رأيتُ لِمَا لا تَرَى وقالت سمعتُ ولم تسمعِ

والذى رويناه أحسنُ تلاؤمًا وأقربُ.

٦ – فإنْ تَشْرَبِ الزِّقَّ لا يُرْوِها وإنْ تأكُلِ الشاةَ لا تَشْبَعِ

٧ – ولَيْسَت بتارِكَةٍ مَحْرَمًا ولو حُفَّ بالأسَلِ الشُّرَّعِ[2]

٨ – ولو صَعِدَتْ فى ذُرَى شاهِقٍ تَزِلُّ بها العُصْمُ لم تُصْرَعِ[3]

٩ – فبِئسَت قِعادُ الفَتَى وحدَها وبِئْسَت مُوَفِّيَةَ الأربَعِ

مَحْرَمًا، أى حَرَامًا. والحُرْمة: ما لا يَحِلُّ انتهاكُه، وكذلك المحارم. وفى المثل «لا بُقْيَا للحَمِيَّة بعدَ الحرام» أى عند الحُرمة. وهو ذو مَحْرَم وحُرْمةٍ فى القرابة. والشُّرَّع: جمع شارع، ويقال: أشرَعت الرُّمحَ قِبَلَهُ فَشَرَع. وصفَها بالنميمة وشِدَّة الحِرص على تناول المحرَّم ولو انتزعَتْه من بين الأسِنَّة. ثم وصفها بالتجليح[4]، وحُسن التنقيح[5]، والحِذق فى التوصُّل إلى الممنوع، ولو احتاجت إلى أن ترقَى فى مَصاعِد الجبال، ومدارج المضاب المُعجِزةِ للعُصْم.

وقوله «فبِئست قِعادَ الفَتَى وحدَها» انتصب قِعَادَ وموَفِّيَةَ على التمييز،

(١) لحميد بن ثور، فى ديوانه ١٨ طبع دار الكتب.

(٢) فى اللسان: «المشرع».

(٣) بها، أى بالذرى. وفى الأصل: «تزل به»، وأثبتنا ما فى ل والتبريزى.

(٤) التجليح: الإقدام الشديد، والتصميم فى الأمر والمضى.

(٥) فى اللسان: «كل ما نحيت عنه شيئاً فقد نقحته». والتنقيح أيضاً: الإصلاح وإزالة العيوب. وهذا ما فى ل. وفى الأصل: «وحسن التقبيح».

لأنه وإن كان معرفةً فى اللفظ ، فلا اختصاصَ فيه . ويُروَى بالرّفع فى الموضعين . فإذا نصبْتَ فهو كقولك : بئست ربَّةَ البيت هندٌ . وإذا رفَعْتَ فهو كقولك : بئست دارُ الكافرِ النارُ . وفى القرآن : ﴿ ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقِين ﴾ . والمذمومة بئست فى الوجهين محذوفة . وانتَصَب «وحدَها» على المصدر . فيقول : هى مذمومة فى النساء تفرَّدت أو اجتمعت مع ثلاثٍ أُخر . والقِمادُ والقَمِيدة واحدةٌ ، ويقال : ليست له قَميدةٌ تَقْمِدُه ، أى امرأة تعزُّبُه ، أى تزيل عُزْبتَه .

وحُكى أنّ الأصمعى ألقَى على أصحابِه يومًا هذا البيت ، وهو :

واحدةٌ أعضَلَكم شأنُها فكيفَ لو قُمتَ على أربَعِ

[أربع[٢]] يعنى النساء .

٦٤٧

وقال بعضُ آل المهلَّب[٣] :

١ – قومٌ إذا أكلوا أخفَوْا كلامَهمُ واستَوثَقوا مِن رِتاجِ البابِ والدارِ

٢ – لا يَقبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارِهِمِ ولا تُكَفُّ يَدٌ عن حُرْمةِ الجارِ[٤]

معناها ظاهر ولا إعراب فيهما . والقَبَس : الشُّعلة من النار . والقابِس طالب النار وآخذها ، ويقال : قبَسْتُ النار واقتبستَها وأقبستَها وأقبسَنيها فلان . والمِقباس نحوٌ من القبَس . والرِّتاجُ : الغَلَق . ويقال : رتجت الباب وأرتجته .

---

(١) ابن جنى : « وذلك تعريف الجنس ، لا يخص واحداً بعينه ، فضارع بشياعه النكرة ، ولأجل ذلك ما كان أسد وهو نكرة كأسامة وهو معرفة ، وغلوة وهو معرفة كغدوة وهى نكرة وكذلك ثملت وثمانة . وهو كثير فاعرفه لطيفاً » .

(٢) التكلة من ل . وفى التنبيه لابن جنى : « أى لو تزوجت أربع نسوة » . وانظر مجالس العلماء ٣٣ وطبقات الزبيدى ٢١٦ والمزهر ٢ : ٣٧٩ .

(٣) اسمه عبد الله بن عبد الرحمن ، و لقبه أبو الأنواء ، كما ذكر التبريزى رواية عن دعبل .

(٤) تكف ، بالتاء فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « يكف » بالياء .

٦٤٨

وقال آخر :

١ ــ كاثِرْ بِسَعْدٍ إنَّ سَعْدًا كثيرةٌ ولا تَبْغِ مِنْ سَعْدٍ وَفَاء ولا نَصْرا
٢ ــ ولا تَدْعُ سَعْدًا للقِراع وخَلِّها إذا أَمِنَتْ وَنَعْتَها البَــلَدَ القَفْرا
٣ ــ يَرُوعُكَ من سَعْدِ بن عَمْرٍو جُسُومُها وتَزْهَــدُ فيها حِينَ تَقْتُلُها خُبْرا

كاثِرْ : أمرٌ من كاثرتُه ، إذا غلبتَه بالكَثْرَة ، ويقال : كاثرته فكثَرتُه أكثُره بضم العين . وعلى هذا يجىء هذا البناء ، سواء كان مفتوحاً فى الأصل أو مضموماً أو مكسوراً ، إلاَّ أن يكون البناء معتلاً ، فإنَّه يُترك على حاله . يقال باكيته فبكَيْتُه أبكيه لا غير . وذلك لئلاَّ يلتبس بنات الياء ببنات الواو . وقولُه: « ونَعْتَها البَلَدَ القَفْرَا » ، يصفُهم بالسَّلامة فى حال الأمن ، وبحُسنِ تصرفهم فى فُنون القول ، وأنَّ لهم المنظرَ الحسن دون المَخْبَرَ ، ثم لا وفاء لهم فى الذِّمم والعُقود ولا نصرةَ فى القِراع عند الحروب . ومعنى يَروعُك يُعجبك . يريد : اعطُوا البَسْطَةَ فى الأجسام ، فإذا خَبَرْتَهم صَغَّرَهُمُ الخُبْر ، فأورثَكَ الزُّهدَ فيهم .

ويقال : لى بهم خُبْرٌ وخِبْرَةٌ .

٦٤٩

وقال آخر :

١ ــ أَعارِيبٌ ذوُو فَخْرٍ بإفْكٍ وأَلسِنَةٍ لِطَافٍ فى المَقَالِ
٢ ــ رَضُوا بِصفاتِ ماعَدِمُوهُ جَهْلاً وَحُسْنُ القَوْلِ مِنْ حُسْنِ الفَعَالِ

يقول : إنَّهم يفتخرون بمفاخِرَ مأفوكة مكذوبة[1] ، ولهم ألسنةٌ يلطِّفون بها ،

(١) مأفوكة ، من الإفك ، وهو الكذب .

ويصوِّرون الباطل من مفاخِرِهم بصُورة الحق ، فهم أصحابُ مَقَالٍ لا فِعالٍ ، وأربابُ كَذِبٍ وزُورٍ ، لا حَقٍّ وصِدْقٍ ، ولجهلهم يرضَوْن من أنفسهم ولها بأنْ يصِفُوها بما هو معدومٌ فيهم ، وقَنِعُوا بحُسْن الصِّفات من أنفسهم بقولهم ، وإنْ عَدِمُوا شهادةَ الأشهاد على دعواهم ، اعتقاداً منهم أنَّ القولَ يغنى عن الفعل ، وأن الخبرَ يُكتفَى به عن الخِبرة ، وأنَّ الكرم فى الدَّعاوِى لا فى الحقائق .

٦٥٠

وقال مالكُ بنُ أسماء[1] :

١ـ لو كُنتُ أُحمِلُ خمراً حِينَ زُرْتُكُمُ ... لم يُنكِرِ الكَلْبُ أنِّى صاحِبُ الدَّارِ[2]

٢ـ لكنْ أتيْتُ وريحُ المِسْكِ تَفْغَمُنى ... وعَنْبَرُ الهِنْدِ مَشْبُوباً على النَّارِ[3]

٣ـ فأنكرَ الكَلْبُ رِيحِى حِينَ أبصَرَنى ... وكانَ يَعرِفُ رِيحَ الزِّقِّ والقَارِ

قوله « تفغمنى » ، أى تسدُّ خَياشيمى وتملؤها . ويقال : الرِّيح الطيِّبة تَفغَم المزكوم[4] . وقوله « مشبوبا على النَّار » ، يقال: رأيتُ شَبَّةَ النَّار ، أى اشتعالها ، وقد شَبَبْتُها . وتوسَّعوا فيه فقالوا : فلانة يَشُبُّها فَرْعُها ، إذا أظهَرَ بياضَ وجهها سوادُ شعرها . وانتصب « مشبوبا » على الحال . ومعنى الأبيات ظاهرٌ .

---

(١) قال دعبل : بل قالها عيينة بن أسماء بن خارجة ، وكان زار صديقا له فلما بلغ باب دار بيته شد عليه كلب صديقه فعضه . من شرح التبريزى . والشعر ورد فى الحيوان (١ : ٣٨٠) والبخلاء ٢٠٢ بدون نسبة معينة ، وفى البيان (٣ : ٢١١) لبعض الحجازيين . ومالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاوى : شاعر إسلامى غزل ، وأخته هند بنت أسماء ، زوج الحجاج ، وهو ممن عرف بالجمال فى العرب . ترجم له الأغانى (١٦ : ٤٠ – ٤٦) ومعجم المرزبانى ٣٦٤ – ٣٦٥ واللآلى ١٥ – ١٨ والشعراء ٧٥٦ – ٧٥٨ .

(٢) التبريزى والجاحظ : « يوم زرتكم » .

(٣) التبريزى والجاحظ : « والعنبر الورد أذكيه » .

(٤) الريح بمعنى الرائحة مؤنثة .

٦٥٠

وقال آخر :

١ — جفوتُ الأدْعِيَاء فناصَبَتْنِي مَعَاشِرُ خِلْتُهــا عَرَبًا صِحَاحا

٢ — فقلتُ لَهُمْ وقَدْ نَبَحُوا طَوِيلاً عَلَيَّ فَلَمْ أُجِـبْ لَهُمُ نُبَاحا

٣ — أمِنْهُمْ أَنْتُمُ فأكُفَّ عَنْكُمْ وأدفَعَ عنكُمُ الشَّتْمَ الصُّرَاحا[1]

٤ — وإلاَّ فاحْمَدُوا رَأْيِي فإنِّي سَأَنْفِي عَنْكُمُ التُّهَمَ القِبَاحا

٥ — وحَسْبُكَ تُهْمَةً بِبَرِيءِ قَوْمٍ يَضُمُّ على أخِي سَقَمٍ جَنَاحا

هذه الطَّريقة فى ذَمِّ الأدعياء غريبةٌ حسنةٌ جدًّا . وفيما قال أبو العَتَاهية فى والِبَةَ بنِ الحُبَابِ ما هو مُستَبدَعٌ أيضا ، وهو :

ما بالُ مَن آباؤهُ عَرَبٌ إلا أَلْوَانِ أَصْبَحَ مِنْ بنِى قَيْصَرْ[2]

أكذا خُلِقْتَ أَبا أُسامَةَ أمْ لَوَّنْتَ سَالِفَتَيْكَ بالعُصفُرْ[3]

وأخذه أبو نواس[4] فقال أيضا :

وابنُ الحُبَابِ صليبةً زَعَمُوا ومِن المُحَالِ صليبةٌ أشْقَرْ

ومصدر الدَّعِيِّ الدِّعوة والدِّعاوة . وناصَبَتْنِى ، أى عادَتْنِي ؛ ويقال : ناصَبْتُ فلانًا الحربَ والمداوةَ ، ونصَبنا لهم حَرْبًا . ويقال : العَرَبُ العارِبة

---

(١) فى نسخة الأصل : « فأكف عنهم » ، تحريف .

(٢) فى الأغانى (١٦ : ١٤٤) : « يحسب من بنى قيصر »

(٣) أبو أسامة : كنية والبة بن الحباب ، وفيه يقول عل بن ثابت :

بكت البرية قاطبـه جزعا لمصرع والبـه

قامت لمصرت أبى أسا مـة فى الرفاق النـادبه

وكلمة « أبا » ساقطة من الأصل ، وهى والكلمة التى بعدها ساقطتان من ل . والتحقيق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) كذا . والبيت التالى فى الأغانى منسوب إلى أبى العتاهية مع البيتين السابقين وأبيات أخرى .

والمَرْباء ، أى الخُلَّص . والعرب المستعرِبَةُ : الذين دخلوا فيهم بَعْدُ .

وقوله « عرَبُ الألوان » مثل قولهم: سُرُوجٌ خَزُّ الصُّفَّاتِ[1] .

و « عرَبًا صِحاحا » أى صِحَاحَ الأنسابِ . والنُّباح يُستعمَل فى صَوت التَّيس عند السِّفاد ، وفى الهُدْهُد والظَّبى . ويستعمل فى الشّاعر على طريق الذم. ويقال : نَبَحَه ونَبَح عليه . قال الهُذَلىُّ[2] :

* ولو نبحَتْنِى بالشَّكاةِ كِلابُها[3] *

والمراد بقوله « لمُ نُباحا » : لم أُجِبْ نُباحَهم . « ولهم » تبيينٌ .

وقوله «أمِنْهمْ أنتمُ » فى موضع المفعول من قلتُ ، وانتَصَبَ « فأَكُفَّ » بإضمار أن ، وهو جواب الاستفهام بالفاء . والصُّرَاح : الخالصُ من كلّ شىء ، وكذلك الصَّرِيحُ والصُّرَاحُ . ورجُلٌ صريحٌ : ضدّ هَجِينٍ ، من قوم صُرَحاء . وخَمْرٌ صُرَاحٌ : لم تُشَبْ بمِزاج

وقوله « حَسْبُكَ تُهمَةً » ارتفع على الابتداء ، ويُكتفَى به لأنَّ فيه معنى الأمر ، أى اكْتَفِ . وانتصَب تُهمةً على التّمييز ، ومعنى الأبيات ظاهر.

٦٥٢

وقال مُدْرِكٌ[4] :

١ — لقد كنتُ أرمِى الوَحْشَ وهْىَ بِغِرَّةٍ وتَمكُنُ أحيانًا إلىَّ شَرُودُها

٢ — فقد أمكَنَتْنِى الوَحشُ مُذْ رَثَّ أسْهُمِى وما ضرَّ وَحشًا قانِصٌ لا يَصِيدُها

(١) الصفة للسرج بمنزلة الميثرة من الرحل .

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٨٠) ، وقد سبق فى ص ٣٧٦ .

(٣) صدره : * ولا هرها كلبى ليبعد نفرها *

(٤) التبريزى : « مدرك . أو مفلس بن حصن الفقعسى » . وفى معجم المرزبانى ٣٩١ : « مدرك أو مفلس بن حصن الفقعسى إسلامى » . قال أبو محمد الأعرابى : « وليس نو حد منهما ، وإنما هو لحماد بن المحلف — وهو الربيع — بن عبد الله ، أبو نابل اليربوعى . يقوله لبنى زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى » .

٣– فأعرَضتُ عن سَلمَى وقلتُ لصاحبي   سواءٌ علينا بُخلُ سَلمى وَجُودُها

جعل الوَحشَ كنايةً عن النساء. وإنما يذكر أيامَ شبابِه، ووقتَ صِباه ولهوِه، فيقول: كنت أتعرَّض للنساء وهى مغترَّة وفى غفلةٍ عنِّى، فأصيبُها بمحاسنى وأصطادُها. والشاردةُ منها النافرةُ من الرِّيَب تَسكُنُ إلىّ وتميل نحوى وقتاً بعد وقت، وحالاً بعد حال. هذا فيما مضى من عمرى، والآنَ قد شِختُ فسِهامى قد رَثَّت، وآلاتى كلَّت. وإنما يريد محاسنه عندهُنّ من قبلُ، وأنها قد بارَت، وما كان يُنفِّقُه عندهنّ من نفوذِ نصالِه عند الرِّماء فيهنّ كَلّت. قال: فالوَحش تُمكِّنُنى وأنا لا أرميها وتُكثِبُ لى وأنا غافلٌ دونها. ومعنى تُمكِّننى أنّ النساء تنبسط إلىَّ فلا تنقَبِضُ، وتستنيم فلا تَنفِرُ لأمنِها من توجُّه الرِّيبة. قال: والصائد لا يَضُرُّ الوَحشَ إذا لم يَصِدْها، يعنى نفسَه. وهذا الكلامُ يجرى مجرى الأمثال. والمعنى أنّهنّ لا يَنفِرْن منى، وقد سَكَنَّ إلىّ وأمِنَّ رَمْيِى.

وقوله «فأعرَضتُ عن سَلمَى»، يقول: تركتُ صاحبتى التى كنتُ أولَعُ بها؛ وأستلذُّ ذِكرَها، زاهداً فيها، وقلت لقَرِينى وأليفى: بُخلُها وجودُها يَستوِيانِ علىّ مع إعراضى وضعف حاجتى، وكَلالِ حَدِّى، وعجزِ قُدرتى، وتسلُّط رَثَياتِ الشَّيب علىّ[1]، وتمكُّنِ أبدال اللَّهو منِّى. وقوله «سواءٌ علينا» سواء مصدرٌ فى الأصل، وقد وُصِفَ به.

٤– فلاَ تَحسُدَنْ عَبْساً على ما أصابَها   وذُمَّ حَيَاةً قد تَوَلَّى زَهِيدُها

٥– تَشَبَّهَ عَبسٌ هاشِمًا أنْ تَسَرْبَلَت   سَرَابِيلَ خَزٍّ أنكَرَتْها جُلُودُها

كان الوليد وسليمان ابنا عبد الملك أمهما عبسيّة[2]، فارتفع شأنُ بنى عَبْس

(١) الرثية: الضعف، وانحلال الركب والمفاصل.

(٢) وكذا قال المرزبانى فى معجمه ٣٩١. قال أبو محمد الأعرابى: «وهذا غلط، لأن أم الوليد وسليمان هى ولادة بنت خليد بن جزء بن الحارث بن زهير».

بها ، واختلطُوا بمُدَبِّرى الخلافة وسُوّاس الرعيّة ، والذّابّين عن المملكة . فيقول مخاطباً لصاحبٍ له : لا تحسُدَنّ بنى عَبْسٍ على ما نالته من المُلْكِ والرِّياسة ، وذُمَّ زَمَاناً ساعَدَها على ذلك وأهَّلها له ، وحياة قد توَلَّى زهيدُها فى الشّقاء بها ، ومكابَدة الأوابد منهم فيها . والزّهيدُ : القليلُ الخَيْر ، ويقال : رجُلٌ زهيد وامرأة زهيدةٌ ، وهما القليل الطُّعْم ، يريد أنّ أمرهم خُلْسَةٌ من خُلَسِ الدهر ، وسينقطع منكَرُهُ ويعود إلى دونِ ما يجِبُ له .

وقوله « تَشَبَّهَ عَبْسٌ هاشما » ، يُقال : شبّهْتُه كذا وبكذا ، وتَشَبّه زيد بكذا وكذا . يقول: تنعّموا بلذّات الدّنيا وزخارفها ، وشاركُوا أربابَ الخلافة ووُلاتها فى ملابسهم التى تُنكِرُها جُلودُهم ، ومَطاعِمهم التى لم تَذُقْهَا لَهَواتهم ، فحدَّثوا أنفسهم بأنّهم أمثالُهم ، ووسوسَ الشّيطانُ إليهمْ مماثَلةَ حالِهم لأحوالهم عند الحَفْل ، وفى الخَلَوات . وقوله «أن تَسَرْبَلَتْ» يريد : لأنْ تسربَلَتْ . كأنّهم امُساعَدة الأحوال لهم فَعَلُوا ما فَعَلُوا . وإنما قال « أنكرَتْهَا جُلودُها » لأنّها لم تعتَدْها مِن قَبْل . ومثله قولُ الآخر :

بَكَى الخَزُّ من عَوْفٍ وأنكَرَ جِلدَهُ وضَجَّتْ ضجيجا من جُذَامَ المَطَارِفُ

٦ — فلا تَحْسَبِنَّ الخَيْرَ ضَرْبَةَ لازِبٍ لِعَبْسٍ إذا ما ماتَ عَنْها وَلِيدُها

٧ — فَسَادةُ عَبْسٍ فى الحديثِ نِساؤُها وقَادَةُ عَبْسٍ فى القَدِيمِ عَبِيدُهَا

هُوَ ذا يُسَلِّى صاحبَهُ عما تداخَلَه من الغَيظ على زمانٍ بلغ ببنى عَبْسٍ ما بَلَغ ، فيقول : لا تظُنّنّ أنّ هذه الأمورَ تَجرى على ما تشاهدها سليمةً من الحوادث ، وأنّ الدّولة تمتدُّ لبنى عبسٍ وتَصِير كالواجب لها ، بريئةً من الصّوارفِ ، نقيّةً من الشوائب ؛ فإنّ كلّ ذلك بعَرَضِ الزّوال والتغيُّر ، متى مات مَن تقدموا به ، وهو الوليد بنُ عبد الملك .

وحُكِي عن الحُضَيْن[١] بن المُنذر أنّه قال لبعض بنى عَبْسٍ وقد تنازعا فى شىء: «إنّما أنتم يا بنى عَبْسٍ بِحِرٍ[٢]، فإن ابتلّ ابتللتم، وإن يَبِس يبستم».

وقوله فسادةُ عَبسٍ نساؤُها، يعنى أمَّ الوليد والمتَّصلاتِ بها. هذا فى الحديث زَعَمَ. قال: وفى القديم كانوا بالعبيد، يعنى به عَنترةَ بنَ شَدّاد، لأنّه عَبْسِيٌّ، وكان هجيناً، ولذلك قال:

إنّى امرُؤٌ من خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شَطْرِى وأَحْمِى سَائرِى بالمُنْصُلِ

وقال أيضا:

أنا الهَجِينُ عَــنْتَرَهْ كلُّ امرِئٍ يَحْمِى حِرَهْ[٣]

أسودَهُ وأحمَرَهْ

وهو أحَدُ الفُرسانِ الذين جلَّ أمرُهم، وعظُم شأنُهم.

٦٥٣

وقال آخر:

١ ــ أقولُ حِينَ أرى كَعْباً ولِحْيَتَهُ لا بَارَكَ اللهُ فى بِضْعٍ وسِتِّينِ

٢ ــ مِنَ السِّنِينَ تَمَلَّاهَا بِلاَ حَسَبٍ ولا حَيَــــاءٍ ولا قَدْرٍ ولا دِينِ

أجْرَى جمعَ السلامة فى أن أعرب آخِرَهُ مَجرى جموع التّكسير، وقد جاء ذلك كثيراً. على هذا قولُ الآخر[٤]:

* وقد جاوزْتُ حَدَّ الأربعينِ[٥] *

(١) فى النسختين: «الحصين» بالصاد المهملة، وصوابه بالمعجمة، كما فى التبريزى والمؤتلف ٨٧ وتهذيب التهذيب، والخزانة (٢: ٨٩ ــ ٩٠) والقاموس (حضن).

(٢) يعنى أن قدرهم ومنزلتهم، إنما هو بنسائهم وصهرهم فى الخلفاء.

(٣) الحر: حر المرأة. والرجز فى اللسان (حرح).

(٤) هو سحيم بن وثيل الرياحى. الأصمعيات ٦ طبع المعارف.

(٥) صدره: * وماذا يدرى الشعراء منى *

وقوله :

* وابنُ أبىَ أبىَّ مِن أبيِّين[١] *

وقوله « من السِّنين » تعلّق بقوله فى بِضْعِ . والبِضْعُ مُختلفٌ فيه ، فمنهم من يقول : يتناول ما بين الثّلاثة إلى العشرة كُلَّه ، ومنهم من يجعله متناولاً النِّصف من ذلك . والأوّل هو الصحيح . وقيل فى قوله : ﴿ بِضعَ سِنين[٢] ﴾ إنَّها سبعة ، وقد حُكِىَ الفتحُ فى الباء منه أيضاً ، وأصله من القَطْع .

وقوله « تَمَلّاها » عاش مُلَاوَتَها . والمَلَاوَةُ تُكسر ميمهُ وتُضَمّ . ومنه المَلِىّ من الدّهر ، وقولُهُم : تملَّيتُ حَبِيبًا .

٦٥٤

وقال عُوَيْفُ القَوَافى[٣] :

١ — وما أمُّكُمْ تحتَ الخَوَافِقِ والقَنَا ... بِثَكْلَى ولا زَهْراءَ من نِسْوَةٍ زُهْرِ

٢ — أَلَسْتُمْ أقلَّ النّاسِ عِندَ لِوائِهِمْ ... وأكثَرَهُمْ عِنْدَ الذَّبيحَةِ والقِدْرِ

وصفهم بأنَّهم يتصوّنون ، فلا يبتذلون أنفسَهم فى الحروب ، فأمَّهاتهم تَثْكَلهم تحتَ الأعلام إذا خفقَت ، والرِّماح إذا أُشرِعت . وقوله « ولا زهراء » ، أى ليست هى بكريمةٍ فى نفسها . وهذا ضدُّ قول الآخر[٤] :

* أمُّكَ بيضاء من قُضَاعَةَ[٥] *

---

(١) البيت لمنى الأصبع العدوانى فى المفضليات ١٦٠ طبعة المعارف الثانية . وصدره :

* إنى أبى أبى ذو محافظة *

(٢) من الآية ٤٢ فى سورة يوسف : « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٧٢ ص ٢٦٢ .

(٤) هو ابن قيس الرقيات . ديوانه ٨٣ . وقد سبق فى ١٥٠ ، ٤١٩ .

(٥) تمامه : أمك بيضاء من قضاعة فى الـ * بيت الذ يستكن فى طنبه .

يريد بياض الكَرَم لا بياضَ اللون .

وقوله : «أَلْستم أذلَّ النّاس» ، ويقرِّرُهم على لؤمهم وتأخرهم فى الحروب ، وقلّتهم عند خَفْق البنُود ، وعند عقدها للرِّياسات ؛ وعلى أنَّهم يكثُرون فى المآدب ، ويتزاحمون على الذَّبائح . وإنَّما يُقرِّر بألَيْس وبألَمْ وما أشبهه فى الواجب ، لأنَّ الاستفهامَ كالنَّفى ، والنَّفىُ إذا دخلَ على النَّفى صار واجبا ، وقد مرَّ الكلامُ فيه فيما تقدَّم .

٦٥٥

وقال آخر :

١ ــ ونُبِّئتُ رُكْبانَ الطَّرِيقِ تَنَاذَرُوا ... عَقِيلاً إذا حَلُّوا الذِّنَابَ فَصَرْخَدا

٢ ــ فَتًى يَجْعَلُ المَحْضَ الصَّرِيحَ لِبَطْنِهِ ... شِعَارًا ويَقْرِى الضَّيْفَ عَضْبًا مُهَنَّدا

قوله « تناذروا » ، أى أنذر بعضُهم بعضا ، وموضعه من الإعراب نصبٌ على أن يكون مفعولا ثالثاً لنُبِّئتُ . والذِّناب وصَرْخَدُ : موضعان . والمعنى أنَّ السَّفْر والسَّابلةَ والمارَّةَ قد عرَفوا عقيلا بالغَدر والخِيانة ، والطَّمع فى مال الضَّيف والجار والحَليف ، فإذا نَزَلوا هذين الموضعَين وهما مما يقاربُ محلَّ عَقِيلٍ ومأواه ، حذَّر بعضُهم بعضاً ، وتواصَوا بالاحتراز منه ، ثم قال : هو فتًى يملأُ بطنَه من خالص المحض ، فالمحضُ شِعارُ بطنه ، يليه ويَشحَنه ويلتَبس به ، ويعِدُّ لقِرَى ضَيْفِه سيفاً قاطِعاً . والأصل فى الشِّعار ما يَلِى الجَسدَ من الثياب ، ثم تُوُسِّعَ فيه فقيل : أشعرَ قلبى همًّا أى أبطَنَهُ . وحكى بعضُهم : هَنَّدتُ السَّيفَ : شحذته وأحْددتُه . والمشهور نسبته إلى هِنْدٍ[1] .

(١) كذا فى النسختين . وفى اللسان أيضا : « وهند : اسم بلاد » . ومن عجب أنه لم يعقد للهند رسم فى معجمى البلدان .

وقد استعمَلَ القِرَى على هذا غيرُه فقال ، وهو أبو وَجْزَةَ :

ذاكَ القِرَى لا قِرَى قَوْمٍ رأيتُهُم يَقْرُونَ ضَيْفَهُم المَلوِيَّةَ الجُدُدَا[1]

يعنى السِّياط .

٦٥٦

وقال آخر :

١ — أناخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَنِى رِياحٍ مَطِيَّتَـــهُ فأقْسَمَ لا يَرِيمُ

٢ — كَذَلِكَ كلُّ ذِى سَفَرٍ إذا ما تَنَاهَى عِنْـــدَ غَايَتِهِ مُقِيمُ

يقال : أنَخْتُ البعير فبرك ، ولا يقال فناخَ . وهذا من باب ما استُغنى به عن غيره ، ومعنى لا يريم لا يبرح .

وقوله « كذلك » فى موضع الحال ، لأنّ « كلُّ ذى سَفَرٍ » مبتدأٌ ، ومُقِيمٌ خَبَرُهُ ، كأنه قال ، وكلُّ مسافر إذا ما انتهى إلى غايته يُلقِى عَصَاهُ ، ويَحُطّ رَحْلَهُ . كذلك ، أى مثل إقامة اللُّؤم فيهم .

وهذا المعنى قد نقله البحترىُّ إلى المدح فيهم :

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألقى رحْلَهُ فى آلِ طَلحةَ ثم لم يتحوَّلِ[2]

٦٥٧

وقال آخر :

١ — إذا بَكْرِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلاماً فَيَا لُؤْماً لِذَلِكَ مِنْ غُـــلامِ

٢ — يُزَاحِمُ فى المَآدِبِ كُلَّ عَبْدٍ ولَيْسَ لَدَى الحِفَاظِ بِذِى زِحَامِ

(١) كذا فى ل والكامل ١٠٧ ليبسك ، وهى جمع جديد . وفى الأصل : « الجددا » .

(٢) فى الأصل : « طلحة ثم يتحرك » ، صوابه فى ل .

قوله « يا لُؤمًا » لفظه لفظ النّداء والمعنى معنى التعجُّب ، أى ما أشدَّه من لؤم . ومثله : ﴿ يا حَسْرَةً على العِباد ﴾ ، وقولُ الشّاعر[1] :

فيا شاعِراً لا شاعِرَ اليومَ مثلَهُ ... جريرٌ ولـكنْ فى كُلَيْبٍ تَوَاضُعُ

وقوله «يُزاحم فى المآدب» يشبه قول حُوَيف :

أَلَسْتُمْ أقلَّ النّاسِ عند لوائِهِم ... وأكثرَهُمْ عند الذّبيحةِ والقِدْرِ[2]

وإن كانَ زاد عليه لمّا جَعَل مزاحمتَه على الطّعام مع العبيد . وقوله « من غُلَامٍ » أى لذلك الغُلام من بين الغِلْمانِ . وواحد المآدِب مأدُبة[3] ، والفِعْلُ منه أَدَبْتُ .

٦٥٨

وقال آخر :

١ ـــ رِدِى ثُمّ اشْرَبِى نَهَـلًا وعَلاً ... ولا يَغْرُرْكِ أقوالُ ابنِ ذِيبِ[4]

٢ ـــ فلو كانَ القَلِيبُ على إِحَامٍ ... لأَسْهَـلَ وَطْؤُها شَـفَةَ القَلِيبِ

يشجعها على الورود والصَّدَر ، وشرب العلل بعد النَّهَـل . وعلى ألّا تحتفل بتهدُّد ابنِ ذئبٍ وإرعادِهِ وإبراقِه ، فإنّه قولٌ لا فِعلَ معه ، وقعقعةٌ لا وَقْعَ بعدَها . وكانَ التّخاصُمُ فى بئر ، فلذلك قال ما قال .

وقوله « فلوكان القليب على إحام » استخفافٌ بهم وإهانة . ومعنى أسْهل : وجدَها سهلا ، ويعنى بوطئها وطء الإبل ، ولم يَجرِ لها ذكر ، ولـكنّ المرادَ مفهوم: والمعنى : كانت تَجِدُ حَرفَ البئرِ سهلاً لا حَزْناً . يقول: لو كان موضع البئر

(١) هو الصلتان العبدى . الخزانة (١ : ٣٠٤ ـ ٣٠٨) . وقد سبق فى ٥٣٨ .

(٢) البيت الثانى من الحماسية ٦٥٣ ص ١٥٢٩ .

(٣) المشهور فى « المأدبة » ضم الدال . وأجاز بعضهم الفتح .

(٤) التبريزى : « ولا تغررك » .

إحامُهم ما جَسَروا على المنع ، ولا على التَّمانع ، ولا كان يتعقَّب ورودَها إنكارٌ ولا وَبال .

٦٥٩

وقال آخر :

١ – إنْ تُبغضونى فقدْ أسْخنتُ أعيُنَكمْ وقَدْ أتيتُ حرَاماً ما تَظُنُّونَا[1]

٢ – وقد ضَممْتُ إلى الأحشاء جارِيَةً عَـذْباً مُقَبَّلُهَا مِمَّا تَصُـونُونَا

يقول : لا مَلَامَ عليكم فى بَغضائكم لى ، فقد نِلْتُ منكم ما استحققتُ به ذاك . وانتصَب « حراماً » على الحال من أتيتُ ، وما تظنُّونا فى موضع المفعول ، والضمير العائد من الصِّلة محذوف . وقوله « مما تصونونا » ولم يَقل مِمَّن ، لأن القَصْد إلى الجنس و « ما » للصِّفات والأجناس ولما دون النَّاطقين . فأمّا قولُه « تظنُّون » فيجوز أن يكون من غالب الظّنّ ، ويجوز أن يكون من اليقين .

٦٦٠

وقال آخر :

١ – يا قَبَّحَ اللهُ أقواماً إذا ذُكِرُوا بَنِى عُمَيْرَةَ رَهْطَ اللُّؤْمِ والعَارِ

٢ – قَوْمٌ إذا خَرَجُوا مِنْ سَوْءَةٍ وَلَجُوا فِى سَوْءَةٍ لم يُجِنُّوها بأسْـتَارِ

المنادَى فى قوله « يا قَبَّحَ اللهُ » محذوف ، كأنّه قال : يا قوم ، أو يا ناسُ قَبَّح الله أقواما ، أى أبعدَهم الله . و « بنى عُميرة » انتصَبَ على البدل مِن أقواماً ، والمعنَى فى قوله « إذا ذُكِروا » أىَّ وقتٍ ذُكِرُوا فأبعدَهُم الله . و « رَهْطَ

---

(١) تبغضون ، هو ما فى ل والتبريزى . وفى نسخة الأصل : « تبغضونا » .

اللؤم » انتصَبَ على الذمّ والاختصاص ، والعامل فيه فِعلٌ مُضمَرٌ ، كأنّه قال : أذكُر رَهْطَ اللُّؤم .

وقوله « قومٌ » ارتفَعَ على أنّه خبر المبتدإ ، أى هم قوم إذا خَرجُوا مِن سَوءةٍ ومَخزِيَةٍ ، أى من اكتسابهما وفِعلهما ، دخَلُوا فى مِثلِها أو أسوأ منها وأُخرى لا يتستّرون فيها ولا يستَحيون منها .

٦٦١

يَهْجُو الحَضَرِىَّ ويَمْدَح البدوىّ :

وقال آخر :

١ ــ جَوّابُ بَيْدَاءَ بها عَرُوفُ[1]

٢ ــ لا يأكُلُ البَقْلَ ولا يَرِيفُ

٣ ــ ولا يُرَى فى بَيْتِهِ القَلِيفُ

٤ ــ إلاّ الحَمِيتُ المُفعَمُ المكشوفُ

٥ ــ للجارِ والضَّيْفِ إذا يَضِيفُ

٦ ــ والحَضَرِىُّ مُبْطَنٌ مَمْلُوفُ[2]

٧ ــ للفَسْوِ فى أثوابِهِ شَفِيفُ

٨ ــ أعجَبُ بَيْتَيْهِ له الكَنِيفُ

٩ ــ أوطَايَةٌ مُبْقِلَةٌ وصِيفُ[3]

(١) رواه التبريزى : « عزوف » ، وقال : « يقال رجل عزوف وعزوفة وعزيف » . وفى اللسان (ريف) : « غروف » ، تحريف .

(٢) التبريزى : « بطنه مملوف » .

(٣) التبريزى : « أوطانه » ، ثم قال : « ويروى : أوطاية مبقلة وريف » .

قوله « جوَّابُ بيداء » يصف به البدوى ، أى قطَّاع المَفاوز بليغ المعرفة بها . ويقال : رجل عَرُوفٌ وعَرُوفَةٌ وعَرِيفٌ ، أى عَارِفٌ . ويقال من العِرْفِ بكسر العين ، وهو الصبر : عارِفٌ وعَرُوفٌ أى صَبُورٌ ؛ فيجوز فيه الوجهان . ويُرْوَى : « جوَّابُ بيدٍ أَيِّهٌ عَرُوفُ » ، والأَيِّهُ : الصَّيِّت المتيقظ الحىُّ القلبِ والنَّفس : والبِيد : جمع بيداء .

وقوله « لا يأ كل البَقل » ، أى هو قَوِىٌّ صُلْبُ العُروق ، لأنَّ البقول تُرخِى الأعصاب . و « لا يريف » أى لا يدخل الحَضَر . والرِّيفُ : الخُضْرة . وقال الدُّرَيْدىّ : الرِّيف : ما قَارَبَ السَّوَادَ من أرض العرب ، والجميع أريافٌ ورُيُوف . وترَيَّفَ القومُ ورافوا : دَنَوْا من الرِّيف .

وقوله : « ولا يُرَى فى بيتِهِ القَليفُ » أى طعامُه طعام البدويِّين : اللبنُ والتَّمر ، لا الخُبز . وقُلَافَةُ الخُبز وقَليفُه : الذى يَلزَق منه بالتَّنُّور .

وقوله : « إلا الحَمِيتُ » بدلٌ من القَليف ، وهو نِحْىُ السَّمْن . والمُفْعَم : المملوء . وجَعَلَهُ مكشوفاً للجار والضَّيف ليدلَّ على سَخائه بما فيه ، ولا سِتْرَ عليه ولا حجابَ دونه ، فاللام مِن قوله للجَار يتعلق بالمكشوف .

وقوله « والحَضَرِىُّ مُبْطَنٌ مَملُوف » ، أى يُطيِمُه ما يأ كله ، ويرتَع فيه فيَنِهَمُ فيه ويتجاوز حدودَ أ كلِ النّاس حتَّى يصيرَ مملوفاً كما تُعلَف الدوابُّ للسِّمَن . والمُبْطَن : المُوسَعُ البَطْن . وقد بَطِن بَطَناً ، أى عَظُم بطْنُه ، وأصابتْه البِطْنَةُ . وفى المَثَل : « البِطْنة تُذهِبُ الفِطنة » ، أى كثرةُ الأ كلِ تُحدِث البَلادة ، ورجلٌ بطينٌ ومِبْطَان : عظيم البَطْن . والمُبطَّن : الخَميص البطن . قال :

• فأَتَتْ به حُوشَ الفؤادِ مُبَطَّنًا[1] •

---

(١) البيت لأبى كبير الهذلى ، كما سبق فى ص ٨٨ . وعجزه :

• سُهُداً إذا ما نام ليل الهَوجَل •

وقال مُتمّمٌ :

* فتًى غيرَ مِبطانِ العَشِيّاتِ أرْوَعا[1] *

والشَّفيف : بَرْد ريحٍ في نُدُوّةٍ ، واسمُ تلك الرِّيح الشَّفّانُ .

وقوله « أعجبُ بَيتَيْهِ » أى الذى يأكل فيه والذى يُحْدِثُ فيه . والـكَنيفُ جعلَه أعجبَ إليه لـكثرة اطِّيافه[2] .

والطايةُ : الأرض الفضاء الواسعة . والسِّيفُ : ساحل البحر . وأبقَـلَ المـكانُ : كَثُر بَقْلُه .

٦٦٢

وقال رَبْعان[3] :

١ — إذا كُنْتَ عَمِّيًّا فـكُنْ فَقْعَ قَرْقَرٍ وإلاَّ فـكُنْ إنْ شِئتَ أيْرَ حِمارِ[4]

٢ — فما دَارُ عَمِّيٍّ بِدَارِ خَفَارَةٍ ولا عَقْـــدُ عَمِّيٍّ بِعَقْدِ جِوَارِ

يعنى بالفَقْعِ الـكَمْأة . ويضربُ المثل بهذا فى الذُّلّ فيقال : « أذَلُّ مِنْ فَقْعٍ بِقَاعٍ » ، وذلك لأنه يجْتَنيها من يشاء ، وأضافَهُ إلى قَرْقَرٍ منبِتِه . ويقال : قاعٌ قرقر ، أى مستوٍ . وأتى بالصِّفة لأنّ المرادَ مفهوم ، والمعنى : إذا كنتَ عمِّيًّا فـكُنْ ذليلاً كالفَقْع ، أو شيئاً يُتحامَى ذكره ومنظرُه كذلك العُضو . وأخفرتُه ، إذا نقَضْتَ عهدَه . والمعنى ظاهر . وجعل لا من قوله « ولا عَقْدُ » بدلاً من ما ، ولذلك أدخَلَ الباء فى بِعَقْدِ .

---

(١) صدره فى المفضليات ص ٢٦٥ طبع المعارف :

* لقد كفَّن المنهال تحت ردائه *

(٢) أطاف يطاف اطيافا : تغوط وذهب إلى البراز .

(٣) التبريزى : « وقال ريعان » ويقال ربعان » .

(٤) العمى : نسبة إلى بنى العم ، وهم بنو مرة بن مالك بن حنظلة . اللسان (عم) . وانظر الأغانى (٣ : ٧٣) .

٦٦٣

وقال آخر :

١ – أَرَانِى فى بَنِى حَكَمٍ غَرِيبًا   على قُتُرٍ أَزُورُ ولا أُزَارُ

٢ – أُناسٌ يأكلونَ اللَّحْمَ دُونِى   وتأتينى المَعَاذِرُ والقُتَارُ

قوله « على قُتُرٍ » أى على حرف . ويقال قُتْرٌ وقُتُرٌ . يقول : ليس فيهم تمكُّنٌ ، لقُربتى . والقُتُر والقُطْر والحَرْف والجانب تتقارب . وقد استعمل الحرف استعمال القُتُر ، بل هو أشهر فى هذا المعنى ، وأكثرُ تصرُّفاً ، يقال : هو على حَرْفٍ من أمره ، أى انحراف ، وانحرفَت بهم دُنيام ، ومالى عن كذا مَحْرَفٌ ، أى مَصرِفٌ ومُتنحَّى . وفى القرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ : وإنما وصفهم بأنّ من جاورهم يسيئون عِشرتَه ولا يرون له ما يَراه لهم من قضاء ذِمَامٍ ، وإيجاب حق ، بل يطّرحونه ويُهملونه . وقوله « وتأتينى المعاذرُ » ، أراد ريح عَذِراتهم وأفنيتهم ، فحذف المضاف . « والقُتار » ، أى وتأتينى ريحُ اللحم المشوىّ . وقيل فى المعاذِر : إنها جمع مَعذِرة . والأوّل أبلغ . والعاذر والعاذرة والعَذِرَةُ : الحَدَث ، وقد أعْذَرَ ، أى أحدث . ويرتفع أناسٌ على أنه خبر مبتدإ محذوف ، كأنّه أراد : هم أُناس ، وقد وُصِفوا بجملتين . وقد كان يجب أن يقول : وتأتينى المعاذِر والقُتارُ منهم ، فحذف الضمير ، ويجوز أن يكون « وتأتينى » على الاستئناف .

٦٦٤

وقال آخر :

١ – ما إنْ فى الحَرِيش ولا عُقَيْلٍ   ولا أولادِ جَعْدَةَ مِنْ كَرِيمِ[1]

---

(١) كذا بالخرم فى النسختين . وفى [illegible]

٢ — ولا البُرَصِ الفِقَاحِ بَنِي نُمَيْرٍ ولا المَجْــلَانِ زَائِدَةِ الظَّلِيمِ

٣ — أُولَـئِكَ مَعْشَرٌ كَبَنَاتِ نَعْشٍ رَوَاكِدَ لَا تَسِيرُ مَعَ النُّجُومِ

يعنى بزائدة الظَّليم الخُفَّ ، لأنّه لا يكون للطّير . أى هم زيادةٌ فى النَّاس بمنزلة تلك الزّائدة فى الظّليم .

وقوله «أولئك معشرٌ كبناتِ نعش» ، يريد أنّهم لا ينهضون لاكتساب مكرُمةٍ . ولا يقومون لاجتلاب مَنْقَبةٍ ، فهم لا خيرَ فيهم يلزمون مضاجعَهم كَسَلاً وقِصرَ همّةٍ ، ورِضًى بأدنى الهمّتين وأسقطِ العيشتَيْن . والعرب تسمِّى مَن كان كذلك ضاجِماً وضُجْمِيًّا[1] وضُجَمة . وبنات نعشٍ ليستْ من النُّجوم السَّيّارة ، فلذلك شبَّهه بها .

٦٦٥

وقال رجلٌ من بنى جَرْمٍ[2] :

١ — دَلَفْتُ إِلَى صَمِيمِكَ بالقَوافِي عَشِيَّةَ مَحْفِــلٍ فَهَتَمْتُ فَاكَا

٢ — وصَدَّقَ ما أَقُولُ عَلَيْكَ قَومٌ عَرَفْتَ أَبَاهُمُ ونَفَـــوْا أَبَاكا

الصَّميم : الخالصُ من النَّسب والفخر . وجعل له ذلك على طريق الهُزْء ، فهو كقول الله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ ﴾ . يقول : ما كان من حسَبك خالصا ، ومن نسبك صافيًا لا شَوْبَ فيه ولا لَبْسَ دونَه ، أبطلتُه بقَوافىَّ ، وزيّفتُه حينَ احتفلنا فى المَجمَعة بمَرامِىَّ ، فهتَمتُ أسنانَك ، وأخرسْتُك فى دَعاوِيك . والهَتْم : كسْر الثَّنيَّة من الأصل ، وجعَلَ الفمَ كنايةً عن الأسنان .

---

(١) بضم الضاد وكسرها . ومثله « القعدى » بكسر القاف وضمها .

(٢) التبريزى : « وقال رجل من جرم لزياد الأعجم ، وقيل إنه لزياد الأعجم » . وستأتى ترجمة زياد الأعجم .

أى جعلتُك بحيثُ لا مَعَضَّ لك ، ومَشهَدُنا مشهود[1] ، وأهل التمييز حضورٌ ، وصَدَّقني مَن له القِدمَةُ والسابقة عليك ، وأنت تعرفهم وتَعرِف أوّليّتهم ، وهم ينكرون سلَفَك ، ويُبطِلون دعاويَك .

٦٦٦

وقال زيادٌ الأعجَم[2] :

١ – ومَنْ أنتُمُ إنّا نَسِينا مَنَ انتُمُ وريحُكُمُ مِنْ أىِّ ريحِ الأعاصِرِ

٢ – وأنتمْ أولَى جِئتُم مَعَ البَقلِ والدَّبا فَطارَ وهَذا شَخصُكُم غيرُ طائرِ

٣ – فلَمْ تَسمَعُوا إلّا بِمَنْ كانَ قَبلَكُم ولم تُدرِكُوا إلّا مَدَقَّ الحَوافِرِ

قوله « إنا نسينا مَن أنتمُ » يجوز أن تجعل مَنْ استفهاما ، وقد كرَّره ، وعلَّقَ نسينا قبله ، وإنْ لم يكن من أفعال الشَّكّ واليقين ، لأنه أجراه مَجرى نقيضه ، وهو عرَفتُ وذَكَرتُ ؛ وهم يجرون النظير [مَجرى النَّظير[3]] ، والنَّقيضَ مَجرى النَّقيض . وقد مرَّ له نظائر . ويجوز أن تجعل مَنْ بمعنى الذى . وقد حُذِفَ صِلته[4] ، كأنّه قال : إنّا نسينا الذين هم أنتم . والأوّل أوجَهُ . ونظيرُ الأول[5] عند أصحابنا البَصريّين قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أىُّ الحِزْبَيْنِ أحصَى لِمَا لَبِثُوا ﴾ . وفي باب الذى قوله تعالى : ﴿ تَمامًا عَلَى الَّذِى أحسَنُ[6] ﴾ لأنَّ المعنى مَن

---

(١) هذا الصواب من ل . وفي الأصل : « لا يشهدنا مشهود » .

(٢) زياد الأعجم : أحد شعراء الدولة الأموية ، وقد شهد فتح إصطخر مع أبي موسى الأشعري وطال عمره ووفد على هشام بن عبد الملك . وفي الاشتقاق ٢٠١ عند الكلام على عبد القيس : « ومنهم زياد بن سلمى الذى يقال له زياد الأعجم الشاعر » . ويقال له أيضا : زياد بن سليمان . انظر البيان (١ : ٧١) والخزانة (٤ : ١٩٣) ومعجم المرزباني ١٣٢ والشعراء لابن قتيبة والأغاني (١٤ : ٩٨ – ١٠٥) .   (٣) التكملة من ل .

(٤) كذا في النسختين . والمراد « حذف صدر صلته » .

(٥) في النسختين : « الثاني » والتنظير للأول ، وهو التعليق بالاستفهام .

(٦) هذه قراءة يحيى بن يعمر ، وابن أبي إسحاق ، وهي القراءة التي يستقيم بها الاستشهاد . وقراءة الجمهور : « أحسنَ » بفتح النون ، على أنها فعل . وقال بعض نحاة الكوفة في =

هو أحسن . وقوله « مِن أىِّ ريحِ الأعاصر » ، والأعاصر : جمع الإعصار ، وهو الغُبار السَّاطع المستدير ، وفى المَثَل: «إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً » . وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها تَسُوقُ غَيْثاً ، ولا تَدُرُّ سَحابا ، ولا تُلقِحُ شَجَراً ، فضُرِب المَثَلُ بها لقلَّة الانتفاع بهم . وهذا كما قال الآخر[1] :

وأنتَ على الأدنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ   شَآمِيَةٌ تَزْوِى الوُجوهَ بَلِيلُ

وهم يجعلون الرِّيح كنايةً عن الدَّولة ، فيقال : فلانٌ هَبَّتْ له ريحٌ ، فكأنه جعل دولتهم لا تُجدى ولا تَردّ نفعا ،بل تُتْوِى[2] وتجرّ شَرّا ، وقوله « وأنتم أَولَى جئتم » ، يريد الذين جئتم مع البَقْلِ . والمعنى أن شَرَفكم حديث .

ومثله قول الآخر :

تموتُونَ هَزْلَى فى السِّنين وأنتمُ   أساريعُ تحيا كلَّما نبتَ البَقْلُ

وقوله «فطارَ وهذا شخصُكم غير طائر تضجُّر بهم وتعجُّب من بقائهم ، وعَتْبٌ على الزمان فى استبقائهم .

وقوله «فلمْ تَسمَعوا إلاّ بمن كان قبلكم» يريد أنَّ كلَّ من يُذكَر لكم[3] وعِندَكم فهو سابِقٌ لكم ، مقدَّم عليكم بالزمان والفضل ، فأنتم على السَّاقة لم تُدرِكوا ممَّن أحْرَزَ قصباتِ السَّبْقِ إلَّا مَدَقَّ الحوافر ، ومواطئ الأقدام . جَعَلَهُمْ فَسَاكِلَ ، ومتأخِّرين عند الفضائل .

— تخريجها : يصح أن يكون أحسن هذه اسما ، وهو أفعل تفضيل مجرور بالفتحة صفة للذى وإن كان نكرة ، من حيث قارب المعرفة إذ لا يدخله « أل » ، كما تقول العرب : مررت بالذى خير منك ، ولا يجوز مررت بالذى عالم . تفسير أبى حيان (٤ : ٢٥٥) .

(١) هو طرفة بن العبد ، كما سبق فى الحماسية ٦٠١ ص ١٤٤١ .

(٢) أتواه : أهلكه . وفى الأصل : «تنوى» تحريف . وفى ل : «توبى» .

(٣) فى الأصل : «من يدلكم» ، صوابه فى ل .

٦٦٧

وقال عَمْرو بنُ الهُذَيل[١]:

١ — نحنُ أقَمْنا أمْرَ بَكْرِ بنِ وَائِلٍ ... وأنتَ بِتَأْجٍ ما تُمِرُّ وما تُحْلِي[٢]

٢ — وما تَسْتَوِي أحسابُ قَوْمٍ تُوُرِّثَتْ ... قديمًا وأحسابٌ نَبَتْنَ مع البَقْلِ

تَأْجٌ: اسم ماء. وما تُمِرُّ وما تحلى، أى لا تأتى بحلوٍ ولا مُرٍّ. يصف عَجْزَه وضعفَه، وقعودَه عن المعونة أوانَ الحاجة. وقول زُهَير:

* على صيرِ أمْرٍ ما يُمِرُّ وما يَحْلُو[٣] *

فأمَرَّ فيه بمعنى صار مُرًّا. ويقال فى هذا مَرَّ أيضًا. وقولهم فى المَثَل: «ما أمَرَّ فلانٌ وما أحْلَى» فهو مِثلُ المعنى الذى فى البيت. والمعنى: ما أتى بحلوٍ ولا مُرٍّ. ومرادُ الشاعر فى هذا البيتِ ظاهر، وهو المعنى المتقدِّم.

وقوله «وما تستوى أحسابُ قومٍ» تستوى بمعنى تَساوِى وتُماثِل، وقد يكون استَوَى بمعنى استَعلَى. على ذلك قولهم:

* قد استَوَى بِشرٌ على العِرَاقِ[٤] *

---

(١) التبريزى: «وقال عمرو بن هذيل العبدى». وقال أبو رياش: «هو الرجل من بنى عجل». وفى معجم المرزبانى ٢٤١ «عمرو بن الهذيل الربعى». قال المرزبانى: «يقوله لأبى غسان مالك بن مسمع حين مر أيام العصبية، فنزل بأحياء حتى تحالفت الصحية».

(٢) التبريزى: «ما تمر ولا تحلو». وقبله فى التبريزى:

لا تَرجُ خيراً عِندَ بابِ ابنِ مِسْمَعٍ ... إذا كُنتَ مِنْ حَيَّيْ حَنيفَةَ أو عِجْلِ

(٣) فى بيت من القصيدة التى مطلعها:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

وصدره: * وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا *

(٤) بعده فى اللسان (سوى):

* من غير سيف ودم مهراق *

٦٦٨

وقالت كَنْزَةُ في مَيَّةَ[1] :

١ – أَلاَ حَبَّذَا أهلُ المَلاَ غيرَ أَنَّهُ ... إذا ذُكِرتْ مَيٌّ فلا حَبَّـذَا هِيا

٢ – عَلَى وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِن مَلاَحَةٍ ... وتحتَ الثِّيابِ الخِزْىُ لو كانَ بادِيا

٣ – أَلَمْ تَرَ أَنَّ الماءَ يَخبُثُ طَعْمُه ... وإنْ كانَ لَونُ الماءِ في العَينِ صافِيا[2]

٤ – إذا ما أَتاهُ وارِدٌ مِنْ ضَرُورَةٍ ... تَوَلَّى بأَضعافِ الذى جاءَ ظامِيا

٥ – كذلكَ مَيٌّ في الثِّيابِ إذا بَدَتْ ... وأثوابُها يُخْفِينَ مِنْهـا المَخازِيا

٦ – فَلَوْ أَنَّ غَيلانَ الشَّقِيَّ بَدَتْ لَهُ ... مُجَرَّدةً يوماً لمَــا قالَ ذَا لِيا

٧ – كَقَولِ مَضَى مِنْهُ ولٰكِنْ لَرَدَّهُ ... إلى غَيرِ مَيٍّ أو لأَصْبَحَ سَالِيا

قوله ذا من لفظة «حبَّذا» أُشيرَ به إلى الشىء، وهو مع حَبَّ بمنزلة الرجل مِن نِعْمَ الرَّجل، إلاَّ أنَّه أُجرِىَ معه مَجْرَى الأمثال، لا يغيَّرُ ولا يُفصَلُ بينهما. والمعنى: محبوبٌ في الأشياء أهلُ الملا غيرَ مَيٍّ، فإنَّها إذا ذُكِرتْ لا تستحقُّ مدحاً ولا اختصاصا، ولا ثناء ولا إطراء، فلا تُعطَى هذا القولَ، ولا تُذكَرُ عند الدُّعاء بالسُّقيا، ولا تَدخُل عند الحمد أو الحضِّ في الذِّكرى. وقولها «فلاَ حبَّذا هى» جَعَل ألِفَ ذا على انفصالها تأسيساً، لأنَّ الرَّوِىَّ من اسمٍ مُضمَرٍ وهو هِىَ.

(١) التبريزى: «كنزة أم شملة المنقرى في مية صاحبة ذى الرمة. وقيل: هى لذى الرمة. ورُوى أنه كان يشبب بمية وكانت من أجمل الناس ولم تره قط، فجعلت لله عليها أن تنحر بدنة أول ما تراه. فلما رأته رأت رجلا دميما أسود. فقالت: واسوأتاه! فقال ذو الرمة [illegible]». وقد سقطت ترجمة «كنزة» في الحماسة ٢٤٠ ص ١٠٠. وفي الأغاني (١٦ : ١١٤) وأمالي الزجاجي ٥٧ أن تلك الأبيات قيلت على لسان ذى الرمة بمية للإفساد بينه وبين صاحبته. وانظر ملحقات ديوان ذى الرمة ٩٦ – ٩٧.

(٢) التبريزى: «أبيض صافيا».

وقولها « على وجهٍ مَىّ مَسْحَةٌ » تريدُ أنّ ظاهِرَها حَسَنٌ ، كأنّ اللهَ عزّ وجلّ قد مسها بالجمال مَسْحًا ، ويكون أصله من المَسْحِ باليد ، وقد استُعمِل فى الدُّعاء فقيل للمريض : مَسَح اللهُ ما بكَ من علّة ، وقيل أيضًا : هو ممسوح الوَجه أى مستوِى الخِلقة . وقولها « وتحتَ الثِّياب الخِزْى » تريدُ أنّ ما سِوَى المعارِى منها ممّا هو مُوَارًى من بدَنها ، ومَسْتُورٌ بثيابها ، قبيح . وقولها « لو كان باديًا » جواب لو مُقدّمٌ عليه . أرادت : لو ظَهَر الخافِى منها كان خِزْيًا . ثم شبّهَتْها بالماء يتناهَى صفاؤه ولونه ، ويَتراءى للناظر زُرْقَتُه ، ويُحْسَبُ عَذْبًا سَلسالاً فإذا هو مِلْحٌ أُجاجٌ ، حتّى إذا ورَدَه الواردُ فنظَر إليه صار كأنه يَمدُه من نفسِه بظاهرِه عُذُوبةً ، فإذا طَعِمَهُ يُخْلِفُ ولا يَنِى ، بل يُعطيه مرارةً . هذا إذا رُوِى « يُخْلِفُ » لأنّه من الخُلْف فى الوعد ، وقد رُوِى « يَخْلُفُ » فيكون من الخُلوف : التّغيُّر . وفى الحديث « خُلُوفُ فَمِ الصّائمِ أطيَبُ عند الله مِنْ رِيح المِسك » والمراد أنّ ظاهرَ هذه المرأة كظاهرِ هذا الماء ، وباطنَها كباطنه فكما أنّ وارد هذا الماء وقد اضطرّه العَطَشُ وساقَهُ حرارةُ الجَوْف والغُلّة يَصدُر عنه وقد تضاعَفَ ظمؤه وتزايدت حرّتُه ، كذلك هذه المرأةُ للكاشف عن أمْرِها ، والذّائق بعدَ الاغترارِ بها . وقولها « بأضعاف الذى جاء » ، [تريد جاء[1]] عليه ، فحذف حرفَ الجرّ وَوَصَل الفعلُ بنفسه ، فصار جاءَهُ ، ثم حَذَفَ الضّمير من الصّلة استثقالاً واستطالةً لكون أربعة أشياء شيئًا واحدًا : الموصول ، والفعل ، والفاعل ، والمفعول . ومَنْ جوّزَ حذفَ الجار والمجرور من الصِّلة فالأمرُ عنده أقربُ . وانتصب « ظامئا » على الحال .

وقولها « فلو أنّ غيلان الشّقِىّ » تعنى به ذا الرُّمّة ، لأنه كان ينسِبُ بمَيّة[2] ، وكان يسمِّيها مرّةً مَيًّا ومرةً مَيّة . فتقول : لو أنّها تجرّدَت له لتبرّأ منها وتقدّمَ

(١) التكملة من ل . (٢) فى الأصل : « يشبهها » صوابه فى ل .

على ما سَيَّرَهُ من النَّسيب فيها . وانتَصَب « مُجَرَّدَةً » على الحال . وأشارت بذا من قولها « لما قال ذاليًا » إلى مُجَرَّدِ مَيَّةَ ، أى ما حَدَّثَ نفسَه بأنه له . ويُرْوَى : « لما قال آليًا » وهذا يتعلّق بما بعده . أرادت : لما قال كقوله فيما سَلَف ذاليا . وآليا ، أى مقصِّرًا عندَ نفسه فى دعواه ، ولَصَرَف تشبيبَهُ[1] إلى غيرها ، ولَتَسَلَّى من النِّساء رأسا . وزَهِد فيهنَّ استبْشاعًا لها . وآليا ، من قولك : لا آلو فى كذا ، أى لا أقصِّر ، وينتصب على الحال . وقولها : « لرَدَّهُ » ، اللام جواب يمين مضمرة . وذكر بعضهم أنَّ معنى آليًا حالفًا ، أى كان لا يُقسِمُ بها ، وهذا خطأ ، لأنَّه كان يَجِبُ أن يكون مُولِيًا . ألا تَرَى أنَّه يقال : آليتُ فى اليمين إيلاء . وقيل : آ آ : توجُّعٌ فهو كأَوْهِ ، والمعنى : لم يَقُل لما يَستجدُّ من الزُّهد فيها آ آ لِى ، متأوِّهًا ومتوجِّعا — وهذا كما يقال فى الأمر وقد نَكأ فى متولِّيه : شقاء لى ، بكاء لى ، وأشْقَى لى ، وأبكَى لى — وجْدًا بها ، فعلى هذا يكونُ آ آ لى حكايةَ صوتٍ موضعُه رفعٌ بالابتداء ، ولى خبَرُه ، والأوَّلُ أقرب عندى .

٦٦٩

وقال أبو العَتاهِيَة[2] :

١ — جُزِىَ البَخِيلُ عَلَىَّ صالِحَةً	عَنِّى بِخِفَّتِـهِ عَلَى ظَهْرِى
٢ — أَعْلَى وأَكْرَمَ عَنْ يَدَيهِ يَدِى	فَعَلَتْ وَنَزَّهَ قَدْرُهُ قَدْرِى
٣ — وَرُزِقْتُ مِنْ جَدْوَاهُ عَافِيَةً	أَلاَّ يَضِيقَ بِشُكْرِهِ صَدْرِى
٤ — وَغَنِيتُ خِلْوًا مِنْ تَفَضُّلِهِ	أَحْنُو عَلَيـهِ بِأَحْسَنِ العُذْرِ
٥ — ما فاتَنِى خَيْرُ امْرِئٍ وَضَعَتْ	عَنِّى يَدَاهُ مَؤُونَةَ الشُّكْرِ

(١) ل : « نسيبه » .

(٢) لقب له ، واسمه إسماعيل بن القاسم ، شاعر عباسى منشؤه بالكوفة . وأكثر شعره فى الزهد . توفى سنة ٢٠٥ . الأغانى (٣ : ١٢٢ — ١٧٦) والشعراء ٧٦٥ — ٧٦٩ .

يقول : جزى اللهُ البخيلَ عَلَىَّ بمالِهِ خَصْلَةً صالحةً ، فقد خفّ تحملُه على ظهرى ، لسقوط مِنّته عنّى ، وذاك أنّه أجلّنى عن صنيعتِهِ ، وأكرمَ مَحَلّى إذ أخلانى من عارفتِهِ ، وصان قَدرى حين لم يبتذِلْه لعطيّته ، ورفع يدى وكرّمها حينَ لم يَشِنْها بمرزِئته ، فرزقنى الله عافيةً من ضيق الذّرْع بشُكره ، والتّطوّق بأفضاله ، واستغنيتُ عنه خاليًا من بِرِّه ، مُنصرِفًا مِن تفضّله ، متعطّفا عليه ببَسط عُذره حينَ لم يَجُدْ عَلَىَّ ، ولم يتلقَّ إقبالى عليه بقَبوله لى .

ولمّا قال : أعلى يدى فعَلت ، كان الأحسنُ فى مقابلته أن يقول : وَنَزّهَ قَدْرِى فنَزُهَ . ويقال : فلانٌ نَزِيهٌ كريمٌ ، إذا كان بعيدًا من اللؤم . وقوله « ألاَّ يَضِيق » لك أن ترفعه وأن تنصبه ، فالنّصب على أن يكون أنْ النّاصبة للأفعال ، والرفع على أن تكون أنْ مخفّفة من الثّقيلة ، ويكون اسمهُ مُضمَرًا ، كأنّه قال: أنّه لا يَضيقُ ، والجملة خَبَره . والعافيَةُ : مصدر كالعاقبة ، ومثله ما أُبالِيه بالِيَةً ، وقم قائمًا ؛ لأنّه لا خِلافَ أنّ اسم الفاعل يكون اسمًا للمصدر وإن اختلفوا فى بناء المفعول . وموضع « ألاّ يضيق » نَصبٌ بكونه بدلاً من قوله عافِيَةً . وانتصبَ « خِلْوًا » على الحال . وجملة المعنى : أنّه لم يَفتنِى إحسانُ رجلٍ لم يلزَمْنِى له شُكرُ إفضالٍ ، ولم يَجِب بفعله بى عَلَىَّ اعتداد .

٦٧٠

قال ابن عَبْدَلٍ الأسدىّ[1] :

١ — أضحَى عُرَاجَةُ قَدْ تَمَوّجَ دِينُهُ   بَعْدَ المَشِيبِ تَمَوُّجَ المِسْمَارِ

٢ — وإذَا نَظَرْتَ إلى عُرَاجَةَ خِلْتَهُ   فُرِجَتْ قَوَائِمُه بأيْرِ حِمَارِ

أراد أنْ يُظهِر أنّه يَجْسُرُ على تشبيهه بالسَّوْءة . وضَرَبَ الخَنَا والفُحْش مَثَلاً

(١) سبقت ترجمة الحكم بن عبدل فى الحماسية ٤٥٠ ص ١٢٠٤ .

له فى هجوه ، فأما المعنى فظاهر ، وإنما شَبَّهَ تَعوُّجَ دينه على كَبْرَتِه وسِنِّه بتعوُّج المِسمارِ فى العَمَل ، وقد عَجَزَ عمّا حُمِّل ، فإن أُكرِه على النَّفاذ انكَسَرَ ؛ وإن طُلِبَ نَزْعُهُ ليُجْعَل أقوى منه بَدَلَهُ تَعَسَّرَ ، فكذلك غَوايَتُهُ فى اعوجاج دينِه والتوائه ، لا صَرْفُه ورَدْعُه ممكن ، ولا احتمالُه عليه مُسَوَّغ

٦٧١

وقال أم عمرو بنت وَقْدان :

١ — إنْ أنتمُ لم تَطلُبُوا بأخيكُمُ ... فَذَرُوا السِّلاحَ ووَحِّشوا بالأبرَقِ

٢ — وخُذُوا المَكاحِلَ والمَجاسِدَ والبَسُوا ... نُقَبَ النِّساءِ فبئسَ رَهطُ المُرْهَقِ

٣ — ألهاكُمُ أنْ تطلبوا بأخيكُمُ ... أكْلُ الخَزيرِ ولَعْقُ أجْرَدَ أمْحَقِ

تقول : إن ضيَّعتم دمَ أخيكم ، وقعدتم عن الانتقام له ، لتقصيركم فى طلب ثاره ، فضعوا السِّلاح واطْرَحوه بالأبرَق . ويقال : وَحَّشَ بثوبه وبسيفه ، إذا رَمَى به بعيداً . وفى الحديث : «وَحَّشُوا برماحهم»[1] ، أى رمَوْا بها . ويجوز أن تريد توحَّشُوا ، أى صِيرُوا مع الوَحْشِ حياءً من فعلكم ، وهاجِرُوا الناسَ وجانبوهم . والعرب تقول : إذا أظلمَ الليلُ تأنَّسَ كلُّ وحشيّ ، وتوحَّش كلُّ إنسىّ . يريدون بتأنَّسَ استأنس ، وبتوحَّش استوحَش . ومثلُ وَحَّشَ بمعنى توحَّشَ قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ ، ونبَّه بمعنى تنبَّه . وعلى هذا يُحمَلُ قولُ امرئ القيس:

وأنا المُنَبِّهُ بَعْدَ ما قد نَوَّموا ... وأنا المُعالِنُ صَفحةَ النُّوَّامِ

لأنه إن لم يحمل منبِّه بمعنى متنبِّه يصير عجزُ البيت كصَدرِه فى أنهما بمعنى

---

(١) هو من حديث على رضى الله عنه ، أنه لقى الخوارج فوحشوا برماحهم واستلوا السيوف . اللسان (وحش) . وفيه أيضاً : « ومنه الحديث : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من حديد ، فوحش به بين ظهرانى أصحابه ، فوحش الناس بخواتيمهم » .

واحد . وقال بعضهم : وحِّشوا معناه اطلبوا صَيدَ الوحش وتَقوَّتوه . وهذا يرجع معناه إلى ما ذكرناه ؛ لأن معناه فارِقوا الناسَ والسكونَ معهم .

وخصَّتِ الأبرقَ لأنه كان مما وَلِيَهم ، وهو المكان فيه حجارةٌ سُودٌ وبِيض . ويقال : جبلٌ أبرق ، إذا كانت طاقاتُه سُوداً وبيضاً .

وقولها « وخُذُوا المكاحِل » ، تريد : اجعَلوا بدلَ السِّلاح آلاتِ النساء : والمَجاسد : جمع المُجْسَدِ ، وهو الثَّوبُ المُشْبَع صِبْغاً . والجِسَادُ : الزَّعفران . والنُّقَبُ : جمع نُقْبَةٍ ، وهى إزارٌ تُجعل له حُجْزَةٌ كحُجْزة السَّراويل تلبسه المرأة . قال :

بيضاء مثل القلبِ[1] فى نُقْبَـــةٍ وإتْبِ

والإتْب : القميص .

والمعنى : إن لم تثأروا لصاحبكم فتزيَّوا زِىَّ النساء فإنكم إناث ، وبئس رهط المُرهَق : المضيَّق عليه أنتم . وحذَفَ المذموم ببئس ، وهو أنتم ، لأن المراد مفهوم . وهذا الكلام بَعْثٌ وتحضيض على طلَب الدّم ، فهو كقول أختِ عمْرو حين بعثَتْ عَمْراً على طلب دَمِ أخيه عبدِ الله فقالت :

فإنْ أنتمُ لم تثأرُوا بأخيكُمُ فمشُوا بآذانِ النَّعام المُصَلَّمِ[2]

ولا تَرِدُوا إلاّ فُضولَ نِسائكم إذا ارتَملَتْ أعقابُهنّ من الدَّمِ

وقولها « ألها كُمُ أن تطلُبوا » تهييج وإغراء . والخزير : حَساء يُحسَى . والأجرد : الأمحق ، يرادُ به نِحْىٌ أو زِقٌّ دِبْسٍ . والأمحَق : القليل ، كأنه يصير لكم مَحْقاً لا يُبارِكُ الله فيه ، وأمحَقُ من باب أفعَل الذى لا فَعلاء له والأمَقُ ، هو لما فى النَّحى لا له ، فتوُسِّعَ فيه .

(١) القلب ، بتثليث القاف : قلب النخلة ، وهو جمارها .

(٢) سبق البهتان فى الحماسية ٥٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

٦٧٢

وقالت امرأةٌ من طيء[١] :

١ — فلَوْ أنَّ قَوْمِى قَتَّلَتْهُمْ عِمَارةٌ من السَّرَوَاتِ والرُّءوسِ الذَّوَائبِ[٢]

٢ — صَبَرْنَا لِمَا يَأْتِي به الدَّهرُ عامِداً ولكِنَّما أَثْآرُنَا فى مُحَارِبِ

٣ — قَبِيلٌ لِئامٌ إن ظَفِرْنَا عليهِمُ وإن يَغْلِبونا يُوجَدُوا شَرَّ غالِبِ[٣]

العِمارةُ : الحىُّ العظيم يُطيق الانفراد ، وقد يُفتح العين منه فيقال : العَمارةُ ، لُغةٌ . ومثْله العَمِيرَةُ ، وقيل : هما جميعاً البطن . والسَّرَوَاتُ : الرُّؤساء . والذَّوَائب : الأعالى ، وهو جمع ذُؤَابة ، واستعملوا الذنائب فى خلافه ، وهو جمع ذُنابة ، وهما اسمانِ فى الأصل وُصِفَ بهما . وأثآرٌ : جمع الثَّأر . يقول : همُ الذين أصابونا عن ذِلّتِهم وخِسّتِهم ، فالبلاء أعظم ، وقَرْحُ القَلبِ أوجَع ، ولو أصابنا غيرُهم كان الخَطْبُ أيسَرَ ، والصبرُ عليه أوسَع . وهذا كما يقال فى المَثَل السائر : « لو ذاتُ سِوَارٍ لطَمَتْنِى » .

وقولها « قَبِيلٌ لئامٌ » ، هو تفصيلُ ما أجملَهُ . وقولها « إن ظَفِرنا عليهم » عَدَّى ظفِرنا تعديةَ عَلَوْنا ، لأنه فى معناه ، وهم يَحمِلون الضمير على الضمير . والمعنى : لا اشتفاء فى الانتقامِ منهم إذا نِيلُوا ، ولا يُنِيمون طلّابَ الأوتارِ إذا ثأروا . وجواب الشرط ، وهو قوله إن ظَفِرنا ، متقدِّم يشتمل عليه قوله « قَبِيلٌ لئامٌ » ، لأن فيه معنى الفعل .

---

(١) التبريزى : « وهى عاصية البولانية » .

(٢) روى قبله التبريزى :

أعاصِىَ جُودِى بالدُّموع السَّوا كبِ وبَكِّى لكِ الويلاتُ قتلَى مُحارِبِ

(٣) التبريزى : « إن ظهرنا » .

ومثل قولها « وإن يَغلِبونا يوجَدُوا شَرَّ غالب » قولُ امرئ القيس :

* ولم يَغلبْكَ مثلُ مُغلَّبِ[1] *

إلا أنه فى النَّسيب .

٦٧٣

وقال آخر[2] :

١ – إذا ما الرِّزْقُ أحجَمَ عن كَريمٍ فألجأَهُ الزَّمانُ إلى زِيادِ[3]

٢ – تَلَقَّاهُ بوجْهٍ مُكفَهِرٍّ كأنَّ عليــهِ أرزاقَ العِبادِ

الإحجام : النكوص عن القِرْن هيبةً اه . وقد تُوسِّعَ به هنا . وضدُّه الإقدام . ويقال : نَكَصَ على عَقِبَيه . والمُكفهِرّ : المستقبِل بكراهةٍ وتَغَضُّنِ وَجْهٍ . ويقال : سَحَابٌ مكفهِرٌّ ، إذا تَراكَمَ ، ووجهٌ مكفهِرٌّ . ويُروى : « بوجهٍ مقشَعِرٍّ » ، والأصل فى الاقشعرار تقبُّض الجلد وانتصابُ الشَّعَر ، ثم يُتوسَّعُ فيه فيقال : اقشعرَّت الأرضُ والنباتُ والسَّنة . والمعنى ظاهرٌ ، وهو أنّ العافِىَ إذا وَرَدَ عليه تلقَّاه بعُبوسٍ ، كأنه اجتمع عليه لوُرود واحدٍ من الناس أرزاقُ الخَلْقِ كلِّهم . وجوابُ إذا « تلقَّاه » .

٦٧٤

وقال أبو محمدٍ اليزيديّ[4] :

١ – عَجبًا لأحمَدَ والعجائبُ جَمَّةٌ أنَّى يَلُومُ على الزَّمانِ تَبذُّلِى

(١) تمامه :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

(٢) التبريزى : « وقالت غيرها » .

(٣) التبريزى : « وألجأه » .

(٤) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى ، أبو محمد اليزيدى النحوى المقرئ اللغوى =

٢ — إنَّ العَجيبَ لِمَا أُبثُّكَ أمرَهُ مِنْ كلِّ مَثلوجِ الفؤادِ مُهَبَّلِ

٣ — وَغدٍ يَلُوكُ لسانَه بلَهاتِه وترَى ضَبابةَ قلبِه لا تنجَلى

٤ — مُتَصرِّفٍ للنُّوكِ فى غُلَوائه زَمِرِ المُرُوءةِ جامِحٍ فى المِسْحَلِ

٥ — وإذا شَهِدْتَ به مَجالسَ ذى النُّهَى وَبَلَتْ سَحَابتُهُ بنُوكٍ مُسْهِلِ[1]

٦ — غَلَبَ الزَّمانُ بجَدِّه فسَمَا به وَكَبَا الزمانُ لوجْهِه والكَلْكَلِ

قوله « والعجائبُ جَمَّةٌ » اعتراضٌ بين أحمد وقصَّته التى عَجِبَ منها. ويقال: أمرٌ عَجَبٌ وعُجَابٌ وعَجِيبٌ وعاجِبٌ. وأبلغ هذه الأبنية العُجاب. وانتَصَب « عَجَبًا » على المصدر. يقول: أتعجَّبُ لأحمد كيف أنكَرَ خُلُقِى وطريقتى، حتى لامَنِى فى تبذُّلى على تنكُّرِ الأيامِ وتغيُّرِها، ومن أينَ استَطرَفَ مارأى من حالى وقِصَّتى، ومُقتضَى الوقتِ وموجَبُ حكمه لايَدْعُوَان إلى غيره. ثم أقبلَ يخاطِب أحمدَ بعد الإخبار عنه فقال: إنّ العَجَب ما أُطلِعك عليه وأُباثُّك فيه، وأكشِفُ لك مستورَه وخافِيَه، مِن كلِّ رجلٍ بطىءِ الفهم، ميِّت الخاطر، مَدْعُوٍّ عليه بالهَبَل لثِقَله وعَجْزه غَبِيّ، عَيِيّ، إنْ حَدَّثَ أدار لسانَهُ فى فيه يَمضُغُ كلامَه، وإن ائْتُمِنَ خانَ، وكان ذا لونين لِنفاقه، وكأنَّ قلبَه قد رِينَ عليه لما يضمِرُه من غِلّ، فعَلَيه لكلِّ أحدٍ ضَبابةٌ، فلا تصفو نيّتُه، ولا تخلُص طويَّتُه، متصرفٍ فى غُلَوَاءِ الْحُمق وارتفاعِه وانتهائه، قليلِ

= مولى بنى عدى بن عبد مناة. بصرى سكن بغداد، وحدث عن أبى عمرو والخليل، وأدب أولاد يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى، ونسب إليه، ثم أدب المأمون. قال المرزبانى: « وكانت مرتبته أن يدخل إليه مع الفجر، ويصلى معه، ويدرس عليه المأمون ثلاثين آية ». وسأله مرة عن شىء فقال: لا وجعلنى الله فداك! فقال المأمون: لله درك، ما وضعت الواو فى مكان أحسن من موضعها هذا! توفى بخراسان سنة ٢٠٢. بغية الوعاة ٤١٤ - ٤١٥ ومعجم الأدباء (٢٠ : ٣٠ - ٣٢) وابن خلكان (٢ : ٢٣٠ - ٢٣٣) ومعجم المرزبانى ٤١٩ وتاريخ بغداد ٥ ٧٣٦.

(١) هذا ما فى ل والتبريزى. وفى الأصل: « بنوه ».

المرُوءة ، زَرِى الحميَّة ، يركبُ رأسَه فيما يَمِنّ ، ويغفُل عن القَصْد فيما فيه يَجِدُّ ، ويمضى قُدُمًا فى الشرّ فلا يرتدع ، ويعلو على زاجرِه فلا يَرْجِعُ ، ولا يقف وإن كُبِحَ بلجام المَنْع ، ولا يرعَوِى وإن أُوذِنَ بالهُلْك ؛ ثمَّ إنْ حضَرْتَ به مجالِسَ الفَضْل والعَقْل ، سالَتْ سحابةُ جهله بحُمْق تلتطم أمواجُهُ ، وتتدافعُ بصَوْبه أركانُه ؛ وعلى ما بِهِ من النَّذالة والجهالة رُزِقَ جدًّا فحَظِىَ ، وغَلَبَ على أهلِ زمانِه بما قُسِمَ له فَعَلِيَ ، وذَلّ له الدَّهرُ فكبا لصدره ووجهه ضارعاً ، وانقاد لأمرِه ونَهيِه صاغراً ، حتى أدرك ما شاء ممتدًّا فى شأوِه ، مُشترِفاً فى شأنِه ، آخذاً قَصَبَ السَّبْق فى مَيدانه ، فإن تعَجَّبْتَ فالعجيبُ هذا ، وإن استنكرت فالنَّكير هذا .

ويُروَى :

غَلبَ الزَّمانُ بجَدِّه وسَمَا به فكبَا الزَّمانُ . . . . . .

فيُجعل الفعل للزمان ويكون معنى سَمَا به رفعَه . ثم أخذ يدعو على الزَّمان فقال : سقَط لوجهه وكلكله ، حين اختارَ مثلَه لإحسانه ، وهذا حَسَنٌ جدًّا . والوَغْدُ : الدَّنِئُ ، مِن قولك : وغَدتُ القومَ إذا خدَمتَهم [(١)] . والنُّهَى : العُقول ، والواحدة نُهْيَة . والنُّوك : الحُمق . والمِسْحَلان : حَلْقتا شَكيم اللِّجام ، والجميع المَساحل . ومعنى « على الزَّمان » ، على تصاريف الزَّمان ؛ فحذَف المضاف .

وقوله « أَبِثك أمرَهُ » أى أجمل أمرَهُ مما تَبُثُّ وتَحزَن له . والمَثْلُوج الفؤاد : البليد الخالى من الذَّكاء والحِدّة . واللَّوك : المَضْغ .

---

(١) فى الأصل : « إذا دنوتهم » ، صوابه فى ل . وفى اللسان : « والوغد : خادم القوم ، وقيل الذى يخدم بطعام بطنه » .

٧ - ولقد سَمَوْتُ بِهِمَّتِي وسَمَا بها طَلَبِي المَكارِمَ بالفَعَالِ الأفضَلِ
٨ - لِأنالَ مَكْرُمَةَ الحَيَاةِ وَرُبَّمَا عَثَرَ الزمانُ بِذِى الدَّهاءِ الحُوَّلِ
٩ - فلئن غُلِبْتُ لَتُمْضِيَنَّ ضَرِيبَتِى كَلَبَ الزَّمانِ بِعِفَّةٍ وتَجَمُّلِ

رجع إلى صفة نفسه على تنكُّرِ[1] الزمان له، فقال: إنى وإن لم تساعدْنى الحالُ، ولا يَقوم لما أنويه المالُ، فلى هِمّةٌ رفيعةٌ، ونفسٌ أبِيَّةٌ، يسمو بهما ارتقائى فى درجاتِ الفضل، وطلبى المعالىَ بأحسن الفعل، لأعيش مكرَّمًا مَصُونًا، فلا يَفوتُنى سَلامة الدِّين والمروءة، وإن فاتَتْنى الزِّيادة فى الحال والمَقْدُرَة؛ والدَّهر قد يَعثرُ بالرَّجُلِ التامّ النُّكر، المرير القوَّة والحَوْل، لجهلِهِ بموضع الصَّنيعة، فإن غلَبَنى على حَظِّى، وتخطّانى عند القَسْمِ إلى غيرى، فطبيعتى تُسلِّينى وتُرْضينى، ومعرفتى بمن عندَه المالُ والعَتادُ تَصرِفُ الهمَّ عنِّى، فتنمحى آثار الحِدْثان، وعَرامةُ الليالى والأيّام[2]، بعفافٍ أستعمِلُه، وتجمُّلٍ ألتزِمُه، لئلاَّ يَشْمَتَ عَدُوٌّ، أو يفرَحَ حَسودٌ.

تم باب الهجاء بحمد الله وعونه[3]

والحمد لله على تظاهُر آلائه، والصلاة على سيِّدنا محمدٍ وآله.

[تم القسم الثالث من شرح المرزوقى للحماسة]

---

(١) فى الأصل: «شكره»، صوابه فى ل.
(٢) العرامة: الشدة والشراسة. وفى ل: «غرامة» تحريف.
(٣) ل: «ومنه»، وما بعده من الكلام ليس فى ل.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٢٧٦٩

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

ـــ - ٤٢١

نشره

أحمد أمين　　عبد السلام هارون

القسم الرابع

دار الجيل

بيروت

بَابُ الأَضْيَافِ



بابُ الأضيافِ [1]

٦٧٤

قال عُتْبَة بن بُجَيْر الحارثيّ [2] :

١ — ومُسْتَنْبِحٍ باتَ الصَّدَى يَسْتَتِيهُه   إلى كلِّ صَوْتٍ فهْوَ فى الرَّحْلِ جانحُ

يَعنى بالمستنبح ضيفاً ألجأه الضلالُ عن الطريق ليلاً ، أو دَعاه ضِيقُ الوقت وجَهْد السير مُنفِضاً إلى أن يتكلف نُباحَ الكَلْبِ وحكايتَه ، لتُجَاوِبَه كلابُ الحىّ المتوهَّم نزولُهم فى سَمْتِه ووِجهته فيهتدِىَ إليهم بصِياحها ، ويَستعينَ بهم على ضُرِّه وحَيْرَتِه . وهكذا كان يفعلُه الضالُّ والمقرور فى ظلام الليل . وكانوا إذا قرُبوا من البيوت المظنونِ دنوُّها ، أو المعلوم حُلولُها ، ربما حملوا رواحِلَهم على الرُّغاء أو البُغام ، إيذاناً بأنفسهم . ولذلك جاء فى الأمثال السائرة : « كَفَى برُغائها مُنادِيًا » . وأصله أنَّ بعضَ المتعرِّضين للقِرى أرْغَى ناقتَه فلم يُتلَقَّ بالاستنزال ، لجعل يذُمّ ، فقيل : لو ناديتَهم ليعلموا بك ؟ فقال : « كفَى برُغائها مناديا » . وقال متمّم [3] :

وضَيْفٍ إذا أرْغَى طُرُوقاً بَعِيرَهُ   وعَانٍ ثَوَى فى القِدِّ حتّى تكنَّعَا

وقوله « باتَ الصَّدَى يَستَتِيهُه » ، الصدى : صوتٌ يَرْجِعُ إليك من الجَبَل أو مما يَجرِى مَجراه فى ردِّ الصوت . يريد : أنه لمّا استَنْبَحَ صارَ الصوتُ

---

(١) وكذا عند ابن جنى فى التنبيه . وعند التبريزى : « باب الأضياف والمديح » .

(٢) التبريزى : « اللازنى ، من بنى الحارث بن كعب » . ويبدو أن « اللازنى » تحريف .

(٣) فى الأصل : « تميم » ، صوابه فى ل . وقصيدة متمم بن نويرة فى المفضليات برقم ٦٧ .

الراجعُ إليه يَحمِلُه على أن يتيهَ إلى كلِّ صوتٍ يدركه متبيِّنًا للصدى من غير الصَّدَى لكى يؤدِّيَه ما يَبين له إلى مطلوبه من حَىٍّ أو ما سبيلُه سبيلُهم. وجعلَه فى الرَّحلِ مائلاً لغلَبة النَّوم عليه، أو لتهيُّئه لإدراك الصوت. ويقال: جنَحَ يَجنَح جُنوحًا، إذا مال. ومعنى «يَستَتِيهُه إلى كلِّ صوتٍ» جعل الفعل مضافاً إلى الصَّدَى لغلبته عليه، واعتقادِه فى كلِّ صوتٍ أنه هو، فقد صار تائهًا إليه.

٢ — فقلتُ لِأهلِى ما بُغامُ مَطيَّةٍ   وسارٍ أضافَتْهُ الكلابُ النَّوابحُ

٣ — فقالوا غريبٌ طارقٌ طرَّحَتْ به   مُتُونُ الفَيافِى والخُطُوبُ الطَّوارِحُ

رجعَ إلى أهله فى التعرُّف لِمَا غشِيَه بُغامُ بعيرِ الطارق، فقال سائلاً: ما بُغامُ مَطيَّةٍ. و«ما» يُستفهَم به عمَّا دونَ الناطقين، وعن صِفات الناطقين. فكأنَّه سأَلَ عن صِفات السارى وعما أدركَه من صوت المَطِيَّة. وجعل الكلابَ مُضِيفةً للسارى لاستنباحه ولإجابتِها إيَّاه.

وقوله «غريبٌ طارقٌ» هو بيانُ ما سأل عنه من صفة السارِى، واكتفَى بوصفِه لأنَّ البُغامَ وإن سُئل عنه أيضاً فهو من توابع السارى. ومعنى «طرَّحَتْ به» رَمَتْ به. ومُتُونُ الفَيافِى: جمع مَتْن، وهو ما ارتَفع وغَلُظ من الأرض. وكلُّ صلبٍ غليظٍ متينٌ. ويقال: ما تَنْتُ الرَّجُل، إذا فعلتَ من ذلك ما يفعله. ومَتَن بالمكان: أقامَ به. وقوله: طرَّحَت به المُتُون والخطوب، فيه دَلالةٌ قويةٌ على ضَلالِه وضُرِّه وإنفاضه. ويروَى: «طوَّحَت به» و: «الخُطوبُ الطَّوائح». وكان يجب أن يقول: والخطوبُ المطوِّحات فى الجمع بالألف والتاء، لأن اسمَ الفاعل من طوَّحَ مُطَوِّحٌ، ولكنَّه أخرَجَ الطوائح على حذف الزيادة من الفِعل. ومثله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾، لأن أصلَه أن

يجيء على مَلاقِح أو مُلقِحات، لكونها مُلقِحَةً للأشجار. والفعل منه ألقحَ، فأخرجَه على حذف الزّوائد فصار لَقَح ولواقح. وكذلك «الطوائح» قياسُه أن يكون إذا عُدِلَ عن الجمع بالتاء: مَطاوِحُ. وارتفع «غريبٌ» على أنه خبر مبتدإ محذوف، كأنه قال: هو غريبٌ طارقٌ. ومعنى طوّحت به: حملتُه على ركوبِ المهالك. والطائحُ: الهالك، والذاهِب الفاني. ويقال: تطاوَحْنا الأمرَ بيننا، كما يقال تطارَحْنا.

٤ — فقمْتُ ولم أجثِمْ مكانى ولم تَقُمْ مع النَّفسِ عِلاّتُ البَخيلِ الفَواضِحُ

٥ — ونادَيتُ شِبْلاً فاستَجابَ ورُبَّما ضَمِنَّا قِرَى عَشْرٍ لمن لا نصافِحُ[1]

يقول: لمّا بانَ لى أمرُ الضَّيف الطارق قمتُ من مكانى مستعجِلاً غيرَ متلوِّم، حِرصًا على إصلاح أمره، وتوطيد محَلّه. ويقال: جثَمَ مكانَهُ وفى مكانه بمعنًى. والجُثُوم، أصلُه إلصاقُ الصدر بالأرض ولزومُها، ويستعمل كثيراً فى الطَّير والسِّباع. والجُثْمان: الشخص منه اشتُقّ. ومعنى «لم تَقُمْ مع النفس عِلاّت البَخيل» يريد أنَّ نفسى لمّا تهيّأتْ للإضافة وتشمَّرَتْ لم تَقُمْ معها العِلاّتُ التى تفضَحُ أربابَها، والمعاذِرُ التى تحسِّن التفريط فى اللّوازِم عند مُستَعِدِّها. وجعل العِلاّتِ تَفضَح لِما يتعقّبها من ذميم القالة، وتضييق المَعذِرَة، وتجاوُب الناسِ فى الإنكار إذا كانت العللُ كاذبةً، ووجوهُ التنصُّل مسودّةً.

وقوله «وناديْتُ شِبْلاً» يَعنِي بِشِبْل ابنَه، يستعين به فيما يُقام مِن خدمة

(١) التبريزى: «قال أبو العلاء: أشبه ما روى فى هذا البيت: قرى عشر لمن لا نصافح، بفتح العين، أى عشر ليال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحة. وبعض الناس [يرويه] بضم العين، وله وجه، أى ربما ضمنا قرى عشر أموالنا لمن لا نعرف. وقد يمكن أن يكون عشر جمع عشير، وهو الذى يعاشره من القرباء أو يكون من عشيرته، مثل ما يقال: صديق وصُدق، وكريم وكرم. ومن روى: عسر، بالسين غير معجمة، فالمعنى أنا نقرى الضيف وإن كنا معسرين».

الضيف ، فذكر أنه استجابَ وتخفَّفَ معه . وذِكر استجاب هاهنا أحسنُ مِن أجاب ، وذاك أنّ قول القائل : دعوتُ زَيْدًا فأجابنى ، كقوله : أمرته فأطاعنى . وقوله : دعوتُه فاستجاب لى ، أى تقبَّل ما قلتُه وطاوَعَنى فيه . وعلى هذا يفسّرُ أصحابُ المعانى قوله تعالى : ﴿ فلْيَسْتَجِيبُوا لى وليُؤْمِنُوا بى ﴾ . وكذلك بيتُ كَعب بن سعد :

ودَاعٍ دَعَا يامَنْ يُجيبُ إلى النَّدَى فلم يَسْتَجِبْهُ عنــدَ ذاكَ مُجيبُ

أى لم يُذعِنْ لدعائه أحد . ويقال : استجبتُه واستجبتُ له . وقوله « ور بَّما ضَمِنَّا قِرَى عَشْرٍ » أى التزمنا قِرَى عَشْرِ نَسَمةٍ ، ولا معرفةَ بينى و بينهم سابقةٌ ، ولا ما يوجِبُ عند الالتقاء مصافَحةً . والقصد بقوله « ضَمِنَّا » إلى توطينهم النفسَ على توسيع القِرَى لمن لا حُرْمَةَ له سِوَى حُرْمَةِ الضِّيافة . ولا يمتنع أن يريد بقوله « قِرَى عَشْرٍ » قِرَى عَشْرِ ليالٍ ، وهُم إن أرادوها بأيّامها يغلِّبون التأنيث . قال سيبويه : « وتقول : سار خَمْسَ عَشْرَةَ من بين يوم وليلةٍ ، لأنّكَ ألقيت على الليالى ، فكأنّك قلت خمس عشرة ليلة . وقوله : من بين يومٍ وليلةٍ ، توكيدٌ بعد ما وقعَ على الليالى ، لأنه قد عُلِم أن الأيام داخِلةٌ مع الليالى . وعندهم أنّ الليلَ قبلَ النهار ، فلهذا يؤرِّخون بها . وتقول : أعطاه خَمسةَ عَشَرَ مِن بَيْنِ عَبْدٍ وجاريةٍ ، لا غير ، لاختلاطهما » . قال سيبويه : « وقد يجوز فى القياس خَمسةَ عشر من بين يومٍ وليلةٍ ، وليس على حدِّ كلام العرب » .

وقوله « لمن لا نُصافِحُ » يجوز أن يكون من المصافحة المعروفة ، و يجوز أن يكون من صَفَحْتُ الناسَ ، أى نظَرْتُ فى أحوالهم .

٦— فقامَ أبو ضَيْفٍ كريمٌ كأنّهُ وقد جَــدَّ من فَرْطِ الفكاهةِ مازِحُ

٧— إلى جِذْمِ مالٍ قد نَهِكْنا سَوَامَهُ وأعراضُنا فيــهِ بَوَاقٍ صَحَائحُ

يعنى بأبى الضيف نفسه ؛ وهذا كما يقال : هو أبو مَثْوَاى ، وهى أمُّ مثواى . وجعله كالمازِح المُفاكِه لِما أظهرَهُ من التطلُّق والبَشاشة ، و إظهار السرور بما يأتى من توفير الضيافة والاحتفال فيه ؛ و إيناس الضيف والبَسط منه ، مُحتفًا بالضِّيافة[1] . وارتفع « مازح » على أنه خبر كأنَّ . وموضع « وقد جَدَّ » موضعُ الحال ، كأنه قال : يُشابِهُ المازحَ من فرط الفُكاهة[2] وهو جادٌّ ، لأنّه قاضى ذِمامٍ ، وبانِى مكارِمٍ . ويقال : فاكَهْتُه بمُلَح الكلام ، وهى الفَكِيهة والفُكاهة[3] .

وقوله « إلى جِذْمِ مالٍ » تعلّق إلى بقَامَ ، ويريد بالقيام غير الذى هو ضدُّ القُعود ، وإنما يريد به الاشتغالَ له بما يؤنِّسُه ويرحِّبُ منزلَهُ ويطيِّب قلبَه . على ذلك قوله تعالى : ﴿ إذَا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ ﴾ ، لأنه لم يُرِد القيام المضادَّ للقعود ، بل أراد التهيُّؤَ والتشمُّرَ له . والجِذْمُ : الأصل . ومعنى « نَهِكْنا سَوَامَه » أثّرنا فى السائمة من المال بما عوّدناها من النّحر والتفريق . ويقال : نَهِكَهُ المرضُ ، إذا أضرَّ به .

وقوله : « وأعراضُنا فيه بَوَاقٍ صحائحُ » ، أى نفوسُنا باقيةٌ على حَدِّها من الظَّلَفِ والصِّيانة ، لم تَشِنْها الأفعالُ الذميمة ، ولا كسرَتْها التكاليفُ المُبَخِّلةُ ، فهى سليمةٌ لا آفةَ بها ، ولا عارَ يَكْتَنِفُها ، وإنْ كانت أموالُنا مشفوهةً مُفرَّقةً[4] .

٨ — جعَلْناهُ دُونَ الذَّمِّ حتى كأنّه إذا عُدَّ مالُ المُكثِرِينَ المَنائحُ

٩ — لنا حَمْدُ أربابِ المِئِينَ ولا يُرَى إلى بيتِنا مالٌ مع الليلِ رائحُ

(١) ل : « بالصيانة » . (٢) ل : « الصيانة » .

(٣) الفكاهة ، بالضم : الاسم ؛ وبالفتح : المصدر .

(٤) المشفوهة القليلة . وأصل المشفوه الماء تكثر عليه الشفاه فيقل .

الضمير من قوله « جعلناه » ، المال ، أى وقَيْنا به أنفسَنا من لَوْم اللائم ، ودَرَنِ العائب . وقوله : كأنّه المنائحُ ، يريد أنَّ إبلَنا ، وإن كانت مِلْكا لنا ، فهى كالعوارِى عندنا ، لِمَا يتسلَّط عليها بأفعالنا من النُّقْلةِ والتضييرات . والمنائح : جمع المَنِيحةِ ، وهى الناقة تُدْفع ليُنتفعَ بلبنها ما دام بها لبَنٌ ، فإذا انقطع لبنُها رُدَّتْ . و « إذا عُدَّ مالُ المُكْثِرِين » ، أشار به إلى قِلّة مالِه . والمُكْثِرُ : صاحِبُ الكثير من المال ، أى مالُنا فى جَنْبِ مالِ المُكْثِرِين كذلك .

وقوله « جعلناه دُون الذمّ » ، يريدُ صيَّرناه دون الذمّ ، فعلى ذلك يحتمل أن يكون ظرفاً ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانياً ، فيكون معنى دون الذمّ قاصرًا عن الذم ، فيَبْعُدُ الذَّمُّ عنا ولا يَلْحَقُنا ، لأنَّ مالنا يحُولُ بيننا و بين الذم .

ومعنى « لنا حَمْدُ أرباب المِئِينَ » ، أى نكتسب بمالِنا القليل حَمْدَ أربابِ المال الكثير ، أى الحمد الذى يكسبه أولئك هذا ولا يُرَى مالٌ يَروح إلى بيتنا مع الليل لأنها على قلتها باركةٌ بالفِناء ، معدّة للنوائب والحقوق ، ولم تبلغ ما يصير منها سارحةٌ ورائحةٌ ، و باركة بالفناء وسائمةٌ .

٦٧٥

وقال مُرَّةُ بن مَحْكان[1] :

١ — يا ربَّةَ البيتِ قُومى غيرَ صاغرةٍ ضُمِّى إليكِ رِحالَ القومِ والقُرُبا[2]

---

(١) مرة بن محكان : أحد بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر مقل إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، وكان فى عصر جرير والفرزدق فأخلا ذكره لنباهتهما فى الشعر . وكان مرة شريفا جواداً ، وهو أحد من حبس فى المناحرة والإطعام ، أنهب ماله الناس مرة فحبسه زياد لذلك فقال فى ذلك الأبيرد الرياحى :

فإن أنت عاقبت ابن محكان فى الندى فعاقب هداك الله أعظم حاتم

الأغانى (٢٠ : ٩ — ١١) ومعجم المرزبانى ٣٨٣ والشعراء ٦٦٧ والاشتقاق ١٥١ . ومحكان ، بفتح الميم ، فعلان من محك . ومن عجب أن يقول المرزبانى إنه أحد اللصوص . وقال ابن قتيبة : كان مرة سيد بنى ربيع .

(٢) انظر الأغانى (٣ : ١٠٢) ، ومراجع الفرجة حيث أنشدت هذه الأبيات .

٢ — فى ليلةٍ مِن جُمادَى ذاتِ أندِيَةٍ لا يُبصِرُ الكَلْبُ مِن ظلمائها الطُّنُبا

٣ — لا يَنْبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ حتى يلُفَّ على خُرْطومِهِ الذَّنَبا[1]

خاطبَ امرأته ، وبعثَها على القيام للاحتفاف بالنازلين من الأضياف .

وقوله : « غير صاغرةٍ » ، يقال : صَغِرَ يَصْغَرُ صَغاراً ، إذا ذَلَّ وهان ؛ وصَغُر يَصْغُر صِغَراً : ضدّ كَبِر . والقُرُبُ : جمع قِراب ، وهو جرابٌ واسعٌ يُصانُ فيه السِّلاح والثياب[2] .

وقوله « فى ليلة » ، إن شئت جعلتَ الجارّ متعلِّقا بضُمِّى ، وإن شئت جعلتَه متعلقاً بقُومى . والأجود فى الجمع بين الفعلين فى باب الأمر أن يدخل الثانى حرف العطف ، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قُمْ فأَنْذِرْ . ورَبَّكَ فكَبِّرْ ﴾ ، وادْنُ فاكْتُبْ ، وما أشبهَ ذلك . وهذا قال : قومى غير صاغرةٍ ضُمِّى إليك ، ولم يأت بالعاطف فيه ، وهو جائز . وانتصب « غيرَ » على الحال . وجعلَ الليلةَ من ليالى جُمادَى لأنها من شهور البرد ، والمراد فى ليلةٍ [من ليالى[3]] جمادى ذاتِ أنداء وأمطار . وكانوا يجعلون شهر البرد جُمادى وإن لم يكن جُمادى فى الحقيقة ، كأنَّ الأسماء وُضِعَتْ فى الأصل مقسَّمة على عوارض الزّمان ، والحرّ والبرد ، والرِّيح والمطَر ، وتبدُّل الفصول ، ثم تغيَّرت فصارت تُستعار .

وقوله « ذاتِ أندية » ، تكلمَ الناسُ فيه ، لأنَّ جمع النَّدَى أنداء . قال الشاعر[4] :

---

(١) فى كثير من المراجع وكذا عند التبريزى : « على خيشومه » .

(٢) قال أبو عبيدة : « كان الضيف إذا نزل بالعرب فى الجاهلية ضموا إليهم رحله وبقى سلاحه معه لا يؤخذ خوفا من البيات ، فقال مرة يخاطب امرأته : ضمى إليك رحال هؤلاء الضيفان وسلاحهم ، فإنهم عندى فى عز وأمن من الغارات والبيات ، فليسوا ممن يحتاج أن يبيت لابسا سلاحه » . الأغانى (٢٠ : ١٠) .

(٣) التكملة من ل .

(٤) هو الشماخ . ديوانه ص ٥٠ .

إذا سَقطَ الأنداء صِينَتْ وأشعِرَت حَبيرًا ولم تُدْرَجْ عليها المَعاوزُ

فكان أبو العباس المبرِّد يقول : هو جَمْع نَدِيّ المجلس . وكان أماثلُ الناسِ وأغنياؤُهم إذا اشتدَّ الزَّمانُ وجدَّ القحطُ والجَدْب يَجلسون مجالسَ يدبِّرون أمرَ الضُّعفاء ، ويفرِّقون فيها ما حصل عندهم من فضل الزَّاد ، ويَنصبُون الميسِرَ ، ويَنحرون الجُزُر مُتبارِين فيها ومُتباهين . فيريد : في ليلةٍ تُوجِب ذلك وتقتضى به . وقال غيرُه : هو جمع ندًى ، كأنه جمع فَعَلاً على فِعال ، ثم جمع فِعَالاً على أفعِلَة ، كأنه نَدًى ونِدَاء ، ثم جمع النِّدَاء على الأندية ، ككساء وأكسية ، ورِوَاق وأرْوِقة . وقيل أيضاً : هو شاذٌّ استُعِير ما للممدود للمقصور . وهم يفعلون ذلك في المبانى كما يفعلون في الألفاظ . قالوا : ومثلُه قَفاً وأقفيةٌ ، ورَحًى وأرْحِية . وهذا مما حكاه الكوفيُّون . وقال بعضهم : هو أفعُلَةٌ بضم العين ، كأنه جمع فَعَلاً على أفعُلٍ ، كما قيل زَمَنٌ وأزْمُنٌ ، فجاء نَدًى وأنْدٍ ، ثم أُلحِقَ الهاء لتأنيث الجمع ، كما تقول بُعُولةٌ وحجارة ، فصار أندِيةً ، ويكون في هذا الوجه شاذًّا أيضاً .

وقوله : « لا يُبصِر الكلبُ من ظلمائها الطُّنُبا » ، فيه مبالغةٌ في وصف الظُّلمةِ وتراكمها . والطُّنُب : حَبْل البيت . والكلب قويُّ البصَر ، فإذا بلَغَ أمرُه إلى ما وصفه فذاك لتكامُلِ الظلام وامتدادِه . لذلك قال الآخر :

أُناسٌ إذا ما أنكَرَ الكلبُ أهلَهُ حَمَوْا جارَهم من كلِّ شَنْعاءَ مُعْضِلِ (١)

وقد قيل في هذا البيت وجهٌ آخر . وموضع الجملة على الصِّفَة للَّيلة ، فهو جرٌّ ، وساغ ذلك فيها لاحتمالها ضميرها ، وكذلك قوله « لا يَنبَحُ الكلبُ فيها غير

(١) كذا في النسختين والتبريزى . وقد سبق بتحريف آخر في ص ٣٧٦ برواية « مظلم » وكلاهما تحريف . وصواب الرواية : « مضلع » ، كما في الأمالى (١ : ٥٥) واللآلى ٢١٠ ، أو : « مفظع » ، كما في الحيوان (٢ : ٧٠) .

واحدةٍ » . وانتصب « غيرَ » على أنه مصدر ، وأراد غير نَبْحَةٍ واحدة ، ولمّا لم يجئْ إلا مُضافاً ولم يكنْ له معنًى إلا مخالفةَ ما يضاف إليه جاز أن يجىء فاعلا ، ومفعولا ، وحالاً ، وظرفا ، ووصفاً ، واستثناء ، ومصدراً .

وقوله : « حتّى يَلُفَّ » انتصبَ الفعلُ بإضمار أنْ . وحتى بمعنى إلى ، كأنه قال : إلى أن يلفَّ الذنبَ على خُرطومه ، أى لا ينبح إلى أن يلفَّ الذنب على خُرطومه ، أى لا ينبح إلى أن يلفَّ الذنب إلا نَبحةً . ولو رفعتَ الفعلَ فقُلت : « حتى يَلُفُّ » لجازَ ذلك ، ويُراد به الحال ، والمعنى أن يكونَ الفعلُ الثانى متّصلا بالأوّل ، أى لا ينبح إلا نبحةً فهو يلفُّ الذنَب . وعلى هذا قولك : سِرْتُ حتى أدخُلُها ، فقرَن السَّير بالدخول ، ومعناه أنه خرَج من السَّير إلى الدخول ، إلا أنه يُخبر أنه فى حال دخولٍ ، فمعناه كمعنى الفاء إذا قلت : سِرْتُ فأنا أدخلُها ، أى هذا متّصل بهذا .

٤ — ماذا تَرَيْنَ أنُدْنِيهمْ لأَرْحُلِنا ... فى جانبِ البيتِ أمْ نَبْنِى لَهُمْ قُبَبَا

٥ — لِمُرْمِلِ الزّادِ مَعْنِيٍّ بحاجَتِه ... مَن كانَ يَكرَهُ ذَمًّا أو يَقِى حَسَبا

أقبل يشاوِرُها ويستقِى الرأىَ من عندها ، و يبعثُها على تعرُّف الحال منهم فيما يوافقُهم ولا يَخرُج من[1] مرادِهم ورِضاهم .

وقد تقدم القول فى لفظة « ماذا » مشروحا[2] .

وتَرَيْنَ : أصله تَرْأَيِينَ ، لأنه تَفْعَلِين ، فحُذِف الهمزة استخفافاً بعد أن أُلقِى حركتُها على الراء ، فصار تَرَيِينَ ثم قُلِبت اليـاء الأولى ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها فاجتمع ساكنان ، وحذفت الألف منهما فصار تَرَيْنَ .

والمعنى : أخبرينى بعدَ رُجوعِك إليهم ماذا نأتيه فى شأنهم ، وما الذى

(١) ل : « عن » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

يَرَوْنَهُ فى إقامتهم وظَعْنهم ، فإن أرادوا إطالة اللَّبث بنَينا لهم قباباً يتفرّدون فيها ، فذاك آنس لهم ، وأبقَى لحِشمتِهم ؛ وإن أرادوا تخفيفَ اللّبث خلطْناهم بأنفسنا ، وأدنيناهم من رِحالنا فى جوانب بُيوتنا ، لأنّ الصبر مع خِفّة التلوُّم منهم على ما يعترض مِن أحوالهم مُمكن .

وقوله : « لمُرْمِل الزّاد » تعلّق اللام بقوله : ماذا ترين ، كأنه أعاد الذّكر فقال : وذا السؤال والاستشارةُ مِن أجلهم ، ولمكانهم . والمُرمِل : الذى قد انقطع زادُه . ويجوز أن يكون « لمرمل الزّاد » بدلا من المضمَرين فى « نبنى لهم » ، وقد أعاد حرف الجرّ معه .

وقوله : « من كان يكره » موضعه رفعٌ بمَعْنِيّ ، كأنه قال : ذاك منّى لمُنقطَعٍ به ، يعنى بحاجته ، مَن كان كارهًا لذمّ الناس ، أو صائناً لشرفه . كأنه بيَّنَ العِلّةَ فى العناية به .

٦ — وقمتُ مُستبطِنًا سَيفِى وأعرضَ لى ... مِثْلُ المجادِلِ كومٌ بَرَّكَتْ عُصَبا[1]

٧ — فصادَفَ السيفُ منها ساقَ مُتْلِيَةٍ ... جَلْسٍ فصادَفَ منه ساقُها عَطَبا

٨ — زَيَّافةٍ بنتِ زَيَّافٍ مُذَكَّرَةٍ ... لمّا نَعَوْها لراعِى سَرْحِنا انتحَبا

انتصب « مستبطناً » على الحال من قمتُ ، والمعنى : شغَلتُ رَبّةَ بيتى بما رتّبتُ من أمرهم ، وقمتُ أنا حاملا سَيفِى ومتقلّدًا له . ويقال : استبطنتُ فلاناً دونك ، أى خاصّصتُه ؛ وتبطَّنت كذا : دخلتُ فيه حتى عرَفْتُ باطِنَه .

وقوله : « وأعرضَ لى » أى أبدَى عُرْضَها لى نوقٌ كأنها قصورٌ ، كمالَ جسمٍ وبُلوغَ سِمَن . والكُومُ : جمع أكْوَمَ وكَوماء ، وهى العظام الأسنِمة .

وقوله : « بَرَّكَتْ » إنما ضَعّفَ عين الفِعْل على التكثير أو التكرير .

(١) التبريزى : « فأعرض لى » .

وجعل إبلَهُ فِرَقاً باركةً لشدّة البرد ، كما قال أبو ذؤيب الهُذَلِيُّ :

وأعصَوْصَبَتْ بَكَرًا مِن حَرْجَفٍ وَلَهَا ... وَسْطَ الدِّيار رَذِيّاتٌ مَرازِيحُ[1]

وانتَصَب « عُصَبًا » على الحال ، وهو جمع عُصْبَةٍ .

وقوله : « فصادَفَ السيفُ منها ساقَ مُتْلِيَةٍ » أراد : عَرْقَبَ ناقةً منها . والمُتْلِيَـةُ هي التي لها ولدٌ يتلوها ، وقيل هي الحامل . والجَلْس : الصُّلبة المشرِفةُ وقيل هي الواسعةُ الأخْذِ من الأرض . ومعنى : « صادَفَ منه[2] » ، أي من السيف[3] . والمعنى أنَّ السَّيف والساق تصادما ، فأبانَ السيفُ الساق منها .

والزَّيّافة ، هي التي تَزِيفُ في مِشيتها وتَبختَر . جعلها بنتَ زَيّافٍ استكرامًا لعِرْقها وجَوهرها . والمذكَّرةُ : التي تشبه الذُّكورةَ في خِلقتها .

وقوله : « لمّا نَعَوْها » ، الفاعلون هم الناس ولم يجرِ لهم ذِكر ، لـكن المراد مفهومٌ فأضمره . أي لمّا ذكَرَ الناسُ ما جرَى عليها لراعي سَرْحِنا ، أي راعي مالِنا السارحةِ بكى بُكاءً فيه نحيبٌ وصوت ، ضِنًّا بمثلها[4] ، وتحزُّنًا لما فاتَ منها ، ولأنَّ لَبَنَها كان يبقى على مُحارَدة الإبل ، وشدة اللَّزْبة .

والعَطَبُ : الهلاك ، ويقال : عَطِبَ البعيرُ ، إذا انكسَر .

٩ — أمطَيْتُ جازِرَنا أعلَى سَنامِنِها ... فصارَ جازِرُنا مِن فَوقِها قَتَبا

١٠ — يُنَشْنِشُ اللحمَ عنها وهْيَ باركةٌ ... كما تُنَشْنِشُ كَفَّا قاتِلٍ سَلَبا

يقال : امتطيتُ البعيرَ ، إذا ركبتَ مَطاهُ ، وهو الظَّهر ، وأمْطَيْتُه غيري . وإنما يَصِفُ إشرافَ الناقة التي وصَفها ، فيقول : ركبَها جازِرُنا لمّا نحرَها ،

(١) ديوان الهذليين (١ : ١٠٨) . وبكرا بمعنى بكرة . والحرجف : الريح الشديدة .
(٢) كذا في النسختين . والوجه « منها » .
(٣) والوجه بناء على الوجه السابق أن يكون معنى « منها » من الكوم ، أي تلك الإبل .
(٤) ضنا بكسر الضاد في النسختين ، وهي تقال بالكسر وبالفتح أيضا .

إذ كان أعلى سنامها لم تصل إليه يدُه فصار منها لمّا علاها بمكان القَتَب حتى كأنَّها مقتَّبَة . والسَّناسِنُ : أعالي السَّنام والخارجُ مِن فَقَارِ الظَّهر ، واحدتها سِنْسِنَةٌ . ومعنى يُنشنِشُ يكشِف ويفرِّق . وقيـل : النَّشنشة معاسَرةُ الشيء حتى تأخُذَه كما تريد . يقول : ركب مطاها لمّا لم يبلغ سنامَها لعِظَمها ولم يمكنه أن يَكشِط الجلدَ عنها ، فأقبلَ يقطِّع اللَّحم عنها وينتزِعُه منها ، فِعـلَ القاتل السالب لثياب المقتول وسـلاحه . وهذا تشبيهٌ حسنٌ جاء على حقّه . ورواه بعضهم : « كما تُنَشْنِشُ كَفَّا فاتِـلٍ سَـلَبا » ، وقال : شَبَّهَ نَشنشتَه بنَشنشة فاتلِ الحبلِ من السَّلَب ، وهو نباتٌ يخرُج على صورة الشَّمَع وعلى قَدْره ، فيُجَزُّ ويُفتَلُ منه الحبل . وبائعها ومتّخذها السَّلّاب .

هكذا حكاه أبو حَنيفة الدِّينَوَرِيُّ . والرِّواية الأولى أجوَدُ وأكثرُ مَشَابهَ .

١١ - وقُلتُ لما غَدَوْا أُوصِي قَعيدَتَنا ... غَـدِّي بَنِيكِ فَلَنْ تَلقَيْهم حِقَبا

١٢ - أُدْعَى أباهمْ ولم أُقْرَفْ بأُمّهِم ... وقد عَمِرْتُ ولم أعرِفْ لهم نَسَبا

١٣ - أنا ابنُ مَحْكانَ أخْوَالِي بَنُو مَطَرٍ ... أَنمِي إليهم وكانوا مَعْشَرًا نُجُبا

قوله : « لما غَدَوْا » أى همُّوا بالارتحال غدُوًّا ، لأنَّ « لمـا » عَلَمٌ للظَّرف . و « أوصِي » فى موضع النَّصب على الحال ، وتقديره : موصيًا قعيدتَنا . ومفعول قلتُ قوله « غَدِّي بَنِيكِ » . والمعنى بالِغِى فى تفقّد أضيافك فى هذه الغداة ، فإنَّ لقاءهم سيتأخَّر زمانًا ممتدًا . والحِقَب : السِّنُون ، واحِدتها حِقْبةٌ . والمعنى غَدِّي الإحسانَ إليهم نُهزَةً تفترصِينها ، وزادًا من الإحسان تدَّخرينها ، فإنَّه لا يَدرِى متى تظفَرِين بأمثالهم ، وهل يكون فيما بَقِيَ من الزمان لهم عودةٌ إلينا .

وإنما قال : « أُدعَى أباهم » ، لأنه يقال للمُضيف : أبو المَثْوَى ، وللمُضيفة : أمُّ المَثْوَى .

« ولم أُقْرِف بأُتَّهِمِ » أى لم أُتَّهم . والقِرفة : التُّهمة . ومعنى « عَمِرْتُ » : بقيت حَيًّا . وقصدُ الشّاعرِ أن ينبّه على أنّه لا عواطف بينَهم ، ولا أواصرَ تجمعُهم ، وقد التَزَم ما التزمَ لهم تكرُّما واصطناعا . ثم نبَّـهَ على طرفَيه فقال : أخوالى بنو مطر أنتمِى إليهم وهم مُنجبون ، وأعمامى بالفضل والإفضال معروفون ، و « نَجْلُ الجَوادِ جَرْيَهُ يَتقَيَّلُ(١) » .

٦٧٦

آخر :

١ — ومُسْتَنْبِحٍ قَالَ الصَّدَى مثلَ قولِهِ ... حَضَأْتُ لهُ نارًا لها حَطَبٌ جَزْلُ

٢ — فقمتُ إليـه مُسْرِعًا فغَنِمْتُه ... مَخافةَ قومِى أن يَفوزُوا به قَبْلُ

٣ — فأوْسَعَنِى حَمْداً وأوسعتُهُ قِرًى ... وأَرْخِصْ بِحَمْدٍ كان كاسِبَه الأَكْلُ

قوله « ومستنبح » يريد به رجلاً نا كَدَهُ الزّمانُ فى سفره ، أو لم تساعدْه الحال فيه على مُؤَنِه ، فاستنبح كلابَ الأحياء ليهتدىَ إليهم ، فأقبلَ الصَّدَى يُحا كِيه ، ويؤدِّى إليه مثلَ صوته . ومعنى « حضأت له ناراً » فتحتُ عينَها لترتفع وتلتهب وقد أُوقِدَتْ بغلاظ الحطَب وكبارِها ، فقمت إلى الضَّيف متعجِّلا ، واستغنمت خدمتَه مُسارِعا لئلّا أُبادَرَ إليه فيغتنمَه غيرى ، ويفوزَ به سابقاً لى . وقوله « حضأتُ له ناراً » ، جواب رب .

وانتصب « مسرعاً » على الحال ، و « مخافةَ قومى » مفعول له ، أى فعلتُ ما فعلت لهذه العلّة فأ كثرَ الضّيفُ من إطرائى وتزكيتى ، وشُكرى وتقريظى ، وأ كثرتُ القِرى له محتفِلا ومتكثِّرا ، ومتودِّدا ومتكرما ، وما أرخَصَ حَمْداً جالِبُهُ أ كْلٌ ، وكاسِبُه إطعام . وقوله « كان كاسِبَهُ أ كل » جعل النكرة اسمَ

(١) تقيل الولد أباه : نزع إليه فى الشبه .

كان ، والمعرفةَ خبرا . والإبهامُ الحاصل من التنكير فى هذا الموضع أبلغُ فى المعنى المستفاد . ومثله قول النابغة[1] :

كأنَّ مُدامةً من بيت رَأْسٍ يكونُ مِزاجَها عسلٌ وماء

وإن شئت رويتَ : « وأرخِصْ بحَمْدٍ كان كاسبُهُ الأكل » ؛ وأمْرُه ظاهر .

٦٧٧

آخر :

١ — تركتُ ضأْنِي تَوَدُّ الذئبُ راعِيَها وأنَّهـا لا ترانى آخِرَ الأبدِ

٢ — الذئبُ يَطرُقُها فى الدهرِ واحدةً وكُلَّ يومٍ ترانِي مُدْيَةٌ بيدِي

قوله « تودُّ الذئب راعيها » ، لك أن تقول : عدّى تودّ إلى مفعولين ، ويسوِّغ ذلك فيه أنه عطف على مفعوله الأول قوله « وأنّها لا ترانى آخرَ الأبد » ، ويكون التقدير لكشفه : وتودُّ أنّها لا ترانى أبدا . ويشهد لهذا قول الآخر[2] :

ودِدتُ وما تُغنِي الوَدَادَةُ أنّني بما فى ضميرِ الحاجبيّةِ عالِمُ

ألا ترَى أنَّ وقوع « أنَّ » بعده يقرّب الأمر فى تعدّيه إلى مفعولين ، وأنْ يُجرَى مجرى أفعال الشّك واليقين ، كما تقول ظننتُ أنَّ زيداً منطلِقٌ ، وأصحابُنا النحويُّون بمثل هذا الاستدلالِ حكَموا على زَعَمْتُ بأنّه يتعدى إلى مفعولين . ولا يمتنع أن يكون « راعيها » فى موضع الحال ، والمراد راعياً لها ، ويتعدى تودُّ حينئذ إلى مفعول واحد . والمعنى أنَّ ضأْنى تتمنَّى أن يكون مدّبرها فى الرَّعْيَةِ

(١) كذا فى النسختين . والصواب أنه حسان بن ثابت . ديوانه ص ٣ ومعجم البلدان (بيت رأس) . وبيت رأس : موضع بالشام . ويروى : « كأن سبيئة » .

(٢) هو كثير عزة . الحماسة ٤٩٣ ص ١٢٨٧ .

أعدَى عَدُوٍّ لها ، وتخرج من مِلْكتِي ومِلْكِي ، حتَّى لا أراها آخر الدهر ، وذلك أن عدوَّها ينفع معه الحَذَر ، بل لا [يكاد[1]] يتمكن من الإضرار بها طُولَ الدهر إلاّ مرّة واحدة ، وذلك لعارضِ إهمال[2] أو اتّفاق سَهْوٍ و إغفالٍ ، أو لما هو عادةُ الزّمان فى انتهاء الآماد من الإرصاد ، وهى لا تحترزُ منّى إذا أردتُها وإن اجتهدَتْ ، ولا تطيق دَفْعَهَا لى و إن احتفلَتْ .

وقوله « الذئب يطرُقُها » هو بيانُ سببِ تمنّيها وكشف العِلّة فى تفاديها من أن تكون فى ضِمْن سياستِه[3] لها . وانتصبَ واحدةً على الظرف ، مرّة واحدة ، ويجوز أن يكون صفةً لمصدرٍ محذوف ، كأنّه أراد طَرْقةً واحدةً . وقوله « وكلَّ يوم » هو ظرف لقوله « ترانى مديةٌ بيدى » ، وموضع مديةٌ بيدى نصب على الحال ، أى ترانى حاملًا مُدْيةً لها ، ومتهيّئًا بآلةِ ذبحها . وإن شئتَ رويتَ « مُدْيةً » ، ويكون بَدَلاً من المضمر فى ترانى ، وهذا البَدَل هو بدل الاشتمال ، أى ترَى مُدْيةً . فأمّا وجهُ الرفع ، فالضّمير الذى بيدى استغنى عن الواو المعلِّقة للجُمَل بما بعدها وهى صفاتٌ أو أحوال ، لأنّ الضّمير يُعَلِّق كما يُعلِّق العاطف . وفى الوجه الثانى وهو البدلُ مثلُه قول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عن الشَّهْرِ الحَرَامِ قتالٍ فيه[4] ﴾ .

---

(١) التكملة من ل .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « لعارض لإهمال » .

(٣) ل : « سياسة » .

(٤) قراءة الجر هى قراءة الجمهور . وقرأ ابن عباس والربيع والأعمش : « عن قتال فيه » بإظهار عن ، وهكذا هو فى مصحف عبد الله . وقرئ شاذا : « قتال فيه » بالرفع . وقرأ عكرمة : « قتل فيه قل قتل فيه » بغير ألف فيهما . تفسير أبى حيان (٢ : ١٤٥) .

٦٧٨

آخر :

١ — ما أنَا بالسَّاعِى إلى أمِّ عاصِمٍ لأضْرِبَهـا إنى إذًا لجَهُولُ[(١)]

٢ — لَكِ البيتُ إلاَّ فَيْنَةً تُحْسِنينَها إذا حَانَ من ضَيْفٍ علىَّ نُزُولُ

قوله « لأضربَها » اللام منها لام كى . فإن قيـل : كيف يكون كذلك وفى صدر الكلام ما النافية ، ولِمَ لا يكون لام الجحود ؟ قلت : لام الجحود تقع بعد ما كان وما تصرَّف منه ، كقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كان اللهُ ليعذِّبَهُمْ وأنتَ فيهم ﴾ . وكقولك : ما كنت لأشتِمَك ، لأنَّه جواب قولِ قائل : كنت ستشتُمنى ، فأُجيبَ : ما كنت لأشتِمَك ، ولهذا لم يظهر معه أنْ النّاصبةُ للفعل وإن جاز ظهوره مع لام كى . و « إذًا » وقع لَغْوًا لافتقار ما قبلها إلى ما وَقَعَ بَعْدَها . والجهول : الكثير الجهل وبناؤُه للمبالغة[(٢)] . وهذا الكلام خارجٌ على سبب ، كأنَّه رأى إنسانًا يضرِب امرأتَه ويحول بينها وبين تدبيرها دَارَها ، فنَفَى عن نفسه مثلَ ذلك بعد أن اعتُقِد فيه أنَّه يقتدى به حتّى كأنه أجاب مَن قال له : أ كنت لتضربَ أمَّ عاصِمٍ ؟ فقال : ما أنا بالسَّاعى لذلك . وبَيَّن أنَّ ذلك يفعله المتناهِى فى الجهل والغَباوة .

وقوله « لكِ البيتُ إلا فَيْنَةً » حكى أبو زيد أنَّ قولَهم فَيْنَةً مما يعتقب عليه تعريفان : أحدها بالوضع ، والآخر بالألف واللام . ومثله شَعوبُ والشَّعُوب ، والمراد به المنيّة ، كما أنَّ المراد بالفَينة الوقت . كأنَّه أقبلَ على امرأته فقال : إليكِ تدبيرُ البيت ولك الأمرُ فيه نافذا إلا وقتا تُحسِنين فيه ، وهو وقتُ حين نزولِ الضَّيف فيه علىَّ ، لأنَّه من أجله يجب أن تَحْسنى إليه فيه ، وتدبِّرى له لا عليه ،

(١) كذا بالخرم فى النسختين . وعند التبريزى : « وما أنا بالساعى » .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وبناء المبالغة » .

لأنَّ البيت كأنَّه له ونحن مِن خَوَلِه . وقوله «تحسنينها» قدَّر الظَّرف تقدير المفعولِ الصحيح ، كما قال :

* ويوم شَهدناه[1] *

وما أشبهه . وروى بعضهم : « إلا فينة تَحْسَبِينَها[2] » أى تظنّين فيها أنّه لغيرك لا لك ، ويكون على هذا قد حُذف مفعولاً يَحْسِبُ وشُغِل بضمير الفَينة . والمعنى فى ذلك : تجعلين النَّظرَ له والتجمُّل ، والاحتفالَ بسببه . وانتَصَب « إلا فينةً » على الاستثناء من واجب[3] ، كأنَّه قال : لكِ البيت كلَّ وقت وساعةٍ إلاَّ ساعةَ كذا . وهذا الاستثناء من معنى لكِ البيت ، وممَّا انطوَى عليه فحوى الكلام . وقوله « إذا حَانَ من ضَيْفٍ علىَّ نُزول » موضعه نصبٌ على أنَّه بدل من فَيْنَةَ . و إنَّما قال إذا حان لأنَّ الاستعداد والاحتشاد يتقدَّمان النزول .

٦٧٩

وقال بعضُ بنى أسد :

١ — وسَوْدَاءَ لا تُكْسَى الرِّقَاعَ نَبيلةٍ لها عِنْدَ قِرَّاتِ العَشِيَّاتِ أَزْمَلُ

٢ — إذا ما قَرَيْنَاهَا قِرَاهَا تضَمَّنَتْ قِرَى مَنْ عَرانا أو تَزِيدُ فَتُفْضِلُ

---

(١) البيت بتمامه كما فى الكامل ٢١ ليبسك :

ويوم شهدناه سليماً وعامراً قليلا سوى الطعن النهال نوافله

(٢) التبريزى : « ويروى تحبسينها ، أى تتخلفين فيها عن تيسيرك طعام الضيف . قال أبو العلاء : وإذا رويت قينة احتمل وجهين : أحدهما أن يكون القينة الأمة ، أى أنت الحكمة فى البيت غير حبسك القينة عن القيام بما يجب للضيف . والآخر أن تكون القينة بمعنى الفقارة من الظهر . أى وفرى قرى الضيف عليه ولا تحبسى من الطعام شيئاً عندك فإن تقديمه إليه وهو كثير أجمل » .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « على استثناء واجب » .

أراد بالسَّوداء قِدْرًا ، و « لا تُكَسَّى الرِّقاع » فى موضع الصفة لها .

وفى طريقته قول الآخر[١] :

* إذا النيرانُ أُلبِسَت القِناعَا[٢] *

وجعلَها مكسوّةً قِناعا لأنّ الرُّقعة والرقعتين لا تَكفِى فى سَتْرِها لِعظَمِها . وإنَّما تُستَر القُدورُ لشدَّة الزَّمان ، بل تُعطَّل وتُرفَض لضيق الأحوال ، وقصور الأيدى عن المراد ، مع اتِّساع الغاشِيَةِ وتورُّد الطُّلَّاب .

ويشبه ما ذكَره من جمع الرِّقاع لعظم القِدْر قول الأعشَى ، وقد وصف امرأةً بعظَم العَجيزة :

* تَشُدُّ اللِّفاقَ عليها إزارَا[٣] *

أى تُلَفِّق بين ثَوبين حتَّى يتسع إزاراً لها .

ويجوز أن يريد أنَّها كبيرةٌ لا يمكن سَتْرُها بالرِّقاع ، أولا تستر ، كما قال :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها ينْجَحِرْ[٤] *

والمعنى لا ضَبَّ هناك فينجحر .

وقوله « نبيلة » أى عظيمة الشأن ، وخَصَّ قَرِّات العَشِيّات لأنَّها وقتُ الأضياف . والمراد : لها عند العشيّات القَرَّةِ أزْمَلٌ ، وهو الصَّوت ، والمراد غليانها . والقَرُّ والقُرُّ والقِرَّةُ : البرد .

---

(١) هو أبو زياد الأعرابى الكلابى ، كما سيأتى فى الحماسة ٦٩١ .

(٢) صدره : * له نار تشب على يفاع *

(٣) ديوانه ٣٨ . وصدره :

* فيارب ناعية منهم *

(٤) لعمرو بن أحمر ، كما سبق فى حواشى ١٢٠ ، ٢٤٠ ، ٥٩٩ ، ١٠٧٣ . وصدره :

* لا تفزع الأرنب أهوالها *

وقوله « إذا ما قَرَيْنَاهَا قِرَاها » ، يريد إذا ملأناها قِدَرًا وأوصالا تضمَّنتْ لنا الكفايةَ لمن[1] نابَنَا من حَيٍّ ، وأتانا من ضَيْفٍ ، أو تزيد عن المطلوب فتُفْضِلُ على غيرهم ممن لا يُمَدّ في الوقت ولا يُذكَر . ويروى : « فتَفْضُلُ » بفتح التاء ، وهو ظاهر المعنى ، والأوّل أحسن . وجعلَ المطبوخَ في القِدر قِرًى ليُطابق قوله : تضمَّنتْ قِرَى مَن عَرَانا . وعادتُهم في طِباق الألفاظ[2] ووِفاقِها في النِّظام معروفة .

٦٨٠

وقال آخر[3] :

١ — سَلِي الطَّارِقَ الُمعْتَرَّ يا أُمَّ مَالِكٍ   إذا ما أتاني بين قِدْرِي ومَجْزِرِي

٢ — أيُسْفِرُ وَجْهِي أنَّه أوّلُ القِرَى   وأبذُلُ معروفِي له دُون مُنْكَرِي

الطَّارِق : الآتي ليلا . وسَلِي أصله اسألي فحذفت الهمزة وأُلقِي حركتها على السِّين ثم استُغنِي عن الهمزة المجتلبة ، لتحرك السين بالفتحة ، فحذفت . والمعترّ : المتعرِّض ولا يَسأل . يقال : عَرَّهُ واعتَرَّهُ بمعنًى . وفُسِّرَ في التنزيل قوله تعالى : ﴿ فكلُوا مِنْها وأطعِمُوا القَانِعَ والُمعتَرَّ ﴾ على ذلك ، لأنَّ القانع قيل هو السَّائل ، والمعترّ الذي يتعرَّض ولا يتكلَّم . وقال الأصمعيّ : عراه واعتراه وعَرَّه واعتَرَّهُ ، إذا أتاه طالباً لمعروفه . وقوله « إذا ما أتاني بين قدرى ومجزرى » يريد إذا أتاني في موضع الضِّيافة ودارها بين مَسْقِطِ الُجزُرِ ومَنْصِبِ القُدور . والمعنى : سَلِي أضيافي عن أخلاقي معهم ، وكيْفِيَّةِ إكرامي لهم في مَثْواهم ، وهل أتدرَّجُ في

(١) كذا في النسختين . كأنه نظر الى قوله « وأتانا من ضيف » .

(٢) في الأصل : « اللفظ » ، صوابه في ل .

(٣) هو عروة بن الورد . ديوانه ٩٩ . وقد سبقت ترجمة عروة في ص ٤٢١ . وعند التبريزي : « وقال آخر ، عروة بن الورد » ، وقد تكون زيادة ناسخ .

مدارج الخدمة وأتوصَّل بأنواع التودُّد والقُربة من ابتداء نُزُولهم ، إلى انتهاء ذَهابهم عنِّي وخُفوفِهم . وإنَّما خاطب امرأةً على عادتهم فى نِسبة الملامات بسبب التَّبذير والإسراف والتوسُّع فى الإنْفاق إليهنَّ ، وإقامة الحِجاج والجِدال فى الانصباب إلى جوانب الخسارات معهنَّ . ويجوز أن يكون التبجُّح عندها بما يُحْمَد من خِصاله ، فلذلك خصَّها بالخطاب .

وقوله « أيُسْفِرُ وجهى » فى موضع المفعول الثانى لسَلِى ، وقد اكتفى به لأنَّ فى الكلام إضمارَ أمْ لَا . وساغ حذفُه لما يدلُّ عليه من قرائن اللفظ والحال . وقال سيبويه : « لو قلتَ علمتُ أزيدٌ فى الدَّار لا كْتُفِىَ به من دون إضمار . ولو قلتَ : سواءٌ علىَّ ، أو ما أبالى ، لم يكن بُدٌّ من ذِكْر أمْ لا بعدها » .

ومعنى قوله « أنَّه أوَّلُ القِرى » ، يريد أنَّ إظهار البَشاشة للضَّيف وتطلُّقِ الوجه معه ، وإظهارَ السرور بقصده ومَثواه من أوائل قِراهُ . ثمَّ التَّرحيبَ به وإيناسَهُ مِن بَعْدُ حتَّى كان يُنتظَر كما ينتظر الغائب الآيب ، ثم المبالغةَ[١] فى الإنزال وحَطِّ الأثقال ، وإظهار سَعَةِ الرَّحْل والمكان إلى غير ذلك — ممَّا يَبْسُطُ منه ، ويُزيل الحِشمةَ والانقباض عنه ؛ لذلك قال :

* وأبذل معروفى له دون منكرى *

لأنَّ قوله « معروف » دخلَ تحتَه كلُّ محمودٍ من الأفعال والرُّسوم ، كما أنَّ قوله « دون منكرى » اشتَمل على نَفْيِ كلِّ مذموم من الخصال والأمور . وقيل : إنَّ المنكَر هو أن يَسألَ عن حاله ونسَبه ، وقَصدِه فى سفَره ، وكيفيَّة مأتاه حينَ نزلَ به ؛ لأنَّ جميعَ ذلك مما يجلب عليه حياء ، ويُوسِعه نفوراً وإمساكاً[٢] . والضمير من قوله « أنَّه أوَّل القِرى » لما يدلُّ عليه قوله « أيُسْفِرُ وجهى » ؛ لأن

(١) فى الأصل : « ثم أماثبه » ، صوابه فى ل .
(٢) ل : « إمساكا ونفوراً » .

الفعل يدلُّ على مصدره . والمراد أنَّ الإسفار أوَّلُ القِرى ، وعلى هذا قولُهم : مَن كَذَبَ كان شرًّا له ، وما أشبَهَه .

٦٨١

آخر :

١ — وإنَّا لمشَّاؤون بَيْنَ رِحالِنا إلى الضَّيف مِنَّا لاحِفٌ ومُنيمُ[(١)]

٢ — فذو الحِلْمِ منَّا جاهلٌ دون ضَيفِهِ وذو الجهل مِنَّا عَنْ أذاهُ حَليمُ

قوله « إنا لمشَّاؤون » إبانةٌ عن حسن خِدمتهم للضَّيف ، وعن قُربِ مَحطِّه مِن رحالهم ومَقَارِّهم[(٢)] . وقوله « منَّا لاحِفٌ ومنيمُ » يريد : ومنَّا مُنيم ، فحذف لأنَّ المراد مفهوم . وفى القرآن : ﴿ مِنْها قائمٌ وحصيدٌ ﴾ . واللاحِفُ والمُنيمُ إنَّما ينهضان بعد تَقَضِّى الإطعام والإيناس . ألا تَرَى قولَ الآخر[(٣)] :

أُحَدِّثُهُ إنَّ الحديثَ من القِرَى وتَعلَمُ نفسِى أنَّه سوف يَهْجَعُ

وقوله « فذو الحلم منّا جاهلٌ دون ضَيفه » فى هـذا البيت بعضُ ما فى قول الآخر :

* وأبذلُ معروفى له دونَ مُنْكَرِى[(٤)] *

وإنما يتجاهل الحليمُ دون ضيفه إذا أوذِىَ عند طلب ثأرٍ من جِهَته أو تَخشينِ جانبٍ له بكلامٍ أو فَعال .

وقوله : « وذو الجهل مِنّا عن أذاه حليمُ » ، يريد به وإنْ أخَذَ الضَّيفُ يؤذينا تَرَى الجهول يحتمله ، ويَغفر زَلَّتَه ، ولا يَطلب مؤاخذتَه ومكافأته .

---

(١) ل : « إنا لمشاؤون » بالجزم .

(٢) ل : « ومعارفهم » . ونراها : « ومقاربهم » .

(٣) هو عتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سيأتى فى الحماسية ٧٦٢ .

(٤) عجز البيت الثانى من الحماسية ٦٨٠ . وفى الأصل : « فما بذل » صوابه فى ل .

٦٨٢

وقال ابن هَرْمَةَ[١] :

١—أغْشَى الطَّرِيقَ بقُبَّتِى ورِواقِها   وأَحُلُّ فى نَشْزِ الرُّبَى فأُقِيمُ[٢]

٢—إنَّ امرأً جَعَلَ الطَّرِيقَ لِبَيْتِهِ   طُنُبًا وأَنْكَرَ حَقَّهُ لَلَئِيمُ

يقارب ما قاله قولُ الآخر :

يَسِطُ البُيوتَ لِكَى يكونَ مَظِنَّةً   من حيثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ المُسْتَرْفِدِ[٣]

وقول الآخر[٤] :

ويَأْبَى الذَّمُّ لى أنِّى كريمٌ   وأنَّ مَحَلِّىَ القَبَلُ اليَفَاعُ[٥]

وذاك أنَّ الكِرَام ينزلون الرَّوابِى والإكام[٦] ، ويتوسَّطون النَّاسَ فى أيّام الجدب ، وعند اشتمال القحط ، لكى تهتدى إليهم السابلة والمارَّة ، ويشتركَ فى خيرهم الدّانى والقاصى . واللِّئام ينزلون الأهْضامَ و بطون الأودية ، و يتفرَّدون عن النّاس إبقاء على زادهم ، وضِنًّا بطعامهم ، وتَفاديًا من أن تُعرفَ أماكنُهم فيكثر قَصدُ أبناء السَّبيل لهم ، ووطْؤُهم إيّاهم ، وتنضمَّ الطوائف والفِرَق إليهم . لذلك قال المُرَقِّش :

* وعادَ الجميعُ نُجْعَةً للزَّعانِفِ[٧] *

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٧٠ ص ١٢٤٧ .

(٢) التبريزى : « ويروى : فى قلل الربى » .

(٣) سبق فى ص ٩٦٤ . وهو فى اللسان (وسط ٣٠٩) محرف .

(٤) هو ربيعة بن مقروم . البيت ٧ من المفضلية ٣٩ .

(٥) كلمة « لى » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من ل والمفضليات . والقبل ، بفتحتين : ما استقبلك من الجبل .

(٦) ل : « والآكام » . وتجمع الأكمة على أكم بالتحريك ، والأكم على إكام ، والإكام على أكم بضمتين ، والأكم على آكام مثل عنق وأعناق .

(٨) البيت ١٢ من المفضلية ٥٠ . وصدره :

* وكان الرفاد كل قدح مقرم *

أى تأوى الفِرق القايلة إلى الجَمْع[1] ، لتعيش بعيشهم . فيقول : إنّى أنزِلُ على الطَّريق وأبنى عليها قُبّتى ، وقد مُدَّ رِواقُها ورُفِـع سَمْـكُها لتمتدّ العيونُ إليها ، ويغشانى ذَوُو الحاجاتِ فيها . وكذلك أحُلُّ التِّلاع والنِّشازَ تشهيرًا لمكانى ، وتعرُّضا لتعليق الآمال بِى إذا اشتدَّ الزمان ، وأوثِرَ الخُمولُ والاندِفان . والقِبابُ يتّخذها الرؤساء ، فلذلك خَصَّها بالذكر ، ولم يرض بذلك حتّى جعل لها رواقاً ممدوداً ، وموضِعاً له من الطَّريق مَغْشيًّا موطوءا .

ولمثل ذلك قال أبو تمام :

لولا بنو جُشَمِ بن بكرٍ فيكمُ   رُفِعَتْ خِيامُكمُ بغير قِبابِ[2]

والنَّشزُ : ما ارتفع من الأرض . والرُّبَى : جمع رُبوة . ولم يرْضَ بالحلول حَتَّى وَصَلَه بالإقامة .

وقوله « إنَّ امرأً جعلَ الطَّريق لبيته طُنُباً » ، أراد جَعَلَ الطريق موضع طُنُبِ بيته ، فحَذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . ويجوز أن يكون على القَلْب ، أراد : جعل طُنُبَ بيته للطَّريق ، أى مما يليه ، ثمَّ لم يقمْ بحقّه ولم يلتزم ما يجب عليه فيه ، لَلَئيم . وإنَّما أعاد هذا الذكرَ تأكيداً لما يأتيه ، واعترافاً بالواجب فيه . والأطْنَاب : حبال البيوت ، قال الشاعر :

* تُقَطِّعُ أطنابَ البُيوتِ بحاصب[3] *

وقد تسمَّى عروقُ الشَّجر أطناباً على التشبيه ، وهـذا كما سمِّيت أذناباً وأشطانا . قال :

. . . . تستقى   بأذنابها قبـل استقاء الحناجرِ

(١) ل : « الجميع » .
(٢) من قصيدة له فى ديوانه ١٨ — ٢١ يمدح فيها مالك بن طوق التغلبى .
(٣) فى الأصل : « بحاصبة » ، صوابه فى ل .

وقال آخر :

* أشطانها فى عِذَاب البَحْرِ تستَبِقُ *

٦٨٣

وقال آخر[1] :

١ — ومُسْتَنْبِحٍ يَستكشِطُ الرِّيحُ ثوبَهُ ... ليسقُطَ عنه وهو بالثّوبِ مُعْصِمُ[2]

٢ — عَوَى فى سَوَادِ اللَّيلِ بعد اعتسافِهِ ... لِيَنْبَحَ كَلْبٌ أو لِيَفْزَعَ نُوَّمُ

كَشَطَ واستكشط بمعنًى ، فهو كعجِب واستعجب . والكَشْطُ يقارب الكشف . ويقال : كُشِطَ الجلدُ عن الجَزُور ، ويُستعمَل فى الجزور خاصّةً كثيراً وإن أُجْرِىَ على غيرِه أيضاً . والجلد يقال له الكِشاط ؛ يقال : ارفَعْ عنه كِشَاطَهُ . والمُعْصِم والمستعصم واحد ، وهو المستمسك بالشّىء . وإنّما أراد أن يصوِّر حال المستنبح وما هو ممنوٌّ به من البرد والرِّيح[3] .

وقوله « عَوَى فى سَوَاد الليل » أى نبح وصاح . وفى المثل السائر : « لَوْلَاكَ عَوَيْتُ لم أَعْوِ[4] » . وأصله المستنبح أجابَه الذِّئب . ويقال « فلانٌ ما يُعوِى ولا يُنْبِح » إذا استضعِف . ويقال للدّاعى إلى الفتنة : عَوَى ، تشبيهاً له بالكلب وإزراء به . فأمّا قولهم للحازم : « ما يُنْهَى ولا يُعْوَى » ، فالمعنى لا يُثْنَى ولا يُردُّ . وعوَيتُ الشّىء ولويتُه بمعنًى . والاعتساف : الأَخْذ فى الطريق على غيرِ هداية . وإنّما قال « أو ليَفْزَعَ نُوَّمُ » لأنّهم إذا انتبهوا لصَوته أجابوه أو تلقّوه أو رفعوا النّارَ له[5]

---

(١) هو إبراهيم بن هرمة . البيان (٣ : ٢٠٥) . والأبيات بدون نسبة فى الحيوان (١ : ٣٧٧ — ٣٧٨) .

(٢) التبريزى والحيوان : « تستكشط » .

(٣) يقال مناه بالشىء يمنوه ويمنيه ، أى ابتلاه ، فهو واوى يائى .

(٤) انظر المعمرين للسجستانى ١٤ فى كلام أكثم بن صيفى .

(٥) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « رفعوا لنازله » .

وذلك على حَسَب مكانه منهم فى القُرب والبُعْد . وجوابُ رُبَّ : عَوَى .

٣ — فجاوَبه مُسْتَسْمِعُ الصَّوتِ للقِرَى ... لَهُ مَعَ إتْيانِ المُهِبِّينَ مَطْعَمُ

٤ — يكادُ إذا ما أبصَرَ الضيفَ مُقْبِلًا ... يُكلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وهو أعْجَمُ

يعنى بمستسمع الصَّوت : الكلب . ويقال : استسمع بمعنى سمع ، فهو كاستعجب وعجب . وإنما قال « مع إتْيان المُهِبِّين مطعم » لسَعة عيش الكلب فيما يُنْحَرُ للضَّيف . والمُهِبُّون : الأضياف . ويقال : هَبَّ من مَنامه ، وأهببتُه .

وقوله : « يكاد إذا ما أبصرَ الضّيف مُقبِلًا يكلِّمه » ، أى يكاد الكلبُ يكلِّمُ الضيف حُبًّا له إذا أقبَلَ ، على عُجمته . وانتَصَب « مقبلا » على الحال ، والكلبُ ممَّا يُوصَف به حُبُّه للضَّيف ، لذلك قال الآخر :

حَبيبٌ إلى كلب الكريم مُنَاخُه ... بَغيضٌ إلى الكَوْماء والكلبُ أبصَرُ[1]

وحبُّه للطَّاعن ، لذلك قيل فى المثل : « أحبُّ أهل الكلب إليه الظّاعن » وحبُّه لوقوع الآفات فى المال ، لذلك قيل فى المثل : « نعِمَ كلبٌ فى بُؤْسَى أهلِه[2] » . واللام من قوله « للقرى » يجوز أن يتعلّق بقوله جاوَبه ، أى لهذه العِلّة جاوَبه ، ويجوز أن يتعلّق بقوله مستسمع الصوت .

٦٨٤

وقال سالم بن قُحْفَان[3] :

١ — لا تَعْذُلِيني فى العَطَاءِ ويَسِّرِى ... لكلِّ بَعيرٍ جاء طالبُه حَبْلَا

(١) البيت من الحماسية ٧٢٠ .

(٢) انظر المعمرين للسجستانى ص ١٤ .

(٣) سالم بن قحفان العنبرى ، كما عند التبريزى والقالى (٢ : ٤) واللآلئ ٦٣١ . وكان من خبر الشعر أن سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيراً من إبله وقال لامرأته : هاتى حبلا يقرن به ما أعطينا إلى بعيره ، ثم أعطاه بعيراً آخر وقال : هاتى حبلا ، ثم أعطاه ثالثاً فقال : هاتى حبلا . فقالت : ما عندى حبل . فقال : على الجمال وعليك الحبال . فرمت إليه خمارها وقالت : اجعله حبلا لبعضها . فأنشأ يقول هذه الأبيات . انظر للقصة المراجع السابقة .

٢ — فإنِّىَ لا تَبكِى عَلَىَّ إفَالُها إذا شَبِعَتْ من رَوْضِ أوطانِها بَقْلَا
٣ — فلَمْ أرَ مِثْلَ الإبلِ مَالًا لمُقْتَنٍ ولا مِثْلَ أيَّامِ العَطاء لها سُبْلَا[1]

كانت امرأتُه عاتَبتْه وأنكرَتْ منه تبذيرَ المال، وقلّةَ الفكر فى عواقب الأمور وحاضِرِ العِيال، وقال لها اطْرِحى اللّوم معى فيما تعوّدتُه وأجرِى عليه من البَذْل والسَّخاء، وهيِّئى لكلِّ بعير جاء طالبٌ له حَبْلًا يقتاده به، حتّى تكونى شريكًا لى فى العَطاء ومُعِينًا، واعلَمِى أنّى إن أبْقَيْتُ على مالى وسعيت فى توفيرها وتثميرها، وأهنتُ نَفْسى بإعزازها، فإنّها لا تبكى علىَّ إفالُها إذا مِتُّ وقد طاعَ لها المَرتَع من قبلُ فشَبِعت من بُقول الرِّياض، وسمِنت بالتّوديع وحسن الإرعاء، ولا تذكُرُنى بجميل، وإنما يفعل ذلك من أحسنتُ إليه فى حياتى واصطفيته[2] بإسدائى، وآثرْته باتّخاذ الأيادى إليه، وإكمال النِّعَم عليه.

وقوله «لم أر مثل الإبل مَالاً لمُقْتَنٍ» فالمقتنِى: الذى يتَّخذها قِنْيَةً للنَّسْل، والمراد أنّها إذا لم يوجد للاقتناء خيرٌ منها، فلا طريقَ تُصَرف إليه أصلحُ من طُرُق[3] الحقوق الرّاتبة فيها. وانتصب «بَقْلًا» على التمييز. وإنّما قال «لا تبكى علىَّ إفالُها» وهى الصغار منها، والواحد أفِيلٌ، إزراء بها إذْ صارت

(١) التبريزى: «أيام الحقوق». وبعده عند التبريزى: «فأجابته امرأته:

حلفتُ يمينًا يا ابنَ قَحْفان بالذى تكفَّلَ بالأرزاق فى السَّهل والجبَلْ
تَزالُ حِبالٌ مُحصَداتٌ أعِدُّها لها ما مَشَى منها على خُفِّه جَمَلْ
فأعطِ ولا تبخلْ لمن جاء طالبًا فعِندى لها خُطْمٌ وقد زاحت العللْ

قولها تزال، أى ما تزال. وجاز حذفها لدلالة اليمين عليها. وزاحت بمعنى زالت. وأزحتها: أزلتها».

(٢) ل: «واصطنعته».

(٣) ل: «من طريق».

إرْثا[1] ، ولم تدخل تحت ما فرّقهُ فى النوائب الطّارقة ، والفُروض الواجبة[2]

٦٨٥

وقال آخر :

١ — ألا تَرَيْنَ وقد قَطَّعْتِنِى عَذَلاً ماذا من البُعْدِ بين البُخْلِ والجُودِ

٢ — إلاَّ يَكُنْ وَرَقٌ غضًّا أُرَاحُ به لِلْمُعْتَفِينَ فإنِّى لَيِّنُ العُودِ

يخاطب امرأةً ويقرِّرها على ما أنكرَتْ عليه فى السَّخاء والبَذْل ، ويُريها أنَّ الصَّواب فيما يختاره ويجرى عليه من اكتساب الحمْد ببذل ما تملكه يدَاه ، وابتناء المكْرُمات بالتخرُّق فى العطاء ، فيقول : قد قَطَّعْتِنِى لَوْماً ، وحَرَّقْتِنِى توبيخا وعَذْلا ، ومتى راجعتِ نفسَكِ ، وناجيتِ عَقْلَكِ ، وخايرت تجرِبَتَكِ عرَفتِ التَّفاوُتَ بين الإمساكِ والبَذْل ، وبين التسخِّى والبُخْل ، وبان لَكِ أنَّ الصوابَ فيما أختارُهُ ، وعلى تغيُّر الأحوال أُراجِعُه وأعتاده ، وأنَّ الخطأ فيما تبعثين عليه ، وتَسُوقين إليه . ثم قال : إنْ كان فى مالى قصورٌ عن المراد ، وقعود عند حُضور المرتاد ، فإنَّ نفسى سَمْحَةٌ مجيبة ، وعلى ما تقصر الحالُ عنه متحسِّرة ، وسيعود عُودِى وَرِيقاً ، فحينئذ أرتاحُ للمُفاة بوَرَقٍ غَضًّا طريًّا ، وأُزِلُّ معروفى موفوراً هنيًا . ويقال : رِحْتُ له أرَاحُ ، أى ارتَحْتُ . وقيل : الأَرِيحى أفْعَلِيٌّ من هذا . وذِكر الورَق كنايةٌ عن المال الكثير فى كلامهم . قال زهير :

وليسَ مانِعَ ذى قُرْبَى ولا رَحِمٍ يوما ولا مُعْدِماً من خابِطٍ وَرَقا

---

(١) ل : «لرداءتها إذا صارت إرثاً » .

(٢) ذكر البكرى أن البيت الثانى من هذه القطعة مأخوذ من قول ضمرة بن ضمرة :

أرأيت إن صرخت بليل هامتى وخرجت منها بالياً أثوابى

هل تخمشن إبل على وجوهها أو تعصبن رءوسها بسلاب

لما استعار الورَق للمال وَصَله بالخابط تشبيهاً[1] للفظه، وتحسيناً لـكلامه، وكذلك هذا لمّا كَنَى عن معروفه بالورَق وصَلَهُ بالعُود. وإذا لانَ العودُ اهتزَّ، وعن الاهتزاز للخير يحصل التَّندِّى ويَكْرُم الطَّبعُ.

٦٨٦

وقال قَيْسُ بن عاصم[2]:

١ — إنِّى امْرُؤٌ لا يَعْـتَرِى خُلُقِى دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أَفْنُ[3]

٢ — مِن مِنْقَرٍ فى بَيْتِ مَكْرُمَةٍ والفَرْعُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الغُصْنُ[4]

٣ — خُطَباء حِينَ يَقُومُ قائِلُهمْ بِيضُ الوُجُوهِ مَصَاقِعٌ لُسْنُ

٤ — لا يَفْطَنُون لعَيْبِ جارِهِمُ وهُمُ لحِفْظِ جِوَارِهِ فُطُنُ[5]

قوله «يفنِّده» أى يفحِّشه، والفَنَد: الفُحْش. ويقال: أَفْنَدَ الرَّجلُ، إذا أتَى بالفُحْش. والأَفْنُ أصلُه فى استخراج اللَّبَن من الضَّرع حتَّى يخلوَ منه، ثم قيل: أُفِنَ الرَّجُل فهو مأفون، إذا زالَ عقله. والمعنى: إنِّى رجلٌ لا يتسلَّط على خلقى ما يدنِّسه ويفحِّشه من تغيُّر وتبدُّل، وتسرُّع إلى الشرّ وتلوُّن، وزَوالٍ عن السَّنَن المعهود، وذَهابٍ فى طريقِ[6] المأفون المَعتوه، ولـكنَّنى أبقَى

(١) فى الأصل: «تشنيعاً»، صوابه فى ل.

(٢) هو أبو على قيس بن عاصم بن سنان المنقرى التميمى، شاعر فارس شجاع، وكان سيداً فى الجاهلية والإسلام، صحب النبى فى حياته وعاش بعده زمانا، وهو أحد من وأد بناته فى الجاهلية بل يزعمون أنه أول من وأد. الإصابة ٧١٨٨ والأغانى (١٢: ١٤٣—١٥١). وروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار (١: ٢٨٦) أنه أنشد الشعر التالى حينما علم أن ابن أخيه قد قتل ابنه.

(٣) فى أمالى القالى (١: ٢٣٩): «لا يعترى حسبى».

(٤) التبريزى: «والغصن». البيان (١: ٢١٩): «والأصل».

(٥) فى أحد أصول البيان: «وهم لحسن جواره». وفطن يقال من باب فرح ونصر وكرم.

(٦) ل: «طرائق».

على حالةٍ واحدة محمودة ، لا أَحُول ولا أزول . ثم إننى من بنى مِنقَرٍ فى بيت من الكَرَم قد فَرَعْتُه ، والفَرْع من شأنه أن يلتفّ بأغصانه النّابتةِ حولَه . وهذا مثلٌ ضرَبَهُ للمحتفِّين به من أقاربه ، والآخِذِين إخذه فى طبائعه ومَذَاهبه . ثم وصَفَهم فقال : هم خطباء إذا قامَ قائلهم يُبِينُ عن نَفْسه وعن عشيرته ، كِرَامٌ لا يسوِّد وجوهَهم عارٌ فى الأصل ، ولا شَيْنٌ مُكتَسَبٌ على وَجه الدَّهر. المَصَاقِعُ : جمع مِصقع ، وأصل الصَّقْع الضَّرب ، وكما وُصِفَ به اللِّسان وُصِف بالسَّلْقِ والصَّلْق فقيل : خطيب مِصْقَع مِصْلَقٌ مِسْلَقٌ سَلَّاق . وفى القرآن : ﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ . واللُّسُن : جمع الألسِنِ . ويقال : لَسِنَ يَلْسَنُ لَسَناً ، إذا تناهَى فى البَلاغة والفصاحة . ويقال لَسَنْتُ فلاناً ، إذا ضايقتَه فيما يجاذِبُه من الكلام . على هذا قوله :

* وإذا تَلْسُنُنِى أَلْسُنُها[1] *

وقوله : « لا يفطُنون لعيبِ جارهم » ، يقول : هم يُلابِسون الجار على ظاهر أمره ، لا يتجسَّسون عليه ، ولا يتطلَّبون مشاينَه ومَقَابِحَه ، وإن اتّفق له ما يوجب عليهم حِفظَه لِعَقد الجوار فَطِنُوا له ، وحافَظُوا عليه . وإنما قال هذا لِمَا سارَ فى النّاس وجَرَى مَجرى الأمثال ، من أنَّ التكرُّمَ مِكيالٌ ثلثاه حُسن الفِطنة وحِدَّة الذَّكاء فى العارضات ، وأنَّ اللُّؤمَ مكيالٌ ثلثاهُ سوء الفطنة واستعمالُ التجوُّز فى الواجبات . والفُطْن : جمع فَطِنٍ وهو كخشِنٍ وخُشْنٍ .

(١) لطرفة بن العبد فى ديوانه ٦٥ طبع قازان . وعجزه :

* إننى لست بموهون فقر *

٦٨٧

وقال ابن عَنْقاءَ الفزارِىُّ(١) :

١ — رآنى على ما بى عُمَيْلَةُ فاشْتكَى ... إلى مَالِهِ حَالِى أسَرَّ كَمَا جَهَر

٢ — دَعانى فآسانى ولو ضَنَّ لم أَلُمْ ... على حِينَ لا بادٍ يُرَجَّى ولا حَضَر(٢)

٣ — فقلتُ له خيرًا وأثنيتُ فِعلَهُ ... وأوفاكَ ما أسديْتَ مَن ذَمَّ أو شكر(٣)

يقول : رَاعَى حالِى عُمَيلةُ وتأمَّلَها على ما بها ، فأنهَى رثاثتَها واختلالها إلى مالِه ، متحمِّلا الشَّكوى منها على قلبه ونفسِه ظاهراً وباطنا ، ومُسِرًّا ومُعلِنا ، لا يَشُوبه مُداجاةٌ ولا نِفَاقٌ ، ولا يتخلَّل قِوَله مخاتَلةٌ ولا رِياء ، بل اعتَنَى به على خلوص نِيّة(٤) ، واهتمامٍ بإحسان مع نَقَاء طَوِيَّة .

وقوله « دعانى فآسانى » ، يقول : ابتدأ فى تغيير حالى ، وإزالةِ ما مَسَّنِى

---

(١) اسمه أسيد بن عنقاء ، كما فى الصحاح (سوم) وأمالى القالى (١ : ٢٣٧) .

وكان من سبب الشعر ما رواه التبريزى ، قال أبو رياش : مر عميلة الفزارى على ابن عنقاء الفزارى وهو يحتش لغنمه ، وقيل يحفر عن البقل ويأكله ، فقال : يا ابن عنقاء ، ما أصارك إلى هذه الحال ؟ فقال له ابن عنقاء : تغير الزمان ، وتعذر الإخوان ، وضن أمثالك بما معهم . فقال عميلة : لا جرم والله لا تطلع الشمس غداً إلا وأنت كأحدنا . ثم انصرف كل واحد منهما إلى أهله ، وكان عميلة غلاماً حين بقل وجهه ، فبات ابن عنقاء يتململ على فراشه لا يأخذه النوم اشتغالا بما قال له عميلة ، فقالت له امرأته : ما شأنك ؟ فأخبرها الخبر فقالت : قد خرفت فذهب عقلك حتى تعلق نفسك بكلام غلام حديث السن لا يحفل بما يجرى على لسانه . ويحكى أنه لما أصبح قالت له ابنته : لو أتيت عميلة ، فقد وعدك أن يقاسمك ماله . فقال : يا بنية ، إن الفتى كان سكران ، ولا أدرى لعله لم يعقل ما قاله . فبينا هى تراجعه الكلام إذ أقبل عليهم كالليل من إبل وغنم وخيل ، وإذا عميلة قد وقف عليه فقال : يا ابن عنقاء ، اخرج إلىّ . فخرج إليه فقال : هذا مالى أجمع ، هلم نقتسم . فقاسمه إياه بعيراً وبعيراً ، وفرساً وفرساً ، وشاة وشاة ، وجارية وجارية ، وغلاماً وغلاماً ، ثم انصرف . فقال ابن عنقاء هذه الأبيات .

ومثل هذا الخبر فى أمالى القالى .

(٢) التبريزى والقالى : « على حين لا بدو » .

(٣) القالى : « وأوفاك ما أبليت » . والبيت آخر الأبيات عند التبريزى .

(٤) ل : « عن خلوص نية » .

من فَقْرىَ من ذات نفسه ، فجَبَرَنى وانتاشنى ، ولو سَعَى سَعْى غيره من البُخَلاء لم يَلحقْه منِّى عيب فى وقتٍ قد تساوَى النَّاسُ فى المَنع واطِّراح الحقوق حتَّى لا ذُو البَدْوِ يُرَجَّى ولا ذو الحضَر . وقوله « ولا حَضَر » حَذَف المضافَ وأقام المضاف إليه مَقامه . وهذا كما يقال : الجُودُ حاتِم ، يراد جُود حاتم . وكان الوجه أن يقول : ولا حاضر ، مع ذكر البادِى ، ليكون الكلامُ أشدَّ التئاما ، أوْ يقول : فلا بَدْوٌ يرجَّى ، مع قوله ولا حضر .

وقوله « فقلت له خيراً » ، يقول : شكرتُه على اصطناعه ، وأثنيتُ على فِعله ، وكثَّرتُ فى النَّاس ما تكلَّفَه لى وتبرّع به ونشَرتُه . وقد وفَّاك حَقَّكَ فى الإسداء مَن حَمِدك ، كما وفَّاك فى المكافأة مَن أسأتَ إليه إذا ذَمَّك . وكان وجه الكلام أن يقول : وأوفاك ما أسديت أو أسأت من ذَمٍّ أو شكرٍ ، فاقتصر على ذكر الإسداء وإن كان يستعمل فى الخير لا غَير . وأصله من السَّدَى وهو نَدَى اللَّيل خاصَّة . يقال : سَدِيَتْ ليلتُنا ، إذا كثُرَ نداها ، ولا يكاد يُستعمل فى النَّهار . قال :

* فأنت النَّدَى فيما يَنُوبُك والسَّدَى *

وقيل أصله من السَّدْوِ ، وهو التَّذرُّع فى المَشْى اتِّساع الخَطْو . يقال : سَدَى البعيرُ وأسديتُه ، والأوَّل هو الصَّواب .

ومثل قوله « وَافَاكَ ما أسْدَيْتَ مَن ذَمٍّ أو شكَرَ » قولُ الآخر[١] :

فما أدرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً أريدُ الخيرَ أيُّهما يَلِينِى

لأنَّ المراد أريد الخير وأجْتَنِبُ الشرّ ، فاكتفَى بذكر أحدِهما ، ألا تَرَى أنَّه قال مِن بَعْدُ :

أألخيرُ الذى أنا أبتغيه أمِ الشَّرُّ الذى هو يَبتَغِينى

(١) هو المثقب العبدى . البيت ٤٤ من المفضلية ٧٦ .

وقوله « وأثنيتُ فِعْلَه » أصلُه على فِعْلِه ، فحذف الجارّ ووصل الفعل بنفسه .

٤ — غلامٌ رماه اللهُ بالخيرِ مُقْبِلاً　　له سِيمِياءٌ لا تَشُقُّ على البَصَرْ[1]

٥ — كأنَّ الثُّريا عُلِّقَتْ فوق نَحْرِهِ　　وفى أنفه الشِّعْرَى وفى خَدِّه القَمَرْ[2]

٦ — إذا قِيلَتِ العَوْرَاءُ أغضَى كأنه　　ذَليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاء لانْتَصرْ[3]

قوله « رماه الله بالخير » معناه كساه الخيرَ ومسَحه به مُقْبِلًا فيه لا مُدْبِرا . وقد كشَف معنى الرَّمى بقوله : « له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر » ، يريدُ ما عليه من حسن القَبول والتمكُّن من النُّفوس والقُلوب ، حتّى إنّ المبصرين له يجدُون راحةً فى النَّظَر إليه ، فلا تملُّها العُيون ، ولا تنطبق دونها الجُفون . ومثل قوله : رماه الله بالخير فى باب الاستعارَة ، قولُه تعالى : ﴿ وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى ﴾ .

والسِّيمياء أصله العلامة ، ومنه الخيل المُسَوَّمة . ويقال سِيمَاء وسِيمِيَاء جميعا . وانتصَبَ « مُقْبِلًا » على الحال . وتحقيق معنى سيمياء أى قد وسمه الله تعالى بسيمياء حسنةٍ مقبولة ، يلتذُّ النّاظرُ بالنَّظر إليها .

وقوله « كأنَّ الثُّريّا عُلِّقت فوق نحره » [يريد أنّه قد غشِّىَ من كل جانب بما ينوِّره ، فالثُّريّا فوقَ نَحرِه[4]] ، والشِّعْرى ، يعنى العَبُور ، مُرْكَزَةٌ فى أنفه ، والقمر متلألئٌ فى خدّه ، فهو نورٌ على نور .

وقوله « إذا قيلت العَوراء أغضى » ، كأنّه يصف فيه اجتواءه الخَنا والفُحش ، واطِّراحَه لقُبح القول ، ورفْضَه لأنواع الهُجْر ، فمتى ذُكِرَتْ عنده فحشاء أطرقَ

---

(١) التبريزى : « بالخير يافعاً » .

(٢) ل : « علقت بجبينه » وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة : « فوق نحره » . التبريزى : « علقت بجبينه وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر » .

(٣) بعده عند التبريزى :

ولمّا رأى المجدَ استُعِيرتْ ثيابُه　　تردَّى رِداءً واسعَ الذَّيلِ وائتزَرْ

(٤) التكملة من ل .

مغضياً ، عاركاً بجنبه متحملًا ، فكأنَّه ذَليلٌ لتغابيه ، وتَرْكِ المحاسبة فيه ، ولو شاء لانتقم . وهذا غايةُ ما يكون من حُسن الاحتمال ، ومُصابرَة النَّاس على أذاهم ، مع التعزُّز والاقتدار .

٦٨٨

آخر[1] :

١ — سَأَشْكُرُ عَمْرًا إنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي ... أيادِيَ لم تُمْنَنْ وإنْ هيَ جَلَّتِ[2]

٢ — فَتًى غَيْرُ مَحْجوبِ الغِنَى عن صَدِيقِهِ ... ولا مُظهِرِ الشَّكْوَى إذا النَّعلُ زَلَّتِ

٣ — رأى زَلَّتِي من حَيْثُ يَخفَى مكانُها ... فكانَتْ قَذَى عينَيْه حَتَّى تَجَلَّتِ

يقول : إنِّي سأنشر آلاء عمرٍو ونِعَمَه عندي إن نُفِّس من عمري ، وتراخت غايةُ المقدار من منيَّتي ، فإنها صافيةٌ من المَنِّ والأذَى على جلالتها وفخامتها . وقوله « لم تُمنن » يجوز أن يكون المراد ولَمْ تُقطع وإن عَظُمت ، وقال ذلك لأنَّ الأيادِيَ السَّنيَّة لا تكاد تتناسق . ويقال : حَبْلٌ[3] مَنِينٌ وممنونٌ . وفي القرآن : ﴿ لَهُمْ أجرٌ غيرُ مَمْنُونٍ ﴾ . ويجوز أن يكون المراد به لم يُخلَط بمَنٍّ .

وقوله « فتًى غير محجوب الغِنى » ، أخَذَ يصفُه . وارتفع فتًى على أنه خبر مبتدأ

---

(١) هو محمد بن سعد الكاتب التيمي ، شاعر بغدادي . معجم الشعراء للمرزباني ٤٢١ . وفي رسائل الجاحظ ٢٣ ساسي أنه « محمد بن سعيد » . وقيل : لأبي الأسود الدؤلي وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص ، فبينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ومال هذا الشعر . وقيل : الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدي ، وأنه أتى عمرو بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلي ١٦٦ . وقيل : لإبراهيم ابن العباس الصولي . مجموعة المعاني ٩٦ ومعجم ياقوت (٥ : ١٥٨ ص جيوت) وابن خلكان (٢ : ٢٤٧) وقيل : لامرئ بن كبل يمدح عمرو بن ذكوان ، وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص ، فتشفع له ، حتى ولي الحرب بالبصرة فأصاب في ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشراف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جبته . شرح التبريزي .

(٢) ويروى : « ما تراخت » ، وهو أوفق .

(٣) في الأصل : « جبل » صوابه في ل .

محذوف ، والمعنى هو فتى يُشْرِكُ صديقَه فى غِناه مدَّةَ مساعدةِ الزّمان له ، فإنْ تَولَّى الأمرُ وزلّت النَّعلُ تَراه لايتشكّى[1] ولا يتألّمُ . وهذا مثل قول الآخر[2] :

أبو مالكٍ قاصرٌ فقرَه   على نفسه ومُشيعٌ غِناهْ

ويقال فى الكناية عن نزول الشر وامتحان المرء : زَلّت القدم به ، كما يقال : زلّت النَّعل به .

وقوله « رأى خَلَّتى من حيث يَخفَى مكانها » زائد على ماتقدَّم من قول ابن عَنْقاء الفَزارى[3] ، وهو :

رآنى على مابى عُمَيْلَةُ فاشتكى   إلى مالِه حالِى أسرَّ كما جَهَرْ

وذاك لأنّ هذا قال : « رأى خَلّتى من حيث يَخفَى مكانها » ، فكأنّه أدرك الحال ، من طريق الاستدلال ، والاهتمامِ المبعوث من جَودة التفطّن ، وإن كان صاحبُه يتعفّف عن السُّؤال ويتجمّل ، وابنُ عنقاء شاهدَ الحالَ عِياناً ، فاشتكى إلى ماله سرًّا وجهراً ، وقال هذا بإزاء الاشتكاء : فكانت قَذَى عينيه ، أى من حسن الاهتمام ماجَعَله كالدّاء الملازم له ، حتى تلافاه بالإصلاح ، وإذا كان كذلك فموضعُ الزِّيادة فى كلامه وقَصْدِه ظاهر .

٦٨٩

آخر[4] :

١ — إنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بنَ سيفٍ سعيَه   لا أَجْزِهِ بِبَلاءِ يَوْمٍ واحِدِ

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « يتشاكى » وإنما يقال تشاكى القوم : شكا بعضهم إلى بعض .

(٢) المتنخل الهذلى . انظر ٥٢٢ ، ٩٦٩ ، ١٠٧٩ .

(٣) فى الحماسية السابقة .

(٤) هو فدكى بن أعبد البهرانى ، كما عند التبريزى واللسان (لم ٢١ — ٢٢) . وروى المرزبانى فى معجمه ٤٧٥ البيت الأول وتاليه منسوبين إلى المرناق الطائى . والأبيات بدون =

٢ — لأَحَبَّنِى حُبَّ الصَّبِىِّ ورَمَّنِى   رَمَّ الهدِىِّ إلى الغَنِىِّ الواجِـدِ
٣ — ولقد نَضَحْتُ مَلِيلَتِى فتميَّتَتْ   عن آلِ عَتَّـابٍ بماء بارِدِ[١]

يقول : إن رُمْتُ القيام بواجب سَعْيِ عَلقمةَ لى ، وأدَّيتُ الفروض لِحُسْن بلائه عندى ، لم أقابلْه على صنيعةٍ واحدة ، ولا جازيْتُه لبلاء نِعمةٍ فاردة ، لأنّ أياديَه عندى كثيرةٌ متظاهرة[٢] ، وآلاءه لدىّ متواتِرَةٌ متناصرة ، فوالله لقد أحبّنى كما يُحَبُّ الصبيُّ ، وأصلحَ من أمورى ما يُصْلَحُ من شأن العَروس إذا زُفَّتْ إلى المُوسِرِ الغنىّ ، فتَضَاعَفَ مُؤَنُها ، وتَزايد التكاليفُ فى هِدائها وتحويلها . فقوله لَأحبَّنى ، اللام جواب يمين مضمرة ، وإنما قال : « حُبَّ الصَّبىّ » لأنه يخلط بمحبَّته زيادة الشفقة ، وكَفالةُ التَّرفرفِ عليه والمَرْحَمَة .

وسئل بعضُ حُكماء العرب[٣] عن أحب أولاده إليه فقال : « الصغير حتّى يكبَر ، والغائبُ حتى يَقْدَم ، والعليل حتى يبرأ » .

وإذا تأملتَ وجدتَ حَال الغائب والعليل كحال الصَّغير فيما ذكرتُ ، فلذلك جَمَعَها فى قَرَن الذِّكر .

وقوله : « ولقد نَضَحت مليلتى » يريد . ولقد رششت غليلى من آلِ عَتَّاب وما امتلّه نارُ وَجدى من أحشائى وصدرى بماء بارد ، فسكنَتْ وزالَ حَمِيمُها ، حتّى

= نسبة فى الحيوان (٣ : ٤٦٨) والبيان (٣ : ٢٢٣) .
وكان من خبر الشعر أن فدكياً كان مجاوراً لعلقمة بن سيف العتابى ، وكان له إبل فسرقت ، سرقها حنش بن معبد أحد بنى ثعلبة بن بكر بن حبيب ، فلما علم علقمة بذلك سعى فى استردادها من خاربها فلم يوفق . فأخرج هو من ماله مائة بعير وساقها إلى فدكى عوضاً ، فقال هذا الشعر يمدحه .

(١) الحيوان والبيان :
ولقد شفيت غليلتى وتمتها   من آل مسعود بماء بارد

(٢) هذا ما فى ل ، وهو الأوفق ، وفى الأصل : « ظاهرة » .

(٣) هو غيلان بن سلمة الثقفى ، وكان قد وفد إلى كسرى فسأله : أى ولدك أحب إليك ؟ الأغانى (١٢ : ٤٥ — ٤٦) ومحاضرات الراغب (١ : ١٥٥) .

كأنها لم تكن . وإنما قال ذلك لأنّ آل عَتّاب كانوا وتَرُوه فاشتدّ بَرْح حميّته واتّسع قَرْح وِتْرِه ، فأعانه على إدراك الثّأر علقمةُ بن سيف ، وشفاه من دائه . وإذا تُؤُمِّلَ ما عدَّده من أياديه لَدَيه حصَل فيه الميل والإكرام ، والبِرّ والإنعام ، وإصلاح الحال ، والمؤاساة بالمال ، والشّفاء من الداء ، والانتقام من الأعداء ، وذلك مالا مَزِيد عليه . ومعنى تمَيَّثَت تذلّلت وتذوّبت . ويقال : ميَثْتُ الشّىء ، إذا مَرَستَه . والنّضْخُ بالخاء المعجمة أبلغُ من النّضح .

٦٩٠

وقال أبو زيادٍ الأعرابى[١] :

١ — له نارٌ تشَبُّ بكل وَادٍ ... إذا النّيرانُ أُلبِسَتِ القِناعا[٢]

٢ — ولم يَكُ أكثَرَ الفِتْيانِ مالًا ... ولكِنْ كانَ أرحبَهم ذِرَاعا

قوله « تُشَبُّ » أى تُوقَدُ ، وموضع الجملة من الإعراب رفع على أن يكون صفة لنار[٣] ، والمعنى أنّ نارَ ضيافته تُوقَد بكلّ وادٍ ينزِل به إذا النّيران فى الآفاق سُتِرت وحُجبت عن الاستدلال بها ، مخافةَ طُرُوق الأضياف . وجواب إذا مُقدَّم عليه ، كأنه قال : إذا النّيران جُعِلت كذلك فله نارٌ توقد بكلّ واد . ويجوز أن يكون أوقِدت ناره فى جوانب محَلّه وفى كل وادٍ من أودية فنائه وداره

(١) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : « الأعرابى الكلابى » . وفى نسخة الأصل : « أبو زياد الأعجمى » ، تحريف . والبيتان بدون نسبة فى الحيوان (٥ : ١٣٥) وأبو زياد : أحد الأعراب الذين كانوا يفدون من البادية . واسمه يزيد بن عبد الله بن الحر . قدم بغداد أيام المهدى حين أصابت الناس المجاعة ، ونزل قطيعة العباس بن العباس بن محمد فأقام بها أربعين سنة وبها مات . وكان شاعراً من بنى عامر بن كلاب . وله من الكتب : النوادر ، الفرق ، الإبل ، خلق الإنسان . ابن النديم ٦٧ .

(٢) التبريزى : « تشب على يفاع » ، ثم أشار إلى الرواية الأخرى .

(٣) ل : « صفة النار » .

وإذا أُخمِدَت نيرانُ النّاس ، فلذلك قال : تُشَبُّ بكلِّ واد ، وهذا يكون منه كإتمامهم الأيسار ، ونيابتهم عن غيرهم إذا عُدِم الشُّركاء .

وقوله « ولم يك أكثر الفتيان » قد تقدم الكلام فى حذف النون من يكُ فى غير موضع . وانتصب « مالا » على التمييز ، وكذلك « ذراعا » . والمعنى : أنّ ما تحمّلَه وتكلّفه لم يك السببُ فيه اليسارَ ، وكثرةَ المال . ولكن كرمه الفائض ، وعِزّقُه الزّاخِر[1] .

٦٩١

وقال العَرَنْدَس

أحد بنى أبى بكر بن كلاب[2] :

١ — هَيْنُونَ لَيْنُونَ أيسارٌ ذَوُو كَرَمٍ سُوّاسُ مَكْرُمَةٍ أبناء أيسارِ

٢ — إن يُسْأَلوا الخيرَ يُعطوهُ وإن خُبِرُوا فى الجَهْدِ أُدْرِكَ منهم طِيبُ أخبار

٣ — وإن تودَّدْتَهم لانُوا وإن شُهِمُوا كَشَفْتَ أذْمَارَ شَرٍّ غيْرَ أشْرَارِ

العَرَنْدَس فى اللغة : الأسد العظيم ، وكذلك الجمل . ويقال : هو هَيْنٌ لَيْنٌ

(١) عرفه ، بالعين المهملة والقاف فى النسختين .

(٢) عند التبريزى يمدح بنى عمرو الغنويين ، وكان أبوعبيدة إذا أنشدها يقول : « هذا والله محال ، كلابى يمدح غنويا » . قال البكرى فى التنبيه ٧٣ فى تعليل ذلك : « وإنما أنكر أن يكون كلابى يمدح غنويا لأن فزارة كانت قد أوقعت ببنى أبى بكر بن كلاب وجيرانهم من محارب وقعة عظيمة ، ثم أدركتهم غنى فاستنقذتهم ، فلما قتلت طيئ قيس الندامى الغنوى وقتلت عبس هريم بن سنان الغنوى ، استغاثت غنى ببنى أبى بكر ومحارب ليكافئوهم بيدهم عندهم ، فقعدوا عنهم فلم يجيبوهم فلم يزالوا بعد ذلك متدابرين » . وقيل : إن الشعر لأبى العرندس . معجم المرزبانى ٣٠٦ . وفى الكامل ٤٧ أنه عبيد بن العرندس الكلابى يصف قوماً نزل بهم . وفى الكامل أيضا قال : قصد رجل من الشعراء ثلاثة إخوة من غنى وكانوا مقلين فامتدحهم فجعلوا له عليهم فى كل سنة ذودا ، فكان يأتى فيأخذ الذود . ثم أنشد الشعر فى قصيدة طويلة . والأبيات بدون نسبة فى الحيوان (٢ : ٨٩) وديوان المعانى (١ : ٤١) .

وهيِّنٌ ليِّنٌ ، والتَّشديد الأصل ، والتخفيفُ على عادتهم فى المرب من ثِقَل التضعيف وما يجرى مجراه . والمعنى أنّهم يلزمهم السَّكينةُ والوقارُ فى مجالسهم . ويقال : جاء يمشى هَوْناً ، وهو المصدر . والأيسار : جمع اليَسَر ، وهم الذين يجتمعون فى الميسر على الجَزورِ عند الجدْب والقَحْط ، فيُجيلون القِداحَ عليها ، ثم يفرّقونه فى الفقراء وأربابِ الحاجة والضَّرّاء . ويقال : يَسَرَ الرجل إذا أجالَ قِدْحَه ، فهو ياسرٌ ويَسَر . قال :

إذا يَسَرُوا لم يورثِ اليَسْرُ بينهم ... فَوَاحِشَ يُنعَى ذِكْرُها بالمصايفِ[1]

وقال أبو ذؤيب :

فكأنهنّ رِبابَةٌ وكأنه ... يَسَرٌ يُفِيضُ على القِداح ويَصْدَعُ

والمعنى أنّهم يرجعون إلى سَجاحةِ خُلُق[2] ، وسَلاسة طبع ، مُوَقَّرون فى مجالسهم ، متكرّمون فى عاداتهم وشؤونهم ، متعطّفون على الفقراء زَمَنَ الجدْب بيسرهم ، يَسُوسون المكارمَ ويَعمُرونها بعد ابتنائها ، ولا يَغفُلون عنها ؛ وأنّ هذه الخصالَ لم يَرِثوها عن كَلالة ، وأنّ آباءهم على ذلك دَرَجُوا وتَقَضَّوْا . ثم قال : « إنْ يُسألوا الخيرَ يُعطُوه » ، يريد أنّهم لا يتقاعدون عن البذل فى الحقوق والنّوائب ، ولا يُحوِجُون إلى استخراج ذلك منهم بالعُنف والاستقصاء بل يُخرِجون منها إلى أصحابها ، والمطالبين بها ؛ وإنْ جُرِّبوا عند جَهْدِ البلاء ، واشتمال الشِّدّة والبأساء ، وحُمِّلوا أكثَرَ مما يلزمهم ، وأثقَلَ مما ينهض به حالُهم ، طابتْ أفعالُهم ، وحسُنت أنباؤهم[3] ، والأحاديثُ عنهم . ومَن انتمَى بتقرُّبٍ إليهم ، أو تودُّدٍ لهم ، لأنُوا له ، وانقادوا لما يريده من جهتهم . وإنْ أُوذوا

(١) البيت للمرقش . فى المفضلية ٥٠ .

(٢) سجاحة الخلق : لينه وسهولته . وفى الأصل : « شجاعة خلق » صوابه فى ل .

(٣) هذا الصواب من ل . وهو تفسير قوله « طيب أخبار » . وفى الأصل : « ابتلاؤهم » .

وأحرجوا انكشفوا عن أذمار شَرٍّ — وهو جَمْع الذِّمْر، وهو الشديد لا يُطاق — وإنْ كانوا فى أنفُسهم وسجاياهم غير أشرار، إلا أنَّهم إذا جُذِبوا إلى الشَّرِّ وأُلجئوا زادوا على الأشرار.

وقوله «شُهِمُوا» أى هُيِّجُوا. ويقال: فرسٌ شَهْمٌ، أى حديد نشيط ذكىّ؛ ومنه الشَّيْهَم[1]. ويقال شَهِمَ الرجلُ، إذا ذُعِرَ أيضاً، ويرجع فى المعنى إلى الأوّل[2].

٤ — فِيهِمْ ومنهم يُعَدُّ الخَيْرُ مُتَّلِدًا ولا يُعَدُّ نَثَا خِزْيٍ ولا عَارِ[3]

٥ — لا يَنطقون على الفَحْشاء إن نَطَقُوا ولا يُمَارُونَ إنْ مَارَوْا بإكْثارِ[4]

٦ — مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ التى يَسرِى بها السَّارِى

وصفهم بأنَّ الخير مَرْجُوٌّ مِن جهتهم، ومعدودٌ فى خصالهم قديماً وحديثاً، وسَلَفاً وخَلَفاً، ولا يُعَدُّ فى أفعالهم ما يُخْزِى ذِكْرُه، والتَّحدُّث به، أو يجلب عاراً عليهم لدَى الكشْف عنه والتأمُّل له، وذلك لخلوص مناقبهم عمَّا يَشِينُ ولا يَزِين، وحُسْنِ قُصودهم فيما يتصرَّفون فيه فيتناولونَه بالنَّقض والإبرام، ثمَّ إنْ تَكلَّموا فليس عَنْ فحشاء يُضمِرونها، ولا عَنْ نكراء ينطوُون عليها، فكانت الأقوال توافق الضمائر وتقفوها، والظواهر تطابق السرائر وتتلوها، بل يُولُون الكلمة العوراء إذا أدركوها الغُفُولَ عنها، والإغضاء على القَذَى فيها، تحلُّما وترفُّعا. وإن جاذبوا غيرهم وحُمِلوا على لَجَاجٍ فى نِزاعهم عُرِفَتْ نهايةُ جِدالهم، ونُكِّتوا فيما يُدْلُونَ به من حِجاجهم، فقولُهم فَصْل، وإمساكهم قَصْدٌ وعَدْل،

(١) الشيهم: الذكر من القنافذ.

(٢) قال ابن فارس فى مقاييس اللغة: «لأنه إذا تفزع بدا ذكاء قلبه».

(٣) التبريزى والمبرد: «بعد المجد».

(٤) وكذا عند المرزبانى. وفى ل والتبريزى: «عن الفحشاء». وبدله عن المبرد:

«لا يظلمون على السيباء إن ظلموا»

لا إكثارَ ولا إسراف ، إذْ كان مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَر ، ومن أسْرَفَ أفحش ؛ ولأنَّ عادتَهم الاقتصادُ فيما يخافون أداءه إلى القَبيح ، والامتدادُ إلى أبعد الغايات فيما يَحسُن مَسْمَعُه عند ذَوِى التَّحصيل .

وقوله « من تَلْقَ منهم » ، يريد أنَّ النباهة تَشملُهم ، فكلٌّ منهم يَتَّسِم بسِيمَا الرِّياسة ، ويتصوَّر بصُورةِ السِّيادة ، وهم فى الاشتهار والتَّميُّز عن طوائفِ النَّاس كالنجُّوم المعروفة النيِّرة ، التى يهتدى بها السابلةُ والمارَّة ، ويتفقَّد المعرفةَ بها فى طُلوعها وأُفولها أولُو النُّحل والمُمارَسات .

وقوله « فيهم ومنهم يُعدّ الخير متَّلدا » يريد ما يَلزَمهم من الخِصال وما يعمدُّاهم . وانتصب « متَّلدا » على الحال . ويقال : تَلِد وأتْـلَدَ بمعنًى . والنَّثا يستعمل فى الخير والشر ، والثناء يستعمل فى الخير لا غير ، ويقال : نثا الخَبَرَ ينثوه نَثْوًا .

٦٩٢

آخر :

١ — رَهَنتُ يَدِى بالعجزِ عن شُـكر بِرِّه   وما فوقَ شُـكرى للشَّكُورِ مَزيدُ

٢ — ولو أنَّ شيئا يُستَطاعُ استَطعْتُهُ   ولـكنَّ ما لا يُستَطاعُ شَـديدُ

يقول : غَمرنى بِرُّه وعَجَّزَ حَوامِلِى نِعَمُه ، فاعترَفْتُ بالقصور ، والقُعودِ عن الوفاء بأداء الفروض ، وجعلتُ يَدِى مُرتَهَنةً بالعجز ، ولسانى معقولةً عن التصرُّف فى الشُّكر ، وإن كان لا مَزِيدَ على ما أتولاَّه منه لمُبالغٍ فى الحد ، ولا فَوقَ اجتهادى غايةٌ يَرتقى إليها فى النَّشر والثَّناء مُرتَقٍ ؛ فإنِّى لم أُوتَ من تقصـير يَلزُنى ، أو إقصاء مع قُدرةٍ يدفعنى ، ولـكن لـكون مِنَنه مُعجِزةً غيرَ داخلةٍ تحت استطاعتى ؛ وما لا يُطاقُ تحمُّله مَنِيع ، والنُّهوضُ به عَسِرٌ شديد .

٦٩٣

وقال الحُسَيْن بن مُطَيْر [(١)]:

١ — له يَوْمُ بُوسٍ فيه للنَّاس أبْؤُسٌ ... ويَوْمُ نَعِيمٍ فيــه للنَّاسِ أنْعُمُ

٢ — فيَمطرُ يَوْمَ الجودِ مِنْ كفِّه النَّدَى ... ويَمطرُ يومَ البأس مِن كَفِّهِ الدَّمُ

٣ — ولو أنَّ يومَ البأْسِ خَلَّى عِقابَه ... على النَّاسِ لم يُصْبِحْ على الأرضِ مُجْرِمُ [(٢)]

٤ — ولو أنَّ يَوْمَ الجود خَلَّى يَمِينَه ... عَلَى النَّاسِ لم يُصبِحْ عَلَى الأرضِ مُعْدِمُ

يقول: أيّامُ هذا الممدوحِ مُقتَسمة بين إنعامٍ وانتقام، مِنْ إحياءٍ وإهلاك، وإفضال وإعدام، فله يومُ بوسٍ يَشقَى به أعداؤه، ويوم نعيمٍ يَحيا به ويَسعدُ أولياؤه، فيومُ جوده يَعمُّ نداه مؤمِّليه وعُفاتَه، ويومُ بُؤسه يَعُمُّ إهلاكُـه مُنابِذِيه وحُسّادَه، ولو أرادَ في اليوم المخصوص بالانتقام أن يجعَلَ عقابَه مُخلًّى يتناولُ طبقاتِ النّاس، لم يبق في الأرض مجرمٌ ولا حَسودٌ يُضمِر سوءًا له، ولـكن أبَى عَفوُه إلاّ إبقاء؛ كما أنه لو خَلَّى يومَ جوده مَنافعَ يمينه تعمُّ طوائفَ الخَلْق لم يَبقَ في الأرض فقير، ولـكن أبى ذلك بُعدُه عنهم، وقُصورُ معرفتِه بهم.

ويجوز أن يكون المراد بقوله «لم يصبح على الأرض مجرم»، أنه كان يُفْنِي الخَلْق حتَّى لا يبقى مجرمٌ وغيرُ مجرم.

---

(١) التبريزي: «الأسدي». وقد سبقت ترجمته في الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤.

(٢) التبريزي: «خلى يمينه».

٦٩٤

وقال أبو الطَّمَحَانِ[١] :

١ — إذا قيل أىُّ النّاس خيرٌ قبيلةً ... وأَصبرُ يوماً لا تُوارَى كواكبُهْ[٢]

٢ — فإنَّ بَنِى لأمِ بنِ عمْرٍو أَرُومَةٌ ... سَمَتْ فَوْقَ صَعْبٍ لا تُنال مَراقِبُه[٣]

٣ — أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم ... دُجَى الليلِ حتى نَظَّم الجَزْعَ ثاقِبُهْ

يقول : لو يُمِّمَ النّاسُ بالسُّؤال عنهم فقيل أيُّهم خير أصلا وسلفاً وأيُّهم أصبر يوماً ومشهَدا تُرى كواكبُه ظُهراً ، لـكان يجىء فى جواب هذا السؤال : بنو لأم بن عمْرو ؛ ولأنَّ لهم مَنصِباً علا شرفا باذِخا ، وعِزًّا شامخا لا تُدركُ مَراقبُه ، ولا تُنال مَطالِبه . والغَرَض من الجملة تفضيلُهم على جميع الخلْق . والأَرومة : الأصل الثَّابت الراسى . وانتصب « قبيلة » على التمييز ، وكذلك « يوما » . ويَعنى بذكر اليوم الوَقَعات والحُروب . وعلى ذلك قولهم : يوم جبَلَةَ ، ويومُ الـكُلاب وما أشبههما . وقوله « لا تُوارَى كواكبه » إن شئت فتحْتَ فرويتَ : « لا تَوَارى كواكبه » ، والمعنى لا تتوارى كواكبه ، فحذف إحدى التاءين تخفيفا . ومعنى « لا تُوارَى » بضم التاء لا تُستر ، والأصل فى هذا ، وهو يجرى مجرى الأمثال ، يومُ حليمة ، وذلك[٤] أنّه سُدَّت عين الشّمس فى ذلك الغبار الثّائر فى الجوّ فرُئيت الـكواكب ظُهراً ، فقيل : « ما يومُ حَليمةَ بِسِرّ » ، وصار الأمر إلى

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٤٧٨ ص ١٢٦٦ . وعند التبريزى : « واسمه شرق بن حنظلة » . ونسبة الشعر إلى أبى الطمحان هى كذلك فى الكامل ٣٠ ليبسك والوساطة ١٥٩ . ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٣ : ٩٣) إلى لقيط بن زرارة .

(٢) كذا ضبط بضم التاء فى النسختين ، ويصح أن يقرأ بفتحها على حذف إحدى التاءين كما سيأتى فى الشرح .

(٣) فى الأصل « مناقبه » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٤) ل : « وذاك » .

أنْ قيل في التوعُّد : لأرِيَنَّكَ الكواكبَ ظُهْرا . وأصلُ الصَّبرِ حبسُ النَّفس على الشَّرِّ ، لذلك قيل : قُتِل فلانٌ صبرا .

وقوله : « سَمَتْ فوق صَعْبٍ » ، يريد : فوقَ جبلٍ صعب يَشُقُّ الارتقاء إليه . والمَراقب هي المَحَارس ، واحدتها مَرْقَبَة ، وكلُّ ذلك أمثال .

وقوله « أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم » ، يريد طهارة أنفسهم ، وزَكاء أصولهم وفروعهم ، فهُم بِيضُ الوُجوه نَيِّرُو الأحساب ، فَدُجَى ليلهم تَنكَشِفُ مِنْ نور أحسابهم ، حتَّى أن ثاقِبَهُ يُسهِّلُ نَظْمَ الجَزْعِ فيه لناظِمه ، وهذا مَثَلٌ أيضاً . والهاء من « ثاقبه » يعود إلى ما دلَّ عليه قوله « أضاءت لهم أحسابهم » ، والثُّقوب : الإضاءة ، ويقال : نار ثاقبة ، وكوكب ثاقب ،[وحَسَبٌ ثاقب[1]] ، وقد ثَقَبَ أى اشتدَّ ضوءه وتلألُؤُهُ . ومعنى نَظَّمَ حمل على النَّظْم وأقْدَرَ ، فهو بمعنى أنظم . ومثلُه كَرَّم وأكرم . والضمير من « ثاقبهُ » يدل على ظاهره صدرُ البيت ، فهو مثل قولهم : مَنْ كَذَبَ كان شرًّا له ، ومن صَدَقَ كان خيراً له ، يريد كان الكذب وكان الصِّدق ، فكذلك هذا ، كأنه قال : حتَّى نَظَّمَ ثاقبُ حَسَبِهم الجَزْعَ لناظِمِه .

٦٩٥

وقال آخر[2] :

١ — يأيُّها المُتَمَنِّى أن يَكونَ فتًى   مثلَ ابنِ زيدٍ لَقَدْ خَلَّى لكَ السُّبُلا[3]

---

(١) التكملة من ل .

(٢) التبريزى : « وتروى لمحمد بن بشير الخارجى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ .

(٣) فى الأصل : « أن تكون » ، والوجهان صحيحان .

٢ — اعْدُدْ نَظَائِرَ أخلاقٍ عُدِدْنَ لهُ هَلْ سَبَّ مِن أحدٍ أو سُبَّ أو بَخِلاَ[(١)]

يقول : يا من يَوَدُّ ويشتهى أن تـكونَ فُتوَّتُه مثلَ فتوَّة عُروة بنِ زيدِ الخيـل ، لقد خَلَّى لك الطُّرُق فى اكتساب مَنَاقب الفتوَّةِ وادِّخار أسبابها ومُوجباتِها ، فاسْعَ واطلبْ ، لأنَّ مَباغِيك إن قَدَرْتَ مُعْرِضَةٌ لك ، وغيرُ ممتنعة عليك ، وسُبُلُها غير مُنْسَدَّةٍ ولا محجوبة عن ذهابِكَ واختراقك ، ثم قال : هاتِ خصالك واعدُدْ نظائرَ أخلاقِه المعدودة له ، وانظرْ هل أنتَ فى اشتمال الـكرَم والتحاف العِزّ بحيثُ لا تَسُبُّ أحدًا تَعَلِّيا وارتفاعَ منزلة ، وفى نقاء الجَيْب وطهارة الأصل والفَرْع بحيثُ لا يَسُبُّكَ أحد توَقِّيًا وتَعَفُّفًا ، وهل تقِفُ موقفاً تبعد فيه وتتنزَّه عن أن يُقَالَ : ما بَخِلَ بما فى يده ، ولا مَنَعَ أحداً على رجائه به ، فإنَّه حينئذٍ يَبِينُ لك تفاوتُ ما بينك وبينه .

٦٩٦

وقال آخر :

١ — لم أرَ مَعْشَرًا كبَنِى صُرَيمٍ تَلُفُّهُمُ التهائمُ والنُّجُودُ[(٢)]

٢ — أَجَلَّ جَلاَلَةً وأَعَزَّ فَقْدًا وأَقضَى للحُقُوقِ وهم قُعُودُ[(٣)]

٣ — وأَكْثَرَ ناشِئًا مِخْرَاقَ حَرْبٍ يُعِينُ عَلَى السِّيادَةِ أو يَسُودُ

(١) قال التبريزى : وفيها :

إن تنفق المال أو تَـكْلَفْ مَساعِيَه يصعُبْ عليك وتفعلْ دون ما فعَلا

لو يُبعَثُ الناسُ أدناهم وأبعدهم فى ساحةِ الأرض حتى يحرثوا الإبلا

كى يطلبوا فوق ظهر الأرض لم يجدوا مثل الذى غيَّبوا فى بَطْنِهِ رجلا

وفى اللسان : « حرث الإبل والخيل وأحرثها : أهزلها » .

(٢) الأبيات رواها القالى فى أماليه (١ : ٢٣) ورواية الأول : « فلم أر حالكا كبنى صريم » .

(٣) القالى : « وأقضى للأمور » .

قوله « تَلُفُّهُمُ التهائِمُ » أى تجمعهم ، وانتصب «جَلالة» على التمييز ، وكذلك قوله « فَقْدًا » ، ولا يجوز أن يكون مصدرا ، أعنى قوله جَلَالَةً ، لأنَّ أفعل هذا لا يؤكَّدُ بالمصدر ، فهو من باب شِعْرٌ شَاعِرٌ ومَوْتٌ مائت ، لأنَّ أصلَه مأخوذ من جلالٍ جليل . وانتصب « أَجَلَّ » بفعلٍ مضمر ، كأنه قال : لم أرَ أجلَّ جلالةً منهم ، لـكنه اختصَر وحَذَفَ . وقوله « تَلُفُّهُمُ التَّهائم » موضعه نَصبٌ لأنه صفة لقوله مَعْشَرًا ، والتقدير : لم أر معشراً تلفُّهم الأغوار والأنجاد كبنى صُرَيْم ، ولم أرَ أجلَّ جلالةً منهم أيضا . وتِهامَةُ من الغَوْرِ ، بل هو أعمَقُها . ثمَّ بَيَّنَ ما فَضَّلَهُم فيه بعد أن أبهم ، وفَصَّل ما أجمل ، فقال : هم أتمُّهم رياسةً وأفخمُهم فخامة ، وأشدُّهم على النَّاس فَقْداً ، وأحسنُهم فى قضاء الحقوق الواجبة عليهم أداء ، هذا وهُم قعود . وإنَّما قال ذلك لأنَّ الرئيس ينفُذ أمرُه فى مَطالبه وإنْ لم يبرح مكانَه . و « أعزَّ فَقْداً » ، يريد شدَّة حاجةِ النَّاس إلى حياتهم ، لوُفور فضائلهم وإفضالهم .

وقوله « وأكثر ناشئا » يريدُ به الشابَّ المبتدئَ فى اكتساب ما يَعْتَلِي به ويَفُوق أقرانَه . وانتصاب « ناشئا » على التَّمييز . والمِخْراق : بناء الآلة ، فهو كالمِفتاح ، يريد أنَّه يتخرَّق فى الحرب ويسعى سَعْياً بليغاً . وأصل المِخْراق هو ما يَتَلاعبُ به الصِّبْيان مِن منديلٍ يَفْتِلُونه ، أورَقٍ ينفخونه ، أو ما يجرى مَجراها . وسُمِّى مِخراقاً لأنَّه يَخرِق الهواء فى استعمالهم إيّاه . لذلك قال :

* كأنَّ يدِى بالسَّيف مِخْرَاقُ لاعِبِ[1] *

وقوله « يُعينُ على السِّيادة أو يَسُود » جمَعَ بين الأمرين ، وذلك لأنَّ

---

(١) فى الأصل : « كأنه مخراق لاعب » صوابه فى ل . والبيت لقيس بن الخطيم فى ديوانه ١٣ ليبسك . وصدره :

* أجالدهم يوم الحديقة حاسرا *

الفضلاء إذا قسَّمُوا ودُرِّجوا فى مراتبهم فهم [من[1]] بين سَيِّدٍ يقوم بنفسه ويكمُل بخصاله ، ومن بين مُعِينٍ على السِّيادة يصلح لأن يكونَ تابعاً لا متبوعاً ، ومَسُودًا لا سيِّدا .

٦٩٧

وقال شُقْرانُ مَولَى سَلَامانَ[2] :

١ — لو كُنْتُ مولَى قَيْسِ عَيْلَانَ لم تجِدْ ... علىَّ لإنسانٍ من الناس دِرْهَمَا[3]

٢ — ولكِنَّنِى مَوْلَى قُضَاعَةَ كُلِّهَا ... فلستُ أُبَالِى أنْ أَدِينَ وتَغْرَمَا

يقول : لو كان ولائى فى قيس عَيْلَانَ لا قتديتُ بهم ، واستَنَنْتُ بسُنَّتهم فى الكفِّ عن الإنفاق ، وحَبْس النَّفس على شرائط الانقباض والإمساك ، فكنتُ أُرَى خفيفَ الظَّهر فى جميع ما يَعرِض ، فسيحَ الصَّدر بكل ما يَعِنُّ ويَسنَح ، لم يَرْكبْنى دَيْنٌ فأُستَنزَل[4] ، ولا عِبْءٌ على قابِلٍ من مُتقَاعِسٍ فأتضجَّر ، لكنْ ولائى فى قُضاعة كلِّها فأتبسَّط فى أخْذ القروض إذا استغرقتُ مِلْكُ يمينى ، وأتوسَّعُ فى إضافة ما لغيرى إلى مالِى ثقةً بأنَّهم يتحملون عنِّى الأثقال إذا استحملتُهم ،

(١) هذا من ل .

(٢) التبريزي : «مولى سلامان من قضاعة . شقران علم مرتجل ، وقد يمكن أن يكون جمع أشقر كأحمر وحمران ، وأصلع وصلعان ، غير أنا لم نسمعه إلا علما ، فأما سلامان فشجر واحدته سلامانة . وأما قضاعة فعلم مرتجل ، وهو من قولك تقضع القوم ، إذا تفرقوا » . وشقران : شاعر كان معاصراً لابن ميادة من شعراء الدولتين ، وكان بينهما مهاجاة . الأغانى (٢ : ٢٠٢ — ١٠٤) .

وهم بنو سلامان بن سعد هذيم بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

والأبيات نسبها الجاحظ فى البيان (٣ : ٣٠٩) إلى ثروان ، أو ابن ثروان مولى لبنى عذرة . وأنشدها فى (١ : ١٠٨) بدون نسبة . ووردت فى شروح سقط الزند ٥٩١ منسوبة إلى شقران .

(٣) فى البيان (١ : ١٠٨) : « على لمخلوق » .

(٤) المراد بالاستنزال المطالبة بالدين . وفى الأصل : «فيستنزل» . والأوفق ما أثبتنا من ل .

وأنَّهم يَعُدُّون الغَرامة غُنْماً إذا أحلّتْ عليهم[١] ، فلا أبالى كيف تخرَّقتْ ، وفى أى وجه من وُجوه البر أنفقتُ ، وإن كانت معلومةً من لازمِ حقٍّ أؤدِّيه ، وعارضِ مَكرُمَةٍ أوفِّيه ، إلى كلِّ ما يكون التبجُّح به مشترَكا ، واكتساب الفخر والأجْر فيه مُشتمَلا .

وقوله « فنست أبالى » أصله من البلاء النعمة ، وقد تقدَّم القولُ فى شرحه وما حَصَل بالاستعمال عليه[٢] .

٣ — أولئكَ قَومِى باركَ اللهُ فيهمِ ... على كُلِّ حالٍ ما أعَفَّ وأكْرَما[٣]

٤ — ثِقَالُ الجِفانِ والحُلُومِ رَحَاهُمُ ... رَحَى الماء يكتالُون كَيْلاً غَذَمْذَمَا

٥ — جُفَاةُ المَحَزِّ لا يُصيبونَ مَفْصِلًا ... ولا يأكلون اللَّحمَ إلَّا تَخَذُّمَا

أشار بقوله « أولئك قومى » إلى قُضاعة[٤] ، ثم أخبر عنهم بأنَّهم كثروا وطابوا ونَمَوا بما جعل الله من البركة فيهم ، فازدادوا . وقوله « على كلِّ حال » تَعلَّقَ بقوله « بارك الله فيهم » ، ومَوْضعه من الإعراب نصبٌ على الحال ، أى بارك الله فيهم متحوِّلين فى إبدال الدَّهر وتصاريفه من عُسْرٍ ويُسْرٍ ، وسَعَةٍ وضِيقٍ ، وقِلّة وكثرة ، وانحطاطٍ وارتفاعٍ . ثمَّ قال مستأنِفاً : ما أعفَّهم وأكرمَهم ، أى تمَّت عِفّتُهم ، وكَمُلت أُكرومتُهم فى حالتَىِ الإعسار والإيسار ، والإضاقة والإيساع ، والإقلال والإكثار .

وقوله « ثِقال الجفان » أى هم مطاعيم فى الخِصْب والجَدْب ، فجفانُهم ثقيلة ، وأفنيتهم بالوُرَّاد والطُّرَّاق مأهولة معمورة ، وحلومُهم ثابتة قائمة ، لا يستخِفُّها

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « أحلت عليهم » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٧١ ، ٢٠١ .

(٣) البيان : « أولئك قوم » ، وأشير فى هامش نسخة فيض الله منه إلى رواية « قومى » .

(٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أى قضاعة » .

جَزَع ، ولا يُطغِيها فرَح ؛ وترَى رَحَاهُم لـكثرةِ غاشِيَتهم وحشَمِ دُورِهِم ، رحَى الماء ، إذْ أَنِّى[1] الاكتفاء بيسير الزّاد مع العدد الجمّ ، والخير الدَّثْر ، والنَّعَم الغَمْر ، وإذْ كان سائرُ الأرحاء لا يُستغْنَى بها ، ولا يَفِي بالمطلوب [منه[2]] دوَرانُها ؛ ثم إذا كالُوا اكتالوا واسعاً لا استقصاء فيه ولا مضايقةَ ، فهو يجرى مَجرى ما يُهالُ هَيْلًا ، أو يُؤخَذ جُزَافاً لا كَيْلًا . والغَذْم : الأكل بسرعة ، ومنه الغَذَمْذَم . وإنْ حضَرُوا مَقْسِمَ الجزُرِ وتكرَّمُوا بتولّى قَسْمِها ، وجدْتَهم يُوسِعون الحزّ ، ويُخطِئون المَفصِل ، إذ لم يكن فِعْلُ ذلك مِن عادتهم وطباعهم ، لـكونهم ملوكاً ، ولأنّهم متى تأخَّر الخَدَم عنهم لم يُحسِنُوا التصرُّف فى شىء من وجوه المِهَن ، ولا دَرَوا كيف تُسْلَخُ الجزُر وتُقتسَم الأبداء[3] ، وإذا أكلوا اللحم على موائدهم لم يتناولُوه إلا قَطْماً بالسَّكاكين ، لا نهشا بالأسنان ، إقامةً للمروءات ، وذَهابا عن شنيع العادات .

وقوله « إلاّ تخذُّما » انتصب تخذُّما على أنّه مصدرٌ فى موضع الحال . والخَذْم : سرعة القطع ، وفى التخذُّم زيادةُ تـكلُّف . ويقال : سيف خَذُوم ومِخْذَم . وقوله « يكتالون كيلا » وضع كيلا موضع الاكتيال ، كما وضع النَّبات موضع الإنبات ، فى قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَنبتَـكم من الأرضِ نَباتاً ﴾ .

٦٩٨

وقال أبو دَهْبلٍ الجُمَحىّ[4] :

١ — إنّ البُيوتَ مَعَـادِنٌ فنِجارُهُ ذَهَبٌ وكلُّ بُيوتِهِ ضَخْمُ

---

(١) فى النسختين : « إذ آنى » تحريف .

(٢) التـكملة من ل .

(٣) الأبداء : جمع بده ، بالفتح ، وهو النصيب من الجزور . ل : « وتقسم » . وقال الجاحظ فى البيان : يقول : « هم ملوك وأشباه ملوك ، ولهم كفاة ، فهم لا يحسنون إصابة المفاصل » .

(٤) زاد التبريزى : « قالوا : يمدح النبى صلى الله عليه وسلم » . وقد سبقت ترجمة أبى دهبل فى الحماسية ٥٢١ ص ١٣١٩ .

٢ — عُقِمَ النِّسَاء فَمَا يلِدْنَ شبيهَهُ إنَّ النِّسَاء بمثـلِهِ عُقْمُ

٣ — متهلِّلٌ بِنَعَمْ ، بِلَا مُتَبَاعِدٌ سِيَّانِ منـه الوَفْرُ والعُـدْمُ

٤ — نَزْرُ الـكلامِ من الحَياء تَخَالُهُ ضَمِناً وليس بجِسْمِـه سُقْمُ

المعادن : جمع المَدِن ، وهو مِنْ عَدَن بالمكان إذا أقام عَدْناً وعُدُوناً ، وقيل : بل هو من قولهم عَدَنْتُ الحجَر ، إذا قلعتَه ، لأنَّ المعدِن يُقلَع منه ما ضُمِّن ، ويُرتَجَع منه ما أودع . وفى القرآن : ﴿ جَنَّات عَدْنٍ ﴾ ، أى جنات إقامة. والمراد أنَّ بيوتَ النَّاس وأصولهم مختلفة المَنْبَر ، متفاوتة المَخْبَر ، تتفاضَلُ تَفاضُلَ المعادن ، ونِجَار هذا الرَّجلِ أفضلُ النُّجُر فهو كالذَّهب الإبريز . ويقال : هو من نَجْرٍ كريم ونِجَارٍ كريم ، أى أصل كريم . وقوله « وكلُّ بيوتِهِ ضخم » أى [هو[1]] من أطرافه : أعمامِهِ وأخواله ، عظيمُ الشَّأنِ نبيهٌ . وإنما قال ضَخْمٌ لأنَّ المراد بكلٍّ الاتحاد ، أى كلُّ واحدٍ من بيوته . ومثل كلٍّ « كِلَا » لأنَّ كُلاًّ يراد به مرةً الجميع ومرةً الاتحادُ ، وكذلك كِلاَ يُرادُ به مرّةً التَّثنية ومرة الاتِّحاد . وقد ذكرت أمرهما مشروحاً فى غير هذا الكتاب .

وقوله « عُقِمَ النِّسَاء » أصل العَقْم المنع ، ويقال : عُقِمَتِ المرأة وعُقِمت الرَّحمُ عُقْماً بضم العين فعَقِمَتْ ، وهى معقومة بناء على عُقِمت ، وعقيم بناء على عَقِمتْ ، ولهذا يجمع عقيم على عُقم ، لأنه فعيل بمعنى فاعل ، ولم يُلحَقْ به الهاء للمؤنَّث لأنَّ المراد به النِّسبة : فهو كقولهم طالق وحائض . ولو كان عقيم كجريح وصريع فى أنَّه فعيل بمعنى مفعولةٍ لوجَبَ أن يقال فى الجمع عَقْمَى ، كما قيل جَرْحَى وصَرْعى . ويقال : رجل عقيم ، وريحٌ عقيم ، والدُّنيا عقيم ، والمُلْكُ عَقيم .

ومعنى البيت أنَّ هـذا الرجل لا شبيهَ له فَضْلًا وتفضلا ، وكالًا وتبرُّعاً ،

(١) التكملة من ل .

لأنَّ النساء مُنِعْنَ أنْ يأتين بمثله فعقِمْن ، أى صرن كذلك .

وقوله « متهلل بنَعَمْ » ، يريد بلفظ نعم . وجعل نَعَم اسماً ، أى هو بَشٌّ طَلْقُ الوجه قريب المأخذ ، مُجِيبٌ فيما يُسأل ، وعند كلِّ ما يُطْلبُ منه ويُقترح عليه ، بقوله نعم ، وهو متهلِّل ، أى ضاحك مستبشر . وقوله « بلا متباعد » أى يتباعد عن كلِّ أحدٍ بأن يَصُكَّ فى وجهه فيما يُطْلَبُ نيله منه بأنْ يقول لا ، و « لا » جعله كالاسم . فنَعَمْ كأنه اسمُ الإسعاف ، ولا كأنَّه اسم المَنْع والدِّفاع .

وقوله « سِيَّان منه الوَفْرُ والعُدْم » أى مِثْلَان عنده الغِنى والفقر لا يخلُّ بالمعهود منه ، ولا يترك عادَتَه فيه

وقوله « نَزْرُ الكلام من الحياء » ، أى هو قليلُ الكلام حتَّى كأنَّه مُلْجَمٌ لغلبَة الحياء عليه ، وحتَّى يَظُنَّ مَن لا يعرفُه أنَّه لآفةٍ يترُك الكلامَ ، ولا آفةَ ثَمَّ ، إنما مانِعُه ما يمتلكه من حَيَاء ممتزجٍ بالكرم ، وإقلَّة رضاه عن نفسه فى كلِّ ما يَرْتئيه أو يأتيه ، إذْ كانت طباعه لا تَرضى عنه بشىء يبلغه ، فالحياء يُمْسِكُه ، والكَرَمُ يُسْكِتُه ، لا تمَدُّحَ منه ولا تبجُّح . ولا تَسَحُّبَ ولا تَعَلِّيَ .

ومثل هذا قولُ الآخر[1] :

* راحوا تخالُهُمُ مَرْضَى من الكَرَم[2] *

والضَّمِنُ : الزَّمِنُ ، ومصدره الضَّمانة .

---

(١) هو الشمردل . الحيوان (٣ : ٩١) .

(٢) صدره : * إذا جرى المسك يندى فى مفارقهم *

٦٩٩
وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة[(١)] :

١ — يا أيُّها السَّدِمُ المُلَوِّى رأسَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ لِيَقُودَ من أَهْـلِ الحِجازِ بَرِيعا[(٢)]

السَّدِم والسّادم : النّادم الحزين ، وقيل بل السادم مأخوذٌ من المِياهِ الأَسدام ، وهى المتغيّرة لطول المُكْث . والسَّدِم أيضاً : الفحل العظيم[(٣)] الهائج . والسَّدِم أيضاً : اللَّهِجُ بالشَّىء . وحكى أبو حاتم قال : قلتُ للأصمعى يوماً : إنَّك تحفظ من الرَّجَزِ ما لم يحفظه أحد . فقال : « إنّه كان هَمَّنا وسَدَمنا » . والبيت يحتمل الوجوه الثلاثة فيه . و « المُلَوِّى رأسَه » يجوز أن يكون مثلَ قول الآخر[(٤)] :

..... غارِزًا رأسه * فى سِـنَةٍ[(٥)] .....

والمراد : كأنّه مَلَكهُ التحيُّر فهو يُلوِّى رأسَه . وتَلوِيَةُ الرأسِ كما يكون من الفِـكر والتحيُّر فقد يكون من الـكِبْر والتجبّر ، وقلّة الاحتفال بالمحتَضِر[(٦)]

(١) هى ليلى بنت عبد الله بن الرحالة بن كعب بن معاوية ، ومعاوية هو الأخيل بن عبادة ، من بنى عقيل بن كعب . وكانت أشعر النساء لا يقدم عليها غير الخنساء ، وهى صاحبة توبة بن الحمير ، وكان بينها وبين النابغة الجعدى الصحابى مهاجاة ، ولها رثاء فى عثمان بن عفان . ودخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت فقال لها : ما رأى فيك توبة حين هويك ؟ قالت : ما رآه الناس فيك حين ولوك ! فضحك عبد الملك . وسألت الحجاج أن يحملها إلى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فحملها على البريد ، فلما انصرفت ماتت بساوة فقبرت بها . الشعراء ٤١٧ — ٤٢٠ والخزانة (٣ : ٣١ — ٣٤) وفوات الوفيات (٢ : ١٧٥ — ١٧٧) والأغانى (١٠ : ٧٦ — ٧٩) .

(٢) كذا فى النسختين ، ووجهه « القِطْيَم » . انظر اللسان (سلام) .

(٣) فى أمالى القالى (١ : ٢٤٨) أن الأصمعى كان يرويها لحميد بن ثور الهلالى . وانظر تنبيه البكرى ٧٨ .

(٤) هو ابن زيابة التيمى . انظر ص ١٤٢ .

(٥) قطعة من بيت هو مطلع حماسية ابن زيابة . وهو بتمامه :

نبئت عمرا غارزا رأسه ‏ ‏ ‏ ‏ فى سِـنَة يوعد أخواله

(٦) المحتضر : الحاضر ، يقال حضره واحتضره وتحضره . وهـذا ما فى ل . وفى الأصل : « بالمختصر » ، تحريف .

كقوله تعالى : ﴿ فسيُنْغِضُون إليْكَ رُءوسَهمْ ويقُولونَ مَتَى هو ﴾ فالنَّغْضُ كالتَّلوِيَة وإن كان النَّغْضُ أقرب إلى الحقيقة .

وقولها « ليقودَ مِن أهل الحجاز بَرِيما » ، فأصل البَرِيم خَيطٌ يُفتَل مِن قُوًى بيضٍ وسود . ويقال : قَطِيع برِيم ، إذا كان فيه خِلْطانِ ضَأْنٌ ومِعْزَى . وقال الدُّرَيديّ : كلُّ لونين اجتمعا مثلَ السَّواد والبياض فهو البَرِيم ، وإنما يتَّخذون البَرِيم من الخيوط ليُشَدَّ فى أحْقِى الصِّبيان فيُدفَع به العَين . والمراد به هنا جيشٌ متفاوتون أدنياء ، كالبريم وهو الخيط المُبَرَم من عِدَّة ألوان . والقَصدُ فيما ذكرَته إلى الإنكار على المخاطَبِ فيما يأتيه ، وتوبيخه فيما حَدَّث به نفسَه من قَوْدِ جيشٍ إلى عمْرو بن الخليع ، كما وصفَتْه .

٢ — أتريدُ عمْرو بنَ الخليعِ ودُونَهُ كَعْبٌ إذًا لَوَجدْتَهُ مَرْءوما

٣ — إنَّ الخليعَ ورَهْطَه فى عامِرٍ كالقَلْبِ أُلْبِسَ جُؤْجُؤًا وحَزِيما

تقول مقرِّعة ومقبِّحةً لما أنكرَتْه من مُخاطَبِها ومُوبِّخة : أتقصِد بما هممت به من جَمْع الجموع الحجازيّة عمرو بن الخليع وحوله بنو كعب ، إذًا لوجدته معطوفًا عليه ، محروسا منكَ ومن لفيفِك . أمَاعلمت أنَّ الخليعَ وعشيرتَه من بنى عامرٍ بمكان القلبِ من النَّفس ، قد التفَّ به الصَّدرُ والحزيم ، وَحَماهُ الحشا والجَوفُ .

والحزيم والمحْزِم : موضع الحِزام من الصَّدر . يقال للرَّجُل إذا أُريد تشمُّرُه : شدَّ حزيمك للأمر ، وحيازيمَك وحَيْزُومك . والحَيزوم : وسط الصدر . والمعنى : أنَّ مكانه من الحَيِّ مكين ، ومحلَّه من جانب المنعِمنه والدِّفاعِ دونَه عزيز مَصُون . ويقال : رأمته أرأَمُه رَأْمًا ورِئمانا . والمعنى : كيف يقعُ فى نفسك نِزاعُهم ، أو يُتَصوَّر فى وهمك غَلَبُهم .

ثمَّ أخذت تحذِّر فقالت : لا تغزونَّهم ولا تستشعرنَّ ذلك فيهم .

٤ – لا تَغْزُوَنَّ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ   لا ظالِماً أبداً ولا مَظْلُوما[1]

٥ – قومٌ رِبَاطُ الخَيْلِ وَسْطَ بيوتِهم   وأسِنَّةٌ زُرْقٌ يُخَلْنَ نُجُومَا

٦ – ومُخَرَّقٌ عَنْهُ القميصُ تخالُه   وَسْطَ البُيُوتِ مِن الحياء سقيما

٧ – حَتَّى إذا رُفِعَ اللِّواء رأيتَهُ   تَحتَ اللِّواء عَلَى الخَمِيس زَعِيمَا

نَهَتْهُ عن غَزْوِهم على كلِّ حالٍ. وانتصب «ظالما» على الحال. فيقول لا تَقصِدْهم طامعاً فيهم ومحارباً لهم، لا منتقِما ولا مبتدئا، فإنَّك لا تُطيقهم، إذْ كان هَمُّهم الغَزْو، ومَرْبِطُ خيولهم وَسْطَ بيوتهم، يضمِّرونها ويتفرَّسون على ظهورها[2]، ولا يأتمنون عليها في سياستها وصَنْعتها[3] إلاَّ أنفسَهم، فلا ترى إلاَّ مَن يهذِّب آلتَه للحرب ويُصلِحها، فمَركوبُه صنيع، وسِنانُ رمحه تَجْلُوهُ سَنين، ونفسُه مُبتذَلَةٌ فيما يحصِّل به أُكْرومةً، لا يهمُّه مطعومٌ ولا مَلْبُوسٌ. ثمَّ لفَرط حيائِه وتَناهِي كرمِه تحسبه وسطَ بيوتِ الحيِّ سقيماً، قِلَّةَ كلامٍ ولينَ جانب، وضَعفَ مجاذَبة، فإذا نُصِبَ لواء الجيش مجهِّزاً لطَلَب وِتْرٍ، وانتواءِ غَزْوٍ، أوْ محاماة على وليٍّ، أوْ سدِّ ثغر، رأيتَه مُهَيَّأً للزَّعامة، معتمَداً للرِّياسة والسِّياسة، غيرَ مزاحَمٍ ولا مدافَع.

٧٠٠

وقال آخر[4]:

١ – نَحْنُ الأَخَايِلُ لا يَزَالُ غُلامُنَا   حَتَّى يَدِبَّ على العَصَا مَذْكُورَا[5]

(١) سيبويه (١ : ١١١) والعيني (٢ : ٤٩) : «لا تقربن». واستظهر البكري في التنبيه ٧٩ أن يكون صواب الرواية : «لا ظالماً فيهم».

(٢) يقال : هو يتفرس، إذا كان يرى الناس أنه فارس على الخيل.

(٣) صنعة الخيل : حسن القيام عليها وتعليفها وتسمينها. في الأصل : «ومنعتها»، صوابه في ل.

(٤) هو ليلى الأخيلية، كما في البيان (٣ : ٨٧) والأغاني (١٠ : ٧٦). وفي اللسان (خيل) : «ويقال : البيت لأبيها».

(٥) في الأغاني : «معهوراً».

٢ — تبكى السُّيوفُ إذا فَقَدْنَ أكُفَّنا جَزَعاً وتَعلَمُنا الرِّفاقُ بُحُورَا[1]

ولَنحنُ أوثَقُ فى صُدورِ نِسائِكمْ مِنكُمْ إذا بَكَرَ الصُّراخُ بُكُورا

الأخايل جمع ، وهى قبيلتها . ويقال للشَّاهِين الأخْيَل ، والجميع الأخايل . فأمّا قول الشّاعر :

* لهُ بَعْدَ إدْلاجٍ مِرَاحٌ وأخْيَلُ *

فهو الخُيَلاء ، والفعل منه اختال . ومراد الشاعر : نحن المعروفون المشهورون ، كما قال أبو النَّجم :

* أنا أبو النَّجم وشِعْرِى شِعْرِى *

أى أصحاب هذا الاسم النَّبيه الخطير . ولا يزال غلامُنا أى الغلامُ منّا وفينا ، مِن وقتِ تَرعرُعِه إلى وقت دبيبه ، معتمِداً على عُكّازِه ، رفيعَ الذِّكْر على الشّأن تقدُّماً وتكرُّماً . والسُّيوفُ إذا فَقَدَتْ أيدينا بَكَتْ حنيناً إليها ، وجَزَعاً على ما يفوتُهَا منها . والمرافقون فى الأسفار لنا تَعلمُنا بُحوراً ، لِمَا يُقْسَمُ لهم من إفضالنا ، ويَعُمُّهم من تفضُّلِنا ، ولِحسْن توفُّرِنا على الزُّوّاد والورّاد ، ويُمْنِ صُحبتِنا على الأدانِى والبُعَداء .

وقوله « ولَنحنُ أوثَقُ فى صـدور نِسائكم » ، يريد أنّهنّ إذا صُبِّحْنَ بالغارة فارتفعَ لما يتداخلهُنَّ من الرُّعْبِ الصُّرَاخُ ، لأنّهن خِفْنَ السِّباء وما يَلْحَقُ من العار ، فقلن : واصَبَاحاه أو واسُوءَ صباحنا ! واسم ذلك الصَّوت الصرخة والصُّرَاخ . وفى المَثَل : « لم صَرْخَةُ الحُبْلَى » .

ومعنى البيت أنّا فى ذلك الوقتِ أوثَقُ فى اعتقاد النِّساء ، وفيما يشتمل عليه

---

(١) الأغانى :

تبكى الرماح إذا فقدن أكفنا جزعاً وتعرفنا الرفاق بحورا

ظَنَّتُهنّ ويجهده استفاءتهنّ مِنكم ، لما عرَفْن من ذَبّنا وحِمايتنا ، واشتهرنا به من غَيرتنا وحَميَّتنا .

٧٠١

آخر[١] :

١ — يُشَبَّهُونَ سُيُوفاً فى صَرَائمِهم وطُول أَنضِيَةِ الأَعناقِ والأُمَمِ[٢]

٢ — إذا غَدَا المِسْكُ يَجرِى فى مَفارِقِهم رَاحُوا تَخالُهمُ مَرضَى من الكَرَمِ

يقال : شَبَّهتُه كذا وبكذا ، كما يقال نصحتك ونصحت لك . والصَّرائم : العزائم ، والواحدة صريمة . وقال الخليل : الصَّريمة إحكامك الأمرَ وعزمُك عليه . وكان أصله من الصَّرْم : القَطْع . والأَنضِيَة : جمع النَّضِيّ ؛ وهو مركَب النَّصل فى السَّيف فى الأصل ، والمراد به هنا مركَب الرَّأس فى العنق . ونَضِيّ السَّهْم : قِدْحُه ، وهو ما جاوز من السَّهم الرِّيشَ إلى النَّصل . وأنشد الخليل فى ذلك :

فمَرَّ نَضِيُّ السَّهمِ تحتَ لَبَانِه وجالَ عَلَى وحْشِيِّه لم يُعتِّمِ[٤]

والأُمم : جمع أُمَّة وهى القامة ؛ يقال : ما أحسَنَ أُمَّته . وقوله « راحوا تخالهمُ مَرضَى من الكَرَم » ، أى من الحياء . وصَفَهم بالصَّرامة والنَّفاذ فى

---

(١) هو الشمردل بن شريك اليربوعى ، شاعر من شعراء الدولة الأموية ، كان فى زمان جرير والفرزدق . الحيوان (٣ : ٩١) والشعراء ٦٧٥ والأغانى (١٢ : ١١٦) واللسان (نضا) . والبيتان بدون نسبة فى الكامل ٣٥ ليبسك والأمالى (١ : ٢٣٨) والعقد (٦ : ٢٢٨) .

(٢) الحيوان والشعراء : « يشبهون ملوكا من تجلتهم » ، الأمالى والكامل : « فى علتهم » . الأغانى : « يشبهون قريشاً من تكلمهم » . الكامل والأغانى والعقد : « والقمم » الشعراء : « والقمم » .

(٣) الحيوان : « إذا جرى المسك يندى » . الشعراء : « إذا جرى المسك يوماً » . الكامل : « إذا بدا المسك يندى » . وفيما عدا الحماسة : « راحوا كأنهم » .

(٤) للأعشى فى ديوانه ٩٣ واللسان (نضا) .

الأمور ، فكأنَّهم السُّيوف ؛ و بطول القَوَام وحُسْن الشَّطاط ، و باستعمال العِطر وكَرَم النَّفس وشِدَّة الحياء بعد الشُّرب ، و بتَمام الأُبَّهة والمُروءة فى مجالس الأُنْس . وهذا و إنْ لم يصرِّح به فهو متبيَّنٌ من فَحوَى : إذا غدَا المِسك راحوا وكأنَّهم مرضى . على ذلك رَسْمُ الاصطباح ، وعادةُ كِرام شُرَّاب الرَّاح .

٧٠٢

وقال آخر :

١ — فإنْ تَكُنِ الحوادِثُ حَرَّقتْنِى ... فلَمْ أرَ هالِكاً كابْنَىْ زِيادِ

٢ — هما رُمْحانِ خَطِّيَّانِ كانا ... من السُّمْرِ المُثَقَّفةِ الصِّعَادِ

٣ — تُهَالُ الأرض أن يَطَئَا عليها ... بمِثْلِهما تُسالِمُ أو تُعادِى

يقول : إن كانت نوائبُ الزَّمان أثَّرتْ فىَّ وأزالت تحمُّلى بالصَّبر[1] ، وتجلُّدى لِرَيْب الدَّهر ، فإنِّى لم أر فيمن شاهَدتُهم هالِكاً كهذين الرَّجُلين ؛ وابنا زيادٍ لم يكونا منه بسبيلٍ ، لا قُربَى ولا قرابة ، ولا آصِرةَ ولا وسيلة ، فيكون الكلام تأبيناً والشِّعر مرثيةً ؛ و إنما كان من جملة مَن تأذَّى بهم ، وساقُوا الشَّرَّ إليه بسَعيِهم ، لكنَّه شَهِدَ لهُما بما شَهِد ، مُورِدًا الحق ، وتابعاً الصِّدق ، فهو بالمَدْح أشبَهُ منه بالمراثى ، إذْ كان الرِّثاء من شرطِهِ التوجع والتَّحزُّن وقد عُدِما هنا ، والثَّناء على العدوّ ثناء على نفسه . و يجوز أن يكون المراد : لى بهما على فَضْلهما ونفاذِهما وتقدُّمِها ، أُسوةٌ فى الرِّضا بما قُدِّر لى ، والصَّبر على ما حُكِم به علىَّ ، ولأنَّ الأرضَ لو هابت ماشياً على ظَهرِها ، لكانت تهاب هذين لما أُوتيا من قُدرة ، وأُبلِغا من عِزٍّ وقوة . وشبَّههما برُمحين استواء خلقةٍ وامتدادَ قامة ، وسُرعةَ

[1] ل : « تجمل الصبر » .

نفاذٍ وحُسنَ توجه . والسُّمرةُ فى ألوان الرِّماح محمودة . والصَّعْدَةُ : القناة تنبت مستويةً . وقوله « من السُّمر المثقَّفة الصِّعاد » ، سوَّى بينهما فى التَّشبيه حتَّى لا مخالفةَ ، تنبيهاً على ما يُقصَد من المبالَغة وتناهِى البراعة .

وقوله « تُهَالُ الأرضُ أن يَطَئَا عليها » أى لأن يَطَئَا عليها ، فحذف حرف الجر . يريد : أنّ قوّتَهما بالغة ، ومَشيَهما شديد ، والأرضَ لشدَّة وَطْئهما لها فى هَوْلٍ عظيم ، وزَلْزَال فظيع . ويجوز أن يريد بالأرض [أهل الأرض[1]] فحذف المضاف . ثم قال : وبمثلهما تُسَالِمُ أو تُعَادِى ، يريد أنَّهما أهلُ الصَّلاح والفَساد والخير والشَّرّ ، والعَداوة والصَّداقة . و « أو » من قوله « أو تُعادى » أو الإباحة وقد نُقِل إلى الخَبَر .

٧٠٣

آخر :

١ — كَرِيمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فَضْلَ حيائهِ وَيدنُو وأطرافُ الرِّماحِ دَوَانِ[2]

٢ — وكالسَّيفِ إنْ لايَنْتَهُ لانَ مَسُّهُ وحَدَّاه إنْ خاشَنْتَهُ خَشِنانِ[3]

يصفُه بأن خصالَ الكرم قد اجتمعت فيه ، فلِتَناهِى حيائه تراه يَكسِر طرفَه عند النَّظَر ، فِعْلَ[4] مَن عَمِل ما يُستَحيا منه ، أو لزِمَهُ مِنَّةُ مُنعِمٍ توالَى نِعمُهُ عليه ، أو قَصَّرَ فى أداء واجبٍ فيخاف عَتْبَهُ فيه ؛ ولكمال حَمِيَّته فى الحرب يقتحم على الشّرّ ، فلا يزدادُ والرِّماحُ شارعةٌ نحوَه إلا قُرْباً منها ، وتهجُّماً عليها ؛

(١) التكملة من ل .

(٢) البيتان أنشدهما الجاحظ كذلك بدون نسبة . البيان (٢ : ١٧١) . ورواية الجاحظ : « عند حيائه » .

(٣) البيان : « لان متنه » .

(٤) ل : « نظر » .

ثم هو فى طباعه كأنه السيف متى لاينته وجدت اللين فى صفحتيه[١] عند ملمسه ، ومتى خاشنته وجدت القطع والخشونة فى حدّيه ومضربه .

ومثل هذا قول الآخر[٢] :

ضربا ترى منه الغلام الشَّطبا[٣] إذا أحسّ وجعا أو كربا
دنا فما يزداد إلّا قربا تحكُّكَ الجرباء لاقت جربا

وقد مرّت مستقصًى شرحُها فى باب الحماسة .

٧٠٤

وقال العُجَيْر السَّلُولِىّ[٤] :

١ — إنَّ ابنَ عَمِّى لَابنُ زيدٍ وإنّهُ لَبَلَّالُ أيدِى جِلَّةِ الشَّوْلِ بالدّمِ
٢ — طَلُوعُ الثَّنَايا بالمطايا وسابِقٌ إلى غايةٍ مَن يَبْتَدِرْها يُقدَّمِ

افتخرَ بابنِ عمه ، وبمكانِه من قرابته ، ذاكراً اسمَ أبيه ، ومكتفياً به لاشتهاره ، ثمّ وصفَه بأنّه أوانَ الجدْب والقحط ، وعند إسنات الناس ، ووقتَ طُروق الأضياف ، يُعرقِبُ الإبلَ السِّمان فيَبُلُّ أيديَها من دماء عراقيبها .

وقد أحسن لبيدٌ كلَّ الإحسان فى قوله لما سلكَ هذا المسلك :

مُذْمِنٌ يَجلُو بأطراف الذُّرَى دَنَسَ الأَسْؤُقِ بالعَضْبِ الأَفَلّ

وقوله « طَلُوعُ الثّنايا بالمطايا » يريد أنّه يَعلُو العِقاب ويُشْرِفُ عليها

(١) ل : « صفحته » ، بالإفراد .
(٢) هو عبد الرحمن المعنى . سبق فى ص ٦٠٣ .
(٣) روايته فيما سبق :

* ترى مع الروع الغلام الشطبا *

(٤) ل : « وقال آخر ، وهو العجير السلولى » . وقد مضت ترجمة العجير فى الحماسية ٣١١ ص ٩١٨ .

مرتبئاً فيها ، أو نافضاً طرق الصّيد عليها . ومثله قولُهم : طَلّاعُ مَرقبة ، وطَلّاعُ أنجدَةٍ . إلّا أنّ هذا زادَ على ما قالوا لقوله « بالمطايا » .

وقوله « وسابقٌ إلى غايةٍ » مثلُه قولُ تأبّط شرًّا :

* سَبّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرته[1] *

وقوله « مَن يبتدِرْها يقدَّم » فى موضع الصفة لغاية ، والمعنى : من يبتدر مثلَ تلك الغاية قُدِّم فى أقرانه ونُظَرائه ، وسُلِّمَ السَّبْق له .

٣ — مِنَ النَّفَرِ المُدْلِينَ فى كُلِّ حُجّةٍ بمُسْتَحْصِدٍ فى جَوْلة الرَّأْى مُحْكَمِ

٤ — جَدِيرُونَ ألّا يَذْكُروكَ بِرِيبةٍ ولا يُغْرِمُوكَ الدَّهْرَ ما لم تَغَرَّمِ

يقال : أدلَى بحُجّته ، إذا أظهرها وقام بها ؛ وأدلى رداءه فى البئر ليبتلّ ، ودلّاه على كذا فتدلّى . وقال الهُذَلىّ[2] :

* تدَلَّى عليها بين سِبٍّ وخَيْطَةٍ[3] *

وتوسّعوا فيه فقالوا : دَلّاه بغُرور . فيقول : هذا الرَّجُل من القوم الذين إذا أوردُوا حُجّةً قوَّموها برأىٍ مُحْكَمَ الفتل فيما يَجُول من الرَّأى مُحْصَفٍ . والنَّفر يقع على ما بين الثلاثة إلى العشرة ، ولذلك صَلَح أنْ يقال ثلاثة نفَرٍ وأربعة نفر . ونافرةُ الرَّجُل : بنو أبيه الذين يَغضبون لغضَبه . قال :

لوْ أنّ حَوْلِى من عُلَيْمٍ نافِرَه ما غَلَبَتْنى هــذه الضَّياطِرهْ

وقوله « جديرون ألّا يَذكُروك بريبةٍ » ، يريد أنّهم أحِقّاء بألّا يغتابوك إذا غِبتَ عنهم ، لسلامة صُدورهم من الدَّغَل[4] والغِش والخيانة ، ولا يَقذِفوك

---

(١) البيت ١١ من المفضلية الأولى . وعجزه :

* مرجِع الصوت هدًّا بين أرفاقِ *

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٧٩) واللسان (سبب ، خيط ، وكف) .

(٣) عجزه : * بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها *

(٤) الدغل ، بالتحريك : الفساد . فى الأصل : « الوغل » ، صوابه فى ل .

بريبةٍ تَشينك أو يقبُح فى الأُحدوثة بها عنك ، و بألاّ يُجرُّوا عليك أبداً جريرةً يَثْقُل وطأتُها عليك فتحتاجُ أن تَغرَمَ لها ما لا تَطِيبُ نفسُك به ، ولا تسمحُ بتحمُّلها فى مالكَ .

٧٠٥

وله أيضاً :

١ — أقولُ لِعبدِ الله وَهْناً ودُونَنَا . مُنَاخُ المَطَايا مِن مِنًى فالمحصَّبُ

٢ — لكَ الخيرُ عَلِّلْنا بها عَلَّ ساعةً تَمُرُّ وسَهْوَانٌ من اللَّيـلِ يَذْهَبُ[1]

٣ — فقامَ فأدنَى من وِسَادِي وِسادَهُ طَوِى البَطْنِ مَمْشُوقُ الذِّرَاعين شَرْحَبُ

٤ — بعيدٌ من الشَّىءِ القليلِ احتِفاظُه عليكَ ومَنْزورُ الرِّضَا حين يَغْضَبُ

٥ — هو الظَّفِرُ المَيْمونُ إنْ رَاحَ أو غَدَا به الرَّكْبُ والتِّلْعَابَةُ المتَحبِّبُ

وَهْناً ، أى بعـد ساعةٍ من الليل ؛ ومنه المَوْهِن . ومفعول أقول أوّل البيت الثانى ، وهو « لك الخير » ؛ وَموضع « ودوننا مناخ المطايا » موضع الحال . فيقول : أخاطبُ عبـدَ الله وقد تقضَّى من اللّيل بعضُه ، ومَبرَكُ الإبل من مِنًى فموضعُ الجمار منه بقربٍ منّا[2] : مُلِّـكْتَ الخـير ولُقِّيت السَّعادة ، عـلِّلْنا فى هذه الأرض بأحاديثك لعلَّ ساعةً تمرّ ترجِـع إلينا نَفسُنا وطائفةً من الليل تمضى نطويها على بعض مرادنا ، ولأن التعلُّل بالأحاديث وقطعَ الأوقات به ، للنّفس فيه راحة ، ولها به اعتبار . وقوله « وسَهْوانٌ[3] » أى طائفة . و يُرْوَى : « وسهواء » و يقال : لَقِيته بعد سهواء من اللّيل ، أى بعد

(١) كتب فوق النون من « سهوان » فى ل : « نا » مع قرنها بكلمة « معا » لتقرأ بالرفع والنصب أيضاً .

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « بقرب منى » .

(٣) ل : « وسهوانا » .

مُضِيّ صَدْرِه . ويجوز أن يكون فَعلاء من السَّهو ، وتكون همزتها ملحَقة ، ويجوز أن يكون فَعْوَالاً ويكون همزتُها مبدلةً من الواو . فأمّا سهوان فكأنّه أُرِيد به الوقت الذى يَسهُو فيه الناسُ عن مَباغيهم ، وعلى ذلك يُحْمَلُ السَّهواء . وفى المثل : « إنّ الموصَّينَ بنو سَهْوَان » ، أى الذين يَسهُون عن الحاجة يُحتاج منهم إلى التَّوصية . ولا يمتنع أن يكون السَّهوانُ فى الوقت مأخوذاً من السَّاهية ، وهو ما استطال واتَّسع من الأرض من غير خَمَرٍ يردُّ العين ؛ فنُقِل من المكان إلى الزّمان ، أى طائفة من اللَّيل ممتدَّة واسعة .

وقوله : « فقامَ فأدنَى من وِسَادِى وِسادَه » جَمَعَ بين فِعلَين قام وأدنى . فيجوز أن يكون « طَوِى البَطْن » يرتفع بالأوّل منهما ، وهو قام ، ويجوز أن يرتفع بأدنى وقد أُضمِر فى قام على شريطة التّفسير فاعلُه . والمعنى : فقام به أو منه رجلٌ هكذا فقرّب مجلسَه من مجلِسى . الشَّرجب : الطَّويل . والطَّوِى البَطْنِ : الصغيرُه خلقةً . والمشوق : الطَّويل القَليل اللَّحم . وجاريةٌ ممشوقة : حَسَنة القَوام قليلةُ اللّحم .

وقوله « بعيد من الشَّىء القليل احتفاظه » أى غضبُه ، يريد أنّه سهلُ الجانب لا يكاد يَحتمِى من الشّىء القليل الخَطَرِ والموقِع من النُّفوس ، لكنّه قليل الرِّضا إذا غَضِب ، لا يكاد يَرجع إذا ذهَبَ عنك بالهُوَيْنَا . وذِكْر البعد هاهنا يريد النَّفى ، وهذا كما يُستعمل القليل والأقلّ ويراد بهما النَّفى . والمعنى لا يحتفظ بالشّىء القليل ولا يُؤاخِذ بصغائر الذنوب .

وقوله « هو الظَّفِر الميمون » يصفُ إقبالَه فى متصرّفاته ، وأنّ المَناجِح والسَّعادات فى رِفاقِه ولاحقةٌ لَطالبِه ومَباغيه ، والمَيَامِن ترفرف على جوانب آرائه وأهوائه ، ثم هو حَسَنُ البِشْر [١] ، ليِّن العَرِيكة ، ضحّاك لَعوب . والاحتفاظ :

(١) فى نسخة الأصل : « النشر » ، وما أثبتناه من ل . وأشير فى هامش ل إلى أنها فى نسخة « النشر » .

افتعالٌ من الحِفْظة(١) والحَفيظة : الغضَب . والتِّلعابة على بنائه التِّقوالة والتِّلقامة والهاء فى آخره المبالغة . ويقال : نزرْتُ الشىء نَزْرًا ، ثم يقال للمَنْزور هو نَزْرٌ.

٧٠٦

وقال أبو دَهْبَل(٢) فى الأزرق(٣):

١ — ماذا رُزِينا غَداةَ الخَلِّ من رِمَعٍ عند التَّفرُّق مِن خِيمٍ ومن كَرَمِ

٢ — ظَلَّ لنا واقفاً يُعْطِى فأكثرُ ما قُلْنا وقالَ لنا فى وَجْهِهِ نَعَمِ(٤)

الخَل : الطَّريق فى الرَّمل . ورمع : موضع ، وقيل هو جبل باليمن . يقول : أُصِبْنا وفُجِعْنا غداةَ اجتماعنا لتوديع الفِراقِ ، بعظيمِ نبيه من الكرم والخِيم ، وهو سَمَةُ الخلق .

وقوله « ظلَّ لنا واقفاً يُعطى » يعنى الأزرق . أى بَقِىَ نهارَه واقفاً ونحن محتفُّون به ومجتمعون حولَه ، وأكثرُ ما قلناه فى وَجهِهِ وخاطَبْناه به ، وقال لنا فى جوابه « نعم » . كأنّ القومَ المعترِّين اكتفَوْا بعَرْضِ نُفوسِهم عليه من ذكر حاجاتهم لتمام كرَمه ، وكمالِ فِطنته ، وهو يَعِدُهم الخيرَ ويقرِّب لهم الإسعاف

(١) الحفظة ، بكسر الحاء وسكون الفاء ، مثل الحفيظة . وفى ل : « افتعال من الحفيظة وهى الغضب » ، وهى عبارة ناقصة عما فى الأصل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٢١ ص ١٣١٩ .

(٣) التبريزى : « الأزرق المخزومى » . وفى معجم البلدان (ومع) : « الأزرق بن عبد الله المخزومى » : وفى الأغانى أن الذى يمدحه أبو دهبل إنما هو « ابن الأزرق » ، واسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، كان يقال له « ابن الأزرق » ، و « المبرزى » ، وكان عاملا لعبد الله بن الزبير على اليمن . الأغانى (٦ : ١٥٧) ومعجم البلدان فى رسم (الخل) . وأنشد أبو الفرج أيضاً لأبى دهبل يمدح ابن الأزرق ، وكان وفد عليه وهو معزول فأعطاه مائتى ألف دينار :

أعطى أميراً ومنزوعاً وما نزعت عنه المكارم تنشاه ومانزعا

(٤) الأغانى : « سمى وقال لنا فى قوله » .

والبَذْل ، ويقول لكلٍّ منهم : نَعَمْ ، عالماً بما يقترحه ، وضامناً لما يطلبه ، وماء الوجوه فى مواضِعها لم تُهْرَق .

ونَعَم : حرف إيجاب ، و « يُعطِى » موضعه نصبٌ على الحال .

٣ — ثم انتحى غَيْرَ مذمومٍ وأعيُننا لما تَوَلَّى بدَمْعٍ سافِحٍ سُجُمِ[١]

٤ — تَحْمِلُهُ النَّاقةُ الأدماء معتَجِرًا بالبُرْد كالبـدر جَلَّى ليـلةَ الظُّلَمِ

٥ — وكيفَ أنساكَ لا نُعماكَ واحِدةٌ عِندِى ولا بالّذِى أسْدَيْتَ مِنْ قِدَمِ[٢]

يقول : اعتَمَدَ ، بعدَ الوقوفِ لنا والنَّظَر فى مآربنا ، لوجهته ، وهو مُمَدَّح بالألسنة ، محبَّبٌ فى الصُّدور والأفئدة ، وأعيُنُنا لِنَوازع نُفوسِنا لَمَّا وَلَّى ، سَيَّالةٌ بدموعها . ومعنى سافِح : ذو سَفْحٍ ، أى ذو انصباب . والسُّجُم : جمع سَجُوم .

وقوله « تَحمله النَّاقة الأدماء معتجِرًا » ، يريد ملتَفًا . والاعتجار : لفُّ المِعجَر ، وهو العِمامة ، فى الرَّأس من غير إدارةٍ تحتَ الحَنَك . وقيل : بل المِعْجَر ضربٌ من ثياب اليَمَن . وشبَّهها بالبَدْر فى تلألُئِه ونُوره . ألا ترَى أنّه قال : « جلَّى ليلة الظُّلَم » .

وقوله : « وكيف أنساك » ، يريد أنَّ أياديَه عنده تذكِره لأنها كثرت وعَمَّت وغمرَت[٣] فلا يعرِّج على مُنْفِسةٍ إلا كانت منه ، ولا يردِّد نظرهُ فى ذخيرة إلا وكان السببَ فيها ، ولم تأتِ اللَّيالى والأيام عليها فتقادَمَ عهدُها ، وحالَ النِّسيان دُونَها ، بل هى غَضَّة طريّة تُنادِى على نفوسها ، وتَلُوحُ الجِـدَّة على صفحاتها ، وتَحمِى من الدُّروس ذِكْرَ مُولِيها .

---

(١) الأغانى : « بدمع واكف » .
(٢) الأغانى : « لا أيديك واحدة . . . بالتى أوليت » .
(٣) فى النسختين : « وعمرت » .

وقوله « لا نُعماكَ واحدةٌ » فى موضع الحال من « لا أنساكَ » . وقد تقـدَّم القول فى الإسداء وأصلِه .

٧٠٧

وقال أيضاً فيه :

١ — مازِلتَ فى العَفْو للذُّنوب وإطْـلاقِ لعَانٍ بجُرْمِـه غَلِقِ

٢ — حتَّى تَمـنَّى الـبُرَاةُ أنّهُمُ عِنْدَكَ أسرَوْا فى القِـدِّ والحَلَقِ

قوله « فى العفو » فى موضع النَّصب على أنه خبر ما زال ، والجارُّ منه تعلّقَ بمضمَر ، كأنَّه قال : ما زلتَ آخِذًا فى العَفْو وداخلاً فيه ، إلى أنْ تمنَّى مَن لا جُرْمَ له أن يكون جارماً عليك حتَّى يتوفَّرَ عليه نَظَرُك وإحسانُك .

وألمَّ أبو تمّام بهذا المعنى فقال :

وتَكَفَّلَ الأيتامَ عن آبائِهِمْ حَتَّى وَدِدْنَا أنّنا أيتامُ[1]

فعدَّه كثيرٌ من أصحاب المعانى خطأً فيه ، وقالوا : جعلَه لا يعرف مواضع الصَّنيعة إذ صار النَّاسُ يتمنَّوْن منزلةَ الأيتام عِنده وحُرُماتِهم لدَيه حتَّى ينالَهم إفضالُه ، ولو ساغَ هـذا القول فيما قاله أبو دَهْبَل ، وهو تمنِّى البُراةِ أن يكونوا أُسَراء مصفَّدين لدَيه حتَّى يلحقهم إحسانُه ، إذْ لا فَرقَ بين الموضعين . ولم يُنكِر أحدٌ من المتقدِّمين والمتأخِّرين ما قاله أبو دَهبل ولا قَدَحوا فيه . وقد أحكمْتُ القولَ فى التَّسوية بينهما فى « رسالة الانتصار ، من ظَلَمَة أبى تمَّام » ، وبيَّنتُ أن المعنى الذى انتحاه سليمٌ من العَيب صحيح .

والعَانى : الأسير . والغَلِقُ : المتروك لا يُفَكُّ .

---

(١) من قصيدة له فى ديوانه ٢٧٩ — ٢٨٢ يمدح بها المأمون .

٧٠٨

وقال الفَرزدقُ يمدحُ عليَّ بن الحسين بن عليّ[١] بن أبي طالب كرم الله وجوههم :

١ — إذا رأتْهُ قُرَيْشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هذا يَنْتَهِي الكَرَمُ

٢ — هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ وطأَتَهُ ... والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ

٣ — يُكادُ يُمْسِكُهُ عِرْفانَ رَاحَتِه ... رُكْنُ الحَطِيمِ إذا ما جاء يَسْتَلِمُ

فائدة إلى في قوله « إلى مكارم هذا » الانتهاء ، والجملة في موضع المفعول لقال . والمعنى أنَّ الكريم إذا انتهى إلى درجةِ مكارم هذا وقَفَ[٢] ، لأنها الغايةُ السَّامية ، والمرتبةُ التي لا مُتجاوَزَ منها إلى ما هو أعلَى . ثم قال : « هذا » ، يعني عليَّ بن الحسين [بن علي[٣]] صلوات الله عليه « الذي تَعرِف البَطحاءُ وَطأتَه » من بين وطآت النَّاس إذا مشَوا عليها وفيها . والبطحاء : أرض مكّة المنبطحة ، وكذلك الأبطح . و بيوت مكّة التي هي للأشرافِ بالأبْطَح ، والتي هي في الرَّوابي والجِبال

---

(١) بعده في ل : « صلوات الله عليهم » ، التبريزي : « وقال الحزين الليثي في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام . والحزين الكناني هو عمرو بن عبد بن وهيب بن مالك بن حريث بن جابر بن راعي الشمس الأكبر بن يعمر بن عبد بن عدي بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن خزيمة . ويقال : إنها للفرزدق ، قالها حين قال الشامي لهشام بن عبد الملك : من هذا الذي أعظمه الناس وفرجوا له عن استلام الحجر الأسود ؟ فقال : لا أدري . فقال الفرزدق : لكني أعرفه . فقال الشامي : من هذا يا أبا فراس ؟ فقال ... » . ونسبة الشعر إلى الفرزدق في هشام هي كذلك في أمالي المرتضى (١ : ٤٨) وزهر الآداب (١ : ٦٠) . ونسب إلى الفرزدق في علي بن الحسين عند ابن رشيق (٢ : ١١٠) وأمالي المرتضى أيضاً ، وللعين المنقري عند ابن رشيق أيضاً ، ولكثير بن كثير السهمي في محمد بن علي بن الحسين . المؤتلف ١٦٩ . ولداود بن سلم في قثم بن العباس ، عند ابن رشيق أيضاً . وهو مثل ظاهر لمقدار اختلاف الرواة في نسبة الشعر . وحكت الجاحظ في الحيوان (٣ : ١٣٣) والبيان (١ : ٣/٣٧٠ : ٤) وابن قتيبة في عيون الأخبار (١ : ٢/٢٩٤ : ١٩٦)

(٢) كلمة « درجة » ليست في ل .

(٣) هذه من ل .

للغُرَباء وأوساطِ الناس . والحَطِيم : الجدار الذى عليه مِيزابُ الكعبة ، فكأنّه حُطِمَ بعض حَجَرِهِ . والأبْطَحُ والبطحاء وإنْ كانا صفتين فإنّهما قد لحقا بالأسماء ، لذلك جُمِعا على الأباطح والبطحاوات . وانتصب « عرفانَ » على أنّه مفعول له[1] أي يكاد يمسكه رُكنُ الحطيم لأن عَرَف راحتَه . ويَستلم ، بمعنى يَلمسُ الحجرَ الأسود . يريد : أنّه ابنُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذى شَرُف به هذه المواضعُ ، فهى عارفةٌ به ، وإذا جاء إلى المُستَلَم يكادُ يتمسَّك به الرُّكنُ تمييزاً لراحتِه عن راحة غيره . وأصل يستلِمُ[2] تناوَلَ الحجرَ باليَدِ أو بالقُبْلة أو مَسَحه بالكفِّ ، فكأنه من السِّلام : الحجارة . قال الخليل : ولم نسمع أحداً يفردها .

٤ — أيُّ القبائلِ ليستْ فى رقابِهِمِ لأَوَّلِيَّةِ هــذا أوْ لَهُ نِعَمُ

٥ — بِكَفِّهِ خَيْزُرانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينِه شَمَمُ[3]

٦ — يُغضِى حَيَاءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فما يُكَلَّمُ إلّا حِينَ يَبْتَسِمُ

يريد : أنّ طوائفَ النّاس مغمورون بنِعَمِه أو نِعَمِ سلفه ، يعنى النبيّ والوصيّ عليهما السلام ، لأنهم اهتَدَوْا بدعائهم ، وفارقوا الهُلْكَ والضلالةَ بإرشادهم ودَلالتهم فلا قبيلَ إلّا ورقابُهم قد شُغِلَتْ بما قُلِّدَتْ مِن مِنَنِهم ، وذِمَمُهم قد رُهِنَتْ بما حُمِّلَت من عَوَارِفهم .

وقوله « بكفِّهِ خيزُرانٌ » يعنى به المِخْصَرَةَ التى يمسكها الملوك بأيديهم

(١) ابن جنى فى التنبيه : « يجوز فيه أوجه : أحدها نصب العرفان على أنه مفعول له ، ورفع ركن الحطيم على أنه فاعل يكاد ، أو فاعل يمسكه عرفان راحتــه لركن البيت ، ويجوز رفعهما جميعاً ، أى يكاد يمسكه أن عرف راحته ركن الحطيم ، فيرفع العرفان بيكاد أو يمسكه ، ويرفع ركنُ الحطيم بأنه العارف ، وإذا نصبت عرفان راحتــه على أنه مفعول له كنت مخيراً فى نصبه إن شئت بيكاد وإن شئت بيمسكه ، ولا يجوز نصب العرفان والركن جميعاً لئلا يبقى الفعل بلا فاعل » .

(٢) ل : « استلم » وكتب فى هامش ل : « نخ : الاستلام : تناول الحجر » .

(٣) التبريزى : « ريحها » . ويروى : « فى كف أروع » .

يتعبَّثون بها [١] . وقوله « ريحه عَبِقٌ » ، إذا فتح الباء فمخرجه مَخرج المصادر ، كأنّه نفسُ الشيء ، أو على حذف المضاف ، والأصل ذاتُ عَبَقٍ . وإذا كسرت فهو اسم الفاعل ، ومعناه اللاصِق بالشيء لا يفارقه . يريد أنّ رائحته تبق فهى تُشَمُّ الدّهر من كفٍّ أروعَ ، وهو الجميل الوجه . والشَّمَم : الطُّول . والعِرنين : الأنف وما ارتفَعَ من الأرض ، وأوّل الشّيء ، وتُجعَل العرانينُ كنايةً عن الأشراف والسادة . وإذا قُرِن الشَّمَم بالعِرنين أو الأنف ، فالقصد إلى الكَرَم . لذلك قال حسّانُ بن ثابتٍ :

* شُمُّ الأُنوف من الطِّرازِ الأوّلِ [٢] *

وقوله « يُغضِى حياء » ، أى احَيائه يغضُّ طرفَه ، فهو فى مَلَكته وكالمَنْخَزِل [٣] له . و « يُغضَى من مهابته » أى ويغضَى معه مهابةً له ، فمِنْ مهابته فى موضع المفعول له ، كما أنّ قوله «حياء» انتصَبَ لمثل ذلك ، والمفعول له لا يقام مقام الفاعل ، كما أنّ الحال والتمييز لا يُقام واحدٌ منهما مقام الفاعل .

فإنْ قيل : إذا كان الأمرُ على هذا فأين الذى يرتفع بيُغضَى ؟ قلتَ : يقوم مقامَ فاعِلِه المصدرُ ، كأنه قال : ويُغضَى الإغضاء من مَهابته . والدال على الإغضاء يُغضَى ، كما أنّك إذا قلت سِيرَ بزيدٍ يومَين ، لك أن تجعل القائم مقام الفاعل المصدر ، كأنَّه قيل : سِيرَ السَّيرُ بزيد يومين ، وهو أحدُ الوجوه التى فيه ، فاعلَمْه .

---

(١) وكذا عند التبريزى . ولم نجد « تعبث » فى المعاجم المتداولة .

(٢) صدره فى الديوان ٣١٠ :

* بيض الوجوه كريمة أحسابهم *

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وكالمتحرك » .

٧٠٩

آخر :

١ – إذَا انتَدَى واحتَبَى بالسَّيف دَانَ لَهُ ... شُوسُ الرِّجال خُضُوعَ الجُرْبِ للطَّالِي

٢ – كأنَّما الطَّيْرُ مِنْهُمْ فوقَ هامِهِمِ ... لا خَوْفَ ظُلْمٍ ولكنْ خوفَ إجلالِ

انتدى : جلَسَ فى نادى القوم ، وهو مجمعهم . وقوله « احتَبَى بالسَّيف » ، أى حَضَرَ لعَقْد جِوارٍ ، أو فَصلِ أمرِ حَربٍ ، أو إيقاع حِلْف ، أو تسرٍ يدِ رئيسٍ أو ما يَجرى هذا المَجْرَى وذلك أن السيف فى أمثالِ هذه الأحوال ربَّما مَسّت الحاجةُ إليه ، لذلك قال جرير :

ولا يَحتَبِي عِندَ عَقْد الجِوارِ ... بِغَيْرِ السُّيوفِ ولا يَرْتَدِي

وفى غير هذه الأحوال إنما يَحتَبُون بالأردية وأشباهها . ودانَ له ، أى خضع . وشُوسُ الرِّجال : جمع أشْوَس ، وهو الذى ينظر بمؤْخِرِ عينِه عداوةً أو كِبْرًا . وانتصب « خُضوعَ الجُرْب » على أنَّه مصدرٌ من غير لفظه ، لأنَّ معنى دان له ، أى خَضَع له . ومثلُه :

* وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعبةً أيَّ إذلالِ[١] *

لأنَّ معنى رُضْت أذللت . وانتصب أيَّ إذلال عنه .

وخَصَّ الجُرْبَ لأنَّها إذا هُنِئَتْ بالطِّلاء طابَ لها وطاعَتْ لطالِيها . لذلك قال امرؤ القيس :

* كما شَغَفَ المهنوءةَ الرَّجلُ الطَّالِي[٢] *

وقوله « كأنما الطَّيرُ منهم فوق هامِهم » ، أراد أنَّ مجالسَهم مَهِيبة ، وأنَّ

(١) لامرئ القيس فى ديوانه ٥١ . وصدره :

* وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا *

(٢) صدره : * أيقتلنى أنى شغفت فؤادها *

حاضِرِيها لا يموجون ولا يتخفَّفون ، بل يتوقَّرون ويَسكُنون فكأنَّ على رءوسهم الطَّير ؛ فإنْ حرَّكوا رءوسهم طارت إعظاماً لها وتبجيلاً لصاحبها . وقوله « لا خوفَ ظلم » ، أى يخافونه لا خوفَ ظُلْمٍ وانتقام ، ولكن خوفَ جلالةٍ واحتشام ، وتوقيرٍ وإعظام . ودلَّ على يخافونه حتَّى انتصب عنه لا خوفَ ، قوله كأنما الطَّير منهم فوق هامِهم . ولما كانَ غيرُ هذا الشَّاعر أراد التهكُّمَ والسُخرية قال فى وصف قوم :

* كأنَّ خُرُوءَ الطَّير فوق رءوسهم[1] *

وقد مرَّ ذلك .

٧١٠

وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةُ[2] :

١ — فإنِّى لَمْ أَكَدْ آتيكَ نَهْوِى بِرَحْلِيَ رَادَةُ الأَصْلاَبِ نابُ[3]

٢ — قَرِيحُ الظَّهْرِ يَفرَحُ أنْ يَرَاها إذا وُضِعَتْ وليَّتَها الغُرابُ

قولها « لم أكدْ آتيك » ، من قولهم : أعطانى الأمير ما لم يكد يُعطِى ، وسَمَح بما لم يكد يسمح . تقول : لم أكد أزورك وقد زُرْتُك تطير برحلى راحلةٌ وثيقةُ الظَّهْرِ ليِّنته ، قد أخذَت من السِّنّ والقُوَّة بالنَّصيب الأوفر ، دَبِرةُ الظَّهر يَفرحُ الغُرابُ إذا وُضعت عنها بَرذعتُها فنظَر إلى ظهرها ، لأنَّه يَنْقُره ويُدْميه إنْ تُرِك .

(١) البيت ٥ من الحماسية ٦٠٨ ص ١٤٥٤ . وعجزه :
* إذا اجتمعت قيس معاً وتميم *

(٢) سبقت ترجمتها فى الحماسية ٦٩٩ ص ١٦٠٧ .

(٣) ابن جنى فى التنبيه : « لو نصب رادة الأصلاب على الحال لأنها وصف نكرة قدمت عليها لـكان وجها » .

وقولها « رَادَةٌ » مِن راد يرود ، إذا جاء وذهبَ لِلينه ؛ والأصل رائدة ، فحذفت الهمزة تخفيفاً ، كما قيل[١] فى شائكٍ شَاكُ السِّلاح . ويجوز أن يكون فَعِلَةً بُنِيتْ منه ، وعلى ذلك قولهم : رجلٌ مالٌ ، كأنه مَوِلٌ . ورواه بعضهم : « رَارَةُ الأصلاب » . وزعم أن عينَه ياء ، واحتجَّ له بقول الآخر :

* والسَّاقُ مِنِّى باديات الرِّيْرِ[٢] *

والرَّارُ والرِّيْرُ : المُخّ . وليس الصُّلب بموضع مخٍّ ، فاعلمْه . ومثله على الوجه الأول قولُه :

* فى صَلَبٍ مثلِ العِنانِ المُؤْدَمِ[٣] *

ألا تَرَى أنه شبهه بالعِنان لِلينه .

٧١١

وقال العُرْيانُ[٤] :

١ — مررْتُ على دَارِ امرئِ السَّوءِ حَوْلَهُ ‏ ‏ لَبُونٌ كعَيْدانٍ بحائطِ بُستانِ[٥]

---

(١) ل : « كما تقول » .

(٢) قبله فى اللسان (رير) :

أقول بالسبت فويق الدير ‏ ‏ إذ أنا مغلوب قليل الغير

وإنما قال : « باديات » والساق واحدة لأنه أراد الساقين ، والتثنية يجوز أن يخبر عنها بما يخبر به عن الجمع ، لأنها جمع واحد إلى آخر ، عن اللسان .

(٣) العجاج فى ديوانه ٥٩ واللسان (صلب ، أدم) .

(٤) التبريزى : « وقال العريان لسهلة وذم غيره » ، يعنى أنه يمدح « سهلة » . لكن فى نوادر أبى زيد ٦٥ وكذا فى الخزانة (٢ : ٥٢٢) نقلا عنها ، أن اسم الشاعر هو « العريان بن سهلة الجرمى » ، أحد شعراء الجاهلية .

(٥) فى النوادر والخزانة : « عنده ليوث » . قال أبو زيد : « يقال ناقة ليثة » . وفى الخزانة : « والليوث جمع ليث وهو الأسد ، أراد به الشجعان . وقال الجرمى : هو جمع ليثة ، يقال ناقة ليثة » . ولم يفسروا ناقة ليثة ، ومأخذها من الليث وهو الشدة والقوة . وجمع ليثة على ليوث من الشاذ ، نظيره صخرة وصخور ، وشعبة وشعوب ، وقنة وقنون . انظر همع الهوامع (٢ : ١٧٧) .

٢ — فقال ألاَ أَضْحَتْ لَبُونى كما تَرَى ... كأنّ على لَبَّاتِها طِينَ أفدانِ

٣ — فقلتُ عَسَى أنْ يَحْوِيَ الجيشُ سَرْبَهَا ... ولا واحدٌ يَسْعَى عليها ولا اثنانِ

يعنى بامرئٍ السّوء المُبَخَّلَ الملوّم ، الذى لا همّ له إلّا تثميرُ ماله وحفظُها ومَنعُها من الحقوق الواجبة فيها . واللَّبُون ، أراد بها الجِنْس ، لذلك قال « حوله لَبُون » . وأصل اللّبون الإبلُ ذوات [الألبان[1]] . والعَيْدانُ : النّخل الطِّوال ، واحدُها عَيْدَانةٌ ، وهُو فيعالةٌ مِن عَدَن بالمكان ، إذا أقام . ومثله غَيْدَاقٌ من غَدَق . ويعنى بها الرّاسياتِ الثّابتات على مَرِّ السّنين . وعنى بالحائط موضعَ شجر . والبُستان : النّخل . والأصل فى الحائط أنّه اسم الفاعل من حاطَ ، واستُعمِل استعمالَ اسم الفاعل الذى لم يُشتقّ من الأفعال ، ومثلُه من جِنْسه قولهم وَالِدٌ وصاحِبٌ ، ومن المصادر : لله دَرُّك . وشبّه الإبلَ بالعَيدان لطُولها ، ومثل هذا قول الآخر :

طَيِّبةُ الأنفُس بالدَّرِّ نُعُسْ[2] ... كأنّها حائطُ نخلٍ مُلْتَبِسْ

وقوله « فقال ألا أضحَتْ لَبونى كما ترى » أخَذَ يتبجّح عنده بوُفور ماله وسِمَنِها ، وتراكُمِ اللَّحم والشَّحمِ على ظهورها ، فأخذ يعجِّبه منها ، ثم شبّه اللّحمَ للسِّمَن على لَبّاتها بِطِين قُصُورٍ طُيِّنَت به ، فالإبلُ كالقصور ، وما قُذِفَ به من زِيادة اللّحم كالطين . وهذا كقول القطامى :

* كما بَطَّنْتَ بالفَدَنِ السّياعَا[3] *

(١) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباتها من ل .

(٢) نعس : جمع نعوس ، وهى الناقة تنعس إذا حلبت ، أو تغمض عينها عند الحلب .

(٣) صدره فى الديوان ، واللسان (سيع) :

* فلما أن جرى سمن عليها *

ورواية « بطنت » ثابتة فى شرح التبريزى واللسان ، وكذا فى الصحاح والعباب ، كما ذكر صاحب التاج ، ويروى أيضاً : « كما طينت » .

وقوله « فقلت عسى أن يَحوِيَ الجيشُ » ، هذه أمنيَّة تمنَّاها . أراد كأنه قال : وقلت عسَى أن يقيِّض الله لها جيشاً يحويها ، ويَحُول بينَكَ وبين التمتُّع بها ، فلا يستَى عليها مالكٌ واحد ولا اثنان ، لكنَّها تصير مقسَّمة في المُغِيرين ، وزَّعة في السَّالبين . ويجوز أن يريد : لا يتفقَّدها مُصلِحاً لها لا واحدٌ ولا اثنان ، لكنَّها تُسَاق وتُذَال بالغَارة وتُهان .

٤ — ورحتُ إلى دار امرئ الصِّدْق حَوْلَهُ مَرابِطُ أفراسٍ ومَلْعَبُ فِتيان[١]

٥ — ومَنْحَرُ مِثْناثٍ يُجَرُّ حُوَارُها ومَلْعَبُ إخوانٍ إلى جَنْبِ إخوانِ[٢]

٦ — فقلتُ له إنِّي أتيتُك راغباً بذِعْلِبَةٍ تَدْمَى وإنِّي امرؤٌ عانِ

٧ — فقال ألا أهْلًا وسَهْلًا ومَرْحَباً جَعَلْتُكَ مِنِّي حيثُ أجعَلُ أشجاني

٨ — فقلت لهُ جادَتْ عليكَ سَحابةٌ بنَوْءٍ يُنَدِّى كلَّ فَغْوٍ وَرَيْحَانِ

٩ — وقلتُ سَقَاكَ اللهُ خَمْرَ سُلافَةٍ بماء سَحابٍ حائرٍ بين مُصْدَانِ

قوله « دار امرئ الصِّدق » ضدُّ قولهم : امرئ السَّوء ، والمعنى فيهما نعم الرجل وبئس الرَّجُل . وإذا قُصِد إلى الوصف به فُتح فقيل الصَّدْقُ . يقال : رَجُلٌ صَدْقٌ ونساء صَدْقات . والسَّوء يُوصَف به فيقال الرَّجل السوء . وقال الخليل : الصَّدْق بفتح الصاد : الكامِلُ من كلِّ شيء . فتقول : عَدَلْتُ رائحاً إلى دار الرجلِ الكريم الممدَّح بالألسنة ، المَرْضِيِّ المحبَّب إلى كلِّ طائفةٍ ، المرزأ

(١) رواية أبي زيد « ومررت على دار » ، وفيه الخزم ، بالزاي المعجمة ، وهو زيادة بعض الحروف في أول البيت ، انظر أمثال ذلك في العمدة لابن رشيق (٢ : ٩٢ — ٩٤) ، وهم لا يعدون الخزم عيباً . ولم يرو أبو زيد إلا البيت الأول من هذه الحماسية ، ثم هذا البيت ، ثم بيتاً ثالثاً لم يروه أبو تمام ، وهو :

فقال مُجيباً والذي حَجَّ حاتمٌ أخُونُك عهداً إنني غيرُ خوَّان

(٢) التبريزي : « وموضع إخوان » .

فى ماله ، المِنفاقِ على أضيافه وزُوّاره وحولَه مرابطُ الخيل ، وفناؤه مَلعبُ الفِتْيان ، إذْ كان همُّه الاشتغالَ بالفروسيَّةِ وما يَكتسِب به فُنونَ الذِّكرِ الجميل وضروبَ المَحْمَدة ، ونُدماؤه الفِتيانُ ذوُو الكرَم والحريَّة ، والافتنان فى اللَّعِب والشَّطارة ، وبقُرب دارِه مَدارجُ الكرامات ، ومُبوَّأُ الضِّيافات ، ومَجْزَر النُّوق المِشارِ الصَّحيحات الرَّائعات ، فتَجرُّ جِيرانُها إذا بُعِجَتْ عَنْها بُطونها لِكِبَرِها[1] . يريد أنّ ما يُضَنُّ بأمثالها ويُتنافس فيها ، هو يَبْتَذِلُها ويَستهِينُ بها ، وله دار نِدامَةٍ[2] ووِفادة ، تُنصَب فيها الموائد ، وقد رُتِّب عليها الإخوان على سَنَن الدَّوام ، ولا يقع فيه خَلَلٌ ولا تجوُّز ، ولا فُتور ولا تخوُّن .

وقوله : « فقلت له إنِّى أتيتُك راغباً » يريد تعرَّضْتُ له وأريتُه رغبتى فى مَعروفِه ، وعرَّفته أنِّى قصدتُه على ناقةٍ سريعةٍ من مكان بعيد ، فقد دَمِيَتْ أخفافُها وحَفِيت ، وأنِّى رجلٌ مضرور ، أسيرُ فاقةٍ وفقرٍ ، محتاجٌ من جهته إلى تفقُّدٍ ومُواساة . فقال فى جوابى : أتيتَ أهلاً لا غُرَباء ، ونزلت سَهْلاً من الجوانب لا حَزْناً ، واخترت رُحْبًا لا ضِيقاً ، فأنتَ فى قلبى وصدرى بحيثُ أجعل مُهِمَّاتى وحاجاتى ، تَشملُك عنايتى ، ويَسَعُك إفضالى ، فكُنْ كالشَّريك فيما لَنَا ، لا تمايُزَ ولا تبايُن ، ولا تمانُعَ ولا تَضايُق . فقلت له فى مقابلةِ ماأورَدَه داعياً وشاكراً : هنَّأكَ اللهُ ما أعطاك ، ومَطَر أرضَك ومأواكَ ، بجَوْدٍ من سَحابةٍ نشأت بنَوءٍ يُحيِى كلَّ نبتٍ ورَيْحان ، بكلِّ أرضٍ ومكان . وقلت أيضاً : داعياً له بالسُّقْيا : سقاكَ اللهُ خَمْرَةً صافيةً رقيقةً ، ممزوجة بماء مطرٍ حائرٍ بين المَناقع والغُدْران ، بعد أن تقاذفَتْه المَدافعُ والمُسْلَان[3] ، وتقطَّع بأنضاد الحجر ،

(١) التبريزى : « يجر حوارها لأنها تجزر وهو فى بطنها فيجره من بطنها » .

(٢) ندامة ، كذا وردت فى النسختين . والمعروف « ندام » بدون هاء مصدر نادمه منادمة .

(٣) المسلان : جمع مسيل ، وهو مجرى الماء ، وذلك على توهم ثبوت الميم أصلية . انظر اللسان (مسل) .

وتَغلغَلَ فى جوانب الحَرِ . واللُصْدَان : جمع مَصَاد ، وهى شُقوق الجبال . وقال الخليل : للُصْدَان : المضاب(١)، واحدها مَصَادٌ ، وفى أدنَى العَـدَد أَمصِدة ، ومنه سمِّى المَعقِل مَصادا . والقَنْو : ما له رائحةٌ طَيِّبة من النَّبات ، وكذلك الفاغية . والذِّعْلِبَة يُوصف بها النَّعامة والنَّاقةُ الشَّديدة السريعة . ويقال : اذْلَعَبَّ البعيرُ إذا أسرَعَ . وسُلافة الخَمْرِ : أوّلُ ما يخرج من عَصيرها . وإضافةُ الخَمْرِ إليها على طريق التَّبيين . وهذا كما يفيده « من » من قوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ .

٧١٢

وقال آخر(٢) :

١ — لَمَسْتُ بكَفِّى كَفَّهُ أبتغى الغِنَى ... ولم أدرِ أنَّ الجودَ مِن كَفِّهِ يُعْدِى

٢ — فلا أنا مِنْهُ ما أفَادَ ذَوُو الغِنَى ... أفَدْتُ وأعْدَانِى فأتْلَفْتُ ما عِندِى

قوله « أبتغى الغنى » فى موضع الحال ، وأفدت بمعنى استفدت . يقول : لمّا زُرته صافحتُه واضعاً كَفِّى فى كَفِّه ، وملتمساً الغِنَى من عنده ، وراجياً نَيل الخَيْرِ فى قَصده ، ولم أعلمْ أنَّ السَّخَاء يُعْدِى من يدِه ، فلا أنا استفَدْتُ من جهتِه ما استفادَه الأغنياء منه ، وأعْدانى لمْسُ كفِّه الجودَ فأهلكتُ ما عندى أيضاً .

وقوله « ما أفَاد » فى موضع المفعول من قوله أفدتُ .

---

(١) فى الأصل : « النصاب » ، صوابه فى ل . وفى اللسان : « المصاد الهضبة العالية الحمراء ، وقيل : هى أعلى الجبل » .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هذا الشعر لعبد الله بن سالم الخياط ، مولى هذيل ، دخل على المهدى فأنشده هذين البيتين ، فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ولم يرجع إلى منزله منها بشىء » : والبيتان منسوبان كذلك إلى ابن الخياط فى الوساطة للجرجانى ١٧٢ . وذكر أن أبا تمام أخذ هذين البيتين فى قوله :

علمنى جودك السماح فما ... أبقيت شيئاً لدىّ من صلتك

ونسب أبو الفرج البيتين إلى بشار بن برد . الأغانى (٣ : ٢٦) .

٧١٣

وقال آخر[(١)] :

١ — إذا لاقَيْتِ قَوْمِى فَاسأَلِيهِمْ ... كَفَى قوماً بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرا[(٢)]

٢ — هَلَ اُعْفُو عن أُصولِ الحَقِّ فيهِمْ ... إذا عَسِرَتْ وأَقْتَطِعُ الصُّدورا[(٣)]

يتبجَّحُ قائلُه عنـد المرأة التى خاطبها ، بسهُولة جانبه ، وتَركِ المناقَشة فى استخراج حُقوقِه ، وسماحةِ نَفْسه بما يملكه ، فيقول : إذا رأيتِ قومى فارجعى إليهم سائلةً عنِّى ، ومستخبِرةً حالى ومعتمدةً على ما تسمعينه من قِصَّتى وأمرى ، فكَفى بقومى عالمًا بى و بأخلاقى . وقوله « كَفَى قوماً بصاحبهم » مقلوبٌ وكان الواجب أن يقول : كَفَى بقومى خبيراً بصاحبهم ، ويعنى بصاحبهم نفسَه . والخبير : ذو الخِبرة التامّةِ والمعرفةِ الكاملة . وانتصابُه على الحال إن شئتَ ، و إن شئتَ على التَّمييز وقد وضع خبيراً موضع خُبْرًا ، ومثله فى القرآن : ﴿ وَحَسُنَ أُولئكَ رَفِيقاً ﴾ . وفاعلُ كَفَى قبل القلب « بقومى » وهذا كقوله تعالى : ﴿ كَفَى بِاللهِ شهيداً ﴾ والباء زائدة .

وقوله : « هَلَ أعفو عن أُصول الحقِّ فيهم » يريد سَلِيهم هل أُسامِحُ بما يجبُ لى مِن أُصول حقٍّ ، وهل أَترُكُ الاستقصاء فى استخراجها ، وهل أَعْنُف بهم إذا تعسَّرَتْ عِندَهم ، وهل أَجْبِى[(٤)] صَدْرَ ما يحلُّ لى و يجبُ راضياً به ،

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : هو لجثامة بن قيس ، وهو أخو بلعاء بن قيس » . وقد سبقت ترجمة بلعاء فى الحماسية ٨ ص ٥٩ .

(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « كفى قوى » وقال التبريزى : « ويروى : قوم وقوما » .

(٣) عسر ، يقال من باب فرح وكرم . وضبطت فى النسختين بكسر السين ، وفى نسخة التبريزى بضمها .

(٤) يقال جبيت الشىء ، إذا خلصته لنفسك . فى الأصل : « أحي » ، صوابه فى ل . ولولا اتفاق النسختين على هذا القدر من الحروف لكان صوابها « أجب » بمعنى أقطع .

وغيرَ معرِّج على أواخره وأعجازه ، لئلا أكون مناقِشاً فى الاستقصاء مُضايقا ، ويكون هذا مثلَ قول الآخر :

إنَّا إذا شارَبَنَا شَرِيبُ   له ذَنُوبٌ ولنا ذَنوبُ

فإنْ أبَى كانت له القَلِيبُ[١]

وقيل معنى « أقتطِعُ الصُّدورَ » أراد[٢] به مَوَدَّات الصُّدور ، فحذَف المضاف . وقيل : بل أراد بالصُّدور الرُّؤساء . والمراد من البيت أنى أُسامِح فى مُعاملةِ أوساط قومى لأمتلكَهم بذلك ، وأجعلَ رؤساءهم منصبِّين إلىّ ومائلينَ نحوى ، لأنّى أقتطعهم[٣] عن غيرى ، وأعدِلُ بهم عمَّن سِواى .

٧١٤

وقال عَمْرو بنُ الإطْنابة[٤] :

١ — إنّى مِنَ القومِ الّذِين إذا انْتَدَوْا   بَدَءوا بحقِّ اللهِ ثمّ النّائلِ

٢ — المانِعينَ مِن الخَنَا جاراتِهمْ   والحاشِدِين على طعام النّازلِ

٣ — والخالِطِين فقيرَهم بغنيِّهمْ   والباذِلِينَ عطاءهم للسّائلِ

٤ — والضّارِبين الكبْشَ يَبرُقُ بَيْضُه   ضَرْبَ المُجَهْجِهِ عن حِياضِ الآبلِ[٥]

(١) القليب : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر ، تكون بالبرارى ، تذكر وتؤنث . ل : « كان له » .

(٢) ل : « الصدورا يراد به » .

(٣) ل : « أقطعهم » .

(٤) الإطنابة أمه ، ومعنى الإطنابة سير الحزام يكون عوناً لسير آخر إذا قلق ، وسير يشد فى وتر القوس العربية . وهو عمرو بن عامر بن زيد مناة الخزرجى ، شاعر فارس من فرسان الجاهلية . معجم المرزبانى ٢٠٣ — ٢٠٤ . وذكر أبو الفرج فى الأغانى (١٠ : ٢٨) أنه كان ملك الحجاز .

(٥) ل : « الضاربين » بدون واو . التبريزى : « ضرب المهجهج » .

يفتخر بأنه من القَومِ الذين إذا عَقَدُوا مجلساً للنَّظَرِ فى أحوال الجيران لِشدَّة الزمان ، ولإصلاح الأمور فى جوانب الحىّ عند فسادها ، وكان اليومُ مشهوداً ، والتوفُّر على المصالح فى الأباعد بعد الأقارب شديداً ، ابتدأوا بإخراج حقِّ الله تعالى جدُّه الواجبِ عليهم فى أموالهم ، ثم كرُّوا على النَّائل مِن بَعْدُ . ويريد بالنَّائل العطايا التى لا تَجِب فى فرائض الدِّين ونوافِلِها[1] ، وإنما يُقيمون بها المروءات ، ويتطلَّبون بفعلها وجُوهَ التحمُّد والتشكُّر .

وقوله « المانعينَ من الخنا جارانهم » قَصَدَ فيه إلى تعداد خِصالهم ، ورواتبِ سِيَرهم ، مع الإفضال التامّ ، والبِرِّ العامّ ، فقال : يمنعون جارانِهم [من الفُحش[2]] ويصونونهنّ من دَرَن الرِّيبة وقُبْح القالة ، وإذا نَزَلَ بهم نازلٌ حَشَدُوا الطَّعامَ له — والحَشْد : ما لا تَكلُّفَ فيه[3] — ذلكَ ليكون أدنَى لانبساطه ، وأدعَى إلى إقامته . ولو قال بَدَل الحاشد محتشد أو مُتَحشِّدٌ لكان لا بدَّ من اقتران الكلفة بما يأتون به . وتعلَّق « على » من قوله « على طعام النَّازل » بالحاشد ، كأنَّهم يجتمعون على إعداد الطَّعام له ، ويتعاونون فى إزالة الوهم فى أنَّه زِيدَ على الحاضر منه ، ليكون أهنأ ، وعلى المجموع له أخفَّ .

وقوله « والخالِطِين فقيرَهم بغنيِّهم » ، يريد أنَّهم يسوُّون بين طوائف الأقاربِ فترى الفقيرَ منهم لا يتميَّز عن الغنىّ ولا ينحطّ فى الإكرام عنه ، فينقبض أو يمتعِض ، ثم يبذلون[4] للأجانب والغُرباء فُرَّاطهم ووُرَّادهم[5] ،

(١) كذا فى النسختين ، والوجه « ونوافله » .

(٢) التكملة من ل .

(٣) فى الأصل : « ما لا يكلف من » ، والوجه ما أثبتنا من ل . وكلمة « ذلك » ليست فى ل .

(٤) هذا الصواب من ل : وفى الأصل : « يتذللون » .

(٥) الفراط : جمع فارط ، وأصل معناه القوم يتقدمون الوراد فيهيئون لهم الأرسان والدلاء ويملؤون الحياض .

لا يَذْخَرُون مقدوراً عليه ، ولا يعتلون بما يكون سبباً فى حِرمانهم . والمعنى أن حِرمانَهم ليس بمقصورٍ على من يُدلِى بقُربَى وقَرابة ، بل تَشترِك فيه الكافّة .

وقوله « والضّارِبين الكبش » ، وَصَفهم بأنّهم يُقاتِلون الرُّؤساء متدجِّجين فى السِّلاح ، فيَضرِبونهم ضَرب المُدافِع غرائب الإبلِ عن حياض الآبِلِ . والآبل : صاحب الإبل الكثيرة . وقوله « يبرُق بيضه » فى موضع الحال . والمُجَهجِهُ والمُهَجْهِجُ : الزّاجر بقوله : هَجْ هَجْ ، وجَهْ جَهْ . وقد حذف مفعول قوله ضَرْبَ المجهجِه .

ويقال : فلانٌ آبَلُ من فلانٍ ، أى أحذَق برَعْى الإبِل وتثميرها .

٥ — والقاتِلين لدَى الوَغَى أقْرانَهم إنّ المنـيّة مِن وَراء الوائِلِ

٦ — خَزْرٌ عُيُونُهمُ إلى أعـدائِهِمْ يَمْشُونَ مَشْىَ الأُسْدِ تحتَ الوابِلِ

قوله « والقاتِلين لدَى الوغَى أقرانهم » ، أصل الوغى هو الجَلَبة والصَّوت ، ثم كثر استعماله فصار كنايةً عن الحرب ، فيريد أنّهم يَقتُلون نُظراءهم من الكُماةِ والأبطال فى الوَغَى ، ومَنْ وَأَلَ من أعدائهم فى حالٍ من أحوالهم فالمنيّةُ من ورائهم ، لأنّهم يُمهِلون ولا يُهمِلون ، ويَطلُبون أوتارَهم ولا يضيِّعون .

وقوله « خُزْرٌ عيونهم إلى أعدائهم » ، يريد أنّهم يتخازَرُون إذا نَظَروا إلى أعدائهم ، فِعْلَ المتكبِّر المتوعِّد ، فلا يَملؤون أعينَهم مِنْهم ، ولا يُسوُّون النَّظرَ إليهم ، بل يَتبيَّن فى نَظرِهِمْ ما تنطوى عليه قلوبُهم ، وإذا مشَوْا رأيتَهم كالأُسْد تحتَ المَطر الشّديدِ وهى تُبادرُ إلى مواضعها من العَرِين .

٧ — والقائِلينَ فلا يُعابُ كلامُهم يَومَ المَقامَـةِ بالقَضاء الفاصِلِ

٨ — لَيْسُوا بأنكاسٍ ولا مِيلٍ إذا مَا الحَرْبُ شُبَّتْ أشعَلُوا بالشّاعلِ

أجرى قوله : « القائلين » مُجرى قوله المتكلِّمين والنّاطقين ، لذلك عدّاه

بالباء فقال « بالقضاء الفاصل » . ومثلُه قول عُمَر بن أبى ربيعة :

بحاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ فى جوابِها   فَتُبلِغَ عُــذْرًا والمَقالةُ تُعْذِرُ

أى لم تتكلَّم . وممـا يدلُّ على ذلك قوله « فلا يُعاب كلامهم » ولم يَقُل قولُهم . ويقال : فلانٌ يقول بالإمامة ، أى يدين بها و يعتقدُها مَذهباً . فيجوز أن يكون قوله على هذه الطريقة . و إنمـا وصَفَهم بأنَّهم مفوَّهون خُطباء يَفصِلون الأمورَ عند المجامع بالحُكْمِ العَدْل ، والقضاء الفَصْل ، ولا يُتَجاوَزُ مرسومُهم ، ولا يُعابُ مَقْضِيُّهم ؛ ثمَّ إذا حضروا الحرب وأُوقِدَ نارُها فلَيْسُوا فيها بضِعاف العَقْد .

والأنكاس : جمع النِّكْس ، والنِّكس أصله فى السِّهام ، تنكسر فيجعل أسفلُها أعلاها فتَضعُف . والمِيلُ : جمع أمْيَلَ ، وهو الذى لا يستقيمُ على الدَّابة . وقوله « أشعلوا بالشَّاعل » يقول أوقَدوا وهَيجوا . والشاعل يجوز أن يُرادَ به يسير الإيقاد ، والإشعال له تقويَتُه ، والباء مُقْحمة ، والمراد أشْعَلُوا الشَّاعل وقوّوْه وزادوا فيه . و يجوز أن يُرادَ بالشَّاعل ذا الشُّغل أو الإشعال أوالاشتعال ، ويكون معناه المُشْعِل ، كما يقال : لابِنٌ وتامِرٌ ، وحينئذ يكون الباء داخلاً على حدِّه . والمعنى أشعلوها بالمُشْعِل . ويقال : أشْعَلْتُ الخيلَ فى الغارة فشَعَلَت وهى شاعِلةٌ ، وأشعلْتُ النارَ فى الحطَب فاشتعلَتْ .

٧١٥

وقالت حبيبةُ ابنةُ عبدِ العُزَّى[١] :

١ — أبِلى الفَتَى بَرِّ تلَــكَأ ناقتِى   فــكسا مناسِمَها النَّجيعُ الأسودُ

٢ — إنِّى وربِّ الرَّاقصاتِ إلى مِنًى   بجُنُوبِ مَــكَّةَ هَــدْيُهنَّ مُقَلَّدُ

(١) التبريزي : « حبيبة بنت عبد العزى العوراء » . وواضح من اسمها أنها إحدى شاعرات الجاهلية .

٣ — أُولِى على هُلْكِ الطَّعام أَلِيَّةً   أبداً ولكنِّى أُبِينُ وأَنْشُدُ

تريد أتهلّكاً ناقتى ، أى أتتحبّس وتتباطأ ، فحذَفَ إحدى التاءين تخفيفاً ، لأنّ الإدغام ممتنِع هنا . وبَرٌّ : اسم الممدوح . والمعنى الإنكارُ والاستفظاع ، وإن كان اللفظ على الاستفهام . واجرُرْ بَرّاً على البَدَل من الفتى ، والمراد أنّ ذلك لا يكون ، ثم دعت على ناقتها بالعَرقبة فقالت : إن تأخَّرَتْ أو تلوَّمتْ فى المسير فعقَرها اللهُ حتى يسيل دَمٌ أسودُ ثخينٌ على مَنابِمها فيصيرَ كالقِّباس لها . والنّجيع فى الأصل دم الجوف ، ويقال : تنجّعَ به ، أى تلطّخ .

وقولها « إنِّى وربِّ الرَّاقصات إلى مِنًى » أقسمَتْ بالله مالكِ رواحلِ الحجيج وهى تسيرُ إلى مِنًى مِن جوانب الحَرَم وفيها الهَدْىُ المُقَلَّدُ . والهدى : ما يُهدَى إلى البيت ، وكانوا يقلِّدونه ويجعلون فى عُنُقه لِحَاء الشّجر أو الصُّوف المفتول ليكون علامةً لإهدائها .

وقولها « أُولِى على هُلك الطّعام أَلِيَّةً » هو جواب القَسَم ، أى لا أُولِى ، فحُذف حرف النّفى ولم يُخَفِ الالتباس ، لأنه لو أريد الإيجاب لوجَبَ أن يقال : لَأُولِيَنَّ باللام وإحدى النونين ، والمعنى لا أحلفُ على أنْ أصونَ طعامِى ولا أُطعِم النّاسَ ، مدّعيةً أنه قد نَفِدَ وهَلَكَ ، ولكنِّى أظهِرُه وأَنْشُدِ مَن أُطعِمُه . ويجوز أن يريد بأَنشُد : أقولُ للزّائر والمارّ بى : أنشُدُكَ اللهَ أنْ تُفارِقَ حتَّى تَطْعَم . وقولها « هديهنّ مقلَّد » فى موضع الحال للرّاقصات ، واكتفى بضميرها فى الجملة عن إدخالِ العاطف عليه ، لأنّ الضمير يعلِّق الحال بما قبله كما يعلِّق حرفُ العطف . ومثله فى القرآن : ﴿ سَيَقُولونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ، والمراد بهَدْيِهنَّ التكثير لا الواحد . و « أبدا » فى المستقبل بإزاء قَطُّ فى المُضِىّ .

٤ — وَصَّى بها جَدِّى وعلَّمَنِى أبى   نَفْضَ الوِعاء وكلُّ زادٍ يَنْفَدُ

٥ — فاحْفَظْ حَمِيَتَكَ لا أبالَكَ واحْتَرِسْ   لا تَخْرِقَنْهُ فَأْرَةٌ أو جُدْجُدُ

تريد أنّ هذه الأفعالَ التى ذكرتُها هى موروثةٌ عن الأسلاف ، ومأخوذة من عاداتهم ، جَدِّى وصَّى بها أبى ، وأبى علَّمَنيها فَهُمْ قِدْوَتى ، وهذه دأبى وسجيّتى ، أصُبُّ الزّادَ صبًّا ، وأنفُض وعاءه بعد أن أُخلِيَهُ نَفضًا . والزّاد كلُّه لا يبقى وإن بُخِل به ، فلماذا يُكتَسَب الذمُّ فيه . ثم أقبلَتْ على من تَذُمُّه وتبخّله فقالت متهكّمة وساخرةً منه : احفَظْ نِحْىَ سَمْنِك لا أبَالَكَ — وهـذا بعثٌ وتحضيض — واحذَرْ عليه الفأر والجُدْجُد لا يقطعه[1] .

وقد مرَّ القولُ فى قولهم «لا أبالك» وإعرابِه . والفأر مهموز ، ويقال مكانٌ فَئِرٌ ، إذا كثُر فأرُهُ .

٧١٦

وقال مالك بن جَعْدَةَ[2] :

١ — وأبلِغْ صَلْهَبًا عنِّى وسَعْداً تحيّاتٍ مَآثِرُها سَـفُورُ[3]

٢ — فإنّك يَوْمَ تأتِينى حرِيباً تَحِلُّ عَلَىَّ يومئِـذٍ نُذُورُ

٣ — تَحِلُّ عَلَىَّ مُفْرِهَـةٌ سِنَادٌ عَلَى أخفَافِها عَلَقٌ يَمُورُ

٤ — لأمِّكَ وَيْلَةٌ وعليك أُخْرَى فلا شاةٌ تُنِيلُ ولا بَعِيرُ

يقول على وجه الإزراء بالمخاطَب والغضّ منه : أبلِغْ عنِّى[4] هذين الرَّجُلَين تحيّات ما يُؤثَر منها وعنها ، ويُتَحدّث بهـا ، تتّسعُ لها وتستغرقُها سفورٌ إذا

(١) التبريزى : الجدجد صرار الليل ، واسمه شبيه بصوته . وفى مثله قول الراجز :

ما أنت بالسمح ولا بالماجد فاحفظ سقاءيك من الجدائد

(٢) التبريزى : « مالك بن جعدة التغلبى » ، وفى معجم المرزبانى ٣٦٤ « التغلبى » ، وهو شاعر من شعراء الدولة الأموية ، هجا المختار بن أبى عبيد فرد عليه الطرماح .

(٣) التبريزى : « فأبلغ » .

(٤) ل : « منى » .

ا كُتِبَتْ ونُسِخَتْ . والسُّفُور : جمع سِفْر ، وهو الكتاب . ويقال : سِفْرٌ وأسفار وسُفور . وفى القرآن : ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ . والمآثر ، واحدتها مَأْثُرَة ، ويجوز أن يريد مكارمَها التى تؤثَر ، أى تُروَى وتُنسَب ، واضحة كسُفور الصُّبح . ويقال : سَفَر الصُّبحُ وأسفَرَ ، وكان الأصمعىُّ يأبى إلَّا أسْفَر .

وقوله « فإنَّك يومَ تأتينى [حريباً ، أىْ سايباً ، وانتصابه على الحال . و « يوم » مضاف إلى « تأتينى »[1]] على وجه التبيين ، وهو ظرف لقوله « تحِلُّ علىَّ يومئذٍ نذور » . وانتصب « يومئذ » على البدل من يوم يأتينى ، وكأنَّ الشَّاعر عَرَاه سائلًا فحَرَمَه ، ووعَدَهُ بما لم يَفِ به له فقال : [إنَّك[1]] إن أتيتنى حَرِيباً وجدتَنى لك بخلاف ما كنتَ لى ، وعلىَّ نذورٌ يلزَمُنى الوفاء بها متى احتجتَ إلىَّ ورأيتُك على الحالة الدَّاعيةِ إلى الإلمام بى ، والقصد لى[2] . ومعنى « تحِلُّ علىَّ » تجِبُ مَحِلًّا . والمُفرِهَة : النَّاقة التى تَلِدُ الفُرْهَ من الأولاد . والسِّنَاد : القويَّة . ويقال للمرتفِع فى قُبُل جبلٍ[3] سَنَد وسِناد . أى أعقِرُ فى جُملة النُّذور لك ناقةً هكذا ، فيمورُ أى يَسيل العَلَقُ ، وهو الدَّمُ على أخفافها .

وقوله « لأمِّكَ وَيلةٌ » دُعَاء عليه مُصَرِّحاً بالذَّمِّ وذاكراً الحرمةَ منه بقوله لأمِّك وَيْلَةٌ . وقوله « وعليك أخرى » أى ويلةٌ أخرى . واللام وعلى هنا متقاربان فى المعنى . وقوله « فلا شاةٌ تُنِيلُ » لك أن تنصب شاةً بتُنيل ، ويرتفع « ولا بعيرُ » على الاستئناف ، كأنَّه قال ولا بعير مطموعٌ فيه منك ومَنُولٌ . ولك أن ترفعهما جميعاً ، ويكون مفعول تُنيل محذوفاً ، والمراد لا يُرْجَى من

(١) التكملة من ل .
(٢) ل : « إلى » .
(٣) قبل الجبل : سفحه . وفى اللسان : « السند ما ارتفع من الأرض فى قبل الجبل أو الوادى » .

جِهَتك شاةٌ ولا ما فوقَها . ويقال : نِلْتُ الشَّىء فهو مَنِيلٌ نَيْلًا ، إذا كنتَ تتناوله بيدك ، وليس هو من التَّناول ، لأنَّ التَّناول من النَّوال ، ويقال منه نُلْتُ أنول . ومن الأوّل قولُه تعالى : ﴿ ولا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴾ ، ومن الثانى : نَولك أن تفعل كذلك .

٧١٧

وقال عَبدُ اللهِ الحَوالِىُّ[1] :

١ — لَمَّا تَعَيَّا بالقَلُوصِ ورَحْلِها　　كَفَى اللهُ كَعْباً ما تَعَيَّا به كَعْبُ

٢ — دَعَوْنَا لها قَيْناً رفِيقاً بمُدْيَةٍ　　يُجَزِّئُها فِينَا كما يُجْزَأُ النَّهْبُ

يقال : عَيِيتُ الأمرَ وعَيِيت بالأمر . والقَلُوصُ فى الإبل ، بمنزلة الجارية فى الناس . يقول : لمَّا أعيا كَعْباً مزاوَلةُ القَلوصِ وشدُّ الرحل عليها كَفَاهُ اللهُ أمرَها ، لأنَّا دعَوْنا لها جَزّاراً حاذِقاً بِسكِّينٍ لينحَرَها ويَقْسِمَها فينا كما يُقْسَم النَّهب ، أى المال المُنتَهب . والقَيْن : الحدّاد فى الأصل ، واستعاره . وهُم فى ذَوِى المِهَن وأسماء الصُّنَّاع يفعلون هذا . ألَا ترى قولَ الآخر[2] :

* وشُعْبَتا مَيْسٍ بَرَاها إسْكافْ[3] *

والرَّحْل : مصدر رحلْتُ البعيرَ ، وإنما أعيا كعباً ما أعياهُ منها لنشاطِها وعِرَضْنِتِها فى سِيرتها[4] . والضمير من قوله « ما تعَيَّا به » راجع إلى ما . ويقال :

(١) التبريزى : « عبد الله الحوالى ، من الأزد » . وبنو حوالة ، كسحابة : حى من العرب ، وهم بطن من الهنو بن الأزد ، من القحطانية .
(٢) هو الشماخ . ديوانه ١٠٣ والمقاييس (٣ : ٩٠) .
(٣) قال ابن فارس فى مقاييس اللغة : « أراد القواس » .
(٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وعرضتها » وتقرأ بكسر العين وفتح الراء وتشديد الضاد ، وهما بمعنى واحد ، وهو الاعتراض فى السير من النشاط .

تعايا عليه كذا ، أى أعياه ، قال أوس :

. . . . كلا تعايا عليه طُولُ مَرْقًى تَوَصَّلَا[1]

٣ — لَعَمْرِى لَقَدْ ضَيَّعْتَ يا كَعْبُ نَاقَةً يَسيراً عليها أنْ يُغيرَّ بها الرَّكْبُ

٤ — مُوَكلَةً بالأوَّلِينَ فكلَّما رأتْ رُفْقَةً فالأوَّلُون لهَا نَصْبُ

أقبلَ على كعبٍ يوبِّخه فى أمرها ، وذاك أنَّه كان كَثُرَ شَكْوُه منها ، فيقول : و بقائى لقد ضيَّعتَ ناقةً يا كعب [يخفُّ[2]] عليها وَ يقِلُّ فى قوّتها إضرارُ القوم بها فى الحمل والرُّكوب والاستحثاث فى السَّير ، فلا تُبالى بما تُحمَّل أو تُكلَّف ، حتَّى أنَّها كانت كالموكلة بالسَّابق المتقدِّم ، فكلَّما رأتْ رُفْقَةً فالموَادِى منها نَصْبُ عَينيْها[3] حتَّى تلحَق بها أو تتقدَّمها . ومعنى التَّضييع أنَّها لم تكن سمينةً ولا مُستصلَحةً للنَّحْر ، و إنما كانت للعمل لا غير .

٧١٨

وقال حُجْر بن خالد[4] :

١ — سَمِعْتُ بِفعْل الفَاعِلِينَ فَلَمْ أجِدْ كمِثْلِ أبى قابُوسَ حَزْمًا ونائِلَا

٢ — فَساقَ إلهى الغَيْثَ من كل بَلْدَةٍ إليكَ فأضْحَى حَوْلَ بيتِك نازِلَا

٣ — فأصْبَح مِنْه كلُّ وادٍ حَللْتَهُ مِنَ الأرضِ مَسفُوحَ المَذانِبِ سائِلَا

يقول : بلَغنى سعيُ طالبِى الحمد ، ومدَّخِرى الشَّرف والمجد ، وما عليه مُلوكُ

---

(١) صدره فى ديوان أوس ٢١ :

* وقد أكلت أظفاره الصخر كلا *

(٢) التكملة من ل .

(٣) ضبطت « نصب » بفتح النون فى النسختين معا فى متن البيت وشرحه ، وهى لغة ضعيفة ، وفى اللسان : « القتيبى : جعلته نصب عينى بالضم ، ولا تقل نصب عينى » .

(٤) بعده عند التبريزى : « يمدح النعمان بن المنـذر » . وقد سبقت ترجمة حجر فى الحماسية ١١٨ ص ٣٥١ . وروى الجاحظ الأبيات فى الحيوان (٣ : ٥٨ — ٥٩) .

الأرض فى مَصَارفهم ومَبَاغيهم ، وحَزْمِهم ومساعيهم ، فَقِسْتُ بعضَه ببعضٍ ، فلم أجد كحزم أبى قابوسَ حَزْمًا ، ولا كنائلِه نائلا . ثمّ دعا له بالسُّقْيا ولمحلّهِ بالخِصْبِ والحَيَا فقال : جَمَع الله لك وفى فنائك ما هو مفرَّقٌ فى أطرار الأرض(١) ، وجوانب الأفقِ ، من سواكب الغيث ، فصار حواليك ، فأىُّ وادٍ نزلْتَهُ من الأرض جعلَه ممطورَ التِّلاع والمذَانب ، مُخصِبَ المَسايل والمدافع ، سائلا بصَوبه ، مغموراً بنَداه وبَرَكته .

وانتَصب « حَزماً » على التمييز ، والكاف من « كمثل أبى قابوس » زائدة ، ومثله :

* لَوَاحِقُ الأقْرابِ فيها كالمَقَقْ(٢) *

أراد فيها المَقَق ، كما أنَّ هذا يريدُ : لم أر مثلَ أبى قابوس . وفى القرآن : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ﴾ ، ويروى : « فسِيق إليه الغيثُ فى كلِّ بلدة إليك » . وكأنَّه أخبر فى صدر البيت ثم خاطَب على عادتهم . وقوله « من كلِّ بلدة إليك » أى إليك أمرُها وتدبيرُها ، فصرتَ تتولَّاها . وهذا كما يقال : جُعِل بلدُ كذا إلى فلان . والمراد من البيت على هذه الرّواية : جعل اللهُ الدُّنيا تحت أمرك ، ومَنُوطة بتدبيرك ، ثم ساقَ الغيثَ من آفاقِها وأطرارها كلِّها إلى ما حَولَك فصار محتفًّا ببيتك . ومشتمِلًا على محَالِّك . فأينَ تنقَّلت ونزَلتَ تخبَّك الخيرُ وانساقَ معك الغيث . وعلى هذا يكون قوله « من كل بلدةٍ » عامًّا فى أقطار الأرض(٣) وأبلادها . ورُوِى أيضاً : « فسِيق الغَمامُ الغُر من كلِّ بلدة » وهو ظاهر المعنى . وقوله « فأصبح منه » ، أى من الغيث . وقوله « كلُّ وادٍ » وصفَه بقوله « حَلَلْتَهُ »

(١) أطرار ، كذا وردت فى النسختين هنا وفى س ١٥ ، وفى اللسان : « وطرة الأرض : حاشيتها » . ثم ذكر أن الطرة تجمع على طرر كغرف ، وطرار بكسر الطاء .

(٢) لرؤبة فى ديوانه ١٠٦ واللسان (مقق) .

(٣) ل . « أقطاع الأرض » .

وانتصب « مَسفوحَ المَذَانب » على أنَّه خبر أصبح .

٤ — مَتَى تُنْعَ يَنْعَ البَأْسُ والْجُودُ والنَّدى وتُصْبِحْ قَلُوصُ الحَرْبِ جَرْ باءَ حائلا[١]

٥ — فلا مَلِكٌ مَا يُدْرِكَنَّكَ سَعْيُهُ ولا سُوقَةٌ ما يَمْدَحَنَّكَ باطلا

يقول : بَقاء السَّخاء والمروءةِ وتقوى الإله والشِّدَّةُ ، متّصِلٌ ببقائك ، لأنها شِيَمُك وطبائعك ، فأنتَ تُقيمُها وترُبُّها ، وتحفظُها عن الذّهاب والدُّروس وتحرسها فإنْ هلكْتَ فقد هلكَ جميعُها ، ويُصْبِح الاستسلام والانقياد للهَضِيمة والشرّ شاملَينِ للنّاسِ ، فلا يكون بهم دونها دِفاع ، ولا إباء منها ولا امتناع ، وتصير قلوصُ الحرب سيّئة الحال يَقْتَطِعُها الحِيال عن اللَّقاح ، ويمتلكها ما بنَفْسِها من الجَرَب والضَّعف عن النَّزْوِ والجِذاب . وهذا مَثَلٌ لما يفارق الناس من العزّ والاقتدار ، ويُلازِمهم من الذُّلّ والاكتئاب . وضدُّ هذا قول زهير :

. . . . وَتَلْقَحْ كِشافاً ثُمَّ تَحْمِلْ فتُتْئِمِ[٢]

فتُنْتِجْ لكم غِلْمَانَ أشْأَمَ كلُّهم كأَحْمَرِ عَادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

وقوله « فلا ملكٌ ما يدركَنَّك سعيهُ » يصفُه بأنّه لاغايةَ وراء غايته لمُرْتَقٍ ولا فَوْقَ نهايته نهايةٌ لمُعْتَلٍ ، فكلُّ ساعٍ من الملوك يَقِفُ دونَها ، وينحطُّ عن درجتها ، وأن السُّوقَ وإنْ أسرَفُوا وأفرَطوا فى التقريظ والإطراء ، يَقْصُرون عن بُلوغ حَدِّه بالوصف ، وتصويرِ كُنْهِه عند النَّعت ، بل أحسَنُ أحوالهم أن يقولوا بعضَ ما قيل من الحقّ .

وأدخَلَ النُّون الثقيلة فى « يمدحنّك » و « يدركنّك » لما فى الكلام من معنى النّفى ، ولأن ما الزائدة للتأكيد لفظُه لفظُ ما النافية . ومثله :

(١) ل : « والجود والتقى » . التبريزى : « الجود والبأس والتقى » .
(٢) صدره : * فتعرككم عرك الرحى بثفالها *

* فى عِضَةَ ما ينْبُتَنَّ شَكِيرُها[١] *

وبألم ما تختِنَنَّه . وقوله « ما يمدحنَّك باطلا » أراد مدحا باطلا ، فانتصب باطلا على أنه صفة لمصدرٍ محذوف .

ومثل البيت الأوّل قولُ النابغة :

فإنْ يَهْلِكْ أبو قابُوسَ يَهْلِكْ   رَبيعُ النَّاسِ والشَّهْرُ الحَرَامُ
ونأخذْ بعـده بذِناب عَيْشٍ   أجَبَّ الظَّهرَ ليس له سَنَامُ

وقول الآخر[٢] :

فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ   وَلَّتِ الدُّنيا على أثَرِه[٣]

٧١٩

وقال آخر :

١ — ومُستنبِحٍ بعد الهُدُوّ دَعَوتُهُ   بِشَقْراء مِثْلِ الفَجْرِ ذَاكٍ وَقُودُها
٢ — فقلتُ لها أهلاً وسهلاً ومَرْحَباً   بِمُوقِدِ نَارٍ مُحْمِدٍ مَنْ يَرُودُها
٣ — نَصَبْنَا لَهُ جَوْفَاءَ ذَاتَ ضَبابَةٍ   من الدُّهْمِ مِبطَاناً طَوِيلاً رُكُودُها
٤ — فإنْ شِئتَ أثْوَيْنَاكَ فى الحَىِّ مُكْرَمًا   وإن شئت بلَّغناك أرضًا تُرِيدُها

يعنى بالمستنبح طالبَ ضيافة ، وقد تقدم الكلام فيه[٤] . ومعنى « دعوته بشقراء » أى رفعت له نارًا شقراء حتَّى اهتدَى بها ، فكأنِّى دعوتُه . وجعل النَّار شَقْراء ، وربما قيل صفراء ، لأنَّها أُوقِدَتْ خاليةً من طَرْحِ اللَّحْم عليها

---

(١) تمام إنشاده : « وفى عضة » . وصدره فى الخزانة (٢ : ٨٣) :
* إذا مات منهم ميت سرق ابنه *
وأنشد سيبويه عجزه فى (٢ : ١٥٣) .
(٢) هو على بن جبلة . الشعراء ٨٤٠ والأغانى (١٨ : ١٠٣ — ١٠٤) .
(٣) قبله : إنما الدنيا أبو دلف   بين مبداه ومحتضره
(٤) انظر ما سبق فى ص ١٠٥٧ .

فاشتعلَتْ شقراء ، ولو كُبَّ عليها اللَّحْمُ لالتهبَتْ كُمَيْتَ اللّون من أجل دُخَانها . لذلك قال الأعشى :

وأوقَدْتَها صَفراء فى رأسِ تَنضُبٍ   ولَكُنْتُ أَرْوَى للنَّزيلِ وأشبَعُ (١)

وذَاكِ وُقودُها ، أى مُضىء اتِّقادها . فقلت له أهلًا ، انتصب « أهلا » بفعل مضمَرٍ . والباء من قوله « بمُوقد نار » تعلّق بفعل مضمر ، كأنه قال : يُنالُ ذلك كلُّه بمُوقِدِ نارٍ يُحْمِدُها مَن يرودُها . ومعنى « يُحْمِدِ مَن يرودُها » أى مصادِفٍ الحمد مَن يطلبها . ويقال : أحمدتُ فلانًا ، كما يقال أجبَنْتُه وأبخَلْتُه .

وقوله « نصبنا له جَوفاء » يعنى به قِدْرًا كثيرةَ الأَخْذ ، واسعةَ الجوف . والضَّبابة : ما يَتعقَّب المطرَ من الظُّلمة الرَّقيقة والسَّحاب الركيك . وذِكرُها هاهنا مثل . ويُروى : « ذاتَ صُبابة » ، وهى البقيَّة ، أى يَفضُل ما فيها عن الآكلينَ لعظَمها . والدُّهْم : السُّود . والمِبْطان : العظيمُ البَطْن . ومِفْعالٌ بناء المبالغة . وجعلَها طويلةَ الرُّكود لأنَّها إذا نُصِبت لم تُنزَلْ إلا بعد لَأْيٍ لكِبَرها ، ولأنه لا يخفّ مَحْمِلُها فيُتناوَل كلّ وَقْتٍ .

وقوله «فإن شئت أثوِيناك» ، هذا تخييرٌ منهم للضيف بعد إطعامه ، ويقال : ثوَى بالمَكان ، إذا أقام ؛ وأثوَاهُ غيره . وانتصب « مُكْرَمًا » على الحال . والمعنى : إنْ أردتَ المقام أقمتَ مُكْرَمًا مُعَظَّمًا ، وإنْ أردتَ التوجُّه فى مَقصِدك ، والارتحال لطِيَّتِك ، بلّغناكَ مَقرَّك مُحيًّا مُشَيَّعاً .

(١) كذا . والبيت لم يرد فى ديوان الأعشى . ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٥ : ٦٣) الى الأزرق الهمدانى .

(٢) هذا ضبط الأصل فى « أوقدتها » بفتح التاء ، وضبطت فى ل بضمها . وعند الجاحظ : « وتوقدها » .

٧٢٠

وقال آخر :

١ — ومُسْتَنْبِحٍ تَهوِى مَساقطُ رأسِهِ إلى كلِّ شَخْصٍ فهو للسَّمع أصْوَرُ

٢ — يُصَفِّقُه أنفٌ مِن الرِّيحِ باردٌ ونَكْباءُ لَيلٍ مِنْ جُمادَى وصَرْصَرُ

٣ — حَبيبٌ إلى كَلْبِ الكريمِ مُناخُهُ بَغيضٌ إلى الكَوْماءِ والكَلْبُ أبْصَرُ

يعنى بالمستنبح ضَيفاً . ومَساقط رأسه : جمع مَسْقِطٍ ، ويعنى به المصدر لا اسم المكان . ومعنى تَهوِى تَقصِد وتُسرِع . ويقال فى الفرَس : إنّه يُساقِطُ العَدْوَ سِقاطاً . واسْقُط علينا ، أى اقْصِدْنا . وقال :

يُساقِطُ عنه رَوْقُهُ ضارِيَاتِها سِقاطَ حديدِ القَيْنِ أخْوَلَ أخْوَلا[1]

أى يُزيلها ويُبْعدها . ومعنى « تَهوِى مَساقطُ رأسه » ، أى يُساقِط رأسَه الشُّخوصُ سِقاطاً سريعاً . وقوله « فهو للسَّمع أصْوَرُ » أى مائل . والسَّمع : مصدر سَمِع . ومعنى البيت : رُبَّ مُستَضيفٍ بنُباحِه يتسرَّع مَيْلُ رأسِه ومَهواه إلى كلِّ شخصٍ يمْثُلُ له ، فهو مائلٌ للسَّمع ، ومنتظرٌ متى يُجيبه الكلامُ[2] أو يتلقَّاه مَن يُنزلُه .

وقوله « يصفِّقه » أى يَضرِبه . والأنْف من الرِّيح : أوله . ومنه استأنَفتُ الأمر . وكلأٌ أُنُفٌ ، إذا لم يُرْعَ . وقوله « ونكباء ليل » يريد : وريحٌ تَنكَّبُ عن مَهابِّ الرِّياح الأربع ، فى لَيلةٍ من ليالى جُمادَى . وصَرْصَر ، أى وبردٌ شديد . والصِّرُّ والصَّرصَرُ بمعنًى ، وليس من بناءٍ وَاحد ، لأنَّ صرصَر رُباعىٌّ وذلك ثُلاثىٌّ . وجُمادى ، يريد به شهراً من شُهور الشِّتاء وإن لم يكن جُمادَى

---

(١) البيت لضابئ البرجمى يصف الكلاب والثور . اللسان (خيل) .

(٢) الكلام ، بالميم فى آخره ، كما فى النسختين .

فى الحقيقة . وإنما وصَفَ ما قد أشرفَ عليه المستنبحُ من أذَى الرِّيح والبردِ والمطر ، ليكون ذلك عُذْراً فى الاستنباح وطلب النُّزول .

وقوله « حبيبٌ إلى كَلْبِ الكريمِ مُناخه » ، يجوز أن يرتفع حبيبٌ على أنَّه خبرٌ مقدَّم ، والمبتدأ مُناخه . ويجوز أن يكون صفةً للمستنبِح . وقد جُعِل خبرَ مبتدأ مضمر ، فيرتفع مناخُه على أنَّه مفعولٌ لم يسمَّ فاعلُه من حبيب . ويقال : أنَخْتُ البعيرَ إناخةً ومُناخا فبرك . واستغنَى ببَرَكَ عن ناخ . وإنما حُبِّب مُناخُ الضَّيف إلى الكلب لأنَّه يَسعَدُ بنزولِه ويَشرَكُه فى القِرَى المهيَّأ له . وأضافَ الكلب إلى الكريم ، لأنَّ كلبَ اللَّئيم يَعقِر السَّابلةَ والمارّة ، ولا يَعرِف الاستضافةَ والاستنزال .

وقوله « بغيض إلى الكوماء » لأنَّها تُنحَر . والكَوماء : العظيمة السَّنام .

وقوله « والكَلْب أبصَر » ممَّا وقَعَ فى أحسنِ موقعٍ وشَرُفَ المعنى به وجاد البيت .

٤ — حَضَأتُ لَهُ نارِى فأبصرَ ضَوْءها   وما كادَ لَولا حَضْأةُ النَّارِ يُبْصِرُ

٥ — دَعَتْهُ بِغيرِ اسْمٍ هَلُمَّ إلى القِرَى   فأسْرَى يَبُوعُ الأرضَ والنَّارُ تَزْهَرُ

٦ — فلمَّا أضاءتْ شَخْصَهُ قُلْتُ مَرْحَبًا   هَلُمَّ وللصَّالِينَ بالنَّارِ أبشِرُوا

قوله « حضأت له نارى » جواب ربَّ المضمَرة فى قوله ومستنبِحٍ . ومعنى حضَأتُ النَّارَ رفعتُها وهيَّجتها له فأبصرَها واستدلَّ بها ، ولولا رَفْعِى النَّارَ وتَهييجى إيَّاها لكان لا يُبْصِرُ الطَّريق ولا يَرَى مُستدَلًّا به . وفصل بين كاد وخبره بقوله « لولا حَضْأَة النار » ، وفى كاد ضمير المُستنبِح ، لولا ذلك لَمَا جاز أنْ يقال : زيد كادَ يخرج ، لأنَّ الفعل لا يلى الفعل .

وقوله « حَضْأَة » ارتفع بالابتداء وخبره محذوف استُغنِيَ بجواب لولا [عنه ، وجواب لولا[1]] فى قوله : وما كاد يُبصِرُ لولا حَضْأَةُ النَّار .

---

(١) التكملة من ل .

وقوله « دعَتْهُ بغير اسمٍ » يريد : دعت الضَّيفَ النارُ ، كأنَّه سَمَّى استدلالَه بها وتَصَوُّرَ النَّارِ له دُعَاء منها وإجابةً من الضَّيْف . وقوله « بغير اسم » إنَّما نكَّره ولم يَقُلْ بغير اسمِه ، لأنَّ المدعوَّ قد يُدعَى باسمه ، وبكُنيته ، وبلقبٍ له ، وباسمِ جِنْسِه ، وبِصفةٍ له ، كقولك يارجلُ ، ويافتَى ، ويامُقْبِل ، ويا راكب ، ويا فلان ، ويأبا فلان . والنَّار لم تَدْعُ الضَّيف بشيء من ذلك ، فلذلك قال بغير اسمٍ ، أي بغير اسم يُدْعَى به مثلُه . ويجوز أن يكون قال ذلك لأنَّ دعوتَها لم تكن بكلام ، وإنما كان علامةً واستدلالا ، كما أنَّ الإجابةَ كانت قَصْدًا وإسراءً . وكذلك قوله « هلُمَّ إلى القِرَى » من ذلك ، لأنَّ النَّارَ لم تتكلَّمْ بهذا الكلام . وهلمَّ يجوز أن يكون أصله هاء التنبيه ولُمَّ فِعْلُ ، وعلى هذا يُثَنَّى ويجمع . ويجوز أن يكون اسماً للفعل ، وحينئذٍ لا يثنَّى ولا يُجْمَع ولا يؤنَّث ، وهذا أفصحُ اللُّغَتَين . وفي القرآن : ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلينا ﴾ . وقوله أسرى ، يقال سَرَى وأسرى بمعنًى . ويَبُوعُ الأرضَ أي يقطعها بخَطْوٍ واسع وحركةٍ سريعة . يقال : بُعْتُ الشيء أبوع بَوْعاً في هذا . وفرسٌ بَيِّع : واسع الخَطْو . وكما استُعمِل البَوْع في هذا استُعمل الذَّرْع أيضا . ومنه قيل ناقة ذَرِعَةٌ ، إذا كانت واسعةَ الخَطْوِ . وقوله « والنَّار تَزْهَرُ » الواو واو الحال ، وتَزْهَر أي تضيء في صعود .

وقوله « فلما أضاءتْ شَخصَه قلتُ مَرْحبا » ، أي لمّا دنا منِّي وتراءى لي شخصُه بضوء النَّار تلقَّيتُه بالترحيب والاستدناء ، وقلت لمَنْ حولَ النَّار من أُصْطَلِين ومن الأَهل والخَوَل : استَبْشِرُوا بالضَّيف فقد طرَقَ ، وبمُرادِنا فإنَّه حَصَل . ويقال صَلِيتُ بالنَّار ، أي دنوتُ منها ، أَصْلَى صِلِيًّا[1] . وقوله : مَرْحَباً ، هَلُمَّ : كلامانِ ، ولم يتوسَّطْهما العاطف ، لأن مرحباً تسليم عليه ، وهلمَّ أمرٌ بالدُّنوّ ،

(١) بضم الصاد وكسرها .

فكأنَّه استأنف هذا الكلام بعد التَّسليم بهذا الكلام ، ولم يَجمعْهما اللَّفظُ به في حالةٍ واحدة .

٧ — فجاء ومَحمودُ القِرَى يَسْتَفِزُّه إليها وداعِي اللَّيل بالصُّبح يَصْفِرُ[1]

٨ — تأخَّرتَ حتَّى لم تَكَدْ تَصطلِي القِرَى على أهْلِهِ والحقُّ لا يتأخَّرُ

يقول : جاء الضَّيفُ وما هُيِّئ له من القِرَى المحمود يَجتذِبُه ويَهديه إلى النَّار الموقَدة والدِّيكُ يَصفِر مُؤْذِنا بإصباح اللَّيل . و إنما قال « ومحمود القِرى » لأنَّ طعامَ الكِرام لا يُستَنكف منه ، ويَستطيبُه كلُّ متناولٍ ويستمرئه ، كما يَستكرِم المثوَى عندَهم كلُّ نازلٍ بهم .

وقوله « تأخَّرتَ » استبطاءٌ من القارى للضَّيف . والمراد أنَّك تأخَّرتَ عن أوَّلِ الليل حتى كأنَّكَ لم تكدْ تطلبُ اختيار صَفْوِ القِرَى على النَّازلين ، ونحنُ و إنْ فاتَ ذلك فلكَ الواجبُ من حقِّك ، والمفروضُ من قِسطك ، ولن يتأخَّر إن تأخرت . والمعنى أنَّا نستأنِفُ لك ونَحتفِل ، ونُقيم الرَّسمَ ونتكلَّف[2] ، ونُفرِدُك بما يَجبُ لكَ و إنْ تقدَّمكَ مَنْ تقدَّم . والهاء من قوله « على أهله » يعود إلى القِرى .

٩ — وقُمتُ بنَصْلِ السَّيفِ والبَرْكُ هاجِدٌ بَهازِرُهُ والموتُ في السَّيف يَنظُرُ[3]

١٠ — فأعْضَضْتُهُ الطُّولَى سَنامًا وَخَيْرَهَا بلاءً وخَيْرُ الخَيْرِ ما يُتَخَيَّرُ

---

(١) التبريزي : « ويروى وراعي ، فمن روى داعي بالدال أراد ما يصوت سحراً نحو الديك وغيره ... ومن روى : وراعي الليل ، أراد أن الليل مدبر ، أي جاء في آخر الليل . والأصل في ذلك أن الراعي إذا أراد سوق الماشية صفر بها فتنساق لصفيره ، فكأنه قال : والليل قد سيق وطرد » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٣) في النسختين : « بهازرة » ، صوابه في التبريزي ، وهو ما يقتضيه الشرح من أن في الكلمة ضميراً يعود إلى معنى البرك .

يقول : قُمْتُ مجرِّداً السيفَ ومتجرِّداً لعقرِ ناقةٍ ، والإبلُ الباركة بفنائى نائمة ساكنة ، عِظَامٌ سِمانٌ ، والموتُ ينظرُ فى سَيفى : أيُّها المُعَدُّ والموعودُ به . وإنما قال « والبَرْكُ هاجد » ولم يقل هاجدة ، ردًّا على لفظه ، لأنَّ لفظَه لفظُ الواحد وإن أريدَ به الكثرة . وردُّ « بهازِرُهُ[1] » على المعنى لا على اللفظ . والهُجُود : النَّوم ، وقال الخليل : هَجَدوا ، أى نامُوا ، هجوداً ؛ وتهجَّدوا : استيقظوا ، تهجُّدًا . والبهازِرُ[2] : السِّمان الصفايا ، واحدتها بِهزارٌ فى القياس[3] . والواو من قوله « والموتُ فى السَّيف ينظرُ » واو الحال . وقد حَسُنَ موقع هذا العَجزُ من صدر البيت . ويجوز أن يكون المعنى : والموتُ المركَّب فى السَّيف يَنْتظر ماذا يكون منِّى .

وقوله « أعضضْتُهُ الطُّولَى سَنَامًا » أى عرقَبتُها به ، وجعلتُه يَعَضُّ عليها . وانتصَبَ « سنامًا » على التمييز ، وكان الواجب فى مقابلة الطُّولى أن يقول : والخُورَى بلاءً ، أو خُورَاها بلاءً ، فَعَدَلَ به الوَزْنُ عن تخيُّر المقابلة . ومعنى « خَيْرَها بلاءً » يعنى فى العمل والوِلادة وغَزارة الدَّرّ . وقوله « وخير الخير ما يُتَخيَّر » يريد أن البَرْكَ كلَّها خِيار ، ثم إنِّى اخترتُ مِن بينها خيرَها ، إكرامًا للضَّيف ، وخَير الخير ما يُتَخَيَّرُ من الخير .

١١ — فأوْفَضَ عنها وهْىَ تَرْغُو حُشَاشَةً بِذِى نَفْسِها والسَّيفُ عُرْيانُ أحْمَرُ

١٢ — فباتَتْ رُحَابٌ جَوْنَةٌ مِن لِحَامِهَا وَفُوهَا بِمَا فى جَوْفِها يَتَغَرْغَرُ

قوله « أوفَضَ عنها » يريدُ أنَّ البَرْكَ لمَّا جرى منِّى على صاحبتها التى اخترتُها ما جَرَى من العَرْقبة نفَرْن وتفرَّقْنَ عنها ، وهى ، يعنى المعقورة ، تَرْغُو بِرُوحها

(١) فى النسختين : « بها زرة » ، وانظر التنبيه السابق .
(٢) فى النسختين : « البهازرة » ، وانظر ما سبق .
(٣) التبريزى : « بهزورة وبهزرة وبيهزار فى القياس » .

حُشاشةَ ، وقال « بذى نفسها » يريد خالصة نفسها . والحُشَاشة : البقيّة من دَمائها ، وقال الخليل : رُوح القلب ، وهو رَمَقٌ من حياة النَّفس . وانتصابه على الحال ، ويجوز أن ينتصب على التمييز ، فيكون ممّا نقل الفعلُ عنه ، كأنّه كان وهو ترغو حُشاشتها ، فنُقِل الفعلُ إليها ، فصار تمييزاً كقولك طِبْتُ نفساً وما أشبهه وقوله « والسَّيف عُريانُ أحمر » يريد أنّه متجرِّد من غِمده . ولم يصرفْ عريان ضرورةً ، وجعله أحمرَ ممّا تلطخ من دمها .

وقوله « فباتَتْ رُحابٌ » يعني القِدر . ويقال : رحيبٌ ورُحاب ، كما يقال : طويل وطُوال ، وعَجيب وعُجاب ، وهي الواسعة . والجَوْنة : السَّوداء . وقوله « من لحامها » خبر باتت ، كقولك أنتَ منِّي . والمعنى : باتت مملوءةً من لِحامها . وقوله « وفوها يتغرغر » أي يسيل ما في جوفها ، يعني عندَ غَلَيانها على النار . ومثله :

إذْ لا تزالُ لكم مُغَرْغِرَةٌ ... تَغلِي وأعلى لَوْنِها كِبَرُ[1]

والكِبَرُ : السَّنام ، ويكون أبيضَ اللون .

٧٢١

آخر :

١ — ومَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنِّي ... جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزولُ الفَصيلِ[2]

إنما قال « جَبانُ الكلب » لأنّه عُوِّد أن يُسالِم الطُّرّاق لئلا يتأذّى به الضُّيوفُ إذا وَرَدوا ، فقد أُدِّب لذلك ودُرِّبَ عليه ، ولأنّه بطُول اعتياده لنزول السَّابلة بهِم ألِفَهمْ ، فصار لا يَستَنفِر منهم . وقال « مهزول الفصيل » لأنّه

(١) البيت لعنترة فى اللسان (غرر) برواية : « وأعلى لونها صهر » ، وصهر أى حار وضع المصدر موضع الاسم ، وكأنه قال : أعلى لونها لون صهر .

(٢) أنشد الجاحظ هذا البيت فى الحيوان (١ : ٣٨٤) .

يُؤْثَر بابَن أمّه غيرُه أو تُنحرَ عنه . ومثله قولُ الآخر :

تَرَى فُصْلَانَهمْ فى الوِرْدِ هَزْلَى   وتَسْمَنُ فى المَقَارِى والحِبَالِ (١)

٧٢٢

وقال آخر :

١ — سَأُقْدِحُ مِنْ قَدرى نَصِيباً لجارتى   وإنْ كانَ ما فيها كَفَافاً على أَهْلِي

٢ — إِذا أَنتَ لَمْ تُشْرِكْ رفيقَكَ فى الذى   يَكُونُ قليلًا لم تُشارِكْهُ فى الفَضْلِ

سأقْدَح ، أى سأغرِف من قِدرى نصيبَ الجارة وإن كان ما فيها كَفافاً على أهلى ، أى لا يَفضُل عنهم ولا ينقُص من حاجتهم . وفى طريقته قولُ الآخر :

تُقَسَّمُ ما فيها فإن هى قَسَّمَت   فذاكَ وإنْ أَكْرَتْ فعَنْ أهلِها تُكرِى (٢)

قَسَّمت بمعنى تقَسَّمت ، ومثله نَبَّه بمعنى تنبَّه ، ووجَّه بمعنى توجَّه . ومعنى أكْرَتْ نقصَت ، يريد أنّه يوفِّر نصيبَ الغريب ولا ينقص منه ، بل يجعل النُّقصان فى نصيب العيال . وكذلك قولُ الآخر (٣) :

ليسَ العطاء من الفُضولِ سَماحَةً   حتَّى تجودَ وما لَدَيْكَ قَليـلُ

يريد : والذى لديك قليلٌ . وقال الرّاعى :

إنّى أقسِّم قِدرى وهى بارزة   إذْ كلُّ قِدرٍ عَرُوسٌ ذاتُ جلبابِ

أى مستورة مغطّاة ، لشِدَّة الزّمان .

(١) أنشده فى اللسان (قرا) شاهدا على أن المقارى بمعنى القدور . وقال : « قوله وتسمن فى المقارى والحبال ، أى أنهم إذا نحروا لم ينحروا إلا سمينا ، وإذا وهبوا لم يهبوا إلا كذلك » .

(٢) أنشده فى اللسان (قسم ، كرا) .

(٣) هو المقنع الكندى ، كما سيأتى فى الحماسية ٧٧٢ . وانظر المضنون به على غير أهله ٥٦ . وأنشده ابن فارس فى أبيات الاستشهاد (نوادر المخطوطات ١ : ١٤٠) :

ليس العطاء من الكريم سماحة   حتى يجود وما لديه قليل

٧٢٣

وقال عَمْرو بن الأهتم[1] :

١ — ذَرِينى فإنَّ الشُّحَّ يا أمَّ هَيْثَمٍ لِصَالِحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ[2]

٢ — ذَرِينى وحُطِّى فى هَوَاىَ فإنَّنِى على الحَسَبِ الزَّاكِى الرَّفيعِ شَفِيقُ

يقول : اتركينى على أخلاق وإنْ أنكرتِها فإنَّ ما تبعثين عليه من الإمساك والإبقاء على المال هو البُخل ، والبُخْل مُزْرٍ بأخلاق الرِّجال الكريمة ، ومستهلِكٌ متحيِّف لها ، وواضعٌ من عوالى رُتَبها .

« ذرينى وحُطِّى » أى اتركينى واخفضى من كلامك ووَصَاتك فيما أهواه وأُوثِره . وكرَّر « ذرينى » على طريق التَّأكيد ومظهراً التبرُّمَ بإفراطها . والمراد : انزِلِى عن مراكبك فى اللَّوم واتَّبِعى هوايَ ، فإنَّنى مُشْفِق على الحَسَب الذى رفعتُ بناءه ، إذْ كانت الأحساب متى لم تُتفقَّدْ بالعمارة استرمَّ بناؤُها وشيكاً ، وتهدَّمت وبارت أخيراً .

٣ — ذَرِينى فإنِّى ذو فَعَالٍ تَهُمُّنِى نوائبُ يَغْشَى رُزْؤُها وحُقُوقُ

٤ — وكلُّ كريمٍ يتَّقِى الذَّمَّ بالقِرى ولِلحَقِّ بين الصَّالِحين طَرِيقُ

يقول : اترُكينى واختيارى ، فإنِّى قَدَّمت مساعىَ تقتضينى مراعاتَها ، وأسَّستُ مبانِىَ تدعو إلى استكمالها وتَبعثُ على الزِّيادة فيها ، وعوَّدتُ النَّاسَ مِنِّى عاداتٍ تُوجِبُ علىَّ الصبرَ لها وعليها ، وتَغْشَانى نوائبُ تَنُوبنى ، وحقوقٌ يلزمنى الخروجُ منها . ثم إنَّ الكرام يتَّقون ببَذْل القِرَى وإقامته على أشرَفِ

---

(١) هو عمرو بن سنان بن سمى التميمى . والأهتم لقب أبيه سنان . وفد عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى وفد تميم . وكان سيداً خطيباً شاعراً . الإصابة ٦٧٦٥ ومعجم المرزبانى ٢١٢ .

(٢) الأبيات من قصيدة طويلة فى المفضليات ص ١٢٥ — ١٢٧ وهى المفضلية ٢٣ .

وُجوهِه ذَمَّ النُّزَّال ، وشَكْوَ الطُّرَّاق . ولقَضاء واجباتِ الحقوق فى الكَرم والمروءة طريقةٌ مسلوكةٌ معروفة ، متى أُخِلَّ بها ولم تُعْمَر باستطراقها والنَّظر فى مصالحها والإنفاق فى استبقائها ، دَرَسَتْ وخَفِيت . ويُروى : « وللحمد بين الصَّالحين طريق » ، والمعنى ولكسبِ الحمد . ومعنى « يَغْشَى رُزْؤها » أى يَغْشانى رزؤها ، فحذَف المفعولَ ، أى إصابةُ الناس وانتفاعُهم بى . ويقال منه : هو مُرَزَّأٌ ، إذا كان سخِيًّا ينال النَّاسَ إفضالُه .

٧٢٤

وقال عُروة بن الوَرْد[1] :

١ — إنى امرؤٌ عَافِى إنائىَ شِرْكَةٌ ... وأنتَ امرؤٌ عافى إنائكَ واحِدُ

٢ — أتهزأُ منِّى أنْ سَمِنتَ وأن ترَى ... بوجْهِى شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهِدُ

٣ — أُقَسِّمُ جِسْمِى فى جُسومٍ كثيرةٍ ... وأحْسُو قَرَاحَ الماء والماء بارِدُ

قوله « عَافِى إنائىَ شِرْكَةٌ » أى يأكل مَعِى عِدَّةٌ يشاركوننى فيما فى الإناء ، وأنتَ رجلٌ تأكل وحدَكَ فعافِى إنائك واحدٌ . وأصلُ العافى مِن عفَاه واعتفاه ، إذا طلَبَ معروفه ، فأعفاه أى أعطاه ، كما يقال : طلَبَ منه فأطْلَبَهُ ، ومنه عافِيَةُ الطَّيرِ والسِّباع . وأنشد بعضُهم فيه :

لَعزَّ علينا ونِعمَ الفتَى ... مَصِيرُك يا عَمْرُو للعافِيَه[2]

أى السِّباع والطُّيور ، وقيل : بل أراد العُوَّاد . ومثله قول حاتم :

يَرى البخيلُ سَبيلَ المالِ واحدةً ... إنَّ الجَوَادَ يَرَى فى مَالِهِ سُبُلا

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ١٤٥ ص ٤٢١ . والأبيات فى ديوان عروة ٨٨ يرد بها على قيس بن زهير .

(٢) أنشده فى اللسان (عفا) .

لأنَّ قوله « سبيل المال واحدة » يريد إنفاقه على نَفْسِه دونَ غيره .

وقوله « أتهزأ منِّى أنْ سَمِنْتَ » أى لأنْ سمِنْت ولأَنْ ترَى بوجهى شُحوبَ الحق . وأضاف الشُّحوبَ إلى الحقّ لأنّ سَبَبَه كان توفُّرَه على إقامة الحقوق وأدائها فى وجوهها . وهم يُضِيفون الشَّىء إلى الشَّىء لأدنَى مناسبةٍ بينهما ، فكأنَّه قال الشَحوب الذى كان سببه توفُّرى على الحق ، وتوفيرى الأزواد على طُلَّابها . وقوله « والحقُّ جاهد » يريد القيام بالحقِّ فى الشَّدائد وأدائِه يَجْهَد النُّفوسَ و يغيِّر الألوان و يُنْضِى الأبدان .

وقوله « أقسِّمُ » أراد قوتَ جِسمى وطُعْمَهُ ، لأنِّى أوثِرُ به الغَير على نفسى وأجتزِئُ بحَسْوِ الماء القَرَاح ، وهو البَحْتُ الذى لا يُخالِطه شىءٌ من اللَّبَنِ وغيرِه ، والماء بارد ، أى والشِّتاء شاتٍ والبردُ مُتَناهٍ . وقال بعضُهم : المهزول يجد بَرْدَ الماء أكثَرَ ممَّا يجدُه السَّمين . وأنشد :

عافَتِ المــاءَ فى الشِّتاء فقُلْنا   بل رِدِيه تُصَادِفيه سخينا

أى سَمِنْتِ فرِدِيه تُصادِفِى حارًّا ما صادفتِهِ باردا . قال : وَيدُلّ على أنَّه كنَى عن الهُزَال ببَرْد الماء قولُه :

أتهزأ منِّى أنْ سمِنْتَ وأن ترَى   بوجهى شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

٧٢٥

وقال آخر :

١ — أجَلَّكَ قَومٌ حِينَ صِرْتَ إلى الغِنَى   وكلُّ غَنِىٍّ فِى القُـلوبِ جَلِيلُ[1]

٢ — وليسَ الغِنَى إلا غِنًى زَيَّنَ الفَتَى   عَشِــيَّةَ يَقْرِى أو غَداةَ يُنِيلُ

يقول : لما استغنَيْتَ عظُمْتَ فى عيون النَّاس فأجلُّوا قَدرَكَ ورفعوا مكانتَكَ ،

(١) بين هذا البيت وتاليه بيتان أنشدها ابن قتيبة فى عيون الأخبار (١ : ٢٤١) .

وكذا الأغنياء مواقعُهم من النُّفوس عظيمة ، ومحالُّهم فى الأفئدة والقُلوب جليلة رفيعة ، وأقدارُهم موقوفة على سَعة أحوالهم ، ومردودةٌ إلى مقادير قُدَرهم ، لكنَّ الغِنَى المحمودَ المتَّفق على فَضْله عند التَّحصيل هو ما يَزِين الفتَى فلا يَشِينه ، ويَكْسِب له الحمدَ والذُّخْرَ فلا يَذِيمه ، عشيةَ يَنزلُ الأضيافُ فيُكرم مَثْواهم ، أو غَداةَ يُنِيلُ العُفاةَ ويوسِّع فى فنائه مأواهم .

٧٢٦

وقال المثَلَّمُ بن رِياح (١) :

١ — بَكَرَ العواذِلُ بالسَّوادِ يلُمْنَنِي   جَهْلًا يَقُلْنَ ألا ترَى ما تَصْنَعُ

٢ — أفنَيْتَ مَالَكَ فى السَّفاهِ وإنما   أَمْرُ السفاهَة ما أمَرْنَكَ أَجْمَعُ

يقول : بَكَرَ اللوائم فى سَواد اللَّيل ، ولم تَصْبِرْ إلى وقت الإصباح ، حِرْصاً مِنْ نفوسهنَّ على تقريعى وتوبيخى ، لجهلهنَّ وضعفِ رأيهنَّ ، وقُصور بَصائرهنَّ عن معرفةِ ما لهنَّ وعليهنْ ، يَقُلْن لى مستعظماتٍ لما آتيه ، ومُستنكِراتٍ لما أُنفقه وأفرِّقه : ألَا ترى ما تأتى وما تَذَر . وإنما صَلَح أن يقول بَكَرْن بالسَّواد لأنَّ البُكورَ الابتداء فى الشىء ، ومنه باكُورة الرَّبيع ، والبِكْر فى النِّساء .

وهذا كما قال غيره :

* ألَا بَكَرَتْ عِرْسِى بلَيْلٍ تَلومُنى *

وقوله « أهلكْتَ مَالَكَ » هو تفسيرُ ما أبهَمَه قولُه « ألا ترَى ما تصنع » والمعنى : صرفْتَ مالَكَ فيما هو سَفَهٌ وضلال ، وغَبَاوةٌ وضَياع . ثم قال : وإذا تُؤمِّل الحالُ فيما يُراوِدْنَكَ عليه فالأمرُ بالسَّفاهة ما أمَرْنَكَهُ كلُّه . جعل يخاطبُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣١ ص ٣٨٢ .

نفسه بذلك . ويقال : أمرتك كذا وبكذا . قال الشاعر[١] :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعَلْ ما أُمِرْتَ به[٢] *

فجمع بين الوجهين . وفى القرآن : ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤمر ﴾ . ويجوز أن يكون معنى أمر السَّفاهة الأمر الذى تولَّد عن السفاهة ، ويكون الإضافةُ فيه إضافةَ المسبَّب إلى السبب ، كأنه جَعل السفاهة فيهنّ ومنهنّ . وقوله « ما أمرنَكَ » ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، وأجمَعُ توكيد له . والسَّفاهَةُ والسَّفاهُ[٣] والسَّفَهُ : الخفّة والطَّيش . ويقال : زِمامٌ سَفِيه كما يقال زِمامٌ عَيَّار[٤] . وسَفَهتِ الرِّيحُ الغصنَ : حرّكَتْه . وتسفَّهت الرِّياحُ : اضطربت . و « يلمننى » فى موضع الحال . و « جهلا » يجوز أن تكون مفعولًا [له[٥]] ، ويجوز أن تكون فى موضع الحال . و « ألَا تَرَى [ما تصنع[٥]] » فى موضع مفعول يَقُلْنَ . وما من قوله « ماتَصْنَعُ » يجوز أن يكون بمعنى الذى ، وقد حُذف المفعول من صِلَته ، يريد تصنعه . ويجوز أن يكون مفعولًا مُقدَّمًا لتصنع ، والمعنى أىَّ شىء تَصْنَع .

٣ — وقَتُودُ ناجِيَةٍ وَضَعْتُ بِقَفْرَةٍ   والطَّيْرُ غاشِيَةُ العَوافِى وُقَّعُ

٤ — بِمُهَنَّدٍ ذى حِلْيَةٍ جَرَّدْتُهُ   يَبْرِى الأَصَمَّ مِنَ العِظَامِ وَيَقْطَعُ

قوله « وقُتُودِ ناجِيَةٍ » انجرّ بإضمار رُبَّ ، وجوابه وَضَعْتُ بِقَفْرَةٍ ، والواو من قوله والطّيرُ واو الحال . فيقول : ربَّ رَحْلِ ناقة سريعةٍ وَضَعْتُهُ بمكان خالٍ وتركتُه ، لأنى عرقَبْتُها ، والطّير عوافيها تغشاها وتقع عليها . وأكثر ما يجىء

(١) هو أعشى طرود ، أو عمرو بن معديكرب ، أو العباس بن مرداس ، أو زرعة بن السائب ، أو خفاف بن ندبة . الخزانة (١ : ١٦٥ — ١٦٦) .

(٢) عجزه : * فقد تركتك ذا مال وذا نشب *

(٣) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٤) عيار : كثير الحركة والتردد . وهذا مافى ل . وفى الأصل : « جبار » ، ولاوجه له .

(٥) التكملة من ل .

المجرور برُبَّ يجيء موصوفا ثم يجيء الجواب ، وهاهنا لم يَصِفْه . وقوله « غاشية العوافى » وجب أن يكونَ فيه ضميرٌ للناقة ، حتَّى يكون بين ذِى الحال و بينه تعلُّق ، فحذف ذلك الضَّمير لأن المراد مفهوم ، ولو أتَى به لـكان والطَّير غاشية العوافِى إيَّاها وُقَّعٌ عليها . والعوافى : جمع عافية ، وهو من قولهم عَفَاه واعتفاه ؛ وقد مرَّ ذكره[1] .

وقوله « بمهنّد » تعلَّق الباء منه بقوله وَضَعْتُ بِقَفْرَةٍ ، لأنه لم يَحُطَّ الرَّحلَ عن النَّاجية ولم يَضَعْها [بالقَفْرة[2]] إلا وقد عَرْقَبَها ، فـكأنَّه [جعَلَ[2]] وضعْتُ بقَفْرةٍ دلالةً على العَقْر والعَرْقَبَة .

وقوله « ذى حِنْيةٍ » يريد أنَّه كان ملطَّخا بالدَّم ، فجعل ذلك الدَّمَ كالحلية لها . وقوله « يَبرِى الأصمَّ من العظام و يقطع » يعنى بالأصمِّ ماليس بأجوفَ ، وذلك أصلَب ، فإذا بَرَى الأصمَّ فهو للمجوَّف أبْرَى .

٥ — لِتَنُوبَ نائبــةٌ فتعلَمَ أنَّنى ممَّن يُغَرُّ على الثَّناء فيُخْـدَعُ

٦ — إنى مُقَسِّمُ ما مَلَـكَتْ فجاعِلٌ أجرًا لآخــرةٍ ودُنيا تَنفَعُ

قوله « لتَنُوبَ » تعلَّق اللام بفعل مضمَرٍ دلَّ عليه ما تقدَّم ، كأنَّه قال : فعلتُ ذلك لـكَىْ إذا[3] نابتْ نائبة علِمَتْ أنِّى أَنهَضُ فيها ، وأُطلَبُ الأُحدوثةَ الجميلةَ فى دَفْعها ، وأنِّى أُحمَلُ على الغَرَر ، وأُخْدَعُ عن المال بالثَّناء والشُّـكر . ثم قال : إنِّى أُقسِم ما أملِـكُه بين أمرين : مُدَّخَرٍ للآخرة ، ومنتَفَعٍ به فى الدنيا . وجعل قوله لآخرةٍ ودُنيا نكرتَيْنِ ، وقد جاء فى غير هذا المـكان دُنْيا فى صورة المعرفة ، قال :

* فى سَعْىِ دُنْيَا طَالَ ما قَدْ مُدَّتِ[4] *

(١) انظر مامضى فى ص ١٦٥٣ .

(٢) التـكملة من ل .

(٣) سبق مثل هذا التعبير فى ص ١١٦٩ ، ١٢٧٦ .

(٤) للعجاج فى ديوانه ص ٥ .

ووجه التنكير فيها وفى آخرةٍ أنْ يُرادَ أجرٌ عائدٌ فى أمَدٍ من آمادِ الآخرة ، ومنفعةٌ فى مثله من الدنيا ، وكان الواجب أن يقول ومنفعةً لدُنْيا ، حتَّى يكون لِفْقَ الأوّل فيا ساقَهُ من الكلام ، وتفسيرًا لما قَسَمَهُ من مَصارف المال ، إلّا أنّه رَمَى بالكلام على ما تَرَى لمَّا لم يلتَبِسْ .

٧٢٧

وقال أبو البرج القاسم بن حَنْبَل (١) :

١ — أَرَى الْخُلاَّنَ بعدَ أبى خُبَيْبٍ وحُجْرٍ فى جَنَابِهِم جَفاءُ (٢)

٢ — مِنَ البِيضِ الوُجوهِ بنى سِنَانٍ لَوَ انَّكَ تَسْتَضِىءُ بهم أَضاءوا

٣ — لهمْ شَمْسُ النَّهار إذا استقلَّتْ ونُورٌ ما يُغَيِّبُهُ العَماءُ

٤ — هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُعَلَّى ومِنْ حَسَبِ العَشيرةِ حيث شَاءوا

الجنابُ : ناحيــة القَوم . ويقال : فلانٌ رَحْبُ الجناب ، كأنه استَجْفَى نُبُوَّهُمْ (٣) فعَتَبَ عليهم ، ثم أَخَذَ يمدحُهم ويستعطفهم ، فيقول : أجدُ الأصدقاء بعد هذين الرَّجلين يَجفُو جَنابُهم عنِّى ويَنْبو جانبُهم ، وهم من القَوم الكرام الغُرِّ الوجوه ، أذكر بنى سِنانٍ . فقوله « بنى سِنان » يجوز أن ينتصب على المدح والاختصاص ، ويجوز أن يجعل مجروراً على البَدَل من البيض الوجوه . وإنّما

---

(١) عبارة الإنشاد مطموسة فى الأصل . وفى ل : « أبو الفرج » ، صوابه فى المؤتلف ٦٢ ومعجم المرزبانى ٣٣٣ والقاموس (برج) . وهو شاعر إسلامى ، وهو من بنى سهم ابن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . وقال هذا الشعر فى مدح زفر بن أبى هاشم بن مسعود بن سنان ، عامل اليمامة ، وكان زفر يكنى أبا حبيب .

(٢) خبيب ، بالخاء المعجمة فى الأصل ، وفى ل «حبيب» وأشير إلى أنه فى نسخة أخرى حبيب . وهى بالحاء المهملة عند الآمدى والمرزبانى والتبريزى .

(٣) فى الأصل : « بنوهم » ، صوابه فى ل .

وَصَفَهم بنقاء الحَسَب وانتفاء العار والعَيب من الذّم . قال : فلو استضأتَ بنُور وجوههم لأضاءوا فى بُهَم الظُّلَم ، فلهم من نُور الكَرَم مثلُ شَمْس النّهار إذا ارتفعت وعَلَتْ ، ومثل نور اللّيل الذى لا يستُرُه ظَلام ، ولا يُخفيه عَماء ، وهو الغَيْم الرّقيق ، وهم حَلُّوا من الشّرف الذى اكتسبوه ، وبحَميدِ أفعالهم شيَّدُوه ، المُعَلَّى يعنى المُرَفَّع ، إلى أبعد الغايات ، وأقصى النّهايات . ويجوز أن يكون أراد القِدْحَ المُعَلَّى ، لأنَّه أشرفُ القِدَاح وأكثرها أنْصِباء ، فجعله مثلاً لأرْفَع المدارج وأسنَى المراتب . وقوله « ومن حسَب العشيرة » يريد به المتوارَث ، أى نزلوا منه حيثُ اختاروه وأحبُّوه . ومراده أنّه جَمَع لهم بَيْنَ المُكتَسَب والمتوارَث من الشَّرَف والحسب . وأضاف الحسَب إلى العشيرة لأنَّهم شُركاء فى التَّليد منه .

وأزْيَدُ مِمّا قصده فى قوله من « البيض الوجوه بنى سِنان » قولُ الآخر[1] :

٥ — بُنَاةُ مَكَارِمٍ وأُسَاةُ كَلْمٍ دماؤُهُمُ من الكَلَبِ الشِّفاء
٦ — فأمّا بيتُكُمْ إن عُدَّ بَيتٌ فَطَالَ السَّمْكُ واتَّسَعَ الفِنَاء
٧ — وأمَّا أُسُّهُ فَعَلَى قديمٍ مِن العَادِىِّ إنْ ذُكِرَ البِنَاء
٨ — فلو أنَّ السَّماءَ دَنَتْ لِمَجْدٍ ومَكْرُمَةٍ دَنَتْ لهمُ السَّماء

البُنَاةُ : جمع بَانٍ . والأُساة : جمع آسٍ ، وهذا الجمع يختصُّ بالمعتلّ ، كما أنّ فَعَلَةً نحو كَفَرةٍ وظَلَمةٍ يختصُّ بالصَّحيح . والآسِى : مُدَاوِى الجراحات . والكَلْمُ : الجرْح . وهذا مثَلٌ لشدَّة الأهوال واضطرابِ الأحوال . والمعنى : إذا تفاقَمت الأمورُ ، وحرِجَتْ بما اجتمعتْ فيها الصُّدور ، فإنّهم يتلافَوْنَها بمُننهم أو لُطفهم ، وهم مُلوكٌ ففى دِمائهم شِفَاء من عضِّ الكَلْبِ الكَلِب ، وهو الذى يَكْلَب بأكل لحوم النّاس ، فيأخذه من ذلك شِبْهُ الجُنون ، فلا يَعَضُّ إنساناً إلَّا كَلِبَ .

(١) هو أبو الطمحان القينى . وقد سبق فى الحماسية ٦٩٤ ص ١٥٩٨ .

ويقال : إن مَن عَضهُ ينبحُ نَبيح الـكلاب فيُنتظَر به سبعة أيام ، فإنْ بالَ هَنَاتٍ [1] على خِلقة الكلاب برَأ ، وإلَّا ماتَ بزعمهم . ويقولون : إنَّه لا دواء له أنجعُ من شُرْب دمِ مَلِكٍ . ومثلُه قول الفرزدق :

ولو تَشْرَبُ الـكلْبَى المِراضُ دِماءنَا شَفَتْها وذُو الخَبْلِ الذى هو أَدْنَفُ

وقوله « فأمَّا بيتكم [إن عُدَّ بيتٌ [2]] » فإنه يريد : إذا عُدَّت البيوتُ فبيتُكم طويلُ السَّمْك ثابت الأُسِّ ، فسيح السَّاحةِ والفِناء ، واسع الأقطار والأرجاء . والسَّمْك : أعلَى البيت الداخل ، فأمَّا أعلاه الخارج فإنَّه الصَّهْوة . والعادىُّ : القديم ، نُسِبَ إلى عَادٍ . فيريد : بناء شرفِكم قديمٌ ، ومكانُه وَسِيعٌ ، وسُمُوقُه رفيع ، ورسوخُه عميق .

وقوله : « فلو أنَّ السَّماء دَنَتْ لمجدٍ » ، يريد لو مَلَكَتِ السَّماءُ الدُّنوَّ والانحطاط عن موضعِهِ الذى سُمِكَ فيه ليرتقىَ إليها مجدُهم ، أو ليشاركَ الأرضَ فى إقلالهم وإيوائهم [3] ، والاحتواء على مكارمهم ، لفعلَتْ ذلك ، ولكنَّها عاجزةٌ غيرمالكة .

٧٢٨

وقال أَرْطَاةُ بن سَهيَّةَ [4] :

١ — لو أنَّ ما نُعْطِى مِن المال نَبْتَغِى به الحَمْدَ يُعْطِى مِثْلَهُ زاخِرُ البَحْرِ

٢ — نَظَلَّتْ بَرَاقِيرٌ صِيَاماً بظاهِرٍ مِنَ الضَّحْلِ كانتْ قَبْلُ فى لُجَجٍ خُضْرِ

قوله « نبتغى » موضعه نصب على الحال ، وموضعُ « يُعْطِى مِثْلَه » الجملة رفعٌ على أنَّه خبر أنَّ ، وقد حُذِف الضَّمير العائد إلى ما من قوله نُعطى ، كأنَّه

---

(١) فى الأصل : « هنات » ، صوابه فى ل . (٢) التكملة من ل .

(٣) الإقلال : مصدر أقله بمعنى حمله . وقد جعل المرزوقى الضمير العائد إلى « السماء » مرة مذكراً وأخرى مؤنثاً ، لما أن « السماء » تذكر وتؤنث .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ .

قال : لو أنَّ الذى نُعطيه من المال مُبْتَغِين به الحمدَ يُعطِى مِثْلَهُ طَامِى البحر ومرتفِعهُ لظلَّت سفنٌ راكدةً وواقفةً بظاهرٍ من الماء قليلٍ ، كانت مِن قَبلُ فى مَعاظِمَ من البحر خُضْرٍ كثيرة . وقوله « لظلَّتْ » جواب لَوْ . وقوله « كانت قبل » من صفة القراقير ، وهى السفن ، والواحدُ قُرْقُورٌ . وقد فَصَلَ بين الصفة والموصوف بخبر لظلَّتْ وهوقوله «صياماً» . يريدُ أنَّ السُّفنَ التى كانت فى الماء فى بحرٍ تَعودُ بمثل العطايا منه إلى أنْ تكون واقفةً فى ضَحْلٍ ، إذ كان ماؤه لا يقوم مع الاغتراف منه لما يقوم له مالُنا على الإسراف العظيم منه . والضَّحل : الماء القليل ، والجميع الضُّحول . وأتانُ الضَّحْلِ : صخرة بعضُها فى الماء مغمور و بعضها ظاهرٌ مكشوف ، فيصْلُب ويَمْلَاسُّ . واللُّجَج : جمع لُجَّة ، وهى مُعْظَم الماء . ويقال : التجَّ البحرُ . والصِّيام : القيام . والزَّاخر من البُحور : الطامى الماء ، المرتفعُ الموج . و إذا جَاشَ القومُ لنَفيرٍ أو حَرْبٍ ، قيل زَخَرُوا .

٣ ـ ولا نَكْسِرُ العَظْمَ الصَّحِيحَ تَعَذُّرًا ... ونَغنَى عن المَوْلَى ونَجْبُرُ ذا الكَسْرِ

٤ ـ غَلَبْنَا بَنِى حَوَّاءَ مَجْدًا وسُودَدًا ... ولكنَّنا لم نَسْتَطِعْ غَلَبَ الدَّهْرِ

يصفُ كَرَمَهم فى عشيرتهم ، وأنهم يتعطَّفون على الضِّعاف الفقراء منهم ويتحَدَّبون ، فيجبُرون كَسْرَهُم ، ويَسُدُّون مَفاقِرَهم ، ويُظهرون الغِنَى عن مواليهم ، فلا يُصْلِحون أحوالَ أنفسهم بل يوفِّرُونهم على مصالح أمورهم ، ويُخَلُّونهم واختياراتِهم فى مَباغيهم ومكاسِبِهم ، ومَنْ كان مستقيمَ الأمرِ واسعَ المراد يقوم برَمِّ عَيْشِه ، ويَنْهَضُ بتدبير تجمُّله ، لا يُلِحُّون عليه فى نوائبه ، ولا يُضَاعِفُون المُؤَن فى مَصَارِفِه ، متوصِّلين بذلك إلى الغَضِّ منهُ والحطِّ من قَدْرِه ، وجلالِه ومكانِه ، لحسَدِهم واستِعلائهم .

وقوله « غَلَبْنا بَنِى حَوَّاء » ، يريد أنَّا قَهرْنا النَّاسَ على طبقاتِهم وتبايُنِ منازلِهم رياسةً وشرفا ، فلمَّا جاء الدَّهرُ يَغلِبُنا على ما نريدهُ من استبقاء وبقاء ،

واستصلاح وصَلاح، لم نَستطِعْ دَفعَه، ولم نُطِقْ غَلَبته ومَنْعه . وانتصب قوله « تعزُّزًا » على أنه مصدر فى موضع الحال، ولا يمتنع أن يكون مفعولًا له .

٧٢٩

وقال حُجْر بن حَيَّةَ :

١ — ولا أُدَوِّمُ قِدْرِى بعْدَ ما نَضِجَتْ ... بُخْلاً لتَمْنَعَ ما فيهـــا أثَافِيها

٢ — لا أُحْرِمُ الجارةَ الدُّنْيا إذا اقتَرَبَتْ ... ولا أقومُ بها فى الحىِّ أُخْزِيها

٣ — ولا أُ كَلِّمُهـا إلّا عَلَانِيـــةً ... ولا أُخَـــبِّرُها إلّا أُناديها

قوله « لا أدوِّم » يريد لا أطيل إدامةَ قِدْرى بعد إدراكها على الأثافى، بُخلاً بما فيها، ولِتَمنَعَها عن طلّابها أثافيها . جعَلَ المَنْع للأثافى، لأنها لما لم تُفرَّق ما دامت منصوبةً على الأثافى جَعَلَ الفعلَ لها، كأنها هى المانعة . وانتصب « بُخلاً » على التمييز أو على الحال إنْ شئت . ويقال : أَدَمْتُ الشىء، إذا سكَّنته ودوَّمتُه أيضاً . والماء الدَّائم : الساكن الذى لا يجْرِى، وكأنَّ البخيلَ منهم يَفعَلُ ذلك ليُرِى أنّ القِدْرَ لم تُدرِكْ، وأنَّ ما فيها لم ينضَجْ، انتظارًا لمن تأخَّرَ عنهُ ويُوجِب الحالُ حُضُورَه .

وقوله « لا أُحرِمُ الجارةَ الدنيا إذا اقتربَتْ »، يريد أنه يُشْرِكُها فى فَضْل نعمتِه[1] بعد دنوِّها من داره، وأنه لا يطلُب عَثَراتها ولا يقبِّحُ آثارَها، فلا يقومُ بذِكْرها فى الحىِّ مُخزِيًا لها . وقال بعضهم : أراد لا أحكى عليها قبيحاً . يقال : قام بى فلانٌ وقعَدَ، أى نَثَا[2] عَنِّى قبيحا . وقوله « أُخزيها » يجوز أن يكون ألف النَّقل دخلَ على خَزِىَ خِزْيًا من الهَوان، ويجوز أن يكون دخل على خَزِى

(١) فى الأصل : « نعمتها »، صوابه فى ل .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وقعد بى نثا » .

خَزَايَة من الاستحياء ، وذاك لأنها إذا ذُكِرَتْ بالقبيح أو شُهِرَت بما تَستُرُه وكُشِفَت ، فقد تستحيي كما تَذِلُّ ، أَوْ تذل كما تستحيي .

وقوله « ولا أُكلِّمها إلّا عَلَانيةً » انتصب علانيةً على أنه مصدرٌ في موضع الحال ، وكذلك قولُه « إلا أناديها » ، الجملة في موضع الحال ، ونظام الكلام يقتضيه أنْ يقول : ولا أخبِّرُها ، إلّا أنه لمّا كان الغرضُ إلاّ مناديًا لها ، نابَ الفعلُ عن المصدر . ولا يجوز في علانيةً أن يكون تمييزًا ، بدَلالة أنّ الصدر يجب أن يكون حكمه حكمَ العجُز ، ومن الظّاهر أنّ أنَادِيها في موضع الحال ، والمعنى [أنّه[1]] لا يَقِفُ ، لسَلامةِ طريقتِه وتكامُل عِفّته ، الجارةَ في مواقف التُّهمة ، فلا يُخفِي مُكالَمَتَها ، ولا يُخاطِبُها مخبراً لها إلّا برفْع صوتٍ ونداء عالٍ . كلُّ ذلك هروبًا من قِرفة تَحصُل[2] ، أو تُهْمَة تَتوجَّه ، وهذا هو الغايةُ في العفاف ، والدَّرجةُ القاصية في التوقِّي من العار .

٧٣٠

وقال المسَاوِرُ بن هند بن قَيس بن زُهَير[3] :

١ — فِدًى لبَنِي عَبْدٍ غَدَاةَ دَعَوْتُهُمْ ... بِجَوٍّ وَبَالٍ النَّفْسُ والأَبَوَانِ[4]

٢ — إِذَا جَارَةٌ شُلَّتْ لِسَعْدِ بن مَالِكٍ ... لَهَا إِبِلٌ شُلَّتْ بِهَا إِبِلَانِ

خبر المبتدإ الذى هو « فِدًى » قوله « النفس » ، و « وجَوٌّ وَبال » أضاف الجوَّ إلى وبال ، وهو اسمُ ماء . وإنما دعا لبنى عَبْدٍ بالتَّفدية لأنّه وجَدَهم عندَ الظَّنِّ [بهم] لمّا استنصرَهم على أعدائه بجوِّ وبال .

---

(١) هذه من ل .

(٢) القرفة بكسر القاف : التهمة .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٥٥ ص ٤٥٨ .

(٤) التبريزى وياقوت فى رسم (وبال) : « لبنى هند » .

وقوله « إذا جارة » ظرف لقوله « شُلَّت به إبلان » ، وهو جوابُه . وتلخيص الكلام : إذا شُلَّتْ إبلٌ لجارةٍ لسعدِ بن مالك شُلَّتْ بسَبَبِها ولمكانها إبلانِ ، وذلك لكَرَم محافَظَتِهم ، وللعزِّ اللّاحقِ في مُعاقَدةِ جِوارِهم . ومعنى شُلَّتْ : طُرِدَت ، شَلًّا . وقد فَصَل بين المرتفع به[1] وهو إبل ، وبينه بقوله « لسعد بن مالك » ، ولولا أنَّ حكمَه حكمُ الظُّروف وقد توسَّعوا فيها ، لكان ذلك غيرَ جائز ، لأنَّ الفصلَ بين الفِعل وبين المبنيِّ عليه بأجنبيٍّ لا يجوز عندنا . ألا تَرى أنَّهم امتنعوا من جواز قول القائل : كانَتْ زيدًا الحيَّ تأخُذ ، وإنْ جوَّزوا : كان في الدار زيدٌ واقفاً ، لكون الحائلِ هنا ظَرْفا وفي ذاك غَيْرَ ظرف . وأمَّا قوله « لها إبل » فموقع لها أنْ يكون بعد إبل ، لأنَّه صفةٌ لها ، والصفةُ لا تتقدَّم على الموصوف ، كما أنَّ الصِّلة لا تتقدَّم على الموصول ، لكنَّها قُدِّمت على أن تكون حالًا ، والحال كما يتأخَّرُ يتقدَّم إذا لم يمنَعْه مانع ، فهو كقول الآخر[2] :

لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ كأنَّه رُسُومَها الخِلَلُ[3]

وتقدُّم « لها » على « إبل » كتقدُّم مُوحِشاً على طلل .

وقوله « إبلٌ » ، اسمٌ صيغ للجمع ، ويتناول الكثيرَ دون القليل . وقد ثُنِّيَ ها هنا على معنى فِرقتان ، فقيل إبلان . وهذا كما يقال قومانِ وعشيرتانِ وأهلان . وقوله « شُلَّتْ بها » ، أى مِن أجلها وبسببها . ويروى : « شُلَّتْ لها إبلان » ، ويرجع معناه إلى معنى الباء ، وذلك لأنَّه في معنى المفعول له ، أى شُلَّت عِوَضاً عما شُلَّ مِنها ، فيكون « لها » الأولى في موضع الحال كما قلت ، لكونه صِفةً متقدِّمة ، وضميرُها يرجع إلى الجارَة لا غير ، أى إبل متملَّكة

(١) في الأصل : « بين مالم يقع به » ، صوابه في ل .
(٢) هو كثير عزة . شواهد العيني (٣ : ١٦٣) .
(٣) الرواية المشهورة : « يلوح كأنه خلل » .

لجارةٍ لقبيلة سعدِ بن مالك . و « لها » الثانية تكون فى موضع المفعول له ، والضمير منها يعود إلى الإبل إن شئت ، وإن شئتَ إلى الجارَة . فاعرف الفَصْل بينهما إنْ شاء الله .

٣ — إذا عَقَدَتْ أفناء سَعْدِ بن مالكٍ لها ذِمّةً عَزّتْ بكلِّ مكانِ

٤ — إذا سُئِلوا ما ليسَ بالحقِّ فيهمُ أبَى كلُّ مَخْشِيٍّ عليــهِ وَجَانِ

٥ — ودارِ حِفاظٍ قد حَلَلْتُمْ مُهَانَةٍ بها نَبِيُّكُمْ والضَّيفُ غيرُ مُهَانِ[1]

قوله « إذا عقَدتْ أفناء سعد بن مالك » ، يصفهم بحُسْن التعاوُن والتَّرافُد فيما بينهم ، وانتفاء التخاذُل والتبايُن عن سِيَرِهم وأخلاقهم ، فإنهم يدٌ واحدةٌ على مَن سواهم ، لا استبدادَ للكبير فيهم ، ولا انحطاطَ للصغير منهم ، بل كلٌّ يرضَى فِعلَ صاحبه ، واختصاصُ النَّفرِ[2] منهم فى الأمور كفِعل الجمهور ، فمتى دخَلَ واحدٌ من أفنائهم فى الأمر العظيم وتكفَّلَ به ، أعانه الرُّؤساء حتَّى يَخرُجَ منه ، لا يُهمِلون أمرَه ، ولا يَستهينون بشأنه . وإن عقَــدَتْ أوساطُهم أو المتأخِّرون منهم ذِمّةً لها عزّتْ تلك الذِّمّة وغَلَبَتْ فى الأماكن كلِّها ، وجب الوفاء فيها عليهم بأسْرِهم ، لا اختِلال[3] منهم فى دَفْعها ، ولا انفكاكَ لهم من ملازمتها .

وقوله « إذا سُئِلوا ما ليسَ بالحقِّ فيهم » ، يريد أنهم إذا سِيمُوا خُطَّــةَ الضَّيْم اجتمعوا على اجتوائها والتَّسخُّط لها ، واتِرِين كانوا أو موتورين ، وطالبين كانوا أو مطلوبين ، لِمَا يفرِضونه على أنفُسهم من إباء الدَّنيَّــة ، والتشارُك فى طُروق البليّة ، إلى أن تنقضيَ بمدافعتهم لها ، وبالانتقام من جالبيها .

وقوله : « ودارِ حِفاظٍ قد حَلَلْتُم » ، يعنى أنهم إذا نزَلوا دارَ المحافظة على

(١) فى الأصل : « قد حلت ... بها بينكم » ، صوابه فى ل والتبريزى .
(٢) فى الأصل : « النظر » ، صوابه من ل .
(٣) ل : « لا اعتلال » .

الشَّرَف رأوا مراغمةَ الأعداء لَدَى الصَّبرِ على الكُلَفِ ، وحَسُنَ ثوابهم[١] ، وكَرُمَ بلاؤهم ، وطابت أخبارُهم ، وكثُرت غاشيتهم ، لأنهم يُهِينون كرائمَ أموالهم ، ويُعِزُّون مقارَّ ضيوفهم . وهذا كما قال الآخر[٢] :

ودارِ حِفاظٍ أطَلْنا المُقام   بها فحَلَلْنا مَحَلاًّ كريما[٣]

إذا كان بعضُهمُ للهَوانِ   خليطَ صَفاء وأمَّا رءوما

٧٣١

وقال[٤] :

١ — جزَى اللهُ خيرًا غالبًا من عشيرةٍ   إذا حَدَثانُ الدَّهرِ نابَتْ نوائبُهْ

٢ — فكم دافَعوا من كُرْبَةٍ قد تلاحَمَتْ   عَلَيَّ ومَوْجٍ قد عَلَتْنِي غواربُهْ

يقول متشكِّرًا وداعيًا : جزَى اللهُ غالبًا من بين العشائر خيرًا أشدَّ ما كان حاجةً إلى[٥] مَن يكافئه على مستحدَث بلائه الحسَن في أضيَق أوقات النُّوَب ، فكم مَرّةٍ دافَعوا دوني واشتَلَوْني[٦] من كُرَبٍ انضمَّتْ عَلَيَّ ، وأطبقَتْ لها الدنيا بظلامها لدَيَّ ، فكأنِّي غريقٌ تتلاعَبُ الأمواج بي ، وتَقامسني[٧] في غِمارها ، وتُرادُّني في لُجَجها .

(١) في الأصل : « نياتهم » ، ووجهه من ل .

(٢) هو ربيعة بن مقروم الضبي . المفضلية رقم ٣٩ .

(٣) المفضليات : « ودار هوان أنفنا المقام » .

(٤) هذا يشعر بأن قائل هذا الشعر هو قائل سابقه . لكن عند التبريزي « وقال آخر » .

(٥) ل : « إليه » .

(٦) هذا الصواب من ل . يقال اشتلاه ، إذا استنقذه من الهلكة . وقال حميد الأرقط :

* قد اشتلانا عفوه وكرمه *

وفي الأصل : « واستلوني » مع ضبط التاء واللام بالفتح .

(٧) تقامسني بمعنى تغامسني . والقمس : الغمس . وفي الأصل : « تقاصني » ، تحريف صوابه من ل . وفي حاشية ل : « خ : تغامسني » إشارة إلى أنها كذلك في نسخة أخرى .

وقوله : « حَدَثان الدّهر » ، مصدر حَدَث . والكُرْبة : الاسم من الكَرْب ، وهو الغمّ الذى يأخذُ بالنّفس . والمُتلاحم : الملازم بعد أن كان متباينا . ويقال : التحَمَ وتلاحَمَ بمعنًى . والغارِبُ : أعلَى الموج ، وأعلَى الظّهر . ومنه قولهم : حَبْلُكِ عَلَى غاربِك . وكم موضعه من الإعراب نَصْبٌ على الظّرف ، والمعنى فِراراً كثيرة دافعوا دونى .

٣ — إذا قلتُ عُودُوا عادَ كلُّ شَمَرْدَلٍ أشَمَّ من الفِتْيانِ جَزْلٍ مَوَاهِبُه[1]

٤ — إذا أخَذَتْ بُزْلُ المَخَاضِ سِلاَحَها تجَرَّدَ فيها مُتلِفُ المالِ كاسِبُهْ

يقول : إذا عُرِضَ على كلِّ واحدٍ من بنى غالب مُعاودةُ الحروب والكرور فيها عادَ منهم كلُّ رجلٍ تامّ الخلقة ممتدّ القامة ، كريم النّفس ، كثير العطيّة . وأصل الشّمم ارتفاع الأنف . ولك أن تروى : أشَمُّ جَزْلٌ ، وأشَمَّ جَزْلٍ ، فالرّفع على كلّ والجرّ على شمردل . والشّمردل : الطويل . والشّمم [كناية[2]] عن الكرم .

وقوله « إذا أخذَتْ بُزْلُ المَخَاضِ سلاحَها » فالمراد بسلاحها محاسنُها وأمارات عِتقِها وكَرَمِها ، كأنّها تتحلَّى بتلك المحاسنِ فى عين أربابها حتّى تَحْلَى ، فيصير ذلك سبباً للضنّ بها . وقوله « مُتلِفُ المال كاسِبُهْ » هو كقولهم : مُفيدٌ مُفيتٌ ، ومِخلاف مِتلاف ، ومُخلِف مُتلِف . والبُزْلُ : جمع بازل ، وهو المُتناهى قُوّةً وشبابا . وأصل البَزْل الشّقّ . والمَخَاض : النُّوق الحوامل ، وهو اسمٌ مصوغ للجَمْع كالقوم والنِّسوة . ومعنى « تجرّد فيها » أى تشمَّرَ فى عَقْرِها ونَحْرِها ، يريد أنّ تحسُّنَها بسلاحها فى عَينه لا يُجْدِى عليها نفعاً ، ولا يَدفعُ عنها مكروهاً ، لما بِهِ من إكرام الضّيوف ، ويُوجِب على نفسه من قضاء الحقوق .

(١) التبريزى : « ولك أن تروى أشم وجزل ، وأشم وجزل . فالرفع على كل ، والجر على شمردل » .

(٢) التكملة من ل .

٧٣٢

وقال آخر [1] :

١ — أيا ابنةَ عبدِ الله وابْنَةَ مَالِكٍ ويا ابنَةَ ذِى البُرْدَيْنِ والفَرَسِ الوَرْدِ

٢ — إذا مَا صَنَعْتِ الزّادَ فالتَمِسِى لَهُ أَكِيلا فإنِّى لستُ آكِلَهُ وَحْدِى

٣ — أخاً طارِقاً أو جارَ بَيْتٍ فإنَّنى أخافُ مَذَمَّاتِ الأَحاديثِ مِنْ بَعْدِى

٤ — وإنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ مادامَ نازِلًا وما فِىَّ إلاَّ تِلْكَ مِنْ شِيَمِ العَبْدِ

حَسُنَ تكريرُ ابنةٍ وإن كانَ المرادُ واحدةً لاختلافِ المضاف إليه ، والقصدِ إلى تفخيمِ أمرها وتَعظيمِ شأنها . والذى يدلُّ على أنَّ المرادَ واحدة قولُه «إذا ماصَنَعْتِ الزّاد فالتمسى» . ويَعنِى بذى البُرْدين عامرَ بن أُحَيْمِرِ بنِ بَهْدَلَةَ . وكان من حديث البُرْدَين حتَّى لُقِّبَ به ، أنَّ وفود العرب اجتَمَعَتْ عند المنذرِ بن ماء السماء — وهو المُنذر بن امرئ القيس ، وماءُ السَّماء أُمُّه نُسِبَ إليها لشرَفِها . وقيل: ماء السَّماء لُقِّبَتْ به لصفاء نَسَبها ، وقيل لنَقاء لونها ، يُراد أنَّها كماء السماء لم يَحْتَمِلْ كُدورة — فأخرج المنذرُ بُرْدَينِ يوماً يَبْلُو الوُفود ، وقال : ليَقُمْ أعزُّ العَرَبِ قبيلةً فليأخذْهُما . فقام عامرُ بن أُحَيمِرٍ فأخذَهما واتَّزر بأَحدهما وارتَدى بالآخَر ، فقال له المنذر : بِمَ أنتَ أعزُّ العربِ قبيلةً ؟ قال : العِزُّ والعَدَد فى مَعَدّ ، ثمَّ فى نِزار ، ثمَّ فى مُضَر ، ثمَّ فى خِنْدِف ، ثمَّ فى تَميم ، ثمَّ فى سعد ، ثمَّ فى كعب ، ثمَّ فى عوف ، ثمَّ فى بَهْدَلة ، فمَنْ أنكرَ هذا فلْينافِرْنى ! فسكَتَ النَّاس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعُمُ ، فكيفَ أنتَ فى أهل بيتكَ وفى نفسك ؟ فقال :

---

(١) هو حاتم الطائى يخاطب امرأته ماوية بنت عبد الله . كما ذكر التبريزى . ولم ترد الأبيات فى ديوان حاتم .

أنا أبو عشرة ، وخالُ عَشَرة ، وعمُّ عشرة[١] ؛ وأمّا أنا فى نَفْسى فشاهِدُ العِزِّ شاهِدى . ثمَّ وضع قدمَه على الأرض فقال : مَنْ أزالَها عن مكانها فله مائةٌ من الإبل ! فلم يَقُمْ إليه أحدٌ من الحاضرين ، وفازَ بالبُرْدَين .

وقوله « إذا ما صنَعْتِ الزاد » ، يريدُ إذا فرَغْتِ من اتِّخاذ الزّاد وإعداده فاطلُبِي من أجله من يؤاكلنى ، فإنّى لم أُعوِّدْ نفسى التفرُّدَ فى الأكل . وهذا الذى أنِفَ منه حتّى تبرَّأ من الرِّضا به قد ورَدَ[٢] فى الخبر ما يقوّى استقباح العربِ له ، وتزييفَهم إيّاه فيما يختارونَه من كرَم الطِّباع ، وإقامة المروءات . ألا ترى أنّه قال صلّى الله عليه وسلم ، فيما روى عنه : « ألا أُخبركم[٣] بِشَرِّ النَّاس ؟ مَنْ أكل وحده ، ومَنَع رِفْدَهُ ، وضربَ عبده » .

وموضع « وَحْدِى » من الإعراب نصبٌ على المصدر ، والتقدير لست آكله وقد أوحدت نَفْسِى فى أكلِه إيحادًا ، فوضع وحدَه موضع الإيحاد . والكوفيُّون يجعلون وحدِى فى موضع الحال ، وإن كان لفظُه معرفةً ، يجعلونه من باب : جاءوا قَضَّهم بقَضِيضهم ، وكلَّمتُه فاهُ إلى فِىَّ ، وما أشبهه .

وجواب إذا قولُه « فالتمِسِى له أكيلا » . وأكيلُ الرَّجل وشَرِيبه ونديمُه وجليسه ، يقال كلٌّ منها فيمن عُرِف بالصِّفة . لا يقال لمَنْ أكلَ مع صاحبِه مرّةً واحدة هو أكِيلُه ، ولا لمن شرِبَ معه مرّةً واحدة هو شَرِيبه . وعلى ذلك قولُهم : هو جليسه ، لا يُطلَق إلَّا على من عُرِف بهذه الصِّفة فتكرَّرت منه .

فإن قيل : كيف نكَّره وقال التمِسى له أكيلًا ؟ وهلَّا قال أكيلى ؟ قلتَ : لا يمتنع أنْ يكون قد عُرِفَ بمؤاكلته عِدّةٌ ، فأراد التَمِسى من أجله بَعْدَ ما هيّأتِه

(١) وكذا عند التبريزى . وفى حواشى ل : « خ : عشيرة فى الثلاثة المواضع » ، إشارة إلى أنها فى نسخة « عشيرة » بدل « عشرة » فى المواضع الثلاثة .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « حتى تبرأ من الرضى فقد ورد » .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ألا أبشركم » .

واحدًا من المعروفين بمواكلتى ، ألا ترى أنه قال مفصِّلا لما أجمَلَه ، وشارحًا لما أبهمه : « أخًا طارقًا أو جارَ بيتٍ » ، فأبدل من الأول وهو أكيلا ما أبدل . والمراد : التمِسى أكيلاً من أحدِ هذين النَّوعين طارقًا آخَيْناه ، أو جارَ بيت بحفظْناه . وقوله : « فإنِّى أخافُ مَذَمَّاتِ الأحاديث من بعدى » ، بيانُ علَّةِ امتناعه من التفرُّد فى الأكل . يريد : أخشى ما يَلْحَقُ من العار فى الأكل منفرداً إذا افتُقِدَتْ أو ذُكِرَتْ أحوالُ الناس ، واستُعرِضت عاداتُهم ، فاستُهجِن الهَجِين منها ، واستُكرِم الكريم . والمَذَمَّة بالفتح : الذمّ ، وجمعها مذَمّات . والمَذِمَّة بالكسر : الذِّمام . وأضاف المَذَمّات إلى الأحاديث ليُرِيَ أنّ خوفَه ممّا يبقَى من الذمّ فيما يُتَحَدَّث به بعده .

وقوله : « وإنِّى لَعبدُ الضَّيفِ ما دام ثاويا » ، يُروى : « نازلا » . ويقال : ثَوَى بالمكان وأثوَى بمعنًى . يريدُ أنِّى أتكلَّف من خدمة الضَّيف ما يتكلَّفه العَبِيد ، لا أستنكِف ولا آنَف ، وليس لى مِن أخلاق العبيد وطبائعهم إلَّا تلك ، يريد إلّا تلك الخِدمةَ ، أو تلك الخليقة . وموضع « ما دام » نصبٌ على الظَّرف أى مدَّةَ دوامِ ثَوَائِه عندى . وموضع « من شِيَمِ العَبد » رفعٌ على أن يكون اسم ما ، وخبره « فِيَّ » و « إلّا تلك » استثناء مقدَّم ، وفائدة « مِنْ » التَّبيين فهو كمِن الذى فى قوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ ، لأنَّ الأوثانَ كلَّها رجس ، وليس يريد التَّبعيض بذكر مِن ، لكنَّ المراد اجتنِبوا الرِّجْسَ من الضَّرب ، إذ كان الأهمَّ فيما يجب اجتنابُه .

٧٣٣

وقال آخر :

١ — لَيْسَ فَتَى الفِتْيَانِ مَنْ كُلُّ هَمِّه صَبُوحٌ وَإِنْ أَمْسَى فَفَضْلُ غَبُوقِ[1]

(١) التبريزى : « وليس » بالتمام ، وفى النسختين : « ليس » بالخرم .

٢ — وَلَكِنْ فَتَى الفِتْيَانِ مَنْ رَاحَ أَوْ غَدَا   لِضَرِّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقِ

يقول . ليس المختارُ مِن الفِتْيان والكاملُ الفُتُوّةِ فيهم مَن إذا أصبحَ كان معظم همّه ما يشرب به صباحا ، و إذا أمسى كان معظم همّه ما يشرب به مَساء . والصَّبُوح : ما يُصْطَبَحُ به ، اسماً له . والغَبُوق : ما يُغتبَقُ به . يريد أنّ الفتوّة ليس فى إعداد الأطعمة والأشربة ، وإعطاء النَّفْس مُناها منهما ، لكنّ الفُتُوّةَ هو السَّعىُ غُدوًّا ورَوَاحاً فى جرّ ضررٍ على مُنابِذٍ مُداجٍ ، أو جلب نفعٍ إلى ناصحٍ مُوَاخٍ .

٧٣٤

وقال حَزَازُ بن عمْرو ، من بنى عبْد مناف[١] :

١ — لَنَا إِبِلٌ لَمْ تُهِنْ رَبَّهَا   كَرَامَتُهَا وَالفَتَى ذَاهِبُ

٢ — هِجَانٌ تَكَافَأَ فيها الصَّدِيقُ   ويُدْرِكُ فِيها المُنَى الرَّاغِبُ[٢]

٣ — ونَطْعُنُ عنها نُحورَ العِدَى   ويَشْرَبُ مِنَّا بِها الشَّارِبُ

قوله « لنا إبلٌ لم تهِنْ رَبَّهَا كرامتُها » ، يريد : أنّا نُؤْثر إكرامَ النُّفوسِ[٣] وصيانَتَها على إكرام المال وصيانته ، لأنّ الأموال إذا لم تُجعَلْ واقيةَ النَّفس جلبت العارَ وكَسَبت الشَّنار ، فنحن نُهينُها ونبتذلُها صَوْناً للنَّفْس ، ولئلّا يكون المال كالمالك لنا ، إذ كان عُمْرُ الفتى عاريةً مستردّة ، فهو هالكٌ و إنْ أُمهِلَ مدّة ، وما يُقدّمه يذكر به ، فصيانةُ مروءتنا من أن ترثّ أو تهون ، أجْدَى وأوجَبُ من صِيانة المال وتثميرها والضَّنّ بها[٤] . وقد اعترض بقوله « والفتى ذاهب »

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٠٣ ص ١٠١٧ .

(٢) التبريزى : « يكافأ منها الصديق » ، ولكن نص شرح التبريزى لا يساير نص متنه ، إذ يقول : « ومعنى يكافأ منها الصديق يماثل ، من الكفء : المثل فى المال والحسب وغيرها » .

(٣) ل : « نفوسنا » .

(٤) ل : « وتثميره والضن به » . والمال يذكر ويؤنث . وأنشد لحسان :

المال تزرى بأقوام ذوى حسب   وقد تسود غير السيد المال

بين الصِّفة والموصوف ، لأنَّ قوله هِجَانٌ من صفَة الإبل ، كما أنَّ « لم تُهِنْ رَبَّها » من صفتها أيضاً . ولولا تأ كُّدُ الجملة به لكان يَقْبُح ما فعلَ ، لكون الاعتراض أجنبيًّا مما قبله و بعده . والهِجان يَقَع على الواحد والجميع ، وذاك أنَّ فِعالًا كما يكون جمعاً لفعيل ، نحو ظريف وظِراف ، وكريم وكِرام ، وكبير وكِبار ، كسَّرُوا عليه فِعالًا أيضاً ، فقالوا : دِرْعٌ دِلَاص وأدْرُع دِلاص ، و بعيرٌ هِجان و إبل هِجان ، لأنّ فعيلا وفِعالًا مُتَواخيان فى أنَّهما من الثلاثى ، وفى موقع الزَّائد منهما ، وفى عدد حُروفِهما ، فيتشاركان فى أحكامهما ، و إذا كان كذلك فهجَان وهو للواحد ، كضِناكٍ وكِنَازٍ وما أشبههما ، وهجان وهو للجميع ، كظِراف وكِبار . قال : سيبويه : يدلُّك على أنَّ هجاناً ليس كالمصادر التى وُصِف بها نحو ضَيْفٍ وجُنُب وزَوْرٍ وما أشبهها ، أنَّك تقول هجانان فتثنِّيه ، و إذا كان مُرْصَدًا للتَّثنية فهو للجمع كذلك . ومعنى « تَكافأ فيها الصَّديق» تماثَلَ ، من الكُفْء المِثْلِ فى المال والحَسَبِ وغيرهما . والمراد بالصَّديق الجِنْس ، يريد يتساوَوْن فيها ، لا استئثار منَّا بشىء منها دُونَهم ولا تفرُّد ، بلْ كُلٌّ مِنَّا ومن الأصدقاء يتصرَّف فيه على مرادِهِ نافذاً أمرُه ، وبالغاً حُكْمُه . وقوله « ويُدْرِكُ فيها المُنَى الراغب » ، أراد الرَّاغبين . أى إنّ العُفاةَ وطُلَّابَ الخير إذا نَزَلوا بساحتنا[١] نالُوا أمانيَّهم منها كاملةً لا يتخلَّلها خَرْم ، ولا يتسلَّط عليها ثَلْم .

وقوله « ونطعُن عنها نُحورَ العِدَى » ، لمّا عَدَّد الوجوهَ التى ذكر أنَّهم يَصرِفون أموالَهم إليها ، و يقتسمونها فيما ذكَر فى أثنائها أنَّهم يُدافعون عنها الأعداء فعليها حافظٌ من محافظتهم ، ودونَها دافع[٢] من مدافعَتهم ، لا يطمع الأعداء فى الإغارة عليها ، ولا فى احتجان شىء منها ، بل يمتلكها وجهان : مَثُوبةٌ أو صنيعة

(١) ل : « بساحتنا » .
(٢) ل : « ودونها مانع » .

وقوله « ويَشرب منّا بها الشّارب » ، أراد أنّهم يَسْبَؤُون بها الخمر ويجعلونَها فى أثمانها . فهو فى هذا وفيما سَلَكه كقول الآخر[1] :

نُحَابِي بها أكْفَاءنا ونُهِينُها ... ونَشْرَبُ فى أثمانهـــا ونقَامِرُ

٤ — ونُؤْلِفُهَا فى السِّنِينَ الـكُلُولَ ... إذَا لم يجدْ مَكْسَبًا كاسِبُ

٥ — ولم تَكُ يَوْمًا إذا رُوِّحَتْ ... عَلَى الحىّ يُلْفَى لهـــا جَادِبُ

٦ — حَبَانَا بهـــا جَدُّنا والإلهُ ... وضَرْبٌ لنا خَـذِمٌ صَائبُ

قوله : « ونؤْلفها فى السِّنينَ الـكُلولَ » يعنى بالسِّنين الأعوامَ التى تَقِلُّ الأمطارُ فيها وتَشملُ النّاسَ الآفاتُ لها . يقال : أصابتهم السَّنةُ . وقد أسْنَتَ الرّجلُ ، إذا أصابه القَحطُ والجَدْب . وأراد بالـكُلُول مَنْ كان كَلًّا على صاحبه وعيالًا لمُعِيله ، لا يُحْسِنُ التَّوجُّهَ لـكسبٍ ، ولا يهتدى لارتزاء خيرٍ وترقيح عيش ، كالأيتام والأرامل وذَوِى العاهة . وقوله « إذا لم يجد مَـكْسَبًا كاسِبُ » بَدَلٌ من قوله فى السنين . أى إذا اشتدّ الزمان وتضايقت الخطوبُ بما يَعُمُّ من القَحْط ، وأعْوَزَ الـكاسِبِينَ كسبُهم فلزِمُوا مقارّهم آيسِين من إقبال الزّمان وأهلِه ، جعلْنا إبلَنا يألفها كُلُولُ النّاس فينالون منها ، ويعيشون فيما يَعُود عليهم من ألبانها ومنافِعها .

وقوله « ولم يَكُ يَوْمًا إذا رُوِّحَت » ، يريد رُدَّت فى مراعيها رَواحًا فوردَتْ على الحىِّ لم يُوجَد لها عائبٌ يَعيبُها ، أى لم يُوجَد لأربابها مَنْ يعيبُهم فيرميهم بالبُخل والإمساك . وإنما قال « يُلْفَى لها » لأنّه يريد يُلْفَى مِن أجْلها . والجادِب : العائب . كأن[2] المرادَ اتِّفاقُ النّاس على حَمْدهم ، ونَفْيُ [العيبِ على[3]] العِلّاتِ كلِّها عن أخلاقهم ، وتسليمِ الفضلِ والإفضال لهم .

(١) هو سبرة بن عمرو الفقعسى . انظر الحماسة ٦٠ ص ٢٣٩ .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « لأن » . (٣) التكملة من ل .

وقوله « حبانا بها جَدُّنا والإلٰه » أشار بالجَدِّ إلى استسعادهم بالزّمان، فهم محظوظون فيه ، وأنَّ الله عزّ وجلّ خَصَّهم بالغنى لما عَرَفه من استحقاقهم ، ومن طَوْلِهم إذا مُكِّنُوا ومُلِّكوا . وقال « والإلٰه » فأتى به على الأصل ، وقلّما يَعدِلون عن لفظة الله تعالى إلى الإلٰه ، إذْ كان جاريًا مجرى الأعلام بعد لزوم الألف واللام له عِوَضًا من المحذوف منه .

وأشار بقوله « وضربٌ لنا خَذِمٌ صائب » إلى ما نالوا من الأعداء وإيقاع الغارات بهم . والخَذْمُ : القطع . ويقال : سيفٌ مِخْذَمٌ وخَذُوم . ومعنى صائب ذُو صَواب ، وأخرجه مَخرج النَّسب . ويجوز أن يكون مِن صَابَ المطر ، إذا وَقَعَ ، صَوْبًا . فإنْ جعلتَه من الصَّواب كان المعنى ضربٌ يقع على حَدِّه من الاستحقاق والقَصد ، وإذا جعلته من الصَّوْب فالمعنى واقعٌ موقِعَه عند الحاجة إليه .

وهذه الأبياتُ يَزيد تفاصيلُها على جُمَلِها عند الفَحْص عنها . وقد وقع دُونَ غايتها قولُ الآخَر[١] وقد سلكَ مسلكَه في تَعداد مَصارِفِ أموالهم :

ثلاثة أثلاث فأثمانُ خَيلنا وأقواتُنا وما نَسُوق إلى القَتْلِ

وإن اختلفت الطَّريقتان . وكُلٌّ يدعُو إلى نَفْسه في حُسْنه وشُمُوله واستيفائه .

٧٣٥

وقال منصور بن مِسْجاحٍ[٢] :

١ — ومُخْتَبِطٍ قَدْ جاء أو ذِي قَرابةٍ فما اعتذَرَتْ إبْلِي عَلَيْهِ ولا نَفْسِي

٢ — حَبَسْنَا ولَمْ نَسْرَحْ لكَيْ لا يَلُومَنَا عَلَى حُكْمِهِ صَبْرًا مُعَوَّدَةَ الحَبْسِ

---

(١) هو عمرو بن كلثوم . الحماسة ١٦٠ ص ٤٧٦ .

(٢) سبقت ترجمته في الحماسية ٦٠٧ ص ١٤٥١ .

٣ — فطافَ كما طافَ المُصدِّقُ وَسْطَها يُخَيِّرُ منها فى البَوازِلِ والسُّدْسِ

أصل الاختباط فى الوَرَق . يقال : خبطتُ الورقَ واختبطتُه ، إذا نفضْتَه من الشجر ؛ والمنفوضُ خَبَط ومختَبَط . وكما يستعار الوَرَق فيُكْنى به عن المال يستعارُ الخَبْط فيُكْنَى به عن طَلَبِه . على ذلك قولُ زهير :

وليْسَ مانعَ ذى قُرْبَى ولا رَحِمٍ يومًا ولا مُعْدِمًا من خَابِطٍ وَرَقَا

وكأنّ الاختباط يختصُّ بفعل من يسأل عَن عُرُضٍ ، ولا يَقِف على تحرُّم أو توسُّل أو تذرُّع ، ولكنْ يكون به السُّؤالُ وبَذْلُ الوَجْه كيف جاء . وفى الافتعال زيادةُ تكلُّف ، فلذلك اختَصَّ هذا الاختصاص . وعلى هذا قولهم الاكتساب والكَسْبُ . وقوله « أو ذى [قرابة » ، خصَّ من يمتُّ بالنَّسب أو السَّبب فيقول : رُبَّ سائلٍ تعرَّضَ لنا ، أوْ ذِى[1]] نَسَبٍ اعتمدنا ، فلا نفسى احتجزَتْ عنه بِمَنْعٍ ، ولا إبلى اعتذرتْ عليه بعُذْر . كأنّ عُذْرَ الإبلِ تأخُّرُها عن مَباءتها ، أو ذِكْرُ وقوعِ آفةٍ فيها أو تسلُّطِ جدبٍ عليها . واحتجاز النَّفس : بُخْلُها بها ، وإقامةُ المَعاذِيرِ الكاذبةِ دونها ، وما يجرى هذا المجرى .

وقوله « حَبَسْنا ولم نَسْرَح » جواب رُبَّ مُختَبِط ، وبيانُ ما تَلقّاه به عند استقباله من القَبول . ويقال : سَرَحْتُ الماشيةَ بالغداة ، إذا أخرجتَها إلى مراعيها ، وأرَحْتَها إذا رددتَها رواحاً إلى أفنيتها . ومفعول « حبَسنا » قوله « مورَّدَةَ الحِبْس » ، ومفعول « لم نَسْرَح » محذوف ، أى لم نَسْرَحْها .

وقوله « على حُكْمِه » تعلّق بحبَسْنا . وانتصب « صبراً » على أنه مصدر من غير لفظه ، لأنّ معنَى حبَسْنا وصبَرْنا واحدٌ . وتقدير البيت : حبَسْنا على حُكْمِ هذا المختبِط العافى أو النَّسِيب إبلاً جُعِلَ من عادتها الحبسُ بالفناء صَبْراً ، ولم نُخْرِجْها إلى المَرعَى لئلا يَجِدَ طريقاً إلى لَوْمِنا فيما يقدِّره عندنا . ويجوز أن

(١) التكملة من ل .

ينتصب « صبراً » على أنه مصدرٌ لِعلّة ، أى لصَبْرِنا على ما نَمُونه ونتحمّلُه للعُفاة فعلنا ذلك . ويجوز أيضاً أن يكون انتصابُه على الحال ، لأنّ المصادر تقع مَواقع الأحوال ، أى صابرين على ذلك لهم .

وقوله « فطاف كما طاف المُصَدِّق » ، يريد أنّ هذا الطالبَ مكّنّاه من إبلنا المحبوسة فى الفِناء فطاف فيها متخيِّرًا منها فى خِيَارِها وكرائمها ، وإذا كان متخيِّرًا فى بوازلها وسُدسها وهى أكرمُ الإبل وأقواها ، فما دونَها أولى أن يكون مخيَّرًا فيها . وتشبيهُه إياه بالمصدِّق وهو طالب الصَّدَقة تحقيقٌ لتحكّمه وتبسُّطه وتسحُّبه[1] . يريد أنّ إدلالَه إدلالُ مَن يستخرج حقًّا واجبًا لله تعالى .

وقوله « يخيَّر منها » ، إعرابه نصبٌ فى موضع الحال من طاف الأوّل . ومعنى يخيَّرُ ، يُجعل له الاختيارُ منها . وهذا تحكيمٌ ثانٍ سِوَى ما سوّغَتْ له نفسُه بإدلاله .

٧٣٦

وقال عامر بن حَوْطٍ ، من بنى عامر[2] :

١ — ولقد عَلِمْتُ لتأْتيَنْ عَشِيَّةٌ ما بَعْدَها خوفٌ عَلَيَّ ولا عَدَمْ

٢ — وأَزُورُ بيتَ الحقِّ زَورَةَ ماكِثٍ فعلامَ أَحْفِلُ ما تقوَّضَ وانْهَدَمْ

٣ — فلأَتْرُكَنَّ السَّامِلِينَ حِياضَهُم ولأَحْبِسَنَّ عَلَى مكارِمَ النَّعَمْ[3]

قوله : « ولقد علمت » يجرى على القسم ، ولذلك أجابَه بلتأتينَّ . ويعنى بالعشيّة آخر النهار من يومِ موته . فيقول : تيقَّنتُ والله أنه يأتى علىَّ عشيَّةٌ من

(١) تسحب عليه تسحباً : أدل عليه إدلالا . وهو يتسحب عليه ، أى يتدلل .

(٢) التبريزى : « من بنى عامر بن عبد مناة بن بكر بن سعد بن ضبة » .

(٣) التبريزى : « ولأتركن للساملين » ثم قال : « ويروى : فلأتركن الساملين » .

يومٍ قد تخلَّيت فيه من الدُّنيا وانقطعت الأسبابُ بينى وبينها ، فلا أكونُ من الفقر على رِقْبة ، ولا من حوادث الدَّهر على خِيفةٍ ، وأزور القبرَ الذى هو «بيتُ الحقّ» . وأضاف البيت إلى الحقّ لأنّه لا سُكْنَى بَعْدَه ، فكأنَّه الموضع الذى يُؤوِى إليه الحقُّ ويُفْضِى إليه مَن أنزَلَهُ الموتُ ناقلاً من دار إلى دار . وقوله «زَورةَ ما كث» أى أزورُه زيارةَ المُقيم المنتظر الذى لا عجلةَ به ، فلماذا أُبالِى بما تقوَّض منه أو انهدم . والمعنى أنَّ تدبيرَ أمرِه يصير إلى غيرِه فلا يهتمُّ لمأواهُ اهتمامَه له أيّامَ حياته . ويقال : لا أَحْفِل كذا ، ولا أحْفِلُ بكذا . و «عَلَام» ما فى الاستفهام إذا اتّصل بحرف الجر يُحذَف الألف من آخره . وقد مضى مثلُه مشروحاً أمرُه[1] . وهذا الاستفهام هو على طريق الإنكار ، أى لم أحْفِل . والأحوالُ فى كونِ البيت عامراً أو غامرا تَتساوَى عندى .

وقوله «فلأتْرُكَنَّ السامِلين حِياضَهم» السَّامل : المُصلِح . والمعنى : إنّى أرفضُ حالَ مَن همَّتُه مقصورةٌ على تثمير مالِه ، وعِمارة حياضِه ، والفِكرِ فى مَوارِدِ إبلِه ومصادِرِها . ومن سَمَل الحوض سُمِّى الماء الذى يبقَى فى أسفَلِ الحوض السَّمَلة . قال :

ممغوثَةٌ أعْرَاضُهُمْ مُمَرْطَلَهْ فى كلِّ ماءٍ آجِنٍ وسَمَلَهْ

والمراد : أهْجُرُ مَن هذا همَّتُه من عَيشه ، وأَحْبِسُ نَعَمِى على عِمارة المكارم وتفقُّدِ ما تَشيَّدَ لى من المعالى . والنَّعَم يقع على الأزواج الثَّمانية ، والغالب عليه الإبل ، وهو مذكَّر ، يقال : هذا نَعم وارد . وحَبْسُه على المكارم هو أن يَصْرِف منافعَه إلى المستحقِّين من الوُرَّاد والزوّار ، مقصورةً عليهم ومشغولةً بهم .

(١) انظر ما مضى فى ص ٦٣ .

٧٣٧

وقال زيد بن حُصَيْن [1] :

١ — أَقِلِّى عَلَىَّ اللَّوْمَ يا ابنةَ مُنْذِرٍ ... ونَامِى فإن لم تَشْتَهِى النَّوْمَ فاسْهَرِى

٢ — ألم تَعْلَمِى أَنِّى إذَا الدَّهْرُ مَسَّنِى ... بنائبــــةٍ زَلَّتْ ولم أَتَتَرْتَرِ

يخاطب لائمةً له تبرَّمَ بلَومها فقال : قَلِّلى من لومك علىَّ ونامى عنِّى ، فإنْ تعذَّر النَّومُ عليك ضجراً [2] بالحالة التى تجمعنا فاسهرى ، فليس لكِ من عَتْبِكِ ما يَرُدُّ نَفعاً علىّ ولا عليك . ثم أخَذَ يقرِّرها على قلَّة احتفالِهِ بما يأتى به الدَّهر ، فقال : أمَا علمتِ أنَّ الزمان إذا مَسَّنِى بحدَثانه ذهَبَ عنِّى ولم أتردَّد فى حَيرته ، ولم أتنكَّسْ فى لواحق شَرِّه ونوائبــه ، بل أمضِى قُدُماً على ما يغْشَى منه ويخُصُّنى ، راضياً بما يُقْسَم لى من عَفْوِه ، وملتزِمًا ما يَعرِض منه عند جَهْدِه .

وقوله « زَلَّت » استعارة حسنة . كأنَّ صبرَه على الشِّدة ، وثباتَه فى وجه المِحْنَة ، تَزِلُّ النُّوَب عنه كما يُزِلُّ الماء الدَّنَسُ عن الصُّخور ، ويقال : قِدْحٌ زَلُول ، كما يقال للشَّىء السريع الدَّوَران : دَرُور . والتَّتَرْتُر : العَجَلة ، فكأنَّ المراد : زَلَّتِ النائبةُ ولم تستخفَّنى فـكنتُ أعجَـلُ أو أتحوَّلُ عمَّا كنتُ عليه .

٣ — يُرَانِى العَدُوُّ بَعْدَ غِبِّ لقائِهِ ... خَلِيًّا نَعِيمَ البالِ لم أَتَغَــيَّرِ

يقول : وإذا قاسيتُ من العدوِّ مضارَّةً ومناكدةً فيما يتجاذبُه ومجاحَشَةً ، يَرانى بعد يومِ لقائه بيومٍ وكأنَّه ما مَسَّنِى أذًى ، ولا نالَنِى مكروه ، لأنَّه يَجِدُنى خليًّا منعَّم البال ، لم أتغيَّرْ عمَّا عُهِدت عليه قبلَ الامتحان به ، ولم أتبذَّل . وقوله « نعيم البـال » هو من الضَّوالِّ التى وُجِدَت الآن ، وذاكَ لأنَّ فعيلًا فى معنى

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٠ ص ٥٥٧ .

(٢) فى الأصل : « منجزاً » ، صوابه فى ل .

مُفْعَلٍ معدود محصور، وقد ذكرتُه فى غير هذا الموضع وتقصَّيْته. ونعيم البال من ذلك، يقال: أنعَمَ الله بالَكَ، وبالٌ مُنْعَمٌ ونَعِيم. ولا يمتنع أن يكون نَعيمٌ فعيلا من نَعَمُ أو نَعِمَ عيشُه؛ وأكثر ما يُستعمل مصدرًا. يقول: هو فى نعيمٍ لا يزول، وإذا كان كذلك فهو غريبٌ إنْ جعَلْته اسمَ الفاعل، كقَدُم فهو قديمٌ أو حَزِن فهو حزين؛ أو فعيلًا فى معنى مُفْعَلٍ، كفرسٍ حَبيس ومُحْبَس، وبابٍ تَرِيصٍ ومُتْرَصٍ. وانتصب «خليًا» على الحال من يرانى، وهو الذى لامٌ له. وفى المَثَل. «ويلٌ للشَّجِيِّ من الخَلِيّ» وقد يكون فى غير هذا المكان المُخَلَّى.

٤ — ورا كِدَةٍ عَتْبَى طويلٍ صيامُها قَسَمْتُ على ضوءٍ مِنَ النَّارِ مُبْصِرِ [1]

٥ — طُرُوقًا فلم أفحِشْ وقَسَّمْتُ لحمَها إذا اجتَذَبَ العافُونَ نارَ العَذَوَّرِ

يعنى بالرَّا كدة قِدرًا لانتصابها وبقائها على الأثافىّ. ويقال: ماء راكد، أى ساكن. وجعلها «عتبَى» لغَلَيانها كأنها تَعتِب وتَشكو. وهذا مِن عَتَب عليه مِن المَوجِدة. يقال: عَتَبْتُ عليه فأعْتَبَ. ويروى: «غَيْرَى» فيكون من الغَيْرة، لأنّ صاحبها يحتدّ، فشبَّه غليانَها بغَلَيان الغَيْرَى. وفى الحديث: «رُدُّونى إلى أهْلِي غَيْرَى نغرَةً [2]». والصِّيام: القيام. ووصفه بالطُّول، فقال: «طويل صيامُها» لكبَرِها. كأنّه لا تُنْزَل قريباً إذا نُصِبَتْ.

وقوله «قَسَمْتُ على ضوءٍ من النار مُبْصِرِ»، جعل الضَّوءَ مبصِرًا لمَّا كان الإبصار فيه، على ذلك قولُه تعالى: ﴿وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾. وجعَلَ قِسْمَةَ القِدْرِ وهو يريد قِسمة مَرَقها وما احتوَتْ عليه ليلاً، وبضَوءٍ من النَّار، لشدَّة الزَّمان، وتَنَاهِي البرد، ولأنّه وقتُ طروق الضَّيف. وقوله «لم أفحِش»

---

(١) التبريزى: «وراكدة عندى». ثم قال: «ويروى: عتبى، وغضبى. وجعلها عتبى لغليانها. ويروى: غيرى، فيكون من الغيرة. شبه غليانها بغليان الغيرى».

(١) انظر لهذا الحديث اللسان (نغر).

أى لم آتِ بفُحشٍ لا فِعلاً ولا قولا ، ولم أقترفْ ما يقبُح من الذِّكر ويُستنكَر في السّمع . وقوله « إذا اجتنب العافُون » ظرفٌ لقوله لم أُفحِش ، و « طُروقا » ظرف لقَسَمْتُ على ضوء ، ويكون تقدير البيتين : ورا كدةٍ طويلةِ القيام قسمتُ مَرَقَها ظَلاماً وقتَ طُرُوق العُفاةِ والأضياف ، وبدَّدتُ لحمَها ، ولم آتِ بفحشاء ، في وقتٍ يتسرّع الضَّجَرُ مِن كثرة الوُرّاد وازدحام الأشغال إلى مَنْ كان سيّئ الخلُق ، سريعَ التغيُّر ، حتَّى اجتُنِب نارُه ، وزُهِد في ضيافته . وجَعَلَ لنفسه قِسمَين كان أحدُهما للمَرَق على الثُّرُدِ ، والثّانى لِقِدَر اللّحم . وعلى الأوّل قول الآخر : * وَسِّعْ بِمَدِّكَ ماء اللَّحْمِ تَقسِمُهُ[1] *

٧٣٨

وقال الهُذَيْلُ بن مَشْجَعَة البَوْلانىّ :

١ — إنِّى وإنْ كانَ ابنُ عَمِّىَ غائباً ... لَمُقَاذِفٌ مِنْ خَلْفِهِ ووَرَائِهِ

٢ — ومُفِيدُهُ نَصرِى وإنْ كان امْرَأً ... مُتَزَحْزِحاً فى أرْضِــــهِ وَسَمائِهِ

يصف كَرَم محافظته وحُسْنَ نِيابتِه عَنْ غُيَّاب أهلِهِ وذَوِيه ، فيقول : إنّى لَمُدَافِعٌ مُرَامٍ دونَ ابنِ عمِّى إذا غابَ عنِّى ، فأذُبُّ مِن قُدَّامه وخَلْفِه . والمعنى : أنّى أُقاتِلُ دونَه كنتُ هادياً له وقد تخلّفَ عنِّى ، أو حادياً له وقد تقدَّمَنى . فقوله « من ورائه » ، من البيِّن الظّاهر أنّه بمعنى القُدَّام ، وقد ذكر معه خَلْف . واشتقاقه من المُواراةِ وهى المُساتَرة ، ولذلك صَلَحَ وقوعُه موقع الخلف والقُدّام . وفى القرآن : ﴿ وكَانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفِينةٍ غَصْبًا ﴾ . وموضع « من خلفه » نصبٌ على الحال أى متخلِّفاً أو متقدِّما .

وقوله « ومُفِيدُه نصرى » أى لا أُمسِك عن معونته وإن تباعَدَ عنِّى فى

(١) البيت الأول من الحماسية ٧٤٥ . وعجزه :

* وأكثر الشوب إن لم يكثر اللبن *

أرضِهِ وسمائه . والمعنى : أنّى بظهر الغَيب لا أخذُله و إنْ اشتغل عنّى بمصارف حياتِه فى بلاده وأوطانه . وعَطَفَ على أرضه السماء تأ كيدًا لتنائيه عنه ، واشتغاله دُونَه بمباغيه ، كأنّه لمّا جعل له أرضاً مباينةً لأرضه ، جعل لأرضه سماء مُباينةً لسماء أرضه . ولا يمتنع أن يكون جعَلَ ذلك مثلًا لاختلاف أحواله ، كما يقال نَفَضْتُ تَهائمَ فُلانٍ ونُجودَه . والمعنى : جرّبتُه وكشفتُ عن أحواله . وعلى هذا قولهم : خَبَرْتُ ضُحَى فُلانٍ ودُجاهُ ، والمعنى سِرّه و إعلانه .

٣ — ومَتَى أجِئْه فى الشّديدة مُرْمِلًا ألْقِ الذّى فى مِزْوَدِى لوعائهِ[١]

٤ — و إذا تقبَّضَتِ الجَلَائف مَالَنَا خُلِطَتْ صحيحَتُنا إلى جَرْبائهِ[٢]

يقول : ومتى زُرتُه فى شَدائد الزمان فوجدته مُنقطِعاً به لم أُحوِجْهُ إلى السّؤال وبَذْل الوجه واستحيال المَفاقر عنه ؛ لكن ألقيتُ فى وعائهِ ما كان فى مِزْوَدى . أى أرُمُّ حالَه فى السِّرّ من غير أن يلحقه خَجَل ؛ أو يمسّه تعب .

وقوله « و إذا تقبّضت الجلائف » ، يقول : و إذا تعاونت الآفاتُ والسُّكونَ على أموالنا ، وتتابعت الأزَمات معترضةً فى أحوالنا ، فقشرَتْها وحتّها ، وأثّرتْ بالشَّوَاى فيها ، خُلِطَ لنا سَلِيمِ من مالنا بالمَعيب من ماله : وذِكر الصَّحيحة والجرباء مَثَل . والمعنى : أصلَحْنا فاسد حاله بصالح حالنا ، وتحمّلنا أوزارَ الأيّامِ السيّئة عنه بما خَفَّ مِن ظُهورنا . والجلائف : جمع جَليفة ، وهى الأعوام المُجْدبة . وأصل الجَلْف القَشْر . يقال : جَلَفْتُ الدَّنَّ ، إذا قشرتَ الطِّينَ عنه .

٥ — و إذَا أتَى مِن وِجْهَةٍ بطريفةٍ لم أطَّلِعْ ممّا وراء خِبَائه

(١) التبريزى : « فى الشدائد » . التبريزى : « ويروى بوعائه ، أى مع وعائه ، ولوعائه أى إلى وعائه » . وفى هامش ل : « خ : بوعائه » . إشارة إلى أنه كذلك فى نسخة .

(٢) التبريزى : « يروى : الجلائف والخلائف . قال أبو العلاء : إذا رويت الخلائف بالخاء فهو جمع خليفة ... وإذا رويت الجلائف بالجيم فهو جمع جليفة » . وفى هامش ل : « خ : ماله » .

يروى : « من وَجْهِهِ » ، والمعنى من حيث ما تَوَجَّهَ له كاسباً للمال . وقوله « من وِجهة » وهو اسمٌ وليس بمصدر ، ولذلك سلِمَ فاؤه . والمصدر الجِهَة ، أُعِلَّ كما أُعلَّ فعلُه ، على ذلك العِدَة والزِّنة ، والوِعْدة والوِزنة إذا بنَيْتَ اسماً .

والطَّريفة ، أراد ما استُطرِف من المال واستُحدِثَ ، لكنَّ القصدَ هنا إلى ما يُسْتحسن من الأعراض ، لكونه طُرْفَةً . وقوله « لم أطَّلِعْ مما وراء خِبائه » أى لم أتعرَّضْ له تعرُّضَ المتتبِّع لحاله ، المتطلِّع على سَرائرِ أمره . ووراءَ ها هنا بمعنى خلف . ويجوز أن يكونَ المعنى : لم أَعْرِضْ نفسى عليه متعرِّفاً ما جاء به ليُشْرِكَنِى فى طُرَفه ، ويجعَلنى إسوةَ نفسِه .

٦ — وإذا اكتَسَى ثوباً جميلا لم أقُلْ يا لَيْتَ أنَّ عَلَىَّ حُسْنَ رِدائه

يصف طِيبَ نَفسِه بما ينالُه صاحبُه من الخير ، وينفرد به من زيادةِ تجمُّل ، أو ظُهورِ أثَرِ نعمة ، وقِلَّةَ حسدِه له ، وأنَّه لا يشتمل صدرُه فيه على غِلّ ، ولا ينطوى قلبُه [له[1]] على مكنونِ حقدٍ لما يَرَى به من ظُهورِ غِنًى ، واتِّساع أمر ، حتَّى يتمنَّى مكانتَه ، ويختار الاستبدادَ بما أُوتيَه ، أو مشاركتَه فيه .

وقوله « ياليت » المنادى محذوف ، وموضع ياليتَ نصبٌ على أنه مفعول لم أقُل ، كأنه قال : لم أقل يا ناسُ ، ليتَ أنَّ علىَّ رداءَه الحسَنَ .

٧٣٩

وقال حَسَّانُ بن حَنْظَلَة[2] :

١ — تِلكَ ابنةُ العَدَوِىِّ قالَتْ باطِلًا أَزْرَى بقَومِكَ قِلَّةُ الأموالِ

٢ — إنّا لَعَمْرُ أبيكِ يَحْمَدُ ضَيْفُنا ويَسُود مُقْتِرُنا على الإقلال

(١) هذه من ل .

(٢) التبريزى : « حسان بن حنظلة بن أبى رهم بن حسان بن حية بن شعبة الطائى » .

انتصب « باطلا » على أنه مفعول قالت . ومن شرط القول أن يحكى ما بعدَه إذا كان جملة ، تقول : قال زيدٌ عمرٌو خارج . فإنْ كان ما بعده معنى جملةٍ ولم يكن جملةً كاملة انتصبَ على أن يكون مفعولَه ، كقولك قال زيد حقًّا وقال كِذْبا وصِدقا . وموضع قوله « أزرَى بقومِكَ قلّةُ الأموال » نصبٌ على البدل من قوله باطلا . و يجوز أن ينتصب باطلًا على أنّه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنّه قال قالت قولًا باطلا ، ويكون أزرَى بقومك فى موضع المفعول لقالتْ وقد حكاه لـكونِه جملة . وقوله « قالت باطلا » رَفْعٌ على أنّه خبر المبتدإ ، وابنة العدَوىّ ارتفعَ على أنّه عطف البيانِ لتلك .

ومعنى البيت : قالت ابنة العَدَوىّ زُورًا من القول و باطلًا : لقـد قَصَّر بقومك فقرُهم وقلّةُ مالِهم ، و إعراضُ الدُّنيا عنهم ! فأجبتها بقولى : إنّا لعمر أبيكِ يحمَدُنا الضَّيفُ ، و يشكرُنا الزّائر والمجتاز . والمعنى : ليس الاعتبارُ بكثرة المالِ واتّساع الحال ، فإنّا وحقِّ أبيكِ يحمَدُنا ضيوفُنا إذا نزَلُوا بنا ، فينصرفون مادِحِينَ لنا ، وترى مُقِلّنا ينال السِّيادةَ على إقلاله ، ولا يؤخِّره ذلك عن رتبة أمثاله .
وحذف من قوله « إنّا لعمر أبيك » فأجبتها أو قلتُ لها . ومثل هذا يُحذَف فى الكلام كثيراً . على ذلك قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وأمّا الّذِين اسودّتْ وُجُوهُهُمْ أكفَرتُم بَعْدَ إيمانكم ﴾ ، أى يقال لهم : أكفرتُم بعد إيمانكم .

٣ — غَضِبَتْ عَلَىّ أنِ اتَّصَلْتُ بِطَيِّئٍ وأنا امرؤٌ مِنْ طَيِّئِ الأجْبالِ

٤ — وأنا امرُؤٌ مِنْ آلِ حَيَّةَ مَنصِبِى وبنو جُوَيْنٍ ، فَاسأَلِى ، أَخْوالِى

يقول : أنـكرَتْ منّى هذه المرأةُ انتسابى إلى طيِّئ ، وتأثُّلى فيهم ، واعتزائى إليهم ، وتغضَّبَتْ لتَجرُّنِى إلى تميم وتُحَوّلَنى فيهم ، وذلك بعيدٌ لا يقع فى الوَهْم كونُه ، ولا يُستَجاز حصولُه ، وذلك أنّى رجلٌ من طيِّئ خرجتُ ، وفى عُشّها

درجْت ، وعلى طرائقهم وشِيَمِهم تخرَّجت ، إذْ كانوا الأصلَ الذى منه تفرَّعت ، وعليهم إذا ذُكِرَت المناسبُ نَسَبِى أُدَرِّت . وقوله « وأنا امرُؤٌ مِن آلِ حَيَّةَ مَنصِبى » ، ذكر طرفَيْه فزعَمَ أنَّ آلَ حيَّةَ عمومتُه التى تُؤْوِيه ، وأنَّ بنى جُوَيْن خُؤولته التى تُدْنيه ، والقَصد إلى مُراغمة تلكَ وتشهير نفسه بما تُنكرُه منه . وقوله « من طيِّئ الأجبال » يعنى سَلْمَى وأجأ . وهذه الإضافة على طريق التَّخصيص والتَّبيين ، وذلك لأنَّ طيِّئًا فرقتان : فرقةٌ تنزِل السُّفْلَ[1] من جبالهم ، وفرقةٌ تنزِل العُلْو . وقوله « منصبى » يجوز أن يكون مبتدأً ومِن آل حيَّةَ خبره ، والجملة فى موضع الصفة لامرئ ، ويجوز أن يكون « من آل حيّة » فى موضع الصِّفة ، ومنصبى فى موضع الرَّفع على البدل من امرُؤٌ ، كأنَّه قال : أنا منصبى من آل حيَّة . وقوله « فاسألى » [اعتراضٌ[2]] ، وقد توسط المبتدأ والخبر ، ومفعوله محذوف .

٥ — وإذا دَعَوْتَ بَنِى جَدِيلَةَ جاءنِى مُرْدٌ على جُـرْدِ المُتُونِ طِوَالِ

٦ — أحلامُنا تَزِنُ الجِبالَ رَزانَةً ويَزيدُ جاهِلُنا على الجُهَّـــالِ

بنو جَدِيلة : من طيِّئ . أراد أن يبيِّن أنَّه كما يعتزى إليهم يَقبلونه ويلتحقون بكونه منهم وينصرونه ؛ فمتى استغاثَ بهم واستعانَهم على دهره أو عدوِّه أعانَه رجالٌ مُرْدٌ ، على خَيلٍ جُرْدٍ ، واحتضنوا له واصغَوا مِن أعدائه .

وقوله « أحلامنا تَزِنُ الجبال » ، مَدَحَ نفسَه وقبيلتَه ، والمراد أنَّهم مِن الوَقار والسُّكون والرَّزانة والهُدُوّ فى المنزِل الأعلى ، والمكان الأقصى ، لايتحلحلُون للنَّوائب ، ولا يَتَضعضَعُون للشَّدائد . هذا مالم يُحرَجُوا أو يُحْوَجُوا ، فإن استُجهِلوا من بَعْدُ ، واستُجِرُّوا إلى الشَّرّ ، وُجِدَ جاهلُهم يَزيد على الجُهَّال

(١) فى الأصل : « الشعب » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٢) التكملة من ل .

قهراً وتأبِّياً ، واشتطاطاً فى الحكم وتصعُّباً . وإنما افتخر بأنَّ حِلمهم موجودٌ ثابت مالم يُسَامُوا خَسْفاً ، فإنْ عُدِلَ بهم عن طريق النَّصَفَة ، وأُرُوا فى معاملاتهم عَسْفاً ، كان جهلُهم مُعَدًّا ، وزائداً على كلٍّ ما يُقَدَّر فيُعَدّ عدًّا .

وقوله « تَزِنُ الجبالَ رزانةً » الوزنُ : مثقالُ كلِّ شىء ، ثمَّ كَثُر حتَّى قيل : [هو[1]] راجح الوَزْن ، أى راجح الرَّأى والعقل ؛ وهو يَزِن كذا ، أى هو على وَزْنه ؛ وهو أوزَنُ قومِه ، أى هو أرجَحُهم وأوْجَهُهم .

٧٤٠

وقال إياس بن الأَرَتّ[2] :

١ — إنِّى لقَوَّالٌ لِعافٍ مَرْحَبًا ... ولِلطَّالِبِ المعروفِ إنَّكَ وَاجِدُهْ[3]

٢ — وَإنِّى لِمِمَّا أبسُطُ الكَفَّ بالنَّدَى ... إذَا شَنِجَتْ كفُّ البَخِيلِ وسَاعِدُهْ[4]

قوله « عافٍ » أصله عافُونى[5] ، لكن الواو والياء إذا اجتمعا فأيُّهما سبقَ الآخَرَ بالسُّكون يُقلَبُ الواو ياء ، ثم يدغم الأوّل فى الثانى ، وكُسِر الفاء لمجاورته للياء . وانتصب « مرحبا » على المصدر ، وقد وقع وهو يَجرِى مجرى الجُمَل لمكان العامِل فيه معه مَوقِعَ المفعول من قوله قَوَّال . وانعطف عليه قوله « وللطالب المعروف إنك واجِدُه » كأنَّه قال : وقوّالٌ للطَّالب المعروف إنَّك واجدُه . فقوله إنَّك واجِدُه واقعٌ فى مثل قوله مَرْحبا . والمعنى أنَّ العُفاةَ وطُلَّاب العُرْف إذا نَزَلُوا بى تلقَّيتُهم بالتَّرحيب والإكرام ، وتَلطيف القَول فى الإنزال ، وأقول : إنَّكُم تَجِدُون ما تطلبون ، لا مَنْعَ ولا حِرْمان ، ولا دِفاعَ ولا مِطال ؛ لأنِّى إذا

(١) التكملة من ل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ١٠٢٨ .

(٣) كذا بالجزم فى النسختين . وعند التبريزى : « وإنى لقوال » .

(٤) فى حاشية ل : « خ : لمن » .

(٥) هذا التقدير قبل حذف النون للإضافة . وعند التبريزى : « عافوى » بالحذف .

تقبَّضَت أكفُّ البُخَلاء فلم تنبَسِط ، وقصُرت سواعدُم عن الامتداد فى البَذْل فلم تَطُلْ ، تندَّيْتُ وعَلَتْ على أكفِّ السُّؤّال كفِّى فبُسِطَت ، لأنَّ معروفى دارٌ وخيرى مبْذُول . وقوله : « لِمَا أبسُط الكفَّ » أى لَمِن الأمر أنِّى أبْسُطُ الكفَّ بالنَّدَى ، فـ « أبْسُطُ » شَرَحَ المبهمَ بلفظة ما . و « إذا شَنِجَت » ظرفٌ لأبسُط ، ويشير إلى زمان السُّوء ، وشُمول المَحْل ، وظُهور البُخْل .

٣ — لَعَمْرُكَ ما تَدْرِى أُمامَةُ أنَّهـا   ثِنًى مِنْ خَيَالٍ ما أَزالُ أُعاوِدُهْ

٤ — فشقَّتْ على صَحْبِى وَعَنَّتْ رِكابَنِى   وَرَدَّت علىَّ اللَّيلَ قِرْناً أُكابِدُهْ[١]

لعمرك : مبتدأ وخبره محذوف ، وقد مضى القول فيه فيما تقدّم . فيقول : وبقائك ، ما تعلم هذه المرأةُ أنّ خيالَها يأتينى ثِنًى ، أى مرَّةً بعد أخرى . وفى الحديث : « لا ثِنًى فى الصَّدقة » ، أى لا تؤخذ فى السنة مرتين . وقوله « ما أزال أعاوده » يريد أنّى ممتحَنٌ بمجيئها ، لأنّها تُراجِعُنى فتصرِفُنى عن أسبابى ، وتَعُوقنى عن مُهِمَّاتى . والمعنى أنّها غافلةٌ عما أُكابِدُه من خيالها فى المنام ، ومِنْ مُلازَمَةِ ذِكرها لى عنـد الانتباه ، لأنّها لا تَجِدُ مِثْلَ وَجدِى ، فلا الذِّكرُ يهيِّج الشَّوق ، ولا الفِكر يجدِّد الطَّيف . وهـذا الـكلامُ تَشَكٍّ منه وتعتُّبٌ على صاحبته ، يدلُّ عليه قوله « فَشَقَّت على صَحْبِى » ، يعنى الخيال ؛ وذاكَ لأنّه لمّا سَهِرَ بعَثَ أصحابَه على النُّهوض مَعَهُ[٢] والانبعاثِ فى السَّير مساعدِينَ له ، فهذا معنى الشَّقَّة عليه . وقوله « وعنَّت ركابى » جمع رَكُوبة ، وهى تجرى مَجرى الأسماء فى انفرادِها عن الموصوف ، لا يقال ناقة رَكُوبة . والمعنى : أتعَبْتُ رواحِلِى ، لأنِّى أزعَجْتُها للسَّير ، وبعثْتُها من القَرار ، وحُلْت بينها وبين الرَّاحة . وقوله « وَرَدَّتْ على اللَّيلَ قِرناً أُكابِده » أى جعلتنى ممتطِياً لِلَّيل ،

(١) التبريزى : « فشقت على ركبى » .
(٢) فى الأصل : « معهم » ، صوابه فى ل .

ومُتَخِذاً قِرْناً لى أزاوِلُه وأُجاذِبه ، أى أشاقُّه وأُناصِبُه . وأصله من الكَبَد ، فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ ، أى فى شِدَّة ومشاقَّة . وقال الخليل : يقال كابدتْ ظلمةَ الليل بِكابِدٍ شديد ، أى مُكابَدَة شديدة . وكلُّ هذا الكلام تبجُّح منه عندَها بأنَّها تَملِكُه على غَفْلتِها عنه ، وانفرادِهِ بالبثِّ فيها ، فخَيالُها يصرِّفه التَّصريفَ الذى وصف . وانتصب « قرنا » على الحال .

٧٤١

وقال آخر :

١ — أَثْنِي عَلَيَّ بما لا تُكَذِّبِينَ به يا بَكْرُ أَيُّ فَتًى للضَّيْفِ والجَارِ[1]

٢ — إنِّي أُجاوِرُ مَا جاوَرْتُ في حَسَبِي ولا أُفارِقُ إلاَّ طَيِّبَ الدَّارِ

قوله « بما لا تُكَذِّبِينَ به » أى لا تُصادَفين بذكره كاذبةً . يقال : خَبَّرَني فلانٌ فأكْذَبْتُه ، أى وجدته كاذبا . والمعنى : ليكن ثناؤُكِ علىَّ حقًّا ، وبما لا يَستنكِرُه سامعُه ولا يستنكره مُخبَرُه . ثم علَّمها فقال : قُولِي يا بَكْرُ ، أىَّ فتى كنتَ للجار إذا استجار ، والضَّيف إذا استضافَ .

وقوله « إنى أجاورُ مَا جاوَرْتُ فى حسبى » ، يريدُ أنَّ مَن صاحَبْتُه مجاورًا له يَجِدُنى حسيباً فى فَعَالى ، كريماً عند مَقَالِى . هذا مدَّةَ الجوار ، ثم إنْ فارقتُه فارقتُه والدَّار تَنطِقُ بالثَّناء علىَّ ، فأخبارى تُستطاب فى السَّماع إذا غِبتُ ، كما أنَّ أخلاقى تُستَماح إذا شَهِدْت . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر :

إذَا كُنتَ فى دَارٍ فحاوَلْتَ تَرْكَهَا فَدَعْهَا وفيها إن رَجَعْتَ مَعَادُ

وقوله «فى حَسَبِي» أى معى حسبى ، فموضعه نصبٌ على الحال . وإذا جاورَ ومعه حسَبُه منَعَه ممَّا لا يَحسُن . ألا ترى قولَه تعالى فى صِفَة المؤمنين : ﴿ وإذا

(١) التبريزى : « يا طيب أى فتى » ، ثم قال : « ويروى : يا بكر » .

مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ ، أى الكرمُ مَنَعَهم من التَّعريج على اللَّغو . ويقال : جاءنا فلانٌ فى دِرْعٍ ، أى عليه[1] دِرْعٌ ، والعامل فى موضع « فى حسبى » أجاور ، وكذلك قوله « إلاَّ طيِّبَ الدار » انتصب على الحال ، والعامل فيه لا أفارق . وقوله « أيُّ فتًى » مبتدأ وخبره مضمر ، كأنَّه قال : أيُّ فتى أنت ؟ وقد جعل الطيِّبَ كنايةً عن الكريم ؛ على ذلك قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا ﴾ ، أى كَرُمتم .

٧٤٢

وقال آخر :

١ — كَمْ مِنْ لئيمٍ رَأَينا كانَ ذَا إبلٍ فأصبَحَ اليومَ لامُعطٍ ولا قارِ[2]

٢ — ولو يَكُونُ على الحُدَّادِ يَمْلِكُه لم يَسْقِ ذا غُلَّةٍ من مائه الجاري[3]

كم موضعه نصبٌ على المفعول من رأينا . يريد : رأينا كثيراً من اللِّئام يملكون نفائسَ الأموالِ وكِرامَها ، ثمَّ ماتوا عنها أو أُزِيلَتْ نِعَمُهم وحِيلَ بينهم وبَينَها ، فصاروا مِنْ بَعْدُ لا هُمْ مُعطُونَ ولا قارُونَ ، أى عادوا وقد تغيَّرَتْ حالُهم ، فلا يُرْجَى ذلك من جهتهم . وقوله « فأصبح اليومَ » و « كان ذا إبل » ، كلُّ ذلك مردودٌ على لفظ لئيم ، وإن كان من حَيْثُ المعنى يُفيد الكثرة .

---

(١) ل : « أى وعليه » .

(٢) ابن جنى فى التنبيه : « لك فى معط وقار أمران : إن شئت كانا فى موضع نصب ، أراد لا معطيا ولا قاريا ، إلا أنه أجرى المنصوب مجرى المجرور والمرفوع تشبيهاً للياء بالألف كقوله :

* يا دارَ هند عفت إلا أثافيها *

وقوله : * كأن أيديهن بالقاع القرق *

وقوله : سوى مساحيهن تقطيط الحقق تقليل ما قارعن من سمر الطرق

وإن شئت كان على : فأصبح اليوم لاهو معط ولا قار ، كقولهم فى الصفة :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم »

(٣) الحداد بضم الحاء المهملة ، ويروى أيضاً بضم الجيم المعجمة كما ذكر ياقوت . وأنشد البيت .

وقوله « ولو يكون على الحُدَّاد » ، يريد : ولو وُلِّيَ فَيْضَ الحُدَّاد ، وهو اسم بحرٍ ، ممتلكاً له أيَّامَ غِناهُ لَمَا بَرَّدَ غليلَ رجلٍ حَرَّانَ ، ولا سقاهُ ماءً لِفِيه ، لبُخْلِه وقَسوةِ قَلْبه . ومعنى « على الحُدَّاد » ، أى متوليًا له ومدبّراً أمره ، يقال : مَنْ عليكم ؟ أى مَن يأمرُ عليكم ويليكم . وإذا كان كذلك فقوله على الحدّاد يتمّ الكلامُ به ، لأنّه خبر يكون ، ويملكه فى موضع النّصب على الحال . وقوله « لا مُعْطٍ » مُعْطٍ فى موضع خبر المبتدأ كأنّه قال : لا هو مُعْطٍ . والكلامُ بعثٌ على البَذْل والسَّخاء ، وأنّ المالَ فى الدنيا بعَرَضِ الحوادث مُلْقًى ، وعلى طريق النّوائب ، فلا يَبقَى لمالِكه ، كما أنّ مالكَه لا يبقى له ، فما يقدّمه فى اجتلابِ شُكرٍ واكتساب أجْرٍ هو الباقى لهُ ، دونَ ما يخلّفه فيقتسمه الوُرّاثُ بعدَه فائزينَ به ، وذامّين له .

٧٤٣

وقال حسّانُ بن ثابت [١] :

١ — المَالُ يَغْشَى رِجالًا لا طَبَاخَ لَهُمْ ... كالسَّيْل يَغْشَى أُصُولَ الدِّنْدِنِ البالى [٢]

٢ — أَصُونُ عِرْضِى بمَالى لا أُدنِّسُهُ ... لا بارَكَ اللهُ بَعْدَ العِرْضِ فى المالِ

٣ — أَحْتَالُ للمالِ إنْ أَوْدَى فأَجْمَعُه ... ولستُ للعِرضِ إنْ أَوْدَى بمحتالِ

قوله « لا طَبَاخَ لهم » ، أى لا خير عندهم . ويقال : هذا لحمٌ لا طَبَاخَ له ،

(١) حسان بن ثابت بن المنذر الأنصارى الصحابى ، أحد مخضرمى الجاهلية والإسلام ، قالوا : عاش فى الجاهلية ستين وفى الإسلام مثلها ، ومات فى خلافة معاوية ، وعمى فى آخر عمره . وهو أحد شعراء الرسول والمنافحين عن الإسلام . وترجمته فى كتب الصحابة والأغانى (٤ : ٢ — ١٧) وابن سلام ٥٢ — ٥٣ والخزانة (١ : ١٠٨ — ١١١) وغيرها .

(٢) التبريزى : « لا طباخ بهم » ، وطباخ ، ضبطت بفتح الطاء فى النسختين . وفى اللسان : « ووجد بخط الأزهرى : طباخ بضم الطاء . ووجد بخط الإيادى : طباخ بفتح الطاء . على أن الشعر روى أيضا لحية بن خلف الطائى يخاطب امرأة من بنى شمجى بن جرم ، كما فى اللسان . ولكن القصيدة لحسان بن ثابت طويلة فى ديوانه ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

أى لا دَسَمَ له . وشابٌ مُطَبَّخٌ ، أملأُ ما يكون شباباً وأرواه . وطبَّخَ الغلامُ ، إذا تَرعرَعَ وعَمِل[(١)] . والدِّنْدِن : المسوَدُّ من الكلإ لِقِدَمِه ويُبْسِه . والمعنى أنَّ المَرْء لا يُؤتَى الغِنَى لفضْلٍ فيه وغَناء لديه ، وإنما ذلك لمقاديرَ قُدِّرت على[(٢)] حَسَب ما عرَفَه الله تعالى جَدُّه ، وهو الذى يُغْنِى ويُقْنِى مِنْ مَصالح خلقه . وإذا كانَ كذلك فقد يتَّفق حصولُ المال عندَ مَن لا يستحقُّه بفضل أُوتِيَهُ ، أو ذِمَامٍ وَجَبَ له ، بل يكون كالسَّيل يمدُّ من المَذَانب والتِّلاع حتَّى يقفَ حاصلًا فى أُصول يابِسِ الكلإ ومُسْوَدِّه ، فى أنَّه لا يُنتَفَع به ولا يَرُدُّ خيراً على جامِعِه ، كما لا ينتفِعُ الدِّنْدِنُ البالى بما يَغشَى أصولَه من ماء المَطَر . وفى مثل هذا قولُ الرَّاعى :

وخَادَعَ المجْدَ أقوامٌ لهم وَرَقٌ ... رَاحَ العِضاهُ به والعِرْقُ مَدْخُولُ[(٣)]

وقد أخذ أبو تمامٍ هذا المعنى فقال وأحسَنَ :

لا تُنْكِرِى عَطَلَ الكَريمِ مِنَ الغِنَى ... فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلمَكانِ العالِى

وقوله « أصون عِرْضى بمالى » ، يريد أنِّى أجعلُ المالَ واقيةً لحسبِى ونَسَبِى ، فأصونُه ولا أُدنِّسه بتثميره وتوفيره ، وإن تقلَّدتُ العارَ له واكتسبتُ الإثمَ الفاحشَ فيه ، فلا بارَكَ الله فى المالِ بعد النَّفس ، لأنَّ المال يُحتَاج إليه لتنتفِعَ به النَّفس ، ولتتنزَّهَ عن المعايب والمَقاذر بإنفاقه . فأما قوله « بارَكَ » فأصله من اللُّزوم ، ومنه بَرَكَ البعيرُ ، إذا لَزِم مكانَه . فمعنى بارَكَ الله فيه : بقَّاه الله . وعلى ذلك قولُ المسلمين : تبارك الله : أى بَقِىَ ودامَ ، فهو تفاعَلَ فى معنى فَعَلَ لا تكلُّف فيه ، تعالى الله عن ذلك .

---

(١) كذا فى النسختين . وفى اللسان : « وعقل » .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وعلى » .
(٣) انظر البيت ورواياته فى اللسان ومقاييس اللغة (روح) .

وقوله « أحتالُ للمال إنْ أوْدَى فأجمعه » ، يريد أنَّ المالَ إذا استهلكه مُنفقُه أمكنَ الاعتياضُ منه ، ونفذَ الاحتيالُ فى جَمْعِهِ وتثميره ، وإذا هلَكَ العِرضُ فلا طريقَ إلى ردِّه إلى ما كان عليه ، ولا استطاعةَ فى تنقيَته مِنْ دَرَن العار وقد جُعِلَ وقايةً للمال .

٧٤٤

وقال عبد العزيز بن زُرَارة الكِلابى[1] :

١ — دَعَوْتُ إليها فِتيَةً بأكُفِّهِمْ ... من الجَزرِ فى بَرْدِ الشِّتاء كُلُومُ

٢ — إذا ما اشتهَوْا منها شِوَاءً سَعَى لَهُمْ ... به هِــذْرِيانٌ للكِرام خَدُومُ[2]

٣ — فإلَّا أكُنْ عَيْنَ الجوادِ فإنَّنى ... على الزَّادِ فى الظَّلْماء غَــيرُ شَتِيمِ

٤ — وإلَّا أكُنْ عَيْنَ الشُّجاع فإنَّنى ... أرُدُّ سِنَان الرُّمحِ غَــيْرَ سَلِيمِ

« إليها » ، يعنى إلى راحلته . وجعل الفتية مَكلومِى الأكفِّ عِندَما يتولَّونه من قِسمة الجَزُور وتَفصِيل أوصالها ، لأنَّهم لا يهتدون إلى المفاصل ، ولم يُزاولوا نحرَ الإبل وجَزْرَها قبل ذلك . فيقول : جمعْتُ على قِسمةِ ناقتى فتياناً قد تكلَّفوا ما دعوتُهم إليه تكرُّماً ، وإنْ لم يكنْ ذلك مِن شأنهم ، ولا صار منهم ببالٍ ، لكنَّ شدَّةَ الزَّمانِ ، وتناهِيَ الضُّرِّ فى الجِيران وطوائف النَّاس فَرَضَ على أمثالِهم تَجَشُّمَ فِعله لهم ، وحُسْنَ تولِّيه فيهم .

---

(١) هو أحد أشراف العرب وشعرائهم ، روى له الجاحظ شعراً فى الحيوان (٣ : ٨٤) والبيان (٤ : ٥٤) ، وقص خبراً له مع معاوية فى البيان (٢ : ٧٥) ، كما أنشد لبعض الشعراء مديحاً فيه ، فى الحيوان (٦ : ٣٢٩) . وذكر أبو الفرج فى الأغانى (١ : ٦٨) أنه الذى تكفل بدفن توبة بن الحمير فى أيام مروان بن الحكم .

(٢) إلى هنا تنتهى المقطوعة عند التبريزى ، وفصل بين هذين البيتين وبين تاليهما بقوله : « وقال آخر » . لكن المرزوقى جعلهما جميعاً مقطوعة واحدة على ما فى البيتين الأخيرين من إقواء ظاهر .

وقوله « إذا ما اشتَهَوْا منها شِوَاءً » ، يريد : وإذا انبسَطُوا للتَّناوُل وتواضَعُوا وأظهَرُوا في المعاوَنة اهتزازَهم فنَشِطوا ، سَعَى في اتّخاذ الشِّواء لهم وتَهيِئَته رجلٌ خفيفُ السّعْى ، كثيرُ الألطاف ، حسَنُ الخِدمةِ للكرام ، عارفٌ برُسومهم في اكتساب المكْرُمات . ويعنى به نفسَه .

وقوله : « فإلّا أكُنْ عَيْنَ الجَوَاد » ، يريد إنْ لم أكنْ كُلَّ الجَوَادِ والجامعَ لأسبابِ السَّخَاء ، فإنّى لا أُشْتَمُ في الظّلْماء بعلّة الزاد وحَبْسِه عن مريده ؛ وإنْ لم أكُنْ حَقَّ الشُّجاع ، والتّامَّ الآلاتِ في المِصَاع[1] ، فإنّى أُجِرُّ الرُّمحَ في المطعونِ وأرُدُّ سِنانَه كسيرا . وليس الجودُ ولا الشّجاعةُ إلّا ما ذكَرَه ، ولكنّه أراد أن تكون دعواه قاصرةً عن الغاية المرموقة ، ليكونَ أحسنَ في الأُحدوثة ، وأدخَلَ في العقل ، وأقربَ في الذِّكْر . وقد مَرَّ القولُ في مثله في باب الحماسة أشبَعَ من هذا .

والمِذْرِيَان والهَيْذَارُ : الكثير الكلام فيما يُحمد . والهَذِرُ والمِهْذَارُ : الكثير الكلامِ في كلِّ باب .

٧٤٥

وقال آخر :

١ — وَسِّعْ بِمَدِّكَ مَاءَ اللَّحْمِ تَقْسِمُهُ ... وأكْثِرِ الشَّوْبَ إنْ لم يَكْثُرِ اللّبَنُ

٢ — وسِّعْ به وتَلَفَّتْ حَوْلَ حاضِرِهِ ... إنَّ الكَرِيمَ الذى لم يُخْلِهِ الفِطَنُ

قوله « بمَدِّك » مصدر مددت القِدرَ ، إذا أكثرتَ مرقَها . ويقال : مددتُ الدَّواةَ أيضاً ، إذا أكثَرْتَ ماءها . وأمدَدْتُ الجيشَ ، إذا أتبعْتَه بمَددٍ يكثِّرُهُ ويقوّيه . فيقول : كثّر مَرَقَ قِدْرِك ليتّسع لغاشيتها ، وأكثِرْ خَلْطَ اللّبن إن لم يكثر في نفسه ولم يتّسعْ لوُرّاده . والشَّوْبُ : مصدر شاب يَشُوبُ ، إذا خَلَطَ وهذا مِثلُ

(١) المصاع والماصعة : المقاتلة والمجالدة بالسيوف .

ما سارَ به المَثَل ، وهو «مِثْلُ الماء خَيْرٌ من الماء» . وأصله أنّ رجلًا استسقى غَيْرَه لبناً ، فقال : إنّه مثل الماء ، أي فضلةٌ بقيَتْ من لَبَنٍ مَشُوب . فقال المستسقِي : مثلُ الماء خيرٌ من الماء . يريد أنّ المَشُوبَ من اللّبن خيرٌ من الماء القَرَاح . ومثله قولُ الآخر :

نَمُدُّ لهمْ بالماء مِنْ غير هَوْنِهِم ... ولكنْ إذا ما ضاقَ شَىءٌ يُوَسَّعُ

وقوله « وسِّعْ به وتلفَّتْ حولَ حاضرِه » يريد كَثِّره والتفِتْ فيمن حَولَكَ مِن جارٍ ومُحتاج ، ولا تنتظرْ بما تفرِّقه السُّؤالَ والطَّلَبَ ، ولكنْ ليكنْ مِن نفسِك باعثٌ على تمييز المحتاج ، والنَّظرِ له ، والإفضال عليه ؛ لأنّ الكريمَ هو الذى لا يُخلِّيه فِطَنُه ، والتفاتُه ونَظَرُه . واللُّؤم : سوء التَّغافل .

وهذا كما قال الآخر :

إنّ الكريمَ مَنْ تَلفَّتَ حوْلَهُ ... وإنّ اللئيمَ دائمُ الطَّرفِ أقْوَدُ[1]

٧٤٦

وقال آخر[2] :

١ — إذا هِيَ لم تَمنعْ بِرِسْلٍ لُحُومَها ... من السَّيْفِ لاقَتْ حَدَّهُ وهو قاطِعُ

٢ — نُدافِعُ عَنْ أحسابِنَا بلحومِها ... وألبانِها إنّ الكَرِيمَ يُدافِعُ

٣ — ومَنْ يقترفْ خُلْقاً سِوَى خُلْقِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وتَرجِعْهُ إليه الرَّوَاجِعُ

قوله « إذا هي لم تمنع » ، يعنى الإبل . فيقول : إذا لم يكن فى النُّوق لبَنٌ تَحمى نفوسَها به من العَقْر عند نُزول الضِّيفان لاقت حَدَّ السَّيف وهو يَجزُرها ويُقطِّعها . ومثله قول الآخر :

وإنْ تعتذِرْ بالمَحْلِ من ذى ضُروعها ... على الضّيفِ يَجْرَحْ فى عَراقيبها نَصْلِى

---

(١) أنشده فى اللسان (قود) شاهدا على أن الأقود الذى إذا أقبل على الشىء بوجهه لم يكد يصرف وجهه عنه .

(٢) هو المخضع القيسى ، من عبد القيس . معجم المرزبانى ٤٧٥ .

وأبلغُ منهما قولُ الآخر[١] :

فتًى لا يَمُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِى ذِمامَه إذا نَزَلَ الأضيافُ أو تُنْحَرَ الجُزْرُ

وقوله « نُدافِع عن أحسابنا بلحومها » ، يريد بإطعام لحومها ، وسَقْىِ ألبانها لأنّ عادتَنا تَفرِض علينا المدافعة عن الكَرَم ، والمحاماةَ على الشَّرَف ، وذلك خُلُقنا الذى نَنْشأ عليه ، ونَنْبُت فيه ، ومَنْ يَتَعاطَ خُلقاً مُستَجَدًّا مخالِفاً لما أَلِفَه وتعوَّدَه يفارِقْه ويَرْجِع إليه الخُلُقُ الأوّل . ومثله قولُ الآخر[٢] :

كلُّ امرئٍ راجعٌ يوماً لشِيمتِهِ وإنْ تَخلّقَ أخلاقاً إلى حِينِ

والقَرْف يكون من الذّنب والجُرْم ، يقال : هو يَقْتَرِف ذنباً ، أى يأتيه ويفعله ، ويقال أيضًا : هو يَقترِفُ لعِياله ، أى يكتسب . واقترف حسَنةً ، أى اكتسبَها . وقوله : « وتَرجِعُه إلىَّ الرواجع » ، يقال : رجَع فلانٌ مِنْ كذا رُجوعًا ، ورجَعْتُهُ أنا رَجْعاً ، ومثله صَدّ وصددتُه ، وكَسَبَ وكَسَبْتُه .

٧٤٧

وقال مُضَرِّسُ بنُ رِبْعِيّ[٣] :

١— وإنّى لأَدْعُو الضَّيفَ بالضَّوْءِ بَعْدَما كَسَا الأرضَ نَضّاحُ الجَلِيدِ وجَامِدُه

٢— لأُكْرِمَهُ إنّ الكَرَامةَ حَقُّهُ ومِثْلانِ عِنْدِى قُرْبُهُ وتباعُدُهْ

٣— أُبِيتُ أُعَشِّيهِ السَّدِيفَ وإنّنى بِما قَالَ حَتَّى يَتْرُكَ الحَىَّ حَامِدُهْ[٤]

يقول : إنى أدعُو الضَّيفَ بإيقاد النّار وإعلاء ضوئها ، عند اشتداد البَرْد ،

(١) هو الأبيرد اليربوعى . انظر ص ١٠٧٩ .

(٢) هو ذو الإصبع العدوانى . البيت ١٠ من المفضلية ٣١ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسة ٤٤١ ص ١١٨٣ .

(٤) التبريزى : « بما نال » ، وفى حاشية ل : « خ : بما نال » ، إشارة إلى هذه الرواية فى إحدى النسخ .

واكتساء الأرض من جامد الماء ، ومنتضِح الجليد ، أى نَدَاه الذى يَبَّسه البرد ، لأقضىَ حقَّه بإكرامه وإلطافه . والنَّضْحُ كالنَّضخ ، إلَّا أن النَّضْح له أثر . والعين تنضح بالماء ، وكذلك الكُوزُ . والنَّضيحُ : العَرَق ، لأنَّ جِرْم الإنسان يَنضَح به . وسمَّى أبو ذؤيبٍ الهُذَلىُّ ساقىَ النَّخْل نَضَّاحا ، كما سُمِّى البعيرُ الذى يُستَقى عليه الماء : النَّاضح ، فقال :

. . . . كما يَسقِى الجذوعَ خِلالَ الدُّور نَضَّاحُ[1]

وقوله « ومِثْلانِ عندى قربُهُ وتَباعُده » ، يريد فى النَّسب . أى يتساوَى عندى تمازُجُه وتَواشُجه ، وتنائيهِ وتَبايُنُه ؛ لأنَّ الواجبَ له علىَّ أقيمُه لا أُحمَّد بذلك عليه ، لأنَّ إكرامَ الضَّيف فرضٌ على ذِى المروءة ، ومُسقِطُ الفَرْض عَنْ نفسه لا يستحقُّ من الناس اعتداداً .

وقوله « أبيتُ أعشِّيهِ السَّديفَ » فالسَّديف : شَحْم السَّنام . والمراد : أبقَى ليلتى مُطعِماً له خيارَ ما عِندى ويَحضُرُنى من شُطَب السَّنام ، ثم إن اقترَحَ علىَّ شيئاً أعدُّه نعمةً تتجدَّد له يستوجب منِّى حَمْـدًا وشكراً عليها ، وذلك له طُولَ مُقَامِهِ إلى أنْ يُفارِقَنى ، ويَترُكَ عشيرتى .

٧٤٨

وقال حِماسُ بن ثامِلٍ :

١ — ومُسْتَنْبِحٍ فى لُجِّ لَيلٍ دَعَوْتُه بِمشْبُوبةٍ فى رَأس صَمْـدٍ مقابِلِ

٢ — فقُلتُ له أقْبِلْ فإنَّكَ راشدٌ وإنَّ عَلَى النَّار النَّدَى وابنَ ثامِلِ[2]

(١) صدره فى ديوان الهذليين (١ : ٤٦) :

* هبطن بطن رهاط واعتصبن كما *

(٢) التبريزى : « وقلت له » .

المشبوبة : النَّار ، وتوسعوا فقيل : شَبَبْتُ الحرب ، كما قيل شَبَبْتُ النَّار . ولُجُّ اللَّيل : مُعظَم ظُلمته ، وكذلك لُجُّ البحر . والصَّمْدُ : الجَبَل أو الأرضُ المرتفِعة . جعل نارَه فى يَفاعٍ مُقابِلٍ لسَمْتِ الضَّيف ، فدَعاهُ بها لما أعلاها ورَفَعها حتَّى اهتَدَى لها . وهذا مِثْلُ ما قد شرَحْتُه .

وقوله « فقلتُ له أقبل فإنَّكَ راشد » أى قوَّيْتُ نَفسه فى النُّزول ، وأرَيْتُه استبشارى له وانتظارى إيَّاه . ألَا تَرَى أنَّه قال : « وإنَّ على النَّار النَّدَى وابن مامِل » . ولولا اشتهارُه بالطَّوْل والإفضال لما قال ذلك . وهذا مثل قول الأعشى :

* وباتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلِّقُ[1] *

٧٤٩

وقال النَّمَرِىُّ[2] ، ويقال إنَّها لرجلٍ من باهلة :

١ — وَدَاعٍ دَعَا بَعْدَ الهُدُوِّ كأنَّما يُقَاتِلُ أهــوالَ السُّرَى وتُقَاتِلُهْ

٢ — دَعَا يائساً شِبْهَ الجُنُونِ وما بِهِ جنونٌ ولـكِنْ كَيْدُ أمْرٍ يُحاوِلُه

يَعنِى بالدَّاعى مستنبِحاً طلبَ بَعْدَ أن مَضَى من اللَّيــل قطعةٌ مَن يُغيثُه ويَستنقِذُه من هَول الليل ، وبَلاءِ الضُّرّ ، حتَّى كأنما كان يُقاتِل أسبابَ السُّرَى لشِدَّة الأمر عليه ، وتقاتله ، أى بَلَغَ الحالُ به حدًّا رأى السُّرَى تُغَالِبُه عن نفسه ، وتُصارِعه عنها .

---

(١) صدره فى الديوان ١٥٠ :

* تشب لمقرورين يصطليانها *

(٢) المشهور بهذه النسبة من الشعراء منصور النمرى ، وهو منصور بن سلمة بن الزبرقان من النمر بن قاسط ، وكان مقدما عند الرشيد ، وكان يمت إليه بأم العباس بن عبد المطلب وهى نمرية ، ومات فى خلافة الرشيد . الشعراء ٨٣٠ وتاريخ بغداد (١٣ : ٦٥ — ٦٩) والأغانى (١٢ : ١٦ — ٢٤) .

وقوله « دعا بائساً » يعنى كلباً ذا بُؤْسٍ لضَرَرِ القَحْط ، ويكون على هـذا مفعولاً . ويجوز أن ينتصب على الحال للدّاعى ، أى دعا وهو ذو بؤسٍ . ويجوز أن يريد دَعَا دُعَاءً عن بُؤْسٍ يُشْبِه الجنون . فأمّا تكريره للدُّعاء فهو لتهويل الأمر وتَفظيعِ الشّأن . وانتصب « شِبْهَ الجنونِ » أى دُعاءً يُشْبِه الجُنونَ ، فهو صفة للمصدر المحذوف . قال : وليس به جنون ، لـكنّه يُكابِد أمْراً[1] ، ويعانى مَشَقّة وضُرًّا ، فهو يطلب الخلاص من مِحْنَةٍ لا طريقَ للمَخَاص منها إلاّ على ذلك الوجه . وتحقيق الـكلام : ليس به جنون ، ولـكنْ به كَيْدُ أمرٍ يَطلُب دَفْعَه والسّلامةَ منه .

٣ ــ فلمّا سَمِعتُ الصّوتَ نادَيْتُ نَحْوَهُ بصَوْتِ كَرِيمِ الجَدِّ حُلْوٍ شمائلُهْ

٤ ــ فأبْرَزْتُ نارِى ثمّ أثقَبْتُ ضَوءها وأخرجْتُ كَلبى وهو فى البَيْتِ داخِلُهْ

يقول : جَمعْتَ فى تنقّيه وإغاثته بينَ الأسباب التى يُستنزَل بها الضّيف ، ويُستَقبَل بها الجيران ؛ لإشالَتِه من صَرْعَتِهِ ، واشتلائه من مِحْنَته ، فناديتُه بنَفْسى على رَفْعٍ من صَوتى ، وهو صوتُ رجلٍ كريمِ الأصل ، حُلْوِ الطّبَائع ، سَهلِ الجانب ، حسَنِ الاشتمال على الضّيف ، وجعلْتُ نارى فى بَرَازٍ ، وهو المرتفِع من الأرض . ومثل البَرَاز البَرْز . قال :

* يظلُّ على البَرْزِ اليَفَاع كأنّه *

قال : ثمّ أيْدَتها بثَقُوبٍ يرتفع الضّوء له ، ويَقوَى به ، وأخرجْتُ كَلبى من مَقَرّه ، وهو لشدّةِ البَرد ملازمٌ للبيت لا يَخْرُج ، كلُّ ذلك فعلتُه تقريباً للأمر على الضّيف ، وتسهيلاً لهدايته . وقوله « وهو فى البيت داخله » فى البيت

(١) أمرا بفتح الهمزة فى النسختين ، واختصر العبارة التبريزى كعادته فقال : « يكابد أمرا يطلب الخلاص منه » . ولو قرئت « إمرا » بكسر الهمزة لوافقت طريقته فى التسجيع . والإمر : بالـكسر الشدة والأمر العظيم الشنيع . لـكن فى نص البيت : « كيد أمر يحاوله » .

موضعه خبرَ الابتداء وليس بلَغْوٍ ، وداخلُه[١] خبر ثان ، والهاء من داخله يعود إلى البيت كأنه قال : وهو مستقر فى البيت داخلٌ فيه ، ولا يمتنع أن يكون داخلُه[١] فى موضع البَدَل من قوله فى البيت ، ويكون كقولك زيدٌ داخلَ البيت وخارجَه .

٥ ـ فلمّا رآنى كَبَّرَ اللهَ وحْدَهُ وبَشَّرَ قلباً كانَ جمًّا بَلابِلُهْ

٦ ـ فقُلْتُ له أهلًا وسهلًا ومَرْحَباً رَشِدْتَ ولم أقعُدْ إليه أسائلُهْ[٢]

يقول : لمّا رآنى هذا الضيف قال : اللهُ أكبر ! استبشاراً واغتباطا بما تعجَّلَ له من الفَرَح ، وفرَّحَ قلباً كانت غمومُه مجتمعةً عليه يأسا من الخير فى مثل مكانِه ، وطمعاً فيما يَستبقيه من حياته ؛ فقلت له : أتيتَ أهلًا لا غُرَباء ، ووَرَدْتَ سهلاً من الأفنيةِ لا حَزْناً ، وتعمَّدْتَ رُحْبا من الأماكن لا ضِيقاً ، وصَحِبتَ الرَّشادَ فى عُدُولِكَ إلىَّ لا الضَّلال ، ورافَقْتَ السَّعادةَ لا الشَّقاء والهَلَكة ، ولم أقعُدْ إليه مسائلاً عن أخباره وعمَّا أدَّاه إلى أرضِى فى انتقالاته ، بل عَمَدتُ إلى الاحتفال له ، وقصَرْتُ سَعيِى على ما يقتضى إنزالَه ، وعلى تهيئة القِرَى والأَنزال له[٤] . وانتصب « وحده » على المصدر ، لأنه موضوعٌ موضع الإيحاد ، أى أوحَدَ اللهَ إيحاداً .

٧ ـ فقمتُ إلى بَرْكٍ هِجَانٍ أُعِدُّهُ لوَجْبَةِ حَقٍّ نازلٍ أنا فاعِلُه[٣]

٨ ـ بأبيَضَ خطَّتْ نَعْلُهُ حيثُ أدركَتْ مِنَ الأرضِ لم تَخْطَلْ علىَّ حَمائلُهْ

يقول : وقمتُ إلى إبلٍ باركة بالفناء ، كريمةٍ بيض ، أعدَدْتُ لواجب حقٍّ يَنزِلُ بى . وزادَ الهاء فى « وجبة » للمرَّة الواحدة ، ويجوز دخولها لهذا المعنى فى

---

(١) ما بين هذا الرقم ومثيله ساقط من ل .

(٢) يقال رشد يرشد ، من بابى نصر وفرح . وضبط فى الأصل بفتح الشين وكسرها مع قرن ذلك بكلمة « معاً » ، إشارة إلى تحقيق الضبطين .

(٣) التبريزى : « وقت » .

(٤) الأنزال : جمع نزل ، بالضم ، وهو ما يهيأ للضيف .

المصادر كلها ، وقد شرحتُ القولَ فى لفظة هجان ووقوعه بلفظه للواحد والجمع[١] .

وقوله « بأبيض » تعلق الباء منه بقوله قمت . واللام من قوله « لوجْبةِ حقٍّ » متعلّق بقوله أعِدُّه ، وموضع الجملة صفةٌ للبَرك ، كما أنّ قوله « أنا فاعله » صفة للحق . والمعنى : قمت وقد تقلَّدت سيفا مصقولا ، تَخُطُّ حديدةُ جَفنِه فى الأرض إذا أدركَتْها خطًّا ؛ وليس ذلك لأنّ حمائله اضطربت علىّ أو قصُرت قامتى عن ارتدائها لطولها ، ولكن تَخْتَطُّ حيث تُدرِك ، لارتفاع أرضٍ أو عارِضِ حَالٍ . والحمائل : جمع الحِمالة . وإذا طالَ النِّجادُ خَطَلَ على لابِسِه واضطرَب . وافتخارُهم بامتداد القامة وطُول الحِمالة معروف . والنَّعْلُ : الحديدةُ التى يُغَشَّى بها أسفلُ الجَفن . وعلى ذلك قوله :

* طويل نِجادِ السَّيف ليس بِجَيْدَر[٢] *

٩ — فجالَ قليلاً واتَّقانِى بخَيرِهِ سَنَاماً وأملاهُ مِنَ النِّىِّ كاهِلُهْ[٣]

١٠ — بقَرْمٍ هِجَانٍ مُصْعَبٍ كانَ فَحْلَهَا طَوِيلِ القَرَى لم يَعْدُ أنْ شَقَّ بازِلُهْ

قوله « جال قليلا » انتصب قليلاً على الظَّرف ، أى زمناً قليلا . وفاعل جَال هو البَرْكُ . ويجوز أن ينتصب قَليلاً على أنّه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنّه قال : جال جَوْلاً قليلا ؛ فأقامَ الصِّفةَ مقامَ الموصوف ، لأنّ المراد مفهوم . والمعنى : لمَّا بَصُر البَرْكُ بى ثارت مِن مَبارِكها ، لما يَغْشاها من الخوف المعتاد لها

(١) انظر ما مضى فى ص ١١٣٦ والحماسية ٧٣٤ ص ١٦٧٢ .

(٢) الجيدر ، بفتح الجيم : القصير .

(٣) ابن جنى فى التنبيه : « الهاء فى خيره وأملاه ضمير البرك المذكور قبله . وارتفع كاهله بأملاه ، وعملت أفعل هذه فى المظهر فرفعته ، وهى فى ذلك أمثل حالا منها إذا اتصلت بها من فى نحو أفعل من ، وذلك أن من تباعدها بما يكسبها من التخصيص من الفعل ، والإضافة فى كثير من هذه المواضع فى تقدير الانفصال . ولذلك قلت مررت برجل ضارب أخيه زيد . هذا هو الظاهر . وإن شئت رفعت كاهله بمضمر دل عليه أملاه ، أى امتلأ من النى كاهله » .

واضطربَتْ ، ثمّ اقتَنَتْنِى —أى جعلَتْ بينى و بينها— بأتمَـكِها سَناماً[١] ، وأملاها من النِّىّ كاهلا . والنِّىُّ : الشَّحم واللَّحم . وانتصب « سَناما » على التمييز . وارتفع قوله « كاهلُه » بفعلٍ مضمَر دلّ عليه وأملاه ، كأنّه لمّا قال وأملاه من النِّىّ قال امتلأ كاهلُه . ويشبه هذا قولَ الآخَر فى إضمار الفعل ، وإن كان هذا ناصباً وذاك رافعا ، وهو :

* وأضْرَبَ مِنّا بالسُّيوفِ القوانِسَا[٢] *

وانتصاب القوانس بفعلٍ مضمَر دلّ عليه وأضرَب منا ، كما أنّ ارتفاع الـكاهل بفعلٍ دَلّ عليه : وأملاه .

وقوله « بقَرْمٍ هِجان » أعاد حرفَ الجرّ فيه ، وهو بدل من قوله : « بخيرِهِ سَناما » . ومثله فى إعادةِ حرف الجرّ فى البدَل قولُه تعالى : ﴿ قال الَّذِين استَـكبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِين استُضْعِفُوا لمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ . والهِجان ، وُصِفَ به الواحد هاهنا ، فهو فى زنةِ قولهم : ناقة دِلاثٌ ، وإزارٌ وخِمارٌ . وفى قوله بَرْكٌ هِجان[٣] وُصِف الجمع به ، فهو كظِرافٍ وحِسان . والمُصْعَبُ : الفَحل الـكريم الذى لا يُبْتَذَل فى العوارِض ، بل يُقصَر على الفِحْلة . وقال الخليل : هو الذى لم يُركَبْ قطُّ ولم يَمْسَسه حَبل . ويقال أُصْعِبَ الفحلُ فهو مُصْعَبٌ ، وبه سُمِّىَ الرَّجلُ إذا كان مسوَّداً مُصْعَبا . وقوله « كان فحلها » رجع الضمير إلى البَرْك ، أى كان هذا القَرْم فَحْلَ هذهِ البَرْكِ ، وهو طَويل الظَّهر لم يتجاوزْ بازلُه أن انشَقّ اللحم عنه . يعنى أنّه كان فى غاية ما يُرَاعَى من شَبابه وقُوّته . والبُزول :

---

(١) أتمكها سناما ، من قولهم تمك السنام تمكا وتموكا : طال وارتفع .

(٢) البيت ٢ من الحماسية ١٠١ ص ٤٤١ وهو للعباس بن مرداس . وصدره :

* أكر وأحمى للحقيقة منهم *

(٣) أى فى البيت السابع من هذه الحماسية .

فى السنة التاسعة . والمعنى أنَّه لم يَعْدُ هذه الحالةَ إلى ما وراءها ، فكان يَضعُف .

١١ — فَخَرَّ وَظِيفُ القَرْمِ فى نِصْفِ ساقِهِ   وذاكَ عِقالٌ لا يُنَشَّطُ عاقِلُهْ

١٢ — بذلك أوصَانِى أبِى وبِمِثْلِهِ   كذلك أوصاهُ قَدِيماً أوائِلُهْ

خَرَّ : سَقط ، يخِرُّ خُروراً . وخَرَّ الماء يَخِرُّ خريرا . فى الكلام إضمارٌ ، كأنَّه قال اتّقانى بخَيْرِهِ نعرقَبْتُه فخَرَّ وظيفُه . ويُرْوَى : «فحزَّ وظيفَ القَرْمِ فى نِصف سَاقِه» ، وفاعِل حَزَّ يكون السَّيفَ ، أى عَقرتُها فعمِل السّيفُ فى وَظِيفِه وأندَره من نِصْف ساقِه ، وذلك شَدٌّ عاقِلُه لا ينشَّط ، أى لا يحتاج إلى إحكامه وإبرامه لأنَّه لا يقع إلا مُبرَماً . ويقال نشّطتُ العَقْد تنشيطاً ، إذا أحكمته ؛ وأنشطتُه ، إذا حَلَلتَه . وعَقَدَ عليه بأُنشوطةٍ ، إذا جعَله مهيَّئا للحَلّ مقرّبا أمرُه فيه . ومما يجرى مَجرى المثل : «كأنَّما أُنْشِط مِنْ عِقَال» . وذكر بعضُهم[1] أنّ الشّاعر مَهَا فوضع نَشّطَ موضع أنشط ؛ لأنّ المراد ذاكَ عِقَالٌ عاقِلُه لا يَحُلُّه ولا ينقُضُ ما يُبْرَمُ منه . وكلامُ الشّاعر سليمٌ من العَيب قويم . والمعنى فيما ذكرت .

وقوله «بذلك أوصانى أبى [وبمثله» ، يعنى فى أمر الضيف أنّى ، بذا الفعل الذى وصفته وصّانى أبى[2]] وبما يماثله . ثم قال : كذلك أسلافُه أوصَوْه قديماً . وموضع «كذلك» نصبٌ على الحال وانتصب «قديما» على الظّرف ، والمعنى أنِّي لم أرِثْ ذلك عن كَلالةٍ ، وإنّما وَرِثْناه أباً عن أب وخلفاً عن سَلَف .

٧٥٠

وقال النَّابغةُ الذُّبْيانىّ :

١ — لَهُ بِفِنَاء البَيْتِ سَوْدَاء فَخْمةٌ   تَلَقَّمُ أوصَالَ الجَزُورِ العُرَاعِرِ[3]

٢ — بَقِيَّةُ قِدْرٍ مِنْ قُدُورٍ تُوُرِّثَتْ   لآلِ الجُلَاحِ كابِراً بَعْدَ كابِرِ

(١) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٢) هذه التكلة من ل .

(٣) التبريزى : «ويروى : دهماء جونة» .

٣ — تَظَلُّ الإِمَاءُ يَبْتَدِرْنَ قَدِيحَها كَمَا ابتَدَرَتْ سَعْدٌ مِيَاهَ قُرَاقِرِ

أراد بالسّوداء قِدْرا . والفَخْمة : الضّخمة . تلتقِمُ : تحتوى وتبتلع لِعِظَمِها أعضاء الجَزُور مُوَفَّرة . والعُراعِر : الضّخم السّمين ، وجمعه عَراعِر ، بفتح العين . ومثله جُوالق وجَوالق . وعُرْعُرَةُ الجَبَل : مُعْظَمه . فيقول : لهذا الرّجل بإزاء القَوم وفِناء الدّارِ منهم ، قِدرٌ [هذه صفتها من العِظَم ، وتضمّن أعضاء الجزور مورَّثة لم تُنتَقَصْ ، وهى بقيّة قِدرٍ[1]] من قُدورٍ تُوُرِّثت من أسلافهم آلِ الجُلاح كبيرا بعد كبير ، ورئيساً بعد رئيس . ولم يوجد كابرٌ فى معنى كبير إلاّ فى هذا المكان . وقد بَيَّن بذكر لفظة « بَعْدَ » أنّ « عَنْ » فى قوله[2] « كابراً عن كابر » بمعنى بعد . وكان أبو علىّ رحمه الله يقول قولهم كابراً ليس باسم الفاعل ، كالقاعد والقائم والجالس ، و إنّما هو اسمٌ صيغ للجَمْع ، كالباقر والجامل . والمراد كُبَراء بعد كُبَراء .

وقوله « تظلُّ الإماء يَبتدِرْنَ قَدِيحَها » ، يريد وقتَ القسمة ، أى يستَبِقْن طُولَ النّهار إليها ، و إلى تَناوُل الغُرُفات منها ، استِباقَ بنى سعدٍ مياهَ هذا المكان . وقُراقِر : موضعٌ فيه ماء لقُضَاعة ، وهو فِرَاطَةٌ بين أحيائهم ، أى شَرَعٌ لاتناوُبَ فيه ، بل يفوزُ السّابقُ إليه . فشَبَّهَ تَبادُرَ الإماء نحوَ القِدْرِ بتَبادُرِ بُطونِ سَعْدٍ إلى تلك المياه . والقَدِيح : فعيل بمعنى مفعول . وهو المَرَق المقدوح .

٧٥١

وقال الفَرَزْدَق[3] :

١ — وَدَاعٍ بلَحْنِ الكَلْبِ يَدْعُو ودُونَه مِنَ اللَّيْـلِ سِجْفَا ظُلْمَةٍ وغُيُومُهَا

(١) التكملة من ل .

(٢) أى فى قول القائل من العرب أو من الشعراء . وجاء فى قول الأعشى :

ساد وألفى قومه سادة وكابرا سادوك عن كابر

(٣) شهرته تغنى عن ترجمته . والأبيات ماعدا الخامس منها فى ديوانه ٨٠٣ محرفة =

٢ — دَعَا وهُو يَرْجُو أن يُنَبِّهَ إذْ دَعَا ... فتًى كابنِ لَيْلَى حِينَ غَارَتْ نُجُومُهَا

٣ — بَعَثْتُ لَهُ دَهْماء لَيْسَتْ بِلِقْحَةٍ ... تَدُرُّ إذا ماهَبَّ نَحْساً عَقِيمُها

قوله « داعٍ بلحن الكلب » ، يعنى مستنبِحاً تكلَّفَ نَبِيحَ الكلب فى صَوته ، وَلَحنَ لَحنَه ، وفَعَلَ ذلك إذْ حال بينَه و بينَ المَنَاظِر من اللَّيل سِتْرَانِ من الظُّلَمِ ، والتباسُ الغُيوم . و إنما قال « سِجْفَا ظُلْمَةٍ وغيومُها » تأكيداً ، كما قيل : ﴿ ظلماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ولهــذا لم يَرْضَ بذلك حتّى أضافَ إليه ظُلْمَة السَّحاب أيضاً المُغطِّيَة للكواكب .

وقوله « دَعَا وهو يَرجُو أن يُنَبِّه إذْ دَعَا » ، يقول : استَنْبَح ، وهو يؤمِّل أن يَنْتَبِه لدعائه ويَنبعثَ فتًى كغالب ، حِينَ غارت النُّجوم باللَّيل ، والأهوالُ متراكِمَةٌ ، وظُلَمُ اللَّيلِ والسَّحابِ مُتراكِبةٌ ، واستَبدَّتْ فُرَجَ السَّماء وآفاقَ الجوّ . كأنَّ الضَّيفَ تمنَّى أنْ يتَّفِق له إجابةٌ كإجابةِ غالب ، وهو ابن ليلى ، فاتفق أن هيِّئ له إجابة الفرزدق . يشهد لذلك قولُه : « بَعَثْتُ له دَهْماء » ، يعنى بها قدراً . وكشَفَ عن مُرادِه بقوله « ليست بلِقْحَةٍ » ، أى ليست هى بناقةٍ ، وإنما هى قِدرٌ تَدرُّ مَرَقَتُها إذا هَبَّ عَقِيمُ الرِّياح بالنَّحْس . ويعنى به الدَّبور ، لأنَّها لا تُلقِح ، وبها هَلَكت الأُمَمُ السَّالفة . وجواب رُبَّ المضمرة فى قوله «داعٍ[1]» قوله « بعثْتُ له دَهْماء » . وقد اعترَض بينهما بيتٌ .

= ورواها جميعا المرتضى فى أماليه (٤ : ٢٩) منسوبة إلى الفرزدق ، والبيت الخامس فى الحيوان (٤ : ٣٣٢) منسوب إلى الفرزدق ، وفى محاضرات الراغب (١ : ٣١٤) منسوب إلى مضرس . قال الراغب تعليقا على هذا البيت الخامس : ولما سمع ذلك زياد الأعجم قال : وما حيزوم النعامة ؟ لعن الله هذه من قدر ، فما أحسبها تشبع آل مضرس ! فقيل له : فكيف تقول أنت ؟ قال : أقول :

وقدر كجوف الليل أحششت غليها ... ترى الفيل فيها طافيا لم يفصل

لو ان بنى حواء حول رمادها ... لما كان منهم واحد غير مصطلى

(١) كذا بدون واو فى النسختين .

٤ — كأنَّ المَحَالَ الغُرَّ فى حَجَرَاتِها عَذَارَى بَدَتْ لمّا أُصِيبَ حَمِيمُها
٥ — غَضُوبٌ كَحَيْزُومِ النَّعامةِ أُحْمِشَتْ بأجوازِ خُشْبٍ زالَ عَنها هَشِيمُها[١]
٦ — مُحَضَّرَةٌ لا يُجْعَلُ السِّتْرُ دُونَها إذا المُرْضِعُ العَوْجَاءُ جَالَ بَرِيمُها

جعل المَحَالَ ، وهى فِقَر الظَّهر ، والواحدة مَحَالة ، فى نواحى القِدْر وجوانبها لِسِمَنِها و بياضِها مع تضمُّن القِدر السَّوداء لها ، و إحاطتِها بها ، كأبكار النِّساء وقد لَبِسْنَ ثيابَ السِّلابِ لمّا أُصِبْنَ بحميمهنَّ ، فَيَبْدُونَ بِيضَ الوجُوه ، سُودَ الثِّياب . وقد أُحكِم القول فى أصل « عذارى » فى غير هذا الموضع[٢] .

وقوله « غَضُوب » ، يريد غَلَيانَها وهِزَّتها ، ثمّ شبَّه إشرافَها بحيزومِ النَّعامة ، كما قال الآخر[٣] :

* نعامَةَ حِزْباه تقاصَرَ جِيدُها[٤] *

وجعلها قد أُوقِد تحتَها النَّارُ بحطب جَزْلٍ أُفرِدَ عنها دُقاقُها وما تَهَشَّمَ مِن وَرَقِها ، والقَصْدُ فى هذا إلى تعظيم النَّار الموقَدةِ تحتَها لِكِبرِها .

وقوله « مُحَضَّرَة » أى لا يُمنَع منها أحَـدٌ ولا تُقَنَّعُ بما يَستُرها عن العُيون إذا أَمْحَلَ الزَّمان ، واشْتَدَّ القَحْطُ ، وصارت المرأةُ المُرضِعُ قد اعوجَّ خِلْقَتُها فجالَ عليها وِشاحُها ، لانحسارِ اللَّحْم عنها ، وتأثير الهُزَال فيها . والبَرِيم : خَيط يُفتَل من صُوفٍ أبيضَ وأسود يُشَدُّ فى أَحْقِى الصِّبيان لتُدفَعَ العَينُ به عنها .

ومثل ما وَصَفَ قولُ الرَّاعى :

إنِّى أُقَسِّمُ قِدْرِى وهى بارِزَةٌ إذْ كلُّ قِدْرٍ عَرُوسٌ ذاتُ جِلْبابِ

وقوله : « إذا المرضع العوجاء جال بريمها » ظرفٌ لقوله مُحَضَّرة ، أو لقوله

---

(١) انظر ما سبق من الكلام على هذا البيت . ورواه المرتضى : « غضوبا » .
(٢) انظر ص ٥٥٠ .
(٣) هو الراعى . فى الحماسية ٦٣٨ ص ١٥٠٩ .
(٤) صدره : * إذا نصبت للطارقين حسبتها *

« لا يُجعَل السِّتْرُ دونها » وفيهما جواب إذا . والحجرات : النّواحى ، واحدتها حَجْرة ، ويقال : قعد حَجْرَةً ، فيُجعل ظرفاً . وإحماش النّار : إلهابُها . وأحمشتُ القِدرَ ، إذا أشبعْتَ وَقُودَ النّار تحتَها حتّى تغلى ، ومنه حَمَشَ الشّرُّ والغضبُ ، إذا اشتدّ . وقوله « بأجواز خُشُب » ، جَوْز كلِّ شىء : وسَطُه . وإنما أراد الغِلاظ من الحطَب .

٧٥٢

وقال شُرَيح بن الأحْوَص[1] :

١ — وَمُسْتَنْبِحٍ يَبْغى المَبيتَ وَدُونَه ... مِنَ اللَّيْلِ سِجْفَا ظُلْمَةٍ وكُسورُها

٢ — رَفَعْتُ لَهُ نارِى فَلَمّا اهْتَدَى بِها ... زَجَرْتُ كِلابى أنْ يَهِرَّ عَقُورُها

٣ — فباتَ وإنْ أسْرَى من اللّيلِ عُقْبَةً ... بِلَيْلَةِ صِدْقٍ غاب عنها شُرُورُها[2]

يريد : ربَّ مُستضيف بالنُّباح يَطلُب لنَفْسه مكاناً يبيت فيه ، وقد سقطَ عنه كُلَفُ السَّير ، وأسبابُ الجَهْد ، وحَجَزَ بينه وبين اللّيل سِجفا ظُلمةٍ وكُسورُها . والسِّجف : السِّتر ، وتكسر السين منه وتفتح . والكُسور : جمع الكِسْر ، وهو جانِبُ البيت . قال الخليل : الكَسر والكِسْر : الشُّقّة السُّفلى من الخِباء ، يُرفَع أحياناً ويُرخى أحيانا ، وكذلك من كلِّ قُبَّةٍ وغِشاء ، حتّى يقال لناحِيَتَى الصَّحراء كِسراها . ولمّا استعار السِّجف لتَراكُم الظُّلمة استعارَ الكُسورَ لها أيضاً ، كأنّه جعلَ اللّيلةَ كالبيت لظَلامها وقد أُرْخِى سِجْفاهُ وأُلبِسَ كِسراه ، فأظلَمَ داخلُه . وجواب رب قوله « رَفَعْتُ له نارى » ، والواو من قوله « ودونه » واو الحال .

---

(١) التبريزى : « شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب » . وكان شريح أحد فرسان يوم رحرحان ، وهو قاتل لقيط بن زرارة فى يوم جبلة . الأغانى (١٠ : ٣٢ ، ٣٨) .

(٢) ل : « غارعنها » ، وفى حواشيها : « خ : « غاب » .

وقوله « فلَّما اهْتَدَى بها » يريد لَمَّا رفَعْتُ النَّار فأبْصرَها وأقْبلَ نَحْوى منعتُ كلابى من أنْ يَهِرَّ فى وجهه عَقُورُها . والعَقُور ، يريد به السيِّئة الخُلُق منها ، المولَعة بالعقر .

فإن قيل : و لِمَ جعل فى كِلابه العَقورَ حتَّى احتاجَ إلى زَجْرِه عن ضَيفه ؟ قلتَ : كأنَّه كان فى الـكلاب ما لم يكنْ يلزَمُ الفِناء ، و إنما يكونُ مع الرَّاعى فى السَّرْح للحِفْظ ، فاتَّفَقَ أنْ حَضَرَ مع كلاب الحىّ ، فلذلك احتاجَ إلى زَجْره .

وقوله « فباتَ و إنْ أسرى من الليـل عُقْبَةً » خبر بات « بليلة صدق » وجواب إنِ الجزاء ما اشتَمَل عليه البيت . فيقول : مكَثَ الضَّيفُ عِندى فى ليلةِ صدقٍ لا نَحْس فيها ولا شَرّ ، والرَّاحةُ تُعاوِده ، والسَّلامةُ تَلزَمُه وتتلقَّاه ، و إنْ كانَ قد سَرَى عُقبةً منها ، أى طائفة . وانتصب « عُقبةً » على الظَّرف ، وأصلها أنْ يتعاقَبَ اثنانِ على البعير ، فإذا رَكِبَ أحدُهما مشَى صاحبُه ، ثم كثُر استعمالُه فأُجرِىَ مجرى النَّوبة والفُرصة ، فيقال : سار عُقبةً كما يقال سار نَوْبة . وقال الخليل : العُقْبة فرسخان ؛ وهما يتعاقبانِ الرُّكوبَ بينهما . وقوله « أنْ يَهِرّ » فى موضع النَّصب على البدل من كلابى . وقد تقدَّم القولُ فى ليلةِ صِدْقٍ وما أشبَهَه[1] .

٧٥٣

وقال مِسْكِينٌ الدَّارِمىّ[2] :

١ — كأنَّ قُدورَ قَوْمى كُلَّ يَومٍ   قِبَابُ التُّرْكِ مُلبَسَةَ الجِلَالِ

٢ — كأنَّ المُوقِدِينَ لها جِمَالٌ   طَلَاهَا الزِّفْتَ والقَطِرانَ طَالِ[3]

٣ — بأيدِيهِمْ مَغَارِفُ مِنْ حديدٍ   أُشبِّهُها مُقَيَّرَةَ الدَّوَالِى

(١) انظر ما مضى فى ص ١٦٢٨ .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٩٩ ص ١١١٥ .

(٣) ويروى : « كأن الموقدين لها » بالقاف . التبريزى : « من قولك : أوقد لقدرك ، أى تحتها » .

جعل قدورَ قومِه متبجِّحاً بها ، منصوبةً فى كلِّ وقت . وجعلها لـكبرها مشبَّهةً بخَرْ كَاهَات[١] التُّركِ وقد جُلِّلت وأُلبِست أغطيةً سَوْدَاء[٢] .

وقوله « كأنَّ الموفِدِين لها » ، يريد المُزاوِلين لها فى نَصْبها و إنزالها ، وطَبْخها وتهيئتها . والمُوفِد : المشرِفُ على الشَّىء العالى له . وانتَصب « مُلبَسَةَ الجِلَال » على الحال . وشبَّه المُوفِدِين فى سَواد ثِيابهم وتدنُّسها بالغَمَرِ وتلطُّخها بالدَّرَن بجمالٍ مَطْليَّة بالقَطِران . والزِّفتُ ، هو القار ، وقال الدُّريدىّ : أصلُه معرَّب ، وقد تكلمت العرب به كثيراً ، وفى الحـديث : « نَهَى عن الدُّبَّاء والمُزَفَّتِ » . ويقال : طلاه كذا وبكذا ، فهو مطلىّ .

وقوله « بأيديهم مَغارِفُ مِن حديدٍ » جعَلَ القُدور كالأنهار أو البحور ، والمَغَارفَ لها كالدَّوالى المقيَّرة ، لاحتمالها الماء من الأنهار وصبِّها إلى أعاليها . وجعَلَ المغارفَ سُودًا إمّا عَلِق بها فى الممارسة من سَوادِ القُدور والنَّار ، ومن زُهومة اللَّحم والشَّحم . وقوله « أشبَّهُها مقيَّرةَ الدَّوالى » ، يقال : شبَّهته كذا وبكذا . [وموضع[٣]] الجملةِ رفعٌ على الصِّفة للمغارف .

٧٥٤

وقال آخر[٤] :

١ — أعَاذِلَ بَكِّينى لأَضْيَافِ لَيْلةٍ ... نَزُورِ القِرَى أمْسَتْ بَلِيلًا شَمَالُها

٢ — أعَامِرُ مَهْلًا لا تَلُمْنى ولا تَـكنْ ... خَفِيًّا إذَا الخَيْراتُ عُـدَّت رِجالُها

بكِّينى ، أى أكثِرى البُكاء لى وكرِّريه ، مِن أجْلِ أضيافِ ليلةٍ قليلة

---

(١) جمع « خركاه » ، ولفظه بالفارسية « خَرْگَاه » . انظر معجم استينجاس ٤٥٦ .

(٢) كذا ضبطت فى الأصل . وفى ل : « سودا » .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى : « وقال العكلى » .

القِرى ، لإمساك النّاس عن الإنفاق ، و إعوازهم الزّاد ، وقد أمْسَتْ ريح الشّمال فيها ذاتَ بلَلٍ وشَفَّانٍ للنَّـدَى والبرد ، فإذا وَرَدُوا فَقَدُوا حُسْنَ تفقُّدِى لهم ، وتوفُّرِى عليهم .

وقوله « أعامرُ مهلا » جَمَعَ على نفسه لائمةَ ولائما ، فيقول : يا عامرُ رِفقاً فى عتْبك علىّ ، ولومك إيّاى ، واقتَدِ بى فى طلب السُّمُوّ والاستعلاء على الأقران . فأمّا انتقالُه عن ذكر اللّائمةِ إلى مذكَّرٍ ، فمثله قولُ تأبَّط شرا :

يا مَنْ لِعذَّالةٍ خَـذَّالة أشِبٍ حَرّقَ باللَّوم جِلدِى أىَّ تحراقِ[1]

ثم قال :

عاذِلَتَا إنّ بعضَ اللَّوم مَعْنَفَةٌ وهل مَتَاعٌ و إن أبقيْتُه باقِ[2]

والمراد بيان تعاون العشيرة فى اللَّوم والإنكار ، وتَسَاعُدِ رجالهم ونسائهم على الوَعظ والإنذار . وقوله « ولا تكن خفيّا » ، يريد اتَّخِذْنى إسوةً واعمَلْ على أن تكون سامِىَ الذِّكْر ، عالىَ الصِّيت ، حتّى لا يخفى إذا عُدَّتْ رجالُ الخيرات أمرُك ، ولا يَنمحِىَ إذا بانت آثار الصالحين أثرُك . وأشارَ بالخيرات إلى الخصال الصالحة والخلال الشَّريفة . وواحدتها خَيْرةٌ . وليست هذه التى تكون فى موضع أفعَلَ من كذا ومعناهُ ، كقولك فلانٌ خيرٌ من فلان ، بل هى الواردةُ فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ ، وفى قول الشَّاعر :

وأمُّها خَيْرَةُ النِّســـاء على ما خان منها الدِّحاقُ والأَتَمُ[3]

٣ — أرَى إبِلِى تَجزِى مَجازِىَ هَجْمَةٍ كَثيرٍ وإنْ كانت قَليـلاً إفالُها

٤ — مَثَاكِيلُ ماتَنفَكُّ أرْحُلُ جُمَّةٍ تُرَدُّ عليهم نُوقُهــــا وجِمَالُها

(١) البيت ٢٠ من المفضلية الأولى . وصدره فيها : « بل من لعذالة » .

(٢) فى المفضليات : « عاذلتى » .

(٣) ل : « إذا ماخان » . والبيت فى مقاييس اللغة (دحق) بدون نسبة ، وبرواية : « وأمكم خيرة النساء » .

قوله « أري إبلى تَجزِى » يقول: أجد إبلى تَقْضِى عنِّى وتحصُل فى النَّيل منها وتورُّد الحقوق إيّاها مَحَاصِلَ هَجْمَةٍ ، وهى القطعةُ من الإبل بين السِّتين إلى المائة . والجزْيَةُ من هذا ، وهى الخَرَاج الموضوع ، لأنَّها قضاء لما عليه أُخِذَ . وفى القرآن : ﴿ واتَّقُوا يَوْماً لا تَجزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئا ﴾ ، أى لا تقضى ولا تُغنى . وفى الحديث : « كان رجلٌ يدايِنُ النَّاس[1] ، وله كاتب ومُتَجازٍ » .

وقوله : « وإن كانت قليلاً إفالُها » ، يريد وإنْ كانت ضعيفةَ النَّسل ، قليلةَ العدَد . والإفال : صِغار الإبل واحدها أَفِيل ، وإنَّما قلّت إفالُها لذَهاب التَّشمير والزَّكاء عنها ، ولكونها محبَّسَةً بالأفنية ، مقصورةً على الحُقوق ، مصروفةً إلى أرزاق العُفَاة . يشهد لذلك قولُه « مثاكيل » ، وهى جمع مِثْكال : التى تَثْكَل أولادَها كثيراً ؛ لأنَّ ربَّما يَفصِل دائماً بينها وبين أولادها بالنَّحر تارةً وبالهِبَة أخرى .

وقوله « ما تنفك أرحُلَ جُمَّةٍ » ، أى لا تزال أرحُلَ جماعةٍ من النَّاس ، وهو جمع الرَّحْل ، أى مَثْواهم ومَقِيلهم . ويقال : عادَ إلى رحلِهِ أى مَنزِله . وفى الحديث : « إذا ابتلَّتِ النِّعالُ فالصَّلاةُ فى الرِّحال » . أى لا يزال مأوَى جماعةٍ تُصرَف إليهم إذا وَرَدوا ذكورُها وإناثها . أمَّا إناثُها فللحَلَب ، وأمَّا ذكورُها فللنَّحر . وأصل الجُمَّة الجماعة تَرِدُ فى سُؤالِ تحمُّلِ الدِّيات عنهم إذا ثَقُلَت ، أو السَّعى فى صُلْحٍ أو الدَّمِ بين عشائر . قال :

* وجُمَّةٍ تسألنى أعطيتُ[2] *

وجعلَه اسمَ الجماعة من النَّاس وإنْ وردوا لغَيْرِ ذلك القَصْد .

---

(١) فى الأصل : « يداين الناس » ، صوابه فى ل واللسان (جزى ١٥٧) .

(٢) الرجز لأبى محمد الفقعسى ، كما فى اللسان (جم) . وبعده :

وسائل عن خبر لويت فقلت لا أدرى وقد دريت

٧٥٥

وقال جابر بن حُبَاب[(١)] :

١ — وإنْ يقتسِمْ مَالِى بنِىَّ ونِسْوَتى　　فلن يَقْسِموا خُلْقِى الجميلَ ولا فِعْلِى

٢ — أُهِينُ لَهُمْ مَالِى وأعْلَمُ أنَّنِى　　سأورثُه الأحياء ، سِيرَةَ مَنْ قَبْلِى

٣ — وما وَجَدَ الأضيافُ فيما يَنُوبُهمْ　　لهم عنــد عِلَّاتِ الزَّمانِ أبًا مِثْلِى

يقول : إن اقتسَمَ مالى أولادى وأزْواجى و بناتى ، وفازوا بما أخلفُه فيهم فلنْ يقتسِموا ما تفرَّدْتُ به من خُلُق كريم أعدّه لزُوَّارى ، وفعَال شريف أُقيمُه لعُفاتى ، وأديمُه لمن يعتلق حبلى ، أو يتَّصل سَبَبُه ونَسَبه بسببى ونسبى .

وقوله « أهينُ لهم مالى » ، يريد أنّى أبذله وأبتذله ، لعلمى بأنَّ ما أبقيه للأحياء[(٢)] سِيرةَ مَن تَقدَّمَنى فليس بمالٍ لى ، وأنَّ الذى يختصّ بملكى هو ما أتولَّى تفريقَه وإنفاقه فى الوجوه المحمودة عندى . وانتصب « سيرة » على المصدرِ ممَّا دلّ عليه قوله « سأورثه الأحياء » ، كأنّه قال : أسِيرُ فيما أتركُه من مالى سِيرةَ أسلافى والنَّاسِ قبلى . يقال : سارَ سِيرةً حسنة ؛ يُشَارُ بها إلى الحالِ[(٣)] فى السِّيرة المعتادة . ثمّ أُجرِىَ مَجرى الشِّيَم والعادات . وقال القُطامى :

وسارَتْ سِيرةً تُرْضِيكَ منها　　يَكاد وَسِيجُها يَشفِى الصُّدَاعا[(٤)]

وقوله « وما وَجَدَ الأضيافُ فيما ينوبُهم » ، يريد بيانَ مكانِه من مآرب أضيافِه ، وأنَّهم لا يعتاضون فيما ينوبهم عند الزَّمان وتغيُّره و إمكان العِلَّات فى

---

(١) التبريزى : « جابر بن حيان » .

(٢) فى الأصل : « بأنى أبقيه للأحياء » ، صوابه من ل ، لأنه يوازن بين مالين .

(٣) ل : « الحالة » .

(٤) الوسيج والوسج : ضرب من سير الإبل .

البُخل وأهله أبا مِثْلَهُ إذا فَقَدوه . وجعل نفسَه أبًا على عادتهم فى تسمية المُضِيف أبا المَثْوى . على ذلك قال أبو العِيال الهُذَلىّ :

أبو الأضْياف والأيتـــا م ساعةَ لا يُعَدُّ أبُ[1]

ويجوز أن يكون المراد [بِعِلاّت الزّمان[2]] تَحوُّله وتبدُّله .

٧٥٦

وقال حاتم[3] :

١ — وعاذِلَةٍ قامَتْ عَلَىَّ تَلُومُنِى كَأَنِّى إذَا أعطَيْتُ مَالِى أضِيمُها[4]

٢ — أعاذِلَ إنّ الجودَ لَيْسَ بمُهْلِكِى ولا يُخْلِدُ النَّفْسَ الشَّحِيحةَ لُومُها[5]

قوله « وعاذِلةٍ » انجرّ بإضمار ربَّ ، وجوابُه يجوز أن يكون قامَتْ علىّ وتلومنى فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون الجواب محذوفًا ، كأنّه قال : قلتُ لها : أعاذِلَ إنّ الجود ليس بمُهْلِكى ، لأنّ « قامت علىّ » من صفة العاذلة . وقوله « كأنّى إذا أعطيتُ مالى أَضِيمُها » اعتراضٌ وقَعَ بين رُبَّ وجوابه . والمجرور برُبَّ أكثرُ ما يجىء موصوفًا . ويجوز أن يكون قوله « كأنّى إذا أعطَيتُ مالى أضيمها » الجواب .

ثمّ أقبل عليها يخاطبها ، وهذا تَشبيهٌ يَجرى مجرى تصوير الحال فى إخراج الخافِى إلى البيان ، فيقول : ربّ لائمةٍ قامت علىّ تعتِبُ وتوبِّخ ، كأنّى أبْخَسُ

(١) ديوان الهذليين (٢ : ٢٤٤) .

(٢) التكملة من ل .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٢٧ ص ١١٦٦ . والأبيات لم ترد فى ديوانه .

(٤) التبريزى : « إنما قال حبت بليل تلومنى ، لأنها لا تتمكن بالنهار ، لاشتغاله بخدمة الأضياف ، فانتهزت الفرصة ليلا لتلومه على بذل ماله » .

(٥) التبريزى : « ولا مخلد » .

حظًّا لها إذا بذلتُ مالى ، أو أغصِبُها حقًّا من حقوقها ، لتَتَناهى ظلامتها — قلت لها : إنَّ ما أعتدُّه[1] من البَذْل والسَّخاء لا يُقرِّب منيّتى عن أمَدِها ، ولُؤم النَّفس البخيلة ، لا يُديمُ بقاءها فى دُنْياها ، فإذَا كان الجودُ يُفنى والبخلُ لا يُبقِى ولا يُفْنى[2] وكان فى السَّخاء إقامةُ المرُوءة واكتسابُ الأكرومة ، وادِّخار الشُّكر واقتناء الأجر ، فالعقلُ يُوجِب الأخْذَ به ، والحزمُ يَقتضِى الزُّهدَ فى غيره .

٣ — وتُذْكَرُ أخلاقُ الفتَى وعِظَامُهُ مُغَيَّبَةٌ فى اللَّحْدِ بَالٍ رَمِيمُها

٤ — ومَنْ يَبتدِعْ ما لَيْسَ مِنْ خِيمِ نَفْسِه يَدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النَّفْسِ خِيمُها

يقول : إنَّ أخلاقَ الفتى مذكورةٌ بعد موته ، ومتردِّدة فى المجالس مع اسمه ، فإنْ حَسُنَتْ عند الفَحْص حُمِدَتْ ، وإن قَبُحت فى السَّمع ذُمَّت . هذا وعظامُه باليةٌ قد صارت رِمَّةً فى لحده ، ومغيَّبةً عن المشاهدَةِ ضِمْنَ قبره . ومَنْ تكلَّفَ ما ليس من خُلُقِهِ ، أو استَبدَع خِيماً ليس من شأنه ، فارَقَه المُستحدَث ، وعاوَدَه المستقدَم . ومثله :

ومن يَبتدِعْ خُلْقاً سِوَى خُلْقِ نَفْسِهِ يَدَعْهُ فترجِعْهُ إليه الرَّواجِعُ[3]

ويقال . فلانٌ كريم الخِيم ، أى الطَّبيعة . وقال أبو عبيدة : هو فارسيةٌ معرَّبة .

٧٥٧

وقال آخر :

١ — أكُفُّ يَدِى عَنْ أن يَنَالَ التماسُها أكُفَّ صِحَابِى حِينَ حاجتُنا مَعَا[4]

٢ — أبِيتُ هَضِيمَ الكَشْحِ مُضْطَمِرَ الحَشَا مِنَ الجُوعِ أخْشَى الذَّمَّ أن أتَضَلَّعا

(١) فى حاشية ل : « خ : أعتاده » .
(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « لا يفنى ولا يبقى » .
(٣) البيت للمخضع القيسى . كما سبق فى حواشى الحماسية ٧٤٦ ص ١٦٩٣ . ونسب فى حماسة البحترى ٣٥٨ إلى المخضع النبهانى .
(٤) ل : « حاجاتنا » .

يقول : إذا اجتمعت مع أصحابي على طعام لم تزاحم كَفّي أكفّهم ، بل آثرتُهم بما يروقُ من الزّاد فقبلته العين ، واصطفاه القصد ، وانقبضتُ ليستأثروا به دوني إذا كانت حاجتُنا(١) متوافقة ، وأيدي الآكلين متواردة ؛ وأبقى ليلتي صفيرَ البطن ، ضامرَ الجنب ، والزّادُ ممكن ، والمشتهَى مُساعِدٌ ، فلا أتضلّع شِبَعاً خشيةً مِن ذَمٍّ يَلحق ، أو عارٍ يَلزم . وقوله « أنْ أتضلّعا » ، أي مخافةَ أن أتضلّع . ويقولون : « هو الحِصْنُ أن يُرام » ويراد : هو الذي يحصَّن من أن يُرَامَ . قال لبيد :

* وهُمُ العشيرةُ أنْ يُبَطِّئَ حاسِدٌ(٢) *

أي تعاشَرُوا وتعاوَنُوا مخافةَ أن يبطِّئهم حاسد .

وحذفُ حرفِ الجرّ يكثُر مع أن .

وقوله « حين حاجتنا مَعا(٣) » حاجتنا مبتدأ ، ومَعًا سدّ مسدّ الخبر ، وإن كان في موضع الحال ، لأنّ المصادر إذا ابتُدئ بها وقعت الأحوالُ أخبارًا لها ، كقولك : ضَرْبي زيداً قائماً . وكذلك المضافُ إلى المصدر تقول : أكثرُ ضربي زيداً قائماً . وانتصب « حين » على الظرف وقد أُضِيف إلى الجملة بعـدَه(٤) ، والعامل فيه أكفُّ يدي .

٣ — وإني لأستَحْيِي رَفِيقِيَ أنْ يَرَى مَكانَ يَدِي مِنْ جانِبِ الزّادِ أقْرَعَا

٤ — وإنك مهما تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ وفَرْجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الذَّمِّ أجْمَعَا

وصَفَ حُسْنَ أدبِه في مُواكلة رفيقِه ولَقِّه(٥) ، وأنّه لا يستأثر بما يُعجِبُ

---

(١) كذا باتفاق النسختين .

(٢) آخر بيت في معلقته . وعجزه :

* أو أن يميل مع العدو لئامها *

(٣) كذا باتفاق النسختين ، وإن اختلفا في إنشاد المتن سابقا .

(٤) ل : « هذه » ، تحريف .

(٥) الف : الأكل . وهذه الكلمة ساقطة من ل .

من الزَّاد ، ولا تَظهَر منه نَهْمة وحِرْصٌ ، بل يستحْيِي من أن يُرَى ما يَلِي يدَه
من الزَّاد خالىَ المكان . وليسَ لأحدٍ أنْ يقول إنَّ انقباضَه يؤدِّى إلى انقباض
أكيله ، وذلك مذموم ، وإنما المحمود أن يَنبسِط فى الأكل ويَبسُط مِن أكيله
وذلك أنَّه قد بيَّنَ الغرضَ فى البيت الذى بعدَه ، لأنَّه قال :

وإنَّكَ مهما تُعطِ بطنَكَ سُؤْلَه   وفرْجَكَ نالا مُنتهى الذمّ ...

فبيَّن أنَّ إبقاءه جانبَه من الزَّاد مشغولًا ليس مع حاجةٍ إليه ، ولا عن
إمساكٍ يؤدِّى إلى ما ذكرتُه ، فيصيرُ ذلك سبباً فى انقباضِ مَنْ يُوَاكله ، وإنما
يُريد ما يجرِى به عادةُ النَّاس من إظهار الشَّرَهِ والذَّهاب فيه إلى حَدِّ السَّرَف
حتَّى يمدّ يدَه إلى ما يَلِي غيرَهُ ، ويتخطَّى أيدِىَ الناس . وهذا ظاهر . وموضع
« أجمع » من الإعراب جَرٌّ على أن يكون تأكيداً للذَّمّ ، وهو إلى التأكيد
أحوجُ من قوله « منتهى » ، لأنَّه متناولٌ للجنْس والعُموم ، وما يفيده فى الجِنْس
أولى . وقوله « نالَا منتهى الذمّ » ، كأن الأجود أن يأتى المضارعُ[1] فى جواب
الشَّرط ، وقد حصل مضارعاً وظهرت الجزميَّةُ فيه ، لكنَّه أتى به ماضياً
للضرورة .

وقد ألمّ بهذه الطَّريقة المُرَقِّشُ فقال فى الغزَل :

وإنى لأستَحيِي فُطَيْمَةَ جائعاً   خميصاً وأستحيِي فُطَيمةَ طاعِما

وإنى لأستحييكِ والخرْقُ بيننا   مخافةَ أن تَلْقَىْ أخاً لىَ لائما

ألا ترى أنه أجملَ ما فصَّله هذا الشاعر فى قوله : أستحيى طاعماً ، وجائعاً
هذا مع البُعْد بينه وبين صاحبته . ويجوز أن يريد بقوله « مكانَ يَدِى من
جانب الزاد أقرعا » ، أنه يكثِّر الزادَ حتى يَسَعَه وجماعتَهم ويَفضُلَ أيضاً
والأوّل أحسن . وأصل القَرَع ذَهاب شَعَر الرأسِ من داء . وحُكِىَ أنه قد

(١) ل : « بالمضارع » .

نَعامةٌ تُسِنُّ إلا قَرِعَت ؛ لذلك قيل : نَعامٌ قُرْعٌ . والسُّول يجوز أن يكون من سِلْتُ أَسالُ ، لغة هذيلٍ في سأل . ويجوز أن يكون ليَّن همزته وأصله الهمزة . ويجوز أن يكون من سوَّلتْ له نفسُه كذا ، إذا زيَّنَت له . وسوَّل له الشيطان كذا ، إذا أرخَى حبله فيه وفى القرآن : ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ .

وقال الهذلىُّ[1] :

* سَحٌّ نَجاءِ الحَمَلِ الأَسْوَلِ[2] *

فوصَفَ السَّحابَ بالسَّوَل لتدلِّيه واسترخائه ، لكثرة مائه .

٧٥٨

وقال آخر :

١ — أمَا والذى لا يَعْلَمُ السِّرَّ غيرُهُ ... ويُحيِي العِظامَ البيضَ وهْىَ رَمِيمُ

٢ — لقد كنتُ أختارُ القِرَى طاوِىَ الحَشَا ... مُحافَظةً من أنْ يُقالَ لَئيمُ[3]

٣ — وإنى لأَستَحْيِي يَمِينِي وبَيْنَها ... وبَيْنَ فَمِي داجِي الظَّلامِ بَهِيمُ

أقسَمَ بالله تعالى المطَّلِع على الضمائر ، العالِم بخفيَّات الأمور ، والمحيي للأمواتِ بعد أن رَمَّت عظامُها وبَلِيَتْ يومَ النُّشور ، بأنه يختارُ إطْعامَ الضَّيف وإيثارَه بالزادِ وهو محتاجٌ إليه قد اضطَمَرَ حشاهُ من الجوع ، لئلاّ يُنسَبَ إلى اللُّؤْم ، وليُحافِظَ على الشَّرَف القديم . ويروى : « لقد كنتُ أختارُ الخَوَى » . والخَوَى : خَلاء الجَوْف من الطعام ، وخَلاء الدار من السُّكَّان . فأمَّا مَن روى : « أختارُ القِرَى » فمعناه ظاهر ، يريد أختار إقامةَ القِرَى ، فحذف المضاف . وبعضُهم رواه : « لقد كنتُ أختار القَوَى » وزعَمَ أنه مقصورٌ من القَوَاء ؛ وليس بشيء .

(١) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٠) واللسان (سول)

(٢) صدره : * كالسحل البيض جلا لونها *

(٣) التبريزى : « ويروى : محاذرة » .

وقوله : « وإنى لأستحيي يمينى وبينها وبين فمى داجي الظلام » ، فقد زاد فيه على ما تقـدَّم فى المقطوعة قبلَه ، لأنه ذكر أنه يستحيي من نفسه ويَدِه وهو لا ثانىَ له ، فى الليلة الظلماء ، وإنما يريد تعوُّدَه ما يُستحسَنُ فى الأكل ، ويُختار فى الإطعام ، فإذا تفرَّدَ جرى على عادته إذا تجمَّع . وانتصب « محافظةً » على أنه مفعول له . و « طاوى الحشا » ، انتصبَ على الحال ، ويجوز أن يريد إن لم يَرَنى الضيفُ فيما آتيهِ عند الأكل للظَّلام الشامل ، ولم يَبْنِ [له[1]] ما أَترُكُ : فإنى أستحيي من يَدِى فلا أحتَجِنُ ولا أستأثر . والأوّل أحسن . والبَهِيم : أُظْلِم ، وأصله الذى لا شِـيَةَ فيه ولا وَضَح ، أىَّ لونٍ كان ، وأراد به هنا تأكيد السَّواد ، لأنّ قوله « داجي الظَّلام » أفاد الإظلام .

٧٥٩

وقال رجل من آل حَرْب[2] :

١ — باتَتْ تَلُومُ وتَلْحَانى عَلَى خُلُقٍ ... عُوِّدْتُهُ عادةً والجُـــــودُ تعويدُ

٢ — قالت أراكَ بما أنفقْتَ ذا سَرَفٍ ... فيما فَعلْتَ فَهَـلاَّ فيك تَصْرِيدُ

٣ — قلتُ اترُكينِى أُبِعْ مالى بمَـكْرُمَةٍ ... يَبْقَى ثنائى بها ما أَوْرَقَ العُــودُ

٤ — إنَّا إذا ما أَتَيْنَا أَمْرَ مَكْرُمَةٍ ... قالت لنا أَنْفُسٌ حَرْبِيَّـــةٌ عُودُوا

يقول : بَقِيَتْ هذه المرأةُ ليلتَها تَعتِب علىَّ وتذمُّنى فى عادةٍ نشأت عليها ، وخَليقةٍ تخلَّقْتُ بها ، والجودُ عادةٌ وإلفٌ . وقوله « والجود تعويدُ » اعتراض دخَلَ فى أثناء الحكاية عنها ، فقالت لى : أراكَ تُسرِفُ فى الإنفاقِ ، وتَجْرِى

---

(١) التكملة من ل .

(٢) التبريزى : « ذكر المدائنى أن السفاح أمر بقتل رجل من بنى أمية ، فتبعته امرأته وابنه الصغير ، فجعل يفرق أمواله وامرأته تقول : ولدك ولدك ! ؟ فقال ... » .

إلى ما لا يقوم له مالُكَ في التقدير ، ولا يَفِي به وُجْدُكَ عند التحصيل ، فهلّا فطمْتَ نفسَك عنها ، وجَرَيْتَ على سَنَنٍ يُساعِدُكَ عليه حالُكَ ، ولا تَعجزُ عنه مقدرتك . والأصل في التّصريد تقليل الشُّرْب . يقال : سَقاه سَقْيةً مُصَرَّدَةً .

وقوله «قلتُ اتركيني» ، أي أجبتُها بأنْ خلّيني وابتياعَ المكارم بمالي ، ليَبقى ثَناء الناس على أبداً بها ، ومُدَّةَ إيراقِ الشّجَر . فما أورق العودُ ، في موضع الظَّرف . وقوله « ثنائى بها » أضاف المصدرَ إلى المفعول ، والمراد ثناء الناس علىّ . وقال « أبِعْ مالى » ، والمال ثمن المَبيعات ، لأنّ المتبايِعَين كلٌّ منهما يبيع ويشترى.

وقوله « إنّا إذا ما أتينا أمر مكرُمة » ، يقول : من شأننا أن لا نرضى في ابتناء المكارمِ ، وإسداء المعروف والصَّنائع بالإيجادِ فيها ، والا كتفاء بالوِتْر عند فِعْلها ، ولكنّا نشفع ونعاود ، ونُتْبِع الأُكْرُومة بأختها فنطابق .

وقوله « عوَّدتُه عادةً » انتصب « عادةً » على المصدر ، لأنها وُضِعت موضع التعويد ، كما يوضع الطاعة موضع الإطاعة ، يدُلُّ على أنّ ذلك هو المراد قوله « والجود تعويد » . ويقال : تعوَّدتُ كذا واعتدتُه واستعدتُه وأعَدتُه بمعنًى ، وفَحْلٌ مُعِيدٌ ومعاوِدٌ ، أي معتاد للضِّراب ، وإنما قال « أنفسٌ حربيّة » تبجُّحا بأسلافه ، وإظهاراً بأنّ مَن كان منهم لا يأبِى عِرْقُه ونَجْرُه إلاّ الكَرَم[1] .

٧٦٠

وقال أبو كَدْراءَ العِجْلِي[2] :

١ — يا أمَّ كَدْراءَ مَهْلًا لا تَلُومِينِي إنِّى كَرِيمٌ وإنَّ اللَّوْمَ يُؤْذِينِى

٢ — فإنْ بَخِلْتُ فإنَّ البُخْلَ مشتَرَكٌ وإن أَجُدْ أُعْطِ عَفْوًا غيرَ مَمنونِ

---

(١) ل : « من كان منهم يأبى عرقه ونجره إلا الكرم » .

(٢) في الأصل : « أبو كبير العجلى » ، صوابه في ل والتبريزى . وفي المؤتلف للآمدى ١٧١ : « فأما أبو كدراء فهو زيد بن ظالم ، أحد بنى مالك بن ربيعة بن لجيم » .

يخاطب امرأته[١] وقد تضجَّرَ بملامتها ولَذْعةِ[٢] إنكارِها وعتابِها ، فيقول : رِفقاً فيما تَسلُكينه ، وكفًّا عما أُولِعْتِ به ، فإنِّى نشأتُ على الكَرَمِ فلَوْمُكِ يُؤْذينى ولا يُغْنى عنكِ شيئا ؛ لأنِّى لا أقابلُه بالقَبول ، وقد يؤدِّى الإفراطُ فى القول إلى الزِّيادة فى الوَلُوع ، ولأنِّى إن بَخِلْتُ فالمبخولُ به مشتَرَكٌ بينى و بين ورثتى ، و إنْ أجُدْ أُعْطِ مالِى عَفْواً ، أى تَسمَحُ نفسى به فلا أكون مجهوداً ، ولا أمتَنُّ على مَن يأخذُه ، لأنِّى أقضى بالبَذْلِ لذَّةً ومأرَبَةً[٣] ، وأُمضِى هَوًى لى فى مَصارفى ومُنْيَـةً ، مُسْتَخْلَصاً من شِرْكةِ غيرى ، ومُقدَّماً فى وجوه إرادتى و بَذْلِى .

وقوله « فإنَّ البُخْلَ مشتَرَكٌ » إنْ شئت جعلته على حذْف المضاف ، و يكون المراد : فإنَّ ذا البخل . و إنْ شئتَ جعلته المفعولَ ، كما يقال الخَلْقُ والمراد المخلوق ، ودِرهمٌ ضربٌ والمراد مضروب .

والممنون يجوز أن يكون من المَنّ ، وهو القطع ، أى أُديمُ ذلك إدامةَ مَنْ يتصرَّف فى مِلْكه لا من يتصرَّف فى مُشتَرَكه . و يجوز أن يكون من المَنِّ والأذَى . وقال بعضهم : أراد بقوله إنَّ البخلَ مشتَرَكٌ ، أنَّ الناس أكثرُهم بُخَّال ، فيكونُ لى شركاء . وهذا كلامُ معتذِرٍ من البخلِ لا كلامُ ذامٍّ له . ومع ذلك فعَجُزُ البيت يَبْعُد عنه ولا يلائمه ، وقد أبانَ عمَّا ذكرتُه فيما يليه ، لأنَّه قال :

٣ — لَيْسَتْ بباكيةٍ إبِلى إذا فَقَدَتْ صَوْتِى ولا وارثِى فى الحَىِّ يَبْكِينِى

٤ — بَنَى البُنَاةُ لَنَا مَجْداً ومَكْرُمَةً لا كالبِناء من الآجُرِّ والطِّينِ

(١) ل : « حليلته » .

(٢) ل : « ولذعه » ، وتقرأ على أنها فعل فاعله « إنكارها » .

(٣) المأربة ، مثلثة الراء ، بمعنى الأرب ، وهو الحاجة .

يقول : إنِّى لا أُبْقِي على إبلى ولا أُبقِى منها ما يَفضُلُ عن إفضالى ، فإذا متُّ عنها وفقَدَتْ صوتى فى زَجْرِها والأمرِ بتفريقها ، فإنَّها لا تبكينى ؛ وكذا وارثى لا يحصِّل شيئاً من إرْثى فلا تَراهُ يندُبنى . ثم قال : إنَّ أسلافى بَنَوا لى مَجْداً وكَرَماً ، فأحتاجُ أن أقتدِىَ بهم وأعْمُرَ خِطَطهم ، وإنْ لم يكنْ كالبناء المبنىِّ من الطِّين والآجرّ ، لأنَّ المكارم تَسترِمُّ فتدعو إلى تفقُّدها ، بخلاف ما تُتفقَّد به المصانعُ إذا استرمَّت .

٧٦١

وقال عُتْبَةُ بن بُجَير[(١)] :

١ — لِحَافِى لِحافُ الضَّيفِ والبَيتُ بَيْتُهُ ولم يُلْهِنِى عَنْــهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

٢ — أُحَدِّثُه إنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَى وتَعْلَمُ نَفْسِى أنَّه سَوْفَ يَهْجَعُ

يقول : إذا نَزَل الضَّيف بى فإنِّى أُوثِرُه بأشرفِ مكانٍ من بيتى ، وأعزِّ فِراشٍ لى ، ولم يَشغَلنى عنه لا الأهلُ ولا الولد ، فأخدُمُه وأؤنِّسُه ، وأبسُطُ منه وأخرِّفه[(٢)] ، وكلُّ ذلك من شَرْط القِرَى وإنْ لم يكن طعاما ؛ ومع ذلك تعلمُ نفسى وقتَ هُجوعِهِ فلا أُمِلُّه ولا أُتعِبه ، ولا أَشغَلُه عن راحتِه ولا أُضجِرُه .

فإن قيل : كيف تَحمَّدَ بقوله « أحدِّثه إنَّ الحديثَ من القِرى » ، وقد قال غيره فى إنزال الضيف « ولم أقْعُدْ إليه أُسائلُه[(٣)] » ؟ قلتَ : ليس قوله أحدِّثه ممَّا انتفى منه ذاكَ فى قوله ولم أقعُدْ إليه أسائله ؛ لأن ذاكَ أشار إلى ابتداء النزول ، وذلك وقتٌ الاشتغال بالاحتفال له أَوْلَى . وهذا يريد أنَّه يحدِّثه بعد الإطعام ،

(١) التبريزى : « وقيل إنه لمسكين الدارمى » . وانظر ما سبق فى ١٥٥٧ .

(٢) كذا وردت الكلمة بهذا الضبط فى النسختين . والذى فى المعاجم : خرفت فلانا أخرفه ، إذا لقطت له الثمر . وأخرفه نخلة : جعلها له خرفة يخترفها .

(٣) قطعة من بيت للنمرى ، سبق فى الحماسية ٧٤٩ ص ١٦٩٨ .

كأنّه يسامِرُه حتّى تطيبَ نفسُه ، فإذا رآه يَميلُ إلى النّوم يخلّيه .

قال الأصمعيّ : من سنّة العرب أنّ الغريب منهم إذا نَزَل فصادفَ هَشاشةً وفكاهةً أيقنَ بالتكرُّم وحُسْنِ التّفقّد ، وإن رأى إعراضاً والتواء عَرَفَ ابتذالاً وحِرْماناً . فلذلك قال « إنّ الحديث من القِرَى » .

٧٦٢

وقال عَمْرو بن أَحْمَرَ الباهِليّ[١] :

١ — ودُهْمٍ تُصادِيها الوَلائدُ جِلّةٍ إذا جَهِلَتْ أجوافُهــا لم تَحلَّمِ

٢ — تَرَى كلَّ هِرْجابٍ لَجُوجٍ لِهَمَّةٍ زَفُوفٍ بِشِلْوِ النّابِ هَوْجاءَ عَيْلَمِ

أراد بالدُّهم قُدوراً سُوداً . ومعنى « تُصادِيها » تداريها وتُمارسُها في النَّصْب والإنزال وإعدادِ الآلات لها . والولائد : الجوارى . والجِلّةُ : الكِبار العظام . وقوله « إذا جَهِلتْ أجوافُها » ، يريد إذا غَلَتْ وأرْزَمَتْ . فعدَّ ذلك جهلًا منها . وقال « أجوافُها » جَمْعاً على ما حَوْلَه . وقوله « لم تَحلَّمِ » أراد لم تَسْكُن بالهُوَينى لعظَمها .

وقوله « تَرَى كلَّ هِرْجابٍ » ، فالهِرْجاب : الضَّخم الثقيل . واللَّجوج هي التي إذا استَعَرت النّارُ تحتها لَجَّت . واللَّهَمَّةُ : الكبيرة التي تلتهم الأوصالَ الموفَّرة ، والأعضاء المورَّبة . وقوله « زَفوف بشِلْو النّاب » أي لسعَتها ترمى جوانبُها بأشلاء النّاب وتَزِفُّ بها . والزَّفيف : ضَربٌ من السَّير . والهَوْجاء : التي كأنّ بها هَوَجاً وجُنوناً . والعَيْلم : الواسعةُ الكثيرة الأَخْذ من المَرَق ، كالعَيْلَم من الآبار .

---

(١) هو عمرو بن أحمر بن العمرد الباهلي ، من شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام ، أسلم وغزا مغازى في الروم ، وتوفى على عهد عثمان . الإصابة ٦٤٦٠ والمؤتلف ٣٧ وابن سلام ١٢٩ والخزانة (٣: ٣٨) واللآلئ ٣٠٧ .

٣ — لَهَا لَغَطٌ جِنْحَ الظَّلَامِ كأَنَّها ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ عَجارِفُ غَيْثٍ رَائِحٍ مُتَهَزِّمِ

٤ — إذا رَكَدتْ حَوْلَ البُيوت كأنَّما ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ تَرَى الآلَ يَجْرِى عن قَنَابِلَ صُيَّمِ

اللَّغط : الصَّوت ، يعنى هزِيزَها فى الغليان . وانتصب « جِنْحَ الظَّلام » على الظَّرف ، يريد أنَّها تَغلِى إذا جنَحَ الظَّلامُ بالعشىّ ، وذاكَ وقتُ الضيافة ، وكأنَّ لَغطَه صوتُ رعدٍ من غَيْثٍ ذى تَعجرُفٍ . والمَجَارف : شِدَّةُ وقوع المطَرِ وتتابعه ، يريد أنَّه هبَّت[1] الرِّيحُ فيه وصار له هَزْمَةٌ أى صوت . شَبَّهَ صوتَ القِدْرِ فى غَلَيانها بصوت الرَّعد من سَحَابٍ هكذا .

وقوله « إذا ركَدتْ حول البيوت » رجع إلى صفة القُدور كلِّها ، فيقول : إذا نُصِبت فثَبتَتْ على الأثافىّ حولَ البيوت وقد أُشْبِعَت وحُفِّلت باللُّحوم والدُّسوم ، تراها تَبرُقُ إهالتُها ، وتتلألأ تلألُؤَ الآلِ ، وقد جَرَى على مُتُون خُيولٍ واقفة ، فساعَدَه بريقُ السِّلاح . والقنابل : الجماعاتُ من الخيل ، حدها قنبلة[2] . والصُيَّم : جمع صائم ، وهو القائم . والصَّوْم قيامٌ بلا عَمَل . وصام الفرسُ على المِعْلَف ، إذا لم يَعتلِف .

٧٦٣

وقال المرّارُ الفقعَسِىُّ[3] :

١ — آلَيْتُ لا أُخْفِى إذا اللَّيلُ جَنَّنِى ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ سَنَا النَّارِ عن سَارٍ ولا مُتَنَــوِّرِ

٢ — فيا مُوقِدَىْ نارِى ارْفَعَاها لعلَّها ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ تُضِىءُ لِسَارٍ آخِرَ اللَّيـلِ مُقْتِرِ

(١) فى الأصل : « إنه إذا هبت » ، صوابه فى ل .

(٢) كذا ضبطت فى النسختين بضم القاف والباء . وضبطت فى اللسان والقاموس بفتحهما .

(٣) هو المرار بن سعيد بن حبيب بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس ، شاعر إسلامى . المؤتلف ١٧٦ والمرزبانى ٤٠٨ والأغانى (٩ : ١٥١ — ١٥٤) والخزانة (٢ : ١٩٣ — ١٩٧) والشعراء ٦٨٠ — ٦٨٣ .

يقول : أَخَذتُ على نفسي مُولياً ومُقْسِماً ، أنّي لا أُخفِي إذا اللّيلُ سترَني بظلامِه ضوء نارِي عن سارٍ يَبغِي مبيتاً ، ولا ناظرٍ [إلى نارٍ[1]] ليهتدي بها .

ثمّ تركَ الإخبارَ عن نفسه ، وأقبَلَ يخاطب موقِدَيْ ناره فقال ارفعاها أي اجْعلاها في يَفَاعٍ ومَكانٍ مُشْرِف ، فعسى أن تُضيء لِسارٍ مُرْمِلٍ فقيرٍ في آخر اللّيل ، وقد كابدَ ما كابدَ من أوّله ، فخَلَص إلينا ، واهتدى بنارنا . والمتنوِّر النّاظر إلى النّار . وإنما قال « فيا موقدَيْ ناري » على عادتِهم في جَعْلِ مُزَاولِ الأمور اثنَيْن اثنين . على ذلك قولُ الآخَر[2] :

* ترَى جَازِرَيْه يُرْعَدانِ[3] *

وكما قالوا في الحَلَب البائن والمُستَعلِي ، وفي الاستقاء القابل والمُستَقِي .

و « لعلّ » يعد مع أفعال المقارَبة وإنْ كان حرفاً . والمُقْتِرُ : الفقير . ويقال قَتَر وأقْتَر بمعنى . وقد يُجعَل للمُقْتِرِ نقيضَ المكثِر .

٣ — وماذَا علينا أن يُواجِهَ نارَنا كَرِيمُ المُحَيّا شاحِبُ المُتَحَسَّرِ

٤ — إذا قالَ مَنْ أنتم لِيَعْرِفَ أهْلَها رَفَعْتُ له باسمي ولم أتنكَّرِ

٥ — فبِتْنا بخَيْرٍ مِنْ كَرَامةِ ضَيْفِنا وبِتْنا نُهَدِّي طُعْمَةً غيرَ مَيْسِرِ[4]

قوله « وماذا علينا » ، أي أيُّ ضررٍ يلحقُنا في أن يَتوجَّه إلى نارِنا رجلٌ كريمُ الوجه ، هزيلُ المعرّى ، قد ظهرَ أثرُ الضُّرّ على متحسَّرِه ، أي حيث يتحسَّرُ الثّوب عنه ، كالوجه وسائرِ مالا يغطّيه . وقوله « كريم المحيّا » ضدّ قولهم لئيم المَقَذّ ، لأنّ المحيّا هو الوجه ، فأضيف الكرمُ إليه . والمَقَذّ : منتهى الشَّعَر

(١) التكملة من ل .

(٢) هو زينب بنت الطثرية . انظر ص ١٠٤٩ .

(٣) تمامه : ترى جازريه يرعدان وناره عليها عداميل الهشيم وصامله

(٤) التبريزي : « ويروى : « نهدى هدية » .

من القَفا ، فأضيف اللُّؤم إليه ، وقد قيل : حُرُّ الوجه ، وعَبد القَذَّ ، وعَبْدُ القفا .

وقوله « إذا قال من أنتمْ » ، يريد أنَّه يتعرَّف لينظرَ هل على النَّار من يَكْرُم قِراه ويطيبُ النُّزولُ عليه . وقوله « رفعتُ له باسمى » جوابُ إذا ، أى عَرَّفته اسمى إذا سأل ، ولم أُلبِسْ نَفْسِى خُمولًا ، ثِقَةً بأنَّه يَرْضَانِى لنزوله ، ولأنَّهم كانوا يَرُوزون المستضافَ بالكلام[1] ، لينظُروا ماذا يكون منه من استهلالٍ واهتزاز ، أو ازورارٍ وانقباض .

وقوله « فبِتْنا بخيرٍ من كرامةِ ضَيْفِنا » ، يريد : احتفَلْنا لضيفِنا فشَرِكْناه فى الخير المعدّ له ، وبقِينا لياتَنا نُهدِّى إلى الجيران مِن فَواضل الطَّعامِ والزَّادِ عنَّا وعن ضيفنا ، وذلك « غير مَيْسِرٍ » ، أى لم يكن مما ضُرِبَ عليه بالقِداح وتياسَرْناه أى اقتسمناه ، بل كانَ مما نَجْشَم للضَّيف لا يَشرَكنا أحدٌ فيه .

٧٦٤

وقال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ[2] :

١ — أرَى أمَّ حَسَّانَ الغَدَاةَ تَلومُنى   تُخَوِّفُنى الأعداء والنَّفْسُ أخْوَفُ[3]

٢ — لَعَلَّ الذى خَوَّفْتِنا مِنْ أمَامِنا   يُصادِفُه فى أهـــــله المتخلِّفُ

يقول : لمّا هممتُ بالسَّفر وجعلتُه منِّى ببالٍ اعترضَتْ هذه المرأةُ علىَّ وأقبلَتْ تلومُنى وتحذِّرنى الأعداء فى الوجه الذى أردت تيْميمَه ، ونَفْسى أشدُّ خوفاً لأنها حسَّاسةٌ حذِرَة ، لـكنِّى تجلَّدْتُ لها وأجَبْتُها بأنَّ الذى أنذَرْتناهُ من قُدَّامنا ، والسَّمْتِ الذى هو نِيَّتُنا وطِيَّتنا ، لعلَّه يَلْقاه المتخلِّفُ عن السَّعْيِ فى طلَب الرِّزق

---

(١) وازه يروزه : اختبره .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ ص ٤٢١ . والأبيات فى ديوانه ١٠١ وبعدها فيه ثلاثة أخرى .

(٣) أم حسان هذه امرأة عروة ، وكانت قد نهته عن الغزو ، كما فى الديوان .

المقيمُ في أهلِه راضياً بأدْوَنِ العَيش ؛ لأنَّ الحذَر لا يُغني عن القَدَر ، وقد يُؤتَى الإنسانُ من ناحية أَمْنِه ، ويصادف فيه ما لا يصادفه الخائفُ من ناحية خوفه .
وقوله « خَوَّفتِنا » حذَف الضميرَ العائد إلى الذى منه ، استطالةً للاسم بصِلَته .
وقوله « مِن أمامِنا » ، يريد من حيث نأتمُّه ، والوجهِ الذى نتوجَّه إليه ، وذلك قُدَّامَه لا شكَّ . وموضع « يصادفه » رفعٌ على أن يكون خبرَ لعلّ ، و « فى أهله » تَعَلَّق الجارُّ منه بفعلٍ مضمر وموضعُه نصبٌ على الحال ، أى يصادفه المتخلِّفَ مقيماً فى أهله ومستقِرًّا .

٣ — إذا قُلْتُ قدجاءالغِنَى حال دُونَه أَبُو صِبْيَةٍ يَشكُو المَفاقِرَ أعْجَفُ
٤ — لهُ خَلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحقُّ دُونها كريمٌ أصابَتْهُ حَوادِثُ تَجرُفُ[1]

يقول : إذا اتَّفق لى فى مقصَدٍ من مقاصدِى ما أُقَدِّر فيــه حصولَ الغنى وجوازَ الاعتماد عليه فى مَبَاغى الدُّنيا ، ووعَدْتُ نفسى له ومن أجله بالاكتفاء عِندَ الفِــكْر فى مُؤَن العِيال ، حالَ بينى و بينه اجتداءُ صاحبِ عَيْلَةٍ ، ووالدِ صِبْيةٍ ، ظاهِرِ الفقرِ ، سيِّئ الحالِ ، يشكو زمانَه وتأثيرَ الضُّرِّ فيه ، وعليه مما يتألَّم منه شواهدُ تمنع دخول حقٍّ دونَ خَلَّتِه ، وتأبى أن يقالَ فى شيء من المفاقِر هو أولَى منه . [فــكأنَّه[2]] يعنى بالحقِّ نسيباً أوجاراً أومتحرِّماً بحُرمة ، لأنَّه متى قُوبِلَ حالُه بحالِ مَن ذَكَرَه لم يوجِبْ تقديمه عليه ، ولم يستحقَّ العدولَ عنهُ إليه . هذا من طريق الوُجوب له ، ثمَّ هو فى نفسِه يرجِــعُ إلى كرمٍ ومُروءة ، ويَسْتَظهِرُ بعُنوانِ نَعْمَةٍ وتُرْفَةٍ ، وقد نابته نوائبُ تجرُف المــال ، أى تَتْوِيه جملةً لا تُزِيلُه شيئاً بعدَ شيء ، كما يُكالُ الشىء أو يُوزَن ، فعهدُه به قريب ، والتوفُّر عليه متعيِّنٌ مفروض . فإذا التزَمْتُ له واجبَه ، وآثَرتُه بصَرْفِ ما فى يدى إليه ، عُدتُ

(١) الديوان : « أصابته خطوب » .
(٢) التكملة من ل .

محتاجاً كما كنتُ ، وساعياً فى الطَّلَب كما ابتدأت . وقوله « كريم » من صفة أبو صِبْيَةٍ ، وقد تابَعَ بينَ صفاتٍ من مُفردٍ وجملة .

٧٦٥

وقال يَزِيدُ بن الطَّـثْرِيَّة[1] :

١ — إذَا أرْسَلُونى عِنْدَ تَقْدِيرِ حاجَةٍ أُمارِسُ فيها كُنتُ عيْنَ المُمارِسِ

٢ — ونَفْعِيَ نَفْعُ المُوسِرِينَ وإنما سَوَامِى سَوَامُ المُقتِرِينَ المَفَالِسِ

يقول : إذا أرسلَنِي عشيرتى فى مُهمٍّ لم يُقدِّرون ارتفاعَه بى وبسَعيِى ، ويؤمِّلون انتفاعَهم به عند اجتهادى ، فاعتَمَدُوا مُزاوَلَتِى ، ووَثِقُوا بالنَّجاح لدى ممارستى ، كنتُ فيه حقَّ المارِس ، لا أضجِّع فيه ولا أفرِّط ولا أقصِّر ، بل زِدتُ على ظَنِّهم بى ، وتجاوَزْتُ الغايةَ التى يَقِفون فيها من رجائى ، فنَفْعِى نَفْعُ المُكْثِرِينَ وإن كان مالِى الراعيةُ مالَ المُفلسين[2] المُقترِين . وقوله « المَفَالِس » ، الإفلاس : لفظةٌ عربيّة وإن كَثُرَ التَّداولُ لها فى ألسِنَة العامّة . وكان الأصلُ فى أفلَسَ الرّجلُ أن يصيرَ صاحب فُلوسٍ بعد أنْ كان صاحبَ أموال . وتَفْليس الحاكم معروف ، وهو من هذا ، كأنَّه ينْسُبُه إلى ذلك ، فهو كالتَّعديل والتَّنسيق . والسَّوَام من قولهم : سامَتِ الماشيةُ تسوم ، وهى سائمة . والمِراس : مُزاوَلَةُ الشَّىْء ، ويقال : مَرِس الحبلُ ، إذا نَشِب فى البَكْرة عند الاستقاء . ويقال لمن ردَّه إلى موضعه أمْرَسَ فهو مُمْرِس . على ذلك قولُه :

* بئس مَقَام الشَّيخِ أمْرِسْ أمْرِسِ[3] *

---

(١) سبقت ترجمته وتحقيق نسبته فى الحماسيه ٥٤١ ص ١٣٤٠ .

(٢) ل : « المقلين » .

(٣) أنشده فى مجالس ثعلب ٢٥٦ واللسان (مرس) . وبعده :

* إما على قعو وإما اقعنسس *

ثمَّ يقال في الصَّبور على طلَب الشَّيء القوىّ: هو مَرِسٌ، وشديدُ المارَسِ والمِراس. وقوله «أمارس فيها» في موضع الجرّ على أن يكون وصفاً لحاجة

٧٦٦

وقال سالم بن قُحْفَانَ[1]، وقد عاتبَتْه امرأتُه:

١ — لقَدْ بَكَرَتْ أمُّ الوَليد تَلومُني ولم أجْتَرِم جُرْماً فقُلْتُ لها مَهْلا[2]

٢ — فلا تُحْرِقِيني بالمَلَامةِ واجْعَلِي لِكلِّ بعيرٍ جَاء طالبُه حَبْلا[3]

٣ — فلَمْ أرَ مِثْلَ الإبْل مَالاً لمُقْتَنٍ ولا مِثْلَ أيَّامِ العَطاء لها سُبْلا

يقول: ابتكرت هذه المرأةُ لائمةً لى وعاتبةً علىَّ من غير جنايةٍ جنَيْتُها واكتسبتها، ولا جريمةٍ اجترمْتُها وقدّمْتُها، فقلت لها: رِفْقاً في قولِكِ لا خُرْقا وصبراً على مَضَضِك[4] واقتصادا؛ ولا تُحرِقيني بنارِ عَتْبِك، وسُلْطانِ غيظِك ولكن اتَّبِعِي[5] مُرادى، واهتَدِى بهَدْيِى، واثقةً بأنَّ الصَّوابَ في فعلى وقَولى، وجوامعَ الخير مقرونةٌ بعَفْوِى وجَهدِى، واجعَلِى لكلِّ بعيرٍ نَصَصْته عليه لسائلٍ حبلًا، ليقتادَه به، مشارَكةً لى في الكرمِ وابتغاء الصَّلاح وموافقةً فيما أُوثِرُه من وجوه الاصطناع، لا يَظْهَرُ منكِ تكرُّه، ولا اشتطاط وتَسَخُّط. واعلَمِى أنى لم أرمالًا مثلَ الإبل لمن يَقْتَنِى خيرا، ويدَّخِرُ أجراً ولا مثلَ أوقات العَطاء سبيلاً لها وممَرّا. ويجوز أن يريد بقوله «مالاً لمُقْتَنٍ

---

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٦٨٤ ص ١٥٨١.

(٢) سبقت هذه الحماسية برقم ٦٨٤ مع إسقاط البيت الأول هنا وزيادة بيت بين الثاني والثالث.

(٣) التبريزى: «جاء سائله».

(٤) كذا في ل. وفي الأصل: «على خصمك».

(٥) في الأصل: «ابتغى»، صوابه في ل.

أى لمن يجمع،[١] ما يقتنيه و يجعله الأصلَ فى يساره وغناه . وبَعْدَ ذلك لتحويلها إلى العُفاة برُمَّتها أعْوَدُ عليهم وأَرَدُّ ، وأبقَى فى حالهم وأغنَى . والاقتناء : اتِّخاذ الشَّىء للنَّفس لا للبيع . ويقال : هذه إبلُ قُنْيَةٍ ، وهذه مالُ قُنْيان ، لِمَا يُتَّخَذ للنَّسْل لا للتِّجارة . ويقال قَنَا يَقْنُو ، وقَنِى يَقْنَى ، لغتان ، ومن الثَّانية قولهم : أقْنَ حياءَكِ . ومن الأولى قوله :

* كذلِكَ أقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ[٢] *

٧٦٧

فرمَتْ إليه امرأتُه بخِمارها وقالت : صيِّرْهُ حبلاً لبعضها

وأنشأتْ تقول :

١ — حَلَفْتُ يميناً يا ابْنَ قُحفانَ بالَّذِى تكفَّلَ بالأرزاقِ فى السَّهْلِ والجَبَلْ

٢ — تَزَالُ حِبَالٌ مُبْرَماتٌ أُعِدُّها لها ما مَشَى يومًا عَلَى خُفِّهِ جَمَلْ

٣ — فأعْطِ ولا تَبْخَلْ إذا جاء سائلٌ فَعِنْدِى لها عُقْلٌ وقد زاحَتِ العِلَلْ

يقول : أقسمتُ يميناً بالله الذى تضمَّنَ الأرزاقَ لمرتزِقيها ، وفطَر الخَلْقَ الذى اخترعَهم فى سَهْلِ الأرض وحَزْنها ، لا تَزالُ من جهتى حِبالٌ مُستحصَدةٌ معدَّة لإبلِكَ التى صَرَفْتَها فى مصارفِ بَذْلِكَ مدَّةَ الدهر ، اقتداء بك ، ودُخولاً تحتَ طاعتِك . فالمتكفِّل بالأرزاق هو الله تعالى فى أقطار الأرض ، وقد وَثِقْنا بتفضُّله والتعيُّشِ من فضله .

(١) فى الأصل : « ولمن يجمع » ، صوابه فى ل .

(٢) البيت للمتلمس فى ديوانه ٤ مخطوطة الشنقيطى ، والشعراء ١٣١ . وصدره :

* فألقيتها بالثنى من جنب كافر *

وقولها « تَزَالُ » حذفَتْ حرفَ النّفى منه لأمْنِها من الالتباس ، وقد مرّ القول فيه فى غيرِ موضع .

وقولها « فأَعْطِ » ترغيبٌ منها وتحضيض ، أى توسَّعْ فى البَذْل منها ، ودَعِ البُخْلَ بها ، فلا اعتراضَ عليك ، ولا مُرادَّةَ معك ، والعُقَل من جِهَتِى معَدَّة ، والعللُ معى مرتفعة . ويقال : أَزَحْتُ العِلّةَ فى كذا فزاحَتْ ، أى أزلتُها فزالت . وحكى الدُّريدىُّ : زاح الشىءُ يَزِيحُ ويَزُوح زَيحًا وزَيَحانًا ، أى تحرّكَ عن مكانه . وزُحْته فانزاح ، وأزَحتُه فزَاح ، وهو مَزُوحٌ ومُزَاحٌ . وقولها « ما مشى يومًا » فى موضع الظّرف ، والعامل فيه لا تزال حِبالٌ .

٧٦٨

وقال الأقرع بن مُعاذٍ[(١)]

١ — إنّ لنا صِرْمةً تُلْفَى مُحَبَّسَةً ... فيها مَعادٌ وفى أربابها كَرَمُ

٢ — نُسَلِّفُ الجارَ شِرْبًا وهى حائمةٌ ... ولا تَبيتُ على أعناقِها قَسَمُ[(٢)]

٣ — ولا تُسَفِّهُ عِندَ الحَوضِ عَطْشَتُها ... أحْلامَنَا وشريب السَّوْءِ يَحتَدِمُ[(٣)]

الصِّرْمَةُ : القليل من المال ، ويريد بالمحبَّسة أنّها مُناخَة بالفِناء لا تُسَامُ فى المراعى . وقوله « فيها مَعَاد » أى أنّها تحتمل ما تُحَمَّل من مُؤَن العُفاةِ عَوْدًا على بَدْء . وقوله « فى أربابها كرم » أى فى مَلّا كها سعةُ صدرٍ وحُسْنُ صبرٍ على ما يعتريهم من حُقوق السُّؤّال والمُجتَدِين .

---

(١) اسمه الأشيم بن معاذ بن سنان بن عبد الله بن حزن بن سلمة بن قشير ، كان فى أيام هشام بن عبد الملك . المرزبانى ٣٨٠ .

(٢) التبريزى : « تسلف » بالتاء ، و « يبيت » بالياء .

(٣) فى الأصل : « وشروب » ، صوابه فى ل والتبريزى .

وقوله « نسلِّفُ الجار شِرْباً وهى حائمة » الحائمة : العِطاش ؛ يقال : هو يَحُوم حولَ الماء ، إذا دارَ حولَه. وهو حائم لائب ، إذا اشتدَّ عطشُه وحامَ حولَ الماء. فيقول : نقدِّم الجارَ على أنفسنا عنـد سَقْيِ الإبل وإن كانت إبلُنا عِطاشاً ، كأنّا نَجعل الزيادةَ على نصيبه كالسَّلَف عندَه. ويقال : أسلفتُ كذا وسَلَّفْتُ جميعا.

وقوله « ولا تبيتُ على أعناقها قَسَم » يعنى الأَيمان التى يؤكّد بها للمعاذير[1] والعِللُ عندالمنع والبُخْل. فيقول : لاتبيت صِرْمَتُنا وقدلزِمَها كفّارةُيمين احتجزْتُ بها عن البَذْلِ. ولك أن تروى : « تُسَلِّفُ الجـار » بالتاء ، حتى يكون الإخبار فى العَجْز والصَّدر عن الإبل ، والحـال لا تلتبس فى أنّ ذلك كلّه لأربابها.

وقوله « ولا تَسَفَّه عند الحوْض عَطْشَتُها » ، أى لا تستخفُّ حاجتُها إلى المـاء أحلامَنا فنَبْطِشَ بشُركائنا فى الوِرْد ، ونفعلَ ما يفعله للتعزُّز والمقتدر من الهَضِيمة فى الشِّرب ، لأنّ شَرِيبَ السَّوءِ هو الذى يتحفَّظ ويغضَب فيحتدم. والاحتدام : شدة الإحماء[2]. قال الأعشى :

* وهاجِرَةٍ حَرُّها مُحْتَدِم[3] *

٧٦٩

وقال يزيد بن الجَهْم الهِلالىّ[4] :

١ — لقد أمَرَتْ بالبُخْلِ أمُّ مُحَمَّدٍ   فقلتُ لها حُثِّى على البُخْلِ أحمَـدَا

---

(١) ل : « التى تؤكد لها المعاذير ».
(٢) ل : « والاحتدام : الاحتاء ».
(٣) صدره فى ديوانه ٣٠ :

* وإدلاج ليل على خيفة *

(٤) التبريزى : « ويروى لحميد بن ثور ». وقد نسبت فى معجم الأدباء (١١ : ١١) لحميد بن ثور ، وفى اللسان (سـقط) ليزيد بن الجهم. وانظر ديوان حميد ٧٦ طبع دار الكتب المصرية.

٢ — فإنّي أمرُؤٌ عوّدتُ نفسِيَ عادةً   وكلُّ أمرِئٍ جارٍ على ما تعوّدَا

يقول: أمرَتْني هذه المرأةُ بالإمساك عند البَذْل: والإبقاء[1] على المال، فقلتُ لها حُثّي على البُخْلِ وابغي عليه إنساناً أحمَدَ لك وأرضى بوَعْظِك منّي، فيكون أحمد مفعولا، وقد نابت الصِّفة عن الموصوف. ويُروَى: «حُثّي على الجُود أحمَدا» ويكون قوله «أحمد» منتصبا بإضمار فعل، كأنه لما قال حُثّي على الجود نوَى أْتي ما هو أحمدُ لك. وهذا كما يقال: وراءك أوسَعَ لك، واتّقِ اللهَ أعْوَدَ لك. وفي القرآن: ﴿ انتهُوا خيرًا لكم ﴾ ومَن روى «حُثّي على البُخْل»، يجوز أن يكون أحمدُ اسماً علَماً لولدٍ لها أو قريبٍ منها، فقال: أبغي ذلك على البُخْل من دُوني، لأنّي لا أُصغِي إليك ولا أَئتمِرُ لك، فقد تعوّدتُ منذُ كنتُ عادةً فَطْمِي عنها ومَنْعِي منها يتعذّر ويبعد، وكلُّ رجلٍ سيَجْري على عادتِه، وما هو من هِجّيراه وسَمْتِه[2].

٣ — أحِينَ بَدَا في الرّأسِ شَيْبٌ وأقبلَتْ   إليّ بنو غَيْلانَ مَثْنَى ومَوْحَدَا

٤ — رَجَوْتِ سِقاطِي واعتِلالِي ونَبْوَتِي   وراءكِ عَنّي طالِقاً وارْحَلِي غَدَا

ألف الاستفهام وإن كان المراد بها التوبيخ والتقريع، يَطْلُب الفعل وهو رجوت. فيقول: أرَجَوْتِ منّي بعد اشتعال الشَّيب في رأسي اتّباعي لكِ، وقَبُولي منكِ، وبعدَ أن ألِفَ النّاسُ منّي طريقةً أجرِي عليها وقد أقبلتْ بنو غَيلانَ شُرّعًا نَحْوِي اثنين اثنين، وواحداً واحداً، من طُرُقٍ مختلفة، ووُجوهٍ مفترِقة، وقد علّقوا آمالَهم بي، يكون منّي نُبُوٌّ عنهم، واعتلالٌ عليهم، وزَوالٌ عن السُّنّة المعروفة فيهم ومعهم، إلى غيرِها. وقوله «سِقاطِي»، يقال

---

(١) في الأصل: «والبقاء»، صوابه في ل.

(٢) الهجيرى، بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة: الدأب والشأن والعادة.

لمن لم يأتِ مأتَى الكِرام : هو يُسَاقِط . قال الشاعر[1] :

كيفَ يَرْجُونَ سِقاطِى بَعْدَ ما ‏ ‏ جَلَّلَ الرَّأسَ مَشِيبٌ وَصَلَعْ

والمعنى : كيفَ أمَّلْتِ مُسَاقَطتى عن هذا الدَّأْبِ مع اجتماع هذه الأحوال ، ومَعَ تجربتى وكالى ، اذهَبى عنِّى بائنةً[2] منِّى وارحَلِى غَدًا . وقوله « وراءكِ » ظَرفٌ فى الأصل ، وقد جعله اسماً للفعل . والمراد : ابْعُدِى عنِّى. وعطف عليه « وارحَلِى » وهو فعلٌ ، وهذا يبيِّن قوَّةَ الظروف إذا جُعِلَت أسماء للأفعال ، لأنه لولا ثَباتُها فى النِّيابة عن الأفعال والاستغناء بها عنها ، لَمَا جاز عطفُ الفعل عليها ؛ وذلك أنَّ المعطوفَ والمعطوفَ عليه فى حكم المُثَنَّى ، والتَّثنية لا تَحْسُن إلاَّ بين متوافِقَين ، فكذلك العطف . ومَثْنَى ومَوْحَدُ مما عُدِل فى النَّكِرة ، فلا ينصرف فى المعرفةِ والنَّكرةِ جميعاً ، لكونه معدولاً عن أسماء الأعداد وعن الإفراد إلى التكرير . و « طالقاً » انتصَبَ على الحال من قوله « وراءكِ عَنِّى » ، ولم يقل طالقةَ لأنه أخرجَه مَخرج النَّسَب[3] .

٧٧٠

وقال آخر :

١ — إنِّى وإنْ لم يَنَلْ مالى مَدَى خُلُقِى ‏ ‏ فَيَّاضُ ما مَلَكَتْ كَفَّاىَ مِنْ مالِ

٢ — لا أحبِسُ المالَ إلاَّ رَيْثَ أُتْلِفُهُ ‏ ‏ ولاَ تُغَيِّرُنِى حالٌ إلى حالِ

يقول : أنا وإن كان مالى لا يقوم بمُؤَنى ، وكان عاجزاً عن غايةِ خُلُقِى ، وقاصراً دونَ مدى بَذْلى وإفضالى ، فإنِى أصُبُّ ما تملكه يداىَ فيفيض فيضاً

(١) هو سويد بن أبى كاهل . انظر البيت ٧٩ من المفضلية ٤٠ .

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « نائية » .

(٣) ل : « النسبة » .

لا أمنعهُ طالباً له كيف يتوسَّل ، وبماذا يتوصَّل ، إذ كنت لا أحبِس المال ولا أخزُنه إبطاءه إلاّ قَدْرَ الوقتِ فى إتلافِه وتفرقته ، ولا تَنْقُلنِى[1] حالةٌ تعرِض عن حالِى الأُولى فيما أعتاده وآلَفُه . يريد أنه مستمرٌّ فيما يَجرى عليه كيف واتاهُ الزّمان ، وأداره الأحوال . وقوله « إلاّ رَيْثَ » فى موضع الظّرف من لا أحبِسُ .

٧٧١

وقال سَوَادةُ اليَرْبوعىّ :

١ — لقد بَكَرَتْ مَىٌّ عَلَىَّ تلومُنِى   تقولُ ألاَ أهلَكْتَ مَنْ أنتَ عائلُهْ[2]

٢ — ذَرِينى فإنّ البُخْلَ لا يُخْلِدُ الفَتَى   ولا يُهْلِكُ المعروفُ مَنْ هُوَ فاعِلُهْ

يقول : اغتدَتْ هذه المرأة إلىّ لائمةً وقائلةً : لقد أهلَكْتَ مَن تكفُلُه وتَمُونه ، إذْ كنتَ بعَرَض الفَقْر ، لتضييعِك ما تملكه ، وسَرَفِك فيما تبذُله . فأجبتها وقلت : أترُكينى على عادتى ، فإنّ البخلَ بالمال لا يُبْقِى صاحبَه ، والبَذْلَ لا يُمِيت مُعتادَه . وقد مضى مثل هذا

٧٧٢

وقال حُطائط بن يَعْفُر أخو الأسْوَد[3] :

١ — تقولُ ابنةُ العَتّابِ رُهْمٌ حَرَبْتَنَا   حُطائطُ لم تَتْرُكْ لنفسِكَ مَقْعَدَا[4]

---

(١) هو تفسير قوله : « تغيرنى حال إلى حال » . وفى النسختين : « تنقلى » ، تحريف.

(٢) التبريزى : « ألا بكرت مى » .

(٣) أخوه الأسود بن يعفر ، شاعر مشهور من شعراء الجاهلية ، قال ابن قتيبة فى الشعراء ٢١١ : « ولا عقب للأسود ولا لأخيه حطائط » . وانظر الاشتقاق ١٤٩ .

(٤) العتاب ، كذا وردت فى النسختين بالتاء . وعند التبريزى وأبى الفرج فى الأغانى (١١ : ١٣٣) : « العباب» بالباء . قال التبريزى : «ابنة العباب كانت زوجته ، وهى امرأة من بنى عجل » . وفى الأغانى أن رهم بنت العباب أمهما ، أى أم حطائط وأخيه الأسود .

٢ — إذا ما أفدْنا صِرْمَةً بعد هَجْمَةٍ تكونُ عليها كابنِ أمِّكَ أسْوَدَا

رُهْمٌ ارتفع على البدل من ابنة العتّاب، وحُطَائط منادًى مفرد. ويقولون: ما تَرَكَ فلانٌ لك مُقاماً ولا مَقْعَدا، أي لم يُبقِ لك ما يُمكِنكُ الإقامةُ والقعودُ له به. والصِّرْمة: القليل من الإبل. والهَجْمَةُ أكثرُ منها، لأنَّها تقع على الثَّلاثين أو الأربعين. فيقول: عاتبَتْني هذه المرأةُ في إنفاقي وإفضالي، وقالت: أفقرْتَنا يا حُطائط، وأزلْتَ تجمُّلَنا، وجَنيتَ على نفسك أيضا، إذْ لم تتركْ من المال ما تكتفي به، وتستغني عن السَّعي والتجول معه، فتُرِيحُ نفسَكَ من الحلِّ والتِّرحال في طَلبِه، وتقعُدُ عن التّصرُّف وتحمُّلِ المشاقِّ في حَوْزِه واحتجانه، لأنّا مَتى استفدنا[1] قليلاً من الإبل بعد ما تُفيتُنا الكثيرَ منها تَعودُ عليها سالكاً طريقَ أخيك الأسودِ بن يَعفر، فتُفْنِيه وتُخلِينا منه. وإنَّما قال «تكون عليها» لأنّه لمّا لم يَسْعَ في تثميرها كان عليها لا لها. وقد جمع الشَّاعرُ بين سَيْرَيْنِ في خَرْزَةٍ في قوله «تكون عليها كابنِ أمِّك».

٣ — فقُلتُ ولم أعْيَ الجوابَ تَبيَّنِي أكانَ الهُزالُ حَتْفَ زَيْدٍ وأرْبَدَا[2]

٤ — أريني جَوَادًا ماتَ هَزْلاً لعلَّني أرَى ما تَرَيْنَ أو بَخيلاً مُخلَّدَا

قوله «ولم أعْيَ الجَوَابَ»، يقال: عَيِيتُ الأمرَ وعييت به عِيًّا، ورجلٌ عَيِيٌّ وعَيٌّ، وعَيِيَ عن حجته عِيًّا. يريد: أجبتها ولم أعْجِزْ عن محاجّتِها: تأمَّلي وانظُري، هل كان الفَقْرُ والهُزال سببَ موتِ مَن مات مِن عشيرتنا، وأريني سخِيًّا أماتَهُ الضُّرُّ، منّا أو من غيرنا، لعلّي أهتدِي بهَدْيِك وأعتَقِدُ مذهبَك، وأئتمر لك فيما تَرَيْنَهُ رشادا، أو بخيلاً بَقِيَ في الدُّنيا وعاش ما أرادَ ليُطلبَ

(١) في الأصل: «استنقذنا»، صوابه في ل.

(٢) الأغاني: «تأملي»، بدل: «تبيني». وقال التبريزي: «وقيل إن نهما — كذا وصوابه زيدا — وأربد كانا أخوين لحطائط».

بموافقته ما حَصَلَ له من الدَّوام ، وانصرَفَ عنه من الشَّقاء والفناء .

وقوله « أرِيني جواداً » أىْ دُلِّيني عليه وعرِّفيني مكانَه . وقال أبو عبيدةَ فى قوله : ﴿ أرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ المراد علِّمْنا ، ويروَى : « لَأَنِّى أرى ما ترَيْن » ، وهو بمعنى لعلِّى . يقال : ائتِ السُّوقَ لَأَنَّكَ تَشترى لنا شيئاً ، أى لعلَّك . ويقال أيضاً : أنَّكَ تشترى ، وهذا كما تقول : علَّك ولَعلَّك . ويقال فى هذا المعنى : لَعَنَّكَ . ويُنشَد بيتُ أبى النجم :

* وَاغْدُ لَعَنَّا فِى الرِّهانِ نُرْسِلُهْ *

وبعضهم ينشده : « لَأَنَّا » أى لعلّنا . وإبدالُ الهمزة من العين والعين من الهمزة كثيرٌ لا يُنكَر .

٧٧٣

وقال المُقَنَّعُ الكِنْدىُّ[1] :

١ — نَزَلَ المَشيبُ فأينَ تَذْهَبُ بَعْدَهُ وقَدِ ارْعَوَيْتَ وحَانَ مِنْكَ رَحِيلُ

٢ — كانَ الشَّبَابُ خَفِيفةً أيَّامُه والشَّيْبُ مَحْمَلُه عَلَيْكَ ثَقِيلُ

٣ — لَيْسَ العطاءُ من الفُضُولِ سَمَاحَةً حتَّى تَجُودَ وما لَدَيْكَ قَلِيلُ

يَعِظُ نفسَه ويذكره ما انتهى إليه حالُه فى عَيْشِه وتصرُّفه ، فيقول : قد مَسَّكَ الكِبَرُ ، فأىَّ طريقٍ تَسلُك ، وأىَّ مذهبٍ تذهب ، وقد رجَعْتَ عن جَهالتِك ، وارتدَعْتَ عن كثيرٍ مما كنتَ تُلابِسُه بغباوتك ، وقرُب منك التَّحوُّل من دارِ الفَناء إلى دار البقاء ، وقد كانَ أيَّامُ الشَّباب طيِّبَةَ المرِّ ، خفيفةَ المستقَرّ ، وأيَّامُ الشَّيبِ البادى كريهةَ الظُّهور ، ثقيلةَ الأعباء والحُمُول ؛ فعليكَ بما يجمع

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٣٨ ص ١١٧٨ .

لك إلى الحمد ذُخْراً ، وإلى ثناء النَّاس وشُكرِهم أجراً . واعلمْ أنَّ البذل مما يَفْضُل عنكَ ليس بسَمَاحَةٍ ، إنَّما الُجود أن تُعطىَ مِن قليلِك ، وتُنفقَ من كفايتِك . وقوله « وما لديك قليل » ، يجوز أن يريد والذى لديك ، ويكون ما مبتدأ ولديك صلته وقليل خبره ؛ ويجوز أن يكون ما نافيةً وقليلٌ اسمه ، ولَدَيْك خَبَرُه . والمعنى حتَّى تجودَ بكلِّ شيء لك فلا يبقى قليلُه أيضا .

٧٧٤

وقال جُؤَيَّةُ بنُ النَّضْر :

١ — قالتَ طُرَيفَةُ ما تَبقَى دَرَاهِمُنا   وما بِنَا سَرَفٌ فيها ولا خُرُقُ

٢ — إنّا إذا اجْتَمعَتْ يوماً دَراهِمُنا   ظَلَّتْ إلى طُرُقِ المعروفِ تَسْتَبِقُ[(١)]

يقول : اشتكت هذه المرأةُ الحالَ فى سُرعةِ نفادِ ما يحصلُ عندَم من الوَرِق والمال ، وهم لا يُسرِفون فى الإنفاق ، ولا يَخرُقُون فى الإتلاف ، فقالت : لا بَرَكَةَ مع سوء التَّدبير ، ولزومِ التَّضييع والتَّفريق . وتَنْسُبُ قِلَّةَ تلوُّمِه وخِفَّةَ بقائه إلى ضَعْفِ النَّظَر وعجْزِ التَّدبير ، وإرهاق التعجُّلِ ونَقْص التَّقصير . فقلت لها : إنَّ دراهمَنا إذا اجتمعَتْ تسابقَتْ إلى مَنافذ المعروف ، وتلاحقت فى مصارِف الإحسان للألوف ، فذلك سببُ سرعةِ فنائها ، وعَجَلةِ ذَهابها لا غير . فقوله « إذا اجتمعت » ظرفٌ لقوله « ظَلّت إلى طُرُق المعروف تستبق » . ويوماً ظرفٌ لاجتَمَعَتْ .

---

(١) بعده عند التبريزى :

لا يألَفُ الدِرهمُ الصَّيَّاحُ صُرَّتَنَا   لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

حتَّى يصيرَ إلى نَذْلٍ يخلِّدُهُ   يكاد من صَرِّه إيّاه يَنمزِقُ

٧٧٥

وقال زُرْعةُ بن عَمْرو[1] :

١ — وأَرْمَلَةٍ تَنُوءُ على يَدَيْهـا مِنَ الضَّرَّاءِ أو قَصَصِ الهُزَالِ

٢ — خَلَطْتُ بِفَقْرِها سِمَنِي فأضحَتْ شَرِيكةَ مَنْ يُعَدُّ من العِيَالِ

يقول : رُبَّ امرأةٍ منقطِعٍ بها سيِّئة الحال[2] ضعيفةِ الحَرَاكِ ، إذا أرادت النُّهوضَ تعتمدُ على يدَيْها ، لتأثير الضُّرِّ فيها ، أو لإقْصاص الهُزَال إيّاها ، وهو دُنُوُّ الموتِ منها — ويقال : أقصَّهُ كذا من الموت ، أى أدناه — أنا خلَطْتُ بفقرها غِنايَ ، وبما رَقَّ من حالها كثافةَ حالى ، فصارت تُعَدُّ فى جملة العِيال ، ومشارِكةً فيما أقتنيهِ من المال ، لا تمايُزَ يظهر لها ، ولا تبايُنَ يوجِب انقباضَها . وقوله « تنوء على يديها » ، أى تنهض ، وهو فى موضع الصِّفة لأرْملة . وجواب رُبَّ « خلطتُ بفقْرِها سِمَنى » . ويقال لحمٌ غَثٌّ بيِّنُ الغَثاثة والغُثُوثة ، إذا كان مهزولاً . وقيل : كلام غَثٌّ ، على التّشبيه ، أى لا طُلاوةَ عليه .

٣ — وأَفْنَتْنِي اللَّيالِي ، أُمَّ عَمْرٍو وحَلِّى فى التَّنَـائِفِ وارتِحالِى

٤ — وتَربِيَتِي الصَّغِيرَ إلى مَدَاهُ وتَأمِيلِي هِـلالاً عن هِلالِ

يقول : أفنى قُوايَ نوائبُ الزّمان ، وتصاريفُ اللّيالى والأيّام ، وتنزُّلى فى المَفَاوِز والقِفار ، وتنقُّلى فى مختلِفات الأسفار ، وتربيتى الطِّفلَ الرضيع إلى أن يبلُغَ ويجتمع ، واليافعَ الكبيرَ إلى أن يعلوَ ويستكمل ، وتعليقى الأمَلَ بشهرٍ مُستَهَلٍّ بعد شَهر[3] ، وحَوْلٍ مؤتَنَفٍ بعد حَوْلٍ . وإنّما يصف ما عاناه ،

(١) هو زرعة بن عمرو بن خويلد بن نفيل . كان فارساً شجاعاً ، وكان ممن شهد يوم رحرحان . الأغانى (١٠ : ٣١) .

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « سيئة الخلق » .

(٣) كذا ضبط فى النسختين بفتح الهاء ، ويقال بكسرها أيضا ، فعله مبنى للمفعول والفاعل .

وامتُحن به حالاً بعد حال ، وتردَّدَ فيه فقاساه وقتاً بعد وقت ، إلى أن تقضَّى عمرُه ، ونفِدَتْ قوّتُه .

ويشبه هذه الأبياتُ قول الآخر[1] :

لقـــد طوَّفتُ فى الآفاقِ حتَّى ... بَلِيتُ وقَدْ أَنَى لِىَ لَو أَبِيدُ

وأفنــــــانِى ولا يَفْنَى نَهارٌ ... ولَيْلٌ كُلَّما يَمْضِى يَعُودُ

وشَهْرٌ مُستَهَلٌّ بعـــد شَهْرٍ ... وحَوْلٌ بعدَه حَوْلٌ جَدِيدُ

ومَفقودٌ عزيزُ الفَقْـــدِ تأتى ... منِيَّتُه ومأمولٌ وليــــــدُ

وإن كان هذا أحسنَ استيفاء .

وقوله « وتأميلى هِلالاً عن هِلالِ » ، أى بعد هِلالٍ . ومما جاء فيه «عَنْ» بمعنى بَعْدَ قَوْلُهم : «سَادُوكَ كَابِراً عن كَابِرٍ[2]» ، لأنّ معناه كبيراً بعد كبيرٍ . والمراد : شَغَلَهُ أملُه بما يُتاح له فى مؤتنَفِ الأيّام من الخير ، والتَّمكُّنِ من المراد .

٧٧٦

وقال عبدُ الله بن الحَشْرَج[3] :

١ — أَلَا كَتَبَتْ تَلُومُكَ أُمُّ سَلْمٍ ... وغَيْرُ اللَّوْمِ أَدْنَى لِلسَّدَادِ[4]

---

(١) هو مسجاح بن سباع ، الحماسية ٣٥٢ ص ١٠٠٩ .

(٢) منه قول الأعشى فى ديوانه ١٠٥ :

ساد وألفى قومه سادة ... وكابراً سادوك عن كابر

(٣) هو عبد الله بن الحشرج بن الأشهب بن ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة . كان سيداً من سادات قيس وأميراً من أمرائها ، وولى أكثر أعمال خراسان ومن أعمال فارس وكرمان . وكان جواداً ممدحا ، مدحه زياد الأعجم ، وفيه يقول البيت السائر :

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

الأغانى (١٠ : ١٤٤ — ١٤٨) . والحشرج : الحسى من الأحساء .

(٤) كذا : وهو الموافق لما سيأتى فى شرح البيت الخامس . لكن فى ل والتبريزى : « ألا بكرت » . وفى هامش ل : « خ : كتبت » .

٢ — وما بَذلى تِلَادِى دُونَ عِرْضِى بإسْرَافٍ ، أُمَيْمَ ، ولا فَسَادِ

يقول : خاطبتنى هذه المرأةُ تعتِبُ علىّ ، واستعمالُ غيرِ اللّوم أقربُ فى تسديدى و إرشادى ، إذْ كان اللّومُ ربّما يعودُ إغراء ، ولا سيّما إذا تُكُلِّفَ فيما لا يُستَحقُّ فيه ، فما إعطائِى مالىَ القديم فى وقاية نَفْسِى بإسراف فيُنكرَ ، ولا بإفساد فأُعْتَب . وقوله « تَلُومُك» فى موضع الحال ، أى لائمةً لك . وخاطَبَ نفْسَه فى البيت الأوّل ، ثمّ نقَلَ الخطابَ إلى الإخبار ، على عادتهم فى كلامهم .

٣ — فَلَاَ وأَبيكِ لا أُعطِى صَدِيقِى مُكاشَرَتِى وأَمْنَعُهُ تِلاَدِى

٤ — ولكنِّى امْرُؤٌ عوَّدْتُ نَفْسِى عَلَى عِلاَّتِها جَرْىَ الجِيَادِ

٥ — مُحَافَظَةً عَلَى حَسَبِى وأَرْعَى مَسَاعِىَ آلِ وَرْدٍ والرُّقَادِ

أخذَ يخاطبُها مجيبًا عن عِتابِها ، ومخبراً عن طرائقه وأخلاقه ، فيقول : أنا وحقِّ أبيك لا أُرضِى صديقى بأن أُكْشِرَ فى وجهه إذا لقيتُه — والكَشْر : إبداء الأسنان بالضَّحِك — ثمّ أمنَعُه مالى وأحرِمُهُ خيرى . وقوله « وأمنعه » عَطْفٌ على أُعْطِى ، فرفعه . والمعنى : لا أُكشِرُ للصّديق ولا أمنعه تِلادِى ، يريد لا أضاحكه باسطاً من أمَلِه ، وقابضاً يدى عن بذْلِه . ومثله فى القرآن : ﴿ ولا يُؤْذَنُ لهم فيَعْتَذِرُونَ ﴾ ، لأن المعنى لا يؤذن لهم ولا يعتذرون . ولو رويت « وأمنَعَه » بالنَّصب كان جائزاً ، ويكون انتصابُه بأنْ مضمرة ، ويكون كقولهم : لا يَسَعُنى [شىء[1]] ويَعْجِزَ عنك . والمعنى : لا يسعنى شىء عاجزاً عنك ، فكذلك هذا ، وتقديره : ما أُعطِى صديقى مكاشَرَتى مانعاً له تلادى ، أى لا يجتمع هٰذان فى شىء : العَجْزُ لك والسَّعَة لى ، فكذلك لا يجتمع على صديقى منِّى الكَشْر والمنع . ويجوز فى رفع « أمنَعُه » وجهٌ آخر ، وهو

(١) هذه من ل ، وموضعها فى الأصل بياض .

أن يكون على الاستئناف والانقطاع مما قبله ، ويكون المعنى لا أعطى صديقى مُكاشَرتى وأنا أمنَعُه تلادى ومثله قولُ القائل : ما تأتينى وتحدِّثُنى ، والمراد : ما تأتينى وأنت الآن تحدِّثُنى . والرفعُ أجود ، ألا ترَى أن القائل إذا قال : ما جاءنى زيدٌ وعمرو ، كان دون قوله ما جاءنى زيد ولا عمرٌو ؛ لأنّ الأوّلَ يجوز أن يريد أنّهما لم يجتمعا فى المجىء ، ولكنْ تفرَّدَ كلٌّ واحدٍ منهما عن صاحبه فيه ، وفى الثانى إذا قال «ولا» جمَعَهُما النّفى ، فلا يجىء على حالٍ من الأحوال . وكذلك البيت ، لو كان فيه حرفُ النّفى لكان يمتنع حصولُ الكَشْر والمنع جميعاً على كلِّ وجه ، ووجهُ الرّفع عليه يدور .

وقوله « ولكنِّى امرؤٌ عَوّدْتُ نفسى » ، يريد أنّى جعلتُ من عادتها على ما يَعرِضُ لها من حوادث الدهر أن تَجرِى فى مَكرُماتها ، أى فى اكتساب مكرماتها ، جرْىَ الجِياد السُّبَّق ، لا الكَوادِنِ البِطَاء[1] . وقوله « محافظةً » انتصبَ على أنّه مفعول له . فيقول : أفعَلُ ذلك لأحفَظَ شرفى ، وأرعَى مكارمَ آبائى وأسلافى .

وقوله « أرعى » حمَلَه على المعنى فعطف على ما قبله وإن اختلفا ، أى أفعلُ ذلك لأحافظ وأرعَى ، محافظةً على الشَّرف ورَعيًا لمساعى آلِ وَرْدٍ . و «المَساعى» واحدتها مَسْعاةٌ ، وهى السَّعىُ فى تحصيل الكَرَم والجود . ويقال : هو يسعى لعِياله ، أى يكسب لهم . وقيل : السَّعى العَمَل فى الكسب .

٧٧٧

وقال رجلٌ من بنى سَعد :

١ — ألاَ بكَرَتْ أمُّ الكِلابِ تَلومُنى تقولُ ألاَ قد أبكَأَ الدَّرَّ حالِبُهْ[2]

(١) الكوادن : جمع كودن ، وهو البرذون الهجين ، وقيل هو البغل .

(٢) فى الأصل : « أبكأ الدهر » ، صوابه فى ل والتبريزى .

٢— تقول : ألا أهلَكْتَ مالَكَ ضَلّةً   وهل ضَلّةٌ أن يُنفِقَ المالَ كاسِبُهْ

يقول : لا متنى هذه المرأةُ وقالت : قد قَلّلَ اللّبنَ مَن يحلُب الإبل — ومعنى أبكأ الدّرّ : أتى به بَكِئًا . ويجوز أن يريد صادفه بَكِئًا ، كما يقال : أحمدْتُ فلانًا . والبَكْ : قِلّة اللبن . يقال : ناقة بَكِئةٌ ، وهى ضدُّ الغزيرة — فأنتَ فى ضلالٍ ما دام تضييعُ المال منك ببالٍ . فأجبتُها وقلتُ منكِراً عليها ، ورادًّا لكلامها : وهل يُسَمّى جامعُ المال إذا فرّقه ضالاً ، وكاسبُه إذا أنفقَه فيما يريده ويهواه مضيِّعًا . وانتصَب « ضَلّةً » على المصدر ، وهو فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مصدراً لِعلّةٍ ، فيكون مفعولاً له . وإنما أعاد قوله « تقولُ » إيذانًا بتفنُّنها فى المَلاَم ، وتوسُّع مَجالها فى الكلام . وقوله « هل ضَلّةٌ » خبر مقدم ، وأن ينفِق المال فى موضع المبتدإ . والتقدير : وهل إنفاقُ كاسبِ المال له ضلالٌ .

٧٧٨

وقال مُزَعْفَرٌ :

١ — وإنى لأُسْدِى نِعمَتى ثم أبتَغِى   لها أُختَها حتى أُعَلَّ فأُشفَعا[(١)]

٢ — وأجعَلُ نُعْمَى ما فعلتُ ذَمَامَةً   علىّ وآتِى صاحِبِى حيثُ وَدّعا

قوله « وإنى لأُسدِى نِعمَتى » ، يقول : إذا اصطنَعْتُ عند إنسانٍ صنيعةً ، وأوليتُه لاتّصال رجائه بى عارفة ، لم أرضَ بإفرادها ، لكنى أطلُبُ لها توابعَ ولواحق ، حتى تصيرَ النِّعمةُ عنده شَفْعًا لا وِتْرًا ، والإحسانُ إليه مكرّرًا لا بِدْعًا ، كلُّ ذلك تلذُّذاً بالإفضال ، وشهوةً فى إسداء العُرفِ والإجمال . ويقال : شاةٌ شافعٌ ، إذا كان معها ولدُها . والعَلَل : الشُّرب الثانى . والنَّهَل : الشُّرب الأوّل ، فاستعاره لإتباع الصّنيعة بمثلها .

---

(١) التبريزى : « وأشفعا » .

«وأجعَلُ نُعْمَى ما فعلتُ ذَمامة»، أجعلُ: أسمِّى، من قول الله عزّ وجل: ﴿ وجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إنَاثًا ﴾ . ويجوز أن يكون بمعنى أصيِّر، كأنَّه يعتقد فى الإحسان أنَّه إساءة . والذَّمامَةُ: الذَّمُّ[1] . والذِّمام، بكسر الذَّال: الحُرمة . والمعنى: أتذَمَّمُ من نُعْمَاىَ[2] عند غيرى، لأنِّى بالغاً ما بَلَغَتُ أكونُ لنفسى مُستقصِراً، ولفعلى مُستَزِيدا، فلا أعتدُّ بما أُسْدِيه، ولا أتحمَّد بالإنعام فيه، ولكنّه[3] أعُدُّه كالوَصْمة التى يُتذمَّمُ منها .

وقوله « وآتِى صاحبى حيثُ وَدَّعا »، يريد أنَّ من يستغيث بى أُجيبُه وأُغيثه أشدَّ ما كانَ حاجةً إلىّ حينَ وَدَّعَ أهلَه وعشيرَته، ليأسه من الدُّنيا وتوطينه النَّفس على الهُلْكِ والرَّدَى، فآتيه مُستَنقِذاً ومُحامياً، ومنتمِشا ومُرامِيا . وقوله « حيث ودَّعا »، يجوز أن يكون للزَّمان والمكان جميعا . وقد تقدَّم القول فيه[4] . وقد جَعَل « وَدَّع » بمعنى مات، وبيت مُتمِّم يشهدُ له، وهو:

* فقد بانَ محموداً أخى حِينَ وَدَّعَا[5] *

٣ — وإنِّى بما يَكفِى من الزَّادِ أهلَهُ أقابِلُ بَذْلَ المالِ حِلْسَاهُ أجْمَعا[6]

يقول: إنِّى أقابِلُ بما يكون فيه كفايةُ الأهل من الزَّاد بَذْلَ حِلْسَى المالِ كُلِّه . فقوله « حلساه » فى موضع الجرّ على أن يكون بدلاً من المال، ويكون على لغة من يجعل المثنَّى بالألف فى موضع النَّصبِ والجرّ . و « أجْمَعَا » فى موضع

---

(١) كذا . والذى فى اللسان أن « الذمامة » : الحياء والإشفاق من الذم واللوم . وهذا هو الأوفق .

(٢) ل : « نعمائى » .

(٣) ل : « ولكنى » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٨٨٦ .

(٥) فى الأصل : « قد »، وصواب إنشاده من المفضلية ٦٧ : ٢٢ . وصدره :

* فإن تكن الأيام فرقن بيننا *

(٦) هذا البيت لم يروه التبريزى . وفى الأصل : « وما يكفى » والأوفق ما أثبتناه من ل .

الجر ، ويكون تأكيداً للمُضْمَرِ المتّصل بحِلْسَاهُ . ولك أن تجعله تأكيداً للمال . وأجود من هذا أن يُجعلَ حِلساه مرتفعاً بقوله يَبْذُلَ ، فيكون فاعلا . وقد أضاف المصدرَ إلى المفعول ، كقولك : أعجبَنى ضربُ زيدٍ عمْرٌو . وجعلَ الحِلسَ باذلا[١] وإن كان الفعلُ لصاحبه ، على السَّعة ، ويكون التّقدير : أنِّى أقابلُ بما يُكتفى به من الزّاد أنْ يَبْذُلَ حِلْسَا المال جميعَ ما يَحْوِيانِه ، ويكون على هذا أجمع تأكيداً للمضمر المتّصل بحلساه لا غير . والمعنى : إذا حصَلَت الكفايةُ لأهل الزّاد فإنّى أنقُضُ الوِعاءَ الجامعَ للمال ، وأفرِّق كلَّ ما فيه ، أى أقتصِرُ على الكفاية ، وما تعدَّاه أعُدُّهُ فضْلاً . والحِلْسُ : الواحد من أحْلَاس البيت . قال الخليل : وهو ما يُبسَط تحتَ حُرِّ المَتاع من مِسْحٍ وجُوالِقٍ ونحوهما .

٧٧٩

وقال عارقٌ الطّائىُّ[٢] :

١ — أَلَا حَىِّ قَبْلَ البَيْنِ مَنْ أَنتَ عَاشِقُهْ ... وَمَنْ أَنتَ مُشتاقٌ إليه وشائقُهْ

٢ — ومَنْ لا تُوَاتِى دارُهُ غَيْرَ فَيْنَةٍ ... وَمَنْ أنتَ تَبْكى كُلَّ يَوْمٍ تُفَارِقُهْ

افتتح كلامه بألَا ، ثمّ قال : جَدِّد عَهْدَك بصاحِبِكَ وسَلِّمْ عليه ، قبل أن تَحُولَ النَّوَى بينكما فيُهَيِّجَ شوقَك تعشُّقُك له ، وبُعْدُ الدَّارِ منه ، وتُهيِّجُ شوقَه لمثل ذلك ، لأنَّ جميعَ ما أقوله من مُقتَضَيات صفاء المِقَةِ ، واستِحكام المحبّة .

وقوله « ومَنْ لا تُواتى دارُه غَيْرَ فَيْنَةٍ » الأحسن أن ترفع الدَّار بتُواتى ، يريد مَن لا تقاربُك دارُه إلاَّ ساعةً لا تَطُوعُك الزِّيارةُ إلاَّ فيها . والفَيْنَةُ :

(١) ل : « فاعلا » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٠٤ ص ١٤٤٦ .

الوقت ، ويكون معرفةً ونكرة ، وقد مرّ القول فيه[١] ، وأنّه يجرى مجرى الصّفات فى ذلك إذا جُعِلت أعلاماً كالحارثِ والعبّاسِ . ولك أن تنصب « دارَه » . والمعنى تَبكيه أو تبكى عليه ، وكذلك قوله « تُفارقه » أريد تُفارِقُ فيه فحذف مفعول الفعلين ، ولا يمتنع أن يُجعل « كلّ يوم » مفعول تبكى . والمعنى تتأسّف على كلِّ يومٍ تفارقُه فيه ، فتَبكيه شَوْقاً إليه ، إذْ كان التَّوديعُ جَمَعَك وإيّاه فيه . ويُكتَفَى فى هذا الوجه بالضّمير العائد من تفارقه ، فأمّا إضمار « فيه » فى « تفارقه » فلا بدَّ منه . وقوله « منْ » وقد كرّره فى البيتين جميعاً مِراراً ، يجوز أن يكون بمعنى الذى ، والجُمَل بعدَه فى صِلَتِه ، كأنّه قال : حَىٌّ الذى أنت عاشِقُهُ والذى أنتَ مشتاقٌ إليه وشائقه والذى أنت كذا . ويجوز أن يكون نكرةً فى معنى إنسان ، ويكون الجُمَلُ بعده صفاتٍ له . يريد : حىٌّ إنساناً هذه صفاتُه . فأمّا تكريره له فهو على طريق التّعظيم والتفخيم . وهكذا العادةُ فيما يُهوِّلُ أمرُه من مَرْجُوٍّ أو مَخُوفٍ .

٣ — تَخُبُّ بصَحْرَاءِ الثُّوَيَّةِ نَاقَتِى ... كَعَدْوِ رَبَاعٍ قد أَمَحَّتْ نواهِقُهْ[٢]

٤ — إلى المُنْذِرِ الخَيْرِ بنِ هِنْدٍ تَزُورُهُ ... ولَيْسَ مِنَ الفَوْتِ الذى هو سابِقُهْ[٣]

يقول : تَسِيرُ ناقتى الخَبَبَ — وهو ضربٌ من العَدْو — فى هذه الصَّحراءِ تَحتِى ، عَدْوَ فرسٍ ، أو عَيْرٍ قد أرْبَعَ . والإرباعُ بينَه وبين القُرُوح سَنَةٌ ، فكأنّه أراد استحكامَ شبابِه وقُوَّتِه ، إذْ ليس بينَه وبين النِّهاية وهى القُروح إلاَّ سَنَةٌ . ومعنى « أَمَحَّتْ نواهِقُهْ » أى قد أطاعه العَلَفُ أو المَرْتَع[٤] فصارَ

(١) انظر ما سبق فى ص ١٥٧٢ .

(٢) الثوية ، بهيئة التصغير ، كما هنا ، ويقال أيضاً بوزن غنية ، وهو ضبط نسخة التبريزى . قال ياقوت : « موضع قريب من الكوفة » .

(٣) التبريزى : « تزروه » .

(٤) ل : « والمرتع » .

لعظامِه مُخٌّ ، والنَّواهِقُ : عَظْمانِ فى السَّاقِ ، وفى غير هذا المكانِ ما يكتنف الخياشيمَ من الدَّابَّة ، والواحدة ناهِقَةٌ .

وقوله « إلى المنذِرِ » تَعَلَّق بتَخُبُّ والخَيْر من صِفَته ، وهو الذى تأنيثه خَيْرَةٌ . ولا يمتنع أن يكون مخفَّفا من الخَيِّر ، كما يقال لَيْنٌ وليِّن ، وهَيْنٌ وهَيِّن . و « تزور » فى موضع الحال ، ويريد المنذر بن ماء السماء . وقوله « وليس من الفَوْت الذى هو سابِقُهْ » أراد سابِقٌ به ، وفى الكلام وعيدٌ .

ولهذا الشِّعر[1] قصة ، وهو أنَّ الملِك كان غزَا أرضاً فأخفق ، وفى مُنْصَرَفِه عَثَر بطائفةٍ من طَيِّئ كانوا فى ذِمَّته وعهدِه ، فأراد تجاوُزَهم فقال بعضُ نُدَمائه له : استغنِمْهم وأوقِعْ بهم . فقال : إنَّهم فى ذِمَّتى ! فلم يَزَلْ يقرِّب الأمرَ فيه معه حتَّى استباحَهُم . لذلك توعَّدَ فقال : ما سَبَق به لا يَفُوت تدارُكه .

٥ — فإنَّ نساء غيرَ ما قال قائلٌ   غَنِيمَةُ سَوْء وَسْطَهُنَّ مَهَارِقُهْ

٦ — ولو نِيلَ فى عَهْدٍ لنا لَحْمُ أرْنَبٍ   وَفَيْنَا وهذا العَهْدُ أنت مُغَالِقُهْ

٧ — أ كُلُّ خَمِيسٍ أخطأَ الغُنْمَ مَرَّةً   وصَادَفَ حَيًّا دائناً هو سائِقُه

قوله « غير ما قال قائل » ، يجوز أن يكون صفة لنساء . وقوله « غَنيمة سَوْء » يرتفع على أن يكون خبر مبتدإ ، كأنَّه قال : هُنَّ غنيمةُ سَوء ، حكايةً لكلام القائل الذى ذكره . وإضافةُ الغنيمة إلى السَّوْء يكون على طريق الإزراء والاستحقار . وقوله « وَسْطَهُنَّ مَهَارِقُه » ، الجملة فى موضع خبر إنَّ ، فيكون المعنى إنَّ نساء مخالِفَةَ صفتُها لما قاله قائل ، يعنى مَنْ حَسَّن فى عَين الملك الإيقاعَ بهنّ هُنَّ غنيمةُ سوء معهنّ كُتُبُ العهد والذِّمّةِ اللذَين يُخْرِجْن بهما عن كونهنَّ غنيمة . فهذا وجه ، ويجوز أن يكون «غنيمةُ سَوْء» خبر إن ، و « وسطهنّ

(١) فى الأصل : « الشاعر » ، صوابه فى ل .

مهارقُه » من صفة النساء ، وقد فَصَل بين الصفة والموصوف بخبر إنّ ، وغير ما قال
قائل ينتصب على المصدر ، فيكون مؤكّدًا للقصة ، والتقدير : إنّ نساء وسطهنّ
مهارقُه غنيمةُ سَوْء ، غيرَ قولِ القائل الحسَّن الإيقاع بهنّ . ويجرى هـذا مجرى
قولهم : هذا ولا زَعَماتِكَ . أى هـذا هو الحقُّ لا ما تزعُمه . ويكون المعنى : إن
نساء معهنّ عهـدُك ، ولا أقول ما قاله قائلٌ حسَّنَ الإيقاع بهنّ : غنيمةُ سَوء
لا غنيمةُ صِـدْق . والمهارق : جمع المُهْرَق ؛ وهو فارسيّة معرّبة . وكانت العرب
تَصْقُل الثيابَ البيضَ وتكتب فيها كتُبَ العهودِ وما أرادوا إبقاءه على الدّهر .

وقوله « ولو نيلَ فى عهدٍ لنا لحمُ أرنبٍ وفَيْنا » يقبِّح هـذه ما ارتكبهُ
منهنّ . فيقول : ولو أُصيبَ لحمُ أرنبٍ فيما تشغَله أذِمَّتُنا لوَفَيْنا به . ثم أنت
أيُّها الملكُ تُغالِقُ هذا العهـد ، وتَستجيزُ تخطِّيه ، وتَستحسِنُ نقْضَه وتَرْكَ الوفاء
به . وقوله « لحم أرنب » ذكَره تحقيراً وأنه صيْدٌ مُستباحٌ .

وقوله « أنت مُغالِقُه » لك أن تروى « مُعالقه » بالعين . والمعنى : وهـذا
العهـدُ الذى معهنّ متعلِّقٌ بذمّتك وفى رقبتكَ حتى تخرجَ منه . ومن رَوَى
« مُغالِقُه » بالغين معجمة ، يكون من غَلِق الرَّهْن ، أى أنت مُفسِده ومُحتبِسُه
تاركا للوفاء به .

وقوله « أكُلُّ خَميسٍ » لفظه استفهام ومعناه تقريع . فيقول : أكلُّ
جَيْشٍ أخفَقَ فى وجهٍ قدَّرَ الغُنْمَ فيه ، وصادف فى مُنصَرفِهِ حيًّا فى طاعته يَسُوقه
ويُوقِـعُ به . أى إنّ ذلك غيرُ مُستجاز فى السياسة والدِّيانة ، ولا مُستحسَنٍ فى
المروءة ؛ والغَدر مَغَبَّته ذميمة ، وعاقبتُه قبيحة دَميمة .

٨ — وكُنّا أناسًا دائنين بغِبْطَةٍ   يَسيلُ بنا تَلْعُ المَلاَ وأبارِقُهْ

٩ — فأقسَمْتُ لا أحتلُّ إلاّ بصَهْوَةٍ   حَرامٌ عليكَ رَمْلُهُ وشَقائِقُهْ[1]

(١) فى الأصل : « لا أحتك » ، صوابه فى ل والتبريزى .

قوله « دائبين » ، أى آخذين بالطاعة ، مغتبطِينَ بما لنا من الذِّمّة . ويكون « بغبطةٍ » فى موضع الحـال . ورُوى : « دائبين » ، وهو أقرب ، ويكون من الدُّؤوب . والمعنى إنَّا كُنَّا نَسِيرُ مغتبطِين آمنين فرحين حيثُ شئنا . ويدلُّ على هذا قوله « يسيلُ بنا تَلْعُ المَلَا وأبارِقُه » . وإنما يَقتِصُّ حالهم قبل معاهَدتِه لهم ، ومعاقدَتِه الذِّمّةَ بينه وبينهم . والمَلَا : الصَّحْراء . والتَّلْعَةُ : مسيل ماء ، وجمعُها تَلْعٌ ، كَجَوْزَةٍ وجَوْزٍ . والأبارق : جمع الأَبْرَق ، وهى المواضع التى قد أُلبِسَتْ حجارةً سُودًا . ومنه حَبْلٌ أبرقُ ، إذا كان ذا لونين سوادٍ و بياضٍ .

وقوله « لا أحتلّ إلاَّ بصهوةٍ » ، يقول : حَلَفْتُ لا أَنزِلُ إلا بعيداً من أرضِكَ ، وخارجاً من مَلَكتك ، فى صَهْوَةٍ أو فى مكان عالٍ تَحْرُمُ عليك جوانبُه وآفاقُه . والشَّقائق : جمع شَقِيقة ، وهى رَمْلَة بين أرْضَين . و « رَمْلُهُ » ترتفع بحرام ، أى يحرمُ عليك . ولك أن تروى « حرامٌ عليك رَمْلُهُ » فيكون خبراً مقدمًا ، ورملهُ مبتدأ ، والجملة فى موضع الصِّفة للصهوة .

١٠ — حَلَفْتُ بِهَدْيٍ مَشْعَرٍ بَكَرَاتُهُ   تَخُبُّ بصَحْراءِ الغَبِيطِ دَرادِقُهْ

١١ — لَئِنْ لم تغيِّرْ بَعْضَ ما قد صَنَعْتُمُ   لأَنتحِيَنْ لِلعَظْمِ ذُو أنا عارِقُه[1]

يقول : أقسمت بَقَرابينِ الحَرَم وقد أُعلِمَتْ بَكَراتُه بعلاماتِ الإهداء . والإشعار ، هو أن يُطعَنَ فى أسنمتها فَيسيلَ الدَّمُ عليها ، فيُستدَلُّ بذلك على كونه هَدْيًا . وجَعل الهَدْى دَالاًّ على الجِنْس وما بعده صِفَتَه . وقوله « تَخُبُّ بصَحراء الغَبيطِ درادِقُه » ، يريد سَوْقَها نحوَ البيت . والدَّرادِق : صغار الإبل . والخَبَبُ : ضَربٌ من السَّير . وجواب القَسَم « لأنتحِيَنْ للعظم » ، ولئن فيما بين القَسَم والمُقسَمِ له موطِّئة للقسَم . فيقول : آليتُ إنْ لم تُغيِّرْ أيُّها الملك بعضَ

(١) التبريزى : « لم تغير بعد » ثم قال : « ويروى : يغيّر بعض » .

صنيعك ، ولم تَتدارك ما فاتنا من عدلك ووفائك ، لأقصِدَنَّ فى مقاتلتك كسْرَ العَظم الذى صرتُ أعرُقُه فيُنتزَع العَظمُ منه. جعلَ تقبيحَه لما أتاه وشكواه[1] كالعَرْقِ ، وهو انتزاعُ اللّحمِ وما بعده ، إنْ لم يغيِّرْ معاملتَه ، تأثيراً فى العَظم نفسه . وقد أحسَنَ فى التوعُّدِ ، وفى الكناية عن فعله وعمايَهُمْ به بَعدَه . وقوله « ذو أنا » لُغَتُهم[2] وهو فى معنى الذى ، وأنا عارقُه من صلته ، وقد مضى الكلام فى مثله .

٧٨٠

وقال بُرجُ بن مُسهِر[3] :

١ — سَرَتْ مِنْ لِوَى المَرُّوتِ حَتَّى تجاوَزَتْ ... إلىَّ ودُونى مِنْ قَنَاةَ شُجُونُها

٢ — إلى رَجُلٍ يُزْجِى المَطِىَّ عَلَى الوَجَى ... دِقاقاً ويشْقَى بالسَّنامِ سَمِينُها

٣ — فلِلقَوْمِ منها بالمَراجِلِ طَبْخَةٌ ... ولِلطَيْرِ منْها فَرْثُها وجَنِينُها

اللِّوَى : مسترَقُّ الرَّمل . والمَرُّوت : فَعُّولٌ من المَرْت ، وهو الأرض التى لا تُنْبِتُ شيئاً . وقال الدُّريدىّ : هو المكان القفر . وقناة : موضع . وشُجونها : جوانبُها المتقاربة ونواحيها . والشُّجُون أيضاً : الأشجار الملتفَّة المتداخِلة . والشَّواجن ، واحدتها شاجنةٌ ، وهى المواضع التى فيها [الشُّجُون[4]] . ومن التَّداخل والالتفاف قولُهم : « الحديثُ ذو شجون » . وإنما يُخبِر عن خَيَالٍ زارَهُ .

وقوله « إلى رَجُلٍ » ، تعلّق إلى بسَرَتْ . ويعنى بالرَّجُل نفسه ، ويُزْجى

---

(١) ل : « جعل شكواه وتقبيحه لما أتاه » .

(٢) أى لغة الطائيين .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ ص ٣٥٩ .

(٤) التكملة من ل .

المطىّ ، أى يسوقُها . والوَجى : الحَفَا ؛ أى[1] لا يُبقى عليها ولا يرفُق بها ، لكنّه يُديم السَّير عليها ولا يَقِيها مع الحفا ولا يُبقِى عليها مما يُهلِكُها . و « دِفاقاً » انتصبَ على الحال ، أى ضوامِرَ مهازيلَ . ويَشْقَى بالسِّنان سمينُها ، أى بالسِّنان له ، فحذف الضمير لأنّه لا يُخيِّلُ . والمعنى أنّه لا ينحر سِمانُ الإبل للعُفاة والضّيوف . وقوله « فللقوم منها بالمَرَاجل طَبْخَةٌ » منها رَجَع الضمير إلى قوله سَمِينُها ، لأنه أراد بها الجنسَ ، وهذا إخبارٌ عن حالتها وقد جُزِرَتْ . فيقول : للوُرَّاد منها طَبْخَةٌ فى المراجل ، وللطَّير فَرْثُها والولدُ الذى فى بَطْنِها .

٧٨١

وقال مُلْحَةُ الجَرْمِىّ[2] :

١ — فَتًى عُزِلَتْ عَنْهُ الفَوَاحِشُ كُلُّها   فَلَمْ تَخْتَلِطْ منه بلحمٍ ولا دَمِ

٢ — كأنَّ زُرُورَ القُبْطُرِيَّةِ عُلِّقَتْ   علائِقُها مِنْهُ بِجِذْعٍ مُقَوَّمِ

يمدحه بالرَّزانة والعَقْل ، ونَقَاء الجِسم من العيب ، وصفاء النَّسَب والنَّسب من الفُحش . ومعنى عُزِلَتْ نُحِّيَتْ منه فى جانب . ويقال : هو بمَعْزِلٍ عن هذا الأمر والأصحاب ، فيقول : بُعِّدَتْ عنه الفواحِشُ كُلُّها وصُرِفَتْ ، وجُعِل بينه وبينها حاجِزٌ حتَّى لا تمازُجَ ولا تَخالُطَ ، ولا تَدانِىَ ولا تشابُكَ . والقُبطُرِيَّة :

(١) فى الأصل : « التى » ، صوابه فى ل .

(٢) ذكره المرزبانى فى المعجم ٤٧٣ وأنشد له البيتين الأول والرابع . وأنشد فى اللسان (قرد) البيت الخامس ، وبيتين بعده ، وهما :

إذا شئت أن تلقى فتى البأس والندى   وذا الحسب الزاكى التليد القدم

فكن عمرا تأتى ولا تعدونه   إلى غيره واستخبر الناس تفهم

ونسبها إلى عدى بن الرقاع يمدح عمر بن هبيرة ، ثم قال : « وقيل هو لملحة الجرمى » . وأنشد الأزهرى البيت الخامس ونسبه لابن ميادة يمدح بعض الخلفاء . و « ملحة » ضبطت فى النسختين واللسان (زرر) بضم الميم ، ويفهم من التبريزى أنها بالكسر .

جنسٌ من الثّياب رفيع . ومعنى البيت أنّه طويلُ القامة مديد الجسم ، فكأن زُرُور القُمُصِ من هذا الجِنْس من الثّياب عُلّقت منه على جِذْع مقوَّم . أرادَ أنَّ طُولَه طول جِذْعٍ هكذا . وهُمْ يتمدّحون بامتداد القَوام ، والبَسْطة فى الأجسام .

٣ — عَمَلَّسُ أسْفَارٍ إذا استَقْبَلتْ لَهُ سَمُـومٌ كَحرِّ النَّار لم يَتَلَثَّمِ (١)

٤ — إذا ما رَمَى أصحـابُهُ بجَبِينِهِ سُرَى لَيـلةِ الظَّلْمـاء لم يَتهكَّمِ

٥ — كأنَّ قُرادَىْ زَوْرِه طبَعَتْهما بطِينٍ مِنَ الجَوْلَانِ كُتَّابُ أعْجَمِ

العَمَلَّس : الجرىء المِقدام ، ويوصف به الذّئاب ، وكذلك السَّلَمّع ويوصَفُ به الخبيث من الذّئاب والكلاب . ويقال : هو عَمَلَّس دَلَجاتٍ ، أى قَوِىٌّ على السَّيْر . وزاد اللام فى قوله « إذا استقبَلَتْ له » تأكيداً ، والأصل استقبَلَتْه . وجواب إذا « لم يتلَثَّمِ » وهو العامِلُ فيه . فيقول : هو فى السَّفر بهذه الصفة مبتذِلا نفسَه لا يَتوقَّى من السَّمائم ، ولا يتخشَّى من أنواع المهالك ، فإذا قابَلَتْهُ السَّمُوم المُحْرِقَةَ إحراقَ النّار لم يَصنْ وجهَه منها ، ولا جَعَل على مُحيَّاهُ لِثاماً . واللِّثام : رَدُّ المرأةِ قِناعَها على أنفها ، وقد تلثَّمت ، وتَلَثَّمَ الرجلُ بعمامته . والمَلْثَمُ ما حول الفَم ، وقيل الأنف وماحوله واللِّفام : رَدُّ القِناع على الفَم ، وقيل أيضا : هو مثل اللِّثام لا فرق بينهما .

وقوله « إذا ما رَمَى أصحابُهُ بجبينه » أراد أنهم إذا قدَّموه ليهتدوا به وهم يَسْرُونَ فى ليلةٍ شديدة الظّلام هائلة لم يَجْبُن ولم يتكَذّب ، ولكنْ تقدَّمَهُم وقادَهم على عادته .

وقوله « كأنَّ قُرادَىْ زَوْرِه طبَعَتْهما » وصفَهما بالصِّغر ، ثم شبَّههما بطابَعَيْن من طين الجَوْلان ، ويقال إنّه أسْوَدُ ، تولَّى طبعَهما كاتبٌ من كُتّاب العجم .

---

(١) فى متن التبريزى : « لم يتلثم » ، ولكن أتى فى التفسير على الصواب كما هنا .

وخَصَّهم لأنَّهم حينئذٍ كانوا أحْذَقَ بالكتابة وأسبابها . وهم يتمدَّحون بالهُزَالِ وقِلّة اللحم . والطَّبْع : الخَتْمُ . والطَّابَعُ : الخاتَم . وحُكِيَ : هذا طُبْعَانُ الأمير[1] ، أى طينه الذى يَختِم به .

٧٨٢

وقال بعضُهم :

١ — إنَّك يا ابنَ جَعْفرٍ نِعْمَ الفَتَى[2]

٢ — ونِعْمَ مَأْوَى طارقٍ إذَا أَتَى

٣ — ورُبَّ ضَيْفٍ طَرَقَ الحَىَّ سُرَى

٤ — صادَفَ زاداً وحديثاً ما اشْتَهَى

٥ — إنَّ الحديثَ جانبٌ من القِرَى

٦ — ثُمَّ اللِّحَافُ بعد ذَاكَ فى الذُّرَى

يُخاطب بهذا الكلام عبدَ الله بن جعفر بن محمدٍ الصّادق رضى الله عنهم ، فيقول : نِعْمَ الفتى أنت ، أى محمودٌ فى الفِتيانِ أنتَ ومحمودٌ دارك وفناؤك ، مأْوَى الطُّرّاق إذا وَرَدوا . وقوله « مأوى طَارقٍ » أضافَهُ إلى النَّكِرَة لأنَّ القصْدَ بطارقٍ إلى الجنس ، واسمُ الجنسِ فى مثل هذا المكان وأن تنكَّر فائدتُه فائدةُ المعارف ، وإذا كان كذلك كان قولُك « مأوى طارقٍ » بمنزلة مأوَى الطُّرّاق . والمحمود هو المُخَاطَبُ . ويجب أن يكون فى نِعْم ضميرٌ يعود إلى المخاطَب ، وقد

---

(١) هذا مما ذكر فى القاموس ولم يذكر فى اللسان .

(٢) الأشطار ما عدا الأخير منها رواها الجاحظ فى البيان (١ : ١٠) .

اشتمل عليه قوله نِعْمَ الفَتَى و نِعْم مأوى طَارِقٍ ، لأنَّ فائدة نِعْم الرّجل ، محمودٌ فى الرجال . فكأنّه قال : إنّك محمودٌ فى الفتيان يا ابنَ جعفر . وقد قيل فى قول القائل : زيدٌ نعم الرجل : إنّه لما كان القصدُ بالرّجل إلى الجنس ، وكان زيد منهم ، اكتفى بكونه منهم من ضميرٍ يعود إليه .

وقوله « وربَّ ضَيْفٍ طرَقَ الحىَّ سُرَى » ، يريد ليلاً ؛ لأنَّ السُّرَى لا يكون إلاَّ باللّيل[١] فالسُّرى فى موضع ظرف ، واسمُ الزّمانِ محذوف معه ، وهو كقولك : جِئتك مَقْدَمَ الحاجّ وما أشبهه . فيقول : ربَّ ضيفٍ أتَى الحىَّ راجياً وجودَ القِرى عندَه ، أنزلتَه فصادَفَ فى فنائك زاداً عتيدا ، وحديثاً مؤنِسا ، وإكراما مُبِرًّا . وقوله « ما اشتهى » فى موضع الظّرف ، فهو كقوله :

أحدِّثه إنَّ الحديثَ من القِرَى وتعلمُ نَفسِى أنّه سوفَ يهجع[٢]

لأنَّ فى قوله « ما اشتَهَى » المعنى الذى اشتمل عليه قوله « تَعلم نَفسِى أنّه سوف يهجع » .

وقوله « إنَّ الحديثَ جانبٌ من القِرى » ، يقول : تأنيسُ الضّيف بمُلَحٍ من الحديث من أسباب القِرَى وشرائطه ، وخِصالِهِ التى تكمّله وتفضّله .

وقوله « ثُمَّ اللِّحافُ بعد ذاك فى الذَّرَى » ، إشارةٌ إلى إكرامه بما يُفترش له ويمهّد به موضعُه . والذَّرَى : الكَنَف .

---

(١) ل : « فى الليل » .

(٢) البيت لعتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سبق فى الحماسة ٧٦١ ص ١٧١٩ .

٧٨٣

وقال الشَّمَّاخ[1] :

١ — وأَشْعَثَ قَدْ قَدَّ السِّفَارُ قَمِيصَه ... وجَرُّ شِوَاءٍ بالعَصَا غَيْرَ مُنْضَجِ[2]

٢ — دَعَوْتُ إلى ما نابَنِي فأجابَنِي ... كَرِيمٌ من الفِتْيانِ غَيْرُ مُزَلَّجِ

يصف مُضيفا . والأشعث : الذى يبتذل نفسَه ولا يصونُها عن التعمُّل ، فيصير مقطوعَ القميص فى السَّفَر ، لتحمُّله عن أصحابه أثقالَ المِهن ، حتَّى يتشعَّث ظواهرُه ، ويغبَرَّ شَعَره ، وترِثَّ ثيابُه ، ويختلَّ أمره . وقوله : « وجَرُّ شِواء » إشارةٌ إلى تَوَلِّيه من خدمة الرُّفقاء والأصحاب ما لا يكون من عمله . وجعلَ الشِّواء غيرَ مدرَكٍ لتعجُّله وحرصِهِ على تقديم أمرِهم والتَّسرُّع فى إطعامهم . ويجوز أن ينتصب « غير » على أن يكون حالاً للنكرة — وهو أجود الرِّوايتين — حتَّى لا يكونَ قد فصل بين الصِّفة والموصوف بالأجنبيِّ منهما ، وهو قوله بالعَصَا ، لأنَّ التعلُّق بينهما يقارب التعلُّق بين الصِّلة والموصول .

وقوله : « دعوتُ إلى ما نابنى » ، أى استغثت به وطلبت منه الإغاثة على ما نابنى من حَدَثان الدَّهر فأجابَنى منه كريمٌ من الفِتيانِ غيرُ ضعيفِ المُنَّةِ ، ولا مؤخَّرٍ عن الغاية البعيدة . وأصل التَّزليج من قولهم قِدْحٌ زَلوجٌ ، أى سريع فى الإجالة . أى إذا وقَفَ على حَدِّ مكرُمةٍ وأشرف على الفَوز بمَنْقَبَةٍ لم يُزَلَّج عنه ولم يُدْفَعْ مِنه ، لأنَّ الزَّلَج السرعةُ فى المشى وغيره . وكلُّ زالجٍ سريع ، ومنه مزلاجُ الباب للخَشَبة التى يُغلَق بها .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٨٨ ص ١٠٩٠ . والأبيات فى ديوانه ٩ — ١٠ .

(٢) فى الديوان : « وجر الشواء » .

٣ — فَتًى يَمْلأُ الشِّيزَى ويُرْوِى سِنانَهُ   ويَضْرِبُ فى رَأْسِ الكَمِىِّ المُدَجَّجِ

٤ — فتًى ليس بالراضى بأدنى معيشةٍ   ولا فى بيوتِ الحىِّ بالمُتَوَلِّجِ[1]

يقول : هذا[2] المدعوُّ المستغاث به فتًى يملأ الجفان المتخذة من الشِّيزَى للضيوف والرُّفقاء ، ويُروِى سنانَ رمحِهِ من دِماء الأعداء ، وإذا بارزَه فى الحرب القِرنُ التامُّ السِّلاح ، الكَمِىُّ بين الصِّحاب ، غلبَه وركِبَه ، وأتى عليه فأسقطه ، وهو فتًى لا يرضَى لنفسه فى دُنياه بأقرب الهمَّتين ، وأدْوَن المعيشتين ، ولكن يطلبُ غاياتِ الكَرَمِ ونِهاياتِ الفضل ، ولا يُداخِل بيوتَ الحىِّ والمُجاوِرَة ، ولا يخالط النساء الرِّيبة والمغازَلة . يصفُه بالعِفَّة والجدّ ، وصيانة النَّفْس ، وارتفاع الهِمّة والهَمّ عما يُزيل الحِشْمة ، ويدنِّس المروءة .

وقوله « ولا فى بيوت الحىّ » ، جعَلَ فى بيوت تبييناً ، وقد حصل الاكتفاء بقوله المتولّج ، فيكون موقعُه منه كوقع بك بعد مَرحبًا ، لئلاّ يحصل تقديم الصِّلة على الموصول ، وإن شئت جعلت الألف واللام فى قوله « المتولّج » للتعريف ، لا بمعنى الذى ، فلا يحتاج إلى تقدير الصلة فى الكلام . وقد مرَّ نظائرُه .

---

(١) الديوان : « أبل فلا يرضى » .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « هو » .




بَابُ المَدْحِ

بابُ المدْح (*)

٧٨٤

وقال يزيدُ الحارثيّ (١) :

١ — وإذا الفتَى لاقَى الحِمَامَ رأيتَه   لولاَ الثنــاء كأنّه لم يولَدِ

٢ — وأتيتُ أبيضَ سابغاً سِرْباله   يَكفِي المَشاهِدَ غَيْبَ مَنْ لم يَشْهَدِ

يقول : إذا أخلَى الفتَى مكانَه من الدُّنيا وانقضى عمرُه ، فانتقل من الأولى إلى الأخرى ، فلولا ثناء الناس عليه ، وذكرُه بالجميــل الذى يقدِّمه ويُسديه لنُسِيَ وقتُه وأمَدُه ، وصار حكمُه حكمَ من لم يولَد فيعرفَ يومُه وغده ، لـكن باقِيَ الذكر ونامِيَ العهد والرَّسم ، بما يُنشَرَ من حديثٍ حسنٍ وقِصَّــة ، ويُحمَد من عادةٍ وسُنّة ، هو الذى يَصِير به فى حكم الحيِّ الذى لم يَمُت ، والمشهود الذى لم يَفُتْ . وقد توصَّل بهذا الكلامِ إلى إطرائه مَن يتشـكَّره والثناء عليه ، وهو قوله « وأتيتُ أبيضَ سابغاً سرباله » ، يريد : وزُرت رجلاً كريماً حُرًّا ، نقيَّ الحَسَب من العُيوب ، واسع العِطاف والقميص ، لباسُه لباسُ الرُّؤساء والسادة .

وقولُه « يكفِى المَشاهِد » يريد أنه ينوب فى مجالس الـكبار عمن لايحضرها ، فيحسِّن المَحضَر ، ويُقصِّر لسانَ المغتاب . ومثله قول الآخر :

إنّا لَنَذْكُرُ والرِّماحُ تَنُوشُــنا   تحتَ العجـاجةِ ما يقال ضُحَى الغَدِ

(*) ورد هذا العنوان فى ل فقط . أما التبريزى فقد جعل « باب الأضياف والمديح » بابا واحدا ، كما سبق .

(١) يزيد بن مخرم بن حزن بن زياد الحارثى ، من بنى الحارث بن كعب ، شاعر جاهلى . معجم المرزبانى ٤٩٤ .

٧٨٥

وقال دُرَيدُ بن الصِّمَّة[1] :

١ — تَراه خَمِيصَ البَطْنِ والزَّادُ حَاضِرٌ عَتِيدٌ ويَغْدُو فى القَمِيصِ المُقَدَّدِ

وقد مرَّت هذه الأبيات مشروحة[2] .

٧٨٦

وقال آخر :

١ — كَرِيمٌ رأى الإقتارَ عارًا فلم يَزَلْ أخا طَلَبٍ للمالِ حتَّى تَموَّلا

٢ — فلما أفادَ المالَ عادَ بفَضْلِهِ على كُلِّ مَنْ يرجو جَـدَاهُ مُؤَمِّلَا

الإقتار : نقيض الإكثار . يقال فلان مُكثِرٌ ، وفلان مُقْتِرٌ . وكذلك التَّقتير عقيب التَّكثير . ويقال : قَتَرَ على أهله وأَقْتَرَ ، إذا ضَيَّقَ عليهم فى الإنفاق ، وفى القرآن : ﴿ والَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولم يَقْتُروا ﴾ ، قُرِئ بضم الياء وفتحها على اللغتين . يقول : لمَّا رأى فى ماله القصورَ والعجزَ عن مدى هَمِّه ، رأى ذلك عارًا ومنقصة ، فلم يزلْ يمتطى المَرَاكب الشَّاقَّة[3] طالبًا للمال ، ويديم الحَلَّ والتَّرحالَ فى كَسْبه وجمعه ، حتَّى إذا استغنى ونال مُناه ، لم ينفردْ به دونَ مؤمِّليه ، ولم يجعَلْه مقصوراً على لذَّاته ومباغيه ، ولـكن عادَ يُفْضِلُ

---

(١) وردت هذه المقطوعة فى الأصل بيتا واحدا كما هنا ، وعند التبريزى أربعة أبيات ، فبعد هذا البيت عنده :

وإن مسه الإقواء والجهد زاده سماحا وإتلافا لما كان فى اليـد
قصير الإزار خارج نصف ساقه صبور على العزاء طلاع أنجد
قليل التشكى للمصيبات حافظ من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد

(٢) انظر الحماسية ٢٧١ ص ٨١٨ — ٨٢٠ .

(٣) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « المتاقة » .

عليهم ، وأقبل يُشرِكهم فيه ويعطيهم . وبقال أفاد بمعنى استفاد . والجَدَا والجَدْوَى : العطيّة .

٧٨٧

لمّا أُتِيَ يزيدُ بن عبد الملكِ بآل المُهَلَّب[١] قام (كُثَيِّر) بينَ يديه فقال :

١ — حَليمٌ إذا ما نال عَاقَبَ مُجْمِلًا أشَدَّ العِقابِ أو عَفَا لم يُثرِّبِ

٢ — فَعَفْواً أميرَ المُؤمنين وحِسْبَةً فما تَحتَسِبْ مِن صَالحٍ لكَ يُكتَبِ[٢]

٣ — أساءوا فإنْ تَغفِرْ فإنَّكَ أهْلُه وأفْضَلُ حِلْمٍ حِسْبَةً حِلْمُ مُغضَبِ

يَصِفُه بكرم النَّفْس وكَظْمِ الغيظ ، واستعمالِ الحلم في وقته ، والانتقام من الأعداء بأشدِّه في إبّانه وحِينه . فيقول : إذا نالَ الجانيَ عليه ، أو العدوَّ الكاشِحَ له ، عاقبَهُ وهو مُجْمِلٌ ، أي لا يشتطُّ ولا يُسْرِف ، ولكن ينتهج طُرُق العَدْلِ في الانتقام ، ويَقصِدُ الحقَّ في إقامة الحدِّ عند التمكُّن واللِّزام ، وذلك أشدُّ ما يُعَاقِبُ به مثلُه ، أو عفا عنه غيرَ موبِّخٍ على ذَنْبه ، ولا مكدِّرٍ نعمته في عَفْوِه . وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾ : لا تخليطَ ولا إفساد . وقال غيره : لا تعيير ولا توبيخ .

وقوله « فعفواً أميرَ المؤمنين » طَلَبٌ وسُؤال ، وانتصاب عَفْواً على المصدر . فيقول : اعفُ وقد قَدَرْتَ ، واحْتَسِبْ عند الله بما تأتيه ، فهو مكتوبٌ لك إلى يوم فاقتك ، ومُدَّخَرٌ إلى وقت مجازاتك ، فكما تعفو يُعْفَى عنك .

وقوله « أساءوا فإن تغفِرْ » ، اعترافٌ بالذَّنب ، واستعطاف بالغَفْر . فيقول

(١) كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة قد خرج على يزيد بن عبد الملك وأعلن خلعه ، والتقت جيوشه بجيوش الخليفة في العقر من أرض بابل ، وكان القتال شديداً قتل فيه ابن المهلب وانهزم جيشه ، وذلك في سنة ١٠٢ .

(٢) التبريزي : « فما تكتسب » .

إن تجافيت عن إساءتهم واستعملت ما أنت أهله من العفو عنهم ، فإنَّ ذاك هو المرجوُّ منك ، والمعتادُ من نظَرِك ، وأفضلُ الحِلْمِ احتساباً وأجراً حِلْمُ المغيظ ، والمُضْجَر المتبَلَّك [1] .

فرُوِى أن يزيدَ لما قَرَعَ سمعَه هذه الأبياتُ قال : لولا أنَّهم قدَحُوا فى المُلْكِ لعفوْت عنهم [2] .

٧٨٨

وقال يزيدُ بنُ الجَهْم :

١ — تسائلُنِى هَوَازِنُ أينَ مَالِى وهل لِى غَيْرَ ما أنفقْتُ مَالُ

٢ — فقلتُ لها هَوَازِنُ إنَّ مالى أَضَرَّ به المُلِمَّاتُ الثِّقَالُ

٣ — أَضَرَّ به نَعَمْ ونَعَمْ قديماً على ما كان من مَالٍ وَبَالُ

يقول : تباحِثُنى هـذه القبيلةُ عن حالى ، وتسائلنى عن وجوه غِناى ، ومَصارِف مالى . وهذا إخبارٌ عنهم وعن مباحَثتهم واستكشافهم فى إنكارهم . وقوله « وهل لى » استفهام على طريق النّفى ، كأنّه قال : ومالى مالٌ إلا ما أنفقْتُه ووضعتُه حيث اخترتُه وهذا اعتراضٌ بيْن الابتداء من هَوازِن فى السُّؤال و بين ما أتى به فى الجواب ، وهو قوله « فقلت لها هوازن » . وانتصب غيرَ على أنَّه استثناء مُقدَّم ، كأنه لم يعتدَّ بما فَضَلَ له عن مآربه ، و بقى عنده فى جواب مطالبِه . والمعنى أنَّه لا مالَ له إلَّا ما أنفقَه وقدَّمه لا ما يُسأل عنه .

وقوله « فقلت لها هوازن » ، يريد أجبتهم وقلت : مَالى أفناهُ ما نَزَلَ بى

(١) هذا ما فى ل وفى الأصل : « المتلل » .

(٢) التبريزى : « فقال له يزيد : أملت بك الرحم ! أى عطفتك عليهم . ولولا أنهم قدحوا فى الملك لعفوت عنهم » .

من المُلِمّات القادحة ، والنَّوائب الجحفة ، وأضَرَّ به قولى فى جواب السُّؤّال والوُرّاد : نَعَم ، إيجاباً لهم ، وإسعافاً بمقترحاتهم . وهذه اللفظة وَبالٌ على الأموال معروفٌ فيما تقادَمَ من الأزمان . وانتَصَبَ « قديماً » على الظَّرف ، والعامل فيه ما اشتمل عليه قوله « على ما كان من مالٍ وَبَالُ » .

ونَعَم : حرفٌ وضع للإيجاب ، ونقيضه لا . وقد جعله الشاعر على هيئته منقولاً إلى باب الأسماء ، فهو فاعلٌ لأضَرَّ ، ومبتدأ فى قوله « ونَعَمْ قديماً » والخبر وبال .

فأما قول أبى تَمّام :

تقولُ إن قُلتمُ لا لا مسلِّمَةً لأمرِكمْ ونَعَمْ إنْ قُلْتمُ نَعَما[1]

فقد عِيبَ عليه قوله نعما ، وليس كما ظُنَّ ، لأنَّه لمَّا نقلَها وجعلها اسماً نصبها بقُلْتُمْ ، على حدِّ قولك : قلتُ خيراً وقلتُ شرًّا .

ويجوز أن يكون « قديما » انتصب على الصِّفة المتقدِّمة ، أى نَعم وَبالٌ قديم على الأموال ، فلما قدَّمه نصبه . ومثلُه :

* لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ[2] *

٧٨٩

وقال أعرابىّ :

١ — ألاَ فَتى نالَ العُلا بهمِّهِ

٢ — ليس أبوهُ بابنِ عمِّ أُمِّهِ

٣ — تَرى الرِّجالَ تَهتدِى بأَمِّهِ

(١) فى الديوان ٣٠٥ : « مسلمة لقولكم » .

(٢) البيت لكثير عزة ، كما سبق فى حواشى ١٦٦٤ .

قوله « ألَا فَتَى » تمنٍ ، وألف الاستفهام دخل على لا النافية لهذا المعنى ، ولذلك حذف التَّنوين من فتى . ومعنى « نال العُلا بهمِّه » أى صرفَ همَّه ، وشَغَل نفسَه بما ابتنى به العُلَا ، وعَمَر به مكارمَ قومه وذَوِيه .

وقوله « ليس أبوهُ بابن عمٍّ أمِّه » ، هو المعنى الذى ورد به الخبر : « اغترِبُوا لا تضوُوا » ، لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الولدَ إذا حصَلَ بين متشاركَيْن فى النَّسب متقارَبين ، جاء ضاويا .

وقوله « تَرَى الرِّجالَ تهتدى بأمِّه » ، أى تَرام يَطَوُّون عقبَه ويقدِّمونه فيهتدون بقصده ، ويقتدون برسمه ، لرياسته وفَضْله .

٧٩٠

وقال ابنُ المولى[١] ، ليزيد بن حاتم[٢] :

١ — وإذا تُباعُ كَرِيمةٌ أو تُشتَرى ‏ ‏ فسِوَاكَ بائعُها وأنتَ المشترِى

٢ — وإذا توعَّرَتِ المَسَالكُ لم يكنْ ‏ ‏ منها السَّبيلُ إلى نَدَاكَ بأوْعَرِ[٣]

يقول : إذا قامت سوقُ المكارم ، وثارَ رهجُ المغانم بين طُلَّاب المعالى وتُجَّار المحامد ، فغيرُكَ مِن حاضريها يزهد فى حَوْز المكرُمات ، ويرفعُ يدَه عنها ، فكأنَّه يبيعها ؛ وأنتَ تحصِّلها وتجمع يدَكَ عليها ، وتفوز بابتياعها وإن كانَ بأغلى الأثمان ، وأثقل السِّيَم[٤] ، فلا رغبةَ إذا نظرْنا فى مَجامع المجد ، واعتبرنا

(١) هو محمد بن عبد الله بن مسلم بن المولى ، من الأنصار . شاعر متقدم مجيد من مخضرى الدولتين ومداحى أهلهما ، وقدم على المهدى وامتدحه بعدة قصائد ، فوصله بصلات سنية . الأغانى (٣ : ٨٥) .

(٢) هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

(٣) التبريزى : « لم تكن » . والسبيل تذكر وتؤنث .

(٤) بكسر ففتح : جمع سيمة بالكسر ، وهو الاسم من السوم فى البيع .

فيها دَواعىَ طُلَّاب الثّناء والحمد، كرغبتك. وقوله: تُباعُ أو تُشتَرى، أوْ بمعنى الواو، فهو كما يكتب فى العقود: «وكلُّ حقٍّ له داخلٍ أو خارج».

وقوله «وإذا توعَّرت المسالك»، يريد وإذا اشتدَّ الزّمان وانسدَّت الطُّرُق إلى من يتندَّى ويَشتهِر بفعل المعروف، لشُمول القَحط وإمحال الناس، فعادَتْ مسالكُ الجُود وَعْرةً لا يُمكِن قطعُها، ولا الوصولُ إلى أسباب الخير منها، كنتَ قريبَ المأخَذ، سهلَ الفِناء، حسنَ الإقبال على مُجتَديك، جميلَ الاشتمال على قُصّادك وزائريك، فلا تَستَحزِنُ أرضُك، ولا يُستَوعَر جنابُك. وتوعَّرَت، من قولهم: طريق وَعْرٌ، أى غليظ. وقد وَعِرَ يَوْعَر. وطريق أوْعَرُ، من هذه اللغة.

٣ — وإذا صنعْتَ صَنيعةً أتممْتَها   بيدَينِ ليس نَدَاهُما بمكدَّرِ

٤ — وإذا هَمَمْتَ لمُعْتَفِيك بنائلٍ   قالَ النَّدَى فأطعتَهُ لكَ أكثِرِ

٥ — يا واحِدَ العربِ الذى ما إنْ لهُمْ   من مَذهب عنه ولا من مَقْصَرِ

قوله «وإذا صنعتَ صنيعة»، يقول: وإذا اتّخذتَ عند إنسانٍ يدًا وأزَلتَ إليه نعمةً، فإنّك لا تُخدِجُها ولا تترك تربيتَها، لكنّك تكمِّلها وتقوم بعمارتها، مصُونةً من المَنِّ والتّكدير، صافيةً من الشّوائب والتعذير؛ ومتى نويت لمُجتَديك الإفضالَ عليه اقتضاك كرمُك والنَّدَى [الذى[1]] هو همُّك وسَدَمُك، وقالا وأنتَ تُطيعُهما وتوجب مَرْسُومَهُما: أكثِرْ له ليستغنِيَ عن غيرِك، ويَخلُصَ المنُّ لك.

وقوله «يا واحدَ العرب»، يجوز أن يتَّصل بقول النَّدى[2] ويكونَ الشّاعرُ حاكيا، ويجوز أن يتّصل بمخاطَبة الشّاعر، والقصد فى الدُّعاء التّخصيصُ

(١) التكملة من ل.

(٢) يريد أنه مقول لقال الندى. وفى الأصل: «بقوله الندى»، صوابه فى ل.

والإطراء . والمعنى أنَّه واحدُ العَرَب لا نظيرَ له فيهم ، فهو المنظور إليه[١] من بينهم ، فلا مَعْدِلَ عنه فى المُهِمَّات ، ولا مَقْصِرَ دونه فى المُلِمَّات . والمَقْصر : الكفُّ والإمساك .

٧٩١

وقال المُعَذَّل[٢] :

١ — جَزَى اللهُ فِتْيَانَ العَتِيكِ وإن نَأَتْ ❊ بِىَ الدَّارُ عنهم خَيْرَ ما كانَ جازِيَا

٢ — هُمُ خَلَطُونِى بالنُّفوسِ وأكرمُوا الـ ❊ ـصَّحَابةَ لمَّا حُمَّ ما كُنتُ لاقِيا[٣]

كان المعذَّل أُخِذَ بِجُرم ، فكفل عليه النَّهْسُ[٤] بن رَبِيعةَ العَتَكى ، وكان حيثُ كَفَلَ عليه : دُفِعَ إليه فحملَه على فرسٍ وبَغْل ، وأمَرَه أن ينجوَ بدمه ، وأسلَمَ نفسَه مكانَه ، فقال المعذَّل : اختر أن أمتدِحَكَ أو أمتدحَ قومك . فاختار امتداحَ قومه ، فقال : تولَّى اللهُ عنِّى جزاءَ فتيانِ العتيكِ ، فقابَلَهم بخيرِ ما يُجازِى به مُستحِقًّا لجزاء ، وإنْ بَعُدْتُ عنهم ، وتناءت دارِى عن دارِهم .

ثمَّ أخذ يقتصُّ ما عُومل به فذَكَرهم وقال : هم الذين خَلَطونى بأنفسهم ، وأسقطوا الحِشمةَ بينى وبينهم ، فجعَلُونى أشارِكُهم فى خيرهم ، ولا أتفرَّد بالضَّير فيهم ؛ ثم إنَّهم صاحبونى مصاحبةً كريمةً لمَّا قُدِّر لى ما كنتُ أكابِدُه ،

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كالمنظور إليه » .

(٢) هو المعذل بن عبد الله الليثى ، كما ذكر التبريزى . وقال المرزبانى فى معجمه ٣٨٨ : « المعذل البكرى أحد بنى قيس بن ثعلبة ، إسلامى » ثم قال : « وقدم على المهلب بخراسان فقال لمن حضره : يا معشر الأزد ، هو الذى يقول ... وأنشد هذه الأبيات . فجمعوا له خمسين وصيفاً ، وأعطاه المهلب مثلها » . وانظر خبراً عنه فى الشعراء ٢٩ ، ٨٣ .

(٣) المرزبانى : « ما كان آتياً » .

(٤) وكذا عند التبريزى . وعند المرزبانى : « النهاس » .

فضمُّونى إلى أنفسهم متكفلين بى ، وصابرين على المكروه دونى ، ثم فكوا أسرى وأبلغونى مأمنى .

فإن قيل : ما فائدةُ قوله « وإنْ نأت بىَ الدارُ عنهم » ؟ قلتَ : أراد أنّه لا يشكرهم مُقارِضاً ولا طامعا فيؤثِّر فيما هو الغرضُ فيه قُربُ الدار وبُعدُها ، بل يؤدِّى حقَّ نِعمةٍ ، ويقضى لازمَ فريضة وقوله « لمَّا حُمّ » يجوز أن يكون ظرفاً لأكرموا . ومعنى حُمَّ قُدِّر .

٣ — هُمُ يُفرِشُونَ اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ وأَجْرَدَ سبَّاحٍ يَبُذُّ المُغَالِيَا

٤ — طِعامُهُمُ فَوْضَى فَضاً فى رِحالِهِمْ ولا يُحسِنُونَ السِّرَّ إلّا تَنَادِيا

٥ — كأنَّ دَنانيراً على قَسِماتِهمْ إذا الموتُ للأبطالِ كانَ تَحَاسِيَا

ذكر ما شاهدهم عليه فى مُجاورتهم ، ويَجْرُون عليه فى عاداتهم ومَصارفهم ، ويَنْتَقِلون فيه أوقاتَ حَفْلهم ، وعند خَلْوتهم ، وفيما ينوبهم مِن نائبةٍ تخصُّهم أو تعمُّهم . فقوله « يُفرِشون اللِّبْدَ » بضمِّ الياء ، أى يجعلون اللِّبْد فِراشاً لظهر كلِّ رَمَكةٍ وثَّابة ، وكلِّ فحلٍ كريم سَبَّاحٍ فى عدوِه ، غَلَّابٍ لمُباريه فى الغُلُوّ ، سَبَّاقٍ فى الرِّهان يَحُوز قَصَبَ التَّقدُّم والعلوّ .

ويقال : فَرَشْتُ الفِراش وأفرشتنيه فلان ، وافترشت الأرضَ والمرأة . وروى بعضهم : « هم يَفرُشون » بفتح الياء ، وقال : أراد يَفرُش للِّبْدَ على كلِّ طِمِرّةٍ ، فحذف الجار . قال : ويقال فرشْتُ ساحتى الآجُرَّ وبالآجُرِّ .

وقوله « يَبُذُّ المُغاليا » إن ضممت الميم جاز أن يُراد به السهمُ نفسه أو فرسٌ يُغاليه . وجاز أن يراد به الرّافع يدَه بالسَّهم يريدُ به أقصى الغاية . ويقال : بينى وبينه غَلْوَةُ سهم ، كما يقال قِيدُ رُمْح وقابُ قوس . وإن فتحتَ الميم يكون جمعا للمَغْلاة ، وهى السهم يُتَّخَذ للمغالاة . والمعنى يسبق السَّهمَ فى غَلوته .

ومُراد الشّاعر أنّ سعيَهم مقصورٌ على تفقُّد الخيلِ وخِدْمتها ، والتفرُّسِ على ظهورها .

وقوله « طعامهُم فوضَى فَضاً » فوضَى من فوّضْتُ الأمرَ إليك . والفَضا من فَضَت الأرضُ ، إذا اتّسعَت ؛ ومنه الفَضاء ، وأفضَيْت إليه بكذا . والمعنى أنّ الطعام عندَهم وفيهم لا يُكالُ ولا يُوزَن ، ولا يُقتَسم ولا يُفرَز ، بل يأكله في رِحالهم كلُّ من احتاجَ إليه ، غيرَ ممنوعٍ عنه . وقوله « ولا يُحسِنُون السِّرَّ إلّا تنادِيا » ، أي لا رِيبةَ في أقوالهم وأفعالهم فيَخفِضُوا الصّوتَ بما يتخاطَبون به ، فعلى هذا يكون تناديًا مستثنى ، ويكون التقدير : لا يحسنون السِّرَّ لكنّهم يتنادون . ويجوز أن يكون « تناديا » في موضع الحال ، ويكون من باب :

* تحيّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجيعُ[1] *

و : * أُعتِبُوا بالصَّيْلمِ[2] *

وما أشبههما .

وقوله « كأنّ دنانيراً على قَسِماتهم » فالقَسِمة : الوجه . ويقال : وجهٌ مقسَّم ، إذا وُفِّيَ كلُّ جُزْءٍ منه حَظَّهُ من الحسن يريد أنّ الشّدائد لا تَكسِرُ شوكتَهم ولا تغضُّ أبصارَهم ولا تَغِيض مياهَ وُجُوهِهم[3] ، بل يزدادُون على طول المِراس والجِذاب حُسْنا ونشاطًا . فكأنّ سَحَناتِهم غُشِّيَت بالدّنانيرِ إشراقًا ونورًا ، في وقتٍ تتحامى[4] الأبطالُ فيه الموت . وهذا مَثَلٌ للشِّدّة وقد وُطِّنت النُّفوس عليها ، وذُلِّلت لها . أي تشرب الشّجعانُ كؤوسَ الموت حَسَوات .

---

(١) البيت لعمرو بن معديكرب ، كما سبق في حواشي ٢٤٦ ، ٥٨١ ، ٦٤١ ، ١٣٨٧ . وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٢) قطعة من بيت لبشر بن أبي خازم في اللسان (صلم) . وهو بتمامه :

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

(٣) ل : « ماء وجوههم » . وغاض من الأفعال التي تلزم وتتعدى . يقال غاض الماء ، كما يقال غاضه ، أي نقصه .

(٤) في الأصل : « تتحاشى » ، صوابه في ل .

٧٩٢

وقال بعضهم :

١ — وزادٍ وَضَعتُ الكَفَّ فيه تأنُّساً وما بِيَ لولا أُنسَةُ الضَّيفِ مِنْ أكْلِ
٢ — وزادٍ رَفَعتُ الكَفَّ عنه تكرُّماً إذا ابتَدَرَ القومُ القَليلَ من الثُّفْلِ
٣ — وزادٍ أكَلناهُ ولم نَنتَظِرْ بِهِ غداً إنَّ بُخْلَ المَرْءِ من أسْوَأ الفِعْلِ

يصف وُفُورَ عقله وحُسْنَ تأتِّيه فى تقلّب الأحوال به ، وذهابَه مع الكرم أنَّى اعتمَدَ ، ومَعَ مَنْ تصرَّف . فيقول : رُبَّ زادٍ وضعتُ كفِّى فيه إيناساً للمجتمعين عليه ، وتأنُّسا بمؤاكلتهم ، ولكى يَنْشَطوا[1] بكونى معهم ، ويطَّرِحُوا الحشمةَ لانضمامى إليهم ، لولا ذلك لكنتُ غيرَ محتاج إليه ، ولزَهِدْتُ فى التّناول منه . وقوله « أُنسَةُ الضَّيف » ، يقال أُنسٌ وأُنسَةٌ كما يقال بُعْدٌ وبُعْدَةٌ ، وشقاء وشقاوةٌ ، ومَنزِل ومنزلة ، ودار ودارة .

وربَّ زادٍ أمسكتُ عن أكله ، وانقبضتُ عن الاجتماع مع آكليه مؤثرا لغيرى به ، وتوسيعاً على متناوليه ، فى وقتٍ من الزمان يُرَى القومُ يستَبِقُون إلى القليل من سَقَط الزاد ، لعزّته وشدّةِ حاجتهم إليه ، وبعد عَهْدِهم[2] بأطايبه ، وربَّ زادٍ أفنيناه وتوسّعْنا فيه ، غير مفكِّرٍ فى مستأنَف الزّمان ، ولا خائفٍ من عواصف الحَدَثان[3] ، ولو بَقّيناه لعُدَّ ذلك من فِعلنا بُخْلًا به ، والبُخل من أسوأ أفعال المرء وأقبحها . وانتصب « تأنُّساً » على أنّه مصدر فى موضع الحال . وقوله « من أكل » فى موضع الرّفع لأنّه اسم ما ، والنّفى بما تناوله من حديث لولا . وكذلك قوله « تكرُّما » فى موضع الحال ، و « إذا ابتدر » ظرف لرفعت ، وهو

(١) ل : « ينبسطوا » . (٢) ل : « عهودهم » .
(٣) فى النسختين : « من عواطف » .

جوابه . وقوله « لم نَنْتظرْ به غَداً » أى لم ننتظِرْ باستيفائه غداً ، أى مجىء الوقت الذى نُسميه غَداً .

٧٩٣

وقال بعضهم :

١ — لَقَلَّ عَاراً إذا ضَيْفٌ تَضَيَّفَنى ما كانَ عِنْدِى إذا أعطيتُ مَجْهُودِى

٢ — جَهْدُ المُقِلِّ إذا أعطاكَ نائِلَهُ ومُكْثِرٍ فى الغِنَى سِيَّانِ فى الجُودِ

اللام من « لَقَلَّ » جواب يمين مضمرة ، وفاعل قلَّ ما كان عندى . و « عاراً » انتصب على التميز ، وهو ممَّا نُقِل الفعلُ عنه ، كأنَّه كان لَقَلَّ ما كان عندى ، فنقل قَلَّ وجعله لقوله ما كان ، وأشبه عاراً المفعولَ فنصبه . وقوله « إذا أعطيت » [ظرفٌ لقوله : « قلَّ ما كان عندى » . وإذا ضيفٌ تضيَّفنى ، ظرف لقوله : « إذا أعطيت[1]] مجهودى » . وتلخيص الكلام : لقد قلَّ عارُ ما كان عندِى إذا أعطيتُ منه مجهودى إذا ضَيْفٌ تضيَّفنِى . والمعنى : لا عارَ فى القليلِ الذى عندى إذا أعطيتُ مجهودى فى الوقتِ الذى يتضيَّفُنى الضَّيف . ومثل هذا البيت فيما اجتمع فيه من الظَّرْفَين قول الآخر[2] :

عَلَامَ تقولُ الرمح يُثْقِلُ ساعِدِى إذا أنا لم أطْعُن إذا الخَيْلُ كَرَّتِ

وقوله « جَهْدُ المُقِلِّ » مبتدأ ، وعطف مُكْثِرٍ على المُقِلِّ ، وقد حذف المضاف منه ، والمراد وجَهْدُ مُكْثِرٍ فى الغِنَى ، فاكتَفَى بالأوَّل عن الثانى ، وسِيَّان خبر المبتدأ ، كأنَّه قال : جَهْدُ المُقِلِّ إذا أعطاك ما عنده وجَهْدُ مكثرٍ فى الغنى مِثْلانِ فى أحكام الجُود وشرائطه ، لأنَّ كلاً منها فَعَل مجهودَه . وإنما قلنا هذا لأنَّك

(١) التكملة من ل .

(٢) هو عمرو بن معديكرب ، سبق فى ص ١٥٩ .

إنْ لم تضمر في قوله « ومكثر » المضافَ تكون قد جمعتَ بين الحَدَث وهو جَهْد المُقِلّ ، و بين الذّات وهو مُكثِر فجعلتَهما سِيَّين . والشّرط أن يُضَمّ الحَدَثُ إلى الحدث ، والذّاتُ إلى الذّات . وقوله « في الغنى » في موضع الصّفة لمكثر ، كأنّه قال ومكثرٍ غَنِيّ . وهذا كما تقول : جاءني رجل في جُبّةٍ ، تريد وعليه جُبّة ، وتحقيقه : جاءني رجلٌ لابسٌ جبة .

وقد تُبُيِّن من البيت الثاني معنى البيت الأوّل ، واعتذارُه من القليل الذى يُعطيه إذا ضاف ضَيْفٌ[1] .

٧٩٤

وقال خَلَفُ بنُ خليفة[2] :

١ — عَدَلْتُ إلى فَخْرِ العَشِيرةِ والهَوَى ... إليهم وفى تَعداد مَجْدِهِم شُغْلُ

٢ — إلى هَضْبَةٍ من آلِ شَيْبانَ أشرَفَتْ ... لها الذِّروةُ العَلْياء والكاهل العَبْلُ

٣ — إلى النَّفَرِ البِيضِ الأُولاء كأنّهمْ ... صفائحُ يَوْمَ الرَّوْعِ أخلَصَها الصَّقْلُ

٤ — إلى مَعْدِنِ العِزِّ المؤيَّدِ والنَّدَى ... هُناكَ هُناكَ الفَضْلُ والخُلُقُ الجَزْلُ

قوله « والهوى إليهم » مبتدأ وخبره قد اعترَضَ بينَ صدر البيت وعَجُزه ، والواو واو الحال . والمعنى : وهوايَ معهم ؛ لأنَّ إلى بمعنى مع ، كما يقال هذا إلى ذاك . و يجوز أن يُعطف والهوى على فخر العشيرة ، فيكون المراد عَدَلْتَ إلى الافتخار بهم ، و إلى الهوى معهم . فيقول : صرفتُ همِّى إلى ذِكر مَفاخر العشيرة ، وهوايَ معهم ، وتركت غَيرَه لأنَّ في عدِّ مجدِهم و إحصائه ما يَشْغَلُنى عن غَيره . ثم كَرّر « إلى » مفخِّمًا ومعظِّمًا ، فقال : إلى هضبةٍ مِن شأنها كذا ، و إلى النَّفر الذين من

---
(١) ل : « ضافه ضيف » .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٩٦ ص ٨٨٩ .

شأنهم كذا ، و إلى معدن العزّ الذى من أمره كذا . والمراد بجميع ماذكر العشيرةُ و إن اختلفت العبارات عنها .

وقوله « أشرفَتْ لها الذِّروةُ العلياء » ، يعنى هضْبَةَ العزّ . فيقول : عَلَت لهذه الهَضْبة ذِروةٌ شامخةٌ وكاهِلٌ ضخم ، يريد عِظَم الهضْبة وسُموقَها واتّساعَ جوانبها .

وقوله « إلى النَّفر البِيض » يعنى آلَ شيبان . ذكر عِزَّهم وكَنى عنه بالهضْبة ، والقصدُ إلى أنّهم الملجأ والمعقل . « والأُولاء » فى معنى الذين ، وما بعدهُ من صِلَته ، ويُمَدُّ ويُقصر ، فيقال الأُولاء والأُولَى . وأراد بالبِيض الكرام المُنَقَّى الأحساب . وقوله « كأنّهم صفائح يوم الرَّوْع » ، يجوز أن يضيف صفائح إلى يوم الرّوع ، ويريد تشبيَهم فى نفاذهم وقُدودِهم بالسُّيوف المعدَّة ليوم الروع ، لا المَعاضِدِ[1] وما يُبتَذَل فى العوارض سِوى الحَرْب . ولك أن تنصب « يوم » على الظَّرف . يريد صفائح مصقولة جُرِّدت يَومَ الروع ، وأُعمِلت وأُنفذت . وعلى الوجهين جميعاً يكون « أخلَصها الصَّقْل » من صفة الصّفائح .

وقوله « إلى مَعِدن العزّ المؤيد » معنى المؤيَّد المقوَّى بموادِّه التى تُصرف إليه ، لحسن مراعاتهم ومحافظتهم على المجد . ولك أن تروى « المؤبَّد » بالباء ، ويكون المعنى العزّ الدائم الثابت على مَرّ الأيّام . وقوله « والندى » لك أن تجرّه معطوفا على العزّ وتصير هناك مكرّرا ، والفضل مبتدأ وهناك خبره ، وقد كرر الخبرَ تفخيماً وتعظيما . وكما يكرَّر الخبر يكرَّر المبتدأ ، تقول : زيدٌ زيدٌ عاقل ، وزيد عاقل عاقل . ولك أن تجعل « والنَّدَى » مبتدأ ويكون هناك الأوّل خبره ، والواو واو الحال ، ويكون « هناك الفضل » مستأنفاً .

وقوله « الخُلُق الجزْل » الجزَالة مستعملَة فى الرّأى والخُلُق ، وفى القرآن :

---

(١) جمع معضد ، كمنبر ، وهو السيف الممتهن فى قطع الشجر .

﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، فاستعمل العِظَم أيضاً .

٥—أُحِبُّ بقَاء القَوْمِ بالمِصْرِ إنَّهُمْ مَتَى يَظعنوا عن مِصْرِهِمْ ساعَةً يَخْلُو[(١)]

٦—عذَابٌ على الأفواه ما لم يَذُقْهُمُ عَدُوٌّ وبالأفواه أسْمَاؤُهم تَحْلُو

٧—عليهمْ وَقَارُ الحِلْمِ حتّى كأنّما وليدُهُمُ من أجْلِ هَيْبتِهِ كَهْلُ

٨—إذا استُجْهِلُوا لم يَعْزُبِ الحِلْمُ عنهمُ وإن آثَرُوا أنْ يَجْهَلُوا عظُمَ الجَهْلُ

قوله « أُحِبُّ بقاء القوم بالمصر » يصف به كثرةَ خيرِهم وعمومَ النَّفع بمكانِهم في مُقامهم ، وسُكونَ النّاس إليهم ، وقيام مُرُوّاتهم وسياساتهم في أوطانهم ومظانّهم ، فيقول : أحبُّ لَبْثَهم في دُورهم ومواضعهم ، فإنَّهم متى ارتَحَلوا عن مصرهم ساعةً خلا وصارَ في حُكْم ما لم يُختطّ من البلاد ولم يُؤْهَلْ بالقُطّان والسُّكّان ، لأنَّ عمارتَه كانت بهم ، ودخل في عداد الأمصار بسُكناهم[(٢)] .

وانجزم « يخلو » لأنّه جواب الشّرط ، وهو متى يظعنوا ، لكنّه أطلَقَ فزاد ما يلحق للإطلاق في قوله تخلو . قالوا : وها هنا ليست التي كانت لامَ الفعل ، وإنّما هي كالواو التي في قولك :

* أيتُها الخيامُو[(٣)] *

وبمثل هذا تقول في لم ترمِي ، ولم يَخْشَى ، إذا وَقفتْ في القافية ، فيصير الألف كألف « الجَرعا » ، والياء كياء « الأيّامِي » . وعلى هذا القول في :

* ألا أيها اللّيل الطّويل ألا انجَلِي[(٤)] *

---

(١) التبريزي : « من مصرهم » .

(٢) هنا الصواب من ل . وفي الأصل : « بسكانهم » .

(٣) قطعة من بيت لجرير في ديوانه ٥١٢ والعمدة (٢ : ٣٨) . وتمامه :

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

(٤) لامرئ القيس في معلقته . وعجزه :

* بصبح وما الإصباح فيك بأمثل *

الياء فيه للإطلاق ، فأمّا من قال

* ألم يأتيكَ والأنباء تَنْمِي[١] *

[و]* ولا تَرَضَّاها ولا تَملَّقِ[٢] *

و * منْ هَجْو زَبّان لم يَهْجُو ولم يدَعِ[٣] *

فالياء والواو والألف لاماتٌ بُقِّيت فى موضع الجَزْم ، لأنّ المحذوف للجزم عنده مِن هذه الأفعال وأشباهها حركاتٌ كانت فى النِّيّة استُثقِل اللّفظُ بها فى موضع الرَّفع مع حروف المدّ ، ثم حُذفَتْ حروفُ المد ليكونَ الفعل مجزومًا أنقصَ لفظاً منه وهو غير مجزوم ، فعند الضرورة أثبَتَها ولم يكن مخطِئاً ، إذْ لم يكنْ سقوطُها إعراباً ، ويكون الياء على هذا القول فى قوله « ألَا انجلِى » لام الفعل أيضا .

وقوله « عِذابٌ على الأفواه ما لم يَذُقْهُم » ما فى موضع الظَّرف . أراد أنّ طَعمَهم حُلوٌ إلَّا على أفواه العُداة ، لأنّ أخلاقَهم تَشْرُسُ عند الأعداء فيَخْشُن جانبُهم لهم ، ويمُرُّ مَذاقُهم على أفواههم إذا ذاقوهم . وقد جمع بين الطّعم والذِّكر ، لذلك أعاد ذِكر الأفواه فقال : وبالأفواه ، كأنّه قصد فى الأوّل الإنباء عن كرم طبعِهم ولينِ أخلاقهم عند التَّجربة ، وفى الثانى أنّه يُسْتَحْلَى ذِكْرُهم فيطيب فى المَسْمَعَة ، لشُمول إحسانهم ، وكَثْرةِ محاسِنِهم ، فتقوم الشَّهاداتُ بفَضْلهم فى الحالتين .

وقوله « عليهمْ وَقار الحِلْم » ، أراد أنهم يحلُمون فى المعاملة ، ويتوقَّرون

---

(١) لقيس بن زهير ، وهو من الشواهد النحوية المشهورة . وعجزه كما فى سيبويه (١ : ٥٩ / ٢/١٠ : ٥٩) والخزانة (٣ : ٥٣٤) والعمدة (٢ : ٢١١) :

* بما لاقت لبون بنى زياد *

(٢) لرؤبة بن العجاج فى الخزانة (٣ : ٥٣٤) . وقبله :

* إذا العجوز غضبت فطلق *

(٣) صدره كما فى الإنصاف ٩٥ :

* هجوت زبان ثم جئت معتذراً *

وكذا ورد فى النسختين . وفى الإنصاف : « لم تهجو ولم تدع » .

مع من يجرّ الجرائر عليهم ، فصغارُهم لهيبتهم فى النفوس كالكهول من غيرهم ؛ وإن حُمِلوا على جهلٍ فى وقتٍ ، بأن يصير مُجاذبهم عادياً طَورَه ، لم يفارقهم الحِلْم أيضاً ، بل يكافئون المُسىء على قدر إساءته . ثم إنْ آثروا استعمالَ الجهلِ لأمرٍ يُوجِب ذلك فاستمرُّوا فيه واشتطُّوا عَظُم البلاء بهم فلم يُطاقوا .

ويقال أثِرْتُ الشىء وآثرتُ بمعنى .

٩ — هُمُ الجبلُ الأعلى إذا ماتنا كَرَتْ مُلُوكُ الرِّجالِ أو تَخاطَرتِ البُزْلُ

١٠ — ألم تَرَ أنّ القَتْلَ غالٍ إذا رَضُوا وإن غَضِبوا فى موطنٍ رَخُصَ القَتْلُ

١١ — لنا فيهمُ حِصْنٌ حَصِينٌ ومَعْقِلٌ إذا حَرَّكَ الناسَ المَخاوفُ والأَزْلُ

١٢ — لَعَمْرِى لَنِعْمَ الحىُّ يَدْعُو صَرِيخُهُم إذا الجارُ والمأكول أرهَقَه الأكلُ

وصفَهم بعُلوِّ الشان وارتفاع المكان ، فقال : هم الرُّكن الأرفع ، والطوْد الأمنع ، وقتَ مداهاةِ الرِّجال بعضِهم بعضاً ، ومنا كَدة الأملاكِ حالاً لحالاً ، فلا يُغالَبُ رأيُهم ، ولا يُحلَلُ[1] عقدُهم ، ولا يُبلَغ غورهم ، ولا يُستقصَرُ مكرهم . فقوله « تنا كَرَت » تفاعَلَ من النُّكْر الداهية ؛ وهو حسن . ويجوز أن يكون تفاعل من الإنكار ، فيكون تنا كَرَت ضدَّ تعارفَت ، أى ينكر بعضُهم بعضاً ، لِمَا يَنطوى عليه كلٌّ لصاحبِه من سُوء الرأى وإضمار الشر .

وقوله « أو تخاطرت البُزْل » هو تَفاعل من الخَطَران ، وهو إشالة الأذناب وإدارتُها عند الهِياج . وهذا إشارةٌ إلى المتحار بين المتجاذبين إذا تدافَعُوا بأركانهم ، كما أنّ قوله « تنا كَرَتْ ملوكُ الرجال » ، يريد إذا تداهوا[2] بمكايدهم . فيريد أنهم يَعلُون رؤساء الناس قولاً وفعلاً ، ومكرًا ودَهْيًا .

وقوله « ألم ترَ أنّ القتلَ غالٍ إذا رضُوا » ، يريد أنّ من أوى إليهم واستنامَ

(١) كذا بفك الإدغام فى النسختين . (٢) ل : « تباهوا » .

إلى جانبهم ، فاستعطف هوامّ وحصَّل رضام ، أمِنَ وعَزَّ فلا يلحقه قَصْدٌ ، وسَلِمَ على الدهر فلا يجرى عليه جَور ؛ ومَن عَدَلَ عنهم واستنَّ فى سَنَن غضبهم[١] ، عرّضَ بنفسه وتعجَّلَ الطمعَ من كل أحدٍ فيه ، فقتْله يَسْهُل ويَرْخُص إذا قَتْلُ المتعزِّز بهم يصعب أو يغلو . ثم قال : « لنا فيهم حصنٌ حصين » ، [يصف ما عمَّهم من الأَمَنَة فيهم وبمكانهم . فيقول : هم لنا معقلٌ حريز وحصن حصين[٢]] ، فى وقتٍ يَقلقُ الناسُ فيه ، لاستيلاء الخوفِ عليهم ، واستعلاء القَحط والبلاء فيهم . والأَزْل : الضّيق .

وقوله « لعمرى لنعم الحيُّ » ، المحمود بنعم محذوف ، كأنه قال : إذا استغاثَ بهم الصريخ وهو المستغيث فاستصرخَهم أجابوه ونصروه ، فنعم الحيُّ هم وقد دُعوا ، إذا الجارُ مأكولٌ ومطموع فيه ، وإذا اشتد الزّمانُ ففَنِيَ الزاد وعزَّ الطعام . وقوله « الجار » مبتدأ وأرهقه الأكل فى موضع الخبر . واكتَفى بالإخبار عنه وإن كان عَطَف المأكول عليه ، كأنه قال : إذا الجار أرهقه الأكل والمأكول كذلك .

ويشبهه قولُ الآخر فى الإخبار عن المعطوف عليه دون المعطوف :

* فإنى وقيَّارًا بها لغريبُ[٣] *

وقد مرَّ مثلُه .

ومعنى أرهقه الأكل ضيَّق عليه وغَشِيه . وقد قيل : أكلتُ فلاناً ، إذا

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « فى سنتهم غضبهم » .
(٢) التكملة من ل .
(٣) لضابئ بن الحارث البرجمى ، كما سبق فى حواشى ص ٩٣٦ . وصدره :
* فمن يك أمسى بالمدينة رحله *

غلبته وقهرته . وكُنِيَ عن المستضعَف باللحم والشَّحم فقيل : ترُك فلانٌ لحمًا على وضَمٍ ، وفلان شحمةٌ للمتبلُغ[1] . قال الشّاعر :

فلا تحسَبَنِّى يا ابنَ أزْنَمَ شَحْمَةً ... تَزَرَّدَها طاهى شِواءٍ مُلَهْوَجِ[2]

١٣ — سُعَاةٌ على أفناء بَكْرِ بن وَائِلٍ ... وتَبْلُ أقاصِى قَوْمِهِمْ لَهُمُ تَبْلُ

١٤ — إذا طَلَبُوا ذَحْلًا فلا الذَّحْلُ فائتٌ ... وإن ظَلَمُوا أكفاءهم بَطَل الذَّحْلُ

١٥ — مَوَاعِيدُهُمْ فِعْلٌ إذا ما تكلَّمُوا ... بتلكَ التى إن سُمِّيَتْ وَجَبَ الفِعْل

١٦ — بُحُورٌ تُلاقيها بُحُورٌ غَزِيرةٌ ... إذا زَخَرَتْ قَيْسٌ وإخوتها ذُهْلُ

قوله « سُعاة عَلَى أفناء بكر » ، السَّعى يُستعمَل على وجوه ، وكذلك السِّعاية . ويقال للمصدِّق السَّاعى ، والمصدر السِّعاية . وهو يَسعَى على قومه ، إذا قامَ بأمورهم . والمَسْعَاة فى الكَرَم والجود . والشَّاعر يريد أنّهم يذُبُّون عنها ويسعَون فى مصالحهم وحِفْظ ذِمَمهم . وقوله « وتَبْل أقاصى قومهم » تبل يؤكِّد ما قبله . والمعنى ذَحْل الأباعد من قومهم كذحل المختصّ بهم ، لأنَّهم يتشمَّرون فى الانتقام والانتصار فيهما على حَذْوٍ واحد .

وقوله « إذا طَلَبوا ذحْلًا فليس بفائت » ، يقال : طلبت عند فلانٍ ذَحلًا ، إذا رُمْتَ مكافأتَه على عداوةٍ منه أو جِناية . وأراد أنَّهم إن وُتِروا لا يفوتُهم إدراك الوِتر ، وإن وَتَروا غيرَهم من أكفائهم وظلَموهم لم يُنتَصَفْ منهم ، ولم يُدرَكْ الثَّأرُ من جهتهم .

وقوله « مواعيدهم [فعل » ، أراد أنّهم ينجزون الوعد ويصدِّقون الأقوال بالفعل ، وأنّ[3]] هذا دأبُهم فى الخصال التى إذا سُمِّيت موعوداً بها وذُكِرت ،

(١) تبلغ بكذا ، أى اكتفى به . وفى ل : « للمبتلع » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٥٨٢ .

(٣) التكملة من ل .

قال النَّاس يجب مع القول فِعْلها ، استبعاداً للوفاء .

وقوله « بحور تُلاقِيها بُحور غزيرة » ، يريد أنَّهم فى أنفسهم كالبحور كثرة وسماحا[١] ، واتِّساعا وعِزَّة ، فإذا لاقتها بحورُ قيسٍ وذُهْلٍ زاخرةً فقد كَمُل الأمرُ وتناهَى العِزُّ ، واطَّرَدَ الماء ، وطما التَّيَّارُ حتَّى لا يُطاق .

٧٩٥

وقال آخر :

١ — عادَوْا مُرُوءتَنَا وضُلِّلَ سَعْيهمْ ولِكلِّ بَيْتِ مُرُوءةٍ أعْدَاء[٢]

٢ — لَسْنَا إذا ذُكِرَ الفَعَالُ كمَعْشَرٍ أزْرَى بِفعْلِ أبيهمِ الأبنــاء

يشبهُه قولُ الآخر :

لا يَمْلِكون عَداوةً مِن حاسدٍ وحِذاءَ كُلِّ مُروءةٍ حُسَّادُها

وقول الآخر :

إنَّ العَرانِينَ تلقــاها مُحَسَّدَةً ولا تَرى لِلِئام النَّاسِ حُسَّادا[٣]

وقوله « وضُلِّلَ سعيهم » أى نُسِب إلى الضَّلال لمَّا لم يلحقوا شأوَهم .

وقوله « لسنا إذا ذُكِرَ الفعال كمعشرٍ » يريد : لا نعتمد على مَناسِبِنا ، وعلى ما قدَّمه أسلافُنا من المفاخر والمساعى ، لكنَّا نَعْمُرُ ما شَيَّدوه ، ونستحدث بأفعالنا ما يقوِّيه ويكثِّره ، ولا يصيرُ مُزْرِياً به .

---

(١) ل : « وسماحة » . والسماح والسماحة : الجود .

(٢) ل : « مروتنا » و « بيت مروة » . التبريزى : « فضلل سعيهم » .

(٣) عرانين القوم : سادتهم وأشرافهم .

٧٩٦

وقال أعشى ربيعة[(١)]

يمدح عبدَ الملك بنَ مَرْوان :

ويقال إنّه دخل عليه فقال : يا أبا المغيرة ، ما بقيَ مِن شِعرك ؟ فقال : لقد بَقِيَ منه وذَهب . عَلَى أنى أنا الذى أقول . ثم أنشد هذه الأبيات :

١ — وما أنا فى حَقِّى ولا فى خُصُومتى . بمهتَضَمٍ حَقِّى ولا قَارِعٍ قِرْنِى[(٢)]

٢ — ولا مُسْلِمٌ مَوْلَاىَ عِنْدَ جِنايةٍ ولا خائفٌ مَولاىَ مِنْ شرِّ ما أَجْنِى

قوله « فى حقِّى » أى فيما أستحقُّه من النّاس كافّة ، من الصِّيانة والتّمييز ، لما تُوُحِّدتُ به من فَضلٍ ومزيّة . وقوله « بمهتَضَم حقِّى » ، يريد به حقوقَه عند النّاس . فيقول : إنى فيما أُجاذِبُ فيه الغير وأنازعُه ، وفى طلب حقوق إذا حَلّت لى عندهم ، وفيما يجبُ لى عند المُزاوَلات والمحاكات من التّبجيل عليهم ؛ لا أُبْخَسُ ولا أُظْلَمُ ، ولا أُدْفَعُ ولا أهان . وقولُه . « ولا قارعٍ قِرنى » ، يريد أنّه لا يأمننى فيشتغلَ عنّى بأسبابه ومَصارفه ، ولكن يكون أبداً خائفاً منّى ؛ ومشغولًا بى وحذِراً من الإيقاع به .

وقوله « ولا مُسْلِمٍ مولاىَ عِندَ جنايةٍ » يريد بقوله مولاى أجناسَ ما يسمّو مولًى مِن حليفٍ ونسيب ، ومنتمٍ بوَلاه بعيدٍ أو قريب . فيقول : إنّى لا أخذُل

---

(١) هو عبد الله بن خارجة بن حبيب بن قيس بن عمرو بن حارثة بن ربيعة بن ذهل بن شيبان . شاعر إسلامى من ساكنى الكوفة ، وكان مروانى المذهب شديد التعصب لبنى أمية وفى الأغانى أن الأعشى لما أنشد عبد الملك هذه الأبيات قال : من يلومنى على هذا ؟ وأمر بعشرة آلاف درهم ، وعشرة تخوت ثياب ، وعشر فرائض من الإبل ، وأقطعه ألف جريب وأجرى له على ثلاثين عيلا . الأغانى (١٦ : ١٥٥) والمؤتلف ١٢ — ١٣ . التبريزى « وهو من بنى شيبان ثم من بنى ربيعة من بطن منهم يقال لهم : بنو أمامة » .

(٢) كذا أوله فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « ولا أنا » . التبريزى : « ولا قارع سنى » ، أى لا أندم على شىء أفعله .

أحداً منهم عند جنايةٍ يجتنيها ، أو جريمةٍ يجترمُها ، بل أنصُرُه وأستنقذه كيفَ ما أمكن ، سَهُل أو تَعذَّر ، ثم إنِّى لا أجُرُّ الجرائر عليهم فيؤاخَذُوا بى وبما تكتسبهُ يدى ، لأنّ ما يرجع إلىَّ من النَّوائب أقومُ فى وجهه ، وأحتال فى نَقْضِه[1] ودفْعه ، سواء علىَّ حَقَّ ذلك فى مالى أو فى نَفْسى .

٣ — وإنَّ فؤادًا بَيْنَ جنْبَىَّ عالِمٌ بما أبصرَتْ عَيْنِى وما سمعت أُذْنى

٤ — وفَضَّلَنِى فى الشِّعْرِ واللُّبِّ أنَّنى أقول على عِلْمٍ وأعْرِفُ مَنْ أعْنِى

٥ — وَأَصْبَحْتُ إذ فَضَّلْتُ مَرْوَانَ وَابْنَه على النَّاس قد فضلت خيرَ أبٍ وَابْنِ

يقول : إنى اكتسبت من مشاهداتى والأخبارِ الواقعة إلىَّ ، الصَّادقة فى مواردها ، المتواترة على ألْسُنِ حَمَلَتِها ما صار قلبى به عَالِمًا ومتميِّزًا ، فلا يلتبس علىَّ وجوهُ الحقِّ وحدودُه ، ولا صُنوف الصِّدق وفنونُه ، فإذا قلت الشِّعر قلته على علمٍ بمَرافِقِه وأساليبه ، ومعرفة المَقُول فيه ومستَحِقِّه ، فلا أكذبُ فى الأخبار ولا أتزيَّد فى الأوصاف ، ولكن أُعطى كلَّ منعوتٍ حقَّه من القول والوصف ، وأقسِمُ لكل مُنَوَّهٍ به قِسطَه من التَّقريظ والمدح ، فمن أجل ذلك أصبحتُ إذْ فضلتُ مروانَ وابنه عبدَ الملك على النَّاس قد فضلت خير والدٍ وولد ، فلا يقال كذب أو أخطأ ، أو اشتَبَه عليه أو شُبِّهَ له ، فلم يأتِ بالحقّ ، ولم يقتصر على الصِّدق.

وقوله « وإنّ فؤادًا » جعله نكرةً لأنَّه باتِّصال قوله « بين جنبىَّ » به اختَصَّ ، حتَّى علم أنه قلبُه من بين القُلوب .

٧٩٧

وقال فى سليمانَ بنِ عبد الملك :

١ — أتَينا سليمانَ الأميرَ نزورُهُ وكان امرأً يُحْبَى ويُكْرَمُ زَائِرُهْ

[1] فى هامش ل : « نخ : فى كفه » .

٢ — إذا كنتَ في النَّجْوَى به مُتَفرِّدًا فلا الجُودُ يُخْلِيه ولا البُخْلُ حاضِرُهْ[١]

٣ — كِلا شافِعَىْ سُؤّاله من ضميره عن الجَهْلِ ناهِيهِ وبالحِلْمِ آمِرُهْ

يقول : قصدتُ هذا الرجل ، وكان لحُسن تعطّفه وكرم تألّفِهِ ، وكمال احتفافه بزائريه ، وجمال إقباله على عُفاته ومُجْتديه ، يُنيل الحِبَاء مؤمِّنيه على أبلغِ ما تعلَّق الرَّجاء به وفيه .

وقوله « إذا كنتَ في النَّجوى به متفرِّدا » فالنجوى : المُسارَّة . فيقول : إذا وقَمتَ في خاطرِه ، وتفرَّدتَ بمناجاته ، فالجُود نَصْبُ عينيه ، والبخل غائبٌ عن هِمَّته ، لا يحتاج إلى باعث ولا شافع ، ولا مذكِّرٍ ولا عاطِفٍ .

وقوله « كلا شافِعَىْ سُؤّاله من ضميره » جعل السُّؤّال من سانح فِكره[٢] وجائل صدرِه شافِعَيْن ، وزعَمَ أنّ كلاًّ منهما ينهاهُ عن البُخل ، ويأمُره بالإفضال والبَذْل . وهذا على طريقتهم في أنَّ الإنسان له نفسانِ عندما يَحضره من الفَعَال والمَقَال ، فأحدهما يأمره بالفِعل ، والآخر ينهاه ويبعثه على التَّرك ، فقال هذا الشاعر : إنّ نفسَىْ هذا الممدوح هما يشفعان لوُرَّاد حضرته ، ورُوَّاد نَيْله ومَطَره فكلٌّ يدعو إلى الإسداء إليه ، ويبعث على الإفضال عليه . ومثله :

* إذا ائتمرتْ نفساهُ في السِّرِّ خاليا[٣] *

والنَّجوى مصدر ، ويستَعمل وصفاً فيقع على الواحد والجمع ، وقد مضى القول فيه[٤]

(١) التبريزي : « بالنجوى » . ل والتبريزي : « يخليه » .
(٢) هذا ما في ل . وفي الأصل : « ذكره » .
(٣) عجز البيت الثاني من الحماسية ٣٨٣ ص ١٠٧٦ . وصدره :
* فتى كان لا يطوى على البخل نفسه *
(٤) انظر ما سبق في ص ١١١٦ .

٧٩٨

وقال المتوكِّل اللَّيثىّ[1] :

١ — مَدَحْتُ سعيداً واصطفيتُ ابنَ خالدٍ   وللخير أسبابٌ بها يُتَوَسَّمُ
٢ — فكنتُ كمجتَسٍّ بمِحْفارِهِ الثَّرَى   فصادفَ عينَ الماءِ إذْ يَتَرَسَّمُ

يقول : اخترتُ من بين الناس ابن خالد ، وقرّظتُ فى شِعرى سعيداً ، وللخير حدودٌ ووجوهٌ بها يُتبيَّن رسمُه وعلامته ، فكنت فى اصطفائى إيّاهما ، وصرفِ ثنائى إليهما ، كرجلٍ يتطلّب الماء بمِحفاره مِن ثَرَى الأرض ، فصادفَ عينَه ومَنبَعَه ، إذ تتبَّعَ أثرَه ورسمه . والمعنى : أصبتُ فى القصد والاختيار ، ووضعت الثناء موضعَه من الإيثار ، فسِيقَ الخيرُ إلىَّ من مطلبى ، وحُصِّل التوفر علىَّ من مقصَدى . فأما من روى « مُحْتَسٍّ » فهو مفتعِل من الحَسّ . والمِحفار : اسمُ الآلة التى يُحفَر بها ، كالمِعْوَل وما أشبهه . وهذا مَثَل واستعارة . ومن روى « كمجتَسٍّ » بالجيم ، فهو مُفتَعِلٌ من الجَس . والتَّحسُّس والتَّجسُّس يتقاربان . ومعنى يترسَّم : يتتبَّع رسومه .

٣ — فإن يَسألِ اللهُ الشُّهورَ شهادةً   تُنَبِّئْ جُمادَى عنكمُ والمُحَرَّمُ
٤ — بأنَّكما خيرُ الحجازِ وأهلِهِ   إذا جعلَ المُعطِى يَمَلُّ ويَسأَمُ

يصف دوامَ بَذْلِهم فى فصول السنة ، واتصالَ جَدْوَاهم فى شهور الضِّيق والسَّنَة ، وفى الجَدب والخِصب ، وعند شمول الحرّ والبرد . وجمادى من أزمان القَحْط والضُّر ، والمحرّم من الأشهر الحُرُم . فيقول : إن استَشْهَدَ اللهُ تعالى أوقاتَ السَّنَة وأهِلَّةَ الشهور شهِدَتْ لكم ، وأخبرَتْ عنكم بأنكما خيرُ أهلِ الحجاز بَذْلاً وإفضالاً ، وحُسْنَ تفقُّد وإحساناً ، فى الوقت الذى تَرَى المُعطى يَمَلُّ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٤٢ ص ١١٨٥ .

الإعطاء ، ويتبرّم بالسؤال ، فيصيرُ ذلك داعيةً له إلى الإمساك والكف .

وقوله « إذا جعَل المعطى » إذا ظرفٌ لما دلَّ عليه قوله « خير الحجاز » . وجعَل بمعنى طَفِق وأقبَلَ ، فلا يتعدّى . والسآمة فوقَ الملال .

٧٩٩

وقال نُصَيْب في عُمَر بن عُبَيْدِ الله بن مَعْمَر (١) :

١ — والله ما يَدرِى امرُؤٌ ذو جَنابةٍ ولا جارُ بيتٍ أىُّ يومَيْكَ أجْوَدُ

٢ — أيومٌ إذا أُلفِيتَه ذا يَسَارةٍ فأعطيتَ عَفْوًا منك أم يومَ تُجْهَدُ

أقسَمَ بالله عزّ وجلّ أنه لا الغريب المُجاب ولا القريب المجاوِر يعلمُ أىَّ يومَيْ هذا الممدوحِ أكثرُ سخاء وأتمُّ إفضالاً . وجعَلَ الجود لليوم على طريقةِ قوله تعالى : ﴿ بلْ مَكْرُ اللَيْلِ والنهارِ ﴾ لمّا كان فيهما . وعلى حدّ قولِ الناس : نهارُه صائمٌ ، وليلُه قائم .

وقوله « أيومٌ إذا أُلفِيتَه » تفصيل لما أجمله . ومعنى أُلفِيتَه أُلفيتَ فيه ، فحذف الجارّ وجعَلَ اليومَ مفعولاً على السَّعة .

وقوله : « ذا يَسارةٍ » ، يقال يَسَار ويسارة ، كما يقال ذِكْر وذِكرَى ، ومكان ومكانةٌ .

وقوله « أم يوم تُجهَد » ، يريد أم يومَ تُجهَد فيه ، فأضاف اليوم إلى الفِعْل وأوصَلَ الفعلَ بنفسه . والمعنى : لا يَعلم الغريبُ المتنائى عنك ، ولا القريب المتدانى منك ، أىُّ وقتَيْك أكثرُ سخاء وخيرًا ، أيومٌ نلقَى فيه مُوسِرًا فتُعطِى ما تُعطيه عفواً ، أم يوم توجد فيه مُعسِراً فتُعطى ما تعطيهِ مجهوداً متعَبًا . يريد : أنه لا يَبِين أحدُ وقتيهِ من الآخر ، كما لا يَبِين إحدى حالتيه

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٥ ص ١٢٨٩ .

من الأخرى . ويروى : « أيومًا إذا أُلفيتَه ذا يسارةً ... أم يومَ تُجهَد » ويكون هذا مردوداً على المعنى ، لأنه لمَّا أراد بقوله أىُّ يوميك أجْوَدُ » أىَّ جُودَيك أفضل ، قال : « أيومًا » ، أى أجودك فى يومٍ إذا أُلفيتَ فيه مُوسِرًا أم جودك فى يومٍ تكون فيه مجهوداً مُعْسِرًا .

٣ — وإنّ خَليلَيْكَ السَّماحةَ والنَّدَى مُقيمان بالمعروف ما دُمْتَ توجَـدُ

٤ — مُقيمانِ لَيْسَا تارِكَيْكَ لِخَلَّةٍ من الدَّهرِ حتى يُفقَدَا حِينَ تُفقَدُ

جَمَع بين السماحة والنَّدَى ، لأن السماحةَ هو سهولةُ الجانب فى الإعطاء ، وطِيبُ النفس به .

وقوله « مقيان » أى ثابتان ، من قوله تعالى : ﴿ إلاَّ ما دُمْتَ عليه قائما ﴾ . ومنه أقام بالمكان ، أى جعَلَ لنفسِه ثباتاً . ومنه قِوَام الأمر ، أى دوامه . وما دُمْتَ ظرفٌ . فيقول : السماحة والنَّدَى يقيمانِ بسبب معروفك وله ، ويدُومانِ ما دمتَ ثابتاً وقائمـا . وإنما قال بالمعروف كما يُقال : فلانٌ مقيمٌ بمكان كذا ، أى يجعلُ قِيامَه به وثباتَه . فكذلك جعل قيامَه بالمعروف على هذا الوجه .

وقوله « مقيان ليسا تاركَيك لخَلَّةٍ » ، يريد : هما مقيمان بسبب معروفك ، وثابتان لك ولمكانك ، لا يفارقانِكَ لِخَلَّةٍ من خَلاَّت الدهر تَعرِض ، ولا لفقرٍ يحصُل ، إلى أن يُفقَدَا وقتَ فقدِك .

٨٠٠

وقال أُمَيَّة بنُ أبى الصَّلْت[1] :

١ — أأَذكُرُ حاجَتِي أمْ قَدْ كَفانِي حَيَاؤُكَ إنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٥٤ ص ٧٥٣ . قال التبريزى : « أمية تحقير أمة ، وهى فعلة ولامها واو . والصلت : البارز المشهور » .

٢ — وعِلْمُكَ بالحُقُوقِ وأنت فَرْعٌ   لَكَ الحسَبُ المهذَّبُ والسَّنَاء

٣ — خَلِيلٌ لا يغــيِّره صَبَاحٌ   عن الخُلُقِ الجَميلِ ولا مَسَاء

قوله « أأذكر حاجتى أم قد كفانى » . يقول : أىُّ الأمرين أعتمِدُ منك ؟ لأنَّ أمْ هذه هى المعادِلة لألف الاستفهام والمفسَّرة بأى . فيقول : ألْقِى حاجتى قِبلَك إليك . وأُنْهِى قِصَّتى المرفوعةَ إليك ، أم أعتمِدُ اكتِفائى بكرَم فِطْنتك ، وذَكاء مَعرِفتك ، وحُسن التفاتِك إلى المتعلِّقين بحبلك ، والرّاجِين لخيرك وفَضْلك ، لأنَّ مِلاكَ خُلُقِك الحياء ، فإذا توصَّل تابِعك[1] بعَرْض وَجْهِه عليك ، صار ذلك مهيِّجاً لحيائك ، وداعياً إلى الفكر فيما أحوجَه إليك ، وسائقاً إلى قضاء مأرُبته لديك ؛ ولأنَّ محافظتك على أُولِى المَوَاتِّ[2] والحُرَم ، تبعثك على صِيانتهم ، وتحميهم من ابتذالٍ يلحقهم ، إذْ كنتَ الفرعَ لأصلٍ يجمع إلى الحسب المُنَقَّى ، والمجدِ المزكَّى ، علوَّ همّةٍ وارتفاعَ منزِلة .

وقوله « خليل » ارتفع بأنّه خبر مبتدإٍ مضمر ، كأنّه [قال[3]] : أنت خليلٌ لا تغيِّره الأوقاتُ عما أُلِف من برّه ، وعُهِد من كرمه . وأشار فى قوله : الصَّباح والمَساء ، وهما طرفا النهار ووَقتَا [الغارةِ[3]] والضِّيافة ، إلى أنّه لا يتغيّر على عِلّات الزمان ولِمَا يتغيّر له الإنسان من عارضِ مَلَالٍ حادث ، أو تضجُّرٍ بمَصارفِ أمرٍ سانح .

٤ — وأرضُكَ كلُّ مَكْرُمةٍ بَنَتْها   بنو تَيْمٍ وأنتَ لَهَا سَمَــاء

٥ — إذَا أثْنَى عَلَيْكَ المَرْء يَوْماً   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِــهِ الثَّناء

(١) ل : « توسل تابعك » ، وكتب فى هامشها : « خ : توصل سائلك » .
(٢) الموات ، بتشديد التاء : جمع ماتة ، وهى الحرمة والوسيلة .
(٣) التكملة من ل .

قوله « وأرضك » ، يريد ما توطَّدَ له من مَبانِي المَجْدِ والشَّرف بقومه وفصيلته ، فجعلَه كالأرض له ، وجعَل مراعاتَه له من بَعْدُ وتوفُّرَه على ما يُشيِّده بنفسه كالسَّماء له ، وقد عُلِمَ أنَّ حياةَ الأرضِ وإضاءتَها بِمَا يأتى عليها من حَيَا السَّماءِ وبِنُورها . فيريد أنَّ عمارةَ مَكارمِ آبائه كانت بِرَمِّه لها ، وبالموادِّ الذى يُمِدُّها بها ، فلذلك زَكَت ورَبَتْ ، ونَبَتَتْ على مَرِّ الأيام وعلَت .

وقوله « إذَا أَثنَى عليكَ المرء يوماً » ، يقول : إنَّ المُثْنِيَ عليك لا يحتاجُ إلى قَصدِك به ، لأنَّه متى تأدَّى إليك ثناؤُه أنلتَه إحسانَك ، وأغنيتَه عن التعرُّض والقَصْد ، وقطْعِ المسافةِ دُونَك وحمل[1] المشاقِّ والجَهْد .

٦ — تُبَارِى الرِّيحَ مَكْرُمةً ومَجْداً إذَا مَا الكَلْبُ أَجْحَرَهُ الشِّتاء

يقول : يَدوم عَطاؤُك ويتَّصل ، فكأنَّك تُبارِى الرِّيحَ فى هُبوبِها[2] أوانَ الجَدْبِ والقحط ، وحين يَقِلُّ صَبرُ الكَلْبِ على الاعتساسِ والطَّوف ، حتَّى يصيرَ رابضاً فى البُيوت ، ومُستدفئاً بجوانب الأخْبِيةِ والكُسور . وقوله « إذا ما الكلب » ظرفُ لتُبارِى أى تَفعلُ ذلك فى مثلِ هذا الوقت . و « مكرمةً » ، انتصبَ على أنَّه مفعول له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال .

٨٠١

وقال ابن عَبْدَلٍ الأَسَدى[3] :

١ — بَيْنَا هُمُ بالظَّهْرِ قَدْ جَلَسُوا يَوْماً بحَيْثُ يُنَزَّعُ الذَّبَحُ

٢ — فإذَا ابنُ بِشْرٍ فى مَوَاكِبِهِ تَهوِى بِهِ خَطَّارَةٌ سُرُحُ[4]

(١) ل : « وتحمل » .

(٢) ل : « الريح وهبوبها » .

(٣) هو الحكم بن عبدل . سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٠ ص ١٢٠٤ .

(٤) مواكبه ، فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « صواكبه » .

٣ — فكأنّمَا نَظَرُوا إلَى قَمَرٍ أو حَيْثُ عَلَّقَ قَوْسَهُ قُزَحُ

بينا يستعمل فى المفاجأة ، وكذلك بينما . وكان شيخُنا أبو علىّ — رحمه الله — يقول : هو ظرف زمان ، كأنّ الأصلَ كان : بين أوقات ، فحُذف المضاف إليه . والظَّهر : موضع[1] . ويوماً انتصب على البدل من بينام ، ويريد به المتّصلَ من الأوقات ، كما يقال : فلانٌ يَفعلُ كذا وكذا ، وكان بالأمس يفعل كذا . والذُّبَح : نبتٌ له أصل يُفَتَّشُ عنه ويُخْرَج كالجَزَر ، ويُقْشَر عنه جلدٌ أسود ، وهو حُلْو يؤكل . وهذا أعنى قوله « بحيثُ ينزِّع الذُّبَح » ، بيانٌ للميقات المشار إليه .

وقوله « فإذَا ابنُ بشرٍ فى مواكبه » ، الفاء زائدة ، لأنّ بينا و بينما يجيئان ولافاء فيما يقع فيهما . على ذلك قولُه :

فبينَا يَمشيانِ جرَتْ عُقَابٌ مِن العِقْبَانِ خائتةٌ طَلُوبُ[2]

فأمّا « إذَا » فقد ذكر سيبويه خاصّةً أنّ إذْ تقع بعدها ولم يَذكر إذا . تقول : بينما نحنُ نسيرُ إذْ أقبَلَ زيد . وكثيرٌ من النحويّين والأصمعىُّ يُنكِرون هذا ويقولون : لا حاجة إلَى إذْ وإذا ، ويستشهدون بقول أبى ذؤيب :

بَيْنَا تعنُّقِه الكُماةَ ورَوْغِهِ يَوماً أُتيحَ له جَرِىءٌ سَلْفَعُ

وإذا رجَعْنَا إلى الموجود فيما يختارونه هو الأكثر . واستَشهدَ سيبوَيه بقوله :

بينا نحنُ بالكَثِيب ضُحًى إذ أتَى راكِبٌ على جَمَلِه

والبيت الذى نحن فيه جاء بإذا ، فهو أغرب .

ومعنى تَهوِى به : تُسرِع . والخَطّارة : النّاقة تَخطِرُ بذَنَبها نشاطا فعَلَ

---

(١) ياقوت : « موضع كانت به وقعة بين عمرو بن تميم وبنى حنيفة » . وأنشد البيت هناك محرفا .

(٢) الخائتة : التى لجناحيها صوت عند الانقضاض .

الفُحولة ، أو تَخطِر فى مَشيها . والسَّرُح : السَّهلة اليدين . فيقول : بينَ أوقاتِ النَّاسُ جالسونَ بهذا المكان ، حيثُ يُقتَلَع هذا النَّبت ، إذا ابنُ بِشْرٍ وخَلْفَه مواكبُه[1] ، تُسرِع به نجيبةٌ هكذا ، فكأنَّما نظَرُوا إلى قمرٍ ، أى لمَّا اجتازَ بهم شبَّهوه فى إشرافِه ونُوره ، وبَهاء مَوكِبه ، بالقَمرِ ، أوْ نَظَروا إلى حيثُ يتراءى للنَّاظرِينَ قَوسُ قُزَح . فقوله « أو حيث » يجوز أن يكون معطوفاً على قمر ، فيكون المعنى : نظَروا إلى قمرٍ أو إلى مكانِ قُوسِ قُزح . ونَكَّر قمراً لأن فائدة المعرفة والنكرة إذا وقعَ فى مثل هذا المكان لا تتغيَّر . ويجوز أن يكون « حيث » فى موضع الظَّرف ، كأنّه قال : نظَروا إلى قمر ، أو نَظَروا حيثُ علَّقَ قوسَه قُزَح . وجعل قُزَح فاعلاً على اعتقاد مَن يعتقِد أنّ قُزَحَ اسمُ شَيطان ، لهذا أخبرَ عن المضاف إليه من قولهم قَوْس قزح . وقد ورد فى الخبر النَّهىُ عن هذا ، وهو مشهور ، وقال الخليل حكايةً عن أبى الدُّقَيش : تقزيحه : طرائقُه ، واحده قُزْحَة ، والجمع قُزَح . وذُكِر فى الخَبَر أنّ فيه أماناً من الغَرَق . ويُروى : « عَلَّى قوسَه قُزَح » من العلوّ . وعند النحويِّين أنّ قولهم قَوسُ قُزَح كحِمارِ قَبَّانَ وما أشبَهَ . وإذا كان كذلك لم يَصلُح الإخبارُ عن المضاف إليه . وذكر بعضُهم أنّه يقال للقوس قُزَح : قوسُ قَزِيع ، و [هو من[2]] تقزَّع الفَرسُ ، إذا تشمَّر للعَدْوِ وخفّ .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « مراكبه » ، وإنما المراد المواكب كما سيأتى قريبا .

(٢) التكملة من ل .

٨٠٢

وقال حاتمُ طَيِّئٍ (١) :

١ — مَتَى ما يَجِئْ يَوْماً إلى المَالِ وارِثِي ... يَجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلْأَى ولا صِفْرِ (٢)

٢ — يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ العِنانِ وصارماً ... حُسَاماً إذا ما هُزَّ لَمْ يَرْضَ بالهَبْرِ (٣)

٣ — وأَسْمَرَ خَطِّيًّا كأَنَّ كُعوبَهُ ... نَوَى القَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِراعاً عَلَى العَشْرِ (٤)

قوله « جمع كف » هو القَدْر الذى يُجمَع عليه الكفّ من المال وغيره . ويقال للمرأة الحامل : هى بجُمْعٍ ، وكذلك للبكر منهنّ . والصِّفْر : الخالى من الشّىء . فيقول : متى جاء وارثى بعْدَ موتى يجدْ قَدْراً من المال لا يُوصَف بالكثرة ولا بالقِلّة ، يَجِدْ فرساً ضامراً كالعِنانِ فى إدماجه وضُمْرِه ، وسيفاً قاطعاً إذا حُرِّكَ فى الضَّريبة لم يَرضَ بالقَطْع ، ولكن يتجاوزُه ويَخرُجُ إلى ما وراءه ، ورُمحاً أسمرَ فى لونه ، وذاكَ أصلَبُ ، محمولاً من الخَطِّ ، وهو اسمُ جزيرةٍ يُجلَب منها الرِّماح . والكُعوب : العُقَد . شبَّهها فى صَلابَتِها بنَوَى القَسْب . والقَسْب : ضربٌ من التَّمْر ردىءٌ غليظُ النَّوَى صُلْبُها . وقوله « قد أرْبَى (٥) ذراعا على العَشْر » ، وصفَهُ بأنّه لم يكن طويلاً ولا قصيرا حتّى لا يكون مضطربا ولا قاصراً ، بل يجرِى مع الاعتدال . وقال الدُّريدى : القَسْبُ البُسْر اليابس . ونَوَى القَسْبِ يشبَّهُ به أيضا ما فى جَوفِ الحافرِ من النُّسور . قال :

له بينَ حَوامِيهِ ... نُسورٌ كنَوَى القَسْبِ (٦)

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٢٧ ص ١١٦٦ .

(٢) فى الديوان ١٢١ : « متى يأت يوما وارثى يبتغى الغنى » .

(٣) الديوان : « مثل القناة » .

(٤) أربى ، هو ما فى ل . وهو ما اتفقت النسختان عليه فيما سيأتى فى الشرح . لكن فى الأصل والتبريزى والديوان : « أربى » . ومعناهما واحد .

(٥) كذا بالباء باتفاق النسختين ، وانظر ما سبق فى الحواشى .

(٦) لعقبة بن سابق ، أو يزيد بن ضبة ، كما فى كتاب الخيل لأبى عبيدة ٨٣ .

وقَصد الشّاعرُ إلى أنَّ ما يَحصُلُ له يَجُود به ، فإذا ماتَ لم يَبْقَ له إلّا ما ذَكَرهُ من آلاتِ الحرب والغَزْو .

٨٠٣

وقال آخر :

١ — آلُ المهلّب قومٌ خُوِّلوا شَرَفًا ما نالَهُ عَرَبِىٌّ لاَ ولاَ كادَا

٢ — لوْ قِيلَ للمَجْدِ حِدْ عنهم وخالِهِم بما احتَكَمْتَ من الدنيا لما حادَا

٣ — إنّ المكارِمَ أرواحٌ يكونُ لها آلُ المهلّب دُونَ النّاس أجسادا

وصَفَهم بأنهم أُعطُوا مجداً لم يَنلْه قبلَهم عربىٌّ ، ولا قَرُبَ من أن ينالَه ، فهم متفرّدون به ، لا ينبغى لغيرِهم . ثمّ قال : لو قيل للمجد حِدْ عنهم . يريد أنهم للمجد موضعٌ ومقرٌّ حتى لو كان يَعقِل ثم سِيم تَرْكَهُ إياهم ، وإخلالَه بهم بما يَحتَكِمُ من الدنيا ، ويَقترِحُه من أعراضها[1] ، لما تجنّبهم ، ولا عَدَلَ عنهم ، وذاكَ لأنّ المجدَ رضِيهم مَحَلاً ، ورَضُوا هُم بسُكناه أهلاً . والقَدْر يَجرِى إلى القَدْرِ . وقد ألمّ بهذا المعنى البُحْترىُّ فى قوله :

أوَ مارأيتَ المجدَ ألقَى رَحْلَهُ فى آلِ طلحةَ ثم لم يَتحوّلِ

ويقال : خالَى فلانٌ قبيلتَه ، إذا تركَهم وتحوّلَ عنهم . قال النابغة :

قالتْ بنو عامرٍ خالُوا بنى أَسَدٍ يابُؤسَ للجَهْلِ ضَرّارًا لأقوامِ

معناه تارِكوهم وفارِقوهم .

وقوله « إنّ المكارم أرواح » جعَلَ آلَ المهلّب كالأجساد ، والمكارمُ لها كالأرواح ، كما جعَلَهُم فى الأوّل دارًا ، والمجدَ سُكّانًا ، والروح لا يثبُت إلاّ فى

(١) ل : « أعواضها » .

جسمٍ على صفةٍ ، كما أنّ الجسمَ لا يتصرّف إلا بالروح الحاصلِ فيه مع القدرة . فيريد أنهم مَقَارٌ للمكارم ، مصرّفون فى اكتساب المعالى ، فالمكارمُ بهم تثبت وتبقى ، كما أنّ تصرُّفهم واقتدارَهم من بينِ الأجسام بها ولها .

٨٠٤

وقالت أختُ النَّضْر بن الحارث[1] :

١ — الواهِبُ الألْفَ لا يَبْغِى به بَدَلاً إلَّا الإلٰهَ ومَعْرُوفاً بما اصْطَنَعَا

تقول : إنّه يفرّق ما يفرّق من ماله لا لطلبِ عِوَضٍ ، ولا اجتذابِ نفعٍ واجتلابِ مَحْمَدة ، ولكنْ يريد به التقرُّبَ إلى الله تعالى ، وأن يفعلَ المعروفَ بما يصنعُه ، فهو يتلذّذُ بفعل المعروف ، وباحتساب الأجرِ عندَ الله .

٨٠٥

وقالت صَفِيّة بنتُ عبد المطلب[2] :

١ — ألَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى قُرَيْشاً فَفِيمَ الأمْرُ فِينا والإمارُ[3]

٢ — لَنا السَّلَفُ المقدَّمُ قد عَلِمْتُمْ ولم تُوقَدْ لنـــا بالغَدْرِ نارُ

٣ — وَكُلُّ مَنَاقِبِ الخيراتِ فِينَا وبعضُ الأمرِ مَنْقَصَةٌ وعَارُ

الرسالة التى تَطلُب إبلاغَها ، وتَرتاد من تَضَعُها على لسانِه فيحتملُها ، قولها « فَفِيمَ الأمر فينا » ، وما فى الاستفهام إذا اتّصل بحرف الجرّ يُحذَف الألفُ من آخره ، تقول : فيم وبِم . وقد تُقُصِّى القولُ فيه من قبلُ . كأنّ هذه المرأة

(١) انظر ما سبق فى ص ٩٦٣ .

(٢) فى الأصل : « بنت عبد الملك » ، تحريف ، صوابه فى ل والتبريزى . وهى صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووالدة الزبير بن العوام .

(٣) ل : « ففيم الأمر فيكم » وكتب فوقها : « فينا » مقرونة بكلمة « معا » إشارة إلى أنهما روايتان . وعند التبريزى : « فينا » .

تستبطئ قبيلتَها قريشاً . فتقول : مَن يبلّغهم عنّى لِماذا كان الأمرُ فيهم والتّشاوُر ، والاقتداء والتّرافُع ، حتّى صار النّاسُ تَبَعاً ، وما لَكُم تنقبضون فيما يَجِبُ عليكم السّعىُ فيه ، ولنا الشّرفُ الرّفيعُ والسّلَف القديم ، وقد علمتموه عِلماً خالياً من الشّكّ ، بريئاً من الشُّبهة ، ولم يُعرفْ غَدْرٌ لنا بجارٍ[1] أو ذِى محرم ، وقَدَتْ مِنْ أجْله لنا نار[2] . وكانت العربُ إذا أرادتْ تشهيرَ غَدْرِ غادرٍ حتّى يتجنّبَه النّاس أوقدَتْ ناراً فى يَفاعِ هَضْبةٍ ، ونصبَتْ لواء عند مجمع لهم أو سوقٍ عظيمة ، وينادون . هذه نارُ فُلانٍ الغادر ولواؤه ! ! يشهّرون أمرَه ويقبِّحون صورتَه على هذا يُحمَل قول زهير :

وتوقَد نارُكم شَرَراً ويُرفَع ... لكمْ فى كلِّ مَجْمَعَةٍ لِواء[3]

ولا يمتنع أن يراد بإيقاد النّار قيامُ النّاس وقُعودهم ، وتفاوُضُهم للغَدْرة إذا ظهرَتْ من الغادر ، وما يثور من الفَضيحةِ والذِّكْرِ القبيح ، فيكون هذا مثل قول أبى ذؤيب[4] :

* تُحَرِّقُ نارِى بالشّكاةِ ونارُها[5] *

والأوّل أشهر .

وقوله « وكلُّ مَناقب الخَيرات فينا » ، تريد أنّ مَعالم الخيرِ ومَواسِمَ الفَضْل فيهم ، لا يَدفعها دافع ، ولا يخلط بها تنقّصٌ من عائب . ومَنْقَبة : مَفْعَلة من النِّقابة

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ولم يعرف لنا غدر الجار » .

(٢) ل : « فأوقدت من أجله لنا نار » .

(٣) ويروى : « شرراً » كما فى الديوان ٨٥ . قال ثعلب : « أى تطير فى الناس ، أى يطير لها شرر فى الناس ، أى شهرة » .

(٤) ل : « من الغادر ، فيكون هذا مثل قول أبى ذؤيب فيما يثور من الفضيحة والذكر القبيح » .

(٥) صدره فى ديوان الهذليين (١ : ٢١) :

* أبى القلب إلا أم عمرو وأصبحت *

وهى المعرفة . فتقول : فينا أنواعُ الخير والشر ، معلومةٌ للناس ، و بعضُ ما يُذكَر من الأمور عارٌ على صاحبِه ونقصٌ فى شأنه ، إذْ كان لا يَسلم من الجاذبين .

٨٠٦

وقال المتوكِّلُ اللَّيثىُّ[(١)] :

١ — لَسنا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ ... مِمَّن على الأحساب يَتَّكِلُ[(٢)]

٢ — نَبْنِى كما كانتَ أوائلُنا ... تَبنِى ونَفعَلُ مِثْلَ ما فَعَلُوا

يقاربه قولُ الآخَر :

لَسنا إذا ذُكِر الفَعَالُ كمعشرٍ ... أزرَى بفِعْل أبيهِمِ الأبناء

وقد مضى القولُ فيه مشروحاً .

٨٠٧

وقال طُرَيح بن إسماعيل[(٣)] :

١ — طَلَبْتُ ابتغاءَ الشُّكْرِ فيما فَعلْتَ بِى ... فقَصَّرْتُ مغلوباً وإنِّى لَشاكِرُ[(٤)]

٢ — وقد كُنتَ تُعطِينِى الجَزِيلَ بَدِيهةً ... وأنتَ لِمَا استَكْثَرْتُ من ذاك حاقِرُ

٣ — فأرجِعُ مَغبوطاً وتَرجِعُ بالتى ... لها أوَّلٌ فى المَكْرُماتِ وآخِرُ

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٤٤٢ ص ١١٨٥ .

(٢) فى الحيوان (٧ : ١٦٠) والأمالى (٣ : ١١٧) : « يوما على الأحساب نتكل » . والبيتان فى الحيوان منسوبان إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر . وبدون نسبة فى الأمالى .

(٣) طريح بهيئة التصغير . وقال التبريزى : « يجوز أن يكون تصغير طرح من قولك طرحت الشىء طرحاً ، أو طارح ، أو طروح ، أو طريح ، ونحو ذلك » . وطريح بن إسماعيل الثقفى نشأ فى دولة بنى أمية وأكثر من مدح الوليد بن يزيد ، وأدرك دولة بنى العباس ومات فى أيام المهدى . الأغانى (٤ : ٧٧) والشعراء ٦٦٠ واللآلئ ٧٠٥ .

(٤) التبريزى : « فيما صنعت بى » .

يقول : غَمَرنى إحسانُك ، وغَلَبنى برُّك واعتناؤك ، لا جَرَم أنى لما طلبتُ مقابلتَك بالشُّكر على صنيعك بى ، صِرْتُ كالمفرِّط مغلوباً وأنا مجتهدٌ فى الشُّكر ، بالغٌ إلى أقصى الغايات فى النَّشر ، لكنَّ إحسانَك كثَّرنى وخلَّفنى بالبُعد من غايته ، لأنك كنت تُعطِينى الكثيرَ من المال مبتدئاً لا عن سؤالٍ تقدَّمَ ، ولا عن ذِكرٍ[1] فى نفسك تَرَدَّد ، ومع ذلك كنتَ تَستحقِرُ عطاياكَ وتَزْدريها ، وأنا أستكثرُها وأعجِز نفسى عن ضَبْطها و إحصائها ، وأُبْلغُ بها مبالغ المكثرين المتكلِّفين ، ثم أرجعُ مغبوطاً عنك مرموقا ، ومُحَسَّدًا فى النَّاس مذكورا ، وترجعُ بخَصْلِ[2] الكَرَم والسَّبْق إلى الغاية المطلوبة ، التى لها عند طُلَّاب المكارم أوّلٌ يُبتدأ به ، وآخرٌ يُنتَهى إليه .

٨٠٨

وقال حبيب بن عَوْفٍ[3] :

١ — فتًى زَادَهُ السُّلطانُ فى الحَمْدِ رَغْبَةً   إذا غَيَّرَ السُّلطانُ كُلَّ خَليلِ[4]

يقول : لم يُبْطِرْك الغِنَى ولا أطغَتْك السُّلْطَنة[5] ونيلُ أسبابِ العُلى فى الدُّنيا ، لكنَّها زادتك رغبةً فى الخيرِ واكتساب الحمد بين الناس[6] إذا غيَّر مُساعَدةُ القَدَر ، ومُطاوَعة الجدّ والجِدَةِ كلَّ خليلٍ لصاحبه .

والسُّلطان فى غيرِ هذه : الحُجّة ، وقيل اشتقاقه من السَّليط : الزَّيت .

---

(١) ل : « فكر » .

(٢) الخصل : الغلبة والسبق فى النضال .

(٣) كذا . ونسب فى الحيوان (٧ : ١٥٦) إلى زياد الأعجم .

(٤) قال الجاحظ : شبيه بقول الآخر :

فتى زاده عز المهابة ذلة   وكل عزيز عنده متواضع

(٥) هذه اللفظة مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

(٦) ل : « من الناس » .

٨٠٩

وقال ابن الزَّبير[١] ، يمدح محمدَ بنَ مَرْوان :

١ — لا تَجْعَلَنَّ مُبَدَّناً ذَا سُرَّةٍ   ضَخْماً سُرادِقُه وَطِيء المَرْكَبِ

٢ — كأغرَّ يَتَّخِذُ السُّيوفَ سُرادِقاً   يَمْشِى بِرايَتِهِ كَمَشْى الأَنْكَبِ

قوله « مُبَدَّناً » ، أى سمينا عظيمَ البدن ، ويُروى « مُنْدَّناً » ، وهو العظيم الثَّنْدُوة وعلى ما يقتضيه بناء الفعل يكون ثَنْدُوَةٌ مقلوبة والأصل ثَدْوُةٌ ، فَعْلُوَة ، فأما ثُنْدُؤَةٌ بضم الأول والهمز فهو بناء آخر فكأنه يخاطب إنساناً فقال : لا تجعلَنَّ صاحباً لك هِمَّتُه فى الأكل وتسمين البَدَن ، وتحسين الهَيْئة والسَّحْنة ، فترى مركَبَه وطيئا ، وسُرادِقَه ضَخْما ، وجمالَه باهراً ومنظره رائعا ، كرجلٍ كريم سُرادِقُه ظلالُ السيوف . وقد غُشِّيت بما تُفِيء عليه ، ثمَّ يَمْشِى قُدّامَ أتباعِه وأصحابِه برايته مَشْىَ الأَنكب . والأنكب : الذى أحدُ مَنْكِبَيه أشرفُ من الآخَر . وهذا تصويرٌ فى التَّشبيه . وإنَّما يتحمَّل الرَّايةَ بنفسه إذا لم يأمَنْ عثرةَ حامِلِه وإسقاطَه إيَّاها عندَ ما يغشاه من الذُّعر ، فهو يَمْشِى بها لينظرَ أصحابُه إليها فيَثْبُتون معه ، ويحاربون على مُرادِه وهواه .

٣ — فَتَحَ الإلٰهُ بِشَدَّةٍ قد شَدَّها   ما بَيْنَ مَشْرِقِ أَهْلِها والمَغْرِبِ

٤ — جَمَعَ ابنُ مَرْوانَ الأغَرُّ محمدٌ   بَيْنَ ابنِ الأشْتَرِ وبين المُصْعَبِ

يقول : فتح الله تعالى على يدِه بما تَوخَّدَهُ به مِن فضلِه ، وسعيه وجِدِّه ، ما بَينَ أقاصِى الشَّرق والغرب ، بحَمْلةٍ حمَلَها فى جوانبها ، ثمَّ جمَعَ بين قَتْل الأشتر ومُصعبِ بن الزُّبير ، فأراحَ العبادَ والبلادَ منهما ، وأزاحَ عن الإسلام والمسلمين شرَّهما وفِتنتَهما . وإنما قال « بشَدَّةٍ » لِمَا تعجَّل وترادف من الأمور

(١) هو عبد الله بن الزبير الأسدى ، تقدمت ترجمته فى الحماسة ٣٢٢ ص ٩٤١ .

فى نَهَضاته . وتسرُّع وترافَدَ من كَسْر الجمهور عند ما تكلّف من مداراته[1] .

وقوله «أشْترم» أضافَهُ إلى مَن كان يَدِين له ، ويدخلُ تحتَ طاعته وهواه .

٨١٠

وقال الكُمَيْت[2] فى مَسْلمة بن عبد الملك :

١ — فما غابَ عَنْ حِلْمٍ ولا شَهِدَ الخَنا ولا استَعْذَبَ العَوْراء يَوْمًا فقَالَها

٢ — يَدومُ على خَيْرِ الخِلالِ وَيَتَّقى تَصَرُّفَها مِنْ شِيمةٍ وَانفِتالَها[3]

٣ — وتَفْضُلُ أيْمانَ الرِّجالِ شِمالُهُ كما فَضَلَتْ يُمْنَى يَدَيْهِ شِمالَها

يقول : ما أخَلَّ هذا الممدوحُ بالأخذ بالحِلم ، وترْكِ السَّفه والجهلِ فى مشهدٍ من المشاهد ، وعندَ حضورِ أمرٍ من الأمور ، ولا استَحسنَ الفاحشةَ فرضِىَ بها أو تولّاها ، ولا استطاب اللّفظَ بالكلمة القبيحة فتفوّهَ بها يوماً أو توخّاها ، لكنّه يَدُوم على الخِصال المحمودة ، والأخلاقِ الشريفة ، ويتّقى انصرافَه عن شِيمةٍ زكيّةٍ عُرِف بها ، وذَهابَه عن طبيعةٍ رضيّة فيقال تسخّطها أو رفَضَها ، فهو فى درَجات المجْد يسمو ويَصعَد ، وعلى مطالع الشَّرَف يعلو ويَغلب .

والانفتال : مطاوعة فَتَلتُه فَتْلا ، وهو الانصرافُ والالتواء . والعوراء : الكلمة القبيحة . والعَوْرَة : السَّوْءةُ وكلُّ ما يُستَحيا منه .

وقوله : « وتَفْضُل أيمانَ الرِّجال شِمالُه » ، يقول : تَزِيدُ فى الفَضْل

(١) ل : « بدراته » .

(٢) الكميت بن زيد الأسدى : شاعر معروف من شعراء الدولة الأموية ، كان صديقا للطرماح على ما كان بينهما من تباعد فى الدين والرأى ، وكان أحد المعلمين . الأغانى (١٥ : ١٠٨ — ١٢٤) والخزانة (١ : ٦٩ — ٧١) والمؤتلف ١٧٠ والمرزبانى ٣٤٧ — ٣٤٨ وابن سلام ٤٥ — ٤٦ والشعراء ٥٦٢ .

(٣) ل : « تصرمها » .

والإفضال شِمالُ هذا الرّجلِ على أيمان الرّجال كلِّهم وتعلو عليها ، كما غَلبت اليمنى من يديه الشِّمال . والضمير من « شمالها » يرجع إلى اليمنى ، أى كما غَلبت يمينُه شمالَه غلبت شمالُه أيمانَ الرّجال كلِّهم . ويكون هذا كقول الآخر :

وما فَضْل الجَوَادِ على أخيهِ إذا اجتهدَا وكلٌّ غَيْرُ آلِ
فبرَّزَ سابقاً إلَّا كفضلِ الـ ـيمينِ من اليَدَيْنِ على الشِّمال

فهذا وجه ، والأجود أن يُجعَل الضّمير من الشمال عائدًا إلى الرّجال ، فيكون المعنى : كما فضلت يُمناهُ شِمالَ الرّجال كلهم . يريد أن زيادةَ شِماله على أيمانهم فى الظُّهور مِثلُ زيادةِ يمينه على شمائلهم فى الظُّهور .

٤ — وما أجِمَ المَعروفَ مِنْ طُولِ كرِّهِ وأمْرًا بأفعـالِ النَّدَى وافتِعَالَها
٥ — ويَبتذل النَّفْسَ المَصُونةَ نَفْسَهُ إذا ما رأى حَقًّا عليـه ابتذَالَها

قوله « ما أجِم » ، أى ما كَرِه فِعلَ المعروف حتَّى كان ينصرفُ عنه وإن طالَ تكرُّره على يدِه ، ودامَ اكتسابُه له ، بل يَزدادُ على مَرّ الأيّام رغبةً فيه ، ووَلُوعاً به . ويقال : فلانٌ أجِمَ من الطعام[1] ، إذا عافَه وانصرفَتْ نفسُه عنه . وقوله : « وأمْرًا بأفعال النَّدَى » عطفَه على المعروف ، ويريد : ولم يأجِم الأمرَ بفِعْل النـدى واكتسابَه له ، كأنّه كان يبعث الغيرَ عليه ، ويتولَّى فِعلَه بنَفْسه .

وقوله « ويبتذل النَّفْسَ المصونةَ نفسَه » . نصب « نفسَه » على البدل من النَّفس . ويكون المعنى أنَّه إذا رأى ابتذالَ نفسِه المصونةِ واجباً عليه ، وحقًّا ملازماً له ، يبتذلها ولا يَصُونها . وإنّما يريد أنّه يفعل ذلك فى الشّدائد وعند احتماء البَأس . وهذا كما رُوِىَ فى الخبر : « كُنّا إذا اشتدَّ البَأْسُ اتَّقينا برسو

(١) ل : « من طعام كذا » .

الله صلى الله عليه وسلم» . ويُروى « نفسُه » بالرفع ، ويكون فاعل تبتذل . ويريد بالنَّفس المصونةِ كرائمَ أصحابه وأمواله ، فالمعنى أنّه لا يُبقِى ذخيرةً من ذخائره إذا وجَبَ إنفاقُها ، ولا يَصُون نفساً عزيزة عليه من كرائمه إذا وجَب ابتذالُها .

٦ — بَلَوْناكَ فى أهْلِ النَّدَى ففَضَلْتَهم وباعَك فى الأبواعِ قِدْمًا فطالَها

٧ — فأنتَ النَّدَى فيما يَنُوبُك والسَّدَى إذا الخَوْدُ عَدَّت عُقْبَةَ القِدْرِ مالَها

يقول : خبَرْناكَ فى جملةٍ من يَدَّعِى النَّدى وزُمْرتِهم ، فغلبْتَهم وسَبقتَهم ، كما بلونا بَسْطَ يدِكَ ، واتِّساعَ باعِكَ عند البَذْل فى الأبواع كُلِّها قديماً ، فغَلَبَها فى الطُّول . وقوله « فَضلتَهم » ، هو للمبالغة ؛ يقال : فاضَلْتُه ففَضَلْتُه أفضُله . ولذلك تَعَدَّى وإن كان فَضَلَ الشَّىء إذا زادَ لا يتعدَّى . ومن شرط فَعَلَ فى المبالَغة أن يُجعَل مستقبلُه على يَفْعُل إذا كانَ صحيحاً ، وإن كان فى الأصل يجىء مفتوحَ العين أو مضمومَه أو مكسوره . وكذلك قوله « فطالها » إنما تعدَّى وطالَ الذى هو ضدُّ قَصُرَ [لا يتعدَّى[1]] لأنّه من طاوَلْتُه فطُلْته أطُوله . والمعتلّ فى هذا المعنى يجرى على أصله ، يقال : باكيته فبكيته ، إذا غلبتَه فى البكاء ، وطاولتُه فطُلْتَه ، إذا غلبتَه فى الطُّول . وإنّما لم يغيِّروا المعتلّ لئلا يلتبسَ بناتُ الواو ببنات الياء . ولا يجىء هذا فى كلّ فعل .

وقوله « فأنت النَّدَى فيما يَنُوبك والسَّدى » ، يريد ترطُّبه للمعروف وتندِّىَ كفِّه فى العطاء عند يُبوس المَحْل ، واشتدادِ الجَدْب . والنَّدَى والسَّدَى هما بمعنًى واحد . وقد قيل النَّدَى بالنَّهار والسَّدَى باللَّيل .

وقوله « إذا الخَوْد عدَّتْ » ، يريد أنّه يفعَلُ ذلك فى الوقتِ الذى تَعُدُّ عَقيلةُ الحىِّ وكريمةُ القوم مالَها الذى تَعيش منه وتعتمده ، ما يُرَدُّ عليها من المَرَق فى القِدر إذا استُعيرت . وهذا كانوا يَفعَلُونه فى تناهى القَحْط ، وفى شِدّة الزَّمان ،

(١) التكملة من ل .

وعند إسنات النَّاس . وكما يسمَّى المردودُ فى القِدر عُقْبةً سمِّى عافياً قال الكُمَيْت :

وجالَت الرِّيحُ من تِلقاءِ مَغْرِبها وضَنَّ من قِدْرِه ذو القِدْر بالعُقَبِ

وقال آخر[1] :

فلا تسأليني واسألِي ما خَليقتِي إذا رَدَّ عافِي القِدْرِ مَنْ يَستعِيرُها

وخصَّ الخود لكَرَمِها ونَعْمتها وكَرامتِها فى ذَوِيها وقال الخليل : الخَوْد : المرأة الشابَّة ما لم تَصِرْ نَصَفاً . وقال الدُّرَيدىّ : الخَود : الفتاة النَّاعمة ؛ ولم يُبْنَ منه فِعْل .

٨١١

وقال الأعجم[2] ، يمدح عُمَر بن عبيد الله[3] :

١ — أخٌ لكَ ليس خُلَّتُه بِمَذْقٍ إذا ما عادَ فَقرُ أخيهِ عادَا

٢ — أخٌ لكَ لا تراه الدَّهرَ إلَّا على العِلَّاتِ بَسَّامًا جَوَادَا

المَذْق : اللبنُ وقد خُلِط به الماء ، فاستعاره للمودَّة . ويقال : فلانٌ يَمْذُق الوُدَّ ، وهو يُماذِقنى . فيقول : صداقةُ هذا الأخِ صافيةٌ من الشَّوائب ، لأنّه لا يَنطوِى لك على غِلٍّ ولا حِقْدٍ ، ولا سوءِ دِخْلَةٍ ، ولا فَسادِ طَوِيَّة ، وإذا أعطَى راجِيَهُ أغناه ، فإن راجَعَه الفقرُ لكثرة مُؤَنه ، وتزايُدِ غاشيته ، أوْ لتحامُلِ نوائبِ الزَّمان عليه ، وَجَدَ على خُلقِه[4] ومالِه مُحْملاً ، فعادَ بالإحسان إليه . ثمَّ لا تراه على تغيُّر الزمان ، واختلاف الأحوال ، إلّا ضحوكاً طَلْقَ الوجه ، جَوادًا

(١) هو عوف بن الأحوص . البيت ٣ من المفضلية ٣٦ .

(٢) هو زياد الأعجم . ترجم فى الحماسة ٦٦٥ ص ١٥٣٩ .

(٣) التبريزى : «عمر بن عبيد الله بن معمر» . وفى النسختين : «عمر بن عبد الله» ، تحريف . وانظر الأغانى (١٤ : ١٠٠ — ١٠٣) .

(٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : «وجد عليه خلقه» .

طيِّب النفس . و بَسَّام : بناء المبالغة ، ولم يُبْنَ على بَسَم ، لأن البناء على بَسَم باسِمٌ . ويقال : بَسَم ، وابتسم ، وتبسَّم .

٨١٢

وقالت امرأةٌ من بنى مخزوم :

١ — إنْ تَسألى فالمَجْدُ غَيْرُ البَدِيعْ قَدْ حَلَّ فى تَيْمٍ ومَخْزومٍ[1]

٢ — قومٌ إذا صُوِّتَ يَوْمَ النِّزَالْ قَامُوا إلى الجُـرْدِ اللَّهَامِيمِ

٣ — من كُلِّ مَحبوكٍ طُوَالِ القَرَى مِثْلِ سِنَانِ الرُّمْحِ مَشْهُومِ

قولها « غير البديع » انتصبَ على الحال ، و إنَّما تُخاطب امرأةً . فتقول : إنْ سألتِ الناسَ عن مَقَرِّ المجدِ ومَسكَنِه ، فقد حَلَ غيرَ مُستبدَعٍ[2] ولا مستَنْـكَرٍ ، فى بنى تَيْمٍ ومخزوم ، وهم قومٌ إذا تَدَاعَى الأبطالُ يومَ النِّزال ، وصاحَ المستغيث بناصره عند القِراع ، قامُوا إلى خيلٍ قِصار الشُّعور عِرابٍ ، كِرَامٍ سِرَاعٍ . ولهاميم الإبل : غِزارُها . ولهاميم النَّاس : أسخياؤهم .

وقولها « مِن كلِّ محبوكٍ طُوَال القَرَى » ، تريد : مِنْ كلِّ فَرسٍ مُحْكَم الخَلْق ، مُشْرِفٍ طويل الظَّهْر ، خفيفٍ نافذٍ فى العَدْو ، كأنَّه سِنانُ رُمْحٍ . والمسهوم : الذى قد أثَّر الغَزْوُ فيه ولَوَّحَهُ سَمُوم الحربِ والحَرّ . هذا إذا رويته « مَسْهُوم » بالسين غير معجمة ، ومن رواه « مشهوم » بالشين معجمةً فمعناه حَدِيدُ القلب ؛ ومنه الشَّيْهم : اسم القُنْفُذ ، للشَّوْك الذى فى ظهره .

---

(١) بحره السريع ، والبيتان الأول والثانى يزيدان على الثالث حرفاً . وهذا الحرف لا بد من إسكانه عند الوقف عليه ، ويجوز تحريك العين من « البديع » واللام من « النزال » إذا وصلا بما بعدهما فى القراءة .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « مبتدع » .

٨١٣

وقالت أخرى :

١ — ألَا إنَّ عبد الواحِدِ الرَّجُلُ الذى يُنيلُكَ ما طالَبْتَ والوَجْهُ وافِرُ(١)

تقول : يُعطِى قبل أن يُسأل ويُبْذَلَ الوجهُ له . ويشبهه قولُ الآخر :

أهْنَــأ المعروفِ ما لم يُبتَــذَل فيــه الوُجوهُ

ويقال : نِلْتُ الشىء أنالَه نَيْلًا ، وأنالَنيهِ فلان . والنَّيل والنَّوْل يتقاربانِ فى المعنى وإن كان بناءاهما مُختلِفَين ، يقال : نِلْتُه أنولُه نَوْلًا ، فهذا من النَّوَال ، ونوَّلتُه وتناوَلَ الشَّىء ، وما كان نَوْلُكَ أن تفعَلَ كذا ، أى ما كان ينبغى لك .

٨١٤

وقالت الخَنْساء(٢) :

١ — دَلَّ عَلَى معروفِهِ وَجْهُـــهُ بُورِكَ هــذا هادِياً مِنْ دَليلْ

٢ — تَحْسِبُه غَضْبَانَ مِنْ عِزِّهِ ذلِكَ مِنْــهُ خُلُقٌ لا يَحُولْ(٣)

٣ — وَيْلُ أمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ إذَا أُلْقِىَ فيها وعَلَيْــهِ الشَّلِيلْ

قولها « دَلّ على معروفه وجهه » ، تريد طلاقةَ وجهه وتَهلُّلَه عند تعرُّض السَّائل له ، وفَرَحَهُ وبشاشتَه به إذا حَصَل عنده ، ثم قال : بارَكَ الله فى هــذا الدليل من بين الأدلاء ، يعنى وجهه . وأصلُ البَرَكة النَّماء والزيادة ، وقيل هو

(١) التبريزى : « والعرض وافر » .

(٢) الخنساء لقب لها ، واسمها تماضر بنت عمرو بن الشريد . وهى شاعرة صحابية من شعراء المراثى ، وقد شهرت برثاء أخيها صخر . انظر كتب الصحابة والأغانى (١٣ : ١٢٩ — ١٤٠) والخزانة (١ : ٢٠٧ — ٢١١) والشعراء ٣٠١ — ٣٠٦ .

(٣) التبريزى : « ما يحول » .

من اللُّزوم والثَّبات ، ومنه بَرَكُ البعير . وانتصب « هادياً » على الحال .

وقولها « تحسَبه غَضْبانَ من عِزِّه » ، هم — أعنى العرب — يشبِّهون الحيِيَّ الكريم بالمتشكّى من عِلّة ، والعزيزَ المنيعَ بالمتغضِّبِ من عِزّةٍ . ولا غضَبَ فى هذا كما أنّه لا عِلّةَ ثَمَّ ، وإنما يراد فى العزيز إباء النَّفس وأُبّهةَ النُّبل ، كما أنّه يُراد فى الحيِيِّ لينُ الجانب ، والانخزالُ من الكَرَم . وقولها « ذلكَ منه خُلُقٌ لا يَحُولُ » ، يريد أنَّه طُبِع على ذلك ، فلا يَزُول عنه ولا يتحوَّل منه .

وقولها « ويلُ أُمِّه مِسعَرَ حربٍ » انتصبَ مسعر على التمييز ، وقد مرَّ القولُ فى ويلُ أمِّه[1] . والكلام تعجُّب وتعظيم . والمِسْعر من أبنية الآلات ، يراد أنّه كالآلة فى إيقاد نار الحَرْب إذا أُلقِيَ فيها وقد تَدَجَّج فى السلاح . والشَّليل : الدِّرْع .

٨١٥

وقالت امرأةٌ من إياد :

١ — الخَيْلُ تَعلَمُ يَومَ الرَّوْعِ إذ هُزِمَتْ أنَّ ابنَ عَمْرٍو لدَى الهَيْجاء يَحْمِيها[2]

٢ — لم يُبْدِ فُحْشاً ولم يُهْدَدْ لِمُعْظَمَةٍ وكلُّ مَكْرُمَةٍ يُلْفَى يُسَامِيها

تعنى بالخيل الفُرسان . تريد : قد تيقَّنوا أنّه إذا اتّفق عليهم كسرٌ ، وأثَّرَ فيهم رَدْعٌ فى يوم حرب ، لا يَدْفع عنهم ولا يَذُبُّ دونَهم إلّا ابنُ عَمْرٍو ، فهم ساكنون إليه ، ومُعتَمِدون عليه عند استعار[3] نار الرَّوْع والاصطلاء بحرِّها ، لأنَّه جابرٌ كَسْرَهم ، ومُخمِدٌ جَمْرَهم .

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٠٢ .
(٢) ل : « إن هزمت » .
(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « إسفار » .

وقولها « لم يُبْدِ فُحْشاً » تريد أنَّه لا يعرف القبيح ، فلا يظهر فى أفعاله وأقواله ما يُستهجن أو يُسْتَفْحَش ، ثم إذا مُنِى بخَصْلةٍ فظيعة لايُهَدُّ لها ، ولا يَحار فيها ، بل يَصبِر وَيثْبُت ، ويَحسُنُ حديثُه فى أفواه الناس لخُروجِه منها ويَعْذُب ؛ وكلُّ مَكْرُمةٍ تَسنَح ، ومأثُرةٍ على القُرب والبُعد تتَّفِق وتَعرِض ، تراه تَطمَحُ عينه إليها ، وتحرِصُ نَفْسه على جَمْع يدِه عليها ، لعُلُوِّ هِمَّته ، وكمالِ خصاله . وقولها « يساميها » فى موضع الحال أى مُسامِياً لها ، ولك أن تروى « يُلاقى » بالقاف ، و « يُلفَى » بالفاء ، ومعناهما قريب .

٣ — المستَشار لأمرِ القومِ يَحزُبُهُمْ إذا الهَنَاتُ أَهَمَّ القَـــومَ ما فيها

٤ — لا يَرْهَبُ الجارُ منه غَدْرةً أبدًا وإنْ ألمَّتْ أُمورٌ فهو كافيها

وصفَتْه بجَزَالة الرَّأى ، وبراعة النَّفس والعقل ، وأنَّ المرجعَ فيما يَدْهَمُ القومَ إليه ، والمعتمَدَ عند ما يَهجُم فيَهُمُّهم عليه ، فهم يستضيئون بتدبيره فى ظُلَم الخطوب ويستكشفُونه ما يتغشَّاهم مِن دَوَاهِى الأمور . والهَنات : جمع هَنَةٍ ، وهى كالكِناية عن المنكَرات ، ولا تُستعمل فى الخير البتَّة . وقولها « أهمَّ القومَ » ، أى جعل مِنْ همِّهم . وموضعَ يَحزُبُهُمْ نصبٌ على الحال .

وقولها « لا يَرْهَبُ الجار منه غَدْرَةً » تصِفُه بحُسْن الوفاء فيما يَنعقِد للجار من ذِمَّةٍ ، ويُعطيه مِن عَهْدٍ ومَوْثِقَةٍ . فيقول : جاره آمنٌ لا يخاف خَتْلًا ولا مكرًا وإن نزَلَتْ به أمورٌ خارجة من الجِوار فهو يقومُ بها ويتكفَّل بالكفاية فيها . وانتصب « أبدًا » على الظَّرف ، وهو فى المستقبل بمنزلة قطُّ فى الماضى .

تم البابُ بعونِ الله وحُسن توفيقه ، والصَّلاة على نبيِّه محمد وآله مِن بعده .

بَابُ الصِّفَاتِ

بابُ الصِّفاتِ

٨١٦

قال بعضهم[1] :

١ — وهاجِرَةٍ تَشْوِى مَهَاهَا سَمُومُها طَبَخْتُ بها عَيْرَانةً وشْتَوَيتُها[2]

٢ — مُفَرَّجَةً مَنْفوجةً حَضْرَمِيَّةً مُسَانَدَةً سِرَّ المَهَارَى انتقيتُها

أراد بالهاجرة الوقتَ الذى يُهجَر السَّيرُ له إذا قامَ قائمُ الظهيرة وغَلب الحرُّ فيه ، وهى فاعلة بمعنى مفعولة . والمَهَا : بقَرُ الوحش . فيريد أنَّ حرَّها يَشْوِى الوحشَ ويَطبُخها . وقوله «طبختُ بها عيرانة» يعنى بتلك الهاجرة . والعَيْرانة : النَّاقة تُشبِه العَيْر . و « شويتها[3] » أى سرتُ عليها حتَّى أنضاها الهواجر وحَسَرها وأذهَبَ لحمَها ، فصارت كالمحترقة . والمُفرَّجة : هى التى بَعُدت مرافقُها عن زَوْرِها واتَّسعتْ آباطُها وفرَّجتْ ما بين قوائمها ، فهى فَتْلاء المِرْفَق لا يصير حازًّا ولا ناكتًا ولا ضاغِطًا . والمنفوجة : الواسعة الجنبَيْن . والحضرميَّة هى التى حصَلت من نَسْلِ إبلِ حَضْرَموت ، وهى قرية بالشأم[4] . والمُسانَدَةُ : القويَّة الظهر وسِرّ المَهارَى ، أى خِيارُها . والمهارَى : جمع مَهْرِيَّةٍ وهى المنسوبة[5] إلى

---

(١) التبريزى : « قال البعيث الحنفى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٠ ص ٣٧٦ .

(٢) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « وشويتها » .

(٣) كذا باتفاق النسختين .

(٤) كذا . والمعروف أنها بلاد فى جنوبى الجزيرة شرق اليمن .

(٥) ل : « منسوبة » .

مَهْرَةَ بن حَيْدَان ، أى من نِتاجِه . وانتقيتُها ، أى اخترتُها . والمراد أنَّه قَطَّاعُ للمَفَاوز فى الهَوَاجِر ، مبتذِلٌ لنفسه وراحِلته لا يُبقى عليهما فى حَرّ ، ولا يقيهما من سَمُومٍ وتعب . وقوله : « تَشْوِى مَهَاها سَمومُها » فى موضع الصِّفة للهاجرة . وقوله « طبخْتُ » جواب رُبَّ .

٣ — فَطِرْتُ بهاشَجْعاءقَرْوَاءجُرْشُمًا إذا عُدَّ مَجْدُ العِيسِ قُدِّمَ بَيْتُها

٤ — وجَدْتُ أباها رائضَيْها وأمَّهَا فأعطَيتُ فيها الحُكْمَ حَتَّى حَوَيْتُها

قوله « فطِرت بها » قيل أراد به حثثْتُها واستعجلتُها فى السَّير ، فيكون طِرْت بها بمعنى أطرتُها على هذا ، كما يقال ذهبْت بزيد وأذهبته بمعنًى ، ويجوز أن يكون المراد أنِّى انتزعتُها من عيون الباعة والمشترين ، واختلستُها وفزْتُ بها ، بدَلالة أنَّه قال « وأعطيتُ فيها الحكم حتَّى حَوَيْتُها » . والشَّجْعَاء : الجريئة القلب ، وانتصب على الحال . والقَرْوَاء : الطَّويلة الظهر . والجُرْشُم : المنتفخة الجنبَين .

وقوله « إذا عُدَّ مَجْدُ العِيس » يريد إذا ذُكِرت مَفاخرُ العِيس ومناسبُها قُدِّم نَسْلُها وقَبِيلُها الذى يُؤْويها .

وقوله « وجدت أباها رائضَيْهَا وأمَّها » فَصَل بين المعطوف والمعطوف عليه بمفعول وجدتُ الثانى ، والمعنى : وجدتُ أباها وأمَّها رائضَيْن لها ، كأنَّها نُتِجَتْ مَرُوضَةً مؤدَّبَةً ، فما جُهِد منها حَصَل لها وِراثةً لا تعلُّمًا .

وقوله « أعطيتُ فيها » أى بذلتُ فى تملُّكها ما احتَكَم بائعُها واقترحَ واستامَ بها ، حتَّى حصَّلتُها .

٨١٧

وقال عَنْتَرَةُ بنُ الأخْرَس[١] :

١ — لَعلَّكَ تُمْنَى مِنْ أراقِمِ أرْضِنَا بأرْقَمَ يَسْقِي السَّمَّ مِن كُلِّ مَنْطَفِ[٢]

٢ — تَرَاهُ بأجْوازِ الهَشِيمِ كأنّما على مَتْنِهِ أخْـــلاقُ بُرْدٍ مُفَوَّفِ

الأراقِم : الحيّات . والكلامُ دعاء على المخاطَب وإن كان لفظُه ترجّيًا وتأميلًا . ومعنى تُمْنَى تُمتحَن . يقال : مُنِيَ بكذا ، أى بُلِيَ بِهِ وقاسى شرَّهُ . ومعنى « يَسقِي السَّمَّ من كل مَنْطَف » يريد من كل مَقْطَر ، لأنّ نَطَف الماء معناه قَطَر . وسُمِّى الماء نُطْفَةً لذلك . يريد أنّه يَرْشَحُ بالسَّمِّ ، فسُموم جلده تَقْطر به . ولعلَّ : طَمَعٌ وإشفاق . كذا قال سيبويه . ويُستعمَل بأنْ وبغير أنْ . يقال : لعلّك أن تفعل كذا ، كما تقول لعلك تفعل كذا .

وقوله « تَراه بأجواز الهَشِيم » فالهَشِيم : اليابس من الأشجار والنَّبات ، والقَصْدُ إلى النَّبات هنا . يقول : تَراه يتخلل الهشيمَ ويتوسَّط أثناءه ، فكأنَّ على متنه بجلده الذى سلخه قِطَعَ بُرْدٍ وَشْيُه كالفُوفِ ، وهو البياضُ الذى يظهر فى أظافير الأحداث . وجعله سالخًا ليكون أخبَثَ .

٣ — كأنّ بِضَاحِي جِلْدِهِ وَمسرَاتِه وَمَجْمَعِ لِيتَيْهِ تَهَاوِيلَ زُخْرُفِ

أراد أنّه ملوَّن الجلد . والضّاحى : البارز للشّمس فى الأصل ، والمراد به هنا ظاهر الجلد . والتّهاويل : ما يُعلَّق من العُهون على الإبل ، ولا واحدَ له من لفظه ، والقياس تَهْوَالٌ ، كما يقال تِجْفَاف وتجافيف[٣] . والزُّخرُف : كلُّ

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٥٣ ص ٢٢٠ .

(٢) يسقى ، ضبطت بالبناء للمعلوم فى النسختين . ويصح أن تقرأ بالبناء للمجهول كما ضبطت فى نسخة التبريزى . والبيت أنشده الجاحظ فى الحيوان (٤ : ٣٠٧) .

(٣) التجفاف ، بالكسر : ما يجلل به الفرس ، وآلة تقيه الجراح .

ما حُسِّنَ به شيء ، وأصله الذّهب . فشبَّهَ بارزَ جلدِ الحيَّة وظهرَه وجمع صَفحتَىْ عُنقِه لاختلاف ألوانها بالتّهاويل التى تُزَخرف بها الإبل .

٤ — كأنَّ مُثَنَّى نِسْعَةٍ تحتَ حَنْقِهِ بما قد طَوَى مِنْ جِلدِهِ المتفضِّفِ

٥ — إذا نَسَلَ الحيَّاتُ بالصَّيفِ لم يزَلْ يُشاعِرُ باقى جُلْبَةٍ لم تُقرَّفِ

شبَّهَ غُضُونَ حَنْقه لِما انطوَى من جِلدِه المتكسِّر لكونِه فاضلاً عن لحمه وذلك لكثرة سَمِّه بنِسْعةٍ مُثنيَّة جُعِلَتْ تحتَ حَنْقه ، ويقال : إنّ الحيَّاتِ إذ اجتمعت سمومُها وكثُرَت دَقّتْ وهُزِلت ، لأنّ سمَّها ينقُص لحمَها ، فلذلك يَفْضُل جِلدُها عن حجمها فيتفضَّف ، أى يتثنَّى ، والفَضَف : انكسارٌ فى الأُذُن .

وقوله « إذا نَسَلَ الحيَّاتُ » يريد أنَّه بخُبْثِه يقاتل سائرَ الحيَّات ، سُوءَ خُلُقٍ منه وعَرَامةً ، فإذا انتشرت الحيَّاتُ فى الصَّيف لا يزالُ يمارِسُ ويُطاوِلُ بَوَاقىَ جُلَبٍ منه لم تُقْشَر عنه ، لأنَّه فى مُقاتَلةِ الحيّات يحصل على جُروح طولَ الصَّيف وتَيْبَسَ عليه جُلَبها . وقوله « يُشَاعِرُ باقى جُلْبَةٍ » ، ويروى « يساعر » بالسين ، من قولهم كلب سَعِرٌ ، أى كَلِبٌ . وفى القرآن فُسِّرَ قولُه تعالى ﴿ فى ضَلَالٍ وسُعُر ﴾ ، أى جُنون . ومنه ناقةٌ مسعورة : لا تستقرُّ قلقاً ، ومن قولهم : عُنق مِسْعَرٌ ، أى طويل . وأنْ تَروِىَ « يشاعر » بالشين المعجمة أحسَنُ تَجعلُه من الشِّعار الذى هو خلاف الدِّثار . ويقال : جَلَبَ الجُرْحُ وأجْلَبَ إذا يَبِس الدَّمُ عليه .

٨١٨

وقال مُلْحَةُ الجَرْمىُّ[1] :

١ — أرِقْتُ وطالَ اللّيلُ للبارِقِ الوَمْضِ حَبِيًّا سَرَى مُجْتابَ أرضٍ إلى أرضِ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٧٨١ ص ١٧٤٨ .

٢— نَشاوَى من الإدلاج كُدْرِىُّ مُزْنِهِ يُقَضِّى بجَذْبِ الأرض مالم يَكَدْ يَقْضِى[١]

٣— تَحِنُّ بأجْوازِ الفَلا قَطَرَاتُه كما حَنَّ نِيبٌ بعضُهُنَّ إلى بعض

قوله «أرِقْتُ»، يريد سهرت، ولا يكون الأرق إلّا بالليل. فيقول: فارقنى النَّومُ وطالَ ليلى من أجلِ سَحابٍ فيه بَرْقٌ يُومض، أسرَى ليلًا وقد قطَع أرضاً إلى أرض. والوَمْضُ: مصدرٌ كالوميض، وهو لمَعانُ البرق. وقد وُصفَ به. ويقال: وَمَض وأومَض. وانتصب «حَبِيًّا» على الحال، وهو المشرف. والعامل فيه إن شئت البارق، وإن شئت الوَمْضُ. و«مُجْتَابَ أرضٍ»، أى قاطِعَها، وانتصابه على الحال، والعامِلُ سَرَى.

وقوله «نَشاوَى من الإدلاج[٢]» رَدَّه على قِطَع السَّحاب. ألا تَرَى أنه قال فى البيت الأول «البارق الوَمْض»، ثم قال «نَشاوَى من الإدلاج». وهو جمع نَشْوَان. يريد أنَّ أقطاعَهُ لسُرَاهُ صارت كالسُّكارَى تميل من جانبٍ إلى جانب، وتَنْعَطِف من أرضٍ إلى أرض. كأنَّه جعل حالَ السَّارِى من السحاب كحال السَّارى من الإنسان. وقوله «كُدْرِىُّ مُزْنِهِ» مبتدأ، و«يقضِّى بجَذب الأرض» فى موضع الخبر، و«ما لم يكد» مفعول يقضِّى. وجعَلَ فى لونه كُدْرَةً لكَثْرة مائه وارتوائه. والمعنى أنَّ الكُدْرِىَّ منه يَحكم للمُجْدِب من الأرض، ويَقْسِم من المَطَر له ما لم يكد يَقْضِى به لنفسه، ولم يقرُبْ من قَسْمِه له كأنَّه يَصبُّ لجدب الأرض[٣] أكثَرَ مما يحتكم به لو حُكِّم، ويختارُه لو خُيِّر. ولك أن تروى «ما لم تكد تقضى» بالتاء؛ تردُّه على الأرض. وقال بعضهم:

(١) رواه أبو العلاء: «يشاوى من الإدلاج»، أى يسابق، من الشأو، أى الطلق؛ يقال شآه يشآه، إذا سبقه.

(٢) الكلام بعده إلى كلمة «الإدلاج» التالية ساقطة من ل.

(٣) الكلام بعده إلى كلمة «الأرض» التالية ساقطة من ل.

هذا كما يقال : أعطانى الأميرُ ما لم يكد يعطيه لأحدٍ ، وسمحَ لى بما لم يكَدْ يسمح به لأحد . والأوّل أحسنُ وأغرب . وقال بعضهم : أخبرَ أنّ هذا السّحابَ إذا أتى على أرضٍ مُجْدبةٍ لم يفارِقْها مطرُها حتّى يُهَرِيق[1] بها من الماء ما يكون فيه عَهْدٌ ووَلِيٌّ[2] فى دَفعةٍ واحدة ، وفراغُه من هذا لا يكون سريعاً هيِّناً . كأنَّ حاجةَ السَّحاب فى الأرض المُجْدِبة إحياؤُها و إخصابُها من مَطْرَةٍ واحدة ، فلمّا فعَلَ قضَى وطَرَه ، ولم يكَدْ يَقضيه إلّا بعد بُطْء .

وقوله « تَحِنُّ بأجواز الفَلَا قُطُراتُه » أى نواحيه . والقُطْر : الجَنْب . ويقال : قَطَّرَه ، إذا ألقاه على قُطْرِه . ويقال فى معناه قُتْرٌ أيضاً بالتاء . يريد أنّ جوانبَه تتجاوَبُ بالرّعد . فكأنّها تَحِنُّ إلى مواضِعَ لها قد ألِفَتْها ، فهى تشتاقُها وتتشوّف . ثُمّ شبَّهَ حنينَها بحنين الإبل وقد فُرِّقت بعد اجتماع فتحانّت وتهادرت .

ويقرب من هذا قولُ الهُذَلى[3] :

يَجُشُّ رَعْدًا كهَدْرِ الفحـل يَتْبَعُهُ ... أُدْمٌ تَعَطَّفُ حولَ الفَحْلِ ضَحْضاحُ[4]

٤ — كأنَّ الشَّماريخَ الأُولَى من صَبِيره ... شَماريخُ من لُبْنَانَ بالطُولِ والعَرْضِ[5]

٥ — تُبارِى الرِّياحَ الحَضْرَمِيّاتِ مُزْنُهُ ... بِمُنْهَمِرِ الأرواقِ ذى قَزَعٍ رَفْضِ[6]

الشماريخ : الأعالى . والصَّبير : السّحاب الأبيض . ولُبْنان : جبل . شبَّ

(١) ل : « يهرق » .
(٢) العهد : المطر الأول . والولى : ما يليه من المطر .
(٣) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٤٨) .
(٤) قال خالد بن كلثوم : ضحضاح فى لغة هذيل : كثير ، لا يعرفها غيرهم . يقال : عند إبل ضحضاح . اللسان (ضحضح) .
(٥) فى هامش ل أن الصواب « الشماريخ العلى » ، وهى رواية التبريزى .
(٦) التبريزى : « يبارى » .

أعاليَ السّحاب بأعالى هـذا الجبل وأُنوفِهِ التى تتقدّم منه ، وقال « الأُولَى » تخصيصاً لما كان من صَبيرِهِ خاصّة ، وقال «بالطُّول والعرض» ليبيِّن وجه التّشبيه .

وقوله « تبُارِى » أى تحُا كِى وتُسامِى الرِّياحَ الشّاميَّةَ سُحُبُهُ بمطرٍ سامى الأعالى . ويقال للسّحابة إذا ألحّتْ بالمطَر فى موضعٍ : ألقَتْ عليه أرواقَها . ويقـال للرّجل إذا ألقى همَّه على الشىء ونَفْسَه : ألقى عليه أرواقه . لذلك قال تأبّط شرًّا :

* ألقيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أرواقِى[1] *

والقَزَعُ : قِطَعٌ من السّحاب متفرِّقة ، والواحدة قَزَعَةٌ . وقال الخليل : القَزَعُ قِطع من السّحاب رقيقةٌ كالظِّلّ . وعلى ما قاله يكون الإشارةُ من الشّاعر إلى السّحاب إلى وَصْفِه وقد هَرَاقَ ماءه فَرَقَ . قال الخليل : ولذلك قيل : شَعَر مُقَزَّعٌ ، أى خفيف . والرَّفْضُ : المُرْفَضُّ المتفرِّق ، وكأنّ الأصل فيه الرَّفَض ، مُحرَّكَ الفاء ، والجميع الأرفاض ، فسكِّن . ويجوز أن يكون وصف بالمَصدَر ، لأنه يقال رفَضتُ الشىء رفضاً ، والمرفوض رَفَضٌ . والمعنى أنّ مُزْنَه وهو السَّحاب ، تُحاكى الرِّياح الهابّة من ناحية الشأم — يشير إلى الشّمال — بمطرٍ ذا صِفتُه من سحاب كذلك .

٦ — يُغَادِرُ مَحْضَ المـاءِ ذُو هُوَ مَحْضُه على إثْرِه إن كان للماء مِنْ مَحْضِ

٧ — يُرَوِّى العُرُوقَ الهامِداتِ من البِلَى مِن العَرْفَجِ النَّجْدِىِّ ذُو بادَ والحَمْضِ

أصل المَحض اللّبن الخامض بلا رغوة ، ثم استُعمل فى الحسب وغيره ، يقول : يترك خالصَ الماء الذى هو خالصةُ السّحابِ وصافيتُه ، ويخلِّفه فى مسايل الأودية على إثْرِه . وإنّما يُشيرُ إلى ما تَقطَّعَ ورقّ من ماء المطر بنَضَد الأحجار ،

(١) عجز البيت ٤ من المفضلية الأولى . وصدره :

* نجوت منها نجائى من بجيلة إذ *

وأُصولِ الأشجار ، حتَّى صفا من شوائب الكُدورة ، وقَرَّ في المناقع وقراراتِ الأودية .

وقوله « إن كان للماء من مَحْض » ، لأنّ ماء المطر جنسٌ واحدٌ إذا لم يختلطْ به غيره لا يختلف . وقد مرّ القولُ في ذو وأنّه بمعنى الذي في لغة طيّئ[1] ، فقوله : « ذو باد » ، أي الذي باد ، وهو في موضع الجرّ ، لكنه لا يغيِّر عن بِنْيته .

وقوله « يروِّي العروق الهامِدات من البلَى » ، يريد أنّه أحيا ما أشرَفَ على اليُبْس من عُروق الشّجر البالية خُلَّتِها وحَمْضِها ، وأعادها غَضّةً مرتوية . والهُمُودُ أبلغ من الخُمود .

٨ — وباتَ الحَبِيُّ الجَوْنُ يَنْهَضُ مُقْدِمًا كنَهْضِ المُدانَى قَيْدُهُ المُوعِثِ النِّقْضِ

الحبيّ من السّحاب : المشرِف المتراكم . والجَوْن : الأسود هنا ، وجعله كذلك لارتوائه وكثرة مائه . وقوله « ينهض مُقْدِما » انتصب مُقْدِما على الحال ، يريد أنّ سَيْر السّحاب لِثقَله وحركاته مثلُ سيرِ هذا البعير وحركتِه ؛ ثمّ وصَفَه . والمُدانَى قَيده : الذى قُصّر عِقَالُه وضُيِّقَ عليه قَيده . ولم يَرْضَ بذلك حتَّى جعلَه سائراً في الوَعْثِ ، وهي الأرض اللّيِّنة الكثيرةُ التُّراب والرَّمل ؛ والسَّير فيها يَصْعُب . ويقال في الدُّعاء : « اللهمّ إنِّي أعوذ بك مِن وَعْثاء السَّفَر » ، يُراد شِدَّتُه وصُعوبته . ويقال : أَوْعَثَ ، إذا صارَ في الوَعْثاء ، كما يقال أَسْهَلَ إذا صارَ في السهل . ثمّ لم يَرْضَ بعد ذلك أيضاً حتَّى جعله نِقْضًا ، وهو المهزول الضَّعيف . ويقال نَقَضْتَ البعير نَقْضًا ، والمنقوض نِقْضٌ .

---

(١) انظر ما سبق في ص ٥٩١ .

وقد زاد فى هذا الوصف على الأعشى لمّا قال — وإن كان الأعشى يصف امرأةً بالنَّعْمة والتَّرْفة ، وهذا يصف سحابةً ثقيلة — :

* تَمْشِى الْهُوَيْنَى كما يمشى الوَجِى الوَجِلُ[1] *

لأن هذا جعل البعير مُدانَى القَيْد أيضاً .

تم الباب بحمد الله تعالى ومنّه ، وحسن توفيقه وعونه .

---

(١) صدره فى الديوان ٤٢ :

* غراء فرعاء مصقول عوارضها *

بَابُ السَّيْرِ وَالنُّعَاسِ



بابُ السَّيرِ والنُّعاسِ

٨١٩

وقال حَطِيم(١) :

١ — وقالَ وقَدْ مالتْ به نَشْوَةُ الكَرَى نُعاسًا ومَنْ يَعْلَقْ سُرَى اللَّيلِ يَكْسَلِ

٢ — أَنِخْ نُعْطِ أَنضاءَ النُّعاسِ دَوَاءها قليلا وَرَفِّهْ عن قَلائصَ ذُبَّلِ

٣ — فقُلتُ لهُ كَيفَ الإناخةُ بَعدَما حَدَا اللَّيلَ عُرْيَانُ الطَّريقةِ مُنْجَلِي

مفعول قال أوّل البيت الثانى ، وهو « أَنِخْ نُعطِ » . وقوله : « وقد مالتْ به نَشْوةُ الكَرَى » ، الواو واو الحال . والنَّشوة : السُّكْر . والكَرَى : النَّوم . وانتصب « نُعاسًا » على أنّه مصدر فى موضع الحال .

وقوله « ومَنْ يَعْلَق سُرَى اللَّيل يَكْسَلِ » اعتراضٌ بيْنَ الفعل ومفعوله . ويَعْلَق فى معنى يتعلَّق . والسُّرَى : سَير اللَّيل خاصَّة ، وأضافه إلى اللَّيل فقال سُرَى الليل ، تأكيداً . ومعنى البيت : وقال رفيقى وقد انتَشى من الكَرَى وصار يتميَّل ولا يستقيم وهو ناعس ، ومن يُمارِس السَّير ويُهاجِر النَّومَ يتسلَّطْ عليه الكَسلُ : أَنِخْ راحلتَك نُدَاوِ المطايا التى أنْضاها النُّعاسُ وهَزَلها الجَهْد ، دَواءها من الرَّاحة والنَّوم ، وسكِّنْ من قَلائصَ مهازيل ، ووسِّعْ ما ضُيِّقَتْ عليها من أوقاتها . والقَلُوص فى الإبل بمنزلة الجارية فى النَّاس . والذُّبَّل : جمع ذابل . والتَّرفيهُ : التوسيع والتَّنفيس . ويقال : رَفَّهتُ البعيرَ ، إذا تركتَ الحَمْلَ عليه ، وعيشٌ رافهٌ ورَفِيهٌ : فيه رَفاهةٌ وخِصْبٌ . وانتصب قليلاً على الظَّرف ، ويجوز

(١) كذا فى النسختين بالحاء المهملة . وعند التبريزى : « الخطيم » بالخاء المعجمة .

أن يكون صفةً لمصدر محذوف ، كأنّه قال نَشِطها دواءها إعطاء قليلا ، أو وقتاً قليلا .
والأنضاء : جمع النِّضو ، وهو المهزول .

وقوله « فقلت له كيف الإناخة » ، يريد كيفَ الوصول إلى النُّزول وقد أصبحنا وساقَ اللَّيلَ صُبْحٌ واضحُ الطَّريقة ، متكشِّف الشريعة ، يجلِّي الظَّلامَ فيه ويفرِّق . يريد أنَّ الرأيَ وقد انصرَمَ اللَّيلُ أن نتبلَّغ إلى الماء الذى نَقصِده ثمَّ ننزل .

٨٢٠

آخر :

١ — وفتيانٍ بَنَيْتُ لهُمْ ردائى على أسْـــيافِنا وعلَى القِسِى
٢ — فظَلُّوا لا نَدِينَ به وظلَّتْ مَطاياهُمْ ضَـــوارِبَ باللُّحِيِّ
٣ — فلما صَارَ نِصْفُ الظِّـــلِّ هَنَّا وهَنَّا نِصْفُهُ قَسْمَ السَّـــوِىِّ

يقول : ربَّ فتيانٍ أثَّر فيهم الحرُّ ، ومالوا إلى النُّزول ، فبنيتُ لهمْ ما أظلَّهم على الأسياف والقِسىّ ، وقد غشَّيتُ بردائى فظَلُّوا من نَهارهم مُلْتَجِئين إليه ولائذين من الحرّ به ، وبقيَتْ مطاياهم لتأثير أُوَارِه فيها ، وإحراقها بتوقُّد الهاجرة عليها ، تَضرِب بلُحِيِّها على الأرض ، فلَّما زالَ قائم الظهيرة ، وصار الظِّلُّ نِصفَين لا شَطَط فى انقسامه ، ولا اعوجاجَ فى سَوِيِّه . وجواب لمَّا مُنتَظَر .
وقوله « هَنَّا » انتصبَ على الظَّرف ، وقد وقع موقع خبر صار .

وسمعت شيخنا أبا علىّ الفارسيَّ رحمه الله يقول : ليس هَنَّا من لفظ هُنا فى شىء ، ووزْنه فَعْلَل مثل جعفر ، فهو رباعى ، وهُنا ثلاثى . كأنَّ أصلَه هَنَّنُ ، فأبدلوا من إحدى نوناته الألف هرباً من التضعيف[١] .

---

(١) نظيره إبدال النون ياء فى قولهم « التظنى » و « التقصى » فى « التظنن » و « التقصص » .

وقوله « قَسْمَ السَّوِيِّ » انتصب على المصدر ، والمراد وقد قَسَمَ قَسْمَ الإنصاف . ودلّ على الفعل قوله « نِصفُ الظِّلِّ هَنّا » .

والسَّوِيّ أكثر ما يجيء فى آخره هاء التأنيث : السويّة ، قال الشاعر :

* ألاَ إنَّ السَّوِيَّةَ أن تُضَامُوا[1] *

ويجوز أن يريد بالسوِيّ المسوّى ، كما جاء فى الخبر : « لا تحلُّ الصَّدقةُ لغنِيّ ، ولا لذى مِرَّة سَوِيّ » .

٤ — دَعَوْتُ فَتًى أجابَ فَتًى دَعَاهُ بلَبَّيْـــــهِ أَشَمَّ شَمَرْدَلِيٍّ

٥ — فقامَ يُصَارِعُ البُرْدَيْنِ لَدْنًا يَقُوتُ العينَ من نَوْمٍ شَهِيٍّ

٦ — فقاموا يَرْحَلُونَ مُنَفَّهاتٍ كأنّ عُيُونَهَا نُزُحُ الرَّكِيّ

قوله « دعوت » جواب لما من قوله « فلما صار نصفُ الظِّلِّ » ، وهو العامل فيه ، لكونه عَلَمًا للظرف . وقوله « أجابَ فَتًى دَعَاهُ » يريد أجابنى ، لأنّه هو الداعى له . وقوله « بلبّيْهِ » أراد أجاب بالتَّلبية ، أضاف لَبَّىْ إلى ضمير المجيب ، وحكى ما لُفِظ به . ولَبَّيْك ، من قولهم : أَلَبَّ بالمكان ، إذا أقام به ، وهذه اللفظة مثنًّى ، والتّثنية فيها إيذانٌ بأنّ المراد إلبابٌ بعد إلباب ، لأنّ تد تفيد التكثير ، فكأنّ المراد : دوامٌ على طاعتك[2] ، وإقامةٌ عليها مرّةً بعد أخرى . قال سيبويه : انتصابُه على المصدر كانتصاب سبحان الله ، ولا ينصرف كما لا ينصرف سبحان . وقال يونس : إنّه واحدٌ غيرُ مثنًّى ، والياء فيه كالياء فى عليك ولديك ، وأنشد الخليل وسيبويه عن العرب ، قول القائل[3] :

---

(١) للبراء بن عازب الضبى ، كما فى اللسان (سوا) . وصدره :

* أتسألنى السوية وسط زيد *

(٢) فى النسختين : « طلعتك » ، تحريف .

(٣) غير معروف . والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . انظر سيبويه (١ : ١٧٦) والخزانة (١ : ٢٦٨ — ٢٦٩) .

* فَلَبَّى فَلَبَّيْ يَدَىْ مِسْوَرِ[١] *

وموضع الحجّة أنه لو كان كَلَدَى وعلَى لـكان يجيء بالألف إذا أضيف إلى الظّاهر، كما تقول لَدَى زَيْدٍ وعلى عمرو، والشّاعر قال: لَبَّيْ يَدَىْ.

وقوله «أشمّ» فى موضع الجر على أن يكون بدلاً من الضّمير المتّصل بلبّيْه.

وأصل الشَّمَم الطُّول فى الأنف، لـكنّه جعل لفظة أشمّ كناية عن الـكريم.

والشّمردل: الطّويل. وزاد ياء النِّسبة فى آخره توكيداً للوصفية، فهو كقول رُؤْبة:

أَطَرَباً وأنتَ قِنَّسْرِىُّ والدَّهرُ بالإنسانِ دَوَّارِىُّ

يريد قِنَّسْرًا ودَوَّارا، فزاد الياء لمثل ذلك.

ومراد الشاعر: لمّا انقسَمَ الظّلُّ هذا الانقسام، وخفّ احتدامُ الوقت واشتدّ أمرُ الحرّ على مُوَاصِلِ السَّير والسُّرَى، دعوتُ فتًى أجابَنِى بلبَّيك، كريمٍ مَديدِ القامة، تامَّ الخلقة، فقام ولِمَا لحِقَه من التَّعَب والـكلال وتَرْك النَّوم يَتمايَلُ، فـكأنّه يصارع بُرْدَيْه. وهو ليِّن الأعطاف، يهتزّ اهتزاز الرمح اللَّدْن، وهو يَنفِى عن عينه نوماً لذيذاً تمـكّنَ [منها[٢]]، فهو لها قوتٌ وقِوام [وينفضها منه شيئاً بعد شيء. وإنما قال ذلك لأنّه لم يكن استوفَى من الرّاحة والنوم ما يكتفِى ويتماسك له[٢]] إذ كان هيَّجَه وبعثه للارتحال قبلَ ذلك.

وقوله «وقاموا[٣] يَرحَلون» يريد: قامَ هو وأصحابه يرحلون رواحلَ لم قد أسقَطَها واستَنْفَدَ قُوَاها السَّير المتصل الحثيث، فهى غائرةُ العيون، ساقطةُ القُوَى، قد دخلت مُقَلُها فى أقفائها، فـكأنّ عيونها آبارٌ نُزِحَتْ مياهُها.

ويقال: نَفِهَتْ نَفْسُه ونَفَّهْتُها أنا. والنُّزُح: جمع نَزِيح.

---

(١) صدره: * دعوت لما نابنى مسوراً *
(٢) التكملة من ل.
(٣) كذا فى النسختين. وهو فى المتن «فقاموا» بالفاء.

٨٢١

آخر(١) :

١ — ولقدْ هَدَيتُ الرَّكْبَ فى دَيْمُومَةٍ فِيها الدَّلِيلُ يَعَضُّ بالخِمْسِ

٢ — مُسْتَعْجِلِينَ إلى رَكِىٍّ آجِنٍ هَيْهاتَ عَهْدُ الماء بالإِنْسِ

يريد أنّه يتعسّف البلادَ ، ويركبُها بأصحابه ، وهو هاديهم ، وأنّه وَرّادٌ للمياهِ التى انقطعَ النّاسُ عنها فلا يَرِدُها إلّا السِّباعُ والطّير . ولا خلاف بينهم أنّ القَطا أهدَى الطّير ، وأنّ الذئبَ أهدَى السِّباع ، وهما السابقان إلى المياه؛ لذلك وصفَهما الشُّعراء وضربوا الأمثالَ بهما . والرَّكْبُ : رُكْبان الإبل . والدَّيْمُومَة : المَفازة ، واشتقاقه من دَمَّهُ ، أى أهلكه ، وهو يجرى مجرى مَهْلَكَةٍ ومَفازةٍ ، والياء فيه زائدة . وقوله « يَعَضُّ بالخمس » ، يقال عَضَّ كذا ، وعضَّ على كذا ، وعضَّ بكذا ، قال :

* فعَضَّ بإبهامِ اليمينِ ندامةً *

وقال غيرُه :

* عَضَّ على شِبْدَعِهِ الأريبُ(٢) *

وفى القرآن : ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الغَيْظِ ﴾ . وإنّما جعل الدَّليلَ يفعلُ ذلك لخوفه الهلاكَ والضَّلالَ على نفسِه ومَنْ مَعَه . ويريد بالخِمْس ، الأصابعَ ، وهى مؤنّثة ، لذلك قيل : السَّبّابة ، والدَّعّاءة ، والوُسْطَى .

وقوله « مُستعجِلينَ إلى رَكِىٍّ آجِنٍ » ، أراد : مُبادِرِينَ إلى بئرٍ متغيِّرة

---

(١) التبريزى : « وقال رجل من بنى بكر » .

(٢) الشبدع بكسر الشين وكسر الدال أو فتحها : اللسان . وبعده فى (اللداخل) لغلام ثعلب : * فظل لا يلحى ولا يحوب *

الماء ، فلما وَرِدُوها بعيدةَ العَهدِ بالإنْس، لأنّ المفازةَ التي يَقصِدُها بالوصف كانت غيرَ مسلوكةٍ لهم إلّا فى النادر ، و إنّما يرد الماء بها الطّير والوحش . وارتفع « عَهْدُ الماء » بقوله هيهات ، وهو اسم لِبَعُد . والمراد رَكْبٌ متغيّر بَعُد عَهْدُ مائِه بالإِنْس. وقد رُوِى عَهدُ الماء بالأمس » ويكون على هذا عهد الماء مرتفعاً بالابتداء ، و بالأمس خبره . وأتى بلفظة « هيهاتَ » على طريق الاستبعاد ، كأنّه قال : إلى رَكْبٍ آجِنٍ بَعُدَ المطلوبُ والمبتغَى . ثم قال « عهدُ الماء بالأمس » ، أى كان الماء فى وقتٍ متقادِمٍ . والرواية الأولى أصحُّ وأجْوَد وأحسن . وفى طريقته قولُ الشّمّاخ :

وماء قَدْ وَرَدْتُ لوَصْلِ أرْوَى ... عليــهِ الطّيرُ كالوَرَقِ اللَّجِينِ

ذَعَرْتُ به القَطَا ونَفَيْتُ عنهُ ... مَقامَ الذِّئب كالرَّجُلِ اللَّعين

وقال ذو الرُّمّة :

وماء بعيدِ العَهْدِ بالنّاس آجِنٍ ... كأنَّ الدَّبَا ماء الغَضَا فيه يَبْصُقُ

وَرَدْتُ اعتسافاً والثُّرَيّا كأنّها ... على قِمّةِ الرَّأسِ ابنُ ماء مُحَلِّقُ

٣ — مُسْتَعجِلِينَ فَمُشْتَوٍ ومُعَالِجٌ ... نَقَبًا بِخُفِّ جُــلَالَةٍ عَنْسِ

٣ — ومُهَوِّمٍ رَكِبَ الشِّمالَ كأنّما ... بفُؤاده عَرَضٌ مِنَ المَسِّ

أعاد لفظ « مستعجلين » تأكيداً ، والأول منهما حال للرَّكب . وقوله « فمشتَوٍ » مبتدأ وخبره مضمر . كأنّه قال على الاستئناف : فمنهم مشتوٍ ومنهم معالجٌ نَقَباً ، ومنهم مُهوِّمٌ . وذِكرُه للمشتوى وغيره ليُرِىَ ضِيقَ الوقت ، وأن آرابَهم لم تُقضَ فيه عند نزولهم : مِن الأكل و إصلاح عواضِ السفر[1] ، إلى سائرِ ما أحاط التّعدادُ به ودلّ عليه ، فإنّه أزعجهم وهيّجهم للارتحال . والنَّقَب : الحفَى . والجُلَالة : النّاقة العظيمة الجسم . والعَنْسُ : الصُّلْبة .

(١) ل : « عارض السفر » . فلعلها « عوارض » .

وقوله « ومُهَوِّم » أراد : وربَّ رجلٍ نائمٍ لمّا نبَّهه رَكِبَ شِمالَه لغَلَبةِ النَّوم عليه ، وكأنما بقلبه عَرَضٌ من الجنون . والمراد بقوله « رَكِبَ الشِّمال » أنه أخطأ فى القَصْد . من قولهم رَكِب شُؤْمَه[1] وركب الشِّقَّ الأشأم ، العادل عن سَواء السبيل ، وللمنهزم والخطِئ . ويجوز أن يريد بقوله : « ركب الشمال » شِمالَ نفسه ، والراكب إذا لم يَزِغْ من شَرْطِه أن يركبَ من يمينِ نفسه وَشِمال مركوبه ، ومتى ركب من شِمال نفسه ويمين مركوبه كان معكوسَ الركوب . ويجوز أن يريد : ركب الشمال مرّةً واليمينَ أخرى ، فاكتفى بذكر أحدِهما . والمعنى : لا يُبالى على أىِّ جنبيه سقط ، لغَلَبة النُّعاسِ عليه .

وفى هذه الطريقة قولُ لبيد :

قَلَّما عَرَّسَ حتى هِجْتُهُ ... بالتباشيرِ من الصبح الأُوَلْ

يَلمُسُ الأحلاسَ فى مَنزِله ... بيديهِ كاليهوديِّ المُصَلْ

يَتمارَى فى الذى قُلْتُ له ... ولقد يَسْمَعُ قولى حَىَّ هَل

٨٢٢

آخر :

١ — وهُنَّ مُناخاتٌ يحاذِرْنَ قَوْلَةً ... من القومِ أنْ شُدُّوا فتُودَ الرَّكائبِ

٢ — تَكادُ إذا قمنا يُطِيرُ قلوبَها ... تَسَرْبُنُنا ولَوْثُنا بالعصائبِ

قوله « هُنَّ مُناخات » ، يريد الإبل . و « يحاذرن » فى موضع الصِّفة أى خائفةٌ محاذرة . وقوله « من القوم » اتصل بقولة . و « أن شُدُّوا » فى موضع المفعول لقولة . وأنْ مخفَّفةٌ من الثَّقيلة واسمهُ مضمر . والمراد أنَّ الأمر والشأن

(١) ل : « شؤما » .

شُدُّوا فَتُودَ رَكائبكم . و « شُدُّوا » بما بعدَه فى موضع الخبر . ويريد أنّ مطاياهم وهى مناخةٌ فى ركائبها خائفاتٌ قولَ مُنادى القوم تهيّئوا للانفصال وشُدُّوا على رواحلكم الرِّحال .

ثم قال « تكادُ إذا قمنا يُطِيرُ قلوبَها » أى قلوبَ الإبل ، أى إنها لما استشعرَتْ من هَول السَّير ولما تخوّنَها وأثّر فى قُواها من الكَلال والتّعب ، إذا رأتْنا نقسر بلُ ونَلُفُّ عمائمنا على رءوسنا ، تكاد تطيرُ قلوبُها انزعاجا وخوفا ، لعلمها بما تُكابدُه وتعانيه .

٨٢٣

آخر :

١ — حُبِسنَ فى قُرْحَ وفى داراتِها

٢ — سَبْعَ لَيالٍ غيْرَ معلوفاتِها

٣ — حتى إذا قَضَّيْتُ من بَتَاتِها

٤ — وما تُقَضَّى النَّفسُ من حاجاتِها

٥ — حَمَّلتُ أثقالِى مُصَمِّماتِها

٦ — غُلْبَ الذَّفارَى وعَفَرْنيَاتِها

قُرْح : موضع[1] . ويريد بالدارات داراتِ الرَّمل . ودارات العرب نيِّف وعشرون ، قد ذكرناها فى موضعٍ آخر . وانتصب « سبع ليال » على الظَّرف . و « غير معلوفاتها » فى موضع الحال ، والمراد : غير معلوفاتٍ فيها ، لكنّه قدّر

(١) هو سوق وادى القرى ، كما فى معجم البلدان .

الظَّرف تقديرَ المفعول الصحيح ، وحذَف فى . والبَتَات : المَتَاع . والمصمِّمات هى التى لا تَرْغو . والغُلْبُ : الغِلاظ الأعناق . والذَّفارَى : جمع الذِّفْرَى ، وهى الحَيْد النانئ عن يمين النُّقْرة وشمالها . والعَفَرْنَيَات : الصُّلبة السريعة ، والواحدة عَفَرْناةٌ . فيقول : حُبِست هذه الإبلُ فى هذا الموضع ، وفى داراتِ رمالِها ليالىَ سبعاً غيرَ مستوفيةٍ من عَلَفِها حظوظَها وكِفايتَها ، حتى إذا أصلحْتُ أحوالَها ، وفرَغْتُ من قضاء حاجاتٍ نفسى فيها وفى غيرها ، من رفيقٍ وصاحب ، حمَّلتُ أثقالى صابراتِها فى السَّير ، وهى التى لا ترغو ولا تَشكو ، وقد غَلُظَت أعناقُها ، وعادتُها أن تخفَّ فى السَّير وتُسرِع .

والبَتَاتُ : المَتَاع . والبِتَات ، بكسر الباء : جمع البَتِّ ، وهو الكساء . وانعطف « وما تُقضِّى النَّفسُ » على بتات ، يريد : وما تقضِّيه النَّفسُ من مُهمَّاتها .

وقوله « حمَّلْتُ أثقالى » جواب إذا ، والمصمِّمات : الصَّابرات على السَّيرِ الماضياتُ ، وهى لا ترغو .

وغُلْبَ الذَّفارَى ، انتصبَ على البذل من مصمِّماتها .

٧ — فانْصَلَتَتْ تَعْجَبُ لانْصلاتِها

٨ — كأنَّما أعْنــاقُ سامياتِها

٩ — بَيْنَ قَرَوْرَى وَمَرَوْرَياتِها

١٠ — قِسِىُّ نَبْعٍ رُدَّ مِن سِيَاتِها

١١ — كَيفَ تَرَى مَرَّ طُلاحِيَّاتِها

١٢ — وَالْحَمَضِيَّاتُ على عِلَّاتِها[1]

(١) الحمضيات تقال بفتح الميم كما هنا ، وتقال أيضاً بإسكانها كما فى اللسان (حمض ٩ ٠٤) .

١٣ — يَبِتْنَ يَنْقُلْنَ بأَجْهِزَاتِها

١٤ — والْحَادِيَ اللَّاغِبَ من حُدَاتِها

قوله « فانصلتت » أى مضت جادّةً حتَّى تَعجب لمُضِيِّها ، وكأنّ أعناقَ اللَّاتِى تَسمُو بأعيُنِها ، وترفع رءوسَها ، وتمدُّ فى المَسِير أضباعَها ، بين هذه المواضعِ قَرَوْرَى وما حولَها ، من الأرَضِين التى لا نبات فيها ، فى طولِها وتجرُّدها — قسىٌّ نَبْعِيَّةٌ رُدَّ ما عُطِف من أطرافها .

ثم قال : « كيف تَرَى مَرَّ طِلَاحِيَّاتِها » على طريق التعجُّب منها ، والإعجاب بها . وطِلَاحٌ بكسر الحاء : جمع طَلْحَة ، ويقال إبل طِلاحِيَّةٌ ، إذا ألِفَتْ الطَّلْح وأَكَلَتْهُ ، وقياسُه إذا كسَرتَ الطَّاء طِلْحِيَّة ، لأنَّ الجمع يُرَدُّ إلى واحِدِه ، وهو صِفةٌ فى النَّسَب . قال الفرّاء فى طُلَاحِىّ إذا نُسِب إلى الطَّلْح : هو بمنزلة أُذانِيّ و [رُؤاسِيّ ، و(١)] أُنافِيّ ، وإنَّما هذه النسبة تكون للأعضاء ، فشُبِّه طلاحِىٌّ به إذْ كان ملازماً له ، فصار كأنَّه منه . وقال غيره : قيل طُلَاحِىٌّ كما قيل نُبَاطِىٌّ ، وهو منسوب إلى النَّبَط ، وكيفما كان فإنّه لم يجئْ على القياس الأكثرِ ، وما هو الأصل . وقال الكسائىّ : إذا اشتكت الإبلُ بطونَها عن أكل الأراك قيل : إبلٌ أرَاكَى ، وإن كان من الطَّلْح قيل طَلَاحى بفتح الحاء مقصوراً .

وقوله « والحَمَضِيّات » ، أراد ومَرّ الحَمَضِيّات على عِلّاتها ، أى على ما يعترض لها من الأسباب الباعثةِ والمانعة ، والأحوال المهيِّجة والمبطِّئة . وحَرّك الميم من الحَمَضِيات لأنَّ هذا ممّا غُيِّرَ فى النَّسَب(٢) . وقال أبو العبَّاس المبرّد : يقال حَمْضٌ وحَمَض ، وإذا صحّ هذا فقد جاء على وجهه .

وقوله « يَبِتْنَ يَنقُلْنَ بأجهزاتها » أى يَنقُلْن أجهزاتِها ، فزاد الباء تأكيداً ،

(١) التكملة من ل .   (٢) انظر ما سبق فى حواشى الصفحة السابقة .

وهو جَمْع الجمع ، يقال جَهَازٌ وأجهزة وأجْهِزات ، وهى الأمتعة .

وقوله « والحادىَ اللاغبَ » عَطَف الحادىَ على موضع « بأجهزاتها » ، أى ويَنقُلن الحادىَ والمُعْيِىَ لدوام حُدَائها . ويُروى « بالغَضَويَّات » ، وهى التى تَرْعَى الغَضَا . قال :

فما وَجْدُ مِلْيَاعِ الهَوَى غَضَوِيَّةٍ بِلَوْذِ الشَّرَى فى غُلَّةٍ وهُيَامِ

٨٢٤

وقال حَكيم بنُ قَبيصة[1] :

١ — لَعَمْرُ أَبِى بِشْرٍ لَقَدْ خانَهُ بِشْرُ على سَاعَةٍ فيها إلى صَاحِبٍ فَقْرُ

٢ — فَالجنَّةَ الفِرْدَوْسِ هاجَرْتَ تَبْتَغِى ولكنْ دَعَاكَ الخُبْزُ أَحسِبُ والتَّمْرُ

ذكر المدائنىُّ (فى كتاب العَقَقَة[2]) ، أنَّ هذا الشِّعر لحكيم بن ضِرارٍ الضَّبّى ، قاله لابنِهِ وكان غزا وترك أباه . وذكر غيرُه أنَّه حكيم بن قَبيصة ، وأنَّ ابنَه كان فارقَه مهاجراً البَدْوَ إلى الأمصار . يقول : و بقاءِ أبِى بشرٍ — يعنى نفسه — لقد خانَه بشر ، يعنى ابنَه ، فى وقتٍ كان يشتدُّ فقرُه إليه . يشير إلى أوانِ كَبْرَتِهِ وضَعْفِه ، وتعليقِه الرَّجاء بالانتفاع به وتحمُّلِه أعباءَ المُؤَن عنه فى ظَعْنه و إقامته .

فقوله « على ساعة » فى موضع الحال ، وتعلَّق عَلَى بفعل مضمَر ، كأنه قال : مُشْرِفاً على وقتٍ هكذا . وقوله « إلى صاحب » فى موضع النَّصب على الصِّفة المتقدِّمة ، لأنَّ المراد : فيها فقر إلى صاحبٍ ، وصِفَةُ النَّكرة إذا قُدِّمت عليه صارت حالا . على هذا قولُه[3] :

* لِمَيَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ[4] *

(١) التبريزى : « وقال حكيم بن قبيصة بن ضرار لابنه بشر وقد هاجر » .

(٢) جمع عاق ، وهو الذى يعق والديه .

(٣) هو كثير عزة ، كما سبق فى حواشى ١٦٦٤ .

(٤) عجزه : * كأن رسومها الحلل *

وقوله « فما جَنّةَ الفِردوس » جنةَ انتصبَ على أنه مفعول تبتغى ، وتبتغى فى موضع الحال ، والتقدير : ما هاجرتَ مبتغياً جنّةَ الفِردوس . ووجَّه هذا الكلامَ نحو الابن مُعيِّرًا . يريد أنَّ الذى دعاكَ إلى الهجْرة[١] نَهْمَةُ بطنِك ، ورَغبتُك فى أطعمة الحضَر ، لا الدِّينُ وطلَبُ الآخِرة ، إذْ كان ذلك يَفرِضُ عليك طاعةَ أبويك ، وطلبَ رضاهما . وقوله « أحسِب » قد حُذف فيه مفعولاه ، فهو كقول الآخر[٢] :

* تَرَى حُبَّهُم عَارًا عَلَىَّ وتَحْسِبُ[٣] *

وفى الكلام مع التَّعيير تقريعٌ وتهكُّمٌ وسُخْرِىٌّ .

٣ — أقُرْصٌ تُصَلِّى ظَهرَهُ نَبَطيّةٌ بتَنُّورِها حَتَّى يطـيرَ له قِشْرُ
٤ — أحَبُّ إلَيْكَ أمْ لِقَاحٌ كثيرةٌ مُعَطَّفَةٌ فيها الجَلِيـلةُ والبَـكْرُ

هذا الاستفهامُ أتَى به على طريق التَّبْـكيت ، وليُرِيَه الخطأ فيما اختاره من الحضَر على البَدْو ، ومن تَرْك والدِه والعصيانِ له أشدَّ ما كان حاجةً إليه . فقال : أقُرْصٌ تُنضِجه فى التَّنُّور امرأةٌ خبّازة نَبَطية حتَّى يصيرَ له قُرَافةٌ تتقشَّر عنه ، أحبُّ إليكَ أم نُوقٌ حوامِلُ كثيرة قد عُطِفَتْ على أولادها ، وفيها الجُلالة الكبيرة والأفتاء القويّة . يريد أنَّ فِعلَه فِعلُ مَن لا يَفرُق بين هاتين الخصلتين ، ولا يميِّز الرُّجحانَ فى أىِّ جانبيهما يكون فيختاره . ويقال : صَلَيْتُ الشّواءَ ، إذا شويتَه . وأصليتُه وصلَّيته ، إذا ألقيتَه فى النّار . ويقال أيضاً صَلَّى عصاهُ ، إذا أدارَها على النّار ، فهو مثلُ أكرمتِه وكرّمته ، وأفرحته وفرّحته . وفى القرآن : ﴿ إلا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ ﴾ . ويقال : تصلَّيتُ حَرَّ النار واصطليته .

(١) ل : « المهاجرة » .
(٢) هو الكميت بن زيد الأسدى . الهاشميات ٣٨ .
(٣) صدره : * بأى كتاب أم بأية سنة *

٥ — كأنّ أداوَى بالمدينة عُلّقتْ مِلَاءً بأحْقيها إذَا طَلَع الفَجْرُ[1]

٦ — كأنّ قُرَى نَمْلٍ على سَرَوَاتِها يُلَبِّدُها في لَيْلِ سَارِيَةٍ قَطْرُ

استمرّ في وصف اللِّقاح ، لأنّ تفخيمَ أمرِها يزيد في بيان الخطإ فيما اختاره . وشبّهَ ضُروعَها بمَزَادٍ مملوءة . والأحْقِي : جمع حَقْوٍ ، وهو من الإنسان مَعْقِد الإزار من كلّ ناحية ، ومن غيره مما يُحْلَبُ مواضع الضروع . والمعنى أنّها بالغُدُوَات وقد حَفَلَتْ من اللّيل ، كأنّما عُلّقتْ بمواضع ضُروعها أداوَى مملوءة ماء . وانتصب « مِلَاءً » على الحال .

وقوله « كأنّ قُرَى نَمْلٍ عَلَى سَرَوَاتِها » يشبهُهُ قولُ الآخر :

إلى سراةٍ مثلِ بيتِ النَّمْلِ غَنِيَّـــةٍ مِنْ وَبَرٍ وخَمْلِ

والسَّرَوَات : الأعالي . وقَرْيةُ النَّمل ربّما تُرَى كأعظمِ جُثْوَةٍ ، ولذلك شبّهَ ارتفاعَ أسنمتِها وكثرةَ اللّحم والشّحم عليها بها . ومعنى يلبّدُها يصلّبها . والسّارية : السّحابة تسري ليلاً .

٨٢٥

وقال واقدُ بن الغِطْريف[2]

وكان مريضاً فحُمِيَ الماءَ واللّبَنَ :

١ — يَقُولُونَ لا تَشْرَبْ نَسِيئاً فإنّهُ وإنْ كُنْتَ حَرّاناً عَلَيْكَ وَخِيمُ

٢ — لَئِنْ لَبَنُ المِعْزَى بماءِ مُوَيْسِلٍ بَغَانِيَ داءٌ إنّني لَسَــقِيمُ

النَّسِيء : الرَّثيئةُ . والحَرّان : الشّديد العطش . وعليك من صفة وخيم ،

(١) هذا البيت في ل متأخر عن تاليه .

(٢) التبريزي : « واقد بن الغطريف بن طريف بن مالك بن طيء » . ونسب في معجم البلدان (٨ : ٢٠٣) إلى واقد بن الغطريف ، أو زيادة بن بحدل الطريفي الطائي .

وقد قدَّمه فانتصب على الحال. ومُوَيسل : تصغير مَأْسَلٍ الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

* وجارتِها أمِّ الرَّبَاب بمَأسَلِ[1] *

فيما أظنُّ . يريد : قال النَّاسُ وهم يَحْمُوننى الماء واللَّبن : لا تشربْهما وإن اشتدَّ حَمْىُ كَبِدِك ، وغليلُ جوفِك ، فإنَّه يثقُل عليك ، ويزيد فى ألَمِك[2] من العارضِ لك . فقلتُ مجيباً لهم : إن كان اللَّبنُ ممزوجاً بماء هذه العَين يُورِثُنى خبالًا ، ويَكسِبُنى إتخاماً ، وهو غذائى ومِساكُ قوَّتى منذُ كنت ، إنّنى لمتناهى السُّقْم والله . فأطلَق لفظة سقيم ، والمراد المبالغة ، وفَعِيل من أبنيتها .

ومثل هذا ممَّا رُمى به هذا المَرمَى قَوْلُ الآخر[3] ، وقد مرَّ فى باب النَّسيب :

لَئِن كان يُهْدَى بَرْدُ أنيابِها العُلَى لأَفْقَرُ منِّى إننى لَفقيرُ

فهذا بإزاء ذاك ، وهو على منهاجه . ومعنى « بَغانى داء » كَسبنى وأنزَلَ بى . وقوله « بماء مُوَيسلٍ » ، الباء أفادَ الجمع والاختلاط . ويقولون : خُذْ كذا بكذا[4] ، والمعنى مجرعاً إليه ومخلوطاً به .

٨٢٦

وقال حُنْدُج بن حندج[5] :

١ — فى لَيلِ صُولٍ تَناهَى العَرضُ والطُّولُ كأنَّما ليلُهُ باللَيلِ مَوْصولُ[6]

٢ — لافارقَ الصُّبحُ كَفِّى إنْ ظفِرْتُ بِهِ وإنْ بَدَتْ غُرَّةٌ منه وتَحْجِيلُ

(١) صدره : * كدأبك من أم الحويرث قبلها *
(٢) ل : « تألمك » .
(٣) هو عبد الله بن الدمينة ، كما سبق فى حواشى ١٣٠٥ .
(٤) فى النسختين : « كذا وبكذا » ، صوابه عند التبريزى .
(٥) التبريزى : « حندج بن حندج المرى . الحندج : الـكثيب أصغر من النقا » .
(٦) الأبيات أنشدها ياقوت فى رسم (صول) .

٣ — لساهرٍ طالَ فى صُولٍ تَمَلْمُلُهُ كأنَّهُ حَيَّةٌ بالسَّوْطِ مَقْتُولُ

جعل اللَّيلَ كالمُجَسَّمات حتَّى صار ذا طُول وعَرْض عنده . وقال : « تناهى العَرض والطُّولُ » لأنه قد عَلِم أنَّهما لِلَّيل ، كما أنَّك تقول : زيد حسَنُ الوجهِ ، لأنَّه عُلِم أنَّه لم يُرَدْ إلّا وجهه . والمعنى أنّ فى ليلِ هذا المكان بلغ الطول والعَرْض نهايتهما وغايتهما ، حتى وقفا لا مستزاد فيهما ، فكأنَّما ليلُ صولٍ[1] موصولٌ بجنسِهِ كلِّه ، فليس ينقطِعُ ولا ينكشف .

وقد قال أبو تمامٍ الطائىُّ مستطيلًا ليوم :

* بيومٍ كطُولِ الدَّهْرِ فى عَرْض مثلِهِ[2] *

ومن كلام الناس : عِشْنا زمَناً طويلا عريضاً ، والدَّهرَ الطَّويلَ العريضَ . وكلُّ ذلك تشبيهٌ بالأجسام . وعلى ما فسَّرناه يتعلَّق الجارّ من قوله : فى ليل صُولٍ بتَنَاهَى[3] . وقد استُعمِل العَرض منفرداً عن الطُّول والمراد به السعة ؛ على ذلك قولُه تعالى : ﴿ فَذُو دُعاء عَرِيض ﴾ ، وقولُه عزّ وجلّ : ﴿ وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوَاتُ والارْضُ ﴾ .

وقوله : « لا فارق الصُّبح كَفِّى » ، يجوز أن يكون دعاءً ، يريد : إنْ ظفِرتُ بالصُّبح فلا فرّق الله بينى وبينه ، كما يقال : لا بارك الله فى الكُفّار ، ويجوز أن يكون إخبارًا . والمعنى أنّه يتشبَّث به فلا يُخلِّيه للزَّوال . وهذا على التَّشوُّق له والتَّبرُّم بليلِه . واللَّيل فى الاستعمال بإزاء النهار على الإطلاق ، والليلة بإزاء اليوم . وهذا يدلُّ على أنه لم يَقْصِد إلى ليلةٍ واحدة ، وإنما أراد : اللَّيلُ فى صُولٍ هكذا علَىَّ .

وقوله « إنْ بَدَتْ غُرَّةٌ منه وتحجيل » ، يريد تباشيرَه ممتزجةً بالظلام .

(١) صول ، قال ياقوت : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب .

(٢) صدر بيت له فى ديوانه ٢٤٤ . وعجزه : * ووجدى من هذا وهذاك أطول *

(٣) فى الأصل : « يتعلق الجار من صول تناهى » ، صوابه من ل .

كأنّه جَرَى على عادة النّاس فى قولهم للمتشوّف المتوقّع : إن ظفِرتُ بزيدٍ أو رأيتُ وجهَه فعلتُ كذا ، والمراد إظهار الفاقةِ إليه وشدّةِ التشوُّف له ، وطولِ الملازمة له إذا ظَفِر به . والغُرّةُ والتّحجيل معروفان . وقد قيل : صُبْحٌ أَفْرَحُ ، مأخوذ من القُرحة ، لأنه بياضٌ فى سواد . وقوله : « لساهر » ، اللام تعلّق بقوله « وإنْ بَدَتْ » . ويعنى بالساهر نفسه ، كما أراد بذكر الغُرّة والتّحجيل نَفْسَ الصبح . والتّململ : القلق والانزعاج . وإنما تَقَلْقَلَ على فِراشه لأَرَقِه واستطالته لِلَّيل ، ثمّ شبّه نفسه فى التوائه واضطرابه بحيّةٍ قُتِل بالسَّوْطِ فطال اضطرابُه لطول ذَمائه .

٤ — مَتَى أرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُه ... واللَّيلُ قد مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرابيلُ

٥ — لَيْلٌ تَحَيَّرَ ما يَنْحَطُّ فى جِهَةٍ ... كأنَّه فَوقَ مَتْنِ الأرضِ مَشْكُولُ

٦ — نُجُومُه رُكَّدٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ ... كأنّما هُنَّ فى الجَوِّ القَنادِيلُ

قوله « متَى أرى الصُّبحَ » لفظه استفهام ومعناه التّمنّى والتّطلّع ، واستبعاد المنتظَر المترقَّب . ومَخايِلُه : ما يَتَبيَّن به دُنُوّه . كأنّه[1] أظهرَ ما عليه النّفسُ مِن ضَجَرِه بالّليل واستراحته للصُّبح . ولك أن تروى « واللّيلَ » بالنّصب ، ويكون مردوداً على الصُّبح وداخلًا تحت متَى أرى . ولك أن تروى « واللّيلُ » بالرفع ويكون الواو للحال ، ويرتفع اللّيل بالابتداء . و « قد مُزِّقت » فى موضع الخبر ، ويعنِى بالسّرابيل الظّلام .

ثمّ جعَلَ اللّيلَ لامتِداده واتّصال دوامِه كالمتحيِّر الواقفِ كواكبُه عن المَسِير ، القائِم على حَذَرٍ لا يزول عنه [ولا يَحُول[2]] ، ولا يجنَح ولا يَميل .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كما أنه » .
(٢) التكملة من ل .

والمَشكول : المقيَّدُ . وهذا المعنى هو الذى يَؤُمُّه امرؤ القيس فى قوله :

كأنَّ الثُّريّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِهَا ... بأمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

وشبَّه النجوم فى إضاءتها بالقناديل ، وإنَّما يعلو ضوء الكواكب ويَزْهَر عند تراكم الظَّلام واستحكامه . والرُّكَّدُ : جمع الرّاكد . وجعَلَ الكواكبَ فى الجوِّ لأنَّه توهَّمها كالقناديل المعلَّقة .

٧ — ما أقْدَرَ اللهَ أنْ يُدْنِيَ عَلَى شَحَطٍ ... مَنْ دَارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دَارُه صُولُ

٨ — اللهُ يَطْوِى بَسَاطَ الأرْضِ بَيْنَهُمَا ... حَتَّى يُرَى الرَّبْعُ مِنْه وهو مَأْهُولُ

قوله « ما أقدر الله » لفظُه تعجُّبٌ ومعناه الطَّلبُ والتَّمنِّى . وكان الواجبُ أن يقول : ما أقدرَ اللهَ على أن يُدْنىَ ، فحذَف الجار ، ومثل هذا الحذفِ يكثُر مع أنْ لطولِهِ بصِلَتِه . والشَّحْطُ : البُعْد ، شَحَط شَحطاً وشُحُوطا . قال :

* والشَّحْطُ قَطَّاعٌ رَجاءَ مَنْ رَجَا[1] *

لكنّه حرَّكَ الحاء . ويقال : منزلٌ شاحط وشحيط . وموضعُ « على شَحَطٍ » نصبٌ على الحال .

وقوله « اللهُ يَطوِى بَسَاطَ الأرض بينهما » البَسَاط : الأرض الواسعة . وجعلَ الكلامَ لما يتمنَّاه ، ويَطلُب قُرْبه ويتشهّاه ، على أنَّه إخبارٌ عن الشّىء وقد وقَع . وكلُّ ذلك تحقيقٌ لما يؤمِّله ويَسأله . وهذا كما يُجعَل الدُّعاء على لفظ الخبر ، كأنّه لقُوّة الأملِ يجعل المطلوبَ فى حُكمِ ما قد حَصَل . وقوله « حتَّى يُرَى الرَّبع منه » ، يعنى الرَّبع بالحَزْن ممَّن هو مقيمٌ بِصُولٍ .

---

(١) العجاج فى ديوانه ٨ . وقبله :

منازلا هيجن من تهيجا ... من آل ليلى قد عفون حججا

٨٢٧

وقال حُمَيْدٌ الأَرْقَط[1] :

١ — قَدْ أَغتَدِى والصُّبحُ مُحْمَرُّ الطُّرَرْ

٢ — واللَّيلُ يَحدُوهُ تَباشِيرُ السَّحَرْ

٣ — وفِى توَالِيــهِ نُجومٌ كالشَّرَرْ

٤ — بِسُحُقِ المَيْعَةِ مَيَّــالِ العُذَرْ

الطُّرر : جمع الطُّرَّة ، وهى النَّاحية والحرف ، ومنه أطرار الوادى . وفى المثل : « أطِرِّى فإنَّك ناعلة » ، أى اركبى أطرارَ الطَّريق . والبغداديُّون يروونه : « أظِرِّى » بالظاء معجمةً ، والمعنى اركبى الظُّرر ، وهى حجارةٌ محدَّدة يصعب المشىُ عليها . فيقول : أبتكرُ — والصبح محمرُّ الأرجاء والنَّواحى ، واللَّيلُ قد تجلَّى بما يَطرُده مقدِّماتُ السَّحَر وعلاماتُه ، وفى مآخِيرِه ومَدارسِ آثارِه من الظَّلام نُجومٌ تتوقَّدُ كأنَّها شَرَر النَّار — بفَرسٍ[2] بعيدِ غَورِ النَّشاط ، يضطرب عُذَرُه على خَدَّيهِ وجَبهته . والمَيْعة : النَّشاطِ . وجعَلَه سُحُقاً لاتِّصاله ودَوامِه . والسُّحُق : البُعْد . ونَخلةٌ سَحُوقٌ ، منه ، أى طويلةٌ . والعُذَر : الخُصَل من الشَّعَر . والعُذَر أيضاً : علامةٌ تُعقَد فى ناصية الفَرَس السَّابق من المِهَن ، والواحدة

(١) شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية كان معاصرا الحجاج . وهو حميد بن مالك بن ربعى بن مخاشن ، ينتهى نسبه إلى زيد مناة بن تميم . وسمى الأرقط لآثار كانت بوجهه . الخزانة (٢ : ٤٥٤) . وكان أحد بخلاء العرب الأربعة ، وهم الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان . الأغانى (٢ : ٤٤) .

(٢) أى أبتكر بفرس . وقد سبق فى ص ١٧ من التقديم الإشارة إلى طول الجمل التى يفصل بها المرزوقى بين أثناء الكلام .

عُذْرَةٌ . وقال الخليل : المَيْعَةُ : مَيْعَـةُ الشَّباب والحُضْر[١] أوّلها . وروى الشُّكْرِيّ : « بمُشْعَلِ المَيْعَةِ » وهو من إشعال النّار والقصب[٢] .

٥ — كأنّه يَوْمَ الرِّهانِ المُحْتَضَرْ

٦ — وقَدْ بَدَا أوَّلَ شَخْصٍ يُنْتَظَرْ

٧ — دُونَ أثابِيَّ من الخَيْلِ زُمَرْ

٨ — ضَارٍ غَدَا يَنْفُضُ صِئْبانَ المَطَرْ

قوله « كأنّه يومَ الرِّهان » ، يريد : كأنّ هذا الفرسَ يومَ السِّباق وقد حَضَره النّاسُ فصار يوماً مشهوداً . والمحتضَر : الذى يَحْضُره النّاس . ويروى « يومَ الرِّهان المُبْتَدَر » . والأثابِيُّ : الجماعات ، وليس لها واحد ، وقيل واحدها أُثْبِيَّة ، أفعولة من الثُّبة ، وهى الجماعةُ الكثيرة ؛ ومنه ثَبَّيْتُ الثّناء ، إذا أكثرتَه . والمعنى : كأنّه وقد جاء فى هذا اليومِ سابقاً وأوّلَ طالعٍ يُنتَظَر دُونَ جماعاتٍ من الخيل [جاءت[٣]] زُمرةً بعد زُمرة ، صقرٌ قد ضَرِيَ بالصّيد ، ابتَكَر وقد مُطِرَ اللَّيل ، فهو يَنْفُض صِغارَ القَطْر وكِبارَه عَنْ رِيشِه ، وهو شديد الإلحاح فى طلَب الصّيد بعد[٤] الانقضاضِ عليه[٥] .

(١) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه . فى الأصل : « والخضرة » صوابه فى ل . وفى اللسان : « وميعة الحضر والشباب والسكر والنهار وجرى الفرس : أوله وأنشطه » .

(٢) ل : « والغضب » .

(٣) التكملة من ل .

(٤) ل : « بعيد » مع ضبط الباء بالفتح .

(٥) وصئبان ، قال التبريزى : « قال أبو العلاء : إذا روى بكسر الصاد فهو جمع صائب مثل حائط وحيطان . ويجوز أن يكون مصدراً مثل حرمان . وإذا قيل صيبان بالفتح فالمراد به ما صاب من المطر . وليس يمتنع ظهور الياء فيه لقولهم صاب يصوب ، لأن له نظائر ، منها ريحان من الروح ، وعيدان للنخل الطوال من العود . وقال غيره : شبه ما عليه من الرذاذ بالصئبان ، وهو جمع صؤاب » .

٩ — عَنْ زِفٍّ مِلْحَاحٍ بَعِيدِ الْمُنْكَدَرْ

١٠ — أَقْنَى يَظَلُّ طَيْرُهُ على حَذَرْ

١١ — يَلُذْنَ مِنْهُ تحتَ أفنانِ الشَّجَرْ

١٢ — مِنْ صَادِقِ الوَقْعِ طَرُوحٍ بالبَصَرْ[1]

١٣ — بَعِيدِ تَوْهِيمِ الوِقاعِ والنَّظَرْ

١٤ — كأنَّما عَيناهُ فى حَرْفَىْ حَجَرْ

١٥ — بَيْنَ مَآقٍ لم تُخَرَّقْ بالإبَرْ

قال الدُّرَيدىّ : الزِّفُّ صِغار الرِّيش كالزَّغَب ، وقال قومٌ : لا يكون الزِّفُّ إلاَّ للنَّعام إلاَّ على وجه التَّشبيه . والمِلحاح : بناء المبالَغة من ألَحَّ . أى يُلِحُّ فى الصَّيد على نَفْسه . ويجوز أن يكون من لَحَتْ عينُه ولَحِحَتْ ؛ إذا التصقَتْ أجفانها بالرَّمَص ، كأنَّه يلتصِق بالصَّيد التصاقاً شديداً . ومن هذا قولهم : هو ابنُ عمِّى لَحًا ، أى لاصقُ النَّسبِ . وقوله « بعيد المنكَدَر » يقال : انكَدَرَ ، وانصَلَتَ ، وخاتَ ، وانقضَّ بمعنًى . وهذا كما قال الآخر[2] :

ضارٍ يُضَرِّى بِطَرِىِّ اللَّحْمِ أَكْدَرُ كالجُلْمُودِ يَوْمَ الرَّجْمِ

إذا تَقَضَّى من أعالِى النَّجْمِ[3] ضَمَّ جناحَيهِ انخراطَ السَّهْمِ

وقوله « أَقْنَى » القَنَا يُستَحبُّ فى الصُّقورة والشَّواهين ، وكذلك طولُ المَنْسِر ، وقِصَر الذَّنَب ، وغُؤور العينَين ، وبُعْدُ ما بين المَنْكِبين . وقال « تَظَلُّ طيرُه على حَذَرْ » ، أراد ما عَرَفَهُ من الطَّير أو رآه ، فلذلك أضافَ إليه . والمعنى

(١) التبريزى : « من صادق الودق » .

(٢) هو رؤبة . ديوانه ١٤١ .

(٣) فى الديوان : « النجم » .

يخافُه فيحذَره ، ويَلُوذ منه بغصون الأشجار فيستخفى فيه ، وهو صادق الوَقْع ، أى لا يكذب فيه ، بعيدُ المطلبِ والنَّظَرِ ، شديدُ المواقَعة والبَغْت . ويقال طَرْفٌ مِطرحٌ ، أى بعيدُ النَّظَر ، ورُمْحٌ مِطْرَحٌ ، أى طويل ، وفَحْلٌ مِطْرحٌ : بعيد موقِع الماء فى الرّحم .

ومثل قوله « يَلُذْنَ منه تحتَ أفنان الشجر » قولُ الآخر :

رأى أرنباً سَنَحتْ بالفضاء فبَادَرَها ولَجَاتِ الخَمَر[1]

وقوله « كأنّما عيناه فى حَرْفَىْ حَجَرْ » ، أى فى جانبَىْ حجرٍ ، يعنى رأسَه ، ونفسَه بين مآقٍ لم تَخَطْ ، أى لم يُصْطَد فكان فى التَّعليم تُخاط عيناه . والمآقى جمع مُؤْقٍ مثل مُغْقٍ ، و بعد القاف ياء زائدة ، فهو من الفعل فُعْلُوٌ ، نُقِلت إلى فُعْل[2] . وفى هذه اللَّفظة لغاتٌ كثيرة ، وقد عمِلتها مسألةً وشرحتُها .

تم الباب[3] بحَمْد الله ومَنّه[4] وحُسن توفيقِه وعَوْنه ، والصّلاة على خيرته من خلقه محمد وآله من بعده

---

(١) سبق عجزه فى ص ١٠٣ .

(٢) توضيحه ما ذكر فى اللسان أن أصله « مُؤْقُوٌ » بزيادة الواو للإلحاق كعنصوة ، لا أنها قلبت كما قلبت فى أدل » . وأدل : جمع دلو .

(٣) ل : « باب السير والنعاس » .

(٤) إلى هنا تنتهى خاتمة هذا الباب فى ل .

بَابُ المِلْحِ

بابُ المُلَح

٨٢٨

لبعضهم[١] :

١ — يقولُ لِيَ الأميرُ بغَيْرِ نُصْحٍ   تقَدَّمْ حِينَ جَدَّ بنا المِرَاسُ[٢]

٢ — ومالِي إن أطَعْتُكَ مِنْ حَياةٍ   ومالِي بَعْدَ هـذا الرَّاسِ رَاسُ[٣]

ذكر أبو العبّاس المبرّد[٤] أنّ المُهلّب بن أبي صُفْرَةَ قال يوماً وقد حَمِيَتْ نائرة الحَرْب بينه وبين الخوارج ، لأبي عَلقمةَ اليَحْمَدِيّ[٥] : أمدِدنا بخيلِ اليحمَد[٦] وقل لهم : أعيرُونا جَماجِمَكم ساعةً . فقال : أيُّها الأمير ، إنّ جماجِمَهم ليست بفَخّار فتُعار ، وأعناقَهم ليست بكُرّاثٍ فتَنْبُت[٦] . وقال لحبيب[٧] كُرَّ عَلَى القوم !! فقال : « يقولُ لي الأميرُ بغير نُصْحٍ » .

وقوله « جَدَّ بنا المِرَاس » أي اشتدَّ . والمِرَاس : المجاذَبة والمُدافَعة .

---

(١) التبريزي : « بغير جرم » . الكامل : « بغير علم . . . به المراس » .

(٢) هو حبيب بن أوس كما في الكامل . وعند التبريزي أنه حبيب بن المهلب . وفي حبيب هذا يقول زياد الأعجم :

رماها حبيب بن المهلب رمية   فأثبتها بالسهم والسهم يغرب

الأغاني (١٤ : ١٠٠) . وقال التبريزي أيضاً : وقيل البيتان للأعور الشني قالهما للمهلب بن أبي صفرة .

(٣) في الكامل : « العبدي » .

(٤) هم بطن من الأزد من القحطانية .

(٥) الكامل : « وليست أعناقهم كرادى فتنبت » . قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعذاق النخل كراد . وهو فارسي أعرب » .

(٦) الكامل : « لحبيب بن أوس » .

٨٢٩

وقالت امرأة :

١ — فَقَدْتُ الشُّيوخَ وأَشياعَهُمْ ... وذَلِكَ مِنْ بَعْضِ أقوالِيَهْ

٢ — تَرَى زَوْجَةَ الشَّيخِ مغمومةً ... وتُمْسِى لصُحْبَتِهِ قَالِيَهْ

٣ — فلا بَارَكَ اللهُ فى عَرْدِهِ ... ولا فى غُضُون اسْتِهِ البالِيَهْ

٤ — وإنَّ دِمَشْق وفِتْيانَها ... أحبُّ إلينا من الجالِيَهْ[1]

٥ — نَكَحْتُ المدينيَّ إذْ جاءنى ... فيالَكِ من نَكْحَةٍ غالِيَهْ

٦ — لَهُ ذَفَرٌ كَصُنَانِ التُّيوس ... أعيَا على المِسْكِ والغَالِيَهْ

الكلامُ دعاء على الشُّيوخ وإظهارُ القِلَى لصُحبتهم والسُّكونِ معهم . وأرادت بالأشياع مَنْ يرضى مُناكَحتَهم ، أو يتعصَّبُ لهم ، أو يَهْوَى هَوَاهم . وقولها « وذلك من بعض أقواليه » إيذانٌ منها بأنّ لها فى الشُّيوخ وذَمِّهم طرائقَ من القول ، وألوانًا من الوَصف . وما أظهرَتْه جزءٌ من تلك الجملة . والعَرْدُ : القَرْج . وقال الخليل : هو الشَّديد المنتصب من كلِّ شيء ، ومنه وَتَرٌ عُرُدٌّ .

وقولها : « تَرَى زوجةَ الشَّيخ مغمومةً » بيانٌ للعِلّة فى الدُّعاء والذَّمِّ . والغُضون : جمع غَضَنٍ ، وهو تكسُّر الجِلد وتثنِّى فُضوله على الشَّيخ لبِلَاه .

وقولها « وإنَّ دِمَشْقَ » ، كانَ هواها ثَمَّ . وكان يجب أن تقول : أحبُّ إلينا من الجاليةِ وفِتْيانها ، فاكتفَتْ بما ذكرتْ ، إذْ كان مرادُها مفهومًا .

(١) إلينا ، فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « إلى » .

وقولها « يا لكِ من نَـكْهة غالية » لفظها لفظُ النِّداء ، والمعنى التعجُّب .
وإنّما قالت من نَـكْهة غالية ، لتبيِّن أنّها مكروهة كما يُكرَه ما يُشترى بغلاء .
والذَّفَر : شِدّة النَّتْن هنا ، ويكون الطِّيبَ أيضاً . والدَّفَر ، بالدال غير معجمة ،
لا يكون إلّا للنَّتْن . والصُّنان : ريح الإبط ، ومنه الصَّنُّ : بَول الوَبْر[1] .
قال جرير :

* بِصِنِّ الوَبْرِ تَحْسِبُهُ المَلَابَا[2] *

وقولها : « أعْيَا على المسك » موضعُه من الإعراب نصبٌ على الحال
للمضمَر في أعيا . ومفعول أعيا محذوفٌ ، أى أعجز ذلك الذَّفَر ما يُستعمل
من الطِّيب .

٨٣٠

وقال آخر :

١ — مِنْ أَيْنَا تَضْحَكُ ذاتُ الحِجْلَيْنِ

٢ — أَبْدَلَهـــا اللهُ بِلَوْنٍ لَوْنَيْنِ

٣ — سَوَادَ وَجْـــهٍ وَبَيَاضَ عَيْنَيْنِ

الحِجْل : الخلخال . وفى الكلام هزؤٌ وإزراء ، ثمّ دَعا عليها بأنْ يغيِّر
الله لونَها ويبدِّلها منه لونَين . وقال بعضُهم « بلونٍ لونَين » هو كقولك بُدِّلَتْ
بالشَّبابِ هَرَمًا وضَعْفاً ، وبالعِزّ خضوعاً وقِلَّةَ ناصر . وشرحُ هذا أنه جعلَ

(١) الوبر ، بسكون الباء : دويبة على قدر السنور . انظر الحيوان (٦ : ٣٤٩ ، ٣٦٩) .
(٢) صدره فى ديوان جرير ٧٣ :

* تطلى وهى سيئة المعرى *

اللونَ منتظِماً للألوان ، ثمّ أبدَلَ منها السوادَ والبياض . ويجوز أن يريد بقوله « بلون » لونَها المعروف ، أى أبدلَها مما خُلِقت عليه من لونٍ لونَين آخرَين ، ثمّ فسَّرها .

٨٣١

آخر[١] :

١ — أعوذُ باللهِ من ليلٍ يقرِّبُنى إلى مُضاجعةٍ كالدَّلْكِ بالمَسَدِ

٢ — لقد لَمَستُ مُعَرَّاها فما وقَعتْ ممّا لمَستُ يدِى إلاّ على وَتِدِ

٣ — فى كلِّ عُضْوٍ لها قَرْنٌ تَصُكُّ به جَنْبَ الضَّجيعِ فيُضْحِى وَاهِىَ الجسَدِ

الدَّلْك : الغَمْز والفَرْك . يقال : دَلَكتَ السُّنْبُل فانفرَكَ قِشرُه عن حَبِّه . والمَسَد : الحَبْل ، وأصله من الفَتْل . ويقال : مَسدت الحبل مَسْدًا ، والحبل ممسود ومَسَدٌ ، كما يُقال نفضت الشىء نفْضًا ، والشىء منفوضٌ ونفَض . قال :

* ومَسَدٍ أُمِرَّ من أيانقِ[٢] *

أى حبل فُتِل من جلود النُّوق . فأما قوله تعالى : ﴿ فى جِيدِها حَبْلٌ مِن مَسَدٍ ﴾ . فقيل : المَسَدُ : لِيفُ المُقْل . ولا يمتنع أن يكون اللِّيف مَسَدًا بما يَؤُول إليه من الفَتْل عند اتّخاذ الحبل ، ثم استمرّ الاستعمال به فقيل له المَسَدُ وإن لم يُمْسَد .

---

(١) التبريزى : « وقال أبو الخندق الأسدى . وقيل إنه لدعبل » .

(٢) لعمارة بن طارق ، وقيل لعقبة الهجيمى . وقبله :

* فاعجل بغرب مثل غرب طارق *

انظر اللسان (مسد) .

وقوله « لقد لمَسْتُ مُعَرَّاها » يريدُ مَسَحْتُ ظاهرَ بدنِها فما وقَعَتْ يدِي مما مَسَحْتُهُ عَنْها إلَّا على الأوتاد . يَصِفُها بالهُزال وتعرِّى العِظام من اللَّحم ، حتَّى صار لها حُجُومٌ فأشبهَت الأوتاد . وقوله « فى كلِّ عُضو لها قَرْنٌ » العِضْو والعُضْو لغتان ، والمراد بالقَرن نُتُوُّ عِظامِها . والصَّكُّ : الدفع . يقال : صَكَّهُ ، إذا ضربَه بحجرٍ أو غيرِه . وصَكَّ البازى صَيْدَهُ ، إذا ضَرَبَهُ بكفِّه يَحُطُّه ، قال :

إذا اجتَمعُوا عَلَيَّ فَخَلِّ عنِّى   وعَنْ بَازٍ يَصُكُّ حُبَارَيَاتِ

٨٣٢

آخر[1] :

١ — وإذا مَرَرْتَ بهِ مَرَرْتَ بِقَانِصٍ   مُتَشَمِّسٍ فى شَرْقَةٍ مَقْرُورِ

٢ — لِلقَمْلِ حَوْلَ أَبِى العَلاءِ مَصَارِعٌ   مِنْ بَيْنِ مَقْتُولٍ وَبَيْنِ عَقِيرِ

٣ — وكأنهنَّ لَدَى دُرُوزِ قَمِيصِه   فَذٌّ وتَوْءَمُ سِمْسِمٍ مَقْشُورِ

٤ — ضَرِجِ الأناملِ مِنْ دِمَاءِ قَتِيلِهَا   حَنِقٍ على أُخْرَى العَدُوِّ مُغِيرِ

تَشَمَّسَ : جلَس فى الشَّمس . ويقال شَمَسَ يَوْمُنا وأَشْمَسَ ، إذا اشتدَّت شمسُه . والشُّرْقَةُ والمَشْرُقَةُ بمعنًى ، وهما المكان الذى يُتَشرَّق فيه . والفَذُّ الفَرْدُ . والتَّوْءَم : اثنان . وقد بسَطْنا القولَ فيه فى شرح الفصيح .

ويقال ضَرَّجْتُ الثَّوْبَ ، إذا صَبَغْتَهُ بالحُمْرَةِ خاصّة ، فَضَرِجَ وانْضَرَجَ . ومنه قيل تَضَرَّجَ الخَدُّ عِنْدَ الخَجَلِ ، إذا احْمَرَّ . والحَنِقُ : المغتاظ الشَّديد الغيظ .

---

(١) فى الحيوان (٥ : ٣٧٨) : « وقال بعض العقيليين ومر بأبى العلاء العقيلى وهو يتفلى » . وكذا فى نهاية الأرب (١٠ : ١٧٧) . وانظر محاضرات الراغب (٢ : ١٣٣) .

٨٣٣

آخر[(١)] :

١ — خَبَّرُوهَا بأنَّنِى قَدْ تزوَّجْـ تُ فَظَلَّتْ تُكَاتِمُ الغَيْظَ سِرَّا

٢ — ثم قالتْ لأُخْتِها ولأُخرَى جَزَعًا لَيْتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرَا

٣ — وأشارَتْ إلَى نِسَاءٍ لَدَيْهَا ما تَرَى دُونَهُنَّ للسِّرِّ سِتْرَا

٤ — ما لِقَلْبِي كأنَّه لَيْسَ مِنِّي وعِظَامِي أخَالُ فيهنَّ فَتْرَا[(٢)]

يقال : خَبَّرْتُه كذا وبكذا . والكَتْمُ : نَقِيضُ الإعلانِ . ويقالُ : كاتَمْتَ ، إذا كان الكتمانُ من اثنين . وقد حذَف المفعول الأوّل من تُكاتِمُ . ويجوز أن يكون تُكاتِم بمعنى تَكتُمُ ، فلا يكون من اثنين ، ولكن كما يقال : قاتَلَه الله . والكَتُوم فى النَّاقة : التى لا تَرْغُو ، وفى القَوس التى لا شَقَّ فى نَبعِها . و « سِرًّا » يجوز أن يكون مصدرًا من غير لفظه ، لأنَّ تُكاتِمُ بمعنى تَسْتُر ، ويكون كقوله :

* ورُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إذْلاَلِ[(٣)] *

ويجوز أن يكون مصدراً فى موضع الحال . وجَزَعًا انتصبَ على أنه مفعول له . وموضع قوله « لَيْتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرا » نصْبٌ على أنه مفعول ثالث ، وقوله « للسرّ سِتْرَا » ، يجوز أن يُرْوَى « سَتْرًا » بفتح السين ، فيكون مصدر سَتَرْتُ ،

(١) التبريزى : « هو لبعض الحجازيين » . وهو عمر بن أبى ربيعة . ديوانه ٣٨٤ بتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) التبريزى : « كأن فيهن فترا » . وروى التبريزى بعده :

من حديثٍ نمى إلىَّ فظيعٍ خِلْتُ فى القلب من تلظّيه جمرا

(٣) لامرئ القيس فى ديوانه ٥٩ . وصدره :

* وصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامنا *

ويجوز أن يُرْوَى «سِتْرًا» بكسر السين فيكون واحِدَ السُّتُور، والمعنى فى الوجهين ظاهر. وقوله «فيهنّ فَتْرًا»، يقال: فَتَرَ الإنسانُ، إذا لانَتْ مَفاصلُه وضَعُفت فَتْرًا وفُتُورًا، وإخَالُ كَسْرُ الهمزِ منه لغة هُذَيْلٍ، ثم فَشَتْ فى غيرها.

٨٣٤

آخر:

١— جَزَى اللهُ عَنَّا ذَاتَ بَعْلٍ تَصَدَّقَتْ ... عَلَى عَزَبٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَهْلُ

٢— فإنَّا سَنَجْزِيها بما فَعَلَتْ بِنَا ... إذا مَا تَزَوَّجْنَا ولَيْسَ لَهَا بَعْلُ

٣— أَفِيضُوا عَلَى عُزَّابِكُمْ بِنِسَائِكم ... فَمَا فى كِتَابِ اللهِ أن يُحْرَمَ الفَضْلُ

روى محمّدُ بنُ حَبيب أنّ هذا الشَّاعرَ صَعِدَ إلى مِئذنةٍ وَسْطَ الحيّ وأنشد هذه الأبيات، فاجتمعَ عليه غَيَارَى الحيِّ وفُتَّاكه فقتلُوه.

وقوله «عُزَّابِكم»، هو جمع العازِبِ، وقَصْدُه إلى جَمْع العَزَبِ، وهو الأعزابُ، لكنّه تَصوَّرَ بُعْدَهُما عن الأهل وتساوِيَهما فيه، فجعل العَزَبَ والعازِبَ بمعنًى واحدٍ، ثمّ استعار بِناءَ جَمْعِ العازب للعَزَب. وهذا كما قيل نَمِرٌ ونُمْرٌ، لأنّه لما تُصُوِّر أنه أَنْمَرُ فى لونِه جَمَعُوه جَمْعَ أنْمَر، فأجرَوْهُ مجرى أَحْمَرَ وحُمْرٍ.

وقوله «أفيضوا على عُزَّابكم بنسائكم» توهَّمَ فى أَفِيضُوا معنى تصدَّقوا، فعدَّاه تعديتَه، فلذلك زاد الباء فى «بنسائكم». ويجوز أن يكون من قولهم أفاض الإناء بمائه علينا، ويكون التّقدير: أفيضوا العطاء بنسائكم. وقوله «فما فى كِتاب الله» يجوز أن يريد بالكِتاب المصدر، والمعنى فيما كَتَبَه وفرَضَه. ويجوز أن يُريد به القرآن.

٨٣٥

آخر :

١ — أَنْشُدُ باللهِ وبالدَّلوِ الخَلَقْ

٢ — يا رَبِّ مَنْ أَحَسَّها بِمَّن صَدَقْ

٣ — فَهَبْ له بَيْضاءَ بَلْهاءَ الخُلُقْ

٤ — ومَنْ نَوَى كِتْمانَ دَلْوِى فاحْتَرقْ

٥ — فابعَثْ عليه عَلَقاً من العَلَقْ

أنشُد بالله ، أى مستعيناً بالله أو مذكِّراً بالله . وقوله : « وبالدَّلو الخلق » ، يريد و بسبب الدلو نشْدَانى وطلَبِى . ففصَل بين دخول الباءين .

وقوله « مَنْ أَحسَّها » أى من رآها وأدركَها بعلمِه ، ثمَّ صدَّقنى عند السُّؤال عنها . فقوله « بمن صَدَق » يجوز أن يكون « مِن » نكرةً ، والمراد من إنسان يَصْدُق أو عادتُه الصِّدق . ويجوز أن يكون « مِنْ » معرفة ، والمراد مِن الذين يَصْدُقون فى المقال .

وقوله « فهب له بيضاء بَلْهاء » دعاء له بأن يملِّكه اللهُ تعالى امرأةً كريمةً مستقيمة الطريقة ، سليمةَ الصَّدر ، لا غائل لها ولا غُلولَ لديها .

ومثل هذا قولُ الآخَر[1] :

* بَلْهاءَ لم تَحْفَظْ ولم تُضَيِّعِ *

وقوله « ومَنْ نَوَى كِتمانَ دَلوِى فاحترَقْ » يريد فأحرقَه اللهُ ولا تَهنَّأَ بعَيش . والعَلَق : دوَيبَّة حمراء تكونُ فى الماء وتأخذ بالحَلْق. ويجوز أن يكون العلَقُ مصدرَ عَلِقَتْ به العَلُوق الدَّاهية . وسُمِّى الأذَى نفسُه العَلَق، واسم الحدَثِ

(١) هو أبو النجم العجلى كما فى مقاييس اللغة (عجز) وشروح سقط الزند ٩٢٩ . وقبله :
* من كل عجزاء سقوط البرقع *

قد يُجعل صفةً للفاعل ، ويكون على هذا عَلَقاً يتناول واحداً من الجنْس . والعَلَقُ يتناوَلُ الجنسَ كلَّه .

٦ — إنْ لم يُصبِّحْهُ بما ساءَ طَرَقْ

٧ — وبَاتَ فى جَهْدِ بَلاءٍ وأَرَقْ

٨ — وهَبْ لَهُ ذاتَ صِدَارٍ منْخَرِقْ

٩ — مَشئومةً تَخلِطُ شُؤْماً بخُرُقْ

فاعل يصبِّحه العَلَقُ المذكور . والطُّروق يكون بالليل . وقوله « فى جَهْـدِ بَلَاء » ، أى فيما يجهده ويشقُّ عليه من مقاساة البَلاء . والأَرَق : السهر باللَّيل . والصِّدارُ : الثَّوب الذى يبلغ الصَّدر . وجعلَه منخرِقاً لجنون صاحبته ، لأنه دعا على مَن يكتم دلوَه بأنْ يَهبَ له امرأةً مجنونة تُخرِجُ يدَها من جَيب صِدَارِها فتُمزِّق على نفْسها .

وفى هذه الطريقة قولُ الآخر[1] :

كجَيبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهاءِ رِيعتْ بعـد إجفالِ

وإنما وصف طَعْنَةً . فشبَّه سَعَتَها بسَعَةِ جَيب الوَرْهاء . ويقال : رجلٌ مشئوم ، وقد شُئِمْ ، وشَأَمَ فلانٌ أصحابه إذا أصابهم شُؤْمٌ من قِبَلِه . وتقول : هذا طائرٌ أشأَمُ ، وطَيْرٌ أشائمُ ، أى جارية بالشؤم . والخُرْقُ : ضدُّ الرِّفْق .

٨٣٦

وقال أعرابىٌّ :

١ — كأنَّ خُصْيَيْهِ مِن التَّدَلْدُلِ

(١) هو الفند الزمانى . الحماسة ١٧٦ ص ٥٤١ .

٢ — سَحْقٌ جِرابُهِ فيه ثِنْتا حَنْظَلِ

التَّدلدل: الاضطراب. ويقال: ثوبٌ سَحْقٌ وَجَرْدٌ، وقد انسحَقَ وانجرَد. وإنما قال «ثِنْتا حَنْظَلٍ» لأنّ مرادَه ثنتان من الحنظل. ولو أراد تثنية حنظلة لم يَجُزْ إلا حنظلتان. وقد أُحكِم القول فيه وفى أمثاله فى غير هذا الموضع.

٨٣٧

آخر:

١ — كأَنَّ خُصْيَيْهِ إِذَا تَدَلْدَلَا

٢ — أُثْفِيَّتَانِ تَحْمِلانِ المِرْجَلَا[1]

قوله «أُثفيّة» يجوز أن يكون أُفعولةً بدلالة قولهم: أثفيتُ القِدْرَ وثفَّيتُها. ويجوز أن يكون فُعليّةً، بدلالة قولهم أثَّفتُ القِدْرَ. ألاَ ترى النابغة يقول:

* وإنْ تأثَّفكَ الأعداء بالرِّفَدِ[2] *

فتأثّفَ تفعّل، والهمزة أصليّة. وإنما يتّفق مثلُ هذين التقديرين فى الكلمة الواحدة من لغتين. ويقتضى كيفيّتُهُ وقوع الاختلاف فى مثلها كلاما ليس هذا موضعَه، فاعلَمْه إن شاء الله.

٨٣٨

آخر[3]

١ — كأنَّ خُصْيَيْهِ اذا ما جَبَّى

(١) التبريزى: «طرجلا».
(٢) صدره: * لا تقذفنى بركن لا كفاء له *
(٣) التبريزى: هذه الأرجوزة لامرأة تهجو زوجها وأراد زوجها أن يبتنى فقالت لما: =

٢ — دَجاجتَانِ تَلْقُطانِ حَبّا

جَبَّى : قام منحنيا للاحتراش ، وهو إثارة الضَّبِّ . ويقال : جَبَّى تجبيةً ، إذا سقط لركبتيه وطَأْمَنَ بدنَه ويديه .

٨٣٩

وقال آخر :

١ — وقَيْشَةٍ زَيْنٍ ولَيْسَتْ فَاضِحَهْ

٢ — نَابِلَةٍ طَوْراً وطَوْراً رَامِحَهْ

٣ — على العَدُوِّ والصَّديقِ جامِحَه

٤ — مَنْ لَقِيَتْ فَهْيَ لَهُ مُصَافِحَهْ

٥ — تَسُدُّ فَرْجَ القَحْبَةِ المُسَافِحَهْ

٦ — مُفْسِدَةٍ لابنِ العجوز الصَّالحهْ

٧ — كأنَّها سَفْجَةُ أَلْفٍ راجِحَهْ

القَيْشَةُ : رأس القَضِيب ، والقَيْشَلةُ في معناه ، وليس من بنائه ، لكنَّه من باب سَبِطٍ وسِبَطْرٍ وما أشبهه . والرامح : صاحبُ الرُّمح . والنابل : صاحب

= إن لم أقيدك بخيط فاجعني يود من غرب الدواهي الطمح
عن الغدو وعن التروح ودلج الليل إلى أن تصبحي
فاعتكفي في مسجدي ومسبحي

فأجابته :

من يعتدي مني زوجا خبا أخب من ضب يداهي ضبا
* كأن خصييه إذا أ كبا *

فأجابها : يا رب إن كدت لربا وبا فالدو لما أريد عسلجا

النَّبل . ورَمَحَت الدَّابَّةُ رَمْحًا : ضربَتْ برجْلها . ويقولون : برئتُ إليك من الجِمَاح والرِّماح ؛ لأنَّ الجموحَ صلابةُ الرأس وأن يَمضىَ الشىء لوجهه فلا يُضبَط . وفَرَسٌ جَمُوحٌ وجامحٌ . والمُصَافحةُ أصله فى الالتقاء والتسليم ووضع اليدِ فى اليد . ويقال : لقيتُه صِفَاحًا ، أى مُفاجَأةً . والقَحْبَةُ : الفاجرة . وأهل اللُّغة يقولون : هو من القُحَابِ : السُّعال ، لأنَّ مُرَاوِدَها إذا مشَى فى إثْرِها تَقْحَب لتلتفتَ إليه ، فيُشير إليها بما يريد . والمُسافِحة : الزَّانية ، أصله من سَفْح الماء عندَ الجِمَاع . وهذا كما يقال من المَذْى : ماذَيْتُه . واشتهر السِّفاح بمضادّةِ النِّكاح .

٨٤٠

آخر :

١ — وفَيْشَةٍ ليست كهٰذى الفَيْشِ

٢ — قد مُلِئَتْ مِنْ خُرُقٍ وطَيْشِ

٣ — إذا بَدَتْ قُلْتَ أميرُ الجَيْشِ

٤ — مَنْ ذاقَها يعرفُ طعْمَ العَيْشِ

٨٤١

آخر[1] :

١ — لأكْتُمُ الأسرارَ لَكِنْ أنُمُّها ولا أتْرُكُ الأسْرارَ تَغْلِي عَلَى قَلْبِي

٢ — وإنَّ قَليلَ العَقْلِ مَنْ باتَ ليلةً تُقَلِّبُه الأسرارُ جَنْبًا إلى جَنْبِ

أنُمُّها : أفْشِيها وأظهِرها . وقوله « جنْبًا إلى جنب » فى موضع الحال .

(١) هو سحيم الفقعسى ، كما فى الحيوان (٥ : ١٨٤) .

والمعنى : يَقلقُ فى مضجَعِه محافظةً على السِّرّ ، ولا يَعْرُكُها بجنبه . ويجوز أن يكون بدلاً من الماء فى تُقَلِّبُهُ .

٨٤٢

آخر :

١ — فجاءوا بشَيْخٍ كَدَّحَ الشَّرُّ وَجْهَهُ جَهُولٍ مَتَى ما يُنْفَدِ السَّبُّ يَلْطِمِ

الـكَدْح والخَدْش والخَمْش ، تتقاربُ فى المعنى . ويقال : نَفِدَ الشىء إذا فَنِيَ ، وأنفدته أنا .

٨٤٣

وقالت قابلةٌ لامرأةٍ أخذَها الطَّلْق ، واسمها سَحابة[(١)] :

١ — أيا سَحَابَ طَرِّقِى بِخَيْرِ

٢ — وطَرِّقى بِخُصْيَةٍ وأَيْرِ

٣ — ولا تُرِينى طَرَفَ البُظَيْرِ

التطريق: أن يظهر عند الولادة طَرْقة الولد ، وهى أطرافُه : رأسُه ويداه . ولك أن تروى « يا سحابَ » بفتح البـاء على أصل التَّرخيم ، ولك أن تضمَّها نَوَيْتَ تمام الاسم بعد ذهاب الهـاء ثم بنيتَ على الضمِّ للنِّداء .

٨٤٤

آخر :

١ — فإنَّكَ إنْ تَرَى عَرَصَاتِ جُمْلٍ بعاقِبَةٍ فأنتَ إذًا سَعِيــــدُ

٢ — لها عَيْنَانِ من أَقْطٍ وتَمْرٍ وسائرُ خَلْقِهـا بَعْدُ الثَّرِيدُ

---

(١) انظر الحيوان (٥ : ٥٨١) والبيان (١ : ١٨٥) .

قوله « إن تَرَى » أتى بتَرَى تامًّا وإن كان فى موضع الجزْم . فهو كقول الآخر[١] :

* ولا تَرَضَّاهَا ولا تَمَلَّقِ *

وكقول الآخر[٢] :

ألم يأتيكَ والأنباء تَنْمِى بما لاقَتْ لَبُونُ بنِى زِيادِ

وجُمْل : اسمُ امرأة . وعَرْصَة الدّارِ وحَرْصَتُها بمعنًى . ويكون الذى حذَفَه الجزم فى تَرَى حركةً كانت فى النِّيَّة فى موضع الرَّفع . وحروفُ المدّ تُحذف من الأواخر ، ليكون بين الأفعال وهى فى موضع الرَّفع و بينها وهى فى موضع الجزم فَصْلٌ ، فلذلك جاز أن تأتىَ بها تامّة ، ولولا ذلك لكان لحناً . وقوله « فأنت إذًا سعيد » جَمَع بين الفاء و بين إذًا فى جواب الشرط تأكيداً للجزاء ، ولو قال فأنت سعيد ، لكَفَى وأغنَى ، ويكون إذًا للحال ، كأنّه يحكى الكائنَ من الأمر فى ذلك الوقت ، وكذلك لوقال فأنت إذٍ سعيدُ ، لجاز كما قال الهذلىّ[٣] :

* بعاقبةٍ وأنت إذٍ صحيحُ[٤] *

وقوله « سعيد » يجوز أن يكون اسمَ الفاعل من سَعِد ، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول ، ويقال سَعَدَه الله بمعنى أسعدَه الله . وقوله « بعاقبةٍ » أى بعَقِب ما عَرَفْتَها ودُفِعتَ إليها . ومن روى « فأنتَ إذٍ » يريد فأنت إذِ الأمرُ ذلك وفى ذلك الوقت . ونوّن إذٍ ليكونَ التّنوينُ فيه عوضاً مما كان يُضاف إليه من الجمل . وعلى هذا حينئذٍ ، ويومَئذٍ .

(١) هو رؤبة بن العجاج . الخزانة (٣ : ٥٣٤) وملحقات ديوانه ١٧٩ .
(٢) هو قيس بن زهير العبسى . الخزانة (٣ : ٥٣٦) .
(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٦٨) .
(٤) صدره : * نهيتك عن طلابك أم عمرو *

٨٤٥

آخر :

١ — أَنِخْ فاصطنِعْ قُرْصاً إذا اعتادكَ الهوَى بزَيْتٍ كما يَكفيكَ فَقْدَ الحبائبِ

٢ — إذا اجتَمَعَ الجوعُ المبرِّح والهوَى نَسِيتَ وصالَ الآنساتِ الكَواعبِ

رواه بعضهم : « فاصطنِعْ » كأنّه يجعله من الصُّنْع ، كما قال الآخر[1] :

إذا ما صَنَعْتِ الزّادَ فالتَمِسِي لهُ أكيلًا فإنِّى لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِى

وليس هذا بشىء ، وإنّما الرِّواية « فاصطبغ » من الصِّباغ وهو الأُدْم ، يدلُّ على صِحَّة هذه الرِّواية قوله « بزيت » . ومثل هذا قولُ الآخر :

كُلْ إذا كُنْتَ عاشقًا ما تَهيَّا من الدَّسَمْ

وادفَعَ الشَّوْقَ والصُّدو دَ عن القَلب بالتُّخَمْ

وصاحِبُ الأكلِ فى الهوَى ليس يَخْشَى من السَّقَمْ

وقوله « كما يكفيك » رواه الكوفيّون ، ويقولون كما فى معنى كَيْما . ورَوَوْا أيضاً حجّةً فيه قولَ الآخرَ[2] :

إذا جئتَ فامنَحْ طَرْفَ عَينَيك غيرَنا كَمَا يحسَبُوا أنَّ الهوَى حيث تَنْظُرُ

وأصحابُنا البصريّون يروونه « لكى يحسبوا » . وكذلك رووا البيتَ الأوّل « لكَىْ يَكفيكَ » ، ولا يعرفون ما ذَكَروه . والآنسات : ذوات الأُنس . والكواعب : اللّاتى نَهَدَت ثُدِيُّها .

٨٤٦

وقال آخر :

كأنَّ ثَنَايَاها وما ذُقْتُ طَعْمَها لِبَا نَعجَةٍ سَوَّطْتَه بدَقيقِ

---

(١) هو حاتم الطائى . انظر الحماسية ٧٣٢ ص ١٦٦٨ .

(٢) هو عمر بن ربيعة فى رائيته المشهورة . ويروى أيضاً لجميل . انظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ١٧٠ .

يقال : سُطتُ الشّيء ، إذا جمعْتَه مع غيره فى الإناء وضربتَهما حتّى يختلطا .
قال الدُّريدى : وبه سمِّى السّوطُ الذى يُضْرَبُ به لأنّه يَسُوط اللَّحمَ بالدّم .

٨٤٧

آخر :

١ — رَمَتْنِى بسَهْمِ الحبِّ أمّا قِذَاذُه فتمْرٌ وأمّا رِيشُـــهُ فَسَوِيق

يريد أنّها كانت تُطْعِمُه التّمرَ والسّويق ، فلذلك أحبَّها . والقِذَاذ : جمع القُذّة ، وهى الرِّيش ، ويقال : قَذَذْتُ السّهمَ ، إذا جعلتَ له قُذَذا[١] . وكان أبو زيد يُجيز : أقْذَذْتُ أيضاً ، وأباه الأصمعىُّ . وكل شىء سويتَه وأصلحتَه فقد قذذته . والسهم الأقَذّ ، الذى لا ريش له . ومن أمثالهم ما أصبْت منه أقذّ ولا مَرِيشا .

٨٤٨

آخر :

ألا رُبَّ خَوْدٍ عَيْنُها من خَزِيرةٍ وأنيابُها الغُرُّ الحِسَانُ سَـوِيقُ

الخَوْدُ : المرأة الناعمة الجسم . والخزيرة : دقيـقٌ يُلَبَّك بشحمٍ . وكانت العرب تُعيِّر بأكله . وقيل : إنّ المقصود بذلك بنو مُجاشعٍ وقريشٌ ، وهى السَّخينة .

٨٤٩

آخر :

وما العَيشُ إلاّ نَوْمَةٌ وتَشَرُّقٌ وتَمْرٌ كأكباد الجَرَادِ وماءُ[٢]

(١) ل : « قذذا » .
(٢) فى البيان (١ : ١٧٩) : « كأخفاف الرباع » .

٨٥٠

آخر :

١ — قامَتْ تَمطَّى والقَميصُ مُنْخَرِقْ

٢ — فصادَفَ الخرقُ مكاناً قد خَلِقْ[1]

٣ — كأنَّه قَعْبُ نُضَارٍ مُنْفَلِقْ[2]

تَمَطَّى ، أراد تتمطّى ، أى تتمدّد ، فحذف إحدى التاءين . والنُّضار : شجرٌ يُتَّخذ من خَشَبِه القِصَاع . ومثل هذا قولُ الآخر :

إذا قَعَدَتْ مَقْعَدًا نَبَا بِيَهْ كالقَدَحِ المَكبُوبِ فوقَ الرَّابِيَهْ

٨٥١

آخر :

إذا اجتمع الجُوع المبرِّحُ والهوَى على الرَّجُلِ المِسْكينِ كادَ يَمُوتُ

٨٥٢

آخر :

١ — يا رَبِّ إنْ قَتَلْتَها فَمُذْ لها

٢ — فلَنْ تَموتَ أو تشُدَّ قَتْلَها[3]

أراد إلاّ أنْ تشدّ قتلَها وتبالغ فيه .

---

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فصادف القلب » .

(٢) فى الأصل : « كأنه كعب » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٣) التبريزى : « أو تجيد قتلها » ، ثم ساق التبريزى الشرح مطابقا لشرح المرزوقى .

٨٥٣

آخر :

١ — وأبغضُ الضَّيفِ مابى جُلُّ مأكَلِهِ   إلاّ تَنَفُّجُهُ حَولِى إذا قَعَدَا

٢ — ما زال يَنفُجُ جَنبيهِ وحُبْوَتَهُ   حتّى أقولَ لعلَّ الضيفَ قد وَلَدَا[1]

قوله « إلاّ تنفُّجه » استثناء خارج . والتنفُّج قيل هو التجشُّؤ . ويقال : تنفَّجَ فلانٌ ، أى توسَّعَ فى جُلوسه . ومنه : هو مُنتَفِجُ الجنبين . وهذا غَرَضُ الشاعر ، بدلالة قوله : ما زالَ ينفُج جنبيه وحُبْوَتَه . والنَّفْجُ : الكِبْر ؛ وفى التنفُّج زيادةُ تكلُّف .

٨٥٤

آخر :

وإنّا لَنَجفُو الضيفَ مِنْ غيرِ عُسْرَةٍ   مَخافةَ أن يَضرَى بنا فيعودُ[2]

---

(١) روى التبريزى بعده مقطوعة لم يروها المرزوقى . ونصها مع تفسيرها :

وقال بلال بن جرير :

بلال : أحد أسماء الماء . والجرير : حبل الزمام .

وعُكْلِيّةٍ قالت لجارةِ بيتها   إذا العيرُ أدلَى حَبَّذا مثلُ ذا عِلْقا

قال أبو العلاء : كان البغداديون ينشدون علقا بالقاف والعين . وقدم الوزير ابن أبى خالد التبريزى ومعه سبط له فقرأ الغلام الحماسية على بعض أهل العلم . وأنشد هذا البيت بالغين والقاف « غلقا » وذكر بعده بيتا وهو :

فقالت لها جارآتها إذ سمعنها   نعم حبذا بل حبذا مثله إلقا

وزعم أن هذه الرواية وقعت إليهم عن أبى عبد الله الأسدى البصرى صاحب كتاب الشاكهة ، وكان من أروى البصريين الذين فى زمانه لشعر العرب . والغلف : الشىء الذى يجعل فى الغلاف .

(٢) بعده كما نص التبريزى :

ونشلى عليه الكلب عند محله   ونبدى له الحرمان ثم نزيد

قال التبريزى :

« وهذا البيت — يعنى الأول — يروى لحاتم الطائى . ويقال إنه أراد بالضيف الأسد . وهذا لا يمتنع من مذاهب العرب ، لأنهم يسمون كل طارق ضيفا ، حتى جعلوا الأسد كالضيف » .

قوله « فيعود » لم يعطفه على أنْ يَضْرَى بنا ، لكنه قَصَدَ به إلى الاستئناف ، والمراد فهو يَعود ، ويقال : إنّ بعضَ المتحذلقين فى زمن الأصمعىّ خالفَه فى هذا وزعَمَ أنّ الشاعر تمدَّحَ بهذا ولم يتملَّحْ[1] ، وزعم أنّ المرادَ إنّا لا نتكلّف للضيف ولا نحتشد له ، بل نُقدِّم إليه ما يحضُرنا لئلاّ يَنفِر من احتشامنا له ، فينقبضَ عنّا ، ولا يعودَ إلينا . قال : ومعنى « مخافةَ أن يَضْرَى » أن لا يَضْرَى بنا ، ولا مُضمرة ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يُبيِّن اللهُ لكم أنْ تَضِلُّوا ﴾ . وهذا كما تكلَّفَ بعضُهم القولَ فى قوله :

قومٌ إذا استَنبح الأضيافُ كلبَهمُ قالوا لأمِّهم بُولِى على النّارِ[2]

وزعم أنه مَدْح مع اتِّفاق النّاس على أنه أهْجَى بيت .

٨٥٥

آخر

ونَظَرَ إلى جاريةٍ سوداء تَخْضِب كفَّها فقال :

١ — تَخْضِبُ كَفًّا بُتِكَتْ مِنْ زَنْدِهَا

٢ — فتَخْضِبُ الحِنَّاءَ مِن مُسْوَدِّها

٣ — كأنّها والكُحْلُ فى مِرْوَدِها

٤ — تَكحَلُ عَيْنَيها بِبَعْضِ جِلْدِها

وقوله « بُتِكَتْ من زَنْدِها » منقطعٌ مما قبله ، كأنّه خبّر عنها ، ثم دعا على كفِّها . ولا يجوز أن يتّصل بما قبله ، لأنه حينئذ يكون واقعاً موقعَ الصِّفةِ

(١) ل : « ولم يستملح » .

(٢) للأخطل فى ديوانه ٢٢٥ والكامل ٧٣٤ ليبسك .

السكفُّ ، والأمرُ والنَّهْىُ والدعاء لا تكون صفاتٍ ولا صلاتٍ ولا أخبارًا إلّا بتأويل .

وقوله « فتَخْضِبُ الِحنّاء من مُسْوَدِّها » ، يريد أنّ سَواد لونها يغيِّر من الحنّاء فيَخْضِبه . والِحنّاء وزنه فِعّالٌ ، والهمزة منه أصلية ، بدلالة قولهم : حنَّأْتُه بالحنّاء .

وقوله « فى مُسْوَدِّها » استقبحَ الزِّحاف فشدَّد الدال ، ومثله :

* تعرُّضَ المُهْرَةِ فى الطِّوَلِّ[1] *

٨٥٦

آخر[2] :

١ — لَعَمْرِى لقد حَذَّرتُ قُرْطًا وجارَه ولا يَنْفعُ التّحذيرُ مَنْ ليس يَحْذَرُ

٢ — نَهَيْتُهما عن نُورَةٍ أحْرَقَتْهُمَا وحَمّامِ سَوْءٍ ماؤُهُ يَتَسَعَّرُ

٣ — فما مِنْهُما إلا أتانى مُوَقَّعًا به أثَرٌ من مَسِّها يَتَقَشَّرُ

٤ — أجِدَّكُما لم تعلَما أنّ جارَنا أبا الحِسْلِ بالصَّحْراء لا يَتَنَوَّرُ

٥ — ولم تَعلَما حَمّامَنا ببلادنا إذا جَمَلَ الحِرْباء بالجِذْلِ يَخْطِر

قوله « أتانى مُوَقَّعًا » ، انتصب على الحال . ويقال : بعيرٌ موقَّع الظهر إذا كان به آثار الجرَب . ورجلٌ موقَّعٌ ، إذا كان به آثار الجراح . قال :

مِثْلَ الحمارِ الموقَّعِ السَّوْءِ لا يُحْسِنُ مَشْيًا إلّا إذا ضُرِبَا[3]

---

(١) أراد الطول ، بكسر ففتح ، وهو الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه . والبيت لمنظور ابن مرثد الأسدى . انظر حواشى مجالس ثعلب ٦٠١ — ٦٠٢ .

(٢) التبريزى : « وقال أعرابى لابنه وكان قد دخل الحمام فأحرقته النورة » .

(٣) الحكم بن عبدل الأسدى . الحماسية ٥٥٠ ص ١٢٠٥ .

وقوله : « لا يَتَنَوَّرُ » : الأجود في هذا أن يقال : لا يتَنَأر ، وقد قيل تَنَوَّر أيضًا .

وقوله « أجِدَّ كُما » انتصب على المصدر من فعلٍ مُضمَر ، كأنّه قال : أتجِدّانِ جِدَّ كُما .

وذكره سيبويه في باب ما ينتصب من المصادر توكيداً لما قبله ، كقولك هذا زَيْدٌ حقًّا لا باطلا ، وهذا القولُ لا قولَكَ ، وهذا زيدٌ غيرَ ما تقول ، والتقدير : هذا القول لا أقول قولَك . قال سيبويه : ومثلُه في الاستفهام أجِدَّكَ لا تفعَلُ كذا ، ولا يُستَعمَل إلَّا مضافاً ، والتقدير أجِدًّا منك . وَجَرَى هذا مَجْرَى ما لَزِمَتْهُ الإضافةُ نحو لبَّيك وما أشبهه ، ومَعاذَ الله . والمعنى أعلى جِدٍّ لم تعلما ما ذكرتُ . والحِرْباء أعظمُ من العَظَاءة ، وهو أغبرُ ما دام صغيراً ، ثم يصفرُّ إذا كَبِرَ ، فإذا حَمِيَت الشَّمسُ عليه أخذَ جلدُه يخضرُّ . ولذلك قال ذُو الرُّمّة لمّا وصفه :

* ويخضَرُّ من لَفحِ الهَجيرِ غباغِبُهْ[(١)] *

وقال الطِّرِمّاح :

وانتَمَى ابنُ الفَلاةِ في طَرَفِ الجِذْ لِ وأعْيَا عَلَيْهِ مُلْتَحَدُهْ

وابنُ الفَلاة : الحِرْباء . والجِذْلُ : العُود وأصلُ الشَّجَرة . وقال آخَر[(٢)] :

أنَّى أُتِيحَ له حِرْباء تَنْضُبَةٍ لا يُرْسِلُ السَّاقَ إلَّا مُمْسِكًا سَاقا

(١) صدره في ديوان ذي الرمة ٤٧ :

* إذا جعل الحرباء يبيض رأسه *

(٢) هو أبو دواد الإيادي من أبيات رواها العسكري في الجمهرة ٢١٢ . وانظر اللسان (١ : ١٢/٢٩٧ : ٣٥) وعيون الأخبار (٣ : ١٩٢) وأمثال الميداني (١ : ٢٠٢) وديوان المعاني (١ : ١٣٨) والمخصص (٨ : ١٠٣) .

تَنضُبَةٌ : شجرة . والحِرْباء يَستقبل الشَّمسَ فيدورُ معها فى سُوق الأشجار .
وقوله « جعَل الحِرْباء » بمعنى طفِقَ .
وقوله « لا يُرْسِـلُ السَّاقَ » مَثَلٌ للمُلحِف الذى لا يقضِى حاجَةً إلا سَأَل أُخرَى .

٨٥٧

آخر :

١ — أَلَا فَتًى عِندَهُ خُفَّانِ يَحمِلُنِى عَلَيهِما إِنَّنِى شَيْخٌ عَلَى سَفَرِ

٢ — أَشْكُو إلى اللهِ أَحْوالًا أُمارِسُها مِن الجِبالِ وَأَنِّى سَيِّئُ النَّظَرِ

٣ — إِذَا سَرَى القَوْمُ لم أُبْصِرْ طَرِيقَهُمُ إِنْ لم يكن لَهُمُ ضَوْءٌ من القَمَرِ

يروَى « إنّى شيخٌ على سفر » بكسر الهمزة على الاستئناف ، ويروى « أنّى » بفتح الهمزة ، والمعنى لأنّى شيخ .

وقوله « لم أُبصِر طريقَهم » ، يريد أنَّه لاجادَّةَ فى بلادهم . وهذا خلافُ قول الآخر :

. . . . ترى السَّائلين إلى أبوابه طُرُقَا[1]

كأنّه عيَّرهم متملِّحا .

٨٥٨

وقالت جارية فى جاريةٍ تَسُبُّها[2] :

١ — سُبِّى أبى سَبُّكِ لنْ يَضِيرَهْ

٢ — إنَّ مَعِى قَوَافيًا كثيره

(١) هذا غير بيت زهير المشهور ، وهو :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا

(٢) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : « وقالت جارية فى نساء يتسابين » . وفى الأصل : « فى نساء بين » .

٣ — يَنْفَحُ منها المِسْكُ والذَّرِيرهْ

يروى : « سَبُّكِ لى بَصِيره » . وإذا رويتَ «سَبُّكِ لى بصيرة» يرتفع سَبُّك بالابتداء . وتنصب سَبَّك على المصدر ، أى كما تسبِّبِنى ، فسُبِّى أبى أيضاً ، و « بصيرة » على النِّداء .

٨٥٩

وقالت أخرى :

١ — إنَّ أباكِ زَهزَقٌ دَقِيقُ

٢ — لا حَسَنُ الوجهِ ولا عَتِيقُ

٣ — تَضْحَكُ من طُرْطُبِّهِ العُنُوقُ

الزَّهْزَقُ : اللَّئيم الدَّقيق الحسَب . والعتيق : الـكريم الرائع مِن كلِّ شيء . والفعل منه عَتُق عِتقاً . والطُّرطُبُّ : صوت الرَّاعى إذا سَكَّن مِعزَاه . والعُنُوق : إناثُ أولادِ المعزى ، أى كأنَّها تُسَرُّ لفَعلته تلك[1] . ويُروى : «تَضْحَكُ من طُرْطُبِّهِ العَبُوقُ» ، وذكر أن الخاطِب كان لثَديهِ حَلَمة طويلة — والضَّرع الطَّويل يقال له الطُّرْطُبّ — وأنَّ العَبوق امرأةٌ . يريد أنَّها تَسخَر منه وتُعجِبُها خِلقتُه .

٨٦٠

وقالت أخرى :

١ — يارَبِّ مَنْ عَادَى أبى فَعادِهِ

٢ — وارْمِ بِسهمَينِ على فُؤادِهِ

٣ — واجعَلْ حِمامَ نَفْسِهِ فى زَادِهِ

(١) يعنى صوته بمعزاه . وفى الأصل : « لفعلته » ، صوابه فى ل .

٨٦١

وقالت أمُّ النَّحيف[١] :

١ — لَعَمْرِى لقَدْ أخلفْتَ ظَنِّى وسُؤْتَنِى ... فَحُزْتَ بِعصْيانِى النَّدامَةَ فَاصْبِرِ

٢ — ولا تَكُ مِطْلَاقًا مَلُولًا وسَامِحِ الْـ ... قَرِينةَ وافعَلْ فِعْلَ حُرٍّ مُشَهَّرِ

٣ — فقَدْ حُزْتَ بالوَرْهاءِ أخْبثَ خِبْثَةٍ ... فَدَعْ عَنْكَ ما قد قُلْتَ يا سَعْدُ واحْذَرِ

٤ — تَرَبَّصْ بِها الأيَّامَ علَّ صُرُوفَهَا ... سَتَرْمِى بها فى جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ

٥ — فكَمْ مِن كَرِيمٍ قدْ مَناهُ إلهُهُ ... بِمَذْمُومةِ الأخلاقِ وَاسِعَةِ الحِرِ

٦ — فَطاوَلَها حَتَّى أتَتْها مَنِيَّةٌ ... فصارَتْ سَفَاةً جُثْوَةً بينَ أقْبُرِ

٧ — فأعْقِبَ لمَّا كان بالصَّبْرِ مُعْصِماً ... فَتاةً تَمَشَّى بين إتْبٍ ومِئْزَرِ

٨ — مُهَفْهفَةَ الكَشْحَيْنِ مَخْطُوطَةَ الحَشَا ... كَهَمِّ الفَتَى فى كلِّ مَبْدًى ومَحْضَرِ[٢]

٩ — لها كَفَلٌ كالدِّعْصِ لَبَّدَهُ الثَّرَى ... وثَغْرٌ نَقِيٌّ كالأقاحِى المُنَوِّرِ[٣]

كأنَّ المخاطَبَ كان تزوّج بامرأةٍ لم تَرضَها له ، فلم تَحمَدِ العاقبة ، فأخذَتْ توبِّخه فى الخلاف عليها ، والعصيانِ لها ، وتشير عليه بمصابَرتها وإنْ لم يستوفِقْها منتظِرًا رَيْبَ الزّمان وأحداثه فيها . فقالت : عامِلْها معاملةَ الأحرار[٤] الكرام ، فلا تطلِّقْها وإن تكُ قد حُزْتَ بها وَرهاء ، وهى الحمقاء . وأصل الوَرَه الخُرْق

(١) التبريزى : « وهو سعد بن قرط ، أحد بنى جذيمة ، وكان تزوج امرأة نهته أمه عنها » . والنحيف كذا ضبط فى النسختين . وضبطه التبريزى بالتصغير ، قال : « فيجوز أن يكون النحيف تحقير ترخيم النحيف » .

(٢) التبريزى : « مخطوطة الحشا » .

(٣) ل والتبريزى : « لبده الندى » . والثرى والندى واحد . وبعده عند التبريزى : « وقال سعد وليس من الكتاب — أى ليس من الحماسة — :

يا ليتما أمنا شالت نعامتها ... أيما إلى جنة أيما إلى نار

تلتهم الوسق مشدودا أشظته ... كأنما وجهها قد طُلِىَ بالقار

ليست بشبعى ولو أوردتها هجراً ... ولا بريا ولو قاظت بذى قار

(٤) ل : « بمعاملة الأحرار » .

فى كلّ عمل . ويقال : تورّه الرجلُ فى عمله . وقولها « أَخْبَثَ خِبْثَةٍ » فالخبيث نعت كل فاسد ، وكذلك الخابث . وقد استُعمِل أَلْخِبْثة فى العجوز أيضاً . والأخبثان : البَخَر والسَّهَر ، وقيل الرَّجيع والبَوْل .

وقولها « دع عنكَ ما قد قلت » ، كأنه كان همَّ بمُبايَنتِها فأنكرتْ ذلك وقالت تربَّصْ بها . والجاحم : النار الشديدة التأجُّج . ومنه جاحِم الحرب ، وجَحَمَت النارُ والحربُ جَحْمةً : اشتدَّت . والسَّفاةُ : التُّراب . والجُثْوَةُ : الكُثْبَةُ منه . والإِتْبُ : الدِّرْع . وأعصَمَ من الشرّ واعتصَمَ : التجأ وامتنَع . مَحطوطةُ الحَشا ، أى كأنها قد صُقِلت بالمِحطّ ، وهو ما يُحطُّ به السيف والجِلد . والمُهفهَفة : الخميصة البَطْن الدقيقة الخَصْر .

وقولها « كَهَمّ الفتى » أى كما يهواه ويَهُمُّ به حيثما تصرَّف . والدَّعْص : المجتمِع من الرَّمل . ولبَّده : صلَّبَه . يعنى أنّ لحمَها فى تراكُمِه واكتنازِه كذلك .

٨٦٢

وقال أبو الطَّمَحان الأسدى[1] :

١ — وبالحِيرَةِ البيضاءِ شَيْخٌ مُسَلَّطٌ   إذا حَلَفَ الأيمانَ باللهِ بَرَّتِ

٢ — لَقَدْ حَلَقُوا مِنْها غُدافًا كأنَّهُ   عَناقيدُ كَرْمٍ أَيْنَعَتْ فاسبكرَّتِ

٣ — فَظَلَّ العَذارَى يومَ تُحْلَقُ لِمَّتى   عَلَى عَجَلٍ يَلْقُطْنَها حيثُ خرَّتِ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسة ٤٧٨ ص ١٢٦٦ . قال التبريزى : « وحلقه صاحبُ شرطة يوسف بن عمر » . وذكر التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن القائل هو طخيم أبو الطخماء الأسدى . والذى حلق لمته هو العباس بن معبد المرى صاحب شرطة يوسف بن عمر .

بَرّت اليمينُ بَرًّا ، وهى بارّة و بَرّةٌ ، وأبررتها أنا . قال :

* إنى [حلَفتُ] على يَمينٍ بَرّةٍ[1] *

ويقال : يَنعت الثمرةُ ، إذا نَضِجَت ، وأينَعَت أيضاً . واسبكرّت : استرخت ولانت . وخرّت : سقَطَت خُروراً . وخرّ الماء خريراً . شبَّهَ الشَّعَر فى طُوله ولينه ولونه[2] بعناقيدَ من الكَرْم استرسلَت .

وقوله « لقد حلَقُوا منها » ، أى من الهامَة . والغُداف : الأسود ، ووُصِفَ به الغُرابُ لذلك . وظَلّ العذارى ، بمعنى صار . و إنما التقطن لِمّتها لحسنها ووَلوعهنّ بها مِن قَبل .

(١) كلمة « حلفت » ساقطة من النسختين . والبيت من قصيدة الراعى المشهورة . جمهرة أشعار العرب ١٧٢ . وعجزه :

* لا أكذب اليوم الخليفة قيلا *

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فى طولها ولينها ولونها » . والشعر مذكر .

بَابُ مَذَمَّةِ النِّسَاءِ

بابُ مَذمةِ النساء

٨٦٣

قال بعضهم :

١ — دِمَشْقُ خُذِيها واُعلمى أنّ ليلةً تمُرُّ بِعُــودَىْ نَعْشِها ليلةُ القَدْرِ

٢ — أ كَلْتُ دَمًا إنْ لم أرُعْكِ بضَرَّةٍ بَعيدةِ مَهْوَى القُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

أظهرَ التضجُّرَ بها و بالسكونِ معها ، وطلب الخلاصَ منها ، وبَعثَ البلدةَ على أخْذِها وقبضِها إلى نَفْسِها . وقوله « تمرُّ بعودَىْ نَعْشِها » إنْ جَعَلْتَ الفِعْل لدمشْقَ اقتضى أن يكون فى قوله تمرُّ بعودَىْ نعشِها ضميرٌ يرجع إلى ليلةٍ ، والمراد تمرُّ بعودَىْ نعشها فيها ليلةُ القدر . فإن جعلتَ الفعلَ لليلة يكون المعنى أن الليلة التى تموت فيها أو تُميتُها تَحُلّ منها فى عِظَمِ موقِعها محلَّ ليلة القدر التى هى خيرٌ من ألفِ شهر ليس فيها ليلةُ القدر . وجاء فى الخبر أنه إنّما[1] عَظُمَ موقِعُها لأنَّ الله تعالى أنزَلَ فيها جملةَ القرآنِ إلى سماء الدنيا ، ثم أنزَلَ منها نجومًا الشىء بعد الشىء على ما عَرَف من المصلحة فيه .

وقوله « أ كلتُ دَمًا » يَجرِى مَجرَى اليمين ، وإنْ كان لفظُه لفظَ الدُّعاء . وأ كلُ الدَّمِ يَسُوغ عند الإشفاء على الهَلَكَة وجَهْدِ البَلَاء فى الإعواز . والمعنى : إنْ لم أفزِّعْكِ بأن أتزوّجَ بامرأةٍ حسَنةِ السَّالفة ، طيِّبة الرَّائحة ، فابتلانى الله تعالى بما يَحِلُّ معه أ كْلُ الدَّم .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أنه إذا » .

٨٦٤

آخر :

١ — سَقَى اللهُ دَارًا فَرَّقَ الدَّهرُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكِ فيها وَابِلًا سائلُ القَطْرِ

٢ — وَلاَ ذَكَرَ الرَّحْمٰنُ يَوْمًا ولَيْلَةً مَلَكْنَاكِ فِيهَا لم تَكُنْ لَيْلَةَ البَدْرِ

دعَا للدَّار المُفَرِّقةِ بينهما بالسُّقيا الغَزِيرة وعلى ما جَمع بينهما من أيَّام الدَّهر ولياليها بمَنْعها الخير ، وحِرمانِها الحيَا والقَطْر ، ثم قال « فيها » فردَّ الضَّمير على أحدِهما واختار الأقربَ ، إذْ عُلِمَ أنَّ المعطوفَ والمعطوف عليه يستويان في الإخبار . ومثله قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ يَكْنِزُون الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونها فى سَبِيلِ اللهِ ﴾ . وقوله « لم تكُنْ ليلةَ البدر » من صفة اللَّيل ، أى كانت تلك اللَّيلةُ مظلمةً لا نُورَ فيها ولا سُعود . ومعنى « ولا ذَكَرَ الرَّحمن » ، أى لا تعطَّفَ عليها ، ولا قسَم لها خيرا .

٨٦٥

وقال آخرُ فى امرأتين تزوَّجَ بهما[1] :

١ — رَحَلَتْ أُنَيْسَةُ بالطَّلَاقِ وَعَتَقْتُ مِنْ رِقِّ الوَثَاقِ

٢ — بانَتْ فلم يَأْلَمْ لَهَا قَلْبِي ولم تَبْكِ المَآقِي

٣ — ودَوَاءُ ما لا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ تَعْجِيلُ الفِرَاقِ

٤ — لَوْ لَمْ أُرَحْ بِفِراقِها لأَرَحْتُ نَفْسِى بالإِبَاقِ

٥ — وخَصَيْتُ نَفْسِى لا أُرِيدُ حَلِيلَةً حَتَّى التَّلَاقِى

(١) ل : « فى امرأة تزوج بها » . التبريزى : « فى امرأة طلقها » .

يريد: طلَّقتها فبانت منِّى وفارقتْنى، فصِرتُ حُرًّا عتيقا. ومعنى «رِقِّ الوَثاق»، يريد أنِّى كُنتُ كالمُوثَق الأسير ففكَكتُ وَثاقى، وجعَلَ البكاءَ للمآقى مجازًا، وهو جمع المُوْقِ على وزن المُعْقِ، وهو طَرَف العَين الذى يَلِى الأنف، وهو مَخْرَج الدَّمع، فلذلك جعل الفعلَ لها. وفى هذه اللفظة عدة لغات: مَأْقٌ على وزن المَعْق وجمعه آماقٌ، وماقٍ على زنة قاضٍ والجميع مَوَاقٍ. وحكى أبو زيد ماقِئٌ والجمع مواقِئُ. وقال امرؤ القَيْس فى المآقى:

* شُقَّتْ مآقيهما من أُخَرْ[1] *

وحكى يعقوب (فى المنطق[2]) عن الفَرَّاء، أنَّه ليس فى كلام العرب مَفْعِلٌ بكسر العين إلَّا حرفان: مَأْقِى العَين، ومَأْوِى الإبل، وهذه اللَّفظةُ على اختلاف اللُّغات قد عمِلتُها مسألةً، وتكلَّمتُ فى وُجوهها، وبيَّنْتُ خطأً من وزنَ مَأْقِى العَين بمَفْعِلٍ بكسر العين. وقوله «تعجيل الفِراق»، يريد تعجيل فراقِه، فجعل اللفظ عامًّا، والمراد الخاصّ، وعلى هذا قوله «من رِقِّ الوَثاقِ»، يريد وَثاقِها. والإباق: الهَرَب. والرَّاحة: وِجدانك الرَّوْح بعد مَشَقَّةٍ. وما لكَ رَوَاح، أى راحة. والتَّراويح فى رمضان منه، وكذلك قولهم: تراوحَتْه الأمطار، وأفعَلُ ذلك فى سَرَاحٍ ورَوَاحٍ. والحليلةُ: الزَّوجة، سمِّيت بذلك لأنَّها تحالُّ بعلَها، أى تُنازله وينازلها[3]. وقوله «حتَّى التَّلاقى»، أى إلى وقتِ تلاقِى الخلْق فى يومِ القِيامة.

وانعطف «وخَصَيْتُ» على قوله «لأرحتُ نَفْسى». وموضع لا أريد نصبٌ على الحال، والعامل فيه خَصَيْتُ.

---

(١) يروى: «فشقت». وصدره فى ديوانه ١٦:

* وعين لها حدرة بدرة *

(٢) يريد كتابه «إصلاح المنطق». انظر ص ١٣٧ طبعة دار المعارف.

(٣) فى النسختين: «أى تنازلها» فقط.

٨٦٦

وقال آخر :

١ — أَلِمْ بِجَوْهَرَ بِالقُضْبَانِ والمَدَرِ وبالعِصِىِّ التى فى رُوسِها عُجَر

٢ — أَلِمْ بها لا لتسليمٍ ولا مِقَةٍ إلّا لِيَكسرَ مِنْها أنفَها الحجَرُ[١]

٣ — أَلِمْ بوَطْباءَ فى أشداقها سَعَةٌ فى صُورةِ الكَلْبِ إلّا أنَّها بَشَرُ

٤ — حَدْباءَ وَقْصاءَ صِيغَتْ صِيغةً عَجَبًا وفى تَرَائبِها عن صَدرِها زَوَرُ

الإلمام : الزِّيارة الخفيفة ، والباء من قوله « بجوهر » تعلَّق به . وقوله « بالقضبان » أى والقُضبان معكَ ، وهذا كما يقال : خرج بسلاحه ، أى والسِّلاح عليه . والعُجَر : جمع عُجْرة ، وهى العُقدة ، وخَيْطٌ عَجِرٌ وعَصًا عَجْراء : فيهما عُقَد . وقالوا فى روس جمع رأس ، لأنّه جمع فَعْلًا على فُعُل ، كقولهم سَقْفٌ وسُقُف ، ورَهْنٌ ورُهُن .

وقد أقْوَى فى بيتٍ واحد[٢] ، فهو أقبح .

وقال « فى أشداقها » جمعًا على ما حواليه ، كما يقال هو ضَخْم المَثانِين . والوَطْباء : العظيمة الثَّدْيين ، وهى فَعْلاء ولا أفْعَلَ لها . ومثله دِيمةٌ هَطْلاء ، والحَلْواء . وقد مرَّ نظيرُه . وقوله « إلّا أنّها بشَر » ، البشر يقع على الواحد والجمع ، ويتناول الإنس دون سائره[٣] . والوقصاء : القصيرة العنُق . والترائب : جمع التَّريبة ، وهى موضع القِلادة . وإنّما يصِف اعوجاجَها فى خِلْقتها وهُزالها .

---

(١) كلمة « منها » ساقطة من ل .

(٢) يعنى البيت الأول .

(٣) ل : « غيره » .

٨٦٧

آخر :

١ — تَمَّتْ عُبَيْدَةُ إلّا فى مَحاسِنِها والمِلْحُ منها مكانُ الشَّمْسِ والقَمَرِ[1]

٢ — قُلْ لِلّذِى عَابَها مِنْ عائِبٍ حَنِقٍ أقْصِرْ فَرَأْسُ الذى قد عِيبَ وَالحجَرُ[2]

قوله « تَمَّتْ عُبيدةُ إلّا فى محاسنها » ، أطلَقَ القولَ بتمامها ، ثمّ استثنى المحاسنَ من خِصالِها ، فخَلَصَ التّامُ فى القَابِح لا غير . وقوله « والمِلحُ منها مكان الشّمس » ، لك أن تنصب مكانَ على الظّرف ، يريد أنّ الملحَ بعيد ، فهو فى السّماء ، ولك أن ترفعَه كما تقول : هو منّى فَرسخانِ ، فتجعلَ الملحَ منها نفسَ السّماء ، كما تجعل المُخبَر عنه فى قولك : هو منّى نَفْسَ الفَرْسَخَين ، وعلى هذا ينعطف قوله « والقمر » ، فإمّا أن تُجرِيَ على موضع مكانَ وقد نُصِب لأنّه وهو ظرفٌ فى موضع الرّفع ، وإمّا أن تُجْرِيَ على لفظ مكان وقد رُفع لأنّه يصحّ أن يقال الملح منها القمرُ كما يصحّ أنْ يقال الملحُ منها مكانُ القمر . وإذا جررتَ « والقمر » كان معطوفاً على الشّمس ، ويكون الشّاعرُ مُقْوِياً فى البيت الذى بعده .

وقوله : « فرأس الذى قد عيب[3] » ، أى رأس الإنسان الذى قد عيب ، لذلك لم يقل فرأس التى . وعطف الحجر على الرّأس على أحد وجهين : إما أن يريد رأسُه والحجرُ مقرونانِ على طَريق الدُّعاء لا على طريق الإخبار ، فحذَف الخبرَ لأنّ المراد مفهوم . وهذا كما يقال : كلُّ امرئٍ وشأنه . وإما أن يريد بالواو معنى مع ، كأنه قال رأسه مع الحجر ، وحينئذ يكون الخبر فى الواو ، وهذا

(١) التبريزى : « من محاسنها » .

(٢) ل : « عبث » التبريزى : « عبث الحجر » .

(٣) ل : « عبث » .

يكون كقولهم : الرِّجال وأعضادُها ، والنساء وأعجازها ، لأن المراد الرجال بأعضادها والنساء بأعجازها . و إنما قال : « قلْ للذى عابَها من عائبٍ حنق » تخفيفاً لقُبْحها وتسليا[1] لانتهاء عَيْبها . والحَنَق : أشدُّ الغيظ .

٨٦٨

وقال آخر :

١ — لا تَنْكِحَنَّ الدهرَ ماعِشْتَ أَيِّمًا مُجَرَّبةً قد مُلَّ منها ومَلَّتِ[2]

٢ — تَحُكُّ قفاها مِنْ وَرَاء خِمَارِها إذا فَقَدَت شيئاً من البيتِ جُنَّتِ

٣ — تَجُودُ برِجليْها وتَمْنَعُ دَرَّها وإن طُلِبَت منها المودَّةُ هَرَّتِ

قوله « لا تَنكحنَّ » أراد بالنِّكاح العَقْد لا الجماع . والأيِّم : التى قد مات عنها زوجُها . وقد آمَت تَئيم ُ أَيْمَةً .

وقوله « قد مُلَّ منها ومَلَّت » يريد أنها طَعنَتْ فى السِّنّ ، فقضت مآربَ الشَّهوات وقُضِيَت منها .

وقوله « تَحُكُّ قفاها من وراء خمارها » ، أى تركَت التنظُّف والتنطُّس ، ونسِيَت الحياء والأَنَفة ، فرأسُها تَحُكُّها دائباً ، ومحبّتُها الحقير تُجَنِّنُها ، حتى إذا فَقَدَت مالا خطرَ له ، كان عندها كالكبير الذى لا عِوَضَ منه .

وقوله « تَجُود برجليها وتَمنع دَرَّها » ، ويجوز أن يكون مثلا لقِلَّة خيرها ، فشبَّهها بالشَّاةِ التى تُفاجُّ رِجلَيها ، فإذا أُريدَ حَلَبُها مَنَعَتْ . ويجوز أن يكون المراد أنَّها قعدتْ عن الوِلادِ فهى تُساعِدُ فى الجماع ولا تَحْمِلُ ولا تَلِد .

(١) فى الأصل : « تسليا » ، صوابه فى ل .

(٢) التبريزى : « مجرمة » .

وقوله « وإن طُلِبَتْ منها المودَّةُ هَرَّت » يريد أنَّها لا يُبتغَى عندها من نتائج الوُدِّ وأسباب الشَّفَقةِ والحُبِّ شيء إلاَّ نَبحتْ نَبيحَ الكلاب . ويجوز أن يريد بهَرَّت كرهت وتقبَّضت(١) .

٨٦٩

آخر :

١ — لِأسماءَ وَجْهٌ بِدْعةٌ مِن سَماجةٍ يُرَغِّبُنى فى نَيْكِهِ كُلُّ أتانِ

٢ — بَدَا فبدَتْ لى شُقَّةٌ مِن جَهَنَّمٍ فقُمتُ ومالى بالجحيم يَدانِ

٣ — وغادَرْتُ أصحابى الذين تخلَّفوا بما شِيتَ مِن خِزْيٍ وطُولِ هَوانِ

٤ — وما كُنتُ أدرِى قبلَها أنَّ فى النِّسا جَحِيماً أراها جَهْرَةً وتَرانى

قوله « بدا » الفعل للوجه ، وشُقَّة ، أى قِطعة . ولك أن ترويه بكسر الشين ، فيكون كصِرْمة وكِسرة وجِذوةٍ وقِطعةٍ وفِدْرةٍ ، ولك أن تضمَّ الشِّين فيكون كالشُّعْبة والعُجرة والعُقدة ؛ فاروِه كيف شئت . وقوله « فقمت ومالى بالجحيم يدان » أى تهيَّأت للهَرَب منها ، إذْ لم يكن لى طاقةٌ بالصَّبر عليها ، ولا قُوَّة فى ملاقاتها .

وقوله « وغادرتُ أصحابى » كأنَّه شايَعه فى النَّهضةِ قومٌ وتخلَّفَ عنه قوم ، فقال : مَن تخلَّفَ عنِّى كانت حالُه على ذلك .

٨٧٠

آخر :

١ — لا تَنكِحَنَّ عَجُوزاً إنْ أُتِيتَ بها واخْلَعْ ثِيابَكَ منها مُمْعِناً هَرَبا

(١) ل : « وتقضبت » .

٢ — فإنْ أتَوْكَ وقالوا إنّهـا نَصَفٌ فإنَّ أَمْثَلَ نِصفَيْها الذى ذَهَبا[1]

المراد بالنُّكاح العَقْد ههنا ، وفى القرآن : ﴿ فانكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع ﴾ . وقوله « واخلَعْ ثيابَك » يجوز أن يكونَ مثلَ قول امرئ القيس :

* فَسُلِّى ثيابِى مِنْ ثيابِكِ تَنْسُلِ[2] *

وكما يقال ضُمَّ إليك مِن كذا جَناحَك . ويجوز أنْ يريد به تشمَّرْ وتخفَّفْ واخرجْ من مَسْكِك[3] . ومعنى « منها » أى من أجلها . ونَصب « ممِعناً » على الحال . ويقال : أمعَنَ فى السَّير ، إذا أبْعَدَ . و « هَرَباً » يريد هاربا . وإنّما سامَه ما سامَه ليكون أخفَّ سيراً وأسرع حَرَاكا .

وقوله « فإنَّ أمثَلَ نصفَيها » أى أصلحهما ، ويقال : فلانٌ أمثَلُ من فلان ، أى هو أدنَى منه إلى الخَيْر . وأماثل القَوم : خيارهم .

٨٧١

آخر :

١ — رَقطَاءُ حَدْباءُ يُبْدِى الكِبْدَ مَضْحَكُها قَنْواءُ بالعَرْضِ والعَينانِ بالطُّولِ

٢ — لها فَمٌ مُلتَقَى شِدْقَيْهِ نُقْرَتُها كأنَّ مِشْفَرَها قد طُرَّ مِنْ فِيلِ

٣ — أسنانُها أُضعِفَتْ فى خَلْقِها عدَداً مُظَهَّراتٍ جَميعاً بالرَّواويلِ

الرَّقطاء : المنقَّشة[4] بالبَرَش . والقَنا : طُولُ الأنف ، وإذا كانَ بالعَرض كانَ كأنف الخنزير .

(١) التبريزى : « وإن أتوك فقالوا » .
(٢) من معلقته . وصدره :
* وإن تك قد ساءتك منى خليقة *
(٣) المسك ، بفتح أوله : الجلد .
(٤) ل : « المنقطة » .

وقوله « مُلتقَى شِدقَيه نقرتُها » ، أراد أنَّها اسِعَة فهما يلتقيان عند نُقْرة القَفا .
ومعنى طُرَّ نُطِـعَ . وقوله « مُطهَّرات » أى جُعل لها ظِهارةٌ كما يُجعَل للفرش ظهارة ، وكما قيل من الظِّهارة ظُهِّر قيل من البِطانة بُطِّن ، ويجوز أن يكون من قولك هو ظَهِيرُك أى مُعِينك . ويقال : بعير مظهَّرٌ ، أى شديد الظَّهر قوىٌّ .
والظَّهْر : ما غَلُظ من الأرض وارتفع ، والظَّاهرة مثله ، وهما ممَّا تقدَّم . والرَّواويل : زوائدُ على عدد الأسنان ، والواحد رَاوُول .

٨٧٢

آخر :

١ — اضرِمِينى يا خِلْقَةَ المِجْدَارِ ... وصِلِينى بطُول بُعْــدِ المَزَارِ

٢ — فلقدْ سُمْتِنِى بوجهك والوَصْـ ... ـلِ قُروحًا أعْيَتْ على المِسبَارِ

٣ — ذَقَنٌ ناقصٌ وأنفٌ غليظٌ ... وجَبِينٌ كَسَاحَةِ القُسطَارِ

٤ — طَالَ لَيلِى بِها فبتُّ أُنادِى ... يالثَّاراتِ مُستَضَــاء النَّهارِ

٥ — قَامَةُ القُصْمُلِ الضَّعيفِ وكَفٌّ ... خِنْصراها كُذَينَقَا القَصَّارِ[(١)]

قوله « يا خِلقَةَ المِجْدار » يريد أنتِ غليظةٌ ثقيلة ، فكأنَّك فى غِلَظِ الجدار وثقَله ، وكما قيل من الجِدار مِجدارٌ قيل فى الغليظ الثَّقيل من الجبل مِجْبال .
وقال امرؤ القيس :

إذَا ما الضَّجِيعُ ابتزَّها مِن ثِيابِها ... تَميلُ عليه هَوْنَةً غَـيرَ مِجْبَالِ

ومِفْعَال من أبنية الآلات ، فهو كالمفتاح والمِقياس[(٢)] وللدِّراك[(٣)] ، وكان

---

(١) ل والتبريزى واللسان (كذنق) : « القصمل الضئيل » . وفيهما أيضاً : « قصار » . قال التبريزى : « وروى بعضهم : كوذينتا قصار » .
(٢) ل : « والمقباس » بالباء الموحدة . (٣) كذا فى النسختين .

الأصل فى الجذر الارتفاع والنُّتوّ . ويقال : جَدَرْتُ الجِدَار . وقال بعضهم : الُجدَرِيّ منه اشتُق .

والقُروح : الجراح . والمِسْبار : المُلمُول الذى يقدَّرُ به الجُرْح وغَوْرُه ، وهو من سَبَرْتُ ، وتُوُسِّع فى استعماله حتَّى وُضِع موضعَ جَرَّبْتُ . والقُسْطار : الصَّيْرفىُّ ، وساجته : لَوحه الذى يَقُوم عليه كِفَتا الشَّاهين إذا وُزِن به[1] .

وقوله « يا لَثارات » يا حرف النداء ، واللام لام الاستغاثة . وإنَّما يستغيث بمن يَرُدّ عليه النَّهار .

والقُصْمُل . القصير ، والخليلُ أهمله وكذلك الخارزَنْجِىُّ والدُّرَيدى . والضَّئيل : الدَّقيق . ورواه بعضهم : « قامة الفصْمُل » ، بالفاء ، وهو العقرب الصَّغير ، والرَّجل اللئيم . والمراد أنَّ فى أعضائها تفاوُتاً فلا يتلاءم خَلْقُها[2] .

٨٧٣

آخر :

١ — ألامَ على بُغْضِى لما بَيْنَ حَيَّةٍ	وضَبْعٍ وتمْسَاحٍ تَمَشَّاكَ مِنْ بَحْرِ
٢ — تُحاكِى نَعِيماً زالَ فى قُبْحِ وَجْهِها	وصفْحتُها لمَّا بدتْ سَطْوةُ الدَّهرِ
٣ — هى الضَّرَبانُ فى المَفاصِلِ خالياً	وشُعْبَةُ بِرْسَامٍ ضَمَمْتَ إلى النَّحْرِ
٤ — إذا سَفَرَتْ كانت بعينيكَ سُخْنَةً	وإن بَرْقَعَتْ فالفقرُ فى غايةِ الفَقْرِ[3]
٥ — وإنْ حَدَّثَتْ كانتْ جميعَ مصائبٍ	ومُوفَرَةً تأتى بقاصِمَةِ الظَّهْرِ
٦ — حديثٌ كَقَلْعِ الضِّرْسِ أونَتْفِ شَارِبٍ	وغُنْجٌ كَحَطْمِ الأنف عِيلَ به صَبْرِى

(١) الشاهين : عمود الميزان .

(٢) فاته أن يفسر الكذينق . قال التبريزى : « تثنية كذينق ، وليس بعربى ، وهو الذى تسميه العامة كودينا » . وفى اللسان : « قال ابن برى : الكذينق مدق القصار الذى يدق عليه الثوب » . وهو بالفارسية « كدين » أو « كدينه » . استينجاس ١٠١٩ .

(٣) ل : « لعينيك » . التبريزى : « لعينك » .

٧ — وتَفْتَرُّ عن قُلْحٍ عَدِمْتُ حديثَها وعَن جَبَلَىْ طَيِّ وعن هَرَمَىْ مِصْرِ

جَمَع بين الحيَّة والضَّبُع والتِّمساح ، لأنه ليس يقصد التَّشبيهَ من وجهٍ واحد ، وإنَّما يريد التَّشبيه من وجوهٍ كثيرة من الخَلْق والخُلُق . والتِّمساح : الدَّابة المعروفة ، والرَّجلُ الكذَّاب . وجاء على هذا البناء شيءٌ من الأسماء قليل لأن المصادر كلَّها على تَفْعال بفتح التاء ، إلَّا حرفين وهما تِبْيان وتِلقاء ، وقد حصرتُها فى كتابى المسَّى بـ « عُنوانِ الأديب » .

وقوله « تُحاكِى نعياً زال » ، يريد به المثلَ السَّائر : « أقبح من زوال النِّعمة » . يريد : تُحاكى فى قُبْح وجهها قُبحَ زوالِ النِّعمة ، فجعل اللَّفظ توسُّعاً على ما ترى ، ثم جعل جانبها وما تُصافح به مُلاقِيَها كسطوة الدَّهر . والسَّطوة : البَسْط على الإنسان تَقْهَرُه من فَوق ، وتقول : سَطَوْتُ به ، وفى القرآن : ﴿ يَكادُونَ يَسْطُونَ بالَّذِينَ يَتْلُونَ ﴾ . قال الخليل : سُمِّى الفرسُ ساطياً لأنَّه يَسطُو على غيره فيقوم على رجلَيه ويَسطُو على يديه . وقوله « هى الضَّرَبانُ فى المَفَاصل خالياً » ، أى إذا خلوتُ بها كانت خَلوتُها كمَوَجان العُروق بالألم فى مفاصل المُنقْرِس ، وإنْ جذبتَها إلى نفسِك مرتدياً بها قاسيتَ منها ما يُقاسِى المُبَرْسَمُ من عارضِه ، وإنْ ألقتْ قِناعَها سَخِنت العَينُ بالنَّظَر إليها . كأنَّها إذا تبرقَعَتْ تناهَى افتقارُك من كلِّ منظرٍ يروق ، ومَطْلَعٍ يُعجِب ويَروع ، فى رَدِّ الطَّرْفِ إليها . وقوله « فالفقرُ فى غايةِ الفقر » ، أى إذا تناهَى الفقرُ ، حتَّى لا يكونَ وراءه شىءٌ منه .

والمصائب : جمع مُصِيبة ، وهى مُفْعِلَةٌ ، وشُبِّه مَدَّتها بمَدَّة فَعِيلة ، وجمعت جَمْعَها ، والقياس مصاوِب وقد جاء ولكنَّه فى الاستعمال دونَ مصائب . وهذا مما شذَّ فى القياس ، أعنى مصائب . ومَصاوب شاذٌّ فى الاستعمال مُطَّرِد فى القياس . ومُوَفَّرَةٌ ، أى مكمَّلة . وقاصمة : كاسِرة ، أى رَزِيَّة هكذا وداهية هكذا .

وقوله « كَحَطْمِ الأنف » ، الكسر للشَّيء اليابس . والحُطام ، ما تحطَّم ، من ذلك . ورجل حُطَمٌ . وعِيلَ به صَبرِى ، أى غُلِب . وفى المثل : « عِيلَ ما هو عائِلُه[١] » .

وقوله « عَدِمتُ حدِيثَها » دعاء لنفسه وعليها ، وهو من الحَشْو الحَسَن . ومثلُه فى الدُّعاء وحُسْنِ الَموقِعِ قولُ الآخَر[٢] :

إنّ الثَّمانينَ وبُلِّغْتَهــــا ... قد أحْوَجتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمَانْ

وتَفْتَرُّ ، أى تضحك ، ومنه فَرَرْتُ الدابة . وقوله « جبلَىْ طَيِّ » يعنى أجأ وسَلْمَى ، وإنما يَعنى اختلافَ أسنانِها وعِظَمِها .

٨٧٤

آخر :

١ — لو تَسَمَّعْتَ صَوْتَه قُلتَ هذا ... صَوْتُ فَرْخٍ فى عُشِّه مَزْقُوقِ

٢ — أو تأمَّلْتَ رأْسَه قلتَ هذا ... حَجَرٌ مِن حِجارةِ الَمنْجنيقِ

٣ — مُمْمِلٌ قَرْضَ لِحْيَةٍ لو تَراها ... قُلْتَ عُثْنُونُ هِرْبِذٍ مَحْلُوقِ[٣]

٤ — لَمْ أعِبْهُ ألَّا يَكُونَ تَقِيًّا ... مُؤْمِنًا مُبْغِضًا لأهــلِ الفُسوقِ

٥ — غيرَ أنِّى أردْتُ أنْ يَنظُرَ النَّا ... سُ إلَى خَلْقِ رَبِّنا الَمخْلُوقِ

مزقوق أى يزقُّه أبَوَاهُ زَقًّا . قال :

نَتَسَاقَى الرِّيقَ فيما بَيْنَنا ... زَقَّ أُمَّاتِ القَطَا زُغْبَ القَطَا

(١) أى غلب ما هو غالبه . وفى اللسان : هو كقولك الشىء يعجبك : قاتله الله وأخزاه .

(٢) هو عوف بن محلم الخزاعى . الأمالى (١ : ٥٠) .

(٣) الهربذ : واحد الهرابذة ، وهم قومة بيوت النار التى للهند ، فارسى معرب . وتقييد بيوت النار بالهندية هو المذكور فى المعاجم العربية ، وهى مكونة من كلمتين : « هير » بمعنى النار ، و « بد » بمعنى الحافظ والقيم .

وقوله «قلتَ هذا حَجَر» ، يريد شبَّهته فقلت مِن كِبَره : هو حجر المِنْجَنيق .
والمَنْجنيق معرَّبة ، وقد اختُلف فى الفعل منه ، فقال بعضهم : الميم زائدة ، واحتجّ بما حكاه التَّوَّزِىُّ عن أبى عبيدة ، قال : سألت أعرابيًّا عن حروبٍ كانت بيْنَهم ، فقال : «كانت بيننا حروبٌ عُونٌ ، تُفقأ فيها العُيون ، مرة نُجْنَقُ ، ومرة نُرْشَقُ» . قال : فقوله نُجنَق دالٌّ على أنّ الميمَ زائدة ، ولو كانت أصليّةً لقال نُمَجْنَق . وإلى هذا ذهب الدُّريدىّ .
وكان أبو عُثمانَ المازنىّ يقول : الميم من نفس الكلمة ، والنون زائدة ، لقولهم مَجانيق ، فسُقوط النُّون فى الجمع كسقوط الياء فى جمع عَيْضَمُوز إذا قلت عَضَامِيز[1] . وحكى الفَرّاء : جَنَقوكم بالمجانيق أيضا . فهذا على الوجه الأوّل[2] .
وقوله «مُقْبِلٌ قَرضَ لحيةٍ» أى قطْعَ لحية . و «لو تراها» حَمَل اللفظ على اللّحية والمراد مَنْبِتَها . والعُثْنُون : أصل اللَّحْيِ ، وأوائل الرِّيح والسَّحاب .
وقوله «خَلْقِ رَبِّنا المخلوق» ، وَصفَ الخلْق بالمخلوق تأكيداً ، ويجوز أن يكون المراد خَلْق ربِّنا المقدَّر ، لأنّ الأصل فى الخَلْق التقدير . ألا تَرَى قوله :

ولأنتَ تَفرِى ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القَومِ يَخْلُقُ ثمّ لا يَفْرِى[3]

٨٧٥

آخر :

وأُقْسِمُ لو خَرَّت مِن استِكَ بيضةٌ لما انكَسَرَتْ لقُرْبِ بَعْضِكَ من بَعْضِ

(١) العيضموز : العجوز الكبيرة .
(٢) المنجنيق معرب من الفارسى «منجنيك» ، وهذه مأخوذة من اليونانى : Magganon ، وهى آلة ترى بها الحجارة فى القتال . ويضطرب اللغويون العرب فى تأصيلها من الفارسى . انظر المعرب للجواليقى بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر ٣٠٦ ومعجم استينجاس . وقد ذكر الأخير أنها مأخوذة من اليونانى .
(٣) لزهير فى ديوانه ٩٤ .

الخُرور : السقوط للوَجْه . وخَرَّ الماء المكانَ : جعَلَ فيه أخاديدَ .
والخَرْخار : الماء الكثير الجارى .

٨٧٦

آخر[1] :

أظُنُّ خَلِيلِي مِنْ تقارُبِ شَخصِهِ   يَعَضُّ القُرادُ باسْتِهِ وهو قائمُ

٨٧٧

آخر[2] :

١ — ولقدغَدَوْتُ بمُشْرِفٍ يافُوخُهُ   عَسِرِ المَكَرَّةِ ماؤُه يَتدَفَّقُ
٢ — أَرِنٍ يسِيلُ من النَّشاطِ لُعابُه   ويكاد جِلْدُ إهابِه يتمزَّقُ

كأنه ألغَزَ فى هذا ، وأراد بمُشْرِفِ اليافوخ ذلك العضو .

ورُوِىَ أنَّ أعرابيًّا حضَرَ مجلسَ أبى عبيدة ، فألقى البيتين عليه ، فذهب أبو عُبيدة إلى أنَّ الشَّاعرَ يَصِفُ به فرساً ، وأخَذَ يفسِّره ، فقال الأعرابىّ : حَمَلك اللهُ يا شيخُ عَلَى مِثْلِه ! ففطِنَ أبو عبيدةَ وخَجِل . ومعنى يتدفق يتصبب شيئاً [فشيئاً[3]] . والأرِن النشيط ، ويقال للمستنِّ من النَّشاط : أرِن يأرَنُ أرَناً . وقيل إنَّ الأرَن نَشَاط الخيل ، كما أنَّ الهبَصَ نَشَاط الظِّباء . والسَّنَنُ : نشاط الإبل ، ومنه جاء فى المثل : « استنَّت الفِصالُ حَتَّى القَرْعَى » . والأشَرُ : نَشاط الإنسان . والإهاب : الجِلْد الذى هو أهْبَةُ ما وراءه من اللَّحم . كما أنَّه سُمِّى[4] ما يُمْسِكُه المَسْكَ . ولذلك قال « جلد إهابه » فأضاف الجلدَ إليه .

(١) هو الحزين الكنانى يهجو كثيراً الشاعر . وللبيت قصة طريفة فى الأغانى (٨ : ٢٨ — ٢٩) . وانظر الحيوان (٥ : ٣٤٩) ومحاضرات الراغب (٢ : ١٢٩) .
(٢) هذه الحماسية رواها التبريزى فى (باب الملح) . وهو الأوفق .
(٣) التكملة من ل .
(٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كأنه سمى » .

٨٧٨

آخر[١] :

١ – لو تأتّى لكِ التّحوُّلُ حتّى تجعلى خلفَكِ اللّطيفَ أماما

٢ – ويكونَ الأمامُ ذُو الخِلقة الجَبْ لَةِ خلفاً مُرَكَّناً مُستكاما

٣ – لإذا كُنتِ يا عُبيدَةُ خيْرَ الـ ـنَّاسِ خلفاً وخيرَهُمْ قُدّاما

يَصِفُها بأنّها قليلة اللّحم على العَجيزة ، عظيمةُ البطن . فيقول : لو قُدِّمَ مُؤخَّرُكِ وأُخِّرَ مُقَدَّمُكِ لارتَفَى خَلفُكِ وقُدّامُك ، لالتئام أعضائك ، واعتدال مقاسِمِك . واستُعمل الخلفُ والأمام استعمالَ المُقَدَّم والمؤخَّر فجُعِلا اسمين . والمركَّنُ : الذى له أركان . والجَبْلَةُ : الغَليظة . والمستكام ، من الـكَوْم ، وهو الجِماع . وانتصب خَلفاً وقُدّاماً على التمييز .

٨٧٩

وأنشَدَ لأبى النَطمَّشِ[٢] أبو عُبيْدَةَ :

١ – مُنيتُ بِزَنْمرْدَةٍ كالعصَا ألَصَّ وأخبَثَ من كُنْدُشِ

٢ – تُحِبُّ النّساءَ وتأبَى الرّجالَ وتَمْشِى مع الأخبَثِ الأطيَشِ

٣ – لهـا شَعْرُ قِرْدٍ إذا ازَّيّنَتْ وَوَجْهٌ كبَيْضِ القَطَا الأبْرَشِ[٣]

٤ – وثَدْىٌ يَجُولُ عَلَى نَحْرِها كَقِرْبَةِ ذِى الثَّـلَّةِ المُعطِشِ

---

(١) التبريزى : « وقال بعض المدنيين » .

(٢) التبريزى : « لأبى النطمش الحنفى » . وكذا جاءت نسبة الأبيات فى اللسان (كندش) . وجاءت مطولة وبدون نسبة فى مجالس ثعلب ٩٢ – ٩٤ . والأبيات وردت فى الأغانى (١٠ : ١٣١) منسوبة إلى إسماعيل بن عامر ، وهو شاعر مخضرم من شعراء الدولتين يقولها فى هجاء أم ولد له .

(٣) التبريزى : « لها وجه قرد » ثم ذكر الرواية الأخرى .

يُروى « زَنْمِرْدَةٍ » بفتح الزاى وكسر الميم ، ويكون مما عُرِّب ولا نظيرَ له فى أبنية العرب . ويُرْوَى بفتح الزاى وفتح الميم ويكون على مثال قَهْقَرٍ ، وهو حجرٌ يملأ الكفّ . ويُروى « زِنْمَرْدَةٍ » بكسر الزاى وفتح الميم فيكون على وزن فِعَّلَّةٍ من الرُّباعىّ نحو عِلَّكْدٍ ، وهو الغليظ الشديد ، أو يكون فِعْلَلٌ من الخُماسى نحو خِنْزَقْرٍ ، وهو القصير ، وقِرْطَعْبٌ دابّة . والمراد بها المرأة التى خَلْقُها وخُلُقها كما يكون للرّجال . وشبّهها بالعَصا لقلّة لحمِها وهُزالِها ، واستواء صَدْرِها وظهرها . وكُنْدُشٌ : لقبُ لصّ كان معروفاً عندهم[١] . وقوله « إذا ازَّيَّنَتْ » أراد تزيَّنَت ، فأراد الإدغام فيها وأبدلَ من التّاء زاءً فسكّن أوّلَها ، فجُلبَ ألفُ الوصل ليتوصّل إلى النُّطق بساكن ، فصار كما ترى . والثُّلّةُ : الفِرقة والطّائفة من الضَّأْنِ . والمُعْطِشُ : الرّاعى الذى قد عَطِشت رعيّتُهُ .

٥ — لها رَكَبٌ مِثْلُ ظِلْفِ الغَزَالِ ... أَشَدُّ اصفِراراً مِنَ المِشْمِشِ

٦ — وأَبْرَدُ من ثلجِ سَاتِيدَمَا ... وأكثرُ ماءً مِنَ المِكْرِشِ[٢]

٧ — وفَخْذَانِ بَيْنَهُمَا نَفْنَفٌ ... تُجِيزُ المَحَامِلَ لا تَخْدِشِ[٣]

٨ — وسَاقٌ مُخَلْخَلُها حَمْشَةٌ ... كَساقِ الجَرَادةِ أو أحْمَشِ

٩ — كأنَّ الثّآليلَ فى وَجْهِها ... إذا سَفَرَتْ بَدَدُ القِشْمِشِ

١٠ — لها جُمّةٌ فَرْعُها جَثْلَةٌ ... كمِثْلِ الخَوَافى مِنَ المُرْعَشِ

الرَّكَبُ : أصل الفَخِذ الذى عليه لَحمُ الفَرْج من المرأة ومُعلّق الذَّكَر من الرَّجُل . والنَّفْنَف : المَهْواة بين الجبَلَين . والخَدْشُ والخَمْشُ والكَدْحُ نظائر .

(١) وقال قوم : الكندش العقعق . وذكر بعضهم أنه الفأرة .

(٢) هذا البيت ليس فى ل ولا التبريزى ولا فى مجالس ثعلب . وساتيدما : جبل بين ميافارقين وسعرت . والمكرش : ماء لبنى عدى باليمامة .

(٣) هذا ما فى الأصل ومجالس ثعلب وفيه الإقواء . وفى ل والتبريزى : « لم تخدش » .

والحَمْشَةُ : الدَّقيقة . وإنما أنّثَ والمُخَلْخَلُ مذكَّرٌ لأنَّ المخلخلَ من السّاق ، والسّاق مؤنّثة ، وبعضُ الشّيء إذا أُطلِقَ عليه اسمُ الكُلِّ أُجرِى فى الأحوال مجراه إلا أن يمنع مانع . وهذا كما قال الآخر[١] :

* كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ[٢] *

لأنَّ صدر القناة قناة ، كما أنَّ المخلخلَ يقال له السّاق . فالبِدَدُ : جمع بِدَّةٍ ، وهى القِطْعة المتفرِّقة . وتبادَّ القومُ : تباعَدُوا . والجُمَّة من الشَّعر : دون اللِّمَّة فى الطُّول . والجَثْلَةُ : الكثيرة الأصول . والمُرْعَشُ : الحمام الأبيض . والخوافى : ما دُون الرِّيشات العَشْر .

٨٨٠

وقال آخر[٣] :

١ — ماذا يُؤرِّقُنِى قِدْماً ويُسهِرُنى ... مِنْ صَوْتِ ذِى رَعَثاتٍ ساكِنِ الدّارِ[٤]

٢ — كأنَّ حُمّاضَةً فى رأسِهِ نبتَتْ ... فى أوّلِ الصَّيفِ قد هَمَّتْ بإثْمارِ[٥]

قوله « ماذا يؤرِّقنى » لفظه استفهامٌ ومعناه تعجُّب . وقد مرَّ القول فى لفظة ماذا[٦] . وقوله « مِنْ صَوتِ ذى رَعَثاتٍ » أى من انتظارِ صوتِه ، فحذف المضاف . ورَعَثات : جمع رَعْثَةٍ وهى من الدِّيك عُثْنُونه . ورعثَة الشّاة : زَنَمتها . والرَّعَاثُ : كلُّ مِعْلاقٍ من قُرطٍ أو قِلادة أو غيرها ، وربما عُلِّق من الرَّحْل

---

(١) هو الأعشى . ديوانه ٩٤ واللسان (شرق) .

(٢) صدره : * وتشرق بالقول الذى قد أذعته *

(٣) نسب البيت الأول فى اللسان (رعث) إلى الأخطل . وروايته :

* ماذا يؤرقنى والنوم يعجبنى *

(٤) البيتان فى اللسان (حمض) والحيوان (٢ : ٣٤٦) ومحاضرات الراغب (٢ : ٣٠١) .

(٥) الحيوان : « من آخر الليل قد همت » .

(٦) انظر ما سبق فى ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

والمَوْدَج رَعْثٌ من الصُّوف . والحُمَّاض ، من ذُكور البَقْل ، له زَهْرةٌ حمراء كأنّها الدّم . والإثمار : إخراج الثَّمر . وشبَّهَ عُرفَ الدِّيك به .

٨٨١

وقال آخر :

١ — صَوْتُ النَّواقيسِ بالأسْحَارِ هَيَّجَنِي ... بَلِ الدُّيوكُ التى قَدْهِجْنَ تَشْوِيقِى

٢ — كأنَّ أعرافَها مِنْ فَوقِها شُرَفٌ ... حُمْرٌ بُنِينَ على بَعْضِ الجَوَاسيقِ

٣ — عَلَى نَعَانِعَ سَالَتْ فى بَلَاعِمِها ... كثيرةِ الوَشْىِ فى لِينٍ وتَرْقِيقِ

٤ — كأنَّما لَبِسَتْ أوْ أُلبِسَتْ فَنَكاً ... فَقَلَّصَتْ مِنْ حَوَاشِيهِ عن السُّوقِ[1]

قوله « صَوت النَّواقيس » أى انتظارُ صوتِ النَّواقيس هيَّجنى ، فحذف المضاف . وهذا كما قال الآخر[2] :

لمَّا تذكَّرْتُ بالدَّيْرَيْنِ هيَّجَنِي ... صَوْتُ الدَّجاجِ وقَرْعٌ بالنواقيسِ[3]

وقال غيرهما :

* وصوت نواقيسَ لم تُضْرَبِ *

فنَبَّهَ بقوله « لم تُضْرَب » على أنّه كان منتظَراً لا واقعاً . والجواسيق : جمع الجَوْسَق ، وهى قريبةٌ من القُصور . وأشبع الكسرةَ فى السِّين فتولَّد منها ياء . ومثله :

* نَفْيَ الدَّراهيمِ تَنْقَادُ الصَّياريفِ[4] *

(١) الفنك : دابة يفترى جلدها ، أى يلبس جلدها فروا .
(٢) هو جرير . ديوانه ٣٢١ والحيوان (٢ : ٣٤٢) .
(٣) ذكر صاحب العقد (٥ : ٣٨٨) أنه أراد ديرا واحداً هو دير الوليد بالشام . وقد صرح ياقوت أنه أراد ديرين « دير فطرس » و « دير بطرس » بظاهر دمشق .
(٤) الفرزدق فى ديوانه ٥٧٠ والخزانة (٢ : ٢٥٦) وسيبويه (١ : ١٠) والكامل ١٤٣ ليبسك . وصدره :
* تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة *

والنَّمَانِعُ : أعراف الدِّيكَة . وأصل التَّنَمْنع الاضطراب . لذلك قيل للطَّويل المضطرب النُّمْنُم . ونمانع المِنْطَقَةِ : ذِنابُها[1] . والبُلْعُوم والبُلْعُمُ : مَجرَى الطَّعام ، وباطنُ العنق .

وهذه المقطوعةِ وما قبلَها ، بابُ الصفات أولَى بهما ، فاتَّفق وقوعُهما هنا .

وهـذا آخر الاختيار . والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلواتُه على النبيِّ محمَّدٍ وآلِه أجمعين .

* * *

قد سَهَّل الله وله الحمدُ ، تعالى جَدُّه ، بلوغَ المنتَظَر من تتميم شرحِ هذا الاختيار ، واللهُ بمَنِّه وطَوْلِه ينفعُك وإيَّانا به ، ويُعينُك على تفهُّمه .

وهذا الكتابُ وإنْ عظُم حَجْمُه ، وكَثُر ورقُه ، فإنَّه لا يُمِلُّك تصفُّحه وقراءتُه ، إذْ كان كلُّ باب من أبوابه ذا فنونٍ من آثار العقول الصَّحيحة ، والقرائح السَّليمة ، فكلُّ نوعٍ من أنواعه جَمَامٌ لما يليه ، وجِلاءٌ لما يَعيِيه ، ولأنَّ غوامضَ المَقَاصِد إذا تبرَّجَتْ لك فى روائع المعارض ، وأقبَلَ فهمُك رائداً لقلبك ، يتشمَّم نوادرَ الزَّهَر فى مَغارس الفِطَن ، ويتخيَّر فرائدَ الدُّرَر من قلائد الحِكَم ، فكلَّما ازداد التقاطاً زادك نشاطاً ، كما أنَّ مَن عرَف الفَرق بين الإطناب والإيجاز ، وبين التَّطويل والتَّقصير ، وعلِمَ أنَّ الإطناب تفخيمٌ وتكميل ، كما أنَّ الإيجاز تخليص وتهذيب ، وأن التَّطويل زيادةٌ على الكفاية ، وذَهابٌ عن غاية الحاجة ، كما أنَّ التَّقصير قُصورٌ عن الحدِّ المرتاد ، ووقوفٌ دونَ مَدَى المراد ، حَمِدَ الإطنابَ والإيجازَ لما نالَهما من سِهام البلاغة ، وذَمَّ التَّطويلَ والتَّقصيرَ بما فاتهما من أقسام الفصاحة .

(١) كذا فى النسختين . وفى القاموس : « ذباذبها » .

واعلمْ صَحِبَكَ التَّوفيقُ فى مباغيك ، أنّ ما جمعْتُ منتشِرَهُ ، وأثرْتُ مُكْتَمِنَهُ ، وحَلَلْتُ معقودَه ، وأعدتُ محذوفَه ، ونَشرتُ مطوِيَّه ، ومَدَدتُ مقصوره من بُيوتِ هذا الاختيار وفصولِه ، فإنِّى لم أُدرِكْهُ إلّا فى مدّةٍ طويلةٍ لا أذكر طرَفيْها ، وبمجاهداتٍ لشُيوخ الصِّناعة عجيبة لا أنسَى مُجاذَباتِى فيها ، حين كان فى القول إمكانٌ ، وللتَّحصيل إرصاد ، ولسَهمِ النِّضال تسديد ، وفى قَوس الرِّماء مَنْزَعٌ وتوتير ، وكانَ الرَّأىُ وَلُودًا ، والخاطر عَمُولًا ، والحدُّ حديداً ، والحِرْصُ عتيداً ، مع تَمام البَراعة ، واجتماع المادّة والآلة .

فلا تظُنَّنّ فيه ما يَظُنُّه الوادعُ فى جَهْدِ المكدود ، فإنّ أهْوَنَ السَّقْى التَّشريع[(١)] ، ولن تنالَه إلّا بتعبٍ شديد . وتيقَّنْ أنى أمليتُ هذا الشَّرح مُسْتَعْمِلا أرفقَ الآلات فى اختراعه ، وأوفق الألفاظ فى تصويره وبيانه ، ومستحضِراً من الشَّواهد والمُثُل مالم يكمُلْ إلّا بتعاونِه وحضوره ، ولو عَدَلْتُ عن نَهْج التَّقريب مشتملًا بأبواب الإعراب والغريب إلى غيرهما مما يُعَدُّ فى الفضول ، لتضاعَفَت المُؤَن ، وضاعت فى غُمارها النُّكت . على أنِّى أرجو أن يكون ضِنُّنَا فى تحصيله وحصره ، وسماحتُنا بَمدِّه بتصنيفه وبَذْله ، يُكسِبُنا من القلوب استحلاءً ، ومن النُّفوس مَيلًا واستحبابا ، وأنه لا تَزال تلك المحبَّةُ زائدةً نامية ، ما دامت فوائدُه قائمةً باقيةً .

وعلى الله تعالى جَدُّه مُعَوَّلنا فى أنْ يوفِّقنا لمرضاتِه ، وأنْ يجعلَ سعيَنا له وفيه ، وحسبنا هو ونِعْمَ الوكيل . والحمدُ لله الواحد القهَّار ، وصلواتُه على نبيِّنا محمدٍ وآله الطيِّبين الطَّاهرين الأخيار[(٢)] .

---

(١) التشريع : إيراد الإبل شريعة لا يحتاج معها إلى نزع بالعلق ولا سقى فى الحوض .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من ل .

[صورة ما كتبه ناسخ الأصل]

مَشَقَهُ لنفسه سعد بن إبراهيم بن أحمد الفرّاءُ ، وفرغ منه يوم الجمعة وقت صلاة العصر منتصف جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، حامداً لله عز وجل ومصلياً على رسوله محمد وآله وأصحابه من بعده ومسلما[1] .

[صورة نص الوقف المسجل فى نسخة الأصل]

قد وقف هذا الكتاب الجليل والأثر الجميل والدة السلطان الأعظم والخاقان المفخم السلطان عبد المجيد خان أدام الله أيامه وعمر دولته إلى آخر الدوران أعنى بها حضرة بزم عالم سلطان علية الشان جعل الله سعى الواقفة مشكوراً وجزاها جزاء موفورا . لسنة ست وستين ومائتين وألف .

---

(١) وفى نهاية نسخة « ل » : « وفرغ من تسويد بياض هذه النسخة أضعف عباد الله وأرجى لرضوانه محمد بن أحمد بن أيوب فى صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ... لله ومصلياً على محمد وآله » .

الفهارس العامة

صنع وترتيب

عبد السلام محمد هارون

---

١ – فهرس الأشعار

١ – فهرس الأشعار(*)

١ – الحماسيات

(أ)

(ب)

(*) ما وضع من أعلام الشعراء بين قوسين فهو مما لم يذكره المرزوقى وأمكن التحقيق أن يعرفه . والأرقام فى هذا القسم من الفهرس هى أرقام الحماسيات .

(١) أو الأقرع بن معاذ القشيرى .

(ر)

(١) وتروى لمحمد بن بشير .

(ض)

(ع)

(ف)

(١) هذه هى نسبة ابن جنى فى التنبيه .

ب ــ الشواهد

(أ)

(*) ما وضع بين قوسين ( ) من القوافى أو الأرقام فهو ما ورد صدره وأمكن معرفة عجزه .

وما وضع قبله نجم من القوافى أو الأرقام فهو ما ورد عجزه فقط .

وما وضع بين معقفين [ ] من الأرقام فهو ماورد فى حواشى التحقيق .

وما وضع بين قوسين ( ) من أسماء الشعراء فهو ما لم يذكره المرزوقى واهتديت إليه فى التحقيق .

(ت)

(د)

(١) صوابه دريد بن الصمة .

(ر)

جهرْ	طويل	ابن عنقاء الفزارى	١٥٩٠
اعتذر	»	لبيد	[٨٩٤]
قيصر	كامل	أبو العتاهية	١٥٢٤
أشقر	»	أبو نواس	١٥٢٤
المؤتبر	رمل	طرفة	٢٠٥
المسبكر	»	»	(٢٢٨)، ٥٢٩
* الجزر	»	(»)	٥١٤
المدكر	»	(»)	١٠٧٨
(فقر)	»	»	١٥٨٥
يزبئر	»	(المرار بن منقذ)	١٦٠
حذر	سريع	ابن أحمر	٧٧
* ينجحر	»	(» »)	١٢٠، ٢٤٠، ٥٩٩، ١٠٧٣، ١٥٧٤
مضر	متقارب	(الأشعر الرقبان)	١٤٦٩
النمر	»	(امرؤ القيس)	٨٠
* مقشعر	»	» »	١٦٤
أخر	»	» »	٥٤٧، * ١٨٦٩
(الشطر)	»	» »	٧٠٥
* المنحدر	»	» »	٧٣٦، ١٣٥٧
* يأتمر	»	(» »)	١٠٧٧
تهر	»	أوس بن حجر	٥٤٢
الخمر	»	—	* ١٠٣، ١٨٣٥
الكبر	»	—	[١١١٢]

(١) والفرزدق أيضاً .

(ع)

(١) أو شقران السلاماني .

(١) انظر المفضليات ١ : ٩٣ .

(م)

(ن)

(ه)

غناه	متقارب	المتنخل الهذلى	٥٥٢ ، ٩٦٩ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٦ ، ١٥٩٠
أجازيها	بسيط	(بعض بنى فقعس)	٣٠٧
سواها	وافر	العباس بن مرداس	[٣١] ، ١٥٨
رضاها	»	(القحيف العجلى)	١٤٦٢
عيناها	رجز	—	١١٤٧
الوجوه	مجزو الرمل	—	١٧٩٨
أوجهها	منسرح	أبو حنش	[٩٤٦]

(ى)

خاليا	طويل	ابن أحمر	١٠٨٤ ، ١٢٥٩
سمائيا	»	أمية بن أبى الصلت	[٧٨٤]
وزاريا	»	(جزء بن كليب)	١٤٧٧
الغوانيا	»	جميل	٤٥٩
ورائيا	»	زفر بن الحارث	[١٥٦]
فؤاديا	»	سوار بن المضرب	[١٣٠]
• بنانيا	»	(عبد يغوث بن وقاص)	١٤٤
لسانيا	»	(» » » »)	١٦٣ ، ٦٦٦
القوافيا	»	عويف القوافى	[٢٦٢]
ثنائيا	»	السكروس بن زيد	[٦٣٩]

(الألف اللينة)

(أجزاء الأبيات)

(١) انظر ص ١٧٩٥ .

٢ ـ فهرس الأرجاز

٢ — فهرس الأرجاز

ا — الحماسيات

(١) الرقم في هذا القسم هو رقم الحماسية لا رقم الصفحة .

ب — الشـــــواهد

(١) الرقم فى هذا القسم رقم الصفحات

(٢) انظر قافية (عيناها) فى فهرس الأشعار (الشواهد).

(٣) من الرجز المزدوج.

(١) من الرجز المزدوج .

(٢) وقيل لعقبة الهجيمى .

(١) الصحيح أنه للعجاج .

٣ ــ فهرس اللغــــة

٣ – فهرس اللغة

(ث)

(خ)

(د)

(ذ)

(ش)

(ض)

(ط)

(ق)

(ك)

(م)

كلمات أعجمية

٤ – فهرس الكلمات النحوية

٥ — فهرس الأمثال

٥ – فهرس الأمثال

٦ – فهرس الاعلام

٦ — فهرس الأعلام(*)

(أ)

(*) الأرقام الموضوعة بين الأقواس فى هذا الفهرس وتاليه تدل على صفحات الحماسيات، وما وضع قبله نجم من الأعلام فهو ما ورد فى متن الشعر.

(ب)

(ح)

(د)

(ز)

(ش)

(ص)

(١) هذه نسبة ابن جنى فى التنبيه الحماسية رقم ٦٧٨ .

(و)

(١) انظر الخزانة (١ : ١٠٢).

٧ – فهرس القبائل والطوائف ونحوها

٧ — فهرس القبائل والطوائف ونحوها(*)

(*) حذفت من هذا الفهرس كلمة « بنو » و « آل » ونحوها .

٨ – فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٨ – فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٩ — فهرس الكتب

وهى الكتب التى ذكرها المرزوقى فى شرحه

---

١٠ – فهرس مراجع التحقيق

أبيات الاستشهاد ، لابن فارس ، فى سلسلة نوادر المخطوطات

إتحاف فضلاء البشر ، للدمياطى . حنفى ١٣٥٩

إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى . السعادة ١٣٢٦

الأزمنة والأمكنة ، للمرزوقى . حيدر أباد ١٣٣٢

أساس البلاغة ، للزمخشرى . دار الكتب ١٣٤١

الاستيعاب ، لابن عبد البر . حيدر أباد ١٣١٨

أسد الغابة ، لابن الأثير . الوهبية ١٢٨٦

الاشتقاق ، لابن دريد ، تحقيق وستنفلد . جوتنجن ١٨٥٣ م

الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣

إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، بتحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٨

الأصمعيات ، للأصمعى . ليبسك ١٩٠٢ م

» » بتحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون المعارف ١٣٦٨

إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، لابن خالويه . دار الكتب ١٣٦٠

الأغانى ، لأبى الفرج . التقدم ١٣٢٣

إقليد الخزانة ، لعبد العزيز الميمنى . طبع لاهور ١٩٢٧ م

الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠١ م

أمالى ثعلب ، هى مجالس ثعلب

» الزجاجى . السعادة ١٣٢٤

» ابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٩

» القالى . دار الكتب ١٣٤٤

» المرتضى . السعادة ١٣٢٥

إنباه الرواة ، للقفطى ، بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . دار الكتب
إنجيل لوقا ، إنجيل متى
الأنساب ، للسمعانى . ليدن ١٩١٢ م
الإنصاف ، لابن الأنبارى . الاستقامة ١٣٤٦
بغية الوعاة ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٨
بلوغ الأرب ، للآلوسى . الرحمانية ١٣٤٣
البيان والتبيين ، للجاحظ ، بتحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٦٩
تاج العروس ، لمرتضى الزبيدى . القاهرة ١٣٠٦
تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى . القاهرة ١٣٤٩
« الطبرى . الحسينية ١٣٢٦
تزيين الأسواق ، لداود الأنطاكى . القاهرة بدون تاريخ
التصريح ، بمضمون التوضيح ، للشيخ خالد . الأزهرية ١٣٤٤
تفسير أبى حيان ، وهو البحر المحيط . السعادة ١٣٢٨
التنبيه والإشراف ، للمسعودى . الصاوى ١٣٥٧
« على أمالى القالى ، للبكرى . دار الكتب ١٣٤٤
« على شرح مشكلات الحماسة ، لابن جنى . مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .
تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٥
« الصحاح ، للزنجانى ، بتحقيق عبد السلام هارون وأحمد عطار . دار المعارف ١٩٥٢ م
ثمار القلوب ، للثعالبى . الظاهر ١٣٢٦
الجامع الصغير ، للسيوطى . حجازى ١٣٥٢
الجمهرة ، لابن دريد . حيدر أباد ١٣٥١
جمهرة أشعار العرب ، للقرشى . بولاق ١٣٠٨
حاشية الصبان على الأشمونى . عيسى الحلبى ١٣٦٦

حماسة البحترى .. الرحمانية ١٩٢٩ م
« ابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٥
حياة الحيوان ، للدميرى . صبيح بالقاهرة
الحيوان ، للجاحظ . بتحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٦٦
خزانة الأدب ، للبغدادى . بولاق ١٢٩٩ والسلفية ١٣٥١
الخيل ، لابن الأعرابى . ليدن ١٩٢٨ م
« ، لأبى عبيدة . حيدر أباد ١٣٥٨
ديوان الأخطل . بيروت ١٨٩١ م
« الأعشى . ڤينا ١٩٢٧ م
« امرئ القيس . هندية ١٣٢٤
« أوس بن حجر . ڤينا ١٨٩٢ م
« البحترى . هندية ١٣٢٩
« أبى تمام . بيروت ١٣٢٣
« جرير . الصاوى ١٣٤٥
« حاتم الطائى . الوهبية ١٢٩٣
« حسان بن ثابت . الرحمانية ١٣٤٧
« الحطيئة . التقدم بالقاهرة
« حميد بن ثور . دار الكتب ١٣٧١
« الخنساء . بيروت ١٨٨٨ م
« ابن الدمينة . المنار ١٣٣٧
« ذى الرمة . كمبردج ١٩١٩ م
« رؤبة ، بتحقيق وليم بن الورد . ليبسك ١٩٠٢ م
« زهير بن أبى سلمى . دار الكتب ١٣٦٣
« سلامة بن جندل . بيروت ١٩١٠ م
« الشماخ . السعادة ١٣٢٧

ديوان طرفة . قازان ١٩٠٩ م
» الطرماح . ليدن ١٩٢٧
» طفيل الغنوى . ليدن ١٩٢٧ م
» عامر بن الطفيل . ليدن ١٩١٣ م
» أبي العتاهية . بيروت ١٩١٤ م
» العجاج ، بتحقيق وليم بن ألورد . ليبسك ١٩٠٢ م
» عروة بن حزام . مخطوطة الشنقيطى بدار الكتب المصرية
» » » الورد . الوهبية ١٢٩٣
» عمر بن أبي ربيعة . الميمنية ١٣١١
» » » » ، بشرح محمد محيي الدين . السعادة ١٣٧١
» عنترة . الرحمانية بالقاهرة
» الفرزدق . الصاوى ١٣٥٤
» القطامى . برلين ١٩٠٢ م
» قيس بن الخطيم . ليبسك ١٩١٤ م
» ابن قيس الرقيات . ڤينا ١٩٠٢ م
» كعب بن زهير . دار الكتب ١٣٦٩
» لبيد . ڤينا ١٨٨٠ ، ١٨٨١
» المتلمس . مخطوطة الشنقيطى بدار الكتب المصرية
» مسلم بن الوليد . ليدن ١٨٧٥ م
» المعانى ، للعسكرى . القاهرة ١٣٥٢
» معن بن أوس . ليبسك ١٩٠٣ م
» النابغة الذبيانى . الوهبية ١٢٩٣
» الهذليين . دار الكتب ١٣٦٩
الرسالة ، للشافعى ، بتحقيق أحمد محمد شاكر . الحلبى ١٣٥٨
زهر الآداب ، للحصرى . الرحمانية ١٩٢٥

سفر الخروج
سمط اللآلئ ، للراجكوتى . لجنة التأليف ١٣٥٤
السيرة لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م
شرح أشعار الهذليين ، للسكرى . لندن ١٨٥٤ م
« الحماسة للتبريزى بتحقيق فريتغ . بون ١٨٢٨ م
« ديوان المتنبي ، للعكبرى . الشرفية ١٣٠٨
« شواهد شروح الألفية ، للعينى (بهامش خزانة الأدب)
« « سيبويه ، للشنتمرى (بهامش كتاب سيبويه)
« « المغنى ، للسيوطى . البهية ١٣٢٢
« القصائد العشر للتبريزى ، بتحقيق محمد الخضر حسين . السلفية ١٣٤٣
« لامية العرب ، للزمخشرى . الجوائب ١٣٠٠
« المفصل ، لابن يعيش . محمد منير
« المفضليات ، للأنبارى ، بتحقيق ليال . بيروت ١٩٢٠ م
شروح سقط الزند ، لجنة أبى العلاء . دار الكتب ١٩٤٥ — ١٩٤٩
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، بتحقيق أحمد شاكر . الحلبى ١٣٧٠
صبح الأعشى ، للقلقشندى . دار الكتب ١٣٤٠
صحيح البخارى . بولاق ١٣١٣
صفة الصفوة ، لابن الجوزى . حيدر أباد ١٣٥٦
الصناعتين ، للعسكرى . صبيح بالقاهرة
صينة فمال ، بحث لجبران النحاس . طبع الإسكندرية ١٤٩٧
الضرائر ، للآلوسى بشرح محمد بهجة الأثرى . السلفية ١٣٤١
الطبقات ، لابن سعد . ليدن ١٣٢٣
طبقات الشعراء ، لابن سلام . السعادة بالقاهرة
العقد الفريد ، لابن عبدربه . الجمالية ١٣٣١ و لجنة التأليف ١٣٧٠
العمدة ، لابن رشيق . هندية ١٣٤٤

عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٣٤٣
« التواريخ ، لابن شاكر . مخطوطة دار الكتب المصرية
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية القاهرة
فوات الوفيات ، لابن شاكر . بولاق
الكامل ، لابن الأثير . محمد منير ١٣٤٨
« ، للمبرد . ليبسك ١٨٦٤ م
كتاب سيبويه . بولاق ١٣١٦
كشف الظنون ، لحاجى خليفة . تركيا ١٣١٠
الكنايات ، للثعالبي . السعادة ١٣٢٦
اللآلئ = سمط اللآلئ
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠
ليس فى كلام العرب ، لابن خالويه . السعادة ١٣٢٧
مبادئ اللغة ، للإسكافى . السعادة ١٣٢٥
المبهج ، لابن جنى . الترقى بدمشق ١٣٤٨
المثل السائر ، لابن الأثير . الحلبى ١٣٥٨
مجالس ثعلب ، بتحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩
المجتنى ، لابن دريد . حيدر أباد ١٣٤٢
مجلة المقتطف . القاهرة
مجلة الهدى النبوى . القاهرة
مجمع الأمثال ، للميدانى . البهية ١٣٤٢
المجمل ، لابن فارس . القاهرة ١٣٣١
مجموعة المعانى ، لم يعلم مؤلفه . الجوائب ١٣٠١
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦
مختارات ابن الشجرى . العامرة ١٣٠٦
مختلف القبائل ومؤتلفها ، لابن حبيب . جوتنجن ١٨٥٠ م

المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨
المزهر ، للسيوطى . الحلبى ١٣٦١
المصاحف ، للسجستانى ، تحقيق الدكتور أرثر جفرى . الرحمانية ١٣٥٥
المعارف ، لابن قتيبة . الإسلامية ١٣٥٣
معاهد التنصيص ، للعباسى . البهية ١٣١٦
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣ ، ومرجليوث
« البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣
« الشعراء ، للمرزبانى . القدسى ١٣٥٤
« الفارسى الإنجليزى ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م
« ما استعجم ، للبكرى . بتحقيق مصطفى السقا . لجنة التأليف ١٣٦٤
المعرب ، للجواليقى ، دار الكتب ١٣٦١
المعمرين ، للسجستانى . السعادة ١٣٢٣
المغنى ، لابن هشام . التقدم ١٣٤٨
المفضليات ، شرح وتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٦١
مقاييس اللغة ، لابن فارس بتحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٦٨
المؤتلف والمختلف ، للآمدى . القدسى ١٣٥٤
الموشح ، للمرزبانى . السلفية ١٣٤٣
النقائض ، رواية أبى عبيدة . ليدن ١٩٠٥ م
نقد الشعر ، لقدامة . الجوائب ١٣٠٢
نكت الهميان ، للصفدى . القاهرة ١٩١٠ م
نهاية الأرب ، للنويرى . دار الكتب ١٣٤٢
النوادر ، لأبى زيد . بيروت ١٨٩٤
نوادر المخطوطات ، بتحقيق عبد السلام هارون . التأليف والسعادة
الهاشميات ، من شعر الكميت . شركة التمدن ١٣٣٠
همع الهوامع ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٧

الوحشيات ، لأبى تمام . مصورة دار الكتب ٢٢٩٧
الوزراء والكتاب ، للجهشيارى . الحلبى ١٣٥٧
الوساطة ، للجرجانى . صيدا ١٣٣١
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠
وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ، بتحقيق عبد السلام هارون . عيسى الحلبى ١٣٦٥

تفسير بعض الإشارات إلى المراجع

ابن الأثير = الكامل
الأمثال = مجمع الأمثال
الجمحى = طبقات الشعراء
ابن جنى = التنبيه
الجهشيارى = الوزراء والكتاب
الدميرى = حياة الحيوان
ابن سلام = طبقات الشعراء

السمعانى = الأنساب
الشنتمرى = شرح شواهد سيبويه
الطبرى = تاريخ الطبرى
العينى = شرح شواهد شروح الألفية
المرزبانى = معجم الشعراء
الميدانى = مجمع الأمثال



استدراك وتعليق

استدراك وتعليق

١ — ص ٢٢ — ٢٣ من المقدمة « نسخة روان كشك ، هذه النسخة قد أسقطناها من أصول التحقيق وضربنا عنها صفحا لرداءتها وحداثتها ، واستبدلنا بها نسخة « لاله لى » ، وهى نسخة عتيقة جيدة كتبت فى سنة ٥٨٨ ، من مجلوبات معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وهى التى رمزنا إليها فى الحواشى برمز « ل » . وانظر ما كتبناه فى حواشى ص ٧٢٠ .

٢ — ص ٢٥ س ٢ « فى رِخوِه » ، وكذا فى ص ٩٢٤ . الأجود ما ورد فى نسخة م ، أى « فى رِخوَةٍ » . يؤيده ما جاء من قول عمارة بن عقيل ص ١٤٣٢ :

وأما إذا آنست أمناً ورِخوةً   فإنك للقربى ألدُّ خصومُ

٣ — ص ١٩٦ س ٣ . صحة كتابة البيت :

قاتلى القوم بإخزاع ولا   يدخلكم من قتالهم فشل

٤ — ص ٢٩٢ س ١٤ « وقال آخر » . فى حماسة البحترى ٣٨٦ أنه عدى بن عدى النبهانى .

٥ — ص ٣٣٥ س ٦ من الحواشى « وكان سراة القيم رهط جساس » كذا جاءت رواية البيت عند التبريزى وكذا فى ديوان جرير ص ٣٢٧ . وفيه قبض « فعولن » بحذف آخره الساكن . وهو جائز فى بحر الطويل أينما كان .

٦ — ص ٣٦٥ س ٨ « وقال آخر » . فى حماسة البحترى ص ٢ أنه « معقل بن جوشن الأسدى » .

٧ — ص ٤٠٧ س ١٧ « وقال آخر » فى حماسة البحترى ٢٠٧ أنه « طرفة » . على أنه لم يُرْوَ فى ديوانه .

٨ — ص ٤١٤ س ٩ « فحل مكانا » هذا ما فى نسخة الأصل . وفى ل والتبريزى : « فحل مقاما » ، وهو المتساوق مع الشرح .

٩ — ص ٤٧٤ س ١١ « الإله » لم يعرض المرزوقى هنا للكلام على ندرة استعمال هذا اللفظ الكريم . وقد عرض له فى الحماسية ٢٦٢ ص ٧٨٤ .

١٠ — ص ٤٨٥ س س ١٣ « بآل الرباب » ، علق التبريزى على ذلك بقوله : « الرباب بفتح الراء : اسم المرأة ، وبكسرها اسم القبيلة » .

١١ — ص ٤٩٨ وقع اضطراب فى ترتيب حواشى هذه الصفحة والصفحتين التاليتين لها ، ففى س ١٤ صواب الرقم هو (٣) وفى س ١٥ صواب الرقم (٤) . وعلى ذلك فالحاشية الأولى من ص ٤٩٩ هى لرقم (٤) المصحح من ص ٤٩٨ . والحاشية الأولى من ص ٥٠٠ هى لرقم (٤) من ص ٤٩٩ .

١٢ — ص ٥٩٨ س١٠ وقع عن غير قصد ضبط كلمة « يقدر » بفتح الدال ، وقد صادفت صوابا ؛ ففى مادة (قدر) من القاموس : « والفعل كضرب ونصر وفرح » .

١٣ — ص ٦٢٩ س ١ من الحواشى . هذه المقطوعة التى رواها التبريزى ستأتى عند المرزوقى برقم ٢٥٣ ص ٧٥٠

١٤ — ص ٦٦٠ س ١٣ « قال نوال » نسبت هذه الحماسية فى معجم المرزبانى ٤٠٧ إلى « معدان بن عبيد الطائى » .

١٥ — ص ٦٤٩ س ١٢ هذه الحماسية أجابه عليها عبد الرحمن بن الحكم بالحماسية ٦٣٤ . انظر الطبرى (٧ : ٣٢) .

١٦ — ص ٦٥٠ س ٩ «على الهوَى» كذا ورد فى النسختين والتبريزى . فلعل المراد : على ما نهوى . والأجود ما ورد فى آخر الحماسية ٦٣٢ ص ١٤٩٦ : « على الهُدَى » .

١٧ — ص ٧٢٤ س ٣ وص ٤٩٠ س ١١ « عقيرته لايا » كذا وردت فى النسختين ، مع ظهور الهمزة فى كلمة «لأيا» بنسخة الأصل . والرواية عند الزمخشرى

فى شرحه للامية العرب ص ٥٥ : « عقيرته لأيِّها حُمَّ أوّلُ » .

١٨ — ص ٩٢٤ س ١٤ انظر ما سبق فى الاستدراك رقم « ١٦ » .

١٩ — ص ١٠٢١ س ٩ « ترشحت لسير » هذا ما فى نسخة الأصل ، وهو خطأ ، والصواب « لستر » ، كما فى نسخة « ل » .

٢٠ — ص ١٠٩٨ س ١٧ سقط فى الطبع قبل كلة «ومنه إطنابة» ، هذه العبارة : « وأطناب البيوت : حبالها » .

٢١ — ص ١١٣٤ س ١٢ « الدهر انتصب على أنه بدل من الدهر » فيه سقط مطبعى . والعبارة بتمامها : « الدهر انتصب على الظرف وما دمنا انتصب على أنه بدل من الدهر » .

٢٢ — ص ١٢٣٠ س ١٥ — ١٦ صواب العبارة : « والرفيف كثرة الماء فى النبات ونضارتها » .

٢٣ — ص ١٢٥٤ س ٧ « ويلك » هذه رواية نسخة الأصل . والصواب « ويحك » كما فى ل والتبريزى . والشرح على هذه الرواية الأخيرة .

٢٤ — ص ١٣٤٥ س ١١ رقم الحاشية (٥٤٣) هذا الرقم تكرار لما قبله ، وقد وقع فيه السهو مع شدة الحرص .

٢٥ — ص ١٤٩٢ س ٤ « تبصر القذاة .. » . أصل هذا المثل من كلام عيسى عليه السلام . فنى إنجيل متى ٧ : ٣ — ٤ : « ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها . أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك » . وفى إنجيل لوقا ٦ : ٤١ ، ٤٢ « لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها . أو كيف تقدر أن تقول لأخيك يا أخى دعنى أخرج القذى الذى فى عينك وأنت لا تنظر الخشبة التى فى عينك » . وانظر ما سبق فى حواشى ص ١٤٩٠ .

٢٦ — ص ١٥٠٦ س ٢ من الحواشى . تقدمت الحاشية الثانية على الحاشية الأولى .

٢٧ — ص ١٥٣٩ س ١٣ « وقد حذف صلته » كذا وردت العبارة فى النسختين . والمراد : حذف صدر صلته .

٢٨ — ص ١٥٧٢ س ٢ « آخر » . فى التنبيه لابن جنى أن اسمه « مشمت بن عبدة » .

٢٩ — ص ١٦٢١ س ١ من الحواشى « الليثى » كذا وردت الكلمة فى شرح التبريزى ، وليس لهذه الكلمة علاقة بالنسب كما يظهر من تتبع السلسلة ، والوجه « الديلى » كما وردت هذه النسبة فى الأغانى (١٤ : ٧٧ — ٧٨) وهى نسبة إلى « الديل بن بكر » . وقد سقط من الطبع كلمة « بن كنانة » بين « عبد مناة » و « بن خزيمة » .

٣٠ — ص ١٧٦٥ س ٧ من الحواشى . ما فى الأصل ، أى « تتحامى » هو الصواب . وما أثبت من الصلب من ل خطأ لايتسق مع نص الشعر .

٣١ — ص ٢٠٢٧ نهاية العمود الأول ، سقط رقم كلمة «ضار» وهو ١٨٣٣.

٣٢ — ص ١٩٨٤ العنوان هو « فهرس الأرجاز (الشواهد) » .

٣٣ — فاتنا أن نلحق بفهرس اللغة بيان الكلمات التى ليست فى المعاجم المتداولة ، وهى :

بسط : الناقة البسيطة ١٠٢٥
جرى : جاراه كذا ٣
حصل : يُحْصِلُهم ، يُحَصِّلهم ٦٨٥
حندس : حندَسَ فهو مُحندِس ٢٨٣
خرف : أخرّفه ١٧١٩
دسس : الداسوس ٤٤٥
رزح : قوم رِزَاح ٤٦٥

سحح : أرضٌ سَحَاح ٨٥٥
سمن : السُّمنة ١٢٦٢ ، ١٤٣٦
ضرج : الضَّرْج ، الضَّرَج ٧٥١
طنز : القطُنز ٣٠٩
عرف : مَعْرِف ١٠٦
قد : قد لا ٥٧
قزم : القُزْمان ١٤٦٣
كنس : ظبى كَنِسٌ ٤٩٦

مضامين الكتاب

مؤلفات وتحقيقات عبد السلام هارون

آمالي الزجاجي ــ مجلد	الزجاجي
الأساليب الانشائية في النحو العربي	
الألف المختارة من صحيح البخاري ١/٢	
الاشتقاق ١/٢	الامام ابن دريد
البيان والتبيين ١/٤ ــ مجلد	الجاحظ
البرصان والعرجان والعميان والحولان	الجاحظ
تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب ــ مجلد	
الحيوان ١/٨ ــ مجلد	الجاحظ
شرح ديوان الحماسة ١/٤	المرزوقي
الكتاب ١/٥	سيبويه
العثمانية	الجاحظ
فهارس المخصص	ابن سيده
مجموعة المعاني	
مجموعة رسائل الجاحظ ١/٤	

معجم مقاييس اللغة ١/٦	ابن فارس
المفضليات الخمس	
همزيات أبي تمام	
وقعة صفين	ابن مزاحم



